المطلب الأول

معاني التوحيد بين وصف الغنى والكمال ووصف الافتقار إلى رب العزة والجلال

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فإن عقيدة أهل السنة والجماعة في توحيد الربوبية قائمة على أن وصف الغنى والكمال، وصف ذاتي انفرد به رب العزة والجلال، وأن وصف الحاجة والافتقار، وصف ذاتي لكل مخلوق على وجه الاضطرار.

- **توحيد الربوبية وإثبات الغنى والكمال لرب العزة والجلال.**

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥﴾ فاطر:١٥.

بين الله سبحانه في هذه الآية أن فقر العباد إليه أمر ذاتي لهم، لا ينفك عنهم، كما أن كونه غنيا حميدا، وكونه محمودا على عطائه الدائم وصف ذاتي له، فغناه وحمده ثابتان له لذاته بحكم معاني الربوبية، لا لعلة أو سبب أوجب ذلك الغنى، وفقر من سواه إليه فقر ذاتي ثابت لذاته بحكم معاني العبودية، لا لأمر أوجب ذلك الفقر، فلا يعلل فقر الخلائق إليه بدليل حدوث أو إمكان، كما هو حال

المتكلمين والفلاسفة، بل هو فقر ذاتي لكل مخلوق من يوم أن خلقه الله ﷻ، فحاجة العبد إلى ربه أمر ذاتي يمثل فطرة العبودية، لا لعلة أوجبت تلك الحاجة، كما أن غنى الرب سبحانه أمر ذاتي يمثل وصف الربوبية، لا لأمر أوجب غناه، كما قال ابن تيمية:

والفقر لي وصف ذات لازم أبدا :
كما الغنى أبدا وصف له ذاتي[١].

وينبغي أن يعلم أن كل ما يذكر ويقرر من أسباب الفقر والحاجة

---

(١) طريق الهجرتين لابن القيم ص٢٢، نشر دار ابن القيم الدمام. وهذه الأبيات للشيخ تقي الدين بن تيمية رحمه الله، وجدت بخطه في القاعة التي مات فيها مكتوبة بفحم بخطه رحمه الله:

أنا الفقير إلى رب السماوات	أنا المسكين في مجموع حالاتي
أنا الظلوم لنفسي وهي ظالمتي	والخير إن جاءنا من عنده آتي
لا أستطيع لنفسي جلب منفعة	ولا عن النفس في دفع المضرات
وليس لي دونه مولى يدبرني	ولا شفيع إلى رب البريات
إلا بإذن من الرحمن خالقنا	هو الشفيع كما جاء في الآيات
ولست أملك شيئا دونه أبدا	ولا شريكا له في بعض ذراتي
ولا ظهير له مما يعاونه	كما يكون لأرباب الملمات
والفقر لي وصف ذات دائم أبدا	كما الغنى أبدا وصف له ذاتي
وهذه الحال حال الخلق أجمعهم	وكلهم عنده عبد له آتي
فمن بغى مطلبا من دون خالقه	فهو الظلوم الجهول المشرك العاتي
والحمد لله مالك الكون أجمعه	بما كان فيه وما من بعده آتي

انظر العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية لابن عبد الهادي ص٣٩١، نشر دار الكتاب العربي بيروت، تحقيق محمد حامد الفقي، وحاشية كتاب نصيحة أهل الحديث للخطيب البغدادي ص٤٩، نشر مكتبة المنار، الزرقاء، تحقيق عبد الكريم أحمد الوريكات.

في حق المخلوق هي أدلة على الفقر والحاجة، وليست علة لذلك، إذا ما بالذات لا يعلل، فالفقير بذاته محتاج إلى الغني بذاته، فما يذكر من أدلة الإمكان والحدوث والاحتياج فهي أدلة على الفقر، لا أسباب له[1].

والغني بذاته هو الذي لا تعلق له بغيره، لا في ذاته ولا في صفاته، بل يكون منزها عن علاقة الاحتياج للغير، فمن تتعلق ذاته أو صفات ذاته بأمر خارج عن ذاته، بحيث يتوقف عليه وجوده أو كماله فهو فقير محتاج إلى اكتساب الكمال.

ولا يتصور ذلك لله سبحانه وتعالى، فالله ﷻ هو الذي يغني من سواه، والذي أغناه لا يتصور أن يصير بإغناء الله غنيا مطلقا، فإن أقل أموره أنه محتاج إلى من أغناه، فلا يكون غنيا، بل يستغني عن غير الله، بأن يمده بما يحتاج إليه، لا بأن يقطع عنه أصل الحاجة. والغني الحقيقي هو الذي لا حاجة له إلى أحد أصلا، أما الذي يحتاج ومعه ما يحتاج فهو غني زائل، ولما لم يكن له حاجة إلا إلى الله تعالى سمي غنيا. ولو لم يبق للمخلوق الغني أصل الحاجة لما صح قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ فاطر:١٥.

ولولا أنه يتصور أن يستغني المخلوق عن كل شيء سوى الله ﷻ لما صح لله وصف الإغناء لغيره في قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾﴾ النجم:٤٨.

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن

(١) انظر بتصرف طريق الهجرتين لابن القيم ص٢٣.

شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ التوبة:٢٨. وغير ذلك من الآيات [١].

• **إذا أيقن العبد بفقره الذاتي رأى نفسه مملوكا لله الغني.**

والمؤمن الصادق إذا عرف قدره وتحقق من صفته، ولم يخرج عن موطن فقره بأن يبقى على فطرته متقلبا في معاني الفقر الذاتي، لن يقع في رعونة النفس وجهالتها، ولن يمكّن لها رغبتها أن تتشبه بربها في وصف الغنى الذاتي، أو تنازع الله في اسمه الغني. وإذا أيقن العبد بفقره الذاتي رأى نفسه مملوكا لله الملك الغني، ولا يرى نفسه مالكا بوجه من الوجوه إلا من جهة الأمانة والحكم الشرعي، ويرى أعماله مستحقة عليه بمقتضى فقره الذاتي، واحتياجه إلى الله الغني وكونه مملوكا عبدا مستعملا فيما أمره به سيده، فنفسه مملوكة وأعماله مستحقة بموجب العبودية، فليس مالكا لنفسه، ولا لشيء من بدنه، ولا لشيء من أعماله، بل كل ذلك مملوك لله بتوفيقه ومعونته.

ولله المثل الأعلى ويجوز في حقه قياس الأولى، فمثل العبد الموقن بفقره الذاتي كرجل اشترى عبدا بخالص ماله، ثم علمه بعض الصنائع، فلما تعلمها قال له: اعمل وأد إليّ، فليس لك في نفسك ولا في كسبك شيء، فلو حصل بيد هذا العبد من الأموال والأسباب ما حصل، لم ير له فيها شيئا بل يراه كالوديعة في يده، وأنها أموال سيده وخزائنه، ونعمة بيد عبده مستودعا متصرفا فيها لسيده لا لنفسه [٢].

---

(١) انظر بتصرف المقصد الأسنى لأبي حامد الغزالي ص١٤٤، نشر الجفان والجابي قبرص، ١٤٠٧هـ .

(٢) انظر بتصرف طريق الهجرتين لابن القيم ص٢٨.

وقد كان شأن النبي ﷺ فيما خوله الله ﷻ واستأمنه واسترعاه أنه قاسم يضع الدنيا حيث أمره ربه. روى البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (ما أُعْطِيكُم، ولا أَمنعُكُم، إنما أنا قاسِم، أَضَعُ حَيْث أُمرت) [(١)].

لقد كان النبي ﷺ متصرفا في تلك الخزائن بالأمر التكليفي طاعة لسيده، فالله ﷻ هو المالك الحق، وكل ما بيد خلقه هو من أمواله وأملاكه وخزائنه، أفاضها عليهم ليمتحنهم في البذل والعطاء، والبخل والإمساك، هل يكون ذلك منهم على إقرار بتوحيد العبودية لله ﷻ، فيبذل أحدهم الشيء رغبة في ثوابه ورهبة من عقابه وتقربا إليه وطلبا لمرضاته، أم يكون البذل والإمساك منهم صادرا عن مراد النفس وغلبة الهوى وموجب الطبع؟ فيعطي لهواه، ويمنع لهواه، فيكون متصرفا تصرف المالك لا المملوك، فيكون مصدر تصرفه الهوى، ومراد النفس، وغايته الرغبة فيما عند الخلق من جاه، أو رفعة، أو منزلة، أو مدح، أو حظ من الحظوظ، أو الرهبة من فوت شيء من هذه الأشياء. وإذا كان مصدر تصرفه وغايته هو هذه الرغبة والرهبة، رأى نفسه لا محالة مالكا غنيا، مستغنيا طاغيا، فادعى الملك، وخرج عن حد العبودية ونسي فقره [(٢)].

ولو عرف نفسه حق المعرفة لعلم أنما هو مملوك ممتحن في صورة

---

(١) رواه البخاري في كتاب الخمس، باب قول الله تعالى: فأن لله خمسه وللرسول، ٣/١١٣٤ (٢٩٤٩).

(٢) طريق الهجرتين لابن القيم ص٢٩ بتصرف.

مستخلف متصرف، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾ الأنعام:١٦٥. وقال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ يونس:١٤.

وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾ فاطر:٣٩.

وينبغي أن يعلم أن خزائن الله ﷻ لا تنفذ، وأنه مهما بلغ المخلوق في غناه، فهو بذاته فقير إلى الله، لأنه سبحانه المنفرد بالخلق والتقدير، والملك والتدبير، فهو المالك لكل شيء، والمتصرف بمشيئته في خلقه أجمعين، يعطي من يشاء ما يشاء من فضله، عطاؤه لا يمتنع، ومدده لا ينقطع، وخزائنه ملأى لا تنفد.

روى البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (يَدُ اللهِ ملأَى، لاَ يَغِيضُهَا نفقة سَحَّاء اللَّيْل وَالنهَار، أرأيْتم ما أَنفق منذ خَلق السَّماوَات وَالأرضَ، فإِنهُ لم يَغِضْ ما في يَدهِ، عَرشُهُ عَلى الماءِ، وَبِيَدِهِ الأخْرى الميزَان يَخْفضُ وَيَرفعُ)[1].

ومن ثم فإن الغني بذاته على سبيل الإطلاق والقيام بالنفس هو الله

---

(١) رواه البخاري في التوحيد، باب قول الله تعالى: لما خلقت بيدي ٦/٢٦٩٧ (٦٩٧٦). ومسلم في كتاب الزكاة، باب الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف ٢/٦٩١ (٩٩٣). ومعنى لا يغيضها أي لا ينقصها نفقة، ومعنى سحاء أي كثرة السح والعطاء، وهو إنزال الخير المتواصل، انظر فتح الباري ١٣/ ٣٩٥.

ﷻ، وليس ذلك لأحد سواه، فهو الغني بذاته عن العالمين، والمستغني عن الخلائق أجمعين، وهذا موجب لتوحيده بالربوبية.

- **توحيد العبودية ووصف الحاجة والافتقار.**

إن الحاجة إلى الغير إذا بلغت حد الاضطرار فهي تعبد وخضوع وذل وافتقار، وقد اقتضت حكمة رب العزة والجلال أن يكون توحيد العبودية مرتبطا بوصف الحاجة والافتقار كوصف ذاتي لكل مخلوق على وجه الاضطرار، فيوجب ذلك الاستغناء برب العزة والجلال والتوجه إليه وحده لا شريك له، وهذا ما يسمى بدليل الفطرة وعلة احتياج العالم إلى الله عن السلف الصالح. قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ١٥﴾ فاطر:١٥.

وقال سبحانه: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ٩٣ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ٩٤﴾ مريم:٩٣/٩٤.

ومعلوم أن جميع الخلائق محتاجون إلى الله ﷻ في كل نفس وخطرة ولحظة، وكيف لا، ووجودهم به، وبقاؤهم في الدنيا والآخرة بإبقائه! والله ﷻ لم يسمهم بالفقراء في الآية تحقيرا لشأنهم، بل لدعوتهم إلى الاستغناء به، وعدم الاستغناء بأنفسهم، ولهذا وصف نفسه بالغنى الذاتي الذي يطعِم غيره ولا يطعَم، فيطعم سائر الناس أغنياء كانوا أو فقراء. قال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٤﴾ الأنعام:١٤.

واقترن اسم الغني بالحميد ليدلل على أنه سبحانه هو الغني الذي

يرزق بغناه سائر خلقه، وأنه الجواد الذي ينعم عليهم بجوده وكرمه، إذ ليس كل غني نافعا بغناه إلا إذا كان الغني محسنا كريما جوادا معطيا حميدا، ولما كان الله عز وجل الغني بذاته قد خلق الخلائق فقراء بذواتهم، وأنهم في فقرهم لا حول لهم ولا قوة إلا به سبحانه، فإنه خلقهم فأوجدهم وأمدهم بما يكفي لقضاء حوائجهم، فقضى سبحانه أنه لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها، وأن رزقها في الدنيا مرتب على حكمته سبحانه في تقليب الأسباب ومعاني الابتلاء؛ وأن آخر رزقه من الدنيا يعقبه أول رزقه من الآخرة، وهو مرتب على حكمته سبحانه في إظهار معاني الجزاء[1].

وإذا أيقن العبد بأن الخلق والأمر لله اطمأن قلبه إلى أن حوائجه ستقضى، وأنه لا بد من وصول الرزق إليه في وقته، كما لا بد من بلوغه أجله في موعده، فلم يكن عليه إلا مراعاة أحكام العبودية، وتمييز الحلال من الحرام وفق التوجيهات الشرعية.

روى ابن ماجه وصححه الشيخ الألباني من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (أَيهَا الناسُ اتقوا اللهَ وَأَجملوا في الطَّلَبِ، فإِن نفسًا لن تموت حَتى تستَوْفِي رِزْقهَا وَإِن أَبْطَأَ عَنهَا، فاتقوا اللهَ وَأَجملوا في الطَّلَبِ، خُذوا ما حَل وَدَعُوا ما حَرم)[2].

---

(١) انظر بتصرف إغاثة اللهفان لابن القيم ص٤٠ نشر دار المعرفة، بيروت.

(٢) رواه ابن ماجه في كتاب التجارات، باب الاقتصاد في طلب المعيشة ٢/٧٢٥ (٢١٤٤)، وصححه الشيخ الألباني. انظر صحيح الترغيب والترهيب (١٦٩٨)، والسلسلة الصحيحة (٢٦٠٧)، ومشكاة المصابيح (٥٣٠٠).

ولذلك فإن الناس مفطورون على توحيد العبادة لله؛ لأن اعتمادهم على الغني بذاته يوجب لهم النفع والأمن والأمان، ويشعرون في القرب من ربهم بالسكينة والاطمئنان.

أما اعتماد العبد على المخلوق، وتوكله عليه، فيوجب له الضرر من جهته، لأن فقيرا بذاته اعتمد على مثله، وكذلك كل ما أمله من المخلوق في قضاء حاجته، فلا بد أن يخذل إلا من جهة ما أجرى الله على أيدي الأحياء من الأسباب، لأن فقيرا بذاته اعتمد في قضاء حاجته من فقير معدم مثله، لا يملك شيئا في حقيقة أمره. وهذا ثابت بالقرآن والسنة ومعلوم بالاستقراء والتجارب [1].

قال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ ﴾ مريم: ٨١/٨٢.

وقال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَهُمۡ وَهُمۡ لَهُمۡ جُندٞ مُّحۡضَرُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ يس: ٧٤/٧٥.. أي يغضبون لهم، ويحاربون كما يغضب الجند ويحارب عن أصحابه وهم لا يستطيعون نصرهم بل هم كل عليهم.

وقال تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ﴿١٠١﴾ ﴾ هود: ١٠١. أي غير تخسير، وقال تعالى: ﴿ فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ ﴾ الشعراء: ٢١٣. وقال تعالى: ﴿ لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا

---

(١) إغاثة اللهفان ص٤٠ بتصرف.

ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا ﴿٢٢﴾ [الإسراء:٢٢]. فإن المشرك يرجو بشركه النصر تارة، والحمد والثناء تارة، فأخبر سبحانه أن مقصوده ينعكس عليه، ويحصل له الخذلان والذم[(١)].

• الباعث لفعل المخلوق فقره وعبوديته أما الخالق فليس كذلك.

إن صلاح العبد وفلاحه في الافتقار إلى الغني بذاته، ودعائه وطلب حوائجه منه وعبادته والاستعانة به، وهلاك العبد وشقاؤه وضرره العاجل والآجل في عبادة المخلوق والاستعانة به، وهذا هو حقيقة توحيد العبودية ووصف الافتقار إلى رب العزة والجلال.

والله سبحانه وتعالى غني كريم، عزيز رحيم، محسن إلى عبده لعلمه أنه فقير بذاته، وأنه لا غني لذاته إلا هو سبحانه، ومن ثم يريد به الخير، ويكشف عنه الضر، لا لجلب منفعة إليه من العبد، ولا لدفع مضرة، بل رحمة منه وإحسانا، ولطفا وإنعاما، فهو سبحانه لم يخلق خلقه ليتكثر بهم من قلة، ولا ليعتز بهم من ذلة، ولا ليرزقوه ولا لينفعوه، ولا ليدفعوا عنه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات:٥٦/٥٨].

وقال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ﴿١١١﴾﴾ [الإسراء:١١١]. فهو سبحانه لا يوالى من يواليه من الذل كما يوالى المخلوق المخلوق، وإنما يوالي أولياءه

---

(١) السابق ص٤١ بتصرف.

إحسانا ورحمة ومحبة لهم.

وأما العباد فإنهم كما قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ﴾ محمد:٣٨. فهم لفقرهم وحاجتهم إنما يحسن بعضهم إلى بعض لحاجته إلى ذلك، وانتفاعه به عاجلا أو آجلا، ولولا تصور ذلك النفع لما أحسن إليه، فهو في الحقيقة إنما أراد الإحسان إلى نفسه، وجعل إحسانه إلى غيره وسيلة وطريقا إلى وصول نفع ذلك الإحسان إليه، فإنه إما أن يحسن إليه لتوقع جزائه في العاجل، فهو محتاج إلى ذلك الجزاء، أو معاوضة بإحسانه، أو لتوقع حمده وشكره[(١)].

وهو أيضا إنما يحسن إليه ليحصل منه ما هو محتاج إليه من الثناء والمدح، فهو محسن إلى نفسه بإحسانه إلى الغير، وإما أن يريد الجزاء من الله تعالى في الآخرة، فهو أيضا محسن إلى نفسه بذلك، وإنما أخر جزاءه إلى يوم فقره الأعظم وفاقته الأعلى فهو غير ملوم في هذا القصد، فإنه فقير محتاج وفقره، وحاجته أمر لازم له من لوازم ذاته، فكماله أن يحرص على ما ينفعه ولا يعجز عنه [(٢)].

وقال تعالى: ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ ﴾ الإسراء:٧.

وقال سبحانه: ﴿ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن

(١) السابق ص٤١ بتصرف.

(٢) السابق ص٤١ بتصرف.

﴿يَشَآءُۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ٢٧٢﴾ البقرة: ٢٧٢.

وعند مسلم من حديث أبي ذر الغفاري ﷺ أن النبي ﷺ قال فيما روى عن الله تبارك وتعالى: (يا عِبادِي كُلكُم ضَال إلا من هَدَيْتهُ فاستهدوني أَهْدِكم، يا عِبادِي كُلكم جائِعٌ إلا من أَطْعَمتهُ فاستطعموني أُطْعِمكُم، يا عِبادِي كُلكم عَار إلا من كَسَوْتهُ فاستكسوني أَكسُكم، يا عِبادِي إنكم تخْطِئُون بالليْل وَالنهَار، وأنا أَغْفر الذنوبَ جميعا فاستغفروني أَغْفر لكُم، يا عِبادِي إنكم لن تبْلغُوا ضَري فتضرُوني، وَلن تبْلغُوا نفعِي فتنفعُوني، يا عِبادِي لو أَن أَوَّلكُم وَآخِرَكم وَإنسَكُم وَجنكم كَانوا على أَتقى قلبِ رجل وَاحِدٍ منكم، ما زَادَ ذلك في ملكِي شيئا، يا عِبادِي لو أَن أَوَّلكُم وَآخِرَكم وَإنسَكُم وَجنكم كَانوا على أَفجر قلبِ رجل وَاحِدٍ، ما نقصَ ذلك من ملكِي شيئا، يا عِبادِي لو أَن أَوَّلكُم وَآخِرَكم وَإنسَكُم وَجنكُم قاموا في صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فسَأَلوني، فأَعْطَيْت كُل إنسَان مسْأَلتهُ، ما نقصَ ذلك مما عِندِي إلا كما ينَقصُ المخيْطُ إذا أُدْخِلَ البَحْرَ، يا عِبادِي إنما هِيَ أَعْمالكُم، أُحْصِيهَا لكُم، ثم أُوَفيكُم إِيَّاهَا، فمن وَجدَ خَيْرًا فليَحْمدْ اللهَ، وَمَن وَجدَ غير ذلك فلا يَلومن إلا نفسَهُ) [١].

إن المخلوق لا يقصد منفعتك بالقصد الأول، بل إنما يقصد انتفاعه بك، والرب تعالى إنما يريد نفعك لا انتفاعه به، وذلك منفعة محضة لك، خالصة من المضرة، بخلاف إرادة المخلوق نفعك، فإنه قد

---

(١) رواه مسلم في البر والصلة والأدب، باب تحريم الظلم ١٩٩٤/٤ (٢٥٧٧).

يكون فيه مضرة عليك، ولو بتحمل منته. فتدبر هذا فإن ملاحظته تمنعك أن ترجو المخلوق، أو تعامله دون الله ﷻ إلا بما شرع الله، أو تطلب منه نفعا أو دفعا إلا بما شرع الله لك، أو تعلق قلبك به فإنه إنما يريد انتفاعه بك، لا محض نفعك [(١)].

وهذا حال الخلق كلهم بعضهم مع بعض، وهو حال الولد مع والده، والزوج مع زوجه، والمملوك مع سيده، والشريك مع شريكه، فالسعيد من عاملهم لله تعالى لا لهم، وأحسن إليهم لله تعالى، وخاف الله تعالى فيهم، ولم يخفهم مع الله تعالى، ورجا الله تعالى بالإحسان إليهم، ولم يرجهم مع الله، وأحبهم لحب الله، ولم يحبهم مع الله تعالى، كما قال عن أولياء الله ﷻ:

﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾ الإنسان:٨/١٢.

واعلم أن غالب الخلق إنما يريدون قضاء حاجاتهم منك، وإن أضر ذلك بدينك ودنياك، فهم إنما غرضهم قضاء حوائجهم ولو بمضرتك، والرب تبارك وتعالى إنما يريدك لك ويريد الإحسان إليك لك لا لمنفعته ويريد دفع الضرر عنك، فكيف تعلق أملك ورجاءك وخوفك بغيره.

وجماع هذا أن تعلم أن الخلق كلهم فقراء بذواتهم، وأنهم لو

---

(١) إغاثة اللهفان لابن القيم ص٤٢ بتصرف.

اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا كلهم على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله تعالى عليك[١].

قال الله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٥١﴾ التوبة: ٥١ .

- **دليل الفطرة علة احتياج العباد إلى الله عند السلف.**

لقد فطر الله الخلائق على حقيقة الفقر الذاتي، والاحتياج الفعلي إلى الله ﷻ الغني الموصوف بالغنى الذاتي من جميع الوجوه، فهم فقراء بالذات إليه بكل معنى فطري حقيقي واقعي وبكل اعتبار، سواء شعروا بذلك أو لم يشعروا، فالفطرة حاكمة عليهم، ودليل على علة احتياجهم إلى الله، ولكن الموفق منهم هو الذي لا يزال يشاهد فقره في كل حال من أمور دينه ودنياه، ويتضرع في كل وقت إلى الله، ويسأله أن لا يكله إلى نفسه طرفة عين، وأن يعينه على جميع أموره، ويستصحب هذا المعنى في كل وقت، فهذا أحرى بالإعانة التامة من ربه وإلهه، الذي هو أرحم الراحمين[٢].

ويعلم العبد أن ربه غني بذاته، وبجلال أسمائه، وكمال صفاته،

---

(١) السابق ص٤٢ بتصرف .

(٢) انظر بتصرف فتح الرحيم الملك العلام في علم العقائد والتوحيد والأخلاق والأحكام المستنبطة من القرآن للشيخ عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي ص٢٦، تحقيق عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر نشر دار ابن الجوزي، الدمام، السعودية ١٤٢٢هـ.

وجمال أفعاله، فلا يحتاج إلى ما يحتاج إليه خلقه، ولا يفتقر إلى شيء مما يفتقر إليه الخلق، وأنه من غناه تعالى أن أغنى الخلق في الدنيا والآخرة، فأفعاله إحسان فضل، وحكمة وعدل.

وهذه المعني توجبه الفطرة أن الله ﷻ هو ذو الإلوهية، والإلوهية هي الوصف العظيم الذي استحق أن يكون به إلها، بل استحق أن لا يشاركه في هذا الوصف العظيم مشارك بوجه من الوجوه. وأوصاف الإلوهية هي جميع أوصاف الكمال، وأوصاف الجلال والعظمة والجمال، وأوصاف الرحمة والبر والكرم والامتنان، فإن هذه الصفات هي التي يستحق أن يؤله ويعبد لأجلها، فيؤله لأن له أوصاف العظمة والكبرياء، ويؤله لأنه المتفرد بالقيومية والربوبية والملك والسلطان، ويؤله لأنه المتفرد بالرحمة وإيصال النعم الظاهرة والباطنة إلى جميع خلقه، ويؤله لأنه المحيط بكل شيء علما وحكما وحكمة، وإحسانا ورحمة وقدرة، وعزة وقهرا، ويؤله لأنه المتفرد بالغنى المطلق التام من جميع الوجوه، كما أن ما سواه مفتقر إليه على الدوام من جميع الوجوه، مفتقر إليه في إيجاده وتدبيره، مفتقر إليه في إمداده ورزقه، مفتقر إليه في حاجاته كلها، مفتقر إليه في أعظم الحاجات وأشد الضرورات، وهي افتقاره إلى عبادته وحده والتأله له وحده.

والتوحيد هو دين الفطرة لأن الأشياء مفتقرة إلى الخالق لذواتها لا لأمر آخر جعلها مفتقرة إليه، فالفطرة اقتضت أن فقرها لازم لها، لا يمكن أن تكون غير مفتقرة إليه، كما أن غناء الرب وصف لازم له، لا يمكن أن يكون غير غنى، فهو غنى بنفسه لا بوصف جعله غنيا،

وفقر الأشياء إلى الخالق وصف لها معدومة كانت أو موجودة، فإذا كانت معدومة كمطر ينتظر نزوله فإنه مفتقر إلى الخالق ولا يوجد الا بالخالق، وهذا الافتقار أمر معلوم بالعقل والفطرة [(١)].

• التوحيد هو دين الفطرة لأن الأشياء مفتقرة إلى الخالق لذواتها.

والمقصود أن فقر المخلوقات إلى الخالق ودلالتها عليه وشهادتها له أمر فطرى، فطر الله عليه عباده كما فطرهم على الإقرار به بدون براهين عقلية، أو دلالات الأقيسة الشمولية والتمثيلية، فالعلم بأن المحدث لابد له من محدث هو علم فطرى ضروري في كل نفس، وفطرة العبودية تعرف صاحبها على الخالق بدون الفلسفات الكلامية، فإن الإنسانية قد فطرت على ذلك، والناس يعلمون أن هذه المخلوقات الفقيرة بذواتها، وأنها آيات ودلائل على وجود الخالق، وأن هذه طرق فطرية عقلية لا تحتاج إلى جهد في إثباتها، ولذلك جاء بها القرآن واتفق العقل والشرع وتلازم الرأي والسمع.

وما من عبد إلا ويشعر في نفسه أن سعادته تكمن في كمال افتقاره إلى ربه، واحتياجه إليه، وأن يشهد ذلك ويعرفه ويتصف معه بموجب ذلك من الذل والخضوع والخشوع وإلا فالخلق كلهم محتاجون، لكن يظن أحدهم نوع استغناء فيطغى[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ

---

(١) انظر بتصرف فتح الرحيم الملك العلام ص٢٧.

(٢) انظر بتصرف توحيد الإلوهية لابن تيمية ص ٥٠، نشر مكتبة ابن تيمية.

﴿٨﴾ ﴾ العلق:٦/٨. وقال سبحانه: ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ ﴾ فصلت:٥١.

كما السعادة في معاملة الخلق أن تعاملهم من منطلق الفطرة والحاجة والافتقار والعبودية لله وحده، فترجو الله فيهم، ولا ترجوهم في الله وتخافه فيهم ولا تخافهم في الله، وتحسن إليهم رجاء ثواب الله لا لمكافئتهم، وتكف عن ظلمهم خوفا من الله لا منهم، وألا تفعل شيئا من أنواع العبادات والقرب لأجلهم، لا لرجاء مدحهم، ولا خوفا من ذمهم، بل ترجو الله، ولا تخفهم فيما تأتى وما تذر، بل افعل ما أمرت به وإن كرهوه، فمن ضعف اليقين أن ترضى الناس بسخط الله، أو تذمهم على ما لم يؤتك الله، فإن اليقين يتضمن اليقين في القيام بأمر الله وما وعد الله أهل طاعته، ويتضمن اليقين بقدر الله وخلقه وتدبيره، فإذا أرضيتهم بسخط الله لم تكن موقنا لا بوعده ولا برزقه، فإنه إنما يحمل الإنسان على ذلك، إما ميل إلى ما في أيديهم من الدنيا فيترك القيام فيهم بأمر الله لما يرجوه منهم، وإما ضعف تصديق بما وعد الله أهل طاعته من النصر والتأييد والثواب في الدنيا والآخرة (١).

إنك إذا أرضيت الله نصرك ورزقك وكفاك مؤنتهم، فإرضاء الخلق بسخط الله إنما يكون خوفا منهم ورجاءً لهم، وذلك من ضعف اليقين، وإذا لم يقدر لك ما تظن أنهم يفعلونه معك، فالأمر في ذلك إلى الله لا لهم، فإنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فإذا

(١) انظر بتصرف السابق ص٥١.

ذممتهم على ما لم يُقدِّر، كان ذلك من ضعف يقينك، فلا تخفهم، ولا ترجهم، ولا تذمهم من جهة نفسك وهواك، لكن من حمَدَه اللهُ ورسولُه فهو المحمود، ومن ذمه الله ورسوله فهو المذموم [(١)].

والله عز وجل يتولى الصالحين وهو كاف عبده كما قال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ۝٣﴾ الطلاق:٢/٣. فالله يكفيه مؤنة الناس بلا ريب، وأما كون الناس كلهم يرضون عنه، فقد لا يحصل ذلك، لكن يرضون عنه، إذا سلموا من الأغراض، وإذا تبين لهم العاقبة، ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئا، كالظالم الذي يعض على يده ويندم على ضلاله[(٢)].

قال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ۝٢٧ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ۝٢٨ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ۝٢٩﴾ الفرقان:٢٧/٢٩.

إن الإنسان إذا لم يخف من الله اتبع هواه، ولاسيما إذا كان طالبا ما لم يحصل له، فإن نفسه تبقى طالبة لما تستريح به، وتدفع به الغم والحزن عنها، وليس عندها من ذكر الله وعبادته ما تستريح إليه وبه، فيستريح إلى المحرمات، كفعل الفواحش، وشرب الخمر، وقول الزور، والهزل واللعب ومخالطة قرناء السوء وغير ذلك، ولا يستغنى القلب

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٥١/١ بتصرف.

(٢) السابق ٥٢/١ بتصرف.

إلا بعبادة الله تعالى، فإن الإنسان خلق محتاجا إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره، ونفسه مريدة دائما، ولابد لها من مراد يكون غاية مطلوبها لتسكن إليه وتطمئن به، وليس ذلك إلا لله وحده، فلا تطمئن القلوب إلا به. ولا تسكن النفوس إلا إليه. قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٢٢﴾ الأنبياء:٢٢. فكل مألوه سواه يحصل به الفساد، ولا يحصل صلاح القلوب إلا بعبادة الله وحده لا شريك له، فإذا لم تكن القلوب مخلصة لله الدين الخالص، عبدت غيره من الآلهة التي يعبدها أكثر الناس، مما ارتضوه لأنفسهم، فأشركت بالله وعبدت غيره معه، واستعانت بغيره، فتعبد غيره وتستعين به لجهلها بسعادتها التي تنالها بعبادة خالقها وحده والاستعانة به، فبالعبادة له تستغني عن كل معبود آخر، وبالاستعانة به تستغني عن الاستعانة بالخلق جميعا إلا ما أجرى على أيديهم من الأسباب، وإذا لم يكن العبد كذلك كان مذنبا محتاجا، وإنما غناه في طاعة ربه، وهذا حال الإنسان، فإنه فقير محتاج وهو مع ذلك مذنب خطاء، فلابد له من ربه، فإنه الذي يسدى مغافره لعبده، ولابد لعبده من الاستغفار من ذنوبه(١).

قال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ۝١٩﴾ محمد:١٩.

وبالتوحيد يقوى العبد ويستغني، ومن سره أن يكون أقوى الناس

---

(١) انظر بتصرف توحيد الإلوهية لابن تيمية ص ٥٥.

فليتوكل على الله، وبالاستغفار يغفر له ويدفع عنه عذابه.

قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ الأنفال:٣٣.

ولا يزول فقر العبد وفاقته إلا بالتوحيد، فإنه لابد له منه، وإذا لم يحصل له لم يزل فقيرا محتاجا معذبا في طلب ما لم يحصل له، والله تعالى لا يغفر أن يشرك به، وإذا حصل مع التوحيد الاستغفار حصل له غناه وسعادته، وزال عنه ما يعذبه، فالعبد مفتقر دائما إلى التوكل على الله والاستعانة به كما هو مفتقر إلى عبادته، فلابد أن يشهد دائما فقره إلى الله، وحاجته في أن يكون الله معبودا له وأن يكون معينا له، فلا حول ولا قوة إلا بالله، ولا ملجأ من الله إلا إليه(١).

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾ آل عمران:١٧٥. أي يخوفكم بأوليائه.

وحقيقة الغنى في حقنا تتمثل في قلة الاحتياج، وهو غنى نسبي مقيد، ويتحقق غالبا بالأسباب التي استؤمن عليها الإنسان، واستخلفه الله فيها كالأموال والأقوات التي يدفع بها عن نفسه الحاجات ومختلف الضروريات (٢).

---

(١) السابق ١/٥٥ بتصرف.

(٢) انظر في بيان المعنى اللغوي للغنى كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي ٨/٤٥٠ نشر دار ومكتبة الهلال. والمغرب في ترتيب المعرب لأبي الفتح ناصر الدين بن المطرز ٢/١١٥، ولسان العرب لابن منظور ١٥/١٣٥ نشر دار صادر.

ومن توحيد العبودية الذي هو دين الفطرة وجوب اختصاص الخالق بالعبادة والتوكل عليه، فلا تعمل إلا له، ولا ترجو إلا هو سبحانه لأنه الذي ابتدأك بخلقك، والإنعام عليك بوجود قدرتك ومشيئتك من غير سبب منك أصلا، وما فعل بك لا يقدر عليه غيره، ثم إذا احتجت إليه في جلب رزق، أو دفع ضرر فهو الذي يأتي بالرزق، لا يأتي به غيره، وهو الذي يدفع الضرر لا يدفعه غيره. قال تعالى: ﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ۝٢٠ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٍ ۝٢١﴾ الملك: ٢٠/٢١.

وهو سبحانه ينعم عليك ويحسن إليك بنفسه، ولك مقتضى ما تسمى به ووصف به نفسه، إذ هو الرحمن الرحيم الودود المجيد، وهو قادر بنفسه، وقدرته من لوازم ذاته، وكذلك رحمته وعلمه وحكمته لا يحتاج إلى خلقه بوجه من الوجوه، بل هو الغنى عن العالمين المستحق للحمد فالحمد الله رب العالمين(١).

قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ ۝٤٠﴾ النمل: ٤٠.

وقال سبحانه: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ۝٧ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٨﴾ إبراهيم:٧/٨. وقال: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٣٧/١ بتصرف.

﴿يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾ الحجرات:٧/٨.

- **وصف الحاجة والافتقار وطلب الجنة وبغض النار.**

اقتضت أحكام فطرة الافتقار والاحتياج التي خلق الله ﷻ عليها العباد أن يحرص كل إنسان على جلب المنفعة وتحصيلها، وحب الخيرات وتفضيلها، وألا يفضل الخير الأدنى على الخير الأعلى، وأن يكون حريصا على دفع المضرة وإبعادها، كما أنه يتحمل مشقة أدنى ليحصِّل منفعة أعلى، ويضحي بالقليل ليحصِّل الكثير، ويحرص على الباقي ويزهد في الفاني، فالمريض يتحمل مرارة الدواء طلبا للشفاء، هذه أوصاف الفطرة السليمة التي تقوم على معاني العبودية والافتقار إلى رب العزة والجلال.

وقد جعل الله ﷻ طلب الجنة والبعد عن النار أعلى حاجة يسعى إليها العقلاء من الناس، فليس بعد نعيم الجنة من خير يطلب، وليس بعد عذاب النار من شر يبعد.

روى مسلم من حديث أنس بن مالك ﷺ أن رسول اللهِ ﷺ قال: (يُؤْتَي بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَل رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَل مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لا وَاللهِ يَا رَبِّ. وَيُؤْتَي بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، هَل رَأَيْتَ بُؤْسًا

قَطُّ؟ هَل مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُول: لا وَاللهِ يَا رَبِّ، مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ) [١].

لقد جعل الله الجنة النار دارين للمؤمنين والكفار لتبقى دليلا على دوام الافتقار، إما بالاختيار أو الاضطرار، ودليلا على الغنى المطلق كوصف لرب العزة والجلال، فأعد لهم ما يجعلهم على فطرة الحاجة والعبودية، وليبقى أولا وآخرا غنيا كاملا منفردا بالربوبية.

ويستحيل أن يوجد مخلوق يستغني عن الحاجة والافتقار مطلقا، وقد أخطأ من أخرج الجنة والنار من حسبانه عند عبادته لربه، كما ذكر بعض الصوفية أن العبد ينبغي أن يعبد الله على غير انتظار للثواب وعلى غير خوف من العقاب، حتى وصلوا إلى درجة يحتقرون فيها من عبد الله ﷻ انتظار لثوابه، وخوفا من عقابه.

وقد صنفوه من التجار الذين لا يعطون إلا لانتظار البدل، بل غالى بعضهم فوصف هذا الفريق بأنهم عبيد السوء، لا يوقرون الله ﷻ لذاته، ولكن لما يصلهم من نفع أو نعمة.

كما أدى ذلك أيضا إلى استهجان البعض منهم لعذاب النار، فصرح بعدم الخوف منها وقلل من شأنها، فقال أبو بكر الشبلي من أوائل الصوفية: (إن لله عبادا لو بزقوا على جهنم لأطفئوها) [٢].

وقال أيضا: (لو خطر ببالي أن الجحيم بنيرانها وسعيرها تحرق منى

---

(١) رواه مسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب صبغ أنعم أهل الدنيا في النار وصبغ أشدهم بؤسا في الجنة ٤/٢١٦٢ (٢٨٠٧).

(٢) انظر اللمع في التصوف لأبي نصر السراج الطوسي ص٤٩٠.

شعره لكنت مشركا)[1].

وقد دلت نصوص القرآن والسنة على بطلان هذا الاعتقاد، ودلت على مدح عباد الله بسؤال الجنة ورجائها، والاستعاذة من النار والخوف من عذابها. قال تعالى عن زكريا عليه السلام: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ الأنبياء: ٩٠.

وقال سبحانه وتعالى في بيان أوصاف المؤمنين: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾ الفرقان: ٦٥/٦٦ .

وعند أبي داود وصححه الشيخ الألباني عَن بَعْضِ أَصْحَابِ النبِي ﷺ أنه قال: (قال النبي ﷺ لرجل: كَيف تقول في الصَّلاة؟ قال: أَتشَهَّدُ وَأَقول: اللهُم إني أَسْأَلك الجنةَ، وَأَعُوذ بِكَ من النار. أَما إِني لا أُحْسِن دَندَنتك وَلا دَندَنة معَاذ، فقال النبي ﷺ: حَوْلَهَا ندَندِن)[2].

وروى البخاري في صحيحه من حديث أَبِي هُريرة رضي الله عنه أن رسُول اللهِ ﷺ قال: (إن للهِ ملائِكَةَ يطُوفون في الطُّرق، يلتمسُون أَهْلَ الذكْر، فإِذا وَجدُوا قوْما يذكُرون اللهَ، تنادَوْا هَلموا إِلى حَاجتكم. فيحُفونهُم

---

(١) المصدر السابق ص٤٩٠.

(٢) رواه أبو داود في كتاب الصلاة، باب في تخفيف الصلاة ١/٢١٠ (٧٩٢)، وأحمد في المسند ٣/٤٧٤ (١٥٩٣٩)، وصححه الشيخ الألباني، انظر صفة صلاة النبي ﷺ ص١٨٥، نشر مكتبة المعارف للنشر والتوزيع الرياض، وانظر صحيح أبي داود حديث رقم (٧١٠).

بِأَجنحَتهِم إِلى السَّماءِ الدُّنيا، قال: فيسْأَلُهم ربُّهُم وَهُوَ أَعْلَم منهُم: ما يقول عِبَادِي؟ قالوا: يسَبِّحُونك وَيكبِّرونكَ وَيحْمدُونكَ وَيمجدُونكَ. فيقول: هَل رأَوْني؟ فيقولون: لا وَاللهِ ما رأَوْكَ. فيقول: وَكَيف لوْ رأَوْني؟ يقولون: لوْ رأَوْكَ كَانوا أَشَدَّ لكَ عِبَادَة، وَأَشَدَّ لكَ تمجيدًا وَتحْميدًا، وأَكْثر لكَ تسبِيحًا. يقول: فما يسْأَلوني؟ قالوا: يسْأَلونكَ الجنة. يقول: وَهَل رأَوْهَا؟ يقولون: لا وَاللهِ يا ربِّ ما رأَوْهَا. يقول: فكَيف لوْ أَنهُم رأَوْهَا؟ يقولون: لوْ أَنهُم رأَوْهَا كَانوا أَشَدَّ عَليهَا حِرصًا، وَأَشَدَّ لهَا طَلَبًا، وَأَعْظَم فيهَا رغبَة. قال: فمم يتعَوَّذون؟ يقولون: من النار. يقول: وَهَل رأَوْهَا؟ يقولون: لا وَاللهِ يا ربِّ ما رأَوْهَا. يقول: فكَيف لوْ رأَوْهَا؟ يقولون: لوْ رأَوْهَا كَانوا أَشَدَّ منهَا فرارا، وَأَشَدَّ لهَا مخَافة. فيقول: فأُشْهِدُكُم أَني قدْ غَفرت لهُم. يقول مَلكٌ من الملائِكَة: فيهِم فلان، ليسَ منهُم، إِنما جاءَ لحَاجة، قال: هُم الجلسَاءُ لا يشْقى بِهِم جليسُهُم)[1].

ومن ثم فإن قول أبي يزيد البسطامي: (الجنة لا خطر لها عند أهل المحبة، وأهل المحبة محجوبون بمحبتهم)[2]. وقوله الآخر: (إن الله قد أمر العباد ونهاهم، فأطاعوه، فخلع عليهم خلعة، فاشتغلوا بالخلع عنه، وإني لا أريد من الله إلا الله)[3].

---

(١) رواه البخاري في الدعوات، باب فضل ذكر الله ﷻ ٥/٢٣٥٣ (٦٠٤٥).

(٢) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمي الأزدي ص٧٠، نشر دار الكتب العلمية، بيروت.

(٣) السابق ص٧٢.

وقول رابعة العدوية من نساء الصوفية: (ما عبدتك خوفا من نارك، ولا طمعا في جنتك، ولكن حبا لذاتك)[1]. وأمثال هذا الكلام مخالف للفطرة وتوحيد العبودية.

ومحصلة هذه الدعوة الباطلة الخروج عن وصف الفطرة والعبودية، والوقوع في وصف الاستغناء والربوبية، وقد ترتب على ذلك تأليه الأولياء وشيوخ الطرق الصوفية، كما نرى ما يحدث عند أضرحتهم المنتشرة في البلاد الإسلامية، من مظاهر التعظيم والتقديس لغير الله، ودعائهم، والاستغاثة بهم، وتقبيل أعتابهم، والطواف حول قبورهم، وغير ذلك من مظاهر الشرك المختلفة.

- **دليل الحدوث علة احتياج العالم إلى الله عند المتكلمين.**

معلوم أن مذهب السلف في علة احتياج العالم إلى الله هو افتقار المخلوق إلى خالقه، وأن وجوده تعالى وغناه بنفسه عمن سواه أمر فطري معلوم بالضرورة، يُعلم من نظر العبد إلى ضروريات نفسه وافتقاره إلى غيره، والأدلة على ذلك أكثر من أن تحصى، نراها في الكون والآفاق، والنفس والأعماق، وأدلة الوحي المختلفة.

---

(١) هي رابعة بنت إسماعيل العدوية العابدة المشهورة. قال ابن كثير: أثنى عليها الناس، وتكلم فيها أبو داود السجستاني، واتهمها بالزندقة، فلعله بلغه عنها أمر، وقد ذكروا لها أحوالا وأعمالا صالحة، وصيام نهار وقيام ليل، توفيت بالقدس الشريف سنة ١٨٥هـ. انظر البداية والنهاية لابن كثير١٠/١٨٦، نشر مكتبة المعارف، بيروت، وصفة الصفوة لابن الجوزي ٤/٢٧ نشر دار المعرفة، بيروت، وطبقات الصوفية للسلمي ص٣٨٧.

أما المتكلمون الأشاعرة فدليل احتياج العالم للخالق يسمى عندهم بدليل الحدوث، وهم ينظرون إليه كدليل جدلي كلامي مع كونه في الأصل دليل فطري، عبر عنه أعرابي بسيط بفطرته فقال: (إن البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، ألا تدل على اللطيف الخبير؟!) [١].

قال ابن الجوزي: (وهل يشك ذو عقل في وجود صانع، فإن الإنسان لو مر بقاع ليس فيه بنيان، ثم عاد فرأى حائطا مبنيا، علم أنه لا بد له من بان بناه، فهذا المهاد الموضوع، وهذا السقف المرفوع، وهذه الأبنية العجيبة، والقوانين الجارية على وجه الحكمة، أما تدل على صانع ؟)[٢].

قال بعض الناس لبعض الأئمة: أثبت لي وجود الله تعالى، ولا تذكر لي الجوهر والعرض، فقال له: هل ركبت البحر؟ قال: نعم قال: فهل عصفت الريح؟ قال: نعم. قال: فهل أشرفت بك السفينة على الغرق؟ قال: نعم. قال: فهل يئست من نفع من في السفينة ونحوهم من المخلوقين لك، وإنجائهم مما أنت فيه؟ قال: نعم. قال: فهل بقي قلبك متعلقا بشيء غير أولئك؟ قال: نعم. قال: ذلك هو الله عز وجل فاستحسن ذلك منه[٣].

---

(١) انظر إيثار الحق على الخلق لابن الوزير اليماني ص٥٢ نشر دار الكتب العلمية بيروت. وتلبيس إبليس لابن الجوزي ص٥٥، نشر دار الكتاب العربي بيروت، ونفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للتلمساني ٢٨٩/٥، نشر دار صادر، بيروت.

(٢) انظر تلبيس إبليس لابن الجوزي ص٥٥.

(٣) تفسير الألوسي ١١٥/١٥، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ الإسراء:٦٧/٦٩ .

غير أن دليل الحدوث عن المتكلمين استخدم لتعطيل الصفات والأفعال، فهم يستدلون على ضرورة وجود الله بأن الكون حادث، وكل حادث فلابد من محدث قديم، وأخص صفات هذا القديم عندهم مخالفته للحوادث، وعدم حلولها فيه، ومن مخالفته للحوادث إثبات أنه ليس جوهرا ولا عرضا، ولا جسما ولا في جهة، ولا مكان إلى آخر ما يذكرون من النفي المجرد.

ومن حججهم العقلية أنه إذا كان القديم منفرداً بالإلهية كان مستغنياً عن المخصِّص بالإيجاد، لأنه لو افتقر إلى من يُوجده لكان من يُوجده إلها أوَّلَ منه، فلذلك كان وجود الله قديماً غير مسبوق بعدم، ولا محتاج إلى مخصص بالوجُود بدَلاً عن العدم، وكان مستغنياً عن الإمداد بالوجود فكان باقياً، وكان غنياً عن غيره، وكان مخالفاً للحوادث وإلا لاحتاج مثلَها إلى المخصص[1].

ثم أطالوا في تقرير هذه القضية، ورتبوا عليها من الأصول الفاسدة ما لا يدخل تحت حصر، مثل إنكارهم لكثير من صفات الأفعال كالرضا والغضب والاستواء بشبهة نفي حلول الحوادث في القديم، ونفي الجوهرية والعرضية والمكان والجهة والتحيز والجسمية.. إلى آخر المصطلحات البدعية التي جعلوها أصولا دينية كلامية.

---

(١) انظر بتصرف تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور٣٠/٦١٦، نشر دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس.

وملخص كلامهم كما قال الشهرستاني أنهم قالوا: (لو قامت الحوادث بذات الباري سبحانه وتعالى لاتصف بها بعد أن لم يتصف، ولو اتصف لتغير، والتغير دليل الحدوث، إذ لا بد من مغير)[١].

ويبين الشهرستاني في تقريره البياني لمذهب الأشعرية أن التقيد أو التقدر بالأشكال والصور ـ ويعنى أن يكون للشكل والصورة قدر وحدود ـ أن التقيد أو التقدر والتغير الذي يحل بالحوادث دليل الحدوث، فلو كان الباري سبحانه متقدرا بقدر، متصورا بصورة، متناهياً بحد ونهاية، مختصا بجهة، متغيرا بصفة حادثة في ذاته، لكان محدثا إذ العقل بصريحه يقضي أن الأقدار في تجويز العقل متساوية، فما من قدر وشكل يقدره العقل إلا ويجوز أن يكون مخصوصا بقدر آخر، واختصاصه بقدر معين وتميزه بجهة ومسافة، يستدعي مخصصا، ومن المعلوم الذي لا مراء فيه أن ذاتا لم تكن موصوفة بصفة ثم صارت موصوفة فقد تغيرت عما كانت عليه، والتغير دليل الحدوث، فإذا لم يستدل على حدوث الكائنات إلا بالتغير الطارئ عليها، وبالجملة فالتغير يستدعي مغيرا خارجا من ذات المغير، والمقدَّر يستدعي مقدِّرا[٢].

ويستدلون لكلامهم العقلي بقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ الأنعام:٧٤/٧٦.

(١) نهاية الإقدام في علم الكلام للشهرستاني ص٦٩ نشر دار الكتب.

(٢) السابق ص٦٤ بتصرف .

والمعنى عند الأشاعرة المتكلمين لا أحبّ عبادة الأرباب المتغيرين من حال إلى حال، المتنقلين من مكان إلى آخر، المحتجبين بستر، فإن ذلك من صفات الأجرام[1].

وحقيقة الجرم عند المتكلمين الأشعرية هو الذي أخذ قدره من الفراغ، والفراغ هو الهواء المنحرف، والهواء هو ما بين السماء والأرض، وحقيقة خاصية الجرم هو التحيز، وقبوله الأعراض، وقيامه بنفسه. والجرم كما يزعمون ينقسم ثلاثة أقسام: كثيف، ولطيف، وشفاف. وحقيقة الجرم الكثيف هو الذي يمنع أن يحل غيره حيث حل، ولا ينفذه البصر. ومثاله الحائط والجبل وما أشبه ذلك. وحقيقة الجرم اللطيف هو الذي يمنع أن يحل غيره حيث حل، وينفذه البصر. ومثاله الماء والزجاج وما أشبه ذلك. وحقيقة الجرم الشفاف هو الذي لا يمنع أن يحل غيره حيث حل وينفذه البصر. ومثاله الهواء والرياح والضباب وما أشبه ذلك.

والجرم عند المتكلمين من حيث هو ينقسم إلى قسمين: إلى جامد وغيره، فغير الجامد كالماء. والجامد ينقسم إلى قسمين: إلى نامي، وغيره. فغير النامي كالحجر. والنامي ينقسم إلى قسمين: إلى نامي بنفسه، ونامي بغيره. والنامي بنفسه كالأشجار والكلأ وما أشبه ذلك. والنامي بغيره ينقسم إلى قسمين: إلى عاقل وغيره. فغير العاقل كالبهائم. والعاقل ينقسم إلى قسمين: إلى مؤمن وغيره. وغير المؤمن كالكافر.

---

(١) انظر بتصرف تفسير الكشاف للزمخشري ٢/٣٩، دار إحياء التراث العربي، وتفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ٤/١٧٢، دار الكتب العلمية، بيروت.

والمؤمن ينقسم إلى قسمين: مكلف وغيره. وغير المكلف كالصبيان وما أشبه ذلك. والمكلف ينقسم إلى قسمين: إلى معصوم وغيره. فالمعصوم كالملائكة والأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام. وغير المعصوم ينقسم إلى قسمين: إلى محفوظ وغيره. فالمحفوظ كالأولياء وغير المحفوظ ينقسم إلى قسمين: إلى تائب وغيره. والتائب مغفور له في مشيئة الله. والعرض كل ما ليس بجرم ولا يقوم بنفسه ولا زمن له [1].

والقصد من ذكر هذا الكلام أن دليل الحدوث الذي يقرره المتكلمون لم يضعوه في الاتجاه الذي عناه القرآن في تقرير دلالة المخلوق على الخالق، ولكنه كما نرى ابتداع عقلي مسترسل، القصد منه عندهم تعطيل الصفات تحت مسمى نفي التشبيه. غير أن دليل الفطرة الذي عليه سلف الأمة ناطق واضح صريح في أن علة احتياج العالم إلى الرب سبحانه أن وصف الغنى والكمال وصف ذاتي انفرد به رب العزة والجلال، وأن وصف الحاجة والافتقار، وصف ذاتي لكل مخلوق على وجه الاضطرار. لكن الأشعرية يقصدون بدليل الحدوث تعطيل الاستواء والنزول والغضب والرضا ونحو ذلك مما يتعلق بإرادة الله وقدرته فرارا من قيام الحوادث به كما يزعمون.

وزعمهم أن الرب ليس محلا للحوادث كلام مجمل لا يقبل على إطلاقه، بل يفسر ويفصل، فإن أريد بهذا النفي المجمل أن الله تعالى ليس محلا للحوادث، أي ليس داخل ذاته المقدسة شيء من المخلوقات المحدثة

---

(١) انظر في تقرير ذلك كتاب المواقف لعضد الدين الإيجي دار الجيل بيروت الطبعة الأولى ١٩٩٧، تحقيق د.عبد الرحمن عميرة ٢/٦٩٣ وما بعدها.

فهذا حق. وإن أريد بذلك نفي تجدد وحدوث صفاته بأن يكتسب كمالا كان مفقودا فهو أيضاً حق لأن صفاته تعالى أزلية إذ هي صفات كمال وفقدها عيب ونقص لا يليق بالله جل جلاله. وإن أريد بهذا النفي المجمل، وهو مراد النفاة، نفي وإنكار ما وصف الله تعالى به نفسه وما وصفه رسوله ﷺ من صفات الأفعال، فهو نفي مردود على قائله لأن المؤمن لا يخطر بباله أن الله تعالى قد يصف نفسه أو يصفه أعلم الخلق بالله وهو الرسول ﷺ بكلام يكون ظاهره تشبيها وتجسيما وكفرا يجب تأويل ذلك، بل جميع ما وصف الله به نفسه، وما وصفه به رسوله ﷺ صفات كمال، ظواهرها تليق بجلال الله تعالى تختلف عن الظواهر المشاهدة عند المخلوق، كما تختلف ذاته عن ذواتهم.

- **بطلان تفسير الأفول بمعنى الحركة.**

وأما استدلال الأشعرية على دليل الحدوث بقول إبراهيم عليه السلام: لا أُحِبُّ الآَفلين، فهو استدلال باطل؛ لأن الأفول هنا بمعنى الغياب، وليس الحركة والتغير.

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ الأنعام:٧٧/٧٩.

قال الشيخ تقي الدين بن تيمية: (ودعواهُم أَن هَذهِ طَرِيقة إبراهِيم الخَليل فِي قوله: لا أُحب الآفلين، كذب ظَاهِر على إبراهِيم؛ فإِن الأُفول

هُو التغيب والاحتجاب باتفاق أَهْل اللغة والتفسير، وهُو من الأُمور الظَّاهِرة في اللغة، وسواءٌ أُريد بالأُفول ذهَاب ضَوءِ القمر والكواكب بطُلوع الشمس، أَو أُريد بهِ سقوطُهُ من جانب المغرب؛ فإِنهُ إذا طَلعت الشمس يقال: إنهَا غابت الكواكب واحتجبت، وإِن كانت موجودة في السماءِ، ولكن طَمس ضَوءُ الشمس نورهَا. وهَذا مما ينحل بهِ الإِشكال الوارد على الآية في طُلوع الشمس بعد أُفول القمر) [(١)].

تم ذكر أن إِبراهِيم عليه السلام لم يقل: لا أُحب الآفلين لما رأَى الكوكب يتحرك؛ والقمر والشمس، بل إنما قال ذلك حين غاب واحتجب. فإِن كان إبراهِيم عليه السلام قصَد بقولهِ الاحتجاج بالأُفول على نفي كون الآفل رب العالمين كما ادعوهُ كانت قصَّة إبراهِيم حجة عليهِم؛ فإِنهُ لم يجعل بزُوغهُ وحركتهُ في السماءِ إلى حين المغيب دليلا على نفي ذلك؛ بل إنما جعل الدليل مغيبهُ. فإِن كان ما ادعوهُ من مقصُودهِ من الاستدلال صَحيحا، فإِنهُ حجة على نقيضِ مطْلوبهِم، وعلى بطْلان كون الحركة دليل الحدوث.

لكن الحق أَن إبراهِيم عليه السلام لم يقصِد هَذا، ولا كان قولهُ: هَذا ربي، أَنهُ رب العالمين، ولا اعتقد أَحد من بني آدم أَن كوكبا من الكواكب خَلق السموات والأَرضَ، وكذلك الشمس والقمر، ولا كان المشركون قوم إبراهِيم يعتقدون ذلك؛ بل كانوا مشركين باَللّٰهِ يعبدون الكواكب ويدعونهَا، ويبنون لهَا الهَياكل ويعبدون فيهَا أَصنْامهُم.

وجمهُور المشركين كانوا مقرين برب العالمين، والمنكر لهُ قليل، مثل

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٥/٥٤٧.

فرعون ونحوِه. وقوم إبراهِيم كانوا مقرين بالصَّانع، ولهَذا قال لهم إبراهِيم الخَليل: ﴿قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ٧٥ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ٧٦ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٧﴾ الشعراء:٧٧/٧٥. فعادى كل ما يعبدونهُ إلا رب العالمين(١).

وقال تعالى: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۖ رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٤﴾ الممتحنة: ٤ .

وقال الخَليل إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ٩٥ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ٩٦﴾ الصافات:٩٦/٩٥.

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٧٩ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٨٠ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨١ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ٨٣﴾ الأنعام:٨٣/٧٨ .

---

(٢) انظر السابق ٥٤٧/٥ بتصرف.

وما أراده الخليل إبراهيم من الحجة أن الأفول والغياب دليل على الفقر الذاتي، لأن المفترض أن الفقراء يلجئون إلى من يغنيهم في كل وقت، وهم فقراء إليه، وحاجتهم إليه مستمرة في كل وقت، وهو في المقابل غني بذاته في كل وقت، فلو استغاثوا به، فوجدوه غائبا لم يستحق أن يعبد ويمدح، وهذا ما اقتضته الفطرة السليمة .

ودليل الحدوث على معناه الصحيح دليل يأتي ضمن الكثير من الأدلة العقلية التي ورد ذكرها في القرآن للاستدلال على غنى الخالق وفقر جميع الخلائق إليه وحده دون سواه، والله ﷻ يذكره لإلزام العقلاء بتوحيد العبادة، وليس فقط لإثبات الربوبية ووجود الخالق[1].

قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ ﴾ الرعد: ١٦ .

وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ﴾ فاطر: ٤٠ .

وقال جل جلاله: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ

---

(١) انظر بتصرف مجموع الفتاوى لابن تيمية ٥/٥٤٨، ودقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية ٢/١١٥ نشر مؤسسة علوم القرآن، دمشق. ودرء التعارض ١/٦٢، نشر دار الكنوز الأدبية، الرياض، ومنهاج السنة النبوية ١/٢٠١ نشر مؤسسة قرطبة.

ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ
صَٰدِقِينَ ٤﴾ الأحقاف:٤ .

وقال سبحانه: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ٣٥ أَمۡ خَلَقُواْ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ٣٦ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَيۡطِرُونَ
٣٧﴾ الطور: ٣٥/٣٧.

المطلب الثاني

دليل الإمكان وبيان معاني الفقر الاضطراري والفقر الاختياري

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فقد تحدثنا في المطلب السابق عن توحيد الربوبية وإثبات الغنى والكمال لرب العزة والجلال، وعلمنا أن علة احتياج العالم إلى وجود الرب سبحانه أن وصف الغنى والكمال وصف ذاتي انفرد به رب العزة والجلال، وأن وصف الحاجة والافتقار وصف ذاتي لكل مخلوق على وجه الاضطرار. وأن العبد إذا أقر بفقره الذاتي رأى نفسه مملوكا لله الغني، وعلمنا أن الباعث لفعل المخلوق هو فقره وعبوديته، أما الخالق فليس كذلك لأن أفعاله صادرة عن كماله وربوبيته.

وبينا أن دليل الفطرة عند السلف مبني على علة احتياج العباد إلى الله، وأن التوحيد هو دين الفطرة؛ لأن الأشياء في حقيقتها مفتقرة إلى الخالق لذواتها، وبينا أن وصف الحاجة والافتقار كانت باعثا لطلب الجنة وبغض النار، وهذا مبناه على الفقر الذاتي لله في الدنيا والآخرة، كما علمنا أن دليل الحدوث هو علة احتياج العالم إلى الله ﷻ عند المتكلمين. وتناولنا الحديث عن بطلان تفسير الأفول بمعنى الحركة، لأن

الأفول بمعنى الغياب، وهو دليل على توحيد العبادة لله ﷻ وإثبات الفقر الذاتي لكل من سواه، وليس المراد منه أن كل متحرك محدث.

وفي هذه المطلب نتحدث بإذن الله ﷻ عن دليل الإمكان عند الفلاسفة، وبيان معاني الفقر الاضطراري والفقر الاختياري.

- **المقصود بالإمكان في الحكم العقلي عند الفلاسفة.**

زعم الفلاسفة أن علة احتياج العالم إلى وجود الرب هو دليل الإمكان، وهذا الدليل يعتمد عندهم على تقسيم المعقولات إلى واجب وممكن وممتنع. وتسمى عندهم بأقسام الحكم العقلي والتي تنحصر في ثلاثة أقسام:

الحكم الأول: الوجوب، وهو في اللغة الحضور والثبوت والسقوط والاستقرار، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ الحج:٣٦.

ومعنى وجبت جنوبها كما ذكر المفسرون حضورها، وتثبيتها، ثم ذبحها وسقوطها، واستقرارها للطعام [١].

والوجوب في الاصطلاح الكلامي الفلسفي عدم قبول انتفاء وجود الشيء في حكم العقل، كحكم العقل بانتفاء وجود الخالق.

(١) كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي ١٩٣/٦، نشر دار ومكتبة الهلال، وتفسير الطبري ١٦٥/١٧، نشر دار الفكر بيروت.

الحكم الثاني: الاستحالة، وهو في اللغة الامتناع، كما ذكر الله سبحانه وتعالى منع الكافرين من دخول الجنة بتعليق المنع على أمر يستحيل وقوعه أو حدوثه فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ الأعراف:٤٠ .

والاستحالة في الاصطلاح الكلامي الفلسفي انتفاء قبول وجود الشيء، أو انتفاء ثبوت وجوده في حكم العقل، كحكم العقل بعدم وجود الخالق.

الحكم الثالث: الجواز، وهو في اللغة المرور والعبور، ومنه ما ورد في قوله تعالى: ﴿ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ ﴾ البقرة:٢٤٩ .

وكقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَـٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ ﴾ الكهف:٦٢ .

والجواز في الاصطلاح إمكانية وجود الشيء أو انتفاء وجوده في حكم العقل، كحكم العقل بوجود المخلوق أو عدم وجوده.

وبيان دليل الإمكان أنه لما كان وجود العالم بما فيه في أحكام المعقول لدى جميع العقلاء أمرا ممكنا، فإنه لا بد من واجب مرجح للإمكان، يرجح وجود العالم أو عدم وجوده، فلابد إذا من واجب الوجود، وهو وجود الله كما قرره الفلاسفة، وهذا ما يسمى عندهم بدليل الإمكان، لو سئلوا عن الدليل عن وجود الخالق.

ولنضرب مثالا لدليل الإمكان عند الفلاسفة، إذِا اتفق اثنان على إمضاء وثيقة مكتوبة بالتوقيع عليها، واشترط كل واحد منهما لإِمضائها، إمضاءَ الآخر، فتكون النتيجة توقف إمضاء كل واحد منهما على إمضاء الآخر، وعند ذلك لن تكون تلك الوثيقة موقعة وممضاة إلى يوم وفاتهما، إلا إذا تدخل مرجح وقدم أحدهما.

وكذلك ولو أراد رجلان التعاون على حمل متاع، غيرَ أَن كلا منهما يشترط في إقدامه على حمل المتاع إقدامِ الآخر. فلن ينتقل المتاع من مكانه أَبدا، إلا إذا تدخل مرجح وقدم أَحدهما على الآخر .

وكذلك لو فرضنا سيارة من طراز قديم متوقفة في الطريق، فإن حركتها بلا سائق مستحيلة، ووجود السائق واجب مرجح لإمكانية حركتها أو سكونها، وركوب الناس فيها أمر ممكن، وإذا تقدم اثنان لركوبها واشترط كل منهما أن يركب الآخر قبله، فإن ركوب كل واحد منهما أمر ممكن، ولا بد فيه من مرجح كالسائق.

- **دليل الإمكان علة احتياج العالم إلى الله عند الفلاسفة.**

إذا علمنا أن دليل الفطرة هو العلة الموجبة لاحتياج العالم إلى وجود الله ﷻ عند المتبعين لمنهج السلف، وأن الفقر الذاتي علة موجبه لوجود الغنى الذاتي، وأن هذا هو ما تضمنته جميع الأصول القرآنية والنبوية، وكذلك إذا علمنا أن دليل الحدوث هو الدليل على وجود الله ﷻ عند المتكلمين الأشاعرة، فإن دليل الإمكان هو علة احتياج العالم إلى الله ﷻ عند الفلاسفة والدليل على وجوده.

ودليل الإمكان دليل مقبول من جهة العقل غير أنه دليل من ضمن الأدلة الكثيرة التي لا حصر لها في إثبات حقيقة الفقر الذاتي للخلائق وقيامها على معنى العبودية، وحقيقة الغنى الذاتي للخالق واتصافه بمعاني الربوبية.

ودليل الإمكان في الكون يعني أن كل شيء موجود يمكن أن يتغير إلى شيء آخر بمرجح ومخصص، هذا المرجح يحدد بمشيئته ما يكون في ذات المخلوق وصفته، وهذا المرجح أو المخصص عند الفلاسفة هو الله ﷻ، أو واجب الوجود في اصطلاحهم.

ومثال ذلك ترجيح وجود الشمس في مكانها، فيمكن أن تكون قريبة جدا من الأرض فتقتل من عليها من شدة الحر، ويمكن أن تكون بعيدة جدا تهلك من على الأرض من شدة البرد، فالذي وضعها في مكانها على هذا النحو هو المرجح لتلك الممكنات.

وكان من الممكن في خلق الإنسان أن تكون عيناه في ظهره، أو بين شعر رأسه، أو بطنه بدلا من وجهه، فهذه كلها ممكنات، لكن من خصصها الذي خلق العين ووضعها في أمان، وفي أنسب مكان من الإنسان، وهذا دليل على مشيئته وقدرته، ورحمته وحكمته، ودليل على افتقار المخلوق في وجوده الذاتي إلى وجود الخالق الغني، وإقامته لمن سواه.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ الانفطار:٦/٨. وقال سبحانه: ﴿أَلَمۡ

﴿نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ٨ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ ٩ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ١٠﴾ البلد: ٨/ ١٠.

ودليل الإمكان جاء في القرآن لبيان معاني توحيد الربوبية والفقر الاضطراري الذي يدعو إلى معاني العبودية والفقر الاختياري، فالممكنات لا تعد ولا تحصى، بل إن هذا الكون بأسره ممكن الوجود في وضعه، أو على أي شكل آخر، فكان من الممكن أن يكون الليل سرمدا إلى يوم القيامة، أو يكون النهار سرمدا إلى يوم القيامة.

قال الله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ٧١ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٧٢﴾ القصص: ٧١/ ٧٢. وقال: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمۡعَكُمۡ وَأَبۡصَٰرَكُمۡ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِهِۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ هُمۡ يَصۡدِفُونَ ٤٦ قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغۡتَةً أَوۡ جَهۡرَةً هَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٤٧﴾ الأنعام: ٤٦/ ٤٧.

وقال تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَهۡلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوۡ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ٢٨ قُلۡ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيۡهِ تَوَكَّلۡنَاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢٩ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرٗا فَمَن يَأۡتِيكُم بِمَآءٖ مَّعِينِۭ ٣٠﴾ الملك: ٢٨/ ٣٠.

لقد جعل الله العقل سببا في التعرف على خالق الكائنات بأسرها من خلال الأسباب والنظر في نتائجها، وترابط المعلولات مع عللها، وإدراك فقرها في ترابطها إلى وجود خالقها وإقامته لها، كما أنه سبحانه قد جعل إمكان تغير النعم إلى النقم دليلا عقليا على ربوبيته، وملزما

بتوحيده في عبوديته، والافتقار إليه وحده دون غيره في كل حال، فقال رب العزة والجلال: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (٥٧) أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٧٠) أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ (٧٣) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٧٤)﴾ الواقعة:٥٧/٧٤.

وكثيرا ما يدعونا الله ﷻ إلى النظر في آياته الكونية، وما وضعه في النفس البشرية من حقائق كونية لإدراك فقرها الاضطراري إلى ربها، فإن المفعولات دالة على الأفعال، والأفعال دالة على الصفات، فالمفعول يدل على الفاعل، والمخلوق يدل على الخالق، وذلك يدل باللزوم على وجود الخالق ومشيئته وعلمه وقدرته.

قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣)﴾ يس:٨١/٨٣ .

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣)﴾ الأحقاف:٣٣.

وجميع طرق الاستدلال الكلامية أو الفلسفية العقلية الصحيحة

تصب في مجمع واحد وهو إثبات أن وصف الغنى والكمال وصف ذاتي انفرد به رب العزة والجلال، وأن وصف الحاجة والافتقار وصف ذاتي لكل مخلوق على وجه الاضطرار، فالعقل الصريح لا يعارض النقل الصحيح بل يشهد له ويؤيده، غير أن الفلاسفة والمتكلمين يستخدمون أدلتهم العقلية في تحقيق مآربهم البدعية.

قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾ فصلت:٥٣/٥٤.

- **الرد على من قدم تفسير الفلاسفة للأفول على تفسير السلف.**

وربما استدل بعض فلاسفة الصوفية لدليل الإمكان عند الفلاسفة بمعنى الأفول في قوله تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ الأنعام:٧٦/٧٩.

بل رأى بعضهم أن قول علماء السلف بأن الأفول على معنى الغياب هو قول أهل الظاهر من العوام أصحاب الرتبة السطحية، وأن القول بأن الأفول هو الحدوث كما رأى المتكلمون هو قول الخواص والأواسط من أهل الفهم والبصيرة، وأن القول بأن الأفول هو الإمكان

هو قول خواص الخواص وأصحاب الفهم العالي والتحقيق الراقي .

قال البقاعي: "﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ الأنعام:٧٦. لأن الأفول حركة، والحركة تدل على حدوث المتحرك وإمكانه، فالخواص يفهمون من الأفول الإمكان، والممكن لا بد له من موجد واجب الوجود، يكون منتهى الآمال ومحط الرحال:﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ ۝٤٢﴾النجم:٤٢. والأوساط يفهمون منه الحدوث للحركة، فلا بد من الاستناد إلى قديم، والعوام يفهمون أن الغارب كالمعزول، لزوال نوره وسلطانه، وأن ما كان كذلك لا يصلح للإلهية" [(١)].

وكلام البقاعي فيه ازدراء لفهم السلف، وتنقيص لقدرهم، وادعاء أن كلام الفلاسفة والمتكلمين أعلم وأحكم من السلف المتقدمين، فإن تفسير بالغياب والغروب هو المحفوظ عن سائر الصحابة والتابعين وأئمة السلف أجمعين، ومعلوم أنهم أفضل الناس فهما وعلما، وأعلاهم إيمانا واتباعا، وهم خير الناس، وخير القرون، ومن المحال يكونوا غير عالمين أو غير قائلين في كتاب الله بالحق المبين، ولا يجوز أن يكون أتباع أرسطو وأفلاطون وأفلاطين أعلم من السالفين كما يزعم من لم يقدرهم حقهم، أن طريقة السلف أسلم، وطريقة الخلف أعلم وأحكم.

بل إن هؤلاء المبتدعين الذين يفضلون طريقة الخلف من المتفلسفة ومن حذا حذوهم على طريقة السلف، إنما أتوا من حيث ظنوا أن

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لبرهان الدين البقاعي ٦٥٩/٢، نشر دار الكتب العلمية بيروت.

طريقة السلف هي مجرد الايمان بألفاظ القرآن والحديث من غير فقه لمعناها، بمنزلة الأميين الذين قال الله فيهم: ﴿وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ٧٨﴾البقرة:٧٨. وأن طريقة الخلف من الفلاسفة والمتكلمين هي استخراج معاني النصوص المصروفة عن حقائقها بأنواع المجازات وغرائب اللغات، فهذا الظن الفاسد أوجب تلك المقالة التي مضمونها نبذ الإسلام وراء الظهر(١).

وهذا القول الذي فيه تقديم كلام الفلاسفة والمتكلمين على طريقة السابقين الأولين إذا تدبره الإنسان وجده في غاية الجهالة، بل في غاية الضلالة، كيف يكون هؤلاء المتأخرون المحجوبون المفضلون المنقوصون المسبوقون الحيارى المتهوكون هم المحققون، وهم أهل خاصة الخاصة، أما السابقون الأولين من خير القرون فهم العوام السذج الذين لا يفهمون حقائق المعارف، وبواطن الحقائق، وهم انقص في العلم والحكمة من هؤلاء الأصاغر بالنسبة إليهم؟

إن من العجب أن يأتي إمام من الأئمة كبرهان الدين البقاعي له سبق وباع في أحد فروع العلم، ثم تكون هفوته من قبل سوء اعتقاده وإقراره أن مذهب المتكلمين الأشاعرة هم أهل السنة والجماعة، ثم يكر على علماء السلف ويصفهم بالعوام وأهل الظاهر والحشوية والمجسمة وغير ذلك من المصطلحات المستهجنة، ويجعل أفراخ المتفلسفة وأتباع الهند واليونان وورثة المجوس والمشركين وضلال اليهود والنصارى والصابئين وأشكالهم وأشباههم أعلم بالله من ورثة

---

(١) انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية ٥/٩ بتصرف.

الأنبياء وأهل القرآن والإيمان [1].

• رد ابن تيمية على من جعل الأفول بمعنى الإمكان.

أغلب الفرق الضالة من المتكلمين والفلاسفة والصوفية يأخذون عبارات المسلمين التي عبروا بها عن المصطلحات الواردة في القرآن والسنة، ثم يعبرون بها عن معنى آخر يناقض دين المسلمين ليظهر بذلك أنهم موافقون للمسلمين في أقوالهم، وأنهم يقولون العالم محدث، وأن كل ما سوى الله، فهو عندنا آفل محدث، كما قال تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾ الأنعام:٧٦.

وهذا ما فعله الفلاسفة كابن سينا وأمثاله من الباطنية حيث فسروا الأفول بمعنى الإمكان جريا على طريقة المتكلمين، فإن أهل الكلام المحدث لما احتجوا بحدوث الأفعال على حدوث الفاعل الذي قامت به الأفعال، وزعموا أن إبراهيم الخليل عليه السلام احتج بهذا، وأن المراد بالأفول الحركة والانتقال، وأنه استدل بذلك على حدوث المتحرك والمنتقل، نقل ابن سينا هذه الفكرة وجعل الأفول عبارة عن الإمكان، وقال إن ما هوى وسقط في حظيرة الإمكان هوى في حظيرة الأفول، ولفظه: "فإن الهَوْى في حظيرة الإمكان أفول ما".

وذلك أنه أراد أن يقول بقول أسلافه الفلاسفة من اليونان مع قوله بما يشبه طريقة المتكلمين، والمتكلمون استدلوا على حدوث الجسم

---

(١) السابق ١٢/٥ بتصرف.

بطريقة التركيب فجعل هو التركيب دليلا على الإمكان، والمتكلمون جعلوا دليلهم كما زعموا هو دليل إبراهيم الخليل عليه السلام بقوله: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ۝٧٦﴾ الأنعام:٧٦. وفسروه بأن الأفول هو الحركة، فقال ابن سينا: إن الهوْىَ في حظيرة الإمكان أفول ما، فالممكن آفل، والإمكان أفول ما، والآفل عندهم هو الذي يكون موجودا بغيره، ويقولون: نحن نستدل بإمكان الممكنات على الواجب، ونجعل معنى قوله تعالى: لا أحب الآفلين، أي لا أحب الممكنين.

ومعلوم أن كلا القولين سواء قول المتكلمين أو الفلاسفة من باب تحريف الكلم عن مواضعه، وإنما الأفول هو المغيب والاحتجاب، ليس هو الإمكان ولا الحركة، وإبراهيم الخليل لم يحتج بذلك على حدوث الكواكب، ولا على إثبات الصانع، وإنما احتج بالأفول على بطلان عبادتها؛ فإن قومه كانوا مشركين يعبدون الكواكب ويدعونها من دون الله عز وجل، لم يكونوا يقولون إنها هي التي خلقت السموات والأرض، فإن هذا لا يقوله عاقل.

وقد علم باتفاق أهل اللغة والمفسرين أن الأفول ليس هو الحركة سواء كانت حركة مكانية وهو الانتقال، أو حركة في الكم كالنمو، أو في الكيف كتلوين الشيء وتسويده أو تبيضه، ولا هو التغير فلا يسمى في اللغة كل متحرك أو متغير آفلا، ولا أنه أفل، لا يقال للمصلي أو الماشي إنه آفل، ولا يقال للتغير الذي هو استحالة كالمرض واصفرار الشمس إنه أفول، لا يقال للشمس إذا اصفرت إنها أفلت، وإنما يقال أفلت إذا غابت واحتجبت، وهذا من المتواتر

المعلوم بالاضطرار من لغة العرب أن آفلا بمعني غائب، وقد أفلت الشمس تأفل أفولا أي غابت.

ومن ثم فإن كلام الفلاسفة في جعل الأفول بمعنى الإمكان أفسد من كلام المتكلمين في جعل الأفول بمعنى الحركة والتغير، لأن السماوات والأرض والجبال والشمس والقمر والكواكب لم تزل ولا تزال آفلة، فهي من حين بزغت وإلي أن أفلت، ممكنة بذاتها تقبل الوجود والعدم، وحينئذ يكون كونها ممكنة ليس بدليل عند إبراهيم عليه السلام علي عدم إلوهيتها.

وهذا أعظم افتراء على القرآن واللغة من تسمية كل متحرك أو ممكن آفلا، ففساد قول هؤلاء المتفلسفة في الاستدلال بالآية أظهر من فساد قول أولئك المتكلمين، وأعجب من هذا قول من قال في تفسيره إن قول الفلاسفة هو قول المحققين [(١)].

- **الفقر فقران فقر اضطراري عام وفقر اختياري خاص.**

الفقر الذاتي وصف ذاتي لكل مخلوق في هذا العالم، وفقر الإنسان واحتياجه فقران:

الفقر الأول: هو الفقر اضطراري، وهو فقر عام، لا خروج لبر ولا فاجر عنه، وهذا الفقر لا يقتضي مدحا ولا ذما، ولا ثوابا ولا

---

(١) انظر بتصرف مجموع الفتاوى لابن تيمية ٥/٥٤٨، ودقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية ٢/١١٥، نشر مؤسسة علوم القرآن، دمشق، ودرء التعارض ١/٦٢، نشر دار الكنوز الأدبية، الرياض، ومنهاج السنة النبوية ١/٢٠١، نشر مؤسسة قرطبة.

عقابا، بل هو بمنزلة كون المخلوق مخلوقا والمصنوع مصنوعا.

أما الفقر الثاني: فهو فقر اختياري، هو نتيجة علمين شريفين: أحدهما: معرفة العبد بربه. والثاني: معرفته بنفسه. فمتى حصلت له هاتان المعرفتان أنتجتا فقرا هو عين غناه، وعنوان فلاحه وسعادته.

وتفاوت الناس في هذا الفقر بحسب تفاوتهم في هاتين المعرفتين فمن عرف ربه بالغنى المطلق عرف نفسه بالفقر المطلق، ومن عرف ربه بالقدرة التامة عرف نفسه بالعجز التام، ومن عرف ربه بالعز التام عرف نفسه بالمسكنة التامة، ومن عرف ربه بالعلم التام والحكمة عرف نفسه بالجهل، فالله سبحانه أخرج العبد من بطن أمه لا يعلم شيئا، ولا يقدر على شيء، ولا يملك شيئا، ولا يقدر على عطاء ولا منع، ولا ضر ولا نفع، ولا شيء البتة، فكان فقره في تلك الحال إلى ما به كماله أمرا مشهودا محسوسا لكل أحد.

ومعلوم أن هذا له من لوازم ذاته، وما بالذات دائم بدوامها، وهو لم ينتقل من هذه الرتبة إلى رتبة الربوبية والغنى، بل لم يزل عبدا فقيرا بذاته إلى بارئه وفاطره، فلما أسبغ عليه نعمته، وأفاض عليه رحمته، وساق إليه أسباب كمال وجوده ظاهرا وباطنا، وأسبغ عليه نعمه، وجعل له السمع والبصر والفؤاد، وعلمه وأقدره، وصرّفه وحرّكه، ومكنه من استخدام بني جنسه، وسخر له الخيل والإبل، وسلطه على دواب الماء، واستنزال الطير من الهواء، وقهر الوحش الضارية، وحفر الأنهار، وغرس الأشجار، وشق الأرض، وتعلية البناء، والتحفظ لما يؤذيه، ظن المسكين أن له نصيبا من الملك، وادعى لنفسه ملكا مع الله

سبحانه، ورأى نفسه بغير تلك العين الأولى، ونسي ما كان فيه من حالة الإعدام والفقر والحاجة، حتى كأنه لم يكن هو ذلك الفقير المحتاج، بل كأن ذلك شخص آخر غيره(١).

روى الإمام أحمد في مسنده من حديث بسر بن جَحَّاشٍ القرشي ﷺ أن رسول الله ﷺ بَصَقَ يَوْمًا فِي كَفِّهِ فَوَضَعَ عَلَيْهَا إِصْبَعَهُ ثُمَّ قَالَ: (قَالَ اللَّهُ ﷻ: ابْنَ آدَمَ، أَنَّى تُعْجِزُنِي وقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ، حَتَّى إِذَا سَوَّيْتُكَ وَعَدَلْتُكَ، مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْنِ، وَلِلأَرْضِ مِنْكَ وَئِيدٌ، فَجَمَعْتَ وَمَنَعْتَ، حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ، قُلتَ: أَتَصَدَّقُ، وَأَنَّى أَوَانُ الصَّدَقَةِ؟) (٢).

روى البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (إِنَّ ثلاثة فِي بَنِي إِسْرَائِيل، أَبْرَص وأَقْرَعَ وأَعْمى، بَدَا لِلَّهِ ﷻ أَنْ يبْتَليهُم، فَبَعَثَ إِليهم ملكًا، فَأَتَى الأَبْرَصَ فَقَال: أَي شَيءٍ أَحَبُّ إِليكَ؟ قَالَ: لونٌ حَسَنٌ، وجِلدٌ حَسَنٌ، قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ، قَالَ: فَمَسَحَهُ فَذهَبَ عَنْهُ، فَأُعْطِي لونًا حَسَنًا، وجِلدًا حَسَنًا، فَقَال: أَي

---

(١) انظر بتصرف طريق الهجرتين لابن القيم ص٢٤.

(٢)أخرجه أحمد في المسند ٤/٢١٠ (١٧٨٧٦) وقال شعيب: إسناده حسن، وصححه الألباني، انظر السلسلة الصحيحة (١٠٩٩) وصحيح الجامع (٨١٤٤)، والبُرْدة الشَّمْلةُ المخطَّطة أو كِساء أسود مُربَّع فيه صورٌ، والوئيد أي المَوْءُود، لأن منهم من كان يَئِدُ البَنينَ عند المَجاعة، والوئيد أيضا شِدَّةُ الوطءِ على الأرض يسمع كالدَّوِيّ من بُعد، والتَّرَاقِي جمع تَرْقُوَة وهي عظمة مشرفة بين ثغرة النحر والعاتق وهما ترقوتانه.

المال أَحبُّ إليكَ؟ قَال: الإبِل، أَو قَال: البقَرُ، هُو شَكَّ فِي ذلكَ، إنَّ الأَبْرَصَ والأَقْرَعَ قَال: أَحَدُهُما الإبِل، وقَال الآخَرُ: البقَرُ، فَأُعطِي نَاقة عُشَرَاءَ، فقَال: يبَارَكُ لك فِيهَا.

وأتَى الأَقْرَعَ فقَال: أي شَيءٍ أَحبُّ إليك؟ قَال: شَعَرٌ حسَنٌ، ويذهَبُ عَنِّي هَذا، قَدْ قَذرَنِي النَّاسُ. قَال: فَمسَحَهُ، فذهَبَ، وأُعْطِي شَعَرًا حسَنًا. قَال: فأَي المال أَحبُّ إليكَ؟ قَال: البقَرُ. قَال: فَأَعْطَاهُ بَقَرَة حَاملا، وقَال: يبَارَكُ لك فِيهَا.

وأَتَى الأَعْمى فَقَال: أَي شَيءٍ أَحَبُّ إليكَ؟ قَال: يرُدُّ اللهُ إلي بَصرِي، فَأُبْصِرُ بِهِ النَّاسَ. قَال: فَمسَحَهُ، فَرَدَّ اللهُ إليهِ بَصرَهُ. قَال: فَأَي المال أَحبُّ إليكَ؟ قَال: الغنَم، فَأَعْطَاهُ شَاة والدًا، فَأُنْتِجَ هَذان وولدَ هَذا، فكَانَ لهَذا وادٍ منْ إبِل، ولهَذا وادٍ منْ بقَرٍ، ولهَذا وادٍ منْ غنَم.

ثم إنَّهُ أَتَى الأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وهَيئَتِهِ فقَال: رَجُل مسْكِينٌ تَقَطَّعَتْ بِي الحِبَال فِي سفَرِي، فَلا بَلاغَ اليوم إلا بِاللهِ ثم بِكَ، أَسْأَلكَ بِالذي أَعْطَاك اللونَ الحَسَنَ، والجِلدَ الحَسَنَ، والمال بَعِيرًا أَتَبَلغُ عَليهِ فِي سفَرِي؟ فَقَال لهُ: إنَّ الحُقُوقَ كَثِيرَة، فَقال لهُ: كَأَنِّي أَعْرِفُكَ، أَلَم تَكُنْ أَبْرَصَ يقْذرُك النَّاسُ؟ فَقِيرًا فَأَعْطَاكَ اللهُ؟ فقَال: لقَدْ ورِثتُ لكَابِرٍ عَنْ كَابِرٍ، فقَال: إنْ كُنْتَ كَاذبًا فَصيرَكَ اللهُ إلَى ما كُنْتَ.

وأَتَى الأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ وهَيئَتِهِ فَقَال: لهُ مثل ما قَال لهَذا، فَرَدَّ عَليهِ مثل ما رَدَّ عَليهِ هَذا، فَقَال: إنْ كُنْتَ كَاذبًا فَصيرَكَ اللهُ إلَى ما كُنْتَ.

وأَتَى الأَعْمى فِي صُورَتِهِ فقَال: رَجُل مسْكِينٌ، وابْنُ سَبِيل، وتَقَطَّعَتْ بِي الحِبَال فِي سَفَرِي، فَلا بَلاغ اليوم إلا بِاللهِ ثم بِكَ، أَسْأَلك بِالذي رَدَّ عَليك بَصرَكَ شَاة أَتبَلَغُ بِهَا فِي سَفَرِي؟ فقَال: قَدْ كُنْتُ أَعْمى فرَدَّ اللهُ بَصَرِي، وفَقِيرًا فقَدْ أَغْنَانِي، فَخُذ ما شِئْتَ، فَواللهِ لا أَجْهَدُكَ اليوم بِشَيءٍ أَخَذتَهُ للهِ، فقَال: أَمسِكْ مالكَ، فإِنَّما ابْتُليتُم، فَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنْكَ، وسَخِطَ عَلى صَاحِبَيك)(١).

ومن ههنا خُذل من خذل، ووفق من وفق، فحجب المخذول عن حقيقته، ونسي نفسه، فنسي فقره وحاجته وضرورته إلى ربه، فطغى وعتا، فحقت عليه الشقوة. قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨﴾ العلق:٦/٨.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١﴾ الليل:٥/١١ .

• أكمل الخلق أعظمهم عبودية وشهودا لفقره وحاجته.

وأكمل الخلق أفضلهم عبودية، وأعظمهم شهودا لفقره وضرورته وحاجته إلى ربه، وعدم استغنائه عنه طرفة عين، ولهذا قال النبي ﷺ لفاطمة: (مَا يَمْنَعُكِ أَنْ تَسْمَعِي مَا أُوصِيكِ بِهِ؟ أَنْ تَقُولي إذا أَصْبَحْتِ وَإِذا أَمْسَيْتِ: يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ، بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ، أَصْلِحْ لي شَأْنِي

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل ١٢٧٦/٣ (٣٢٧٧)، ومسلم في كتاب الزهد والرقائق ٢٢٧٥/٤ (٢٩٦٤).

كُلهُ، وَلاَ تَكِلنِي إِلى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ) [(١)].

وروى الترمذي من حديث أنس ﷺ أنه قال: (كَانَ رَسُول اللهِ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُول: يَا مُقَلبَ القُلوبِ، ثَبِّتْ قَلبِي عَلى دِينِك. فَقُلتُ: يَا رَسُول اللهِ آمَنَّا بِك وَبِمَا جِئْتَ بِهِ، فَهَل تَخَافُ عَليْنَا؟ قَال: نَعَمْ، إِنَّ القُلوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ يُقَلبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ) [(٢)].

والنبي ﷺ يعلم أن قلبه بيد الرحمن ﷻ لا يملك منه شيئا، وأن الله سبحانه يصرفه كما يشاء، كيف وهو يتلو قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ الإسراء:٧٤ . فضرورته إلى ربه وفاقته إليه بحسب معرفته به، وحسب قربه منه، ومنزلته عنده.

ولهذا كان ﷺ أقرب الخلق إلى الله وسيلة، وأعظمهم عنده جاها، وأرفعهم عنده منزلة، لتكميله مقام العبودية والفقر إلى ربه. روى أحمد في مسنده من حديث أنس ﷺ أَنَّ رَجُلاً قَال: يَا مُحَمَّدُ، يَا

---

(١) أخرجه النسائي في كتاب عمل اليوم والليلة، باب ما يقول إذا أمسى ١٤٧/٦ (١٠٤٠٥)، والحاكم في المستدرك ٧٣٠/١ (٢٠٠٠) وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، والبيهقي في شعب الإيمان ٤٧٦/١ (٧٦١)، وصححه الشيخ الألباني، انظر السلسلة الصحيحة (٢٢٧)، وصحيح الترغيب والترهيب (٦٦١)، وصحيح الجامع (٥٨٢٠).

(٢) رواه الترمذي في كتاب القدر، باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن ٤٤٨/٤ (٢١٤٠)، ورواه الإمام أحمد في المسند ١١٢/٣ (١٢١٢٨)، وصححه الشيخ الألباني، انظر مشكاة المصابيح (١٠٢)، وظلال الجنة في تخريج السنة لابن أبي عاصم (٢٢٥).

سَيِّدَنَا وابْنَ سَيِّدِنَا، وَخَيْرَنَا وابْنَ خَيْرِنَا، فَقَال رَسُول اللهِ ﷺ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولوا بِقَوْلِكُمْ، وَلاَ تَسْتَجْرِئَنَّكُمُ الشَّيَاطِينُ. أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، أَنَا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَمَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي التِي أَنْزَلَنِيهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ [1].

وروى البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنه أنه سمع عمر رضي الله عنه يقول على المنبر: (سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُول: لا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولهُ) [2].

وذكره الله سبحانه بسمة العبودية في أشرف مقاماته مقام الإسراء ومقام التحدي ومقام الدعوة فقال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝١﴾ الإسراء:١.

وقال: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝٢٣﴾ البقرة:٢٣.

---

(١) رواه أحمد في المسند ٣/١٥٣ (١٢٥٧٣)، والنسائي في كتاب عمل اليوم والليلة، باب ذكر اختلاف الأخبار في قول سيدنا وسيدي ٦/٧٠ (١٠٠٧٧) وقال شعيب الأرنئوط: إسناده صحيح على شرط مسلم، وصححه الشيخ الألباني، انظر السلسلة الصحيحة (١٠٩٧).

(٢) رواه البخاري في كتاب الأنبياء، باب واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا ٣/١٢٧١ (٣٢٦١). ومعنى لا تطروني، من الإطراء وهو الإفراط في المديح ومجاوزة الحد فيه، وقيل هو المديح بالباطل والكذب فيه، كما أطرت النصارى ابن مريم، أي بدعواهم فيه الألوهية وغير ذلك.

وقال: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا ١٩﴾ الجن:١٩.

نال النبي ﷺ ذلك المقام بكمال عبوديته لله، وبكماله مغفرة الله له، فتأمل قوله تعالى في الآية: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥﴾ فاطر:١٥. ذكر اسم الله دون اسم الربوبية، ليؤذن بنوعي الفقر، فإنه كما تقدم نوعان: فقر إلى ربوبيته، وهو فقر المخلوقات بأسرها، وفقر إلى إلوهيته، وهو فقر أنبيائه ورسله وعباده الصالحين، وهذا هو الفقر النافع [(١)].

وقد ذكر القشيري أيضا أن الفقر على ضربين: فقر الخِلقة وهو الفقر الاضطراري والفقر الذاتي؛ وهو عام لكل أحدٍ؛ فكل مخلوق مفتقر إلى خالقه، فهو قد حصَل من العَدَم، فهو مفتقر إليه ليبديه وينشيه، ثم بعد ذلك مفتقر في حال بقائه إليه ليديمه ويقيه. فاللهُ سبحانه غني، والعبدُ فقير؛ العبدُ فقير بذاته، واللهُ غني بذاته.

وأما فقر الصفة فهو التجرد من التعلق بالمال، فالفقير إلى الله ﷻ هو الغني بالله، والافتقار إلى الله ﷻ لا يخلو من الاستغناء بالله، فالمفتقر إلى الله مستْغن بالله، والمستغني بالله ﷻ مفتقر إلى الله. ومن شرف الفقر اقترانه بالتواضع والخضوع، ومن آفات الغنى امتزاجه بالتكبُّر، وشَرف العبد في فقره [(٢)].

---

(١) طريق الهجرتين لابن القيم ص٢٦ بتصرف.

(٢) انظر بتصرف تفسير القشيري المسمى لطائف الإشارات ٣/٦٥، نشر دار الكتب العلمية بيروت، ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ٦/٢١٣، نشر دار الكتب العلمية بيروت.

قال ابن القيم رحمه الله: (ولهذا كان الصواب في مسألة علة احتياج العالم إلى الرب سبحانه غير القولين اللذين يذكرهما الفلاسفة والمتكلمون؛ فإن الفلاسفة قالوا: علة الحاجة الإمكان. والمتكلمون قالوا: علة الحاجة الحدوث. والصواب أن الإمكان والحدوث متلازمان، وكلاهما دليل الحاجة والافتقار، وفقر العالم إلى الله سبحانه أمر ذاتي لا يعلل، فهو فقير بذاته إلى ربه الغني بذاته، ثم يُستدل بإمكانه وحدوثه وغير ذلك من الأدلة على هذا الفقر. والمقصود أنه سبحانه أخبر عن حقيقة العباد وذواتهم بأنها فقيرة إليه سبحانه، كما أخبر عن ذاته المقدسة وحقيقته أنه غني حميد، فالفقر المطلق من كل وجه ثابت لذواتهم وحقائقهم من حيث هي، والغنى المطلق من كل وجه ثابت لذاته تعالى وحقيقته من حيث هي، فيستحيل أن يكون العبد إلا فقيرا، ويستحيل أن يكون الرب سبحانه إلا غنيا، كما أنه يستحيل أن يكون العبد إلا عبدا، والرب إلا ربا) [١].

- **حقيقة الطاغوت تجاوز الحد في الخروج من الفقر الذاتي.**

وكل من استغنى بماله، أو جاهه، أو ملكه، وعصى الله ونازعه في أمره، فإنه خرج عن حده من كونه عبدا فقيرا، من شأنه الخضوع والافتقار إلى أن طغى وبغى واغتر بعدم الحاجة والاضطرار، فأوقعه غرور الهوى في أن يرى نفسه مستغنيا عن غيره، لا يفتقر إلى أحد في قيام وصفه وتحقيق مراده.

---

(١) انظر طريق الهجرتين لابن القيم ص٢٣.

قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦﴾ العلق:٦. ثم بين أن طغيانه كان بسبب رؤيته لنفسه مستغنيا عن غيره فقال: ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧﴾ العلق:٧. ثم أعاد الله الأمر إليه سبحانه في كونه الغني المنفرد بوصف الغنى، والاستغناء المطلق عن الغير إنما هو في حقيقته مقصور على الرب الأعلى فقال: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ٨﴾ العلق:٨ .

وحقيقة الطاغوت تجاوز الحد في الخروج من الفقر الذاتي إلى الغنى الذاتي، باستعلاء هوى النفس في الإنسان، والاستكبار والظلم والطغيان، وهو كل ما يعبد من دون الله ﷻ.

قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٤﴾ البقرة:٣٤، وقال: ﴿قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ١٣﴾ الأعراف:١٣.

وقال عن فرعون: ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ٣٩﴾ القصص:٣٩.

وقال تعالى: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ٤٤ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ٤٥ قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ٤٦﴾ طه:٤٣/٤٦.

وقال: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ١٥ إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى ١٦ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ١٧ فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ١٨ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ١٩ فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ٢٠ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ٢١ ثُمَّ أَدۡبَرَ يَسۡعَىٰ ٢٢ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ٢٣ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٤

﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْأٓخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ النازعات: ٢٦/١٥.

وقال عن استعلاء هوى النفس في الإنسان ومنازعته لربه في وصف المشيئة بالعلو والطغيان: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ النازعات: ٤١/٣٤.

وقال تعالى عن الكفار واستغنائهم على الحق: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾﴾ عبس: ١١/١.

وقال سبحانه لنبيه ﷺ: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾ هود: ١١٢.

وقد سمي الطاغوت طاغوتا لتجاوز الحد في كونه عبدا فقيرا زعم لنفسه، أو زعم له غيره أنه علا في الكمال، واستغنى عن الطلب والسؤال، كما قال رب العزة والجلال: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ البقرة: ٢٥٦

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ

فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ النحل:٣٦.

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ﴿١٧﴾﴾ الزمر:١٧.

• كمال توحيد الربوبية لله يظهر بكمال توحيد العبودية لله.

إذا كانت معاني العبودية تقوم على معاني الذل والافتقار والحاجة والاضطرار، فإن معاني الربوبية تقوم على الاستغناء بالنفس في كل اسم أو صف بحيث يكون المسمى والموصوف كاملا، فكمال الأسماء والصفات والأفعال هو الذي يغني صاحبه عن كل معاني الحاجة والقهر والاضطرار والذل والافتقار، وهذا الوصف ليس لأحد على الإطلاق إلا لرب العزة والجلال. وفي المقابل فإن توحيد العبودية لله هو إفراده بالطاعة والمحبة والتسليم، والافتقار بالخضوع والتعظيم.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ الأنبياء:٢٦/٢٩.

وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ﴿٨٨﴾ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾﴾ مريم:٨٨/٩٣.

والسبب في أن اتخاذ الولد شرك بالله يستوجب غضبه، أن الولد يستغني بأبيه، ودعوى استغنائه تستوجب توجّه الفقير الذاتي بطلب الحاجة إلى الغني الذاتي، وحقيقة الأمر أن عيسى عليه السلام ليس غنيا بذاته، بل فقير بذاته يأكل الطعام ويمشي في الأسواق كما قال تعالى:

﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٧٥﴾ المائدة:٧٥ .

وكذلك قوله تعالى: ﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ١٧٢﴾ النساء:١٧٢ .

حقيقة الأمر أن عيسى عليه السلام ليس غنيا بذاته، وإنما الله وحده هو الغني بذاته، وما سواه فقير إليه فقرا ذاتيا، ومن ثم فإنهم إذا التجئوا إلى غير الله عز وجل ظنا منهم أنه موصوف بالغنى الذاتي ضيعوا أنفسهم، وضيعوا جميع الفقراء بذواتهم حين اتبعوهم في طلب المدد منهم، وفسد الكون بشركهم لأنهم ركنوا إلى عاجز فقير بذاته، لن ينصرهم أو يعطيهم شيئا، فلم يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له.

ولو كان من ركنوا إليه موصوفا بالغنى على الحقيقة، وموجودا كائنا بالفعل، أو ولدا للرحمن على الحقيقة، لما منعهم الله عز وجل من عبادته أو رجوع الفقير بذاته إليه في طلب حاجته، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ ٨١﴾ الزخرف:٨١.

لكنهم في الحقيقة أضعف من الذباب في فقرهم الذاتي وحاجتهم إلى الغني بذاته، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ الحج:٧٣/٧٤.

ركنوا إلى فقراء بذواتهم من أمثالهم، وبالرغم من ذلك كان قيامهم الفعلي بإقامة الله لهم، وقيام حوائجهم وبقائهم متنعمين بفضل رب العالمين، وهذا عين الظلم العظيم الذي وعظ لقمان ولده أن ألا يقع فيه، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ لقمان:١٣. فالله سبحانه يخلق وهم يعبدون غيره، ويرزق وهم يشكرون سواه.

قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾ فاطر:٤١. وقال في أول السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾ فاطر:٣.

وعند البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إذا تَهَجَّدَ مِنْ اللَّيْل قَالَ: اللهُمَّ رَبَّنَا لك الحَمْدُ، أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْض، ولَكَ الحَمْدُ أَنْتَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْض وَمَنْ فِيهنَّ، ولَكَ الحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْض وَمَنْ فِيهنَّ، أَنْتَ الحَقُّ، وَقَوْلُكَ الحَقُّ، وَوَعْدُكَ الحَقُّ، وَلقَاؤكَ الحَقُّ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ

حَقٌّ، اللهُمَّ لكَ أَسلمْتُ، وبِكَ آمَنْتُ، وعَليْكَ توَكَّلتُ، وإليْكَ خاصَمْتُ، وبِكَ حاكَمْتُ، فاغْفِرْ لي ما قدَّمْتُ وما أخَّرْتُ وأَسْرَرْتُ وأَعْلنْتُ، وما أنْتَ أَعْلمُ بِهِ منِّي، لا إلهَ إلا أنْتَ)[1].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٩٤﴾ الأعراف:١٩٤.

وقال: ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ١٧﴾ العنكبوت:١٧.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا ٦٧﴾ الإسراء:٦٧.

والمعنى إذا مسكم الضر في البحر أي الخوف الشديد كخوف الغرق، والإنسان في تلك الحالة لا يتضرع إلى صنم أو شمس أو قمر أو نجم أو حجر، أو وثن أو شجر، وإنما يتضرع إلى الله تعالى، فلما نجاكم من الغرق وهول البحر، وأخرجكم إلى البر، أعرضتم عن الإخلاص وتمسكتم بغيره.

---

(١) رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ٢٧٠٩/٦ (٧٠٠٤)، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء فى صلاة الليل وقيامه ٥٣٢/١ (٧٦٩).

- **توحيد الإلوهية عند الخلف هو توحيد الربوبية عند السلف.**

ولما كان كمال توحيد العبودية قائما على الإقرار بوصف الافتقار والاحتياج إلى الله في قيام الذات والأقوال والأفعال، كان كمال توحيد الربوبية قائما على الإقرار بوصف الغنى والكمال في توحيد الأسماء والصفات والأفعال، واعتقاد أن أفعال الله صادرة عن كماله، وكماله قائم على كمال أسمائه وصفاته، بعكس أوصاف العباد، فهي أوصاف نقص عند ولادتهم، وهم في اضطرار وافتقار منذ نشأتهم، ومن ثم فإن فقر الخلائق فقر ذاتي، شاء من شاء، وأبى من أبى.

ولا يصح القول بأن معنى الإلوهية مقصور على معنى الخالقية، كما هو حال الخلف المعروفين بأهل النظر والكلام، والذين اتبعوا فلاسفة اليونان، حيث جعلوا الإله بمعنى الخالق، أو القادر على الاختراع، وجعلوا غاية التوحيد عندهم إثبات أن وجود الصانع وأنه واحد، وأن الواحد الحقيقي هو الشيء الذي لا ينقسم.

وقد ذكر الله ﷻ في كتابه أن المشركين كانوا يقرون بتوحيد الربوبية، وكانوا يعتقدون أن الله خالقهم ورازقهم، وأنه المنفرد بتدبير أمرهم كما قال تعالى في شأنهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ العنكبوت:٦١.

لكنهم أشركوا بالله في كونهم عادوا بفقرهم ودعائهم في قضاء حوائجهم إلى أوليائهم وإلى ربهم معا، فاتخذوا أولياءهم أندادا كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ

ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾ البقرة:١٦٥.

ولما عذبوا في جهنم: ﴿قَالُواْ وَهُمۡ فِيهَا يَخۡتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ الشعراء:٩٦/٩٨. فسووا بين الله وبين آلهتهم في المحبة والتعظيم، وخضعوا للموتى في أضرحتهم كخضوعهم للعلي العظيم.

كما يفعل كثير من عوام المسلمين في عصرنا إذ يعظمون الله ويعظمون معه الموتى كما قال قائلهم:

شيخي الرفاعي له بين الورى همم
نصالها ماضيات تشبه القدر
دخلت في ظلها أبتغي التفيؤ من
رمضاء دهري فجاء الدر معتذر[(١)].

والمعنى المقصود في هذين البيتين أن الشيخ الرفاعي قوته في العالم تشبه قوة الله في جريان المقادير، وأنه لما استغاث بالرفاعي جاء الدهر الذي يقلبه رب الدهر معتذرا إليه، فقوة الرفاعي في اعتقاده أشد من قوة الله وقدرته في جريان المقادير، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا. ومن ذلك قول الآخر في تعظيم المخلوق الميت:

يا ابن الرفاعي ما زالت ضمائرنا

---

(١) الجواهر النقية في طريقة السادة الرفاعية لصالح المكتبي، ومعه كتاب متن أبي الشجاع طبعة المكتبه العثمانية ص١٥.

تطوى على حبك الغالي فترتاح

مهما دعوناك في ضيق تجيب

ولو ضاقت بنا كرة الدنيا فتنزاح

إن الولاية مشكاة وأنت لها

طول المدى يا أبا العباس مصباح [1].

وقول الثالث:

وقفت بالذل في أبواب عزمكموا

مستشفعا من ذنوبي عندكم بكم

أعفر الخد ذلا في التراب عسى

أن ترحموني وترضوني عبيدكم

فإن رضيتم فيا عزى ويا شرفي

وإن أبيتم فمن أرجوه غيركم[2].

هذا مع إشاعة أصحاب الطرق الصوفية للرهبة في قلوب العامة بعدم الاعتراض وإلا ينزل بالمعترض العذاب ويلحق به العقاب، ولعنة الولي في ضريحه ستطارده في كل مكان .

هكذا عكفوا على قبورهم يطلبون بركتهم ويستعينون بقوتهم

---

(١) انظر السابق ص١٧.

(٢) انظر السابق ص١٨، وانظر المزيد من هذا القبيل في حسن الصنيع البديع في مدح النبي الشفيع ص٥٦ وما بعدها. وانظر أيضا الموالد دراسة للعادات والتقاليد الشعبية في مصر، للدكتور فاروق أحمد مصطفي، ص٢٩٥، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠م.

ويطلبون العون والمدد منهم ، وتوفير الحماية والعناية في أوقات الشدة والأزمات، ولا يخفي على الناظر ما يري من اجتماع الملايين على الأضرحة في كل مكان، ولا شك عند أصحاب البصيرة أن مثل هذا الاعتقاد لا علاقة له بأصول الإسلام، ومبادئ التوحيد، وإن ادعي صاحبه حسن النية في تعظيم الأولياء ومحبتهم. قال تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ يوسف:١٠٦.

والقصد أن القلوب مفطورة على الإقرار بالخالق الغني بذاته أعظم من كونها مفطورة على الإقرار بغيره من الموجودات، وهذا فرعون الذي تظاهر بإنكار الصانع وتجاهله كان مستيقنا بالله كما ورد في قول موسى عليه السلام: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ ﴾ الإسراء:١٠٢.

وقال تعالى عن فرعون وقومه: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ النمل:١٤.

وقد ذكر ابن تيمية رحمه الله أن هؤلاء المتكلمين المتأخرين الذين خلطوا الفلسفة بالكلام كثر اضطرابهم وازدادت شكوكهم وحيرتهم بحسب ما ازدادوا به من ظلمة هؤلاء المتفلسفة، وأخرجوا من التوحيد ما هو منه كتوحيد الإلهية، وإثبات حقائق أسماء الله وصفاته، ولم يعرفوا من التوحيد إلا توحيد الربوبية، وهو الإقرار بأن الله خالق كل شيء وربه، وهذا التوحيد كان يقر به المشركون، وهم مع هذا يعبدون غيره. وإنما التوحيد الذي أمر الله به العباد هو توحيد الإلوهية المتضمن لتوحيد

الربوبية، وأن يعبد الله وحده لا يشركون به شيئا فيكون الدين كله لله، ولا يخاف إلا الله، ولا يدعى إلا الله، ويكون الله أحب إلى العبد من كل شيء فيحبون لله ويبغضون لله، ويعبدون الله، ويتوكلون عليه[1].

• الحاجة إلى الرزق دليل الافتقار إلى الخالق الرازق.

اعلم أن الله ﷻ لما كان هو الغني بذاته القائم بنفسه، وقد خلق الخلائق فقراء بذواتهم، وأنهم في فقرهم لا حول لهم ولا قوة إلا به سبحانه، فإنه من عدله وحكمه وفضله أنه فرض على نفسه تفضلا منه وتكرما أن يتكفل بعد خلقهم بقضاء حوائجهم، وإمدادهم بما يكفي لقيام حياتهم، فقضى سبحانه أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فالعبد لا ينقطع رزقه أبدا منذ ظهرت خلقته في بطن أمه إلى أن يموت، غير أن الله ﷻ جعل رزقه في الدنيا مرتبطا بحكمته في تقليب الأسباب ومعاني الابتلاء؛ فإذا خرج منها، فآخر رزقه من الدنيا أول رزقه من الآخرة على حكمته في إظهار معاني الجزاء.

فإذا أيقن العبد بذلك اطمأن قلبه إلى أن حوائجه ستقضى، وأنه لا بدّ من وصول الرزق إليه في وقته، كما لا بدّ من بلوغ أجله في موعده، فلم يكن عليه إلاّ مراعاة الأحكام، وتمييز الحلال من الحرام، والعمل بشريعة الإسلام.

روى ابن ماجه وصححه الألباني عَن جابِرِ بْن عَبْدِ اللهِ ﷺ أن رسُول اللهِ ﷺ قال: (أَيها الناسُ، اتقوا اللهَ وَأَجملوا في الطَّلبِ، فإِن نفسًا

---

(١) انظر بتصرف منهاج السنة النبوية لابن تيمية ٣/٢٨٨ : ٢٩٠ مؤسسة قرطبة.

لن تموت حَتى تستوْفِي رزقَهَا، وَإن أَبْطَأَ عَنهَا، فاتقوا اللهَ وَأَجملوا في الطَّلبِ، خُذوا ما حَل، وَدَعُوا ما حَرَم)[1].

قال الشيخ تقي الدين ابن تيمية: (وأما فقر المخلوقات إلى الله بمعنى حاجتها كلها إليه، وأنه لا وجود لها ولا شيء من صفاتها وأفعالها إلا به، فهذا أول درجات الافتقار، وهو افتقارها إلى ربوبيته لها وخلقه وإتقانه، وبهذا الاعتبار كانت مملوكة له، وله سبحانه الملك والحمد، وهذا معلوم عند كل من آمن بالله ورسله الإيمان الواجب، فالحدوث دليل افتقار الأشياء إلى محدثها، وكذلك حاجاتها إلى محدثها بعد إحداثه لها دليل افتقارها، فإن الحاجة إلى الرزق دليل افتقار المرزوق إلى الخالق الرازق)[2].

واعلم أن الإنسان قد يكون فقيرا لا ملكة له في الظاهر، وهو عارٍ عن وصف الفقر الذي مدح الله أهله، وهم الذين لا يرون ملكة إلا لمالكها الحق ذي الملك والملكوت. وقد يفوض الله إلى أحد هؤلاء شيئا من الرزق، فيكون كالخازن في ملك سيده، كما كان سليمان بن داود عليه السلام أوتي ملكا لا ينبغي لأحد من بعده، وكذلك الخليل وشعيب والأغنياء من الأنبياء عليهم السلام، وكذلك أغنياء الصحابة رضي الله عنهم، فهؤلاء لم يخرجوا من ملكهم الظاهر الذي ابتلاهم الله به، ولكن

---

(١) رواه ابن ماجه في كتاب التجارات، باب الاقتصاد في طلب المعيشة ٢/٧٢٥ (٢١٤٤)، وصححه الألباني، انظر صحيح الترغيب والترهيب (١٦٩٨)، والسلسلة الصحيحة (٢٦٠٧)، ومشكاة المصابيح (٥٣٠٠).

(٢) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ١/٤٥.

خرجوا من الملكية لنفوسهم وأهوائهم، فلا يرون لأنفسهم ملكا حقيقيا، بل يرون ما في أيديهم لله ﷻ أمانة ووديعة استرعاهم الله وابتلاهم بها، لينظر هل يتصرفون فيه تصرف العبد، أو تصرف الملاك الذين يعطون لهواهم، ويمنعون لهواهم[1].

ومن ثم فإن وجود المال في يد الفقير لا يقدح في فقره، إنما يقدح في فقره رؤيته لمُلكه ومِلكيته، فمن عافاه الله في الدنيا لم يتلوث باطنه بأوساخ المال وتعبه، وكان كالخازن لسيده الذي ينفذ أوامره في ماله، فهذا لو كان بيده من المال أمثال جبال الدنيا لم يضره، ومن لم يعاف من ذلك أصبحت الدنيا أكبر همه ومبلغ علمه، إن أُعطي رضي، وإن مُنع سخط، فهو عبد الدينار والدرهم، يصبح مهموما ويمسي كذلك، يبيت مضاجعا للمال، وتفرح نفسه إذا ازداد، وتحزن وتجزع وتأسف إذا فات منه شيء، بل يكاد يتلف ويصعق ويموت، إذا توهمت نفسه الخسارة الفادحة والفقر[2].

أما من استغنى بمولاه المالك الحق الذي بيده خزائن السموات والأرض فهو مطمئن إلى ربه، إذا أصاب المال الذي في يده مصيبة ما، رأى أن المالك الحق هو الذي أصاب مال نفسه، فما للعبد وما للجزع والهلع، وإنما تصرف مالك المال في ملكه الذي هو وديعة في يد مملوكه، فله الحكم في ماله، إن شاء أبقاه، وإن شاء ذهب به وأفناه، فلا يتهم مولاه في تصرفه في ملكه، ويرى تدبيره عن مظاهر الحكمة، فليس

---

(١) طريق الهجرتين لابن القيم ص٣١ بتصرف.

(٢) السابق ص٣١ بتصرف.

لقلبه بالمال تعلق، ولا له به اكتراث لصعوده عنه، وارتفاع همته إلى المالك الحق فهو غني به وبحبه، ومعرفته وقربه عن كل ما سواه، وهو فقير إليه دون ما سواه. فهذا هو الذي بريء من رؤية الملكية الموجبة للطغيان كما قال الله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧ ﴾ العلق:٦/٧. ولم يقل إن استغنى، بل جعل الطغيان ناشئا عن رؤيته غنى نفسه [1].

ولا شك أن جميع الناس في ذواتهم وصفاتهم فقراء إلى الله من جميع الوجوه، فهم فقراء في إيجادهم، فلولا إيجاد الله إياهم لما وجدوا، وهم فقراء في إعدادهم بالقوى والأعضاء والجوارح التي لولا إعداده إياهم بها لما استعدوا لأي عمل كان، وهم فقراء في إمدادهم بالأقوات والأرزاق والنعم الظاهرة والباطنة، فلولا فضله وإحسانه وتيسيره الأمور لما حصل لهم من الرزق والنعم شيء. فقراء في صرف النقم عنهم، ودفع المكاره، وإزالة الكروب والشدائد. فلولا دفعه عنهم، وتفريجه لكرباتهم، وإزالته لعسرهم، لاستمرت عليهم المكاره والشدائد. فقراء إليه في تربيتهم بأنواع التربية، وأجناس التدبير. فقراء إليه في تألههم له، وحبهم له، وتعبدهم، وإخلاص العبادة له تعالى، فلو لم يوفقهم لذلك، لهلكوا، وفسدت أرواحهم، وقلوبهم وأحوالهم. فقراء إليه في تعليمهم ما لا يعلمون، وعملهم بما يصلحهم، فلولا تعليمه، لم يتعلموا، ولولا توفيقه، لم يصلحوا [2].

---

(١) السابق ص٣٢ بتصرف.

(٢) تفسير السعدي ص٦٨٧، نشر مؤسسة الرسالة بيروت.

روى البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (كَان النبِيُّ ﷺ يقول: اللهُم إِني أَعُوذ بِك من فتنة النار، وَعذابِ النار، وفتنة القبْر، وَعذابِ القبْر، وَشَر فتنة الغِنى، وَشَر فتنة الفقر اللهُم إِني أَعُوذ بِكَ من شَر فتنة المسِيحِ الدَّجال، اللهُم اغْسِل قلبِي بِماءِ الثلج وَالبَردِ، وَنَق قلبِي من الخَطَايَا، كَما نقيْت الثوْبَ الأَبْيَضَ من الدَّنسِ)[1].

قال الله تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۝٥٦ ﴾ المؤمنون:٥٥/٥٦.

وروى البخاري من حديث أبي هُريْرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (ليس الغِنى عن كَثرة العَرضِ، وَلَكِن الغِنى غِنى النفسِ)[2].

وروى البخاري من حديث سَهل بن سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ ﷺ أَنهُ قال: (مر رجل على رسول اللهِ ﷺ فقال: لرجل عِندَهُ جالس: ما رأْيُك في هذا؟ فقال: رجل من أَشْراف الناس هذا، والله حَريٌّ إن خَطَبَ أَن يُنكَحَ، وَإِن شَفعَ أَن يُشَفعَ. قال: فسَكَت رسول اللهِ ﷺ ثم مر رجل فقال له رسول اللهِ ﷺ: ما رأْيُك في هذا؟ فقال: يا رسُول اللهِ هذا رجل من فقراءِ المسْلمين، هذا حَريٌّ إن خَطَبَ أَن لا يُنكَحَ، وَإِن

---

(١) رواه البخاري في الدعوات، باب التعوذ من فتنة الفقر ٥/٢٣٤٤ (٦٠١٦)، ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة، باب التعوذ من شر الفتن ٤/٢٠٧٨ (٥٨٩).

(٢) رواه البخاري في الرقاق، باب الغنى غنى النفس ٥/٢٣٦٨ (٦٠٨١)، ومسلم في كتاب الزكاة، باب ليس الغنى عن كثرة العرض ٢/٧٢٦ (١٠٥١). وكثرة العرض حطام الدنيا من الأمتعة ونحوها أو ما يصيبه الإنسان من حظوظ الدنيا.

شفَعَ أَن لا يُشفعَ، وَإن قال أن لا يُسْمعَ لقوْلهِ، فقال رسول اللهِ ﷺ: هذا خَيْر من ملءِ الأَرض مثل هذا)[١].

روى البخاري من حديث أبي وَائِل رضي الله عنه قال: (عُدْنا خبَّابًا فقال: هَاجرنا مع النبي ﷺ نريدُ وَجهَ اللهِ، فوَقعَ أَجرنا على اللهِ، فمنا من مضَى لم يَأْخُذ من أَجرهِ شيئا، منهم مصْعَبُ بن عُميْر، قتل يوم أُحُدٍ وَترك نمرة، فإذا غَطَّيْنا رأْسَهُ بَدَت رجلاهُ، وإذا غَطَّيْنا رجليْهِ بَدَا رأْسُهُ، فأَمرنا النبي ﷺ أَن نغَطِّيَ رأْسَهُ، وَنجعَل على رجليْهِ من الإِذخِرِ، وَمنا من أَيْنعَت له ثمرتهُ فهُوَ يَهْدِبُهَا)[٢].

روى البخاري من حديث عِمران بن حُصَيْن رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (اطَّلعْت في الجنة، فرأَيْت أَكْثر أَهْلهَا الفقراءَ، وَاطَّلعْت في النار فرأَيْت أَكْثر أَهْلهَا النسَاءَ)[٣].

روى البخاري من حديث البَراءِ بن عَازبٍ رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (إذا أَتيْت مضْجعَكَ، فتوَضَّأْ وُضُوءَكَ للصَّلاة، ثم اضْطَجعْ على شِقك الأَيْمن، ثم قل: اللهم أَسْلمت وَجهِي إِلَيْكَ، وَفوَّضْت أَمري إِلَيْكَ،

---

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب فضل الفقر ٥/٢٣٦٩ (٦٠٨٢).

(٢) رواه البخاري في فضائل الصحابة، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة ٣/١٤١٥ (٣٦٨٤)، ومسلم في الجنائز، باب في كفن الميت ٢/٦٤٩ (٩٤٠). والنمرة كساء ملون من صوف. وقوله: أينعت أي نضجت وأدركت. وقوله: يهدبها أي يقطفها ويجتنيها، وهذه استعارة لما فتح الله تعالى عليهم من الدنيا وتمكنوا فيها.

(٣) رواه البخاري في بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة ٣/١١٨٤ (٣٠٦٩)، ومسلم عن ابن عباس في كتاب الرقاق، باب أكثر أهل الجنة الفقراء، وأكثر أهل النار النساء ٤/٢٠٩٦ (٢٧٣٧).

وَأَلجأْت ظَهْري إِليْكَ، رغْبَة وَرهْبَة إِليْكَ، لا ملجأَ ولا منجى منكَ إلا إِليْكَ، اللهم آمنت بِكِتابِكَ الذي أَنزَلت، وَبِنبِيِّكَ الذي أَرسَلت، فإِن مت من ليْلتكَ فأَنت على الفطْرة، وَاجعَلهُن آخِرَ ما تتكَلم بِهِ، قال: فردَّدْتهَا علي النبي ﷺ، فلما بَلغْت: اللهم آمنت بِكِتابِكَ الذي أَنزَلت، قلت: وَرسُولكَ. قال: لا، وَنبِيِّكَ الذي أَرسَلت [(١)].

روى البخاري من حديث أبي هُريْرة رضي الله عنه أن رسول اللهِ ﷺ قال: (ما من موْلودٍ إلا يُولدُ على الفطْرة، فأَبوَاهُ يُهَوِّدَانهِ، أو ينصرانه، أو يُمجسَانهِ، كما تنتج البَهِيمةُ بَهِيمة جمعَاءَ، هل تحِسُّون فيها من جدْعَاءَ؟ ثم يقول أبو هُريْرة رضي الله عنه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ الروم: ٣٠) [(٢)].

---

(١) رواه البخاري في كتاب الوضوء، باب فضل من بات على الوضوء ١/٩٧ (٢٤٤)، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع ٤/٢٠٨١ (٢٧١٠).

(٢) رواه البخاري في كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه وهل يعرض على الصبي الإسلام ١/٤٥٦ (١٢٩٣)، ومسلم في كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين ٤/٢٠٤٧ (٢٦٥٨). الجمعاء هي تامة الأعضاء المستوية الخلق. والجدعاء المقطوعة الأذن أو الأنف أو غير ذلك.

المطلب الثالث

معاني الربوبية وحقيقة الصفات السلبية
التي قررها الأشعرية

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فقد تحدثنا في المطلب السابق عن المقصود بالإمكان في الحكم العقلي عند الفلاسفة، وبينا أن دليل الإمكان هو علة احتياج العالم إلى الله عندهم، وبينا كذلك وجه الرد على من قدم تفسير الفلاسفة للأفول وجعله تفسير خاصة الخاصة، وزعم في المقابل أن تفسير السلف هو منطق العامة وأهل الظاهر .

ثم ذكرنا رد شيخ الإسلام ابن تيمية على من جعل الأفول بمعنى الإمكان، وأن هذا من تحريف الكلم عن مواضعه، وعلمنا أيضا أن الفقر فقران، فقر اضطراري عام، وفقر اختياري خاص، وأن أكمل الخلق هم أعظمهم عبودية وشهودا لفقره وحاجته إلى ربه.

كما بينا أن حقيقة الطاغوت تجاوز الحد في الخروج من الفقر الذاتي إلى الغنى الذاتي، وأن كمال توحيد الربوبية لله ﷻ يظهر بكمال توحيد العبودية له، وعلمنا أن توحيد الإلوهية عند الخلف هو توحيد

الربوبية عند السلف، وأن الحاجة إلى الرزق دليل الافتقار إلى إمداد الله ﷻ لخلقه فلا غني بذاته سواه فيلجئون إليه في رزقهم وكفاية حاجتهم.

وفي هذه المطلب نتحدث بإذن الله ﷻ عن معاني الربوبية وحقيقة الصفات السلبية التي قررها الأشعرية.

- **احتجاج الأشعرية على إثبات توحيد الربوبية بدليل التمانع.**

الأشاعرة يثبتون توحيد الربوبية بدليل التمانع، وخلاصته أنه لو كان للعالم مدبران وربان، فإنهما يتمانعان ويتعارضان، وإذا أراد أحدهما تدبير شيء، وأراد الآخر عدمه، فإنه محال وجود مرادهما معا.

ووجود مراد أحدهما دون الآخر، يدل على عجز الآخر، وعدم اقتداره، واتفاقهما على مراد واحد في جميع الأمور غير ممكن، فإذًا يتعين أن الإله هو الذي يوجد مراده وحده من غير ممانع ولا مدافع، وهو دليل عقلي محض من إنشائهم.

ويحتجون له بقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ الأنبياء:٢٢. مع أن معنى الإله في الآية هو المعبود بحق دون شرك. وأقرب النصوص لدليل التمانع هو قوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ المؤمنون:٩١.

ذكر ابن أبي العز أن المشهور عند أهل النظر إثباته بدليل التمانع، وهو أنه لو كان للعالم صانعان فعند اختلافهما مثل أن يريد أحدهما تحريك جسم وآخر تسكينه أو يريد أحدهما إحياءه والآخر إماتته، فإما

أن يحصل مرادهما أو مراد أحدهما، أو لا يحصل مراد واحد منهما. والأول ممتنع لأنه يستلزم الجمع بين الضدين، والثالث ممتنع لأنه يلزم خلو الجسم عن الحركة والسكون وهو ممتنع، ويستلزم أيضا عجز كل منهما، والعاجز لا يكون إلها، وإذا حصل مراد أحدهما دون الآخر كان هذا هو الإله القادر والآخر عاجزا لا يصلح للإلهية [(١)].

وكثير من أهل النظر يزعمون أن دليل التمانع هو معنى قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ الأنبياء:٢٢. لاعتقادهم أن توحيد الربوبية الذي قرروه هو توحيد الإلهية الذي بينه القرآن ودعت إليه الرسل عليهم السلام، وليس الأمر كذلك، بل التوحيد الذي دعت إليه الرسل ونزلت به الكتب هو توحيد الإلهية المتضمن توحيد الربوبية وهو عبادة الله وحده لا شريك له، فإن المشركين من العرب كانوا يقرون بتوحيد الربوبية، وأن خالق السماوات والأرض واحد كما أخبر تعالى عنهم بقوله: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ العنكبوت: ٦١.

وقوله: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ المؤمنون:٨٤/٨٥.

ومثل هذا كثير في القرآن، ولم يكونوا يعتقدون في الأصنام أنها مشاركة لله في خلق العالم، بل كان حالهم فيها كحال أمثالهم من

---

(١) انظر بتصرف شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي ص٧٨، نشر المكتب الإسلامي، بيروت.

مشركي الأمم من الهند والترك والبربر وغيرهم، تارة يعتقدون أن هذه تماثيل قوم صالحين من الأنبياء والصالحين، ويتخذونهم شفعاء ويتوسلون بهم إلى الله، وهذا كان أصل شرك العرب. فعلم أن التوحيد المطلوب هو توحيد الإلهية الذي يتضمن توحيد الربوبية [1].

ونحن لو لنظرنا ودققنا في الآية التي يحتجون بها على دليل التمانع لوجدناها تتحدث عن توحيد العبادة لله صراحة.

قال تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۗ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ الأنبياء: ٢١/٢٦.

- **الأساس الذي قام عليه ابتداع الصفات السلبية عند الأشعرية.**

الصفات السلبية التي قررها الأشعرية خمس صفات، وهي الوحدانية ومخالفة الحوادث، والقيام بالنفس، والقدم والبقاء، وهي في حقيقتها أصول عقلية محضة بنيت على ركيزتين اثنتين:

الركيزة الأولى: أنهم استخدموا الأقيسة العقلية التمثيلية والشمولية في الحكم على الحقائق الغيبية ليستنبطوا من خلالها ما ينبغي أن يكون

---

(١) انظر السابق ص٧٩ بتصرف.

لله ﷻ من أوصاف لا تتشابه بزعمهم مع ما يرون من ذوات المخلوقات وصفات الكائنات في عالم الشهادة، وهذا ما يسمي عندهم بقياس الغائب على الشاهد، وكل النصوص القرآنية والنبوية التي نصت على ما أخبر الله ﷻ به عن نفسه من الصفات والأفعال الإلهية هي عندهم ظواهر ظنية باطلة ومستحيلة تدل على النقص والتشبيه والجسمية التي يرونها في عالم الشهادة.

الركيزة الثانية: أنهم لما زعموا أن ما أثبته الله ﷻ لنفسه في كتابه وما أثبته رسوله ﷺ في سنته محكوم بنفس المقاييس العقلية التي تستخدمها العين البشرية في تصور الأشياء، دفعهم ذلك إلى ذكر خمسة أشياء عقلية أطلقوا عليها الصفات السلبية، ويزعمون من خلالها أنها تسلب عن الله ﷻ التجسيم وصفات الحوادث، أو تسلب ما لا يليق بالله مما نسبه لنفسه في كتابه وفي سنة نبيه، ولذلك سميت بالصفات السلبية أي التي تنفي عن الله ﷻ النقص الذي يوصف به المخلوق، وهم يعطلون كل ما ورد في الكتاب والسنة من الصفات بدعوى مخالفة الحوادث وسلب ما يوهم التشبيه والجسمية أو الظاهر الباطل المستحيل.

وتلك الصفات السلبية الخمس التي قررها الأشعرية من الأمور المبتدعة التي لا يعرفها أحد من الصحابة ﵃ ولا التابعين، لأنها أصول عقلية مستقاة من فلاسفة اليونان، ومبنية على النظر إلى أوصاف الإنسان ثم الحكم من خلالها على نفي أوصاف الرحمن، وذلك لمجرد

ذكر اللفظ المجرد المشترك العام الذي يضاف إلى الإنسان مرة فنفهم معنى الكلام ونتصور الكيفية التي دل عليها، ويضاف إلى الرحمن مرة، فنفهم معنى الكلام، ونعجز عن تصور الكيفية التي دل عليها.

وهذه الصفات السلبية العقلية المحضة أصول محدثة لا تستند في المقام الأول إلى الأدلة القرآنية والنبوية، بل إنهم إن ذكروا نصا قرآنيا أو نبويا، فإنهم يعتبرونه دليلا ثانويا مؤيدا ومدعما لما ذهبوا إليه من الصفات السلبية، وليس دليلا مستقلا بذاته يوجب الاعتقادات اليقينية وتنفيذ الأوامر التعبدية.

وحقيقة ما كان عليه الصحابة ﷺ في القرون الفاضلة قبل قيام الفرق والمذاهب تتمثل في تصديق الصحابة ﷺ لخبر الله عن الغيبيات وما أثبته الوحي من الأسماء والصفات، فهم ﷺ كانوا يصدقون خبر الله ورسوله ﷺ تصديقا جازما ينفي الوهم والشك والظن. وكانوا ينفذون الأمر تنفيذا كاملا يقوم على الطاعة والإخلاص والحب.

وذلك المبدأ بعيدا عن الفلسفات العقلية والآراء الكلامية التي أحدثتها مختلف الفرق الإسلامية، هو غاية من جاء بعدهم، وسلك دربهم في مختلف العصور، مهما تنوعت كلماته، أو بدت اعتقاداته في توحيد الله ﷻ، والعمل بأحكامه.

- **ماهية الصفات السلبية الخمس التي قررها الأشعرية.**

إن أول ما يجب على المكلف عند الأشعرية القصد إلى النظر

العقلي الصحيح المؤدي إلى العلم بحدوث العالم، وإثبات العلم بوجود الصانع، والدليل عليه عندهم كما ذكر علماؤهم إجماع العقلاء على وجوب معرفة الله تعالى، ولا يُعلم حدوث العالم ولا العلم بالصانع إلا بالنظر والتأمل، وما لا يتوصل إلى الواجب إلا به فهو واجب [1].

كما أنهم أوجبوا في حق الله خمس صفات، وهي القدم، والبقاء، والقيام بالنفس، ونفي التركيب، وهي عندهم تسمى بالصفات السلبية، وله عندهم سبع صفات نفسية، فهو بذاته مريد بإرادة، عالم بعلم، قادر بقدرة، حي بحياة، سميع بسمع، بصير ببصر، متكلم بكلام نفسي، وهذه كلها معان وجودية أزلية. وقد ثبتت له تلك المعاني بناء على الرؤية العقلية التي اختارها أغلب المتكلمين الأشعرية التي استدلوا عليها بأن الفعل الحادث يدل على القدرة، والتخصيص يدل على الإرادة، والإتقان يدل على العلم، وهذه الثلاثة لا تكون إلا في حي، والحي لا بد أن يكون سميعا بصيرا متكلما [2].

كما أنهم زعموا أن الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي وردت في صفات الله الخبرية موهمة للتشبيه والجسمية، وظاهرها باطل مستحيل غير مراد لله في كلامه، فإما أن تؤول على غير ما

---

(١) انظر بتصرف الغنية في أصول الدين لأبي سعيد عبد الرحمن النيسابوري المتولي ص٥٥، نشر مؤسسة الكتب الثقافية، لبنان.

(٢) انظر بتصرف رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده ص١٧ وما بعدها، نشر دار الكتاب العربي، وكتاب أصول الدين لجمال الدين أحمد بن محمد بن سعيد ص٦٣، تحقيق عمر وفيق الداعوق، نشر دار البشائر الإسلامية، بيروت ١٩٩٨.

أراده الله ﷻ من ظواهرها، وإما أنها من أخبار الآحاد التي لا تفيد اليقين في أمور الاعتقاد [1].

هذا أساس الاعتقاد العقلي الكلامي لدى عقلاء المتكلمين من الأشعرية وغيرهم، وقد اعتبروها أصول الدين، والفيصل المبين في النظر إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فما وافق تلك الأصول من النصوص والآيات فهو دليل لهم، يقدمونه فقط عند الكتابة في المؤلفات، أو عند المحاجة في المخاصمات والمناظرات، حتى يشعر المخاطب أنهم يعتمدون على نصوص الوحي في إثبات الصفات وسائر أمر الاعتقاد في الغيبيات، وما خالف أصولهم وتقسيمهم للتوحيد فينبغي التعامل معه بأي وسيلة، وأن يبذل له المرء كل حيلة، بادعاء مجاز أو تأويل، أو تهوين أو تعطيل، أو تقبيحها في نفس السامع حتى تبدو ضربا من الباطل المستحيل، المهم عندهم أن يقر بأن ظاهرها الذي ورد في التنزيل باطل ومستحيل، ويجب صرفه إلى شيء بديل يتوافق مع أصولهم .

وما يعنينا في هذا المقام هو الحديث عن الصفات السلبية التي قررها الأشعرية في عقيدتهم، وبيان أنها تدور حول معاني الربوبية، وإثبات وجود الله الذي استقر في القلوب كأمر فطري، كما بينا سابقا في حقيقة الفقر الذاتي لكل مخلوق، واحتياجه التلقائي للغنى الذاتي الذي اتصف به الخالق.

---

(١) انظر بتصرف المختار من شرح البيجوري علي جوهرة التوحيد ص ١٠٩.

أما ادعاء الأشعرية أن عقيدتهم هي عقيدة أهل السنة والجماعة، وأنها في الصفات قائمة على وجوب الصفات السلبية، فهذا ادعاء باطل لأن كلامهم ينصب في إثبات وجود الرب ومعاني الربوبية، وليس إثبات ما أثبته الله لنفسه من توحيد الصفات، وما أثبته رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل. ولذلك سوف نلخص تلك الصفات السلبية من وجهة نظر الأشعرية، ثم نناقشها مناقشة علمية، لنبين أنها تدور حول إثبات وجود الرب الذي أقر به المشركون من العرب في الجاهلية، بناء على فطرتهم في الإيمان بخالقهم وخالق السماوات والأرض، فالصفات السلبية الخمس بيانها كما يلي:

أولا: الوحدانية، وخلاصة حجتهم العقلية في إثبات تلك الصفة، أن صانع العلم واحد لا شريك له في وجوده، لأنه لو كان له صانعان أو أكثر لوقع بينهما تمانع وتدافع، وذلك يؤدي إلى الفساد وعجز أحدهما، والعاجز لا يصلح أن يكون إلها، فإذا تعذر إثبات صانعين كان واحدا ضرورة، وقد تقدم الحديث عن دليل التمانع [(١)].

ثانيا: المخالفة للحوادث، وحجتهم العقلية كما يزعمون أن صانع العالم ليس بجوهر؛ لأن الجوهر متجزئ، وتحل فيه الحوادث. وصانع العالم ليس بجسم؛ لأن الجسم مؤلف من الجوهر، وإذا بطل

---

(١) انظر أصول الدين، لجمال الدين أحمد بن محمد بن سعيد ص ٦٤ بتصرف.

كونه جوهرا بطل كونه جسما ضرورة. وصانع العالم ليس بعرض لأن العرض لا قيام له بذاته، بل هو مفتقر إلى جسم يقوم به، والقديم ﷻ قائم بذاته، غير مفتقر إلى محل يقوم به. وصانع العالم ليس بصورة، لأن الصورة تنشأ عن التركيب، فإذا نفينا كونه جوهرا وجسما، نفينا كونه صورة. وصانع العالم لا يوصف باللون والطعم والرائحة والحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة؛ لأن الألوان والطعوم والحرارة والبرودة والروائح والطبائع أعراض تحل في الجواهر، فإذا نفينا كونه عرضا وكونه محلا للأعراض ينتفي جميع ذلك[1].

ثالثا: القيام بالنفس، وحجتهم العقلية أن صانع العالم ليس في جهة، ولا تحويه الجهات الست لأنها حادثة، وهو الذي خلقها، فلو صار مختصا بجهة بعدما خلقها، لكان ممكنا يتخصص بمخصص وذلك باطل. وصانع العالم ليس فوق العالم، ولا في جهة خارجه عنه، لأنه لو كان كذلك لكان محاذيا للعالم، وكل محاذ بجسم إما أن يكون مثله، أو أكبر أو أصغر، وكان ذلك تقديرا يحتاج إلى مقدر تعالى عن ذلك [2].

رابعا: القدم وحجتهم العقلية أن صانع العالم قديم لا أول له، لأنه لو كان محدَثا لاقتضى محدثا، ثم كذلك محدثه اقتضى محدثا آخر، فيتسلسل إلى ما لا نهاية له، فثبت أن صانع العالم قديم .

---

(١) انظر السابق ص ٦٨ بتصرف.

(٢) انظر السابق ص ٦٩ بتصرف.

خامسا: البقاء وحجتهم العقلية أن صانع العالم أبدي لا آخر له، لأن من ثبت قدمه استحال عدمه، ولأن وجوده واجب، ووجوب وجوده يمنع عدم بقائه(١).

- شرح مفهوم الوحدانية والتوحيد عند السلف الصالح.

الواحدانية عند السلف انفراد الله عمن سواه بما ثبت له من أنواع الكمال في الأسماء والصفات والأفعال، وهذا ما يناسب الفطرة السليمة والعقول المستقيمة، ولا تعني الوحدانية النفي المطلق للقدر المشترك العام عند التجرد عن الإضافة، وهو ما ينفيه الخلف في أذهانهم تحت مسمى مخالفة الحوادث، فبسبب قولهم في الصفات السلبية عطلوا أكثر الصفات الذاتية والفعلية، وتخبطوا في إثبات الصفات السبع المعنوية، وقولهم مخالف للعقل والنقل والفطرة .

وبيان ذلك أن المتوحد المنفرد عن غيره لابد أن ينفرد بشيء يتميز به، ويكون هو الوحيد المتصف به، أما الذي لا يتميز بشيء عن غيره، ولا يوصف بوصف يلفت الأنظار إليه، فهذا لا يكون منفردا، ولا متوحدا، ولا متميزا عن غيره، فلو قلت مثلا: فلان لا نظير له، سيقال لك في ماذا؟ تقول: في علمه، أو في حكمته، أو في غناه، أو في قدرته، أو ملكه، أو في استوائه على عرشه، أو في أي صفة تذكرها، فلا بد من ذكر الوصف الذي يتميز به، لكن من العبث أن يقال لك: فلان لا نظير له في ماذا ؟ فتقول: في لا شيء، أو تقول: لا

---

(١) انظر السابق ص ٦٥ وما بعدها بتصرف.

صفة له أصلا، فالله ﷻ ـ وله المثل الأعلى ـ أثبت لنفسه أوصاف الكمال التي انفرد بها دون غيره، ونفي عن نفسه أوصاف النقص ليثبت توحده في ذاته وصفاته، فأثبت لنفسه الوحدانية في استوائه، فقال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ طه:٥.

فاستواؤه له كيفية تليق به لا نعلمها، ولا مثيل ولا شبيه له فيها، وأثبت الوحدانية في كلامه، فقال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ۝١٦٤﴾ النساء:١٦٤. فكلامه بكيفية تليق به، ليس كمثله شيء فيها، ولا علم لنا بها، فمداركنا وإن استوعبت معني كلامه، فإنها لا تستوعب كيفية أداء الكلام؛ لأنها كيفية غيبية. وأثبت لنفسه يدين لا مثيل ولا شبيه له فيهما فقال: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ۝٧٥﴾ ص:٧٥ . وكل ذلك لم يمنع اتصاف المخلوق بكمال محدود من القوة والرحمة والغنى والتكليم الاستواء والرضا. ومن ثم فالتوحيد يقصد به في باب الصفات إفراد الله سبحانه بذاته وصفاته وأفعاله عن الأقيسة التمثيلية والقواعد الشمولية التي تحكم ذوات المخلوقين وصفاتهم وأفعالهم، ولذلك صح في حق الله قياس الأولى، ولم يصح قياس التمثيل والشمول .

ولذلك فإن السلف الصالح فرقوا بين النصوص التي تدل على المخلوق والنصوص التي تدل على الخالق، فالنصوص التي تدل على المخلوق تليق به، وظاهرها مراد في حقه، وهي معلومة المعني لورودها في القرآن والسنة باللغة العربية، وكذلك معلومة الكيفية لأننا نراها بحواسنا ومدركاتنا، أو نري نظيرها، فنحكم عليها بالتشابه أو المثلية .

أما النصوص القرآنية والنبوية التي تدل على الخالق فهي معلومة المعني أيضا؛ لأن الله ﷻ خاطبنا باللغة العربية لا باللغة الأعجمية، فلا يمكن القول إن كلام الله بلا معني، أو يشبه كلام الأعاجم والألغاز التي لا تفهم. أما الكيفية الغيبية للصفات الإلهية التي دلت عليها تلك النصوص فهي كيفية حقيقية معلومة لله ﷻ وتليق به، لكنها مجهولة لنا لا نعلمها؛ لأننا ما رأينا الله ﷻ، روى مسلم أن النبي ﷺ قال: (تَعَلَمُوا أَنَهُ لن يَرَي أَحَدٌ مِنكُمْ رَبَّهُ ﷻحتى يَمُوتَ) [1]. وكذلك ما رأينا لكيفيته سبحانه وتعالى نظيرا نحكم عليها من خلاله إذ يقول الله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ الشورى:١١ .

• شرح مفهوم الوحدانية ومخالفة الحوادث عند الأشعرية.

والقصد أن مفهوم الوحدانية ومخالفة الحوادث ينبغي أن تعود في معناها إلى انفراد الله عن خلقه بالكمال والغنى الذاتي فيما أثبت لنفسه من الأسماء والصفات والأفعال، وأن كمال المخلوق مستحدث بعد فقر ذاتي أصلي استمده بمدد اضطراري أو افتقار اختياري عاد فيه إلى خالقه .

أما حقيقة الوحدانية عند المتكلمين الأشعرية فهي عبارة عن نفي الانقسام والتعدد عن الذات الإلهية، فوحدانية الذات عندهم تنفي الكم المتصل والكم المنفصل؛ فالمتصل أن تكون ذاته مركبة من جواهر وأعراض، أو أن تكون مركبة مطلقا، ولو من غير الجوهر

(١) رواه مسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر ابن صياد ٤/٢٢٤٥ (٢٩٣١).

والعرض، أو أي أمر آخر مفترض، وعندهم أن التركُّب على الله تعالى محال، لأنه لو كان مركبا لكان حادثا، فالله واحد في ذاته لا ينقسم، وليس له أجزاء وأبعاض، وواحد في صفاته لا شبيه له لأنه يخالف الحوادث، والحوادث لا تقوم به، وهو عندهم متقدس عن الاختصاص بالجهات والاتصاف بالمحاذاة؛ لأن كل مختص بجهة شاغل لها متحيز، وكل متحيز قابل لملاقاة الجواهر ومفارقتها، ويرتب على ذلك تعاليه عن الاختصاص بمكان، وملاقاة الأجرام والأجسام، فليس له جهة ولا مكان، ولا يمر عليه وقت ولا زمان[١].

وقد أدت بهم تلك الأصول العقلية التي جمعوها من أفكار فلسفية كلامية يونانية وثنية إلى أن يصنفوا التوحيد إلى ثلاثة أنواع أساسية، فقالوا: إن الله واحد في ذاته لا قسيم له، وواحد في صفاته لا شبيه له، وواحد في أفعاله لا شريك له.

وهم لم يستندوا إلى حكم العقل بأن الله ﷻ أعلم بنفسه ووصفه بحيث جاء هذا التصنيف مستندا على كتاب ربهم وسنة نبيهم؟ ولم يستندوا إلى عقول الصحابة والتابعين وأئمة السنة المقبولين عند جميع المسلمين كأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وغيرهم؟ في الحقيقة لم يستندوا في تصنيفهم للتوحيد لا إلى هذا ولا إلى ذاك، وإنما تم اتفاقهم العقلي على تصنيف التوحيد إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول: أن الله واحد في ذاته لا ينقسم، وليس له أجزاء

---

(١) لمع الأدلة في قواعد أهل السنة والجماعة لإمام الحرمين الجويني ص١٠٨ بتصرف، نشر عالم الكتب، لبنان.

وأبعاض، لأنه إن كان له أجزاء لم يخل إما أن يكون كل جزء منه حيا عالما قادرا، أو كان بعض الأجزاء مختصا بالحياة والعلم والقدرة، فإن كان كل جزء منه حيا عالما قادرا، كان في ذلك إثبات آلهة متعددة وهذا باطل، وإن كانت الحياة والقدرة والعلم في جزء مخصوص لم يكن الجزء الثاني حيا عالما قادرا، لاستحالة وجود العلة في محل، وثبوت حكمها في محل آخر [1].

النوع الثاني: أن الله واحد في صفاته لا شبيه له لأنه يخالف الحوادث، والحوادث لا تقوم به، والدليل على استحالة قيام الحوادث بذات الباري تعالى أنها لو قامت به لم يخل عنها، ومن لم يخل عن الحوادث فهو حادث، فالرب متقدس عن الاختصاص بالجهات والاتصاف بالمحاذاة لا تحيط به الأقطار، ويجل عن قبول الحد والمقدار، والدليل على ذلك عندهم أن كل مختص بجهة شاغل لها متحيز، وكل متحيز قابل لملاقاة الجواهر ومفارقتها، ويرتب على ذلك تعاليه عن الاختصاص بمكان وملاقاة أجرام وأجسام [2].

النوع الثالث: أن الله واحد في أفعاله لا شريك له، والدليل على وحدانية الإله دليل التمانع كما تقدم [3].

---

(١) انظر السابق ص ٩٨ بتصرف .

(٢) السابق ص ١٠٧ بتصرف .

(٣) السابق ص ١٠٨ بتصرف.

• مناقشة الأشعرية في معنى الوحدانية ومخالفة الحوادث.

قول الأشعرية في التوحيد إن الله واحد في ذاته لا قسيم له، وواحد في صفاته لا شبيه له، وواحد في أفعاله لا شريك له، فيه ما يوافق ما جاء به الرسول ﷺ وفيه ما يخالفه، وليس الحق الذي فيه هو الغاية التي جاء بها الرسول ﷺ، بل التوحيد الذي أُمِرَ به أَمْرٌ يتضمن الحق الذي في هذا الكلام وزيادة أخرى، فهذا الكلام ضرب من التلبيس والتدليس الذي اختلط فيه الحق بالباطل؛ لأن الإنسان لو أقر بما يستحقه الرب تعالى من الصفات، ونزهه عن كل ما ينزه عنه، وأقر بأنه وحده خالق كل شيء، لم يكن موحدا، بل ولا مؤمنا حتى يشهد أن لا إله إلا الله، ويقر بأن الله عز وجل وحده هو الإله المستحق للعبادة، ويلتزم بعبادة الله وحده لا شريك له، فإنهم إذا قالوا: الله واحد في ذاته لا قسيم له، ولا جزء له، ولا شبيه له، فهذا اللفظ وإن كانت نيتهم تحمل معنى صحيحا، فإن الله ليس كمثله شيء في ذاته أو صفاته أو أفعاله، وهو سبحانه منزه عن تفرق ذاته، أو فسادها، أو تحولها إلى ذات أخرى، بل هو أحد صمد، والصمد هو الذي لا جوف له، وهو السيد الذي كمل سؤدده، لكنهم يدرجون تحت هذا التوحيد المزعوم وتحت شعار أنه لا ينقسم نفي علو الله على خلقه ومباينته لمصنوعاته، ونفي ما ينفونه من صفاته، ويقولون: إن إثبات ذلك يقتضي أن يكون مركبا منقسما مشابها للحوادث [1].

(١) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ١/٢٢٨ وما بعدها بتصرف، نشر دار الكتب العلمية، بيروت.

قال فخر الدين الرازي وهو من المَنَظّرين للمذهب الأشعري قبل توبته ورجوعه عنه، قال في نفي علو الله على خلقه وتعطيل استوائه على عرشه: (لو كان الله مختصا بالمكان لكان الجانب الذي في يمينه يلي ما على يساره، فيكون مركبا منقسما فلا يكون أحدا في الحقيقة، فيبطل قوله: قل هو الله أحد) [١] .

وهم لما نفوا الاستواء وعطلوا علو الفوقية بهذه الحجج العقلية ساءت سمعتهم عند عامة المسلمين، فالله يقول صراحة الرحمن على العرش استوى، وهم يقولون صراحة ليس على العرش، فما المخرج من هذه الورطة التي وضعوا أنفسهم فيها؟

والجواب في قول أحدهم: (لو سئلنا عن قول الله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ طه:٥ . لقلنا المراد بالاستواء القهر والغلبة والعلو، ومنه قول العرب استوي فلان على المملكة أي استعلى عليها واطردت له. ومنه قول الشاعر: قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهراق) [٢] .

وتصنيف النوع الأول من التوحيد عند الأشعرية على معنى أن الله واحد لا ينقسم، وأن الواحد هو المجرد عن الصفات تحميل للفظ الواحد ما لا يحتمل، وهو ضرب من التحريف، ومعلوم أن كل تأويل

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٢/٦، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، وانظر أساس التقديس للفخر الرازي ص ٢٥.

(٢) انظر لمع الأدلة في قواعد أهل السنة والجماعة لإمام الحرمين الجويني ص ١٠٨ بتصرف، نشر عالم الكتب، لبنان.

لا يحتمله اللفظ في أصل وضعه وكما جرت به عادة الخطاب بين العرب هو نوع من التزوير والتلبيس الذي يضيع ثوابت القول وقواعد الكلم، فأهل العلم يعلمون أن إثبات الاستواء والنزول والوجه واليد والقبض والبسط وسائر صفات الذات والفعل لا يسمى في لغة العرب التي نزل بها القرآن تركيبا ولا انقساما ولا تمثيلا، وكان أولى بالصحابة ﷺ والتابعين وهم أئمة اللغة وأسياد الفهم أن يعترض واحد منهم على الأقل ويقول: كيف نؤمن بهذه الصفات التي تدل على التركيب والانقسام في الذات الإلهية؟ ولكن الصحابة والتابعين لم يأت إلى أذهانهم شيء من أصول الكلام عند الأشعرية.

كما أن الكلام في المصطلحات التي أحدثوها كالجسم والعرض والجوهر والمتحيز وحلول الحوادث وأمثال ذلك معاونة على نشر البدع، لأن هذه الألفاظ المبتدعة يدخلون في مسماها الذي ينفونه أمورا مما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ فيقولون: إن الله لا يتكلم بصوت يسمع وإلا كان محلا للحوادث، فكلامه عندهم معنى واحد، وإشارات مجملة يفهمها جبريل عليه السلام ثم يعبر عنها بلغة كل رسول، فإذا عبر عنها بالعربية كان الكلام قرآنا، وإن عبر عنها بالعبرانية كان توراة، وإن عبر عنها بالسريانية كان إنجيلا [1] .

---

(١) انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية ٢٦٧/١٢، ومنهاج السنة النبوية ٤١٧/٥، وانظر غاية المرام في علم الكلام للآمدي ص٨٨، تحقيق د. حسن الشافعي، نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة سنة ١٣٩١هـ، وحز الغلاصم في إفحام المخاصم عند جريان النظر في أحكام القدر ص٩١، لأبي الحسن شيث بن حيدرة، تحقيق عبد الله عمر البارودي، نشر مؤسسة الكتب الثقافية بيروت ١٤٠٥هـ .

وهم في الحقيقة يفرون على ظنهم من تشبيه الله بالمتكلم السوي إلى تشبيه بالأخرس العاجز، فينسب الكمال في القول إلى جبريل عليه السلام ويسلبه عن رب جبريل. وبهذه المصطلحات أيضا نفت المعتزلة رؤية الله في الآخرة، لأن رؤيته على اصطلاحهم لا تكون إلا لمتحيز في جهة يكون جسما، ثم يقولون: والله منزه عن ذلك، فلا تجوز رؤيته، وقالت الأشعرية قولا أعجب وأغرب من قول المعتزلة في النفي فقالوا يرى لا في جهة، لا أمام الرائي، ولا خلفه، ولا عن يمينه، ولا عن يساره، ولا فوقه، ولا تحته، ولا ندري كيف يفهم مثل هذا الكلام [1].

وهذه الألفاظ المجملة التي ابتدعوها وأحدثوها كالجسم والعرض والجوهر والمتحيز وحلول الحوادث، ينبغي للمسلم العاقل أن يفصل فيها ويقول: ماذا تريدون بتلك الألفاظ، فإن فسروها بالمعنى الذي يوافق القرآن والسنة قبلت، وإن فسروها بخلاف ذلك ردت، أو يمتنع عن موافقتهم في التكلم بهذه الألفاظ نفيا وإثباتا، ولا عليه إن امتنع عن التكلم بها معهم ونسبوه إلى العجز والانقطاع، لأنه إن تكلم بها معهم دون تفصيل نسبوه إلى أنه أطلق تلك الألفاظ التي تحتمل حقا وباطلا، وأوهموا الجهال بموافقته لهم على اصطلاحهم وحينئذ تتخلف المصلحة في بيان الحق .

والواجب والأولى أن يقال: ائتونا بآية من كتاب الله، أو حديث من سنة رسوله ﷺ حتى نجيبكم إلى هذه الاصطلاحات المحدثة، وإلا

---

(١) انظر في الرد علي عقيدة الأشعرية في الرؤية بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية ٣٤٤/١، نشر مطبعة الحكومة، مكة المكرمة، ومنهاج السنة النبوية ٣٢٦/٢.

فلسنا نجيبكم إلى ما لم يدل عليه الكتاب والسنة، فلا يفصل في النزاع بين الناس إلا كتاب وسنة، أما العقول فكل واحد له عقل يختلف عن الآخر، وهم أنفسهم مختلفون متنازعون في أحكام العقل، فما يدعيه أحدهم أن العقل أداه إلى علم ضروري ينازعه فيه الآخر، فلهذا لا يجوز أن يكون الحاكم بين الأمة في موارد النزاع إلا الكتاب والسنة، وبهذا ناظر الإمام أحمد أبناء الجهمية من المعتزلة لما دعوه إلى المحنة وصار يطالبهم بدلالة الكتاب والسنة على قولهم [(١)].

قال ابن أبي العز الحنفي: (والسلف لم يكرهوا التكلم بالجوهر والجسم والعرض ونحو ذلك لمجرد كونه اصطلاحا جديدا على معان صحيحة كالاصطلاح على ألفاظ العلوم الصحيحة، ولا كرهوا أيضا الدلالة على الحق والمحاجة لأهل الباطل، بل كرهوه لاشتماله على أمور كاذبة مخالفة للحق ومن ذلك مخالفتها الكتاب والسنة، ولهذا لا تجد عند أهلها من اليقين والمعرفة ما عند عوام المؤمنين فضلا عن علمائهم، ولاشتمال مقدماتهم على الحق والباطل كثر المراء والجدال، وانتشر القيل والقال، وتولد لهم عنها من الأقوال المخالفة للشرع الصحيح والعقل الصريح ما يضيق عنه المجال) [(٢)].

وقد تقدم في ذكر مفهوم الإلوهية أن عامة المتكلمين الذين يقررون التوحيد في كتب الكلام والنظر غايتهم أن يجعلوا التوحيد ثلاثة أنواع أشهرها أن الله واحد في أفعاله لا شريك له، وهو توحيد

---

(١) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ٢٢٩/١ بتصرف.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص٧٤.

الأفعال، وهو أن خالق العالم واحد، وهم يحتجون على ذلك بما يذكرونه من دلالة التمانع وغيرها، ويظنون أن هذا هو التوحيد المطلوب، وأن هذا هو معنى قولنا: لا إله إلا الله، حتى جعلوا معنى الإلهية القدرة على الاختراع .

ومعلوم أن المشركين من العرب الذين بعث إليهم محمد ﷺ لم يكونوا يخالفونه في هذا، بل كانوا يقرون بأن الله خالق كل شيء، حتى أنهم كانوا يقرون بالقدر أيضا، وهم مع هذا مشركون، فقد تبين أنه ليس في العالم من ينازع في أصل هذا الشرك[1].

وأما قول الأشعرية إن أول ما يجب على المكلف القصد إلى النظر الصحيح المؤدي إلى العلم بحدوث العالم وإثبات العلم بالصانع، واستدلوا لذلك بإجماع العقلاء على وجوب معرفة الله تعالى، فيقال: هذا الكلام قول على الله بلا علم، لقيام الدليل الذي ورد في التنزيل على خلافه، فالصحيح أن أول واجب يجب على المكلف شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، لا النظر، ولا القصد إلى النظر، ولا الشك كما هي أقوال لأرباب الكلام المذموم، بل أئمة السلف كلهم متفقون على أن أول ما يؤمر به العبد الشهادتان، ومتفقون على أن من فعل ذلك قبل البلوغ لم يؤمر بتجديد ذلك عقيب بلوغه، بل يؤمر بالطهارة والصلاة إذا بلغ أو ميز عند من يرى ذلك، ولم يوجب أحد منهم على وليه أن يخاطبه حينئذ بتجديد الشهادتين، وإن كان الإقرار بالشهادتين واجبا باتفاق المسلمين، ووجوبه يسبق

---

(١) الرسالة التدمرية ضمن مجموع الفتاوى لابن تيمية ٣/٩٨.

وجوب الصلاة، لكن هو أدى هذا الواجب قبل ذلك.

وعند البخاري من حديث ابن عباس ﷺ لما بعث النبي ﷺ معاذ بن جبل ﷺ إلى اليمن قال له: (إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إلى أَنْ يُوَحِّدُوا اللهَ تعَالى)[1]. ولم يقل له ﷺ ادعهم إلى الشك والنظر حتى يتعرفوا على الله[2].

- **مفهوم القيام بالنفس بين منهج السلف والأشعرية.**

من الصفات السلبية قيامه تعالى بنفسه، وهو عند السلف وصف الغنى الذاتي الذي دل عليه اسمه الغني في قوله تعالى: ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ فاطر:١٥. وقوله: ﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾﴾ لقمان:٢٦. فوصف الغنى والكمال وصف ذاتي انفرد به رب العزة والجلال، ووصف الحاجة والافتقار وصف ذاتي لكل مخلوق على وجه الاضطرار.

وغنى الحق غنى مطلق فيه القيام بالنفس الذي يقتضي الغنى في جميع الأسماء والصفات والأفعال، وهو المعروف عند السلف بعلو الشأن، فهو الغني بنفسه في تقديره وقدرته، وعلمه وحكمته، وقوته وعزته، وملكه ورحمته، فهو القادر القدير مطلقا، وهو العليم الحكيم مطلقا، وهو القوي العزيز مطلقا، وهو الملك والحق الوكيل مطلقا،

---

(١) رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى ٦/٢٦٨٥ (٦٩٣٧).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص٧٥ بتصرف.

وغير ذلك من أسمائه وصفاته.

غير أن الأشعرية جعلوا حقيقة القيام بالنفس موضوعة لمعان عقلية فلسفة كلامية باطلة، فزعموا أن حقيقة القيام بالنفس عبارة عن انتفاء الاحتياج إلى المحل والمخصص، فهو سبحانه لا يحتاج إلى ذات يحل فيها مثل الحلول والاتحاد، وهو صيرورة الشيئين شيئا واحدا، وهو سبحانه لا يحتاج إلى مخصص، لأنه لو احتاج كان حادثا. كما أن صانع العالم ليس في جهة، ولا تحويه الجهات الست لأنها حادثة، وهو الذي خلقها، فلو صار مختصا بجهة بعدما خلقها، لكان ممكنا يتخصص بمخصص وذلك باطل، وصانع العالم ليس فوق العالم، ولا في جهة خارجه عنه، لأنه لو كان كذلك لكان محاذيا للعالم، وكل محاذ بجسم إما أن يكون مثله، أو أكبر أو أصغر ،وكان ذلك تقديرا يحتاج إلى مقدر تعالى عن ذلك.

وبدلا من الحديث عن اسم الله الغني الذي ورد في مواضع عديدة من القرآن ليبين غناه في مقابل فقر الإنسان وحاجته، جعلوا ذلك حجة لتعطيل كلام الله عن معناه، ونفي علوه سبحانه على خلقه واستوائه على عرشه، فلم يفهموا من الجهة والمكان إلا ما يخص الإنسان فيما تراه العينان. ففهم المتكلمون أن معنى قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ الملك:١٦. أو قول الجارية: في السماء، فهموا من ذلك الظرفية والحلول في تلك المحاور الفراغية الهندسية التي نراها بالمشاهدة العينية، وأن الله ﷻ محصور داخل هذا المحيط المذكور.

وتعجب أيضا حينما يذكرون من الكلام الباطل ما يدللون به على تقبيح القول بأن الله ﷻ في السماء، مثل قول بعض العلماء لتلميذ يمتحنه: لو قال لك أحد: أين معبودك؟ فأي شئ تقول؟ قال: كنت أقول: حيث لم يزل، قال: فإن قال لك: فأين كان في الأزل؟ فأي شئ تقول؟ قال: أقول: حيث هو الآن ولا مكان، فهو الآن على ما عليه كان. قال التلميذ: فارتضى الشيخ ذلك [١].

وكذلك يحتجون أيضا بمثل كلام يروى عن يحي بن معاذ الرازي، حيث قيل له: أخبرنا عن الله تعالى. فقال: إنه واحد. فقيل: كيف هو؟ فقال: ملك قادر. فقيل: أين هو؟ فقال: بالمرصاد. قال السائل: لم أسألك عن هذا؟ فقال: ما كان غير هذا فهو صفة المخلوق، فأما صفته فما أخبرت عنه [٢].

ويكفي لبيان بطلان مثل هذا الكلام أن نقارن بين قول النبي ﷺ للجارية أين الله؟ فقالت في السماء، وبين قول يحيي الرازي لما سئل عن الله ﷻ أين هو؟ فقال بالمرصاد. فهل يحي الرازي علم شيئا من صفات الله والرسول ﷺ لم يعلمها؟ أو أن رسول الله ﷺ أخطأ حين سأل الجارية أين الله؟ أو هل هو أعلم من رسول الله ﷺ؟ أو أن كلام الرسول في الله ﷻ يوهم التشبيه والتمثيل بالمخلوق، أما كلام يحي الرازي فهو الحق الذي لا تشوبه شائبة!

---

(١) انظر كتاب حق الله على العباد الشيخ طه العفيفي ص١٠٥.

(٢) انظر السابق ص١٠٥، وانظر مجموعة الرسائل للشيخ حسن البنا ص٢٩٧.

ونلاحظ أن طريقة الجهمية والنفاة المعطلة من الأشعرية هي هذه بعينها، فلا يريدون أن يثبتوا لله استواء يليق بجلاله، ولا نزولا، ولا مجيئا إلى غير ذلك من الصفات الثابتة في الكتاب والسنة. وكأن رسول الله ﷺ لم يبلغ البلاغ المبين حين سأل الجارية أين الله؟ أو كأن هذا التلميذ أعلم بالله من رسول الله ﷺ؟ ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾ البقرة:٣٢.

ولم يفهم أحد من أصحاب النبي ﷺ أن معنى في السماء الظرفية، وأن الله ﷻ داخل السماء، أو أن السماء تحوزه.

ومن دقق النظر في قول أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها الذي ورد في صحيح البخاري: (زَوَّجَكُنَّ أَهَالِيكُنَّ وَزَوَّجَنِي اللهُ تَعَالَى مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ)[1]. والرواية الأخرى الثابتة عنها: (إِنَّ اللهَ أَنْكَحَنِي فِي السَّمَاءِ)[2]. عُلم أنها تعني قطعا أن الله ﷻ في العلو، فوق سبع سماوات، عال على عرشه، بائن من خلقه، لا شئ من ذاته في خلقه، ولا خلقه في شئ من ذاته، ولا تعني شيئا غير ذلك. وقد اجتمعت كلمة المفسرين من أهل السنة على ذلك، لا يختلفون فيه، ولا يجوز الحمل على غيره[3].

(١) البخاري في التوحيد، باب وكان عرشه على الماء ٦/٢٦٩٩ (٦٩٨٤).
(٢) الموضع السابق ٦/٢٧٠٠ (٦٩٨٥).
(٣) انظر شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص٣٢٠.

مع أن عالم الغيب لا يخضع بحال لمقاييس المكان في حسابات المخلوقين، وتلك المقاييس المكانية لا تصلح بحال في قياس ما هو خارج عن محيط العالم، فضلا عن عدم صلاحيتها في تحديد أماكن الفضاء الخارجي، ولو كانت المقاييس المكانية التي تحكم عالم الغيب هي ذات المقاييس التي تحكم الإنسان في عالم الشهادة، لما استطاع ملك الموت أن يقبض روح إنسان وُضِع مثلا في غرفة مغلقة بإحكام، لأنه حينئذ يعجز عن دخولها بالمقاييس المكانية التي يقيسون بها الخالق على المخلوق، ويزعمون فيها أن النصوص القرآنية والنبوية ظاهرها هو هذا الباطل المستحيل الذي يجب صرفه إلى تأويلاتهم الباطلة، وإلا وقعنا في التشبيه الذي تنجست به أذهانهم. قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ النساء:٧٨. وقال سبحانه وتعالى في بيان وقوع الأجل على التقدير، فورا دون تأخير: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾ النحل:٦١.

ولو كانت المقاييس الزمانية التي تحكم عالم الغيب هي ذات المقاييس التي تحكم الإنسان في عالم الشهادة، لما استطاع ملك الموت أن يقبض روح إنسان في مشرق الأرض، ويقبض روح آخر في مغربها، لأن انتقاله يتطلب سفرا طويلا، تقطعه الطائرات في ساعات وساعات، ولتأخر الأجل عما قدره الله في اللوح المحفوظ، فعلم أن الزمان في عالم الغيب يختلف عن الزمان في عالم الشهادة، وأن ملك

الموت تطوى له الأرض بكيفية زمانية ومكانية لا نعلمها، فكيف يقاس الخالق وله المثل الأعلى في نزوله إلى السماء الدنيا بمقاييس النازل من البشر، ثم يطالبنا الأشعري وأمثاله من أصحاب الفهم السيئ بتعطيل النزول وتأويله بغير دليل، وإلا صرنا لا نؤمن بالصفة السلبية التي وضعها بفلسفته العقلية وهي القيام بالنفس.

وكذلك توالت الحجج الباطلة في نفي علو الله على خلقه من قبل المتكلمين الأشاعرة وأن العالم كرة، فالجهة التي فوق بالنسبة إلينا هي تحت بالنسبة إلى ساكن ذلك الجانب الآخر من الأرض وبالعكس، فلو كان المعبود مختصا بجهة، فتلك الجهات وإن كانت فوق لبعض الناس، لكنها تحت بالنسبة لبعض آخرين منهم، وباتفاق العقلاء لا يجوز أن يقال: المعبود تحت جميع الأشياء.

وكلامهم باطل وليس بحجة في نفي استواء الله ﷻ على عرشه، أو تحريفه بالاستيلاء والقهر. والعلة في ذلك أنهم نظروا إلى السماء الدنيا بقياس التمثيل والشمول، وقد بينا تفصيل الكلام في غير هذا الموضع في كتاب أصول العقيدة .

- **قيام الخلائق على الشفعية والقيام بالنفس لإثبات الوترية.**

أقام الله الخلائق على معاني الزوجية والشفعية لينفرد سبحانه وتعالى بالوحدانية والأحدية والوترية، ليفتقر كل منهم إلى الآخر،

فيقروا بالتوحيد في عبوديتهم إلى ربهم ويعودون بفقرهم إلى خالقهم، لأنه الغني بذاته في كل اسم له أو وصف أو فعل، وألا يستغنوا عنه بقوتهم التي منحها لهم، أو يخرجهم طغيانهم عن حدود فقرهم.

قال تعالى في بيان حقيقة قيام الخلائق على الزوجية: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ الذاريات:٤٩. وقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾ هود:٤٠. وقال: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾﴾ النجم:٤٥. وقال سبحانه: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾﴾ القيامة:٣٩.

والوترية انفراد الله ﷻ بصفاته فهو العزيز بلا ذل، والقدير بلا عجز، والقوي بلا ضعف، والعليم بلا جهل، وهو الحي الذي لا يموت، والقيوم الذي لا ينام، أما الخلائق فهي قائمة على الزوجية بين حياة وموت، وقوة وضعف، وقدرة وعجز، وإتيان ونزع، وعز وذل، وعلم وجهل، وفقر وغنى، وعقم وإنجاب، بحيث تتردد الحياة بين السلب والإيجاب ومعاني الفقر الذاتي والغنى الذاتي.

ثم إذا أيقنوا بفقر من لجئوا إليه دونه، وأنه لو أعطاهم مرة فلن يعطيهم مرة أخرى، علموا أنهم فقراء لجئوا إلى فقراء من أمثالهم، وأن الفقير لا يلجأ إلى فقير، وأن الصغير لا يستند إلى صغير، بل لا بد من

غني كبير يبتغون عنده الرزق، وكل ألوان العبادة له وحده لا شريك له، قال الله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٩٤ ﴾ الأعراف:١٩٤.

وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ١٧﴾ العنكبوت:١٧ .

وفي مقابل توحيد العبودية وحدوا الله في الربوبية، فكان لهم ربا واحد أحدا، وترا صمدا، قويا غنيا، قديرا عليا له الأسماء الحسنى والصفات العليا، يدعونه ويركنون إليه.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٨٠﴾ الأعراف:١٨٠. وقال: ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ ﴾ الإسراء:١١٠.

وقال تعالى: ﴿ ۞ قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٞ ٢٦٣﴾ البقرة:٢٦٣. وهذه الآية خير دليل على ذلك، فمن ابتلاه الله بالفقر ألجأه إلى من ابتلاه في الغنى، ونبه على الأغنياء بعدم المن والأذى، لأن الله هو الغني الحليم الذي يرجع إليه الجميع.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ﴾ البقرة:٢٦٧.

وقال تعالى في وصف من افتقروا إليه وحده: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ﴾ البقرة:٢٧٣.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ﴾ آل عمران:١٨١.

وقال الله تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ الأنعام:١٣٣.

وما ذلك إلا ليرجع العباد مفتقرين بكمالهم إلى ربهم، مقرين بأنه الغني عنهم وعن طاعتهم، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله. فكانت هذه الكلمة كَنزا مِن كُنوزِ الجَنةِ.

روى البخاري من حديث أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ ﷺ أنه قال: (لَمَّا

غَزَا رَسُولِ اللهِ ﷺ خيْبَرَ. أَوْ قَال: لَمَّا تَوَجَّهَ رَسُول اللهِ ﷺ أَشْرَفَ النَاسُ عَلى وَادٍ، فَرَفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ بِالتَّكْبِيرِ: اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، لا إِلَهَ إِلا اللهُ. فَقَال رَسُول اللهِ ﷺ: ارْبَعُوا عَلى أَنفُسِكُمْ، إِنكُمْ لا تَدْعُون أَصَمَّ وَلا غَائِبًا، إِنكُمْ تَدْعُون سَمِيعًا قَرِيبًا، وَهُوَ مَعَكُمْ، وَأَنا خَلفَ دَابَّةِ رَسُول اللهِ ﷺ فَسَمِعَنِي وَأَنا أَقُول: لا حَوْل وَلا قُوَّةَ إِلا بِاللهِ. فَقَال لي: يَا عَبْدَ اللهِ بْن قَيْسٍ. قُلتُ: لبَّيْكَ يَا رَسُول اللهِ. قَال: أَلا أَدُلُك عَلى كَلمَةٍ مِن كَنزٍ مِن كُنوزِ الجَنةِ؟ قُلتُ: بَلى يَا رَسُول اللهِ، فَدَاكَ أَبِي وَأُمِّي. قَال: لا حَوْل وَلا قُوَّةَ إِلا بِاللهِ)[١].

• القيام بالنفس والفرق بين معني اسم الواحد والأحد والوتر.

والواحد اسم لله سبحانه ينفي التعدد والمثلية، فالله ﷻ واحد لا شريك يماثله، ولا هو ثالث ثلاثة كما زعم النصارى، بل هو واحد قائم بنفسه لا يفتقر إلى غيره أزَلا وأبَدا، وهو الكامل في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فهو سبحانه كان ولا شيء معه، ولا شيء قبله، وما زال بأسمائه وصفاته واحد أولا قبل خلقه، فوجود المخلوقات لم يزده كمالا كان مفقودا، أو يزيل عنه نقصا كان موجودا، فالوحدانية قائمة على معنى الغنى بالنفس والانفراد بكمال الوصف، فهو سبحانه

---

(١) رواه البخاري في كتاب المغازي، باب غزوة خيبر ٤/١٥٤١ (٣٩٦٨)، ورواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب استحباب خفض الصوت بالذكر ٤/٢٠٧٦ (٢٧٠٤).

وحده الذي خلق الخلق بلا معين ولا ظهير، ولا وزير ولا مشير، ومن ثم فإنه وحده المنفرد بالملك، وليس لأحد في ملكه شرك.

ومعلوم أن الذي علا بذاته وارتفع ارتفاعا مطلقا فوق الكل ينفرد بالوحدانية والعلو والعظمة والمجد والرفعة بدلالة اللزوم، والله ﷻ واحد في علوه، مستو على عرشه، بائن من خلقه، لا شيء من ذاته في خلقه، ولا خلقه في شيء من ذاته، يعلم أعمالهم، ويسمع أقوالهم، ويرى أفعالهم، ولا تخفى عليه منهم خافية.

والأحد اسم لله سبحانه ينفي الشبيه بالكلية، فهو المنفرد بذاته ووصفه المباين لغيره، كما بين في معنى الأحدية أنه لم يكن له كفوا أحد وأنه لا سمي له، فالأحدية هي الانفراد ونفي الشبيه بالكلية، وتعني انفراده سبحانه بذاته وصفاته وأفعاله عن الأقيسة والقواعد والقوانين التي تحكم ذوات المخلوقين وصفاتهم وأفعالهم، وانفراده سبحانه عن كل شيء من أوصاف المخلوقين يكون بجميع ما ثبت له من أوصاف الكمال، فالأحد هو المنفرد الذي لا شبيه له فنحكم على كيفية أوصافه من خلاله، ولا يستوي مع سائر الخلق فيسري عليه قانون أو قياس أو قواعد تحكمه كما تحكمهم، لأنه المتصف بالتوحيد المنفرد عن أحكام العبيد، فلا شبيه يدانيه ولا نظير يساويه، وهو منفرد بكل معاني الكمال، متوحد منزه عن النقائص والعيوب التي تنافي معاني الإلوهية والربوبية، فتعالى في أحديته عن الشريك والظهير

والولي والنصير، وتعالى في كمال حياته وقوميته ومشيئته وقدرته، وتعالى في كمال حكمته وحجته، وتعالى في كمال علمه عن الغفلة والنسيان، وعن ترك الخلق سدى دون غاية لخلق الجن والإنسان.

والوتر اسم لله سبحانه ينفي الشفعية والزوجية، فالله تعالى وتر انفرد عن خلقه فجعلهم على معنى الشفعية والزوجية، وقد خلق الله المخلوقات بحيث لا تعتدل ولا تستقر إلا بالزوجية، ولا تهنأ على الفردية والوترية، فالرجل لا يهنأ إلا بزوجته، ولا يشعر بالسعادة إلا مع أسرته، والتوافق بين محبتهم ومحبته، فيراعى في قراره ضروريات أولاده وزوجته.

ولا يمكن أن تستمر الحياة التي قدرها الله ﷻ على خلقه بغير الزوجية، حتى في تكوين أدق المواد الطبيعية، فالمادة تتكون من مجموعة من العناصر والمركبات، وكل عنصر مكون من مجموعة من الجزيئات، وكل جزيء مكون من مجموعة من الذرات، وكل ذرة لها نظام في تركيبها، تتزاوج فيه مع أخواتها، سواء كانت الذرة سالبة أو موجبة، فالعناصر في حقيقتها عبارة عن أخوات من الذرات متزاوجات متفاهمات، متكاتفات ومتماسكات.

ومن المعلوم أنه لا يتكون جزئُ الماء إلا إذا اتحدت ذرتان من الهيدروجين مع ذرة واحدة من الأكسجين، فالذرات في قيامها متزاوجة، سالبها يرتبط بموجبها، ولا تهدأ ولا تستقر إلا بالتزاوج

بين بعضها البعض. وتلك بناية الخلق بتقدير الحق بنيت على الزوجية والشفعية، أما ربنا ﷻ فذاته صمدية، وصفاته فردية، فهو المنفرد بالواحدية والأحدية والوترية[1].

(١) انظر كتاب أسماء الله الحسنى، د محمود عبد الرازق الرضواني ص٣٥٨، نشر مكتبة سلسبيل.

المطلب الرابع

مفهوم الأولية والآخرية ومعنى القدم والبقاء كصفات سلبية عند الأشعرية

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فقد تحدثنا في المطلب السابق عن دليل التمانع، وعلمنا أنه دليل عقلي يحتج به صاحب المذهب الأشعري على إثبات الوحدانية كصفة من الصفات السلبية التي ابتدعوها، وأن ما استدلوا به من القرآن كدليل ثانوي على التمانع، إنما هو دليل على توحيد العبادة، كما بينا الدليل النقلي الصحيح على إثبات توحيد الربوبية.

وعلمنا حقيقة الأساس الذي قام عليه ابتداع الأشعرية للصفات السلبية، وبينا ماهية الصفات السلبية الخمس التي قررها الأشعرية، ثم شرحنا مفهوم الوحدانية والتوحيد عند السلف الصالح من جهة، ومفهوم الوحدانية ومخالفة الحوادث عند الأشعرية من جهة أخرى.

ثم تناولنا مناقشة معتقدات الأشعرية في معنى الوحدانية ومخالفة الحوادث، وبينا مفهوم القيام بالنفس بين السلف والأشعرية، وعلمنا أن منهج القرآن يثبت قيام الخلائق على الشفعية والقيام والقيومية لله لإثبات الوترية، وعلمنا معنى اسم الواحد، ودلالته على صفة الواحدية، والأحد

ودلالته على صفة الأحدية، والوتر ودلالته على صفة الوترية، والفرق بين هذه الأسماء ودلالتها على الصفات.

وفي هذه المطلب نتحدث بإذن الله ﷻ عن مفهوم الأولية والآخرية، ومعنى القدم والبقاء كصفات سلبية عند الأشعرية.

- **التوحيد وإثبات وصف الأولية بلا قبلية والآخرية بلا بعدية.**

علمنا أن عقيدة أهل السنة والجماعة في توحيد الربوبية مبنية على أن وصف الغنى والكمال وصف ذاتي انفرد به رب العزة والجلال، وأن وصف الحاجة والافتقار وصف ذاتي لكل مخلوق على وجه الاضطرار، وأن هذه فطرة الله التي فطر الناس عليها.

وكذلك فإن عقيدة أهل السنة والجماعة تثبت توحيد الربوبية كوصف دائم لله أزلا وأبدا وتفرده سبحانه بوصف الغنى والكمال في كل ما علمنا وما لم نعلم من الأسماء والصفات والأفعال.

ولذلك فإن توحيد الربوبية والأسماء والصفات يقوم على إثبات وصف الأولية لله بلا قبلية، والآخرية بلا بعدية، ولازمه وصف الغنى والكمال كوصف ذاتي انفرد به رب العزة والجلال. قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ٣﴾ الحديد:٣ .

أما توحيد الله بالعبودية فإنه يقوم على إثبات وصف الأولية للمخلوق مسبوقا بالقبلية، والآخرية التي تلحقها البعدية، ولازمه وصف الحاجة والافتقار كوصف ذاتي لكل مخلوق على وجه الاضطرار.

روى الإمام مسلم من حديث أبي هريرة ﵁ أن النبي ﷺ كان إذا

آوى إلى فراشه قال: (اللهمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ، وَرَبَّ الأَرْضِ، وَرَبَّ العَرْشِ العَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُل شيء، فَالقَ الحَبِّ وَالنَّوَى، وَمُنْزِل التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيل وَالفُرْقَان، أَعُوذ بِكَ مِنْ شَرِّ كُل شيء أَنْتَ آخِذ بِنَاصِيَتِهِ، اللهمَّ أَنْتَ الأَوَّل، فَلَيْسَ قَبْلَكَ شيء، وَأَنْتَ الآخِرُ، فَلَيْسَ بَعْدَكَ شيء وَأَنْتَ الظَّاهِرُ، فَلَيْسَ فَوْقَكَ شيء، وَأَنْتَ البَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شيء، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ، وَاغْنِنَا مِنَ الفَقْرِ) (١).

• **اسم الله الأول ودلالته على وصف الأولية وعلو الشأن فيها.**

الأول سبحانه هو الذي لم يسبقه في الوجود شيء، وهو الذي علا بذاته وشأنه فوق كل شيء، وهو الذي لا يحتاج إلى غيره في شيء، وهو المستغني بنفسه عن كل شيء، فالأول اسم دل على وصف الأولية، وأولية الله تقدمه على كل من سواه في الزمان، فهي بمعنى القَبلية وخلاف البعدية، أو التقدم خلاف التأخر.

ومن الأولية أيضا تقدمه سبحانه على غيره تقدما مطلقا في كل وصف كمال وهذا علو الشأن ومعنى الكمال في الذات والصفات في مقابل العجز والقصور لغيره من المخلوقات، فلا يدانيه ولا يساويه أحد من خلقه؛ لأنه سبحانه منفرد بذاته ووصفه وفعله، فالأول هو المتصف بالأولية، والأولية وصف لله ﷻ، وليست لأحد سواه .

وربما يستشكل البعض وصف الله ﷻ بالأولية مع وصفه بدوام

---

(١) رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع ٤/٢٠٨٤ (٢٧١٣).

الخالقية والقدرة والفاعلية، فإذا كان الله ﷻ هو الأول الذي ليس قبله شيء، فهل يعني ذلك أنه كان معطلا عن الفعل، ثم أصبح خالقا فاعلا قادرا بعد أن لم يكن؟ وجواب ذلك أن يقال: إن الله ﷻ موصوف بأنه مريد فعال، يفعل ما يشاء وقت ما يشاء كما قال تعالى: ﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ۝١٥ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٦﴾ البروج:١٥/١٦.

وقد بين الله ﷻ أنه قبل وجود السماوات والأرض لم يكن سوى العرش والماء كما جاء في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾ هود:٧.

روى البخاري من حديث عِمْرَان ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُل شَيْءٍ)[1].

وربما يسأل سائل ويقول: وماذا قبل العرش والماء؟ الجواب أن الله قد شاء أن يوقف علمنا عن بداية المخلوقات عند العرش والماء، فقال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ البقرة:٢٥٥. فالله أعلم هل توجد مخلوقات قبل العرش والماء أم لا؟

لكننا نعتقد أن وجودها أمر ممكن متعلق بمشيئة الله وقدرته، فالله أخبرنا أنه يخلق ما يشاء، ويفعل ما يشاء، وهو على ما يشاء قدير، وأنه متصف بصفات الأفعال، ومن لوازم الكمال أنه فعال لما يريد على الدوام أزلا وأبدا، سواء كان ذلك قبل العرش والماء أو بعد وجودهما،

(١) رواه البخاري في التوحيد، باب وكان عرشه على الماء ٦/٢٦٩٩ (٦٩٨٢).

لكن الله ﷻ أوقف علمنا عند هذا الحد، كما أن جهلنا بذلك لا يؤثر فيما يخصنا أو يتعلق بحياتنا من معلومات ضرورية لتحقيق الحكمة والكمال في حياة الإنسان.

قال سليمان التيمي: (لو سئلت أين الله؟ لقلت: في السماء، فإن قال السائل: أين كان عرشه قبل السماء؟ لقلت: على الماء، فإن قال: فأين كان عرشه قبل الماء؟ لقلت: لا أعلم) [1].

ويعقب الإمام البخاري بقوله: (وذلك لقول الله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ البقرة:٢٥٥. يعني إلا بما بين) [2].

وهذه المسألة تسمى في باب العقيدة بالتسلسل، وهو ترتيب وجود المخلوقات في متوالية مستمرة غير متناهية من الأزل والأبد، ومعتقد السلف أن التسلسل في الأزل جائز ممكن، ولا يلزم من ذلك أن الخلق يشارك الله في الأزلية والأولية [3].

واسم الله الأول يدل على ذات الله وعلى صفة الأولية المطلقة بدلالة المطابقة، وعلى ذات الله ﷻ وحدها بالتضمن، وعلى الصفة وحدها بالتضمن، ووصف الأولية وصف ذاتي يدل على مطلق القبلية وعلو الشأن والفوقية.

واعتقاد العبد أن الله ﷻ هو الأول الغني بذاته يستلزم اعتقاده في

---

(١) خلق أفعال العباد للإمام البخاري ص٣٧، نشر دار المعارف الرياض.

(٢) السابق ص٣٧.

(٣) انظر شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص١٣٥.

كمال أوصافه أيضا، فهو أوَّلي بأولية ذاته وصفاته؛ فلم يكتسب وصفا كان مفقودا أو كمالا لم يكن موجودا، كما هو الحال بين المخلوقات في اكتساب أوصاف الكمال،.

وإذا علم المسلم أن أصله من طين، وله بداية ونهاية وحياة إلى حين، أيقن أن ما قام به من الكمال مرجعه إلى رب العالمين، وأن طاعته تعود إلى توفيق الله وفضله، وأن الفرع لا محالة سيرجع إلى أصله، ومن ثم يسارع إلى محبة الأولية في طلب الخير، وطلب الأسبقية في التزام الأمر، وحرصه على المزيد من الأجر.

قال الله تعالى في وصف عباده الموحدين: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ٦١﴾ المؤمنون:٦١ .

وقال سبحانه أيضا: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ٩٠﴾ الأنبياء:٩٠[١].

- **اسم الله الآخر ودلالته على وصف الآخرية والمقصود بها.**

اسم الله الآخر دل على وصف البقاء والآخرية، فهو الآخر الذي ليس بعده شيء الباقي بعد فناء الخلق. وهذا يوجب على العبد أن يجعل الله وحده غايته التي لا غاية له سواه ولا مطلوب له وراءه، فكما انتهت إليه الأواخر، وكان بعد كل آخر، فكذلك يجعل نهايته إليه، فليس وراءه مرمى ينتهي إليه، فتجد الموحد يعود بافتقاره إلى ربه،

---

(١) انظر كتاب أسماء الله الحسنى الثابتة للكتاب والسنة للدكتور محمود عبد الرازق الرضواني ص٣٠١، نشر مكتبة سلسبيل سنة ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م.

ويجعل المرجعية في فعله إلى ما ارتضاه لعبده، لعلمه أن الله ﷻ مالك الإرادات، ورب القلوب والنيات، يصرفها كيف شاء، فما شاء أن يزيغه منها أزاغه، وما شاء أن يقيمه منها أقامه، فهو سبحانه الذي ابتدع الخلق بقدرته ابتداعا، واخترعهم على مشيئته اختراعا، وهو الذي ينجي من قضائه بقضائه، وهو الذي يعيذ بنفسه من نفسه، وهو الذي يدفع ما منه بما منه، فالخلق كله له، والأمر كله له، والحكم كله له، ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وما شاء لم يستطع أن يصرفه إلا مشيئته، وما لم يشأ، لم يمكن أن يجلبه إلا مشيئته؛ فلا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يذهب بالسيئات إلا هو، ولا يهدي لأحسن الأعمال والأخلاق إلا هو، ولا يصرف سيئها إلا هو[1].

قال الله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ الأنعام:١٧ .

وتوحيد الله في اسمه الآخر يوجب صحة الاضطرار، وكمال الافتقار، ويحول بين العبد وبين رؤية الأعمال والأحوال، ويحول بينه وبين الخروج عن رق العبودية إلى دعوى ما ليس له، وكيف يدّعي مع الله حالا من قلبه وإرادته وحركته الظاهرة والباطنة بيد ربه ومليكه، لا يملك هو منها شيئا، وإنما هي بيد مقلب القلوب ومصرفها كيف يشاء، فالإيمان بهذا هو نظام التوحيد، ومتى انحل من القلب انحل نظام التوحيد، فسبحان من لا يُوصل إليه إلا به، ولا يُطاع إلا بمشيئته، ولا يُنال ما عنده من الكرامة إلا بطاعته، ولا سبيل إلى طاعته إلا بتوفيقه

---

(١) انظر السابق ص٣٠٧ .

ومعونته، فعاد الأمر كله إليه، كما ابتدأ الأمر كله منه، فهو الأول والآخر، والكل مستند إليه إنشاء وخلقا وإبداعا، وتكوينا وإحداثا واختراعا، وإيجادا وإمدادا وإعادة وبعثا، فله الملك كله، هو الأول بلا أول كان قبله، والآخر بلا آخر يكون بعده. والتعبد لله باسمه الأول والآخر والظاهر والباطن له رتبتان:

الرتبة الأولى: أن تشهد الأولية منه سبحانه في كل شيء، والآخرية بعد كل شيء والعلو والفوقية فوق كل شيء، والقرب والدنو دون كل شيء، فالمخلوق يحجبه مثله عما هو دونه، فيصير الحاجب بينه وبين المحجوب، والرب جل جلاله ليس دونه شيء أقرب إلى الخلق منه .

الرتبة الثانية: أن يعامل كل اسم بمقتضاه، فيعامل سبقه تعالى بأوليته لكل شيء، وسبقه بفضله وإحسانه الأسباب كلها بما يقتضيه ذلك من أفراده وتوحيده وعدم الالتفات إلى غيره، أو الوثوق بسواه أو التوكل عليه، فمن ذا الذي شفع لك في الأزل حيث لم تكن شيئا مذكورا حتى سماك باسم الإسلام، ووسمك بسمة الإيمان، وجعلك من أهل قبضة اليمين، وأقطعك في ذلك الغيب من تقديره أعمال المؤمنين؛ فعصمك عن العبادة للعبيد، وأعتقك من التزام الرق لمن له شكل أو نديد، ثم وجَّه وِجْهَة قلبك إليه سبحانه دون ما سواه .

ومن ثم اضرع إلى الذي عصمك من السجود للصنم، وقضى لك بقدم الصدق في القدم، أن يتم عليك نعمة هو ابتدأها، وكانت أوليتها منه بلا سبب منك، واسْمُ بهمتك عن ملاحظة هو النفس في الاختيار، ولا تركنن إلى الرسوم والآثار، ولا تقنع بالخسيس الدون، وعليك

بالمطالب العالية والمراتب السامية التي لا تنال إلا بطاعة الله؛ فإن الله سبحانه قضى أن لا ينال ما عنده إلا بطاعته، ومن كان لله ﷻ كما يريد الله ويحب، كان الله له فوق ما يريده العبد ويحب، فمن أقبل إليه تلقاه من بعيد، ومن تصرف في أفعاله مستعينا بحوله وقوته ألان له الحديد، ومن ترك شيئا لأجله أعطاه فوق المزيد، ومن أراد مراده الديني أراد ما يريد، ثم اسْمُ بسرك إلى المطلب الأعلى، واقصر حبك وتقربك على من سبق فضله وإحسانه إليك [(١)].

وهنا مسألة مهمة في معرفة الأسماء الأربعة التي تقدمت وهي الأول والآخر والظاهر والباطن، فإن هذه الأسماء كما ذكر ابن القيم رحمه الله هي أركان العلم والمعرفة، فحقيق بالعبد أن يبلغ في معرفتها إلى حيث تنتهي به قواه وفهمه، فالعبد له أول وآخر وظاهر وباطن، بل كل شيء له أول وآخر وظاهر وباطن، حتى الخطرة، واللحظة، والنفس، وأدنى من ذلك وأكثر، فأولية الله ﷻ سابقة على أولية كل ما سواه، وآخريته ثابتة بعد آخرية كل ما سواه، فأوليته سبقه لكل شيء، وآخريته بقاؤه بعد كل شيء، وظاهريته سبحانه فوقيته وعلوه على كل شيء، ومعنى الظهور يقتضي العلو، وظاهر الشيء هو ما علا منه وأحاط بباطنه، وبطونه سبحانه إحاطته بكل شيء بحيث يكون أقرب إليه من نفسه، فمدار هذه الأسماء الأربعة على الإحاطة .

وهي إحاطتان: زمانية ومكانية، فإحاطة أوليته وآخريته بالقبلية والبعدية فكل سابق انتهى إلى أوليته، وكل آخر انتهى إلى آخريته،

---

(١) طريق الهجرتين لابن القيم ١/٤٧ وما بعدها بتصرف.

فأحاطت أوليته وآخريته بالأوائل والأواخر، وأحاطت ظاهريته وباطنيته بكل ظاهر وباطن، فما من ظاهر إلا والله فوقه، وما من باطن إلا والله من ورائه، وما من أول إلا والله قبله، وما من آخر إلا والله بعده، فالأول أزله، والآخر دوامه وبقاؤه، والظاهر علوه وعظمته، والباطن قربه ودنوه، فسبق كل شيء بأوليته، وبقى بعد كل شيء بآخريته، وعلا على كل شيء بظهوره، ودنا من كل شيء ببطونه، فلا تواري منه سماء سماءً، ولا أرض أرضا، ولا يحجب عنه ظاهر باطنا، بل الباطن له ظاهر، والغيب عنده شهادة والبعيد منه قريب، والسر عنده علانية، فهذه الأسماء الأربعة تشتمل على أركان التوحيد، فهو الأول في آخريته والآخر في أوليته، والظاهر في بطونه والباطن في ظهوره، لم يزل أولا وآخرا وظاهرا وباطنا (١).

• أولية الله أولية ذاتية وأولية وصفية وأولية فعلية .

أولية الله جل جلاله التي دل عليه اسمه الأول على ثلاثة أنواع، فهي أولية ذاتية، وأولية وصفية، وأولية فعلية، ولا بد من بيان معناها بشيء من التفصيل:

أولا: الأولية الذاتية، وهي أولية حياة وقيومية، وعلو ذاتي وفوقية، ملازمة للذات الإلهية، فهي أولية وحدانية تنفي التعدد والمثلية عن الذات الإلهية، وهي أولية كمال ذاتي لازمة للغنى الذاتي والقيام بالنفس، ولا تتعلق بالمشيئة الإلهية ولا ترتبط بزمن أو مكان. قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ

(١) السابق ١/٤٧ بتصرف.

﴿إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ البقرة:٢٥٥ .

كما أن الأولية الذاتية وأولية الفوقية والحياة والقيومية هي أساس كل أولية وصفية أو فعلية، فجميع أسماء الله وصفاته وأفعاله تدل باللزوم على أن الله ﷻ حي قيوم، فالأول سبحانه هو الذي لم يسبقه في الوجود شيء، وهو الذي علا بذاته فوق كل شيء، وهو الذي لا يحتاج إلى غيره في شيء، وهو المستغني بنفسه عن كل شيء.

ثانيا: الأولية الوصفية، وهي أولية تفرد وتقدم وأسبقية، وعلو الشأن والأحدية، وانتفاء الشبيه في الوصفية، وقد تكون تلك الأولية في الصفات الذاتية أو الفعلية، فقد تتعلق بالمشيئة أو لا تتعلق، فأوليته الوصفية تقدمه سبحانه على غيره تقدما مطلقا في كل وصف كمال أثبته الله لنفسه سواء كان وصف ذاتيا أو وصفا فعليا.

- **أمثلة لأولية الله في الوصف الذاتي الذي لا يتعلق بالمشيئة.**

ومثال الأولية في الوصف الذاتي أوليته في وصف العلم والقدرة والسمع والبصر والعزة، والغنى والحكمة والقوة والكبرياء والعظمة، والسيادة والصمدية والجمال والأحدية، وسائر الأسماء الدالة على الصفات الذاتية، كلها حسنى وكلها عظمى.

ومثال ذلك ذكر الأسماء الحسنى سواء مطلقة أو مقيدة والصفات العليا ثم التنبيه على الأولية بأفعل التفضيل والخيرية، كما في اسميه العليم والأعلم. قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ

كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ ﴾ فاطر:٤٤. وقال: ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ الإسراء:٥٥.

ومن ذلك العزيز والأعز، فاسم الله العزيز كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ ﴾ النساء:١٣٩. وقوله: ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ المنافقون:٨ .

وروى البيهقي من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ موقوفا أنه كان يقول في السعي: (اللهُمَّ اغْفِرْ وَارْحَمْ، وَاعْفُ عَمَّا تَعْلمُ ، وَأَنْتَ الأَعَزُّ الأَكْرَمُ) [١]. وإن كان الأعز من باب الإخبار عن المعنى بما لم ير به نص وليس من الأسماء التوقيفية، لكنه دل على الاعتقاد في وصف الأولية الذاتية لعزة الله ﷻ وعلو الشأن فيها.

ومن ذلك الشَدِيدُ والأشد كقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ﴾ الأنفال:٥٢.

وقوله: ﴿ فَقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ

---

(١) انظر سنن البيهقي الكبرى، كتاب الحج، باب القول في الطواف ٨٤/٥ (٩٠٧٠)، وانظر مصنف ابن أبي شيبة في الحج، باب ما يقول الرجل في المسعى ٤٢٠/٣ (١٥٥٦٥)، والمعجم الأوسط للطبراني ١٤٧/٣ (٢٧٥٧)، نشر دار الحرمين القاهرة.

أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ﴿٨٤﴾ النساء:٨٤ .

ومن ذلك الكبير والأكبر كقوله تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ﴿٩﴾ الرعد:٩.

وقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ الحج:٦٢.

وعند البخاري من حديث عبادة بن الصامت ﵁ أن النبي ﷺ قال: (مَنْ تَعَارَّ مِنَ اللَيْلِ فقَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلكُ، ولَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ؛ الحَمْدُ للهِ، وَسُبْحَانَ اللهِ، ولاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ؛ ثمَّ قَالَ، اللهمَّ اغْفِرْ لِي، أَوْ دَعَا اسْتُجِيبَ، فَإِنْ تَوَضَّأَ وَصَلى قُبِلَتْ صَلاَتُهُ)[1].

ومن ذلك أيضا الغني والأغنى كقوله تعالى: ﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾ محمد:٣٨ .

وقول الله تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿١٥﴾ فاطر:١٥.

وروى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة ﵁ أن النبي ﷺ قال: (قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ

---

(١) البخاري في أبواب التهجد، باب من تعار من الليل فصلى ١/٣٨٧ (١١٠٣).

عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ)[1].

• **أمثلة لأولية الله في الوصف الفعلي الذي يتعلق بالمشيئة.**

ومثال الأولية في الوصف الفعلي كالخلق والرحمة والحكم والنصرة والرزق والرأفة، والمكر في موضع الكمال كما قال ﷻ: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤)﴾ آل عمران:٥٤.

وقال تعالى عن الأولية في وصف النصرة: ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (١٥٠)﴾ آل عمران:١٥٠ .

وقال تعالى عن الأولية في وصف الإرزاق: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤)﴾ المائدة:١١٤.

وقال تعالى عن الأولية في وصف الحكم: ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٧)﴾ الأعراف:٨٧ .

وقال تعالى عن الأولية في وصف الفتح: ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩)﴾ الأعراف:٨٩ .

---

(١) رواه مسلم في الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله ٤/٢٢٨٩ (٢٩٨٥).

وقال تعالى عن الأولية في وصف المغفرة: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ الأعراف:١٥٥.

وقال تعالى عن الأولية في وصف الخلق والتخليق: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ المؤمنون:١٤ .

وأولية الوصف كما تقدم ألا يدانيه ولا يساويه أحد من خلقه؛ لأنه سبحانه منفرد بذاته ووصفه وفعله، وهذا معنى الكمال في الذات والصفات في مقابل العجز والقصور لغيره من المخلوقات، فالأول هو المتصف بالأولية، والأولية وصف لله وليست لأحد سواه[1].

ثالثا: الأولية الفعلية، وهي أولية فعلية متعلقة بالمشيئة، ومرتبطة بزمن، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وجمع أفعال الله ﷻ له الأولية وعلو الشأن فيها كالنزول والمجئ والمحبة والرضا والغضب والمقت والقبض والبسط.

- **أمثلة لأولية الله الفعلية التي تتعلق بالمشيئة والزمان معا.**

روى البخاري من حديث أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: (يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُل لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُث اللَيْلِ

(١) انظر كتاب أسماء الله الحسنى الثابتة في الكتاب والسن للمؤلف ص٢٩٩.

الآخِرُ. يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟) [(١)].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ الأنبياء: ١٠٤.

وقال سبحانه: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ﴾ الفجر: ٢١/٢٣ .

وعند البخاري من حديث عَمْرِو بْنِ العَاصِ ﷺ أنه سَمِعْتُ رَسُول اللهِ ﷺ يَقُول: (إِنَّ اللهَ لا يَقْبِضُ العِلمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنْ العِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ العِلمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ، حَتَّى إِذا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلمٍ، فَضَلوا وَأَضَلوا) [(٢)].

وعند البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (يَقْبِضُ اللهُ الأَرْضَ، وَيَطْوِي السَّمَاوَاتِ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ؟) [(٣)].

---

(١) رواه البخاري في أبواب التهجد، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل ١/٣٨٤ (١٠٩٤)، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه ١/٥٢١ (٧٥٨).

(٢) رواه البخاري في كتاب العلم، باب كيف يقبض العلم ١/٥٠ (١٠٠)، ومسلم في كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان ٤/٢٠٥٨ (٢٦٧٣).

(٣) رواه البخاري في التفسير، باب تفسير سورة الزمر ٤/١٨١٢ (٤٥٣٤)، ومسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار ٤/٢١٤٨ (٢٧٨٧).

وعند البخاري عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُول اللهِ ﷺ قال: (فيَقُول بَعْضُ النَّاسِ لبَعْضٍ: عليْكُمْ بِآدَمَ، فيَأْتُونَ آدمَ عليه السلام فيَقُولونَ لهُ: أَنْتَ أَبُو البَشَرِ، خلقَكَ اللهُ بِيدِهِ، ونَفخَ فِيك مِنْ رُوحِهِ، وأَمرَ المَلائِكَةَ فَسَجَدُوا لك، اشْفَعْ لنَا إِلى ربِّك، أَلا تَرى إِلى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلا تَرى إِلى مَا قَدْ بلَغنَا؟ فيَقُول آدَمُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثلهُ، ولَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثلهُ، وإِنَّهُ قَدْ نَهَانِي عَنْ الشَّجَرَةِ فَعصَيْتُهُ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي اذهَبُوا إِلى غَيْرِي، اذهَبُوا إِلى نُوحٍ)[1].

وعند مسلم من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أن رَسُول اللهِ ﷺ قَال: (إِنَّ اللهَ يَقُول يَوْمَ القِيَامَةِ: أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ بِجَلالِي؟ اليَوْمَ أُظِلهُمْ فِي ظِلي يَوْمَ لا ظِل إِلا ظِلي)[2].

وقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ المائدة:٣. وقال تعالى: ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ هود:٤٣.

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير، سورة بني إسرائيل، باب ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبدا شكورا ٤/١٧٤٥ (٤٤٣٥)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها ١/١٨٤ (١٩٤).

(٢) رواه مسلم في كتاب البر والصلة والأدب، باب في فضل الحب في الله تعالى ٤/١٩٨٨ (٢٥٦٦).

ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ النحل:٢٧. وقال سبحانه: ﴿ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ المؤمنون:١١١ .

وقال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ يس:٦٥.

وقال تعالى: ﴿ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ الجاثية:٣٤. وقال تعالى: ﴿ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ ﴾ الإنسان:١١ .

فأولية الله الفعلية تقدمه سبحانه على غيره تقدما مطلقا في كل فعل، وجميع الشواهد المتقدمة ارتبط فيها وصف الأولية الفعلية بالمشيئة والزمان أو المكان، وهكذا جميع أفعال الله ﷻ.

- **التعبد باسم الأول والآخر معا ووصف الأولية والآخرية.**

مقتضى التعبد باسم الأول والآخر ووصف الأولية والآخرية الرجوع إلى فضل الله سبحانه، ومطالعة سبقه الأسباب والوسائط والعلل، فبفضل الله ورحمته وجدت منه الأقوال الشريفة، والمقامات العلية، وبفضله ورحمته وصل صالح العباد إلى رضاه ورحمته، وقربه وكرامته ومولاته.

وكان سبحانه هو الأول في ذلك كله ، كما أنه الأول في كل شيء، وكان هو الآخر في ذلك، كما هو الآخر في كل شيء، فمن عبده باسمه الأول والآخر حصلت له حقيقة هذا الفقر، فعبوديته باسمه الأول

تقتضي التجرد من مطالعة الأسباب، وعدم الوقوف أو الالتفات إليها، وتجريد النظر إلى مجرد سبق فضله ورحمته، وأنه هو الذي ابتدأ بالإحسان من غير وسيلة من العبد، إذ لا وسيلة له في العدم قبل وجوده.

وقد أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا، فمنه سبحانه الإعداد، ومنه الإمداد، وفضله سابق على الوسائل، والوسائل من مجرد فضله وجوده، لم تكن بوسائل أخرى، فمن نزل اسمه الأول على هذا المعنى أوجب له فقرا خاصا وعبودية خاصة[(١)].

أما عبوديته باسمه الآخر تقتضي أيضا عدم ركونه ووثوقه بالأسباب والوقوف معها، فإنها تنعدم لا محالة، وتنقضي بالآخرية، ويبقى الله ﷻ بدوام البقاء بعدها، فالتعلق بها تعلق بعدم ينقضي. والتعلق بالآخر سبحانه تعلق بالحي الذي لا يموت ولا يزول، فالمتعلق به حقيق أن لا يزول ولا ينقطع، بخلاف التعلق بغيره مما له آخر يفنى به، كذا نظر المؤمن إليه بسبق الأولية حيث كان قبل الأسباب كلها، وكذلك نظره إليه ببقاء الآخرية حيث يبقى بعد الأسباب كلها، فكان الله ﷻ ولم يكن شيء غيره، وكل شيء هالك إلا وجهه.

ومن تأمل عبودية الله بهذين الاسمين الأول والآخر وجدهما يوجبان صحة الاضطرار إلى الله وحده، ودوام الفقر إليه دون كل شيء سواه، وأن الأمر ابتدأ منه، وإليه يرجع، فهو الذي ابتدأ بالفضل حيث لا سبب ولا وسيلة، وإليه تنتهي الأسباب والوسائل، فهو أول كل شيء وآخره، وكما أنه رب كل شيء وفاعله وخالقه وبارئه، فهو إلهه وغايته

---

(١) انظر بتصرف طريق الهجرتين لابن القيم ١/٤٠.

التي لا صلاح له ولا فلاح ولا كمال إلا بأن يكون وحده غايته ونهايته ومقصوده، فهو الأول الذي ابتدأت منه المخلوقات، والآخر الذي انتهت إليه عبوديتها وإرادتها ومحبتها، فليس وراء الله شيء يقصد ويعبد ويتأله، كما أنه ليس قبله شيء يُخلق ويُبرأ، فكما كان واحدا في إيجادك فاجعله واحدا في تألهك إليه لتصح عبوديتك، وكما ابتدأ وجودك وخلقك منه فاجعله نهاية حبك وإرادتك وتألهك إليه لتصح لك عبوديته باسمه الأول والآخر. وأكثر الخلق تعبدوا له باسمه الأول، وإنما الشأن في التعبد له باسمه الآخر، فهذه عبودية الرسل وأتباعهم فهو رب العالمين وإله المرسلين سبحانه وبحمده[1].

• القدم والبقاء من الصفات السلبية عند الأشعرية .

يعبر الأشعرية عن الأولية والآخرية بوصف القدم والبقاء كصفات سلبية لله ﷻ، وإن كانوا يريدون بذلك تعطيل صفات الأفعال كالاستواء والنزول والمجيء والقبض والبسط والرضا والغضب وغيرها تحت مسمى نفي حلول الحوادث، لأنه لو اتصف الرب بها لقامت به الحوادث، وكل من قامت به الحوادث فهو حادث. وصانع العالم قديم لا أول له، لأنه لو كان محدَثا لاقتضى محدِثا، ثم كذلك محدثه اقتضى محدثا آخر، فيتسلسل إلى ما لا نهاية له، فثبت أن صانع العالم قديم. وكذلك فإن صانع العالم أبدي لا آخر له، لأن من ثبت قدمه استحال عدمه، ولأن وجوده واجب، ووجوب وجوده يمنع

---

(١) انظر السابق ١/٤١ بتصرف.

عدم بقائه.

وإدخالهم نفي صفات الأفعال في مسمى نفي الحوادث عن الله تعالى نوع الخلط والتلبيس والقول على الله بلا علم، فالرب تعالى أوجد كل حادث بعد أن لم يكن موجدا له، وكل ما سواه فهو حادث بعد أن لم يكن حادثا، ولا يلزم من ذلك أن يكون نفس كماله الذي يستحقه متجددا، بل لم يزل عالما قادرا مالكا غفورا متكلما كما شاء، كما أن الأزل ليس شيئا معينا، بل هو عبارة عن عدم الأولية، كما أن الأبد عبارة عن عدم الآخرية، فما من وقت يُقدّر إلا والأزل قبله لا إلى غاية[(١)].

روى الإمام مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ كان إذا آوى إلى فراشه قال: (اللهمَّ أَنْتَ الأوَّل، فَلَيْسَ قَبْلَكَ شيء، وَأَنْتَ الآخِرُ، فَلَيس بَعْدَكَ شيء، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ، فَلَيْسَ فَوْقَكَ شيء، وَأَنْتَ البَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شيء، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ وَاغْنِنَا مِنَ الفَقْرِ) [(٢)].

والنصوص القرآنية والنبوية المؤيدة لما دل عليه العقل مبينة أن الرب لم يزل ولا يزال موصوفا بصفات الكمال كما وصفه أئمة السنة من أنه لم يزل متكلما إذا شاء، ولم يزل حيا فاعلا أفعالا تقوم به، ولم يزل قادرا، وكل ما سواه مخلوق له حادث عنه، وأن حدوث الأشياء عنه شيئا بعد شيء، فليس فيها شيء كان معه، ولا قارنه بوجه من الوجوه،

---

(١) انظر بتصرف الصفدية لابن تيمية ٦٥/١، نشر دار الفضيلة الرياض.

(٢) رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع ٢٠٨٤/٤ (٢٧١٣).

فهذا مما يدل على حدوث كل واحد من العالم [١].

قال ابن أبي العز الحنفي: (وحلول الحوادث بالرب تعالى المنفي في علم الكلام المذموم، لم يرد نفيه ولا إثباته في كتاب ولا سنة، وفيه إجمال، فان أريد بالنفي أنه سبحانه لا يحل في ذاته المقدسة شيء من مخلوقاته المحدثة، أو لا يحدث له وصف متجدد لم يكن فهذا نفي صحيح. وإن أريد به نفي الصفات الاختيارية من أنه لا يفعل ما يريد، ولا يتكلم بما شاء إذا شاء، ولا أنه يغضب ويرضى لا كأحد من الورى، ولا يوصف بما وصف به نفسه من النزول والاستواء والإتيان كما يليق بجلاله وعظمته فهذا نفي باطل. وأهل الكلام المذموم يطلقون نفي حلول الحوادث، فيسلم السني للمتكلم ذلك على ظن أنه نفي عنه سبحانه ما لا يليق بجلاله، فإذا سلم له هذا النفي ألزمه نفي الصفات الاختيارية وصفات الفعل وهو غير لازم له، وإنما آتي السني من تسليم هذا النفي المجمل، وإلا فلو استفسر واستفصل لم ينقطع معه) [٢].

إن الله لم يزل يفعل ما يشاء، ويتكلم بما يشاء، وهو فعال لما يريد أزلا وأبدا، أما القول بأنه لم يكن قادرا ثم صار قادرا على الكلام أو الفعل، فإنه يقتضى أنه كان ناقصا عن صفة القدرة التي هي من لوازم ذاته، والتي هي من أظهر صفات الكمال، فهو ممتنع في العقل بالبرهان اليقيني، فإنه إذا لم يكن قادرا ثم صار قادرا، فلا بد من أمر جعله قادرا بعد أن لم يكن، فإذا لم يكن هناك إلا العدم المحض امتنع أن يصير قادرا

---

(١) الصفدية لابن تيمية ١/٨٢ بتصرف.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص١٢٩.

بعد أن لم يكن، وكذلك يمتنع أن يصير عالما بعد أن لم يكن، بخلاف الإنسان فإنه كان غير عالم ولا قادر ثم جعله غيره عالما قادرا، وكذلك إذا قالوا كان غير متكلم ثم صار متكلما، وهذا مما أورده الإمام أحمد على الجهمية إذ جعلوه كان غير متكلم ثم صار متكلما، قالوا: كالإنسان. فقال الإمام أحمد: فقد جمعتم بين تشبيه وكفر[1].

وأيضا فالأزل معناه عدم الأولية ليس الأزل شيئا محدودا، فقولنا لم يزل قادرا بمنزلة قولنا هو قادر دائما، وكونه قادرا وصف دائم لا ابتداء له، فكذلك إذا قيل لم يزل متكلما إذا شاء ولم يزل يفعل ما شاء يقتضي دوام كونه متكلما وفاعلا بمشيئته وقدرته.

وإذا ظن الظان أن هذا يقتضي قدم شيء معه كان من فساد تصوره، فإنه إذا كان خالق كل شيء، فكل ما سواه مخلوق مسبوق بالعدم، فليس معه شيء قديم بقدمه. وإذا قيل: لم يزل يخلق، كان معناه لم يزل يخلق مخلوقا بعد مخلوق، كما لا يزال في الأبد يخلق مخلوقا بعد مخلوق، وليس في ذلك إلا وصفه بدوام الفعل، لا بأن معه مفعولا من المفعولات بعينه أزلا وأبدا [2].

ولا بد أن نفرق بين الفعل ووصف الفعل، فكلاهما يتعلقان بمشيئة الله ﷻ وهما من حيث التعلق بالمشيئة أزليان أبديان، غير أن الفعل له تعلق بالزمان، ووصف الفعل ليس كذلك، فالتكلم وصف فعله، وكلم فعله الذي ارتبط بوقت.

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٢٣٧/١٨ بتصرف .

(٢) السابق ٢٣٩/١٨ بتصرف .

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾ الأعراف:١١. فالقول بعد أن خلق آدم وصوره، ولم يأمرهم قبل ذلك.

وكذا قوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾آل عمران:٥٩. فأخبر أنه قال له كن فيكون بعد أن خلقه من تراب. ومثل هذا الخبر في القرآن كثير يخبر انه تكلم في وقت معين، ونادى في وقت معين.

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه لما خرج إلى الصفا قرأ قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾ البقرة:١٥٨.

وقال: (نَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللهُ بِهِ، فَبَدَأَ بِالصَّفَا، فَرَقِيَ عليه حتى رَأَى الْبَيْتَ، فَكَبَّرَ اللهَ وَوَحَّدَهُ، وقال: لا إِلَهَ إلا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ له، له الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، يُحْيِي وَيُمِيتُ، وهو على كل شَيْءٍ قَدِيرٌ) [(١)]. فأخبر أن الله بدأ بالصفا قبل المروة [(٢)].

والخلاصة أن وصف الفعل هو كل وصف أزلي أبدي يتعلق بمشيئة الله، إن شاء فعله، وإن شاء لم يفعله، ولا يرتبط بزمان معين، فإن ارتبط بزمان فهو الفعل نحو قدر الله تقديرا، وفضل تفضيلا،

---

(١) رواه مسلم في كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ ٨٨٦/٢ (١٢١٨).

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٥٨٨/١٢ بتصرف .

وكلم تكليما. فوصف التقدير كما في قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ٢﴾ الفرقان:٢. فنقول: التقدير من أوصاف الله ﷻ الفعلية الأزلية والأبدية، ويقابله وصف القدرة من أوصاف الله الذات التي لا تتعلق بالمشيئة. ومثله التكليم في قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾ النساء:١٦٤. فنقول: التكليم وصف فعله، والكلام وصف ذاته، فباعتبار الكلام وصفا ذاتيا؛ فإنه لا يتعلق بالمشيئة والقدرة، وباعتباره وصفا فعليا؛ فإنه وصف أزلي أبدي متعلق بالمشيئة والقدرة، فإن تعلق بوقت فهو الفعل كلم.

ومثال ذلك أيضا وصف الإحياء الذي دل عليه اسم الله المحيي الذي ورد مقيدا في قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٥٠﴾ الروم:٥٠. ويقابله وصف الحياة من أوصاف الذات التي لا تتعلق بالمشيئة والذي دل عليه اسمه تعالى الحي.

وكذلك وصف التبصير في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ٧ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ٨﴾ ق:٧/٨. فهو وصف فعل، ويقابله في أوصاف الذات التي لا تتعلق بالمشيئة صفة البصر التي دل عليه اسمه تعالى البصير.

أما الفعل الإلهي فهو كل وصف فعل تعلق بالمشيئة وارتبط بالزمان والمكان، نحو الفعل "قدر" حيث تعلق بالمشيئة وتعلق بالزمن، وهو في أصله وصف من أوصاف الله الفعلية.

وقد ورد عند مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ أن رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: (الْمُؤْمِنُ القَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنْ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ) [1].

والشاهد من الحديث أن الفعل "قدر" تعلق بالمشيئة كما هو واضح، وارتبط كذلك بالزمان فيما ورد عند البخاري من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أن النَّبِيّ ﷺ قال: (احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُونَا، خَيَّبْتَنَا وَأَخْرَجْتَنَا مِنْ الْجَنَّةِ، قَالَ لَهُ آدَمُ: يَا مُوسَى، اصْطَفَاكَ اللهُ بِكَلامِهِ، وَخَطَّ لَكَ بِيَدِهِ، أَتَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قَدَّرَهُ اللهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى، ثلاثا) [2].

ومثال ذلك الفعل "كلم" في قول الله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾ النساء:١٦٤. فأصله وصف فعل تعلق بمشيئة الله ﷻ وهو التكليم وهو وصف أزلي أبدي، كما تعلق أيضا بالزمان والمكان في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ

---

(١) رواه مسلم في كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله ٤/٢٠٥٢ (٢٦٦٤).

(٢) رواه البخاري في كتاب القدر، باب تحاج آدم وموسى عند الله ٦/٢٤٣٩ (٦٢٤٠)، ورواه مسلم في كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام ٤/٢٠٤٢ (٢٦٥٢).

﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ﴾ الأعراف:١٤٣.

وجميع الأدلة لا تدل على قدم شيء بعينه من العالم، بل تدل على أن ما سوى الله ﷻ مخلوق حادث بعد أن لم يكن، إذ هو فاعل بقدرته ومشيئته كما تدل على ذلك الدلائل القطعية، والفاعل بمشيئته لا يكون شيء من مفعوله لازما لذاته بصريح العقل واتفاق عامة العقلاء، بل وكل فاعل لا يكون شيء من مفعوله لازما لذاته، ولا يتصور مقارنة مفعوله المعين له، ولو قدر أنه فاعل بغير إرادة فكيف بالفاعل بالإرادة.

والعالم فيه من الإحكام والإتقان ما دل على علم الرب، وفيه من الاختصاص ما دل على مشيئته، وفيه من الإحسان ما دل على رحمته، وفيه من العواقب الحميدة ما دل على حكمته، وفيه من الحوادث ما دل على قدرة الرب تعالى، مع أن الرب مستحق لصفات الكمال لذاته، فإنه مستحق لكل كمال ممكن الوجود لا نقص فيه، منزه عن كل نقص، وهو سبحانه ليس له كفؤ في شيء من أموره، فهو موصوف بصفات الكمال على وجه التفصيل، منزه فيها عن التشبيه والتمثيل، ومنزه عن النقائص مطلقا، فإن وصفه بها من أعظم الأباطيل، وكماله من لوازم ذاته المقدسة، لا يستفيده من غيره، بل هو الذي أنعم على خلقه بالخلق والإنشاء، وما جعله فيهم من صفات الأحياء، وخالق صفات الكمال أحق بها ولا كفؤ له فيها [١].

---

(١) انظر بتصرف مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٢/٥٩١.

• أصول التوحيد عند المتكلمين تعاكس أصول التوحيد الحق.

والقصد أن مسألة الصفات السلبية كالوحدانية، ومخالفة الحوادث، والقيام بالنفس، والقدم، والبقاء، بالإضافة إلى بقية أصول الأشعرية، إنما هي في حقيقتها مفهوم معاكس للتوحيد الحق، وبديل مخترع ليحل محل الأصول القرآنية والنبوية في توحيد الربوبية القائم على إثبات الغني الذاتي لله والفقر الذاتي لكل من سواه، وانفراد الله بالخلق والأمر.

وكذلك إفراد الله عمن سواه بما ثبت له من أنواع الكمال في الأسماء والصفات والأفعال، وليس بتعطيلها ونفيها، وهذا ما يناسب الفطرة السليمة والعقول المستقيمة، أما الذي يوصف بالسلب المحض فلا يكون منفردا، ولا متوحدا، ولا متميزا عن غيره.

ولما أثبت الله لنفسه الوحدانية في استوائه، فقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ طه:٥. علم أن استواءه له كيفية تليق به لا نعلمها، ولا مثيل ولا شبيه له فيها، ومن ثم لا تصح أصول التوحيد التي تدعو إلى نفي الاستواء أو غيره من صفات الأفعال، أو تعطيلها بالتأويل المستقبح الممقوت تحت مسمى الوحدانية ومخالفة الحوادث والقدم والبقاء، لأن هذه مصطلحات منقولة بتصرف عن معان قد تكون حقا إلى معان باطلة، ومأخوذة من أسماء وصفات وأفعال قد ورد التوقيف بها في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ.

وتقسيم الصفات عند الأشعرية إلى صفات نفسية، وصفات

سلبية، وصفات معاني، وصفات معنوية، وصفات فعلية، وصفات جامعة، وغير ذلك من الأمور المحدثة.

ولا يخفى على عالم بالقوانين الكلامية والمنطقية أن إطلاق النفسية على شيء من صفاته ﷻ لا يجوز، وأن فيه من الجراءة على الله ﷻ ما الله عالم به، وإن كان قصدهم بالنفسية في حق الله الوجود فقط وهو صحيح، لأن الإطلاق الموهم للمحذور في حقه تعالى لا يجوز، وإن كان المقصود به صحيحا[1].

والألفاظ نوعان: نوعٌ جاء به الكتاب والسنة، فيجب على كلِّ مؤمن أن يقِرَّ بموجب ذلك، فيثبت ما أثبته الله ورسوله ﷺ. ومن تمام العلم أن يَبْحَث عن مرادِ الرسول بها، ليُثبتَ ما أَثبَتَه، وينفي ما نفاه من المعاني.

وأما الألفاظُ التي ليست في الكتاب والسنة، ولا اتفق على إِثباتها أو نفيها سلف الأمة، فهذه ليس على أحد أن يوافق من نفاها أو أثبتها حتى يستفسر عن مراده، فإِن أراد بها معنى يوافق خبر الرسول أقر به، وإِن أراد بها معنى يخالف خبر الرسول أنكره.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وإِذا كان المتكلم في مقام الإِجابة لمن عارضه بالعقل، وادعى أن العقل يعارض النصوص، فإِنه قد يحتاج إِلى حل شبهته وبيان بطلانها، فإِذا أخذ النافي يذكر ألفاظا

---

(١) انظر بتصرف أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن لمحمد الأمين الشنقيطي ١٩/٢، نشر دار الفكر للطباعة وال، نشر بيروت.

مجملة، مثل أن يقول: لو كان استوى على العرش لكان جسمًا أو مركبًا، وهو منزَّهٌ عن ذلك، ولو خَلَقَ واستوى، وأتى لفصل القضاء، لكانت تَحُلُّه الحوادث وهو منزَّهٌ عن ذلك، ولو قامت به الصفات لحلته الأعراض وهو منزَّهٌ عن ذلك. فهنا يستفصلُ السائل ويقول له: ماذا تريد بهذه الألفاظ المُجملة؟ فإِن أراد بها حقا وباطلا، قبلَ الحقَّ، ورُدَّ الباطل، مثل أن يقول: أنا أُريد بنفي الجسم نفيَ قيامه بنفسه، وقيام الصفات به، ونفي كونِه مركبًا، فنقول: هو قائم بنفسه، وله صفات قائمة به، وأنتَ إِذا سَمَّيتَ هذا تجسيمًا لم يَجُز أن أدَعَ الحق الذي دل عليه صحيح المَنقول وصريح المعقول، لأجل تسميتك أنت له بهذا.

وأما قولك ليس مركبًا، فإن أردتَ به أنه سبحانه رَكَّبَهُ مركب، أو كان متفرِّقًا فَتَركَّب، وأنه يمكنُ تفرقُه وانفصالُه، فالله تعالى منزَّهٌ عن ذلك، وإِن أردت أنه موصوفٌ بالصفات مباينٌ للمخلوقات فهذا المعنى حقٌّ، ولا يجوز رده لأجل تسميتك له مركَّبًا، فهذا ونحوه مما يجاب به) [1].

وذكر أيضا أن ما توجبه الأدلة السمعية القرآنية والنبوية إنما يتلقى من عُرْف المتكلم بالخطاب، لا من الوضع المحدث، فليس لأحد أن يقول: إن الألفاظ التي جاءت في القرآن موضوعة في أصلها لمعاني لغوية متعددة، ثم يريد أن يفسر مراد الله بتلك المعاني، هذا من فعل أهل الإلحاد المفترين، فإن هؤلاء عمدوا إلى معان ظنوها ثابتة،

(١) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ١/٢٣٨.

فجعلوها هي معنى الواحد، والواجب، والغنى، والقديم، ونفي المثل، ثم عمدوا إلى ما جاء في القرآن والسنة من تسمية الله تعالى بأنه أحد، وواحد، ونحو ذلك من نفى المثل والكفؤ عنه، فقالوا: هذا يدل على المعاني التي سميناها بهذه الأسماء، وهذا من أعظم الافتراء على الله.

وكذلك المتفلسفة عمدوا إلى لفظ الخالق والفاعل والصانع والمحدث ونحو ذلك فوضعوها لمعنى ابتدعوه وقسموا الحدوث إلى نوعين ذاتي وزماني، وأرادوا بالذاتي كون المربوب مقارنا للرب أزلا وأبدا، فان اللفظ على هذا المعنى لا يعرف في لغة أحد من الأمم، ولو جعلوا هذا اصطلاحا لهم لم ننازعهم فيه، لكن قصدوا بذلك التلبيس على الناس [١].

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٦/١١١ بتصرف .

المطلب الخامس

البقاء ببقاء والبقاء بإبقاء والفرق بين ما يبقى ببقاء وما يبقى بإبقاء

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فقد تحدثنا في المطلب السابق عن توحيد الربوبية كوصف دائم لله أزلا وأبدا، وتفرده سبحانه بوصف الغنى والكمال في كل ما علمنا وما لم نعلم من الأسماء والصفات والأفعال، فوصف الأولية لله ﷻ وصف ثابت بلا قبلية، والآخرية أيضا بلا بعدية.

ثم بينا دلالة اسم الله الأول على وصف الأولية وعلو الشأن فيها والفوقية، وكذلك بينا اسم الله الآخر ودلالته على وصف الآخرية والمقصود بها، وعلمنا أن أولية الله ﷻ ثلاثة أنواع: أولية ذاتية، وأولية وصفية، وأولية فعلية.

ثم ضربنا أمثلة كثيرة لأولية الله في الوصف الذاتي الذي لا يتعلق بالمشيئة، وأولية الله ﷻ في الوصف الفعلي الذي يتعلق بالمشيئة، وأولية الله الفعلية التي تتعلق بالمشيئة والزمان معا.

وبينا مقتضى التعبد باسم الأول والآخر معا، ووصف الأولية

والآخرية والظهور والبطون معا، ثم نبهنا على أن القدم والبقاء من الصفات السلبية التي وضعها المتكلمون الأشعرية لتعطيل الصفات الفعلية كالنزول والمجيء والرضا والغضب وغير ذلك مما يسمونه بالصفات الخبرية، وعلمنا أن أصول التوحيد عند المتكلمين تعاكس أصول التوحيد الحق الذي دلت عليه الأصول القرآنية والنبوية.

وفي هذه المطلب بإذن الله ﷻ نتحدث عن مسألة البقاء ببقاء والبقاء بإبقاء، والفرق بين ما يبقى ببقاء وما يبقى بإبقاء.

• هل الوجود والزمان دائمان أزليان أبديان من الطرفين؟

لقد علمنا سابقا معنى الأولية والآخرية والبقاء والأبدية المتعلقة بذات الله وصفاته وأفعاله، وهنا نتناول مفهوم البقاء والأبدية لمفعولات الله ومخلوقاته، فهل الوجود والزمان دائمان أزليان أبديان؟ والسؤال بصيغة أخرى: هل الموجودات التي يتجدد خلقها الآن لحظة بلحظة في هذا الزمان، هل هي أزلية أبدية بحيث يستمر وجودها مقترنا بالزمان ويمتد من طرفين متعاكسين دائمين وغير منقطعين، تتسلسل الأحداث وتتوالي من قَبل في الأزل ومن بعد في الأبد، أم أن الوجود له بداية ونهاية؟

والجواب أن التسلسل الواجب علينا اعتقاده هو ما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فالواجب علينا اعتقاد دوام مفعولات الرب تعالى من جهة الأبد، ووجود مفعولات ومخلوقات مستمرة في التواجد على الدوام، وإن تغيرت صورها وعللها، بمعنى أن الوجود

في الدنيا صورته مستمرة على تحقيق العلة التي بينها القرآن وهي علة الابتلاء، ثم يتغير الوجود بمشيئة الله في الآخرة إلى صورة أخرى مستمرة أيضا، ولعلة أخرى بينها القرآن وهي علة الجزاء، فقد أخبر الله ﷻ في كتابه وأخبرنا نبينا المصطفى ﷺ في سنته عن بقاء أهل الخلدين في دار النعيم والشقاء، وأنه كلما انقضى لأهل الجنة نعيم، أو لأهل النار عذاب، أحدث الله ﷻ لهما نعيما وعذابا آخر لا نفاد لها.

قال ابن حزم: (ومُدد النعيم في الجنة والعذاب في النار، كلما فنيت مدة أحدث الله ﷻ أخرى، وهكذا أبدا بلا نهاية ولا آخر) [1].

وقال رحمه الله: (اتفقت فرق الأمة كلها على أنه لا فناء للجنة ولا لنعيمها ولا للنار ولا لعذابها إلا جهم بن صفوان، وأبا الهذيل العلاف من المعتزلة وقوما من الروافض، فأما جهم فقال: إن الجنة والنار تفنيان ويفنى أهلهما، وقال أبو الهذيل: إن الجنة والنار لا يفنيان، ولا يفنى أهلها إلا أن حركاتهم تفنى، ويبقون بمنزلة الجماد لا يتحركون، وهم في ذلك أحياء متلذذون أو معذبون، وقالت تلك الطائفة من الروافض: إن أهل الجنة يخرجون من الجنة، وكذا أهل النار من النار إلى حيث شاء الله) [2].

ثم بين في رده على الروافض وزعمهم أن أهل الجنة يخرجون من الجنة، وكذلك أهل النيران، أنها مقالة في غاية البطلان وعارية عن

---

(١) الفصل في الملل والنحل لابن حزم ٤/٧٠، نشر مكتبة الخانجي القاهرة.

(٢) السابق ٤/٧٠ .

الدليل والبرهان، ولا يقتنع بها إنسان في قلبه ذرة من إيمان، وما كان شأنه هكذا فهو كلام ساقط.

وأما قول أبي الهذيل في مقالته بفناء الحركات؛ فإنه لا حجة له إلا أنه زعم أن كل ما أحصاه العدد فهو ذو نهاية ولا بد، والحركات ذات عدد فهي متناهية. وهذا كلام باطل مبني على استخدام المعتزلة قياس التمثيل والشمول في الحكم على عالم الغيب بما يرونه من الأسباب في عالم الشهادة.

روى البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول اللهِ ﷺ قال: (قال الله تعالى: أَعْدَدْتُ لعِبَادِي الصَّالحِين ما لا عَيْن رَأَتْ، ولا أُذن سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قَلبِ بَشَرٍ، فاقرؤوا إن شِئْتُمْ: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١٧ ﴾ السجدة:١٧) [١].

وأما كلام جهم بن صفوان فهو تكذيب صريح بنصوص القرآن والسنة التي دلت على خلد أهل الجنة والنار [٢].

- **الأصول القرآنية والنبوية الدالة على بقاء أهل الخلدين أبدا.**

وعد الله عباده المؤمنين بالبقاء في الجنة مخلدين أبد الآبدين، وهذا وعد منه لهم تفضل به عليهم منّة منه وتكرما، فكلما انقضى نعيم خلق لهم نعيما آخر على ما يشتهون والأدلة النقلية على ذلك كثيرة

(١) رواه البخاري في بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة ٣/١١٨٥ (٣٠٧٢)، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٤/٢١٧٤ (٢٨٢٤).
(٢) الفصل في الملل والنحل لابن حزم ٤/٧٠.

وبيانها كما يلي:

١- قول الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ ﴾ النساء:٥٧.

٢- قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ ﴾ النساء:١٢٢.

٣- قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ التوبة:٢٠/٢٢.

٤- قوله: ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ ﴾ المائدة:١١٩.

٥- قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ التوبة:١٠٠.

٦- قوله تعالى: ﴿ رَّسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن

﴿تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزۡقًا ١١﴾ الطلاق: ١١.

٧- قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ٨﴾ البينة: ٧/٨.

٨- قوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ ٥١ ۞ وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ أَتۡرَابٌ ٥٢ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ٥٣ إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ٥٤﴾ ص: ٤٩/ ٥٤ .

٩- قوله: ﴿۞ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۖ وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ٣٥﴾ الرعد: ٣٥ .

١٠- قوله تعالى: ﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ١٠٨﴾ هود: ١٠٨.

وكما وعد الله عباده المؤمنين بالبقاء في الجنة مخلدين أبد الآبدين، تفضلا منه وتكرما، فإنه توعد الكافرين والمشركين بالبقاء في النار مخلدين معذبين، ليتحقق فيهم عدله كما تحقق في المؤمنين فضله، كلما نضجت جلودهم في العذاب بدلهم غيرها، والأدلة النقلية على ذلك كثيرة منها:

١- قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ١٦٨ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ١٦٩﴾ النساء: ١٦٨/ ١٦٩.

٢-قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾﴾ الأحزاب:٦٣/٦٥.

٣-قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾ التغابن:٩.

٤-قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾ هود:١٠٦/١٠٧.

٥-قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾ الجن:٢٢/٢٣.

وهذه النصوص القرآنية تدل بما لا يدع مجالا للشك أن وجود المخلوقات في الأبد والمستقبل متوال غير منقطع أبد الآبدين، وهذا يقضي بوجوب الإيمان بدوام أفعال الرب تعالى في الأبد، وأنه كلما انقضى لأهل الجنة نعيم أحدث الله لهم نعيما آخر لا نفاد له.

• هل الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن؟ وأين هما؟

اعتقاد أهل السنة والجماعة أن الجنة والنار قد خلقتا، وذهبت طائفة من المعتزلة والخوارج إلى أن الجنة والنار لم يخلقا بعد، وليس

لديهم حجة أكثر من أن بعضهم استدل بما ورد في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ التحريم: ١١.

وكذلك ما رواه مسلم من حديث عثمان بن عفان ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (مَن بَنى مَسْجِدًا للهِ، يَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللهِ، بَنى اللهُ لهُ بَيْتًا فِي الجَنةِ) (١).

وروى مسلم من حديث أم حبيبة زوج النبي ﷺ أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: (مَا مِن عَبْدٍ مُسْلمٍ يُصَلي للهِ كُل يَوْمٍ ثنتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً تَطوُّعًا غيْرَ فرِيضَةٍ إلا بَنى اللهُ لهُ بَيْتًا فِي الجَنةِ) (٢).

والشاهد عندهم أنهم قالوا: ولو كانت الجنة مخلوقة لم يكن في الدعاء في استئناف البناء والغرس معنى(٣).

والجواب أن الجنة والنار مخلوقتان على الجملة، كما أن الأرض مخلوقة، ثم يحدث الله تعالى فيها ما يشاء من البنيان، والدليل على أنهما مخلوقتان الآن قوله تعالى عن النبي ﷺ ليلة عرج به: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾ النجم: ١٣/ ١٥.

---

(١) رواه البخاري في أبواب المساجد، باب من بنى مسجدا ١/ ١٧٢ (٤٣٩)، مسلم في كتاب المساجد، باب فضل بناء المساجد والحث عليها ١/ ٣٧٨ (٥٣٣).
(٢) رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب فضل السنن الراتبة قبل الفرائض وبعدهن وبيان عددهن ١/ ٥٠٣ (٧٢٨).
(٣) الفصل في الملل والنحل لابن حزم ٤/ ٦٨ .

روى البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (مَن آمَن بِاللهِ وَبِرَسُولِه، وأَقَامَ الصَّلاَةَ وصَامَ رَمَضَان، كَان حقًّا علَى اللهِ أَن يُدْخِلهُ الجَنة، جَاهَدَ فِي سَبِيل اللهِ، أَوْ جلَسَ فِي أَرْضِهِ التِي وُلِدَ فِيهَا. فَقَالوا: يَا رَسُول اللهِ، أَفَلا نبَشِّرُ الناسَ؟ قَال: إن فِي الجَنةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللهُ للمُجَاهِدِين فِي سَبِيل اللهِ، مَا بَيْن الدَّرَجَتَيْن كَمَا بَيْن السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَإذا سَأَلتُمُ اللهَ فَاسْأَلوهُ الفِرْدَوْسَ، فَإِنهُ أَوْسَطُ الجَنَةِ، وَأَعْلى الجَنةِ، أُرَاهُ فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَن، وَمِنهُ تَفَجَّرُ أَنهَارُ الجَنةِ) [(١)].

وروى البخاري في صحيحه من حديث أنس بن مالك ﷺ أَن أُمَّ الرُّبَيِّعِ بِنتَ البَرَاءِ، وَهِيَ أُمُّ حَارِثَة بْن سُرَاقَةَ، أَتَتْ النبِيَّ ﷺ فَقَالتْ: يَا نبِيَّ اللهِ أَلا تُحَدِّثنِي عَن حَارِثَةَ، وَكَان قُتِل يَوْمَ بَدْرٍ، أَصَابَهُ سَهْمٌ غَرْبٌ، فَإِن كَان فِي الجَنةِ صَبَرْتُ، وَإِن كَان غَيْرَ ذلكَ اجْتَهَدْتُ عَليْهِ فِي البُكَاءِ، قَال: يَا أُمَّ حَارِثَةَ إِنهَا جِنَان فِي الجَنةِ، وَإِن ابْنكِ أَصَابَ الفِرْدَوْسَ الأَعْلى) [(٢)].

وروى البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (إِذا اشْتَدَّ الحَرُّ، فَأَبْرِدُوا بِالصَّلاَةِ، فَإِن شِدَّةَ الحَرِّ مِن فَيْحِ جَهَنمَ، وَاشْتَكَتْ النارُ إِلى رَبِّهَا، فَقَالتْ: يَا رَبِّ أَكَل بَعْضِي بَعْضًا، فَأَذن لهَا بِنفَسَيْن: نفَسٍ فِي الشِّتَاءِ، وَنفَسٍ فِي الصَّيْفِ، فَهُوَ أَشَدُّ مَا تَجِدُون مِن الحَرِّ،

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب درجات المجاهدين في سبيل الله ١٠٢٨/٣ (٢٦٣٧).

(٢) الموضع السابق، باب من أتاه سهم غرب فقتله ١٠٣٤/٣ (٢٦٥٤).

وَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الزَّمْهَرِيرِ)[١].

وروى مسلم من حديث أنس ﷺ أنه قال: (صلى بِنا رسول اللهِ ﷺ ذاتَ يَومٍ، فلما قضي الصَّلاةَ أَقْبَل عَليْنا بِوَجْهِهِ فقال: أَيُّهَا الناس إني إِمَامُكُمْ، فلا تَسْبِقُوني بِالرُّكوعِ ولا بِالسُّجُودِ، ولا بِالقِيَامِ ولا بِالانصِرَافِ، فَإني أَرَاكُمْ أَمَامِي وَمِن خَلفِي، ثمَّ قال: وَالذي نفْسُ مُحَمَّدٍ بيده، لو رَأَيْتُمْ ما رأيت، لضَحِكْتُمْ قَليلا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثيرًا، قالوا: وما رَأَيْتَ يا رَسُول اللهِ؟ قال: رأيت الجَنةَ وَالنارَ)[٢].

وروى مسلم من حديث جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (يا أَيُّهَا الناس، إنما الشَّمْسُ وَالقمَرُ آيَتَان من آياتِ اللهِ، وَإِنهُمَا لا يَنكَسِفَان لِمَوْتِ أَحَدٍ من الناس ـ وقال: أبو بَكْرٍ لِمَوْتِ بَشَرٍ ـ فإذا رَأَيتُمْ شيئا من ذلك فَصَلوا حتى تَنجلِيَ، ما من شَيْءٍ تُوعَدُونَهُ إلا قد رَأَيْتُهُ في صَلاتِي هذه، لقد جِيءَ بِالنارِ وَذلكُمْ حين رَأَيْتُمُوني تَأَخَّرْتُ، مَخَافَةَ أَن يُصِيبَني من لفْحِهَا، وَحَتَّى رأيت فيها صَاحِبَ المِحْجَن يَجُرُّ قُصْبَهُ في النارِ، كان يَسْرِقُ الحَاجَّ بِمِحْجَنِهِ، فَإِن فُطِنَ له قال إنما تَعَلقَ بِمِحْجَني، وَإِن غُفِلَ عنه ذهَبَ بِهِ، وَحَتَّى رأيت فيها صَاحِبَةَ الهِرَّةِ

---

(١) رواه البخاري في كتاب مواقيت الصلاة، باب الإبراد بالظهر في شدة الحر ١/١٩٩ (٥١٢)، ومسلم في كتاب المساجد، باب استحباب الإبراد بالظهر في شدة الحر لمن يمضى إلى جماعة ويناله الحر في طريقه ١/٤٣٢ (٦١٧). ومعنى أبرد أي أخر الصلاة حتى ينكسر الحر، والفيح سطوع الحر وفورانه.

(٢) رواه مسلم في كتاب الصلاة، باب النهى عن سبق الإمام بركوع أو سجود ونحوهما ١/٣٢٠ (٤٢٦).

التي رَبَطَتْهَا فلم تُطْعِمْهَا ولم تَدَعْهَا تَأْكُل من خَشَاشِ الأرض حتى مَاتَتْ جُوعًا. ثُمَّ جِيءَ بِالجَنةِ، وَذلكُمْ حين رَأَيْتُمُوني تَقَدَّمْتُ، حتى قُمْتُ في مَقَامِي، وَلَقَدْ مَدَدْتُ يَدِي وأنا أُرِيدُ أَن أَتَناوَل من ثَمَرِهَا لِتَنظُرُوا إليه، ثُمَّ بَدَا لي أَن لا أَفْعَل، فما من شَيْءٍ تُوعَدُونَهُ إلا قد رَأَيْتُهُ في صَلاتِي هذه)[١].

وروى أحمد من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (لَمَّا خَلَقَ الله الجَنَةَ وَالنارَ، أَرْسَل جِبْرِيل قال: انظُرْ إِلَيْهَا وإلى ما أَعْدَدْتُ لأَهْلِهَا فيها، فَجَاءَ فَنظَرَ إِلَيْهَا وإلى ما أَعَدَّ الله لأَهْلِهَا فيها، فَرَجَعَ إليه قال: وَعِزَّتِك لاَ يَسْمَعُ بها أَحَدٌ إلا دَخَلهَا، فَأَمَرَ بها فَحُجِبَتْ بِالمَكَارِهِ، قال: ارْجِعْ إِلَيْهَا، فَانظُرْ إِلَيْهَا وإلى ما أَعْدَدْتُ لأَهْلِهَا فيها، قال: فَرَجَعَ إِلَيْهَا، وإذا هي قد حُجِبَتْ بِالمَكَارِهِ، فَرَجَعَ إليه، وقال: وَعِزَّتِك، قد خَشِيتُ أَن لاَ يَدْخُلهَا أَحَدٌ. قال: اذهَبْ إلى النارِ، فَانظُرْ إِلَيْهَا وإلى ما أَعْدَدْتُ لأَهْلِهَا فيها، فإذا هي يَرْكَبُ بَعْضُهَا بَعْضاً، فَرَجَعَ قال: وَعِزَّتِك، لقد خَشِيتُ أن لاَ يَسْمَعَ بها أَحَدٌ فَيَدْخُلهَا،

---

(١) رواه مسلم في صحيحه كتاب الكسوف، باب ما عرض على النبي في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار ٢/٦٢٣ (٩٠٤). والمحجن كما قال الأصمعي: هو العصا المعوجة الرأس. ومنه الحديث المرفوع أنه طاف على بعير يستلم الأركان بمحجنه، انظر غريب الحديث لابن سلام ٣/٢١٦. وصاحب المِحْجَن في الجاهلية رجل كان معه مِحْجَن، وكان يقعدُ في جادَّة الطريق، فيأخُذ بمحجَنه الشيء بعد الشيء من أثاث المارة، فإن عُثِر عليه اعتَلَّ بأنه تعلق بمحجنه، انظر تهذيب اللغة للأزهري ٤/٩٣.

فَأَمَرَ بها فَحُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ، فقال: وَعِزَّتِك، لقد خَشِيتُ أَن لاَ ينجوا منها أَحَدٌ إلا دَخَلَهَا) [1].

والشاهد أن النبي ﷺ رأى الجنة والنار، وأخبر أن الفردوس الأعلى من الجنة التي أمرنا الله تعالى أن نسأله إياها، فوقها عرش الرحمن، وأن حارثة بن سراقة دخلها ﷺ، وأن أثر النار ونفسها يظهر في الشتاء والصيف، وكل ذلك دليل قاطع على وجودهما الآن، كما أن الجنة موجودة تحت العرش بنص حديث النبي ﷺ، وأن العرش فوق الفردوس كالسقف بالنسبة لها.

وأما النار فمحلها لا يعلمه إلا الله، فلم يثبت حديث مرفوع فيما نعلم يعتمد عليه في ذلك، ولكن الثابت أن النار يؤتى بها يوم القيامة. قال الشيخ أحمد الدهلوي: (ولم يصرح نص بتعين مكانهما، بل حيث شاء الله تعالى إذ لا إحاطة لنا بخلق الله وعوالمه) [2].

وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (يُؤْتَى بِجَهَنَمَ يَوْمَئِذ لَهَا سَبْعُون أَلفَ زِمَامٍ، مَعَ

---

(١) رواه أحمد في المسند ٢/٣٣٢ (٨٣٧٩)، والترمذي في كتاب صفة الجنة، باب ما جاء حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات ٤/٦٩٣ (٢٥٦٠)، وأبو داود في كتاب السنة، باب في خلق الجنة والنار ٤/٢٣٦ (٤٧٤٤)، وحسنه الشيخ الألباني، انظر مشكاة المصابيح (٥٦٩٦)، وصحيح الترغيب والترهيب (٣٦٦٩)، وصحيح الجامع (٥٢١٠).

(٢) انظر يقظة أولي الاعتبار مما ورد في ذكر النار وأصحاب النار لصديق بن حسن بن علي القنوجي ص٤٨، نشر مكتبة عاطف، دار الأنصار القاهرة.

كُل زِمَامٍ سَبْعُون أَلْفَ مَلكٍ يَجُرُّونهَا)[1].

- التسلسل واجب في الأبد وممكن في الأزل وممتنع في المؤثرات.

والتسلسل لفظ مجمل لم يرد بنفيه ولا إثباته كتاب ولا سنة فيجب مراعاة لفظه، وهو ينقسم إلى واجب وممتنع وممكن:

أولا: التسلسل الممتنع، وهو التسلسل في المؤثرين، وهو أن يكون مؤثرون كل واحد منهم استفاد تأثيره مما قبله لا إلى غاية، وهذا محال وممتنع، وقد أمرنا بالاستعاذة عند ورود مثل هذا النوع من التسلسل في حق الله.

روى البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ كَذا، مَنْ خَلَقَ كَذا، حَتَّى يَقُولَ: مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ، فَإِذا بَلَغَهُ فَلْيَسْتَعِذ بِاللهِ وَلْيَنْتَهِ)[2].

والخلق والتكوين والفعل صفات لله ﷻ، وهو موصوف بها في الأزل، ومعلوم أن الفعل غير المفعول، وكذلك التخليق والتكوين، لو كانا جميعا واحدا، لكان كون المكونات بأنفسها، لأنه لم يكن من الله إليها معنى سوى أنها لم تكن فكانت، فالمرجع في وجود الخلق المشيئة

---

(١) رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في شدة حر نار جهنم وبعد قعرها وما تأخذ من المعذبين ٤/٢١٨٤ (٢٨٤٢).

(٢) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده ٣/١١٩٤ (٣١٠٢)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها ١/١٢٠ (١٣٤).

الإلهية المطلقة التي أوجبها قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾ آل عمران:٤٧.

والفرق بيّن واضح بين ذات الله وصفاته من ناحية، وبين مفعولاته ومخلوقاته من ناحية أخرى، فإن الله ﷻ صانع كل شئ بقدرته، وعلة كل شئ صُنْعُه، ولا علة لصنعه، ولا يمكن أن تكون ذات الله علة يصدر عنها معلول، كما الحال في سائر الأسباب في نظام تولدها عن بعضها، أو كصدور الابن وتولده عن الأب، قال تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾﴾ الإخلاص:٣.

وأما المعتزلة القائلون خالق بذاته فقد جعلوا ذات الله والدة ومتولدة تعالى الله عن قولهم، فالعلة في وجود الخلائق صفات الله الفاعلة الأزلية الأولية، وفرق كبير بين وجود الشئ وفعل الله في إيجاده وخلقه، ففعل الله صفة من صفاته وهو أولي بأولية الذات، وليست الذات علة لصفاته وفعله وصنعه، فعِلّة كل شيء صنعه ولا علة لصنعه. قال تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ الأنبياء:٢٢/٢٣.

ثانيا: التسلسل الواجب، وهو التسلسل الذي دل عليه الشرع من دوام مفعولات الله وبقائها بأفعال الرب تعالى في الأبد، وأنه كلما انقضى لأهل الجنة نعيم أحدث الله لهم نعيما آخر لا نفاد له. وقد أوجب الله ذلك على نفسه تفضلا منه وتكرما ووعدا منه لأهل محبته، ومن أصدق من الله قيلا فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟

ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ١٢٢﴾ النساء:١٢٢.

وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٧٢﴾ التوبة:٧٢.

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ٨ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٩﴾ لقمان:٨/٩.

وكذلك توعد الله الكفار وأهل النار بعدله أنه كلما انقضى لهم عذاب أحدث لهم عذابا دائما مستمرا لا ينقطع بسبب كفرهم وشركهم وتكذيبهم ومحاربتهم لربهم ومعاداتهم لرسله وأوليائه.

وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِيَ حَسۡبُهُمۡۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ٦٨﴾ التوبة:٦٨.

وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ٥٦﴾ النساء:٥٦.

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ٣٦ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ٣٧﴾ فاطر:٣٦/٣٧.

ثالثا: التسلسل الممكن، وهو التسلسل في مفعولات الله من طرف الأزل، وأن كل فعل مسبوق بفعل آخر، وهو غير التسلسل في أفعاله من طرف الأزل فهذا واجب في كلامه، ووصف دائم ملازم لذاته فإنه لم يزل خالقا بارئا مصورا متكلما إذا شاء، ولم يكن ربنا تعالى في وقت من الأوقات معطلا عن كماله من الكلام والإرادة والفعل. فالله ﷻ موصوف بأنه مريد فعال، يفعل ما يشاء، وقت ما يشاء كما قال تعالى: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ البروج:١٥/١٦.

ووجود المخلوقات في الأزل أمر ممكن متعلق بمشيئة الله وقدرته، فالله ﷻ أخبرنا أنه يخلق ما يشاء، ويفعل ما يشاء، وهو على ما يشاء قدير، وأنه متصف بصفات الأفعال، ومن لوازم الكمال أنه فعال لما يريد على الدوام أزلا وأبدا، سواء كان ذلك قبل العرش والماء، أو بعد وجودهما، لكن الله ﷻ أوقف علمنا عند هذا الحد.

والمقصود أن الذي دل عليه الشرع والعقل أن كل ما سوى الله تعالى محدث كائن بعد أن لم يكن، أما كون الرب تعالى لم يزل معطلا عن الفعل ثم فعل، فليس في الشرع ولا في العقل ما يثبته بل كلاهما يدل على نقيضه [1].

- تحقيق مراد العباد في الدنيا علقه الله بمشيئته.

إن الله ﷻ يخلق ما يشاء، وهو على كل شيء قدير، خلق الإنسان

---

(١) انظر بتصرف شفاء العليل لابن القيم ص١٥٦، وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص١٣٥.

بقدره وأماته وأحياه لحكمته، فاقتضت حكمته أن تكون مشيئة الإنسان في الدنيا معلقة بمشيئة الله، بحيث إذا أراد العبد شيئا عاد بفقره إلى مولاه، إما اضطرارا وإما اختيار، فالعاقل المختار إذا علم ذلك وأراد شيئا في هذه الحياة استعان بالله، وفوض أمره إليه، وتوكل عليه، ورد حوله وقوته إليه، ليقينه أن مشيئته لن تتحقق إلا إذا شاء سبحانه، والأدلة على ذلك كثيرة نذكر منها:

١- قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ التكوير:٢٦/٢٩.

٢- وقوله تعالى: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ۚ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾﴾ الإنسان:٢٨/٣١.

٣- قوله سبحانه وتعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ ۖ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ آل عمران:٢٦ .

٤- قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾ الأنعام:٣٥ .

٥- قوله تعالى: ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ

أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ الأعراف:١٨٨ .

٦- قوله تعالى: ﴿ وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ القصص:٨٢ .

٧- قوله تعالى: ﴿ فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ﴿٧٦﴾ ﴾ يوسف:٧٦ .

٨- قوله تعالى: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ﴿١٨﴾ ﴾ الإسراء:١٨ .

٩- قوله تعالى: ﴿ وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشۡيَاعِهِم مِّن قَبۡلُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ فِي شَكّٖ مُّرِيبِۭ ﴿٥٤﴾ ﴾ سبأ:٥٤ .

١٠- قول الله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ ﴿٥٦﴾ ﴾ المدثر:٥٤/٥٦.

- **الابتلاء في الدنيا هو العلة في ألا نشاء إلا ما شاء الله.**

وأما كون تحقيق مراد العباد في الدنيا متوقف على مشيئة الله فذلك تحقيقا لحكمته في ابتلاء عباده، فقد استخلفهم في أرضه، واستأمنهم في ملكه، ليبلوهم أيهم أحسن عملا، فإذا علم العبد ذلك

استسلم لربه وعاد بفقره إليه، مسلما له ما استرعاه، مطيعا له فيما استأمنه وخوله، فيعطيه الله ما يريد، ويحقق مطلبه.

كما ثبت في الحديث القدسي الذي رواه البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعا إلى النبي ﷺ: (وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطُشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ)[1].

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ الأعراف: ٩٦.

وإذا لم يفهم الإنسان حقيقة الحياة، ولم يسلم أمره ويستسلم لله عن طواعية، تركه الله ﷻ لنفسه، وللعمل بمقتضى الأسباب التي يخلقها وفق حكمته لمن شاء من عباده، ولن ينال إلا ما قدره الله ﷻ.

قال تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ الملك: ١/٢.

وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾ هود: ٧.

---

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب التواضع ٥/٢٣٨٤ (٦١٣٧).

قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ الإنسان: ٢/٣.

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ الفرقان: ٢٠.

والفتنة هنا معناها الابتلاء وهو عام في جميع الخلق، فامتحن الله بعض العباد ببعض، فامتحن الرسل بالمرسل إليهم، ودعوتهم إلى الحق والصبر على أذاهم، وتحمل المشاق في تبليغهم رسالات ربهم، وامتحن المرسل إليهم بالرسل، هل يطيعونهم وينصرونهم ويصدقونهم، أم يكفرون بهم، ويردون الشرائع عليهم ويقاتلونهم؟

وامتحن العلماء بالجهال هل يعلمونهم وينصحونهم ويصبرون على تعليمهم ونصحهم وإرشادهم ولوازم ذلك؟ وامتحن الجهال بالعلماء هل يطيعونهم ويهتدون بهم؟ وامتحن الملوك بالرعية، والرعية بالملوك، وامتحن الأغنياء بالفقراء والفقراء بالأغنياء، وامتحن الضعفاء بالأقوياء، والأقوياء بالضعفاء، والسادة بالأتباع، والأتباع بالسادة، وامتحن المالك بمملوكه، وامتحن مملوكه به، وامتحن الرجل بامرأته، وامرأته به، وامتحن الرجال بالنساء، والنساء بالرجال، والمؤمنين بالكفار والكفار بالمؤمنين، وامتحن الآمرين بالمعروف بمن يأمرونهم، وامتحن المأمورين بهم[١].

---

(١) انظر بتصرف إغاثة اللهفان لابن القيم ٢/١٦١.

إن العلاقة بين مشيئة الإنسان ومشيئة ربه تفسرها حقيقة الابتلاء، فالله ﷻ مالك الملك وخالق الأرض التي هي محل الأمانة، وهو صاحبها على الحقيقة، وهو المستخلِفُ المبتلي، والإنسان أمين عليها حقيقة، مستخلَفٌ فيها مبتلَى بها، وما ملكه الله واسترعاه هو موضوع الأمانة وفيه الأرض مستخلَفٌ عليها مبتلى بها. قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾ الأنعام:١٦٥.

وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾ هود:٧.

• تحقيق مراد العباد في الآخرة علقه الله بمشيئتهم أو عكسها.

ولما كانت العلة في الدنيا هي الابتلاء، وهي دار تعب وكبد، ولا يحقق الإنسان فيها ما يشاء إلا إذا شاء الله، فإن الآخرة جعلها الله ﷻ دار بقاء وجزاء، والجنة فيها دار القرار والنعيم المقيم، ومن ثم اقتضت حكمة الله أن يكون تحقيقه لمراد أهل الجنة معلقا بمشيئتهم، فما من نعيم يطلبونه إلا ويخلقه لهم في توال مستمر خالدين فيها أبد، والأدلة عل ذلك كثيرة نذكر منها ما يلي:

١- قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾ الزمر:٧٤ .

٢- قوله تعالى: ﴿ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ فصلت: ٣١

٣- قوله تعالى: ﴿ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ الزخرف: ٧١.

٤- قوله تعالى: ﴿ وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٞ ﴿٢٢﴾ كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِ ٱلۡمَكۡنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ الواقعة: ٢٠/٢٤.

٥- قوله تعالى: ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ النحل: ٣١.

٦- قوله تعالى: ﴿ قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۚ كَانَتۡ لَهُمۡ جَزَآءٗ وَمَصِيرٗا ﴿١٥﴾ لَّهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا ﴿١٦﴾ ﴾ الفرقان: ١٥/١٦.

٧- قوله تعالى: ﴿ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ﴾ الشورى: ٢٢.

٨- قوله تعالى: ﴿ وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٖ ﴿٣٢﴾ مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ ﴿٣٥﴾ ﴾ ق: ٣١/٣٥.

وكما اقتضت حكمة الله أن يكون تحقيقه لمراد أهل الجنة معلقا

بمشيئتهم، فإن حكمته اقتضت أيضا أن يكون تحقيقه لمراد أهل النار معلقا على عكس مشيئتهم، تبكيتا لهم وإظهارا لعدله فيهم، والأدلة عل ذلك كثيرة نذكر منها ما يلي:

١–قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ فاطر:٣٧ .

٢–قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾ غافر: ٥٠ .

٣–قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ الزخرف: ٧٤/٧٧.

٤–قول الله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾ الأعراف: ٥٠.

٥–قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾ الأعراف: ٥١ .

وإذا كانت قدرة الله مظهرة لمشيئته، والكون كله بقضائه وقدره، فإن حكمته اقتضت أن يتقلب الخلائق بين فضله وعدله، فتحقيق

المراد لأهل الجنة علقه الله بمشيئتهم إكراما لهم وإظهار لمحبتهم، بعكس الوضع في الدنيا فتحقيق المراد لأهل الدنيا علقه الله بمشيئته لا بمشيئتهم، ابتلاء لهم وإظهار لإيمانهم فسبحانه من قدير حكيم.

- **لا بد أن نفرق في البقاء بين ما يبقى ببقاء الله وما يبقي بإبقائه.**

كيف نجمع بين وصف الله ﷻ بأنه الآخر الذي ليس بعده شيء، وبقاء المخلوقات في الجنة ودوامها وأبديتها؟ لا شك أن بقاء أهل الجنة والنار أبدا يبدو في الظاهر متعارضا مع إفراد الله ﷻ بالبقاء، وأنه الآخر الذي ليس بعده شي.

لقد كانت هذه المسألة محل خلاف بين فرق المسلمين، عندما اختلفوا حول مفهوم الأبدية لأهل الجنة والنار في القرآن الكريم والسنة النبوية حتى فسرها البعض بطول الأمد، فالأبد عندهم يعنى الزمان الطويل، لكنه مهما طال فهو محدود زائل، وليس معنى الأمد عندهم البقاء اللانهائي، وبعضهم قال بفناء الجنة والنار، وبعضهم قال بفناء النار فقط.

ولا بد هنا أن نفرق في قضية البقاء بين ما يبقى ببقاء الله وما يبقي بإبقاء الله، أو نفرق بين بقاء الذات والصفات الإلهية، وبقاء المخلوقات التي أوجدتها الصفات الإلهية، فالجنة مثلا باقية بإبقائه، وصفاته باقية ببقائه، وشتان بين ما يبقي ببقائه وما يبقي بإبقائه، فالجنة مخلوقة خلقها الله ﷻ وكائنة بأمره، ورهن مشيئة وحكمه، فمشيئة الله ﷻ حاكمة علي ما يبقى وما لا يبقى.

ومن ثم فإن السلف يعتبرون خلد الجنة وأهلها إلى ما لا نهاية، إنما هو بإبقاء الله ﷻ وإرادته، فالبقاء عندهم ليس من طبيعة المخلوقات ولا من خصائصها الذاتية، بل من طبيعتها جميعا كمخلوقات خلقها الله ﷻ، من طبيعتها جميعا الفناء، فالخلود ليس لذات المخلوق أو طبيعته، وإنما هو وبمدد دائم من الله تعالى، وإبقاء مستمر لا ينقطع، أما صفات الله ﷻ ومنها وجهه ويده وعينه وعلوه، ورحمته وعزته وقوته وملكه، فهي صفات باقية ببقائه ملازمة لذاته، باقية ببقاء ذاته سبحانه وتعالى، حيث البقاء صفة ذاتية له، كما أن الأزلية صفة ذاتية لله تعالى، فلا بد أن نفرق بين صفات الأفعال الإلهية وأبديتها، وبين مخلوقات الله الأبدية وطبيعتها. والقرآن الكريم فرق بين نوعين من البقاء.

الأول: في قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ الرحمن:٢٦/٢٧ .وقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ القصص:٨٨.

والثاني: في قوله تعالى: ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ الشورى:٣٦. وقوله: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ القصص:٦٠. وقوله: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾﴾ الأعلى:١٧.

الآيات الأولى دلت على صفة من صفات الذات وهى صفة الوجه ودلت على بقاء الصفة ببقاء الذات، فأثبتت بقاء الذات

بصفاتها، وأثبت فناء ما دونها أو إمكانية فنائه، إذ أن الله هو الأول والآخر، وهو قبل كل شيء، وبعد كل شيء، وكما جاء في الحديث مرفوعا إلى النبي ﷺ أنه قال: (اللهُمَّ أَنتَ الأَوَّل، فَليْسَ قَبْلكَ شَيْءٌ، وَأَنتَ الآخِرُ، فَليس بَعْدَكَ شَيْءٌ)[1]. وقال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ الرحمن:٢٦/٢٧ .

وقد ذكر ابن كثير في معنى الآية أن الله ﷻ أخبر بأنه الدائم الباقي الحي القيوم الذي تموت الخلائق ولا يموت، فعبر ببقاء الوجه عن بقاء الذات لأن الوجه من صفات ذاته سبحانه وتعالى، أما الآيات الأخرى فبقاء المخلوقات فيها لا لذاته ولكن بعطاء من الله لإكرام أهل طاعته وإنفاذ عدله في أهل معصيته، ولذلك يقول سبحانه: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾ النبأ: ٣١/٣٦ [2].

• معنى قول الطحاوي ما زال بصفاته قديما قبل خلقه.

قال الإمام الطحاوي: (ما زال بصفاته قديما قبل خلقه، لم يزدد بكونهم شيئا، لم يكن قبلهم من صفته، وكما كان بصفاته أزليا، كذلك لا يزال عليها أبديا، ليس بعد خلق الخلق استفاد اسم الخالق، ولا بإحداث البرية استفاد اسم الباري، له معنى الربوبية ولا مربوب،

---

(١) رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع ٤/٢٠٨٤ (٢٧١٣).

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٣/٤٠٤ بتصرف، نشر دار الفكر بيروت.

ومعنى الخالق ولا مخلوق، وكما أنه محيي الموتى بعدما أحيا، استحق هذا الاسم قبل إحيائهم، كذلك استحق اسم الخالق قبل إنشائهم، ذلك بأنه على كل شيء قدير، وكل شيء إليه فقير، وكل أمر عليه يسير، لا يحتاج إلى شيء: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ الشورى:١١)[1].

وهو يعني أن الله سبحانه وتعالى ليس قبله شيء وهو متصف بصفات الكمال، فصفاته صفات أزلية وأبدية، فكما أنه أول بلا بداية، فكذلك صفاته ملازمة لذاته، فهي أولية بأولية الله سبحانه وتعالى، فلم يكن أولا بلا صفات ثم حدثت له الصفات بعد ذلك، كما يقول ذلك من يقوله من أهل الضلال، فالله سبحانه وتعالى ليس لصفاته بداية كما أنه ليس لذاته بداية، فهو الخالق دائما وأبدا، وهو الرازق دائما وأبدا، وهو العلى دائما وأبدا، وهو القوي دائما وأبدا وهو رب العالمين دائما وأبدا.

لا نقول بأن الله لم يكن خالقا إلا بعد أن خلق الخلق، بل هو خالق في الأزل لا بداية لذلك، أما مخلوقاته فهي متنوعة متجددة، يخلق ما يشاء، ويفعل ما يشاء، فهو رب قبل وجود العالمين، وحال وجود العالمين، وبعد وجود العالمين هو رب العالمين، وكما أنه محيي الموتى بعدما أحيا، استحق هذا الاسم قبل إحيائهم، كذلك استحق اسم الخالق قبل إنشائهم، ذلك بأنه على كل شيء قدير، فالقدرة

---

(١) متن العقيدة الطحاوية ص٢٠ نشر المكتب الإسلامي.

وصف أزلي لذاته، لم يكتسبه بعد وجود مخلوقاته، ولا يتطلب الأمر عنده دليلا وبرهانا حتى يصفه الناس بما يستحق، كما هو الحال عندنا، فالله تعالى شأنه كما قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ الشورى:١١ .

أما نحن فالواحد منا لا يوصف بأنه قوي إلا إذا ظهر دليل قوته، ولا يوصف بأنه حكيم إلا إذا ظهر دليل حكمته، ولا يوصف بأنه غني إلا إذا ظهر دليل عزه وغناه، ولا يوصف بأنه ملك إلا إذا نصبناه وملكناه.

أما ربنا سبحانه فهو الغنى لا إله إلا الله، كل شيء إليه فقير، وكل أمر عليه يسير، لا يحتاج إلى شيء، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، فكمال الأشياء مستمد من الله الغني، وحياة العالم مستمدة من الله الحي، أما هو فلا يستمد وصفه من خلقه، ولا يمكن لملك الملوك أن يفتقر إلى شيء في ملكه.

كيف وهو القائل: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝١٥﴾ فاطر:١٥؟! .

إن الله سبحانه وتعالى لم يزل متصفا بصفات الكمال، صفات الذات وصفات الفعل، ولا يجوز أن يُعتقد أن الله ﷻ وُصف بصفة بعد أن لم يكن متصفا بها، لأن صفاته سبحانه صفات كمال، وفقدها صفة نقص، ولا يجوز أن يكون قد حصل له الكمال بعد أن

كان متصفا بضده[١].

ولا يَرِدُ على هذه صفات الأفعال كالخلق والتصوير، والإماتة، والإحياء، والقبض، والبسط، والطي، والاستواء، والإتيان، والمجيء، والنزول، والغضب، والرضا، ونحو ذلك مما وصف به نفسه ﷻ ووصفه به رسوله ﷺ، وإن كنا لا ندرك كنهه وحقيقته التي هي تأويله، ولا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا، ولا متوهمين بأهوائنا، ولكن أصل معناه معلوم لنا [٢]. كما قال الإمام مالك لما سئل عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ طه:٥. وغيرها: كيف استوى؟ فقال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول[٣].

• هل الجنة والنار باقيتان أبديتان أم أنهما تفنيان بعد حين؟

قال الإمام الطحاوي رحمه الله: (والجنة والنار مخلوقتان، لا تفنيان أبدا ولا تبيدان) [٤].

وذكر ابن أبي العز أن أهل السنة اتفقوا على أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن، ولم يزل أهل السنة على ذلك حتى نبغت

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص١٢٧ بتصرف.

(٢) انظر السابق ص١٢٨بتصرف.

(٣) هذا الأثر عن مالك أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ٣/٣٩٨ (٦٦٤) طبعة دار طيبة الرياض، وقال الحافظ في الفتح: إسناده جيد، انظر فتح الباري ١٣/٤٠٧.

(٤) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص٤٧٦.

نابغة من المعتزلة والقدرية فأنكرت ذلك، وقالت: بل ينشئهما الله يوم القيامة، وحملهم على ذلك أصلهم الفاسد الذي وضعوا به شريعة لما يفعله الله، وأنه ينبغي أن يفعل كذا، ولا ينبغي له أن يفعل كذا، وقاسوه على خلقه في أفعالهم، فهم مشبهة في الأفعال، ودخل التجهم فيهم فصاروا مع ذلك معطلة، وقالوا: خلْق الجنة قبل الجزاء عبث لأنها تصير معطلة مددا متطاولة، فردوا من النصوص ما خالف هذه الشريعة الباطلة التي وضعوها للرب تعالى، وحرفوا النصوص عن مواضعها، وضللوا وبدعوا من خالف شريعتهم [١].

ثم علق على ما ذكره الطحاوي بأنهما لا تفنيان أبدا ولا تبيدان وبين أن هذا قول جمهور الأئمة من السلف والخلف، وأن بعضهم قال ببقاء الجنة وبفناء النار، والقولان مذكوران في كثير من كتب التفسير وغيرها، وقال بفناء الجنة والنار الجهم بن صفوان إمام المعطلة، وليس له سلف قط لا من الصحابة، ولا من التابعين لهم بإحسان، ولا من أئمة المسلمين، ولا من أهل السنة، وأنكره عليه عامة أهل السنة وكفروه به، وصاحوا به وباتباعه من أقطار الأرض [٢].

إن من أبرز المسائل التي أخذت مساحة واسعة في كتب العقيدة قضية القول بفناء النار، لأن أهل السنة لا يختلفون على بقاء الجنة ودوامها وعدم فنائها، وإنما صار الخلاف بين أهل السنة من جهة

---

(١) السابق ص٤٧٦ بتصرف.

(٢) السابق ص٤٨٠ بتصرف.

وابن تيمية وتلميذه ابن القيم على وجه الخصوص من جهة أخرى.

وبعد تحقيق المسألة تبين أن ما يرمي إليه ابن تيمية وكذا تلميذه ابن القيم في قضية فناء النار إنما يدور حول أمر آخر غير ما تقطع به النصوص من خلود أهل النار فيها أبد الآبدين، فظن بعضهم أن ما ذهبا إليه مخالف لمنهجهما في تقديم النقل على العقل، والقول بالتأويل المتكلف الذين حذرا منه وحاربا المبتدعة فيه.

وإنما الأمر الذي كان يصبوا إليه ابن القيم على وجه الخصوص هو النظر إلى ما يبقى بإبقاء الله ومشيئته ووصفه بأنه فعال لما يريد من طرفي الأزل والأبد، وأننا ينبغي أن نفرق بين صفات الأفعال التي تبقى ببقاء الله وبين مفعولات الله ﷻ التي تبقى بإبقائه ومشيئته وتتعلق بالزمان منذ بداية توقيت خلقها إلى نهايتها [١].

ولو نظرنا إلى طرف الأزل لانحلت المشكلة، فأهل السنة يعتقدون أن مفعولات الله التي سبقت وجود السماوات والأرض واللوح والقلم، كانت ممثلة في وجود العرش والماء، وأن مفعولات الله التي سبقت العرش والماء الله أعلم بها؟ فالله أعلم هل وجدت مخلوقات قبل العرش والماء أم لا؟ ولما انتفي العلم بما سبق قبل العرش والماء؛ فإن أهل السنة ينتقلون مباشرة من الكلام عن دوام مفعولات الله في الأزل إلى الحديث عن دوام أفعال الله ﷻ، لقطعية النصوص التي ورد

---

(١) فصَّل ابن القيم رحمه الله تعالى القول في مسألة: هل الجنة والنار تفنيان؟ في كتاب حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٢٤٢، نشر دار الكتب العلمية بيروت.

فيها بذلك، وأن الله ﷻ موصوف بأنه فعال لما يريد، وأنه يخلق ما يشاء ويختار أزلا وأبد. أما العلم بمفعولات الله ﷻ التي لم يبن لنا فيها شيئا، فيردونه إلى الله ﷻ كما قال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ البقرة:٢٥٥.

لكنهم كما ذكرنا غير مرة يعتقدون أن وجودها أمر ممكن متعلق بمشيئة الله وقدرته، فالله أخبرنا أنه يخلق ما يشاء، ويفعل ما يشاء وهو على ما يشاء قدير، وأنه متصف بصفات الأفعال، ومن لوازم الكمال أنه فعال لما يريد على الدوام أزلا وأبدا، سواء كان ذلك قبل العرش والماء أو بعد وجودهما، لكن الله ﷻ أوقف علمنا عند هذا الحد، كما أن جهلنا بذلك لا يؤثر فيما يخصنا، أو يتعلق بحياتنا من معلومات ضرورية لتحقيق الكمال في حياة الإنسان.

وإذا علم موقف العلماء المتبعين لنهج السلف في العلاقة بين أفعال الله الأزلية بأزليته، وبين مفعولاته الممكنة الحادثة بمشيئة الله وقدرته في مدة معينة من الزمان، سواء خضعت تلك المدة لمقاييسنا الزمانية أو كانت خارجة عن تصوراتنا في الماهية والكيفية، إذا فهمت تلك العلاقة بين أفعال الله ومفعولاته من طرف الأزل، فكذلك العلاقة بين أفعال الله الأبدية الباقية ببقائه، ومفعولاته الباقية بإبقائه من طرف البقاء والأبد.

ومن هنا جاءت مسألة الحديث عن فناء النار بالنظر إلى أفعال رب العزة والجلال وطلاقة قدرته، وكان الحديث عنها كالسؤال الذي سبق: وماذا قبل العرش والماء؟ فنقول: إن الله فعال لما يريد،

والله أعلم ماذا كان من المفعولات المحدثة في الأزل؟ كذا السؤال: وماذا بعد الخلود في النار من أفعال رب العزة والجلال؟

فنقول: إن الله فعال لما يريد، والله أعلم ماذا سيكون من أفعال الله في الأبد بعد انقضاء علة الابتلاء في مرحلة الحياة الدنيا، وانقضاء علة الجزاء التي يحققها خلق الجنة والنار في الآخرة، فالله عز وجل يخلق ما يشاء وهو فعال لما يريد؟

وعلى هذا كان توجيه الاستثناء في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ هود:١٠٦/ ١٠٨.

ومن ثم فإن تحقيق المسألة في قضية فناء النار وما ورد فيها من الأدلة على خلودها، هي قضية اختلاف النظرة إلى تعلقها بأفعال الله من جهة أو تعلقها بمفعولاته من جهة أخرى، فإن نظرنا إلى أفعال الله عز وجل وجدنا دوامها ودوام أوليتها وآخريتها لدوام من اتصف بها في أوليته وآخريته وحياته وقيوميته، وأن الله سبحانه يخلق ما يشاء، ويفعل ما يشاء، وأفعال الله عز وجل لا يمكن لعاقل أن يستوعب أمدها لا بجنة أو نار من حيث البقاء أو الفناء، ولا قبل العرش والماء، ولا بعد العرش والماء، ولا بعد بقاء أهل الخلدين، ولا بعد بعده، كما قال تعالى عن السماوات والأرض التي علق عليه الاستثناء في بقاء أهل الخلدين إلا ما شاء: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن

﴿فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ يس: ٨١/٨٢.

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾ إبراهيم: ١٩/٢٠.

وإن نظرنا إلى مفعولات الله وجدنا أنواعا متعدد من مفعولاته في كل مرحلة، كل يحقق مطلق القدرة والحكمة في وجوده وذاته، سواء علمنا كيف كانت تلكما القدرة والحكمة، أو لم نعلم عن كيفية تحقيقهما شيئا، فوجدنا من مفعولاته العرش والماء، ثم خلق اللوح والقلم، ثم خلق السماوات والأرض في وضع يحقق معاني الابتلاء، ثم تبديلهما إلى خلق جديد في وضع آخر يحقق معاني الجزاء، ثم لا نعلم بعد ذلك شيئا إلا أن الله يفعل ما يشاء، ويخلق ما يشاء من مفعولاته، كما لم نعلم قبل العرش والماء إلا أن الله ﷻ يفعل ما يشاء ويخلق ما يشاء من مفعولاته.

قال ابن القيم: (الذي دل عليه القران أن الكفار خالدين في النار أبدا، وأنهم غير خارجين منها، وأنه لا يفتر عنهم عذابها، وأنهم لا يموتون فيها، وأن عذابهم فيها مقيم، وأنه غرام لازم لهم، وهذا كله مما لا نزاع فيه بين الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين، وليس هذا مورد النزاع، وإنما النزاع في أمر آخر، وهو أنه هل النار أبدية أو مما كتب الله عليه الفناء؟ وأما كون الكفار لا يخرجون منها، ولا يفتر عنهم من عذابها، ولا يقضى عليهم فيموتوا، ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط، فلم يختلف في ذلك الصحابة ولا التابعون ولا أهل السنة، وإنما خالف في ذلك من قد حكينا أقوالهم من اليهود

والاتحادية وبعض أهل البدع، وهذه النصوص وأمثالها تقتضي خلودهم في دار العذاب ما دامت باقية، ولا يخرجون منها مع بقائها البتة، كما يخرج أهل التوحيد منها مع بقائها، فالفرق بيّن بين من يخرج من الحبس وهو حبس على حاله، وبين من يبطل جنسه بخراب الحبس وانتقاضه)[1].

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ٣٦﴾ فاطر:٣٦.

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ٧٤ لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ٧٥ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٧٦ وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ٧٧﴾ الزخرف:٧٤/٧٧.

وقال: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعٗا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ ٢١﴾ إبراهيم: ٢١.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ٥٦﴾ النساء:٥٦.

وقال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ٦ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ ٧ إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ ٨ فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ ٩﴾ الهمزة:٤/٩.

وجميع ما ذكره الله تعالى عن أهل النار وخلدهم فيها إنما هو

---

(١) حادي الأرواح لابن القيم ص٢٥٥.

مظهر لحكمته تعالى وتحقيق عدله، ووجود النار بكل ما فيها وإبقاء الله لها ما شاء وكيف شاء مظهر لقدرته، فلا خلاف بين الأمرين إن سلمت النظرة إلى الوجهتين، وجهة النظر إلى أفعال الله المظهرة لقدرته من جهة، ومفعولاته المظهرة لحكمته من جهة أخرى، وجمع ما خلق الله ﷻ وما يخلق وما سيخلق لا يخرج عن مقتضى اسمه الله القدير واسمه الحكيم، وسائر أسمائه وصفاته وأفعاله.

المطلب السادس

حقيقة توحيد الربوبية كما وردت في الأصول القرآنية والنبوية

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فقد تحدثنا في المطلب السابق عن الوجود والزمان، وهل هما أزليان أبديان دائمان من الطرفين؟ وبينا الأصول القرآنية والنبوية الدالة على بقاء أهل الخلدين أبدا، وهل الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن؟ وأين هما؟ ثم بينا أن التسلسل الذي دلت عليه الأصول القرآنية والنبوية واجب في الأبد، وممكن في الأزل، وممتنع في المؤثرين، وأن تحقيق مراد العباد في الدنيا علقه الله بمشيئته، وأن الابتلاء في الدنيا هو العلة في ألا نشاء إلا ما شاء الله ﷻ.

ثم علمنا أن تحقيق مراد العباد في الآخرة علقه الله بمشيئتهم إن كانوا من أهل الجنة، أو علقه بعكس مشيئتهم إن كانوا من أهل النار، ثم بينا أنه لا بد أن نفرق في البقاء بين ما يبقى ببقاء الله وما يبقي بإبقائه، وتناولنا الحديث عن معنى قول الإمام الطحاوي: ما زال بصفاته قديما قبل خلقه. وتحدثنا عن قضية فناء النار بين شيخ

الإسلام ابن تيمية وتلميذه بن القيم من جهة، ومذهب أهل السنة والجماعة من جهة أخرى، وبينا توجه ما ذهبا إليه، وكيف أن الكثيرين فهموا كلامهما على غير مرادهما؟

وفي هذه المطلب بإذن الله ﷻ نتحدث عن حقيقة توحيد الربوبية كما وردت في الكتاب والسنة.

- **معني كلمة الرب واستعمالاتها من الناحية اللغوية.**

الرب في اللغة مصدر من معنى التربية، فالرب هو الذي يربي غيره، وينشئه شيئا شيئا، فوصف الرب يكون لمن أنشأ الشيء حالا فحالا إلى حد التمام، أو من قام على رعاية إصلاح شئون الغير ورعاية أمره بانتظام [1]. وأغلب المعاني اللغوية في كلمة الرب يمكن بيانها فيما يلي:

- يطلق الرب في اللغة على المالك، تقول: هذا رب الإبل، ورب الدار أي مالكها، ومنه ما رواه أبو داود وصححه الألباني من حديث عبد الله بن جعفر ﷺ أنه قال: (دَخَلَ النبي ﷺ حائِطًا لرَجُل مِنَ الأنْصَار، فَإِذا جَمَل، فلمَّا رَأَي النَّبِيَّ ﷺ حَنَّ وَذرَفَتْ عَيْنَاهُ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ فَمَسَحَ ذِفْرَاهُ، فَسَكَتَ. فقَال: مَنْ رَبُّ هَذا الجَمَل؟ لِمَنْ هَذا الجَمَل؟ فَجَاءَ فتي مِنَ الأنْصَارِ فقَال: لي يَا رَسُول اللهِ! فقَال: أَفَلا

(١) مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني ١/٣٧٥ بتصرف، نشر دار القلم دمشق. والنهاية في غريب الحديث والأثر لأبي السعادات بن الجزري ٢/١٧٩ بتصرف، نشر المكتبة العلمية، بيروت.

تَتَّقِي اللهَ فِي هَذِهِ البَهِيمَةِ التِي مَلكَكَ اللهُ إِيَّاهَا؛ فَإِنَّهُ شَكَا إلى أَنَّك تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ)[١].

• ويطلق الرب على السيد المطاع، ومنه قوله تعالى: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾ ﴾ يوسف: ٤١. أي سيده المطاع.

وعند مسلم من حديث عمر ﵁ مرفوعا حين سأل جبريل النبي ﷺ: (قَال: فَأَخْبِرْنِي عَنْ السَّاعَةِ؟ قَال: مَا المَسْئُول عَنْهَا بِأَعْلمَ مِنْ السَّائِلِ. قَال: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِها؟ قَال: أَنْ تَلدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الحُفَاةَ العُرَاةَ العَالةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلونَ فِي البُنْيَانِ)[٢].

• ويطلق الرب على المصلح والمدبر والقائم على رعاية غيره، فيقال لمن قام بإصلاح شيء وإتمامه قد ربه يربه فهو رب له، ومنه سمي الربانيون لقيامهم بالكتب.

قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادٗا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ آل عمران: ٧٩.

---

(١) رواه أبو داود في كتاب الجهاد، باب ما يؤمر به من القيام على الدواب والبهائم ٣/٢٣ (٢٥٤٩)، وأحمد في المسند ١/٢٠٥ (١٧٥٤)، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله، انظر صحيح أبي داود ٢/٤٨٤ (٢٢٢٢)، وصحيح الترغيب والترهيب (٢٢٦٩).

(٢) رواه مسلم في الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ١/٣٦ (٨).

وروى مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أَنَّ رَجُلا زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى، فَأَرْصَدَ اللَّهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا، فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ. قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا؟ قَالَ: لَا غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللَّهِ ﷻ. قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكَ بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ [(١)].

• ويطلق الرب أيضا على المعبود، ومنه قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ١٩٣ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ١٩٤﴾ آل عمران: ١٩٣/١٩٤. ومنه قول الشاعر:

أرب يبول الثعلبان برأسه .. لقد ذل من بالت عليه الثعلب[(٢)]

• والرب عند الإضافة يقال لله ولغيره، نحو رب الدار، ورب الفرس لصاحبهما، أما عند الإطلاق فلا يقال إلا لله تعالى الذي تكفل بمصلحة الموجودات وتدبير أمورهم[(٣)].

---

(١) رواه مسلم في كتاب البر والصلة والأدب، باب فى فضل الحب فى الله ١٩٨٨/٤ (٢٥٦٧).

(٢) كان راشد بن عبد ربه يسدن صنما لبني سليم، فرأى يوما ثعلبين يبولان عليه فقال: أرب يبول الثعلبان برأسه .. لقد ذل من بالت عليه الثعالب. ثم شد عليه فكسره ثم أتى النبي ﷺ فقال له: ما اسمك؟، قال: غاوي بن عبد العزى، قال: أنت راشد بن عبد ربه، فأسلم وحسن إسلامه وشهد الفتح مع النبي ﷺ. انظر الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ٤٣٤/٢، والطبقات الكبرى لابن سعد ٣٠٨/١، وتاريخ دمشق لابن عساكر ٣٢٥/٩.

(٣) تفسير القرطبي ١٣٧/١، نشر دار الشعب، القاهرة.

وعند البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (لا يَقُل أَحَدُكُمْ: أَطْعِمْ رَبَّك، وَضِّئْ رَبَّكَ، اسْقِ رَبَّك. وَلْيَقُل: سَيِّدِي، مَوْلايَ، وَلا يَقُل أَحَدُكُمْ: عَبْدِي، أَمَتِي، وَلْيَقُل: فَتَايَ، وَفَتَاتِي، وَغُلامِي)[1].

- **الرب اسم من أسماء الله الحسنى التوقيفية المطلقة.**

سمى الله ﷻ نفسه بالرب على سبيل الإطلاق والإضافة، وكذلك سماه به رسوله ﷺ؛ فالإطلاق الذي يفيد المدح والثناء على الله بنفسه ورد في قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوۡلًا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ۝٥٨﴾ يس:٥٨.

وقوله سبحانه: ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ ۝١٥﴾ سبأ:١٥.

وفي السنة ثبت الاسم مطلقا فيما رواه مسلم من حديث ابن عباس ﷺ أن رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: (أَلاَ وَإِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَقْرَأَ الْقُرْآنَ رَاكِعًا أَوْ سَاجِدًا، فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ ﷻ، وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ، فَقَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ)[2].

وعند الترمذي وصححه الشيخ الألباني من حديث عَمْرُو بْن

---

(١) رواه البخاري في كتاب العتق، باب كراهية التطاول على الرقيق وقوله عبدي وأمتي ٢/٩٠١ (٢٤١٤)، ومسلم في كتاب الألفاظ من الأدب، باب حكم إطلاق لفظة العبد والأمة والمولى والسيد ٤/١٧٦٤ (٢٢٤٩).

(٢) رواه مسلم في كتاب الصلاة، باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود ١/٣٤٨ (٤٧٩). ومعنى قمن خليق وجدير.

عَبَسَةَ ﷺ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُول: (أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الرَّبُّ مِنَ العَبْدِ فِي جَوْفِ اللَيْلِ الآخِرِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ يَذْكُرُ اللهَ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ فَكُنْ)(١).

والرب سبحانه هو المتكفل بخلق الموجودات وإنشائها، والقائم على هدايتها ورعايتها وإصلاحها، وهو الذي نظم معيشتها ودبر أمرها، ودليل هذا المعنى ما ورد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ الأعراف:٥٤.

فالرب سبحانه هو المتكفل بالخلائق أجمعين إيجادا وإمدادا ورعاية وقياما على كل نفس بما كسبت. قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ﴾ الرعد:٣٣.

والإيمان بتوحيد الله في اسمه الرب يقتضي أن يكتسي العبد بثوب العبودية، ويخلع عن نفسه رداء الربوبية؛ لعلمه أن المنفرد بها من له علو الشأن والقهر والفوقية، فيثبت لله ﷻ أوصاف العظمة والكبرياء، ولا ينازع رب العالمين في كمال شريعته، أو يتخلف عن درب النبي ﷺ وسنته، فالإيمان باسم الرب يوجب علينا توحيده في

(١) رواه الترمذي في الدعوات ٥/٥٦٩ (٣٥٧٩)، والنسائي في كتاب مواقيت الصلاة، باب ذكر الساعات التي نهي عن الصلاة فيها ١/٤٨٢ (١٥٤٤) وصححه الألباني في صحيح الجامع (١١٧٣)، ومشكاة المصابيح (١٢٢٩).

العبودية والاستعانة والربوبية معا.

قال الله تعالى عن نبيه إبراهيم عليه السلام: ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾ الشعراء:٧٦/٨٥.

وقد جعل إبراهيم عليه السلام توحيد الله بالربوبية والإلوهية مسلكا له في حياته، وزادا له في ابتلاءاته، وذخرا له عند مماته، وهذا وصف العبد الرباني الذي أمر الله عز وجل عباده أن يتصفوا بوصفه في الاعتقاد والقول والعمل.

- **الربوبية وصف الرب الذي دل عليه الاسم بالتضمن.**

الرب اسم يدل على ذات الله وعلى صفة الربوبية بدلالة المطابقة، وعلى ذات الله وحدها بالتضمن، وعلى الصفة وحدها بالتضمن، ويدل باللزوم على الحياة والقيومية، والسمع والبصر والعلم والمشيئة والقدرة، والملك والغنى والقوة والعزة، والإحياء والهداية والإبقاء، والرزق والإمداد والعطاء، والرعاية والإحاطة والرحمة والخبرة والحكمة ، وكل ما يلزم لتخليق الشيء وتصنيعه، وإيجاده واختراعه، فصفة الخالق أن يستغني بنفسه فلا يحتاج إلى غيره، وأن يفتقر وإليه كل من سواه.

قال ابن القيم: (دل البرهان الضروري والعقل الصريح على استغنائه سبحانه بنفسه، وأنه الغني بذاته عن كل ما سواه؛ فغناه من لوازم ذاته، ولا يكون غنيا على الإطلاق إلا إذا كان قائما بنفسه؛ إذ القيام بالغير يستلزم فقر القائم إلى ما قام به) [(١)].

والله ﷻ لما نفى الإلوهية عمن سواه بين أن الرب المعبود الذي يخلق لا بد أن يتصف بالحياة والقوة والمشيئة والقدرة، وكل ما يلزم للقيام بالنفس قبل إقامة الآخرين.

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ٢٠ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ٢١ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ٢٢ ﴾ النحل: ٢٠/ ٢٢.

وقال أيضا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٧٤ ﴾ الحج: ٧٣/ ٧٤.

واسم الله الرب يدل باللزوم أيضا على انفراد الله ﷻ بتدبير أمر المخلوقات وتقدير أحوالهم، والقيام على شئونهم، والعناية واللطف بهم، والهداية إلى ما يصلحهم، والقضاء والحكم بينهم، وتهيئة الكون لتحقيق الغاية من خلقهم، وغير ذلك من صفات الكمال .

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة لابن قيم الجوزية ٤/ ١٣٣١، نشر دار العاصمة، الرياض.

• **معنى الربوبية في القرآن والسنة يقوم على معنيين جامعين.**

تدل الأصول القرآنية والنبوية على أن معنى الربوبية يقوم على ركنين أساسيين، أو معنيين جامعين:

المعنى الأول: إفراد الله بالخلق والتقدير، وإنشاء الشيء من العدم، ومن ثم إفراده بلوازم ذلك من الصفات الإلهية كالعلم والمشيئة والقدرة، والملك والغنى والقوة والإحياء والإبقاء والهداية والرزق والإمداد والرعاية والإفناء والإماتة والإعادة والهيمنة والعزة والإحاطة، وكل ما يلزم من صفات الذات والأفعال لتخليق الشيء وتصنيعه، وهذا الركن هو الأساس في فهم مراتب القضاء والقدر.

وهذا مقتضى الكمال في تخليق الأشياء وتصنيعها، وإنشائها وإيجادها، ومعلوم بقياس الأولى أن الذي ينشئ صنعة دقيقة لابد أن يقوم بدارستها دراسة علمية قبل إنشائها فيقوم بتقدير حساباته، وضبط أموره وإمكانياته، فإن كانت لديه القدرة على التنفيذ وإلا طلب المشاركة من الآخرين، فأصبح المشروع ملكا مشتركا أو أسهما كثيرة، ثم يبدأ صاحب المشروع في التنفيذ إلى أن ينتهي البنيان كما قدر له في تصور الأذهان.

وإذا كانت هذه مراحل تصنيع الأشياء ومراتبها المتقنة بين المخلوقات بحكم العقل والفطرة على هذا النحو، بل كلما كان العلم أكمل، والتخطيط أدق، والقدرة أتم، كانت الصنعة في جودتها وإتقانها أعلى وأفضل، بل تعد كمالا بالغا لدى المخلوق، فالله سبحانه وتعالى وله المثل الأعلى أولى من المخلوق بهذا الكمال، لأنه أثبت ذلك

لنفسه فقال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ الفرقان:٢ .

المعنى الثاني: إفراد الله بتدبير أمر المخلوقات والعناية بهم، وتقدير أحوالهم، والقيام على شؤونهم، واللطف بهم، والهداية إلى ما يصلحهم، والفصل والقضاء والحكم بينهم، وتهيئة الكون لتحقيق الغاية من خلقهم، وذلك من خلال نوعين من تدبير الله، نوع يتعلق بالقدرة وإظهار معاني الربوبية وهو الأمر الكوني، ونوع يتعلق بالحكمة وإظهار معاني العبودية وهو الأمر الديني التعبدي الشرعي.

كما أن الله ﷻ دبر أمور الكون من خلال عدة أنواع من التدبير الكوني، من تدبير عام يشمل المخلوقات بأسرها، إلى تدبير خاص يتعلق بآحاد المخلوقات وأفرادها.

• الأدلة النقلية على قيام معنى الربوبية على ركنين.

أما الأدلة على ذلك فهي أكثر من أن تحصى، وهي واضحة إما بالدلالة الظاهرة، أو بالدلالة المستترة في آيات الربوبية، وسوف نعرض جانبا منها إيضاحا لمنهج الاستدلال، ويمكن تتبع بقية الأدلة من خلال النظر في الأصول القرآنية والنبوية، فمن ذلك:

١- قوله تعالى عن موسى عليه السلام هو يبين حقيقة الربوبية ومعناها لفرعون لما سأله عنها: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ طه:٤٩/٥٠. والآية دلالتها صريحة على أن موسى عليه السلام لما سئل عن الربوبية أجاب فرعون عن كل معاني الربوبية في معنيين جامعين: الأول منهما هو إفراد الله بتخليق الأشياء وتكوينها

وإنشائها من العدم حيث أعطى كل شيء خلقه ووجوده. والثاني هو إفراد الله بتدبير الأمر في خلقه وهدايتهم إلى قيام شئونهم وتصريف أحوالهم والعناية بهم.

٢- قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤)﴾ الأعراف:٥٤. فالآية الكريمة اشتملت على توحيد الربوبية وقيامه على ركنين، والدليل على ذلك إجمالا وتفصيلا بترتيب منعكس.

أما توحيد الربوبية فظاهر في قوله: ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤)﴾ الأعراف:٥٤. وأما قيامه على ركنين ففي إفراده بالخلق والتدبير، وأما الدليل عليه إجمالا ففي قوله: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ الأعراف:٥٤.

وأما الدليل عليه تفصيلا، فالركن الأول هو وصف الله بالخالقية لكل ما في السماوات والأرض وإنشائها من العدم، وذلك في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ الأعراف:٥٤.

والركن الثاني هو تدبير الأمر وإمساك الكون بعد إنشائه وخلقه على نظام ثابت يحقق الغاية من وجوده، وقد ورد مفصلا في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾الأعراف:٥٤. وقد أكدت الآية في نهايتها حقيقة الربوبية، وأن رب العالمين هو المنفرد بالخلق والتدبير.

٣- قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) لَهُ

﴿ ... ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٦٣﴾ الزمر:٦٢/٦٣.

وقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٢ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ الشورى:١٢/١٣.

ومعني المقاليد المفاتيح بالفارسية أو خزائن السماوات والأرض(١).

فقوله: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ الزمر:٦٢. شاهد للركن الأول الذي قام عليه معنى الربوبية، وقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ الزمر:٦٢. شاهد للركن الثاني. وهو اعتماد الكون في قيامه بعد خلقه وإنشائه على تدبير الله ﷻ له، سواء كان تدبيرا كونيا، أو تدبيرا شرعيا، فالوكيل يعني الكفيل. وهو سبحانه حفيظ رقيب، يدبر أمر كل من سواه ويرزقهم، ويكلؤهم بالليل والنهار.

٤- وعلى الوتيرة نفسها جاء قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ١٣٢ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأۡتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرٗا ١٣٣﴾ النساء:١٣٢/ ١٣٣ . فالركن الأول الإنشاء من العدم، والثاني هو تدبير أمور المخلوقات بعد تكوينها.

٥- وقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ١٢﴾ الطلاق:١٢.

---

(١) قال مجاهد: المقاليد هي المفاتيح الفارسية، وكذا قال قتادة وابن زيد وسفيان بن عيينة، انظر تفسير ابن كثير ٤/٦٢، نشر دار الفكر بيروت، والنكت والعيون للماوردي ٥/١٩٥، نشر دار الكتب العلمية بيروت.

فالركنان في الآية باديان واضحان في إنشاء الخلق، وتنزل الأمر الكوني أو الأمر التكليفي الشرعي على الأنبياء والمرسلين.

٦- وقوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ الأعلى: ١/٣ . أي خلق كل شيء مستويا فعدله، وهيأه لغايته. فهذا شاهد للركن الأول من ركني الربوبية، ثم هداه ودبر أمره بهداية كونية أو شرعية.

٧- وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾ يونس: ٣.

٨- ومثله أيضا قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ۝٣٢﴾ إبراهيم: ٣٢.

٩- قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ۝٧٣﴾ الحج: ٧٣.

وقد نفى الله سبحانه عن آلهتهم وصفين اثنين هما أساس الربوبية، أولهما: الخلق والتكوين حتى لأقل المخلوقات. والثاني: التدبير، لا لما يخلقونه فإنهم أضعف من أن يخلقوا، ولكن نفى عجزهم عن تدبير أمور أنفسهم باسترداد شيء ضئيل مما يخصهم لو سلبه الذباب منهم، وهذا منتهى وصفهم بالعجز والضعف، فكيف تكون آلهة معبودة من

دون الله؟ وكل ذلك يدل على انفراد الله ﷻ بالربوبية، وأن معناها قائم على إفراده بالخلق وتدبير الأمر.

١٠- وروى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (قَال اللهُ ﷻ: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذهَبَ يَخلُقُ خَلقًا كَخَلَقِي، فَلَيَخْلقُوا ذرَّةً، أَوْ لِيَخْلقُوا حَبَّةً، أَوْ لِيَخلقُوا شَعِيرَةً)[1].

وعند البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: (أَشَدُّ النَّاسِ عَذابًا يَوْمَ القِيَامَةِ الذينَ يُضَاهُونَ بِخَلقِ اللهِ)[2].

وعنده أيضا من حديث ابن عباس رضي الله عنه قال: أن رسول الله ﷺ قال: (مَنْ صَوَّرَ صُورَةً فِي الدُّنْيَا، كُلفَ يَوْمَ القِيَامَةِ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ وَلَيْسَ بِنَافِخٍ)[3].

ووجه الاستدلال من هذه الأحاديث أن النبي ﷺ ذكر العلة في

---

(١) رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: والله خلقكم وما تعملون ٢٧٤٧/٦ (٧١٢٠)، وأخرجه مسلم في كتاب اللباس والزينة، باب تحريم تصوير صورة الحيوان وتحريم اتخاذ ما فيه صورة غير ممتهنة بالفرش ونحوه ١٦٧١/٣ (٢١١١).

(٢) رواه البخاري في كتاب اللباس، باب ما وطئ من التصاوير ٢٢٢١/٥ (٥٦١٠)، وأخرجه مسلم في كتاب اللباس والزينة، باب تحريم تصوير صورة الحيوان ١٦٦٧/٣ (٢١٠٧) .

(٣) رواه البخاري في كتاب اللباس، باب من صور صورة كلف يوم القيامة أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ ٢٢٢٣/٥ (٥٦١٨)، وأخرجه مسلم في كتاب اللباس والزينة، باب تحريم تصوير صورة الحيوان وتحريم اتخاذ ما فيه صورة غير ممتهنة بالفرش ونحوه ١٦٧١/٣ (٢١١٠).

عقوبتهم وعذابهم، وهي المضاهاة بخلق الله ﷻ، لأن الله تعالى منفرد بالخلق والأمر، فهو خالق كل شيء، وهو الذي صور جميع المخلوقات فأحسن صورها، فالمصور لمّا صور إنسانا أو حيوانا على نحو ما خلقه الله تعالى، فإنه تشبه بالله في الركن الأول من ركني الربوبية وهو الخلق، فكلفه الله ﷻ يوم القيامة بالركن الثاني وهو تدبيره وتحريكه، تبكيتا وتعجيزا، فكلفه أن ينفخ الروح في الصورة التي صورها وليس بنافخ، فصار ما صوره عذابا له يوم القيامة، لأنه تشبه بالله ﷻ في المبتدأ وأشرك في الربوبية.

ومن ثم فإن توحيد الربوبية يقوم علي ركنين أساسيين أو معنيين جامعين، الأول: إفراد الله ﷻ بالخلق والتقدير وإنشاء الشيء من العدم، وكل ما يلزم من صفات الذات وصفات الأفعال لتخليق الشيء وتصنيعه، وكمال إيجاده واختراعه. فصفة الخالق أن يستغنى بنفسه فلا يحتاج إلى غيره، وأن يفتقر وإليه كل من سواه. الثاني: إفراد الله ﷻ بتدبير أمر المخلوقات وتقدير أحوالهم، والقيام على شئونهم واللطف بهم، والعناية والهداية إلى ما يصلحهم، والفصل والقضاء والحكم بينهم، وتهيئة الكون لتحقيق الغاية من خلقهم.

- **اللوازم المترتبة على إفراد الله بالخلق والتدبير .**

إذا كان توحيد الربوبية قائما على ركنيين اثنين ومرتبط بالمعنيين السابقين، فإن كثيرا من المعاني المتعلقة بالربوبية تظهر كلوازم ضرورية تفيض من هذين الركنين، ويتمثل أبرزها فيما يلي:

١- أول اللوازم إفراد الله بالملك، فمن المعلوم بالضرورة العقلية أن

الذي يصنع الشيء ويبتدعه، أو ينشئه ويخترعه، له فيه حق الملكية والحرية، ولما كان الله منفرد بالخلق والتدبير؛ فإنه أيضا ينفرد بالمُلك والملكِيّة، فهو المليك بدلالة اللزوم، وقد بين الله ﷻ في تقرير تلك الحقيقة، أو تقرير انفراده بالملك لانفراده بالخلق والتدبير، بين فساد جميع الوجوه التي يتذرع بها المشركون إلى إشراك من عبدوا من دون الله مع الله ﷻ في الربوبية فقال: ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ۝٢٢ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ۝٢٣ ﴾ سبأ:٢٢/٢٣.

وإذا كان صانع الشيء ومخترعه ومؤلفه هو مالكه المتصرف فيه، ولو اعتدى أحد عليه بسلب ملكه ونسبته إلى نفسه دونه، سواء بالفعل أو بالادعاء، لكان ظالما مدعيا ما ليس له بحق، مستوجبا أشد العقاب، فالله ﷻ وله المثل الأعلى لما كان منفردا بالخلق والتكوين، لا يشاركه في ذلك أحد، وكان الملك ملكه والحق حقه، فإنه من الظلم العظيم والشرك المبين أن يدعى أحد من الخلق ما ليس له بحق من معاني الربوبية، كما فعل فرعون وقارون والنمرود، أو ينسب لنفسه الملك على وجه الأصالة لا على وجه الأمانة والامتحان، فالإنية الشركية كانت ولا تزال مصدرا لهلاك الأفراد والأمم، ونظرا لأهمية هذا اللازم في فهم توحيد الربوبية فسنفرد له مطلبا مستقلا إن شاء الله .

٢– من اللوازم المترتبة على إفراد الله بالخلق إفراده بمراتب القضاء والقدر، فمن المعلوم أن المُصَنِّعَ الذي يشيد البنيان، لا بد أن يبدأ

مشروعه أولا بفكرة وتصور في الأذهان، ومعلومات مقننة بدقة وإتقان، درسها جيدا وقام فيها بتقدير حساباته، وضبط أموره وإمكانياته، ثم يقوم بكتابة تلك المعلومات، ويخط لها في بضع ورقات أنواعا من الرسومات التي يمكن أن يخاطب من خلالها مختلف الجهات، ثم يتوقف الأمر بعد ذلك على مشيئته وإرادته في التنفيذ وتوقيت الفعل، هذا إن توفرت لديه القدرة والإمكانيات، ثم يبدأ التنفيذ إلى أن ينتهي البنيان كما قدر له في الحسبان، فتلك مراحل تصنيع الأشياء بين المخلوقات بحكم ما وضعه الله فيها من علل ومعلولات على تقدير وصف الحكمة في المخلوق، فالله سبحانه وتعالى وله المثل الأعلى منفرد بمراتب القضاء والقدر، وهى عند المتبعين لمنهج السلف المراحل التي يمر بها المخلوق من كونه معلومة في علم الله ﷻ في الأزل إلى أن يصبح واقعا مخلوقا مشهودا، وهى عندهم أربع مراتب تشمل كل صغيرة وكبيرة في الوجود.

قال ابن قيم الجوزية رحمه الله: (مراتب القضاء والقدر التي من لم يؤمن بها لم يؤمن بالقضاء والقدر أربع مراتب: المرتبة الأولى علم الرب سبحانه بالأشياء قبل كونها، المرتبة الثانية كتابته لها قبل كونها، المرتبة الثالثة مشيئته لها، والرابعة خلقه لها) [1].

٣- من اللوازم المترتبة على إفراد الله بالأمر والتدبير إفراده بنوعين من التدبير في خلقه: الأول تدبير كوني به خلق جميع الموجودات ومتمثل في مشيئة الله، وإرادته الكونية، وقضائه الكوني، ويشمل

(١) شفاء العليل لابن القيم ص٢٩.

التصرف في المخلوقات، وهذا التدبير لا يمكن أن يرد، أو يتخلف وقوعه، ويلزم فيه أيضا إفراد الله ﷻ بأنواع التقدير والتدوين، وهى عبارة عن مجموعة الأوامر والأحكام العامة والخاصة بكل مخلوق والتي صدرت من القضاء الكوني والمشيئة الإلهية، سواء كان تقديرا أزليا عاما مدونا في اللوح المحفوظ، تقديرا شاملا لكل أمر سيحدث لجميع المخلوقات بلا استثناء، أو تقديرا ميثاقيا عند أخذ الميثاق على بني آدم في عالم الذر، ويشمل الأوامر والأحكام التي حُدد من خلالها أهل الجنة والنار، أو تقديرا أخص ويسمى بالتقدير العمري، ويشمل مجموعة الأوامر التي يُكلَف بكتابتها الملك الموكل بالنطفة في الرحم مما يخص عمر كل إنسان ورزقه، وهل هو شقي أم سعيد؟ أو تقديرا سنويا أخص مما سبق يشمل مجموعة الأوامر السنوية التي تصدر من الله ﷻ لملائكته في ليلة القدر مما يخص حياة الناس وموتهم، وتصنيف أرزاقهم على قدر أعمالهم، أو تقديرا يوميا ويشمل مجموعة الأوامر اليومية التي تصدر في شأن الناس وحياتهم لحظة بلحظة .

أما النوع الثاني من التدبير فهو تدبير شرعي ديني يخص الإنس وسائر المكلفين، وموضوع لصالحهم، ومتعلق بمشيئتهم، ويمكن أن يُرَد وأن يتخلف وقوعه، ويلزمهم فيه إفراد الله ﷻ بالعبودية، والعمل بالشريعة الإسلامية، على اعتبار أنهم ممتحنون مبتلون أمناء في أرض الله ﷻ مستخلفون، وهذا يتطلب بالضرورة منهجا يسيرون عليه، وعقيدة يؤمنون بها، ويهتدون بنورها.

قال الإمام الشوكاني: (المراد بالأمر في قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ

﴿وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ الأعراف:٥٤. إما ما يأمر به على التفصيل في الشرع، أو التصرف في مخلوقاته) [1].

• الأدلة العقلية على إثبات وجود الرب وتوحيد الربوبية.

استخدم السلف الصالح طريقة البديهيات أو الأوليات في التعرف على وجود الخالق، وهي طريقة الفطرة والافتقار الذاتي لمن يقوم بتلبية الحاجة وسد الضرورة سواء كانت عقلية أو حسية، وذلك كالحكم على أن البعرة تدل يقينا على البعير، وأن الأثر يدل يقينا على المسير، ومن هنا كان المسلم على يقين بوجود الله ﷻ من خلال دلالة المخلوقات، فمن آياته الليل والنهار والشمس والقمر، ومن مخلوقاته السموات والأرض وما فيهن وما بينهما.

قال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ ٢٠ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٢١﴾ الروم:٢٠/٢٢.

وقال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ ٢٢ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ٢٣ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَيُحۡيِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٢٤﴾ الروم:٢٣/٢٤.

---

(١) فتح القدير للشوكاني ٢/٢١١، نشر دار الفكر، بيروت.

وقال الله سبحانه: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ فصلت: ٣٧ .

وقال: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ فصلت: ٣٩ .

وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ ﴾ الشورى: ٣٢/٣٤.

ودلالة الأسباب على خالقها من أعظم الدلائل العقلية الفطرية على إثبات وجود الرب وتوحيد الربوبية، فالعقلاء يعلمون أن المصنوع يدل على صانعه، وأن المخلوق يدل على خالقه، وآيات القرآن كثيرة جدا في بيان هذا المنهج العقلي في الاستدلال على وجود الخالق وعظمته، واستحقاقه للعبادة وحده دون سواه.

كقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ ﴾ فاطر: ٣.

وقوله سبحانه: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۣيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ الطور: ٣٥/٣٧.

• أقوال السلف في التعرف على وجود الرب وتوحيد الربوبية.

طريقة السلف في التعرف على وجود الرب وتوحيد الربوبية، هي طريقة الأنبياء والرسل، وهي طريقة الفطرة في إثبات الفقر الذاتي لمن أوجد هذا العالم ووصفه بالغنى الذاتي.

قال الله تعالى: ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ إبراهيم: ١٠.

روى عن الإمام أبي حنيفة النعمان رحمه الله تعالى أن بعض الزنادقة سألوه عن وجود الباري تعالى، فقال لهم: دعوني فإني مفكر في أمر قد أخبرت عنه، ذكروا إلى سفينة في البحر كبيرة، فيها أنواع من المتاجر، وليس بها أحد يحرسها ولا يسوقها، وهي مع ذلك تذهب وتجيء، وتسير بنفسها، وتخترق الأمواج العظام حتى تخلص منها، وتسير حيث شاءت بنفسها، من غير أن يسوقها أحد، فقالوا: هذا شيء لا يقوله عاقل، فقال: ويحكم هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوي والسفلي، وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة ليس لها صانع، فبهت القوم ورجعوا إلى الحق، وأسلموا علي يديه [(١)].

وسئل الشافعي رحمه الله عن وجود الخالق ﷻ فقال: هذا ورق التوت طعمه واحد، تأكله الدود فيخرج منه الحرير، وتأكله النحل فيخرج منه العسل، وتأكله الشاء والبقر والأنعام، فتلقيه بعرا وروثا

---

(١) انظر تفسير الرازي ٩١/٢، نشر دار الكتب العلمية بيروت، وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ٨٣/١، وتفسير ابن كثير ٥٩/١.

وتأكله الظباء فيخرج منه المسك، وهو شيء واحد(١).

وسئل الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله عن ذلك، فقال: هاهنا حصن حصين أملس، ليس له باب ولا منفذ، ظاهره كالفضة البيضاء، وباطنه كالذهب الإبريز، فبينا هو كذلك إذ انصدع جداره، فخرج منه حيوان سميع بصير، ذو شكل حسن، وصوت مليح(٢).

وقال أحدهم: (لو أن الله تبارك وتعالى لم يعبد إلا عن رؤية ما عبده أحد، ولكن المؤمنين تفكروا في مجيء هذا الليل إذا جاء، فملأ كل شيء، وغطى كل شيء، وفي مجيء سلطان النهار إذا جاء، فمحا سلطان الليل، وفي السحاب المسخر بين السماء والأرض، وفي النجوم، وفي الشتاء والصيف، فوالله ما زال المؤمنون يتفكرون فيما خلق ربهم تبارك وتعالى حتى أيقنت قلوبهم بربهم ﷻ، وحتى كأنما عبدوا الله تبارك وتعالى عن رؤية) (٣).

قال أحدهم لرجل: أخبرني عن أمر الله ﷻ أيه أعجب؟ فقال: وأيه ليس بأعجب فأخبرك بأعجبه؟ (٤).

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ١/٦٠، ومعارج القبول لحافظ حكمي ١/١١١، نشر دار ابن القيم الدمام.

(٢) انظر السابق ١/٦٠، ومعارج القبول ١/١١١.

(٣) انظر كتاب العظمة لأبي الشيخ أبي محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأصبهاني ١/٣٢٥ (٦٣)، نشر دار العاصمة الرياض، وانظر الدر المنثور للسيوطي ٤/٣٤٣، تحقيق رضاء الله بن محمد إدريس المباركفوري، نشر دار الفكر بيروت.

(٤) كتاب العظمة ١/٣٢٦ (٦٤).

وقال ابن الجوزي رحمه الله: (وهل يشك ذو عقل في وجود صانع، فإن الإنسان لو مر بقاع ليس فيه بنيان، ثم عاد فرأى حائطا مبنيا، علم أنه لا بد له من بان بناه، فهذا المهاد الموضوع، وهذا السقف المرفوع، وهذه الأبنية العجيبة، والقوانين الجارية على وجه الحكمة، أما تدل على صانع ؟)[1].

وما أحسن ما قاله بعض الأعراب في ذلك، قال: إن البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، ألا تدل على اللطيف الخبير؟ [2].

لا بد لهذا الكون من خالق بارئ مصور، فإذا كانت الكتابة لا بد لها من كاتب، ولا بد للصورة من مصور، وللبناء من بان، وكنا لا نشك في جهل من أخبرنا عن كتابة حصلت من غير كاتب، وصياغة تمت من غير صائغ، فوجب أن تكون المصنوعات، وحركات الكواكب السيارات، والفلك الجوار المنشئات، قد وُجدت عن قدرة خالق خلقها، وصانع صنعها، وحكيم يدبر أمرها.

قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾ الطور:٣٥/٣٦.

---

(١) تلبيس إبليس لابن الجوزي ٥٥/١، نشر دار الكتاب العربي بيروت .

(٢) انظر إيثار الحق على الخلق لابن الوزير اليماني ص٥٢، نشر دار الكتب العلمية بيروت، وتلبيس إبليس لابن الجوزي ص٥٥، ونفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للتلمساني ٢٨٩/٥، نشر دار صادر بيروت.

• المعطيات العلمية ودليل الآفاق الكونية والنفس البشرية.

قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ فصلت:٥٣ . قال ابن عباس: سنريهم علامات وحدانيتنا وقدرتنا .

أصح الطرق وأجلاها، وأوضحها وأشفاها في التعرف علي ربوبية الله ﷻ لكونه هي طريقة القرآن، وهي مبنية على الاستدلال بنوعين من الآيات تدور حولهما المعطيات العلمية الحديثة، وهما دليل آيات الله ﷻ في الآفاق الكونية، ودليل آيات الله في النفس البشرية، كما بينت الآية السابقة، ولذلك نتناولهما بشيء من التفصيل:

أولا دلالة الآفاق: وهو ما جاء في قول الله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ ﴾ فصلت:٥٣ . حيث تثبت المعطيات العلمية أن دول العالم الآن تتكاتف لاكتشاف آفاق الكون وأبعاده، والبحث عن بدايته وكيفية بنيانه، فهذا الكون الضخم العظيم من أعظم الدلائل على وجود الله ﷻ وتدبيره لخلقه، فالأرض التي نعيش عليها، والمجموعة الهائلة من النجوم التي تتراءى لنا بحيث تبهر الناظرين، فتقف النفس أمامها وقوف العاجزين، وتحار فيها عقول ذوى الألباب، ويسيطر عليها الدهشة والاستغراب والإعجاب، فتزداد القلوب إيمانا بعظمة الخالق وقدرته، وكمال صنعه وبديع حكمته.

والقرآن الكريم الذي هو كلام الله ﷻ كثرت فيه الآيات التي تدعوا العقلاء إلى النظر في خلق السماوات، وتدعوه إلى التفكر في

أسرار تلك المخلوقات، ليدعم إيمانه بربه، ويطرد الشك من قلبه.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ آل عمران:١٩٠/١٩١.

وقال: ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ وَأَنۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۢ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ الأعراف:١٨٥.

وقال سبحانه: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ يونس:١٠١.

وقال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ﴿٢١﴾﴾ الغاشية:١٧/٢١.

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ﴿٤﴾﴾ الملك:٣/٤.

وقال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ﴿٥﴾﴾ الزمر:٥.

لقد شغل الكون بآفاقه علماء العصر، وياليتهم بما اكتشفوه

استدلوا علي خالقهم، لقد مكثت محطة الفضاء الروسية "مير" خمسة عشر عاما تدور حول الأرض، ثم سقطت في المحيط الهادي، وقد كانت أضخم جسم يدور في الفضاء حول الأرض بعد القمر، وقد جمعت على متنها خلال فترة حياتها الكثير من رواد الفضاء والعلماء، والمتخصصين في علم الكونيات من اثنتي عشرة دولة، هذا بالإضافة إلى روسيا، وبعد سقوط مير قامت أمريكا بإنشاء محطة الفضاء الدولية التي يشترك في تشييدها أكثر من ست عشرة دولة، بتكلفة كبيرة جدا عند تمام إنشائها.

كل ذلك لأن معرفة الكون تذهلهم كما أشار القرآن إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ ﴾ فصلت:٥٣. فيريهم آيات الله ﷻ التي يستدلون من خلالها على رب العالمين، وحتى تقام حجة الله على المشركين والكافرين.

• الأدلة العلمية كشفت الإعجاز في دلالة الآفاق الكونية.

لقد اكتشفوا من محطتهم الفضائية عظمة الكون، ووجدوا تصديقا لقول خالقهم: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ ﴾ يونس:٥. وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ الأنبياء:٣٣.

وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾ الفرقان:٤٥/٤٦.

وقوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ يس:٣٨/ ٤٠.

وقول الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ فصلت:٣٧.

قال هؤلاء العلماء: إن المجرة هي تجمع نجمي يضم عشرات البلايين من النجوم مثل شمسنا، والمجرة التي تتبعها مجموعتنا الشمسية تضم أكثر من أربعمائة ألف مليون نجم تحتشد على هيئة قرص مفلطح يبلغ قطره نحو مائة ألف سنة ضوئية، وارتفاعه نحو عشر ذلك، وتقع مجموعتنا الشمسية على بعد ثلاثين ألف سنة ضوئية من مركز المجرة، وعشرين ألف سنة ضوئية من أقرب أطرافها.

وتختلف نجوم المجرة في أعمارها وفي أحجامها، ودرجات حرارتها ودرجات لمعانها، وفي غير ذلك من صفاتها الطبيعية، وفي تركيبها الكيماوي، وفي دورات حياتها، فمنها النجوم العادية المفردة والمزدوجة والعماليق الحمر، والنجوم الزرقاء، والنجوم البيضاء، والبنيّة والسوداء، ومنها المستعرات وفوق المستعرات، ومنها النجوم النيوترونية النابضة وغير النابضة، ومنها النجوم الخناسة الكانسة، ومنها النجم الطارق وما أدراك ما الطارق النجم الثاقب، ومن المجرات ما هو حلزوني مثل مجرتنا، ومنها ما هو بيضاوي، ومنها ما هو أكبر من

مجرتنا بكثير، وما هو في حجمها وما هو أصغر منها، وقد يتجمع عدد من المجرات على هيئة عنقود مجري يضم عشرات الآلاف من المجرات، والمجرات تتباعد عن بعضها البعض بسرعات قد تقترب من سرعة الضوء في بعض الأحوال(١).

ومن ثم فإن دلالة النظر في الآفاق طريق من أبرز الطرق التي نتعرف من خلالها على وجود الخالق وعظمته، مما يحدث في الكون من تصريف يتجدد، في طلوع الشمس والقمر والنجوم وفق زمان محدد، في دوران الأفلاك الدائرات، والسفن الجاريات، والرياح الذاريات والنجوم العلامات، وكذلك تغير أحوال الهواء، والغيوم في السماء، والرعد والبرق وإنزال الأمطار، وما فيها من أحوال تدل على بالغ الحكمة، لا تختلط فيها الأمطار قطرة بقطرة، مهما صغرت أو كثرت أو تقاربت أو تتابعت، حتى تقع متفرقة من غير ضرر، ولو اجتمعت لعظُم ضررها وكثر خرابها، فمن الذي ينزل هذه الأمطار فتروي الأرض بسهولها وجبالها، وشعابها وهضابها، ولينبت العشب الكثير الذي تأكله الأنعام والحيوان والهوام، ويخرج به النبات والأشجار، والأزهار والثمار، ويمتد الماء إلى البحار والأنهار، وتمتلئ به العيون والآبار؟ فالتفكر في هذه الأمور هو النظر المأمور به في الآيات.

وعلى ذلك درج السلف من غير ترتيب مقدمات، أو قانون المنطق وأنواع من الفلسفات، بل قد شهد كتاب الله ﷻ على أن ذلك يفيد العلم والحجة والبيان حيث قال: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ

---

(١) رجعنا في ذلك إلى المعلومات المنشورة في مواقع عديدة على الإنترنت.

﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ فصلت:٥٣.

ثم توعد من زعم أن ذلك لم يفده بيانا بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣)﴾ فصلت:٥٣، فلا يشترط في العلم بوجود الله ﷻ أن يبني على المقدمات المنطقية والأساليب النظرية، ومن الذي ينكر هذا إلا كل معاند ؟ أو يستبعده في العقل إلا كل جاحد ؟

لقد حكى الله ﷻ عن الهدهد وهو طائر صغير أنه وحد الله واحتج على صحة توحيده بهذا الدليل، الذي توصل إليه من خلال النظر في الآفاق، فقال تعالى عن هذا الهدهد الصغير في حجمه: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۩ (٢٦)﴾ النمل:٢٥/٢٦.

ودلائل الربوبية في الآفاق آياتها أعظم وأكثر من كل دليل منطقي أو منهج فلسفي، فكل إنسان تظهر له من الدلائل المعينة التي يريه الله ﷻ إياها في نفسه وفي الآفاق ما لا يعرف أعيانها قوم آخرون، فالله ﷻ أخبرنا أنه سيري الناس في أنفسهم وفي الآفاق من الآيات العينية المشهودة المعقولة ما يبين أن الآيات القرآنية المسموعة المتلوة حق، فيتطابق العقل والنقل ويتفق العيان والقرآن، وإذا كان القرآن حقا لزم كون الرسول ﷺ والذي جاء به صدقا، وذلك يتضمن إثبات الصانع وتوحيدِه في ربوبيته وأسمائه وصفاته.

ثانيا: دلالة النفس، وكما أنه من أعظم مشاريع العصر بناء المحطة الفضائية الدولية مير، ثم سقوطها، ثم بناء المحطة الدولية الجديدة، فإن

دول العالم الآن تتكاتف أيضا لاكتشاف أكبر المشاريع في تاريخ البشرية، وهو مشروع الجينيوم أو مشروع القرن، أو خريطة الجينات البشرية، أو الحامض النووي للخلية دي إن إي، أو خريطة سر الحياة كما أطلقوا عليها عام ١٩٥٣م.

- **مشروع الجينيوم والإعجاز في دلالة النفس البشرية.**

ويمتاز هذا الحامض في الخلية بأن له تركيبة واحدة في الإنسان، وهو عبارة عن سلمين لولبين ملتصقين وملتفين حول بعضهما البعض، وتتكون جوانب السلم من جزئيات السكر والفوسفور، وتتكون كل درجة من درجاته من قاعدة نيتروجينية مركبة من أربعة أنواع تتوالى بطريقة معينة.

وقد شُبه الحامض الوراثي النووي بكتاب مؤلف من أبواب محددة، والباب الواحد مكون من صفحات، وفي كل صفحة فقرات مكتوبة بكلمات من أحرف، ولا يزيد عدد الأحرف عن أربعة، هي المواد الأساسية التي خلقها الله سبحانه وتعالى في الجسم الإنساني والحيواني والنباتي، وهي في حقيقتها لغة مكونة من أربعة حروف كيميائية، وموضوعة في تسلسل معين يؤدي إلى خلق البشر، والله سبحانه وتعالى خلقنا بتركيبة مبنية على تلك الحروف الأربعة.

لقد نشر العلماء أول حلقة من خريطة الجينات البشرية في تقدم يبشر بإحداث ثورة في المفاهيم العلمية والطبية تتوج جهودا مضنية بذلها علماء كثيرون من أمريكا وبريطانيا وفرنسا وألمانيا واليابان والصين طوال سنوات لفك شفرة الجينات الوراثية التي جعل الله بها

منا كائنات حية، فالجينوم هو القائمة الكاملة من الجينات الوراثية المشفرة اللازمة لتكوين الكائن الحي، وهناك ما يزيد على الثلاثة مليار حرف من الحامض النووي دي إن إيه في كل خلية واحدة من الخلايا البشرية البالغ التي عددها مائة تريليون خلية.

والأسس النتروجينية الأربعة لحروف الحامض النووي، والمترتبة على شكل أزواج تحمل المعلومات الكاملة لتكوين جميع الكائنات الحية، تلك الأسس إذا وضعت ورتبت جميع جزيئات الحامض النووي في الجسم البشري سوية من نهايات أطرافها، فإنها تساوى مسافة ما بين الأرض إلى الشمس ذهابا وعودة ستمائة مرة، والمعلومات الموجودة في الخلية يمكن أن تملأ مجموعة من الكتب يصل ارتفاعها إلى ستين مترا [(١)].

إن دلالة الأنفس البشرية على إثبات وجود الله ﷻ ووصفه بالربوبية من أبلغ الدلالة العلمية والمعملية التي أبانت الحقيقة عن بعض ما ورد في قول الله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ فصلت:٥٣.

وقد جمع الله تعالى ذكر دلالة الآفاق ودلالة النفس في تحد قائم للكافرين والمشركين في هذا العصر فقال تعالى :﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ﴾ عبس:١٧/٢٠.

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ

---

(١) رجعنا في ذلك إلى المعلومات المنشورة في مواقع عديدة على الإنترنت.

فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ ﴾ الانفطار: ٦/٨.

وقال تعالى: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ الذاريات: ٢١/٢٣.

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴿٧﴾ ﴾ الحج: ٥/٧ .

ونحن نعلم بالضرورة أننا وجدنا أحياء قادرين عالمين ناطقين سامعين مبصرين مدركين بعد أن لم نكن شيئا، وأن أول وجودنا كان نطفة قذرة مستوية الأجزاء والطبيعة غاية الاستواء، بحيث يمتنع في عقل كل عاقل أن يكون منها ما يختلف أجناسا وأنواعا وأشخاصا بغير صانع حكيم.

أما الأجناس فكما نبه عليه خلقه لجميع الدواب بجميع حركاتها وأجناسها المختلفة في قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٤٥﴾ ﴾ النور: ٤٥.

وأما الأنواع فكما نبه سبحانه على ما كان مخلوقا من نطفة فقط

في مثل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ ۝٣٩﴾ القيامة:٣٧/٣٩.

وأما الأشخاص فكما ورد في قوله تعالى: ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ۝١٧ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۝١٨ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ۝١٩ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ۝٢٠﴾ عبس:١٧/٢٠.

وبيان ذلك أن الله ﷻ خلق الإنسان من نطفة مستوية الطبيعة، فكيف يكون منها ما يبصر، ومنها ما يسمع، ومنها ما يتذوق، ومنها ما يشم، ومنها ما يحس ويتأثر، ومنها العظم الصلب، ومنها الرخو اللب، ومنهم من يمشي على بطنه، ومنهم من يمشي على رجلين، ومنهم من يمشي على أربع ؟

قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۝٧١ وَمَنْ كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ۝٧٢﴾ الإسراء: ٧١/ ٧٢ .

قال قتادة رحمه الله: (من عمي عما يرى من الشمس والقمر والليل والنهار، وما يرى من الآيات، ولم يصدق بها، فهو عما غاب عنه من آيات الله أعمى وأضل سبيلا) [١].

---

(١) كتاب العظمة ٣٢٧/١ (٦٥).

المطلب السابع

توحيد الربوبية وعلاقته بإثبات الفوقية
واستواء الله على عرشه

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فقد تحدثنا في المطلب السابق عن معنى كلمة الرب واستعمالاتها من الناحية اللغوية، وبينا أن الرب اسم من أسماء الله الحسنى التوقيفية المطلقة الذي ثبت بنصه في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وأن الربوبية وصف الرب الذي دل عليه الاسم بدلالة التضمن.

كما علمنا أن معنى الربوبية في القرآن والسنة يقوم على معنيين جامعين، أو ركنين أساسيين، وهما إفراد الله بالخلق والإنشاء من العدم، ثم تدبير أمر الخلائق وهدايتها إلى ما يصلحها، وبينا الأدلة القرآنية والنبوية على قيام معنى الربوبية على ذلك المعنيين، واللوازم المترتبة على إفراد الله بالخلق والتدبير.

ثم تحدثنا عن الأدلة العقلية على إثبات وجود الرب وتوحيده بالربوبية، وذكرنا بعض ما نقل عن السلف الصالح من أقوال في التعرف على وجود الرب وتوحيده بالربوبية، تم تناولنا الحديث عن المعطيات العلمية في بيان دليل الآفاق الكونية ودليل النفس البشرية

على وجود الخالق وعظمته، وأن الأدلة العلمية كشفت الإعجاز في دلالة الآفاق الكونية من خلال المعلومات التي حصلها العلماء في المحطة الفضائية الدولية، كما تناولنا الحديث عن مشروع الجينيوم والإعجاز المبهر في دلالة النفس البشرية.

وفي هذا المطلب بإذن الله ﷻ عن توحيد الربوبية وعلاقته بإثبات الفوقية واستواء الله على عرشه.

- **أهمية الإيمان بعلو الذات والفوقية في فهم توحيد الربوبية.**

علمنا أنه من اللوازم الضرورية للإيمان بانفراد الله بالخلق والتدبير كمعنيين جامعين يقوم عليهما توحيد الربوبية إفراد الله ﷻ بالملك، وإثبات الاستواء على العرش، والإيمان بعلو الذات والفوقية، ذلك لأن إفراد الله ﷻ بالخلق وتدبير الأمر، يرتبط ارتباطا متلازما قويا بصفة الاستواء على العرش.

ولذلك سوف نتحدث عن استواء الملك على عرشه من جانب ربوبيته لخلقه، وليس من جانب الأسماء والصفات. وإن كان جانب الأسماء والصفات قد بسطنا الحديث عنه في الدورة العلمية الأولى في أصول العقيدة، وعلمنا أن المعطلة نظروا إلى إثبات الاستواء نظرة ضيقة باطلة من خلال قياسهم الخالق على المخلوق بقياس تمثيلي أو شمولي، فتصوروا أن ظاهر النصوص الواردة في إثبات حقيقة استواء الرحمن على عرشه، هو بعينه ما يصدق على استواء الإنسان على عرش، وبسبب هذه النظرة الباطلة زعموا أن ظاهر النصوص يدل على التشبيه والجسمية، ولا بد من تعطيله وتأويله بأي وسيلة كلامية،

فقالوا في الاستواء، استيلاء وقهر، فجمعوا بين الظن السيئ في كلام ربهم، إذ فهموا كلام الله ﷻ على غير مراده، واعتقدوا فيه التمثيل، ثم حرفوا الكلم عن مواضعه بالتأويل الباطل، واعتقدوا في النصوص التعطيل.

ويكفي أن نذكِّر بعقيدة أبي الحسن الأشعري في الاستواء، وإبطاله لقول من قال بأنه استيلاء وقهر، حيث تساءل إن قال قائل: ما تقولون في الاستواء؟ قيل له: نقول: إن الله ﷻ يستوي على عرشه استواءً يليق بجلاله كما قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ طه:٥. وقد قال الله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ فاطر:١٠. وقال تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾ النساء:١٥٨. وقال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ﴾ السجدة:٥. وقال تعالى حاكيا عن فرعون لعنه الله: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ۝٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ﴾ غافر:٣٦/٣٧. كذب موسى عليه السلام في قوله: إن الله سبحانه فوق السماوات.

وقال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝١٦﴾ الملك:١٦. فالسماوات فوقها العرش فلما كان العرش فوق السماوات قال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ الملك:١٦. لأنه مستو على العرش الذي فوق السماوات، وكل ما علا فهو سماء، والعرش أعلى السماوات، وليس إذا قال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ الملك:١٦. يعني جميع السماوات، وإنما

أراد العرش الذي هو أعلى السماوات، ألا ترى الله تعالى ذكر السماوات فقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ نوح:١٦. ولم يرد أن القمر يملأهن جميعا، وأنه فيهن جميعا.

ورأينا المسلمين جميعا يرفعون أيديهم إذا دعوا نحو السماء؛ لأن الله تعالى مستو على العرش الذي هو فوق السماوات، فلولا أن الله ﷻ على العرش، لم يرفعوا أيديهم نحو العرش، كما لا يحطونها إذا دعوا إلى الأرض.

وقد قال قائلون من المعتزلة والجهمية والحرورية: إن معنى قول الله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ طه:٥. أنه استولى وملك وقهر وأن الله تعالى في كل مكان، وجحدوا أن يكون الله ﷻ مستو على عرشه كما قال أهل الحق، وذهبوا في الاستواء إلى القدرة، ولو كان هذا كما ذكروه، كان لا فرق بين العرش والأرض السابعة؛ لأن الله تعالى قادر على كل شيء، والأرض لله سبحانه قادر عليها، وعلى الحشوش ـ والحُشُوشُ مواضعُ الغائط ـ وعلى كل ما في العالم، فلو كان الله ﷻ مستويا على العرش بمعنى الاستيلاء، وهو تعالى مستو على الأشياء كلها، لكان مستويا على العرش، وعلى الأرض، وعلى السماء، وعلى الحشوش والأقذار؛ لأنه قادر على الأشياء مستول عليها. وإذا كان قادرا على الأشياء كلها، لم يجز عند أحد من المسلمين أن يقول: إن الله تعالى مستو على الحشوش والأخلية، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

ولم يجز أن يكون الاستواء على العرش الاستيلاء الذي هو عام في الأشياء كلها، ووجب أن يكون معنى الاستواء يختص بالعرش دون الأشياء كلها. وزعمت المعتزلة والحرورية والجهمية أن الله تعالى في كل مكان، فلزمهم أنه في بطن مريم، وفي الحشوش والأخلية، وهذا خلاف الدين تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا [١].

وإذا كانت قضية الاستواء وإثبات علو الذات والفوقية قد أخذت جهدا كبيرا في دفع شبهات المبتدعة وآرائهم العقلية، وإثبات ما دلت عليه الأصول القرآنية والنبوية، فإنه من الأهمية بمكان تناول قضية الإيمان بعلو الذات والفوقية من جانب توحيد الربوبية، حتى يظهر مدى التوافق في العقيدة السلفية بين إيمانهم بتوحيد الأسماء والصفات من جهة وتوحيد الربوبية من جهة أخرى.

- العلة الأولى في استحقاق الملك والملكية الصناعة .

من المعلوم عقلا ونقلا أن علة استحقاق الملك أمران أساسيان، هما صناعته ووراثته، فالعلة الأولى صناعة الشيء وإنشائه واختراعه، فالمخترع ينال براءة الاختراع، والمؤلف له حقوق التأليف والملكية الفكرية.

وقال الإمام البخاري: بَاب مَن أَحْيَا أَرْضًا مَوَاتًا، وَرَأَى ذلكَ عليّ فِي أَرْضِ الخَرَابِ بِالكُوفَةِ مَوَاتٌ، وَقَال: عُمَرُ مَن أَحيَا أَرضًا

---

(١) الابانة عن أصول الديانة لأبي الحسن الأشعري ص١٠٥: ص١٠٩، نشر دار الأنصار القاهرة.

مَيِّتَةً فَهِيَ لَهُ، وَيُرْوَى عَن عَمْرِو بْن عَوْفٍ عَن النبيِّ ﷺ [1].

ولا يمكن لملك من ملوك الدنيا أن يؤسس ملكه أو يصنعه بمفرده، فلا بد من ظهير معين من قرابته، أو حزبه وجماعته، أو إخوانه وقبيلته، وهذا شأن ملكية المخلوق، أما ملكية الخالق فهي ملكية كاملة، بل مطلقة في الكمال، فمن الذي ساعد الحق في إنشاء الملك، ومن الذي عاونه على إيجاد هذا الخلق؟ ومن الذي رفع السماء وفصلها عن الأرض؟

قال تعالى: ﴿ ۞ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ٥١ ﴾ الكهف: ٥١.

وعند البخاري من حديث عَمران بن حُصين رضي الله عنه أن النبيِّ ﷺ قال: (كان اللّٰه ولم يكن شيء قبلهُ، وكان عرشه على الماء، ثم خلقَ السماواتِ والأرضَ، وكتب في الذكر كل شيء) [2].

ومن أسما الله الحسنى اسمه الخالق، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ ﴾ الحشر: ٢٤.

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ٣ ﴾ فاطر: ٣.

وقال: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ٦٢ ﴾ الزمر: ٦٢.

---

(١) البخاري في كتاب المزارعة، باب من أحيا أرضا مواتا ٢/٨٢٢ .

(٢) البخاري في التوحيد، باب وكان عرشه على الماء ٦/٢٦٩٩ (٦٩٨٢) .

والخالق في أسماء الله هو الذي أوْجد جميعَ الأشياء بعد أن لم تكن مَوْجُودة، وقدر أمورها في الأزل بعد أن كانت معدومة. والخالق أيضا هو الذي ركب الأشياء تركيبا ورتبها بقدرته ترتيبا، وخلاصة ما ذكره العلماء في معنى الخالق أنه الذي يقدِّر ويقْدر، إما من التقدير وهو العلم السابق، أو القدرة على الإيجاد والتصنيع والتكوين (١).

والحقيقة أن معنى الخالق قائم عليهما معا، لأن حدوث المخلوقات مرتبط عند السلف بمراتب القدر، فكل مخلوق مهما عظم شأنه أو دق حجمه لا بد أن يمر بأربع مراتب، وهي علم الله السابق وتقدير كل شيء قبل تصنيعة وتكوينه، وتنظيم أمور الخلق قبل إيجاده وإمداده وهو علم التقدير وحساب المقادير. ثم بعد ذلك مرتبة الكتابة في اللوح، ثم مرتبة المشيئة، فليس في الكون مشيئة عليا إلا مشيئة الله ﷻ، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، والمشيئة هي عامل التخصيص والتنوع بين المخلوقات حسب الزمان والمكان الذي يتم فيه تخليق الحدث، ثم مرتبة خلق الأشياء وتكوينها، وتصنيعها وتنفيذها وفق ما قدر لها بمشيئة الله ﷻ في اللوح المحفوظ.

• العلة الثانية في استحقاق الملك والملكية الوراثة.

أما العلة الثانية لاستحقاق الملك، فهي الوراثة بدوام الحياة، فدوام الحياة يؤدي إلى انتقال الملكية وثبوت التملك.

---

(١) انظر بتصرف المقصد الأسنى لأبي حامد الغزالي ص٧٦ نشر دار الجفان والجابي قبرص، وتفسير أسماء الله للزجاج ص٣٦ نشر دار الثقافة العربية، وشرح أسماء الله الحسنى للرازي ص٢١١ .

ومن شروط الإرث المعلومة شرعا التحقق من موت المورث، والتحقق من حياة الوارث بعد موت مورثه ولو بلحظة، فدوام الحياة ولو للحظة يوجب انتقال الملكية إلي الغير.

قال عبد الكريم اللاحم: (شروط الإرث ثلاثة. الأول: تحقق موت المورث أو إلحاقه بالأموات حكما كالمفقود، أو تقديرا كالجنين، إذا سقط ميتا بسبب الجناية على أمه، ودليل هذا الشرط قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ النساء:١٧٦. ووجه الاستدلال بالآية أنه علق الإرث على الهلاك، وهو الموت. والثاني: تحقق حياة الوارث حين موت المورث، أو إلحاقه بالأحياء حكما كالمفقود، والحمل. ودليل هذا الشرط قوله تعالى: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ﴾ النساء:١١. ووجه الاستدلال بالآية أن الله تعالى ذكر استحقاق الإرث باللام الدالة على التملك، والتملك لا يكون إلا للحي. الثالث: العلم بمقتضى التوارث من قرابة، أو نكاح، أو ولاء)[1].

وإذا كان كل من على الأرض ميت هالك لا محالة، فإن الوارث لها ولمن عليها هو الله تعالى كما قال سبحانه: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ الرحمن:٢٦/٢٧.

وقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ

---

(١) الفرائض لعبد الكريم بن محمد اللاحم ص٧، طبعة وزارة الشئون الإسلامية الأوقاف والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية سنة ١٤٢١هـ .

﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ آل عمران:١٨٥.

أضف إلى ذلك أن وصف الحياة وصف ذاتي لله ﷻ باق ببقائه وكل حي سواه باق بإبقائه وإحيائه. قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ غافر:١٦.

ومن أسماء الله الحسنى اسمه الوارث قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾ القصص:٥٨. وقال: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾﴾ الحجر:٢٣. وورد أيضا في دعاء زكريا عليه السلام: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾ الأنبياء:٨٩.

والوارث سبحانه هو الحي الذي يرث الأرض ومن عليها، فيرجع ما كان من ملك العباد إليه وحده لا شريك له.

وإذا كان الخلائق يتعاقبون على الأرض، فيرث المتأخر المتقدم، ويرث الولد والده، والزوج زوجته وهكذا يستمر التوارث حتى ينقطع حبل الحياة في الدنيا، فإنه لا يبقى إلا الوارث مالك الملك.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾ آل عمران:١٨٠ .

ومقتضى الإيمان بوراثة الحق للخلق يوجب معنى الغربة، وتوحيد

العبودية لله ﷻ في مقابل الإيمان بتوحيد الربوبية ودوام الملك للوارث جل شأنه، فتتوجه الإرادات والأقوال والأفعال على هذا المعنى.

روى البخاري من حديث ابن عمر رضي الله عنه أنه قال: (أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَنكِبِي فَقَالَ: كُن فِي الدُّنيَا كَأَنكَ غَرِيبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيل، وَكَان ابْن عُمَرَ يَقُول: إِذا أَمْسَيْتَ فَلاَ تَنتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذا أَصْبَحْتَ فَلاَ تَنتَظِرِ المَسَاءَ، وَخُذ مِن صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِن حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ) (١).

وعند الترمذي وصححه الشيخ الألباني من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: (نامَ رَسُول اللهِ ﷺ عَلى حَصِير، فَقامَ وَقَدْ أَثرَ في جَنبِهِ، فَقُلنا: يَا رَسُول اللهِ، لو اتَّخَذنا لكَ وطَاءً، فَقَال: مَا لي وَمَا للدُّنيَا، مَا أَنا في الدُّنيَا إِلاَّ كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَ تَحْتَ شَجَرَةٍ، ثمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا) (٢).

وينبغي أن يوقن الموحد أن الله ﷻ هو الذي يقسم الأرزاق، وأن الميراث الحقيقي هو ميراث العلم والأخلاق، وميراث عدن والنعيم والفردوس. قال تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ٦١ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ٦٢ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي

---

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب قول النبي ﷺ: كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل ٥/٢٣٥٨ (٦٠٥٣).

(٢) رواه الترمذي في سننه كتاب الزهد ٤/٥٨٨ (٢٣٧٧)، وابن ماجه في كتاب الزهد، باب مثل الدنيا ٢/١٣٧٦ (٤١٠٩)، وأحمد في المسند ١/٣٩١ (٣٧٠٩)، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله، انظر صحيح الترغيب والترهيب (٣٢٨٢)، وصحيح الجامع (٥٦٦٨) .

نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ ﴾ مريم: ٦١/٦٣ .

وقال سبحانه: ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾ المؤمنون: ١٠/١١ .

وعلى ذلك فإن الملك لله وحده في المبتدأ عند إنشاء الخلق فلم يكن أحد سواه. والملك لله ﷻ في المنتهى عند زوال الأرض فلن يبق من الملوك سواه.

- **نفي النصوص النقلية لذرائع الشرك في الربوبية والعبودية.**

لما كانت علة استحقاق الملك والاستواء على العرش فوق الخلق تتمثل في صناعة الشيء وابتداعه، وإنشاؤه واختراعه، أو دوام الحياة الموجبة للإرث؛ فإن هذا الحق ينفرد به الله ﷻ عمن سواه، ومن ثم له سبحانه فيه مطلق المشيئة والإرادة والأمر، فهو وحده رب العالمين وهو وحده المستحق للعبادة مهما كانت ذرائع المشركين.

ولذلك فإن النصوص النقلية نفت ذرائع الشرك التي يتعلق بها المشركون في الربوبية والعبودية فقال تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ۚ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا الْحَقَّ ۖ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ﴾ سبأ: ٢٢/٢٣ .

نفت الآية جميع الوجوه التي يتذرع بها المشركون إلى الشرك في الربوبية والعبودية معا، فنفت عن آلهتهم كل أوجه التأثير في الكون ممثلة في أربعة أمور:

١- نفي الملك التام لانعدام ربوبيتهم، فلا يخلقون في الكون شيئا ولا يدبرون فيه أمرا، ومن ثم فله الملك كله، وله الأمر كله، فقال تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ سبأ:٢٢.

٢- نفي المشاركة له في الملك بأن يكون لهم نصيب وله نصيب، فربما يزعم زاعم أنهم اشتركوا سويا في الخلق والتقدير، فقال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ﴾ سبأ:٢٢.

٣- نفي الظهير والمعين فقد يدعى بعض المشركين أن آلهتهم لا يملكون شيئا، ولا يشاركون الله ﷻ في الملك، ولكن يعاونونه في تدبير الخلق والقيام على شيء دونه في الملك فقال: ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ سبأ:٢٢.

٤- نفي الشفاعة عنده إلا بإذنه لأنهم تعلقوا بها، وزعموا أنهم يقربونهم من الله ﷻ. قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ الزمر:٣ . فانقطعت حجتهم بقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ۚ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا الْحَقَّ ۖ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ سبأ:٢٣.

قال ابن تيمية: (فبين أن كل من دُعيَ من دونه، ليس له ملك ولا شرك في الملك، ولا هو ظهير، وأن شفاعتهم لا تنفع إلا لمن أذن له، وهذا بخلاف الملوك، فإن الشافع عندهم قد يكون له ملك، وقد يكون شريكا لهم في الملك، وقد يكون مظاهرا لهم معاونا لهم على ملكهم، وهؤلاء يشفعون عند الملوك بغير إذن الملوك هم وغيرهم،

والملك يقبل شفاعتهم تارة بحاجته إليهم، وتارة لخوفه منهم، وتارة لجزاء إحسانهم إليه، ومكافئتهم، ولإنعامهم عليه، حتى إنه يقبل شفاعة ولده وزوجته، لذلك فإنه محتاج إلى الزوجة وإلى الولد، حتى لو أعرض عنه ولده وزوجته لتضرر بذلك، ويقبل شفاعة مملوكه، فإذا لم يقبل شفاعته يخاف أن لا يطيعه، أو أن يسعى في ضرره. وشفاعة العباد بعضهم عند بعض كلها من هذا الجنس، فلا يقبل أحد شفاعة أحد الا لرغبة أو رهبة)[1].

ثم ذكر أن الله تعالى لا يرجو أحدا، ولا يخافه، ولا يحتاج إلى أحد بل هو الغني، قال تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ يونس:٦٦/٦٨.

والمشركون يتخذون شفعاء من جنس ما يعهدونه من الشفاعة، قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ الأحقاف:٢٨[2].

والملائكة في السماء تفزع عند سماع الوحي، وتخشع خضوعا

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٢٨/١.

(٢) السابق ١٢٩/١ بتصرف.

للمولى، فهم مع مكانتهم عند الله ﷻ لا يشفعون إلا بإذن منه، فكيف بمن لا يملكون لهم شيئا من أوثانهم وأضرحتهم وقبورهم ومشاهدهم؟

روى البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن نبي الله ﷺ قال: (إذا قَضَى اللهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ، ضَرَبَتْ المَلائِكَةُ بِأَجْنحَتِها خُضْعَانا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلسِلَةٌ عَلَى صَفْوَان فَإذا فُزِّعَ عَن قُلوبِهِمْ، قَالوا: مَاذا قَال رَبُّكُمْ؟ قَالوا للذي قَال: الحَقَّ وَهُوَ العَليُّ الكَبِيرُ، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ هَكَذا، بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ ـ وَوَصَفَ سُفْيَان بِكَفِّهِ فَحَرَفَهَا وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ ـ فَيَسْمَعُ الكَلمَةَ فَيُلْقِيهَا إِلى مَن تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلقِيهَا الآخَرُ إلى مَن تَحْتَهُ، حَتَّى يُلقِيَهَا عَلى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوْ الكَاهِنِ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَ الشِّهَابُ قَبْلَ أَن يُلقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلقَاهَا قَبْلَ أَن يُدْرِكَهُ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ، فَيُقَالُ: أَلَيسَ قَدْ قَال لنا يَوْمَ كَذا وَكَذا كَذا وَكَذا، فَيُصَدَّقُ بِتِلكَ الكَلمَةِ التِي سَمِعَ مِن السَّمَاءِ) [١].

والآيات والأحاديث في ذلك أكثر من أن تحصى، وكلها تكشف عن نفسها، وتفصح عن مدلولاتها بجلاء ووضوح، وتبين أنه لا خالق إلا الله، ولا مدبر للكون سواه.

ومن ثم فإن الله ﷻ هو المنفرد بالملكية والملك، وهو المتصرف بالأمر والنهي في مملكته، وهو القائم بسياسة خلقه إلى غايتهم، وملكه هو الحق الدائم له بحق دوام الحياة.

---

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير، سورة سبأ، باب حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير ٤/١٨٠٤ (٤٥٢٢).

• عظمة العرش ودلالته على عظمة من استوى عليه.

إن ملوك الدنيا مع أن ملكهم محدود زائل، واستحقاقهم للملك إنما هو من قبل الحق على سبيل الأمانة والابتلاء، والاستخلاف والاسترعاء، فهو سبحانه الذي يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، إلا أن ملوك الدنيا يبالغون في الحفاظ على عروشهم، ويجعلون قصورهم في الأماكن المرتفعة أو على الماء، ويفتخر كل منهم بأنه صاحب العرش والسلطة والقوة والهيمنة، فأعلاهم استكبارا الطاغوت الأكبر إبليس .

لما نزل هذا الخبيث إلى الأرض نصب لنفسه عرشا على الماء ليتشبه باستواء الله على عرشه في السماء، بحيث يكون هو المعبود بالباطل والشرك في مقابل المعبود بحق، فجعل نفسه إلها لأتباعه، وقرب إليه من كان من بني جنسه، أو كان من حزبه وطريقته.

روى مسلم من حديث جابر بن عبد الله ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (إن إبْليسَ يَضعُ عَرْشَهُ عَلى المَاءِ، ثمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ، فَأَدْناهُمْ مِنهُ مَنزِلةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنة، يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فيقول: فَعَلتُ كذا وَكَذا، فَيَقُول: مَا صَنعْتَ شَيْئًا قَال: ثمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فيقول: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فرَّقْتُ بَيْنهُ وَبَيْن امْرَأَتِهِ، قَال: فَيُدْنيهِ مِنهُ وَيَقُول: نعْمَ أَنتَ) [1] .

وقد أصبح الشيطان رأس الطواغيت ومؤسس سبل الطغيان لكل

---

(١) رواه مسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس، وأن مع كل إنسان قرينا ٤/٢١٦٧ (٢٨١٣).

ملك ظالم من بني الإنسان، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ النساء:٧٦.

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ النساء:٦٠.

والإنسان بالخيار بين عبودية الملك الحق الذي استوى على عرشه على الماء في السماء، وعبودية الطاغوت أو الشيطان الذي نصب عرشه على الماء في الأرض، قال تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ البقرة:٢٥٦/٢٥٧.

وهذا فرعون كان من أكبر الطواغيت التي عبدت من دون الله بعد الشيطان، إن ادعى لنفسه الملك فإنه يدعيه بغير حق، نصب قصره وعرشه على الماء.

قال الله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾ الزخرف:٥١.

ومن عظمة العرش ودلالته على إثبات الملك، أن العرش ذكر في سورة النمل في قصة سليمان والهدهد ست عشرة مرة، فكل ملك من

الملوك يتخذ لنفسه عرشا عظيما يدل على منزلته وقدره، فشتان بين عرش وعرش، وقد فرق الهدهد بين عرش بلقيس وعرش الرحمن .

قال الله تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ
مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ
عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ
أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ
۩ ﴿٢٦﴾﴾ النمل:٢٢/٢٦.

وقد كان من حرص نبي الله سليمان عليه السلام على إحضار عرش بلقيس إعلامها عند وصولها بهوان ملكها، وزواله وزوالها هي وقومها، إن لم تقر بتوحيد الربوبية والعبودية لله عز وجل.

قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ
عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ
عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ
رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾
قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا
عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ النمل:٣٨/٤٢.

وإذا كان هذا حال ملوك الدنيا في حماية عروشهم وقصورهم ووضعها في الأماكن المرتفعة على الماء، وهم يعدون ذلك كمالا في حقهم، فإن الله عز وجل الذي وهب الكمال لخلقه أولى أن نؤمن بما أثبته

لنفسه في علوه على خلقه، واستوائه على عرشه، وما وصف به العرش من أنواع الكمال اللائق برب العزة والجلال.

قال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ التوبة:١٢٩.

وصفه عرشه بالعظمة في مقابل تولي الخلق وكفرهم، لأنه لما كان الاستواء على العرش دليلا على تولي أمور الملك، فلو أعرض الناس عن مَلِك من ملوك الدنيا خلعوه من عرشه، ونصّبوا غيره، لأنه ما وصل إلى الملك إلا بهم، سواء بانتخاب أهله وعشيرته، أو حزبه وجماعته، أما ملك الملوك فإنه لو أعرض عنه سائر الخلق فالزوال لهم والبقاء له.

قال الله تعالى في بيان غناه: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴿٣٨﴾﴾ محمد:٣٨.

وقد صف الله ﷻ عرشه بأنه كريم، وأنه مجيد أي رفيع عال في المكان والمكانة، وإليه ينتهي أول علومنا، فهو أول المخلوقات المعلومة لدينا، وعرش الله ﷻ له حملة اليوم ويوم القيامة، وله قوائم، وهو أعلى المخلوقات، وسقف جنة الفردوس، وقد مدح نفسه بإضافة عرشه إليه فقال: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾ الإسراء:٤٢/٤٣.

وقال: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ١٥﴾ غافر:١٥. فإذا كان ملك الدنيا يزين عرشه، ويتباهى بملكه بين رعيته، ويفتخر به بين الملوك من أمثاله، فأولى بنا أن نوحد الله ﷻ بإفراد عظمة عرشه عن أنواع العروش الأخرى، وإثبات المباينة بينه وبين سائر المخلوقات، فإن عرش الله ﷻ أولى بالكمال الذي لا يماثله شيء من عروش الدنيا، والله ﷻ أولى بالمدح عند ذكره بين سائر خلقه.

وقد وردت نصوص أخرى في أوصاف عرش الرحمن تدل بما لا يدع مجالا للشك، أن عرش الرحمن حقيقة لا مجاز، وأن الله ﷻ استوى عليه حقيقة لا مجازا. وقد اتفق على هذا جميع الأنبياء، كلهم وذكر في كل كتاب أنزل على كل نبي، واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها من جميع الطوائف إلا من ضل عن الحق، واتبع غير سبيل المؤمنين من الجهمية والمعتزلة والأشعرية وغيرهم[(١)].

• **إثبات الاستواء على العرش يوجب الإذن عند الشفاعة.**

يختلف مذهب السلف عن مذهب المبتدعة في نظام التوحيد فهم صدقوا خبر الله كله وأفردوا الله ﷻ بما أخبر عن نفسه، ولم يقيسوه

---

(١) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري للغنيمان ص٤٣٦ وما بعدها بتصرف، تأليف عبد الله بن محمد الغنيمان، طبعة مكتبة الدار، المملكة العربية السعودية سنة ١٤٠٦هـ.

على خلقه كما فعلت الجهمية والمعتزلة والخوارج وغيرهم. فالسلف أثبتوا الاستواء على العرش كما أخبر الله ﷻ عن نفسه بأنه ملك استوى على عرشه، وهؤلاء الجهمية وأتباعهم عطلوه وحرفوه، ولما أفرد السلف ربهم بالملك أفردوه بالشفاعة أيضا، فالله ﷻ لا يقبل الشفاعة إلا بإذن، وهؤلاء عطلوها وقاسوها على شفاعة المخلوق للمخلوق، فطبقوا نظم المسالك البشرية في أحكام الشفاعة على المتوحد في الربوبية والإلوهية.

ولذلك فإن السلف الصالح فرقوا بين نصوص الوحي التي تدل على المخلوق والنصوص التي تدل على الخالق، فشتان بين الشفاعة عند الناس والشفاعة عند الله ﷻ، فالشفاعة في الدنيا قد يؤثر فيها الشافع على من يشفع عنده لعدة أسباب:

السبب الأول: صلة القربى بين الشافع والمشفوع فيه؛ فالإنسان يشفع لأخيه وبنيه، أو لأمه وأبيه، فيتغاضى عن خطأه وجرمه، ويعفوا عن وزره وذنبه، ولو خالف اللوائح والقوانين، أو قدم من لا يستحق على سائر المستحقين، وإذا كان الإنسان ملكا، أو أميرا، أو حاكما، أو وزيرا، فمعلوم أن قرابته لهم الحظوة والقربة، ومصالحهم تقضى في لحظة، وغيرهم من الناس يقفون مساكين، قلقين منتظرين، ولا يجرؤ أحدهم على مخالفة القوانين، وحجة المسئولين الالتزام بالنظام، أليس ذلك ما يحدث بين البشر إلا من رحم الله؟

ومن ثم فإن صلة القربى بين الشافع والمشفوع له تظهر الفوضى

والمحسوبية التي نراها في الشفاعة بين الناس. أما الملك الذي استوى على عرشه، فهو رب الناس، إله الناس، واحد أحد، وتر صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد.

من ادعى لله ولدا فقد شتمه وأذاه، روى البخاري من حديث ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ قَال: (قَال اللهُ ﷻ: كَذبَني ابْن آدَمَ وَلَمْ يَكُن لهُ ذلكَ، وَشَتَمَني ولَمْ يَكُن لهُ ذلكَ، فَأمَّا تَكْذيبُهُ إِيَّاي فَزعَمَ أَني لا أَقْدِرُ أَن أُعِيدَهُ كمَا كَان، وأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فقوْلهُ: لي وَلدٌ فَسُبْحَاني أَن أَتَّخِذ صَاحِبَةً أَوْ وَلَدًا) [1].

وبسبب وحدانية الإله وانفراده بالملك والخلق والأمر لا ينفع الإنسان أخاه يوم القيامة ولا ينفع أمه وأباه، ولا يشفع وقتها إلا بإذن الله، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧)﴾ عبس:٣٤/٣٧.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٥٤)﴾ البقرة:٢٥٤.

فعلاقة الأنساب والأرحام بين الأفراد لا تسري على العلاقة بين الرب والعباد، تقطعت الأنساب، وتخلفت الأسباب، وليس للإنسان إلا سعيه يوم يؤتى الكتاب .

---

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير، تفسير سورة البقرة، باب وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه ١٦٢٩/٤ (٤٢١٢) .

السبب الثاني: فضل الرعية على ملوكهم، فمن الأمور المؤثرة في قبول الشفاعة في الدنيا، والتي لا تقاس بها شفاعة رب العالمين اجتماع الرعية على تنصيب حكامهم، أو قدرة المملوك على تنحية الملك من سلطانه، فمن المعلوم أن الناس إذا اجتمعوا على خلع حاكم أو ملك خلعوه، وإذا وجد رأى عام على تولية حاكم أو ملك ولوه، ولا يمكن لرئيس أو أمير أو ملك أن يصل إلى ملكه بمفرده أو يعلو على عرشه حسب رغبته؛ فلا بد من وجود أعوان نصروه وأيدوه، أو صفوة من الناس أحبوه وانتخبوه حتى أصبح رئيسا عليهم بجهدهم، أو ملكا مطاعا بعونهم.

ومن ثم فإن الحاكم أو الملك يقبل الشفاعة ممن عاونوه بغير إرادته، ويصدر أوامره بغير ما يراه بمشيئته، وإنما يؤثرون بسلطانهم على سلطانه وقدرته، فيقبل منهم الشفاعة تعطيلا للأحكام وظلما لرعيته، وربما يكون مرغما في فعله مجبورا أو ذليلا عاجزا مقهورا، أو خائفا من خلعة عن كرسيه مذعورا.

أما رب العزة والجلال فمن صاحب الفضل عليه؟ ومن الذي ساعده في إنشاء الخلق أو افتقر إليه؟ ومن الذي يغير شيئا من مشيئته وقدرته؟ أو يؤثر على حوله وقوته؟ ومن ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه؟

السبب الثالث: أوصاف النقص التي تحد من سلامة الملوك واهتزاز عروشهم، فمن الأمور المؤثرة في قبول الشفاعة في الدنيا والتي

لا تقاس بها شفاعة رب العالمين، صفه النقص التي تعترى الحكام أو الأمراء والملوك، فقد يتحكم بعض الرعية في ملك ما بسبب نقاط ضعفه وإذاعة أسوء أخباره، أو كشف ما هو مستور من نقصه وأسراره، فيضطر الحاكم إلى المقايضة في مقابل السكوت، ويقبل الشفاعة من المملوك أو المحكوم، ويتغاضى عن العدل ولا ينصف المظلوم .

أما رب العزة والجلال فله في ذاته وصفاته غاية العلو والكمال، وغاية الحسن والجمال، منزه عن كل نقص، وليس فيه ما يحد من علوه وعظمته أو هيمنته وقوته؟ سبحانه لا سمي له في وصفه، ولا شريك له في ملكه، ولا ظهير له في تدبير شئون خلقه، من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه، لا يغفل عن ملكه ومملكته بسنة أو نوم.

روى مسلم من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ أنه قال: (قَامَ فِينا رَسُول اللهِ ﷺ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ فَقَال: إن الله ﷻ لاَ ينامُ وَلاَ يَنبَغِي لَهُ أَن يَنامَ، يَخْفِضُ القِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلَ الليْل قَبْل عَمَلَ النهَارِ، وَعَمَلَ النهَارِ قَبْل عَمَلَ الليْل، حِجَابُهُ النورُ لوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انتهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِن خَلقِهِ) [١] .

كما أن جميع الخلق لو أعرضوا عن الحق أو كفروا به، فإن المَلك لا يزول عن ملكه كما هو حال الملوك سواه، فإنه رب العرش العظيم الذي لا ينعزل عن عرشه، وهو أزلي أبدي في اسمه ووصفه.

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب في قوله ﷺ إن الله لا ينام ١/١٦١ (١٧٩)

وعلى ذلك فإن الشفاعة عند الله ﷻ لا يمكن أن تقاس بقياس المماثلة الذي يستخدمه أصحاب الملل الباطلة في قياس عالم الغيب بأحكام عالم الشهادة، وكانت العلة في نفي الشفاعة عند المعتزلة والخوارج ومن شابههم في هذا العصر أنهم لم يوحدوا الله ﷻ ولم يفردوه عمن سواه في مسألة الشفاعة.

ولذلك لا يقبل الله الشفاعة من أحد أو في أحد إلا إذا أقر بحقيقة التوحيد أولا، وأنه سبحانه المنفرد بالملك، وله حده الخلق وتدبير الأمر، وله الكمال المطلق في أسمائه وأوصافه، وله حق العبودية وحده دون سواه.

ولذلك فإن أول شرط في الشفاعة أن يكون الشافع والمشفوع له كلاهما من أهل التوحيد، فإن الكافر أو المشرك لا شفاعة له أو فيه، أما الدليل على شرط التوحيد للشافع، فلأن الله ﷻ لا يقبل الشفاعة في المشركين، فكيف يقبل الشفاعة منهم لغيرهم؟

والدليل على كون الشفاعة إنما تكون في الموحدين فقط ما رواه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: (قِيل يَا رَسُول اللهِ، مَن أَسْعَدُ الناس بِشَفَاعَتِك يَومَ القِيَامَةِ؟ قَال رَسُول اللهِ ﷺ: لقَدْ ظَننتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَن لاَ يَسْأَلني عَن هَذا الحَدِيث أَحَدٌ أَوَّل مِنك لَمَا رَأَيْتُ مِن حِرْصِك عَلى الحَدِيث، أَسْعَدُ الناس بِشَفَاعَتي يَوْمَ القِيَامَةِ مَن قَال: لاَ إِلهَ إِلاَّ اللهُ، خَالصًا مِن قَلبِهِ أَوْ نفسِهِ) [١] .

---

(١) رواه البخاري في كتاب العلم، باب الحرص على الحديث ١/٤٩ (٩٩) .

ولا بد في شروط الشفاعة من الإذن للشافع، فليس لأحد حق أو فضل على الله ﷻ ليشفع عنده بغير إذنه، والدليل على ذلك الشرط واضح في نصوص كثيرة كما في قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ البقرة:٢٥٥ .

ولا بد في شرط الشفاعة من الإذن للمشفوع فيه، لأن الناس يوم القيامة تستشفع إلى ربها، أو تطلب من يشفع لها خوفا من رد مطلبها وعدم قبولها، لو أنها ذهبت إلى إليه بمفردها، ولا بد من الإذن أيضا بنوعية الشفاعة، فالنبي ﷺ يحد له حد بنوعية الشفاعة لكل فرد ممن سيشفع لهم، وهي أنواع كثيرة مذكورة بأدلتها في غير هذا الموضع.

• ملك الملوك على عرشه لا يأمر إلا لمصلحة تعود على خلقه.

اعلم أن الباعث على الجمع بين القدرة والحكمة لدى المخلوق فقرة وعبوديته، أما الباعث على الجمع بين القدرة والحكمة لدى الخالق فهو غناه وربوبيته، فالله ﷻ غني كريم عزيز رحيم، محسن إلى عبده لعلمه أنه فقير بذاته، وأنه لا غني لذاته إلا هو سبحانه، ومن ثم يريد به الخير، ويكشف عنه الضر، لا لجلب منفعة إليه من العبد، ولا لدفع مضرة، بل رحمة منه وإحسانا، ولطفا وإنعاما قال تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ الذاريات:٥٦/٥٨.

ولهذا كانت جميع أوامر الله خير للإنسان، ولا يكون شر فيها أبدا، ولذلك ثبت عند مسلم من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن

النبي ﷺ قال: (اللهُمَّ أَنتَ المَلكُ لا إلهَ إلا أَنتَ، أَنتَ رَبِّي، وَأَنا عَبْدُكَ ظَلَمْتُ نفسِي، وَاعْتَرَفْتُ بِذنبِي، فَاغْفِرْ لي ذنوبِي جَمِيعًا، إنهُ لا يَغْفِرُ الذنوبَ إلا أَنتَ، وَاهْدِني لأَحْسَن الأَخْلاق، لا يَهْدِي لأَحْسَنهَا إلا أَنتَ، وَاصْرِفْ عَني سَيِّئَهَا، لا يَصْرِفُ عَني سَيِّئَهَا إلا أَنتَ، لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالخَيْرُ كُلهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ، أَنا بِكَ وَإِلَيْكَ، تَبَارَكْتَ وَتَعَاليْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِليْكَ) (١) .

قال ابن القيم: (قول اعلم خلقه به واعرفهم بأسمائه وصفاته: والشر ليس إليك. ولم يقف على المعنى المقصود من قال: الشر لا يتقرب به إليك، بل الشر لا يضاف إليه سبحانه بوجه، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، ولا في أسمائه، فإن ذاته لها الكمال المطلق من جميع الوجوه، وصفاته كلها صفات كمال، ويحمد عليها، ويثنى عليه بها، وأفعاله كلها خير ورحمة، وعدل وحكمة، لا شر فيها بوجه ما، وأسماؤه كلها حسنى، فكيف يضاف الشر إليه، بل الشر في مفعولاته ومخلوقاته، وهو منفصل عنه، إذ فعله غير مفعوله، ففعله خير كله، وأما المخلوق المفعول ففيه الخير والشر، وإذا كان الشر مخلوقا منفصلا غير قائم بالرب سبحانه فهو لا يضاف إليه، وهو ﷺ لم يقل: أنت لا تخلق الشر، حتى يطلب تأويل قوله، وإنما نفى إضافته إليه، وصفا وفعلا وأسماء. وإذا عرف هذا، فالشر ليس إلا

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء فى صلاة الليل وقيامه ٥٣٤/١ (٧٧١) .

الذنوب وموجباتها، وأما الآخر فهو الإيمان والطاعات وموجباتها، والإيمان والطاعات متعلقة به سبحانه، ولأجلها خلق الله ﷻ خلقه، وأرسل رسله، وأنزل كتبه، وهي ثناء على الرب تبارك وتعالى وإجلاله، وتعظيمه وعبوديته، وهذه لها آثار تطلبها وتقتضيها فتدوم آثارها بدوام متعلقها، وأما الشرور فليس مقصودة لذاتها، ولا هي الغاية التي خلق لها الخلق، فهي مفعولات قدرت لأمر محبوب وجعلت وسيلة إليه)[1].

ومن ثم فإنه سبحانه لا يأمر إلا بخير، ولا يوالى من يواليه من الذل كما يوالى المخلوق المخلوق، وإنما يوالي أولياءه إحسانا ورحمة ومحبة لهم، وأما العباد فإنهم لفقرهم وحاجتهم إنما يحسن بعضهم إلى بعض لحاجته إلى ذلك، وانتفاعه به عاجلا أو آجلا، ولولا تصور ذلك النفع لما أحسن إليه، فهو في الحقيقة إنما أراد الإحسان إلى نفسه، وجعل إحسانه إلى غيره وسيلة وطريقا إلى وصول نفع ذلك الإحسان إليه، فإنه إما أن يحسن إليه لتوقع جزائه في العاجل، فهو محتاج إلى ذلك الجزاء، أو معاوضة بإحسانه، أو لتوقع حمده وشكره[2].

وغالب الملوك لو أمروا بأمر، فالغالب على أوامرهم مراعاة مصالحهم قبل مصالح رعيتهم، وقضاء حاجاتهم والثناء عليهم قبل

---

(١) حادي الأرواح لابن القيم ص ٢٦٥.

(٢) إغاثة اللهفان لابن القيم ١/ ٤١ بتصرف.

تحقيق مطالب رعيتهم، فالملك الرب من فوق عرشه إنما يريد لك، ويريد الإحسان إليك لا لمنفعته، ويريد دفع الضرر عنك، فكيف تعلق أملك ورجاءك وخوفك بغيره [1].

• ملك الملوك من فوق عرشه يمهل ولا يهمل.

إن ملوك الدنيا يبادرون بعقوبة المخالف فور وقوع المخالفة، وربما يحاسبونه قبل وقوعها بقانون الطوارئ والاشتباه، بل ربما يظل الإنسان مسجونا ظلما بغير ذنب وينتظر العفو بغير جدوى. أما ملك الملوك من فوق عرشه له مع قدرته بالغ الحكمة في صبره على أذى أحد من رعية.

روى البخاري من حديث أَبي موسى الأشعري ﷺ أن النبي ﷺ قال: (لَيسَ أَحَدٌ، أَوْ لَيس شَيْءٌ أَصبَرَ عَلَى أَذى سَمِعَهُ مِن اللهِ، إِنهُمْ لَيدْعُون لَهُ وَلَدًا، وَإِنهُ لَيُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ) [2].

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ الشورى: ٢٥

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ الشورى: ٣٠.

---

(١) السابق ١/٤٢ بتصرف.

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب الأدب، باب الصبر على الأذى ٥/٢٢٦٢ (٥٧٤٨)، ومسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب لا أحد أصبر على أذى من الله ﷻ ٤/٢١٦٠ (٢٨٠٤).

ومن أعجب ما يرى المرء ما يحدث من أمور الشرك، والله ﷻ من فوق العرش يصبر على المشركين ويعافيهم ويرزقهم، فربما تجد من بعض الرعية من يتركون عبادة الملك الجبار رب العزة والجلال، ويشركون معه غيره، أو يعبدون المخلوق على سبيل الاستقلال ويهتفون باسمه في الغدو والآصال، ويسألونه قضاء الحوائج دون الله ذي الجلال، بل يعتقد بعض المغالين منهم أن بعض الأولياء هو المتصرف في الكون، والمدبر له في كل حال، وقد ضربوا عليهم القباب وزخرفوها، وحبسوا عليها العقارات وأوقفوها، وجعلوا لها النذور والقربات، وكم عبادة إليها دون الله صرفوها، ووقتوا لها المواقيت زمانا ومكانا، وصنفوا فيها مناسك حج المشاهد، وحجوا إليها أكثر مما يحج إلى بيت الله الحرام، بل رأوها أولى بالحج منه، ورأوا من أخل بشيء من مناسكها أعظم جرما ممن أخل بشيء من مناسك الحج .

وترى أكثر مساجد الله المبنية للصلوات معطلة حسا ومعنى، وفيها من الأزبال والكناسات والأوساخ ما لا يعد ولا يحصى، فإذا أتيت قباب المقابر والمساجد المبنية عليها، رأيت بها من الزينة والزخارف والأعطار والستور المنقوشة المعلمة المرصعة، والأبواب المفصصة المحكمة، ولها من السدنة والخدام ما لم تجده في بيت الله الحرام، الداخل إليها والخارج منها من الزوار، ما لا تحصيهم الأقلام، وعليها من الأكسية والرايات والأعلام ما لو قسم لاستغنى به كثير من الفقراء والأرامل والأيتام، فما ظنك بالوقوف المحبسة عليها،

والأموال المجباة إليها، من الثمار والنقود والأنعام، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم [1].

قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾ إبراهيم: ٤٢/٤٣.

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾ البقرة: ١٦٥ .

وإذا كان هذا شأن الملك فيمن عصاه، فكيف يكون شأنه ورأفته بمن أطاعه، إن الله ﷻ رفيق بعباده، قريب منهم، يغفر ذنوبهم، ويتوب عليهم، وهو الذي تكفل بهم من غير عوض أو حاجة، فيسر أسبابهم، وقدر أرزاقهم، وهداهم لما يصلحهم، فنعمته عليهم سابغة، وحكمته فيهم بالغة، يحب عباده الموحدين، ويتقبل صالح أعمالهم، ويقربهم، وينصرهم على عدوهم، ويعاملهم بعطف ورحمة وإحسان، ويدعو من خالفه إلى التوبة والإيمان، فهو الرفيق المحسن في خفاء وستر، يحاسب المؤمنين بفضله ورحمته، ويحاسب المخالفين بعدله وحكمته، ترغيبا لهم في توحيده وعبادته، وحلما منه ليدخلوا في طاعته.

---

(١) معارج القبول لحافظ حكمي ٢/٥٣٦ بتصرف.

والله رفيق يتابع عباده في حركاتهم وسكناتهم، ويتولاهم في حلهم وترحالهم، بمعية عامة وخاصة.

روى الترمذي وصححه الألباني من حديث ابن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال له: (يَا غُلاَمُ إِني أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ)(١).

إن الله ﷻ يبتلى عبده بنوعين من التدبير، تدبير كوني قدري جبري، وتدبير ديني شرعي اختياري، وهو مبتلى بين هذين التدبيرين، ومطالب بموقف تجاه النوعين، فالأول يؤمن فيه بقدر الله ﷻ وإحاطته بعبده قبل خلقه، وحال وجوده وبعد موته، وأنه لا مشيئة للعبد إلا بتوفيق الله ﷻ ومشيئته .

والثاني يحفظ العبد فيه شرعه وتدبير الله ﷻ له، ليقينه أنه السبيل الوحيد لسعادته في الدنيا والآخرة، وأن من حفظ الله ﷻ في تدبيره الشرعي حفظه في تدبيره الكوني، وعصمه في سكونه وحركته، وتولاه بحفظه ومعيته، فهو سبحانه الملك الرحمن من فوق عرشه، وسعت رحمته كل شيء، وسبقت رحمته غضبه .

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ

---

(١) رواه الترمذي في سننه، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع ٤/٦٦٧ (٢٥١٦)، وأحمد في المسند ١/٢٩٣ (٢٦٦٩)، والحاكم في المستدرك ٣/٦٢٣ (٦٣٠٣)، وصححه الألباني، انظر مشكاة المصابيح (٥٣٠٢)، وظلال الجنة (٣١٥)، وصحيح الجامع (٧٩٥٧).

بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ
تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ
وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٨
وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ
٩ ۞ غافر: ٧/٩ .

المطلب الثامن

المرتبة الأولى من مراتب القدر العلم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فقد تحدثنا في المطلب السابق عن توحيد الربوبية وعلاقته بإثبات معاني الفوقية، وأن الله ﷻ مستو على عرشه، وعلمنا أهمية الإيمان بعلو الذات والفوقية في فهم توحيد الربوبية، وعلمنا أن العلة الأولى في استحقاق الملك والملكية صناعة الأشياء واختراعها، وأن العلة الثانية في استحقاق الملك والملكية دوام الحياة ووراثتها، وبينا أن النصوص النقلية نفت جميع ذرائع الشرك في الربوبية والعبودية.

كما بينا أن عظمة العرش دالة على عظمة من استوى عليه، وأن إثبات الاستواء على العرش يوجب الإذن عند الشفاعة، وأن ملك الملوك الذي استوى على عرشه لا يأمر إلا لمصلحة تعود على خلقه، وأن سبحانه من فوق عرشه يمهل ولا يهمل.

وفي هذا المطلب بإذن الله نتحدث عن علم الله ﷻ وتعلقات هذا العلم بالمعلومات، وأثر ذلك في فهم مراتب القدر.

- **الإيمان بالقدر الركن السادس من أركان الإيمان.**

استقرت عقيدة المسلمين على الإيمان بالقضاء والقدر كأحد

أركان الإيمان الستة المتعلقة بتصديق خبر الله ﷻ، فأركان الإيمان حددها رسول الله ﷺ في ستة أركان معلومة.

روى مسلم من حديث عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: (بَينمَا نحْن عِندَ رَسول اللهِ ﷺ ذاتَ يومٍ، إِذ طَلعَ عَلينا رَجُل، شدِيدُ بَياضِ الثيابِ، شدِيدُ سوادِ الشعَرِ، لا يرَى عَليهِ أَثرُ السفَرِ، وَلا يعْرِفُهُ مِنا أَحَدٌ، حَتَّى جلس إِلى النبِي ﷺ، فَأَسندَ رُكبْتَيهِ إِلى رُكبْتَيهِ، وَوَضعَ كَفَّيهِ عَلى فَخِذيهِ، وَقَال: يا مُحَمَّدُ، أَخبِرْني عَن الإِسلامِ؟ فقَال رَسول اللهِ ﷺ: الإِسلامُ أَن تَشهَدَ أَن لا إِلهَ إِلا اللهُ، وَأَن مُحَمَّدًا رَسول اللهِ ﷺ، وَتُقِيمَ الصَّلاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَان، وَتَحُجَّ البَيتَ، إِن استَطَعْتَ إِليهِ سبِيلا. قَال: صَدَقْتَ. قَال: فَعَجِبْنا لهُ يسأَلُهُ وَيصَدِّقُهُ. قَال: فَأَخبِرْني عَن الإِيمَان؟ قَال: أَن تُؤْمِن بِاللهِ وَمَلائِكتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسلهِ وَاليوْمِ الآخِرِ وَتُؤْمِن بِالقَدَرِ خَيرِهِ وَشرِّهِ. قَال: صَدَقْتَ. قَال: فَأَخْبِرْني عَن الإِحْسان؟ قَال: أَن تَعْبُدَ اللهَ كَأَنك تَرَاهُ فَإِن لمْ تَكُن تَرَاهُ فَإِنهُ يرَاك. قَال: فَأَخبِرْني عَن الساعَةِ؟ قَال: مَا المَسئُول عَنهَا بِأَعْلمَ مِن السائِلِ. قَال: فَأَخبِرْني عَن أَمَارَتِهَا؟ قَال: أَن تَلدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا وَأَن تَرَى الحُفَاةَ العُرَاةَ العَالةَ، رِعاءَ الشاءِ يتَطَاوَلون فِي البُنيان. قَال: ثُمَّ انطَلقَ، فَلبِثتُ مَليا، ثُمَّ قَال لِي: يا عُمَرُ أَتَدْرِي مَن السائِلِ؟ قُلتُ: اللهُ وَرَسولهُ أَعْلمُ. قَال: فَإِنهُ جِبْرِيل أَتَاكُمْ يعلمُكُمْ دِينكُمْ)[١].

والشاهد أن أركان الإيمان التي ذكرها رسول الله ﷺ لجبريل عليه السلام وهو في صورة الأعرابي أن تُؤْمِن بِاللهِ وَمَلائِكتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسلهِ وَاليوْمِ

---

(١) مسلم في الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ١/٣٦ (٨).

الآخِرِ وَتُؤْمِن بِالْقَدَرِ خَيرِهِ وَشَرِّهِ، وقد صدقه جبريل عليه السلام على ذلك، ومنها الإيمان بالركن الأخير، وهو الإيمان القدر خيره وشره، وتأخير هذا الركن ليكون سادس الأركان فيه دلالة على أنه لن يخرج أحد عنه، فالقدر فعل الله عز وجل في خلقه، والإيمان بالله إيمان بأسمائه وصفاته وأفعاله، وهذا أول ركن من أركان الإيمان، فالبداية منه تقديرا وتدبيرا، والتمام عليه خلقا وقدرا مقدورا .

ولذلك فإن هذه الأركان حملت في ترتيبها معنى مقصودا يدل على الجمع بين قدرة الله عز وجل وحكمته، فالمعنى الموضوع بين أركان الإيمان، أن تؤمن بالله الذي أنزل ملائكته بكتبه على رسله، ليحذروا العباد في دار الابتلاء من اليوم الآخر في دار الجزاء، فإذا انتهى الناس بعد العرض والحساب، واستقروا في الآخرة للثواب والعقاب، عندها يتم قدر الله عز وجل كما قدره في أم الكتاب، قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة.

وتلك حقيقة الإيمان بالقدر خيره وشره، روى مسلم من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه سمع رَسول اللهِ صلى الله عليه وسلم يقُول: (كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الخَلاَئِقِ قَبْلَ أَن يخلقَ السمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِين أَلفَ سنةٍ)[١].

وروى مسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن سرَاقَة بْن مَالكٍ رضي الله عنه قَال: (يا رَسول اللهِ، بَين لنا دِيننا كَأَنا خُلقْنا الآن؟ فِيمَا العَمَلَ اليوْمَ؟ أَفِيمَا جَفَّتْ بِهِ الأَقْلاَمُ وَجرَتْ بِهِ المَقَادِيرُ؟ أَمْ فِيمَا نستَقْبِل؟

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام ٤/٢٠٤٤ (٢٦٥٣).

قَال: لا، بَل فِيمَا جَفَّتْ بِهِ الأَقْلامُ وَجَرَتْ بِهِ المَقَادِيرُ. قَال: فَفِيمَ العَمَل؟ قَال: اعْمَلوا فَكُل مُيسرٌ لعَمَلهِ [١].

وقبل أن نبدأ في تفصيل موضوع الإيمان بالقضاء والقدر، لا بد من التنبيه على أن توحيد الربوبية هو أساس الفهم الصحيح لقضية الإيمان بالقضاء والقدر، فالسلف الصالح يؤسسون فهمهم للقضاء والقدر على توحيد الربوبية، وإفراد الله بالخالقية، وما يلزم ذلك من صفات الله، كالعلم والإدارة والقدرة، فيستحيل عندهم حدوث شيء، أو فعل بدون علمه أو قدرته سبحانه وتعالى، فلا يخرج عن قدرته مقدور، ولا ينفك عن حكمه مفطور، ولا يعذب عن علمه معلوم، يفعل ما يريد، ويخضع لحكمه العبيد، ولا يجرى في سلطانه إلا ما يشاء، ولا يحصل في ملكه إلا ما سبق به القضاء، ما علم أنه يكون من المخلوقات أراد أن يكون، وما علم أنه لا يكون، أراد ألا يكون، فهو سبحانه وتعالى عالم بما كان، وما هو كائن، وما سيكون، وما لو كان كيف يكون .

ومن شروط صحة إيمان العبد أن يصدق بجميع أقدار الله تعالى خيرها وشرها، أنها من الله تعالى، سابقة في علمه جارية في خلقه بحكمه، فلا حول لهم عن معصيته إلا بعصمته، ولا قوة لهم على طاعته إلا برحمته، ولا يستطيعون لأنفسهم ضرا ولا نفعا إلا بمشيئته [٢].

---

(١) رواه مسلم كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته ٤/٢٠٤٠ (٢٦٤٨).

(٢) انظر قوت القلوب لأبي طالب المكي ٢/٢١٠ بتصرف.

وتوحيد الربوبية كما تقدم هو إفراد الله بأفعاله؟ أو إفراد الله ﷻ بالخلق والتدبير، فلا خالق إلا الله، ولا مدبر للكون سواه، فالرب في اللغة هو من أنشأ الشيء إلى حد التمام، وهو مبنى على التربية، أو إصلاح شئون الآخرين ورعاية أمورهم بانتظام.

وأول ركن في توحيد الربوبية، إفراد الله بالخلق والتقدير، وتكوين الشيء وإنشائه من العدم، ومن ثم إفراده ﷻ بلوازم ذلك من العلم والمشيئة والقدرة، وكل ما يلزم من صفات الذات وصفات الأفعال لتخليق الشيء وتصنيعه، فالخالق هو الذي يستغنى بنفسه، فلا يحتاج إلى غيره، وأن يحتاج إليه كل من سواه .

• ما المقصود بمراتب القضاء والقدر؟

مراتب القضاء والقدر هي المراحل التي يمر بها المخلوق وينتقل من كونه معلومة في علم الله ﷻ وتقديره، إلى أن يكون مخلوقا واقعا بقدرة الله ومشيئته.

وإفراد الله بمراتب القضاء والقدر من اللوازم المترتبة على إفراد الله بالخلق، لأن إفراد الله ﷻ بخلق الأشياء يعني أن الشيء المخلوق ما تم خلقه إلا بمشيئة الله وإرادته الكونية، وما شاء كونه إلا لأنه كتبه في اللوح المحفوظ وقدره في علمه قبل الكتابة، فالخلق يدل حتما على المشيئة، والتقدير السابق في العلم.

ولنضرب لذلك مثلا بقياس الأولى، وهو القياس الوحيد الجائز في الغيبيات ولله المثل الأعلى، فمن المعلوم أن الإنسان الذي ينشئ

المشروعات العملاقة، لابد أن يبدأ مشروعه أولا بتصور أو فكرة في الأذهان، ومعلومات مقدرة مقننة ومحسوبة بدقة وإتقان، ولا بد أن يكون قد درسها جيدا وقام فيها بتقدير حساباته، وضبط أموره وإمكانياته، ثم يقوم بعد ذلك بكتابة تلك المعلومات، ويخط لها أنواعا من الرسومات في بضع ورقات أو ملفات، حتى يمكنه أن يخاطب من خلالها مختلف الجهات، فصاحب البناء لا بد له من موافقة المسئول في المحليات أو البلديات، فإذا شاء أذن له، وإن لم يشأ رفضه.

ثم يتوقف الأمر بعد ذلك على مشيئة الشخص في الإنشاء، وإرادته في تنفيذ مشروعه والقيام بتصنيعه، واختياره توقيت الفعل المناسب إن توفرت لديه القدرة والإمكانيات، فكم من مشروع يفشل بسبب العجز في القدرة، فإن كانت لديه القدرة وإلا طلب المشاركة من الآخرين، فأصبح المشروع مِلكا مشتركا للمساهمين، وكل منهم حسب قدرته، وقوة أسهمه في تنفيذ المراد .

ثم يبدأ صاحب المشروع في التنفيذ إلى أن ينتهي البنيان كما قدر له في الأذهان، فهذه مراحل تصنيع الأشياء المتقنة بين المخلوقات بحكم العقل والفطرة، وكلما كان العلم أكمل، والتخطيط أدق، والقدرة أتم، كانت الصنعة في جودتها وإتقانها أعلى وأفضل.

وإذا كانت تلك المراتب ومراحل التصنيع تعد كمالا لدى المخلوق، ولا بد في هذا الكمال من العلم والكتابة والمشيئة والتنفيذ أو القيام بالتصنيع، فالله سبحانه وتعالى وله المثل الأعلى أولى من المخلوق في هذا الكمال، لاسيما أنه أخبرنا أنه قدر أمور الخلائق قبل

كونها، ثم كتبها في اللوح المحفوظ، ثم شاء كونها كما قدرها، ثم خلقها بقدرته المطلقة، فهو سبحانه منفرد بمراتب القضاء والقدر، وهى عند السلف الصالح المراحل التي يمر بها المخلوق من كونه معلومة في علم التقدير، أن يكون مخلوقا واقعا بمشيئته القدير وقدرة، وهى عندهم أربع مراتب تشمل كل صغيرة وكبيرة في الوجود.

قال ابن القيم رحمه الله: (مراتب القضاء والقدر التي من لم يؤمن بها لم يؤمن بالقضاء والقدر أربع مراتب: المرتبة الأولى علم الرب سبحانه بالأشياء قبل كونها، المرتبة الثانية كتابته لها قبل كونها، المرتبة الثالثة مشيئته لها، والرابعة خلقه لها) [(١)].

وسوف نتناول تلك المراتب بشيء من التفصيل لما لها من دور كبير في بيان حقيقة القضاء والقدر، فالمرتبة الأولى من مراتب القدر هي العلم السابق، علم التقدير وحساب المقادير، تقدير كل شيء قبل تصنيعه وتكوينه، وتنظيم أمور المخلوقات قبل إيجادها وإمدادها، فهذا العلم هو التقدير الجامع التام وحساب النظام العام الذي يسير عليه الكون من بدايته إلى نهايته، وهذا العلم اتفق عليه الرسل من أولهم إلى خاتمهم، واتفق عليه جميع الصحابة ﷺ ومن تبعهم من الأمة، وخالفهم مجوس الأمة القدرية المعتزلة.

- **الأدلة النقلية على أن علم التقدير من مراتب القدر.**

دلت الأصول القرآنية والنبوية على أن تقدير أمور الخلائق تم في

(١) شفاء العليل لابن القيم ص٢٩ بتصرف.

علم الله ﷻ قبل أن يخلقهم بخمسين ألف سنة، لما رواه الترمذي وصححه الشيخ الألباني من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: (قَدَّرَ اللهُ المَقَادِيرَ، قَبْلَ أَنْ يَخلقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلفَ سَنَةٍ) [(١)].

والعلم المتعلق بما قدره الله من أمور الخلائق هو علم التقدير، وهو علمه تعالى بما سيكون، وهو نوع من علم الغيب الذي دون في اللوح المحفوظ، والذي فيه تفصيل ما سيكون من الخلائق بقدرة الله ﷻ، وما سينشأ من أحداث قدر الله وقوعها، فهو سبحانه قدرها ثم كتبها في اللوح، دل على ذلك ما رواه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: (كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الخَلائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخلقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلفَ سَنَةٍ. قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلى المَاءِ) [(٢)].

وروى مسلم من حديث علي رضي الله عنه أنه قال: (كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ذاتَ يَوْمٍ جَالسًا وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ بِهِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَال: مَا مِنْكُمْ مِنْ نَفْسٍ إِلا وَقَدْ عُلِمَ مَنْزِلهَا مِنْ الجَنَّةِ وَالنَّارِ. قَالوا: يَا رَسُول اللهِ، فَلِمَ نَعْمَلُ؟ أَفَلا نَتَّكِلُ؟ قَال: لا. اعْمَلوا، فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لهُ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ

---

(١) رواه الترمذي في كتاب القدر ٤/٤٥٨ (٢١٥٦)، وأحمد في المسند ٢/١٦٩ (٦٥٧٩)، وصححه الألباني، انظر صحيح الجامع (٤٣٨٠).

(٢) أخرجه الإمام مسلم في كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام ٤/٢٠٤٤ (٢٦٥٣).

﴿ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿٩﴾ ﴿١٠﴾ ﴾ الليل:٥/١٠)[١].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ لقمان:٣٤.

وروى البخاري من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن رسول اللهِ ﷺ قال: (مِفْتَاحُ الغيبِ خمْس، لا يعْلمُهَا إلا اللهُ، لا يعْلمُ أَحَدٌ ما يكُون فِي غَدٍ، وَلا يعْلمُ أَحَدٌ مَا يكون فِي الأَرْحَامِ، وَلا تَعْلمُ نفْس مَاذا تَكْسبُ غَدًا، وَمَا تَدْرِي نفْس بِأَي أَرْضٍ تَمُوتُ، وَمَا يدْرِي أَحَدٌ مَتَى يجِيءُ المَطَرُ)[٢].

وقال الله تعالى: ﴿ ۞ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ الأنعام:٥٩/٦٠.

وهذا النص القرآني تضمن مراتب العلم وأنواع تعلقاته بمعلوماته،

---

(١) رواه البخاري في كتاب القدر، باب وكان أمر الله قدرا مقدورا ٦/٢٤٣٥ (٦٢٣١)، ومسلم في كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمى فى بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته ٤/٢٠٤٠ (٢٦٤٧).

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الاستسقاء، باب لا يدري متى يجيء المطر إلا الله ١/٣٥١ (٩٩٢).

فيما كان، وما هو كائن، وما سيكون، وما لو كان كيف يكون، وسيأتي التفصيل بعد قليل إن شاء الله ﷻ.

والمفاتح في اللغة الفصيحة جمع مفتح، ويقال مفتاح، ويجمع على مفاتيح، والمفتح عبارة عن كل ما يحل غلقا محسوسا كالقفل الموضوع على البيت، أو يحل غلقا معقولا كالفهم والنظر[١].

ومفاتح الغيب في الآية تشير إلى الأسرار التي قدرها الله ﷻ، والتي بها يتم تكوين المخلوقات وإنشائها، كما يتوصل بالمفتاح إلى خزانة متينة تحتوى أسرار المشرعات الكبرى والمقتنيات العظمى، ولذلك قال بعضهم: المفتاح مأخوذ من قول الناس افتح علي بكذا، أي أعطني أو أعلمني ما أتوصل إليه به[٢].

والمعنى المقصود بكون مفاتيح الغيب عند الله ﷻ أنه المتوصل إلى المغيبات المحيط علمه بها، لا يعلمها إلا هو، فيعلم أوقاتها، وما في تعجيلها وتأخيرها من الحكم، فيظهرها على ما اقتضته حكمته، وتعلقت به مشيئته، وفيه دليل على أنه سبحانه وتعالى يعلم الأشياء قبل وقوعها، لأنه وحده الذي قدرها[٣].

ومن ثم فإن الله تعالى عنده علم الغيب، وبيده الطرق الموصلة إليه لا يملكها إلا هو، فمن شاء إطلاعه عليها أطلعه، ومن شاء حجبه

---

(١) لسان العرب لابن منظور ٢/٥٣٦، نشر دار صادر بيروت، وتاج العروس للزبيدي ٧/٦ بتصرف نشر دار الهداية.

(٢) تفسير القرطبي ٧/٢ بتصرف، نشر دار الشعب القاهرة.

(٣) تفسير البيضاوي ٢/٤١٥ بتصرف، نشر دار الفكر بيروت.

عنها حجبه، ولا يكون ذلك إلا لأنبيائه ورسله، بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾ آل عمران:١٧٩ [١].

- **علم التقدير من علم الغيب وليس لغير الله فيه نصيب.**

ومن هنا نعلم أن الكهان والعرافين والمنجمين كاذبون على رب العالمين في إدعائهم علم الغيب، وإخبارهم بما سوف يحدث للإنسان، ذلك لأنهم لا يخلقون شيئا في الملك، وليس لهم شركة مع الله ﷻ في إنشاء الخلق، وليس لهم شيء في تدبير الأمر .

وهذا شأن الإطلاع على الغيب فيما يختص بالله تعالى، فهو يملكه ويتصرف فيه كما يشاء، وهي صفته الدائمة، ولم يجعل لولي، أو شيخ، أو شهيد، أو إمام، أو حتى نبي، أو ملك، أو عفريت، أو جنية، أو جني أن يطلعوا على الغيب متى شاءوا، بل الله ﷻ قد يطلع من يشاء على ما يشاء متى يشاء، لا يجاوز علمهم ما أراد الله إطلاعهم عليه مثقال ذرة، بل ذلك خاضع لإرادة الله تعالى لا لأهوائهم[٢].

وقد وقع لعائشة رضي الله عنها حادثة الإفك، وقد كبر ذلك على النبي ﷺ، وبلغ منه كل مبلغ، وقضى أياما يفحص فيها عن الأمر، فلم تنكشف له الحقيقة، وبقى أياما مشغول الخاطر، في التهمة التي ألقاها المنافقون، فلما أراد الله ﷻ أن يزيح عنه هذه الغمة،

(١) تفسير القرطبي ٢/٧ بتصرف.

(٢) رسالة التوحيد للدهلوي ص٦٠ بتصرف.

وتنكشف الحقيقة لسائر الأمة، أخبر نبيه ﷺ أن عائشة رضي الله عنها بريئة من هذه التهمة، وأن المنافقين هم الكاذبون، فعلم من ذلك يقينا أن مفاتح الغيب بيد رب العالمين، وأنه لم يمكّن منه أحدا حتى سيد الأنبياء والمرسلين، وأنه لا يعلم الغيب إلا الله عز وجل، وليس للغيب من مالك لخزائنه سواه، بل هو سبحانه الذي يفتح هذا القفل المغلق بما يشاء، فيهب من يشاء ما يشاء، فمن ادعى لنفسه أو اعتقد في غيره أنه يعلم الغيب بالاستقلال والدوام، كان كاذبا آثما بريئا من دين الإسلام [1].

وقد قال الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ٥٠﴾ الأنعام: ٥٠.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨﴾ الأعراف: ١٨٨.

وقال تعالى عن نبيه هود عليه السلام: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣١﴾ هود: ٣١.

وقد تبين من هذه الآيات أن من أدعى علما يعرف به الغيب متى شاء، وأن الإطلاع على الأمور المستقبلة ميسور له وتحت تصرفه كان

---

(١) السابق ص ٦٠ بتصرف.

كذابا مدعيا للإلوهية. ومن اعتقد ذلك في نبي، أو ولي، أو جني، أو ملك، أو إمام، أو ابن إمام، أو شيخ، أو شهيد، أو منجم، أو رمال، أو جفار، أو من يبحث عن الفال في كتاب وغير ذلك، أو كاهن، أو سادن، أو عفريت، أو جنية، كان مشركا منكرا لكلام الله ﷻ[١].

ومن وسوست له نفسه وسول له الشيطان أنه قد يتحقق ما يخبر به منجم، أو رمال، أو كاهن، أو محترف في الإخبار بالسعد والنحس فيدل ذلك على علمه للغيب، فهو على باطل وينبغي أن يتعوذ بالله من الشيطان وشبهاته، فإن كثيرا ما تخطئ أخبارهم ويقع عكسها، فثبت من ذلك أنه لا صلة لهم بعلم الغيب، وإنما يتكلمون رجما بالغيب، وقد يصيبون وقد يخطئون[٢].

قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾ النمل:٦٥.

وجميع المؤمنين يؤمنون بأن الساعة آتية لا ريب فيها، ولكنهم لا يعلمون موعدها بالتحديد، وإذا كان هذا من شأن الساعة التي هي من الأمور القطيعة، ومن ضروريات الدين لا يعلمها أحد، فما ظنك بغيرها من الأخبار والحوادث كالفتح والهزيمة والمرض والصحة، فإنها لم تشتهر اشتهار القيامة، ولم تكن منزلتها من القطع واليقين كمنزلة القيامة. كذلك لا يعرف أحد متى ينزل المطر مع أن الفصول معينة، وللأمطار فصل وأوان تجيء فيه في غالب الأحيان، وقد تشتد

---

(١) السابق ص٦١ بتصرف.

(٢) السابق ص٦٢ بتصرف.

إليه حاجة البشر، ويتمناه الأنبياء والأولياء والملوك والحكماء في بعض الأحيان، ويرغبون فيها أشد الرغبة، فإن كان إلى العلم بالغيب ونزول المطر سبيل لاهتدى إليه بعض الأفراد(١).

أما الأشياء التي ليس لها فصل معين، ولا يتفق الناس على الحاجة إليها، أو الرغبة فيها، كأن يموت رجل أو يعيش، أو أن يرزق أحد ولدا، أو يغني الإنسان أو يفتقر، أو أن ينتصر أحد في حرب أو ينهزم، فلا سبيل لأحد إلى علمها (٢).

وكذلك قوله ﷺ: لا يعلم ما في الأرحام إلا الله. فإنه يتناول نفي العلم عمن سواه، سواء كان ملكا، أو نبيا، أو إنسانا طبيبا، وهذا يعني العلم بما قدره الله ﷻ مما كتب في اللوح، ومما سيخلقه سبحانه في الأرحام، وهو علم التقدير الذي ضن به الله ﷻ على من سواه، ولم يطلع عليه أحدا من خلقه، لا ملكا مقربا، ولا نبيا مرسلا.

وأما علم الملك الموكل بالنطفة في الرحم، فإنما هو علم بما وكله الله ﷻ به من مقتضيات حكمته في ابتلاء الإنسان بملائكته، وتنفيذهم لأمره فيهم، فالملائكة لا تعلم عما في اللوح شيئا، وإنما يتبعون الأمر فيما يكلفون، ولا يعصون الله ﷻ ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، فلا يعلمون إن كان ما يكلفون به يتفق مع ما في اللوح وعلم التقدير، أو يختلف عما سيقع بقدرة الله القدير، وسيأتي بيانه إن شاء الله عند الحديث عن التقدير العمري.

---

(١) السابق ص٦٣ بتصرف.

(٢) السابق ص٦٤ بتصرف.

ومن ثم فإن قوله ﷺ: "لا يعلم ما في الأرحام إلا الله" لا يدل فقط على مجرد علم الإحاطة بما تم خلقه أو وجوده في الرحم: هل هي واحدة؟ أو توأم؟ ذكر أو أنثى؟ كاملة أو ناقصة؟ دميمة أو وسيمة؟ مع أن الأطباء قد أفاضوا في ذكر أسبابها، وأصبح ميسور للطبيب أن يرى في وقت ما من مراحل نمو الجنين ما لم يكن من متيسرا من قبل.

وإذا كان هذا شأن العلم بأمور تظهر أمارتها، وتعرف مقدماتها، فكيف بما يضمره الإنسان من أفكار وإرادات، وخواطر ونيات، وإيمان ونفاق واعتقادات، وهي في بطون الضمائر وطيات الصدور، وإذا لم يعلم أحد ما مصيره غدا، فكيف يعلم حال غيره؟ وإذا لم يعلم مكان موته، وما تدري نفس بأي أرض تموت، فكيف يعلم أن يموت فلان، ومتى يموت؟

وجملة القول إن الذين يدعون الغيب، أو يدعون الكشف المطلق الدائم، ومنهم من يزعم أنه يعلم طريق الاستخارة التي لا تخطئ قط، ومنهم من يستخرج الأخبار من تقويم النجوم أو الرمل، ومنهم من يستفتح بعلم الرمل، ومنهم من يطوف في الناس وفي يده كتاب للبحث عن الفال، فإن هؤلاء كلهم كاذبون مزورون [١].

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ

(١) السابق ص٦٥ بتصرف.

وقد ورد في صحيح مسلم عن بعض أزواج النبي رضي الله عنهن أن النبي ﷺ قال: (مَن أَتَى عَرَّافًا فَسأَلَهُ عَن شيءٍ، لَمْ تُقْبَل لهُ صَلاةٌ أَرْبَعِين ليلةً)[1]. وعند أحمد من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (مَنْ أَتَى عَرَّافًا أَوْ كَاهِنًا فصَدّقهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ)[2].

والعراف هو الحازر الذي يرجم بالغيب، والمنجم الذي يدعى علم الغيب، وهو الذي يستدل على الأمور بأسباب ومقدمات يدعي معرفتها، والكهانة ادعاء علم الغيب[3].

• العلم الإلهي وتعلقاته بأنواع معلوماته ووجود مخلوقاته.

أئمة أهل السنة والجماعة متفقون على مراتب العلم الإلهي، وهي علم الله تعالى بما كان، وما هو كائن، وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

قال ابن كثير: (وهو تعالى العالم بما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، فيعلم الشيء قبل كونه، ومع كونه على ما هو عليه، لا إله إلا هو، ولا رب سواه، ولا راد لما قدره وأمضاه.

---

(١) مسلم في السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان ٤/١٧٥١ (٢٢٣٠) .

(٢) رواه أحمد في المسند ٥/٣٨٠ (٢٣٢٧٠)، والحاكم في المستدرك ١/٤٩ (١٥)، وصححه الشيخ الألباني، انظر صحيح الجامع (٥٩٣٩)، وصحيح الترغيب والترهيب (٣٠٤٧).

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم ١٤/٢٢٧، دار إحياء التراث العربي بيروت.

وهذا مجمع عليه عند أئمة السنة والجماعة)[1].

وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ١٠٩﴾ المائدة:١٠٩. والغيوب جمع غيب، وقد فسرها الإمام القرطبي بمراتب العلم الإلهي فقال: (يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن، وما هو كائن)[2]. والعلام مبالغة في العالم، والغيب ما كان غائبا عن الخلق. والمراد أنه العالم بأصناف المعلومات على تفاوتها ليس تخفى عليه خافية .

وقال أبو الحسن الأشعري: (وندين الله ﷻ بأنه يعلم ما العباد عاملون، وإلى ما هم صائرون، وما كان وما يكون، وما لا يكون أن لو كان كيف كان يكون)[3].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (إن علم الله تعالى السابق محيط بالأشياء على ما هي عليه، ولا محو فيه ولا تغيير، ولا زيادة ولا نقص، فإنه سبحانه يعلم ما كان، وما يكون، وما لا يكون لو كان كيف كان يكون)[4].

وقال ابن القيم: (عالم بكل شيء، يعلم السر وأخفى، ويعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، وما تسقط من ورقة إلا بعلمها، ولا حبة في ظلمات الأرض، ولا رطب، ولا

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣٤١/٢ ، ٤٠٥/٣.

(٢) تفسير القرطبي ٣٧٦/٦.

(٣) الإبانة عن أصول الديانة لأبي الحسن الأشعري ص٣٣.

(٤) انظر مختصر الفتاوى المصرية لشيخ الإسلام ابن تيمية ١٨٨/١، نشر دار ابن القيم الدمام، تحقيق محمد حامد الفقي.

يابس، ولا متحرك إلا وهو يعلمه على حقيقته)[١].

وقال الإمام الطحاوي: (ولم يخف عليه شيء قبل أن يخلقهم، وعلم ما هم عاملون قبل أن يخلقهم .. فإنه سبحانه يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن أن لو كان كيف يكون)[٢].

وقال الإمام النووي: (فهو سبحانه علم ما كان، وما يكون، وما لا يكون لو كان كيف كان يكون، وذلك لتفرده بعلم الغيوب)[٣].

وقال الشيخ حافظ حكمي عن مراتب القدر، وما قدره الله من أمور الخلائق، وما تعلق بها من أمور التقدير والتدبير: (المرتبة الأولى الإيمان بعلم الله ﷻ المحيط بكل شيء من الموجودات والمعدومات والممكنات والمستحيلات، فعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، وأنه علم ما الخلق عاملون قبل أن يخلقهم، وعلم أرزاقهم وآجالهم وأحوالهم، وأعمالهم في جميع حركاتهم وسكناتهم، وشقاوتهم وسعادتهم، ومن هو منهم من أهل الجنة، ومن هو منهم من أهل النار من قبل أن يخلقهم، ومن قبل أن يخلق الجنة والنار، علم دق ذلك وجليله، وكثيره وقليله، وظاهره وباطنه، وسره وعلانيته، ومبدأه ومنتهاه، كل ذلك بعلمه الذي هو صفته، ومقتضى اسمه

---

(١) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى لابن القيم ص ١٥٩، نشر الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص١٥٢.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم ٢١١/١٦.

العليم الخبير، عالم الغيب والشهادة، علام الغيوب)[1].

- **تفصيل مراتب العلم الإلهي وتعلقاته والأدلة عليه.**

لقد اتفق أهل العلم المعتبرين من السلف والخلف على أن الله ﷻ يعلم ما كان، وما هو كائن، وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، ونظرا لأهمية هذه العقيدة المتعلقة بعلم الله ﷻ وتعلقه بمعلوماته، يمكن بيان مراتب العلم الإلهي على النحو التالي:

١- علمه بالشيء قبل كونه: وهو علم التقدير، وما سيقع بقدرة القدير، وهو سر الله ﷻ في خلقة، ضن به ربنا سبحانه وتعالى، لا يعلمه ملك مقرب، ولا نبي مرسل، وهو المراد بقولهم: "عالم بما سيكون". وهو المقصود بالمرتبة الأولى من مراتب القدر، وهو علم مفاتح الغيب وتقدير الأمور، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾ لقمان: ٣٤.

قال اليافعي: (وقد طوى الله تعالى علم القدر عن العالم، فلم يعلمه نبي مرسل، ولا ملك مقرب، وقيل: إن سر القدر ينكشف لهم إذا دخلوا الجنة، ولا ينكشف قبل دخولها)[2].

---

(١) معارج القبول للشيخ حافظ بن أحمد حكمي ٣/٩٢٠.

(٢) كتاب مرهم العلل المعضلة في الرد على أئمة المعتزلة، لعبد الله بن أسعد بن علي اليافعي ص٩٤، تحقيق محمود محمد محمود حسن نصار، نشر دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى سنة١٩٩٢م.

وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ الحج:٧٦. وهذا الوصف ليس إلا لله ﷻ، لأن ما سواه من الطواغيت والمعبودات الأخرى، وكل ما سوى الله من الخلائق، لا أحد منهم يعلم عن وجوده وكونه، إلا بعد وجوده وكونه، ولا يعتمد إنسان في صغره على نفسه في كسب قوته ورزقه، بل ما من مخلوق إلا وهو قائم بغيره، وحياته كائنة بأمر الله وإذنه، فلما كانت حياتهم بتقدير خالقهم، وكانت مراتب القدر حاكمة على إيجادهم وإمدادهم، وكانوا في الأصل معلومات في علمه، ثم كلمات دونها الله ﷻ في لوحه، ثم كانوا أمرا مبرما في مشيئته، ثم خلقا كائنا في بريته، فقد علم سبحانه ما بين أيديهم قبل كونهم، وعلم ما يخصهم حال كونهم، وبعد فنائهم، فهو وحده الذي يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم.

وقال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾ النمل:٦٥. وقال تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾ الفرقان:٦.

وروى البخاري ومسلم من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه الذي أنه قَال: (كُنا فِي جَنازَةٍ فِي بَقِيعِ الغرْقَدِ، فَأَتَانا النبِي ﷺ فقعَدَ، وَقَعَدْنا حَوْلَهُ وَمَعَهُ مِخصَرَةٌ، فَنكَّس، فَجعَل ينكُتُ بِمِخْصَرَتِهِ، ثمَّ قَال: مَا مِنكُمْ مِن أَحَدٍ، مَا مِن نفس مَنفوسةٍ إلا كُتِبَ مَكَانهَا مِن الجَنةِ وَالنار، وَإِلا قَدْ كُتِبَ شقِية أَوْ سعِيدَةً، فَقَال رَجُل: يا رَسول اللهِ، أَفَلا نتَّكِل عَلى كِتَابِنا وَندَعُ العَمَلَ؟ فَمَن كَان مِنا مِن أَهْل السعَادَةِ فَسيصِيرُ إِلى عَمَلِ أَهْلِ السعَادَةِ؟ وَأَمَّا مَن كَان مِنا مِن أَهْل الشقَاوَةِ

فَسيصِيرُ إلى عَمَل أَهْل الشقَاوَةِ؟ قَال رسول الله ﷺ: أَمَّا أَهْل السعَادَةِ، فَييسرُون لعَمَل السعَادَةِ، وأَمَّا أَهْل الشقَاوَةِ فَييسرُون لعَمَل الشقَاوَةِ، ثم قَرأَ: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ (١٠) ﴾ الليل:٥/١٠)[1].

• علم الله بما لم يكن لو كان كيف يكون.

٢- علمه بما لم يكن لو كان كيف يكون، وهو علمه بما لم يقدره من خلق جديد، لو أنه قدره كيف سيكون شأنه، ويدخل فيه علمه بما في اللوح بعد كتابته، وقبل إنفاذ مشيئته، قال تعالى: ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (١٧) ﴾ فاطر:١٦/١٧.

إن كتب الله ﷻ مقادير الخلائق في اللوح المحفوظ قبل أن يخلقهم، فالمخلوقات في اللوح عبارة عن كلمات، وتنفيذ ما في اللوح من معلومات تضمنتها تلك الكلمات مرهون بمشيئته في تحديد الأوقات المناسبة لأنواع الحِكم والابتلاءات، وكل ذلك عن علمه بما في اللوح من حسابات وتقديرات، فتلك الكلمات قضاها الله ﷻ بحكمه المبرم أنها ستقع لا محالة كما قدرها، وإن لم يتحقق وقوعها بعد، ولم يظهر وجودها في المخلوقات .

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجنائز، باب موعظة المحدث عند القبر وقعود أصحابه حوله ٤٥٨/١ (١٢٩٦)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه ٢٠٣٩/٤ (٢٦٤٧). والمخصرة العود الصغير، ومعنى نكس أي أطرق برأسه إلى الأرض ومعنى ينكت بمخصرته يضرب بها في الأرض ضربا خفيفا.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ الحج: ٧٠.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ يس: ٨١/٨٢ .

وقال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ الحديد: ٢٢.

قال ابن كثير: (يخبر سبحانه وتعالى عن قدره السابق في خلقه قبل أن يبرأ البرية، أنه ما من مصيبة تحدث في الآفاق، أو في النفوس إلا كتبها في اللوح المحفوظ، وقوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ الحديد: ٢٢. أي من قبل أن نخلق الخليقة) [١].

وقال الله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾ البقرة: ١١٧.

وعند أبي داود وصححه الشيخ الألباني من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (إن أوَّل مَا خلقَ الله تَعالى القَلَمَ، فقال له: اكْتُبْ، فقَال: رَبِّ ومَاذا أكْتُب؟ قال: اكْتُبْ مَقادِيرَ كُل شيء حتَّى تَقُومَ الساعَةُ) [٢].

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/٣١٤.

(٢) رواه أبو داود في كتاب السنة، باب في القدر ٤/٢٢٥ (٤٧٠٠)، وصححه الألباني، انظر صحيح الجامع (٢٠١٨)، وظلال الجنة (١٠٢).

وقال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ الأنعام: ٢٦/٢٨.

قال عبد الكريم القشيري: (أخبر عما علم أنه لا يكون، أنه لو كان كيف كان يكون؛ فقال: لو رُدَّ أهل العقوبة إلى دنياهم، لعادوا إلى جحدهم وإنكارهم، وكذلك لو رُدَّ أهل الصفاء والوفاء إلى دنياهم، لعادوا إلى حسن أعمالهم)[1]. فعلمه بالمكتوب في اللوح قبل وقوعه أحد مراتب العلم.

٣- علمه بما هو كائن، وهو علمه بالشيء حال كونه وتنفيذه، وتخليقه وتصنيعه، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ الحج: ٧٠.

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ الحديد: ٤.

وقال: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾ النجم: ٣٢.

- **العلم وصف ذاتي لله لا يتغير بخلاف معلوماته فإنها تتغير.**

وينبغي أن يعلم أن علم الله تعالى واحد؛ لأنه وصف ذاتي قائم

---

(١) تفسير القشيري ١/٢٩١، نشر دار الكتب العلمية بيروت.

بالموصوف ومن لوازم كماله، فلا يتبدل ولا يتغير، وإنما تتبدل الأحوال التي للمعلوم، حيث تتغاير المعلومات، لا العلم ولا العليم، ولا القدرة ولا القدير، والأمر في ذلك متعلق بصفة من صفات الأفعال وهي صفة التقدير، وقد علمنا بنص القرآن أن الله ﷻ عنده علم الساعة، وأنه علم ما لا يكون أبدا أن لو كان كيف كان يكون، إذ يقول تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ الأنعام:٢٨.

وقال تعالى لنوح عليه السلام: ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٣٧)﴾ هود:٣٦/٣٧ .

ومن ثم فإن وصف التقدير الذي يتعلق بمشيئة الله، وكذلك ما يتعلق بالمقدر الذي ارتبط وقوعه بزمان ومكان، وكل ما يتعلق بوصف التقدير من معلومات في علم الله ﷻ هو الذي دعا إلى تنوع مراتب العلم بين علم ما كان، وما هو كائن، وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون.

ومن هذه المراتب علمه سبحانه بما هو كائن مما يقع بتقدير الله في زمان معين أو مكان، وذلك من علم الإحاطة بالمخلوق حال كونه وبعد كونه، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٧٨)﴾ التوبة:٧٨.

وقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٥)﴾ هود:٥.

وقال تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قَدۡ يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ وَيَوۡمَ يُرۡجَعُونَ إِلَيۡهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴿٦٤﴾ ﴾ النور: ٦٤.

وقال تعالى: ﴿ قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٩﴾ ﴾ آل عمران: ٢٩.

وقال تعالى: ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٦﴾ ﴾ هود: ٦.

والنصوص في الدلالة على علم ما هو كائن كثيرة، وهو نوع من تعلق العلم بالمعلومات من جهة تنفيذ ما قدره الله عز وجل فيه، مما كتبه ودونه في اللوح ككلمات تخص كل مخلوق شاء كونه وقضاه وقدره وتولى تنفيذه في الواقع .

٤– علمه بالشيء بعد كونه وتخليقه وإحاطته الشاملة والكاملة بعد تمامه وانتهائه، وهو قولهم: عالم بما كان.

قال الله عز وجل: ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٥٩﴾ ﴾ الأنعام: ٥٩.

وقد تضمنت هذه الآية علم التقدير، وهو العلم التفصيلي اللازم لتخطيط عملية إنشاء كل ما في البر والبحر، وكل حبة في ظلمات الأرض، وكل ورقة تنمو على شجرة، ثم علمه بها بعد رفع القلم عن كتابتها في اللوح كقضاء مبرم سوف ينفذ لا محالة، ثم علمه بها حال إنشائها وظهورها وخلقها حتى اكتمالها، ثم إمدادها بمقومات

حياتها، ثم علمه بها انتهائها وسقوطها واضمحلالها، ولذلك عبر بقوله: وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولم يقل: وما تنشأ من ورقة، لأن سقوطها يتضمن مراتب العلم في تعلقها بمعلوماتها.

وقد بين الله ﷻ بعد هذه الآية التي تضمن الدلالة على مراتب العلم وتعلقاته، أنه لما خلق عباده لم يخلقهم، وينعزل عنهم، بل تولاهم، وهو عليم بحالهم في ليلهم ونهارهم، أحاط بما كسبته جوارحهم وكتبها عليهم كتابة أخرى تحقق الحكمة عند حسابهم.

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ الأنعام: ٦٠.

وقال الله تعالى عن علمه سبحانه وكتابته لما حدث من عباده في القرون الأولى: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ طه: ٥١/٥٢.

وكل من كان في القرون الأولى فإنه سبحانه هو الذي قدر أمورهم وكتب مقاديرها وشاء كونهم ثم خلقهم وفق ما كتب في اللوح مما يخصهم، وكل ذلك منه إظهار لقدرته التي دل عليه اسمه القدير، وعلى الرغم من ذلك كتب أعمالهم بعد خلقهم، ودون ما كسبوه بجوارحهم، وسوف يحاسبهم على أفعالهم واختياراتهم إظهارا منه لحكمته التي دل عليها اسمه الحكيم.

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن

﴿نَجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ٧﴾ المجادلة:٧.

ختمت الآية باسمه العليم وتعلقه بكل شيء من معلوماته، فالله ﷻ علم ما كان، وما هو كائن، وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، فهذه مراتب علم الله كما بينها الله في كتابه وسنة رسوله ﷺ، والمرتبة الأولى من مراتب القدر وتعلقاته هي العلم المرتبط بتقدير المقادير، فعلى العبد أن يعلم أن الله ﷻ قد سبق علمه في كل كائن من خلقه، فقدر ذلك تقديرا محكما مبرما ليس فيه ناقض، ولا معقب ولا مغير ولا مزيل.

- **ارتباط العلم بالقدرة والتقدير أو بالحكمة والتدبير.**

لما كان توحيد الربوبية في القرآن والسنة النبوية يقوم على ركنين أساسيين، أو معنيين جامعين، عليهما يدور محور الدليل النقلي:

الأول: إفراد الله بالخلق والقدرة التقدير، وكل ما يلزم من صفات الذات وصفات الأفعال، لتخليق الشيء وتصنيعه، وإيجاده واختراعه.

الثاني: إفراد الله بالحكمة والتدبير، كتدبير أمر المخلوقات وتقدير أحوالهم، والقيام على شئونهم، والهداية إلي ما يصلحهم، والحكم بينهم في الدنيا والآخرة .

لما كان توحيد الربوبية يقوم على هذين الركنين، كان العلم الإلهي متعلقا أيضا بهذين الركنين، فإما يرتبط بالخلق والقدرة

والتقدير لإظهار ما جرت به المقادير، وهو العلم السابق المسمى بعلم التقدير، أو يرتبط بالحكمة والتدبير وإظهار العدل والفضل في ابتلاء العباد وتكليفهم، واختبارهم في الاختيار والتيسير لما خلقوا له هو علم الإحاطة والتدبير .

ولذلك إذا ذكرت معاني الخلق والقدرة والإنشاء وباقي معاني الربوبية اقترن اسمه العليم باسمه القدير في أغلب المواضع، ومن أمثلة ذلك ما ورد في الواضع التالية:

١. قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ البقرة:٢٩. حيث ذكر في بداية الآية الخلق وختمها بالعلم الذي تضمنه اسمه العليم للدلالة على ربوبيته لخلقه.

٢. قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ النحل:٧٠. فذكر صفة الخلق والعلم والقدرة في اسمه القدير، للدلالة على توحيد الربوبية.

٣. قول الله تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ الروم:٥٤.

٤. قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾ فاطر:٤٤. حيث ذكر نفي العجز واقتران العلم

بالقدرة و كلها شواهد لتوحيد الربوبية.

٥. ومن أبرز الشواهد قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ١٢﴾ الطلاق:١٢.

٦. وقوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٠١﴾ الأنعام:١٠١.

٧. وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ٨٥ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ٨٦﴾ الحجر:٨٥/٨٦.

٨. وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ٧٠﴾ النحل:٧٠ .

٩. وروي أن أبي بن خلف مشى بعظم بال قد أرم إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد، أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعد ما أرم؟ ثم فته بيده، ثم نفخه في الريح نحو رسول الله ﷺ فقال: (نعم أنا أقول ذلك، يبعثه الله وإياك بعد ما تكونان هكذا، ثم يدخلك النار) [(١)].

وأنزل الله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ٧٨ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ٧٩ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ

---

(١) تفسير الطبري ٢٣/٣٠، وانظر صحيح السيرة النبوية للألباني ص٢٠٠ نشر المكتبة الإسلامية عمان.

ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ ﴾ يس: ٨١/٧٧ .

١٠. وقوله تعالى: ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ الشورى: ٤٩/ ٥٠.

وكذلك إذا ذكرت معاني الحكمة والعبودية والمصلحة، وأمور التشريع والعدل والحكم وانتفاء الظلم، وشواهد توحيد العبودية اقترن اسمه العليم باسمه الحكيم في أغلب المواضع، ومن أمثلة ذلك ما ورد في الواضع التالية:

١. قول الله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ ﴾ البقرة: ٣١/ ٣٢. فلما ذكر ابتلاء الملائكة بمقتضي حكمته اقترن العلم بالحكمة دون القدرة.

٢. قوله تعالى: ﴿ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ ﴾ النساء: ١١. فلما ذكر فرائض العبودية قرن العلم بالحكمة.

٣. ومثله قوله تعالى في أحكام التوبة: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾ النساء: ١٧.

٤. قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾ الإنسان: ٣٠. فلما ذكر اختيار العبد في اتباع السبيل المؤدي إلى الله عز وجل وهو سبيل العبودية قرن العلم بالحكمة.

٥. ومثله قوله تعالى في الإرادة الشرعية والهداية الدينية: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ النساء: ٢٦.

٦. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾﴾ النساء: ١١١. لما ذكر كسب العباد ذكر علم الإحاطة وقرنه بالحكمة.

٧. ومثله قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾﴾ النساء: ١٧٠.

٨. قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ التوبة: ٦٠.

٩. قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾﴾ الزخرف: ٨٤. أي المعبود بحق في السماء والأرض، يعبده أهل السماء والأرض، فهو عليم محيط بهم وبعبادتهم ويجازيهم عليها

بحكمه ومقتضى حكمته.

١٠. قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ ﴾ الفتح: ٤ .

ومن أجمل ما ذكره ابن القيم في بيان العلاقة بين قدرة الله وحكمته وأثرها في بريته ما ورد في قوله: (والله سبحانه قد علم قبل أن يُوجد عبادَه أحوالهم وما هم عاملون، وما هم إليه صائرون، ثم أخرجهم إلى هذه الدار ليظهر معلومة الذي علمه فيهم كما علمه، وابتلاهم من الأمر والنهي والخير والشر بما أظهر معلومه، فاستحقوا المدح والذم، والثواب والعقاب بما قام بهم من الأفعال والصفات المطابقة للعلم السابق. ولم يكونوا يستحقون ذلك وهي في علمه قبل أن يعملوها، فأرسل رسله، وأنزل كتبه، وشرع شرائعه، إعذارا إليهم، وإقامة للحجة عليهم، لئلا يقولوا: كيف تعاقبنا على علمك فينا؟ وهذا لا يدخل تحت كسبنا وقدرتنا؟ فلما ظهر علمه فيهم بأفعالهم، حصل العقاب على معلومه الذي أظهره الابتلاء والاختبار، وكما ابتلاهم بأمره ونهيه، ابتلاهم بما زين لهم من الدنيا، وبما ركب فيهم من الشهوات، فذلك ابتلاه بشرعه وأمره، وهذا ابتلاء بقضائه وقدره) [(١)].

---

(١) شفاء العليل لابن القيم ص٣٥.

المطلب التاسع

كتابة المقادير في اللوح المحفوظ والمرتبة الثانية من مراتب القدر

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فقد تحدثنا في المطلب السابق عن علم التقدير، وأنه أحد مراتب علم الله، وأن العلم هو المرتبة الأولى من مراتب القدر، وأن الإيمان بالقدر هو الركن السادس من أركان الإيمان، ثم تناولنا المقصود بمراتب القضاء والقدر؟ وبينا الأدلة النقلية على أن علم التقدير من مراتب القدر، وأنه من علم الغيب الذي ليس لغير الله ﷻ فيه نصيب.

كما تناولنا العلم الإلهي وتعلقاته بأنواع معلوماته ووجود مخلوقاته، وتفصيل الأدلة عليه، وأن الله ﷻ عالم بما كان، وما هو كائن، وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، وبينا أن العلم وصف ذاتي لله ﷻ لا يتغير بخلاف معلومات الله فإنها تتغير، ثم تحدثنا عن ارتباط العلم في القرآن بالقدرة والتقدير وتوحيد الربوبية، أو بالحكمة والتدبير وتوحيد العبودية.

وفي هذا المطلب بإذن الله نتحدث عن المرتبة الثانية من مراتب القدر، وهي كتابة المقادير في اللوح المحفوظ.

• الإيمان بكتابة المقادير من أركان الإيمان بالقضاء والقدر.

علمنا أن المقصود بمراتب القدر المراحل التي يمر بها المخلوق من كونه معلومة قدرت في علم الله ﷻ إلى أن يصبح واقعا مخلوقا مشهودا، وهى عندهم أربع مراتب تشمل كل صغيرة وكبيرة في الوجود، وقد ضربنا لمراتب القدر مثلا بقياس الأولى أن أي مشروع من المشروعات العملاقة، لا بد أن يبدأ لدى الإنسان بخطة دراسية يتم فيها ترتيب الأفكار وتصور المعلومات في الأذهان، فلا بد أن تكون المعلومات مدروسة بدقة وإتقان، تقدر فيها الحسابات والإمكانيات.

ثم بعد ذلك تكتب هذه المعلومات وتخطط في بضع ورقات، وتوضع لها مختلف الرسومات والمجسمات، التي يمكن التخاطب من خلالها مع مختلف الجهات، ثم يتوقف الأمر بعد ذلك على المشيئة إن توفرت لديه الإمكانيات، ثم يبدأ في التنفيذ والإنشاء والتصنيع إلى أن ينتهي المشرع وفق ما قدر له من حسابات.

هذه مراحل تصنيع الأشياء على وجه الكمال في أفعال الإنسان بحكم العقل والبديهيات، فلا بد لصناعة الشيء وتكوينه من العلم والكتابة والمشيئة، ومباشرة التصنيع والفعل، فالله سبحانه وله المثل الأعلى منفرد بمراتب القضاء والقدر، وهى في القرآن والسنة كما ذكرنا المراحل التي يمر بها المخلوق من كونه معلومة مقدرة في علم الله ﷻ إلى أن يصبح واقعا مخلوقا مشهودا، وهى عندهم أربع مراتب تشمل كل صغيرة وكبيرة في الوجود، وقد تحدثنا عن علم الله السابق، أو علم التقدير وحساب المقادير، أو تقدير كل شيء قبل تصنيعه وتكوينه،

وتنظيم أمور الخلق قبل إيجاده وإمداده.

أما المرتبة الثانية من مراتب القدر فهي المرتبة المتعلقة باللوح المحفوظ، مرتبة كتابة المعلومات وتدوينها بالقلم في كلمات، فكل مخلوق مهما عظم شأنه، أو دق حجمه، كتب الله عز وجل ما يخصه في اللوح المحفوظ، كتب تفصيل خلقه وإيجاده، وما يلزم لنشأته وإعداده وإمداده، وجميع ما يرتبط بتكوينه وترتيب حياته، وهذه عقيدة أهل السنة والجماعة، كما قال الإمام الطحاوي رحمه الله: (ونؤمن باللوح والقلم، وبجميع ما فيه قد رقم)[1].

• الأدلة من القرآن على كتابة المقادير في اللوح المحفوظ.

١- قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾ يس:١٢. فجمع بين الكتابين، الكتاب السابق لأعمالهم قبل وجودهم، والكتاب المقارن لأعمالهم، كتاب فيه علم التقدير، وكتاب فيه علم الإحاطة، فأخبر أنه يحييهم بعد ما أماتهم للبعث، ويجازيهم بأعمالهم، ونبه بكتابته لها في اللوح المحفوظ، وهو أم الكتاب، وهو الذكر الذي كتب فيه كل شيء، يتضمن كتابة أعمال العباد قبل أن يعملوها، والإحصاء في الكتاب يتضمن علمه بها، وحفظها لها، والإحاطة بعددها، وإثباتها فيه[2].

٢- قوله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى

(١) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص٢٩٢.
(٢) شفاء العليل لابن القيم ص٤٠ بتصرف.

﴿ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٥١﴾ التوبة:٥١. يعني إلا ما قضى الله لنا، وقدر علينا من شدة أو رخاء في اللوح المحفوظ من خير، أو شر، أو خوف، أو رجاء، أو شدة، أو رخاء. فإذا علم الإنسان أن الذي وقع إنما وقع بالمقدر في علم والمكتوب في لوحه، وأنه لا يقع شيء خلاف معلوم الله ومقدوره زالت عنه خطرات النفس باليقين، وهانت عليه المصائب في كل حين، فأقدم على الشرع وقلبه راسخ رسوخ الجبال[1].

٣- قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ۝٣٨﴾ الأنعام:٣٨. وقد اختلف في الكتاب ههنا هل هو القرآن أو اللوح المحفوظ؟ على قولين: فقالت طائفة: المراد به القرآن، وهذا من العام المراد به الخاص، أي ما فرطنا فيه من شيء يحتاجون إلى ذكره وبيانه، كقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ۝٨٩﴾ النحل:٨٩. ويجوز أن يكون من العام المراد به عمومه، والمراد إن كل شيء ذكر في الكتاب مجملا ومفصلا، والمراد بالكتاب في الآية اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه كل شيء، وهذا إحدى الروايتين عن ابن عباس رضي الله عنه وكان هذا القول أظهر في الآية والسياق يدل عليه، فإنه قال: "إلا أمم أمثالكم". وهذا يتضمن أنها أمم أمثالنا في الخلق والرزق والأكل والتقدير الأول، وأنها لم تخلق سدى، بل هي معبدة مذللة، قد قدر خلقها وأجلها

---

(١) انظر تفسير السمرقندي ٦٤/٢ بتصرف، نشر دار الفكر بيروت، وانظر تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري ٤٨٢/٣ بتصرف، نشر دار الكتب العلمية بيروت.

ورزقها، وما تصير إليه، ثم ذكر عاقبتها ومصيرها بعد فنائها، ثم قال: "إلى ربهم يحشرون"، فذكر مبدأها ونهايتها، وأدخل بين هاتين الحالتين قوله: "ما فرطنا في الكتاب من شيء". أي كلها قد كتبت وقدرت وأحصيت قبل أن توجد فلا يناسب هذا ذكر كتاب الأمر والنهي، وإنما يناسب ذكر الكتاب الأول (١).

٤- قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾ الإسراء:٥٨. بيَّن أنَّ كل قرية مع أهلها فلا بدَّ وأن يرجع حالها إلى أحد أمرين: إمَّا الإهلاك، وإمَّا التَّعذيب. أما الصالحة فبالموت، وأما الطالحة فبالعذاب. وقيل: المعنى وإن من قريةٍ من قرى الكفَّار فلا بدَّ وأن يكون عاقبتها إمَّا بالاستئصال بالكليَّة وهو الهلاك، أو بعذاب شديدٍ من قتل كبرائهم وتسليط المسلمين عليهم بالسَّبي واغتنام الأموال وأخذ الجزية، كَانَ ذلك فِي الكِتَابِ مَسْطُوراً، أي في اللوح المحفوظ في سابق القضاء مكتوباً أسطارا، كتاب كتبه الله عَزَّ وَجَلَّ وقضاء أبرمه، لا بد من وقوعه. فليبادر المكذبون بالإنابة إلى الله وتصديق رسله، قبل أن تتم عليهم كلمة العذاب ويحق عليهم القول (٢).

---

(١) شفاء العليل لابن القيم ص٤٠ : ص٤١ بتصرف.

(٢) تفسير السعدي ٤٦١/١ بتصرف نشر مؤسسة الرسالة، وتفسير اللباب في علوم الكتاب لابن عادل الدمشقي ٣١٧/١٢ بتصرف، نشر دار الكتب العلمية بيروت، وانظر تفسير ابن كثير ٤٨/٣، وتفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ٥١/٦ بتصرف، نشر دار الكتب العلمية بيروت.

٥- وقول الله سبحانه: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾ الزخرف:١/٤. والكتاب المبين هو اللوح المحفوظ، وأم الكتاب أصل الكتاب، وأم كل شيء أصله، والقرآن كتبه الله ﷻ في اللوح المحفوظ قبل خلق السماوات والأرض، كما قال تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ۝٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ۝٢٢﴾ البروج:٢١/٢٢. وأجمع الصحابة والتابعون وجميع أهل السنة والحديث، أن كل كائن إلى يوم القيامة فهو مكتوب في أم الكتاب، وقد دل القرآن على أن الرب تعالى كتب في أم الكتاب ما يفعله وما يقوله، فكتب في اللوح أفعاله وكلامه، فتبت يدا أبي لهب في اللوح المحفوظ قبل وجود أبي لهب. وقوله: "لدينا" يجوز فيه أن تكون من صلة أم الكتاب، أي أنه في الكتاب الذي عندنا، وهذا اختيار ابن عباس رضي الله عنه. ويجوز أن يكون من صلة الخبر أنه علي حكيم عندنا، ليس هو كما عند المكذبين به، أي وإن كذبتم به وكفرتم، فهو عندنا في غاية الارتفاع والشرف والأحكام[(١)].

٦- قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ﴾ التوبة:٣٦. ومعنى في كتاب الله أي في اللوح المحفوظ، في الإمام الذي عند الله ﷻ، اثنا عشر شهرا مكتوبا في كتاب الله الذي كتبه يوم خلق السموات والأرض، ومنها أربعة حرم وهي الأشهر المعروفة، ذو القعدة للقعود عن القتال، وذو الحجة للحج، والمحرم لتحريم القتال فيه، وشهر رجب،

(١) شفاء العليل لابن القيم ص٤١ بتصرف.

هكذا كانت في اللوح المحفوظ يوم خلق السموات والأرض(١).

٧- وقال تعالى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ۖ ﴾ الأعراف:٣٧. قال سعيد بن جبير ومجاهد وعطية أي ما سبق لهم في الكتاب من الشقاوة والسعادة، ثم قرأ عطية: ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ ۗ ﴾ الأعراف:٣٠. والمعنى أن هؤلاء أدركهم ما كتب لهم من الشقاوة، وهذا قول عبد الله بن عباس رضي الله عنه في رواية عطاء، قال: يريد ما سبق عليهم في علمي في اللوح المحفوظ، فالكتاب على هذا القول الكتاب الأول، ونصيبهم ما كتب لهم من الشقاوة وأسبابها. وقال ابن زيد والقرطبي والربيع بن أنس: ينالهم ما كتب لهم من الأرزاق والأعمال، فإذا فني نصيبهم واستكملوه جاءتهم رسلنا يتوفونهم.

والصحيح أن نصيبهم من الكتاب يتناول الأمرين، فهو نصيبهم من الشقاوة ونصيبهم من الأعمال التي هي أسبابها، ونصيبهم من الأعمار التي هي مدة اكتسابها، ونصيبهم من الأرزاق التي استعانوا بها على ذلك، فعمت الآية هذا النصيب كله(٢).

٨- قول الله تعالى: ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَـٰبٌ حَفِيظٌۢ

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل لمحمد بن أحمد بن محمد الغرناطي الكلبي ٧٥/٢ بتصرف نشر دار الكتاب العربي لبنان، والتفسير الكبير للفخر الرازي ٤١/١٦ بتصرف، وتفسير النسفي ٨٨/٢ بتصرف، وزاد المسير لابن الجوزي ٤٣٢/٣ بتصرف.

(٢) شفاء العليل لابن القيم ص٤١ : ٤٢ بتصرف.

﴿٤﴾ ق:٤. والمعنى عندنا في اللوحُ المحفوظ الحافظ لعددهم وأسمائهم ولما تنقص الأرض منهم، قد أثبت فيه ما يكون من تفصيل أحوال الخَلقِ من غير نسيان، وألا يُدْرَس أو يتغير فيه جميع الأشياء المقدرة، فهو كتابَ للعلم التفصيلي لسائر الأشياء، وذلك لأن العلم نوعان: نوع إجمالي، وآخر تفصيلي، فالإجمالي كما يكون عند الإنسان الذي يحفظ كتاباً ويفهمه، ويعلم أنه إذا سئل عن أية مسألة تكون في الكتاب يحضر عنده الجواب، ولكن ذلك لا يكون نصب عينيه حرفا بحرف، ولا يخطر بباله في حالة بابا بابا، أو فصلا فصلا، ولكن عند العرض على الذهن لا يحتاج إلى تجديد فكر وتحديد نظر.

وأما التفصيلي فمثل الذي يعبر عن الأشياء ويشرح الكتاب الذي كتبت فيه تلك المسائل، مسألة مسألة، هذا شأن المخلوق في علمه وكتابه. أما بالنسبة إلى علم الله ﷻ وكتابه الحفيظ، فيعني أن العلم عند الله ﷻ كما يكون في الكتاب يعلم جزءا جزءاً وشيئا شيئاً، والحفيظ يحتمل أن يكون بمعنى المحفوظ، أي محفوظ من التغيير والتبديل، ويحتمل أن يكون بمعنى الحافظ، أي حافظ أجزاءهم وأعمالهم بحيث لا ينسى شيئاً منها [1].

٩- قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ الأنعام:٥٩.

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ١٣١/٢٨ بتصرف.

بعد أن ذكر انفراده بعلم مفاتيح الغيب وعلم التقدير، وهو المرتبة الأولى من مراتب القدر كما سبق ذكر الكتابة في اللوح المبين، فلا تسقط ورقة في الصحاري والبراري، ولا في الأمصار والقرى إلا الله ﷻ يعلمها، ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين، ولا شيء أيضا مما هو موجود، أو مما سيوجد ولم يوجد بعد إلا وهو مثبت في اللوح المحفوظ، مكتوب ذلك فيه، ومرسوم عدده، ومبلغه، والوقت الذي يوجد فيه، والحال التي يفني فيها، ويعني بقوله: "مبين"، أنه يبين عن صحة ما هو فيه بوجود ما رسم فيه على ما رسم، فإن قال قائل: وما وجه إثباته في اللوح المحفوظ والكتاب المبين، وهو ما لا يخفى عليه، وهو بجميع ما فيه عالم، لا يخاف نسيانه؟ قيل له: لله تعالى فعل ما شاء، وجائز أن يكون ذلك منه امتحانا لحفظته، واختبارا للمتوكلين بكتابة أعمالهم، فإنهم فيما ذكر مأمورون بكتابة أعمال العباد، ثم بعرضها على ما أثبته الله ﷻ من ذلك في اللوح المحفوظ، حتى أثبت فيه ما أثبت كل يوم، وقيل: إن ذلك معنى قوله: إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون، وجائز أن يكون ذلك لغير ذلك مما هو أعلم به، إما بحجة يحتج بها على بعض ملائكته، وإما على بني آدم وغير ذلك (١).

١٠- وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ۝٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ ۝٥٣﴾ القمر:٥٢/٥٣. قال عطاء ومقاتل: كل شيء فعلوه مكتوب عليهم في اللوح المحفوظ. وروى حماد بن زيد عن داود بن أبي هند عن الشعبي: وكل شيء فعلوه في الزبر قال: كُتب عليهم قبل أن

---

(١) تفسير الطبري ٢١٣/٧ بتصرف.

يعملوه. وقالت طائفة: المعنى أنه يحصى عليهم في كتب أعمالهم. وجمع أبو إسحاق بين القولين فقال: مكتوب عليهم قبل أن يفعلوه، ومكتوب عليهم إذا فعلوه للجزاء، وهذا أصح [1].

وودت في القرآن نصوص أخرى كثيرة تدل على كتابة المقادير في اللوح كقوله تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦﴾ هود:٦.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗاۗ وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَاۚ وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٥﴾ آل عمران:١٤٥.

وقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ ٣٨ يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ٣٩﴾ الرعد:٣٨/٣٩.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧٠﴾ الحج:٧٠.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٣﴾ سبأ:٣.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ١١﴾ فاطر:١١.

---

(١) شفاء العليل لابن القيم ص٤٢ بتصرف.

• الأدلة من السنة على كتابة المقادير في اللوح المحفوظ.

١- روى البخاري من حديث عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ ﵁ قَال رسول الله ﷺ: (كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلى المَاءِ، ثُمَّ خَلقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ، وَكَتَبَ فِي الذكْرِ كُل شَيْءٍ) [(١)].

٢- روى أبو داود وصححه الشيخ الألباني من حديث عبادة بن ﵁ أنه قال لولده: (يَا بُنَيَّ إِنَّك لنْ تَجِدَ طَعْمَ حَقِيقَةِ الإِيْمَانِ حَتَّى تَعْلمَ أَنَّ مَا أصَابَكَ لمْ يَكُنْ ليُخْطِئَك، وَما أخْطَأَك لمْ يَكُنْ ليُصِيبَك، سَمِعْتُ رَسُول الله ﷺ يَقُول: إنَّ أَوَّل مَا خَلقَ الله تَعَالى القَلمَ فقال له: اُكْتُبْ، فقَال: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُب؟ قال: اُكْتُبْ مَقَادِيرَ كُل شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ، يَا بُنَيَّ إنِّي سَمِعْتُ رَسُول الله ﷺ يَقُول: مَنْ مَاتَ عَلى غَيْرِ هذَا فَليْسَ مِنِّي) [(٢)].

٣- وروى الترمذي من حديث ابن عباس ﵁ أنه قال: (كُنْتُ خَلفَ رَسُول الله ﷺ يَوْمًا. فَقَال: يَا غُلامُ، إِنِّي أُعَلمُك كَلمَاتٍ: احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْك، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَك، إذا سَأَلتَ، فَاسْأَل اللهَ، وإذا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِالله، وَاعْلمْ أَنَّ الأمة لو اجْتَمَعَتْ عَلى أَنْ يَنْفَعُوك بشَيء، لمْ يَنْفَعُوكَ إلا بِشيء قد كَتَبَهُ اللهُ لك، وَلو اجْتَمَعُوا عَلى أَنْ يَضرُّوكَ بِشيء، لمْ يَضرُّوكَ إلا بِشيء قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَليْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلامُ،

---

(١) البخاري في التوحيد، باب وكان عرشه على الماء ٦/٢٦٩٩ (٦٩٨٢).

(٢) رواه أبو داود في كتاب السنة، باب في القدر ٤/٢٢٥ (٤٧٠٠)، وصححه الألباني، انظر صحيح الجامع (٢٠١٨)، وظلال الجنة (١٠٢).

وَجَفَّتِ الصُّحُفُ)[1].

وفي رواية قال ابن عباس ﷺ: (كنت رديف رسول الله ﷺ. فقال: يا غلام، أو يا غليم، ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن ؟ فقلت: بلى. فقال: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرف إليه في الرخاء، يعرفك في الشدة، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، فقد جف القلم بما هو كائن، فلو أن الخلق كلهم جميعا أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله عليك، لم يقدروا عليه، وإن أرادوا أن يضروك بشيء لم يكتبه الله تبارك وتعالى عليك، لم يقدروا عليه، واعلم أن في الصبر على ما تكره خيرا كثيرا، وان النصر مع الصبر، وان الفرج مع الكرب، وإن مع العسر يسرا)[2].

والمراد أن ما يصيب العبد في دنياه مما يضره أو ينفعه فكله مقدر عليه، ولا يصيب العبد إلا ما كتب له من مقادير ذلك في الكتاب السابق، ولو اجتهد على ذلك الخلق كلهم جميعا. وقوله ﷺ: "رفعت الأقلام وجفت الصحف". للدلالة على تقدم كتابة المقادير كلها، والفراغ منها من أمد بعيد، فإن الكتاب إذا فرغ من كتابه ورفعت الأقلام عنه وطال عهده فقد رفعت عنه الأقلام، وجفت الأقلام التي

(١) رواه الترمذي في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع ٤/٦٦٧ (٢٥١٦)، وأحمد في المسند ١/٢٩٣ (٢٦٦٩)، والحاكم في المستدرك ٣/٦٢٣ (٦٣٠٣)، وصححه الألباني الشيخ، انظر مشكاة المصابيح (٥٣٠٢)، وظلال الجنة (٣١٥)، وصحيح الجامع (٧٩٥٧).

(٢) رواه أحمد في المسند ١/٣٠٧ (٢٨٠٤)، وقال شعيب الأرنئوط: صحيح.

كتب بها من مدادها، وجفت الصحف التي كتب فيها بالمداد المكتوب به فيها، وهذا من أحسن الدلالات وأبلغها [(١)].

٤- وعند أحمد وصححه الشيخ شعيب من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (إِنَّ اللهَ خَلَقَ خَلقَهُ، ثم جَعَلَهُمْ فِي ظُلمَةٍ، ثمَّ أَخذَ مِنْ نُورهِ مَا شَاءَ فَأَلقَاهُ عَليْهِمْ، فَأَصَابَ النُّورُ مَنْ شَاءَ أَنْ يُصِيبَهُ، وأَخْطَأَ مَنْ شَاءَ، فَمَنْ أَصَابَهُ النُّورُ يوْمَئِذٍ فقَدْ اهْتَدَى، وَمَنْ أَخْطَأَ يوْمَئِذٍ ضَل، فَلذَلك قُلتُ: جَفَّ القَلمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ) [(٢)].

وفي بعض طرقه: (إِنَّ اللهَ ﷻ خَلَقَ خَلقَهُ فِي ظُلمَةٍ، ثمَّ أَلقَى عَليْهِمْ مِنْ نُورهِ يَوْمَئِذٍ، فَمَنْ أَصَابَهُ مِنْ نُورهِ يَوْمَئِذٍ اهْتَدَى، وَمَنْ أَخْطَأَهُ ضَل، فَلذَلك أَقُول: جَفَّ القَلمُ عَلى عِلمِ اللهِ ﷻ) [(٣)].

٥- وروى الترمذي من حديث عبد الوَاحِدِ بن سُليمٍ ﷺ، أنه قال: (قَدِمْتُ مَكَّةَ فَلقِيتُ عَطَاءَ بنَ أبي رَبَاحٍ فَقُلتُ لهُ: يَا أَبَا محمدٍ، إِنَّ أَهْلَ البَصْرَةِ يَقُولونَ فِي القَدَرِ، قال: يَا بُنَيَّ، أَتَقرَأُ القُرْآنَ؟ قُلتُ: نَعَمْ، قال: فَاقرَأْ الزُّخْرُفَ قال فقرَأْتُ: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَـٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾ الزخرف:١/٤. قال: أَتَدْرِي مَا أُمُّ الكِتَابِ؟ قُلتُ: اللهُ وَرَسُولهُ أَعْلمُ، قال:

---

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي ص١٩٣ نشر مؤسسة الرسالة.

(٢) رواه أحمد في المسند ١٩٧/٢ (٦٨٥٤)، وقال شعيب الأرنئوط: صحيح.

(٣) رواه الترمذي في كتاب الإيمان، باب ما جاء في افتراق الأمة ٢٦/٥ (٢٦٤٢)، وأحمد في المسند ١٧٦/٢ (٦٦٤٤)، وصححه الألباني، انظر السلسلة الصحيحة (١٠٧٦)، ومشكاة المصابيح (١٠١)، وصحيح الجامع (١٧٦٤).

فَإِنَّهُ كِتَابٌ كَتَبَهُ اللهُ قَبْل أَنْ يَخلقَ السَّماءَ، وقَبْل أَنْ يَخلقَ الأَرْضَ، فِيهِ أَنَّ فِرْعَوْنَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَفِيهِ ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ﴾ المسد:١[1].

قال عَطَاءٌ: فَلقِيتُ الوَلِيدَ بنَ عُبَادَةَ بن الصَّامِتِ ﷺ صَاحِبَ رسول الله ﷺ، فَسَأَلْتُهُ: مَا كَانَتْ وَصِيَّةُ أَبِيك عِنْدَ المَوْتِ؟ قال: دَعَانِي فقَال: يَا بُنَيَّ اتَّقِ اللهَ، واعلَمْ أَنَّك لنْ تَتَّقِيَ اللهَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَتُؤْمِنَ بِالقَدَرِ كُلِهِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، فَإِنْ مُتَّ على غَيْرِ هَذَا دَخَلتَ النَّارَ، إِنِّي سَمِعْتُ رسول الله يقول: (إِنَّ أَوَّل مَا خَلقَ اللهُ القَلمَ. فقال: اكْتُبْ، قال: مَا أَكْتُبُ؟ قال: اكْتُبْ القَدَرَ مَا كَانَ، وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلى الأَبَدِ)[2].

ولفظة: "كتب ما كان" فيها إشكال ولعله وهم من الراوي الضعيف عبد الواحد بن سليم، لأن ما كان قبل القلم هو العرش والماء والعماء، وجميع الروايات تذكر أن القلم كتب ما سيكون إلى قيام الساعة، وليس ما كان قبل القلم.

وهناك تخريج محتمل ذكره بعض الشراح على اعتبار أن قوله: اكتب القدر، أي المقدر المقضي، فكتب ما كان، والمضي في قوله: "ما كان" بالنسبة إلى رسول الله ﷺ. قال الطيبي: ليس حكاية عما أمر به القلم، وإلا لقيل: فكتب ما يكون، وإنما هو أخبار باعتبار حالة النبي

---

(١) رواه الترمذي في كتاب القدر ٤/٤٥٧ (٢١٥٥)، وقال الألباني: صحيح.

(٢) رواه الترمذي في كتاب القدر ٤/٤٥٧ (٢١٥٥)، وأبو داود الطيالسي في مسنده ١/٧٩ (٥٧٧)، وقال الشيخ الألباني: حديث صحيح رجاله ثقات غير عبد الواحد بن سليم فهو ضعيف كما في التقريب، انظر ظلال الجنة ١/٤٢ (١٠٥)، وقد ضعفه الألباني في مشكاة المصابيح ١/٢١ (٩٤).

ﷺ، أي قبل تكلم النبي ﷺ بذلك، لا قبل القلم، لأن الغرض أنه أوّل مخلوق، نعم إذا كانت الأوّلية نسبية صح أن يراد ما كان قبل القلم، قال الأبهري: ما كان يعني العرش والماء والريح وذات الله وصفاته. ويمكن أن يحمل ما كان على القضاء وما هو كائن على القدر والله أعلم [(١)].

٦- وعند أحمد في المسند أن الوليد بن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: (أَوْصَانِي أَبِي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالى فَقَال: يَا بُنَيَّ أُوصِيك أَنْ تُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، فَإِنَّك إِنْ لَمْ تُؤْمِنْ أَدْخَلك اللهُ تَبارَكَ وَتَعالى النَّارَ، قَال: وَسَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُول: (أَوَّل مَا خَلقَ اللهُ تَبارَكَ وَتَعالى القَلمُ، ثمَّ قَال لهُ: اكْتُبْ. قَال: وَمَا أَكْتُبُ؟ قَال: فَاكْتُبْ مَا يَكُونُ، وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ) [(٢)].

• هل القلم أول المخلوقات أم العرش؟

أخبرنا الله ﷻ أنه قبل وجود السماوات والأرض كان العرش والماء، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ هود:٧.

ثم خلق الله ﷻ بعد العرش والماء القلم واللوح، وقد اختلف العلماء هل القلم أول المخلوقات أو العرش؟ والصحيح أن العرش قبل القلم، لما

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح لعلي بن محمد القاري ١/٢٦٩ بتصرف، نشر دار الكتب العلمية بيروت، وتحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي للمباركفوري ٦/٣٠٨ بتصرف، نشر دار الكتب العلمية بيروت.

(٢) رواه أحمد في المسند ٥/٣١٧ (٢٢٧٥٩).

ثبت في صحيح مسلم من حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاص ﷺ أنه سمع رَسُول اللهِ ﷺ يقُول: (كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الخَلَائِقِ، قَبْلَ أَنْ يَخْلقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلف سَنَةٍ، وَعَرْشُهُ عَلى المَاءِ) [١].

وفي رواية الترمذي: (قَدَّرَ اللهُ المَقَادِيرَ قَبْل أَنْ يَخْلقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلفَ سَنَةٍ) [٢]. فهذا الحديث صريح في أن التقدير وقع بعد خلق العرش، أما ما جاء في حديث عُبَادَةَ ﷺ: (إن أَوَّل مَا خَلقَ اللهُ تَعَالى القَلمَ، فقال له: اُكْتُبْ، فقَال: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قال: اُكْتُبْ مَقَادِيرَ كُل شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ) [٣]. فتوجيه الأولية المذكورة فيه على معنيين عند العلماء:

الأول: أنه عند أول ما خلق القلم قال له: اكتب. فقَال: رَبِّ وَمَاذا أَكْتُبُ؟ قال: اُكْتُبْ مَقَادِيرَ كُل شَيْءٍ.

والمعنى الثاني: أن القلم هو أول المخلوقات من هذا العالم بعد العرش والماء، إذ أن الحديث صريح في أن العرش سابق على التقدير، وأن التقدير مقارن لخلق القلم.

قال ابن القيم: (ولا يخلو قوله: إن أول ما خلق الله القلم.. إلى آخره، إما أن يكون جملة أو جملتين، فإن كل جملة، وهو الصحيح، كان معناه أنه عند أول خلقه قال له: أكتب كما في لفظ، أول ما

---

(١) رواه مسلم في القدر، باب حجاج آدم وموسى ٤/٢٠٤٤ (٢٦٥٣).

(٢) رواه الترمذي في القدر، باب في الرضا بالقضاء ٤/٤٥٨ (٢١٥٦)، وأحمد في المسند ٢/١٦٩ (٦٥٧٩) وصححه الألباني، انظر صحيح الجامع (٤٣٨٠).

(٣) انظر صحيح الجامع (٢٠١٨)، وظلال الجنة (١٠٢).

خلق الله القلم قال له: أكتب، بنصب أول والقلم، فإن كانا جملتين، وهو مروى برفع أول والقلم، فيتعين حمله على أنه أول المخلوقات من هذا العالم ليتفق الحديثان، إذ حديث عبد الله بن عمرو ﷺ صريح في أن العرش سابق على التقدير، والتقدير مقارن لخلق القلم، وفي اللفظ الآخر: لما خلق الله القلم قال له: اكتب، فهذا القلم أول الأقلام، وأفضلها وأجلها) (١).

• أنواع الأقلام التي وردت في الكتاب والسنة.

الأقلام التي وردت في كتاب الله ﷻ وفي سنة رسوله ﷺ أنواع متعددة ومرتبطة بتحقيق قدرة الله في خلقه وحكمته، وقد ورد عند مسلم من حديث جابر بن عبد الله ﷺ أن سُرَاقَة بْن مَالكٍ ﷺ قَال: (يَا رَسُول اللهِ ﷺ: بَيِّنْ لنَا دِينَنَا كَأَنَّا خُلقْنَا الآنَ؟ فِيمَا العَمَل اليَوْمَ؟ أَفِيمَا جَفّتْ بِهِ الأَقْلامُ وَجَرَتْ بِهِ المَقَادِيرُ؟ أَمْ فِيمَا نَسْتَقْبِل؟ قَال: لا، بَل فِيمَا جَفَّتْ بِهِ الأَقْلامُ، وَجَرَتْ بِهِ المَقَادِيرُ، قَال: فَفِيمَ العَمَل؟ قَال: اعْمَلوا فَكُل مُيَسَّرٌ لعَمَلهِ) (٢).

وروى البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس وأبي حَيَّةَ الأنصاري رضي الله عنهما أنهما كَانَا يَقُولان: (إن النَّبِي ﷺ قال ليلة المعراج: ثُمَّ عُرِجَ بِي حَتَّى ظَهَرْتُ لمُسْتَوًى أَسْمَعُ صَرِيفَ الأَقْلامِ، حيث فَرَضَ اللهُ عَلي نبيه خَمْسِينَ صَلاةً، ثم صارت خمْسا في

---

(١) التبيان في أقسام القرآن لابن القيم ص١٢٩ نشر دار الفكر.

(٢) رواه مسلم كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته ٤/٢٠٤٠(٢٦٤٨).

الفعل، وخَمْسين في الأجر) [١].

تعددت الأقلام وتنوعت الأحكام، وقد جاءت الأقلام في هذه الأحاديث وغيرها مجموعة، فدل ذلك على أن للمقادير أقلاما غير القلم الأول الذي تقدم ذكره مع اللوح المحفوظ. ومن أعلى أنواع الأقلام وأفضلها، القلم الأول الذي جف بما هو كائن إلى يوم القيامة.

قال ابن أبي العز الحنفي: (والذي دلت عليه السنة أن الأقلام أربعة: القلم الأول: العام الشامل لجميع المخلوقات، وهو الذي تقدم ذكره مع اللوح. والقلم الثاني: خبر خلق آدم وهو قلم عام أيضا، لكن لبني آدم، ورد في هذا آيات تدل على أن الله ﷻ قدر أعمال بني آدم وأرزاقهم وآجالهم وسعادتهم عقيب خلق أبيهم. والقلم الثالث: حين يرسل الملك إلى الجنين في بطن أمه، فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات، بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد كما ورد ذلك في الأحاديث الصحيحة. والقلم الرابع: الموضوع على العبد عند بلوغه الذي بأيدي الكرام الكاتبين، الذين يكتبون ما يفعله بنو آدم، كما ورد ذلك في الكتاب والسنة) [٢].

---

(١) رواه البخاري في كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلوات في الإسراء ١/١٣٥ (٣٤٢)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات وفرض الصلوات ١/١٤٨ (١٦٣).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص٢٩٧. وهو يشير بالقلم الثاني إلي التقدير الميثاقي الذي سنتحدث عنه بإذن الله، والقلم الرابع إشارة إلى قول نبينا المصطفي ﷺ: (رُفِعَ القَلَمُ عَنْ الغُلامِ حتى يَحْتَلِمَ). وهو حديث صحيح رواه الترمذي (١٤٢٣) وصححه الألباني.

- **أنواع الأقلام التي أقسم الله بها في سورة القلم.**

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله أن الله ﷻ أقسم بالقلم وما يسطرون، فقال: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ١﴾ القلم:١. وهو قسم بالكتاب وآلته، وهو القلم الذي هو إحدى آياته، وأول مخلوقاته الذي جرى به قدره، وشرعه، وكتب به الوحي، وقيد به الدين، وأثبتت به الشريعة، وحفظت به العلوم، وقامت به مصالح العباد في المعاش والمعاد، فوطدت به الممالك، وأمنت به السبل والمسالك، وأقام في الناس أبلغ خطيب وأفصحه ﷺ، وأنفعه لهم وأنصحه، وواعظا تشفى مواعظه القلوب من السقم، وطبيبا يبرئ بإذنه من أنواع الألم، وبالأقلام تدبر الأقاليم، وتساس الممالك، والعلم لسان الضمير يناجيه بما استتر عن الأسماع، فينسج حلل المعاني في الطرفين، فتعود أحسن من الوشي المرقوم، ويودعها حكمه، فتصير بوادر الفهوم[(١)].

ثم بين رحمه الله أن الأقلام نظام للأفهام، وكما أن اللسان بريد القلب، فالقلم بريد اللسان، ويولد الحروف المسموعة عن اللسان، كتولد الحروف المكتوبة عن القلم، والقلم بريد القلب، ورسوله، وترجمانه، ولسانه الصامت، ثم ذكر تفاوت الأقلام التي أقسم الله بها في الرتب، وقسمها على عموم أنواع الأقلام، سواء القلم الذي كتب الله به المقادير، أو الأقلام التي بأيدي الملائكة، أو الأقلام التي بأيدي البشر، وأبرز ما ذكر من أقلام ذلك على النحو التالي:

---

(١) التبيان في أقسام القرآن لابن القيم ص١٢٩ بتصرف.

القلم الأول: فأعلاها وأجلها قدرا، قلم القدر السابق الذي كتب الله ﷻ به مقادير الخلائق، وقد تقدم ذكره، وهو المرتبة الثانية من مراتب القضاء والقدر.

القلم الثاني: قلم الوحي، وهو الذي يُكتب به وحي الله إلى أنبيائه ورسله، وأصحاب هذا القلم هم الحكام على العالم، والعالم خدم لهم وإليهم الحل والعقد، والأقلام كلها خدم لأقلامهم، وقد رفع النبي ﷺ ليلة الإسراء إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام، فهذه الأقلام هي التي تكتب ما يوحيه الله تبارك وتعالى من الأمور التي يدبر بها أمر العالم العلوي والسفلي .

القلم الثالث: قلم التوقيع عن الله ورسوله، وهو قلم الفقهاء والمفتين، وهذا القلم أيضا حاكم غير محكوم عليه، فإليه التحاكم في الدماء والأموال والفروج والحقوق، وأصحابه مخبرون عن الله ﷻ بحكمه الذي حكم به بين عباده، وأصحابه حكام وملوك على أرباب الأقلام، وأقلام العالم خدم لهذا القلم. ويشير ابن القيم رحمه الله إلى أن الفقهاء لا بد لهم من الإفتاء عن دليل من الكتاب والسنة، لا عن هوى النفس والأخذ بالرأي والشبهة، لأنه يمسك بقلم الفتوى، وهي مسئولية قد تؤدي إلى فساد الأمة أو صلاحها.

القلم الرابع: قلم طب الأبدان التي تحفظ بها صحتها الموجودة، وترد إليها صحتها المفقودة، وتدفع به عنها آفاتها وعوارضها المضادة لصحتها، وهذا القلم أنفع الأقلام بعد قلم طب الأديان، وحاجة الناس إلى أهله تلتحق بالضرورة. وفيما ذكره ابن القيم إشارة إلى ما يكتبه

الأطباء بأقلامهم لصلاح المرضى، وأنهم مسئولون أمام الله ﷻ عما يكتبون، وهل باعث الكتابة متوقف على الإخلاص في السعي لمداواة المريض وعلاجه، أو لا يكتب إلا للتجارة في أمراضه وآلامه؟ فتلك مسئولية قد تؤدي إلى صحة الأمة أو مرضها.

القلم الخامس: التوقيع عن الملوك ونوابهم وسياس الملك، ولهذا كان أصحابه أعز أصحاب الأقلام، والمشاركون للملوك في تدبير الدول، فإن صلحت أقلامهم صلحت المملكة، وإن فسدت أقلامهم فسدت المملكة، وهم وسائط بين الملوك ورعاياهم. ويشير ابن القيم إلى أهمية الأقلام التي بأيدي البطانة الصالحة التي تدل الملوك على الخير وتحضهم عليه، أو تدلهم على الشر فتخدعهم وتزيف الحقائق لهم، وتستغل البلاد والعباد بسبب منزلتهم، وأقلام هذه طائفة هي السبب الرئيس في فساد البلاد وضعفها وتفككها، أو صلاحها وقوتها وتماسكها .

القلم السادس: قلم الحساب، وهو القلم الذي تضبط به الأموال في مصادرها، ومصاريفها، ومقاديرها، وهو قلم تقسيم الرواتب والأرزاق على مستحقيها، والذي تضبط به المقادير، وما بينها من التفاوت والتناسب لكل عامل، ومبناه على الصدق والعدل، فإذا كذب هذا القلم وظلم فسد أمر المملكة.

القلم السابع: قلم القضاء والحكم الذي تثبت به الحقوق، وتنفذ به القضايا، وتراق به الدماء، وتؤخذ به الأموال والحقوق من اليد العادية فترد إلى اليد المحقة، ويثبت به الإنسان فيسجن وتنقطع به الخصومات، وبين هذا القلم وقلم الفقهاء وإصدار الفتوى والتوقيع عن الله عموم

وخصوص، فقلم القضاء له النفوذ ولزوم الأحكام على مستحقيها، وقلم الفقهاء له العموم والشمول في بيان الأحكام لمبتغيها، وقلم القضاء قلم قائم بالصدق فيما يثبته، وبالعدل فيما يمضيه وينفذه .

القلم الثامن: قلم الشهادة، وهو القلم الذي تحفظ به الحقوق، وتصان عن الإضاعة، وتحول بين الفاجر وإنكاره، ويصدق به الصادق ويكذب به الكاذب، ويشهد للمحق بحقه، وعلى المبطل بباطله، ومتى خان هذا القلم فسد العالم أعظم فساد، ومبناه على العلم وعدم الكتمان، وقد حرم الله ورسوله ﷺ قول الزور وشهادة الزور، فقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾ الفرقان:٧٢. وروى البخاري من حديث أبي بكرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟ قُلْنَا: بَلى يَا رَسُول اللهِ. قَال: الإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الوَالدَيْنِ، وَكَانَ مُتَّكِئًا فَجَلسَ، فَقَال: أَلا وَقَوْل الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ، أَلا وَقَوْل الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ، فَمَا زَال يَقُولهَا حَتَّى قُلتُ: لا يَسْكُتُ) [(١)].

ثم ذكر ابن القيم أقلاما أخرى تدخل في عموم ما سبق ثم قال: (فهذه الأقلام التي فيها انتظام مصالح العالم، ويكفي في جلالة القلم أنه لم تكتب كتب الله إلا به، وأن الله سبحانه أقسم به في كتابه وتعرف إلى غيره بأن علم بالقلم، وإنما وصل إلينا ما بعث به نبينا ﷺ بواسطة القلم) [(٢)].

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأدب، باب عقوق الوالدين من الكبائر ٥/٢٢٢٩ (٥٦٣١)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها ١/٩١ (٨٧).

(٢) التبيان في أقسام القرآن لابن القيم ص١٢٨/ص١٣٢ بتصرف.

- **العلة في عدم المحو والتغيير لما دون في اللوح المحفوظ.**

ما دون في أم الكتاب لا يقبل المحو والتبديل، أو التعديل والتغيير، فكل ما كتب فيه واقع لا محالة، كما قال تعالى:

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ التوبة:٥١.

غير أن السؤال الذي يطرح نفسه هو تلمس الحكمة في كون ما دون في اللوح لا يقبل التغيير والتبديل؟ والجواب أن عملية إنشاء الخلائق وتكوينها، وتصنيع الأشياء وإيجادها قائمة على ما دون في اللوح من تقديرات، وما خط فيه من كلمات تبين الحال الذي ستكون عليه هيئات المخلوقات، وما تتطلبه تلك الكيفيات من إمدادات القدرة، فالمخلوقات وسائر المصنوعات إلى قيام الساعة قد أحكم الله غاياتها إحكاما تاما، وقضى في اللوح أسبابها ومعلولاتها قضاء مبرما، فلا تتغير معلومات بنيان الخلق الذي قدره الحق إلا بعد استكماله وإتمامه، ولا يتبدل سابق الحكم في سائر الملك إلا بقيامه على ما قدر بتمامه.

وتلك مشيئة الله في خلقه، وما قضاه وقدره في ملكه، فالله ﷻ على عرشه في السماء يفعل ما يشاء، وبيده أحكام التدبير والقضاء، حكم بعدله أن تقوم الخلق على حقيقة الابتلاء، ثم يتحول العالم إلى بعد ذلك إلى دار الجزاء، فالله ﷻ يخلق ما يشاء، ولكن حكمته سبقت فيما تم به القضاء، ولذلك ينبهنا الله ﷻ في كثير من المواطن إلى تلك الحقيقة، وأنه سبحانه وتعالى قادر على أن يفعل ما يشاء، لولا ما دون في أم الكتاب من أحكام القضاء، والدليل على ما تقدم:

١- قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ الأنفال:٦٧/٦٨. والمعنى المراد من الآية أنه لولا أن الله كتب في أُم الكتاب أنه سيُحِلُّ لكم الغنائم لمسَّكم فيما تعجَّلتم من المغانم والفداء يوم بدر قبل أن تؤمروا بذلك عذابٌ عظيم، ولولا كتاب من الله سبق أنَّه لا يعذِّب من أتى ذنباً على جهالةٍ لعوقبتم، ولولا ما كتبه الله في اللوح والمحفوظ لأهل بدر أن الله لا يعذِّبهم لعُذِّبتم (١).

٢- وقوله سبحانه: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾ الشورى:١٤. وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ يونس:١٩. والمعنى لَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ ربِّكَ بإمهال العاصين وعدم معاجلتهم بذنوبهم، لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بأن ننجي المؤمنين، ونهلك الكافرين المكذبين، وصار هذا فارقا بينهم فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، ولكنه أراد امتحانهم وابتلاء بعضهم ببعض ليتبين الصادق من الكاذب(٢).

٣- وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾﴾

---

(١) زاد المسير لابن الجوزي ٣/٣٨١ بتصرف.

(٢) تفسير السعدي ١/٣٦٠ بتصرف.

طه:١٢٩. يقول تعالى ذكره، ولولا كلمة سبقت من ربك يا محمد أن كل من قضى له أجلا فإنه لا يخترمه قبل بلوغه أجله، ووقت مسمى عند ربك سماه لهم في أم الكتاب وخطه فيه هم بالغوه ومستوفوه، للازمهم الهلاك عاجلا، فاصبر على ما يقولون [١].

٤- وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ هود:١١٨/١١٩. يخبر تعالى أنه لو شاء لجعل الناس كلهم أمة واحدة على الدين الإسلامي، فإن مشيئته غير قاصرة، ولا يمتنع عليه شيء، ولكنه اقتضت حكمته أن لا يزالوا مختلفين، أو مخالفين للصراط المستقيم، متبعين للسبل الموصلة إلى النار، كل يرى الحق، فيما قاله، والضلال في قول غيره، إلا مَنْ رَحِمَ رَبُّك فهداهم إلى العلم بالحق والعمل به والاتفاق عليه، فهؤلاء سبقت لهم سابقة السعادة، وتداركتهم الهداية الربانية والتوفيق الإلهي. وأما من عداهم فهم مخذولون موكولون إلى أنفسهم.

وهكذا اقتضت حكمته أنه خلقهم ليكون منهم السعداء والأشقياء، والمتفقون والمختلفون، والفريق الذين هدى الله، والفريق الذين حقت عليهم الضلالة، ليتبين للعبا عدله وحكمته، وليظهر ما كمن في الطباع البشرية من الخير والشر، وليقوم سوق الجهاد والعبادات التي لا تتم ولا تستقيم إلا بالامتحان والابتلاء. وهكذا تتم كلمة الله التي دونت في اللوح المحفوظ، فلا بد أن ييسر للنار أهلا

---

(١) تفسير الطبري ١٦/٢٣٢ بتصرف.

يعملون بأعمالها الموصلة إليها [1].

٥- وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ العنكبوت:٥٣. والمعنى المقصود أن العذاب لا يأتيكم بسؤالكم، ولا يُعجل باستعجالكم، لأنه قد أجله الله ﷻ لحكمة ورحمة، فلكونه حكيما لا يكون متغيرا منقلبا، ولكونه رحيما لا يكون غضوبا منزعجا، ولولا ذلك الأجل المسمى الذي اقتضته حكمته وارتضته رحمته لما كان له رحمة وحكمة فيكون غضوبا منقلبا فيتأثر باستعجالكم، ويتغير من سؤالكم فيعجل، وليس كذلك فلا يأتيكم بالعذاب وأنتم تسألونه، ولا يدفع عنكم العذاب حين تستعيذون به منه [2].

٦- وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾﴾ الحشر:٣. ولولا أن الله ﷻ قضى و كتب على هؤلاء اليهود من بني النضير في أم الكتاب الجلاء، وهو الانتقال من موضع إلى موضع، وبلدة إلى أخرى لعذبهم في الدنيا [3].

والعقلاء يعلمون أن العلماء الكبار والخبراء العظام لو اجتمعوا على وضع خطة محكمة لبناء مشروع عملاق، أو أي مشروع من المشروعات، وجسدوا له مجسما مصورا في ورقات ولوحات، بعد أن

---

(١) تفسير السعدي ٣٩٢/١ بتصرف.

(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي ٧٢/٢٥ بتصرف.

(٣) تفسير الطبري ٣١/٢٨ بتصرف نشر.

درسوا فيها جميع الجوانب بمختلف المقاييس والدراسات، وراعوا في خطتهم الحكمة الموازنة بين السلبيات والإيجابيات، ووضعوا تخطيطا محكما لا مجال فيه للإضافات، ثم انتهوا إلى تقرير شامل دونوه في كتاب كامل أو مجموعة من الملفات، ثم قدموا هذا المكتوب لإدراره التنفيذ والمشروعات.

هل يصح بعد ذلك لعامل جاهل ينقصه العلم والفهم أن يعترض على المكتوب، أو يغير أو يبدل في مثل هذا المشروع الضخم؟ هل يصح أن يعبث فيه حسب هواه، أو يغير في تخطيطه وفق ما يراه دون أن يراعي الحكمة العليا والعلة العظمى من تأسيسه وإنشائه؟ فالله ﷻ وله المثل الأعلى كتب مقادير كل شيء، ورفعت الأقلام وجفت الصحف حتى يتم الخلق على ما قضى به الحق.

وقد تقم فيما رواه الترمذي وصححه الشيخ الألباني من حديث ابْنِ عَبَّاس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لو اجْتَمَعَتْ عَلى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لكَ، وَلو اجْتَمَعُوا عَلى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَضُرُّوكَ إلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ) (١).

ومن ثم فإن المخلوقات ولله المثل الأعلى إن جاز التعبير كمشروع عملاق كامل، موضوع على تخطيط محكم شامل، لا يصح الاعتراض على القدر من قبل أحمق جاهل.

---

(١) انظر مشكاة المصابيح (٥٣٠٢)، وصحيح الجامع (٧٩٥٧).

- **بداية وقت الكتابة في اللوح المحفوظ والجمع بين النصوص.**

روى البخاري من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أن رَسُول اللهِ ﷺ قال: (التقَى آدَمُ وَمُوسَى، فَقَال مُوسَى لآدَمَ: آنْتَ الذِي أَشْقَيْتَ النَّاسَ وَأَخْرَجْتَهُمْ مِنَ الجَنَّةِ؟ قَال آدَمُ: أَنْتَ مُوسَى الذِي اصْطَفَاكَ اللهُ بِرِسَالتِهِ، وَاصْطَفَاكَ لنَفْسِهِ، وَأَنْزَل عَليْكَ التَّوْرَاةَ؟ قَال: نَعَمْ. قَال: أَتَلومُنِي عَلى أَمْرٍ قَدَّرَهُ اللهُ عَليَّ قَبْل أَنْ يَخْلقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةَ)[1].

لا تعارض بين ذكر الأربعين وبين ما ثبت في صحيح مسلم من حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ ﷺ أن رَسُول اللهِ ﷺ قَال: (كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الخَلائِقِ قَبْل أَنْ يَخْلقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلفَ سَنَةٍ، وَعَرْشُهُ عَلى المَاءِ)[2].

وذلك أن ابتداء وقت الكتابة في الألواح كان قبل أن يخلق الله ﷻ السماوات والأرض بخَمْسِينَ أَلفَ سَنَةٍ، وآخرها ابتداء خلق آدم، فمدة الكتابة خمسين ألف قبل بداية الخلق، واستمرت خلالها في أوقات متنوعة. قال ابن الجوزي: (المعلومات كلها قد أحاط بها علم الله القديم قبل وجود المخلوقات كلها، ولكن كتابتها وقعت في أوقات متفاوتة، وقد ثبت في الصحيح أن الله قدر المقادير قبل أن يخلق السماوات

---

(١) الحديث بهذا اللفظ مجموع من روايتين عند البخاري، الرواية الأولى في كتاب التوحيد، باب قوله: وكلم الله موسى تكليما ٦/٢٧٣٠ (٧٠٧٧)، والرواية الثانية في كتاب القدر، باب تحاج آدم وموسى عند الله ٦/٢٤٣٩ (٦٢٤٠)، والحديث أيضاً عند مسلم في كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى ٤/٢٠٤٢ (٢٦٥٢).

(٢) رواه مسلم في القدر، باب حجاج آدم وموسى ٤/٢٠٤٤ (٢٦٥٣).

والأرض بخمسين ألف سنة، فيجوز أن تكون قصة آدم بخصوصها كتبت قبل خلقه بأربعين سنة، ويجوز أن يكون ذلك القدر مدة لبثه طينا إلى أن نفخت فيه الروح، فقد ثبت في صحيح مسلم أن بين تصويره طينا ونفخ الروح فيه كان مدة أربعين سنة، ولا يخالف ذلك كتابة المقادير عموما قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة) [1].

وكذلك ما رواه الترمذي وصححه الشيخ الألباني من حديث النُّعْمَان بْنِ بَشِيرٍ ﷺ أن النَّبِي ﷺ قال: (إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ كِتَابًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِأَلْفَيْ عَامٍ، أَنْزَلَ مِنْهُ آيَتَيْنِ خَتَمَ بِهِمَا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، وَلا يُقْرَآنِ فِي دَارٍ ثَلاثَ لَيَالٍ فَيَقْرَبُهَا شَيْطَانٌ) [2].

ولا بد من مراعاة كون الزمان السابق المقدر بخمسين ألف سنة وكذلك الأيام السنة منذ بدء الخلق حتى الاستواء على العرش، ذلك الزمان يختلف في مقداره عن مقاييس الزمان الذي نعرفه بتعاقب الليل والنهار.

ولذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (فالذي جاء به القرآن والتوراة واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها مع أئمة أهل الكتاب، أن هذا العالم

---

(١) فتح الباري لابن حجر ١١/٥٠٨ نشر دار المعرفة بيروت، وعمدة القاري لبدر الدين العيني ٢٣/١٥٨ نشر دار إحياء التراث العربي بيروت.

(٢) رواه الترمذي في كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في آخر سورة البقرة ٥/١٥٩(٢٨٨٢)، والنسائي في كتاب عمل اليوم والليلة، ذكر ما يجير من الجن والشيطان ٦/٢٤٠ (١٠٨٠٣)، وصححه الألباني، انظر صحيح الترغيب والترهيب (١٤٦٧)، وصحيح الجامع (١٧٩٩).

خلقه الله وأحدثه من مادة كانت مخلوقة قبله، كما أخبر في القرآن أنه استوى إلى السماء وهي دخان، أي بخار فقال لها وللأرض: ائتيا طوعا أو كرها، وقد كان قبل ذلك مخلوق غيره كالعرش والماء، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ هود:٧. وخلق ذلك في مدة غير مقدار حركة الشمس والقمر، كما أخبر أنه خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، والشمس والقمر هما من السموات والأرض، وحركتهما بعد خلقهما، والزمان المقدر بحركتهما وهو الليل والنهار التابعان لحركتهما إنما حدث بعد خلقهما، وقد أخبر الله أنه خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، فتلك الأيام مدة وزمان مقدر بحركة أخرى غير حركة الشمس والقمر) [(١)].

• اللوح المحفوظ فوق العرش عند رب العالمين.

واللوح فوق العرش عند رب العالمين، لما ثبت في صحيح البخاري من حديث أبى هُرَيْرَةَ ﷺ أن رَسُول اللهِ ﷺ قال: (إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ كِتَابًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الخَلْقَ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي، فَهُوَ مَكْتُوبٌ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ) [(٢)].

وفي لفظ آخر عند البخاري: (لَمَّا قَضَى اللهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ

---

(١) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ١/١٢٣.

(٢) رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ ٦/٢٧٤٥ (٧١١٥).

فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي)[1].

ولفظ الفوقية على العرش التي ذكرت في شأن اللوح المحفوظ على ظاهره الذي يدل وجود أمر غيبي يخص الخالق بالكيفية التي يعلمها هو ويجهلها الإنسان، لأن المكان الغيبي لا يعني المحاور الفراغية الهندسية التي يظهر على أثرها المجسمات والبعد الثلاثي، ولا تعني ما يهيئه الشيطان في مخيلة الإنسان من مساحة عرش المخلوق لو وضع عليه كتاب، ثم يجعله يقيس عرش الله ﷻ وفوقية أم الكتاب عليه بقياس تمثيلي أو شمولي. فالمكان الغيبي لا يخضع بحال لمقاييس المكان في حسابات المخلوقين، والمقاييس المكانية للإنسان لا تصلح بحال ما في قياس ما هو خارج عن محيط العالم، فضلا عن عدم صلاحيتها في تحديد مكان ملك الموت حين يقبض روح إنسان الذي وضع في غرفة مغلقة بإحكام، لأنه حينئذ يعجز عن دخولها بالمقاييس المكانية التي يقيسون بها الخالق على المخلوق، ويزعمون فيها أن النصوص القرآنية والنبوية ظاهرها باطل المستحيل، ويجب صرفه إلى تأويلاتهم المتعسفة،.

ولو كانت المقاييس المكانية أو الزمانية التي تحكم عالم الغيب هي ذات المقاييس التي تحكم الإنسان في عالم الشهادة، لما استطاع ملك الموت أن يقبض روح إنسان في مشرق الأرض، ويقبض روح آخر في

---

(١) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قول الله تعالى: وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده ٣/١١٦٦ (٣٠٢٢)، ومسلم في كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه ٤/٢١٠٨ (٢٧٥١).

مغربها، ولتأخر الأجل عما قدره الله ﷻ في اللوح المحفوظ، فعلم أن الزمان في عالم الغيب يختلف عن الزمان في عالم الشهادة، وأن ملك الموت تطوى له الأرض بكيفية زمانية ومكانية لا نعلمها. فكيف يقاس فوقية اللوح على عرش الخالق بفوقية الكتاب على عرش المخلوق، ومن ثم فلا يصلح بحال أن نمنع دلالة الأحاديث على ظاهرها اللائق في بالله ﷻ وبعالم الغيب بحجة أننا لو أثبتناها لكان تشبيها وتجسيما، فهذا مذهب الجهمية وأتباعهم .

وعلى ذلك فإن المراد بكون الكتاب فوق العرش هو ما دل عليه النص من فوقية حقيقية لأم الكتاب واللوح المحفوظ الذي فيه ذكر تقديرات الخلائق، وبيان أمورهم، وذكر آجالهم وأرزاقهم، والأقضية النافذة فيهم، ومآل عواقب أمورهم [(١)].

أما ما ذكره بدر الدين بن جماعة من التأويل فغير مقبول حيث قال: (وقوله عنده عبارة عن الحفظ والثبوت لا معنى الظرفية؛ لأن الظرفية عليه محال، كما يقول المقر لفلان: عندي كذا في الذمة، معناه الثبوت لا الظرفية ولا المساحة) [(٢)].

وكذلك ما ذكره الخطابي من التأويل الذي أنكر به تأويل غيره حيث قال الخطابي: (قال بعضهم: معناه دون العرش استعظاما أن

(١) شرح السنة للبغوي ٣٧٧/١٤ بتصرف نشر المكتب الإسلامي دمشق بيروت، تحقيق شعيب الأرنئوط ومحمد زهير الشاويش.

(٢) إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل لابن جماعة ص ١٨٢، نشر دار السلام للطباعة والنشر، مصر.

يكون شيء من الخلق فوق العرش، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ البقرة:٢٦. أي فما دونها أي أصغر منها، وقال بعضهم: إن لفظ الفوق زائد كما في قوله تعالى فإن كن نساء ﴿ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ﴾ النساء:١١. إذ الثنتان يرثان الثلثين، قلت: في كل منهما نظر، أما الأول: ففيه استعمال اللفظ في غير موضعه. وأما الثاني ففيه فساد المعنى، لأن معناه يكون حينئذ فهو عنده العرش، وهذا لا يصح، والأحسن أن يقال معنى قوله: "فهو عنده فوق العرش" أي علم ذلك عند الله فوق العرش، لا ينسخ ولا يبدل، أو ذكر ذلك عند الله فوق العرش، ولا محذور من إضمار لفظ العلم أو الذكر، على أن العرش مخلوق، ولا يستحيل أن يمسه كتاب مخلوق، فإن الملائكة حملة العرش حاملونه على كواهلهم، وفيه المماسة، فلا محذور أن يكون كتابه فوق العرش، فإن قلت: ما وجه تخصيص هذا بالذكر على ما قلت مع أن القلم كتب كل شيء؟ قلت: لما فيه من الرجاء الكامل، وإظهار أن رحمته وسعت كل شيء بخلاف غيره)[1].

- العلة في كتابة المقادير وتدوينها في اللوح المحفوظ.

وهنا سؤال هام يطرح نفسه على الأذهان، نحن علمنا أن المرتبة الأولى من مراتب القدر هي العلم، والمرتبة الثانية الكتابة في اللوح، والمرتبة الثالثة التي سنتحدث عنها بإذن الله المشيئة، ثم المرتبة الرابعة وهي الخلق والتنفيذ؟ السؤال لما ذا كتب الله المقادير؟ ألا يكفي علم الله

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري لبدر الدين العيني ١٥/١١١.

وتقديره السابق؟ وهل الله ﷻ ينسي حتى يتذكر بالكتابة في اللوح؟

والإجابة عن ذلك أن الكتابة من لوازم كمال الحكمة، ومن الأمور الضرورية لقيام الحجة، وإذا كان من كمال الصنعة لدى الحكماء أن الحكيم ينشأ صنعته ومخطط الصناعة بين يديه، والمهندسون المختصون ينفذون ويشرفون عليه، ثم بعد ذلك يطابقون المصنوع علي دليل مخطط التصنيع وقياس الرسومات، ومراقبة الجودة تدقق في المواصفات، وتطبيق القياسات، ولا يمكن أبدا الاستغناء عن الكتابة في مثل هذه الضروريات أليست الكتابة للخالق من باب أولي، فكتابة مقادير المخلوقات من لوازم الحكمة والكمال، ولا يحتاج إليها رب العزة والجلال، كما أنه لا يحتاج إلي خلقه، ولا يفتقر إليهم بأي حال.

وفي صحيح مسلم من حديث أبي ذر ﷺ أن النبي ﷺ قال فيما يرويه عن رب العزة: (يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالكُمْ أُحْصِيهَا لكُمْ، ثمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذلكَ فَلاَ يَلومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ)[(١)].

كما أن كتابة الأعمال والمقادير فيها قيام الحجة على الخلائق، فربما يشكك الكافر في حكمة ربه كما قال تعالى عن فرعون لما سأل موسى عليه السلام: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ۝٥١ قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۝٥٢﴾ طه: ٥١/٥٥.

وقد يكون العبد بين يدي الحق ويكَذب ربه، ويقسم على أنه يقول

(١) رواه مسلم في البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم ٤/١٩٩٤ (٢٥٧٧).

الصدق كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾﴾ المجادلة:١٨.

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ الأنعام:٢٣/٢٤.

وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ الكهف:٤٩.

وقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ يس:٦٥.

ونخلص إلى القول بأن الكتابة هي المرتبة الثانية من مراتب القدر، لبيان مقتضيات القدرة والحكمة معا، وظهور أثار الأسماء وصفات العزة، ولك أن تتصور لو أن البشر اجتمعوا على كتابة ما يخص إنسانا واحدا أو مخلوقا واحد من أمور التقدير التي تخص عدد خلاياه، وعدد نبضات القلب على مدار الوقت الذي يعيشه في هذه الحياة، وعدد ذرات الهواء في كل نفس أخرجته رئتاه، وما عدد كرات الدم الذي سيره الله في مجراه، وما مقدار طعامه وشرابه ورزقه الذي سيناله في دنياه، ثم عمله ومقدار الحسنات والسيئات التي قدمها لأخراه. ستعلم أن البحر لو كان مدادا لكلمات الله لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو كان أمثاله مددا. قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ الكهف:١٠٩.

وقال عن الأقلام وكتابة كلماته التي تضمنت معلوماته: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ لقمان:٢٧.

احتوى الكتاب الذي فوق العرش على الكلمات، والكلمات احتوت على المعلومات، وكل ذلك مكتوب في اللوح قبل أن يخلق الله ﷻ المخلوقات، أو قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة.

المطلب العاشر

مشيئة الله الشاملة لجميع الكائنات المرتبة الثالثة من مراتب القدر

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فقد تحدثنا في المطلب السابق عن كتابة المقادير في اللوح المحفوظ وأنها من أركان الإيمان بمراتب القضاء والقدر الإيمان، وبينا الأدلة على ذلك مفصلة من القرآن والسنة، ثم تحدثنا عن القلم، وهل هو أول المخلوقات أم العرش؟ وبينا أنواع الأقلام التي وردت في الكتاب والسنة، وأنواع الأقلام التي أقسم الله ﷻ بها في سورة القلم.

تم تحدثنا عن العلة في عدم المحو والتغيير لما دون في اللوح المحفوظ، وبداية وقت الكتابة في اللوح والجمع بين النصوص، كما علمنا أن اللوح المحفوظ فوق العرش عند رب العالمين، وبينا العلة في كتابة المقادير وتدوينها في اللوح المحفوظ .

وفي هذا المطلب بإذن الله نتحدث عن المرتبة الثالثة من مراتب القدر وهي مشيئة الله الشاملة لجميع الكائنات.

• مشيئة الله أجمعت على ثبوتها أدلة المنقول والمعقول.

مراتب القدر هي مراحل يمر بها المخلوق من كونه معلومة قدرت

في علم الله ﷻ في الأزل إلى أن يصبح واقعا مخلوقا مشهودا، وهذه المراتب تشمل كل صغيرة وكبيرة في الوجود.

والمرتبة الثالثة من مراتب القضاء والقدر مشيئة الله ﷻ في خلقه، وهذه المرتبة قد دل عليها إجماع الرسل من أولهم إلى آخرهم، وجميع الكتب المنزلة من عند الله، والفطرة التي فطر الله عليها خلقه، وجميع أدلة المعقول والمنقول، وليس في الوجود أمر إلا بمشيئة الله وحده، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وهذا أصل عقيدة التوحيد، وأساس بنيانها الذي لا يقوم إلا به، والمسلمون من أولهم إلى آخرهم مجمعون على أنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن [1].

ومشيئة الرب موجبة لكل موجود، كما أن عدم مشيئته موجب لعدم وجود الشيء، فما شاء الله ﷻ وجب وجوده، وما لم يشأ وجب عدمه وامتناعه، وهذا أمر يعم كل مقدور من الأعيان والأفعال والحركات والسكنات، فسبحانه أن يكون في مملكته ما لا يشاء، أو أن يشاء شيئا فلا يكون، وإن كان فيها ما لا يحبه ولا يرضاه، وإن كان يحب الشيء فلا يكون لعدم مشيئته له، ولو شاءه لوُجد [2].

وقال ابن بطة: (إن الله تعالى له المشيئة العامة الشاملة لأفعال العباد وغيرها، وأن العباد ليست لهم مشيئة مستقلة، بل إن مشيئتهم متوقفة على مشيئته سبحانه، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فمن الآيات الدالة على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ

---

(١) شفاء العليل لابن القيم ص٤٣ بتصرف.

(٢) السابق ص٤٩ بتصرف.

﴿سَبِيلًا ۝٢٩﴾ الإنسان:٢٩. ثم رد مشيئتهم إلى نفسه فقال: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٣٠﴾ الإنسان:٣٠)[1].

- **المعتزلة القدرية نفاة التقدير ضلوا في فهم المشيئة.**

فرق الحسن البصري رحمه الله بين التعذيب على جريان المشيئة بعلم التقدير، ومخالفة الإنسان لأمر الله الشرعي لما بلغه أن عمرو بن عبيد وهو إمام المعتزلة وإليه نسبوا لما اعتزل عن الحسن البصري بعد أن صحبه ولم يختم له بصحبته بلغه أنه يقول: إن الله لا يقضي بالشيء ثم يعذب عليه، فقال له: ويلك إن الله ﷻ لا يعذب على المشيئة وجريان حكمه، وإنما يعذب على مخالفة أمره وشرعه[2].

وتفسير ذلك كما ذكره أبو طالب المكي أن ما حكمه الله تعالى بمشيئته منفردا به لم يجعل فيه أمرا شرعيا ولا نهيا تكليفيا، ولم يجعل للعبد مدخلا فيه بشهوة ولا فعل، فمشيئة الله عامة، وإن ما قضاه على العبد مما أدخله فيه بمشيئة العبد وقصده وإرادته وشهوته عذبه عليه، وهذا من شؤم النفس[3].

والأمة مجتمعة على قول ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، واجتمعت على قول لا حول ولا قوّة إلا بالله، فهذا عام في كل شيء،

---

(١) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية لابن بطة العكبري ص٢٠١، نشر دار الراية للنشر السعودية، تحقيق عثمان عبد الله آدم الأثيوبي.
(٢) قوت القلوب لأبي طالب المكي ٢٢٣/١.
(٣) السابق ٢٢٣/١ بتصرف.

ليس في بعض الأشياء دون بعض، والحول في اللغة هو الحركة، والعرب تقول للشخص يبدو من بعيد يُظن أنه إنسان أو شجرة أو صخرة انظروا إليه، فإن كان يحول فهو إنسان أي يتحرك، والقوّة هو الثبات بعد الحركة [1].

وذكر ابن حزم في إثبات المشيئة الإلهية العامة أنه يكفي من هذا كله اجتماع الأمة على قول ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فهذا على عمومه موجب أن كل ما في العالم كان أو يكون فقد شاءه الله تعالى، وكل ما لم يكن ولا يكون فلم يشأه الله تعالى، نصا لا يحتمل تأويلا على أنه أراد كون كل ذلك، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ التكوير:٢٨/٢٩. فنص تعالى نصا جليا على أنه لا يشاء أحد استقامة على طاعته تعالى إلا إن شاء الله ﷻ أن يستقيم، فلو صح قول المعتزلة إن الله تعالى شاء أن يستقيم كل إنسان مكلف، لكان بنص القرآن كل إنسان مكلف مستقيم، لأن الله تعالى عندهم قد شاء ذلك، وهذا تكذيب مجرد لله تعالى نعوذ بالله من مثله، ومخالفة للواقع [2].

واستدل ابن حزم على أن مشيئة الله عامة في المؤمن والكافر بقول الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗۙ وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسۡتَيۡقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗا وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن

---

(١) السابق ١/٢٢٣ بتصرف.

(٢) الفصل في الملل والنحل ٣/٨٢ بتصرف، نشر مكتبة الخانجي القاهرة.

﴿يَشَآءُ﴾ المدثر:٣١ . وهذه الآية غاية في البيان في أن الله تعالى جعل عدة ملائكة النار فتنة للذين كفروا، وليقولوا: ماذا أراد الله بهذا مثلا؟ فأخبر تعالى أنه شاء أن يفتن الذين كفروا، وأن يضلهم فيضلوا، وأنه تعالى شاء إضلالهم، وحكم بذلك كونا، كما قصد هدى المؤمنين كونا وشرعا وشاءه أيضا [١].

• التوحيد الحق أن يعلق العبد أفعاله على مشيئة الله.

والتوحيد الحق أن يعلق العبد أفعاله على مشيئة الله ﷻ في جميع الأوقات، سواء في الماضي أو الحاضر أو المستقبل، فكل يجري بتقديره ومشيئته، ومشيئته تنفذ، لا مشيئة للعباد إلا ما شاء لهم، فما شاء لهم كان، وما لم يشأ لم يكن، يهدي من يشاء، ويعصم ويعافي فضلاً، ويضل من يشاء ويخذل ويبتلي عدلاً، وكلهم يتقلبون في مشيئته بين فضله وعدله [٢].

التوحيد الحق أن يعلق الموحد أفعاله بمشيئة الله ﷻ في جميع الأوقات، سواء في الماضي، أو الحاضر، أو المستقبل، فقد علمنا نبينا ﷺ أن المسلم يقول فيما وقع من الأحداث ومضى وانتهى: قدر الله وما شاء فعل، ولا يقول: لو كان كذا وكذا، لكان كذا وكذا، فلا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، لاسيما بعد نفاذ أمره ووقوعه، وإنما يجوز أن يقول ذلك فيما يستقبل.

---

(١) السابق ٣/٨٢ بتصرف .

(٢) انظر متن العقيدة الطحاوية ص٢١.

روى مسلم في صحيحه من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أن رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: (الْمُؤْمِنُ القَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلاَ تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلاَ تَقُلْ: لوْ أَنِّي فَعَلْتُ كان كذا وكذا، لم يُصبني كذا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ) [١].

وهنا تأتي المحاجة التي حدثت بين آدم وموسي عليهما وعلي نبينا أفضل الصلاة والسلام، وموقف المسلم من الاحتجاج بالقدر ومشيئة الله علي معصيته فعند البخاري عن أبي هريرةَ ﷺ عن النبيِّ ﷺ قال: (حاجَّ موسَى آدَمَ فقال له: أنتَ الذي أخرجتَ الناسَ من الجنةِ بذَنبكَ وأشقيتَهم، قال آدمُ: يا موسَى أنتَ الذي اصطَفَاكَ اللهُ برسالاتِهِ وبكلامِهِ، أتلومُني على أمر كتبهُ اللهُ عليّ قبل أن يَخلقَني، أو قَدَّرَهُ عليَّ قبل أن يَخلقني؟ قال رسول الله ﷺ: فحج آدمُ موسى) [٢].

- **الاحتجاج بمشيئة الله على المعصية له نوعان.**

النوع الأول: وهو باطل عند السلف، وهو الاحتجاج بمشيئة الله وقضائه وقدره علي المعصية التي وقعت ولم يتب منها العبد، أو ما زال قائما عليها، وهذا مذهب الجبرية، إذ يفعلون المنكر ويحتجون بقدر الله، وأن عصيانهم ليس بإرادتهم، وإنما ذلك فِعْل الله بهم ومشيئته

---

(١)مسلم في القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز ٤/٢٠٥٢ (٢٦٦٤) .

(٢)رواه البخاري في كتاب التفسير، سورة طه، باب فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ٤/١٧٦٤ (٤٤٦١)، ومسلم في كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام ٤/٢٠٤٢ (٢٦٥٢).

التي لا يستطيعون دفعها كقولهم: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ الأنعام:١٤٨ .

وفيه بيان أن الله تعالى لا يحب الشرك ولا يرضاه، وإن الاحتجاج بالمشيئة لا ينفعهم، وقد أكد ذلك أيضا بقوله: "إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون". يعني تكذبون، فثبت أن الله تعالى غير محب لشركهم، وأنه قد أحب لهم التوحيد والإيمان اختيارا، ولو شاء الله الإيمان منهم قسرا لكان عليه قادرا، ولكنهم كانوا لا يستحقون به الثواب والمدح، فكل ما أحبه الله من العباد فقد دعاهم إليه، ورغبهم فيه، ولذلك كان طاعة. كما أن كل ما أمر الله به شرعا، فقد دعاهم إليه، ويكون طاعة منهم إذا فعلوه، أما المشيئة فهي كونية يخلق الله بها المؤمن والكافر (١).

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ الأعراف:٢٨/٣٠.

---

(١) أحكام القرآن للجصاص ٤/١٩٤ بتصرف، وقد كان في كلام الجصاص رحمه الله خلط بين المشيئة والمحبة وعدم تفريقه بينهما، وقد بينا وجه الصواب بالصياغة المناسبة أعلاه، فقارن .

والمعنى أنهم كانوا إذا فعلوا فاحشة أي كبيرة من الكبائر كعبادة الأصنام والطواف بالبيت عراة وغير ذلك مما يستقبح في حكم الشرع، قالوا: "وجدنا عليها آباءنا" أي ما نفعله عادة متبعة في آبائنا نشأنا عليها فاقتدينا بهم، والله أمرنا بها، لأنه تركنا نفعلها، وما عاقبنا على فعلنا لها، ولو كان فعلنا لها فاحشة أو منكر كما تنكره علينا الآن لجاء أمر الله فيما سبق من الأيام بالهلاك والانتقام منا، ولمنعنا بمشيئته وقدرته، فاحتجوا بالمشيئة والأمر الكوني على جواز ما يفعلونه من الفواحش والمنكر، فرد الله ﷻ عليهم الدعوة بأنه لا يأمر بالفحشاء في شريعته وأحكام دينه وعبوديته، وما كلف به عباده، وأنه يحاسب العباد على امتثال أمره الشرعي، لا على ما يقدره في الخلائق وفيهم بأمره الكوني، فإن كان عندكم علم بأن الله ﷻ أمركم بالفحشاء وكلفكم بفعلها على لسان نبي من الأنبياء فأخرجوه لنا، وإلا فقولكم وفعلكم وما تزعمون من أمر الله لكم بالفحشاء ادعاء باطل، وقول على الله بلا علم.

والذي أمر الله به في شريعته وأحكام دينه وعبوديته، وكلف عباده بتنفيذه وطاعته هو العدل والقسط بين الناس، وكل ما أَمر الله ﷻ به قسط وعدل ولو كان صعبا على النفس أو لم يستحسنه الشخص، وأمرهم الله أيضا أن يقيموا الصلاة وأن يتوجهوا بها إلى الله وحده مخلصين له الدين موحدين لا يشركون به شيئا في أحكام العبودية والطاعة والدين، وهذا ما دعت إليه سائر الأنبياء.

أما الادعاء الكاذب والافتراء الباطل فهو قولهم على الله ما لا

يعلمون حقيقته، ولم يسمعوه من نبي فيما وصلهم من بقايا شريعته، وهو أمر الله لهم بالفواحش .

وهذا النص دليل على أن الحكم بالقبح والحسن على الأشياء مرجعه الأول إلى أمر الشرع، ثم إن العقل تابع له في تأييد الحكم، وذلك خلاف رأي المعتزلة الذين يزعمون أن الحكم بالقبح والحسن على الأشياء مرجعه الأول إلى ما يراه العقل دون أمر الله التكليفي الشرعي الذي ورد في النقل.

وشتان بين أمر الله الشرعي الذي يحاسب العباد عليه وأمره الكوني وقضائه الحتمي الذي قدر وقوعه مهما كانت اختيارات العاقل، فبأمره الكوني ومشيئته الشاملة التي بدأ بها إنشاءكم من العدم وخلقكم إلى دار الابتلاء والحِكم وتكليفكم بالشرائع والأحكام لتميزوا في الاختيار بين الحلال والحرام، كما بدأكم بمشيئته للابتلاء تعودون أيضا بمشيئته للجزاء، وعندها يتم ما سبق به القضاء فريقا هدى وفريقا حق عليه الضلالة والشقاء، لأنهم اتخذوا الشياطين أولياء ويحسبون أنهم مهتدون، ويظنون أن الله ﷻ لما تركهم يفعلون الفحشاء طاعة للشياطين واتباعا للأهواء، وأنهم تحت غطاء أحكام البقاء في دار الابتلاء، يظنون أنه سبحانه قد أمرهم بالفحشاء ورضيها لهم، فشتان بين أمر الله الكوني وأمره التكليفي الشرعي، وبئس الاحتجاج بأمره الكوني الذي يعني مشيئته وقضاؤه الحتمي على مخالفة أمره التشريعي ونهيه التكليفي.

قال ابن الجوزي: (ومن جملة ما لبس عليهم إبليس، أنهم قالوا: لو

شاء الله ما أشركنا. أي لو لم يرض شركنا لحال بيننا وبينه، فتعلقوا بالمشيئة وتركوا الأمر، ومشيئة الله تعم الكائنات)[1].

وقد احتج سارق على عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالقدر، فقال له عمر: لم سرقت؟ قال سرقت بقدر الله ومشيئته، فقال: وأنا أقطع يدك بقدر الله ومشيئته[2].

والذين يعتقدون أن العبد مجبور على أفعاله قسرا، ولا فعل له أصلا كالريشة تحركها الريح في اتجاه الهواء، رفعوا اللوم عن أصحاب الأهواء وبرروا لكل كافر وفاسق وعاص أن الله عز وجل إن عذبهم فسيعذبهم على فعله هو بهم، لا على فعلهم وأعمالهم القبيحة، ثم اعتقدوا أن المعاصي التي نهى الله عز وجل عنها في كتبه وعلى ألسنة رسله إذا عملوها صارت طاعات، لأنهم يقولون أطعنا مشيئة الله فينا، وهذا كفر لم يسبقهم إليه إلا إمامهم إبليس اللعين.

وذلك أنه احتج على عصيانه لأمر ربه التكليفي بقضائه وقدره الحتمي ومشيئته الشاملة في الوجود فقال: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾ الحجر:٣٩. وقال تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾ الأعراف:١٦.

وقد سأل ذميٌّ شيخَ الإسلام ابن تيمية عن الاحتجاج بالقدر على معصيته فقال:

---

(١) تلبيس إبليس لابن الجوزي ص٨٢.

(٢) منهاج السنة النبوية ٣/٢٣٤.

أيا علمـــاء الديـــن ذمـــي دينكم :

تحـــير دلـــوه بأوضـــح حجة

إذا ما قضى ربي بكفري بزعمكم :

ولم يرضه مني فمـــا وجه حيلتي

دعاني وسد البـــاب عني فهل إلى :

دخـــولي سبيل بينـــوا لي قضيتي

قضى بضلالي ثم قال ارض بالقضا :

فما أنا راض بالذي فيـــه شقوتي

فإن كنت بالمقضـــي يا قوم راضيا :

فربي لا يرضـــى بشـــؤم بليـــتي

فهل لي رضا ما ليس يرضاه سيدي :

فقد حرت دلوني على كشف حيرتي

إذا شـــاء ربي الكفـــر مني مشيئة :

فهل أنا عـــاص في إتباع المشيـــئة؟

وهل لي اختيار أن أخالف حكمـــه :

فبالله فاشفـــوا بالبراهـــين غلـــتي؟

فأجاب شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية بمنظومة شعرية أطلق عليه المنظومة التائية وهي من أبدع ما ألف في القضاء والقدر:

سؤالك يا هـــذا ســـؤال معـــاند :

مخاصـــم رب العرش بارى البرية

فهـــذا سؤال خاصـــم الملأ العلا :

قديمـــا به إبلـــيس أصـــل البلية[١]

وسوف نفرد شرحها إن شاء الله بمطلب خاص لأهمية ما فيها من

---

(١) انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية ٨/٢٤٥.

تأصيل علمي وتقويم منهجي لمدى استيعاب طلاب العلم لمسألة الإيمان بالقضاء والقدر وعدم الاحتجاج به على المعاصي.

النوع الثاني: من الاحتجاج بمشيئة الله أو الاحتجاج بقضائه وقدره على المعصية، هو الاحتجاج علي المعصية التي وقعت من العبد وتاب منها وندم علي فعلها، وهذا جائز مشروع.

لما رواه البخاري من حديث أبي هريرة ﵁ أن النبي ﷺ قال: (احتجَ آدمُ وموسى، فقال له موسى: يا آدمُ أنتَ أبونا، خيَّبتنا وأخرجتَنا من الجنَّة، قال له آدم: يا موسى اصطفاكَ اللهُ بكلامه وخطَّ لكَ بيده، أتلومني على أمر قدَّرَهُ الله عليَّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟ فحجَّ آدمُ موسى، فحجَّ آدمُ موسى، ثلاثاً) [(١)].

• المحاجة التي حدثت بين آدم وموسى في الاحتجاج بالقدر.

قد يحسب كثير من الناس أن معنى القضاء والقدر من الله تعالى على معنى الإجبار والقهر للعبد على ما قضاه وقدره، ويتوهم أن قوله فحج آدم وموسى من هذا الوجه، وليس كذلك. وإنما معناه الإخبار عن تقدم علم الله بما يكون من أفعال العباد وإكسابهم وصدورها عن تقدير منه وخلق لها خيرها وشرها.

والقدر اسم لما صدر مقدرا عن فعل القادر، والقضاء في هذا معناه الخلق، وإذا كان الأمر كذلك، فقد بقي عليهم من وراء تقدير

---

(١)البخاري في القدر، باب تحاج آدم وموسى عند الله ٢٤٣٩/٦ (٦٢٤٠)، ومسلم في القدر، باب حجاج آدم وموسى ٢٠٤٢/٤ (٢٦٥٢).

الله فهم أفعالهم وأكسابهم، ومباشرتهم الأمور وملابستهم إياها عن قصد وتعمد وتقدم إرادة واختيار، فالحجة إنما تلزمهم بها، واللائمة تلحقهم عليها.

وجماع القول في هذا أنهما أمران، لا ينفك أحدهما عن الآخر؛ القدر والحكمة، لأن أحدهما بمنزلة الأساس، والآخر بمنزلة البناء، فمن رام الفصل بينهما، فقد رام هذا البناء ونقضه، وإنما موضع الحجة لآدم على موسى، أن الله تعالى كان قد قدر أن آدم يتناول الشجرة ويأكل منها، فكيف يمكنه أن يرد ما قدره الله ﷻ فيه وأن يبطله بعد ذلك، وإنما كان تناوله الشجرة سببا لنزوله إلى الأرض التي خلق لها، وإنما أدلى آدم بالحجة على هذا المعنى، ودفع لائمة موسى عن نفسه، ولذلك قال: أتلومني على أمر قدره الله علي من قبل أن يخلقني [١].

ذكر مرعي بن يوسف الكرمي أن بعض دراويش متصوفة الفقراء الذين وقعوا في الإباحة والآثام، وطووا بساط الشرع، ورفعوا قواعد الأحكام، وسووا بعقولهم بين الحلال والحرام، كان لا يصوم ولا يصلي منهمكا على المحرمات كالخمور ونحوها من اللذات، فأعترض عليه في ذلك، فأجاب بما مضمونه أنها مشيئة الله، وقد رفعت الأقلام وجفت الصحف، وأن هذا مقدر علي، وأنا لا أقدر على رفع ما شاءه الله وقدره علي، واستدل باحتجاج آدم على موسى حيث

---

(١) انظر بتصرف لباب التأويل في معاني التنزيل لعلاء الدين الخازن ٤/٢٨٣، نشر دار الفكر بيروت.

قال لموسى أفتلومني على أمر قد قدره الله علي قبل أن أخلق، فحج آدم موسى[1].

ثم بين وجه شبهتهم في زعمهم أن آدم قد احتج على موسى بالقدر وقال في الحديث فحج آدم موسى أي غلبه في الحجة، مع أن العلماء قاطبة يقولون نؤمن بالقدر ولا نحتج به على المعاصي، ولو ساغ الاحتجاج بالقدر لكان إبليس أيضا يحتج به، وفرعون أيضا يحتج به على موسى، وكذلك سائر العصاة وذلك باطل، وحيث كان كذلك فكيف لآدم يحتج به ويسلم له احتجاجه وما وجه ذلك؟ ثم ما الدليل على إبطال الاحتجاج بالقدر وذمه مع أن آدم احتج به؟

ولا ريب أن الله تعالى قدر مقادير الخلائق، وما سيكون من الأشياء قبل إنشائها وخلقها، وشاء الله ﷻ أنها ستقع المقادير في أوقاتها المعلومة عنده، وعلى صفات مخصوصة، فهي تقع على حسب ما قدرها، وقد ذكر ابن تيمية أن تقدير الله تعالى شامل لجميع الأشياء، ولا محو فيه ولا تغيير، ولا زيادة ولا نقص، فإنه سبحانه يعلم ما كان، وما يكون، وما لا يكون لو كان كيف كان يكون. وأما الصحف التي بيد الملائكة فيحصل فيها المحو والإثبات[2].

وفي المقابل لا بد أن يؤمن العبد أن المقادير مقدرة بأسبابها لأنه لو

---

(١) رفع الشبهة والغرر عمن يحتج على فعل المعاصي بالقدر، لأبي بكر مرعي بن يوسف الكرمي ص١٥ وما بعدها بتصرف، تحقيق أسعد محمد المغربي دار حراء مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

(٢) السابق ص١٦.

نظر إليها مجردة عن الأسباب، فإن نظرته لها نظرة ناقصة عوراء، وينشأ عنها الضلال، بل الضلال اعتقاده أن الأعمال لا تنفع، وأن الأسباب لا تفيد، وهذا هو الأصل الفاسد الذي وقع فيه بعض المتصوفة ومن التحق بهم، وهو أصل مخالف للكتاب والسنة وأئمة الدين، ومخالف لصريح المعقول ومخالف للحس والمشاهدة، فإن الله تعالى أجرى العادة في هذا العالم على أسباب وعلل، ينتج عنها معلولات ونتائج واقعية. فالسبب والمسبَّب واقع بقدر الله ﷻ، ومن هنا صحت معاني الطب والتطبيب والأمر بالعلاج، وأنه لم يخلق الله داء إلا وخلق له دواء إلا الموت. والمشيئة الإلهية اقتضت دخول الجنة بالإيمان ودخول النار بالكفر وحصول الولد بالوطء والعلم بالتعلم.

والحاصل أن الأسباب وتأثيرها بمشيئة الله ﷻ مما لا ينكر، وإن كان الله تعالى هو خالق السبب والمسبب، لاسيما وقد دل العقل والنقل والفطرة وتجارب الأمم على اختلاف أجناسها ومللها ونحلها على أن التقرب إلى الله ﷻ وطلب مرضاته والإحسان إلى خلقه من أعظم الأسباب الجالبة لكل خير، وأضدادها من أكبر الأسباب الجالبة لكل شر، فما استجلبت نعم الله ﷻ واستدفعت نقمة بمثل طاعته والتقرب إليه والإحسان إلى خلقه(١).

أما احتجاج آدم على موسى بالقدر فليس هو على معنى ما يتوهمه المحتجون على فعل المعاصي بالقدر، إنما حج آدم موسى لكونه تاب من الذنب، وأصبح له ماضيا ومصيبة لا يستطيع دفعا، وقد لحقت الذرية

(١) السابق ص٢٦ بتصرف.

بسبب أكله، فليس له إلا التسليم للقدر عند وقوع المصائب وعدم لوم المذنب التائب، وأن المؤمن مأمور أن يرجع إلى القدر عند المصائب لا عند الذنوب والمعايب، فيصبر على المصائب، ويستغفر من الذنوب والمعائب. فالإيمان بالقدر والرضا بما قدره الله ﷻ من المصائب والتسليم لذلك هو من حقيقة الإيمان، وأما الذنوب فليس لأحد أن يحتج على فعلها بقدر الله، بل عليه أن لا يفعلها، وإذا فعلها فعليه أن يتوب منها كما فعل آدم عليه السلام.(١)

وأعلم أن موسى عليه السلام لم يلم آدم على ذنبه الذي تاب منه، فإن التائب من الذنب مغفور له، وموسى أعلم بالله ﷻ من أن يلوم تائب فكيف بأبيه آدم الذي تاب الله عليه واجتباه، وإنما لامه لأجل ما لحق الذرية من المصيبة المستمرة، والمصيبة تقتضي نوع من الجزع يقتضي لوم من كان سببها، كما يلام من أوقع أصحابه في مشقة، فظهر بما تقرر أن احتجاج آدم على موسى بالقدر ليس هو على معنى ما يتوهمه الإباحية والزنادقة بل على المعنى المتقدم الظاهر لكل مسلم(٢).

ومما يعلم بطلانه بضرورة العقل أن الظالم لغيره لو احتج بالقدر لاحتج ظالمه أيضا بالقدر، فإن كان القدر حجة لهذا فهو حجة لهذا. فمذهب هؤلاء أنه عند الطاعة قدري وعند المعصية جبري أي مذهب وافق هواه تمذهب به.

ولو كان القدر حجة لفاعل الفواحش والمظالم لم يحسن أن يلوم أحد

---

(١) انظر السابق ص٣٠ بتصرف.

(٢) انظر السابق ص٣١ بتصرف.

أحدا، ولا يعاقب أحد أحدا، وكان للإنسان أن يفعل في دم غيره وماله وأهله ما يشتهيه من المظالم والقبائح ويحتج بأن ذلك مقدر عليه[1].

والحاصل أن آدم عليه السلام احتج على موسي عليه السلام بالقدر، وصح احتجاجه لأنه يجوز الاحتجاج بمشيئة الله وقضائه وقدره على المعصية التي وقعت وتاب منها العبد وندم علي فعلها، كالعاصي بعد توبته عندما يتذكر الأيام الخوالي التي وقع فيها العصيان، فيحمد الله أن تاب عليه وهداه إلى الإسلام، ويقول: قدر الله وما شاء فعل.

- **رد الأمر إلى مشيئة الله فيما هو كائن من الأمور.**

علما أنه فيما مضى على الإنسان من أفعال وأحداث ينبغي على المؤمن أن يرد الأمر إلى مشيئة الله عز وجل، ويقول قدر الله وما شاء فعل، أما رد الأمر إلى المشيئة في الحاضر فهو كما ورد في قول الله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ ﴾ الكهف:٣٩ .

وهنا ينسب الموحد النعمة إلى من أنعم بها عليه، ويرد الأمر فيها إليه، فالعبد الصادق الموحد مؤمن بأن الله عز وجل قائم بالقسط والتدبير، ومنفرد بالمشيئة والتقدير، يتولى تدبير شئون العالمين، وهو أحكم الحاكمين، وخير الرازقين، لا يطمع في سواه، ولا يرجو إلا إياه، ولا يشهد في العطاء إلا مشيئته، ولا يرى في المنع إلا حكمته، ولا يعاين في القبض والبسط إلا قدرته، ويقول عندما يرى نعم الله عليه، ما شاء الله

(١) انظر السابق ص٣٢ بتصرف.

لا قوة إلا بالله. قال تعالى عن شعيب عليه السلام: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ هود:٨٨ .

روى النسائي وصححه الشيخ الألباني: (أَنَّ يَهُودِيًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَال:إِنَّكُم تُنَدِّدُونَ، وَإِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ تَقُولونَ: مَا شَاءَ اللَّهُ وشئت، وَتَقُولونَ: وَالكَعْبَةِ، فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَحْلفُوا أَنْ يَقولوا: وَرَبِّ الكَعْبَةِ، ويَقولونَ: مَا شَاءَ اللَّهُ، ثمَّ شئت) [(١)]. وعند أحمد في المسند من حديث ابْنِ عَباس رضي الله عنه: (أَنَّ رَجُلا قَال: يَا رَسُول اللهِ، مَا شَاءَ اللَّهُ وشئت، فَقَال: جَعَلتَنِي لِلَّهِ عَدْلا، بَل مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ) [(٢)].

روى الإمام مسلم من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أن رَسُول اللهِ ﷺ قال: (قَال اللَّهُ عَزَّ وَجَل: يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ، يَقُول: يَا خَيْبَةَ الدَّهْرِ فَلا يَقُولنَّ أَحَدُكُمْ: يَا خَيْبَةَ الدَّهْرِ فَإِنِّي أَنَا الدَّهْرُ أُقَلبُ لَيْلهُ وَنَهَارَهُ، فَإِذَا شئتُ قَبَضْتُهُمَا) [(٣)].

وقوله: فَإِنِّي أَنَا الدَّهْرُ، أي صاحبه ومقلبه، بدليل قوله بعدها: أُقَلبُ لَيْلهُ وَنَهَارَهُ، لأن بعض من لا تحقيق له في العلم، زعم أن الدهر من أسماء الله، وهو غلط فإن الدهر مدة زمان الدنيا، وعرفه بعضهم بأنه

---

(١) رواه النسائي في كتاب الإيمان والنذور، باب الحلف بالكعبة ٣/١٢٤ (٤٧١٤)، وصححه الشيخ الألباني، انظر السلسلة الصحيحة (١٣٦).

(٢) رواه أحمد في المسند ١/٢٨٣ (٢٥٦١)، وابن أبي شيبة في المصنف ٦/٧٤ (٢٩٥٧٣)، وصححه الألباني، انظر السلسلة الصحيحة (١٣٩).

(٣) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الألفاظ من الأدب، باب النهي عن سب الدهر ٤/١٧٦٢ (٢٢٤٦).

أمد مفعولات الله في الدنيا، ولا يخفي أن من سب الصنعة فقد سب صانعها، فمن سب نفس الليل والنهار أقدم على أمر عظيم بغير معنى، يقول بعضهم: لعنة الله على الأيام أو غير ذلك، فالدهر أو الليل والنهار لا فعل لهم ولا تأثير، بل كل شيء بمشيئة الله ومراده الكوني .

ويذكر الإمام الشافعي أن العرب كان شأنها أن تذم الدهر وتسببه عند المصائب التي تنزل بهم من موت أو هرم أو تلف أو غير ذلك، فيقولون: إنما يهلكنا الدهر، وهو تعاقب الليل والنهار، ويقولون: أصابتهم قوارع الدهر، وأبادهم الدهر، فيجعلون الليل والنهار يفعلان الأشياء، فيذمون الدهر بأنه الذي يفنيهم ويفعل بهم، فقال رسول الله ﷺ: لا تسبوا الدهر على أنه الذي يفنيكم، والذي يفعل بكم هذه الأشياء، فإنكم إذا سببتم فاعل هذه الأشياء، فإنما تسبون الله تبارك وتعالى، فإنه فاعل هذه الأشياء[1] .

• رد الأمر إلى مشيئة الله فيما هو يستقبل من الأمور.

أما رد الأمر إلي المشيئة في المستقبل فهو كقول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ ﴾ الكهف:٢٣/٢٤.

روى البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (قال سليمانُ بن داودَ عليهما السلام: لأَطُوفَنَّ الليلةَ بمائةِ امرأةٍ، تَلدُ كل امرأةٍ غلاماً يُقاتل في سبيل الله، فقال له المَلَكُ: قُل إن شاء الله، فلم يقُل

---

(١) سنن البيهقي في الاستسقاء، باب ما جاء في سب الدهر٣/٣٦٥ (٦٢٨٣).

وَنَسيَ، فأطافَ بِهِنَّ، ولم تَلدْ منهُن إلا امرأةٌ نِصفَ إنسان، قال النبيُّ ﷺ: لو قال إن شاء اللهُ لم يَحنَثْ، وكان أرجَى لحاجَتِهِ) [(١)].

وفي رواية أخرى: (فلم تَحمل منهنَّ إلا امرأةٌ واحدةٌ، جاءت بشقِّ رجل، وأيمُ الذي نفسُ محمدٍ بيده، لو قال: إن شاء اللهُ لجاهَدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون) [(٢)].

ومعنى لأطوفن الليلة أي من بداية الليلة حتى تنتهي المدة اللازمة لتحقيق الغاية التي كان يسعى إليها سليمان عليه السلام، وهي الجهاد في سبيل الله بأولاده، وكانت تلك نيته ومراده، لكن تحقيق مراد العباد متوقف على مشيئة الله في العطاء، وخلقه سبحانه لسائر الأشياء، فلو قال العبد: إن شاء الله لربما تحقق مطلبه، وأعطاه الله ما يريد، ولو قالها سليمان: لجاهدوا فرسانا كما تمنى.

وروى البخاري من حديث ابن عبّاس رضيَ اللهُ عنهما أنَّ النبيَّ ﷺ دخل على أعرابيّ يَعودُه، يقول ابن عباس رضي الله عنه: (وكان النبيُّ ﷺ إذا دخل على مريض يَعوده قال له: لا بأس، طَهورٌ إن شاء الله، فقال الأعرابي للنبي: قلتَ طهور؟ كلا، بل هي حُمى تَفور، أو هي حُمى تثور على شيخ كبير، تُزيره القبور، فقال النبي ﷺ: فَنَعم إِذاً) [(٣)].

---

(١) رواه البخاري في النكاح، باب قول الرجل لأطوفن الليلة على نسائي ٢٠٠٧/٥ (٤٩٤٤)، ومسلم في الأيمان، باب الاستثناء ١٢٧٦/٣ (١٦٥٤).

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ ٢٤٤٧/٦ (٦٢٦٣) .

(٣) البخاري في المرضى، باب عيادة الأعراب ٢١٤١/٥ (٥٣٣٢).

والرسول ﷺ يقول للأعرابي: لا بأس طهور إن شاء الله، أي إن المرض يكفر الخطايا، وهو طهور لك من ذنوبك إن شاء الله، فإن حصلت العافية وتحقق الشفاء، فقد حصلت الفائدتان، وإلا حصل ربح التكفير، فرد الأعرابي على النبي ﷺ منكرا وقائلا: أيُّ طهور؟ بل هي حمى تفور، أي حرارة الجسم مرتفعة وتغلي وتثور، على شيخ كبير تزيره القبور. وكان الواجب على الأعرابي ألا يرد دعاء النبي ﷺ، ويسأل الله العافية، فقال له رسول الله: فنعم إذا، ويعني إذا أبيت طلب الشفاء فنعم يأتيك الموت والبلاء، فيحتمل أن يكون قوله: فنعم إذا، دعاء عليه، ويحتمل أن يكون خبرا عما يؤول مصيره إليه.

وهناك من قال: احتمال أن يكون النبي ﷺ علم أنه سيموت في هذا المرض، فدعا له بأن تكون الحمى مطهرةً لذنوبه وخطاياه، وهناك من قال: احتمال أن يكون النبي ﷺ أعلم الأعرابي بأنه سيموت أجابه وردا على أجابته، ولذلك ورد أن الأعرابي أصبح ميتا. فينبغي على المسلم حتى ولو كان مريضا أن يتلقى الموعظة بالقبول، ويحسن الجواب فيما يقول، طمعا في عفو الله وعافيته .

روى أبو داود وأحمد وصححه الشيخ الألباني من حديث عبد الله بن عمر ﷺ أن النبي ﷺ قال: (مَنْ حَلَف فاستْثْنَى، فَإن شاء مَضَى، وإِن شَاءَ رَجَع غَيْرَ حَنِثٍ) (١) .

---

(١) رواه أبو داود في الأيمان والنذور، باب الاستثناء في اليمين ٣/٢٢٥ (٣٢٦٢)، وأحمد في المسند ٢/١٥٣ (٦٤١٤)، وصححه الألباني، انظر صحيح أبي داود ٢/٦٢٩ (٢٧٩٥)، وصحيح الجامع (٦٢٠٦). وغير حنث غير آثم.

وقد أجمع المسلمون على أن الحالف إذا استثنى في يمينه متصلا بها فقال: لأفعلن كذا، أو لا أفعله إن شاء الله، أجمعوا أنه لا يحنث إذا خالف ما حلف عليه، لأن من أصل أهل الإسلام أنه لا يكون شيء إلا بمشيئة الله، فإذا علق الحالف الفعل أو الترك بالمشيئة لم يحنث عند عدم المشيئة، ولا تجب عليه الكفارة [1].

• حكم لو المستقبلية التي تكون في ترتيب الأخذ الأسباب.

أما لَوْ المستقبلية التي تكون في القتال وإعداد الخطط، أو عدم الاعتراض على القدر، فلا تدخل تحت النهي في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ الذي رواه مسلم مرفوعا: (فَإِنَّ لوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ) [2].

وذلك لأن النهي مقرون بوقوع الفعل وعدم تغيير شيء من القدر والرسول ﷺ يقول قبلها: (وَإِنْ أَصابَكَ شَيْءٌ فَلاَ تَقُلْ: لوْ أَنِّي فَعلتُ كذا وكذا، لم يُصبني كذا، ولَكِنْ قُل: قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فعَلَ).

أما ما كان من أبي بكر الصديق ﷺ في الغار كما روى البخاري من حديث أنس بن مالك ﷺ أن أبا بكرٍ ﷺ قال: (قلت للنبيِّ ﷺ وأنا في الغارِ: لو أنَّ أحدَهم نظرَ تحت قَدَمَيهِ لأبصرَنا، فقال: ما ظنُّكَ يا أبا بكرٍ باثنينِ اللهُ ثالثُهما) [3].

وكذلك ما ورد عند البخاري من حديث عائشةَ رضيَ اللهُ عنهم

---

(١) شفاء العليل لابن القيم ص٤٧.

(٢) مسلم في القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز ٢٠٥٢/٤ (٢٦٦٤).

(٣) رواه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب المهاجرين وفضلهم ١٣٣٧/٣ (٣٤٥٣).

زوجِ النبيِّ ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: (ألم تَرَيْ أنَّ قومَكِ لما بَنُوا الكعبة اقتصَروا عن قواعِدِ إبراهيمَ . فقلتُ: يا رسول الله ألا تَرُدُّها على قواعِدِ إبراهيم؟ فقال: لولا حِدْثانُ قومِكِ بالكفر) (١).

وعند البخاري من حديث أنَسٍ رضي الله عنه أنه قال: (مرَّ النبيُّ ﷺ بتمرةٍ مَسْقوطةٍ فقال: لولا أن تكونَ صَدَقةً لأكَلتُها) (٢) .

وعنده أيضا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (لولا أن أَشُقَّ على أُمَّتي لأمرتُهمْ بالسِّواكِ عندَ كل وُضوء) (٣).

كل ذلك يدخل تحت لو المستقبلية، وما لا اعتراض فيه على القدر فلا كراهة فيه، لأنه إنما أخبر عن اعتقاده فيما كان يفعل لولا المانع وعما هو في قدرته، فأما ما ذهب فليس في قدرته، وقوله ﷺ: فإن لو تفتح عمل الشيطان. أي يُلقى في القلب معارضة القدر، ويوسوس به الشيطان، فالذي يتعين بعد وقوع المقدور التسليم لأمر الله عز وجل، والرضا بما قدر، والإعراض عما فات، أو عدم الالتفات لما فات، فإنه إذا ذكر فيما فاته من ذلك فقال: لو أني فعلت كذا لكان كذا، جاءته وساوس الشيطان، فلا تزال به حتى يفضي إلى الخسران، فيعارض بتوهم التدبير

---

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير، باب فضل مكة وبنيانها ٥٧٣/٢ (١٥٠٦)، ومسلم في كتاب الحج، باب نقض الكعبة وبنائها ٩٦٩/٢ (١٣٣٣).

(٢) رواه البخاري في كتاب البيوع، باب ما يتنزه من الشبهات ٧٢٥/٢ (١٩٥٠)، ومسلم في كتاب الزكاة، باب تحريم الزكاة على رسول الله ﷺ ٧٥٢/٢ (١٠٧١).

(٣) رواه البخاري في كتاب التمني، باب ما يجوز من اللو ٢٦٤٥/٦ (٦٨١٣)، ومسلم في كتاب الطهارة، باب السواك ٢٢٠/١ (٢٥٢).

سابق المقادير، وهذا هو عمل الشيطان المنهي عن تعاطي أسبابه بقوله: فلا تقل لو، فإن لو تفتح عمل الشيطان [(١)].

• الأصول القرآنية في طلاقة المشيئة الإلهية وأنواع تعلقاتها .

إخبار الله عن طلاقة المشيئة يتنوع في القرآن، فتارة يخبرنا أن كل ما في الكون إنما هو بمشيئته كما قال:

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٢٧﴾﴾ آل عمران:٢٦/٢٧ .

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾ البقرة:١٠٥.

وقال تعالى: ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾ البقرة:٢٦٩. وقال تعالى: ﴿يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٤٥﴾﴾ النور:٤٥.

وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾ القصص:٦٨. وقال الله تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ الروم:٥٤.

---

(١) فتح الباري لابن حجر ١٣/٢٢٨، نشر دار المعرفة بيروت.

وقال تعالى: ﴿ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾ الشورى:١٢. كل هذه الآيات يخبرنا الله ﷻ أن كل ما في الكون إنما هو بمشيئته.

وتارة يخبرنا أن ما لم يشأ لم يكن، وأنه لو شاء لخلق الخلق على خلاف الواقع المشهود، وأنه لو شاء لكان خلاف القدر الموجود، وأنه لو شاء ما عصاه أحد من خلقه، وأنه لو شاء لجمعهم على ذكره، وجعلهم أمة واحدة كالملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ ﴾ النساء:١٣٣.

وقال تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ الأنعام:١٣٣. وقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ ﴾ إبراهيم/١٩.

وقال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ ﴾ الشورى:٢٤. وقال تعالى: ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ الشورى:٣٣.

وقال تعالى: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ ﴾ الإسراء:٨٦ .

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾ السجدة:١٣. وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ الأنعام:١١٢.

قال ابن القيم: (وهو سبحانه تارة يخبر أن كل ما في الكون بمشيئته، وتارة يخبرنا أن ما لم يشأ لم يكن، وتارة أنه لو شاء لكان خلاف الواقع، وأنه لو شاء لكان خلاف القدر الذي قدره وكتبه، وأنه لو شاء ما عصى، وأنه لو شاء لجمع خلقه على الهدى، وجعلهم أمة واحدة، فتضمن ذلك أن الواقع بمشيئته، وأن ما لم يقع فهو لعدم مشيئته، وهذا حقيقة الربوبية، وهو معنى كونه رب العالمين، وكونه القائم بتدبير عباده، فلا خلق، ولا رزق، ولا عطاء، ولا منع، ولا قبض، ولا بسط، ولا موت، ولا حياة، ولا إضلال، ولا هدى، ولا سعادة، ولا شقاوة إلا بعد إذنه، وكل ذلك بمشيئته وتكوينه إذ لا مالك غيره، ولا مدبر سواه، ولا رب غيره)[١].

- **مشيئة الله لا تكون إلا كونية وإرادته كونية وشرعية.**

ولا بد هنا أن نفرق بين الإرادة والمشيئة، فالإرادة تكون كونية وشرعية، أما المشيئة فهي كونية فقط، ولا تأتي أبدا بالمعني الشرعي، المشيئة لا يمكن أن تتخلف، وقد أجمعت الرسل من أولهم إلى آخرهم وجميع الكتب المنزلة من عند الله، على أنه ليس في الوجود أمر إلا

---

(١) شفاء العليل لابن القيم ص٤٤.

بمشيئة الله وحده، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، والمسلمون من أولهم إلى آخرهم مجمعون على أنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن. ولذلك فإن العبد يعلق أفعاله على المشيئة، وليس على الإرادة، فالتوحيد الحق أن يعلق العبد أفعاله علي مشيئة الله ﷻ في جميع الأوقات، سواء في الماضي أو الحاضر أو المستقبل، فكل يجري بتقديره ومشيئته، ومشيئته تنفذ، لا مشيئة للعباد إلا ما شاء لهم، فما شاء لهم كان، وما لم يشأ لم يكن. ولا يصح إطلاق الإرادة فتقول ما أراد كان وما لم يرد لم يكن، بل لا بد من تقييدها على المعنى الكوني، لأن إرادة الله ﷻ على نوعين يدبر الله الخلق من خلالهما:

النوع الأول: إرادة كونية قدرية، وهى المشيئة الشاملة لجميع الموجودات، سواء ما يحبه أو ما لا يحبه، وبها يصدر الأمر التقديري الجبري الحتمي الذي يتحقق في جميع المخلوقات من الأرض إلى السماوات، يتحقق في الجن والإنس والملائكة، وكل ما في الكون على سبيل الخلق والإيجاد والإمداد والمتابعة، وهذا الأمر نافذ لا محالة، فلا يمكن صده أو رده، وهو شاهد لمعنى الربوبية.

النوع الثاني: إرادة شرعية إلهية يصدر بها أمر ابتلائي خاص للإنسان والجان، قد يلتزمان به وقد يمتنعان، وهذه الإرادة هي المتضمنة للمحبة والعبادة، من استجاب لها أحبه الله وقربه، وأكرمه ونعمه، ومن امتنع عن تنفيذها أبغضه الله ﷻ وأبعده وعذبه.

وقف أعرابي على حلقة فيها عمرو بن عبيد القدري المعتزلي فقال: يا هؤلاء إن ناقتي سرقت، فادعوا الله أن يردها علي؟ فقال عمرو بن

عبيد: اللهم إنك لم ترد أن تسرق ناقته فسرقت فارددها عليه، فقال الأعرابي: لا حاجة لي في دعائك. قال: ولم؟ قال: أخاف كما أراد أن لا تسرق فسرقت أن يريد ردها فلا ترد(١).

وروى عمرو بن الهيثم قال خرجنا في سفينة وصحبنا فيها قدري ومجوسي فقال القدري للمجوسي: أسلم. قال المجوسي: حتى يريد الله، فقال القدري: إن الله يريد، ولكن الشيطان لا يريد، قال المجوسي: أراد الله وأراد الشيطان، فكان ما أراد الشيطان، هذا شيطان قوي، وفي رواية أنه قال: فأنا مع الأقوى(٢).

وعليه فإن المشيئة كونية فقط، ولذلك كل شيء بمشيئة الله، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ الأنعام:٨٣ . وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ الأعراف:١٠٠.

وقال تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ يوسف:٧٦.

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص٢٧٨.

(٢) أخرجه أبو بكر الآجري في الشريعة ٢/٩٦٢، نشر دار الوطن الرياض، وانظر القدر للفريابي ص٢٤٤، نشر دار ابن حزم بيروت، وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص٢٧٨.

وقال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١١٠ ﴾ يوسف: ١١٠.

وقال تعالى: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ١٨ ﴾ الإسراء: ١٨.

وقال تعالى: ﴿ وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ ٦٦ وَلَوۡ نَشَآءُ لَمَسَخۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مُضِيّٗا وَلَا يَرۡجِعُونَ ٦٧ ﴾ يس: ٦٦/٦٧ . وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢ ﴾ الشورى: ٥٢ .

إن الله ﷻ لا يجري في ملكه من خير أو شر، أو نفع أو ضر، أو حلو أو مر، أو غنى أو فقر، أو سر أو جهر، أو وفاء أو غدر، أو نصح أو مكر، أو حركة أو سكون، أو قيام أو قعود، أو حياة أو موت، أو قبض أو بسط، أو إيمان أو كفر إلا بمشيئته، وعلمه وقدرته، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، قال تعالى: ﴿ لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ ٦٥ ﴾ الواقعة: ٦٥. وقال تعالى: ﴿ لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ ٧٠ ﴾ الواقعة: ٧٠.

وقال تعالى: ﴿ يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٦٩ ﴾ البقرة: ٢٦٩.

وقال تعالى: ﴿ ۞ لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾ البقرة:٢٧٢. وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦﴾ آل عمران:٦.

وقال تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٤٧﴾ آل عمران:٤٧ .

وقال تعالى: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝١٢﴾ الشورى:١٢ .

قال ابن القيم رحمه الله: (وهاهنا أمر يجب التنبيه عليه والتنبه له، وبمعرفته تزول إشكالات كثيرة تعرض لمن لم يحط به علما، وهو أن الله سبحانه له الخلق والأمر، وأمره سبحانه نوعان: أمر كوني قدري، وأمر ديني شرعي، فمشيئته سبحانه متعلقة بخلقه وأمره الكوني، وكذلك تتعلق بما يحب وبما يكرهه، كله داخل تحت مشيئته، كما خلق إبليس وهو يبغضه، وخلق الشياطين والكفار والأعيان والأفعال المسخوطة له وهو يبغضها فمشيئته سبحانه شاملة لذلك كله، وأما محبته ورضاه فمتعلقة بأمره الديني، وشرعه الذي شرعه على ألسنة رسله، فما وجد منه تعلقت به المحبة والمشيئة جميعا، فهو محبوب للرب واقع بمشيئته، كطاعات الملائكة والأنبياء والمؤمنين، وما لم يوجد منه تعلقت به محبته وأمره الديني، ولم تتعلق به مشيئته، وما وجد من الكفر والفسوق والمعاصي تعلقت به مشيئته، ولم تتعلق به محبته ولا رضاه ولا أمره الديني، وما لم يوجد منها لم تتعلق به مشيئته ولا محبته، فلفظ المشيئة كوني، ولفظ المحبة ديني شرعي، ولفظ الإرادة ينقسم إلى إرادة كونية، فتكون هي المشيئة، وإرادة دينية فتكون هي

المحبة) [1].

سئل سهل بن عبد الله عن قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ البقرة:٣٤، قال السائل: لما أمر إبليس بالسجود لآدم، أراد منه ذلك أم لا؟ فقال سهل بن عبد الله: أراده ولم يرده [2]. ويعنى أنه أراده شرعا وإيجابا وتكليفا، ولم يرده كونا ووقوعا، فالله ﷻ لا يكون في ملكه إلا ما أراده كونا، فلو أراد وقع السجود كونا لوقع، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ يس:٨٢. وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾ هود:١٠٧. فلما لم يقع السجود علمنا أنه لم يرد وقوعه، ولذلك تحقق في إبليس الأمران معا، إرادة الله له بالتكليف والتعبد، إرادة الله بأن لا يسجد، فإرادة الله على نوعين .

وكل أمْر ديني أمَر به الله ﷻ عباده أراده بأمره الشرعي ليكونوا مكلفين متعبدين، ولم يرده ممن لم يستجب ولم يمتثل بتدبيره الكوني، لأنه سبحانه وتعالى قال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ النحل:٤٠، فأخبر أنه إذا أراد شيئا كونه، فالأمر الشرعي يستلزم الإرادة الدينية، ولا يستلزم الإرادة الكونية، فإنه لا يأمر إلا بما يريده شرعا ودينا، وقد يأمر بما لا يريده كونا وقدرا، كإيمان من أمره، ولم يوفقه للإيمان، فالأمر مراد له دينا لا كونا، وكذلك أمر خليله بذبح

(١) شفاء العليل لابن القيم ص٤٨.

(٢) قوت القلوب في معاملة المحبوب لأبي طالب المكي ١/٢٢٢.

ولده، ولم يرده كونا وقدرا، وأمر رسوله بخمسين صلاة، ولم يرد ذلك كونا وقدرا، وكل ذلك لإظهار فضلهم، وتكليفهم وابتلائهم، فهذا أصل الابتلاء، يأمر الله تعالى بالشيء ويريد كون ضده، وقد أراد الأمر به وحسب، وينهى عن الشيء ويريد كونه، وقد أراد النهى عنه فقط.

والله له الحجة البالغة في خلقه لو شاء لهدي الناس أجمعين قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ السجدة:١٣.

وقال تعالى: ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ هود:١١٩.

قال الشيخ تقي الدين بن تيمية: (أنكر طائفة من السلف والخلف أن الله يريد المعاصي لاعتقادهم أن معناه أن الله يحب ذلك ويرضاه ويأمر به، وأنكر طائفة من السلف والخلف أن الله يريد المعاصي لكونهم ظنوا أن الإرادة لا تكون إلا بمعنى المشيئة لخلقها، وقد علموا أن الله خالق كل شيء وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، والقرآن قد جاء بلفظ الإرادة بهذا المعنى وبهذا المعنى، لكن كل طائفة عرفت أحد المعنيين وأنكرت الآخر) [(١)].

والمحققون من هؤلاء يقولون: الإرادة في كتاب الله تعالى نوعان: إرادة خلقية قدرية كونية، وإرادة دينية أمرية شرعية، فالإرادة الشرعية الدينية هي المتضمنة للمحبة والرضا، والكونية هي المشيئة الشاملة لجميع

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٣٦/٢٠.

الحوادث كقول المسلمين ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن. وهذا كقوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ الأنعام:١٢٥. فهذه الإرادة تعلقت بالإضلال والإغواء وهذه هي المشيئة، فإن ما شاء الله كان، ومنها قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾البقرة:٢٥٣. أي ما شاء خلقه، لا ما يأمر به، وقد يريد بالإرادة المحبة كما يقال لمن يفعل الفاحشة، هذا فعل ما لا يريده الله تعالى، وقد يريد المشيئة كما يقولون لما لم يكن: هذا لم يرده الله[١].

وأما الدينية فكقول الله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ البقرة:١٨ . وقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ النساء: ٢٦/٢٨.

وقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ النساء:٢٦. وقوله: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾﴾ المائدة:٦. فهذه الإرادة في هذه الآيات ليست هي التي يجب مرادها كما في قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا

---

(١) منهاج السنة النبوية لابن تيمية ١٦/٣ بتصرف.

يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ الأنعام:١٢٥. وقول المسلمين ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، بل هي المذكورة في مثل قول الناس لمن يفعل القبائح: هذا يفعل ما لا يريده الله، أي لا يحبه ولا يرضاه ولا يأمر به، وهذا التقسيم في الإرادة قد ذكره غير واحد من أهل السنة، وذكروا أن المحبة والرضا ليست الإرادة الشاملة لكل المخلوقات، كما ذكر ذلك من ذكره من أصحاب أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد، وغيرهم كأبي بكر عبد العزيز وغيره [١].

(١) السابق ١٧/٣ بتصرف.

المطلب الحادي عشر

خلق الكائنات بقدرة الله والمرتبة الرابعة من مراتب القدر

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فقد تحدثنا في المطلب السابق عن مشيئة الله ﷻ، وأنها تمثل المرتبة الثالثة من مراتب القدر، وبينا أن أدلة المنقول والمعقول قد أجمعت على ثبوتها، وأن المعتزلة القدرية نفاة التقدير ضلوا في فهم المشيئة، وأوقعهم ذلك إلى أن جعلوا مشيئة العبد أقوى من مشيئة الرب.

وقد علمنا أن التوحيد الحق أن يعلق العبد أفعاله على مشيئة الله ﷻ، وأن الاحتجاج بمشيئة الله على المعصية له نوعان، وبينا من خلالهما وجه المحاجة التي حدثت بين آدم وموسى عليهما السلام في الاحتجاج بالقدر، وكما علمنا أنه ينبغي على المسلم رد الأمر إلى مشيئة الله ﷻ، فيما هو كائن من الأمور وفيما يستقبل منها.

ثم بينا حكم لو المستقبلية التي تكون في ترتيب الأخذ بالأسباب وإعداد الخطط لترتيب الأحسن منها، وتحدثنا عن الأصول القرآنية في بيان طلاقة المشيئة الإلهية وأنواع تعلقاتها، وبينا الفرق بين مشيئة الله وإرادته، وأن مشيئة الله لا تكون إلا كونية، أما إرادته فهي كونية

وشرعية.

وفي هذا المطلب بإذن الله نتحدث عن المرتبة الرابعة من مراتب القدر، وهي خلق الله لجميع الكائنات، وتنفيذ ما قدره في الكتاب من خطط وتقديرات، وسائر ما كتبه فيه من معلومات تخص كل مخلوق سوف ينشئه الله ﷻ فيما يشاء من أوقات.

- **اعتقاد السلف في المرتبة الرابعة من مراتب القدر.**

اعتقاد السلف أهل السنة والجماعة في إثبات المرتبة الرابعة من مراتب القدر، أنهم يثبتون قدرة الله التي أنشأ بها جميع الموجودات، ويؤمنون بخلقه وتكوينه لجميع الكائنات، وينزهون الله ﷻ أن يكون في ملكه شيء يقع بغير تقدر الله وقدرته، أو إرادته الكونية ومشيئته، فيثبتون علم التقدير السابق على الخلق، وأن العباد يعملون على ما وفق ما قدره الحق، وأن ما جف به القلم في اللوح عند الله ﷻ، واقع محتوم بالمشيئة والقدرة المطلقة، وأنهم لا يشاءون إلا أن يشاء الله، وأنه لا يحدث مخلوق إلا من بعد تقدير الله لوجوده، ثم كتابته في اللوح، ثم مشيئته له، ثم إنشاؤه وصناعته، أو تنفيذه وخلقه، أو إبراؤه أو تصويره، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وهذا عام لكل ما خلق، وما يخلق، وما سيخلق، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ الملك:١٤.

والقدر عند السلف الصالح مبنى على أمرين اثنين: الأمر الأول التقدير. والأمر الثاني القدرة. فبدايته في التقدير، وهو العلم السابق، أو علم التقدير، وحساب المقادير، وهو تقدير كل شيء قبل تصنيعه

وتكوينه، وتنظيم أمور الخلق قبل إيجاده وإمداده، فهذا العلم هو التقدير الجامع التام، وهو حساب النظام العام، الذي كتبه الله ﷻ في اللوح المحفوظ أو أم الكتاب، وقد شاء كونه في الوقت المعلوم الذي يحدده بمشيئته، وهذا قضاء الله الكوني الذي يسير عليه الكون بمنتهى الدقة والإتقان من بدايته إلى نهايته.

كما قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ الأنعام: ٥٩.

وإذا كانت بداية القدر في التقدير ثم الكتابة والمشيئة، فإن نهايته في الخلق والتنفيذ بالقدرة وتحقيق المقدر، أعني قدرة الله تعالى على تحقيق ما قدره في علمه، وخلق ما كتبه في لوحه، وما شاء تكوينه في الواقع، فلا تتحرك ذرة فما فوقها إلا بعد تقديرها في علمه، وبعد كتابتها في لوحه وبعد مشيئته وقدرته، فبداية القدر علم التقدير، والنهاية في القدرة وإيجاد المقادير، ولذلك قال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾ الأحزاب: ٣٨.

ويذكر العلامة ابن القيم أن القضاء والقدر منشؤه عن تقدير الخلائق في علم الرب ثم قدرته، ولهذا قال الإمام أحمد: القدر قدرة الله[(١)]، واستحسن ابن عقيل هذا الكلام من الإمام أحمد غاية الاستحسان، وقال: إنه شفي بهذه الكلمة، وأفصح بها عن حقيقة القدر. ولهذا كان

---

(١) أخرجه ابن بطة في الإبانة ٢/٢٦٢ (١٨٧٩)، نشر دار الراية للنشر السعودية، وأبو بكر الخلال في السنة ٣/٥٤٤ (٩٠٤)، نشر دار الراية.

المنكرون للقدر فرقتين:

١-فرقة كذبت بعلم التقدير ونفته، وهم غلاتهم الذين كفرهم السلف والأئمة وتبرأ منهم الصحابة.

٢- فرقة جحدت كمال القدرة، وأنكرت أن تكون أفعال العبادة مقدورة لله تعالى، وصرحت بأن الله ﷻ لا يقدر عليها، فأنكر هؤلاء كمال قدرة الرب وأنكرت الأخرى كمال علمه وتقديره [١].

- القدرية مجوس الأمة والجبرية خالفوا أهل السنة في مرتبة الخلق.

المعتزلة يُطلق عليهم القدرية مجوس الأمة؛ لأنهم طعنوا في قدرة الله ولم يؤمنوا باسمه القدير، وخالفوا اعتقاد أهل السنة، ولم يؤمنوا بأن الله ﷻ قادر على أن يخلق الأشياء عما قدرها في علم التقدير، فأخرجت القدرية طاعة ملائكته وأنبيائه ورسله وعباده المؤمنين عن قدرة الله وربوبيته، وخلقه تكوينه ومشيئته، بل جعلوهم هم الخالقون لأفعالهم، ولا تعلق لها بمشيئته، ولا تدخل تحت قدرته [٢].

وكذلك أخرجت فرقة القدرية جميع أفعال الإنسان التي يفعلها باختياره عن قدرة الله وربوبيته، ووصفوا الله ﷻ بالعجز والنقص، فعندهم أنه سبحانه لا يقدر أن يهدي ضالا، ولا يضل مهتديا، ولا يقدر أن يجعل المسلم مسلما، والكافر كافرا، والمصلي مصليا، وإنما ذلك يكون بجعلهم أنفسهم كذلك، وانفرادهم بخلقهم لأفعالهم،

(١) طريق الهجرتين لابن القيم ص ١٦٣ بتصرف.
(٢) شفاء العليل لابن القيم ص٤٩ بتصرف.

فوصفوا الإنسان بالكمال والقدرة، وخلق ما يشاء من الأفعال، ووصفوا رب العزة والجلال بالعجز وعدم القدرة على خلق ما يشاء من الأفعال، فسبحان ربك رب العزة عما يصفون.

وقد نادى القرآن، بل الكتب السماوية كلها والسنة وأدلة التوحيد والعقول على بطلان قولهم، وتصدى لهم أهل العلم والإيمان في كشف ضلالهم، وصنفوا التصانيف، وألفوا الأسفار في الرد على بغيهم وغيهم، وهي أكثر من أن يحصيها إلا الله ﷻ.

ولم يزل سلفنا الصالح وأئمة الهدى يدفعون الأذى عن كتاب ربهم وسنة نبيهم، ويدافعون عن عقيدتهم وتوحيدهم لربهم، ويأخذون على أيدي القدرية، ويردون باطلهم بالحق المحض، ويهدمون بدعتهم بالسنة التي لا يقوى على مواجهتها أحد[1].

وفي المقابل ظهرت فرقة الجبرية فطعنوا في حكمة الله، ولم يؤمنوا باسمه الحكيم، وردوا بدعة القدرية ببدعة تقابلها، وقابلوا باطلهم بباطل من جنسه، وقالوا: إن العبد مجبور على أفعاله، مقهور عليها، لا تأثير له في وجودها البتة، وهي واقعة بإرادة الله واختياره.

وغلا غلاتهم فقالوا: بل أفعال العبد هي عين أفعال الله، ولا ينسب إلى العبد إلا على سبيل المجاز، والله سبحانه يلوم العبد ويعاقبه، ويخلده في النار على ما لم يكن للعبد فيه مجال، ولا استطاعة له في شيء من فعله، بل هو محض فعل الله وقضائه وقدره، وهذا قول

---

(١) السابق ص٤٩ بتصرف.

الجبرية، وهو إن لم يكن شرا من القدرية، فليس بأقل منه في البطلان.

ومعلوم أن إجماع الرسل، واتفاق الكتب الإلهية، وأدلة المعقول والفطر والعيان يكذب هذا القول ويرده، وهاتان الطائفتان القدرية والجبرية قد أصابهما العور، بل هم في ضلال وعمى عن الحق القويم والصراط المستقيم[1].

- **أهل السنة يؤمنون باقتران القدرة والحكمة والخلق والعدل.**

أما عقيدة أهل السنة والجماعة فهم لا مع هؤلاء القدرية، ولا مع هؤلاء الجبرية، فهم حكم بين الطوائف، لا يتحيزون إلى فئة منهم على الإطلاق، ولا يردون حقا ولو وجدوه عند طائفة من الطوائف، ولا يقابلون بدعة ببدعة، ولا يردون باطلا بباطل، ولا يحملهم شنآن قوم يعادونهم ويكفرونهم على أن لا يعدلوا فيهم، بل يقولون فيهم الحق، ويحكمون في مقالاتهم بالعدل.

والله ﷻ أمر رسوله ﷺ أن يعدل بين الطوائف فقال: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٥﴾ الشورى:١٥ .

لقد أمر الله نبيه ﷺ أن يدعو إلى دينه وكتابه، وأن يستقيم في نفسه، كما أمره أن لا يتبع هوى أحد من الفرق، وأن يؤمن بالحق جميعه، ولا يؤمن ببعضه دون بعض، وأن يعدل بين أصحاب المقالات

---

(١) السابق ص٤٩ بتصرف.

والديانات، فأهل السنة هم أحق بكلمة التقوى وأهلها، وهم في مسألة الإيمان بالخلق والتقدير ومراتب القدر وغيرها أسعد الناس بالحق من جميع الطوائف الضالة، فإنهم يثبتون قدرة الله ﷿ وانفراده بخلق جميع الموجودات، وأفعال جميع الكائنات، وأن مشيئته عامة وسارية فيهم، وينزهون الله ﷿ أن يكون في ملكه ما لا يقدر عليه، ولا هو واقع تحت مشيئته، ويثبتون التقدير السابق والقدرة معا، وأن العباد يعملون وفق ما قدره الله وقضاه، وكتبه في اللوح وفرغ منه، وأنهم لا يشاءون إلا أن يشاء الله، ولا يفعلون إلا من بعد مشيئة الله، وإنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا تخصيص عندهم بحيث يمكن لأحد أن يستثنى من مشيئة الله وقدرته [١].

والقدر عندهم تقدير الله وقدرته، ومشيئته وتكوينه وتخليقه، فلا تتحرك ذرة فما فوقها إلا بتقديره وقدرته، فهم المؤمنون بلا حول ولا قوة إلا بالله على الحقيقة لا على المجاز، ويؤمنون بأن من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأنه سبحانه هو الذي قضى وقدر، وخلق المسلم مسلما، والكافر كافرا، والمصلي مصليا، والمتحرك متحركا، وهو الذي يسير عبده في البر والبحر، والعبد سائر مختار يتقلب في اختياره بين عدل الله وحكمته، ومشيئته وقدرته، فالعبد أيضا له إرادة وقدرة، واختيار لفعله على الحقيقة لا على المجاز.

وهم متفقون على أن الفعل غير المفعول، ففعل العبد غير كونه مخلوقا مفعولا لله ﷿، فحركات العباد ونياتهم واعتقاداتهم أفعال لهم

---

(١) السابق ص٥٢ بتصرف.

حقيقة، وهي مفعولة لله سبحانه مخلوقة له حقيقة، والله ﷻ يُنسَب إليه العلم والقدرة والمشيئة والتكوين، وكل ذلك من صفاته القائمة به، والذي ينسب إلى العباد ويقوم بهم، هو فعلهم وكسبهم وحركاتهم وسكناتهم، فهم المسلمون التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله والصابرون على كل ذلك .

وهو سبحانه الذي قدر ذلك فيهم قبل خلق السماوات والأرض، وكتبه عليهم في اللوح، ثم شاء كونهم وخلقهم هم وأفعالهم، فما يشاءون إلا أن يشاء الله، وما يفعلون إلا أن يشاء الله ﷻ.

وإذا وازنت بين اعتقاد أهل السنة أو وازنت بين هذا المذهب الحق وما عداه من مذاهب الضلال وجدته، هو المذهب الوسط، والصراط المستقيم، ووجدت سائر المذاهب خطوطا عن يمينه وعن شماله، فإما قريب منه وبعيد، وإما متردد بين ذلك من قريب أو بعيد [(١)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (إن أئمة أهل السنة يقولون إن الله خالق أفعال العباد، كما أن الله ﷻ خالق كل شيء، وإنه تعالى خالق الأشياء بالأسباب، وإنه خلق للعبد قدرة بها يكون فعله، وإن العبد فاعل لفعله حقيقة فقولهم في خلق فعل العبد بإرادته وقدرته كقولهم في خلق سائر الحوادث بأسبابها، وقد دلت الدلائل اليقينية على أن كل حادث فالله خالقه، وفعل العبد من جملة الحوادث، وكل ممكن يقبل الوجود والعدم، فإن شاء الله كان، وإن لم يشأ لم يكن، وفعل

---

(١) السابق ص٥٢ بتصرف.

العبد في جملة الممكنات)[1].

- **الأدلة النقلية على إثبات الخلق والقدرة والرد على المخالفين.**

من مراتب الإيمان بالقدر مرتبة خلق الأشياء وتكوينها، وتصنيعا وتنفيذها، على وفق ما قُدر لها بمشيئة الله في اللوح المحفوظ، وذلك يقتضي خلق الله لأفعال المكلفين، ودخولها تحت قدرته ومشيئته كما دخلت تحت تقديره وكتابه، ويقتضي أيضا بطلان مذهب المعتزلة القدرية الذين أخرجوا أفعال العباد من تقدير الله وقدرته، وزعموا أن الله ﷻ لم يقدرها، ولم يخلقها[2].

ومن الأدلة القرآنية على إثبات خلق الله ﷻ لجميع الأشياء، وتقديره لجمع أفعال العباد، مهما كان نوعها خيرا أو شرا ما يلي:

١- قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ٦٢﴾ الزمر:٦٢. وهذا عام محفوظ، لا يخرج عنه شيء، فالعالم بما فيه من كائنات وموجودات بجميع أعيانها وأفعالها وحركاتها وسكناتها، وذاتها وصفاتها، فإنه سبحانه هو الخالق لها، وما سواه مخلوق له.

واللفظ قد فرق بين الخالق والمخلوق، وصفاته سبحانه داخله في مسمى اسمه، فإن الله سبحانه اسم للإله الموصوف بكل صفة كمال، المنزه عن كل صفة نقص ومثال، والعالم قسمان: أعيان وأفعال، وهو الخالق لأعيانه، وما يصدر عنها من الأفعال، كما أنه العالم بتفاصيل

---

(١) منهاج السنة النبوية لابن تيمية ٣/٢٩.

(٢) شفاء العليل لابن القيم ص٥٣ بتصرف.

ذلك، فلا يخرج شيء عن علمه، ولا عن قدرته، ولا عن خلقه ومشيئته .

٢- قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾ البقرة:٢٨٤. وهذا يدل على قدرة الله سبحانه على خلق أفعال العباد، لأن أفعالهم أشياء ممكنة، والله قادر على كل ممكن، فهو الذي جعلهم فاعلين بقدرته ومشيئته، ولو شاء لحال بينهم وبين الفعل مع سلامة جوارحهم وآلة الفعل منهم.

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾ البقرة:٢٥٣ .

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ يونس:٩٩ .

فهو سبحانه يحول بين المرء وقلبه، وبين الإنسان ونطقه، وبين اليد وبطشها، وبين الرجل ومشيها، فكيف يظن به القدرية ظن السوء، ويجعلون له مثل السوء في أنه لا يقدر على ما يقدر عليه عباده، ولا تدخل أفعالهم تحت قدرته، تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون لقدرته علوا كبيرا(١).

٣- قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم

---

(١) انظر شفاء العليل لابن القيم ص٥٤ بتصرف.

بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ النحل: ٨١ .

والآية دليل على خلق الله لأعمال العباد، حيث أخبر أنه هو الذي جعل السرابيل، وهي الدروع والثياب المصنوعة، ومادتها لا تسمى سرابيل إلا أن بعد تحيلها صنعة الآدميين وعملهم، فإذا كانت مجعولة لله ﷻ فهي مخلوقة له بجملتها وصورتها ومادتها وهيآتها.

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ﴿٨٠﴾﴾ النحل: ٨٠. فأخبر سبحانه أن البيوت المصنوعة المستقرة والمتنقلة مجعولة له، وهي إنما صارت بيوتا بالصنعة الآدمية.

ونظيره قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقۡنَا لَهُم مِّن مِّثۡلِهِۦ مَا يَرۡكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ يس: ٤١/٤٢. فأخبر سبحانه وتعالى أنه خالق الفلك المصنوع من قِبَل العباد.

٤- قوله تعالى عن آل فرعون: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾ القصص: ٤١. فأخبر سبحانه أنه هو الذي جعل أئمة الشر يدعون إلى النار، كما جعل أئمة الخير يدعون إلى الهدى، فتلك الإمامة والدعوة بجعله، فهي مجعولة له، وفعل لهم كما قال عن أئمة الهدى:

﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ الأنبياء: ٧٣. فأخبر أن هذا

وهذا بجعله وخلقه وتقديره، مع كونه كسبا وفعلا للأئمة.

ونظير ذلك قول الخليل إبراهيم: ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ﴾ البقرة: ١٢٨. فأخبر الخليل عليه السلام أن الله هو الذي يجعل المسلم مسلما على اعتبار التخليق بمشيئته وإرادته الكونية[١] .

٥- ومن ذلك إخباره سبحانه بأنه هو الذي يلهم العبد فجوره وتقواه، قال تعالى: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ الشمس:٧/١٠. والإلهام الإلقاء في القلب، لا مجرد البيان والتعليم، إذ لا يقال لمن بين لغيره شيئا وعلمه إياه أنه قد ألهمه ذلك، هذا لا يعرف في اللغة، بل الصواب أنه جعل فيها فجورها وتقواها.

وعليه ما ورد عن مسلم في صحيحه من حديث عمران بن حصين أنَّ رَجُلَيْنِ مِنْ مُزَيْنَةَ أَتَيَا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ الْيَوْمَ وَيَكْدَحُونَ فِيهِ، أَشَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى فِيهِمْ مِنْ قَدَرٍ قَدْ سَبَقَ؟ أَوْ فِيمَا يُسْتَقْبَلُونَ بِهِ مِمَّا أَتَاهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ وَثَبَتَتْ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ؟ فَقَالَ: لا، بَلْ شَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى فِيهِمْ، وَتَصْدِيقُ ذلك فِي كِتَابِ اللهِ عز وجل: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨﴾ الشمس:٧/١٠ [٢].

(١) السابق ص٥٣ بتصرف.

(٢) رواه مسلم في كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمى فى بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته ٤/٢٠٤١ (٢٦٥٠).

فقراءته هذه الآية عقيب إخباره بتقديم القضاء والتقدير السابق يدل على أن المراد بالإلهام استعمالها فيما سبق لها، لا مجرد تعريفها، فإن التعريف والبيان لا يستلزم وقوع ما سبق به القضاء والقدر.

٦- قوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝١٣ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٤﴾ الملك:١٣/١٤. وذات الصدور كلمة لما يشتمل عليه الصدر من الاعتقادات والإرادات والحب والبغض، أي صاحبة الصدور، فإن الأعمال لما كانت فيها قائمة بها نسبت إليها نسبة الصحبة والملازمة.

ووجه الاستدلال أنه عليم بذات الصدور لخلقه لها والتقدير لما تضمنته الصدور، وكيف لا يعلم الخالق ما خلقه وهذا الاستدلال في غاية الصحة والظهور، فإن الخلق يستلزم حياة الخالق وقدرته وعلمه ومشيئته. فالآية دالة على خلق ما في الصدور كما هي، وكيف يخفى عليه ما في الصدور وهو الذي خلقه، فلو كان ذلك غير مخلوق لله لبطل الاستدلال بالنص على صفة العلم فخلقه سبحانه للشيء من أعظم الأدلة على علمه به، فإذا انتفى الخلق انتفى دليل العلم.

٧- قوله تعالى حكاية عن خليله إبراهيم عليه السلام أنه قال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ إبراهيم:٤٠. وقوله: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ﴾ إبراهيم:٣٧. وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً﴾ الحديد:٢٧ . وقوله تعالى حكاية عن زكريا عليه السلام أنه قال عن ولده: ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾ مريم:٦ .

وقال تعالى عن أعداء الله في الطرف الآخر: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ﴾ المائدة:١٣. وقال: ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ الإسراء:٤٦. وهذه الأكنة والوقر هي شدة البغض والنفرة والإعراض التي لا يستطيعون معها سمعا ولا عقلا، فتلك النفرة والإعراض والبغض من أفعالهم، وهي مجعولة لله سبحانه، كما أن الرأفة والرحمة، وميل الأفئدة إلى بيته هو من أفعالهم، والله ﷻ جاعله، فهو الجاعل للذوات وصفاتها وأفعالها، وإراداتها واعتقاداتها، فذلك كله مجعول مخلوق له، وإن كان العبد فاعلا له باختياره وإرادته وقدرته واستطاعته(١).

٨- قوله تعالى: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۝٧ ﴾ الحجرات: ٧. فتحبيبه سبحانه الإيمان إلى عباده المؤمنين هو إلقاء محبته في قلوبهم، وهذا لا يقدر عليه سواه، وأما تحبيب العبد الشيء إلى غيره، فإنما هو بتزيينه، وذكر أوصافه، وما يدعو إلى محبته، فأخبر سبحانه أنه جعل في قلوب عباده المؤمنين الأمرين: حبه وحسنه الداعي إلى حبه. وألقى في قلوبهم كراهة ضده من الكفر والفسوق والعصيان، وأن ذلك محض فضله ومنته عليهم حيث لم يكلهم إلى أنفسهم، بل تولى هو سبحانه هذا التحبيب والتزيين وتكريه ضده، فجاد عليهم به، فضلا منه ونعمة، والله ﷻ عليم بمواقع فضله، ومن يصلح له، ومن لا يصلح، حكيم بجعله في

---

(١) شفاء العليل لابن القيم ص٥٦ بتصرف.

مواضعه(١).

٩- قوله: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٢ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٦٣﴾ الأنفال:٦٢/٦٣.

وتأليف القلوب جعل بعضها يألف ويميل إليه ويحبه، وهو من أفعالها الاختيارية، وقد أخبر سبحانه أنه هو الذي فعل ذلك لا غيره.

١٠- قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١١﴾ المائدة:١١. فأخبر سبحانه بفعلهم وهو الهم، وأخبر بفعله وهو كفهم عما هموا به، ولا يصح أن يقال أنه سبحانه أشل أيديهم وأماتهم، وأنزل عليهم عذابا حال بينهم وبين ما هموا به، بل كف قدرتهم وإرادتهم مع سلامة حواسهم وبنيتهم وصحة آلات الفعل منهم.

١١- قوله تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه قال: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ٣٥﴾ إبراهيم:٣٥.

فها هنا أمران: تجنيب عبادتها، واجتنابه، فسأل الخليل ربه أن يجنبه وبنيه عبادتها ليحصل منهم اجتنابها، فالاجتناب فعلهم، والتجنيب فعله، ولا سبيل إلى فعلهم إلا بعد فعله ونظير ذلك.

---

(١) السابق ص٥٧ بتصرف.

١٢- قول يوسف الصديق: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾ يوسف:٣٣/٣٤ .

وصرف كيدهن هو صرف دواعي قلوبهن ومكرهن بألسنتهن وأعمالهن، وتلك أفعال اختيارية، وهو سبحانه الذي صرفها، فالصرف فعله والانصراف أثر فعله، وهو فعل النسوة[1] .

وفاتحة الكتاب من أولها إلى آخرها دالة علي انفراد الله بتقدير أفعال العباد، ووقوعها بالتمام على ما قدرها، فهي صريحة في الدلالة على ذلك، فقوله : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ الفاتحة:٢. إن كان حمده لا يقتضي التقدير والقدرة وكمال الخلق والإيجاد والرعاية والإمداد وكمال ربوبيته للعالمين، فكيف يكون الحمد كله لمن لا يقدر على الخلق والإيجاد والرعاية والإمداد لأهل سماواته وأرضه من الملائكة والجن والإنس والطير والوحش، بل يفعلون ما لا يقدر عليه ولا يشاءه، ويشاء ما لا يفعله كثير منهم، فيشاء ما لا يكون، ويكون ما لا يشاء؟! وهل يقتضي ذلك كمال حمده؟! وهل يقتضيه كمال ربوبيته؟! لا شك أن حمده وملكه ينافي ما ذهب إليه أهل الضلال من القدرية أهل الاعتزال في زعمهم أن الله لا يقدر أن يخلق أفعال عباده.

ثم قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ الفاتحة:٥. مبطل لقول القدرية والجبرية، الطائفتين المنحرفتين عن قصد السبيل، فإنه يتضمن

(١) السابق ص٥٩ بتصرف.

إثبات فعل العبد، وقيام العبادة به حقيقة، فهو العابد على الحقيقة، وأن ذلك لا يحصل له إلا بإعانة رب العالمين ﷻ له، فإن لم يعنه ولم يُقْدِره، ولم يشأ له العبادة، لم يتمكن منها، ولم توجد منه البتة، فالفعل والإقدار والإعانة من الرب ﷻ.

ثم قوله تعالى: ﴿ اَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ ﴾ الفاتحة:٦. يتضمن طلب الهداية ممن هو قادر عليها، وهي بيده، إن شاء أعطاها عبده، وإن شاء منعه إياها، والهداية معرفة الحق والعمل به، فمن لم يجعله الله تعالى عالما بالحق عاملا به لم يكن له سبيل إلى الاهتداء، فهو سبحانه المتفرد بالهداية الموجبة للاهتداء التي لا يتخلف عنها، وهي جعل العبد مريدا للهدى، محبا له، مؤثرا له عاملا به، فهذه الهداية ليست إلى ملك مقرب، ولا نبي مرسل، وهي التي قال سبحانه فيها: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ القصص:٥٦. مع قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ الشورى:٥٢. فهذه هداية الدعوة والتعليم والإرشاد، وهي التي هدى بها ثمود فاستحبوا العمى عليها، وهي التي قال تعالى فيها: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾ التوبة:١١٥. فهداهم هدى البيان الذي تقوم به حجته عليهم، ومنعهم الهداية الموجبة للاهتداء التي لا يضل من هداه بها، فذاك عدله فيهم وهذه حكمته فأعطاهم ما تقوم به الحجة عليهم، ومنعهم ما ليسوا له بأهل، ولا يليق بهم [(١)].

---

(١) السابق ص٥٣ بتصرف.

- **خلق الله الدنيا بعلل ومعلولات إظهارا لحكمته.**

والله ﷻ خلق الدنيا بأسباب تؤدي إلى نتائج، وعلل تؤدي إلى معلولات، السبب والنتيجة، أو العلة والمعلول مخلوقان بمراتب القدر، سواء ارتبط المعلول بعلته أو انفصل عن علته، أو ارتبط السبب بنتيجته أو انفصل عن نتيجته، فالعلل والأسباب سواء ترابطت، أو انفصلت فلا يؤثر ذلك في تعلقها بمراتب القدرة، ولكن العلل والأسباب ترابطها أو انفصالها ظاهر عن كمال الحكمة.

وبيان ذلك أن الله بنى الحياة على ترابط الأسباب بحيث لا يخلق النتيجة إلا إذا خلق السبب أولا، ولا يخلق المعلول إلا إذا خلق علته، فلا يخلق النبتة إلا إذا خلق البذرة أو الحبة، ولا يخلق الثمرة إلا إذا خلق النبتة، لا يخلق الابن إلا إذا أوجد الأب والأم.

ومن هنا ظهرت الأسباب للعقلاء كابتلاء يصح من خلاله العمل بأحكام البديهيات، وحكم التجارب والأوليات، فأهل اليقين ينظرون إلى الأسباب، ويعلمون أن الله ﷻ خلقها بمراتب القدر، فيجدون أنه سبحانه تارة ينسب الفعل إليه، لأنه الخالق بتقدير وقدرة، وتارة ينسب الفعل إليهم عند دعوتهم إلى العمل بمقتضى الشريعة والعقل والحكمة، فمرة يقول في بيان التقدير والقدرة: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ الواقعة:٦٣/٦٤.

وقال أيضا: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾

﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾ عبس:٢٤/٣٢. فنفى عن الناس خلقهم لأفعالهم، وتأثير الأسباب في خلق رزقهم، وأثبت لنفسه الأفعال وتصريف الأسباب، لأنه الخالق في الحقيقة، الذي علم وكتب وشاء وخلق، قدر كل شيء في علمه، وكتبه في أم الكتاب بقلمه، وأمضاه بمشيئته، وخلقه بقدرته إظهارا لتوحده في ربوبيته.

ثم أمر الناس أن يأخذوا بالأسباب التي خلقها، وأحكم لهم تدبيرها وجريانها، إظهار لحكمته وتوحيده في عبوديته، وعملا بشريعته كما قال جل في علاه: ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ يوسف:٤٧. وقال أيضا: ﴿ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ الفتح:٢٩. فسماهم زراعا وقال تزرعون، وسماهم كفارا لأنهم يكفرون البذرة أي يضعونها في الأرض ويغيبونها ويغطونها، وذلك أننا في دار ابتلاء وامتحان، والأخذ بالأسباب حتم على بني الإنسان، فهم مستخلفون في ملكه، مخولون في أرضه، فطالبنا بالعمل والإنفاق، ليصل كل منا إلى ما قدره الله له الأرزاق.

قال تعالى: ﴿ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ ﴾ الحديد:٧ .

ومن ثم فإن الدنيا دار ابتلاء وامتحان، ولا بد أن يجتازها الإنسان، وهو في هذه الدار بالخيار، حر بين نجدين يوصلان إلى جنة أو نار، كل ذلك ليؤول الناس إلى مصيرهم بعد الحساب، ويتم ما قدره الله في أم الكتاب، قال تعالى: ﴿ فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ ﴾ الشورى:٧.

فكل ميسر لما خلق له، وكل سينال ما قدر الله له .

إن الله تعالى أظهر الدنيا أسبابا، ونسب الفعل إلى أهلها لإظهار حكمته عند دعوتهم لتوحيد الله بالعبودية، ونسب الفعل وأثبته لنفسه في موضع آخر لإظهار قدرته عند دعوتهم لتوحيد الله بالربوبية.

قال تعالى: ﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴾ السجدة:١١. فنسب التوفي إلى الملك الذي كلفه بمباشرة الأسباب. وقال أيضا: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ الأنعام:٦١. وذلك عند الاحتضار فتجتمع الملائكة ويجلسون منه على مد البصر، ثم يقومون بجذب الروح إلى الحلقوم، وعندها يأتي ملك الموت ليخرجها إلى الجنة أو العذاب.

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ الأنعام:٩٣.

ثم نفى الله استقلال الأسباب وتأثيرها، واستقلال الملائكة لخلق أفعالها وتدبيرها، وأظهر نفسه وفعله، وخلقه وتدبيره وأمره، فقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ﴾ الزمر:٤٢. وذلك ليعلم الجميع كيف يوحدون الله في الربوبية عند النظر إلى خالق الأسباب من جهة؟ وكيف يوحدون الله في العبودية عند أخذهم بالأسباب من جهة أخرى؟

وكذلك قال سبحانه في تفصيل أحكام الشرع وتكليف العباد

بالأمر، ابتلاءا لهم في هذه الدار، وانتقالا منها إلى دار القرار، فكلفهم بالجهاد والقتال فقال: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠﴾ البقرة: ١٩٠.

وقال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ١٩٥﴾ آل عمران: ١٩٥.

كلفهم بالقتال وجعله للمؤمنين امتحانا واختبارا، فقال الله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣٦﴾ التوبة: ٣٦. وقال تعالى: ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١٠﴾ الحديد: ١٠.

وقال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤﴾ التوبة: ١٤.

كل ذلك ليكلفهم بتوحيد العبودية والطاعة له في الأخذ بأسباب النصر والعزة لله ولرسوله ﷺ، وأن يطيعوا الله ﻷ ويجاهدوا في سبيله، إظهارا للشرائع والأحكام، وتحقيقا لمعاني التوحيد والإسلام.

ثم قال في توحيد الربوبية ونسبة الفضل إليه في انتصارهم على أعدائهم: ﴿فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ﴾ الأنفال: ١٧. ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ١٢٦﴾ آل عمران: ١٢٦. حتى لا ينسبوا الفضل إلى أنفسهم ولا

يدخل العجب بالنفس إلى قلوبهم، فيقولون: انتصرنا وعبرنا بقوتنا وقدرتنا، وقاتلنا بخبرتنا وحنكة قائدنا، فلولاه لهزمنا وقتلنا وأسرنا وغير ذلك مما تدندن عليه النفس الأمارة بالسوء، فالله ﷻ ما نسب إليهم الأسباب إلا لأن الشرائع تتعلق بها، أما هي في حقيقها فلا تخرج عن مشيئة خالقها الذي دبر أمرها، ورتب ترابطها، وتوالِي حدوثها، والذي تكفل بها خلقا وإمدادا، فقال الله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ الأنفال:١٧.

قال ابن تيمية: (وجمهور أهل السنة المثبتة للقدر من جميع الطوائف يقولون: إن العبد فاعل لفعله حقيقة، وإن له قدرة حقيقة، واستطاعة حقيقة، ولا ينكرون تأثير الأسباب الطبيعية، بل يقرون بما دل عليه الشرع والعقل من أن الله يخلق السحاب بالرياح، وينزل الماء بالسحاب، وينبت النبات بالماء، ولا يقولون أن القوى والطبائع الموجودة في المخلوقات لا تأثير لها، بل يقرون بأن لها أثر لفظا ومعنى، لكن يقولون هذا التأثير هو تأثير الأسباب في مسبباتها، والله تعالى خالق السبب والمسبب، ومع أنه خالق السبب فلا بد للسبب من سبب آخر يشاركه، ولابد من معارض يمانعه، فلا يتم أثره إلا مع خلق الله له، بأن يخلق الله السبب الآخر ويزيل الموانع، فالمسببات حينئذ يجب وجودها عند وجود أسبابها، بمعنى أن الله تعالى يحدثها حينئذ، ويشاء وجودها) (١).

(١) منهاج السنة النبوية لابن تيمية ١٢/٣ وما بعدها بتصرف.

- المؤمن لا يتغافل عن القدرة بدعوى الانشغال في الحكمة.

منهج التوحيد ألا يتغافل الموحد عن قدرته سبحانه بدعوى الانشغال في النظر إلى حكمته، وألا يتغافل عن شرعه وحكمته بدعوى الانشغال في النظر إلى قدرته.

والله تعالى كما سبق قد أظهر الدنيا أسبابا ونسب الفعل إلى أهلها لإظهار حكمته، ونسب الفعل وأثبته لنفسه في موضع آخر إظهارا لقدرته، فلا يتغافل العبد عن قدرته بدعوى الانشغال في النظر إلى حكمته، وأن الأسباب حاكمة على مشيئة الله وقدرته، وصارمة لا يمكن أن يتخلف المعلول فيها عن علته، فالله ﷻ يخلق بأسباب وبغير أسباب، إن خلق بأسباب فهي العادات، وإن خلق بغير أسباب فهي خوارق العادات، أو الكرامات والمعجزات. إن الثمرة يخلقها الله تعالى بعد خلق النبتة، ويربط خلق الثمرة بوجود النبتة، ويمكن أن يخلق الثمرة من غير نبتة، ودون وجودها، فهذه مريم قال الله سبحانه وتعالى في شأنها: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ٣٧﴾ آل عمران:٣٧.

قال المفسرون: كانت ترزق بفاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف[1].

وهى قد علمت أن الذي يخلقها بأسباب يخلق بغير أسباب، ويرزق

---

(١) تفسير الطبري ٣/٢٤٥، وتفسير البغوي ١/٢٩٧، وتفسير الألوسي ٣/١٤٠ نشر دار إحياء التراث العربي بيروت، وزاد المسير لابن الجوزي ١/٣٨٠.

بحساب من العبد أو بغير حساب، ولذلك كان من قوة يقينها أن الله ﷻ اختارها لأعظم ابتلاء، وأنها ستحمل على غير عادة النساء، وتلد عيسى عليه السلام كمعلول بغير علة، ونتيجة بلا سبب، قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ﴿١٧﴾ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ﴿١٩﴾ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ﴿٢١﴾﴾ مريم:١٦/٢١.

ما المقصود بقوله هين؟ هل هناك شيء يعز خلقه على الخالق؟ أبدا، ولكن الأسباب يخلقها الله ﷻ بمراتب القدر، ومراتب القدر في الخلق بأسباب، ومن خلال العادات أكثر من مراتب القدر في الخلق بغير أسباب، ومن خلال خوارق العادات، فالولد في الأسباب يوجد من أب وأم، فالأب له أربع مراتب، والأم كذلك، والولد كذلك، فجموع المراتب اثنتا عشرة مرتبة، أما الولد في حالة عيسى ﷻ فقد وجد من أم بلا أب، فجموع المراتب ثمان، ومن ثم فإن خوارق العادات أهون من العادات؟ وأهون من ذلك خلق آدم عليه السلام من غير أب ولا أم.

ولذلك قال الله تعالى في مجمل الخلق: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ الروم:٢٧. وقال سبحانه في إعادته للخلائق مرة أخرى: ﴿أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي

﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ يس: ٨١/٨٣ .

• مرتبة الخلق يرد إليها خلق العلة بلا معلول.

وقد يخلق الله العلة ولا يخلق معلولها، كما فعل بإبراهيم عليه السلام قال تعالى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ الأنبياء:٦٨/٦٩.

وقال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ العنكبوت:٢٤.
أضرموا نارا لا يقوى الطير على المرور من فوقها، توفرت لهم العلة، ولكن الله عز وجل لم يخلق لهم معلولها وهو إحراقها.

وروى البخاري من حديث أنس بنِ مالكٍ رضي الله عنه: أنَّ يَهودِيَّةً أتَتِ النبيَّ صلى الله عليه وسلم بشاةٍ مَسمومةٍ، فأكَل منها، فجيء بها، فقيل: ألا نقتُلها؟ وفي رواية مسلم: فَجِيءَ بِهَا إلى رَسُول اللهِ صلى الله عليه وسلم. فَسَأَلَهَا عَنْ ذلك؟ فقالَتْ: أَرَدْتُ لأَقْتُلك. قَال: مَا كَانَ اللهُ لِيُسَلطَكِ عَلَى ذاكِ، أَوْ قَال: عَليَّ. قَال قَالوا: أَلاَ نَقْتُلها؟ قَال: لاَ)[1].

وعند البخاري من حديث عامِرِ بْنِ رَبِيعَةَ رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا تَقُول: (لَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ قَال: لَيْتَ رَجُلا مِنْ أَصْحَابِي صَالِحًا يَحْرُسُنِي اللَّيْلَةَ، إِذ سَمِعْنَا صَوْتَ سِلاحٍ، فَقَال: مَنْ هَذا؟ فقال:

---

(١) رواه البخاري في كتاب الهبة وفضلها، باب قبول الهدية من المشركين ٢/٩٢٣ (٢٤٧٤)، ومسلم واللفظ له في كتاب السلام، باب السم ٤/١٧٢١ (٢١٩٠).

أنَا سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ جِئْتُ لأَحْرُسَكَ، وَنَامَ النَّبِيُّ ﷺ)[1].

وعند البخاري من حديث جابر بن عبد الله ﵁ أَنَّهُ غَزَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَأَدْرَكَتْهُمْ القَائِلَةُ فِي وَادٍ كَثِيرِ العِضَاهِ، فَتَفَرَّقَ النَّاسُ فِي العِضَاهِ يَسْتَظِلُّونَ بِالشَّجَرِ، فَنَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ تَحْتَ شَجَرَةٍ، فَعَلَقَ بِهَا سَيْفَهُ ثُمَّ نَامَ، فَاسْتَيْقَظَ وَعِنْدَهُ رَجُلٌ وَهُوَ لا يَشْعُرُ بِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنَّ هَذَا اخْتَرَطَ سَيْفِي، فَقَالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ؟ قُلْتُ: اللهُ، فَشَامَ السَّيْفَ. قيل فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٧﴾ المائدة:٦٧[2].

• مرتبة الخلق يرد إليها خلق المعلول بلا علة.

وقد يخلق الله ﷻ المعلول بلا علة، كما فعل بناقة صالح، حيث أخرجها من وسط الصخر فانشق الجبل وخرجت منه.

قال نبي الله صالح ﵇: ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٧٣﴾ الأعراف:٧٣.

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله ٣/١٠٥٧ (٢٧٢٩)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب في فضل سعد بن أبي وقاص ﵁ ٤/١٨٧٥ (٢٤١٠).

(٢) رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب تفرق الناس عن الإمام عند القائلة والاستظلال بالشجر ٣/١٠٦٦ (٢٧٥٦)، ومسلم في كتاب الفضائل، باب توكله على الله وعصمة الله تعالى له من الناس ٤/١٧٨٦ (٨٤٣) . ومعنى شام أي غمد السيف في جرابه، والعضاة جمع عِضَة، وهي كل شجرة عظيمة ذات شوك.

وقال تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾﴾ الشمس:١٣/١٤.

وعند البخاري من حديث أَنَس بن مالك ﷺ أنه قَال: (أُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِإِنَاءٍ وَهُوَ بِالزَّوْرَاءِ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي الإِنَاءِ، فَجَعَلَ المَاءُ يَنْبُعُ مِنْ بَيْنِ أَصابِعِهِ، فتَوَضَّأَ القَوْمُ. قَال قَتَادَةُ: قُلتُ لأَنَسٍ :كَمْ كُنْتُمْ؟ قَال: ثلاثمِائَةٍ، أو قريبا من ذلك)[1].

وعند البخاري من حديث عبدِ الرحمنِ بنِ أبي بكرٍ ﷺ أنَّ أصحابِ الصُّفَّةِ كانوا أُناساً فُقراءَ، وأنَّ النبيَّ ﷺ قال: مَن كان عندَهُ طعامُ اثنين فليَذهَبْ بثالث، وإنْ أَربعٌ فخامسٌ أو سادس. وإنَّ أبا بكرٍ جاءَ بثلاثةٍ فانطلقَ النبيُّ ﷺ بعشرَةٍ. قال: فهوَ أَنا وَأَبي وأُمي، فلا أَدري قال: وامرأتي ـ وخادِمٌ بيننا وبينَ بَيتِ أبي بكر. وإنَّ أَبا بكرٍ تَعشَّى عندَ النبيِّ ﷺ ثم لبِث حيث صُلِّيَتِ العِشاءُ، ثم رجعَ فلبِث حتّى تعَشَّى النبيُّ ﷺ، فجاءَ بعدَ ما مضى مِنَ الليل ما شاءَ اللهُ. قالت له امرأَتهُ: وما حبَسكَ عن أضيافِكَ؟ قال: أَوَ ما عَشيتيهم؟ قالت: أَبَوا حتّى تَجيء، قد عُرِضوا فأَبَوا. قال: فذهبتُ أَنا فاختبأْتُ. فقال: يا غُنثَرُ، فجدَّعَ وسَبَّ، وقال: كُلوا لا هَنِيّاً. فقال: وَاللهِ لا أَطعَمُه أبداً. وأَيمُ اللهِ، ما كنا نأْخُذ من لقمةٍ إلاّ رَبا من أَسفلها أكثرُ منها. حتى شَبِعُوا، وصارتْ أَكثرَ مِما كانت قبل ذلك. فنظرَ إليها أبو بكرٍ، فإذا هيَ كما هيَ أو أكثرُ. فقال لامرأتِه: يا أُختَ بني فِراسٍ ما هذا؟ قالت: لا وقُرَّةِ عيني، لهيَ الآنَ أَكثرُ منها

---

(١) رواه البخاري في المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام ١٣٠٩/٣ (٣٣٧٩)، ومسلم في الفضائل، باب في معجزات النبي ﷺ ١٧٨٣/٤ (٢٢٧٩).

قبل ذلكَ بثلاث مرّاتٍ. فأَكل منها أبو بكر وقال: إنما كان ذلكَ منَ الشيطان - يعني يَمينَهُ - ثمَّ أَكل منها لقمة، ثمَّ حَملها إلى النبيِّ ﷺ فأصبحتْ عندَه. وكان بيننَا وبينَ قومٍ عَقدٌ، فمضى الأجل ففرَّقَنا اثنيْ عشرَ رجُلاً، معَ كل رجل منهم أُناسٌ، اللهُ أعلم كم مَع كل رجُل، فأكلوا منها أجمعون(١).

• التوكل على الله من آثار الإيمان بمراتب القدر.

من آثار الإيمان بمراتب القدر إفراد الله بتقدير الأرزاق والعطاء، والتوكل عليه في الشدة والرخاء، فأول أركان التوكل على الله، اعتقاد العبد أنه لا خالق إلا الله، ولا مدبر للكون سواه، واعتقاد الموحد أن الذي يرزق بأسباب قادر على أن يرزق من غير أسباب، وكلاهما عند المؤمنين في الإيمان سيان، طالما أن الله هو الخالق في أي وضع كان، ولذلك فإن التوكّل من أعلى مقامات اليقين وأشرف أحوال المقرّبين، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ١٥٩﴾ آل عمران:١٥٩. وقال الله ﷻ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ١٢﴾ إبراهيم:١٢.

وقال جلت قدرته: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ٣﴾ الطلاق:٣.

---

(١) البخاري في مواقيت الصلاة، باب السمر مع الضيف والأهل ١/٢١٦ (٥٧٧)، ومسلم في الأشربة، باب إكرام الضيف وفضل إيثاره ٣/١٦٢٧ (٢٠٥٧). والغنثر هو الثقيل الوخيم طويل البال. ومعنى جدع وسب دعا عليه بقطع الأنف وغيره من الأعضاء، والسب الشتم.

ومعني فهو حسبه أي كافيه مما سواه، فمن كان الله تعالى كافيه فهو شافيه ومعافيه، ويكفيه عمّا هو فيه.

قال تعالى: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦) ﴾ الزمر:٣٦. ومن فوض أمره إلى الله وقاه ونجاه كما قال مؤمن آل فرعون: ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤) ﴾ غافر:٤٤. فلما فوض أمره إلى الله قال بعدها: ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥) ﴾ غافر:٤٥ .

ومن هنا إذا علم العبد الذليل أن الملك الكبير قائم بالقسط والتدبير، ومنفرد بالمشيئة والتقدير، عنده خزائن كل شيء، وكل شيء عنده بمقدار، لا ينزله إلا بقدر معلوم، وعلم أن الوكيل سبحانه قابض على نواصي الملك، وله خزائن السماوات والأرض، فأيقن أن ربه بيده ملكوت كل شيء، وأنه يملك السمع والأبصار، ويقلب القلوب أو يصرفها أو يثبتها في البشر أجمعين، وأنه يتولى تدبير شئون العالمين، وأنه أحكم الحاكمين وخير الرازقين، إذا علم العبد ذلك أيقن أن الملك الكبير من فوق عرشه كفيل بأمره ورزقه، يغنيه من فضله وكرمه، واعتمد عليه في كل شيء، ووثق به دون كل شيء، وقنع منه بأدنى شيء، وصبر علي ما ابتلاه به في هذه الحياة. وهنا لا يطمع العبد في سواه، ولا يرجو إلا إياه، ولا يشهد في العطاء إلا مشيئته، ولا يرى في المنع إلا حكمته، ولا يعاين في القبض والبسط إلا قدرته، عند ذلك حقت للعبد معاني التوحيد في عبادته، وصدق في إسلامه وشهادته، ووحد الله في

ربوبيته، فعرف أن المخلوق لا حول ولا قوة له إلا بخالقه، وأن طلب الرزق يكون عند معبوده ورازقه [1].

كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ الأعراف:١٩٤. وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ ﴾ العنكبوت:١٧.

والمؤمن الذي توكل على الله حقا، يعلم أن الله ﷻ الذي يرزق بأسباب قادر على أن يرزق من غير أسباب، وأن الذي شق البحر لموسى عليه السلام هو الذي سيره، وما كان ضرب البحر بالعصا في عرفنا كافيا من جهة الأسباب التي وضعها الله لنا لشقه طريقا في البحر يبسا آمنا، ولكن اليقين بالذي خلقنا، ودبر أمرنا يجعل التوكل عليه منجاه، كما قال جل في علاه: ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾ الطلاق:٣. وقال سبحانه وتعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ الزمر:٣٦ .

والله سبحانه لما قال عن تسيير الإنسان في البر والبحر: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ يونس:٢٢ وجدنا الناس بتسيير البحر لم يتأثروا، وبقدرة الخالق لم يعتبروا، ولكن لما رأوا فرعون وهو يغرق في اليم تعجوا وآمنوا كما ذكره الله في شأنهم: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ ﴾ الشعراء:٦٣.

---

(١) انظر بتصرف قوت القلوب ٢/٤ ، نشر دار الكتب العلمية بيروت.

وهذا زكريا عليه السلام لما رأى في مريم وأحوالها قدرة الله في خرق الأسباب، وأنها ترزق في المحراب بألوان الطعام في غير موعده وبغير حساب، دعا ربه أن يرزقه ما تمناه: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٨﴾ آل عمران:٣٨ .

زكريا عليه السلام الذي انقطعت به أسباب الإنجاب عند سائر العقلاء، وزوجته عاقر يستحيل أن تلد في مقاييس الأطباء، دعا ربه بهذا الدعاء: ﴿رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٨٩﴾ الأنبياء:٨٩. فاستجاب الله له وأعطاه ما تمناه فقال تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ٩﴾ مريم:٧/٩.

إذا علم العبد أن الخالق الرازق هو الله، ركن إليه وتوكل عليه، وأعطى الناس ما يليق بها من العطاء، كل على ما يستحقه من الجزاء، وتعامل معهم انطلاقا من دعوة الإسلام، وتحقيقا لما ورد عن نبينا عليه الصلاة والسلام حيث قال: (مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا، نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ القِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلى؟ مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلماً سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ العَبْدِ مَا كَانَ العَبْدُ فِي عَوْنِ أَخيهِ) [١].

---

(١) رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر ٤/٢٠٧٤ (٢٦٩٩) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

والصادق في توحيده وتوكله، لا يحمد مخلوقا ولا يذمه لأجل أنه أعطاه أو منعه، لأنه يعلم يقينا أن الله ﷻ هو المعطي الأوّل قبل إجراء الأسباب على أيديهم، فلم يشكر من كان سببا في رزقه إلا لأن الله مدحهم وأمره بشكرهم، وإن ذم الذين كانوا سببا في رزقه أو مقتهم، فلأجل مخالفتهم لله وموافقتهم لهوى أنفسهم، فالله ﷻ مدح المنفقين وذم المسكين. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٢٤﴾ الحديد: ٢٤ .

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١٨٠﴾ آل عمران: ١٨٠.

وقد وكل الله ﷻ ملكين ينزلان من السماء، وكلهم بالدعاء لمن أنفق من مال الله، والدعاء على كل من بخل على عباد الله، فعند البخاري من حديث أَبي هُريرةَ ﵁ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: (ما مِن يوم يُصبحُ العِبادُ فيه إلاَّ مَلكان يَنزِلان فيقول أحدُهما: اللهمَّ أعطِ مُنفِقاً خَلَفا، ويَقول الآخَرُ: اللهمَّ أعطِ مُمسِكاً تلفاً) [(١)].

وحسن التوكل على الله من آثار الإيمان بتوحيد الربوبية، وسبب في سعة الرزق وإدراك الراحة النفسية. ألا ترى الطير لا تملك خزائن لقوتها، وليس لها من الرزق إلا ما قدره الله بسعيها.

---

(١) رواه البخاري في الزكاة، باب قول الله تعالى: فأما من أعطى واتقى ٢/٥٢٢ (١٣٧٤)، ومسلم في الزكاة، باب في المنفق والممسك ٢/٧٠٠ (١٠١٠).

روى الترمذي وصححه الألباني من حديث عُمَر بن الخطاب ﷺ أنه سمع رَسُول اللهِ ﷺ يَقُول: (لوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلتُم عَلى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلهِ، لرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصاً، وَتَرُوحُ بِطَانا)[1].

وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ هود:٦.

وقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ العنكبوت:٦٠. فالمتوكل على الله ﷻ قد علم يقينا أن كل ما يناله من الخير والعطاء، فهو رزقه من رب السماء، وأن رزقه قد قسمه الله له فيما حكم به القضاء، وأن ما ناله من الأحكام سيصله لا محالة بالتمام، وأن ما قسمه الله له في المكتوب أزلا، لن يكون لغيره من الخلق أبدا .

وفي المقابل أيضا فإن المتوكّل على الله حقا لا يجعل الأشياء والأسباب حاكمة أو ضارة نافعة، فيشرك في توحيد الله بالربوبية، فالله قدير والقدرة صفته، هو المعطى الرقيب، المحسن الحسيب، الذي خلق وفعل وجعل، لا شريك له في أسمائه، ولا ظهير له في أحكامه، كما قال ﷻ في محكم كلامه: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ يوسف:٤٠. وقال تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ الكهف:٢٦. وقال تعالى عن المشركين: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ العنكبوت:١٧.

---

(١) رواه الترمذي في كتاب الزهد، باب في التوكل على الله ٤/٥٧٣ (٢٣٤٤)، وأحمد في المسند ١/٣٠ (٢٠٥)، وصححه الألباني، انظر السلسلة الصحيحة (٣١٠)، وصحيح الجامع (٥٢٥٤).

وإذا نظر العبد إلى قدرة الله في الأشياء، وأنه منفرد بالخلق والتدبير، وقائم بالملك والتقدير، نظر أيضا إلى وجوه الحكمة في إظهار الأسباب وتصريفها، وابتلاء العباد بتقليبها، والأخذ بها على وجه الضرورة واللزوم، وإيقاع الأحكام على المحكوم، فمن وافق الشرائع والسنن استحق من الله الثواب، ومن خالف وابتدع استحق من الله العقاب، ليصل الكل في النهاية إلى ما دون في أم الكتاب، قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة .

هكذا كان ابتلاء العباد من خلال إيمانهم بتوحيد الربوبية من جهة وتوحيد العبودية من جهة أخرى، وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلۡنَٰهُ نِعۡمَةٗ مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمِۭۚ بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٩ ﴾ الزمر:٤٩. فتنة لأنه نظر إلى الأسباب في تقلبها، وتغافل عن مصرفها ومقلبها، فالمتوكل على الله قائم بأحكام الشريعة ملتزم بتوحيد العبودية، موقن بأحكام القدرة وتوحيد الربوبية، يعمل بشرع الله ويؤمن بقدر الله. وقد أخبر الله تعالى أنه هو الرزاق، كما أنه الخالق الذي أمات وأحيا، فقرن بين هذه الأفعال الأربعة في موضع واحد مع ترتيب الحكمة والقدرة، وترابط الشرع والقدر، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۖ ﴾ الروم:٤٠. فكما أن الله هو وحده الخالق الذي يحيي ويميت، فكذلك هو وحده الرزاق، فتنبه لذلك جيدا، ألا ترى أنك لا تقول: خلقني أبي، وإن كان سببا في وجودك؟ ولا تقول: أحياني أبي، وإن كان سببا في حياتك، ولا تقول: أماتني فلان، وإن كان وسيلة في الإحياء والقتل، لأن هذا شرك ظاهر،

اشتهر قبحه للعقلاء من الموحدين، فتركوه وانتقوا الألفاظ في التعبير عما أرادوه. ولذلك قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٥٩﴾ الواقعة:٥٨/٥٩. وقال: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝٦٤﴾ الواقعة:٦٣/٦٤ ، فأضاف الإمناء والحرث إلينا، لأنها أعمال، ونحن عبيدٌ عمال، ولأنها صفاتنا وأحكامها عائدة علينا، وأضاف الخلق والزرع إليه لأنها آيات عن قدرته وحكمته والله ﷻ هو القادر الحكيم، فالمتوكّل أيقن أنه لا أحد غير الله قادر أن يخلقه، فلما خلقه الله أيقن أنه لا أحد غير الله قادر أن يرزقه. قال تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم﴾ فاطر:٣. فالله ﷻ نفى الرزق عن سواه كما نفى الخلق عمن سواه .

إن في إعطاء هذا المال فتنة، وفي منعه فتنة، يغدو الرجل إلى ابن عمه، فيسأله حاجة كتب الله في اللوح قضاءها عنده، فيعطيه ما أراد، وهو في حقيقة ما كتب في اللوح لا يملك منعه، فيعطيه ما كتب الله له في سابق العلم، فيظل يشكره ويعظمه، ويبالغ في وصفه بغير حق، ويثني عليه بما لا يستحق، ثم يعود إليه مرة أخرى فيسأله حاجة لم تكتب له في اللوح، ولم يجعل الله قضاءها عنده، فلا يعطيه ما أراد، لا يعطيه ما كتب الله أنه ليس له في سابق العلم، فيظل يذمه ويسبه، ويقذفه في ماله وعرضه ويذكره بكل سوء وشر، ففي إعطاء هذا المال فتنة وفي منعه فتنة [1].

---

(١) قوت القلوب ١٦/٢، وقد لخصنا بتصرف ما ذكره أبو طالب المكي في إثبات الأسباب والأواسط لمعاني الحكمة ونفي أنها تحكم وتجعل لثبوت الحكم والقدرة.

• الأسباب التي يقلبها الله مثلها كالآلة بيد الصانع.

وإنما مثل الأسباب التي يقلبها ربنا، كمثل الآلة بيد الصانع، ألا ترى أنه لا يقال: السيف ضرب العنق ولا السوط ضرب العبد وإنما يقال: السياف ضرب العنق، وفلان ضرب فلانا بالسوط، وإن كانت هذه الأشياء أسبابا مباشرة للأفعال إلا أنها آلةٌ بيد صانعها، وكذلك الخليقة يباشرون الأسباب في ظاهر النظر عند البشر، والله من ورائهم محيط ومتوحد في الربوبية، هو القادر الفاعل بلطائف القدرة وخفايا المشيئة .

وإنما ذكر الله تعالى الأسباب لأن الأسماء تتعلق بها وأحكام الشرع عائدة عليها بالثواب والعقاب، فذكرها لكي لا تعود الأحكام على الحاكم سبحانه وتعالى، يقول تعالى: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾ النحل:٩٦ ، فالجميع عنده وفي خزائنه، إلا أنه أضاف الدنيا إلينا لرجوع الأحكام علينا، وليزهدنا فيها، وأضاف الآخرة إليه تفضيلا لها وترغيبا لنا فيها، وكما أخبر عن عيسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ﴾ المائدة:١١٠.

وقال أيضا: ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ ﴾ النساء:٨ .فجعل عيسى عليه السلام خالقا إذ خلق الله على يده، وجعل العبد رازقا لما أجرى على يده من رزق غيره، وكقوله لمريم: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا

﴿٢٥﴾ ﴾ مريم:٢٥، وقد علمت أن الرطب لم يتساقط بهزها، ولكن أراد أن يظهر كرامتها ويجرى أسباب الرزق بيدها نتيجة صبرها على بليتها.

وعند البخاري من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَال: (أَصْدَقُ بَيْتٍ قَالهُ الشَّاعِرُ: أَلا كُل شَيْءٍ مَا خَلا اللهَ بَاطِل)[1]. فنفي ما سوى الله على اعتبار القدرة وتوحيد الربوبية، لا على اعتبار الحكمة وتوحيد العبودية، وهو ﷺ يعلم أن الحياة التي ابتلانا الله بها هي أسباب حق تؤدي إلى نتائج صدق، ثم لم يمنعه ذلك أن قال: أصدق بيت قاله الشاعر، أَلا كُل شَيْءٍ مَا خَلا اللهَ بَاطِل، إيثاراً منه للتوحيد وتوحيدا للمتوحد. فأول أركان التوكل علي الله ﷻ اعتقاد العبد أنه لا خالق إلا الله ولا مدبر للكون سواه، واعتقاد الموحدين أن الرب الذي يرزق بأسباب قادر على أن يرزق من غير أسباب، وكلاهما عند المؤمنين سيان طالما أنه الخالق المدبر في الوضعين[2].

أما الركن الثاني للتوكل فهو الأخذ بالأسباب، وعدم التواكل، فلا يضرّ التصرف والتكسب لمن صحّ توكله، ولا يقدح في مقامه، ولا ينقص من حاله قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾ النبأ:١١. وقال:

---

(١) رواه البخاري في الرقاق، باب الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك ٥/٢٣٨٠ (٦١٢٤)، ومسلم في كتاب الشعر ٤/١٧٦٨ (٢٢٥٦).

(٢) انظر بتصرف السابق ٢/٢٢ وما بعدها، وما ذكره المكي يعد من أجمل الكلام في باب الجمع بين القدرة والحكمة، لولا بعض المخالفات في ذكره للأسماء غير التوقيفية، والروايات الغريبة التي لا يصح الاحتجاج، ولذلك أخذنا من كلامه وكلام غيره بتصرف على ما يتوافق مع النقل الصحيح والعقل الصريح وإيضاح الكلام بصورة مبسطة يدركها طلاب العلم وغيرهم من عوام المسلمين.

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾ الأعراف: ١٠. وفي صحيح ابن حبان من حديث عمرو بن أمية عن أبيه ﷺ أنه قال: (قال رَجُل للنبيِّ: أُرْسِلُ نَاقَتِي وَأَتَوَكَّل ؟ قال: اعْقِلها وتَوَكَّل) [١].

وقد كان الصانع بيده عند سلفنا أحبّ إليهم من التاجر، والتاجر أحبّ إليهم من البطال، فالمتوكل يعلم أن الله تعالى قد جعل في الأسباب منافع خلقه ومفاتح رزقه، وخزائن حكمته، وعلم أنه مقتد في ذلك بنبيه متبعٌ لسنته، فهو في تكسبه وتصرفه أفضل ممن دخلت عليه الشبهة في توكله فساكنها وتواكل على غيره، فالتكسب خير من ذل السؤال، والتارك للتكسب سالك على غير السنة، طريقه طريق البدعة. وعند البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيِّ ﷺ قال: (لأَنْ يأخُذ أحدُكم حَبلهُ، ثم يَغدو إلى الجَبَل فيَحتَطِبَ، فيبيعَ، فيأكل ويَتصدَّق خير لهُ من أنْ يسأل الناس) [٢].

ولا يضرّ الادخار مع صحة التوكل إذا كان مدخرا لله وفيه، وكان ماله موقوفا على رضا مولاه، لا مدخرا لحظوظ نفسه وهواه، فهو حينئذ مدخر على اعتبار حقوق الله التي أوجبها عليه، فإذا رآها بذل ماله فيها.

والقيام بحقوق الله لا ينقص ذلك من إيمان العبد ودرجته، بل يزيده علوّاً في مكانته، من ادّخر لعياله ليسكن قلوبهم، ويذرهم أغنياء، فهو كريم في ادخاره، قائم بحكم ربه، راع لرعيته التي هو مسئول عنها.

---

(١) رواه ابن حبان في كتاب الرقائق، باب الورع والتوكل ٢/٥١٠ (٧٣١).
(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب قول الله تعالى: لا يسألون الناس إلحافا ٢/٥٣٨ (١٤١٠).

فأول أركان التوكل على الله اعتقاد العبد أن الرازق هو الله، وأنه لا خالق ولا مدبر للكون سواه، والركن الثاني هو الأخذ بالأسباب وعدم التواكل ومراعاة الشرع والالتزام بحدود الله ﷻ.

أما الركن الثالث والأخير فهو الرضا بالنتائج والسعادة بما قسمه الله إن أعطاه شكر، وإن منعه صبر، فيعلم بعد السعي والكسب أن الحياة ابتلاء من الله، وأن السعيد من وفقه إلى طاعته وتقواه، كما قال سليمان عليه السلام لما حقق الله له مبتغاه: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي﴾ النمل:٤٠. فالفضل ليس لي ولا لجندي، وإنما هو فضل ربي، وقد استرعاني في ملكه واستخلفني: ﴿لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ النمل:٤٠. فوجب على الموحدين الصادقين في توكلهم على رب العالمين، إن ابتلاهم بفقر بعد سعي أن يتمنوا السعادة للآخرين، وأن يسألوا الله في عليائه أن يمنحهم من فضله وعطائه، ومدده ونعمائه. ومن ابتلاه الله بالفقر فكفر ولم يصبر على بلواه، لم يأخذ إلا ما قدره الله، وسوف يهان في الدنيا والآخرة، سيجمع بين التعاستين، ويهينه الله ﷻ مرتين، مرة في الدنيا بحقده وحرمانه، ومرة في الآخرة بعذابه وكفرانه. فالحياة ابتلاء وامتحان والتفاضل بين الناس مرهون بالطاعة الإيمان. قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ الحجرات:١٣. فالأتقى هو الأفضل، وإن كان غنيا شاكرا، أو كان فقيرا صابراً، لأن الله أسقط الغني والفقر من ميزان الكرامة والإهانة، وجعل الميزان ميزان الإيمان وأداء الأمانة، فالفقر والغني فعل الله وابتلاؤه للإنسان. وقد روي مسلم في صحيحه من حديث صهيب

ﷺ أن رَسُول اللهِ ﷺ قال: (عَجبًا لأمْرِ المُؤْمِنِ، إنَّ أَمْرَهُ كُلهُ خيْرٌ، ولَيْس ذاكَ لأحَدٍ إلا للمُؤْمِنِ، إنْ أَصابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لهُ، وَإنْ أَصابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا له) [1].

• الفرق بين القضاء والقدر وأثر ذلك على الإيمان.

علمنا أن مراتب القضاء والقدر التي من لم يؤمن بها، لم يؤمن بالقضاء والقدر أربع مراتب، المرتبة الأولى علم الرب سبحانه بالأشياء قبل كونها، والمرتبة الثانية كتابته لها قبل كونها، المرتبة الثالثة مشيئته لها، والرابعة مرتبة خلق الأشياء وتكوينها، وتصنيعا وتنفيذها، على وفق ما قدر لها بمشيئة الله في اللوح المحفوظ. وقد يسأل سائل عن الفرق بين القضاء والقدر؟ والجواب أنه قد يأتي القضاء بمعنى القدر لاشتراكهما في ثلاث مراتب أما من جهة الفرق بينهما، فيمكن حصر ذلك في أربعة أمور:

١- القضاء ثلاث مراتب والقدر أربع، فالقضاء علم وكتابة ومشيئة فهو ثلاث مراتب، لأن الله إذا قضي أمرا كونيا، فإنما حكم بكونه قضاء مبرما، وحكمه بكونه يعني أنه قدره وكتبه وشاء كونه، ولم يتبق إلا تنفيذه بقدرته، وعندها يصبح ما قضاه قدرا واقعا. قال الله تعالى عن قضائه الكوني: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾ البقرة:١١٧. وقال: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾ آل عمران:٤٧ .

---

(١) مسلم في الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير ٤/٢٢٩٥ (٢٩٩٩).

وإذا كان القضاء في أفعال البشر يستصدر منه الأحكام التي لا تقبل النقد أو الرد كما يحدث في الأحكام النهائية للسلطة القضائية، وهي واجبة التنفيذ بالقدرة البشرية الكائنة في السلطة التنفيذية، فإن قضاء الله الكوني من باب أولى ولله المثل الأعلى قضاء مبرم، لا يقبل النقد أو الرد، والحكم فيه حكم حتمي مكتوب واقع لا محالة، لا يمكن رده أو مواجهته، وتنفيذه بالقدرة الإلهية، واقع في الوقت الذي ينفذ الله ما شاء من أحكامه الكونية.

٢- الفرق الثاني بين القضاء والقدر أن القضاء غيب ويكون مشهودا بالقدرة عند وقوع القدر، فالقضاء علم وكتابة ومشيئة، وعلم التقدير غيب لا أحد يعلم عنه شيئا، واللوح وما فيه سر الله تعالى في خلقه، لم يطلع عليه ملك مقرب ولا نبي مرسل، ومشيئة الله غيب أيضا لا نعلم ما فيها إلا بعد وقوعها في القدر.

٣- الفرق الثالث بين القضاء والقدر أن القضاء يسبق من جانب القدرة، ويشترك معه في جانب التقدير، فكلاهما يتفقان في العلم والكتابة والمشيئة، ويزيد القدر مرتبة الخلق والتنفيذ، ولذلك ظهر الفرق بين القضاء والقدر في قول الهدهد: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٢٦)﴾ النمل: ٢٥/٢٦ . وهو يعني أن الرزق مكتوب في القضاء في السماء قبل تنفيذه عند التخليق والتكوين وخروجه وظهوره في الواقع بالقدرة إلى الأرض.

٤- الفرق الرابع بين القضاء والقدر أن القضاء أعم من حيث التعلق

والقدر أخص، والقدر أعم من حيث المراتب والقدر أخص، فالقضاء يتعلق بما كان، وما هو كائن، وما سيكون، أما القدر من جانب القدرة والخلق والتكوين فيتعلق بما كان، وما هو كائن، أو بم تم ويتم خلقه وتنفيذه، أما من جهة المراتب فالقدر أعم لأنه أربع مراتب، والقضاء أخص لأنه ثلاث مراتب، والله أعلم.

إن الله تعالى له المشيئة المطلقة، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وله القدرة المطلقة ينفذ بها ما قضاه وقدره، لكن جميع أفعاله لا تخرج عن حكمته، فهو سبحانه متصف بالقدرة والحكمة، ومن أسمائه القدير الحكيم، فبالقدرة خلق الأشياء وأوجدها، وهداها وسيرها، وهذا توحيد الربوبية، وبالحكمة رتب الأسباب ونتائجها، وابتلانا واستخلفنا وخولنا وكلفنا لنأخذ بها تحقيقا لتوحيد العبودية.

ولا بد لمن وحد الله حقا أن يتقلب في إيمانه بالله ﷻ وتوحيده بين مقتضى حكمته وقدرته، وعدله ومشيئته، فلا يسقط الشرائع والأحكام، ويتجاهل الالتزام بالحلال دون الحرام، لاحتجاجه بمشيئة الله وقدرته، وأن الخلائق مسيرون على جبر إرادته، وأنه لا مناص من الدخول في ظل ربوبيته، فيعطل اسم الله الحكيم، وما تضمنه الاسم من وصف الحكمة، فسبحانك لا حول لنا ولا قوة إلا بك .

المطلب الثاني عشر

التقدير الأزلي والميثاقي والقضاء المبرم المظهر للمشيئة والقدرة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فقد تحدثنا في المطلب السابق عن عقيدة السلف أهل السنة والجماعة في المرتبة الرابعة من مراتب القدر، وهي خلق الله ﷻ لجميع الأشياء بلا استثناء، وعلمنا أن القدرية مجوس الأمة وكذلك الجبرية خالفوا أهل السنة في الإيمان بتلك المرتبة، وأن أهل السنة يؤمنون باقتران القدرة مع الحكمة في أفعال الله، فالله ﷻ يخلق ما يشاء وهو أيضا موصوف بالحكمة والعدل وعدم الظلم.

ثم فصلنا الأدلة النقلية في إثبات الخلق والقدرة لجميع الخلائق، ومن ضمنها جميع أفعال العباد خيرها وشرها، ثم بينا وجه الرد على المخالفين من القدرية، وعلمنا أن الله ﷻ خلق الدنيا بعلل ومعلولات إظهارا لحكمته، وأنه ينبغي على المؤمن عند التفكر في أفعال الله ﷻ ألا يتغافل عن النظر في قدرته بدعوى الانشغال في النظر إلى حكمته.

ثم بينا أن المرتبة الرابعة من مراتب القدر وهي مرتبة الخلق يرد إليها خلق العلة بلا معلول، وخلق المعلول بلا علة، وعلمنا أن التوكل

على الله من آثار الإيمان بمراتب القدر، وأن مثل الأسباب التي يقلبها الله ﷻ مثل الآلة بيد الصانع، لا استقلالية لفعلها، ثم بينا الفرق بين القضاء والقدر وأثر ذلك على الإيمان.

وفي هذا المطلب بإذن الله تعالى نتحدث عن أنواع التقدير وتفصيل القول في التقدير الأزلي والميثاقي اللذين يمثلان القضاء المبرم والتقدير الحتمي المظهر للمشيئة والقدرة.

- **أنواع التقدير في الأصول القرآنية والنبوية خمسة أنواع .**

معتقد أهل السنة والجماعة مبني على قرآن وسنة بفهم سلف الأمة، وقد دلت الأصول القرآنية والنبوية على خمسة أنواع من التقدير، دبر الله ﷻ أمور الكون من خلالها، ورتبها من تقدير عام يشمل المخلوقات بأسرها إلى تقدير خاص يتعلق بآحاد المخلوقات وأفرادها، فأنواع التقدير عند السلف خمسة أنواع: تقدير أزلي، وتقدير ميثاقي، وتقدير عمري، وتقدير حولي أو سنوي، وتقدير يومي.

والمقصود بأنواع التقدير تنظيم أمور الكون من خلال مجموعة من التقديرات تتعلق بجميع المخلوقات أو بعضها، عمومها وخصوصها، فهناك تقدير أزلي عام مدون في اللوح المحفوظ، وشامل لكل أمر سيحدث لجميع المخلوقات بلا استثناء، وقد قضاه الله وقدره في أم الكتاب قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة.

ومن أنواع التقدير أيضا التقدير الميثاقي، وهو تقدير خاص بالإنسانية جمعاء، قدر الله فيه أهل النعيم والشقاء، وكان ذلك وقت

أخذ الميثاق على آدم وذريته، وإشهادهم وهم في عالم الذر أن يوحدوا الله في ربوبيته، فقد قدر الله ﷻ أهلا للفريقين، وفصل في علمه بين النوعين، وخلق بعضهم للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، وخلق بعضهم للنار وبعمل أهل النار يعملون، وهذا التقدير أخص من الأول وداخل فيه، وهذان التقديران، أعني الأزلي والميثاقي، لا يقبلان المحو والتبديل، ولا يخضعان للإضافة والتغيير، ولا يطلع عليهما ملك مقرب، ولا نبي مرسل، ولا يعلم عنهما أحد شيئا إلا بعد حدوثهما، ووقوع ما قدره الله فيهما، أو يخبر الله ﷻ أنبيائه ورسوله عن بعض ما فيهما تحقيقا لحكمته وظهور أثار أسمائه وصفاته.

أما التقدير الثالث فهو أخص من التقدير الثاني، ويسمى بالتقدير العمري، ويشمل مجموعة الأوامر التي يكَلف بكتابتها الملك الموكل بالنطفة في الرحم، مما يخص عمر كل إنسان، ويكتب فيه رزقه وشقي هو أم سعيد؟

والتقدير الرابع يسمى بالتقدير السنوي، وهو أخص من الثالث، ويشمل مجموعة الأوامر السنوية التي تصدر من الله لملائكته في ليلة القدر مما يخص حياة الناس وموتهم، وتصنيف أرزاقهم على قدر أعمالهم، كل ذلك على مدار عام كامل.

وهناك نوع خامس من أنواع التقدير يسمى بالتقدير اليومي، وهو أخص من الرابع، ويشمل مجموعة الأوامر اليومية التي تصدر في شأن الناس وحياتهم لحظة بلحظة.

وهذه التقديرات الثلاثة أعنى التقدير العمري والسنوي واليومي،

هي القضاء المعلق بالأسباب الغيبية والمشهودة، وهي التقدير الابتلائي المظهر للحكمة، وهي تقبل المحو والإثبات والتغيير، وتتولاها الملائكة المكرمون، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، ولكنهم لا يعلمون إن كان ما صدر لهم من أوامر وأحكام يتطابق مع ما كتب في اللوح من تقدير أزلي أو يتطابق مع ما صدر من أحكام في التقدير الميثاقي أم لا؟ فهم لا يعلمون إلا ما علمهم الله، ولا يطلعون على ما دونه الله في أم الكتاب.

- **لماذا التنوع في أنواع التقدير بين المبرم والمعلق؟**

هذه أنواع التقدير التي دلت عليها الأصول القرآنية والنبوية نتناول بإذن الله شرحها بالتفصيل، وبيان الاعتقاد الحق فيها بالدليل، ونبدأ بتفصيل القول في القضاء المبرم والتقدير الحتمي المظهر للمشيئة والقدرة من خلال التعرف على التقدير الأزلي والميثاقي الذين ضن ربنا بهما وجعلهما سرا له في خلقه.

وقبل أن نبدأ في شرح هذين النوعين هناك سؤال يطرح نفسه بالضرورة، لماذا هذا التنوع في أنواع التقدير؟ أو لماذا جعل الله ﷻ تقديرا أزليا، وتقديرا ميثاقيا، وتقديرا عمريا، وتقديرا حوليا أو سنويا، وتقديرا يوميا؟ ألا يكفي التقدير المدون في اللوح المحفوظ؟

والجواب أن الله ﷻ حكيم في صنعه، والحكمة صفته، ومقتضى الحكمة أن تقع الصنعة على وجه الكمال والإتقان، والإبداع التام الذي يبهر العقلاء ويحير الأذهان، كما أشار إلى ذلك القرآن فقال: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ النمل:٨٨.

وإذا كانت الصناعة المتقنة في الدنيا تتطلب الخبرة والحكمة، لاسيما المشروعات العملاقة الضخمة، فإن بناء أي مشروع من هذا النوع يتطلب تقديرا عاما شاملا وكاملا، لا يدع صغيرة أو كبيرة إلا بُين فيها الأمر بيانا مفصلا، ثم إنه عند التنفيذ والتكوين بعد ذلك يقسم التقدير المكتوب في العموم والجملة والمجموع، إلى تقديرات في الخصوص تتعلق بكل جزء من أجزاء المشروع، وكل جزء من أجزاء المشروعات العملاقة يقسم أيضا إلى أجزاء أخص وأخص، وكل جزء له من التقدير الأدق والأدق ما يخصه حسب الزمان والمكان الذي يتم فيه الإنشاء والبنيان، فقد تتغير أحكام الزمان والمكان بتغير أحوالها، فمكان يقتضي أن يكون العمل فيه بالنهار لأن الطقس مثلا مشمس حار، ومكان يتطلب التأخير بعض الشيء لهطول الأمطار.

وهكذا تتفاعل منظومة العمل في إتمام المشروع، ثم إعداد تقرير عن كل موضوع، بحيث إذا رفع كل تقرير إلى الإدارة العليا يتوافق مع التقدير العام بمنتهى الإتقان والتوافق التام، لا خلل في الأمور صغيرها وكبيرها، وعلامة الجودة على جميع المصنوعات وأجزائها، هكذا يكون الكمال في الصنعة، وهكذا تكون الأعمال الناتجة عن الحكمة والخبرة، ولا أحد ينكر ذلك بين العقلاء.

إذا كان ذلك من مقتضيات الكمال والإتقان في صنعة المخلوق، فالله ﷻ له المثل الأعلى في السماوات والأرض قال عن نفسه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُا۟ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٧﴾ الروم:٢٧.

وقد ختمت الآية باسمين عظيمين من أسماء الله الحسنى، فالعزيز هو الذي تعزز بقدرته وغناه، فلا يفتقر إلى أحد سواه، والحكيم هو الذي يفعل الصنعة بدقة وإتقان وحكمة، فيبدأ الخلق ثم يعيده بكمال القدرة ومطلق الحكمة وبالغ الخبرة.

من أجل ذلك كان التنوع في أنواع التقدير فجعل الله ﷻ تقديرا أزليا عاما شاملا، وتقديرا ميثاقيا يتناول الإنسانية تناولا كاملا، وتقديرا عمريا يخص حياة كل إنسان على حدة، وتقديرا حوليا يخص سنة واحدة، وتقديرا يوميا لمتابعة التنفيذ في تكوين الخلائق لحظة بلحظة، وكلمة كلمة إلى أن ينتهي العالم كما كتبه الله في اللوح المحفوظ.

ومن أجل ذلك أيضا تنوعت الأقلام، وتعدد تدوين الأحكام، وقد تقدم الحديث عن أنواع الأقلام، وعلمنا أن أشرفها وأعلاها وأشملها القلم الأول الذي جف بما هو كائن إلى يوم القيامة، كما روى الإمام مسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن سُرَاقَة بْن مَالكٍ رضي الله عنه قَال: (يا رَسُول اللهِ ﷺ بَين لنا دِيننا كَأَنا خُلقْنا الآن؟ فِيمَا العَمَل اليوْمَ؟ أَفِيمَا جَفَّتْ بِهِ الأَقْلامُ وَجرَتْ بِهِ المَقَادِيرُ أَمْ فِيمَا نستَقْبِل؟ قَال: لا، بَل فِيمَا جَفَّتْ بِهِ الأَقْلامُ وَجرَتْ بِهِ المَقَادِيرُ. قَال: فَفِيمَ العَمَل؟ قَال: اعْمَلوا فَكُل مُيسَّرٌ لعَمَلِهِ) [1].

وعند الترمذي وصححه الشيخ الألباني من حديث ابْن عَبَّاس رضي الله عنهما أن رسول الله قال: (وَاعْلَمْ أَن الأُمَّةَ لو اجْتَمَعَتْ عَلى أَن ينفَعُوك

---

(١) رواه مسلم كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته ٤/٢٠٤٠(٢٦٤٨).

بِشَيءٍ، لَمْ ينفعُوكَ إلا بِشَيءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لكَ، ولَو اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يضُرُّوكَ بِشَيءٍ، لَمْ يضرُّوكَ إلا بِشَيءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَليكَ، رُفِعَتِ الأَقْلامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ) (١).

وقد تقدم أن الأقلام جاءت في هذه الأحاديث وغيرها مجموعة فدل ذلك على أن للمقادير أقلاما غير القلم الأول الذي تقدم ذكره مع اللوح المحفوظ، وقد فصلنا القول في بيان المرتبة الثانية من مراتب القدر وهي مرتبة الكتابة بما يغني عن إعادته. غير أن أول أنواع التقدير هو التقدير الأزلي، وهو ما أشار إليه الإمام الطحاوي بقوله: (ونؤمن باللوح والقلم، وبجميع ما فيه قد رقم) (٢).

وروى أبو داود في سننه وصححه الشيخ الألباني من حديث عُبَادَةُ بن الصَّامِتِ ﷺ أنه قال لابْنِهِ: (يا بُني إنكَ لن تَجِدَ طَعْمَ حَقِيقَةِ الإيمَان حَتَّى تَعْلَمَ أن مَا أصَابَكَ لَمْ يكُن ليخْطِئَك، وَما أخْطَأَكَ لَمْ يكُن ليصِيبَكَ، سَمِعْتُ رَسُول الله ﷺ يقُول: إن أَوَّل مَا خَلَقَ اللهُ تَعَالى القَلَمَ فقال له: اُكْتُبْ، فقَال: رَبِّ وَمَاذا أكْتُب؟ قال: اُكْتُبْ مَقَادِيرَ كُل شَيء حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ، يا بُني إني سَمِعْتُ رَسُول اللهِ ﷺ يقُول: مَن مَاتَ عَلَى غَيرِ هذا فَلَيسَ مِني) (٣).

---

(١) رواه الترمذي في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع ٤/٦٦٧ (٢٥١٦)، وأحمد في المسند ١/٢٩٣ (٢٦٦٩)، وصححه الشيخ الألباني، انظر مشكاة المصابيح (٥٣٠٢)، وصحيح الجامع (٧٩٥٧).

(٢) انظر شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص٢٩٢.

(٣) رواه أبو داود في كتاب السنة، باب في القدر ٤/٢٢٥ (٤٧٠٠)، وصححه الألباني، انظر صحيح الجامع (٢٠١٨)، وظلال الجنة (١٠٢).

روى البخاري من حديث أبي هريرةَ ﷺ أنه قال: قلتُ: (يا رسول الله، إني رجل شابٌّ، وأنا أخافُ على نفسي العَنتَ ولا أجد ما أتزوجُ به النساء، فسكَتَ عني، ثم قلتُ مثل ذلك، فسكت عني، ثم قلتُ مثل ذلك، فسكت عني، ثم قلتُ مثل ذلك، فقال النبي ﷺ: يا أبا هريرةَ جفَّ القلم بما أنتَ لاقٍ فاختصِ على ذلكَ أو ذر) [1]. والمرجح أن النبي ﷺ أذن فيه ثم حرمه لما تكرر طلبه من الكثيرين.

وهذا الحديث أورده البخاري في باب مَا يكْرَهُ مِن التَّبَتُّل وَالخِصَاء، والمراد بالتبتل هنا الامتناع عن النكاح وما يتبعه من الانقطاع إلى العبادة، ووصفت مريم بالبتول لانقطاعها عن التزويج إلى العبادة، والخصاء هو الشق على الأنثيين أو الخصيتين وانتزاعهما [2].

وعند البخاري من حديث ابن مسعود ﷺ: (كُنا نغْزُو مَعَ رَسُول اللهِ ﷺ ولَيسَ لنا شَيءٌ، فَقُلنا: أَلا نسْتَخْصِي؟ فَنهَانا عَن ذلكَ) [3].

ومعنى قوله: ألا نستخصي؟ أي ألا نستدعي من يفعل لنا الخصاء أو نعالج ذلك بأنفسنا، وقوله: فنهانا عن ذلك. هو نهي تحريم بلا خلاف في بني آدم لما فيه من المفاسد، وتعذيب النفس والتشويه مع إدخال الضرر الذي قد يفضي إلى الهلاك، وفيه إبطال معنى الرجولية وتغيير

---

(١) البخاري في النكاح، باب ما يكره من التبتل والخصاء ١٩٥٣/٥ (٤٧٨٨).
(٢) فتح الباري لابن حجر ١١٨/٩.
(٣) رواه البخاري في كتاب النكاح، باب ما يكره من التبتل والخصاء ١٩٥٣/٥ (٤٧٨٧)، ومسلم في كتاب النكاح، باب نكاح المتعة وبيان أنه أبيح ثم نسخ ثم أبيح ثم نسخ، واستقر تحريمه إلى يوم القيامة ١٠٢٢/٢ (١٤٠٤).

خلق الله وكفر النعمة، لأن خلق الشخص رجلا من النعم العظيمة، فإذا أزال ذلك فقد تشبه بالمرأة واختار النقص على الكمال [1].

والشاهد من الحديث قوله ﷺ: جف القلم بما أنت لاق، أي نفذ المقدور بما كتب في اللوح المحفوظ، فبقي القلم الذي كتب به جافا لا مداد فيه لفراغ ما كتب به، وقد كان توقيت كتابة المقادير قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة كما تقدم بيانه .

- **القدر سر الله في خلقه ولا يقبل المحو والتغيير .**

وما دون في أم الكتاب هو القضاء المبرم الذي لا يقبل المحو والتبديل، أو التعديل والتغيير، فكل ما كتب فيه من المقادير واقع لا محالة، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ التوبة: ٥١. أي لن يصيبنا إلا ما كتبه الله من التقدير الأزلي في اللوح المحفوظ أَن يصيبنا، وما خص لنا من خير الدنيا والآخرة مثل النصر والشهادة، ومن سوءِ الدنيا ونثاب عليه.

وقال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ الحديد: ٢٢.

أخبر الله تعالى عن عموم قضائه وقدره أنه أمر حتمي شامل لعموم المصائب التي تصيب الخلق، من خير وشر، فكلها قد كتبت في اللوح المحفوظ، صغيرها وكبيرها، وهذا أمر عظيم لا تحيط به العقول، بل تذهل عنده أفئدة أولي الألباب، ولكنه على الله يسير، وأخبر الله عباده

---

(١) فتح الباري لابن حجر ١١٩/٩.

بذلك لأجل أن تتقرر هذه القاعدة عندهم، وبينوا عليها ما أصابهم من الخير والشر، فلا يأسوا ويحزنوا على ما فاتهم، مما طمحت له أنفسهم وتشوفوا إليه، لعلمهم أن ذلك مكتوب في اللوح المحفوظ، لا بد من نفوذه ووقوعه، فلا سبيل إلى دفعه، ولا يفرحوا بما آتاهم الله فرح بطر وأشر، لعلمهم أنهم ما أدركوه بحولهم وقوتهم، وإنما أدركوه بفضل الله ومنه، فيشتغلوا بشكر من أولاهم النعم ودفع عنهم النقم.

ولما كانت الدنيا مانعة عن العكوف إلى الآخرة بلذاتها وآلائها، وكانت كأنها منزل رخاء وهي في حقيقتها دار امتحان وابتلاء، تحركت النفس إلى السؤال عما يعوق عن الخير من الضرب بسياط البلاء، لأن النفوس أشد تأثرا بالمكاره، وأسرع انفعالا بالمقارع فكان الإعلام لهم بأنه لم يكن في الدنيا خير ولا شر إلا بقضاء حتم في الأزل، وقدر أحكم ووجب، حين لم يكن شيء غيره ﷻ، وذكر أن ما أصاب من مصيبة أو غيرها لكل آت من خير أو شر أو موت أو مرض أو عين أو عرض إلا وهي كائنة في كتاب مقدر مكتوب ومفروغ منه منذ القدم، وبين سبحانه أن الكتابة حدثت بعد أن كان هو سبحانه ولا شيء معه، فكتبت المقادير في اللوح المحفوظ قبل أن يبرأها، وقبل أن يخلقها ويوجدها واقعا محققا في الأرض والأنفس، وهذا دليل على أن أفعال العباد بجعله سبحانه وتقديره [1].

وقال تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ۝٣٨ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ ۝٣٩﴾ الرعد:٣٨/٣٩.

---

(١) انظر تفسير السعدي ٨٤٢/١ بتصرف.

قال النجم الغزي: (ما يقضيه الله تعالى للعبد من أجل، أو رزق، أو بلاء، تارة يكون مبرما وهذا لا يؤثر فيه الدعاء والطاعة، وتارة يكون معلقا على صفة، وقد سبق في القضاء وجودها، فهذا يؤثر فيه ما ذكره، ويكون ذلك من نفس القضاء، ولا محو ولا إثبات في المبرم المتعلق به علم الله المعبر عنه بأم الكتاب) [(١)].

قال الشيخ السعدي: (لكل أجل كتاب، لا يتقدم عليه ولا يتأخر عنه، فليس استعجالهم بالآيات أو بالعذاب موجبا لأن يقدم الله ما كتب أنه يؤخر مع أنه تعالى فعال لما يريد، يمحو الله ما يشاء من الأقدار ويثبت ما يشاء منها، وهذا المحو والتغيير في غير ما سبق به علمه، وكتبه قلمه، فإن هذا لا يقع فيه تبديل ولا تغيير، لأن ذلك محال على الله، أن يقع في علمه نقص أو خلل، ولهذا قال: وعنده أم الكتاب، أي اللوح المحفوظ الذي ترجع إليه سائر الأشياء، فهو أصلها، وهي فروع له وشعب، فالتغيير والتبديل يقع في الفروع والشعب، كأعمال اليوم والليلة التي تكتبها الملائكة، ويجعل الله لثبوتها أسبابا، ولمحوها أسبابا، لا تتعدى تلك الأسباب ما رسم في اللوح المحفوظ، كما جعل الله البر والصلة والإحسان من أسباب طول العمر وسعة الرزق، وكما جعل المعاصي سببا لمحق بركة الرزق والعمر، وكما جعل أسباب النجاة من المهالك والمعاطب سببا للسلامة، وجعل التعرض لذلك سببا للعطب، فهو الذي يدبر الأمور بحسب قدرته وإرادته، وما يدبره منها،

---

(١) كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس للعجلوني ١/٢٨١، نشر مؤسسة الرسالة بيروت.

لا يخالف ما قد علمه وكتبه في اللوح المحفوظ)[1].

وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝٥٩﴾ الأنعام:٥٩.

قال ابن كثير: (هذه مفاتيح الغيب التي استأثر الله تعالى بعلمها، فلا يعلمها أحد إلا بعد إعلامه تعالى بها، فعلم وقت الساعة لا يعلمه نبي مرسل ولا ملك مقرب، لا يجليها لوقتها إلا هو، وكذلك إنزال الغيث لا يعلمه إلا الله، ولكن إذا أمر به علمته الملائكة الموكلون بذلك، ومن يشاء الله من خلقه، وكذلك لا يعلم ما في الأرحام مما يريد أن يخلقه تعالى سواه، ولكن إذا أمر بكونه ذكرا أو أنثى أو شقيا أو سعيدا علم الملائكة الموكلون بذلك، ومن شاء الله من خلقه، وكذا لا تدري نفس ماذا تكسب غدا في دنياها وأخراها، وما تدري نفس بأي أرض تموت في بلدها أو غيره من أي بلاد الله كان، لا علم لأحد بذلك)[2].

ذكر ابن تيمية أن النبي ﷺ لا يدعي علم الغيب، بل يتبع ما يوحى إليه وما هو إلا نذير مبين، وهذا من كمال صدقه وعدله وعبوديته لله وطاعته، وتمييز ما يستحقه الخالق وحده مما يستحقه العبد، فإن العلم بعواقب الأمور على وجه التفصيل مما استأثر الله بعلمه، فلا يعلمه ملك مقرب ولا نبي مرسل، وليس من شرط الرسول أن يعلم كل ما يكون،

---

(١) تفسير السعدي ٤١٩/١ .

(٢) تفسير ابن كثير ٤٥٤/٣.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ الأحقاف:٩. نفي لعلمه بجميع ما يفعل به وبهم وهذا لا يعلمه إلا الله تبارك وتعالى، وهذا لا ينفي أن يكون عالما بأنه سعيد من أهل الجنة، وإن لم يدر تفاصيل ما يجري له في الدنيا من المحن والأعمال، وما يتجدد له من الشرائع وما يكرم به في الآخرة من أصناف النعيم، وليس من شرط النبي أن يعلم حال المخاطبين، من يؤمن به ومن يكفر، وتفصيل ما يصيرون إليه [1].

- **اعتقاد الصحابة في الإيمان بالتقدير الأزلي .**

روى الآجري من حديث عبد الله بن الحارث بن نوفل أنه قال: (خطبنا عمر بن الخطاب ﷺ بالجابية، فحمد الله وأثنى عليه، فلما أتى على من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. والجاثليق بين يديه يترجم له فقال: بقميصه فنفضه، وقال: بركست بركست، فقال عمر: ما يقول عدو الله؟ فقالوا: لم يقل شيئا، ثم أعادها فتشهد، فقال: من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، فقال الجاثليق بقميصه فنفضه، وقال: بركست بركست. فقال عمر: ما يقول عدو الله؟ قالوا: يزعم أن الله ﷻ يهدي ولا يضل. فقال عمر: كذبت يا عدو الله، بل الله ﷻ خلقك، وهو أضلك، وهو يدخلك النار إن شاء الله، والله لولا لوث عهد لك لضربت عنقك. ثم قال عمر إن الله ﷻ لما خلق آدم عليه السلام نثر ذريته في يده فكتب أهل الجنة وأعمالهم، وأهل النار وأعمالهم، وقال: هذه لهذه، وهذه لهذه فتفرق

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ٣/١٥٩بتصرف لشيخ الإسلام ابن تيمية، نشر مطبعة المدني مصر.

الناس يومئذ وهم لا يختلفون في القدر [1].

وروى زيد بن أسلم مولى عمر أن عمر بن الخطاب ﷺ قال: (القدر قدرة الله ﷻ، فمن كذب بالقدر فقد جحد قدرة الله ﷻ) [2].

وروى أن رجلا أتى عمر بن الخطاب ﷺ فقال: يا أمير المؤمنين أعطني، فوالله لئن أعطيتني لا أحمدك، ولئن منعتني لا أذمك. قال: لم؟ قال: لأن الله ﷻ هو الذي يعطي، وهو الذي يمنع. قال: أدخلوه بيت المال ليحضره، فليأخذ ما شاء [3].

وروى يعلى بن مرة أن أصحاب علي ﷺ قالوا: إن هذا الرجل في حرب، وإلى جنب عدو، وإنا لا نأمن أن يغتال، فلو حرسه منا كل ليلة عشرة. قال: وكان علي إذا صلى العشاء لزق بالقبلة، فصلى ما شاء الله أن يصلي ثم انصرف إلى أهله، فصلى ذات ليلة ثم انصرف، فأتى عليهم، فقال: ما يجلسكم هذه الساعة؟ قالوا: جلسنا نتحدث. قال: لتخبرونني؟ فأخبروه. فقال: من أهل السماء تحرسوني أو من أهل

(١) الجابية مدينة في دمشق، والجاثليق رئيس الكنيسة الذي كان يرأس النصارى في الجابية، وقد أنكر على عمر ﷺ أن الله يضل من يشاء كما فعلت المعتزلة. والرواية أوردها ابن أبي حاتم في تفسيره ١٦٢٥/٥، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٦٦٠/٤، وابن بطة في الإبانة ١٢٩/٢، والبيهقي في القضاء والقدر ٢٦٠/١، وعبد الله بن أحمد في السنة ٤٢٣/٢، والآجري في الشريعة ٨٣٩/٢، والفريابي في القدر ٦٦/١.

(٢) رواه الآجري في الشريعة ٨٩٥/٢ نشر دار الوطن الرياض، والفريابي في القدر ١٦١/١، وابن بطة العكبري في الإبانة ١٣١/٢.

(٣) رواه ابن بطة في الإبانة ١٣١/٢.

الأرض؟ قالوا: نحن أهون على الله من أن نحرسك من أهل السماء، لا، بل نحن نحرسك من أهل الأرض. قال: فلا تفعلوا، إنه إذا قضي أمر من السماء عمله أهل الأرض، وإن عليَّ من الله جُنّة حصينة إلى يومي هذا ثم تذهب، وإنه لا يجد عبد طعم الايمان حتى يستيقن غير ظان أنه ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه [1].

وروي أن رجلا أتى علي بن أبي طالب ﷺ فقال: أخبرني عن القدر؟ فقال: طريق مظلم فلا تسلكه. قال: أخبرني عن القدر؟ قال: بحر عميق فلا تلجه. قال: أخبرني عن القدر؟ قال سر الله فلا تكلفه. ثم ولى الرجل غير بعيد ثم رجع فقال لعلي: في المشيئة الأولى أقوم وأقعد، وأقبض وأبسط؟ فقال علي ﷺ: إني سائلك عن ثلاث خصال؟ فلن يجعل الله لك ولا لمن ذكر المشيئة مخرجا، أخبرني: أخلقك الله لما شاء أو لما شئت؟ قال: بل لما شاء. قال: أخبرني، أفتجئ يوم القيامة كما شاء أو كما شئت؟ قال: لا، بل كما شاء. قال: فأخبرني أجعلك الله كما شاء أو كما شئت؟ قال: لا، كما شاء. قال: فليس لك في المشيئة شئ [2].

والمعنى الذي أراده علي بن أبي طالب ﷺ أن المشيئة كونية فليست مجالا للاعتراض أو التعقيب بالشبهات العقلية، وأنه ينبغي أن ينشغل العبد بمجال الحكمة وتوحيد العبودية.

وقال شيخ لعلي بن أبي طالب ﷺ عند منصرفه من الشام: أخبرنا يا أمير المؤمنين عن مسيرنا إلى الشام، أبقضاء من الله وقدر أم غيرهما؟

---

(١) مصنف عبد الرزاق ١١/١٢٤ (٢٠٠٩٦)، والإبانة لابن بطة ٢/١٣٥.

(٢) الشريعة للآجري ٢/٩٥٢، والإبانة لابن بطة ٢/١٤١.

قال علي رحمه الله: والذي خلق الحبة وبرأ النسمة، ما علوتم تلة، ولا هبطتم واديا إلا بقضاء من الله وقدره. قال الشيخ: عند الله أحتسب عنائي وإليه أشكو خيبة رجائي، ما أجد لي من الأجر شيئا. قال: بلى قد أعظم الله لكم الأجر على مسيركم، وأنتم سائرون، وعلى مقامكم وأنتم مقيمون، وما وضعتم قدما ولا رفعتم أخرى إلا وقد كتب الله لكم أجرا عظيما. قال الشيخ: كيف يا أمير المؤمنين والقضاء والقدر ساقانا وعنهما وردنا وصدرنا؟ فقال علي رضي الله عنه: أيها الشيخ لعلك ظننته قضاءً جبرا، وقدرا قسرا. لو كان ذلك كذلك لبطل الأمر والنهي، والوعد والوعيد، وبطل الثواب والعقاب، ولم يكن المحسن أولى بمثوبة الإحسان من المسيء، ولا المسيء أولى بعقوبة الإساءة من المحسن.

قال الشيخ: فما القضاء والقدر؟ قال علي: العلم السابق في اللوح المحفوظ والرق المنشور بكل ما كان، وبما هو كائن، وبتوفيق الله ومعونته لمن اجتباه بولايته وطاعته، وبخذلان الله وتخليته لمن أراد له، وشقاه بمعصيته ومخالفته، فلا تحسبن غير ذلك فتوافق مقالة الشيطان وعبدة الأوثان، وقدرية هذه الأمة ومجوسها. ثم إن الله عز وجل أمر تحذيرا ونهى تخييرا، ولم يطع غالبا، ولم يعص مغلوبا، ولم يك في الخلق شئ حدث في علمه، فمن أحسن فبتوفيق الله ورحمته، ومن أساء فبخذلان الله هلك، لا الذي أحسن استغنى عن توفيق الله، ولا الذي أساء عليه ولا استبد بشئ يخرج به عن قدرته، ثم لم يرسل الرسل باطلا، ولم ير الآيات والعزائم عبثا، ذلك ظن الذين كفروا، فويل للذين كفروا من النار [1].

(١) الإبانة لابن بطة العكبري ٢/١٤١.

وعن عبد الله الديلمي أنه لقي سعد بن أبي وقاص فقال له: إني شككت في بعض أمر القدر، فحدثني لعل الله يجعل لي عندك فرجا. قال: نعم يا ابن أخي، إن الله ﷻ لو عذب أهل السماوات وأهل الأرض عذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم كانت رحمته إياهم خيرا لهم من أعمالهم، ولو أن لامرئ مثل أحد ذهبا ينفقه في سبيل الله حتى ينفذه، ولم يؤمن بالقدر خيره وشره ما تقبل منه، ولا عليك أن تأتي عبد الله بن مسعود، فذهب ابن الديلمي إلى عبد الله بن مسعود فقال له مثل مقالته لسعد، فقال له مثل ما قال له سعد، وقال ابن مسعود: ولا عليك أن تلقى أبي ابن كعب، فذهب ابن الديلمي إلى أبي بن كعب فقال له مثل مقالته لابن مسعود، فقال له أبي مثل مقالة صاحبيه، فقال له أبي ولا عليك أن تلقى زيد بن ثابت، فذهب ابن الديلمي إلى زيد بن ثابت فقال له: إني شككت في بعض القدر فحدث لعل الله أن يجعل لي عندك فرجا، قال زيد: نعم يا ابن أخي إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الله ﷻ لو عذب أهل السماء وأهل الأرض عذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم كانت رحمته خيرا لهم من أعمالهم، ولو أن لامرئ مثل أحد ذهبا ينفقه في سبيل الله حتى ينفذه، ولا يؤمن بالقدر خيره وشره دخل النار(١).

وذكر أبو المظفر السمعاني أن القدر سر من سر الله، وعلم من علمه، ضربت دونه الأستار، وكفت عليه الأزرار، واختص الله به علام الغيوب، حجبه عن عقول البشر ومعارفهم لما علم من الحكمة، وسبيلنا

(١) السابق ٢/١٤٤، والمسند ٥/١٨٩ (٢١٦٩٦)، والقدر للفريابي ص١٥٢.

أن ننتهي إلى ما حد لنا فيه، وأن لا نتجاوز إلى ما وراءه. فالبحث عنه تكلف، والاقتحام فيه تعمق وتهور، وجماع هذا الباب أن يعلم أن الله تعالى طوى عن العالم علم ما قضاه وقدره على عباده، فلم يطلع عليه نبيا مرسلا، ولا ملكا مقربا، لأنه خلقهم ليتعبدهم ويمتحنهم، فلو كشف لهم عن سر ما قضى وقدر لهم وعليهم في عواقب أمورهم لافتتنوا وفتروا عن العمل، واتكلوا على مصير الأمر في العاقبة فيكون الأمر عند ذلك أمن أو قنوط، وفي ذلك بطلان العبادة وسقوط الخوف والرجاء، فلطف الله سبحانه بعباده وحجب عنهم علم القضاء والقدر، وعلقهم بين الخوف والرجاء والطمع والوجل، ليبلوَ سعيهم واجتهادهم، وليميز الله الخبيث من الطيب، ولله الحجة البالغة (١).

- **التقدير الميثاقي من أنواع التقدير المظهر للقدرة .**

النوع الثاني من أنواع التقدير والقضاء المبرم الذي ضن ربنا به، هو التقدير الميثاقي، وهذا التقدير تم عند أخذ الميثاق على بنى آدم في عالم الذر، ويشمل أحكام التقدير التي حدد الله من خلالها أهل الجنة والنار، يوم مسح على ظهر آدم عليه السلام واستخرج ذريته، وخلق بعضهم للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، وخلق بعضهم للنار وبعمل أهل النار يعملون، وهذا التقدير أخص من التقدير الأزلي .

ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية ما يبين أن الله عز وجل أخذ العهد والميثاق على الإنسانية جمعاء، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن

---

(١) الحجة في بيان المحجة لأبي القاسم إسماعيل ابن محمد بن الفضل التيمي الأصبهاني ٢/٣١، نشر دار الراية، الرياض.

ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ ﴾ الأعراف: ١٧٢/١٧٤.

وعند أحمد وحسنه الشيخ الألباني من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه أنه قال في معنى هذه الآية: (جَمَعَهُمْ فَجَعَلَهُمْ أَرْوَاحًا، ثُمَّ صَوَّرَهُمْ فَاسْتَنْطَقَهُمْ فَتَكَلَّمُوا، ثُمَّ أَخَذَ عَلَيهِمُ العَهْدَ وَالمِيثَاقَ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قَالَ: فَإِنِي أُشْهِدُ عَلَيكُمُ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ، وَالأَرَضِينَ السَّبْعَ، وَأُشْهِدُ عَلَيكُمْ أَبَاكُمْ آدَمَ عَلَيهِ السَّلامُ، أَنْ تَقُولوا يوْمَ القِيامَة لَمْ نعْلَمْ بِهَذا، اعْلَمُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ غَيرِي، وَلا رَبَّ غَيرِي، فَلا تُشْرِكُوا بِي شَيئًا، وَإِنِي سَأُرْسِلُ إِلَيكُمْ رُسُلِي، يذَكِّرُونَكُمْ عَهدِي وَمِيثَاقِي، وَأُنزِلُ عَلَيكُمْ كُتُبِي، قَالوا: شَهِدْنَا بِأَنكَ رَبُّنا وَإِلَهُنا، لا رَبَّ لَنا غَيرُكَ، فَأَقَرُّوا بِذلكَ)[1].

يخبرنا الله عز وجل أنه أخذ العهد والميثاق على ذرية آدم قبل نزولهم إلى الأرض، ولم يخبرنا كيف تم ذلك؟ أو كيف أوقفهم بين يديه كالذر؟ لكن المسلم في موقفه من هذا الميثاق الغيبي يصدق الخبر، ويؤمن أن ذلك تم كما وصف الله عز وجل وذكر، فالأمور الغيبية التي وردت في الوحي نؤمن بحقائقها، ولا نسأل عن الكيفية، ولو حاولنا التماس العلة

---

(١) رواه أحمد في المسند ١٣٥/٥ (٢١٢٧٠)، والحاكم في المستدرك ٣٥٣/٢ (٣٢٥٥)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وحسنه الشيخ الألباني، انظر مشكاة المصابيح (١٢٢).

التي من أجلها أخذ الله العهد والميثاق على سائر الذرية، فيمكن بيان ذلك من وجهين:

الوجه الأول: إقامة الحجة على سائر الذرية، وإقرارهم بما قَبِله أبوهم في قضية قبول والأمانة والاستخلاف، وخلقه وجوده في كثير من المواقف الابتلائية، لأنه ربما يحتج فرد من الناس بأنه لم يكن يرغب في الأساس أن يكون مستخلفا في الأرض على وجه الأمانة والابتلاء، أو أن يكون محاسبا مسئولا مخيرا في الحياة بين نجدين مطروحين أمام إرادته، نجد يسمى طريق الخير ويؤدي إلى النعيم المقيم في دار الجزاء، ونجد يسمى طريق الشر ويؤدي إلى العذاب والشقاء.

وربما قد يقول قائل من هذه الذرية: إن موافقة آدم عليه السلام على قبول الأمانة وتحمل المسئولية لا يلزمني، ولا تعنيني، لأنني لم أشارك في ذلك، ومن ثم كانت حكمة الله تعالى تقتضي استخراجهم جميعا بقدرته، وإيقافهم بين يديه وتقريرهم بحجته.

والله سبحانه وتعالى قادر على جبرهم وإلزامهم بالتكليف قهرا، غير أن الله عز وجل له الحجة البالغة، والسطوة الدامغة، أشهدهم على أنفسهم بكمال حكمته، وقيام حجته، فقالوا جميعا: شهدنا على أنفسنا أنك ربنا وإلهنا، لا رب لنا غيرك، ولا معبود بحق سواك. وقد ذكرهم الله عز وجل ألا يغفلوا عن عهدهم، إن جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم، يذكرونهم بالله وما قطعوه على أنفسهم في ميثاقهم، وقد علم الله في هذا التقدير الميثاقي من سيصدق في عهده، ومن هو كاذب في وعده، وانفرد سبحانه وتعالى بعلم أهل الجنة منهم وأهل النار؟

• **الأدلة النقلية من السنة النبوية على التقدير الميثاقي.**

روى أبو داود وصححه الألباني من حديث عمر ﷺ أنه سُئِل عَن هَذهِ الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ﴾ الأعراف:١٧٢. فقال عُمَرُ: سَمِعْتُ رَسُول اللّهِ ﷺ سُئِل عَنهَا، فَقَال رَسُول اللّهِ: إن اللّهَ ﷻ خَلق آدَمَ، ثم مَسح ظَهْرَهُ بِيمينه، فَاسْتَخْرَجَ مِنهُ ذرِّية، فَقَال: خَلقْتُ هَؤُلاَءِ للجَنة وبِعَمَل أَهْل الجَنة يعْمَلون، ثم مَسحَ ظَهْرَهُ فَاسْتَخْرَجَ مِنهُ ذرِّية فَقَال: خَلقْتُ هَؤُلاَءِ للنار، وَبِعَمَل أَهْل النار يعْمَلون، فَقَال رَجُل: يا رَسُول اللّهِ فَفِيمَ العَمَل؟ فَقَال رَسُول اللّهِ ﷺ: إن اللّهَ ﷻ إذا خَلقَ العَبْدَ للجَنة اسْتَعْمَلهُ بِعَمَل أَهْل الجَنة حَتَّى يمُوتَ عَلى عَمَل مِن أَعْمَال أَهْل الجَنة، فَيدْخِلهُ بِهِ الجَنة، وَإذا خَلقَ العَبْدَ للنار اسْتَعْمَلهُ بِعَمَل أَهْل النار حَتَّى يمُوتَ عَلى عَمَل مِن أَعْمَال أَهْل النار، فَيدْخِلهُ بِهِ النارَ) [١].

الوجه الثاني: أن العهد والميثاق كان لتعريف الحقوق بين الخالق والمخلوق، وبيان دورهم ووظيفتهم التي من أجلها كرمهم الله ﷻ، ورفع درجتهم، وميزهم عن غيرهم، وأنهم مستخلفون في أرضه، أمناء في ملكه، ليبلوهم أيهم أحسن عملا، فعرفهم جميعا حق الله ﷻ عليهم وحقهم عليه؛ فحق الله عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، وحقهم عليه ألا يعذبهم إذا فعلوا ذلك. أشهدهم على أنفسهم وسألهم جميعا

---

(١) رواه أبو داود في كتاب السنة، باب في القدر ٤/٢٢٦ (٤٧٠٣)، وأحمد في المسند ١/٤٤ (٣١١)، وقال الشيخ الألباني: صحيح إلا مسح الظهر انظر ضعيف أبي داود ١/٤٦٧، وتخريج شرح العقيدة الطحاوية ١/٢٦٦، وظلال الجنة ١/٧٣ (١٩٦)، والسلسلة الضعيفة (٣٠٧١).

ألست بربكم؟ قالوا: بلى، إقرارا منهم لما انفرد به من حقائق العبودية، وأنه منفرد بالخلق والأمر وتوحيد الربوبية، لا إله إلا هو، ولا رب سواه، وهو وحده مالك الملك، لأنه وحده الذي خلق الكل، وهو سبحانه الذي انفرد بإنشاء العالم وتنظيمه على هذه الهيئة البديعة. وهذا التقدير الميثاقي قدر الله فيه سعادة العباد وشقاوتهم، وأرزاقهم وآجالهم وأعمالهم، وهو تقدير ثان بعد التقدير الأول.

روى الترمذي وحسنه الألباني من حديث شُفَي بن مَاتعٍ عن عَبْدِ الله بن عَمْرٍو ﵁ أنه قَال: (خَرَجَ علينا رَسُول الله ﷺ وفي يدِهِ كِتَابَان، فَقَال: أَتَدْرُون ما هَذان الكِتَابَان؟ فَقُلْنا: لا يا رسول الله إلاَّ أَن تُخْبِرَنا، فقال للذي في يدِهِ اليمْنى: هذا كِتَاب مِن رَبِّ العَالمِين فِيهِ أَسْمَاءُ أَهْل الجَنةِ وَأَسْمَاءُ آبائهِمْ وقَبَائِلهِمْ، ثم أُجْمِل عَلى آخِرِهِمْ فَلاَ يزَادُ فِيهِمْ وَلاَ ينقَصُ مِنهُمْ أَبداً . ثم قال للذي في شِمَالهِ هذا كِتَابٌ مِن رَبِّ العَالِمين فِيهِ أَسْمَاءُ أَهْل النارِ وَأَسْمَاءُ آبائهِمْ وَقَبَائِلهِمْ ثم أُجْمِل عَلى آخِرِهِمْ فَلاَ يزَادُ فِيهِمْ وَلاَ ينقَصُ مِنهُمْ أَبداً . فقال أَصْحَابُهُ: فَفِيمَ العَمَل يا رسول الله إن كَان أَمْرٌ قَدْ فُرِغَ مِنهُ؟ فقال: سَدِّدُوا وَقَارِبُوا فَإِن صَاحِبَ الجَنةِ يخْتَمُ لهُ بِعمَل أَهْل الجنة وَإِن عَمِل أي عَمَل وإن صاحِبَ النار يخْتَمُ لهُ بِعمَل أهْل النارِ وإن عَمِل . أَي عَمَل . ثم قال رسول الله بِيدَيهِ فَنبَذَهُما ثم قال: فَرَغَ ربُّكُمْ مِن العِبَادِ، فَرِيقٌ في الجَنةِ وَفَرِيقٌ في السَّعِير) (١).

(١) رواه الترمذي في كتاب القدر، باب ما جاء أن الله كتب كتابا لأهل الجنة وأهل النار ٤/٤٤٩ (٢١٤١)، وأحمد في المسند ٢/١٦٧ (٦٥٦٣)، وحسنه الألباني، انظر السلسلة الصحيحة (٨٤٨)، وظلال الجنة ١/١٥٢ (٣٤٨).

وروى الترمذي وصححه الألباني من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (لَمَّا خلَقَ اللهُ آدمَ مَسحَ ظَهْرَهُ، فَسقَطَ مِن ظَهْرِهِ كُل نسمَةٍ هُوَ خَالقُهَا مِن ذرِيَّتِه إلى يَوْمِ القِيَامَةِ، وَجعَل بَين عَيْنيْ كُل إنسَان مِنهُمْ وَبِيصًا مِن نورٍ، ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلى آدَمَ، فَقَال: أَيْ رَبِّ مَن هَؤُلاءِ؟ قَال: هَؤُلاءِ ذرِّيَّتُك، فَرَأَى رَجُلا مِنهُمْ فَأَعْجَبَهُ وَبِيصُ مَا بَيْن عَيْنيْهِ، فَقَال: أَيْ رَبِّ مَن هَذا؟ فَقَال: هَذا رَجُل مِن آخِرِ الأُمَمِ مِن ذرِّيَّتِك يُقَال لهُ دَاوُدُ، فَقَال: رَبِّ كَمْ جَعَلتَ عُمْرَهُ؟ قَال: سِتِّين سَنةً. قَال: أَيْ رَبِّ زِدْهُ مِن عُمْرِي أَرْبَعِين سَنةً، فَلمَّا قُضِيَ عُمْرُ آدَمَ جَاءَهُ مَلكُ المَوْتِ فَقَال: أَوَلمْ يَبْقَ مِن عُمْرِي أَرْبَعُون سَنةً، قَال: أَوَلمْ تُعْطِهَا ابْنك دَاوُدَ، قَال: فَجَحَدَ آدَمُ فَجَحَدَتْ ذرِّيَّتُهُ، وَنسِّيَ آدَمُ فَنسِّيَتْ ذرِّيَّتُهُ، وَخَطِئَ آدَمُ فَخَطِئَتْ ذرِّيَّتُهُ)[١].

والنصوص كثيرة وتدل على تقدير الرب تبارك وتعالى شقاوة العباد وسعادتهم وأرزاقهم وآجالهم وأعمالهم قبل خلقهم يوم أخذ الميثاق عليهم وهو تقدير ثان بعد التقدير الأول .

- **لماذا أنسانا الله الميثاق الذي أخذه علينا؟**

ولما كان القدر سر الله في خلقه، وقد حدثت وقت أخذ الميثاق على الذرية أمور تتعلق بمراتب القدر وأنواع التقدير، وما رتبه الله ﷻ في خلقه من أمور الصنعة ولوازم التدبير، فأن الله ﷻ لو أبقى في ذاكرة

---

(١) رواه الترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الأعراف ٥/٢٦٧ (٣٠٧٦)، وصححه الشيخ الألباني، انظر صحيح الجامع (٥٢٠٨)، وتخريج شرح الطحاوية ١/٢٦٦.

الإنسان أحداث الميثاق بالتفصيل، لبطلت حكمته في خلقه، وتعطل سر قضائه وقدره؛ فالقدر سر الله في خلقه، لا يطّلع عليه ملك مقرب، ولا نبي مرسل.

ولمزيد من البيان فإن تقدير الله ﷻ لأمور الإنسان، وكذلك سائر ما صدر عن المشيئة الإلهية في قضائه الكوني الذي سيقع لا محالة، رتبها الله ﷻ على عدة أنواع متدرجة، بداية بالنوع العام الذي يتعلق بجميع الخلق، إلى نوع خاص يتعلق بالإنسانية، إلى ما هو أخص مما يتعلق بكل إنسان على حده، بل للتقدير الخاص تعلق بكل سنة وكل يوم، فأنواع التقدير التي وردت في الكتاب والسنة خمسة أنواع كما سبق.

والتقدير الميثاقي تقدير ثان بعد التقدير الأزلي وأخص منه وداخل فيه، وقد تم عند أخذ الميثاق على بنى آدم، ويشمل أحكام التدبير التي قدر الله فيها سعادة العباد وشقائهم وأرزاقهم وآجالهم، ومختلف أعمالهم، وأهل الجنة منهم، وأهل النار.

والتقدير الميثاقي لا يتبدل ولا يتغير شأنه شأن التقدير الأزلي، وهما تقديران لا يعلمهما ملك مقرب ولا نبي مرسل، وقد ضن ربنا بهما لأنهما سره في خلقه كما تقدم التفصيل في ذكر أنواع التقدير.

لكن ما يعنينا أنه عند أخذ الميثاق على بني آدم في عالم الذر حدث نوع من أنواع التقدير، حدد الله فيه المصير الذي يؤول إليه أهل الجنة والنار، وهذا التقدير الميثاقي مع التقدير الأزلي كما تقدم لا يقبلان المحو والإثبات والتغيير، ولا يطلع عليهما ملك مقرب ولا نبي مرسل، ولا يعلمان إلا بعد وقوعهما.

ولو أن إنسانا علم ما حدث في التقدير الميثاقي عند أخذ العهد على الذرية، وبقيت أحداثه في ذاكرته حاضرة غير منسية، لتعطلت معاني الحكمة الإلهية في خلق الإنسان، كيف يكلفنا الله بالشرائع والأحكام، ويأمرنا بالخضوع والإسلام وكل منا يعلم مصيره إن كان وقت الميثاق مع فريق أهل الجنة أو أهل النار؟

أو كما ورد في حديث علي ﵁ لما قال النبي ﷺ: (مَا مِنكُمْ مِن أَحَدٍ، مَا مِن نفْسٍ مَنفُوسَة، إِلاَّ وقَدْ كَتَبَ اللهُ مَكَانها مِن الجَنة وَالنار، وَإِلاَّ وقَدْ كُتِبَتْ شَقِية أَوْ سَعِيدَة، فَقَال رَجُل: يا رَسُول اللهِ أَفَلاَ نمكُثُ عَلَى كِتَابِنا، وَندَعُ العَمَلَ؟ فَقَال: مَن كَان مِن أَهْلِ السَّعَادَة فَسَيَصِيرُ إِلى عَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَة، وَمَن كَان مِن أَهْلِ الشَّقَاوَة فَسَيَصِيرُ إِلى عَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَة، ثمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩﴾ الليل:٥/٩) [١].

ومن هنا ظهرت حكمة الله تعالى في إخفاء تفاصيل الأحداث التي وقعت يوم أخذ الميثاق، فالعلة في عدم تذكر الميثاق إخفاء المقدر لتظهر معاني الحكمة الإلهية التي دل عليها اسمه الحكيم.

• هل يكفي الميثاق لإقامة الحجة على العباد؟

قد يسأل سائل عن العلة من إخبار الرسل عن وقوع الميثاق مع

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجنائز، باب موعظة المحدث عند القبر وقعود أصحابه حوله ١/٤٥٨ (١٢٩٦)، ومسلم واللفظ له في كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله ٤/٢٠٣٩ (٢٦٤٧).

عدم تذكرنا له؟ والجواب والله أعلم، أن ذلك أيضا لإظهار الحكمة في نشأة الكون وبدايته، وانسجام الفطرة مع الشريعة، وتعريف الحقوق بإقامة الحجة على العباد، والله ﷻ لأنه أنسانا الميثاق ببالغ كرمه وحكمته، فإنه لن يعذب أحدا إلا بعد وصول رسالته، وتذكيرهم بأحكامه وشريعته، وتفصيل ما يتعلق بالأوامر تجاه أمانته؛ فلا يكفي أخذ الميثاق لإقامة الحجة على العباد، ولو تذكرناه بمفردنا دون وحي سماوي لكان كافيا.

صحيح أنه ورد عند الإمام البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (ما من مَولودٍ إلاَّ يولدُ على الفِطرة، فأَبَواهُ يهوِّدانه أو ينصِّرانهِ أو يمجِّسانهِ، كما تُنتَجُ البَهيمة بَهيمة جَمْعاءَ، هل تُحِسُّون فيها مِن جَدْعاءَ؟) [١]. وأنه ثبت في السنة مقت الله للمشركين الذين ماتوا في الجاهلية، إلا أن الله ﷻ قد أخبر أنه لم يكن ليعذبهم حتى يبعث إليهم رسولا، فعلمنا أن الرسل أو الرسالة وصلتهم. وهذا يدل على إبطال قول من قال بقيام الحجة بمجرد وجود العقل دون ورود النقل والسمع كالقدرية، أو قيام الحجة لمحض المشيئة كما زعمت الجبرية [٢].

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه وهل يعرض على الصبي الإسلام ١/٤٥٦ (١٢٩٣)، ومسلم في كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين ٤/٢٠٤٧ (٢٦٥٨). ومعنى بهيمة جمعاء أي تامة الأعضاء مستوية الخلق، وتحسون تبصرون، والجدعاء مقطوعة الأذن أو الأنف أو غير ذلك، أي إن الناس يفعلون بها ذلك، فكذلك يفعلون بالمولود الذي يولد على الفطرة السليمة.

(٢) انظر بتصرف الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية ٢/٣١٤.

والله ﷻ قال في كتابه بالنص الصريح: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾﴾ طه:١٣٤. وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَـٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ القصص:٥٩.

قال ابن تيمية معقبا على هذه الآيات: (فهذا يبين أنه لم يكن ليعذب الكفار حتى يبعث إليهم رسولا، وبين أنهم قبل الرسول كانوا قد اكتسبوا الأعمال التي توجب المقت والذم، وهي سبب للعذاب، لكن شرط العذاب قيام الحجة عليهم بالرسالة) [1].

ومن فضل الله ﷻ على عباده أنه لا يكلفهم أمرا، ولا يكتب عليهم وزرا إلا إذا بلغ العبد سن الاحتلام، واستوعب المعنى الذي ورد في النصوص والكلام، وأدرك شيئا من رسالة الإسلام، وقد ثبت مرفوعا أنه قد رفع القلم عن الغلام حتى يحتلم، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن المجنون حتى يعقل.

روى الترمذي وصححه الشيخ الألباني من حديث علي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (رُفِعَ القَلَمُ عَن ثلاثَة، عَن النائِمِ حَتَّى يستَيقِظَ، وَعَن الصَّبِي حَتَّى يشِبَّ، وَعَن المَعْتُوهِ حَتَّى يعْقِل) [2].

---

(١) السابق ٢/٣١٤.

(٢) رواه الترمذي في كتاب الحدود، باب ما جاء فيمن لا يجب عليه الحد ٤/٣٢ (١٤٢٣)، والحديث صححه الشيخ الألباني رحمه الله في إرواء الغليل (٢٩٧)، ومشكاة المصابيح (٣٢٨٧).

والإنسان مسئول عن السبب في جهله، فإن كان الجهل من كسبه وسعيه، وإعراضه وكبره، فهو محاسب على كل معصية وقع فيها بجهله، سواء كانت المخالفة مخالفة عظيمة تؤدي إلى الخلود في النار، أو كانت المخالفة كبيرة تحت مشيئة الواحد القهار، إن شاء غفرها لعبده وإن شاء عذبه بذنبه، أما إذا انقطعت به الأسباب، وانسدت في وجهه الأبواب، ولم يتمكن من معرفة ما نزل به الكتاب، بعد الطلب والبحث والسؤال ولم يعص الله عز وجل فيما أمر بالسؤال قال: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ النحل:٤٣. فهو باتفاق معذور بجهله، لا يؤاخذ على ذنبه لأن الجهل ليس من كسبه وسعيه، بل هو من تقدير الله وفعله.

والقصد أن الله سبحانه وتعالى لا يعذب أحدا إلا بعد بلوغ الرسالة، وإعراضه عن الهداية إلى الضلالة، لئلا يكون له حجة على الله في نفي العدالة، ومعلوم من صحيح السنة أنه لا أحد أحب إليه العذر من الله [1].

---

(١) رواه البخاري من حديث سعد بن عبادة رضي الله عنه أنه قال: (لو رأيت رجلا مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: تعجبون من غيرة سعد، والله لأنا أغير منه، والله أغير مني، ومن أجل غيرة الله، حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه العذر من الله، ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين، ولا أحد أحب إليه المدحة من الله، ومن أجل ذلك وعد الله الجنة). أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول النبي ﷺ: لا شخص أغير من الله ٦/٢٦٩٨ (٦٩٨٠).

والميثاق وإن كانت الحجة لا تقوم به بمفرده، إلا أن الله من حكمته أنه يذكر المشركين به يوم القيامة تبكيتا لهم فيذكرونه، فعند البخاري من حديث أنس بن مالكٍ ﵁ أن النبي ﷺ قَال: (يقُول اللَّهُ تَعَالى لأَهْوَنَ أَهْلِ النارِ عَذابًا يوْمَ القِيامَة: لوْ أَن لكَ مَا فِي الأَرْضِ مِن شَيءٍ أَكُنتَ تَفْتَدِي بِهِ؟ فَيقُول: نعَمْ، فيقُول: أَرَدْتُ مِنكَ أَهْوَنَ مِن هَذا وَأَنت فِي صُلبِ آدَمَ أَن لا تُشْرِكَ بِي شَيئًا فَأَبَيتَ إِلا أَن تُشْرِكَ بِي) (١).

• **العلة في التحذير من الشرك يوم أخذ العهد على الذرية.**

ويمكن القول إن العلة الأساسية في التحذير من الشرك يوم أخذ العهد والميثاق على الذرية، هو بيان دور الإنسان في الأرض، وأن استخلافه في ملك الله مقصور على تنفيذ أوامره الشرعية فيما خوله الله واسترعاه، ولا يعني استخلافه استحقاقه هو أو غيره لشيء من معاني الربوبية التي انفرد بها، فهذا حق لا مساس به على الإطلاق، والمساس به شرك بالله لا يغفر إلا بالتوبة، فأراد الله أن يبين لهم أن استخلافهم في الأرض لتوحيد العبودية، وليس للشرك في الربوبية.

ومن ثم فإن الله ﷻ لن يقبل منهم أن يتخذوا شريكا له في ملكه، أو منازعا له في تدبير شئون خلقه، ولن يقبل منهم عملا فيه نصيب لغيره، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار ٥/٢٣٩٩ (٦١٨٩)، ومسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب طلب الكافر الفداء بملء الأرض ذهبا ٤/٢١٦٠ (٢٨٠٥).

﴿يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ٤٨﴾ النساء:٤٨.

وقال تعالى أيضا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١١٦﴾ النساء:١١٦.

وقال: ﴿لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ٧٢﴾ المائدة:٧٢.

ومن ثم فإن الشرك لكونه ظلما عظيما أخذ الله العهد والميثاق على الإنسانية قبل نزولهم إلى الأرض، فإن ادعى أحد بعد تذكير الله له بذلك عن طريق أنبيائه ورسله أن الله ﷻ له شريك في الملك، أو له معين في تدبيره السماوات والأرض، فقد وقع في الظلم العظيم، وعطل دور الإنسان، ولم يوفق في الابتلاء وأداء الأمانة حتى لو كان فعله ما كان.

ولن يفلح وقتها احتجاج بالنسيان، أو ادعاء التبعية للآباء في سالف الزمان، فوجب عليه أن يراعى في قوله وعمله الخوف من الله وحده لأنه صاحب الأمانة وخالقها، وولي النعمة ومالكها، وما سواه لا يملك شيئا، بل هو مجرد أمين مستخلف في الحياة، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ٢٢﴾ سبأ:٢٢.

وقال ﷻ: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ

﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ﴿١٤﴾﴾ فاطر:١٣/١٤ .

وقد ظلم نفسه وتعدى وصفه من قال بعد ذلك بقول الطاغوت فرعون: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ﴿٣٩﴾﴾ القصص:٣٨/٣٩ .

وقد ظلم نفسه من تناسى فضل ربه، وتكبر على إخوانه وقومه وتناسى حقيقة الأمانة والابتلاء، وأن نسبة الملك إليه إنما هي نسبة استخلاف واسترعاء، وأن شرف العبد يكمن في التواضع والعبودية، قال الله تعالى: ﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ القصص:٧٦/٧٨.

والقصد أن آية الميثاق وما ورد في تفسيرها من نصوص صحيحة، وما ورد في قول أبي بن كعب رضي الله عنه يدل على أن الله عز وجل أخذ عليهم الميثاق، ليعلمهم جميعا بأنه منفرد بالملك والربوبية، وله العلو في الشأن والقهر والفوقية، لا يقبل شريكا معه في العبودية، ولا يقبل أن يتشبه به

أحد في معنى من معاني الربوبية.

ومن أعظم الظلم أن الإنسان الذي كرمه الله ﷻ في ملكه، واستخلفه في أرضه، ووكل ملائكته بحفظه، والقيام على تدبير أمره، من أعظم الظلم أن يسوى بين الله ﷻ الذي ليس كمثله شيء، والمخلوق العاجز الفقير الذي لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، يسوى بينه وبين الله ﷻ في المحبة والخوف والرجاء، والخضوع التعظيم والدعاء.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾ البقرة:١٦٥.

ومن ثم فإن توحيد الله ﷻ وعدم الإشراك به أساس المغفرة لهم، ولما أشهدهم الله على أنفسهم بذلك أقروا به، وأقروا بالتوحيد وأنهم لا حول ولا قوة لهم إلا بمعونة الله وهدايته، وأنهم لا ينسبون شيئا من ملكه لهم أو لغيرهم إلا على سبيل الأمانة والابتلاء، فالأمر لله في كونه على سبيل الربوبية وتصريف خلقه، والأمر لله في شرعه على سبيل العبودية وتنفيذ حكمه، وأن الفضل كله يرجع إليه، وأنه لا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه، وهم على هذا العهد قائمون، يوحدون ولا يشركون، ويشكرون ولا يكفرون، صابرون مؤمنون، إلى أن يعيدهم يوم القيامة إليه، ويكرمهم يوم العرض عليه، وعدا عليه بعدله، وإكراما لهم بفضله، كما بين ذلك في سائر كتبه فقال سبحانه

وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾ التوبة: ١١١/١١٢.

وهذا الميثاق هو أساس فطرة التوحيد في كل إنسان؛ فالفطرة التي فطر الله الخلائق عليها، اقتضت أن تلجأ النفوس إلى قوة عليا عند ضعفها، وتطلب غنيا أعلى عند فقرها، وتوابا رحيما عند ذنبها، وسميعا قريبا بصيرا مجيبا عند سؤالها، وكل ذلك يدعو النفس إلى التوحيد والإسلام، والعودة إلى بالضرورة إلى الملك القدوس السلام.

ومثل هذا الإحساس الفطري كامن في النفس وإن لم يعلنه الشخص، فإن خلا القلب من موانع الطبع المألوفة والتأثر بالاعتقادات الشركية، فإن قلبه يتوجه تلقائيا إلى ربه بالعبودية وقد تقدم ما ورد عند البخاري من حديث أبي هريرة ﵁ أن النبي ﷺ قال: (ما من مَولودٍ إلاَّ يولدُ على الفِطرة، فأَبَواهُ يهوِّدانه أو ينصِّرانهِ أو يمجِّسانهِ، كما تُنتجُ البَهيمة بَهيمة جَمْعاءَ، هل تُحِسُّون فيها مِن جَدْعاءَ ؟) .

وعند مسلم من حديث عياض ﵁ أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: (أَلاَ إن ربِّى أَمَرني أَن أُعلمَكُمْ مَا جهلتُمْ، مِمَّا علمَني يومِي هَذا، كُل مَال نحلتُهُ عَبْدًا حلاَل، وَإني خَلَقْتُ عِبَادِي حُنفَاءَ كُلهُمْ، وَإنهُمْ أَتَتهُمُ الشَّياطِين فَاجْتَالتْهُمْ عَن دِينهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَليهِمْ مَا أَحْللتُ لهُمْ، وَأَمرَتْهُمْ أَن يشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنزِل بِهِ سُلطَانا، وَإِن اللهَ

نظَرَ إِلى أَهْل الأَرْضِ فَمقَتَهُمْ، عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ، إِلاَّ بَقَايا مِن أَهْل الكِتَابِ، وَقَال: إِنمَا بَعَثتُك لأَبْتَليكَ وَأَبْتَلي بِكَ.. الحديث) [١].

(١) رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار ٤/ ٢١٩٧ (٢٨٦٥).

المطلب الثالث عشر

القضاء المعلق والتقديرات الابتلائية
المظهرة للحكمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فقد تحدثنا في المطلب السابق عن أنواع التقدير في الأصول القرآنية والنبوية وبينا أنها خمسة أنواع: تقدير أزلي، وتقدير ميثاقي، وتقدير عمري، وتقدير سنوي، وتقدير يومي. وتحدثنا عن العلة في هذا التنوع بين المبرم منها والمعلق.

وعلمنا أن القضاء المبرم والتقدير الحتمي هو سر الله في خلقه لم يَطّلع عليه ملك مقرب ولا نبي مرسل، ولا يقبل المحو والتغيير. ثم عرضنا طرفا من اعتقاد الصحابة ﷺ في الإيمان بالتقدير الأزلي، وكذلك بينا حقيقة التقدير الميثاقي، وأنه من أنواع التقدير المظهر للقدرة والتي ضن ربنا بها. ثم علمنا العلة في نسيان الميثاق الذي أخذه الله علينا، وأنه سبحنه أنسانا الميثاق تحقيقا لحكمته، وبينا أنه لا يكفي الميثاق لإقامة الحجة على العباد، كما تناول الحديث العلة في التحذير من الشرك يوم أخذ العهد على الذرية.

وفي هذا المطلب بإذن الله نتحدث عن أنواع التقدير وتفصيل القول في التقدير العمري، والتقدير السنوي، والتقدير اليومي، وهذه الثلاثة التي تمثل القضاء المعلق المظهر للحكمة، والذي يقبل المحو والإثبات والتغيير.

- **التقدير العمري تقدير معلق بأسباب غيبية لرعاية الإنسان.**

علمنا أن تقدير الله لمخلوقاته أنواع، النوع الأول وهو التقدير الأزلي وهو من القضاء المبرم، أو التقدير العام المدون في اللوح المحفوظ، وهو تقدير شامل يتعلق بكل ما سيحدث في جميع المخلوقات، قدره في أم الكتاب قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة.

وهناك نوع آخر من التقدير المبرم يتعلق بالإنسانية جمعاء وتقرير المصير، حيث قدر الله ﷻ فريقا منهم في الجنة وفريقا في السعير، وهذا التقدير أخص من الأول وهو مع التقدير الأزلي سر الله في خلقه لم يمنح أحدا من عباده القدرة على معرفته إلا أن يوحي إلي بعض أنبيائه ورسله ما يشاء من علم الغيب، كما أخبر محمدا ﷺ أن عمه أبا لهب وامرأته سيكونان من أهل النار، فقال رب العزة والجلال: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ١ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ٢ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ٣ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ٤ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ ٥﴾ المسد: ١/ ٥.

أما النوع الثالث من أنواع التقدير فهو التقدير العمري، وهو من القضاء المعلق بالأسباب الغيبية أو الملائكة، وهو خاص بكل إنسان على حدة، حيث يتم وقت نفخ الروح في الجنين وهو في بطن أمه، وهذا

التقدير يكتب فيه أربعة أمور: أولا رزقه، وثانيا: أجله، وثالثا: عمله، ورابعا: أشقي هو أو سعيد؟

ولما كان التقدير العمري تقديرا معلقا بما تقوم به الملائكة كأسباب غيبية في تقرير شقاوة العبد وسعادته، ورزقه ومنيته، وعمله في دنيته، وسائر ما يلقاه في هذه الحياة، فإن شأن الملائكة في التقدير العمري شأن الأسباب المشهودة يدفع بعضها بعضا، والقاعدة في التقدير المعلق أن كل ما تعلق بالأسباب فإنه يقبل المحو والإثبات، لأن الأخذ بالأسباب يدفع بعضه بعضا ليؤدي إلى النتائج والمعلولات.

والله ﷻ إنما جعل الملائكة موكلة بمتابعة الإنسان في تقديراته العمرية، ليقع الأمر على ما قدره الله في القضاء المبرم، أو التقدير السابق الذي دون في أم الكتاب، والعلة إظهار الحكمة بتحقيق طاعة الملائكة لربها، والعناية بالإنسان الذي كرمه الله، وسيصبح خليفة عن الله على وجه الابتلاء، مستخلفا مخولا في الأرض إلى وقت القيامة والجزاء، وهم الذين قالوا عنه: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ البقرة:٣٠.

وذلك ردا منهم على ربهم حين ابتلاهم وقال لهم: ﴿إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ﴾ البقرة:٣٠ . فاقتضت حكمة الله ﷻ تكليفهم بمتابعة الأوامر الإلهية الخاصة بإنشاء هذا الخليفة لحظة بلحظة، منذ أن كان نطفة إلى آخر لحظة في عمره عند بلوغ أجله، وأمرهم بمتابعة رزقه وعمله، وشقي هو أو سعيد؟ فيكتب الملك الأمر، ولا يعلم ما في اللوح من التقدير الأزلي، لأن ذلك التقدير لا يعلمه ملك مقرب، ولا نبي مرسل كما تقدم ذكره.

ومن جهة أخرى كلف الله الملائكة بمتابعة الإنسان ليشعر بعجزه عندما يتأمل في فقره وانعدام قوته وحوله، ومدى ضعفه وهو في بطن أمه، وكيف سخر الله ﷻ من يقوم على رعايته، وهو لا يدري شيئا عن نفسه، كالطفل حين ولادته وعجزه، واحتياجه في كل شيء إلى غيره، اقتضت حكمة ربه أن غرس الحنان والرحمة في قلب أمه لينال كامل الرعاية حتى يصبح مكلفا مختارا مستخلفا راعيا مسئولا.

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ ﴾ الروم:٥٤.

• **الأسباب المشهودة في تكوين الإنسان وإنشائه أطوارا.**

قال تعالى عن خلق الإنسان في بطن أمه: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ ﴾ نوح:١٣/١٤ .

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ المؤمنون:١٤/١٢.

وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ

﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٖ شَيْـًٔا﴾ الحج:٥.

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٖ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجٗاۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝١١﴾ فاطر:١١ .

لقد دلت معطيات العلم الحديث التي تتناول دراسة تكوين الجنين على أن الأطوار التي يمر بها تنقسم إلى عدة مراحل :

المرحلة الأولى: مرحلة النشأة والتكوين، وذلك من خلال عملية الإخصاب حيث يرحل ماء الرجل ليقابل البويضة في ماء المرأة في قناة البويضات المسماة في الاصطلاح الطبي الآن بقناة فالوب، ولا يصل من ماء الرجل إلا القليل، ويخترق البويضة حيوان منوي واحد، ويحدث عقب ذلك مباشرة تغير سريع في غشائها، يمنع دخول بقية الحيوانات المنوية، وبدخول الحيوان المنوي في البويضة تتكون النطفة الأمشاج أي البويضة الملقحة والمسماه بالزيجوت، وبهذا تبدأ مرحلة النطفة، والنطفة معناها اللغوي القطرة، وهو الشكل الذي تتخذه البويضة الملقحة في أطوار المرحلة الأولى وهي على النحو التالي:

١- طور النطفة: وبداية هذا الطور مكون من نطفة مختلطة من سائلين، وتتحرك في وسط سائل، وتستغرق فترة زمنية تقدر بالأيام الستة الأولى من الحمل، وفي اليوم السادس تقريبا تشق النطفة طريقها إلى تحت سطح بطانة الرحم مواصلة انقساماتها الخلوية وتطورها، ثم يتم انغراسها فيه، وتكتمل بذلك مرحلة النطفة في اليوم الرابع عشر من

التلقيح تقريبا، وبذلك تأخذ حصتها من الأربعين يوما.

٢- طور العلقة: حيث تستمر الخلايا في الانقسام والتكاثر بعد مرحلة النطفة، ويتصلب الجنين بذلك، ثم تكون الطبقة العصبية ويأخذ الجنين في اليوم الحادي والعشرين شكلا يشبه العلقة، كما تعطي الدماء المحبوسة في الأوعية الدموية للجنين لون قطعة من الدم الجامد، وبهذا تتكامل المعاني التي يدل عليها لفظ علقة، والذي يطلق على دودة تعيش في البرك، وهنا يطلق على شيء معلق يمثل قطعة من الدم الجامد إلى نحو اليوم الواحد والعشرين، وبهذا تأخذ العلقة حصتها من الأربعين يوما وهذا تأويل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ المؤمنون:١٤.

٣- طور المضغة: يبدأ هذا الطور بظهور الكتل البدنية في اليوم الرابع والعشرين أو الخامس والعشرين في أعلى اللوح الجنيني، ثم يتوالى ظهور هذه الكتل بالتدريج إلى مؤخرة الجنين، وفي اليوم الثامن والعشرين يتكون الجنين من عدة فلقات تظهر بينها انبعاجات، مما يجعل شكل الجنين شبيها بالعلكة الممضوغة، ويزداد اكتساب الجنين في تطوره شكل المضغة تدريجيا من حيث الحجم، بحيث يكتمل هذا الطور في بقية الأيام الأربعين الأولى من حياته، وهذا الترتيب في خلق الأطوار الأولى يجيء فيه طور المضغة بعد طور العلقة مطابقا لما ورد في قوله: ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ المؤمنون: ١٤. وينتهي هذا الطور بنهاية الأسبوع السادس لانتقاله إلى الجسد الفاصل، حيث تبدأ في الأسبوع السابع وضوح الصورة الآدمية نظرا لبداية انتشار الهيكل العظمي، فيمثل هذا الأسبوع الحد الفاصل ما بين المضغة والشكل الإنساني.

٤- طور العظام: يبدأ الهيكل العظمي الغضروفي مع بداية الأسبوع السابع في الانتشار في الجسم كله، فيأخذ الجنين شكل الهيكل العظمي، وتكَوُّن العظام هو أبرز تكوين في هذا الطور، حيث يتم الانتقال من شكل المضغة الذي لا ترى فيه ملامح الصورة الآدمية إلى بداية شكل الهيكل العظمي في فترة زمنية وجيزة، وهذا الهيكل العظمي هو الذي يعطي الجنين مظهره الآدمي، ومصطلح العظام الذي أطلقه القرآن الكريم على هذا الطور، هو المصطلح الذي يعبر عن هذه المرحلة من حياة الحُمَيل تعبيرا دقيقا يشمل المظهر الخارجي، وهو أهم تغيير في البناء الداخلي، وما يصاحبه من علاقات جديدة بين أجزاء الجسم، واستواء في مظهر الحُمَيل، ويتميز بوضوح عن طور المضغة الذي قبله، كما قال تعالى: ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا﴾ المؤمنون:١٤.

٥- طور الكساء باللحم: يتميز هذا الطور بانتشار العضلات حول العظام، وإحاطتها بها كما يحيط الثوب أو الكساء بصاحبه ولابسه، وبتمام كساء العظام بالعضلات تبدأ الصورة الآدمية بالاعتدال، فترتبط أجزاء الجسم بعلاقات أكثر تناسقا. وبعد تمام تكوين العضلات يمكن للجنين أن يبدأ بالتحرك، وتبدأ مرحلة كساء العظام باللحم في نهاية الأسبوع السابع وتستمر إلى نهاية الأسبوع الثامن، وتأتي عقب طور العظام كما بين ذلك قوله تعالى: ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ المؤمنون:١٤.

ويعتبر هذا الطور الذي ينتهي بنهاية الأسبوع الثامن نهاية مرحلة التخلق، كما اصطلح علماء الأجنة على اعتبار نهاية الأسبوع الثامن نهاية لمرحلة الحُمَيل، ثم تأتي بعدها مرحلة الجنين، التي توافق مرحلة

النشأة، كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝١٤﴾ المؤمنون:١٤.

المرحلة الثانية: مرحلة النشأة خلقا آخر، والنشأة مصدر مشتق من الفعل نشأ، وهذا الفعل معناه الارتفاع بالشيء وزيادته ونماؤه، حيث يبدأ هذا الطور بعد مرحلة الكساء باللحم، أي من الأسبوع التاسع، ويستغرق فترة زمنية يدل عليها استعمال حرف العطف ثم الذي يدل على فاصل زمني بين الكساء باللحم والنشأة خلقا آخر، وفي خلال هذه المرحلة تتم عدة عمليات هامة في نمو الجنين، تندرج بجلاء تحت الوصفين الذين جاءا في القرآن الكريم، ويمكن بيانهما في ما يلي:

١- النشأة: ويتضح بجلاء في سرعة معدل النمو من الأسبوع التاسع مقارنة بما قبله من المراحل.

٢- الخلق الآخر: وهذا الوصف يتزامن مع الأول ويدل على أن الحُمَيل قد تحول في مرحلة النشأة إلى خلق آخر، ففي الفترة ما بين الأسبوعين التاسع والثاني عشر تبدأ أحجام كل من الرأس والجسم والأطراف في التوازن والاعتدال، وفي الأسبوع الثاني عشر يتحدد جنس الجنين بظهور الأعضاء التناسلية الخارجية.

وفي نفس الأسبوع يتطور بناء الهيكل العظمي من العظام الغضروفية اللينة إلى العظام التكلسية الصلبة، كما تتمايز الأطراف، ويمكن رؤية الأظافر على الأصابع، كما يظهر الشعر على الجلد في هذا الطور، ويزداد وزن الجنين بصورة ملحوظة، وتتطور العضلات، وتبدأ الحركات الإرادية في هذا الطور، وتصبح الأعضاء والأجهزة مهيأة

للقيام بوظائفها، وفي هذه المرحلة يتم نفخ الروح، طبقا لما دلت عليه نصوص القرآن الكريم والسنة المطهرة، ويمكن التعرف على نفخ الروح بمشاهدة ظاهرة النوم واليقظة في الجنين التي تدل نصوص قرآنية ونبوية عديدة على ارتباطها بالروح، وتمتد هذه المرحلة المتعلقة بالنشأة خلقا آخر من الأسبوع التاسع إلى أن يدخل الجنين مرحلة القابلية للحياة خارج الرحم.

المرحلة الثالثة: طور القابلية للحياة، وتبدأ تهيئة الجنين للحياة خارج الرحم في الأسبوع الثاني والعشرين وتنتهي في الأسبوع السادس والعشرين عندما يصبح الجهاز التنفسي مؤهلا للقيام بوظائفه، ويصبح الجهاز العصبي مؤهلا لضبط حرارة جسم الجنين، وتعادل الأسابيع الستة والعشرون تقريبا ستة أشهر قمرية، وقد قدّر القرآن الكريم أن مرحلة الحمل والحضانة تستغرق ثلاثين شهرا فقال تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ الأحقاف:١٥ . وبين أيضا أن مدة الحضانة تستغرق عامين في قوله تعالى: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ لقمان:١٤. وبذلك تكون مدة الحمل اللازمة ليصبح الجنين قابلا للحياة هي ستة أشهر قمرية، وقبل الأسبوع الثاني والعشرين الذي يبدأ منه هذا الطور يخرج سقطا في معظم الأجنة.

المرحلة الرابعة: طور الحضانة الرحمية، ويدخل الجنين بعد الشهر السادس فترة حضانة تتم في الرحم، فلا تنشأ أجهزة أو أعضاء جديدة، فكلها قد وجدت وأصبحت مؤهلة للعمل، ويقوم الرحم فيها بتوفير الغذاء والبيئة الملائمة لنمو الجنين وتستمر إلى طور المخاض والولادة.

المرحلة الخامسة: طور المخاض، وتبدأ بعد مرور تسعة أشهر قمرية وينتهي بالولادة، ويمثل هذا الطور مرحلة التخلي عن الجنين من قبل الرحم ودفعه خارج الجسم، كما قال تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾﴾ عبس:١٧/٢٠ [(١)].

• الأدلة النقلية على إثبات تولى الملائكة للتقدير العمري.

١- روى البخاري من حديث ابن مسعود ﷺ أنه قال: (حَدَّثنا رسُول اللهِ ﷺ وَهُوَ الصَّادِقُ المَصْدُوقُ: إن أَحَدَكُمْ يجمَعُ خَلقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَربَعِين يومًا، ثمَّ يكُون فِي ذلكَ عَلَقَة مِثل ذلكَ، ثمَّ يكون فِي ذلكَ مُضْغَة مِثل ذلكَ، ثمَّ يرسَل المَلَك، فَينفُخُ فِيهِ الروحَ، وَيؤْمَر بِأَربَعِ كَلمَاتٍ: بِكَتْبِ رزقِهِ وأَجَلهِ وعَمَلهِ وَشقِي أَوْ سَعِيدٌ؟ فو الذي لاَ إِلهَ غَيرُه، إن أَحَدَكُمْ ليعْمَل بِعمَل أَهْل الجَنة حَتَّى مَا يكُون بَينهُ وَبَينها إِلاَّ ذراعٌ، فَيسْبِقُ عَليهِ الكِتَابُ، فيعْمَل بِعمَل أَهْل النار فَيدْخُلهَا. وَإِن أَحَدَكُمْ ليعْمَل بِعمَل أَهْل النار، حَتَّى مَا يكُون بَينهُ وَبَينهَا إِلاَّ ذراعٌ، فَيسْبِقُ عَليهِ الكِتَابُ فيعْمَل بِعمَل أَهْل الجَنة فيدْخُلهَا) [(٢)].

---

(١) رجعنا في مصدرية الكلام إلى خلاصة المعلومات الطبية الحديثة المتعلقة بتكوين الأجنة ونشأتها، والمنتشرة في مواقع عديدة على شبكة الإنترنت، وانظر أيضا المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام من إعداد الباحث علي بن نايف الشحود ١٤٦/٦.

(٢) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة ١١٧٤/٣ (٣٠٣٦)، ومسلم في كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته ٢٠٣٦/٤ (٢٦٤٣).

٢- وعند مسلم من حديث أَبِي الزُّبَير المَكِّي أَن عَامِر بْن وَاثلة حَدَّثَهُ أَنهُ سَمِعَ عَبْدَ اللهِ بْن مَسْعُودٍ ﷺ يقُول: الشقِي مَن شقِي فِي بَطْن أُمِّهِ، وَالسَّعِيدُ مَن وُعِظَ بِغيرِهِ، فَأَتَى رجُلا مِن أَصْحَابِ رسُول اللهِ ﷺ يقَال لهُ حُذيفَة بْن أَسِيدٍ الغِفَارِي فَحَدَّثَهُ بِذلك مِن قَوْل ابْن مَسْعُودٍ فقَال: وَكَيفَ يشقَى رجُل بِغَير عَمَل؟ فَقَال لهُ الرجُل: أَتَعْجَبُ مِن ذلكَ، فَإِني سَمِعْتُ رسُول اللهِ ﷺ يقُول: إِذا مَر بِالنطْفَة ثنتَان وَأَربَعُون ليلة بَعَث اللهُ إِليهَا مَلكًا، فَصوَّرهَا، وَخلقَ سَمْعَهَا وَبَصرهَا وَجِلدَهَا وَلحمَهَا وَعِظَامَهَا، ثم قَال: يا ربِّ، أَذكَر أَمْ أُنثى؟ فَيقْضِي ربُّك مَا شاءَ، وَيكْتُبُ المَلكُ. ثم يقُول: يا ربِّ أَجَلهُ؟ فيقُول ربُّك مَا شاءَ وَيكْتُبُ المَلكُ. ثم يقُول: يا ربِّ رِزقُهُ؟ فَيقْضِي ربُّك مَا شاءَ وَيكْتُبُ المَلكُ. ثم يخْرجُ المَلكُ بِالصَّحِيفَة فِي يدِهِ، فَلاَ يزِيدُ عَلى مَا أُمِر وَلاَ ينقُصُ)(١).

٣- وروى مسلم من حديث حُذيفَة بن أَسِيدٍ الغِفَارِي ﷺ أنه قَال: (سَمِعْتُ رسُول اللهِ ﷺ بِأُذني هَاتَين يقُول: إِن النطْفَة تَقَعُ فِي الرحِمِ أَربَعِين ليلة، ثم يتَصوَّر عَليهَا المَلكُ، قَال زُهَير: حَسِبْتُهُ قَال: الذي يخْلُقُهَا: فَيقُول: يا ربِّ، أَذكَر أَوْ أُنثى؟ فَيجْعَلهُ اللهُ ذكَرا أَوْ أُنثى، ثم يقُول: يا ربِّ أَسَوِي أَوْ غير سَوِي؟ فَيجْعَلهُ اللهُ سَوِيا أَوْ غير سَوِي، ثم يقُول: يا ربِّ مَا رِزقُهُ؟ مَا أَجَلهُ؟ مَا خُلقُهُ؟ ثم يجْعَلهُ اللهُ

---

(١) رواه مسلم في كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته ٤/٢٠٣٧ (٢٦٤٥).

شقِيا أَوْ سَعِيدا) [(١)].

٤- وعند البخاري ومسلم من حديث أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ قال: (وَكل الله بالرحِم مَلكا فيقول: أي ربِّ نطفة؟ أي رب علقة؟ أي رب مضغة؟ فإذا أراد الله أن يقضي خَلَقَها قال: أي ربِّ ذكر أم أُنثى؟ أشقي أم سعيد؟ فما الرزق، فما الأجَل؟ فيكتَب كذلك في بطن أمِّه) [(٢)].

• **الجمع بين الروايات في بيان توقيت التقدير العمري.**

ذكر ابن القيم أن هذه الأحاديث دلت مجتمعة على تقدير رزق العبد وأجله وشقاوته وسعادته وهو في بطن أمه، واختلفت في وقت هذا التقدير، وهذا هو التقدير العمري الذي يأتي بعد التقدير الأول السابق على خلق السماوات والأرض، وبعد التقدير الذي وقع يوم استخراج الذرية بعد خلق أبيهم آدم عليه السلام.

ففي حديث ابن مسعود ﷺ أن هذا التقدير يقع بعد مائة وعشرين يوما من حصول النطفة في الرحم، وحديث أنس ﷺ غير مؤقت، وأما حديث حذيفة بن أسيد ﷺ فقد وقت فيه التقدير بأربعين يوما، وفي لفظ آخر بأربعين ليلة وفي لفظ ثنتين وأربعين ليلة، وفي لفظ بثلاث وأربعين ليلة.

---

(١) رواه مسلم في الموضع السابق ٤/٢٠٣٨ (٢٦٤٥).

(٢) رواه البخاري في كتاب القدر ٦/٢٤٣٣ (٦٢٢٢)، ومسلم في كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته ٤/٢٠٣٨ (٢٦٤٦).

وكثير من الناس يظن التعارض بين الروايات ولا تعارض بينهما بحمد الله، فالملائكة تتابع تخليق الإنسان عبر مراحل تكوينه داخل الرحم، فالملك الموكل بالنطفة يكتب ما يقدره الله سبحانه على رأس الأربعين الأولى حتى يأخذ في الطور الثاني وهو العلقة؟ وأما الملك الذي ينفخ فيه، فإنما ينفخها بعد الأربعين الثالثة، فيؤمر عند نفخ الروح فيه بكتب رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، وهذا عمل آخر غير الذي كتبه الملك الموكل بالنطفة، ولهذا قال في حديث ابن مسعود: ثم يرسل إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات. وأما الملك الموكل بالنطفة فذلك قائم معها ينقلها بإذن الله ﷻ من حال إلى حال، فيقدر الله سبحانه شأن النطفة حتى تأخذ في مبدأ التخليق وهو العلقة، ويقدر شأن الروح حين تتعلق بالجسد بعد مائة وعشرين يوما، فهو تقدير بعد تقدير، فاتفقت أحاديث النبي ﷺ وصدق بعضها بعضا، ودلت كلها على إثبات القدر السابق ومراتب التقدير.

وما يأتي تعارض إلا من عدم ثبوت النقل، أو عدم فهم العقل للنقل، أما العقل الصريح فلا يمكن أبدا أن يتعارض مع النقل الصحيح، بل يشهد له ويؤيده؛ لأن المصدر واحد، فالذي خلق العقل هو الذي أرسل إليه النقل، فمتى صحت الرواية وفهمت كما ينبغي تبين أن الأمر كله من مشكاة واحدة صادقة، متضمنة لنفس الحق وبالله التوفيق(١).

---

(١) شفاء العليل لابن القيم ص٢٢ بتصرف.

• رأي ابن تيمية في بيان الفرق بين القضاء المبرم والمعلق.

سُئِل ابن تيمية عن قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ۝٢﴾ الأنعام:٢ .

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝١١﴾ فاطر:١١. وقوله تعالى: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ۝٣٩﴾ الرعد:٣٩ .

هَل المحو والإِثبات في اللوح المحفوظ، والكتاب الذي جاءَ في الصحيح: "إن اللّهَ تعالى كتب كتابا فهُو عندهُ على عرشهِ .. الحديث". وقد جاء: "جف القلم". فما معنى ذلك في المحو والإِثبات؟ وهَل شُرع في الدعاءِ أَن يقول: " اللهُم إن كنت كتبتني كذا، فامحني واكتبني كذا، فإِنك قلت: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ الرعد:٣٩؟

وهل صح أن عمر رضي الله عنه كان يدعو بمثل هذا؟ وهل الصحيح عندكم أَن العمر يزِيد بصلة الرحم كما جاءَ في الحديث؟ أَفتونا مأجورين .

فأجاب رحمه الله بعد حمد الله: أما قوله سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ۝٢﴾ الأنعام:٢. فالأَجل الأَول هو أَجل كل عبد؛ الذي ينقضِي به عمره، والأَجل المسمى عنده هو أَجل القيامة العامة. ولهذا قال: مسمى عنده، فإِن وقت الساعة لا يعلمه ملك مقرب، ولا نبي مرسل كما قال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ

ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ الأعراف:١٨٧.

بخلاف ما إذا قال: مسمى، كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾ البقرة:٢٨٢. إذ لم يقيد بأنه مسمى عنده، فقد يعرفه العباد .

وأما أَجل الموت فهذا تعرفه الملاِئكة الذين يكتبون رزْق العبد وأَجله وعمله وشقي أَو سعيد، كما قال في الصحيحين عن ابن مسعود ﵁ أنه قال: (حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: إن أَحدكم يجمع خلقه في بطْن أُمه أَربعين يوما نطْفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضْغَة مثل ذلك ثم يبعث إليه الملك فيؤْمر بأَربع كلمات فيقال: اُكتب رزْقه وأَجله وعمله وشقي أَو سعيد ثم ينفخ فيه الروح)[١].

فهذا الأجل الذي هو أجل الموت قد يعلمه الله لمن شاءَ من عباده، وأَما أَجل القيامة المسمى عنده فلا يعلمه إلا هو. وأما قوله: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ﴾ فاطر:١١. فقد قيل: إن المراد الجنس، أَي ما يعمر من عمر إنسان، ولا ينقص من عمر إنسان، ثم التعمير والتقصير يراد به شيئَان:

أحدهما: أَن هذا يطُول عمره، وهذا يقصر عمره، فيكون تقصيره نقصا له بالنسبة إلى غيره، كما أَن المعمر يطُول عمره، وهذا يقصر

---

(١) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة ٣/١١٧٤ (٣٠٣٦).

عمره، فيكون تقصيره نقصا له بالنسبة إلى غَيره، كما أَن التعمير زيادة بالنسبة إلى آخر. وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أَنه قال: (من سره أَن يبسطَ له في رزقه، وينسأَ له في أَثره، فليصل رحمه) [1].

وقد قال بعض الناس: إن المراد به البركة في العمر بأَن يعمل في الزَّمن القصير ما لا يعمله غَيره إلا في الكثير. قالوا: لأَن الرزْق والأَجل مقدران مكتوبان. فيقال لهؤُلاءِ: تلك البركة، وهي الزِّيادة في العمل والنفع هي أَيضًا مقدرة مكتوبة وتتناول جميع الأَشياءِ .

والجواب المحقق أَن الله يكتب للعبد أَجلا في صحف الملائِكة، فإِذا وصل رحمه زَاد في ذلك المكتوب، وإِن عمل ما يوجب النقص نقص من ذلك المكتوب، ونظير هذا ما في الترمذي وغَيره عن النبي ﷺ أَن آدَمَ لَمَّا طَلبَ مِن اللهِ أَن يُرِيَهُ صُورَةَ الأَنبِيَاءِ مِن ذرِّيَّتِهِ، فَأَرَاهُ إِيَّاهُمْ فرَأَى فِيهِمْ رَجُلا لَهُ بَصِيصٌ فقَالَ: مَن هَذا يَا رَبِّ؟ فَقَال ابْنك داود. قَال: فَكَمْ عُمرُهُ؟ قَال أَرْبَعُون سَنَة. قَال: وَكَمْ عُمْرِي؟ قَال: أَلفُ سَنةٍ. قَال فَقَدْ وَهَبْت لَهُ مِن عُمْرِي سِتِّين سَنَةً، فَكَتَبَ عَلَيْهِ كِتَابٌ وَشَهدَتْ عَلَيْهِ المَلائِكَةُ، فَلمَّا حَضرَتْهُ الوَفَاةُ قَال: قَدْ بَقِيَ مِن عُمْرِي سِتُّون سَنَةً، قَالوا: وَهَبْتهَا لابْنك داود. فَأَنكَرَ ذلكَ فَأَخْرَجُوا الكِتَابَ. قَال النبِيُّ ﷺ: فنسِيَ آدَمَ فَنسِيَتْ ذرِّيَّتُهُ وَجَحَدَ آدَمَ فَجَحَدَتْ ذرِّيَتُهُ) [2]. وروي أَنه كمل

---

(١) البخاري في البيوع، باب من أحب البسط في الرزق ٢/٧٢٨ (١٩٦١)، ومسلم في البر والصلة والأدب، باب صلة الرحم ٤/١٩٨٢ (٢٥٥٧).

(٢) رواه الترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الأعراف ٥/٢٦٧ (٣٠٧٦)، وصححه الشيخ الألباني، انظر صحيح الجامع (٥٢٠٨)، وتخريج شرح الطحاوية ص٢٦٦.

لآدم عمره ولداود عمره.

فهذا داود عليه السلام كان عمره المكتوب أَربعين سنة ثم جعله ستين، وهذا معنى ما روي عن عمر رضي الله عنه أَنه قال: اللهم إن كنت كتبتني شقيا، فامحني واكتبني سعيدا؛ فإِنك تمحو ما تشاءُ وتثبت.

واَللهُ سبحانه عالم بما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون ؛ فهو يعلم ما كتبه له، وما يزيده إياه بعد ذلك، والملائِكة لا علم لهم إلا ما علمهم الله، واَللهُ عز وجل يعلم الأَشياءَ قبل كونها، وبعد كونها؛ فلهذا قال العلماءُ: إن المحو والإِثبات في صحف الملائِكة، وأَما علم الله سبحانه فلا يختلف، ولا يبدو له ما لم يكن عالما به، فلا محو فيه ولا إثبات [١].

• التقدير السنوي من أنواع التقدير والقضاء المعلق.

المقصود بالتقدير السنوي التقدير الذي يشمل مجموعة الأوامر السنوية التي تصدر من الله لملائكته في ليلة القدر، مما يخص حياة الناس وموتهم، وتنوع أرزاقهم على قدر أعمالهم، وكل ذلك علي مدار عام كامل.

وهذه التقدير شأنه شأن التقدير العمري واليومي، يقبل المحو والتغيير والإثبات والتعديل، وتتولاه الملائكة المكرمون، يدبرون ما يؤمرون به، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، ولكنهم لا يعلمون إن كان ما صدر لهم من أوامر وأحكام يطابق ما دون في

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٤/٤٨٩ وما بعدها بتصرف.

اللوح المحفوظ من تقدير أزلي، أو يطابق ما صدر من أحكام في التقدير الميثاقي؟ فهم لا يعلمون إلا ما علمهم الله ﷻ، ولا يطلعون على ما دونه الله في أم الكتاب.

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ٣ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ٤ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ٥﴾ القدر: ١/٥.

وقال أيضا: ﴿حمٓ ١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ٤ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ٥ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦﴾ الدخان: ١/٩.

وكون هذا التقدير يتم في ليلة القدر دليل على فضل هذه الليلة، حيث يفرق فيها كل أمر حكيم، فتنزل الملائكة والروح فيها بكل أمر من التقدير السنوي، فيأمر الله ﷻ الكتبة بأوامر السنة من الآجال والأرزاق، وما يكون فيها إلى آخرها، ولذلك دعا النبي ﷺ إلى إقامة ليلها في الصلاة والذكر إيمانا واحتسابا.

وقد وعد الله أيضا أن يغفر لمن أدركها ما تقدَّم من ذنبه كما ورد عند البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (مَن يَقُمْ ليلةَ القَدْرِ، إيمانا واحْتِسابا، غُفِرَ لهُ ما تَقدَّمَ مِن ذنبِه) [1].

---

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب قيام ليلة القدر من الإيمان ٢١/١ (٣٥)، ورواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب فى قيام رمضان وهو التراويح ٥٢٤/١ (٧٦٠).

قال ابن كثير: (أي يكثر تنزل الملائكة في هذه الليلة؛ لكثرة بركتها، والملائكة يتنزلون مع تنزيل البركة والرحمة، كما يتنزلون عند تلاوة القرآن، ويحيطون بحلق الذكر، ويضعون أجنحتهم لطالب العلم تعظيما له، وأمَّا الروح فقد قيل: المراد به هاهنا جبريل عليه السلام، فيكون من باب عطف الخاص على العام، وقيل: هم ضرب من الملائكة)[1].

كما أن الله عز وجل وصفها بأنها سلام من الشرّ كله من أوّلها إلى طلوع الفجر من ليلتها، قال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾ القدر:٥.

لقد أخفى الله سبحانه وتعالى وقت هذه الليلة على الأمة لحكمة عظيمة، كما ذكر بعض أهل العلم ليجتهدوا في طلبها، ويجدوا في العبادة طمعا في إدراكها، كما أخفى ساعة الإجابة في يوم الجمعة ليكثروا في الدعاء في اليوم كله، وأخفى الأجل وقيام الساعة ليجد الناس في العمل حذرا منها.

ونظرا لأن ليلة القدر يتم فيها التقدير السنوي، وهو تقدير يتعلق بالأسباب، فإن الله عز وجل شرع في أيامها الطاعة والصيام والاعتكاف والقيام، فإن المقادير فيها تقترن بالطاعات ونتائجها وعللها ومعلولاتها، وتتنزل الملائكة بتقديرات سنوية مرتبطة بالاجتهادات والعبادات، وكثرة الذكر والدعاء وفعل الخيرات، كل ذلك يؤثر في التقدير المعلق أو التقدير العمري والسنوي واليومي.

وهذه التقديرات تقبل التغير والمحو والإثبات، لأنها أسباب

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/٥٣٢.

والأسباب يدفع بعضها كابتلاءات يحدثها الله ﷻ لسائر المخلوقات، فالله ﷻ قد يفرج في ليلة القدر كرب عبد اجتهد في طاعته، وأخلص في عبادته، وقام معتكفا في ليلته التي وافقت ليلة القدر. وربما تكون طاعته ليلة القدر سببا في تحقيق أمنيته، كمن تمنى إدراك حجته أو عمرته، أو أن ييسر الله الأسباب حتى يرزق بولد من زوجته، أو يتمنى شفاء مرضه وستر عورته، أو ينجيه من الإفلاس في تجارته، أو غير ذلك من ابتلاءات العبد في دنيته، فالله ﷻ قال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ٣﴾ الطلاق: ٢/٣.

لقد رتب الله المقادير على أنواع تقبل التغيير لحكمة التدبير، وأنواع لا يطلع عليها ملك مقرب ولا نبي مرسل، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ٤﴾ الطلاق: ٤. وقال: ﴿ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ٥﴾ الطلاق: ٥.

وقد جعل الله ﷻ إجابة الدعاء مرتبطة بالطاعة والإخلاص والمحبة والخوف والرجاء، ولما ذكر الله الصيام، والصيام يكثر فيه الاعتكاف والقيام، ذكر الله إجابة الدعاء، فقال سبحانه وتعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٨٥ وَإِذَا سَأَلَكَ

عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ البقرة:١٨٥/١٨٦.

والله تعالى أخبر أنه يفرق في ليلة القدر كل أمر حكيم، أي يفصل الله ﷻ ويبين ويبرم كل أمر حكيم، فأمْر الله لملائكته ارتبط بحكمته والعمل بشريعته، كما أن حكمته في ترتيب أنواع التقدير تظهر الكمال في حسن التدبير وتنزيل المقادير، فليلة القدر تنظم فيها المقادير على مدار العام.

- **القرآن نزل ليلة القدر إلى بيت العزة في السماء الدنيا.**

ذكر شيخ الإسلام أن القرآن نزل من عند الله على نبيه محمد ﷺ، وأن ذلك لا ينافي ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره من السلف في تفسير قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾﴾ القدر:١. أنه أنزله إلى بيت العزة في السماء الدنيا، ثم أنزله بعد ذلك منجما مفرقا بحسب الحوادث، ولا ينافي أنه مكتوب في اللوح المحفوظ قبل نزوله، كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾ البروج:٢١/٢٢. وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ الواقعة:٧٧/٧٩.

وقال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ عبس:١١/١٦. وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾﴾ الزخرف:٤. فإن كونه مكتوبا في اللوح المحفوظ، وفي صحف مطهرة بأيدي الملائكة، لا ينافي أن يكون جبريل نزل به من الله ﷻ، سواء كتبه الله قبل أن يرسل به جبريل، أو

بعد ذلك، وإذا كان قد أنزله مكتوبا إلى بيت العزة جملة واحدة في ليلة القدر، فقد كتبه كله قبل أن ينزله، والله تعالى يعلم ما كان، وما يكون، وما لا يكون أن لو كان كيف كان يكون.

وهو سبحانه قد قدر مقادير الخلائق، وكتب أعمال العباد قبل أن يعملوها، كما ثبت ذلك في صريح الكتاب والسنة وآثار السلف، ثم إنه يأمر الملائكة بكتابتها بعد ما يعملونها، فيقابل بين الكتابة المتقدمة على الوجود والكتابة المتأخرة عنه فلا يكون بينهما تفاوت [(١)].

وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن مقدار الأفضلية، والتفاضل بين ليلة القدر وليلة الإسراء، فأجاب بأنه إن كان المراد بليلة الإسراء الليلة التي أسري فيها بالنبي ﷺ ونظائرها من كل عام وقيام تلك الليلة، فهذا فاسد بالاطراد من دين الإسلام، إذ لم يكن الصحابة والتابعون يقصدون تلك الليلة بالتخصيص بالعبادة، إذ أنها لا تعرف بعينها، ولم يقم دليل معلوم على شهرها، ولا على ليلة حدوثها، بل المنقول في ذلك من الروايات مضطربة ومختلفة ومنقطعة، ليس فيها شيء يمكن القطع به، بخلاف ليلة القدر التي ورد تحديد وقتها، وزمان حدوثها.

أمَّا إن أريد الليلة المعينة التي أسري فيها بالنبي ﷺ والتي يعلمها الله ولم يحدث فيها تخصيص قيام أو زيادة عبادة، فالجواب هنا: أن ليلة الإسراء أفضل في حق النبي ﷺ، وليلة القدر أفضل بالنسبة إلى الأمة،

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٢٦/١٢ بتصرف.

فحظ النبي ﷺ الذي اختص به في ليلة المعراج أكمل من حظه من ليلة القدر، وحظّ الأمة من ليلة القدر أكمل من حظهم في ليلة المعراج [١].

• العلة في تسمية ليلة القدر بهذا الاسم.

سميت ليلة القدر بذلك لعدة أسباب لأن الله ﷻ يقدر فيها ما يشاء من أمره إلى مثلها من السنة المقبلة، فهي بمعنى التقدير، إذ أن تقدير الله لما يجري على الخلائق من التقدير السنوي يكون في ليلة القدر، ويسبقها من أنواع التقدير، التقدير الأزلي قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وهو المدون في اللوح المحفوظ، وهذا التقدير لا يتغير ولا يتبدَّل، أي أصله الذي هو مرجع لكل ما يكتب بعد ذلك، ويسبقها أيضا من أنواع التقدير، التقدير الميثاقي وكذلك التقدير العمري، حيث يكتب على الجنين ما سيكون من عمله ورزقه وشقي هو أم أسعيد؟

وسميت ليلة القدر بذلك أيضا لقدرها، وعظمتها، وشرفها، وفضل العبادة فيها، من قولهم لفلان قَدْر، أي منزلة، وقال آخرون: سميت بذلك لأن الطاعات يعظم عليها الأجر وكثرة الحسنات، فثوابها خير من ألف شهر، وقيل أيضا: سميت بذلك لأنه أنزل فيها كتاب ذو قدر على رسول ذي قدر وعلى أمة ذات قدر .

وقيل: سميت بذلك لأنه ينزل فيها ملائكة ذوو قدر وشأن عظيم.

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٢٨٦/٢٥ بتصرف، وانظر أيضا بدائع الفوائد لابن القيم ٦٨٣/٣، نشر مكتبة نزار مصطفى الباز مكة المكرمة، وزاد المعاد لابن القيم ٥٧/١، نشر مؤسسة الرسالة.

وقيل: سميت بذلك لأن الله تعالى ينزل فيها الخير والبركة والمغفرة متوافقا مع ما قدره من أمور الخلق على مدار العام. وقيل أيضا: سميت بذلك لأن الله تعالى قدَّر فيها الرحمة على المؤمنين، وقيل: لأن الأرض تضيق فيها بالملائكة، فهي ليلة عظيمة للأسباب السابقة مجتمعة، فمن فضائلها ومنزلتها عند الله أنها ليلة أنزل فيها القرآن وجعل الشهر التي هي فيه شهر صوم وعبادة [(١)].

ومن فضلها أنها يفرق فيها كل أمر حكيم، فيأمر الله الكتبة بأوامر السنة، وما يكون فيها من الآجال والأرزاق، وما يكون فيها إلى آخرها، ومن فضائلها أن من قامها إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدَّم من ذنبه. ومن فضائلها أنها أنزل في فضلها سورة القدر، فهي أفضل ليلة وأيمنها على العالمين بتنزيل ما فيه الحكمة والهدى والهداية من الضلال والردى، ووصفها بالمباركة لظهور الرحمة والبركة والهداية والعدالة في العالم بسببها، ومن فضلها أن النبي ﷺ كان يعتكف التماسا لهذه الليلة.

لقد أخفي الله سبحانه وقت هذه الليلة لحكمة عظيمة، أن يجتهدوا في طلبها، ويجدوا في العبادة طعما في إدراكها، كما أخفى ساعة الإجابة في يوم الجمعة ليكثروا الدعاء في اليوم كله، وأخفى الأجل وقيام الساعة ليجد الناس في العمل حذرا منها.

روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: (يكتب من أم الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من موت وحياة، ورزق ومطر حتى الحجاج،

---

(١) انظر بتصرف تفسير القرطبي ١٣٠/٢٠، وتفسير الألوسي ١٩٢/٣٠، وتفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ٤٩٢/٨، دار الكتب العلمية بيروت.

يقال: يحج فلان، ويحج فلان [1].

والتقدير السنوي أحد التقديرات المعلقة التي تقبل المحو والإثبات والتغيير، وتتولاها الملائكة المكرمون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ولكنهم لا يعلمون إن كان ما صدر لهم في هذه التقديرات من أوامر وأحكام يطابق ما كتب في اللوح من تقدير أزلي، أو يطابق ما صدر من أحكام في التقدير الميثاقي؟ فهم لا يعلمون إلا ما علمهم الله ولا يطلعون على ما دونه في أم الكتاب.

- **التقدير اليومي من أنواع التقدير والقضاء المعلق .**

النوع الخامس من أنواع التقدير يسمى بالتقدير اليومي وهو أخص من النوع الرابع أو التقدير السنوي، ويشمل مجموعة الأوامر اليومية التي تصدر في شأن الناس وحياتهم لحظة بلحظة، فالله ﷻ كل يوم هو في شأن حتى يقع التقدير اليومي مطابقا لما سبق به التقدير في اللوح المحفوظ، فيجتمع فيه مقتضى التدبيرات السابق لحظة وقوع الحدث وتوالي خلق الأسباب، فالله ﷻ وله المثل الأعلى أتقن كل شيء بكمال حكمته، ورتب أمور التقدير في ملكه وصنعته، فكما تطلبت الصنعة ببالغ الحكمة تقديرا أزليا عاما شاملا، وتقديرا ميثاقيا يتناول الإنسانية تناولا كاملا، وتقديرا عمريا يخص حياة كل إنسان على حدة، وتقديرا حوليا يخص سنة واحدة، كذلك فإنها تتطلب تقديرا يوميا ختاميا،

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٣٢٨٧/١٠ نشر المكتبة العصرية صيدا، وانظر شفاء العليل لابن القيم ص٢٣.

لمتابعة التنفيذ في وقوع الخلائق لحظة بلحظة، وكلمة من اللوح بكلمة، إلى أن ينتهي العالم كل يوم كما كتبه الله في اللوح المحفوظ، وينكشف سر التقدير بوقوع القدر والمقدر.

وكما بينا العلة والحكمة من تعدد أنواع التقدير، ولماذا رتبت الأنواع بهذا الإبداع الجميل، نشير مرة أخرى بتفصيل إلى أن التنوع في تقدير أمور المخلوقات ناشئ عن حكمة الله في صنعته، ومقتضى الحكمة أن تقع الصنعة على وجه الكمال والإتقان.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ غافر: ٦٤.

وكما أن كمال الصنعة يتطلب الخبرة، والمشروعات العملاقة تتطلب الحكمة، فإن مقتضى الكمال لدي العقلاء أن بناء أي مشروع محكم يتطلب خطة عامة بموازنة عامة، ألا ترى كل دولة راقية في حكومتها تضع للبلاد خطة شاملة، أو خطة خمسية أو سداسية مفصلة، لا تدع صغيرة ولا كبيرة إلا قدرت أمرها، فكل جزئية في المشروع مهما قل حجمها أو زاد وزنها، لا بد من بيانها وتحديد علتها، كيف تنفذ؟ ومتى تنفذ؟ ولماذا تنفذ؟ وتضع أيضا موازنة عامة لحساب الإمكانيات من خلال معرفة الناتج والدخل المحلي والاستهلاك القومي، حيث يوازنون بين الصادرات والواردات، وغير ذلك من الحسابات، حتى يمكن تحديد الأهداف والغايات، وقياس العجز والفائض في الموازنات، ثم يضعون المقررات لكل هيئة حكومية،

والرواتب المقدرة والعلاوات الوظيفية.

كل ذلك في إطار خطة عامة تقسم عند التنفيذ إلى ملفات ومجموعات، وكل مشروع له ملفه الخاص الذي وافق المسئولون على تنفيذه، ولكل شخص يدير المشروع له تكليف معين بخصوصه، فالمكتوب في الخطة العامة يقسم إلى تقديرات خاصة، تتعلق بكل جزء من أجزاء المشروع، وكل جزء من أجزاء المشروعات، يقسم أيضا حسب الزمان والمكان إلى أجزاء أخص وأدق، ومحسوب في كل خطة جزئية أو كلية معدل التغيير والتبديل حسب التغيرات الزمانية والمكانية، فقد تختلف الأوامر من مكان إلى مكان، ومن زمان إلى زمان، وهكذا تتفاعل منظومة العمل في إتمام المشروع أو الخطة الخمسية أو السداسية، وإعداد التقارير عن كل جزئية، حتى تراجع الحسابات الختامية، وتنهي متعلقات كل سنة مالية. والإدارة العليا مفترض أن تراجع ما يحدث يوما بيوم ولحظة بلحظة، تراجع مراقبة الجودة وكمال الصنعة، وحسابات التكلفة بمنتهى الدقة، وحساب المتميزين في العمل والمقصرين، وأهم شيء عندها أن تنفذ الخطة العامة لمصلحة المواطنين يوما بيوم في منتهى الإتقان، وجميع التقديرات الخاصة تتوافق مع التقديرات العامة، بمنتهى الإتقان في الصنعة، ووضع الأشياء بمنتهى الحكمة، لا خلل في الأمور صغيرها وكبيرها، فهذه هي صفة الأعمال المحكمة، والصنعة البديعة المتقنة.

وإذا كان ذلك كمالا بالغا في المخلوق، فالله ﷻ وله المثل الأعلى أتقن كل شيء بكمال حكمته، ورتب أمور التقدير في ملكه

وصنعته، فكما تطلبت الصنعة ببالغ الحكمة تقديرا أزليا عاما شاملا، وتقدير ميثاقيا يتناول الإنسانية تناولا كاملا، وتقدير عمريا يخص حياة كل إنسان على حدة، وتقديرا حوليا يخص سنة واحدة، كذلك فإنها تتطلب تقديرا يوميا وعملا ختاميا، لمتابعة التنفيذ في مشرع الخلق لحظة بلحظة، وكلمة كلمة إلى أن ينتهي العالم كل يوم كما كتبه الله ﷻ في اللوح المحفوظ.

- **لم يخلق الله الخلق وينعزل عنه كما زعمت الفلاسفة.**

إن الله لم يخلق الخلق وينعزل عنه كما زعمت الفلاسفة، ولكن الله ﷻ من فوق العرش يدبر أمور الخلق بتدبيره الكوني المظهر للربوبية ومعاني القدرة، وبتدبيره الشرعي المظهر للعبودية ومعاني العدل والحكمة، وهو من فوق العرش معهم، يراهم ويسمعهم بمعية خاصة ومعية عامة.

لقد كان من دوافع الشرك وأسبابه تصور المشركين ابتعاد الخالق عن العالم المخلوق، بمعنى أنهم كانوا يظنون أن الله ﷻ بعيد عن المخلوقين لا يسمعهم، ولا تبلغه دعوتهم، ولا تصله استغاثتهم، ولذلك اختاروا وسائل ظنوا أنها تتكفل بإيصال أدعيتهم إليه، وكأن الله ﷻ في استوائه على عرشه كما يظنون يشبه استواء الإنسان، ولا يمكن الوصول إلى الملك إلا عن طريق الوسائط كما صور لهم الشيطان، ومن أجل ذلك عبدوا القديسين والملائكة والجان، وقدسوا الأرواح وصوروها في أصنام وأوثان، وبالغوا في ادعاء تأثيرها على بني الإنسان، وأنها تقوم بالوساطة وتوصيل الشكوى إلى الرحمن.

وقد أبطل الله ﷻ تلك التصوّرات الشركية والاعتقادات الوثنية، فبين في كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية أنه أقرب إلينا من حبل الوريد، وأنه يسمع السر وأخفي، وأنه هو علام الغيوب، ومقلب القلوب من فوق عرشه، يعز من شاء في خلقه، ويذل من شاء في ملكه كما قال الله تعالى:

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ آل عمران:٢٦.

وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ الزمر:٤٦.

لقد أبطل الحق سبحانه وتعالى في كتابه تفويض غير الله في ملكه، ومنع وصف غيره بالتدبير لخلقه إلا بأمره وإذنه، فلا قطبية ولا غوثية، ولا وتدية ولا بدلية، كما هي عقيدة الكثير من الصوفية، إذ يعتقدون أن القطب ولي يتحكم في جزء من الكون، فأبطل القرآن نظرية الأقطاب أو الغوثِ المناوب، أو الآلهة الصغار التي يكون نصفها مخلوقا لله، ونصفها من خصائص الإله.

والله ﷻ وصف نفسه بأنه يدبر أمور الخلق وحده، وأنه يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾ الحج:٦٥.

وقال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ

أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤١﴾ فاطر: ٤١ .

وقال: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ يونس: ٣ .

وقال سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى [illegible] وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ [illegible] ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ [illegible] تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ الرعد: ٢.

لقد جعل الله ﷻ الخلق والرزق والإحياء والإماتة، وتسيير الكواكب والأفلاك، وتنظيم الشمس والقمر أفعالا مختصة به وحده، وأنكر القرآن الكريم بشدة كل فكرة تقضي بإشراك غيره في إيجاد مصنوعاته، وكل فكرة تقول بتفويض التدبير المطلق إلى شيء من مخلوقاته، فقال تعالى: ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ [illegible] عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ سبأ: ٢٢/٢٣.

إن النقطة الأساسية في خطأ المشركين تتمثل في أنهم قاسوا تدبير العالم على تدبير رب الأسرة لأمور عائلته، أو صاحب الإدارة لمؤسسته، مستخدمين قياس التمثيل أو قياس الشمول، وقد وقعوا في الشرك بسبب ذلك، فالله ﷻ تدبيره للعالم ليس كتدبير حاكم البلاد بالنسبة إلى مواطنيه، أو رب البيت بالنسبة إلى أهله وساكنيه، لأن تدبير المخلوق

للمخلوق يتم بإصدار الأوامر، ربما دون علم بما تم أو يتم، وربما ينعدم كمال الأمر والإتقان فيما تم، وربما لا يوجد سلطان على من توجه له الأمر.

أما التدبير الإلهي فهو عطاء دائم متواصل في الخلق والإيجاد، وأسبقية التقدير والعلم على الأمر والإمداد، والإحاطة التامة بكل الأسباب القائمة على الترتيب والإعداد، لا يغيب عنه مثقال ذرة في كونه، ولا يخفى شيء عن مطلق علمه، فلا غالب لأمره، ولا معقب لحكمه.

قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ يونس: ٦١.

وقال سبحانه وتعالى عن كمال علمه في محاسبة خلقه وعلمه بكل عبد وفعله سواء قبل وجوده أو بعده: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ الأنبياء: ٤٧ .

وقال لقمان عليه السلام لابنه وهو يعظه: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾ لقمان: ١٦.

إن التدبير مأخوذ من مادة دبّر، أي تابع وواصل وعقب، وحقيقة التدبير أن خالق العالم جعل الأسباب والعلل بحيث يأتي المعلول في دبر علته، والنتيجة في دبر سببها، وعقيب حدوثها وتحقيق علتها، بحيث

تأتي أجزاء الكون وراء بعضها تباعا، وبحيث يؤثر بعضها في البعض الآخر، حتى يصل كل موجود إلى كماله المناسب وهدفه المطلوب، فالأمر كله لله ﷻ في خلقه صادر عن مشيئة وكتابة وعلمه، والتدبير كله لله ﷻ في كونه عن تقدير وقدرة.

إن الترابط في أجزاء الكون، وتأثير بعضها في بعض يدل على خضوعها لحاكمية الحكَم وحده، يحكم كل ما في العالم ويأخذ بناصيته تحت نظام واحد، وخطة واحدة محكمة، بتقدير أزلي محكم، قدر فيه مقادير الخلائق، وكتب أعمال العباد قبل أن يعملوها، وأمر الملائكة بكتابتها في تقديرات أخرى قبل أن يعملوها، وبعد أن يعملوها، والله ﷻ يقابل بين الكتابة التي تتقدم على الوجود، والكتابة حال التنفيذ والوجود، والكتابة المتأخرة عقب الوجود، فلا يكون في النهاية تفاوت أو اختلاف، فالتقدير اليومي توقع فيه الأشياء بتمام خلقها على التقدير الأزلي وهو في قياس الأولى كالحساب الختامي للمخلوق .

• توحيد الربوبية والعبودية إيمان بطلاقة القدرة والحكمة معا.

إن عقيدة التوحيد تقتضي أن يؤمن الإنسان بتوحيد الربوبية المظهر لمعاني القدرة، وتوحيد العبودية المظهر لمعاني الحكمة، والإيمان بطلاقة القدرة والحكمة معا يقتضي الإيمان بأن الخالق هو الله ﷻ، وأن كل أمر في الكون فهو عن تقديره ومشيئته وخلقه بقدرته، وأنه لولا الله ما وُجد أحد سواه، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله، وكل إنسان يجد في قرارة نفسه عدم الاستغناء عن ربه، فيجد بتلقائية في قلبه الخضوع لقوة عليا عند ضعفه، ومثل هذا الإحساس الفطري وإن لم يظهر على اللسان

والجوارح فإنه كامن في النفس على مقتضى الفطرة.

ولما كان كل شخص قد اعتاد على التعامل مع الأسباب والأشياء المحسوسة، فإنه يريد أن يتصور القوة العليا التي تهديه في شيء ما من المحسوسات، وكيفية ما لتصور وقوع الأسباب، ومن ثم فإن المشرك بجهله وقلة عقله يريد أن يجعل القوة العليا التي يستلهم منها الحكمة والرشاد في صورة الأجسام التي يراها ويشاهدها، أو صورة الأشكال المنظورة التي يطالعها، أضف إلى ذلك أنه لقصور فكر المشركين أو تصورهم أن كل شيء في هذا الكون توكلت به قوة قاهرة وقدرة ظاهرة، قد يعتقدون أنها أيضا مخلوقة لله ﷻ، لكنها من جانب آخر فيها شيء من القوة الإلهية التي تغيث صاحبها وتهديه للصلاح والأصلح، كاعتقاد المصريين القدماء في آلهتهم الفرعونية، حيث آمنوا بوجود آلهة ذكور وإناث، ولكل منهم دور خاص في المحافظة على السلام والتناسق في دورة الأرض، بعض هذه الآلهة عندهم تخصص في الخلق، وبعضها للطوفان في كل عام، وبعضها يوفر الحماية والنظام، وبعضها يهتم بالناس بعد موتهم وعند القيام.

وكان هناك في اعتقادهم الوثني آلهة محليون يمثلون المدن الصغيرة، وآلهة للنباتات والحيوانات، كإله الشمس رع مصدر القوة والنماء والخيرات، والإله ست إله الصواعق والرعد والزلازل والكسوف والخسوف وسائر المهلكات، والإله ماعت إله العدل عند الفراعنة القدماء، أو كاعتقاد الإغريق في بوسيذوس إله البحر، وأثينا إلهة الحكمة، فهم قد جعلوا للبحر إلها، وللحرب إلها، وللسلم إلها، آلهة وآلهة

متعددة باطلة، ووثنية عقدية مستفحلة، وكأن للكون حكومة مثل حكومات الأرض مكونة من مجموعة من الوزراء، رئيسهم يفوض الوزراء في كل جانب من جوانب الحياة، بحيث يفعل فيها ما يشاء، من أجل هذا عبد سكان الشواطئ والبحار إله البحر لكي يدفع عنهم الطوفان وينعم عليهم بالأسماك والحيتان، وكذلك عبد سكان الصحراء إله البر من الجن أو الأوثان ليفيض عليهم بمنافعها، ويدفع عنهم زلازلها، وما شابه ذلك من الآفات والابتلاءات.

ولكنهم لما كانوا لا يتمكنون من رؤية هذه الآلهة التي توهموها واخترعوها، فافترضوا لها صورا خيالية وأشكالا وهمية، ونحتوا على غرارها التماثيل والأصنام، وأخذوا يعبدونها كبديل مرئي عن الإله الغيبي، ولهذا السبب كان بين عرب الجاهلية فريق يعبد الملائكة، وفريق آخر يعبد الجن، وثالث يعبد الكواكب كما عبدت الشِعرى. قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ ٤٩﴾ النجم:٤٩. وهذا النجم هو النجم الوقاد الذي يقال له الجوزاء، كانت طائفة من العرب يعبدونه، كما ذكر ذلك عبد الله بن عباس رضي الله عنه[1]. ورابع يعبد الكواكب السيارة، وكان الهدف من عبادتها جميعا هو جلب خيرها ونفعها، واجتناب ضرها وشرها.

والخلاصة في أنواع التقدير أن المقصود هو تنظيم الكون من خلال مجموعة من التقديرات تتعلق بجميع المخلوقات أو بعضها، عمومها وخصوصها، فهناك تقدير أزلي عام مدون في اللوح المحفوظ، وهو تقدير شامل لكل أمر سيحدث لجميع المخلوقات بلا استثناء، وهناك تقدير

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/٢٦٠.

يسمى بالتقدير الميثاقي وهو خاص بالإنسانية جمعاء، قدر الله ﷻ فيه أهل النعيم والشقاء، وهذان التقديران، الأزلي والميثاقي، لا يقبلان المحو والتبديل، ولا يخضعان للإضافة والتغيير، ولا يطلع عليهما ملك مقرب ولا نبي مرسل، والعلم بما فيهما يكون بعد حدوثهما، أما التقدير الثالث فهو التقدير العمري، وهو عبارة عن مجموعة الأوامر التي يكلف الله الملائكة بكتابتها والنطفة في الرحم، مما يخص عمر كل إنسان، ورزقه وشقي هو أم سعيد، والتقدير الرابع هو السنوي، وهو التقدير الذي يشمل مجموعة الأوامر السنوية التي تصدر من الله لملائكته في ليلة القدر مما يخص حياة الناس وموتهم، وتصنيف أرزاقهم على قدر أعمالهم، كل ذلك على مدار عام كامل، وهناك تقدير يومي يدبر فيه الحق كل ما يحدث في سائر الخلق، فالملائكة المكرمون المكلفون بتدبير أمور العالم، ليس لهم استقلالية في الفعل، ولكنهم موقوفون على تنفيذ الأمر، كل منهم يتابع ما قدر له من أمور الكون، فهم الموكلون بالسماوات والأرض، فكل حركة في العالم ناشئة عن الملائكة كأسباب غيبية حية، تنفذ ما وكلت به بدقة، كل مجموعة لها رئيس وفرقة، لتقع الخلقة كما أمر الله بها، وقد أقسم الله ﷻ بها فقال سبحانه منبها على دورها وصفتها: ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ٥﴾ النازعات:٥. وقال: ﴿فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ٤﴾ الذاريات:٤ .

وأصناف الملائكة لا يحصيها إلا الله، ولفظ الملك يشعر بأنه رسول منفذ لأمر مرسله، فليس لهم من الأمر شيء، بل الأمر كله للواحد القهار، قال تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ٢٩ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾﴾ الرحمن:٢٩/٣٠. من شأنه أنه يحيي ويميت، أو يرزق خلقا، أو يمنع رزقا، أو ينصر عبدا، أو يعز ملكا، أو يذل طاغيا، أو يفك عانيا، أو يشفي مريضا، أو يجيب داعيا، أو يعطي سائلا، أو يكشف كربا، أو يغفر ذنبا، أو يضع أقواما، أو يرفع آخرين .

قال ابن القيم رحمه الله: (هذا تقدير يومي، والذي قبله تقدير حولي، والذي قبله تقدير عمري عند تعلق النفس به، والذي قبله كذلك عند أول تخليقة وكونه مضغة، والذي قبله تقدير سابق على وجوده، لكن بعد خلق السماوات والأرض، والذي قبله تقدير سابق على خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكل واحد من هذه التقادير كالتفصيل من التقدير السابق، وفي ذلك دليل على كمال علم الرب وقدرته وحكمته، وزيادة تعريف لملائكته وعباده المؤمنين بنفسه وأسمائه) [١].

(١) شفاء العليل لابن القيم ص٢٤.

المطلب الرابع عشر

العمل بالتدبير الشرعي والإيمان بالتدبير الكوني

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فقد تحدثنا في المطلب السابق عن أنواع التقدير المعلق بأسباب غيبية لرعاية الإنسان، وهو التقدير العمري الذي تتولاه الملائكة، وبينا ماهية الأسباب المشهودة في تكوين الإنسان وإنشائه في بطن أمه أطوارا مختلفة، ثم علمنا الأدلة النقلية على إثبات تولى الملائكة للتقدير العمري، وكيف نجمع بين الروايات في بيان توقيت التقدير العمري.

ثم تناولنا رأي ابن تيمية في بيان الفرق بين القضاء المبرم والقضاء المعلق، وأن التقدير الأزلي والتقدير الميثاقي كلاهما من القضاء المبرم الذي لا يتغير ولا يتبدل ولا يعلمه إلا الله، وأن التقدير العمري وكذلك السنوي واليومي من القضاء المعلق الذي يقبل المحو والإثبات، شأنه في ذلك شأن الأسباب التي يدفع بعضها بعضا.

وعلمنا أن التقدير السنوي من أنواع التقدير التي تخص عاما من أعوام البشر وأنه يكون ليلة القدر التي يفرق فيها كل أمر حكيم، وأن القرآن نزل ليلة القدر إلى بيت العزة في السماء الدنيا، كما بينا العلة في

تسمية ليلة القدر بهذا الاسم، وعلمنا أن التقدير اليومي من أنواع التقدير والقضاء المعلق، وأن الله ﷻ لم يخلق الله الخلق وينعزل عنه كما زعمت الفلاسفة، وبينا أن مقتضى توحيد الربوبية والعبودية معا هو الإيمان بطلاقة القدرة والحكمة معا.

وفي هذا المطلب بإذن الله تعالى نتحدث عن أنواع التدبير وتنوعه في القرآن والسنة بين التدبير الكوني والتدبير الشرعي، وأنه ينبغي على المؤمن العمل بالتدبير الشرعي والإيمان بالتدبير الكوني.

- **ضرورة الإيمان بنوعين من تدبير الله في ملكه.**

إن العبد لا يصل إلى مرضاة الله حتى يسلم له بنوعين من التدبير في ملكه: النوع الأول هو التدبير الكوني. والنوع الثاني هو التدبير الشرعي. هذان التدبيران هما أساس الفهم السلفي الصحيح لموضوع القضاء والقدر وعلاقته بأفعال العباد وحريتهم، وإثبات واستطاعتهم ومسئوليتهم، فمن اهتدى إلى الفرق بين النوعين نجاه الله ﷻ من ضلالات الجبرية والقدرية، فالجبرية اعتمدوا التدبير الكوني وتجاهلوا التدبير الشرعي، والقدرية المعتزلة اعتمدوا التدبير الشرعي وتجاهلوا التدبير الكوني، أما المنهج السلفي فقد سلم لله ﷻ بالنوعين، وآمن بالتدبير الكوني والتدبير الشرعي.

وقد جعل الله حقيقة الابتلاء من الحقائق العظمى التي تفسر العلاقة بين قدرة الله وحكمته، والجمع بين تدبيره الكوني المتعلق بتوحيد الله في ربوبيته، وتدبيره الشرعي المتعلق بتوحيد الله في عبوديته.

قال الله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ۝٢﴾ الملك: ١/ ٢. وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ۝٢﴾ الإنسان: ٢.

وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ ۝١٦٥﴾ الأنعام: ١٦٥. فبالتدبير الكوني ابتلانا الله ﷻ بقدرته، وبالتدبير الشرعي كلفنا بحكمته، وهكذا كانت حقيقة الابتلاء، فالابتلاء له شقان:

أحدهما: جانب كوني حتمي يمثل فعل الله ﷻ بنا، وهو قضاؤه فينا، وقدره الواقع علينا، وهذا لا يحاسبنا الله عليه، فالحساب ليس على مشيئته أو تدبيره الكوني، لأن ذلك فعل الله بنا.

أما الشق الثاني: من الابتلاء فهو موقفنا من تدبيره الكوني وسلوكنا تجاه فعله بنا، هل يوفق تدبيره الشرعي التكليفي الديني أم يخالفه؟ فإن وافق فقد وفق العبد واجتاز الابتلاء بنجاح، وزحزح عن النار، ومن زحزح عن النار فقد فاز، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ۝١٨٥﴾ آل عمران: ١٨٥.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ۝٧﴾ هود: ٧.

وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ٣٥﴾ الأنبياء:٣٥.

• التدبير الكوني هو القضاء المبرم والتقدير الجبري الحتمي.

والتدبير الكوني هو قضاء الله وقدره، وفعله في خلقه، وهو تدبير قدري حتمي الوقوع، تدبير جبري واقع على كل مصنوع، لا يمكن لأحد في العالم رده، ولا يمكن للإنسان صده، ما شاء الله فيه كان، وما لم يشأ لم يكن، تدبير متعلق بربوبية الله ﷻ لخلقه، وهو كما أخبر سبحانه وتعالى عن نفسه له الخلق والأمر، فالخلق قضاؤه وقدره، وفعله وأمره، وحكمه الجاري في ملكه، لا خروج لأحد عن تدبيره الكوني، ولا غالب لأمره القدري، من الذي يقوي أن ينازع الله ﷻ في مشيئته مهما بلغ في قوته وقدرته؟

وقد أثبت السلف الصالح لربهم تدبيرا كونيا شاملا للكون بما فيه، وأثبتوا قدرة الله ﷻ على جميع المخلوقات، ومشيئته العامة في جميع الموجودات، ونزهوا الله عن أن يكون في ملكه ما لا يقدر عليه، ولا تقع مشيئته عليه، وأن العباد يعملون على ما قدره الله ﷻ وقضاه، وفرغ منه قبل وجود الحياة، وأنهم لا يشاءون إلا أن يشاء الله، ولا يفعلون إلا من بعد مشيئته، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، والقدر عندهم قدرة الله تعالى وعلمه، ومشيئته وخلقه، فلا يتحرك ذرة فما فوقها إلا بمشيئته وعلمه وقدرته، فهم المؤمنون بلا حول ولا قوة إلا بالله على الحقيقة، فالتدبير الكوني هو قضاء الله وقدره، وفعله في خلقه، وهو تدبير حتمي الوقوع، تدبير واقع على كل مصنوع.

قال الإمام الطحاوي: (لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه، ولا غالب لأمره)[1]. وهو يعني بذلك الجانب الكوني من القضاء والحكم والأمر، فتنبه، لأن ذلك من مشيئته النافذة التي هي أحد مراتب القدر.

وقال أبو عبد الله ابن بطة العكبري: (يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه، ولا منازع له في أمره، ولا شريك له في ملكه، ولا غالب له في سلطانه)[2].

• التدبير الشرعي هو التدبير الديني التكليفي الاختياري.

أما التدبير الشرعي الديني فهو تدبير تكليفي اختياري، تدبير خاص بشريعة وهداية وبيان، تدبير من الله ﷻ لمصلحة الجن والإنسان، تدبير يظهر من خلاله معاني الكفر والإيمان، ويتميز من خلاله شرذمة العصاة وأهل الإيمان، ويترتب عليه الثواب والعقاب، والعرض والحساب، والنعيم والعذاب. وهذا التدبير لمصلحة الإنسان وهو مخير فيه، يمكن أن يطيع الله ﷻ أو يعصيه، ويمكن مخالفة الله فيه، وعندها يفعل العبد ما لا يحبه الله ولا يرضاه.

ولا يعني مخالفة العبد للتدبير الشرعي أنه يخرج عن التدبير الكوني أو أن مشيئة العبد غلبت مشيئة الرب، سبحانه لا يفني ولا يبيد، ولا يكون في ملكه إلا ما يريد كونا، قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٣٠﴾ الإنسان:٣٠. وقال: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ

---

(١) متن العقيدة الطحاوية ص ٢٢.

(٢) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية لابن بطة العكبري ٢/٤٥.

رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ التكوير: ٢٩. وقال سبحانه: ﴿ [illegible] قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ الأنعام: ٨٠.

لقد شاء بحكمته أن يخلق الناس لعبادته، وأن يكونوا بين طريقين مخيرين بين نجدين، وأن يصيروا في الآخرة فريقين، فريق في الجنة وفريق في السعير، وهذا مقتضي التدبير وكمال التقدير، أن يكون التدبير على نوعين، تدبير كوني، وتدبير شرعي. قال الله تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾﴾ هود: ١١٨.

والتدبير الشرعي هو الذي ورد ذكره في الحديث القدسي الذي رواه البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (إن اللهَ قَالَ: مَن عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذنتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ) [(١)]. فالتدبير الشرعي متعلق بالإلوهية وتوحيد العبودية، والعبد مطالب فيه بإتباع الشريعة، وهذا التدبير قد يخالفه الفجار، ويعصيه الفساق والكفار. ونحن إذا طالعنا القرآن والسنة وجدنا الأدلة على نوعي التدبير بمنتهى البيان والتفصيل، فالتدبير الذي قضاه الله ﷻ وحكم به وأراده وكتبه وأمر به، وكذلك الإذن والجعل والكلمات والبعث والإرسال والتحريم والهدية، كل ذلك ينقسم إلى تدبير كوني متعلق بخلقه وتدبير ديني متعلق بشرعه.

---

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب التواضع ٥/٢٣٨٤ (٦١٣٧).

• القضاء في كتاب الله يرد بالمعنى الكوني والشرعي.

علمنا أن مراتب القضاء هي العلم والكتابة والمشيئة، وأن هذا القضاء واقع لا محالة، لأنه قضاء كوني حتمي قضاه الله ﷻ لتقع الخلائق على ما حكم فيه بحكمه الكوني الذي دونه في اللوح المحفوظ، ويسمى هذا القضاء بالقضاء الكوني.

وقد يرد القضاء بمعنى قضاء الله لصالح العباد ليخيرهم في اتباعه، فقضى لمصلحتهم أفضل الطرق، وأكمل السبل لفوزهم ونجاتهم، وهذا القضاء قد يقبله العبد أو يرفضه، لكنه سيحاسب على قبوله أو رفضه في الدنيا والآخرة، ولذلك سمي القضاء الشرعي، أو القضاء التكليفي، أو القضاء الديني. فلا بد أن نميز بين نوعين من القضاء في كتاب الله تعالى، نوع يتعلق بالتدبير الكوني، وآخر يتعلق بالتدبير الشرعي.

ومثال القضاء الكوني قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ سبأ:١٤. أي قضينا على سليمان عليه السلام ساعة الأجل، وهذا أمر كوني لا يتقدم ولا يتأخر عن موعده، قدره الله ﷻ في علمه، وكتبه في لوحه، وشاء بقدرته أن تنفذ ساعة أجله، فهو قضاء متعلق بتدبير الله الكوني.

ومن القضاء المتعلق بتدبير الله الشرعي الديني الذي قضاه لصالح الإنسان كأفضل منهج يتبعه في الحياة قوله تعالى: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا

﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ٢٣﴾ الإسراء:٢٣.

ومعنى قضي ربك ألا تعبدوا إلا إياه، أي أمركم وشرع لكم، وأحب لكم، وكلفكم ألا تعبدوا إلا إياه، والعباد قد يخالفون ويعبدون غير الله ﷻ، فهو قضاء شرعي لا كوني، ولو كان قضاء كونيا لما عبد غير الله تعالى، ولما رأينا أحدا يتأفف في وجه والديه أو ينهرهما.

ومن القضاء الكوني ما ورد في قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ١١٧﴾ البقرة:١١٧.

ومن القضاء المتعلق بالتدبير الشرعي الديني: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ٦٥﴾ النساء:٦٥. والقضاء هنا منسوب للرسول ﷺ، وقضاء البشر لا يكون كونيا ولا شرعيا، لأن الخلق والأمر لله وحده، فلا يخلقون شيئا بالتدبير الكوني، وليس لهم الحق في تشريع قانون وضعي، فقضاء البشر لا يكون كونيا ولا شرعيا، أما قضاء الرسول ﷺ فهو في الأصل قضاء الله ﷻ، والرسول ﷺ مبلغ عن ربه فقط كما قال سبحانه وتعالى في شأن نبيه ﷺ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ٤﴾ النجم:٣/٤.

وروى البخاري من حديث عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيرِ رضي الله عنه أَنَّ رَجُلا مِن الأَنصَارِ خَاصَمَ الزُّبَيرَ رضي الله عنه فِي شِرَاجٍ مِن الحَرَّةِ، يسقِي بِهَا النخلَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: اسْقِ يا زُبَيرُ، فَأَمَرَهُ بِالمَعْرُوفِ ثمَّ أَرسِلِ إلى جَارِكَ، فَقَالَ الأَنصَارِي: أَن كَانَ ابْنَ عَمَّتِكَ، فَتَلوَّنَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، ثمَّ قَالَ:

اسْقِ ثمَّ احْبِسْ يرْجِعَ المَاءُ إلى الجَدْرِ، وَاستَوْعَى له حَقَّهُ، فَقَال الزُّبَيرُ: وَاللهِ إن هَذهِ الآية أُنزلتْ فِي ذلكَ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ النساء:٦٥ [1].

ومن القضاء الكوني القدري المتعلق بالتدبير الكوني ما ورد في قول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾﴾ الأنعام:٢. والقضاء هنا كوني لأنه سبحانه خصص موت كل إنسان بوقت معين، وذلك التخصيص عبارة عن تعلق مشيئته بإيقاع ذلك الموت في ذلك الوقت المحدود، فهو قضاء كوني حتمي نافذ [2].

ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾ الأنفال:٤٢.

والمعنى لو تواعدتم أنتم وكفار قريش على القتال في بدر، ثم علمتم حالَكم وحالَهم، لاختلفتم أنتم في الميعاد هَيْبَة منهم، ويأسا من الظفر عليهم، ليتحققوا أن ما وفقوا فيه من الفتح يوم بدر، ليس إلا صُنعا من الله ﷻ خارقاً للعادات، فيزدادوا إيمانا وشكرا، ولكن جمع بينكم على

---

(١) البخاري في المساقاة، باب شرب الأعلى إلى الكعبين ٢/٨٣٢ (٢٢٣٣)، ومسلم في الفضائل، باب وجوب اتباعه ﷺ ٤/١٨٢٩ (٢٣٥٧).

(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي ١٢/١٢٧ بتصرف.

هذه الحال من غير ميعاد لقضي أمرا مقدرا في الأزل، لا بد أن يتحقق وهو نصرُ أوليائِه وقهر أعدائِه [1].

ومن القضاء المتعلق بالتدبير الشرعي الديني قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ الأحزاب:٣٦. فالقضاء هنا قضاء شرعي يمكن عصيانه بعكس القضاء الكوني فهو نافذ لا محالة.

ومن القضاء الكوني قوله تعالى في شأن مريم وابنها عيسى عليه السلام: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾ مريم: ٢١.

أي كان خلق عيسى عليه السلام أمرا محكوما به، مفروغا عنه، سابقا في عِلم الله كونه، فوجود ذلك الغلام منك أمر كوني وقضاء مقضي، أي مقدرا في الأزل، مسطورا في اللوح المحفوظ لا بد من وقوعه، فهو واقع لا محالة، قد تعلق به قضاؤنا الأزليُّ ومشيئتنا، وسُطّر في اللوح بكتابتنا، ولا بد من جريانه عليك البتةَ، فلا يرد ولا يبدل، قضيت به في سابق علمي، وحكمت بوقوعه لا محالة، فيمتنع خلافه فلا فائدة في الحزن، فمن عرف سر الله عز وجل في القدر هانت عليه المصائب، وذلك لأن العلم تابع للمعلوم، فكل ما يقتضيه من الأحوال فالله تعالى يظهره بحكمته، وخلق عيسى عليه السلام على الصفة المذكورة كان في الأزل مقدرا بمقتضى الحكمة، فجميع الخلائق والكائنات وما يتبعها من الأحوال والمتغيرات

(١) تفسير أبي السعود ٤/٢٤ بتصرف، نشر دار إحياء التراث العربي بيروت.

داخلة تحت القدرة والحكمة [1].

وكذلك قوله تعالى عن القضاء الكوني: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ۝٣٤ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٣٥﴾ مريم:٣٤/٣٥. والمعنى أنه تعالى إذا قضى تكوين الأشياء قضاء كونيا لم تمتنع عليه، ووجدت كما شاءها على الفور من غير تأخير في ذلك.

ومن القضاء الذي لا يندرج تحت القضاء الكوني أو الشرعي ما ورد في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ۝٧٢﴾ طه:٧٢. وقضاء فرعون لا يندرج تحت القضاء الكوني ولا الشرعي. وكذلك قوله تعالى عن زيد بن حارثة رضي الله عنه: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾ الأحزاب:٣٧. فهذا القضاء لا يدخل تحت الكوني ولا الشرعي. ومثله قوله تعالى عن نبيه شعيب عليه السلام: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ۝٢٨﴾ القصص:٢٨.

ومن القضاء الكوني قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ۝٤٢﴾ الزمر:٤٢.

---

(١) انظر بتصرف تفسير أبي السعود ٥/٢٦١، وزاد المسير ٥/٢١٨، وأضواء البيان للشنقيطي ٣/٣٨٩.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾ غافر:٦٨. ومعنى قضى أمرا أي علمه وكتبه وشاء كونه، فهو فضاء كوني مبرم لا يرد. وكذلك قوله: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ فصلت:١٢. وتقدير العزيز العليم قضاه قضاء كونيا وقع الخلق فيه على ما قدره في اللوح المحفوظ.

• **الحكم من أنواع التدبير وقد يكون كونيا أو شرعيا.**

والحكم يرد أيضا في كتاب الله على نوعين: فقد يكون حكما كونيا يتعلق بالتدبير الكوني ويكون واقعا بمشيئة الله ﷻ لا محالة، ولا يمكن للإنسان مخالفته. وقد يكون حكما شرعيا يتعلق بالتدبير الشرعي الموجه إلى المكلفين من العباد، وهو متوقف على إرادتهم ورغبتهم واختيارهم، فربما خالفوا حكم الله الشرعي وربما وافقوه، وهذا الحكم الشرعي يتوقف على متابعته مسئولية الإنسان في اختيار مصيره، وما سيلحق به من الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة كنتيجة لأسباب اختياره الكفر أو الإيمان.

ومثال الحكم الكوني قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾ الأنبياء:١١٢. أي اقض بيني وبين أهل مكة بالحقِّ، وافعل ما تنصر به عبادك، وتخذل به أعداءك بدليل ما قبلها حيث قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ

ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ
ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ
إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾﴾ الأنبياء:١٠٧/١١٢.

والرسول ﷺ كان قد بلغ قومه غاية البيان، وهم بلغوا النهاية في أذيته وتكذيبه، فأعلمه الله ﷻ أنهم إذا أبوا إلا التمادي في كفرهم، فعليك بالانقطاع إلى ربك ليحكم بينك وبينهم بالحق حكما كونيا واقعا، إما بتعجيل العقاب بالجهاد أو بغيره، وإما بتأخير ذلك، فإن هذا الحكم وإن تأخر كائن قريب [1].

ومثال الحكم الكوني أيضا: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ يوسف:٨٠. أي يقدر لي بخلاص أخي أو بالذهاب بوجه من الوجوه التي يعلمها ويقدر على تهيئة أسبابها [2].

ومثاله الحكم أيضا في قول الله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ الأعراف:٨٧.

ومن الحكم الكوني أيضا: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾ الأنعام:٦٢. لأن الله تعالى قال قبلها: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٠٢/٢٢ بتصرف.

(٢) انظر بتصرف تفسير السعدي ١/ ٤٠٣، ونظم الدرر للبقاعي ٢٩١/٤.

فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ الأنعام:٦١.

ومن الحكم الكوني: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ ﴾ الرعد:٤١.

والله يحكم حكما نافذا خاليا عن المعارض والمناقض الذي يعقب على الشيء بالرد والإبطال، فقد حكم للإسلام بالغلبة والإقبال، وعلى الكفر بالانتكاس والإدبار، وذلك كائن لا يمكن تغييره.

ومثال الحكم الديني المتعلق بالتدبير الشرعي قوله ﷻ: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ ﴾ البقرة:٢١٣.

وطالما ذكر الحكم الإلهي وذكر بعده اختلاف الناس فيه فهو حكم شرعي ديني تعبدي، وليس حكما كونيا جبريا حتميا، لأن الحكم الكوني واقع لا محالة، ولا مجال للناس أن يختلفوا فيه أو لا يختلفوا، فالقضاء والقدر وقوعه كوني حتمي.

ولنضرب أمثلة أخرى للحكم الشرعي ونترك المجال لطلاب العلم للبحث عن معاني النصوص وإدراك الجانب الشرعي التكليفي فيه:

١- قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ آل عمران:٢٣.

٢- قول الله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ النساء:٦٥.

٣- قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ النساء:١٠٥.

٤- قوله سبحانه وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ ﴾ المائدة:١.

٥- قوله: ﴿ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ المائدة:٤٢.

٦- قوله تعالى: ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ المائدة:٤٣.

٧- قوله تعالى: ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ المائدة:٤٩ .

٨- قوله سبحانه وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۖ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا

بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ الممتحنة:١٠.

٩- قوله سبحانه: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ المائدة:٥٠.

١٠- قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ النور:٥١.

ومن أمثلة الحكم الذي يحتمل الوجهين معا، أي تصح دلالته على الحكم الكوني، وتصح دلالته أيضا على الحكم الشرعي:

١- قول الله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾ الكهف:٢٦. قال ابن القيم رحمه الله: (فهذا يتناول حكمه الكوني وحكمه الشرعي) (١).

٢- قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ القصص:٨٨ .

٣- قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ يوسف:٦٧.

٤- قوله تعالى: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى

---

(٣) شفاء العليل لابن القيم ص٢٨٠.

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾﴾ الشورى:١٠.

٥- قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾﴾ الطور:٤. ومثله قوله سبحانه: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾ الإنسان:٢٤ .

ومن أمثلة الحكم الذي لا يحتمل أحد الوجهين، أي لا تصح دلالته على الحكم الكوني، ولا تصح أيضا على الحكم الشرعي:

١- قول الله سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ يونس:٣٥.

٢- قوله الله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ النحل:٥٨/٥٩ .

وقد يسأل سائل عن الفرق بين الحكم الكوني والقضاء الكوني؟ والجواب أن القضاء الكوني أعم من الحكم الكوني، فالقضاء تستصدر منه الأحكام الكونية، والأحكام الكونية خاصة بحالاتها ومفرداتها، وما حكم الله به لكل نوع من أفرادها كما وكيفا، ألا ترى بقياس الأولى أن القاضي من البشر يستصدر أحكاما متنوعة ومتعددة، وأن القضية الواحدة تشمل في طياتها أحكاما مختلفة ومتنوعة، وتلك الأحكام تقع على عدد من المحكومين، سواء فعلوا خيرا أو شرا، أو كانوا ظالمين أو مظلومين.

أما القضاء الشرعي فهو كالحكم الشرعي، فالحكم الشرعي قد يكون واجبا أو مندوبا أو مباحا أو مكروها أو محرما. وكذلك القضاء الشرعي كما في قوله تعالى:

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾ الإسراء:٢٣.

فعبادة الله وحده تتمثل في تنفيذ أحكام العبودية، وهي الأحكام الشرعية التكليفية التي تتنوع بين الواجب والمحرم، وبين المندوب والمكروه، أو التخيير في المباح.

- **الأمر في كتاب الله قد يكون أمرا كونيا أو أمرا شرعيا.**

ورد الأمر في القرآن على المعنى الكوني تارة، وعلى المعنى الشرعي تارة أخرى، فالأمر الكوني أمر يتعلق بالتدبير الكوني النافذ، وهو بمعنى المشيئة والقضاء الكوني المبرم والحكم الكوني، وهو شاهد لتوحيد الربوبية، ومُظهر لمعاني القدرة الإلهية، ومن أمثلة الأمر الكوني في الأصول القرآنية:

١- قول الله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾ الطلاق:٢/٣.

٢- قوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ﴾ الأحزاب:٣٨.

٣- قول الله تعالى: ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ٤٣﴾ هود:٤٣. ومثله قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ١٢﴾ القمر:١٢.

٤- قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ٥٨﴾ هود:٥٨.

٥- قوله تعالى: ﴿قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ٧٢ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ٧٣﴾ هود:٧٢/٧٣.

٦- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ٨٢﴾ هود:٨٢. ومثله: ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ٧٦﴾ هود:٧٦.

٧- قوله تعالى: ﴿أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ٨١ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ يس:٨١/٨٢.

٨- قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢١﴾ يوسف:٢١.

٩- قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ يونس: ٢٤.

١٠- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ الأحقاف: ٢٤/ ٢٥.

أما الأمر الشرعي فهو المقابل للنهي التكليفي الشرعي، وهو أمر من الله لعباده المكلفين ولمصلحتهم، وتكليف من الله ﷻ لهم فيما خولهم واستخلفهم وابتلاهم واسترعاهم واستأمنهم، ويترتب على موافقته أو مخالفته الثواب والعقاب عند الحساب، وهذا الأمر بمعنى المحبة والرضا للعباد بما يختارون ويفعلون، وقد يخالفونه أو يعصونه، وهو شاهد لتوحيد العبودية، ومُظهر لمعاني الحكمة الإلهية. ومن أمثلة الأمر الشرعي في القرآن الكريم:

١- قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾ الأعراف: ٢٩.

٢- قوله سبحانه: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ يوسف: ٤٠.

٣- قوله سبحانه وتعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ

ذِى ٱلْقُرْبَىٰ [illegible] عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ
تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ النحل: ٩٠.

٤- قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا
تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ ﴾ الفرقان: ٦٠.

٥- قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ
قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ البقرة: ٦٧.

٦- قوله سبحانه وتعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا
وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن [illegible] بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا [illegible] بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا
﴿٥٨﴾ ﴾ النساء: ٥٨.

٧- قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ [illegible] مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ
سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ ﴾ الرعد: ٢١. ومثله قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ
مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ
ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ﴾ الرعد: ٢٥.

٨- قوله تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ
بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا
بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ ﴾ الحجرات: ٩.

٩- قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ
ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ
لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ﴾ الكهف: ٥٠.

١٠- قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ۝٥﴾ الطلاق:٥. وفي مقابل الطاعة للأمر الشرعي قال عن المخالفة له: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ۝٨﴾ الطلاق:٨.

- **توجيه المعنى الكوني أو الشرعي للأمر في أمر المترفين.**

قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ۝١٦﴾ الإسراء:١٦ .

رجح الإمام الشنقيطي أن الأمر في الآية هو الأمر التشريعي وأنه الصواب الذي يشهد له القرآن وعليه جمهور العلماء، أن الأمر في قوله أمرنا هو الأمر الذي هو ضد النهي، وأن تعلق الأمر محذوف لظهوره، والمعنى أمرنا مترفيها بطاعة الله ﷻ وتوحيده، وتصديق رسله، وأتباعهم فيما جاؤوا به، ففسقوا وخرجوا عن طاعة أمر ربهم، وعصوه وكذبوا رسله، فوجب عليها الوعيد، فأهلكناها إهلاكا مستأصلا، وأكد فعل التدمير بمصدره للمبالغة في شدة الهلاك الواقع بهم[(١)].

ثم قال رحمه الله: (وهذا القول الذي هو الحق في هذه الآية تشهد له آيات كثيرة كقوله: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ الأعراف:٢٨. فتصريحه جل وعلا بأنه لا يأمر بالفحشاء دليل وضح على أن قوله: أمرنا مترفيها ففسقوا، أي أمرناهم بالطاعة فعصوا، وليس المعنى أمرناهم بالفسق ففسقوا، لأن الله لا يأمر

(١) انظر بتصرف أضواء البيان ٣/٧٥.

بالفحشاء، وهذا القول الصحيح في الآية جار على الأسلوب العربي المألوف، من قولهم: أمرته فعصاني، أي أمرته بالطاعة فعصى، وليس المعنى، أمرته بالعصيان كما لا يخفى)[1].

وفي المقابل رجح ابن القيم أن هذا الأمر أمر تقدير كوني لا أمر دين شرعي، فإن الله ﷻ لا يأمر بالفحشاء، والمعنى قضينا ذلك وقدرناه، وقالت طائفة: بل هو أمر ديني، والمعنى أمرناهم بالطاعة فخالفونا، وفسقوا، والقول الأول أرجح لوجوه:

أحدها: أن الإضمار على خلاف الأصل، فلا يصار إليه إلا إذا لم يكن تصحيح الكلام بدونه.

الثاني: أن ذلك يستلزم إضمارين، أحدهما أمرناهم بطاعتنا، الثاني فخالفونا أو عصونا ونحو ذلك.

الثالث: أن ما بعد الفاء في مثل هذا التركيب هو المأمور به نفسه، كقولك أمرته ففعل، وأمرته فقام، وأمرته فركب، لا يفهم المخاطب غير هذا.

الرابع: أنه سبحانه جعل سبب هلاك القرية أمره المذكور، ومن المعلوم أن أمره بالطاعة والتوحيد لا يصلح أن يكون سبب الهلاك، بل هو سبب للنجاة والفوز، فإن قيل أمره بالطاعة مع الفسق هو سبب الهلاك، قيل هذا يبطل بالوجه التالي.

الخامس: وهو أن هذا الأمر لا يختص بالمترفين، بل هو سبحانه يأمر

---

(١) السابق ٣/٧٥.

بطاعته واتباع رسله المترفين وغيرهم، فلا يصح تخصيص الأمر بالطاعة بالمترفين يوضحه الوجه التالي.

الوجه السادس: أن الأمر لو كان بالطاعة لكان هو نفس إرسال رسله إليهم، ومعلوم أنه لا يحسن أن يقال: أرسلنا رسلنا إلى مترفيها، ففسقوا فيها، فإن الإرسال لو كان إلى المترفين لقال من عداهم: نحن لم يرسل إلينا.

السابع: أن إرادة الله سبحانه لإهلاك القرية إنما يكون بعد إرسال الرسل إليهم وتكذيبهم، وإلا فقبل ذلك هو لا يريد إهلاكهم لأنهم معذورون بغفلتهم وعدم بلوغ الرسالة إليهم. قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ١٣١﴾ الأنعام: ١٣١ [١].

والمعنى الذي تضمنته الآية أن الله ﷻ أرسل الرسل إلى أهل القرية فكذبوهم فأراد الله إهلاكها، فنفذ ما قدره في اللوح بحكمته في رؤسائها ومترفيها بمعنى شاء أمرا كونيا قدريا أنه سيقع الفسق في القرية لا محالة، وليس أمرا شرعيا دينيا، فاجتمع أهلها على تكذيب الرسل مع فسق رؤسائهم، فحينئذ جاءها أمر الله الكوني، وحق عليها قوله بالإهلاك [٢].

والآية يصح توجيه الأمر فيها على المعنيين سواء كان الأمر كونيا أو شرعيا، وكلاهما حق، فإن هلاك القرى يقع بأمر الله الكوني وتقديره

---

(١) شفاء العليل لابن القيم ص٢٨١ بتصرف.

(٢) السابق ص٢٨١ بتصرف .

الحتمي الذي يظهر قدرة الله ﷻ في خلقه، ويقع أيضا بمخالفة أهل القرية لأمر الله ﷻ الشرعي الديني الابتلائي الذي يظهر حكمة الله في ملكه، فلا يظلم أحدا من خلقه.

ومثال الأمر الكوني الشرعي أيضا ما ورد في قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ الأعراف:٥٤.

كثير من المفسرين يجعلون الأمر هنا أمرا شرعيا فقط، كما قال الإمام السعدي: (أي له الخلق الذي صدرت عنه جميع المخلوقات علويها وسفليها، أعيانها وأوصافها وأفعالها، والأمر المتضمن للشرائع والنبوات، فالخلق يتضمن أحكامه الكونية القدرية، والأمر يتضمن أحكامه الدينية الشرعية)[1].

والاقتصار على اعتبار الأمر بالمعنى الشرعي فيه نظر لأن الأمر يتضمن نوعي التدبير معا، ويحتمل الوجهين معا، فالله ﷻ ذكر قبلها وبعدها معاني الربوبية وتسخير الكائنات بأمره الكوني ونص على ذكر اسمه الرب المتضمن كمال الربوبية فقال سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ الأعراف:٥٤.

قال ابن القيم: (وههنا أمر يجب التنبيه عليه، والتنبه له، وبمعرفته تزول إشكالات كثيرة تعرض لمن لم يحط به علما، وهو أن الله سبحانه

(١) تفسير السعدي ١/٢٩١.

له الخلق والأمر، وأمره سبحانه نوعان: أمر كوني قدري، وأمر ديني شرعي، فمشيئته سبحانه متعلقة بخلقه وأمره الكوني، وكذلك تتعلق بما يحب وبما يكرهه، كله داخل تحت مشيئته، كما خلق إبليس وهو يبغضه، وخلق الشياطين والكفار والأعيان والأفعال المسخوطة له، وهو يبغضها، فمشيئته سبحانه شاملة لذلك كله. وأما محبته ورضاه فمتعلقة بأمره الديني، وشرعه الذي شرعه على ألسنة رسله، فما وجد منه تعلقت به المحبة والمشيئة جميعا، فهو محبوب للرب، واقع بمشيئته، كطاعات الملائكة والأنبياء والمؤمنين، وما لم يوجد منه تعلقت به محبته وأمره الديني، ولم تتعلق به مشيئته، وما وجد من الكفر والفسوق والمعاصي تعلقت به مشيئته، ولم تتعلق به محبته ولا رضاه ولا أمره الديني، وما لم يوجد منها لم تتعلق به مشيئته ولا محبته، فلفظ المشيئة كوني، ولفظ المحبة ديني شرعي، ولفظ الإرادة ينقسم إلى إرادة كونية فتكون هي المشيئة، وإرادة دينية فتكون هي المحبة) [1].

ومثال الأمر الذي لا يكون كونيا ولا شرعيا، كل التشريعات الباطلة والمناهج الوضعية المخالفة كما في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ ٩٧﴾ هود:٩٧. وكذلك قوله: ﴿وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ٥٩﴾ هود:٥٩. وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ١٥١﴾ الشعراء:١٥١.

وكل هذه الأوامر الباطلة من وحي الشيطان واتباع خطواته كما

---

(١) شفاء العليل لابن القيم ص٤٧.

قال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ ﴾ النور:٢١.

ومثال الأمر الذي لا يكون كونيا ولا شرعيا قوله: ﴿ قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ٣٣ ﴾ النمل:٣٣.

- **الإرادة من أنواع التدبير وقد تكون كونية أو شرعية.**

تقدم الحديث عن الفرق بين المشيئة والإرادة والمحبة، وعلمنا أن المشيئة لا تكون إلا كونية فقط، كما أن المحبة لا تكون إلا شرعية فقط، أما الإرادة فهي كونية وشرعية.

وقد سئل ابن تيمية رحمه الله عن تفصيل الإرادة والإذن والكتاب والحكم والقضاء والتحريم وغير ذلك مما هو ديني موافق لمحبة الله ﷻ ورضاه وأمره الشرعي، وما هو كوني موافق لمشيئته الكونية.

أجاب بعد حمد الله بأن هذه الأمور المذكورة وهي الإرادة والإذن والكتاب والحكم والقضاء والتحريم وغيرها كالأمر والبعث والإرسال ينقسم في كتاب الله إلى نوعين:

أحدهما: ما يتعلق بالأمور الدينية التي يحبها الله تعالى ويرضاها، ويثيب أصحابها، ويدخلهم الجنة، وينصرهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وينصر بها العباد من أوليائه المتقين وحزبه المفلحين وعباده الصالحين.

والثاني: ما يتعلق بالحوادث الكونية التي قدرها الله ﷻ وقضاها مما يشترك فيها المؤمن والكافر، والبر والفاجر، وأهل الجنة وأهل النار،

وأولياء الله وأعداؤه، وأهل طاعته الذين يحبهم ويحبونه ويصلي عليهم هو وملائكته، وأهل معصيته الذين يبغضهم ويمقتهم، ويلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون، فمن نظر إليها من هذا الوجه شهد الحقيقة الكونية الوجودية، فرأى الأشياء كلها مخلوقة لله ﷻ مدبرة بمشيئته، مقهورة بحكمته، فما شاء الله كان، وإن لم يشأ الناس، وما لم يشأ لم يكن وإن شاء الناس، لا معقب لحكمه، ولا راد لأمره، ورأى أنه سبحانه رب كل شيء ومليكه، له الخلق والأمر، وكل ما سواه مربوب له مدبر مقهور، لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، بل هو عبد فقير إلى الله تعالى من جميع الجهات، والله ﷻ غنى عنه، كما أنه الغني عن جميع المخلوقات [1].

وعدم التفريق بين الإرادة الكونية والشرعية أدى إلى الضلال في النظر إلى أفعال الله ﷻ من وجه واحد فقط، فيجعلون التدبير الشرعي بمعنى التدبير الكوني حتى جعلوا الله مريدا لجميع الكائنات، ولم يميزوا بعد ذلك بين إيمان وكفر، ولا معروف ولا منكر، ولا حق ولا باطل ولا مهتدى ولا ضال، ولا راشد ولا غوي، ولا ولي لله ولا عدو، ولا مسخوط لله ﷻ ولا مرضي، ولا محبوب لله ولا ممقوت، ولا بين العدل والظلم، ولا بين البر والعقوق، ولا بين أعمال أهل الجنة وأعمال أهل النار، ولا بين الأبرار والفجار حيث شهدوا ما تجتمع فيه الكائنات من القضاء السابق، والمشيئة النافذة، والقدرة الشاملة، والخلق العام. وقالوا الكل إرادة الله ﷻ محتجين بالنصوص التي وردت في الإرادة الكونية

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٨/٥٨ بتصرف.

كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾ الرعد:١١. وقوله تعالى: ﴿قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ﴾ المائدة:١٧.

وقول الله سبحانه: ﴿ قُلۡ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗۚ ﴾ الأحزاب:١٧. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ يس:٨٢. وقوله: ﴿قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ ﴾ الزمر:٣٨. وقوله: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ هود:٣٤. وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ ﴾ البقرة:٢٥٣.

وهؤلاء شهدوا المشترك بين المخلوقات من نفاذ المشيئة الإلهية والقضاء المبرم والإرادة الكونية ووقوع المقادير، وتعاموا عن الفارق بينهما من جهة الأخذ بالأسباب وإرادة الله الشرعية في التكليف بالأحكام وشرائع الإسلام وتمييز الحلال من الحرام، والأجر في الإسلام، والعقاب على الإجرام، وإرادة الله ﷻ التي وردت في مثل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ﴿٢٧﴾ ﴾ النساء:٢٧. فلو كانت هذه الإرادة كونية لو وقعت التوبة من جميع المكلفين.

وكذلك قول الله تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ﴿٢٨﴾ ﴾ النساء:٢٨. وقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ

ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ البقرة:١٨٥.

وقوله: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾﴾ المائدة:٦. وقوله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾ الأنفال:٦٧.

• لما أمر إبليس بالسجود أراد منه ذلك أم لم يرده؟

إذا ميز المؤمن في عقيدته بين الإرادة الشرعية والعمل بها، والإيمان بالإرادة الكونية وقهر العبد تحت حكمها، وفقه الله ﷻ إلى حقيقة التوحيد وفهم العقيدة السلفية المبنية على الأصول القرآنية والنبوية.

سئل سهل التستري عن قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ البقرة:٣٤؟

قال السائل: لما أمر إبليس بالسجود لآدم، أراد منه السجود أم لم يرده؟ فقال سهل: أراده ولم يرده [(١)].

وهو يعنى أن الله سبحانه أراده شرعا، وأوجبه تكليفا، يترتب عليه الثواب والعقاب، ولم يرده منه كونا ولا وقوعا، إذ لا يكون في ملكه إلا ما أراد الله تعالى كونا، فلو أراد كونه لكان، ولو أراده فعلا لوقع لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ يس:٨٢. فلما

---

(١) قوت القلوب في معاملة المحبوب لأبي طالب المكي ١/٢٢٢.

لم يكن، عُلم أنه لم يرده أي لم يشأه، فقد كان الأمران معا: إرادته بالتكليف والتعبد وهي إرادته الشرعية، وإرادته بأن لا يسجد وهي إرادته الكونية ومشيئته، فإرادة الله على نوعين يدبر الله ﷻ الخلق من خلالها على وجهين:

الوجه الأول: إرادة كونية قدرية، وهى المشيئة الشاملة لجميع الموجودات، ما يحبه وما لا يحبه، وبها يصدر الأمر التقديري الجبري الحتمي يتحقق في جميع المخلوقات من الأرض إلى السماوات، يتحقق في الجن والإنس والملائكة، وكل ما في الكون على سبيل الخلق والإيجاد والإمداد والمتابعة، وهذا الأمر نافذ لا محالة، فلا يمكن صده أو رده، وهو شاهد لمعنى الربوبية.

الوجه الثاني: إرادة شرعية إلهية يصدر بها أمر ابتلائي خاص للإنسان والجان، قد يلتزمان به وقد يمتنعان، وهذه الإرادة هي المتضمنة للمحبة والعبادة، من استجاب لها أحبه الله ﷻ وقربه، وأكرمه ونعمه، ومن امتنع عن تنفيذها أبغضه الله ﷻ وأبعده وعذبه.

وكل أمْر أمَر به الله عباده أراده بأمره الشرعي، ليكونوا مكلفين متعبدين، ولم يرده ممن لم يستجب ولم يمتثل لتدبيره الكوني، لأنه سبحانه وتعالى قال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٤٠﴾ النحل:٤٠. فأخبر أنه إذا أراد شيئا كونه، فالأمر الشرعي يستلزم الإرادة الدينية، ولا يستلزم الإرادة الكونية، فإنه لا يأمر إلا بما يريده شرعا ودينا، وقد يأمر بما لا يريده كونا وقدرا، كإيمان من أمره ولم يوفقه للإيمان، فالأمر مراد له دينا لا كونا.

وكذلك أمر خليله إبراهيم عليه السلام بذبح ولده، ولم يرده كونا وقدرا، وأمر رسوله بخمسين صلاة، ولم يرد ذلك كونا وقدرا، وكل ذلك لإظهار فضلهم، وتكليفهم وابتلائهم، فهذا أصل الابتلاء، يأمر الله تعالى بالشيء ويريد كون ضده، وقد أراد الأمر به وحسب، وينهى عن الشيء ويريد كونه، وقد أراد النهي عنه فقط.

والله عز وجل له في خلقه الحجة البالغة لو شاء لهدي الناس أجمعين كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣)﴾ السجدة:١٣.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩)﴾ هود:١١٨/١١٩.

وربما يسأل سائل: ماذا لو فرضنا من باب الاحتمال العقلي للاحتراز من شبهات الشيطان أن إبليس وقتها أراد أن يسجد، فهل سيسجد أم لا؟ والجواب عقلا أنه لن يسجد ليمضي قدر الله وما كتبه في اللوح، ولكن يحاسب على نيته في إرادته السجود، شأن من مات ويبعث على نيته، فالحساب على الإرادة والنية.

روي البخاري من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقول: (إِنما الأعْمَالَ بالنيات، وإِنمَا لكُل امْرِىءٍ ما نوَى)[(١)].

---

(١) رواه البخاري في كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي ١/٣ (١)، ومسلم في الإمارة، باب قوله صلى الله عليه وسلم: إنما الأعمال بالنية ٣/١٥١٥ (١٩٠٧).

والله تعالى لا يحاسبنا عن فعله بنا، ولكن يحاسبنا عن فعلنا تجاه شرعه وفعله، فالقدرة بيده، وهو الذي أقدرنا، فلو أعجزنا عجزنا وأعذرنا، وحاسبنا على النية والإرادة، كما قال تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾ الطلاق:٧. وقد أمرنا الله أن نحفظ شرعة ونلتزم بإرادته التعبدية وتدبيراته الشرعية على قدر استطاعتنا ووسعنا، وهو سيحفظنا بقضائه وقدره علي قدر نيتنا وطاعتنا.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾﴾ الطلاق:٢. وقال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾﴾ الطلاق:٤. وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ محمد:٧. وقال: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ النحل:١٠٦.

روي البخاري من حديث أنس عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال: (كنت رديفُ النبي ﷺ فقال: يا معاذ، قلت: لبيكَ وسَعدَيك، ثم قال مثله ثلاثاً: هل تَدري ما حقُّ الله على العباد؟ قلت: لا. قال: حق اللهِ على العباد أن يَعبدوهُ ولا يشركوا به شيئاً. ثم سار ساعةً فقال: يا معاذ، قلتُ: لبيكَ وسَعدَيك. قال: هل تدري ما حقُّ العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ أن لا يعذبهم)[١].

---

(١) رواه البخاري في كتاب الاستئذان، باب من أجاب بلبيك وسعديك ٥/٢٣١٢ (٥٩١٢)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً ١/٥٨ (٣٠).

وروي الترمذي وقال حديثٌ حسن صحيحٌ أن ابن عبَّاس ﵁، قال: (كُنتُ خَلفَ النبيِّ ﷺ يَوْماً، فَقَال: يَا غُلامُ، إِني أُعَلمُكَ كِلمَاتٍ: احفظ الله يَحْفَظْكَ، احفظ الله تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إذا سَأَلتَ فَاسْأَل الله، وَإذا اسْتَعَنت فَاستَعِن بالله، وَاعْلَمْ أَن الأُمَّةَ لو اجْتَمَعَتْ عَلى أَن يَنفعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنفَعُوكَ إلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لكَ، وَإن اجْتَمَعُوا عَلى أَن يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَليْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلامُ وَجَفَّتِ الصُّحُف) [(١)].

• أمثلة لعقيدة من لا يفرقون بين التدبير الكوني والشرعي.

إن حظ أنبياء الله ورسله وأتباعهم اتباع الأمر الشرعي الديني والإيمان بالأمر والقضاء الكوني، فيعملون بشرع الله ويؤمنون بقدر الله، يعملون بالحكم الشرعي والقضاء الشرعي والإرادة الشرعية، ويؤمنون بالحكم الكوني والقضاء الكوني والإرادة الكونية.

أما أعداء الله فهو واقفون مع القضاء الكوني فحيث ما مال القدر مالوا معه، فدينهم دين القدر، يعصون أمره، ويحتجون بقضائه وقدره على معصيتهم، فلا ينفعهم وقوفهم مع المراد الكوني، ولا يكون ذلكم عذرا لهم عند الله، إذ لو كان العذر بإرادته الكونية لم يذم أحدا من خلقه على معصيته، ولم يعاقبه على وزره، ولم يكن في خلقه عاص ولا

---

(١) رواه الترمذي في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع ٤/٦٦٧ (٢٥١٦)، وأحمد في المسند ١/٢٩٣ (٢٦٦٩)، والحاكم في المستدرك ٣/٦٢٣ (٦٣٠٣)، وصححه الشيخ الألباني، انظر مشكاة المصابيح (٥٣٠٢)، وظلال الجنة (٣١٥)، وصحيح الجامع (٧٩٥٧).

كافر، ومن زعم ذلك فقد كفر بالله وكتبه كلها وجميع رسله [1].

قال أحد الجبرية الذين لا يفرقون بين الإرادة الكونية والإرادة الشرعية، ويحتجون بالتدبير الكوني على مخالفة التدبير الشرعي:

ما حيلة العبد والأقدار جارية : عليه في كل حال أيها الرائي

ألقاه في اليم مكتوفا وقال له : إيـاك إيـاك أن تبتـل بالمـاء[2].

ورأى جبري رجلا يفجر بامرأته، فبادر ليأخذه فهرب، فأقبل يضرب المرأة وهي تقول: القضاء والقدر، فقال: يا عدوة الله أتزنين وتعتذرين بمثل هذا؟ فقالت: أو تركت السنة وأخذت بمذهب ابن عباس، فتنبه ورمى بالسوط من يده، واعتذر إليها، وقال: لولاك لضللت[3].

وصعد رجل جبري يوما على سطح دار له، فرأى غلاما له يزني بجاريته، فنزل وأخذهما ليعاقبهما، فقال الغلام: إن القضاء والقدر لم يدعانا حتى فعلنا ذلك، فقال الجبري: لَعِلْمُك بالقضاء والقدر أحب إلي من كل شيء، أنت حر لوجه الله[4].

---

(١) شفاء العليل لابن القيم ص ٢٨٣.

(٢) طريق الهجرتين لابن القيم ص١٥٢.

(٣) السابق ص١٥٢.

(٤) السابق ص١٥٢.

ورأى أحمق آخر رجلا آخر يفجر بامرأته، فقال لها: ما هذا الذي صنعت؟ فقالت: هذا اختيار الله وقضاؤه وقدره، فقال: الخيرة فيما اختاره الله وقضاه، فلقب بالخيرة فيما اختاره الله، وكان إذا ناده أحد بذلك غضب [1].

وقال بعض الجبرية المحتجين على المعاصي بالإرادة الكونية: لي خمس بنات، لا أخاف على إفسادهن إلا من الله وتدبيره [2].

ومثل هذه الأقوال والأفعال من قبيل القبائح العقلية التي لا تقع إلا من السفهاء، فليس لأحد أن يحتج على فعل الذنوب والمعاصي بقدر الله، بل عليه أن لا يفعلها، وإذا فعلها فعليه أن يتوب منها.

(١) انظر السابق ص١٥٢.

(٢) السابق ص١٥٢.

المطلب الخامس عشر

الصديق والزنديق وأمور التدبير
بين التسيير والتخيير

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فقد تحدثنا في المطلب السابق عن ضرورة الإيمان بنوعين من تدبير الله في ملكه، وهما التدبير الكوني والتدبير الشرعي، فالتدبير الكوني هو القضاء المبرم والتقدير الجبري الحتمي، والتدبير الشرعي هو التدبير الديني التكليفي الاختياري.

وعلمنا أيضا أن القضاء في كتاب الله ﷻ قد يرد بالمعنى الكوني، وقد يرد بالمعنى الشرعي، وكذلك الحكم الإلهي يتعلق بأنواع التدبير، فقد يكون كونيا أو شرعيا، والأمر في كتاب الله يرد أيضا على المعنى الكوني والمعنى الشرعي.

وبينا توجيه المعنى الكوني أو الشرعي للأمر الوارد في شأن فسق المترفين، وعلمنا أن الإرادة من أنواع التدبير وأنها ترد في النصوص كونية تارة وشرعية تارة أخرى، وأمر الله لإبليس بالسجود لآدم وهل أراد منه السجود أو لم يرده؟ وضربنا أمثلة كثيرة لعقيدة من يحتجون

بالتدبير الكوني على عصيان التدبير الشرعي.

وفي هذا المطلب بإذن الله نتحدث عن وصف الصديق والزنديق وموقفهما من أمور التدبير بين التسيير والتخيير.

- **الفرق بين هداية التوفيق وهداية الدلالة والإرشاد.**

قال الإمام أبو جعفر الطحاوي في بيان اعتقاد أهل السنة والجماعة في قضية الهدى والضلال: (يهدي من يشاء، ويعصم ويُعافي فضلا، ويضل من يشاء ويخذل ويبتلي عدلا، وكلهم يتقلبون في مشيئته بين فضله وعدله) [1].

الهداية في القرآن نوع من أنواع التدبير، وقد تكون كونية أو شرعية فإن تعلقت بالمشيئة فهي كونية حتمية، وتسمى هداية التوفيق، وإن تعلقت بالمحبة فهي شرعية تكليفية دينية، وتسمى هداية البيان والدلالة والإرشاد، ومن أمثلة الهداية الكونية:

١- قوله تعالى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ النحل:٣٧.

٢- قوله تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ النور:٣٥.

٣- قول الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾ البقرة:١٤٢.

---

(١) متن العقيدة الطحاوية ص٢٢.

٤- قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ البقرة:٢٧٢.

٥- قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ الأنعام:٨٨.

٦- قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ القصص:٥٦.

٧- قوله تعالى: ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ ﴾ الأعراف: ١٧٨.

٨- قوله: ﴿ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ ﴾ إبراهيم: ٢١.

٩- قوله تعالى: ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ ﴾ النحل:٨/٩ .

١٠- قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَـَٔاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ السجدة:١٣.

أما الهداية التي هي هداية البيان والدلالة والإرشاد، فقد جاءت بها الرسل من آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ، وهي بيان الصراط المستقيم الذي يؤدي اتباعه إلى الجنة وتؤدي مخالفته إلى النار، وهذه الهداية حق العباد

على ربهم، كما وعدهم تفضلا منه وتكرما ألا يعذبهم إلا إذا أرسل إليهم الرسل لهدايتهم إلى طريق السعادة في الدنيا، والنجاة في الآخرة، ومن أمثلة هذه الهداية الشرعية:

١- قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ [illegible] إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ الشورى:٥٢. والهداية الأولى كونية والثانية شرعية.

٢- قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾ فصلت:١٧.

٣- قوله تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ البقرة:٣٨.

٤- قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ آل عمران:١٠١ .

٥- قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ البقرة:١٢٠.

٦- قوله: ﴿قُلْ [illegible] مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ الأنعام:٧١.

٧- قوله: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ

ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ البقرة: ١٩٨.

٨- قول الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ يونس: ٣٥ .

٩- قوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ إبراهيم: ١٢ .

١٠- قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ [illegible] ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ الإسراء: ٩.

ومن النصوص القرآنية التي تدل على الهداية الكونية والشرعية معا ما ورد في المواضع التالية:

١- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ الصافات: ١١٤/١١٨.

٢- قول الله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ الشورى: ١٣.

٣- قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ

﴿هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٨﴾ الزمر:١٨.

• أساس الضلال الذي وقعت فيه القدرية المعتزلة.

لا تفرق المعتزلة بين نوعي الهداية والتدبير، فمن المعلوم أن الهداية الكونية تُظهر قدرة الله ﷻ في فعل ما يشاء، والهداية الشرعية تظهر حكمة الله ﷻ وعدله في المعاقبة وتوقيع الجزاء، وتظهر فضله على من سارع في مرضاة الله ﷻ واتبع هداه وقاوم النفس والأهواء.

غير أن المعتزلة القدرية تعتبر هداية الله ﷻ الكونية، أو تعتبر توفيق الله لمن شاء من خلقه، أو بعبارة أخرى تعتبر المعتزلة تقدير الله السابق لخلقه، والذي كتبه في لوحه قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، والذي قدر فيه وجود المؤمنين وما يفعلون، تعتبر ذلك ظلما في حق الكافرين.

وحجتهم في ذلك أن الله لو قدر الكفر والضلال ووجود الكافرين ثم عذبهم على ما خلقه فيهم لكان ظالما لهم، ولكان الله موصوفا بالظلم، فلازم العدل عندهم أن الله ﷻ لم يقدّر وجود الكافرين في علمه، ولم يكتب ما سيكون منهم في لوحه، ولم يخلقهم وأفعالهم في كونه، وإنما زعموا أن العصاة أوجدوا أنفسهم، وخلقوا أفعالهم بأنفسهم، وجعلوا العصاة خارجين عن تقدير الله ﷻ وقدرته، ومن هنا كان شعارهم الباطل الذي رفعوه في الأصل الثاني من أصولهم الخمسة والمسمى عندهم بالعدل، حيث ستروا تحت هذا الشعار الرنان القول بأن العبد هو الذي يخلق العصيان في نفسه دون الخالق سبحانه، وكذبوا بكونه منفردا بالخلق والأمر.

وأساس الضلال الذي وقعت فيه القدرية أهل الاعتزال أنهم تطاولوا على القدر الذي هو سر الله في خلقه، وتعاملوا معه وكأن اللوح المحفوظ الذي دون الله فيه مقادير الخلائق مكشوف بين أيديهم يقرؤون في صفحاته كما يقرؤون كتابا أو صحيفة، ثم يحاسبون الكاتب عن العلة في كتابته هذا الفصل وهذا السطر، سبحانه وتعالى، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

لقد كتب الله المقادير لأنه لا خالق غيره ولا رب سواه، فمن غير الله سيخلق؟ ومن غير الله قادر على إنشاء العالم على هذا النحو البديع؟ فكتب المقادير إظهارا لمشيئته وقدرته وأخفاها عن الجميع، وابتلاهم تحقيقا لعدله وحكمته، فمن زعم أنه اطلع على ما في اللوح المحفوظ فقد كذب في ادعائه علم الغيب.

ولو تساءل من يردد شبهة المعتزلة القدرية وقال: لو فرضنا أن إنسانا كتب الله عليه في التقدير السابق أنه كافر مخلد في النار، ثم أطاع رب العزة والجلال ومات على الطاعة في هذه الدار، فهل سيدخل الجنة أم النار؟ والجواب أن هذه الشبهة الإبليسية سببها إقرار السائل على سؤاله دون النظر إلى الخطأ الذي اقترفه، فالذي يفترض أن إنسانا كتب الله عليه في التقدير السابق أنه كافر مخلد في النار، نقول له: فرضك خاطئ، فمن أين علمت أن الله ﷻ كتب عليه في التقدير السابق أنه كافر مخلد في النار؟ لقد فاتك احتمال أن يكون الله ﷻ قد كتب عليه في التقدير السابق أنه مؤمن مخلد في دار القرار. فالذي فرضت أنه مكتوب في اللوح أنه كافر، ربما كتب في اللوح مؤمنا، والعكس صحيح، فالقول

بالاحتمال الواحد لشخص ما أنه مكتوب كفره في التقدير السابق، قول على الله ﷻ بلا علم وهو رجم بالغيب، فعلم الغيب هو سر القدر، وهذا السر أخفاه الله ﷻ لتصح الحكمة، فلا يمكن لأحد أن يطلع على ما في اللوح لا ملك مقرب ولا نبي مرسل، فالحال ليس كما فعلت المعتزلة في تصويرهم للوح المحفوظ بقياس تمثيلي كأنهم يقرؤون في صحيفة أو كتاب من كتب البشر، ثم يقولون: لو كتب الله على فلان أنه كافر ثم عذبه لكان ظلما ؟ ولو كان كذا في اللوح، لكان كذا وكذا وكأن اللوح عندهم مطروح لمناقشته في رسالة علمية، تعالى الله عن قولهم.

وإنما يصح احتجاجهم لو قالوا: لو فرضنا أن إنسانا أنزله الله من بطن أمه، مكتوب على وجهه: "كافر مهما فعلت" وعلم هذا الإنسان قدره ومصيره، وأنه مخلد في النار مهما أطاع رب العزة والجلال؟ عندها يصح احتجاج المعتزلة، ويكون الأمر ظلما بالفعل ومنافيا للعدل، وهذا لا، ولم يحدث أبدا، فما من إنسان يعلم مصيره غدا.

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ﴿٣٤﴾ ﴾ لقمان:٣٤.

بل الواقع يشهد أن كل إنسان منا نزل من بطن أمه، وليس له إلا أن يأخذ بالأسباب التي تؤدي إلى تحقيق مراده، فمن أراد الجنة أخذ بالأسباب المؤدية إليها، ومن أراد النار أخذ بالأسباب المؤدية إليها، فليس لنا غير العمل، وسيقع ما أخفاه الله في القدر، وليس أفضل من قول

النبي ﷺ لسراقة بن مالك رضي الله عنه: اعملوا فكل ميسر لما خلق له.

روى مسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن سُرَاقَة بْن مَالكٍ رضي الله عنه قَال: (يَا رَسُول اللهِ ﷺ: بَيِّن لنا دِيننا كَأنا خُلقنْا الآن؟ فِيمَا العَمَل اليَومْ؟ أَفِيمَا جَفّتْ بِهِ الأَقْلامُ وَجرَتْ بِهِ المَقَادِيرُ؟ أَمْ فِيمَا نستْقبِل؟ قَال: لا، بَل فِيمَا جَفّتْ بِهِ الأَقْلامُ، وَجرَتْ بِهِ المَقَادِيرُ، قَال: ففِيمَ العَمَل؟ قَال: اعْملوا فكُل مُيسَّرٌ لعَملهِ)[1].

وروى مسلم من حديث علي رضي الله عنه أنه قال: (كَان رَسُول اللهِ ﷺ ذاتَ يوْمٍ جَالسًا وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنكُتُ بِهِ، فرَفَعَ رَأْسَهُ فقَال: مَا مِنكُمْ مِن نفْسٍ إلا وَقدْ عُلمَ مَنزِلهَا مِن الجَنةِ وَالنار. قالوا: يَا رَسُول اللهِ، فلمَ نعْمَل؟ أفَلا نتَّكِل؟ قَال: لا. اعْمَلوا فكُل مُيسَّرٌ لمَا خُلقَ له، ثمَّ قرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ الليل:٥/١٠)[2].

• مناظرة في الهداية مع القاضي عبد الجبار المعتزلي.

حدثت مناظرة بين القاضي عبد الجبار المعتزلي وبين أبي إسحاق الاسفراييني في قضية خلق الله عز وجل لأفعال الإنسان، فالمعتزلة كما تقدم تنفي أن الله يخلق العاصي وفعله، وأن العاصي هو الذي يخلق العصيان

(١) رواه مسلم كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته ٤/٢٠٤٠ (٢٦٤٨).
(٢) رواه البخاري في كتاب القدر، باب وكان أمر الله قدرا مقدورا ٦/٢٤٣٥ (٦٢٣١)، ومسلم في كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته ٤/٢٠٤٠ (٢٦٤٧).

في ذاته، فجعلوا قوة العصاة مستقلة وخارجة عن قوة الله، بل هي عندهم أقوى من قوة الله، وجعلوا إرادتهم أقوى من مشيئة الله وإرادته الكونية.

ولذلك لما جاء أعرابي كما تقدم إلى عمرو بن عبيد أحد المؤسسين لمذهب المعتزلة الباطل وقال له: ناقتي سرقت فادع الله لي أن يردها علي، فقال عمرو بن عبيد: اللهم إنك لم ترد أن تسرق ناقته فسرقت اللهم فردها عليه. فقال له الأعرابي: لا حاجة لي في دعائك الخبيث. فقال عمرو بن عبيد: ولم؟ قال الأعرابي: إن كانت السارق سرقها ولم يرد الله سرقتها، فأخشى أن يريد الله ردها فيأبى السارق ولا يردها [1].

لقد علم الأعرابي أن مذهب المعتزلة باطل لأنهم يجعلون قوة العصاة وإرادتهم أقوى من قوة الله وإرادته تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا.

قال فخر الدين الرازي: (سمعت أن الأستاذ أبا إسحاق الاسفراييني كان جالساً في دار الصاحب بن عباد، فدخل القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمداني، فلما رآه قال: سبحان من تنزه عن الفحشاء. فقال الأستاذ أبو إسحاق: سبحان من لا يجري في ملكه إلا ما يشاء) [2].

وقول القاضي عبد الجبار: سبحان من تنزه عن الفحشاء، يعني أن المعاصي ليست بقدر الله، وإنما بقدر العبد وخلقه للفحشاء، ولذلك رد أبو إسحاق بقوله: سبحان من لا يجري في ملكه إلا ما يشاء، لأن كلام

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص٢٧٨، وأضواء البيان لمحمد الأمين الشنقيطي ٥/٢٧٧.
(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي ٢١/٦١، وانظر أضواء البيان للشنقيطي ٧/٩٧.

القاضي عبد الجبار معناه أن مشيئة العبد غلبت وقهرت مشيئة الرب وهذا باطل لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٣٠) يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٣١)﴾ الإنسان: ٣٠/٣١.

ولذلك قال له القاضي عبد الجبار المعتزلي: أيشاء ربنا أن يعصى؟ فقال أبو إسحاق: أيعصى ربنا قهرا. والمعنى الذي قصده أبو إسحاق: هل مشيئة العبد غلبت وقهرت مشيئة الرب، بحيث وقع في ملك الله ما لا يشاؤه؟ فقال القاضي عبد الجبار المعتزلي: أرأيت إن منعني الهدى وقضى علي بالردى أحسن إلي أم أساء؟

ويقصد القاضي عبد الجبار أن الله إن كتب في اللوح المحفوظ أنه سيخلقني ضالا لا مهتديا، وأن أكون من أهل النار لا من أهل الجنة فهذه ستكون إساءة من الله لي وليس إحسانا إلي؟ وهذه كما تقدم شبهة باطلة، وقول على الله بلا علم، ورجم من القاضي بالغيب، لأن اللوح المحفوظ من علم الغيب، فالله أعلم من هم أهل الجنة وأهل النار، أما غير الله فلا يعلم ذلك بحال من الأحول، فالاحتمال قائم في شأن كل إنسان فربما يكون مكتوبا أنه من أهل الهدى أو أهل الضلال، فتخصيص شخص بعينه أنه من أهل الضلال الذي منع من الهداية كذب من أشنع الأقوال.

ولذلك رد عليه أبو إسحاق الاسفراييني فقال: إن منعك ما هو لك فقد أساء، وإن منعك ما هو له، فالله يختص برحمته من يشاء، فانقطع وبهت ولم يجد جوابا.

وسر انقطاعه أن أبا إسحاق الاسفراييني فرق بين حق الله وحق

العبد، فما لنا على الله ﷻ كما وعدنا تكرما منه وتفضلا أنه لا يعذبنا إلا بعد بيان الهداية الشرعية، وإرسال الرسل وإنزال الكتب بها، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾ الإسراء:١٥.

وما لله ﷻ فيما يخصه أن يقدر في اللوح المحفوظ ما يشاء من أهل الهداية أو الضلالة، فله مطلق المشيئة والقدرة، وطالما أنه لم يكشف ما كتبه في اللوح المحفوظ قبل وقوعه لأحد من خلقه فسوف تصح الحكمة. فالتقدير والمشيئة والقدرة حقه سبحانه، ولا يجوز لأحد أن يحاسب ربه فيقول له: لم كتبت كذا؟ ولم لم تقدر كذا وكذا؟ لأن ذلك شرك ظاهر، وزعم باطل، ينقض توحيد الربوبية.

قال تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ الأنبياء:٢٢/٢٣.

وقال سبحانه: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾ ﴾ الإسراء:١١١.

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ الفرقان:٢.

وهذه المناظرة من المناظرات الفاصلة في الرد على مذهب القدرية نفاة القدر، ولذلك نسبت إلى كثيرين من أهل السنة بغض النظر عن كونها حدثت بين أبي إسحاق الاسفراييني والقاضي عبد الجبار بن أحمد الهمداني، لأنها حملت قواعد أساسية في إبطال مذهب المعتزلة القدرية.

ولذلك نسبت مرة إلى جعفر الصادق فذكر ابن أبي الدنيا أن قدريا دخل على جعفر بن محمد الصادق فقال له: يا ابن بنت رسول الله، تعالى الله عن الفحشاء فقال له جعفر الصادق: يا أعرابي، وجل ربنا أن يكون في ملكه ما لا يشاء، فقال القدري: يا ابن بنت رسول الله، أيحب ربنا أن يعصى؟ قال: يا أعرابي، أفيعصى ربنا قهرا؟ قال: يا ابن بنت رسول الله، أرأيت إن صدني عن الهدى، وسلك بي طريق الردى، أحسن بي أم أساء؟ فقال له جعفر الصادق: إن منعك شيئا هو لك، فقد ظلم وأساء، وإن منعك شيئا هو له، فإنه يختص برحمته من يشاء، فأفحم القدري وبهت، ولم يجد جوابا [1].

وجعلها ابن حجر العسقلاني حوارا بن سني ومعتزلي فقال: (ويُقَال: إن بَعْض أَئِمَّة السُّنة أُحْضِرَ للمُناظَرَةِ مع بَعْض أَئِمَّة الْمُعْتَزلة، فلَمَّا جَلسَ الْمُعتَزلِيّ قَال: سُبْحَان مَن تَنزَّهَ عَن الفَحْشَاء ، فقَال السُّنيُّ: سُبْحَان مَن لا يَقَع فِي مُلكه إلا مَا يَشَاء ، فقَال الْمُعْتَزلِيّ: أَيشَاءُ رَبّنا أَن يُعْصَى؟ فقَال السُّنيّ: أَفيُعْصَى رَبّنا قَهْرًا؟ فقَال الْمُعتَزلِيّ: أَرَأَيْت إِن مَنعَنِي الْهُدَى وقَضَى عَليَّ بِالرَّدَى أَحْسَن إِليَّ أَوْ أَسَاءَ ؟ فقَال السُّنيُّ: إن كَان مَنعَك مَا هُوَ لك فقَدْ أَسَاءَ، وإِن كَان مَنعَك مَا هُوَ لهُ؛ فَإِنهُ يَخْتَص بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاء فَانقَطَعَ) [2].

---

(١) الإخلاص والنية لابن أبي الدنيا ص١٨، وانظر حز الغلاصم في إفحام المخاصم عند جريان النظر في أحكام القدر لأبي الحسن شيث بن إبراهيم بن حيدرة ص١٨ نشر مؤسسة الكتب الثقافية بيروت.

(٢) فتح الباري لابن حجر العسقلاني ٤٥١/١٣.

وذكرها الشنقيطي معلقا عليه بالشرح فقال: (المناظرة التي ذكرها بعضهم، بين أبي إسحاق الاسفراييني وعبد الجبار المعتزلي.. أن عبد الجبار قال: سبحان من تنزه عن الفحشاء يعني أن السرقة والزنا ليسا بمشيئة الله، لأنه في زعمه أنزه من أن تكون هذه الرذائل بمشيئته. فقال أبو إسحاق: كلمة حق أريد بها باطل. ثم قال: سبحان من لم يقع في ملكه إلا ما يشاء.فقال عبد الجبار: أتراه يشاؤه ويعاقبني عليه. فقال أبو إسحاق: أتراك تفعله جبرا عليه، أأنت الرب وهو العبد؟ فقال عبد الجبار: أرأيت إن دعاني إلى الهدى، وقضى علي بالرديء، دعاني وسد الباب دوني؟ أتراه أحسن أم أساء؟ فقال أبو إسحاق: أرى أن هذا الذي منعك إن كان حقاً واجباً لك عليه فقد ظلمك وقد أساء، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً، وإن كان ملكه المحض فإن أعطاك ففضل، وإن منعك فعدل، فبهت عبد الجبار، وقال الحاضرون: والله ما لهذا جواب. ومضمون جواب أبي إسحاق هذا الذي أفحم به عبد الجبار هو معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ الأنعام:١٤٩) [(١)].

• من أنواع تدبير الله في خلقه الكتابة الكونية والشرعية .

ورد ذكر الكتابة منسوبة إلى الله ﷻ، وهي من أنواع تدبير الله في خلقه، والكتابة تحمل على نوعي التدبير، فقد تكون كتابة كونية، وتعني ما كتبه الله في أم الكتاب من كلمات كونية، سوف تنفذ بمشيئة الله وقدرته لا محالة، وتعني القضاء المبرم الذي سيحدث في العالم مما

---

(١) أضواء البيان للشنقيطي ٧/٩٧.

انفرد الله بعلمه ولم يطلع عليه أحدا من خلقه.

والكتابة الكونية هي المرتبة الثانية من مراتب القضاء والقدر، فالقضاء الكوني ثلاث مراتب علم وكتابة ومشيئة، والقدر أربع مراتب وهي مراتب القضاء بالإضافة إلى المرتبة الرابعة وهي مرتبة الخلق.

ولا بد من مراعاة نوعي الكتابة عند النظر إلى النصوص القرآنية والنبوية، لأن الخلط بينهما يؤدي إلى التخبط في فهم العقيدة أو التواكل في الحياة، أو عدم التوكل على الله. وهذا ما وقع فيه الجبرية والقدرية، فالكتابة قد تكون كونية مظهرة لمعاني القدرة وتوحيد الربوبية، وقد تكون شرعية مظهرة لمعاني الحكمة وتوحيد العبودية. فمن المعاني الكونية ما ورد في المواضع التالية:

١- قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ۝٤ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ۝٥﴾ الحجر:٤/٥.

٢- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ ۝٣٨ يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ۝٣٩﴾ الرعد:٣٨/٣٩.

٣- قوله تعالى: ﴿۞وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝٦﴾ هود:٦.

٤- قوله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٥١﴾ التوبة:٥١.

٥- قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ
وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا
يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ الأنعام:٥٩.

٦- قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا
تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ
إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾ فاطر:١١.

٧- قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى
كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ الحديد:٢٢ .

٨- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى
كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ الحج:٧٠ .

٩- قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا
يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ طه:٥١/٥٢.

١٠- قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ
مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ
ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ آل عمران:١٥٤.

إن القائلين بمذهب الجبرية نظروا إلى التدبيرات الكونية وتعاموا عن رؤية التدبيرات الشرعية، فإذا سمعوا نصا عن المشيئة أو الكتابة الكونية احتجوا به على مخالفة الكتابة الشرعية، وفعلوا ما لا يحبه الله ولا يرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطلة، ورفعوا اللائمة عن أنفسهم في

عصيانهم لربهم.

ذكر إبليس عند بعض هؤلاء الجبرية، وأخذ الحاضرون يلعنونه ويذمونه، وينكرون استكباره وامتناعه عن السجود لآدم ﷺ، فقال هذا الجبري: إلى متى هذا اللوم الذي تلعنون به إبليس وتسبونه؟ إنما القدر هو الذي منعه من السجود، ولو تركه لسجد! ولكن لما منعه الله أخذ يقيم له الأعذار أنه أبى واستكبر وكان من الكافرين. فقال بعض الحاضرين: تبا لك سائر اليوم، أتدافع عن الشيطان وتلوم الرحمن؟ [(١)].

إن الله ﷻ جعل الخلائق بين قدرته وحكمته، فكما أنه قادر على كل شيء، فإنه حكيم لا يظلم أحدا من خلقه، ولا بد من أن تظهر أثار اسمه الحكيم كما ظهرت أثار اسمه القدير، ولذلك شرعت الأحكام وألزمنا الله ﷻ شريعة الإسلام، وكتب الله علينا العمل بها، وأمرنا في المقابل أن نعتقد فيما سبق في أم الكتاب من المقادير وأن نؤمن بها، فالتوحيد عند السلف الصالح توحيد الشرع والقدر معا.

وكما ذكر الله ﷻ في كتابه الكتابة الكونية الحتمية القدرية النافذة، ذكر أيضا الكتابة الشرعية الدينية التكليفية التي أحبها لنا، وابتلانا بها ورتب المؤاخذة في أفعالنا على موقفنا منها. ومن أمثلة الكتابة التشريعية المظهرة لحكمة الله في عباده ما ورد في المواضع التالية:

١- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا

---

(١) طريق الهجرتين ص ١٥٤.

مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ الحديد:٢٧.

٢- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ الأنعام:١٥٤/١٥٥.

٣- قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ البقرة:١٧٨.

٤- قول الله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ الأعراف:١٤٥.

٥- قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ البقرة:١٨٣.

٦- قوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ المائدة:٢١.

٧- قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا

﴿مِنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ المائدة: ٣٢.

٨- قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾﴾ البقرة: ١٨٠.

٩- قوله تعالى: ﴿فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ البقرة: ١٨٧.

١٠- قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ البقرة: ٢١٦.

• التحريم الإلهي يرد على معنى التدبير الكوني والشرعي.

وكما ذكرنا في الكتابة الإلهية أنها ترد في القرآن على معنى الكتابة الكونية الحتمية القدرية النافذة، والكتابة الشرعية الدينية التكليفية التي أحبها لنا وابتلانا بها، كذلك التحريم الإلهي قد يكون على المعنى الكوني المظهر للقدرة، أو المعنى الشرعي المظهر للحكمة، ومن أمثلة التحريم الكوني ما ورد في المواضع التالية:

١- قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ المائدة: ٢٦.

٢- قوله تعالى: ﴿۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ

بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ﴿١٢﴾ القصص:١٢.

٣- قوله: ﴿ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين ﴿٥٠﴾﴾ الأعراف:٥٠.

٤- قوله تعالى: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار ﴿٧٢﴾﴾ المائدة: ٧٢.

كل هذه المواضع التحريم فيها تحريم كوني واقع لا محالة، لا يمكن مخالفته أو دفعه. أما التحريم الشرعي الذي أوجب الله ﷻ فيه ترك ما لم يحبه لنا، ولا يرضاه لأحد من عباده، فمثاله ما ورد في المواضع التالية:

١- قوله تعالى: ﴿وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم إن ربك هو أعلم بالمعتدين ﴿١١٩﴾﴾ الأنعام:١١٩.

٢- قول الله تعالى: ﴿قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴿٣٣﴾﴾ الأعراف:٣٣.

٣- قوله تعالى: ﴿۞ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ﴿١٥١﴾﴾ الأنعام:١٥١.

٤- قوله تعالى: ﴿ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ التوبة:٢٩.

٥- قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾ النحل:١١٥.

٦- قوله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ النحل:١١٨.

٧- قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ﴾ الإسراء:٣٣.

٨- قوله تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَـٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ﴾ المائدة:٣.

٩- قوله تعالى: ﴿ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ النور: ٣.

١٠- قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ ﴾ البقرة:٢٧٥.

• الإذن الإلهي من أنواع التدبير الكوني والشرعي.

الإذن الإلهي قد يرد بالمعنى الكوني، وقد يرد بالمعنى الشرعي، فالإذن الكوني بمعنى المشيئة والقضاء الحتمي شاهد لتوحيد الربوبية، والإذن الشرعي شاهد لتوحيد العبودية، فيمكن للعبد أن يوحد الله ولا يفعل إلا ما أذن به شرعا، ويدخل الجنة بفضله، ويمكن أن يخالف ويصبح مسئولا عن دخوله النار بعدله. ومن أمثلة الإذن الكوني المظهر للقدرة ما ورد في المواضع التالية:

١- قوله تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ البقرة:١٠٢.

٢- قوله تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ آل عمران:٤٩.

٣- قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ آل عمران:١٤٥.

٤- قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ الأعراف:٥٨.

٥- قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ

عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ يونس: ١٠٠.

٦- قوله تعالى: ﴿ وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ إبراهيم: ٢٣.

٧- قوله تعالى: ﴿ تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ إبراهيم: ٢٥.

٨- قوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٦٥﴾ ﴾ الحج: ٦٥.

٩- قوله تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١١﴾ ﴾ التغابن: ١١.

وكما ذكر الله ﷻ في كتابه الإذن الكوني الحتمي النافذ، ذكر أيضا الإذن الشرعي الديني التكليفي الذي ابتلانا به ورتب على موقفنا منه الثواب والعقاب. ومن أمثلة الإذن الديني المظهر لحكمة الله في تكليف عباده ما ورد في المواضع التالية:

١- قوله تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ﴿٣٦﴾ ﴾ النور: ٣٦.

٢- قوله تعالى: ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ يونس: ٥٩.

٣- قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩﴾ الحج:٣٩.

٤- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ وَلَأَمَةٞ مُّؤۡمِنَةٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكَةٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤۡمِنُواْۚ وَلَعَبۡدٞ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكُمۡۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٢٢١﴾ البقرة:٢٢١.

٥- قوله تعالى: ﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٦﴾ المائدة:١٦.

٦- قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ٤٦﴾ الأحزاب:٤٥/٤٦.

٧- قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢١﴾ الشورى:٢١.

• **الجعل في القرآن نوعان نوع كوني وآخر شرعي.**

الجعل إذا أضيف إلى الله ﷻ فهو على معنى التدبير، سواء كان على المعنى الكوني الذي يراد به الخلق والتقدير والتدبير الكوني الذي يقع لا محالة، أو كان على المعنى الشرعي الذي يراد به التكليف والمحبة والتدبير الشرعي، ومن أمثلة الجعل الكوني المظهر للقدرة ما ورد في المواضع

التالية من كتاب الله:

١- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾﴾ النبأ:٦/١٣.

٢- قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ الأنعام:١.

٣- قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ الأنبياء:٣٠.

٤- قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾﴾ الأنبياء:٣١.

٥- قوله الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ الأنبياء:٣٢.

المعنى الثاني للجعل إذا أضيف إلى الله ﷻ هو المعنى الشرعي الديني الذي يحتوي على منهج المكلفين وشريعة المسلمين، ويبين طريق عبادتهم وصلاح دنيتهم، وهذا قد يقع وقد لا يقع، ومن أمثلة الجعل الشرعي المظهر لحكمة الله ﷻ في عباده ما ورد في المواضع التالية:

١- قوله تعالى: ﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾﴾ النساء:٩٠. أي لم يجعل حكما شرعيا في قتالهم.

٢- قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ المائدة:٤٨.

٣- قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ المائدة:١٠٣.

٤- قوله تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزۡوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنۡهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمۡۚ وَمَا جَعَلَ أَدۡعِيَآءَكُمۡ أَبۡنَآءَكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾﴾ الأحزاب:٤.

٥- قوله تعالى: ﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ الحج: ٣٦.

٦- قوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٦٧﴾﴾ الحج:٦٧.

٧- قوله تعالى: ﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ الحج:٣٦.

٨- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ الجاثية:١٨.

ومن الجعل الشرعي ما ورد في قوله تعالى: ﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٣﴾﴾ الزخرف:١/٣. أي أنزل كلامه وشريعته بلغة العرب، وقد بين الله السبب في ذلك فقال: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ

ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴿٤٤﴾ ﴾ فصلت:٤٤ . فالجعل هنا بالمعنى الشرعي وليس بالمعنى الكوني الذي يدل على أن القرآن مخلوق كما زعمت المعتزلة، وكما احتج لهم الخليفة المأمون بن هارون على خلق القرآن بذلك، فقد لبسوا الأمور وخلطوا معنى الجعل الكوني بالمعنى الشرعي، والشرعي بالمعنى الكوني .

قال الخليفة المأمون في رسالته التي فرض فيها القول بخلق القرآن على سائر الأمة الإسلامية: (وقد قال الله ﷻ في محكم كتابه، الذي جعله لما في الصدور شفاء، وللمؤمنين رحمة وهدي: ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا ﴾ الزخرف:١/٣. فكل ما جعله الله فقد خلقه. وقال: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ﴾ الأنعام:١)[1]. فجعل الأولى بمعنى شرع، والثانية بمعنى خلق فأراد أن يسوى بينهما .

أما الجعل إذا أضيفت لمخلوق، فلا يكون بمعنى خلق أو بمعنى شرع، لأن جعْل المخلوق ليس بالمعنى الكوني ولا بالمعنى الشرعي، كما ورد في قول الله تعالى: ﴿ ۞ أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ كَمَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا يَسۡتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ التوبة:١٩.

---

(١) تاريخ الطبري ١٨٦/٥، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٣٨/٢ نشر دار هجر، وتاريخ الخلفاء للسيوطي ٣٠٩/١ نشر مطبعة السعادة مصر، وتاريخ الإسلام للذهبي ٢٠/١٥، نشر دار الكتاب العربي بيروت.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾﴾ البقرة:٢٢٤.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ البقرة:١٩. فجعل هنا لا يمكن أن تكون بمعنى خلق ولا شرع، وليس كل ما جعله الله ﷻ فقد خلقه كما زعم المأمون بن هارون الرشيد .

• البعث الإلهي من أنواع التدبير الكوني والشرعي.

ومن أنواع التدبير البعث الإلهي، فتارة يرد البعث على المعنى الكوني، وتارة يرد على المعنى الشرعي، فالبعث الكوني مُظهر للقدرة وتوحيد الربوبية، والبعث الشرعي مظهر للحكمة وتوحيد العبودية، ومن أمثلة البعث الكوني ما ورد في المواضع التالية:

١– قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ البقرة:٥٥/٥٦.

٢– قوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ المائدة:٣١.

٣– قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ

﴿تَعۡمَلُونَ ٦٠﴾ الأنعام:٦٠.

٤- قوله تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ ٦٥﴾ الأنعام:٦٥.

٥- قول الله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ٧﴾ الحج:٧.

٦- قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٦﴾ المجادلة:٦.

٧- قوله تعالى: ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ٢٨﴾ لقمان:٢٨.

أما البعث الإلهي الشرعي فهو بعث ما تقوم به الحجة وتتحقق به الحكمة، كبعث الرسل بالآيات الشرعية الدينية التكليفية المظهرة لحكمة الله ﷻ في عباده، ومثالها ما ورد في المواضع التالية:

١- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٠٣﴾ الأعراف:١٠٣.

٢- قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ١٦٤﴾ آل عمران:١٦٤.

٣- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ النحل:٣٦.

٤- قوله تعالى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ الإسراء:١٥.

٥- قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾ الإسراء:٩٤.

٦- قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ الجمعة:٢.

٧- قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾ البقرة:٢٤٧.

• من أنواع التدبير الكوني والشرعي الإرسال والكلمات.

ومن أنواع التدبير الذي يرد في كتاب الله ﷻ على المعنى الكوني تارة، ويرد على المعنى الشرعي تارة أخرى الإرسال والكلمات، فمن الإرسال الكوني:

١- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم

﴿ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴾ الأنعام: ٦.

٢- وقوله تعالى: ﴿ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ ﴾ الملك: ١٧.

٣- وقول الله تعالى: ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ ﴾ الرعد: ١٣.

ومثال الإرسال الشرعي:

١- قول الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾ الصف: ٩.

٢- وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾ البقرة: ١٥١.

٣- وقوله جل جلاله: ﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ المائدة: ٧٠.

ومثال الكلمات الكونية:

١- قوله تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ ﴾ الأنعام: ١١٥.

٢- وقوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ يونس:٦٤.

٣- وقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ الكهف:١٠٩.

٤- وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ لقمان:٢٧.

ومثال الكلمات الشرعية:

١- قوله تعالى: ﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ البقرة: ١٢٤.

٢- وقوله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ التحريم:١٢.

٣- وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ الأعراف:١٥٨.

• التنوير في إسقاط التدبير بين الصديق والزنديق.

مصطلح إسقاط التدبير من المصطلحات التي تتطلب بيانا وتحقيقا، فالتدبير قد يراد به تدبير الله لعبده، وهذا كما سبق على نوعين: تدبير

كوني بمعنى المشيئة والإرادة الكونية، وتدبير شرعي بمعنى المحبة والإرادة الشرعية، وقد يراد به تدبير العبد لنفسه، وهي إرادة العبد واختياره ما يشاء من خير أو شر. فإن أريد بإسقاط التدبير أن العبد يسقط تدبير الله الكوني، فهذا باطل لأنه لا حيلة له فيه، فالتدبير الكوني هو قضاء الله وقدره، ومشيئته الواقعة في خلقه، وهي سارية لا محالة في الخلائق أجمعين، سواء كانوا مؤمنين أو كافرين.

وإن أريد بإسقاط التدبير أن العبد يسقط تدبير الله الشرعي، ولا يتبع أحكام العبودية، وأنه وصل كما زعم كثير من غلاة الصوفية إلى مرتبة الحرية من العبودية، فهذا كفر وزندقة واتباع لمذهب الجبرية، فما من إنسان إلا وهو مكلف باتباع الشرع وأحكام العبودية، وفعل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة، ولا يسعه قط أن يسقط هذا التدبير الشرعي، أو يخرج عنه بأي حجة أو حال من الأحوال.

وإن أريد بإسقاط التدبير أن العبد يسقط اختياره الشخصي بمخالفة ما يهواه وإرادته الطاعة لله ﷻ باتباع السنة، أو إيثارا للتقيد بتدبير الله الشرعي والعمل باختياره الديني التكليفي، فهذا صديق وولي من أولياء الله، وقد وفقه الله إلى ما يحبه ويرضاه، فتوافقت إرادة العبد مع إرادة الله الشرعية، ومن ثم توافقت مع إرادة الله الكونية، وهذا هو التوفيق الذي نسأل الله أن يوفقنا إليه في هذه الحياة.

سئل سهل بن عبد الله التستري عمن قال: أنا كالباب لا أتحرك إلا أن يحركوني، فقال: لا يقول هذا إلا صديق أو زنديق[1].

---

(١) الفتاوى الحديثية، لأحمد شهاب الدين ابن حجر الهيتمي المكي ص٢٣٥.

وهو يشير إلى انضباط الإرادة البشرية في اختياراتها وتأثيرها على حركة الإنسان، بحيث لا تتحرك إلا على مراد الله الكوني أو مراده الشرعي، كالباب لا يتحرك إلا بمراد من حركه، فإن ضبط إرادته على مراد الله الشرعي كان صديقا، وإن ضبط إرادته على مخالفة مراد الله الشرعي محتجا على معصيته بأنه موافق لمشيئته ومراده الكوني كان زنديقا، فقال سهل رحمه الله لمن ادعى أنه لا يتحرك إلا إذا حركوه: لا يقول هذا إلا صديق أو زنديق.

وقد عبر النبي ﷺ عن الولي الصديق بما صح عند البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ حيث قال ﷺ: (إن اللّهَ قال: من عادَى لي وَلّيّاً فقد آذنته بالحرب، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيءٍ أحب إلي مما افتَرَضْتُه عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أُحبه، فإذا أحبَبته كنت سمعه الذي يسمع به وبَصرَه الذي يبصر به ويدَه التي يبطِش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه، وما ترددتُ عن شيء أنا فاعله تردُّدي عن نفسِ المؤمن، يكرَه الموتَ وأنا أكرَه مَساءته)[١].

ومعنى ذلك أنه إذا وافقت إرادة العبد إرادة الله الشرعية فإنها ستتوافق مع إرادة الله الكونية، ويكون صديقا مؤمنا وليا مستقيما، جاهد بعزم إرادته في محبة الله ﷻ والعمل بشريعته، وانضبط عليها فوفقه الله بمشيئته وإرادته الكونية، ومن هنا يظهر لنا معنى التوفيق، فالتوفيق هو اتفاق الإرادات، إرادة العبد مع إرادة الرب الشرعية، ومن ثم إرادته

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب التواضع ٥/٢٣٨٤ (٦١٣٧).

الكونية، وهذه الحالة تكون في المؤمن دون الكافر.

والمعنى في قوله: كنت سمعه وبصره، هو توفيق الله ﷻ لعبده في الأعمال التي يباشرها بهذه الأعضاء، وتيسير الأسباب التي يأخذ بها للوصول إلى محبة الله ورضاه، بأن يحفظ جوارحه عليه، ويعصمه من الوقوع فيما يكرهه له، من الإصغاء إلى اللهو بسمعه، ومن النظر إلى ما نهى الله ﷻ عنه ببصره، ومن البطش فيما لا يحل له بيده، ومن السعي إلى الباطل برجله، لأنه يحول بين المرء وقلبه تيسيرا لأسباب الطاعة.

لقد ضمن الله سبحانه لكل من عمل صالحا أن يحييه حياة طيبة، وهو سبحانه وتعالى لا يخلف وعده، وأي حياة أطيب من حياة اجتمعت فيها هموم العبد كلها وصارت هما واحدا في مرضاة الله ﷻ، فأقبل بقلبه على ربه، واجتمعت إرادته بقوة عزمه، فصار ذكر ربه والأنس بقربه منتهى حبه، وعلى متابعة شرعه تدور همومه وإرادته، وأفكاره ونيته، بل خطرات قلبه تتعلق بربه، فان سكت، سكت بالله، وإن نطق نطق بالله، وإن سمع فبه يسمع، وإن أبصر فبه يبصر، وبه يبطش، وبه يمشى، وبه يتحرك، وبه يسكن، وبه يحيى، وبه يموت، وبه يبعث.

ومن ثم فإن أسباب محبة الله محصورة في أمرين: الأول منهما أداء فرائضه والتقرب إليه بنوافله، وأخبر سبحانه أن أداء فرائضه أحب شيء مما تقرب إليه المتقربون. والثاني منهما النوافل، وأن المحب لا يزال يكثر من النوافل حتى يصير محبوبا لله، فإذا صار محبوبا لله، زاده الله ﷻ بفضله محبة أخرى فوق المحبة الأولى، فشغلت هذه المحبة قلبه عن الفكرة

والاهتمام بغير الله، وملكت عليه روحه، ولم يبق فيه سعة لغير محبة الله أبدا، فصار ذكر الله وطاعته مثله الأعلى، وحبه الأقوى، صار مالكا لزمام قلبه، مستوليا على روحه، ولا ريب أن هذا المحب إن سمع سمع لمحبوبه، وإن أبصر أبصر به، وإن بطش بطش به، وإن مشى مشى به .

والحديث خص بالذكر السمع والبصر واليد والرجل لأن هذه الآلات هي آلات الفعل، ومداخل الوعي، فالسمع والبصر يحركان في القلب الإرادة أو الكره، ويبعثان فيه الحب والبغض، فعند ذلك تتحرك اليدان والرجلان، فإذا كان سمع العبد بالله، وبصره محفوظا بحفظ الله وتوفيقه، كان محفوظا في حبه وبغضه، وحفَظه الله في بطشه ومشيه.

وتأمل قول النبي ﷺ: "كنت سمعه الذي يسمع به" تجد معية خاصة بين العبد وربه، مقتضاها كمال الطاعة والمراقبة، ومعية خاصة بين الرب وعبده مقتضاها الحفظ والمتابعة. معية التوفيق يمنحها لعبده من فوق عرشه، تتوافق فيها إرادة العبد مع اختيار الرب وتدبيره الشرعي، وكذلك مع تقدير الرب وتدبيره الكوني، وهذه المعية هي المعية الخاصة المذكورة في قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠)﴾ التوبة: ٤٠.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩)﴾ العنكبوت: ٦٩. وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا

﴿لَمُدۡرَكُونَ ٦١ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٦٢﴾ الشعراء: ٦١/٦٢.

ومتى كان العبد قائما بالله على حفظ التدبير الشرعي لا يخرج قيد أنملة عن قضائه الشرعي، وفقه الله بتدبيره الكوني، وعند ذلك هانت عليه المشاق، وانقلبت المخاوف في حقه أمانا، فبالله تهون الصعاب، ويصبح العسير سهلا والبعيد قريبا، وبالله ﷻ تزول الهموم والأحزان، ولا يبقى غم مع الإيمان، فلا هم ولا غم ولا حزن مع الله ﷻ.

ومن إكرام الله لعبده الصديق أن الله ﷻ قال في شأنه كما ورد في الحديث: (وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه، وما ترددتُ عن شيء أنا فاعله تردُّدي عن نفسِ المؤمن يكرَه الموتَ وأنا أكرَه مَساءته). لقد أكرم الله ﷻ عبده الصديق بإجابة الدعاء، فالمسلم الذي يوافق شرع الله موافقة تامة يكرمه الله بإجابة الدعاء.

وقد روى البخاري من حديث جابر بن سَمُرَةَ ؓ أنه قال: (شَكَا أَهْلُ الكُوفَةِ سَعْدًا إلى عُمَرَ ؓ فعزَلَهُ، واستعْمَلَ عليْهِمْ عمَّارًا، فَشَكَوْا حَتَّى ذكَرُوا أَنهُ لا يُحْسِنُ يُصَلي، فَأَرْسَلَ إليْهِ فَقَال: يَا أَبَا إسْحَاقَ، إن هَؤُلاءِ يَزْعُمُون أَنكَ لا تُحْسِنُ تُصَلي. قَال أَبُو إِسْحَاقَ: أَمَّا أَنا وَاللهِ فَإِني كُنتُ أُصَلي بِهِمْ صَلاَةَ رَسُول اللهِ ﷺ مَا أَخْرِمُ عَنهَا، أُصَلي صَلاَةَ العِشَاءِ، فَأَرْكُدُ فِي الأُولَيَيْن وَأُخِفُّ فِي الأُخْرَيَيْن. قَال: ذاك الظَّن بِكَ يا أَبَا إِسْحَاقَ. فَأَرْسَل مَعَهُ رَجُلا أَوْ رِجَالا إلى الكُوفَةِ، فَسَأَل عَنهُ أَهْلَ الكُوفَةِ، وَلَمْ يَدَعْ مَسْجِدًا إلا سَأَل عَنهُ، وَيُثْنون مَعْرُوفًا حَتَّى دَخَل مَسْجِدًا لِبَنِي عَبْسٍ، فَقَامَ رَجُل مِنهُمْ يُقَال لهُ أُسَامَةُ بْن قَتَادَةَ يُكْنَى أَبَا سَعْدَةَ قَال: أَمَّا إِذ نشَدْتَنا، فَإِن سَعْدًا كَان لا يَسِيرُ

بِالسَّرِيَّةِ، وَلا يَقْسِمُ بِالسَّوِيَّةِ، وَلا يَعْدِلُ فِي القَضِيَّةِ. قَالَ سَعْدٌ: أَمَا وَاللهِ لأَدْعُوَن بِثلاث: اللهُمَّ إن كَان عَبْدُكَ هَذا كَاذبًا، قَامَ رِيَاءً وَسُمْعَةً، فَأَطِل عُمْرَهُ، وَأَطِل فَقْرَهُ، وَعَرِّضْهُ بِالفِتَن. وَكَان بَعْدُ إذا سُئِل يَقُول: شَيْخٌ كَبِيرٌ مَفْتُون، أَصَابَتْنِي دَعْوَةُ سَعْدٍ. قَال عَبْدُ المَلِكِ: فَأَنا رَأَيْتُهُ بَعْدُ قَدْ سَقَطَ حَاجِبَاهُ عَلى عَيْنَيْهِ مِن الكِبَرِ، وَإِنهُ لَيَتَعَرَّضُ للجَوَارِي فِي الطُّرُق يَغْمِزُهُن[(١)].

وكان عمر بن الخطاب ﷺ قد أمَّر سعد بن أبي وقاص ﷺ على قتال الفرس في سنة أربع عشرة، ففتح الله العراق على يديه، ثم دخل الكوفة سنة سبع عشرة، واستمر عليها أميرا إلى سنة عشرين، أو إحدى وعشرين، فشكاه أهل الكوفةِ إلى عمرَ ﷺ، فعزَلَهُ، واستعمل عليهم عمار بن ياسر، استعمل عمارا على الصلاة، وابن مسعود على بيت المال وعثمان بن حنيف على مساحة الأرض[(٢)].

ثم قال في الحديث القدسي: "وما ترددتُ عن شيء أنا فاعله تردُّدي عن نفسِ المؤمن، يكرَه الموتَ وأنا أكرَه مَساءته"

كيف ينسب التردد إلى الله؟ والجواب أن التردد فعل من أفعال الله تعالى، وأفعاله سبحانه فيها الكمال والجمال، وتشهد لحكمته بالعظمة والجلال، فالتردد يكون كمالا في موضع ونقصا في آخر، فلو كان

---

(١) رواه البخاري في كتاب صفة الصلاة، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها في الحضر والسفر ١/٢٦٢ (٧٢٢).

(٢) انظر كتاب الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام ، باب أرض العنوة تقر في أيدي أهلها ١/٨٦ (١٧٢)، وكتاب الأموال لابن زنجويه ١/٢٣٠ .

التردد عن جهل وقلة علم وعدم إحكام للأمر، كان التردد نقصا وعيبا، وإن كان التردد لإظهار الفضل والمحبة في مقابل إنفاذ الأمر وتحقيق الحكمة كان التردد كمالا ولطفا وعظمة، وهو المقصود في الحديث. فالصديق هو من وافق بإرادته إرادة الله الشرعية واتفقت له إرادة الله الكونية .

أما الزنديق فهو الذي أثبت القدر محتجا به على الشرع، محاربا له به، نافيا عن العبد قدرته التي منحه الله إياها، ونفى أمره سبحانه ونهيه، فقد نفى الحكمة عن أفعال ربه، ونسب الظلم والعبث إليه كالجبرية. قيل لبعض هؤلاء الجبرية الزنادقة: أليس هو يقول الله: ﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴾ الزمر:٧؟ فقال: دعك من هذا الكلام. لقد رضي الكفر وأحبه وأراده، ومن أفسدنا غير الله؟ تعالى الله عن قوله علوا كبيرا [١]

ومر لص مقطوع اليد قد أقيم عليه الحد على جبري من هؤلاء الزنادقة فقال الجبري: مسكين مظلوم، أجبره على السرقة، ثم قطع يده عليها [٢]. ويعني هذا الزنديق الكاذب أن الله ﷻ أجبر هذا اللص على السرقة بقضائه وقدره، أو بمشيئته وإرادته الكونية، وهذا كذب صريح لأن هذا السارق مسئول عن فعله، وإقامة الحد إنما هو بقضاء الله وقدره أيضا، أو بمشيئة الله وإرادته الكونية، كما أنه لو سرق أحد ماله كما سرق هو مال غيره لطالب بقطع يده أيضا، فكلامهم في الاحتجاج

(١) طريق الهجرتين لابن القيم ص١٥٤.

(٢) السابق ص١٥٤.

بالقضاء والقدر والتسيير والجبر لا يخرج عن الزندقة .

وقيل لبعض هؤلاء الزنادقة: أترى الله كلف عباده ما لا يطيقون ثم يعذبهم عليه؟ قال: والله قد فعل ذلك، ولكن لا نجسر أن نتكلم(١).

وأراد رجل من هؤلاء الجبرية الزنادقة أن يسافر، فودع أهله وبكى، فقيل له: استودعهم الله، واستحفظهم إياه، فقال: أنا ما أخاف عليهم إلا منه (٢). تعالى الله عن قوله علوا كبيرا.

ويقصد هذا الزنديق الكاذب أنهم إن فسدوا أو ضاعوا، ففسادهم وضياعهم بقضاء الله وقدره، ونسي هذا الزنديق أن صلاحهم وحفظهم يكون أيضا بقضاء الله وقدره، وأن العبد هو المسئول عن فعله، قال الله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ الأنعام:١٤٩.

---

(١) السابق ص١٥٤، ومعارج القبول ٣/٩٤٨.

(٢) السابق ص١٥٤.

المطلب السادس عشر

القدر حجة عند المصائب لا عند المعائب والعلاقة بين فعل الرب وفعل العبد

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فقد تحدثنا في المطلب السابق عن الهداية الإلهية التي وردت في الأصول القرآنية، وبينا أنها من أنواع التدبير، فتارة تكون كونية وتارة تكون شرعية، وعلمنا الفرق بين هداية التوفيق التي تكون بالمعنى الكوني، وهداية الدلالة والإرشاد التي تكون بالمعنى الشرعي.

وقد بينا أن أساس الضلال الذي وقعت فيه القدرية المعتزلة أنهم لم يفرقوا بين الهداية الشرعية والهداية الكونية، ثم شرحنا ما جاء في المناظرة المتعلقة بالهداية والتي حدثت بين القاضي عبد الجبار المعتزلي وأبي إسحاق الاسفراييني.

وعلمنا أن الكتابة من أنواع تدبير الله في خلقه، وأنها تكون كونية وشرعية، وكذلك التحريم الإلهي يرد في القرآن على معنى التدبير الكوني والشرعي، وكذلك الجعل في القرآن نوعان، نوع كوني وآخر شرعي، والبعث الإلهي والإرسال والكلمات، كلها ترد على المعنى

الكوني أو الشرعي، كما بينا حقيقة مصطلح إسقاط التدبير بين اعتقاد الصديق أو الزنديق.

وفي هذا المطلب بإذن الله نتحدث عن العلاقة بين فعل الرب وفعل العبد وبيان أنواعها، وأن القدر الذي هو فعل الله ﷻ يكون حجة عند المصائب لا عند المعائب.

- **القدرية المشركية هم الذين جعلوا لله شركاء في عبادته.**

قسم شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية القدرية إلى ثلاثة أصناف، وجعل أول صنف منهم القدرية المشركية، وهم الذين اعترفوا بالقضاء والقدر، وزعموا أن ذلك يوافق الأوامر والنواهي التكليفية، وحجتهم أن الله تركهم يفعلون ذلك الشرك، ولو كان الشرك مكروها لله ﷻ لما تركهم، وأن كل ما شاءه الله ﷻ فقد أحبه وارتضاه لهم.

ولذلك وقالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَاۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ الأنعام:١٤٨.

وقال تعالى عن فساد حجتهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾ النحل:٣٥.

وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾ الزخرف:٢٠.

وأمر هؤلاء يؤول إلى تعطيل الشرائع والأوامر والنواهي التكليفية مع الاعتراف بالقضاء والقدر ومعاني الربوبية العامة لكل مخلوق، وأنه ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها، كما قال تعالى عن نبيه هود عليه السلام: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦)﴾ هود:٥٦.

ومذهب القدرية المشركين هو الذي وقع فيه كثير من الطوائف، إما اعتقادا، وإما سلوكا وحالا، كما فعل كثير من الصوفية والفقراء حتى خرج من خرج منهم إلى إباحة المحرمات، وإسقاط الواجبات، ورفع العقوبات، وإسقاط تدبير الله الشرعي، والخروج عن أحكام العبودية إلى فضاء الحرية كما زعم كثير من غلاة الصوفية [١].

وقد يغلوا بعض أصحاب هذا الطريق حتى يجعلوا عين الموجودات هي الله، ويتمسكون بأنهم سائرون على الإرادة الكونية القدرية في السيئات الواقعة منهم ومن غيرهم، بحجة أنهم مسيرون لا مخيرون.

كقول بعضهم:

أصبحت منفعلا لما يختاره

منى ففعلي كله طاعات [٢].

وقد يسمون هذا شهود الحقيقة باعتبار أن الكل من فعل الرب،

---

(١) انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية ٢/٤٥٧، ٤/٥٩، ٨/٢٥٦، ١١/٤٢١.

(٢) انظر شفاء العليل لابن القيم ص١٥، وطريق الهجرتين لابن القيم ص٥٢، وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص٢٨٦.

وأن هذه حقيقة الربوبية، أو الحقيقة الموجودة الكائنة في العالم[1].

ولما كان في هؤلاء خصلة من النصارى في زعمهم أن الله محبة، وأنه يحب العالم بما فيه من خير وشر، ولما كان النصارى أيضا فيهم أصول من الشرك، فإنهم تابعوا المشركين فيما كانوا عليه من التمسك بالقدر المخالف للشرع، كما ذكر الله ﷻ ذلك عنهم في قولهم ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ النحل:٣٥. هذا مع أنهم يعبدون غير الله الذي قدر أمور الكائنات.

والأكبر من ذلك في شأن القدرية المشركين وزندقتهم أنهم قالوا ما نعبد إلا الله، إذ لا موجود غيره، وهو مذهب وحدة الوجود القائلين لا موجود إلا الله، والشرك عندهم أن تعبد بعض الموجودات دون بعض. وقال رئيس لهم: إنما كفر النصارى لأنهم خصصوا، فعبدوا بعض الموجودات دون بعض، فيشرِّعون عبادة كل موجود بهذا الاعتبار الباطل، ويقررون ما كان عليه المشركون من عبادة الأوثان والأحجار على اعتبار أنهم عبدوا الموجود بحق، فلا فرق عندهم في الوجود بين الخالق والمخلوق، لكن عابوا على المشركين أنهم عبدوا بعض الأصنام والأوثان دون بعض، وخصصوا العبادة ببعض المظاهر والأعيان.

ومعلوم أن هذا حاصل في جميع المشركين، فإنهم متفننون في الآلهة التي يعبدونها وإن اشتركوا في الشرك، فهذا يعبد الشمس، وهذا يعبد القمر، وهذا يعبد اللات، وهذا يعبد العزى، وهذا يعبد مناة الثالثة

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٨/٢٥٧ بتصرف.

الأخرى، فكل منهم يتخذ إلهه هواه، ويعبد ما يستحسن أنه مبتغاه، وكذلك في عبادة قبور الصالحين، كل يتعلق بضريح من ظن به أنه غوث المستغيثين. فهؤلاء مشركون عند القائلين لا موجود إلا الله، وكل الوجود عندهم إله، لأنهم عبدوا بعض الأوثان وتركوا بعضها [١].

ومذهب وحدة الوجود هو بعينه مذهب القدرية المشركين الذي فلسفه محيي الدين بن عربي لغلاة الصوفية حتى قال شعرا:

عقد الخلائق في الإله عقائدا

وأنا اعتقدت جميع ما عقدوه [٢].

أو كقوله في الكشف عن فلسفته في وحدة الوجود:

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي

إذا لم يكن ديني إلى دينه داني

لقد صار قلبي قابلا كل صورة

فمرعى لغزلان ودير لرهبان

وبيت لأوثان وكعبة طائف

وألواح توراة ومصحف قرآن

أدين بدين الحب أني توجهت

ركائبه فالدين ديني وإيماني [٣].

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٨/٢٥٩ بتصرف.

(٢) فصوص الحكم لمحيي الدين بن عربي شرح عبد الرزاق الكاشاني ص١٥٤، مكتبة البابي الحلبي ١٩٦٦م.

(٣) ذخائر الأعلاق شرح ترجمان الأشواق، لابن عربي ص٣٩.

• القدرية المجوسية هم الذين جعلوا لله شركاء في خلقه .

أما النوع الثاني في تقسم شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية للقدرية فهم القدرية المجوسية، وهم الذين يجعلون لله شركاء في خلقه، كما جعلت القدرية الأولون لله ﷻ شركاء في عبادته، فيقولون: خالق الخير غير خالق الشر. ويقول من كان منهم في ملتنا كالمعتزلة: إن الذنوب الواقعة ليست واقعة بمشيئة الله تعالى، وربما قالوا: ولا يعلمها أيضا. ويقولون: أن جميع أفعال الحيوان واقع بغير قدرة الله ﷻ ولا صنعه، فيجحدون مشيئته النافذة وقدرته الشاملة.

ولهذا قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: (القدر نظام التوحيد، فمن وحد الله وآمن بالقدر تم توحيده، ومن وحد الله وكذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده) [١].

ويزعمون أن هذا هو العدل، ويضمون إلى ذلك سلب الصفات وتعطيلها ويسمونه التوحيد، كما يسمي القدرية المشركية إلحادهم توحيدا، فيلحد كل منهما في أسماء الله وصفاته، وهذا يقع كثيرا إما اعتقادا وإما حالا في كثير من الفقهاء والمتكلمين، كما وقع اعتقاد ذلك في المعتزلة والشيعة المتأخرين [٢].

وقد يبتلي به سلوكا وحالا لا اعتقادا بعض من يغلب عليه تعظيم

---

(١) رواه الآجري في الشريعة ٨٧٥/٢، والطبراني في المعجم الأوسط ٤٥/٤ (٣٥٧٣)، والفريابي في القدر ١٥٩/١، واللالكائي في شرح اعتقاد أهل السنة ٦٧٠/٤، وانظر الدر المنثور للسيوطي ٢٣/٢.

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٢٥٩/٨ بتصرف.

الأوامر والنواهي من غير ملاحظة للقضاء والقدر. ولما بين الطائفتين من التنافي طائفة القدرية المشركية، وطائفة القدرية المجوسية، تجد المعتزلة أبعد الناس عن الصوفية، ويميلون إلى اليهود، وينفرون عن النصارى، ويجعلون إثبات الصفات هو قول النصارى بالأقانيم، ولهذا تجدهم يذمون النصارى أكثر، كما يفعل الجاحظ وغيره، كما أن الأولين من القدرية المشركية يميلون إلى النصارى أكثر[١].

- **القدرية الإبليسية هم الذين عارضوا الشرع بالقدر.**

أما النوع الثالث فهم القدرية الإبليسية، وهم الذين صدقوا بأن الله ﷻ صدر عنه الأمران الكوني والشرعي، لكنهم يعتبرون هذا تناقضا، وهم خصماء الله يوم القيامة. وهؤلاء كثير في أهل الأقوال والأفعال من سفهاء الشعراء ونحوهم من الزنادقة كقول أبي العلاء المعري:

صَرْفُ الزّمانِ مُفَرِّقُ الإلْفَيْنِ
فاحكُمْ إلهي بين ذاك وبيني
أَنَهَيْتَ عن قتْل النُّفُوس تعمُّداً
وبَعَثْتَ أنتَ لقَبْضها مَلَكَيْنِ
وَزَعْمتَ أنّ لها مَعَاداً ثانياً
ما كان أغناها عن الحالَيْنِ[٢].

وقال هذا المعري:

---

(١) السابق ٨/٢٥٩ بتصرف.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي ١٨/٢٩، نشر مؤسسة الرسالة بيروت، والبداية والنهاية لابن كثير ١٢/٧٥، نشر مكتبة المعارف بيروت.

إذا كان لا يحظَى برزقِك عَاقِل
وترزق مجنونا وترزق أحمقا
فلا ذنب يا رب السماء على امرئ
رأى منك مالا يشتهي فتزندقا [١].

وقال أبو العلاء المعري:

وهيهات البرية في ضلال
وقد نظر اللبيب لما اعتراها
تقدم صاحب التوراة موسى
وأوقع في الخسار من افتراها
فقال رجاله وحي أتاه
وقال الناظرون بل افتراها
وما حجي إلى أحجار بيت
كؤوس الخمر تشرب في ذراها
إذا رجع الحليم إلى حجاه
تهاون بالمذاهب وازدراها [٢].

---

(١) معجم الأدباء لياقوت الحموي ٤٣١/١، والبداية والنهاية لابن كثير ٧٤/١٢، والآداب الشرعية لابن مفلح ١٨٤/٢، نشر مؤسسة الرسالة بيروت، وبغية الطلب في تاريخ حلب لكمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة ٨٨٩/٢.
(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٧٤/١٢، والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي ٢٥/١٦، نشر دار صادر بيروت.

وقول بعض السفهاء الزنادقة:

يَخْلُقُ نُجُومًا وَيَخْلُقُ بَيْنَهَا أَقْمَارًا
يَقُولُ يَا قَومُ غُضُّوا عَنْهُمْ الأَبْصَارَ
تَرْمِي النسْوان وَتَزْعَقُ مَعْشَرَ الْحُضَّارَ
أُطْفُوا الْحَرِيقَ وَبِيَدِك قَدْ رَمَيْتَ النَّارَ[1].

ومن ثم فإن القدرية الإبليسية هم الذين يقرون بوجود الأوامر والنواهي من الله ﷻ ويقرون مع ذلك بوجود القضاء والقدر منه، لكن يقولون: هذا فيه جهل وظلم، وهم يعتبرون هذا التناقض المزعوم بين الأوامر الشرعية جهلا وسفها من الشارع، ويعتبرون العقوبة الموضوعة على مخالفة الشرع كالحدود في الدنيا والعذاب في الآخرة ظلما.

وهذا حال إبليس فإنه قال: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ٣٩﴾ الحجر:٣٩. فأقر هذا الملعون بأن الله ﷻ أغواه، ثم جعل ذلك عنده داعيا يقتضي أن يُغوي هو ذرية آدم عليه السلام.

وإبليس هو أول من عادى الله، وطغى في خلقه وأمره، وعارض النص بالقياس، ولهذا يقول بعض السلف: أول من قاس إبليس، فإن الله أمره بالسجود لآدم، فاعترض على هذا الأمر بأني خير منه، وامتنع من السجود، فهو أول من عادى الله ﷻ، وهو الجاهل الظالم، الجاهل بما في أمر الله من الحكمة، الظالم باستكباره الذي جمع فيه بين بطر الحق

---

(١) مجموع فتاوى لابن تيمية ٨/٢٦٠ بتصرف.

وغمط الناس. ثم قوله لربه: "فبما أغويتني لأفعلن" جعل فعل الله الذي هو إغواؤه له حجة له، وداعيا إلى أن يٌغوى بني آدم، وهذا طعن منه في فعل الله وأمره، وزعم منه أن فعل الله قبيح، ومن ثم فإنه سوف يفعل القبيح أيضا، فقاس نفسه على ربه، ومثل نفسه بربه [1].

ولهذا كان مضاهيا للربوبية كما ثبت في صحيح مسلم حديث جابر بن عبد الله ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (إن إبليس يضَعُ عَرشَه عَلى الماءِ، ثم يبعَث سراياه، فأدناهم منه منزِلةً أَعْظَمهم فِتنةً، يجيءُ أَحدهم فَيقول: فَعَلت كَذَا وكَذَا، فيَقول: ما صَنَعْت شَيئًا قال: ثم يجيءُ أَحدهم فَيقول: ما تركْته حتى فَرَقت بينه وبين امرأته، قال: فيدنيه منه ويقول: نعْم أَنت) [2].

وروى أيضا من حديث جابر بن عبد الله ﷺ قال سمعْت النبي ﷺ يقول: (إن عَرشَ إبليس عَلى البحر، فَيبعَث سراياه، فَيفتنون الناس، فَأَعْظَمهم عِنده أَعْظَمهم فِتنةً) [3].

• شبهة إبليس التي يرددها حزبه من المخالفين في القدر.

شبهة إبليس التي يتناقلها أتباعه من الجبرية هي قوله: إن خالق الأشياء خلقني كما شاء، وأوجدني لما شاء، واستعملني فيما شاء، وقدر علي فيما شاء، فلم أطق أن أشاء إلا ما شاء، فما تجاوزت ما شاء، ولا فعلت

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٦/٢٤٠ بتصرف.
(٢) رواه مسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس وأن مع كل إنسان قرينا ٤/٢١٦٧ (٢٨١٣).
(٣) السابق ٤/٢١٦٧ (٢٨١٣).

غير ما شاء، ولو شاء لردني إلى ما شاء، وهداني لما شاء، أن أكون كما شاء، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ﴾ يونس:٩٩. يا هذا سبق لي قبل كون الأكوان: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٣٤﴾ البقرة:٣٤. فما برحت في الأزل كافرا ولم أزل، فإذا كانت كاف كفري سبقت كوني، فمن يكون على القضاء عوني؟ ومن يطيق من القدر صوني؟ وما حيلة من ناصيته في قبضة من قهر؟ وقلبه بيد القدر؟ وأمره راجع إلى القدم؟ وقد قضي الأمر وجف القلم؟ [١].

صحيح أن الله خالق الأشياء خلق الخلائق كما شاء، وأوجدها لما شاء، واستعملها فيما شاء، وقدر عليها ما شاء، لكن الزعم أن العاصي لم يطق أن يشاء إلا ما شاء، احتجاج على المعصية بالمشيئة، وإبطال للحكمة فالسارق والزاني والعاصي إن زعم أنه لا يستطيع ترك السرقة والزنا والفحشاء، لأنه لم يطق أن يشاء إلا ما شاء، فيقال له: وكذلك قطع يدك وجلدك ورجمك ومعاقبتك لا نطيق فيه أن نشاء إلا ما يشاء، ولا ملام على من سفك دملك، وهتك عرضك، لأنه لم يطق أن يشاء إلا ما يشاء. فزعم من كان من حزب إبليس من العصاة أنه ما تجاوز مشيئة الله حين عصاه، ولا فعل غير ما شاء لا يغني من معاقبته وخلوده في النار شيئا، لأن من اختار الطاعة ودخل بسببها الجنة سيقول أيضا في طاعته أنه ما تجاوز مشيئة الله حين اتبع هداه، ولا فعل غير ما شاءه الله. فالمشيئة عامة في الخلائق جميعا، مؤمنين وكافرين، موحدين ومشركين،

---

(١) رفع الشبهة والغرر عمن يحتج على فعل المعاصي بالقدر لمرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي ص٣٦، نشر دار حراء مكة المكرمة.

والله ﷻ لا يحاسبنا على مشيئته فينا، وإنما يحاسبنا على مشيئتنا في اختيار شرعه، وطاعته ومحبته وعبوديته فيما ابتلانا.

وزعْم إبليس الذي يردده أتباعه من حزب الشيطان أن الله لو شاء لرده عن العصيان إلى ما شاء، وهداه لما شاء، فيقال له: صحيح أن الله كتب المقادير وشاءها لأنه لا خالق غيره، ولا رب سواه، فهو الذي خلق الخلائق بمشيئته، ولا يكون شيء إلا بمشيئته، فكتب المقادير إظهارا لقدرته، لكنه أخفاها عن الجميع وابتلاهم بشرعه تحقيقا لعدله ولحكمته، فلو زعم عاص من أتباع إبليس أنه اطلع على ما في اللوح المحفوظ قبل نزول الأحكام التكليفية والشريعة النبوية التي بين الله فيها سبيل النجاة، وأنه علم ما سيؤول إليه قدره ونصيبه الذي قدره الله قبل وقوعه، لكان صادقا في احتجاجه على عصيانه، أما إذا كان كاذبا في ادعائه أنه اختار ما كتبه الله عليه قبل وقوعه، فهذا احتجاج باطل وادعاء كاذب لعلم الغيب، فمن أين علم أنه مشيئة الله ستكون في عصيانه؟ فهذا تطاول على القدر الذي هو سر الله في خلقه، كما أن اللوح المحفوظ الذي دون الله فيه مقادير الخلائق ليس مكشوفا لأحد يقرأ في صفحاته كما يقرأ كتابا أو صحيفة. بل كل ما قدره الله ﷻ أخفاه، وهدى الخلائق إلى ما أحبه لهم وارتضاه، وبين لهم سبيل الرشد والنجاة، فله سبحانه الحجة البالغة والسطوة الدامغة.

واحتجاج إبليس ومن سار على نهجه بأن الله لو شاء لجعله مؤمنا وأنه أصبح كافرا من أجل ما وقع عليه من قضائه وقدره؟ كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ﴾ يونس:٩٩. وقوله:

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾السجدة:١٣. وغير ذلك من النصوص التي تدل على سبق المقادير بالسعادة والشقاء. فهذه حجة باطلة لأن ما احتج به هؤلاء إنما هو احتجاج بعين عوراء، إذ نظروا إلى المشيئة والقدرة ومقتضى اسم الله القدير، وتعاموا في المقابل عن مقتضى العدل والحكمة الذي دل عليه اسم الله الحكيم. فلو نظروا إلى الآيات بمنهج العيون السليمة وعين البصيرة لأدركوا القدرة والحكمة معا، فالله ﷻ لما قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ﴾ يونس:٩٩. قال في ذات الآية: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ يونس:٩٩. فجعل الناس بمقتضى حكمته مخيرين في العمل بشرعه، واتباع نبيه ﷺ ولزوم سنته وهديه، حتى يحاسب كل إنسان على سعيه وكسبه، ولا يظلم أحدا من خلقه إن عذبه على عصيانه.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾السجدة:١٣. الذي احتجوا به على عصيانهم بأن الله لو شاء لهداهم فيما سبق به القضاء والقدر، اقتطعوا من النص ما يؤيد حجتهم، وأهملوا ما يدفعها ويبطلها فقال الله تعالى بعدها: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ السجدة:١٣. فزعْم إبليس أنه كان في الأزل كافرا، وأن كفره سبق كونه، ولذلك اختار أن يكون كافرا وألا يسجد لآدم، وأن ذلك أمر لا حيلة له فيه، وأنه يستغيث بمن يعينه على ربه وعلى قضائه وقدره الذي ظلمه فيه لما كتبه كافرا في اللوح المحفوظ الذي جف القلم به. كل ذلك معاندة ومكابرة وحجج باطلة، وقول على الله بلا علم، ورجم منهم بالغيب، فعلم الغيب سر القدر، وهذا

السر أخفاه الله ﷻ لتصح الحكمة، فلا يمكن لأحد أن يطلع على ما في اللوح لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، فالحال ليس كما قال أصحاب الشبه الإبليسية. فالله ﷻ كما كتب المقادير إظهارا لمشيئته وربوبيته وقدرته، وأخفاها عن الجميع وابتلاهم تحقيقا لعدله وحكمته وتوحيده في عبوديته، ولذلك خلق الخلائق جميعا فقال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨)﴾ الذاريات:٥٦/٥٨ .

• **كل شبهة وقعت لبنى آدم فإنما وقعت من إضلال الشيطان .**

ذكر ابن حزم الأندلسي رحمه الله أن كل شبهة وقعت لبنى آدم، فإنما وقعت من إضلال الشيطان الرجيم ووساوسه، ونشأت من شبهاته، وإن اختلفت العبارات وتباينت الطرق، فإنها بالنسبة إلى أنواع الضلالات كالبذور.

وكل من جادل نوحا وهودا وصالحا وإبراهيم ولوطا وشعيبا وموسى وعيسى ومحمدا صلوات الله عليهم أجمعين كلهم نسجوا على منوال اللعين الأول إبليس في إظهار شبهاته، وحاصلها يرجع إلى دفع التكليف والإرادة الشرعية عن أنفسهم، وإلقاء اللائمة على تقدير خالقهم، وجَحْد أصحاب الشرائع والتكاليف بأسرهم. إذ لا فرق بين قولهم ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٦)﴾ التغابن:٦ . وبين قول إبليس: ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١)﴾ الإسراء:٦١ .

وعن هذا كان أصل الخلاف، وأساس الافتراق بين أهل الحق وأهل

الباطل هو ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾ الإسراء:٩٤.

بين الله ﷻ أن المانع لهم من الإيمان هو هذا المعنى، كما قال إبليس صاحب الشبه الأولى لربه لما سأله عن عدم تنفيذه الأمر: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ الأعراف:١٢/١٣.

وقال المتأخر من ذرية الشيطان كما قال أبوهم المتقدم: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ الزخرف:٥٢.

وكذلك لو تعقبنا أقوال المتقدمين منهم وجدناها مطابقة لأقوال المتأخرين، كما قال رب العالمين: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ البقرة:١١٨.

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ يونس:٧٤.

ومن ثم فإن اللعين الأول إبليس لما حكم العقل على من لا يحكم عليه العقل، واستخدم قياس التمثيل على من ليس له مثيل، لزمه أن يجري حكم الخالق وأفعاله على المخلوق وأفعاله، أو يجري حكم المخلوق وأفعاله على الخالق وأفعاله، والقياس الأول غلو في المخلوق، والقياس الثاني تقصير في حق الخالق.

إن اعتقاد أهل الإيمان وأهل البصيرة في نصوص القرآن مبني على أن

القدر يحتج به عند المصائب لا عند المعائب، فأهل الإيمان يثبتون القضاء والقدر، وينسبون وجود جميع الكائنات إلى مشيئة ربها وإلى قدرة خالقها، وأن ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأن من لم يؤمن بالقدر فقد انسلخ من التوحيد، ولبس جلباب الشرك، ولم يؤمن بالله ﷻ، ولم يعرفه حق المعرفة، فالله ﷻ جعل للعبد إرادة واختيارا، وفعلا وقدرة واستطاعة، وابتلاه في الدنيا بين طريقين، وهداه إلى النجدين، إما إلى نجد الكفر والعصيان، وإما إلى نجد الطاعة والإيمان، وهو حر مختار بينهما كما قال رب العزة والجلال:

﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾ الكهف: ٢٩.

وقال تعالى: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ المدثر: ٣٥/٣٨. وقال: ﴿إِنَّ هَـٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾ المزمل: ١٩.

• الرد على قولهم المحبة نار تحرق ما سوى مراد المحبوب.

قال ابن القيم: (سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: عاتبت بعض شيوخ هؤلاء الجبرية، فقال لي: المحبة نار تحرق من القلب ما سوى مراد المحبوب، والكون كله مراد له، فأي شيء أُبْغِضُ منه، قال: فقلت له: إذا كان المحبوب قد أبغض بعض من في الكون، وعاداهم ولعنهم، فأحببتهم أنت وواليتهم، أكنت وليا للمحبوب أو عدوا له؟ قال: فكأنما

ألقم حجرا [1].

وقول هذا الجبري إن الكون كله مراد محبوب لله، هو بعينه قول النصارى: الله محبة، ومعلوم أن إطلاق محبة الله لخلقه وسائر عباده باطل، لأن محبة الله في خلقه لا تكون إلا شرعية دينية، فهي محبة خاصة مقيدة بالمؤمنين وحدهم دون الكافرين، ولا يصح إطلاقها في حق رب العالمين وليست عامة في الناس أجمعين، ولا ينال محبة الله أحد من الكافرين، ولا أحد من أعداء الدين.

ومن قال بغير ذلك فقد أبطل حكمة الله في خلقه، سواء في الدنيا أو في الآخرة، بل ناقض النقل والعقل والمنطق والواقع، فهل قولهم: الكون كله مراد محبوب لله، أو كما يقول النصارى: الله محبة، يعنى أن الله يحب الناس أجمعين؟ أم وجب على الناس أن يحبوا رب العالمين؟ فإن كان الثاني فنعم وجب على الناس أن يحبوا رب العالمين، وإن كان الأول فالله لا يحب إلا الصالحين المؤمنين، ويبغض المجرمين الكافرين، وهذا معلوم واقع في كل ملة أو دين، إذ فيه ولاء وبراء، وحب وعداء، وإلا صار دين المؤمنين هو دين القتلة والمجرمين، ولا فرق وقتها بين دين ودين، فالقول بأن الله محبة، بمعنى أنه يحب كل الناس قول باطل، ينقضه النقل والعقل والواقع.

ومن ثم فإن الذي يدل عليه العقل والمنطق ثبوت حب الله المقيد، وانتفاء الحب المطلق، ويصح أن ندعو لأعدائنا بالهداية إلى ما يحبه الله ويرضاه لأنهم قوم لا يعلمون، وتلك هي الأدعية الثابتة عن نبينا محمد

---

(١) طريق الهجرتين لابن القيم ص١٥٥.

ﷺ، لا أن نطالب أنفسنا بحب أعداء الله، وأن نمرغ أنوفنا ليلطموا وجوهنا إذلالا لهم تحت مسمى الله محبة، وأن من ضربك على خدك الأيمن فامنحه الأيسر، فهذا يناقض العقل والفطرة والعدل والحكمة .

وأصل الخطأ الذي وقع فيه من يدعى أن الله يحب المؤمنين أولياءه كمحبته للمجرمين أعداءه، وأنه يجب علينا أيضا أن نحب أعدائنا المجرمين كمحبتنا لإخواننا المؤمنين هو عدم تفريقه بين مشيئة الله وإرادته من جهة، وإرادة الله ومحبته من جهة أخرى، فمشيئة الله واقعة لا محالة، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، بل كل صغيرة وكبيرة في الكون إنما هي بمشيئة الله وقدرته، سواء أحبها الله أو أبغضها، وهو تدبير متعلق بربوبية الله لخلقه، وحكمه الجاري في ملكه، لا خروج لأحد عن تدبيره الكوني، ولا غالب لأمره القدري، فقد يحب فيه أهل الطاعة والإيمان بمشيئته، وقد يبغض فيه أهل الكفر والعصيان أيضا بمشيئته.

أما التدبير الذي أحبه الله لنا وارتضاه لرسله وأوليائه، فهو تدبير شرعي ديني تكليفي اختياري خاص بالتزام شريعة وهداية وبيان، وهو تدبير من الله لصالح الإنسان، تظهر من خلاله معاني الكفر والإيمان، ويتميز به أهل العصيان وأهل الإيمان، ويترتب عليه الثواب والعقاب، والعرض والحساب، والنعيم والعذاب،. وهذا التدبير هو الذي يفصل في معنى المحبة وأحكامها، والإنسان مخير فيه، يمكن أن يطيع الله أو يعصيه، ومخالفته لله فيه لا تعني أن العبد يخرج عن التدبير الكوني الحتمي الصارم، أو أن مشيئة العبد غلبت مشيئة الرب، سبحانه لا يفني ولا يبيد، ولا يكون في ملكه إلا ما يريد على الوجه الكوني .

ومن ثم فإن مشيئة الله كونية وإرادته الحتمية في خلقه كونية أيضا، أما إرادته من الإنسان فهي إرادة شرعية دينية وليست كونية، وهي التي أحبها الله لعباده، وأحب من أحبها، وأبغض من أبغضها، وعذب من خالفها، وأنعم على من وافقها، وعدم فهم ذلك يؤدي إلى الخلل في العقيدة، إما بغلو وتطرف، وإما بتهاون وتفريط، وكلاهما باطل.

وعلى ذلك فإن شعار الله محبة وأن الكون كله مراد لله محبوب، لا يصح إلا على معنى وجوب محبة الناس لربهم وخالقهم، ووجوب طاعة الله ومحبته، وليس على إطلاق محبة الله لخلقه التي تتناول العصاة، أو القتلة والزناة، أو المجرمين والطغاة، وسائر المفسدين في الأرض ممن أمهلهم الله ﷻ.

- **فعل العبد وعلاقته بفعل الرب عند الطاعة.**

ولمزيد من البيان نتناول الحديث عن العلاقة بين فعل العبد وفعل الرب كما وردت في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ، ويمكن حصر تلك العلاقة في أربعة أنواع، فالنوع الأول حالة طاعة العبد لربه، فالطاعة تتم بإرادة الله الكونية، وموافقة العبد لإرادة الله الشرعية، فتتوافق الإرادات، ويظهر توفيق الرب للعبد. والفعل هنا يُنسَب الفضل فيه إلى الله، فهو الذي وفق العبد إلى طاعته، وحقق له مراده بفضله ومنته، فالفضل لله وحده، وإن كان فعل الطاعة بإرادة العبد وكسبه، وسيجَازى عند ربه بسبب فعله، فالذين قالوا أسلمنا منة على نبيهم، رد الله الفضل في إسلامهم إلى منته فقال تعالى:

﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ١٧﴾ الحجرات:١٧

وقال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ النساء:٧٩. سواء كان حسنة بمعنى الابتلاء بالإرادة الكونية، أو حسنة لأنها إرادة الشرعية، فالفضل لله في طاعة عبده، ويجب على العبد أن ينسب الفضل إلى ربه، فهو الذي حبب إليه الإيمان وزينه في قلبه.

قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧﴾ الحجرات:٧.

وقال عن أهل الجنة: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٤٣﴾ الأعراف:٤٣. فالباء سببية وليست للعوض والمقابلة.

وروى البخاري من حديث أبي سلمة بن عبد الرحمن عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: (سَدِّدوا وقاربوا وأبشروا، فإنه لا يدخل أحداً الجنةَ عمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدَني الله بمغفرة ورحمة)(١).

وعند مسلم من حديث أَبِي هُريرةَ رضي الله عنه أن رسُول اللهِ ﷺ قال:

---

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل ٥/٢٣٧٣ (٦١٠٢)، ومسلم في كتاب القيامة والجنة والنار، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى ٤/٢١٧١ (٢٨١٨).

(قَاربُوا وَسَدِّدُوا، وَاعلمُوا أَنهُ لن ينجُوَ أَحدٌ مِنكُمْ بِعمَلهِ، قَالوا: يا رسُول اللهِ وَلاَ أَنتَ؟ قَال: وَلاَ أَنا، إِلاَّ أَن يتَغَمَّدَني اللهُ بِرحمَةٍ مِنهُ وَفَضْل) [1].

ودلالة الحديث واضحة في دخول الجنة بسبب العمل، لكن العمل لا يقابل الجزاء، فالجنة منحة من الله ﷻ لأهل التقوى، منحهم أياها بفضله، كما أنه أيضا وفقهم في الدنيا إلى الإيمان والتقوى بفضله، فهم يعلمون أنه لا حول ولا قوة لهم إلا بمعونة ربهم، والعبد لا ينتقل ولا يحول من حال إلى حال إلا بالله، ولا قوة للإنسان على فعل شيء من الطاعة إلا بالله، فلا حول ولا قوة إلا بالله كلمة عظيمة، وكنز من كنوز الجنة.

كما ثبت عند البخاري من حديث أبي موسى ﵁ أنه قال: (كنا مع النبي ﷺ في سفَر، فكنا إذا علونا كبَّرنا، فقال النبي ﷺ: أيها الناس، اربَعوا على أنفُسِكم، فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً، ولكن تدعون سميعاً بصيراً. قال أبو موسى ﵁: ثمَّ أتى علي وأنا أقول في نفسي: لا حول ولا قوة إلا بالله، فقال: يا عبد الله بن قيس، قل لا حول ولا قوةَ إلا بالله، فإنها كنزٌ مِن كنوز الجنة، أو قال: ألا أدلك على كلمةٍ هي كنز من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلاّ بالله) [2] .

وجميع النصوص القرآنية تدل على أن الله ﷻ ينسب الفضل في وقوع

---

(١) رواه مسلم في كتاب القيامة والجنة والنار، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى ٤/٢١٧٠ (٢٨١٦).

(٢) رواه البخاري في لدعوات، باب الدعاء إذا علا عقبة ٥/٢٣٤٦ (٦٠٢١).

الطاعة إلى نفسه، ويمنح الأجر فيها لعبده حتى لا يتعالى بقوته دون ربه، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ الأنفال:١٧.

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ التوبة:٢٥/٢٦.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ آل عمران:١٢٣ .

وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾ آل عمران:١٢٦.

وقال تعالى: ﴿سَابِقُوٓا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ الحديد:٢١ .

وقال تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ الحديد:٢٩.

وقال تعالى: ﴿فَٱنقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا رِضْوَٰنَ

ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ آل عمران:١٧٤ .

وهذا منطق الموحدين أجمعين إذ ينسبون الفضل في طاعتهم وإيمانهم إلى رب العالمين: ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٌ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ ﴿٤٠﴾ النمل:٤٠ .

- **فعل العبد وعلاقته بفعل الرب عند المعصية.**

النوع الثاني من موقف العبد تجاه قدرة الرب وفعله، أو النوع الثاني من العلاقة بين فعل العبد وفعل الرب المعصية، والمعصية ينسب فيها الفعل إلى كسب العبد، وإن تم الفعل بقدرة الرب ومشيئته، قال تعالى عن الطاعة: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ النساء:٧٩ .

وقال في المقابل عن المعصية: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴿٧٩﴾ النساء:٧٩. فالمعصية لا يصح أن ينسبها العبد إلى الرب، فهذا فعل المشركين الذين قال الله فيهم: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ الأنعام:١٤٨.

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٣٥﴾ النحل:٣٥.

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ ﴾ يس:٤٧.

وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ الزخرف:٢٠.

هؤلاء المحتجون بالقدر على سقوط الأمر والنهي من جنس المشركين المكذبين للرسل، وهؤلاء حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد، فنسب الله المعصية إليهم وقال سبحانه: ﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ ﴾ النساء:٦٢. وقال تعالى: ﴿ ۞ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ ﴾ النساء:٨٨.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ النساء:١٠٥. وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ ﴾ النساء:٩٣.

وقد قال الله حال الطاعة: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾ الأنفال:١٧. فنسب القتل إليه عند الطاعة ونسبه إليهم عند المعصية، قال الله تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ

ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ ﴾ النساء:١٥٥. وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ الشورى:٣٠.

وهنا يأتي معنى الإضلال، لأن الإضلال من الشرود وعدم الاتفاق، ولأن إرادة العبد خالفت إرادة الله الشرعية، وإن وقعت عليه الإرادة الكونية، فباعتبار مخالفته للإرادة الشرعية نقول: ضل، وننسب المعصية إليه، وباعتبار وقوع الإرادة الكونية الحتمية نقول أضله الله: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ القصص:٥٠.

وقال تعالى: ﴿ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ الروم:٢٩.

وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ سبأ:٥٠. وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ يس:٦٢.

والمعصية وإن كانت بقدر الله إلا أنه لا يجوز للعاصي أن يحتج فيها بالقدر، وأنه مسير مجبور على العصيان فهذا فعل الزنادقة. وصاحب هذا الاعتقاد الفاسد لا يكون إلا ظالما متناقضا، إذا آذاه غيره أو ظلمه طلب معاقبته، والمبالغة في جزائه والانتقام منه، ولم يعذره بالقدر وأنه مسير مجبور، وإذا كان هو الظالم لغيره احتج هو لنفسه بالقدر وادعى أنه مسير مجبور، فلا يحتج أحد بالقدر على معصيته إلا لاتباع الهوى، وحجته

باطلة داحضة فاسدة لا حق معه ولا دليل، ولذلك لما احتج المشركون بالقدر على شركهم بين الله كذبهم وقال لهم: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ الأنعام:١٤٨ .

ولهذا كان هؤلاء المشركون المحتجون بالقدر إذا عاداهم أحد قابلوه وقاتلوه وعاقبوه وانتقموا منه ولم يقبلوا حجته إذا قال لهم: لو شاء الله ما عاديتكم. بل هم دائما يعيبون من ظَلَمَهم واعتدى عليهم ولا يقبلون احتجاجه بالقدر أبدا، فلما جاءهم الحق من ربهم أخذوا يدافعون ذلك بالقدر، ويقولون نحن مسيرون في شركنا وذنوبنا، وقد رضي الله الشرك لنا، فصاروا يحتجون على ترك الشرع بما لا يقبلونه على أنفسهم.

وهؤلاء يعلمون أنهم لو اعتدوا على محارم أمير أو وزير، لأصابهم عقابه الشديد، فامتثلوا خوفا على أنفسهم من الوعيد، الذي يتوعدهم به مخلوق، ولم يمتثلوا خوفا من ملك الملوك، فانتهكوا محارم الله، وتركوا ما فرضه عليهم في هذه الحياة، فبئست العقيدة التي يكون فيها أمر المخلوق ونهيه أعظم عندهم من أمر الله عز وجل ونهيه.

وبلغ بعض هؤلاء الجبرية أن عليا لما أمر بقتل الخوارج يوم النهروان قال للقتلى: بؤسا لكم لقد ضركم من غركم، فقيل له: من غرهم؟ فقال: الشيطان والنفس الأمارة بالسوء والأماني، فقال هذا القائل الجبري: كان عليٌّ قدريا، وإلا فالله غرهم، وفعل بهم ما فعل، وأوردهم تلك الموارد (١) .

(١) طريق الهجرتين لابن القيم ص١٥٣ ، وأورد الطبري قول علي رضي الله عنه في تاريخ الرسل والملوك ٣/١٢٣، وابن الأثير في الكامل في التاريخ ٣/ ٢٢٣.

واجتمع جماعة من هؤلاء الجبرية يوما فتذاكروا القدر فجرى ذكر الهدهد وقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ النمل:٢٤/٢٥. فقال كان الهدهد قدريا أضاف العمل إليهم والتزيين إلى الشيطان، وجميع ذلك فعل الله[(١)].

• فعل العبد وعلاقته بفعل الرب عند المصيبة.

النوع الثالث في موقف العبد تجاه فعل الرب المصيبة، وهي التي وقعت بقدر الله ﷻ كعلة لابتلاء العبد في موافقته للإرادة الشرعية. قال الله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ التغابن:١١

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في هذه الآية: (هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم)[(٢)]. فالسعيد يستغفر من المعائب، ويصبر على المصائب، والشقي يجزع عند المصائب، ويحتج بالقدر على المعائب.

قال الله جل جلاله: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾ الروم:٦٠. وقال: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ ﴿٥٥﴾﴾ غافر:٥٥.

---

(١) طريق الهجرتين ص١٥٣، ومعارج القبول ٩٤٨/٣.

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٦٦/٤ (٦٩٢٥)، وانظر مجموع الفتاوى لابن تيمية ٢٣٠/٧، ورفع الشبهة والغرر عمن يحتج على فعل المعاصي بالقدر لمرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي ص٣٠.

• فعل العبد وفعل الرب عند المعصية التي تاب منها.

النوع الرابع: المعصية التي تاب العبد منها كما حدث في احتجاج آدم وموسى عليهما السلام، فقد روى البخاري من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (احتجَ آدمُ وموسى، فقال له موسى: يا آدمُ أنتَ أبونا، خيبتنا وأخرجتَنا من الجنة قال له آدمُ: يا موسى اصطفاكَ اللهُ بكلامه وخطَّ لكَ بيده، أتلومني على أمر قدَّرهُ الله علي قبل أن يخلقَني بأربعين سنة؟ فحجَّ آدمُ موسى، فحجَّ آدمُ موسى، ثلاثاً) (١).

وفي لفظ آخر: (احتج آدم وموسى عند ربهما، فحج آدم موسى فقال موسى: أنت آدم الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، واسجد لك ملائكته، وأسكنك في جنته، ثم أهبطت الناس بخطيئتك إلى الأرض، قال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء وقربك نجيا؟ فبكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق؟ قال موسى: بأربعين عاما. قال آدم: هل وجدت فيها: وعصى آدم ربه فغوى؟ قال: نعم. قال: أفتلومني على أن عملت عملا كتبه الله على أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟ قال رسول الله ﷺ: فحج آدم موسى) (٢).

وربما يقول قائل: كيف صح لآدم عليه السلام أن يحتج بالقدر على معصيته؟ وكيف لامه موسى عليه السلام بعد توبته؟ وجواب ذلك أن موسى

---

(١) رواه البخاري في القدر، باب تحاج آدم وموسى عند الله ٦/٢٤٣٩ (٦٢٤٠)، ومسلم في القدر، باب حجاج آدم وموسى ٤/٢٠٤٢ (٢٦٥٢).

(٢) رواه مسلم في القدر، باب حجاج آدم وموسى ٤/٢٠٤٣ (٢٦٥٢).

أعرف بالله وأسمائه وصفاته من أن يلوم آدم على ذنب قد تاب منه، كما أن الله ﷻ بعد توبته اجتباه وهداه واصطفاه، كما أن آدم عليه السلام أعرف بربه من أن يحتج بقضائه وقدره على معصيته، بل إنما لام موسى آدم على المعصية التي نالت الذرية بخروجهم من الجنة ونزولهم إلى دار الابتلاء والمحنة بسبب خطيئة أبيهم، فذكر الخطيئة تنبيها على سبب المصيبة والمحنة التي نالت الذرية، ولهذا قال له: أخرجتنا ونفسك من الجنة، وفي لفظ: خيبتنا، فاحتج آدم بالقدر على المصيبة، وقال: إن هذه المصيبة التي نالت الذرية بسبب خطيئتي كانت مكتوبة بقدره قبل خلقي، والقدر يحتج به في المصائب دون المعائب، أي أتلومني على مصيبة قدرت علي وعليكم قبل خلقي بكذا وكذا سنة (١) .

سِئِل أَبو العباس ابن تيمية عن الخير والشَّر؛ والقدر الكوني؛ والأَمر والنهي الشَّرعي، فأَجاب: الحمد لله. اعلم أَن الله خالق كل شَيءٍ وربه ومليكه، لا رب غيره ولا خالق سواه؛ ما شَاءَ كان، وما لم يشَأْ لم يكن؛ وهو على كل شَيءٍ قدير؛ وبكل شَيءٍ عليم؛ والعبد مأْمور بطَاعة الله؛ وطَاعة رسوله؛ منهي عن معصية الله؛ ومعصية رسوله؛ فإِن أَطَاع كان ذلك نعمة من الله أَنعم بها عليه؛ وكان له الأَجر والثَّواب بفضْل الله ورحمته، وإِن عصى كان مستحقا للذم والعقاب؛ وكان لله عليه الحجة البالغة؛ ولا حجة لأَحد على الله.

وكل ذلك كائِن بقضَاءِ الله وقدره، ومشِيئَته وقدرته؛ لكنه يحب الطَّاعة ويأْمر بها؛ ويثِيب أَهلها عليها ويكرمهم؛ ويبغضُ المعصية وينهى

---

(١) شفاء العليل لابن القيم ص١٨ بتصرف.

عنها؛ ويعاقب أَهلها عليها ويهينهم، وما يصيب العبد من النعم فإِن الله أَنعم بها عليه؛ وما يصيبه من الشَّر فبذنوبه ومعاصيه.

كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠﴾ الشورى:٣٠. وقال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾ النساء:٧٩. أَي ما أَصابك من خصب ونصر وهدى فالله ﷻ أَنعم بها عليك؛ وما أَصابك من جدب وذل وشَر، فبذنوبك وخطَاياك؛ وكل الأَشياءِ كائِنة بمشِيئَته وقدرته وخلقه، فلابد أَن يؤْمن العبد بقضَاءِ الله وقدره؛ وأَن يؤْمن بشرَع الله وأَمره. فمن نظر إِلى الحقيقة القدرية وأَعرضَ عن الأَمر والنهي والوعد والوعيد كان مشَابها للمشْركين؛ ومن نظر إِلى الأَمر والنهي وكذب بالقضَاءِ والقدر كان مشَابها للمجوسيين، ومن آمن بهذا وهذا، وإِذا أَحسن حمد الله؛ وإِذا أَساءَ استغفر الله؛ وعلم أَن ذلك كله بقضَاءِ الله وقدره فهو من المؤْمنين. فإِن آدم عليه السلام لما أَذنب تاب فاجتباه ربه وهداه، وإِبليس أَصر واستكبر واحتج بالقدر فلعنه وأَقصاه، فمن تاب كان آدميا، ومن أَصر واحتج بالقدر كان إِبليسيا، فالسعداءُ يتبعون أَباهم آدم، والأَشْقياءُ يتبعون عدوهم إِبليس. فنسأَل الله العظيم أَن يهدينا الصراطَ المستقيم، صراطَ الذين أَنعم عليهم من النبيين والصديقين، والشُّهداءِ والصالحين[١].

وقال الشَّيخ رحمه الله: حديثُ علي رضي الله عنه المخرج في الصحيح لما طَرَقه النبي ﷺ وفاطِمة، وهما نائِمان، فقال: أَلا تصليان؟ فقال علي: يا

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٢٤٢/٨ بتصرف.

رسول الله، إنما أَنفسنا بيد الله، إن شَاءَ أَن يمسكها، وإِن شَاءَ أَن يرسلها؛ فولى النبي ﷺ وهو يضْرب بيده على فخذه، وهو يقول: وكان الإِنسان أَكثَر شَيءٍ جدلا) [١] .

هذا الحديثُ نص في ذم من عارضَ الأَمر بالقدر، فإِن قوله: إنما أَنفسنا بيد الله.. إلى آخره. استناد إلى القدر في ترك امتثَال الأمر، وهي في نفسها كلمة حق، لكن لا تصلح لمعارضَة الأمر، بل معارضَة الأمر فيها من باب الجدل المذموم الذي قال الله فيه: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا ۝٥٤﴾الكهف:٥٤. وهؤُلاءِ أَحد أَقسام القدرية، وقد وصفهم الله في غير هذا الموضِع بالمجادلة الباطِلة [٢].

وقال الشيخ تقي الدين بن تيمية: ومن احتج بالقدر على المعاصي فحجته داحضَة، ومن اعتذر به فعذره غير مقبول، بل هؤُلاءِ الضَّالونكما قال فيهم بعضُ العلماءِ: أَنت عند الطَّاعة قدري، وعند المعصية جبري، أَي مذهب وافق هواك تمذهبت به. فإِن هؤُلاءِ إذا ظلمهم ظالم، بل لو فعل الإِنسان ما يكرهونه، وإِن كان حقا لم يعذروه بالقدر، بل يقابلوه بالحق والباطِل، فإِن كان القدر حجة لهم فهو حجة لهؤُلاءِ، وإِن لم يكن حجة لهؤُلاءِ لم يكن حجة لهم؛ وإِنما يحتج أَحدهم بالقدر عند هواه ومعصية مولاه، لا عند ما يؤْذيه الناس

---

(١) رواه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قوله تعالى ﴿وكان الإنسان أكثر شيء جدلا﴾ ٦/٢٦٧٤ (٦٩١٥)، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب ما روى فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح ١/٥٣٧ (٧٧٥).

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٨/٢٤٤ بتصرف.

ويظلمونه. وأَما المؤْمن فهو بالعكس في ذلك، إذا آذاه الناس نظر إلى القدر، فصبر واحتسب، وإِذا أَساءَ هو تاب واستغفر، كما قال تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴿٥٥﴾ ﴾غافر:٥٥. فالمؤْمن يصبر على المصائِب، ويستغفر من الذنوب والمعايب، والمنافق بالعكس لا يستغفر من ذنبه، بل يحتج بالقدر، ولا يصبر على ما أَصابه، فلهذا يكون شَقيا في الدنيا والآخرة؛ والمؤْمن سعيدا في الدنيا والآخرة [1].

---

(١) السابق ٨/٢٤١.

المطلب السابع عشر

شرح المنظومة التائية في القضاء والقدر
لشيخ الإسلام ابن تيمية

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فقد تحدثنا في المطلب السابق عن أنواع القدرية، وبينا أنهم ثلاثة أنواع: القدرية المشركية، وهم الذين جعلوا لله ﷻ شركاء في عبادته، وزعموا أن كل أفعالهم محبوبة لله. والقدرية المجوسية، وهم الذين جعلوا لله شركاء في خلقه، ونسبوا خلق الشر في العالم إلى غيره. ثم القدرية الإبليسية، وهم الذين عارضوا الشرع بالقدر.

وعلمنا وجوه الرد على شبهة إبليس التي يرددها حزبه من المخالفين لاعتقاد أهل السنة في القدر، وأن كل شبهة وقعت لبنى آدم فإنما وقعت من إضلال الشيطان وشبهه، كما بينا وجه الرد على قول بعض الجبرية: المحبة نار تحرق من القلب ما سوى مراد المحبوب، ثم تحدثنا عن فعل العبد وعلاقته بفعل الرب عند الطاعة، ثم عند المعصية، ثم عند المصيبة، ثم عند المعصية التي تاب منها.

وقد تحدثنا أيضا في المطالب السابقة عن معاني القدرة التي دل عليها اسم الله القدير، وأنه سبحانه انفرد بالقدرة والتقدير، فهو الذي قدر

مقادير الخلائق، ثم كتبها في اللوح المحفوظ، ثم شاء كونها في وقت معلوم، ثم أظهرها في الوجود بخلقه وقدرته، وفق ما سبق في تقديره، فكل شيء بقضاء وقدر.

وعلمنا أيضا أن حكمة الله ﷻ اقتضت ترتيب وجود المقادير بين العموم والخصوص في أنواع التقدير، فهناك نوع أزلي شمولي لا يقبل المحو والتغير، ونوع ميثاقي أخص يتعلق بالإنسان وتحديد المصير، لا يقبل أيضا المحو والتغير، وكلاهما سر الله في خلقه، وقضاؤه المبرم في كل ما سيحدث في كونه. وهناك أيضا نوع عمري، وآخر سنوي، ثم نوع يومي يقبل كل منها المحو والتغير، ثم تحدثنا عن أنواع التدبير، وبينا الفرق بين مشيئة الله وإرادته من جهة، والفرق بين إرادته ومحبته من جهة أخرى .

وفي هذا المطلب نتناول بإذن الله ﷻ شرح المنظومة التائية لشيخ الإسلام ابن تيمية كتطبيقات عملية لفهم توحيد الربوبية وقضية الإيمان بالقضاء والقدر، فقد اشتملت التائية على معان دقيقة، وأبعاد عميقة في بيان عقيدة أهل السنة والجماعة، والرد على المخالفين لهم، بحيث يمكن القول إن فهمها وإدراكها يعد شفاءً للعليل ومنة من القدير سبحانه في فهم توحيد الربوبية وقضايا الإيمان بالقضاء والقدر والحكمة والتعليل والتدبير، وتلك نعمة يمن الله بها على من شاء من عباده.

ولذلك تناول هذا المطلب شرح المنظومة التائية كتدريبات علمية عملية يقيس من خلالها طلاب العلم مقدار استيعابهم لما تقدم من الموضوعات في المطالب السابقة. وننصح طلاب العلم الدارسين لدورة

منة القدير بحفظها وفهمها وتدريسها، لما لها من أهمية كبيرة في العمل بشرع الله والإيمان بقضائه وقدره.

- **تعريف بالمنظومة التائية في القضاء والقدر.**

من المرجح عند كثيرين من المؤرخين أن أصل المنظومة التائية التي نحن بصددها أن شيخ الشيعة في دمشق محمد بن أبي بكر بن أبي القاسم الهمذاني ثم الدمشقي السكاكيني (ت:٧٢١هـ) الذي كان معتزليا قدريا متشيعا، وضع سؤالا في الاحتجاج بالقدر على المعاصي إحراجا لأهل السنة وانتصار لمذهب القدرية، وصاغ السؤال على لسان يهودي من أهل الذمة، ليكتم اسمه واعتقاده عن العامة، إذ كانوا يظنون فيه الصلاح، ثم أرسله إلى شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية وهو في مجلسه مع طلابه [(١)].

قال الإمام الذهبي في ترجمة السكاكيني: (كان حلو المجالسة ذكيا عالما فيه اعتزال، وينطوي على دين وإسلام وتعبد، سمعنا منه، وكان صديقا لأبي، وكان ينكر الجبر، ويناظر على القدر، ويقال إنه رجع في آخر عمره، ونسخ صحيح البخاري، ووجد بعد موته بمدة، سنة٧٥٠هـ بخط يشبه خطه كتاب يسمى "الطرائف في معرفة الطوائف" يتضمن الطعن على دين الإسلام، وأورد فيه أحاديث

---

(١) انظر بتصرف العبر في خبر من غبر ٢٨٣/١، والبدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للشوكاني ٧١/١، نشر دار المعرفة، بيروت، والدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر ١٨٢/١ نشر مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد الهند، ومجموع الفتاوى لابن تيمية ٢٤٥/٨.

مشكلة، وتكلم على متونها بكلام عارف بما يقول، إلا أن وَضْع الكتاب يدل على زندقة فيه، وقال في آخره: وكتبه مصنفه عبد الحميد بن داود المصري، وهذا الاسم لا وجود له، وشهد جماعة من أهل دمشق أنه خطه، فأخذه تقي الدين السبكي عنده، وقطعه في الليل، وغسله بالماء، ونسب إليه عماد الدين ابن كثير الأبيات التي أولها: يا معشر الإسلام ذمي دينكم .. تحير دلوه بأوضح حجة. الأبيات. ومات هذا السكاكيني في صفر سنة ٧٢١هـ)[١].

ولا يستبعد أيضا أن السؤال وضعه بالفعل ذمي يهودي أو نصراني، فهم ما فتئوا يسعون بالفتنة والوقيعة بين المسلمين، مستغلين مخالفة المنحرفين في الاعتقادات والمبتدعين منهم في العبادات، كشبهات الشيعة والقدرية، والخوارج وغلاة الصوفية، والتي يرددها قساوسة النصارى الآن في القنوات الفضائية النصرانية.

ولما وصل السؤال إلى شيخ الإسلام ابن تيمية أجاب نظما لا نثرا، وجعل يكتب ارتجالا وهو بين طلابه، وهم يعتقدون أنه يكتب نثرا، وإذا هو يكتب المنظومة التائية الشهيرة، حتى إذا فرغ منها في وقت قصير جدا قرئت على الحاضرين.

- **شرح سؤال الذمي في احتجاجه بالقدر على فعل المعاصي.**

الذمي هو اليهودي أو النصراني الذي أُعْطِي الأمان هو وأهل بيته لكي يعيش بين المسلمين في حمايتهم، ويبقى على دينه بشرط أن يدفع

(١) نقل ابن حجر هذا القول عن الذهبي في الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ٥/١٤٩، وانظر طبقات الشافعية الكبرى ١٠/٣٥٢.

جزاء ذلك قدرا من المال، يتعهد بأدائه إلى بيت مال المسلمين. ولما كان الأمان لأهل الذمة مشروطا على الجزية التي يؤدونها، سمي الواحد منهم معاهدا أو ذميا، وهما في المدلول سيان، إلا أن أحدهما عهده إلى مدة، وعهد الآخر بلا مدة [١].

١- أَيَا عُلمَـــاءَ الدِّينِ، ذِمِّيٌّ دِينِكُمْ
تَحَـــيَّرَ دُلوهُ بِأَوْضَـــحِ حُجَّـــةٍ

يناشد هذا الذمي علماء المسلمين أن يدلوه على ما يخرجه من حيرته بحجة صحيحة، وأدلة واضحة صريحة، حيث تحير في عقيدة أهل السنة والجماعة، وقيامها على ضرورة الإيمان بالقضاء والقدر، وأن كل شيء قد قدره الله ﷻ في اللوح المحفوظ قبل أن يخلقه، سواء كان خيرا أو شرا، حلوا أو مرا، وأن الله كتب مقادير المؤمنين والكافرين، وقدر كفرهم وإيمانهم وسائر ما سيقع من الخلائق أجمعين قبل خلقهم وخلق أفعالهم، مما جعله متحيرا تائها في ذلك الأمر.

٢- إذَا مَا قَضَى رَبِّي بِكُفْرِي بِزَعْمِكُمْ
وَلَمْ يَرْضَهُ مِنِّي، فَمَا وَجْهُ حِيلَتِي؟

زعم هذا الذمي أن الله ﷻ قضى بكفره، وهذا كذب، لأن القضاء

---

(١) انظر كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي ١٠٢/١، نشر دار الهلال، وتهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري ٩٩/١، نشر دار إحياء التراث العربي بيروت، والزاهر في غريب ألفاظ الشافعي لأبي منصور الأزهري الهروي ص٣٥٧، نشر وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية الكويت، وتاج العروس لمحمد مرتضى الحسيني الزبيدي ٢٠٦/٣٢، نشر دار الهداية.

الكوني المكتوب في اللوح المحفوظ سر الله ﷻ في خلقه، فكيف اطلع على ما في اللوح ليعلم أن الله ﷻ قضى بكفره وأنه سيموت كافرا؟ ولِم لَم يفترض أن القضاء الكوني قضى أيضا بإيمانه وأن الله ﷻ كتب في اللوح أنه سيدخل الجنة لو آمن هذا الذمي أو أي قسيس نصراني وأسلم، واختار أن يكون مسلما موحدا بدلا من إصراره على شركه وتثليثه، فكلامه ما هو إلا مجرد معاندة للحق ومجاهرة بالإفك والشرك، فالقضاء الكوني لا يطلع عليه ملك مقرب ولا نبي مرسل، ولم يجعل الله ﷻ في الدنيا غير الأخذ بالأسباب المؤدية للجنة لمن أراد سبيل النجاة، أو الأخذ بأسباب الهلاك المؤدية للنار وعصيان الله ﷻ.

ومن ثم فإن هذا الكلام الذي قاله كذب ظاهر. كما أن القضاء إما أن يكون قضاء كونيا حتميا واقعا، وهو المكتوب في اللوح المحفوظ، والذي لا يعلم عنه أحد شيئا إلا الله ﷻ. وإما أن يكون قضاء شرعيا تكليفيا دينيا فيه ما يحبه الله لنا ويرضاه، فبالقضاء الكوني ظهرت ربوبية الله وقدرته، وبالقضاء الشرعي ظهرت عبودية الله وحكمته، فلا بد من العمل بشرع الله واتباع القضاء الشرعي، والإيمان بقدر الله والرضا بالقضاء الكوني.

والله ﷻ قضى لنا ألا نعبد إلا إياه وبالوالدين إحسانا، ولا يرضى لعباده الكفر، وهذا قضاؤه الشرعي الذي لا يرضى لنا سواه، وسوف يحاسبنا على مقتضاه، ويتحقق به عدل الله في العصاة، وفضله على من اختار شرعه وتمسك بسنة رسول الله ﷺ.

وفي المقابل قضى قضاء كونيا وقدر قدرا لا يعلمه إلا الله ﷻ، ولم

يَطَّلِع عليه أحدُ سواه، أن ما كتبه في أم الكتاب وهو اللوح المحفوظ سوف يقع كما قدره الله ﷻ، وأن كلا ميسر لما خلق له في هذه الحياة، وأن كل إنسان منا قد قدر الله ﷻ له مصيره في الآخرة تقديرا، وكان أمر الله فيه قدرا مقدورا.

ومن ثم فإن هذا الذمي اختار أن يكفر بربه، وأن يصر على شركه، ويفعل ما لا يرضاه الله ولا يحبه، ويخالف قضاءه الشرعي الديني الذي دعاه إلى شهادة ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ثم يحتج على دفع ملامة الناس له حين يعلق الصليب على رقبته، ويطلب من ربه عدم محاسبته ومعاقبته، لأن الكفر بزعمه وقع منه دون أن يشعر، ولا حيلة له في دفعه، لأن قضاء الله الكوني أمر واقع حتمي، فزعم أن الله ﷻ منعه من الإيمان والتوحيد ودخول الإسلام، ومعلوم أنه كاذب في مثل هذا الكلام، ومشرك خبيث معاند يبغض الحق ويبغض دين الإسلام.

٣- دَعَانِي وَسَدَّ البَابَ عَنِّي، فَهَل إلى
دُخُولِي سَبِيل؟ بَيِّنُــوا لِي قَضِيَّتِي

زعم هذا السائل أن الله ﷻ لما دعاه إلى الطاعة وغض البصر عن المحارم، وعدم الوقوع في المعاصي والفحشاء، لم يستطع أن يسيطر على نفسه، لأن لذة المعصية وقوة الفحشاء التي كتبها الله ﷻ عليه في اللوح المحفوظ كانت حائلا له، وبابا مسدودا في وجه الطاعة لله ﷻ والكف عن المحارم .

ومعلوم أنه كاذب معاند لأنه ادعاءه بأن الله ﷻ قدر عليه الفحشاء في اللوح المحفوظ ادعاء كاذب، فمن أين علم ذلك؟ وهل يرضى هذا

الذمي أن يفعل أحد الفحشاء بامرأته أو أمه أو ابنته، ثم يعتذر له بأنه لم يستطع أن يسيطر على نفسه لأن لذة المعصية والفحشاء التي كتبها الله ﷻ عليه في اللوح المحفوظ كانت حائلا له وبابا مسدودا في وجه الطاعة، وعدم الزنا بامرأته أو نساء أهل بيته؟! أليس هذا منطق المجرمين المعاندين؟ وكما أن الله ﷻ خلق الخلائق بمشيئته وإرادته الكونية كلفهم وابتلاهم بإرادته الشرعية، وهذا الذمي يريد أن يشكك في دين الله ﷻ من خلال زعمه وجود التعارض بين الإرادتين، فيقول دعاني بالإرادة الشرعية أي دعاني إلى الطاعة والإيمان، وسد الباب عني بمشيئته وإرادته الكونية، فليس لي حيلة إلا أن أختار الكفر والفسوق والعصيان، وهذا كذب ظاهر لأنه هو المسئول عن فعله، ومسئول عن قطع يده لو سرق مال غيره.

وهل صحيح أن الله سبحانه وتعالى لما كلفك بإرادته الشرعية لم يمكنك بإرادته الكونية من أن تستجيب للطاعة والإيمان؟ أم أنه منحك كل مقومات الاختيار للنجاح في الامتحان؟ فلم يكلف نفسا إلا وسعها، ولا يكلف نفسا إلا ما آتاها، ولا يعذب أحدا إلا بعد أن يرسل إليه رسولا ليعلمه حقيقة الحياة، ولماذا خلقه الله ﷻ ؟ وما هي الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة التي يحبها ويرضاها الله لعباده؟ وما هي التي يبغضها ولا يحبها ولا يرضاها لأحد من عباده؟

٤- قَضَى بِضَلالي ثُمَّ قَال ارْضَ بالقضا
فَمَا أَنَا رَاضٍ بِالَذي فِيهِ شِقْوَتِي

٥- فَإِنْ كُنْتُ بِالَمقْضِيِّ يَا قَوْمُ رَاضِـيًا
فَرَبِّي لا يَرْضَى بِشُـؤْمِ بَليـتِي

زعم هذا الذمي أن الله قضى بضلاله، وهذا كذب وافتراء على الله، وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه، وهذا ما يسمى بالقضاء الشرعي الذي يحاسبنا على مخالفته أو موافقته، أما القضاء الكوني الذي في اللوح المحفوظ فكيف اطلع عليه الذمي أو غيره من ملك أو نبي؟ ومن أين علم أن الله ﷻ كتب فيه أنه سيموت يهوديا؟ فلربما أسلم الذمي ومات على الإسلام وعندها يكون الله قد قضى كونا بهدايته، فالحساب على مخالفة القضاء الشرعي، وليس على القضاء الكوني كما يصوره اليهودي بتلبيسه وجهله وتدليسه، فالقضاء الكوني خلق الله به الجميع .

يقول هذا الذمي: إذا كنت سأرضى بأن أكون يهوديا أو نصرانيا مشركا كافرا، لأن هذا مكتوب في اللوح المحفوظ، فهل هذا يرضاه الله ﷻ ويرضى أن يعذبني عليه؟ والشبهة التي يريد أن يلقيها هذا الذمي في هذا البيت من سؤاله: كيف يقدر الذنب على أحد في اللوح المحفوظ ثم يعذبه عليه في الدنيا والآخرة؟

وهذه شبهة المعتزلة القدرية الذين ضلوا بسببها، فهم يقولون: إذا كان الله سبحان وتعالى قدر في اللوح المحفوظ أن يكون الإنسان كافرا، ثم خلقه كافرا كما قدر، ثم عذبه على كفره، فهو ظالم له؟ ولذلك أنكروا التقدير السابق وأنكروا القضاء والقدر ولم يؤمنوا به.

وهذا الذمي يريد أن يأخذ شبهة المعتزلة ويزرعها في قلوب عامة المسلمين، فقوله: فَإِنْ كُنْتُ بِالمَقْضِيِّ يَا قَوْمُ رَاضِيَا. ماذا يقصد بالمقضي؟ فإن كان يقصد القضاء الشرعي والإرادة الشرعية التي أحبها الله وارتضاها لنا، فجميع الناس لن يدخلوا الجنة إلا إذا رضوا بالقضاء الشرعي، وهو رضاهم بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا.

وإن كان يقصد بالمقضي القضاء الكوني وهو ما أخفاه الله في اللوح المحفوظ، فهذا لا يعلم أحد عنه شيئا. فمن الذي أخبرك أنك في اللوح المحفوظ كافر؟ ولم لم تفترض أنك مكتوب في اللوح أن تموت على الإسلام؟ لو أنك آمنت بالله ﷻ وأسلمت له وشهدت ألا إله إلا الله وأن محمدا ﷺ رسول الله؟ فاحتمال أن تكون مسلما احتمال قائم، كاحتمال أن تكون كافرا سواء بسواء، فلا أحد يعلم حقيقة المكتوب في اللوح إلا الله ﷻ لأن الله أخفاه وجعله غيبا، فآمن بالله ﷻ وسيهدي قلبك إن شاء، نسأل الله الهداية والإيمان، فحقيقة سؤال هذا الذمي المعاندة والكلام الباطل غير المنطقي .

وقوله: إن ربي لا يرضى بشؤم بليتي، يريد به ادعاء ظلم القدر له في كونه سيظل هكذا كافرا بسبب القضاء والقدر، فهل يرضى الله له أن يكون مظلوما معذبا هكذا؟ وكأن اختياره للشرك وسفك الدماء وقتل الأبرياء من الأطفال والفقراء، كما فعل هؤلاء الأعداء بالمسلمين في العراق وفلسطين وغيرها من بلاد المسلمين، وأيام هجمة الصليبيين واحتلالهم للقدس، والدعوة إلى التنصير بالغصب، واستغلال الفقر وسوء الحال للاعتقاد في إله مقطع الأوصال إلى ثلاثة أجزاء، واحد للابن، وآخر للأب، وثالث للروح القدس. وكأن اختياره لذلك كله كان مجبرا فيه مسيرا مظلوما، ولا لائمة عليه في كل ما فعل. وهذا منهج المجرمين أجمعين، ومنطق سائر المذنبين حين محاسبتهم، إذ يلقون باللائمة على القضاء والقدر ومشيئة الله ﷻ، لكن ذلك لا يغني عنهم من عذاب الله شيئا.

٦- فَهَل لِي رِضَا، مَا لَيسَ يَرْضَاهُ سَيِّدِي

رضا الحق سبحانه وتعالى يكون في اتباع الإرادة الشرعية، أما الإرادة الكونية فتكون لما أحبه وارتضاه، ولما لا يحبه ولا يرضاه، فهي بمعنى المشيئة، وهذه لا تكون إلا كونية فقط، أما الإرادة الشرعية فهي بمعنى ما ارتضاه الله ﷻ لعباده وأحبه لهم وشرعه كأفضل منهج لحياتهم، فالله سبحانه وتعالى لا يرضى أن يتحاكموا إلى غير ما أنزل لهم، ولا يرضى لعباده الكفر. وهذا الذمي قد اختار الكفر، ورغِب فيه، ورغَّب فيه، ورضي به، فهو مسئول عن كسبه واختياره، ومحاسب على ما ارتضاه لنفسه، فما فائدة احتجاجه بأن المكتوب في اللوح المحفوظ هو ما يرضاه الله ﷻ فقط دون ما يبغضه ولا يرضاه؟ فحجته تشبه حجة المشركين التي ذكرها الله ﷻ عنهم في قولهم: لو شاء الله ما أشركنا، ولا فعلنا شيئا يغضب الله، فرد عليه بأنهم يدّعون ذلك كذبا، فهل اطلعوا على المقادير ورأوا المكتوب في اللوح ليخبروا الناس به؟ فقولهم كذب على الله ورسوله لن يغني عنهم شيئا، وسيعذبهم كما عذب أسلافهم لما قالوا بقولهم وكذبوا مثلهم.

قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ١٤٨ قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٤٩﴾ الأنعام:١٤٨/١٤٩.

وهذا الذمي يزعم أنه حيران في فهم القضاء، والقدر ويطلب من علماء الإسلام أن يدلوه على كشف حيرته، وهذا ما سيجده من البيان الشافي في جواب شيخ الإسلام ابن تيمية على سؤاله.

٧- إِذَا شَاءَ رَبِّي الكُفْرَ مِنِّي مَشِيئَةً
فَهَل أَنَا عَاصٍ فِي اتبَـــا عِ المَشِيئَةِ؟

زعم هذا الذمي المعاند أن الله شاء منه الكفر، وأنه ليس عاصيا في اتباع المشيئة، مع أن المشيئة لا تأتى إلا كونية فقط، فالله ﷻ خلق سائر الناس بمشيئته، سوا كانوا مؤمنين أو كانوا كافرين، وسواء اختار الإنسان الطاعة أو اختار العصيان، فهذا كله واقع بمشيئة الله ﷻ، فالسارق إذا قال: سرقت بقدر الله ومشيئته، فإنه يقال له: وقطع يدك بقدر الله ومشيئته، لأن مشيئة الله ﷻ عامة في الكون، وسارية في الخلائق جميعا. وهذا الذمي يريد أن يجعل المشيئة العامة مقصورة على معنى المحبة والإرادة الدينية الشرعية، مع أنه في الأصل ليس له ولا لغيره اختيار في أن يعصي مشيئة الله أو لا يعصيها، فالمشيئة واقعة على الكل، لأن الله ﷻ لا يخلق شيئا إلا بمشيئته فهي أحد مراتب القدر الأربع، وهي العلم والكتابة والمشيئة والخلق. فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

وكلمة الذمي في قوله: أنا أتبع المشيئة كلمة باطلة، لأنه يصور المشيئة على أنها أمر تكليفي، ومنهج شرعي، ومقرر ديني تعبدي، نزل به كتاب سماوي على نبي من أنبياء الله ﷻ، والأمر ليس كذلك، فما يشاؤه الله يختلف تماما عما يحبه ويرضاه.

ومن ثم فقوله: هل أنا عاص في اتباع المشيئة؟ نقول: نعم أنت عاص لأن المشيئة في الأصل ليس لك ولا لنا خيار في اتباعها أو عدم اتباعها فهي واقعة حتما، وحتما هي واقعة. فقولك: هل أنا عاص في اتباع المشيئة تدليس وادعاء ما ليس لك؟ ويقال: بمنطقك أنت عاص في اتباع المشيئة، كما لو أسلمت وأطعت تكون طائعا في اتباع المشيئة، فلا

أحد لا يعرف أصلا ما في المشيئة حتى يتبعها أو لا يتبعها، فالمشيئة ليست أمرا دينيا أو شرعيا تكليفا، وإنما هي قضاء وقدر يخلق الله ﷻ به العباد أجمعين، سواء كانوا كافرين مشركين أو كانوا مؤمنين موحدين.

وكما قال رب العالمين: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ الصافات:٩٦.

٨- وَهَل لِي اخْتِيَارٌ أَنْ أُخَالِفَ حُكْمَهُ؟

فَبَاللهِ فَاشْفُـــوا بِالبَرَاهِـــينِ علتي

قال الذمي: هل للشخص اختيار في أن يخالف حكم الله؟ نقول: إن حكم الله ﷻ حكمان، فإن كنت تقصد الحكم الكوني الذي يصدر من القضاء الكوني، فهذا غيب لا أحد يعرف عنه شيئا، لأن هذا الحكم من التقدير المكتوب في اللوح المحفوظ. وإن كنت تقصد الحكم الشرعي الذي فيه منهج التكليف وأحكام العبودية التي بين الله ﷻ فيها على ألسنة الرسل ما أوجبه وما حرمه، فكل واحد منا لديه اختيار أن يخالف الحكم الشرعي أو يوافقه، وعندئذ يكون مسئولا عن اختياره ومعاقبته في الدنيا والآخرة. وقوله: فبالله فاشفوا بالبراهين عِلتِي. يزعم فيه أنه عليل يطلب الشفاء بالعقل والمنطق والتحليل، لأن ما أصابه من هذا المرض أمر مفزع خطير. وها هو كما ترى ذمي معاند، وكتابي معاهد، يريد أن يبقى مصرا على شركه ونصرانيته أو على كفره ويهوديته، ويقول: أنا مسير ولست مخيرا فيما أفعله، ويلقي باللائمة في كفره على ربه، فتعالى الله عن قوله علوا كبيرا .

- **جواب شيخ الإسلام ابن تيمية على شبهات الذمي.**

ذكر تاج الدين محمد ابن الدوري أنه حضر المجلس الذي أجاب فيه ابن تيمية هذا الذمي عندما سأله عن مسألة في القدر، قد نظمها شعرا

في ثمانية أبيات، مطلعها: أيا علماء الدين ذمي دينكم.. تحير دلوه بأوضح حجة . إلى آخر السؤال. قال تاج الدين: (فلما وقف عليها فكر لحظة يسيرة، وانشأ يكتب جوابها، وجعل يكتب، ونحن نظن أنه يكتب نثرا، فلما فرغ تأمله من حضر من أصحابه، وإذا هو نظم في بحر أبيات السؤال وقافيتها، تقرب من مائة وأربعة وعشرين بيتا، وقد أبرز فيها من العلوم ما لو شرح بشرح لجاء شرحه مجلدين كبيرين) [1].

وهذا شأن شيخ الإسلام ابن تيمية، عرف عنه علمه الواسع، وفهمه الدقيق، وتبحره في مختلف أنواع العلوم، بحيث يعلم من سمعه أو قرأ كتبه أنه كان إماما مقدما في كل فن من العلوم، ولذلك تصدي لجميع المخالفين للكتاب والسنة على تنوع ابتداعاتهم، وفرقهم، ومذاهبهم وفلسفاتهم الباطلة، وتصدى أيضا لليهود والنصارى وشبهاتهم القاتلة. وقد عاداه كثير من أهل زمانه، وحقد عليه كثير من أقرانه، فسجنوه وعذبوه حتى مات في سجنه حسدا منهم على غزارة علمه، وقوة قلمه، ووضوح حججه. وهذا نص جوابه عن سؤال هذا اليهودي الذمي:

١- سُؤَالُكَ يَا هَذَا، سُؤَال مُعَانِد
مُخَاصِمِ رَبِّ العَرْشِ، بَارِي البَرِيَّة

شخّص ابن تيمية رحمه الله حالة هذا اليهودي الذمي السائل بأنه عاص لله ﷻ ومعاند له، وليس طالبا للحق مريدا له، فأنت تدفع أموالك للمسلمين جزية لكي تبقى على نصرانيتك وتصر على شركك

---

(١) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية لأبي حفص عمر بن علي بن موسى البزار ص٢٧، نشر المكتب الإسلامي، بيروت ١٤٠٠هـ .

وتثليثك وعبادتك للصليب، ثم تزعم أنك مسير وأن مشيئة الله هي التي منعتك أن تشهد ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله؟

وحقيقة أمرك أنك تعاند ربك بارئ الخلق ومصورهم، وتستكبر أن تكون من الموحدين المسلمين الطائعين لربهم والساجدين له، بل إنك ترغب أن تكون من حزب الشيطان الذي يخاصم أهل الحق والتوحيد والإيمان، وتأبى أن تكون من حزب الله وأولياء الرحمن، فلماذا لا تدخل في دين الإسلام وتكون موحدا؟ ما الذي يمنعك من ذلك إلا إصرارك أن تبقى على الكفر حتى لو دفعت الجزية، فلا عبرة باحتجاجك بالقدر لأننا لا نعلم عنه شيئا قبل وقوعه.

٢- فَهَذَا سُؤَال، خَاصَمَ المَلأَ العُلا

قَدِيمًا بِهِ إِبْلِيسُ، أَصْلُ البَلـــيَّةِ

وهذا السؤال الذي طرحه اليهودي الذمي هو نفسه سؤال إبليس منذ القدم حين امتنع عن طاعة الله في السجود لآدم، ثم أراد أن يلقي الذنب على ربه، وزعم أن الله ﷻ هو الذي أغواه وفعل به هذا الامتناع والعصيان، كما ذكر الله في شأن الشيطان فقال: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١٦﴾ الأعراف:١٦.

وقد يسأل سائل: لما أمر إبليس بالسجود لآدم أراد منه السجود أم لم يرده؟ والجواب أن الله سبحانه وتعالى أرد منه السجود شرعا وإظهارا لحكمته، ولم يرده كونا إظهارا لقدرته، فهو أراده ولم يرده، فإبليس عندما خالف الإرادة الشرعية كان الوزر عليه وتحقق العدل في عود اللعن إليه، وبدلا من أن يقول بعد معصيته: يا رب تبت إليك فاغفر

لي، عاند وطلب مزيدا من التحدي في السعي لوقوع العصيان من بني الإنسان، فقال: ﴿أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾﴾ الأعراف:١٤. ومن ثم كان إبليس رأس العناد حيث نسب الإغواء والإفساد إلى ربه، ليتملص من ذنبه بحجة وقوع قضاء الله وقدره في جميع الأشياء. فاحتج بالإرادة الكونية على مخالفته للإرادة الشرعة، وهذا بتمامه ما فعله الذمي.

٣- وَمَنْ يَكُ خَصْمًا لِلْمُهَيْمِنِ يَرْجِعَنْ
عَلَى أُمِّ رَأْسٍ هَاوِيًا فِي الحفيرة

من عاند ربه وجاهر بمعصيته فالضرر يقع على معاندته لا محالة، فهذا الذمي يخاصم ربه ويخالف شرعه، ويزعم أنه مسير وأن المكتوب في اللوح المحفوظ سوف ينفذ. نعم سينفذ وهو الخاسر ويحشر يوم القيامة على وجهه وأم رأسه كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ الإسراء:٩٧. ولو أن رجلا مريضا امتنع أن يذهب إلى الطبيب وقال: لن آخذ بأسباب الشفاء، وسأبقى على هذا الداء بلا دواء حتى أموت ويقع القضاء، لأنه لا يقع في ملك الله إلا ما يشاء.

نقول له: والقضاء سيقع لا محالة كما دون في أم الكتاب، وأنت الخاسر في عدم أخذك بالأسباب، وأدخلت نفسك في المهالك والآلام والعذاب، كما أن من بحث عن أسباب الشفاء وقع عليه القضاء وبرء الداء بالدواء وأرح نفسه من العذاب، فالقدر واقع في الحالتين والوزر أو الأجر هو ما يلقاه المرء يوم الحساب. وهكذا يقال لمن يحتج بالقضاء

والقدر ولا يأخذ بالأسباب للوصول إلى النتائج التي خلقها رب العزة والجلال، بحيث أنه يُغلِّب الإيمان بجانب القدرة علي جانب الحكمة، فلابد له من مراعاة الحكمة في الأخذ بالأسباب، وأن يراعي القدرة في خلق الله تعالى لهذه الأسباب.

٤- وَيُدْعَى خُصُومُ اللهِ يَوْمَ مِعَادِهِمْ
إلى النَّارِ طُرًّا، مَعْشَرَ القَـــدَرِيَّةِ

قد يطلق مصطلح القدري على كل من خالف الكتاب والسنة سواء في إثبات التقدير والقدرة ونفي الحكمة كما فعلت الجبرية، أو في إثبات الحكمة ونفي التقدير والقدرة كما فعلت المعتزلة القدرية. فهؤلاء جميعا أطلق عليهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله مصطلح القدرية الذين يخاصمون الله ﷻ في القدر، نفيا له وإثباتا للحكمة، أو إثباتا للقدر ونفيا للحكمة، جميعهم من أهل النار يوم القيامة، يدعون إليها طرا أي يساقون إلى جهنم جميعا.

والأصل أن مصطلح القدرية عَلَمُ على فرقة المعتزلة نفاة القدر، فقد عرفوا بنفي التقدير أو القدرة منذ ظهورهم في القرن الثاني الهجري، لكنه ذكر القدرية في هذا البيت من المنظومة كمصطلح عام يطلق أيضا على الجبرية، وتسمية الجبرية قدرية لقولهم: إن الإنسان مسير مجبور على فعله بحتمية قضاء الله وقدره، ولا قيمة عندهم للشرائع والأحكام، ولا فرق بين الحلال والحرام، أو دخول الإنسان في النصرانية أو الإسلام، فالكل عندهم على طريق الصواب، وحجتهم أن ما دون في أم الكتاب واقع لا محالة.

وابن تيمية أراد الاثنين معا لأنهما عصاة يخاصمون شريعة الله التي طالبتهم جميعا بالعمل بالإرادة الشرعية واتباع منهج الأنبياء والرسل في الهداية الدينية، مع مطالبتهم أيضا أن يؤمنوا بالقضاء والقدر ووقوع إرادة الله الكونية، كما دعاهم نبينا المصطفى ﷺ فقال: اعملوا فكل ميسر لما خلق له. وهؤلاء خصوم الله يدعون يوم ميعادهم جمعا واحدا طرا إلى النار لأنهم كفروا بإرادة رب العزة والجلال سواء الكونية أو الشرعية، فالذي يكفر بالإرادة الشرعية يكون جبريا، والذي يكفر بالإرادة الكونية يكون قدريا.

٥- سَوَاءٌ نَفوهُ، أَوْ سَعَوْا لِيُخَاصِمُوا
بِهِ اللهَ، أَوْ مَارَوْا بِهِ لِلشَّرِيعَـــةِ

قوله: سَوَاءٌ نَفَوهُ. يقصد القدرية المعتزلة الذين نفوا التقدير السابق، وقالوا: لا يوجد تقدير ولا قدرة، والإنسان يخلق فعله مستقلا عن أفعال ربه، والله ﷻ عندهم لم يكتب في اللوح شيئا من أفعال الكفار، فزعموا كذبا أن إرادة العاصي أقوى من إرادة رب العزة والجلال، وأن الكفار غلبوا مشيئة العزيز الجبار، وأنه يحدث في ملك الله ما لا يريده بالإجبار.

وقوله: أَوْ سَعَوْا لِيُخَاصِمُوا بِهِ اللهَ. يقصد الجبرية الذين احتجوا على مخالفة إرادة الله الشرعية ومخاصمة منهج العبودية، بأن الله ﷻ جعلهم عصاة، وكتب عليهم في اللوح المحفوظ هذا العصيان، وأن الله هو الذي دعاهم للسرقة والزنا والفحشاء. وهذا كذب على الله ﷻ لأن القضاء والقدر من علم الغيب ولا يقع إلا بظهور حكمة الله وعدله في خلقه، فمن أطاع وقع عليه القدر وله الأجر والفضل من الله، ومن عصاه وقع

عليه القدر أيضا وعليه الوزر بعدل الله. أما المماراة للشَّرِيعَةِ والتشكيك فيها، وإبطال حكمة الله ﷻ وقدرته فهذا لا يضر الله شيئا كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٣٢﴾ محمد:٣٢.

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٧﴾ آل عمران:١٧٧.

٦- وَأَصْلُ ضَلاَلِ الخَلقِ مِنْ كُلِ فِرْقَةٍ
هُوَ الخَوْضُ فِي فِعْلِ الإِلهِ بِعِلةِ

أصل ضلال كل الفرق التي تجادل في القدر هو النظر إلى الله على أنه فرد من البشر يقاس عليه الله بالمماثلة في ذاته وصفاته وأفعاله، ويحاسبون الله ﷻ على العلة من أفعاله، لماذا يفعل الله كذا وكذا؟ أو لماذا لا يفعل الله كذا وكذا؟ تعالى الله عن قولهم. وقد ضل من ضل من المعطلة لصفات الله ﷻ كالجهمية والمعتزلة والأشعرية والماتريدية، ومن سار على نهجهم بسبب أنهم قاسوا الله ﷻ على خلقه بقياس تمثيلي أو شمولي أولا، ثم رأوا أن النصوص التي وصفت الله ﷻ أثبتت صورة لإنسان قبيح على زعمهم، فأرادوا تنزيه الله عن تلك الصورة التي تخيلوها أو عن الباطل الذي زعموه، فمثلوا وعطلوا، وحرفوا الكلم عن مواضعه، وضلوا في فهم توحيد الصفات بسبب قياسهم الخالق على المخلوق.

وكذلك الجبرية والقدرية نظروا إلى أفعال الله ﷻ على أنها أفعال إنسان يحاسب عليها ويسأل ويدان، وأن لهم الحق في مراجعة كل كلمة

كتبها الله ﷻ في اللوح المحفوظ، وأن لهم الحق في محوها إن لم تكن صوابا من وجهة نظرهم، فجعلوا أنفسهم أربابا يحاسبون رب العلمين، وتناسوا قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (٢٣)﴾ الأنبياء:٢٢/٢٣.

والذي يخوض في فعل الإله بعلة، هو من يتدخل في محاسبة الحق على أفعاله ويسأل: لم فعل الله كذا وكذا؟ ولم اخترت ولدي ليموت دون البنات وقهرتني؟ ولم أغنيت جميع الجيران وأفقرتني؟ ولم شفيت المرضى وأمرضتني؟ كأنه إله يحاسب ربه الإنسان عن العلة في أفعاله ليضع عليها الثواب والعقاب؟ فلا يدعه الشيطان حتى يجعل العبد ربا والرب عبدا، فيكفر بالله ﷻ أو يشرك به، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا.

٧- فإنهمو لَمْ يَفْهَــموا حِكْمَــةً لَهُ

فَصَــارُوا عَلَى نَوْعٍ مِنْ الجَاهِلِــيَّةِ

لم يمنع الله أحدا أن يسأل عن الحكمة الإلهية مهتديا لا معترضا، ليستدل بها على الحكيم سبحانه، وكمال الحكمة في أفعاله، وكمال الأوامر في تشريعاته، بل إن الذين لم يفهموا الحكمة الإلهية نظروا إلى جانب القدرة، وتناسوا جانب الحكمة، ويريدون أن يقيسوا الخالق في حكمته على المخلوق في حكمته، فالحكمة في المخلوق هي أتباع الشريعة، وأتباع الشريعة يؤدى إلى الجنة، فأعلى حكمة يصل إليها الإنسان اتباع الشرع بكامله، وهي التي قال الله ﷻ عنها: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا

﴿أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾﴾ البقرة:٢٦٩.

وهذه الحكمة المتعلقة بالمخلوق هي التي تعود عليه بالصلاح والخير والنفع في الدنيا والآخرة، وهو فقير بذاته، ومحتاج إلى سد فقره، وإكمال عجزه، وتلبية ضرورياته. أما حكمة الحق سبحانه وتعالى فهي حكمة صادرة عن كمال وغنى، فهو الغني الذي لا يفتقر إلى شيء، ولا يحتاج إلى شيء، فهو كما قال: ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ الشورى:١١.

يفعل الفعل في منتهى الحكمة لمصلحة تعود على المأمور، لا لمصلحة تعود عليه هو سبحانه وتعالى. فابن تيمية في هذا البيت يقول: إن البلاء كله يأتي من هنا، وهو أن يقاس الحق سبحانه وتعالى على المخلوق، فيضلوا في فهم الحكمة الإلهية بتمثيلهم لها بحكمة المخلوق. فعطلوا الصفة الحقيقية التي عليها الحكمة الإلهية.

٨- فَإِنَّ جَمِيعَ الكَوْنِ أَوْجَبَ فِعْلَهُ
مَشِيئَةُ رَبِّ الخَلقِ بَارِي الخَلِيقَةِ

هذه المخلوقات جميعها إنما خلقت بالضرورة عن مشيئة الله وقدرته وعلمه وحكمته، وغناه وربوبيته ولا مصدر لخلق الكون ووجوده إلا خلق الباري سبحانه وتصويره، ولذلك كان هو الغني بذاته وكان جميع من في الكون فقراء إليه بذواتهم، فوصف الغنى والكمال وصف ذاتي أنفرد به رب العزة والجلال، ووصف الحاجة والافتقار وصف ذاتي

لكل مخلوق على وجه الاضطرار، فهو الرب ونحن عبيده، فكيف يتأتي لإنسان أن يحاسب ربه على فعله، باعتراضه على قضائه وقدره، ويشكك في حكمته وشرعه؟

٩- وَذَاتُ إلـــهِ الخَلقِ وَاجِـــبَةٌ بِمَا
لَهَا مِنْ صِفَاتٍ وَاجِبَـــاتٍ قَدِيمَـــةِ

وذات إله الخلق واجبة، أي وجود الله لازم في حكم العقل، ولا يمكن لعاقل أن يتصور وجود الكون بغير يقينه بأمرين واجبين: الأول ضرورة وجود إله حقيقي، والثاني كمال هذا الإله في ذاته وصفاته، فلا يمكن وجود هذا الكون البديع إلا بذلك الحكم العقلي أو الوجوب العقلي كما يطلق المتكلمون والفلاسفة. فكونه سبحانه وتعالى غنيا بذاته كاملا في صفاته أمر لازم وواجب تصوره في العقل، لأن انعدامه يعني وقوع الضرر الحتمي لجميع الخلائق حيث إنهم يلجئون إليه بفقرهم الذاتي الموجود فيهم، فمن الغني الذي سيعطيهم ويمدهم ويعينهم ويوفقهم ويرزقهم إن كان الغني بذاته غير معدوما؟ ومن ثم فذات إله الخلق واجبة بما لها من صفات واجبات قديمة.

١٠- مَشِيئَـــتُهُ مَـــعَ عِلمِـــهِ، ثُمَّ قُـــدْرَةٌ
لوَازِمُ ذَاتِ اللهِ قَاضـــِي القَضـــِيَّةِ

يشير إلى مراتب القضاء الكوني وهي العلم والكتابة والمشيئة، ومراتب القدر وهي العلم والكتابة والمشيئة والخلق، فلا بد لخلق المخلوقات من علم التقدير، وكتابة المقادير في اللوح المحفوظ، ثم مشيئته في التنفيذ، ثم خلق الأشياء بقدرته، فهو سبحانه يقول للشيء

كن فيكون فيخلقه بقدرته، هكذا تخلق الأشياء، ولا خالق إلا الله ﷻ، فلا بد من مشيئته مع علمه السابق، ثم لا بد من القدرة التي سينفذ بها، وكل ذلك لازم لمن يقضي بخلق الأشياء ووجودها.

والقاضي ليس اسما من أسماء الله التوقيفية، لأنه لم يرد في نص صحيح، وأما ذكر ابن تيمية له فهو على جواز التعبير في اللغة بمشتقاتها، فيجوز ذكر القاضي على الاشتقاق اللغوي، ولا يجوز في الجانب الإيماني العقدي، فلا تصح تسمية الله ﷻ القاضي، ولا يجوز التسمية أيضا بعبد القاضي لأن الأسماء توقيفية، والمخالفة فيها بتسمية الله ﷻ بما لم يسم به نفسه في التوقيف إلحاد في أسماء الله فتنبه.

١١- وَإِبْدَاعُــهُ مَا شَاءَ مِنْ مُبْدِعَــاتِهِ

بِهَا حِكْمَــةٌ فِيهِ وَأَنْوَاعُ رَحْمَــةِ

وكما وجب الإيمان بقدرته سبحانه في خلق الأشياء بالقضاء والقدر وجب الإيمان بحكمته التي أبدعت جميع مبدعاته في هذا الكون العظيم، ولن تجد صغيرة ولا كبيرة إلا وقد جرت بمنتهى الحكمة، وابن تيمية رحمه الله يريد أن يركز في هذه المنظومة على أمرين أساسيين: ضرورة الإيمان بقدرة الله من جهة، وضرورة الإيمان بحكمته من جهة أخرى.

ولا يمكن أن يكون الإنسان عاقلا حكيما إلا إذا آمن بقدرة الله المطلقة في الكون وأنه سبحانه رب العالمين، وآمن بحكمته المطلقة في الكون وأنه إله العالمين المعبود بحق، وأفضل حكمة يحياها الإنسان هي إتباعه لحكمة أعلم الحكماء وأفضلهم، ولن نجد أفضل من العليم

الحكيم الرحمن الرحيم في حكمته وشريعته التي وضعها لنا، ولن نجد أفضل من دستوره الذي نزل من السماء على نبينا ﷺ، وإرادته الدينية التي أحبها لنا وارتضاها برحمته.

١٢- وَلسْنَا إذَا قُلــنَا جَرَتْ بِمَشـــيئَةَ
مِنْ الْمُنْكِرِي آيَاتــهِ الْمُسْتَقــيمَةَ

وإذا قلنا: إن كل شيء بقضاء وقدر، وكل الأمور جرت بمشيئة الله وقدرته، فلسنا ننكر حكمته وشريعته المستقيمة التي نزلت بها الآيات القرآنية وما صح في السنة النبوية، فالمخلوقات كلها وجدت بمشيئة الله ولا يعني أننا سننكر الآيات المستقيمة الظاهرة في الشريعة، أو أننا سننفي مسئولية الإنسان عن فعله، وأنه مكلف بشرائع وأحكام، ومطالب بمراعاة الحلال والحرام.

١٣- بَل الحَــقُّ أَنَّ الحُكْمَ للهِ وَحْدَهُ
لَهُ الخَلقُ وَالأَمْرُ الذي فِي الشَّرِيعَةِ

قال شيخ الإسلام ابن تيمية لهذا الذمي: إنك لو أردت أن تكون على الحق، فلابد أن ترد الحكم إلى الله ﷻ وحده، سواء كان حكما كونيا مظهرا للقدرة، أو حكما شرعيا مظهرا للحكمة والرحمة. فبالحكم الكوني خلق وصور وقضى وقدر، وبالحكم الشرعي أمر وزجر وكلف واختبر، كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٥٤﴾ الأعراف:٥٤ . وقد حمل ابن تيمية الأمر في الآية على الأمر الشرعي وهو قوله: والأمر الذي في الشريعة، وإن كان الأمر

محتملا للأمرين الكوني والشرعي معا.

١٤- هُوَ المَلكُ المَحْمُودُ فِي كُل حَالَةٍ
لهُ المُلكُ مِنْ غَيْرِ انْتِـقاصٍ بِشرْكَة

يشير إلى أن الله عندما خلق الأشياء وجعل الإنسان والجان مخلوقات تختار بين الخير والشر، لا يعني أنه يوجد أكثر من خالق للكون كما قالت المعتزلة: إن الإنسان يخلق فعله، أو قالوا: إن الله يخلق الخير، والإنسان يخلق الشر، فلو كانوا يخلقون شيئا، لكانوا أربابا ولهم نصيب في الملك يشاركون الله ﷻ في جزء منه، ولو كان الأمر كذلك لفسد الكون، والحمد لله أنه الملك وحده لا شريك له، كما قال سبحانه: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾﴾ الإسراء: ١١١.

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ الفرقان: ٢.

١٥- فَمَا شَــاءَ مَوْلانَا الإِلَــهُ فَإِنّــهُ
يَكُونُ وَمَــا لا، لا يَكُــونُ بِحِــيلة

هذا البيت في غاية الروعة والجمال، وهو يعبر عن المشيئة العامة الشاملة لأفعال العباد وغيرها، وأن العباد ليست لهم مشيئة مستقلة في طلاقتها عن النجدين، بل إن مشيئتهم في الاختيارين متوقفة على مشيئته سبحانه، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، والأمة مجتمعة على ذلك، كما اجتمعت على قول: لا حول ولا قوّة إلا بالله، فهذا

عام في كل شيء من الحول والقوة ليس في بعض الأشياء دون بعض، فكل ما في العالم كان أو يكون فقد شاءه الله ﷻ، وكل ما لم يكن ولا يكون فلم يشأ الله تعالى وقوعه، فالمشيئة كونية، فما شاء مولانا الإله فإنه يكون، وما لا يشاء، لا يكون بحال ولا حيلة.

١٦- وَقُدْرَتُهُ لا نَقْصَ فِيهَا وَحُكْمُهُ
يَعُمُّ فَلا تَخْصِيصَ فِي ذِي القَضِيَّةِ

قدرة الله لا نقص فيها، وليست كقدرة المخلوق الذي قد يقدّر الأمر ولا يقْدِر على تنفيذه، فيشارك غيره ليسانده بقدرته حتى يتمكن من إنشاء مشاريعه، أما قدرة الله ﷻ فمطلقة، والمقصود بالقدرة المطلقة التي يعنيها بن تيمية هنا أن الله هو الذي خلق العباد وأفعالهم بقدرته، سواء كانت أفعالهم خيرا أو شرا، وليس كما قالت المعتزلة أنه يخلق أفعال الخير فقط، ولا يقدر على خلق الكافر وفعله، وقصة عمرو بن عبيد المعتزلي معروفة حيث جاءه أعرابي وقال له: إن ناقتي سرقت، فادعوا الله ﷻ أن يردها علي، فقال عمرو بن عبيد: اللهم إنك لم ترد أن تسرق ناقته فسرقت، اللهم فردها عليه، فقال الأعرابي منكرا: لا حاجة لي في دعائك، فقال عمرو: ولم؟ قال: أخشى أن يريد الله ردها فيأبى السارق.

وهذا لازم من كلام عمرو بن عبيد حيث جعل قدرة السارق أقوى من قدرة الله، ووصف الله ﷻ بالعجز في القدرة، مما دعا شيخ الإسلام ابن تيميه أن يقول: وقدرته لا نقص فيها، أي قدرته سبحانه كاملة سارية على جميع المخلوقات وفيها لأنه وحده الخالق بالقدرة

والمشيئة والإرادة الكونية .

قال ابن تيمية: كذلك حكمه، أي الحكم الإلهي الذي تجري عليه الخلائق في وجودها صادر أيضا عن حكمته، وحكمة الله ﷻ شاملة في كل الخلائق فلا يظلم أحدا من خلقه، إن عذب الكافرين فبعدله وحكمته، وإن أنعم على المؤمنين فبفضله ورحمته، فحكمة الله عامة في كل الأشياء، ليس فيها تخصيص قضية دون أخرى.

١٧- أُرِيدَ بِذَا أَنَّ الحَـــوَادِث كُلــهَا
بِقُدْرَتِـــهِ كَانَتْ وَمَحْضِ المَشِـــيئَةِ

يريد بما تقدم في الأبيات السابقة أن جميع المخلوقات أو الحوادث بلا استثناء إنما خلقت بقدرة الله ومشيئته المحضة التي لا دخل لغيره فيها، أو بمراتب القدر من العلم والكتابة والمشيئة والخلق، فما خلقت بقدرته إلا لأن الله ﷻ شاءها، وقبل المشيئة كتبها في اللوح المحفوظ، وقبل الكتابة قدرها في علمه.

١٨- وَمَالِكُــنَا فِي كُل مَـــا قَـــدْ أَرَادَهُ
لهُ الحَمْدُ حَمْدًا يَعْتَـــلي كُل مدحة

الحمد يستحقه كل من يقوم بفعل الخير للغير لا لنفسه، وسمي كل قائم بعمل الخير المتعدي للآخرين محمودا وممدوحا ومشكورا على ما قام به، وأنه يستحق الشكر على ما قدم، ويستوجب على فعله الحمد والثناء، ويكثرون له من التمجيد والدعاء، بل يمدحونه بأحب ما ينسب إليه من الأسماء، ويذكرونه فيما بينهم بجميل الأوصاف والأفعال. وإذا

كان الأمر كذلك فإن الله ﷻ له الحمد كله والثناء، لأنه أسبغ نعمه على كل موجود، وإن كفر به من كفر، وشكره من شكر، وأثنى عليه أو ذكره من ذكر. فهو سبحانه الحميد المجيد، البر الكريم الودود، الذي أسبغ نعمه ظاهرة وباطنة على الخلائق أجمعين، وكان كل من كان قائما في العالم فإنه قائم باسم الله الرحمن الرحيم، فوجب إقرار الحمد لله رب العالمين.

وإذا كان المخلوق مستوجبا للحمد، مستحقا للمدح والثناء، لأنه يفعل الخير لا لنفسه، ولا لمصلحة تعود على شخصه، ولكن يفعله حرصا على غيره، وإرادة محبته ونفعه، فكيف بفعل الله ﷻ الغني بذاته في خلقه وإيجاده وإمداده، وإنعامه وعطائه، فهو الحميد المجيد الذي يفعل الخير ويأمر به، لا لمصلحة تعود عليه، ولكن لمصلحة تعود على المأمور، فمَالكُنَا فِي كُل مَا قَدْ أَرَادَهُ كونا أو شرعا لهُ الحَمْدُ حَمْدًا يَعْلو ويعتلي كُل مدحه ذكرت في غيره.

١٩- فَإِنَّ لهُ فِي الخَلقِ رَحْمَتَهُ سَرَتْ

وَمَنْ حِكَمٍ فَوْقَ العُقُول الحَكِيمَـــةِ

قوله: فَإِنَّ لهُ فِي الخَلقِ رَحْمَتَهُ سَرَتْ أي أن رحمة الله العامة بادية وسارية في الخلائق أجمعين، ورحمته الخاصة سارية وجارية في إنعامه على المؤمنين. وقوله: وَمَنْ حِكَمٍ فَوْقَ العُقُول الحَكِيمَةِ، أي إذا نظرت في الأشياء ستجد أمورا يحار فيها العقل ويعجز عن تصورها، فكل شئ أبدعه الحق سبحانه وتعالى بمنتهى الإتقان والعلم والحكمة، وهذا دليل على وجود إرادة الله في سائر الأشياء سواء كانت إرادة كونية بها يخلق

الأشياء، أو إرادة شرعية يكلف بها العباد في دار الابتلاء.

٢٠- أُمُورًا يَحارُ العَقْل فِيهَا إذَا رَأَى
مِنْ الحِكَمِ العُلْيَا وَكُل عَجِيبَةِ

لله ﷻ في خلقه أمور يحار فيها إذا تأمل خلقها وهي جارية على الأسباب، والكل يأخذ بها بلا احتجاج ولا اعتراض ولا استغراب، والكل يعمل بحكم الله الكوني في الأخذ بالأسباب للوصول إلى النتائج، ومن أراد شيئا لم يأت إليه من نفسه، بلا لا بد أن يأخذ بسببه الذي وضعه الله ﷻ وقدره، كذلك اقتضت حكمة الله العجيبة أن من أراد الجنة ونعيمها فلابد أن يأخذ بأسبابها، وإن أراد البعد عن النار فلابد أن يأخذ بالأسباب التي تباعده عنها.

٢١- فَنُؤْمِنُ أَنَّ اللهَ عَزَّ بِقُدْرَةِ
وَخَلْقٍ وَإِبْرَامٍ لِحُكْمِ المَشِيئَةِ

٢٢- فَنُثْبِتُ هَذَا كُلهُ لإلهِنَا
وَنُثْبِتُ مَا فِي ذَاكَ مِنْ كُل حِكْمَةِ

إننا نؤمن بأن كل شي بقضاء وقدر، وأن الله سبحان وتعالى خلق الأشياء بقدرته وعزته، وقضاها قضاء مبرما موافقا لحكم المشيئة فهو رب العالمين الذي يخلق الأشياء وفق ما يشاء، فهذا نثبته كله لإلهنا، ولابد للمؤمن أن يراعى في إيمانه الإيمان بقدرة الله المطلقة من جهة والإيمان حكمته المطلقة من جهة أخرى.

وإذا كان الباعث على الجمع بين القدرة والحكمة لدى المخلوق فقره

وعبوديته، فإن الباعث على الجمع بين القدرة والحكمة لدى الخالق غناه وربوبيته، فالله ﷻ غني كريم عزيز رحيم محسن إلى عبده لعلمه أنه فقير بذاته، وأنه لا غني لذاته إلا هو سبحانه، ومن ثم يريد به الخير ويكشف عنه الضر، لا لجلب منفعة إليه من العبد، ولا لدفع مضرة، بل رحمة منه وإحسانا، ولطفا وإنعاما .

إن الله ﷻ له المشيئة المطلقة، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وله القدرة المطلقة ينفذ بها ما قضاه وقدره، لكن جميع أفعاله لا تخرج عن حكمته، فهو سبحانه متصف بالقدرة والحكمة، ومن أسمائه القدير الحكيم، فبالقدرة خلق الأشياء وأوجدها، وهداها وسيرها، وهذا توحيد الربوبية، وبالحكمة رتب الأسباب ونتائجها، وابتلانا واستخلفنا وخولنا وكلفنا لنأخذ بها تحقيقا لتوحيد العبودية.

٢٣- وَهَذَا مَقَامٌ طَالَمَا عَجزَ الأُولى
نَفَوْهُ وَكَرُّوا رَاجِعِينَ بِحِيرَةِ

وهذا المقام الذي يجمع فيه العبد بين الإيمان بالحكمة والقدرة، أو الشرع والقدر، إذا اختل فيه ركن أثر تلقائيا في الركن الثاني، فمن أثبت القدرة فقط نفى الحكمة، ومن أثبت الحكمة فقط نفى القدرة، وكان هذا شأن السابقين ممن ضلوا في القضاء والقدر، إذا عجزوا عن فهمه احتاروا فيه ورجعوا إلى نفيه أو نفي بعضه.

٢٤- وَتَحْقِيقُ مَا فِيهِ بِتَبْيِينِ غَوْرِهِ
وَتَحْرِيرِ حَقِّ الحَقِّ فِي ذِي الحَقِيقَةِ

قوله: وَتَحْقِيقُ مَا فِيهِ بِتَبْيِينِ غَوْرِهِ، أي أنك لابد أن تفرق بين الإرادة الكونية والإرادة الشرعية، والمشيئة والإرادة، والمحبة والإرادة، وتفرق أيضا بأن الله ﷻ له مطلق القدرة، وله مطلق الحكمة، وأنه سبحانه وتعالى انفرد بمراتب القدر، وله أنواع التقدير والتدبير، وأنه يوجد في أفعاله تقدير مبرم وتقدير معلق، فهذا هو غور المسالة، لابد أن تراعيها وإلا ستقع في الضلال. أما قوله: وَتَحْرِير حَقِّ الحَقِّ فِي ذِي الحَقِيقَةِ، أي لابد أن تؤصل المسألة أولا في باب الأسماء والصفات، فتثبت للحق سبحانه وتعالى ما أثبته لنفسه من أنواع الكمالات في توحيد الأسماء والصفات والأفعال، وما ينتج عنها من المقدورات والمفعولات وغيرها من المخلوقات، وما فيها من الحِكَم والغايات.

٢٥- هُوَ المَطْلَبُ الأَقْصَى لوُرَّادِ بَحْـــرِهِ
وَذَا عَسِرٍ فِي نَظْمِ هذي القَصِيدَةِ

٢٦- لِحَــاجَتــهِ إلى بَيَــانٍ مُحَــقِّقٍ
لأَوْصَافِ مَوْلانَــا الإِلــهِ الكَرِيمَةِ

٢٧- وَأَسْمَائِه الحُسْنَى، وَأَحْكَامِ دِينِه
وَأَفْعَــالِه فِي كُل هــذِي الخَلِيــقَةِ

ويعني أن من أراد أن يدخل في هذا البحر العميق وينظر إلى ما فيه من الدرر، وما ورد فيه أدلة نقلية جاء بها الوحي والخبر، فلابد أن يرجع في هذا الباب إلى الإيمان بالقضاء والقدر، وهو إدراك حقيقة النظر إلى توحيد الأسماء والصفات والأفعال، فهو المطلب الأقصى لرواد بحره، فلا بد من دراسته دراسة تفصيلية محققة، وهَذَا عَسِرٍ فِي

نظْمِ هذه القَصِيدَة، لأنها لا تستوعب أن يتكلم ابن تيمية عن كل شئ في مسائل القضاء والقدر، فالقدر نظام التوحيد، والمطلب الأقصى الذي ذكره في هذا البيت، هو أن يحقق المسلم حق الحق، وهي المعرفة التفصيلية لكل ما يستحقه مما وصف به نفسه من الأسماء والصفات والأفعال، وما ينبغي علينا أن نؤمن به في هذا الجانب من شمولية أَفْعَالهِ فِي كُل هذي الخَليقَةِ، وما تقتضيه من العمل بأحكام دينه وتوحيد العبودية له.

٢٨- وَهَذَا بِحَمْـــدِ الله قَدْ بَانَ ظَاهِرًا
وَإِلهَامُهُ للخَلــقِ أَفْضَــلُ نِعْمَـــةِ

٢٩- وقد قِيل فِي هَـــذَا وَخَطُّ كِتَابه
بَيَانُ شِفَـــاءٍ للنُّفُــوسِ السَّقِيـــمَةِ

يعني أن توحيد الأسماء والصفات بيّنه الله ﷻ بيانا شافيا ظاهر واضحا في القرآن والسنة، ولم يترك معرفة هذا الباب لعقولنا وحدها كما فعلت المبتدعة من الجهمية والمعتزلة والأشعرية، فهم اعتمدوا عقولهم وأهواءهم كحجة وحيدة في وصف ربهم، وأوجبوا عليه أن يتصف بكذا وكذا مما استحسنوه، ولا يتصف بكذا وكذا مما قبحوه، وقد نزه الله تعالى نفسه عن وصف العباد له، واستثنى الوصف الذي بلغه عن الله المرسلون، فقال سبحانه وتعالى:

﴿ سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٨١ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٨٢ ﴾ الصافات:١٨٠/١٨٢ .

نزه نفسه سبحانه عما وصفه به الظالمون، ثم سلم على المرسلين لسلامة ما وصفوا به رب العالمين، وأنهم لم يكونوا مشبهين ولا معطلين، وإنما كانوا موحدين مثبتين كل ما أثبته الله ﷻ لنفسه وما أثبته رسوله ﷺ، ثم حمد نفسه على تفرده بالأوصاف التي يستحق عليها كمال الحمد، فلولا أن الله ﷻ عرفنا بنفسه في كتابه وفي سنة رسوله ﷺ ما عرفناه، ولو تركنا لعقولنا لضل الناس في معرفة ربهم. لكنه عرفنا وألهمنا في فطرتنا أن نتلقى خبره بالتصديق، فالفطرة في غاية الاستعداد لتصديق الأخبار في الأسماء والصفات والأفعال.

وقوله: وقد قِيل فِي هَذَا، يشير إلى ضلالات المتكلمين في وصف رب العالمين وأقوالهم التي يستحقون عليها ما ذكره الإمام الشافعي حيث قال: (حكمي في علماء الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال، ويطاف بهم في العشائر والقبائل ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب

والسنة وأخذ في الكلام)[1] .

وقوله: وَخَطُّ كِتَابِهِ بَيَانُ شِفَاءٍ لِلنُّفُوسِ السَّقِيمَة، يشير إلى عدم تقدم العقل على النقل، وأنه ينبغي الرجوع إلى خط كتابه أي ما هو مكتوب بالخط العربي المبين في الكتاب والسنة في باب الصفات والأسماء، فمن رجع إليه وجد فيه بيانَ شفاءٍ للنفوس السقيمة، أما من رجع إلى القيل والقال فسوف يحتار ويضل .

٣٠- فَقَوْلُكَ: لِمَ قَدْ شَاءَ؟ مِثل سُؤَال مَنْ
يَقُول فَلِمَ قَــدْ كَانَ فِي الأَزَلِيَّةِ

يخاطب ابن تيمية السائل الذمي في قوله: لِمَ قَدْ شَاءَ؟ أي ما تقدم في سؤالك وهو قولك: إذا شاء ربي الكفر مني مشيئة، فهل أنا عاصي في إتباع مشيئة، بأن قولك هذا مثل من يقول: لماذا هو رب وأنا عبد؟ ولماذا هو الإله الخالق وأنا المخلوق؟ ولماذا كان هو الأول والآخر والظاهر والباطن؟ ولماذا كان بكل شيء عليما؟ وكأنه يقول: هذا الكون هل له إله أم لا؟ فهل هذا سؤال يسأله عاقل؟ فالكون بأسره مفتقر بذاته إلى ربه الغني بذاته، وفي حاجة مستمرة إلى فضله وإيجاده وإمداده، ولا يستغني عنه أحد طرفة عين، ولابد أن يكون الإله له مشيئة مطلقة، فهذا لازم لغناه الذاتي، لا يكون إلها مصلوبا عاجزا فقيرا يصرخ إلى من يغيثه ويستنقذه وينزله من على الصليب.

---

(١) تلبيس إبليس لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي ص١٠٢، وقواعد العقائد لأبي حامد الغزالي ص٨٥ ، وتحريم النظر في كتب الكلام لابن قدامة ص٤١ .

والقائل لم قد شاء إنما ينسب الربوبية لنفسه، وهو كقول القائل لم كان رب العالمين إلها؟ ولماذا لم أكن إلها بدلا منه؟ تعالى الله عن قول المشركين الكافرين علوا كبيرا.

٣١- وَذَاكَ سُؤَالٌ يُبْطِلُ العَقْلَ وَجْهَهُ
وَتَحْرِيمُـــهُ قَدْ جَاءَ فِي كُلِّ شِرْعَةِ

وما من شريعة من الشرائع جاءت إلا وهي تدعوا إلى عبادة إله واحد، هو رب العالمين لا شريك له في ملكه، ولا يجوز الشرك به في حال من الأحوال، فكل الشرائع السابقة تشهد أنه إله حق، ولابد أن يكون له مشيئة مطلقة، وكل الشرائع السابقة تجرم وتحرم سؤال السائل لم قد شاء؟ ولما شاء كذا وكذا؟ ولم لم يشأ كذا وكذا؟ لأن هذا اعتراض في الأصل على وجود الخالق، فهذا كلام يبطل العقل وجهه وتحريمه قد جاء في كل شرعة.

٣٢- وَفِي الكَوْنِ تَخْصِيصٌ كَثِيرٌ يَدُلُّ مَنْ
لَـــهُ نَـــوْعُ عَقْـــلٍ أَنَّـــهُ بِإِرَادَةِ

٣٣- وَإِصْدَارُهُ عَـــنْ وَاحِدٍ بَعْـــدَ وَاحِدٍ
أَوْ القَـــوْلُ بِالتَّجْـــوِيزِ رَمْيَةُ حِيرَةِ

ولا يمكن لعاقل نظر في الكون إلا وسيجد تخصيصا بين المخلوقات يدل على إرادة اتصف بها الخالق، والتخصيص الذي يعنيه هو التنوع واختلاف الناس في خلقتهم، فهذا رجل وهذه امرأة، وهذا جميل وهذا قبيح، وهذا غني وهذا فقير، وليسوا بنفس المواصفات كأنهم منتج

خارج من مصنع واحد، الكل له نفس السمات. فلا يمكن أن يكون الكون خارج على قطعة واحدة، أو نسخة واحدة، فلم نر الخلائق نسخة واحة، وإنما رأيناهم متنوعين، وهذا التنوع دليل على وجود إرادة لمن أوجده في أن يعطى هذا ويمنع ذاك، يعطى هذا المال ويمنع ذاك، ويمنح هذا الجمال ويبتلي ذاك، فلم نجد المخلوقات تخرج كنموذج واحد متكرر، أو أنها صدرت دفعة واحدة أو رمية واحده جوزها من نظر إلى المخلوقات بمثل هذا الكلام المحير، بل هناك مشيئة للخالق، بها خلق وخصص لكل مخلوق نصيبه تحقيقا لابتلائه بحكمته.

كما قال تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ الشورى:٤٩/٥٠. وقال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ ۖ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ آل عمران:٢٦.

٣٤- وَلا رَيْبَ فِي تَعْلِيـــقِ كُل مُسبَّبٍ
بِمَا قَبْـــلهُ مِنْ عِـــلةٍ موجـــبيَّةِ

٣٥- بَل الشَّأْنُ فِي الأَسْبَابِ أَسْبَابُ مَا تَرَى
وَإِصْدَارُهَا عَنْ الحُكْمِ مَحْضُ المَشيئَةِ

يعني أن الله تعالى خلق الدنيا بأسباب تؤدي إلى نتائج، وعلل تؤدي إلى معلولات، السبب والنتيجة، أو العلة والمعلول مخلوقان بمحض المشيئة ومراتب القدر، سواء ارتبط المعلول بعلته، أو انفصل عن علته، أو ارتبط

السبب بنتيجته أو انفصل عن نتيجته، فالعلل والأسباب سواء ترابطت أو انفصلت لا يؤثر ذلك في تعلقها بمشيئة الله وخلقه وقدرته، ولكن العلل والأسباب ترابطها أو انفصالها ظاهر عن كمال حكمته.

وبيان ذلك أنه لا رَيْبَ فِي تَعْلِيقِ كُل مسبب بما قبله، فالله ﷻ جعل الحياة مبنية على ترابط الأسباب بحيث لا يخلق النتيجة إلا إذا خلق السبب أولا، ولا يخلق المعلول إلا إذا خلق علته، فلا يخلق النبتة إلا إذا خلق البذرة أو الحبة، ولا يخلق الثمرة إلا إذا خلق النبتة، ولا يخلق الابن إلا إذا أوجد الأب والأم. ومن هنا ظهرت الأسباب للعقلاء كابتلاء يصح من خلاله العمل بأحكام البديهيات وحكم التجارب والأوليات، فأهل اليقين ينظرون إلى الأسباب ويعلمون أن الله ﷻ خلقها بمراتب القدر، فحقيقة التدبير أن خالق العالم جعل الأسباب والعلل بحيث يأتي المعلول في دبر علته، والنتيجة في دبر سببها وعقيب حدوثها وتحقيق علتها، بحيث تأتي أجزاء الكون وراء بعضها تباعا، وبحيث يؤثر بعضها في البعض الآخر، حتى يصل كل موجود إلى كماله المناسب وهدفه المطلوب، فالأمر كله لله ﷻ في خلقه عن مشيئته وكتابته وعلمه، والتدبير كله لله في كونه عن تقدير وقدرة.

ولا ريب أن الله تعالى قدر مقادير الخلائق، وما سيكون من الأشياء قبل إنشائها وخلقها، وشاء الله ﷻ أنها ستقع المقادير في أوقاتها المعلومة عنده، وعلى صفات مخصوصة، فهي تقع على حسب ما قدرها، وفي المقابل لا بد أن يؤمن العبد أن المقادير مقدرة بأسبابها، لأنه لو نظر إليها مجردة عن الأسباب، فإن نظرته لها نظرة ناقصة عوراء، وينشأ عنها

الضلال في اعتقاده أن الأعمال لا تنفع، وأن الأسباب لا تفيد، وهذا هو الأصل الفاسد الذي وقع فيه الجبرية، وهو مخالف للكتاب والسنة وصريح المعقول ومخالف للحس والمشاهدة، فإن الله تعالى أجرى هذا العالم على أسباب وعلل ينتج عنها معلولات ونتائج واقعية. فالسبب والمسبَّب واقع بقدر الله، ومن هنا صحت معاني الطب والتطبيب والأمر بالعلاج وأنه لم يخلق الله ﷻ داء إلا وخلق له دواء إلا الموت، والمشيئة الإلهية اقتضت دخول الجنة بالإيمان ودخول النار بالكفر وحصول الولد بالوطء والعلم بالتعلم، وهذا مما لا ينكر وإن كان الله تعالى هو خالق السبب والمسبب.

٣٦- وَقَوْلُكَ: لِمَ شَاءَ الإِلَهُ هُوَ الذي
أَزَلَ عُقُولَ الخَلقِ فِي قَعْــرِ حُفْــرَةِ

يقصد أن هذا الذمي وقع في قعر حفرة من الضلال لأنه أراد أن يحاكم رب العزة والجلال ويحاسبه بعقله على أفعاله، وأن يسأله كما يسأل البشر، لم شئت كذا؟ ولم لم تشأ كذا وكذا؟ والله ﷻ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، فأنت عبد فقير محتاج إليه سبحانه وتعالى فسلم له وأسلم لله ﷻ وآمن به، وستجد كل الحِكَم فيما أخبرك عن أسمائه وصفاته، ونعمة الإيمان ما بعدها نعمة.

٣٧- فَإِنَّ المَجُوسَ القَائِلِــينَ بِخَــالقٍ
لِنَــفْعٍ وَرَبٍّ مُبْــدِعٍ لِلمَضَــرَّةِ

٣٨- سُؤَالُهُمْ عَنْ عِلَــةِ السِّرِّ أَوْقَعَتْ
أَوَائِلَــهُمْ فِــي شُبْــهَةِ الثَنــوية

يقصد رحمه الله أن المعترض على ربه عندما تساءل لم يشاء الله كذا ولا يشاء كذا؟ ولم خلق الخير والشر؟ فاحتاروا ولم يعرفوا حقيقة الحل فيما هو واقع من القضاء والقدر، وتوجيه وقوع النفع والضرر، فقالوا كما قال المجوس: الحل أن نجعل إلها للخير وإلها للشر، وليس إلها واحدا خلق الخير والشر. وهذه تسمى المثنوية، أو الازدواجية الثنائية في وجود الإلهية في عقيدة المجوس؛ ولذلك فإن المعتزلة لما قالوا: إن الله ﷻ لم يخلق الشر ولا يخلق إلا الخير فقط، وأن الإنسان هو الذي خلق الشر وأوجده في هذا العالم، أطلق عليهم أهل السنة مجوس الأمة القدرية، بل هم أسوء من المجوس حالا، لأن المجوس آمنوا بوجود إله واحد فقط يخلق الشر، والمعتزلة جعلوا آلهة بعدد الكفار من بني آدم، وجعلوا أكثر من خالق في الكون، فمذهبهم في القدر أشد كفرا من كفر المجوس.

ومن ثم فإن سؤال السائل على وجه الاعتراض: لم شاء الله كذا؟ وما العلة والسر في أن يفعل الله كذا وكذا؟ هو الذي أضاع الدنيا وولد بين الناس الحقد والكره والجهل، وكل هذا حدث من الفرق الضالة بسبب الاعتراض على مشيئة الله تعالى .

٣٩- وَإِنَّ ملاحيـــد الفَلاسِـــفَةِ الأُولى
يَقُولونَ بِالفِعْـــلِ القَـــدِيمِ لِعِـــلَةِ

٤٠- بَغَوْا عِلـــةً للكَوْنِ بَعْـــدَ انْعِدَامه
فَلَمْ يَجِـــدُوا ذاكم فَضَـــلوا بِضَلَة

أراد الفلاسفة أن يقيسوا أفعال الخالق على نظام الأسباب التي نعرفها، فقولهم بالفعل القديم لعله أي أنهم جعلوا ذات الله علة يصدر عنها

معلول كسائر الأسباب في نظام تولدها عن بعضها، أو كصدور الابن وتولده عن الأب، فجعلوا ذات الله ﷻ والدة للكون بما فيه، تعالى الله عن قولهم. أما العلة في وجود الخلائق فهي صفات الله الفاعلة الأزلية الأولية. وفرق بين وجود الشئ وفعل الله الذي أوجده، ففعل الله صفة من صفاته أولي بأولية الذات، وليست الذات علة للمفعولات، فعلة كل شيء صنعه، ولا علة لصنعه. والفرق واضح بين ذات الله وصفاته من ناحية، وبين مفعولاته ومخلوقاته من ناحية أخرى، فإن الله ﷻ صانع كل شئ بقدرته، وعلة كل شئ صُنْعُه.

وبصورة أيسر لفهم كلام الفلاسفة وأنهم يريدون أن يجعلوا الله ﷻ علة، فمثلا الإنسان يولد من أب فيسمى الولد نتيجة والأب سبب، والأب يسمى عند الفلاسفة علة والابن معلول، والأب نفسه كان معلولا موجودا بعد علة، وهكذا نظام المخلوقات كلها سوف يعود إلى معلول نتج عن علة إلى أن تصل إلى المعلول الأول وهو الكون والعلة الأولى وهي ربنا سبحانه وتعالى، وهذا خطاء عظيم، لأن العلة الأولى ليست هي ذات الله، وإنما هي خلق الله للمخلوق الأول، فالعلة الأولى مخلوقة، وليس الحق سبحانه وتعالى عله، وهم قالوا: إن الله هو العلة القديمة أو العلة الأولية، وهذا غير صحيح بل كلام باطل لأنه سبحانه خالق العلة والمعلول، وليس هو بعله ولا معلول كما قال تعالى: كما قال تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾ الإخلاص:٣.

٤١- وَإِنَّ مبادي الشَّــرِّ فِي كُل أُمَّةٍ

ذَوِي مِــلةٍ مَيْمُــونَــةٍ نَبَــوِيَّــةِ

٤٢- بخوضهم فِي ذَاكُمُ صَارَ شِرْكُهُمْ
وَجَـــاءَ دُرُوسُ البَيِّنَاتِ بِفَتْـــرَةِ

يعني أن بداية الشر التي تظهر في أي أمة نبوية مباركة ميمونة لها وحي من الله ﷻ وشرائع وأحكام، بداية الشر فيها سببه تقديم عقولهم على كتاب ربهم وسنة نبيهم، فيقدمون كلام الفلاسفة والمتكلمين ويجعلونه مقياسا حاكما على كلام رب العالمين، فيردون من العقائد والشرائع ما يريدون ويأخذون من الكتاب والسنة ما يرغبون، فيبتدعون في العقائد والعبادات، وبعد فترة من انتشار البدع وقيام الناس على هذه المذاهب الباطلة يدرس الحق ويختفي ما ثبت بالنص والدليل، كما حدث في انتشار المذهب الأشعري حيث استمر فترة طويلة حتى أطلقوا عليه مذهب أهل السنة زورا وبهتانا، وأصبح مذهب أهل السنة الحقيقي الذي هو مذهب السلف القائم على القرآن والسنة، أصبح مذهبا مستهجنا حشويا مجسما ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وأبرز دليل على ذلك اعتماد المؤسسات التعليمية في البلاد الإسلامية الأسماء المشهورة التي جمعها الوليد بن مسلم، وفيها واحد وعشرون اسما لا يجوز تسمية الله بها، ولا دليل عليها، وتسمية الله بها يعد إلحادا في أسمائه كما ذكر ذلك أعلامهم، ورفضهم اعتماد الأسماء التوقيفية الثابتة بنصها، وحجتهم أن الناس لا تعرفها، فضاع الحق والدليل تحت ما انتشر من البدع والتأويل. وهذا الذي حدث أيضا مع اليهود حيث نزل الوحي إليهم كما أنزل على محمد ﷺ، نزل على موسى وعيسي عليهما السلام بوحي نقى سليم، فضيعه القساوسة والرهبان والأحبار،

وبعد فترة بدأ الناس يسألون عن الكتاب والوحي فلم يجدوا إلا كلام الأحبار والرهبان، فانمحت البينات ودرست، وأصبح الباطل الذي وضعه القساوسة حقا فضلت الأمة.

٤٣- وَيَكْفِيكَ نَقْضًا أَنَّ مَا قَدْ سَأَلْتَهُ
مِنْ العُذْرِ مَرْدُودٌ لَدَى كُل فِطْـرَةِ

٤٤- فَأَنْتَ تَعِيبُ الطَّاعِنِينَ جَمِيعَهُمْ
عَلَيْـكَ وَتَرْمِيـهِمْ بِكُل مَـذَمَّةِ

قوله: وَيَكْفِيكَ نَقْضًا، أي نقضا لكلامك وزعمك بأنك مسير على الكفر الذي أنت فيه، وتزعم كذبا وزورا أنك ليس لك حيلة في دفعه أن تدفع الجزية لتبقى على يهوديتك أو نصرانيك، وتحارب من أجل البقاء على شركك وكفرك، وتعيب على الذين يطعنون في دينك، وتغضب منهم وتسبهم وتلعنهم وتصف من ليس على دينك بكل أنواع الذم والنقص، وتشتكي وتطالب الآخرين بحقوقك، ولم تسكت على ضياع ما تراه من حقك، ولم تحتج عندها بأنك مسير مجبر، فلم لا تعتبر الطاعنين عليك المحاربين لك مسيرين أيضا بقضاء الله وقدره؟

٤٥- وَتَنْحَل مَنْ وَالاكَ صَفْوَ مَوَدَّةٍ
وَتُبْغِـضُ مَنْ ناواك مِـنْ كُل فِرْقَةِ

٤٦- وَحَالُهُمْ فِي كُل قَوْل وَفِعْـلَةٍ
كَحَـالِكَ يَا هَـذَا بِأَرْجَحِ حُجَّـةِ

كما أنك تتقرب بالمودة الصافية والمحبة المتناهية إلى من كان على

اليهودية مثلك أو النصرانية، فتقربه وتحبه وتعطيه، وتقول: هو أخي ومعي وعلى ديني، وفي المقابل تبغض وتبعد كل من عاداك وناوأك وحاربك، بل تحاربه وتمكر له وتقاتله، فحَالهُمْ فِي قتالك وكُل قَوْل وَفِعْل لهم في حربك، كَحَالكَ في محاربتهم والسعي للقضاء عليهم، هذه حجة ما بعدها حجة، فلا داعي لعصيان الله ﷻ ثم الصراخ والتعلل بأنك مسير مجبر، قد جبرك القدر على أفعالك، فالفطرة والعقل يشهدان أنك كذاب معاند.

٤٧- وَهَبْكَ كَفَفْتَ اللوْمَ عَنْ كُل كَافِرٍ
وَكُل غَــوِيٍّ خَــارِجٍ عَنْ مَحَــبَّةِ

٤٨- فَيَلزَمُكَ الإِعْرَاضُ عَنْ كُل ظَــالِمٍ
عَلى النَّاسِ فِي نَفْسٍ وَمَال وَحُرْمَةِ

ولو أننا فرضنا صحة قولك بأن جميع الكافرين والضالين المجرمين الغاوين الخارجين عن الشريعة وما ارتضاه رب العالمين وأحبه للناس أجمعين، لو أننا فرضنا أنهم كما زعمت مسيرون وغير ملامين على أفعالهم، فيلزمك أن تعرض عن كل ظالم للناس في قتله للنفس التي حرم الله ﷻ، وأخذ المال بالسرقة والظلم لعباد الله، وانتهاك العرض الذي هو أشرف ما في الحياة، ولا تطالب بمحاكمة هؤلاء المجرمين أو معاقبتهم أو القصاص منهم، فدعهم يسرقون ويقتلون كما يشاءون ويحتجون بما تحتج به في زعمهم أنهم مسيرون وغير عاصين في اتباع المشيئة.

٤٩- وَلا تَغْضَبَنْ يَوْمًا عَلى سَافِك دَمًا
وَلا سَــارِقٍ مَالا لصَاحِبِ فَاقَــةِ

٥٠- وَلا شَاتِمٍ عِرضًا مَصُونًا، وَإِنْ عَلا

وَلا نَاكِحٍ فَرْجًـــا عَلى وَجْهِ غَيِّة

٥١- وَلا قَاطِعٍ لِلنَّـــاسِ نَهْجَ سَبِيلِـــهِمْ

وَلا مُفْسِدٍ فِي الأَرْضِ فِي كُل وِجهة

٥٢- وَلا شَاهِـــدٍ بِالزُّورِ إِفْكًا وَفِرْيَـــةً

وَلا قَـــاذِفٍ لِلمُحْصَـــنَاتِ بِزِنْـــيَة

٥٣- وَلا مُهْلِكٍ لِلحَرْثِ وَالنَّسْل عَامِدًا

وَلا حَـــاكِمٍ لِلعَـــالَمِـــينَ بِرِشْـــوَة

٥٤- وَكُفَّ لِسَانَ اللومِ عَنْ كُل مُفْسِد

وَلا تَأْخُـــذَنْ ذَا جُـــرمٍ بِعُقُـــوبَة

٥٥- وَسَهِّل سَبِـــيلَ الكَاذِبِينَ تَعَمُّـــدًا

عَلى رَبِّهِمْ مِنْ كُل جَـــاءٍ بِفِرْيَة

٥٦- وَإِنْ قَصَدُوا إِضْلال مَنْ يَسْتَجِيبُهُمْ

بِرَوْمِ فَسَـــادِ النَّوْعِ ثُمَّ الرِّيَاسَة

وعلى مذهبك أيضا في أنك مسير في عملك للمعاصي وغير مسئول عنها لأنك تحتج بأن الله ﷻ قدرها عليك، فلا تغضب يوما على من سفك دم أحد من أهلك، أو سرق مالك ومال الفقراء ذوي الفاقة، ولا تغضب أيضا لمن قذفك وشتمك وسبك وانتهك عرضك وزنى بأهلك، أو قطع طريقك وطريق غيرك، وأفسد في الأرض ليهلك الحرث والنسل. وهل يقبل أن تطالب الناس جميعا ألا يغضبوا من شهادة الزور

أو الافتراء بالكذب على الآخرين، أو قذف المحصنات بالزنا، أو العمل لدى الحكام بالرشوة أو إهلاك الحرث والنسل؟

وهل يعقل أن يعطل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ
نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ٣١ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً
وَسَآءَ سَبِيلًا ٣٢ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ
جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ٣٣ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ
ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ٣٤
وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ٣٥ وَلَا تَقْفُ مَا
لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ٣٦ وَلَا تَمْشِ فِي
ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ٣٧ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ
رَبِّكَ مَكْرُوهًا ٣٨﴾ الإسراء:٢٦/٣٨؟

وهل يعقل أن تطالب بترك معاقبة المجرمين، ومساعدة الكذابين الذين يفترون الكذب على ربهم عمدا ليضلوا أتباعهم ويفسدوا رؤساءهم حتى تصبح الحياة شرا محضا؟ فادعائك رفع الملامة على المعصية، كادعاء من اعتدى عليك في رفع الملامة، فأنت مسير وهم أيضا مسيرون، فلا تلم هؤلاء ولا تحاسبهم، ولا تضع القوانين التي تحاسبهم بها لأنهم مسيرون، فلماذا تلوم هؤلاء إذا اعتدوا عليك وتطالب بحقك؟ فكل أفعالهم أيضا تحت المشيئة، وكلها بقضاء الله وقدره.

وهل يعقل أن تعطل جميع الأحكام التشريعية التي أنزلها الله في الرسالة السماوية، أو حتى جميع القوانين الوضعية التي تضبط أفعال الإنسانية في سائر المجتمعات الدولية ؟ ومعلوم أن اليهود والنصارى هم أكثر الناس

تقربا إلى الحكام عن طريق الرشوة والربا، واستخدام الإعلام الفاسد والبغايا من النساء لإذلال بعض الحكام والأمراء بارتكابهم الفحشاء حتى ينفذوا مطالبهم، ويحققوا مرادهم، ولن يقبل أحد من اليهود والنصارى أن يرفض المسئولون مطالبهم ،ويحتجون عليهم بأن رفضها كان بمشيئة الله وقضائه وقدره، بل نحن نرى أن أحدهم لو تعرض لبعض الأذى وهو سائح في البلاد العربية أو الإسلامية، انقلبت الدنيا رأسا على عقب حتى يأخذ حقه كاملا غير منقوص. إذا فلم الكذب على الله ﷻ بأن اليهودي أو النصراني الذمي مجبور على العصيان، ومجبور على انتهاك حقوق الآخرين؟ ولم المعاندة لشرع الله ورسله أجمعين، ثم الاحتجاج على المعصية بقضاء الله وقدره لأنه كتبه قبل خلق العالمين؟

٥٧- وَجادِل عَنْ المَلعُونِ فِرْعَوْنَ إذْ طَغَى
فَأُغْــرِقَ فِي اليَمِّ انْتِقَــامًا بِغَضْبَةِ

٥٨- وَكُــلِ كَفُــورٍ مُشْــرِكٍ بِإِلهِــه
وَآخَــرَ طَــاغٍ كَافِــرٍ بِنُبُــوَّةِ

٥٩- كَعَــادٍ ونمْــرودٍ وَقَــوْمٍ لِصَــالِحٍ
وَقَــوْمٍ لِنُــوحٍ ثُمَّ أَصْحَابِ أَيْكَةِ

٦٠- وَخَاصِــمْ لِمُوسَى ثُمَّ سَــائِرِ مَنْ أَتَى
مِنْ الأَنْبِــيَاءِ مُحْيِــيًا لِلشَّــرِيعَةِ

٦١- عَلَى كَوْنِهِمْ قَدْ جَاهَدُوا النَّاسَ إِذْ بَغَوْا

وعلى مذهبك أيضا في أن العاصي مسير في عصيانه، ولا يلام على فعله لأنه واقع بقضاء الله وقدره، فجادل إذا عن فرعون الملعون في التوراة والإنجيل والقرآن، وازعم بزورك وبهتانك أن الله ﷻ ما كان له أن يغضب عليه ويغرقه في اليم، لأن كان مظلوما وكان كفره بربه كما تزعم لا يلام فيه لأنه واقع بقضاء الله وقدره. قال تعالى:﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾﴾ القصص:٨.

ودافع أيضا بجدالك الباطل، واحتجاجك بالقضاء والقدر عن الكفار والمشركين بالله والطغاة، الكافرين بالأنبياء والمرسلين، كقوم عاد وثمود وقوم صالح، وقوم نوح، وأصحاب الأيكة [(١)]، وازعم زورا وكذبا أن الله ﷻ أهلكهم بظلم القضاء والقدر، وأنهم كانوا مظلومين، وأن كفرهم كان بغير إرادتهم وقد وقع عليهم بمشيئة رب العالمين وقضائه وقدره. وهذا كلام باطل يتصادم مع الحقيقة والفطرة والعقل والنقل. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ الفجر:٦/١٤.

---

(١) قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ الشعراء:١٧٦/١٧٧. الأيكة هي الشجر الكثير الملتف، بعث الله نبيه شعيبا عليه السلام إلى قومه من أهل مدين، وإلى أهل البادية فكذبوه. انظر تفسير الطبري ١٠٧/١٩.

وقال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ١٠٧﴾ النساء:١٠٧.

وعليك يا ذمي باحتجاجك بالقضاء والقدر على جواز فعل المعاصي أن تخاصم موسى عليه السلام، وتهدم ما أنت عليهم من اليهودية والنصرانية وسائر ما كانت عليه كتب الأنبياء؛ لأنهم جاءوا لمجاهدة الناس ووقف بغيهم، ورد كفرهم وشركهم وأكلهم أموال الناس بظلمهم وإجرامهم، وتوقيع العقوبة على عصيانهم، لأن أقوامهم ما أساءوا في شيء ولا كفروا ولا كذبوا ولا أشركوا، لأن كل ما حدث منهم من أقوال وأفعال إنما كانت بقضاء الله وقدره. ومعلوم أن هذه زندقة تنافي ما كان عليه موسى عليه السلام، وهرطقة تهدم ما كان عليه عيسى عليه السلام.

٦٢- وَإِلا فَكُل الخَلقِ فِي كُل لفْظَةٍ
وَلحْظَةِ عَـيْنٍ، أَوْ تَحَرُّكِ شَعْرَةِ

٦٣- وَبَطْشَةِ كَفٍّ، أَوْ تَخطِّي قُدَيمَةٍ
وَكُل حَـرَاكٍ، بَل وَكُل سَكِينَةِ

٦٤- همو تَحْتَ أَقْدَارِ الإِله وَحُكْمِه
كَمَا أَنْتَ فِيمَا قَدْ أَتَيْتَ بِحُجَّةِ

كل الخلائق مؤمنين أو كافرين واقعون تحت القضاء والقدر، سواء وافقوا الشرائع أو خالفوها، فالله عز وجل خلق الإنسان وعمله كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ٩٦﴾ الصافات:٩٦. فكل لفظ أو حركة جفن في عين، أو حركة شعرة في رأس أو بدن، أو بطشة كف

خطوة قدم، وكل حركة أو سكنة مخلوقة بقضاء الله وقدرة، سواء كانت طاعة أو معصية، فمن سرق بقدر الله، قطعت يده بقدر الله، والحجة في الإجرام إن كانت القضاء والقدر فهي الحجة في المعاقبة عليه وهي القضاء والقدر.

لكن حظ أنبياء الله ورسله وأتباعهم اتباع الأمر الشرعي الديني والإيمان بالقضاء الكوني، فيعملون بشرع الله ويؤمنون بقدر الله، أما أعداء الله فهو واقفون مع القضاء الكوني فدينهم دين القدر، يعصون أمره ويحتجون بقضائه وقدره على معصيتهم، فلا ينفعهم وقوفهم مع المراد الكوني ،ولا يكون ذلكم عذرا لهم عند الله ﷻ، إذ لو كان العذر بإرادته الكونية، لم يذم أحدا من خلقه على معصيته، ولم يعاقبه على وزره، ولم يكن في خلقه عاص ولا كافر، ومن زعم ذلك فقد كفر بالله ﷻ وكتبه كلها وجميع رسله. فلا يعقل أن هذا الذمي يرى رجلا يفجر بامرأته ويزني بها، ثم يقبل عذرها ولا يعاقبها بحجة أن زناها كان بالقضاء والقدر. وإذا فعله كان ديوثا مذموما في حكم الفطرة والعقل والنقل، فليس لأحد أن يحتج على فعل الذنوب والمعاصي بقدر الله ﷻ، بل عليه أن لا يفعلها، وإذا فعلها فعليه أن يتوب منها.

٦٥- وَهَبْكَ رَفَعْتَ اللوْمَ عَنْ كُل فَاعِلِ
فِعَالا رَدًى طَرْدًا لهـذي المَقِيسَةِ

٦٦- فَهَل يُمْكِنُ رَفْعُ المَلامِ جَمِيعِه
عَنْ النَّاسِ طَرًّا عِنْدَ كُل قَبِيحَةِ؟

٦٧- وَتَرْكُ عُقُوبَاتِ الذينَ قَدْ اعْتَــدَوْا
وَتَرْكُ الوَرَى الإِنْصَافَ بَيْنَ الرَّعِيَّةِ

٦٨- فَلا تُضْمَـــنَنْ نَفْسٌ وَمَالٌ بِمِـــثْله
وَلا يُعْقَـــبَنْ عَادٌ بِمِـــثْلِ الجَرِيمَـــةِ

٦٩- وَهَل فِي عُقُول النَّاسِ أَوْ فِي طِبَاعِهِمْ
قَبُول لِقَوْل النَّذْل مَا وَجْهُ حِيلَتِي؟

يقول ابن تيمية ردا على سؤال الذمي: لو فرضنا أننا لا نلوم أحدا في الدنيا على عصيانه وأفعاله الردية، قياسا على احتجاجك بالقدر على معصيتك، فهل يمكن أن نرفع الملام عن جميع الناس في عصيانهم وإجرامهم بلا استثناء، ونقول: لا أحد ملام فيما يفعله، وليفعل كل إنسان ما يشاء، فهل ستكون الحياة إنسانية أم غابة حيوانية؟

والواقع يشهد بأن المعتدى يعاقب، وأن الحكام والأمراء وغيرهم ممن يتولى المسئولية يسعون إلى الإنصاف بين الرعية، ولا يتركون ذلك لأنه لازم لمناصبهم ورئاستهم، بل القوانين في كل شريعة تلزم بالقصاص وأن النفس بالنفس والعين بالعين، كما قال تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ المائدة:٤٥. والسارق معاقب على جريمته كما قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَـٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ المائدة:٣٨.

ولو قال قائل بقول هذا الذمي في مطالبته بعدم محاسبته على جرمه، ونادى بألا يحاسب أحد أحدا وطالب بإلغاء القضاء والمحاكم والسجون لقال الجميع: هذا غير معقول بل من طالب بذلك مهبول ومجنون، والحقيقة أن من يطالب بذلك نذل خسيس، يريد أن يحيا وحده وأن يموت الآخرون، فيأكل أرزاقهم، ويسفك دماءهم، ويهتك أعراضهم، ويقول: أنا مجبور في نذالتي، فما وجه حيلتي؟

٧٠- وَيَكْفِيكَ نَقْضًا مَا بِجِسْمِ ابْنِ آدَمَ
صَبِيٍّ وَمَجْنُـــونٍ وَكُل بَهِيمَـــة

٧١- من الأَلَمِ المَقْضــِيِّ فِي غَيْرِ حِيــلَةٍ
وَفِيمَا يَشَاءُ اللهُ أَكْمَلَ حِكْمَــةِ

قول ابن تيمية: ويكفيك نقضا، أي نقضا لسؤالك في تبريرك الكفر بالقضاء والقدر، ومطالبتك بإلغاء الأحكام المترتبة على أسبابها، يكفيك نقضا أن حكمة الله ﷻ ومشيئته اقتضت أن الصبي الصغير، أو المجنون، أو حتى البهيمة إذا أصابها الوجع والألم توجعت وصرخت وبكت، ولو أردت أن تضرب الطفل الصغير أو المجنون سعى مباشرة لضربك، وسعت البهيمة لنطحك، كل يسارع ليدفع ظلمك وبغيك، فالحيوانات لا تسكت عن حقها، بل تدفع الشر عن نفسها، فكيف تريد أنت أن تكف اللوم عن المجرمين والكافرين والمشركين أجمعين، وتطالب برفع العقوبات وإسقاط الحدود، وخصوصا إذا كان المجرم من النصارى واليهود؟ وتحتج بقولك: إذا شاء ربى الكفر منى مشية، فهل إنا عاصي في إتباع مشيئة؟

٧٢- إِذَا كَانَ فِي هَــذَا لهُ حِكْمَــةٌ
فَمَا يُظَنُّ بِخلقِ الفِعْلِ ثُمَّ العُقُــوبةِ؟

إذا كانت حكمة الدفع بمعاقبة المعتدي ورد الأذى ودفع الشر وجلب الخير في أفعال غير المكلفين مثل البهيمة والصبي والمجنون، ألا يكون ذلك في أفعال الإنسان المكرم الذي استخلفه الله ﷻ في أرضه، واستأمنه في ملكه، وخوله فيما ابتلاه واسترعاه، أليس الكمال في وجود الشرائع والأحكام وتمييز الحلال من الحرام، ووجود الثواب والعقاب، والعرض والحساب وتدوين الأفعال في الكتاب؟

قال الله تعالى: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ الكهف: ٤٩.

٧٣- وَكَيْفَ وَمِنْ هَذَا عَذَابٌ مُوَلَّدٌ
عَنْ الفِعْلِ فِعْلِ العَبْدِ عِنْدَ الطَّبِيعَةِ؟

٧٤- كَآكِلِ سُمٍّ أَوْجَبَ المَوْتَ أَكْلُهُ
وَكُــلٌ بِتَقْــدِيرِ لِــرَبِّ البَرِيَّــةِ

إن حكمة الله اقتضت أن الأسباب الطبيعية نفسها يتولد عنها نتائجها سواء كانت مؤلمة أو مبهجة، فكل فعل له رد فعل، ومن آذى نفسه بشيء شعر بالأذى والألم، فعندما يأكل المرء طعاما مسموما فالنتيجة الحتمية هي الموت، فمن أكل السم أكله بقدر الله ﷻ ومات أيضا بقدر الله، كمن ألقى نفسه تحت إطارات سيارة مسرعة فمات بقدر الله،

ولكنه مات كافرا منتحرا متحملا عقوبة ووزرا مخالفا شرعا وأمرا، فمن أكل سما عمدا ومات فله النار، واحتجاجه بجريان الأقدار لا يخرجه من النار، فالنار نتيجة لسبب، ومعلول نتج عن علة، والعلة هي مخالفة الشرع، فمخالفة الشرع تؤدى إلى النار، كما أن موافقة الشرع تؤدى إلى الجنة، وجميع الأسباب بتقدير رب العزة والجلال.

٧٥- فَكُفْــرُكَ يَا هَذا كَسُــمٍّ أَكَلتَهُ

وَتَعْذِيبُ نَــارٍ مِثل جَرْعَةِ غُصّــَةِ

يعني أن العقوبات نتائج مبنية على الأسباب التي يباشرها الإنسان ويأخذ بها، شأنها شأن من مات بسبب أكله لطعام مسموم، وكمن وقف الماء حال شربه في حلقه كغصة في البلعوم، فعذاب النار ناشئ أيضا عن سبب أخذ به الإنسان أيضا، وهذا السبب هو كفره برب العزة والجلال ومخالفته للإرادة الشرعية كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُۖ لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ٢٨﴾ فصلت:٢٨. وفي المقابل قال سبحانه وتعالى عن أهل الجنة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٤﴾ الأحقاف:١٤.

٧٦- أَلسْتَ تَرَى فِي هَذه الدَّارِ مَنْ جَنَى

يُعَاقَــبُ إمَّا بالقضــا أَوْ بِشرْعَةِ؟

٧٧- وَلا عُذْرَ للجَــانِي بِتَقْدِيرِ خَــالقٍ

كَذَلكَ فِي الأُخْــرَى بِلا مَثنــوِيَّةِ

ومعلوم أن الجزاء يلقاه الإنسان في الدنيا قبل الآخرة، فنحن نرى في

هذه الدار أن الجاني يعاقب عند القاضي الوضعي أو القاضي الشرعي بالقوانين الوضعية أو القوانين الشرعية، ولا يقبل القاضي عذرا من الجاني أنه فعل الجرم بتقدير الخالق وقضائه وقدره، فإذا كان هذا في الدنيا كذلك الحساب في الآخرة بقياس الأولى.

والله سبحانه وتعالى هو وحده الذي يحاسب المؤمنين بفضله ويحاسب الكافرين بعدله، ولا نقول بالمثنوية في وجود إله يحاسب على الخير، وإله آخر يحاسب على الشر، بل هو سبحانه وتعالى إله وحد، لا يقاس على خلقه بقياس تمثيلي أو شمولي.

٧٨- وَتَقْدِيرُ رَبِّ الخَلقِ للذَّنْبِ مُوجِبٌ
لتَقْــدِيرِ عُقْبَى الذَّنبِ إلا بِتَــوْبَةِ

٧٩- وَمَا كَانَ مِنْ جِنْسِ المَتَــابِ لِرَفْعِه
عَوَاقِبَ أَفْعَــالِ العِبَادِ الخَبِــيثةِ

٨٠- كَخَــيْرٍ بِهِ تُمْحَى الذُّنُوبُ وَدَعْوَةٍ
تُجَابُ مِنْ الجَانِي وَرَبِّ شَفَاعَةِ

يعني أن القدر واقع على الأسباب والنتائج معا، فأفعال العباد يخلقها الله ﷻ في حال الطاعة أو حال المعصية، والعقوبة تقع بتقدير الله كنتيجة للطاعة والمعصية، فالذبح مثلا أفعاله واحدة، وخلقها الله وحده، خلق السكين والذبيحة، لكن الذبح يكون قربة لله ﷻ وإيمانا وتوحيدا إذا وافقت نية العبد وإرادته شرع الله، ويدخل الجنة بقدر الله، ويكون الذبح لعنة وكفرا وشركا إذا خالفت نية العبد واختياراته

شرع الله ويدخل النار بقدر الله، فالفعل في الحالتين خلقه الله ﷻ، ونية العبد في الأخذ بالأسباب تكسبه معني الخير والشر، والعقوبة على الفعل خلقها الله أيضا خيرا أو شرا.

وكذلك مثلا المعاشرة التي تكون بين الرجل والمرأة، أفعال المعاشرة واحدة تتم بقدر الله وخلقه لعباده، هو الذي أقدرهم على الفعل ومنحهم سلامة آلاته، وركب في كل منهما نزعاته وشهواته ابتلاء وامتحانا له في حياته، لكن نقول عن المعاشرة زواجا وابتهاجا ونكاحا حلالا إذا كانت بإذن أولياء المرأة، وعلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ونقول عن المعاشرة زنا وفاحشة واغتصابا وخيانة إذا كانت مخالفة لشرع الله، فالفعل في الحالتين واحد وهو من خلق الله وتقديره، والنية هي التي تكسب الفعل معنى الخير والشر بالموافقة أو المخالفة للشرع.

والعقوبة على الزنا واقعة أيضا بقدر الله ﷻ فكل شيء واقع بقدر الله، وليس أمام الإنسان إلا التوبة من العصيان، وما كان من جنس التوبة من الذكر والاستغفار وطلب العفو من الرحمن، وأن يدعو الله أن يرفع عنه وزره، وأن يضاعف أجره، وما سبق من خبيث فعله يدفعه بفعل الخيرات التي تمحو الذنوب وتبدل السيئات حسنات، ويتمسك بتوحيد الله ﷻ حتى يوم الممات، لينال شفاعة النبي ﷺ في تكفير الذنوب ورفعة الدرجات في الجنات.

إن وقوع الذنوب بقدر الله ﷻ، ولكن المسئول عنه هو العبد، فالله ﷻ قدر عقوبة الذنب، وعقوبة الذنب هنا هي النار، فكما قدر السبب

قدر النتيجة، خلق السبب وخلق النتيجة، خلق العلة وخلق المعلول، إلا أن يتوب هذا الذي أساء إلى ربه، وأساء إلى نفسه وعصى الله ﷻ، فالتوبة تجب ما قبلها، وهى سبب في دخول الجنة.

٨١- وَقَوْلُ حَليفِ الشَّرِّ إنِّي مُقَــدَّرٌ

عَليَّ كَقَوْلِ الذِّئْبِ هذي طَبِيــعَتِي

قوله: وَقَوْلُ حَليفِ الشَّرِّ. يعني الذمي السائل، فابن تيمية رحمه الله سماه حليف الشر، لأنه في زعمه أن الشر مقدر عليه، يشبه قول الذئب هذه طبيعتي، أي الافتراس وأكل حقوق الآخرين بالباطل، وهو في المقابل يطالب الآخر أن يكون حملا وديعا، ويطالب سائر الناس أن يكونوا أبقارا وجاموسا وغزلانا وألا يكونوا ذئابا ليفترسهم هو.

٨٢- وَتَقْدِيرُهُ للفِعْــلِ يَجْلبُ نِقْمَــةً

كَتَقْدِيرِهِ الأَشْيَــاءَ طُــرًّا بِعِــلَةِ

وتقدير الله وخلقه لفعل الإنسان سبب في خلق الله ﷻ لنتائج فعله كما هو الحال في سائر الأسباب والنتائج. فالعلل والمعلولات أو الأسباب والنتائج كحبات العقد أو الخرز، وإرادة العبد تشبه الخيط الذي ينتظم عليه الحب أو الخرز ليكوّن شكلا حسنا موافقا للشرع ويصير خيرا أو شكلا قبيحا مخالفا له ويصير شرا. وعلى ذلك فالفعل البشرى الذي خلقه الله ﷻ يبدأ بنية وإرادة، وينتهي بعد توالي الحركة والسكون إن قدر الله خلقها بتحقيق المراد أو عدم تحقيقه، فالفعل البشرى علته الأولى البادئة أو علة بدايته داخلية في ذات الإنسان ومتمثلة في إرادة الفعل، ونهاية الفعل أو معلوله الأخير أيضا داخلي في ذات

الإنسان، ومتمثل في تحقيق المراد وإشباع الإرادة، فهو إما ينتهي محققا لذة وسرورا ومتعة، أو محققا ألما وضررا وبؤسا. ومساحة ما بين العلة الأولى والمعلول الأخير من العلل والمعلولات الخارجية في الفعل البشرى هي من خلق الله ﷻ وتوفيقه وإمداده وتيسيره وهذه المساحة هي عدد الأسباب أو عدد حبات العقد أو الخرز في المثل الذي ذكرناه.

فابن تيمية يشير إلى أن تقدير الله للأفعال وما يترتب عليها من نعم أو نقم أمر مستمر في وقوع القضاء والقدر، ولا ينافي الحكمة في معاقبة الجاني وإكرام العبد الرباني، وذلك شأنه شأن سائر الأسباب ونتائجها التي يخلقها على الدوام، ولم يمنع تقديره لها أن تكون أسبابا نأخذ بها في حياتنا وتحقق الحكمة من وجودنا ويتم عدل الله وفضله فينا.

٨٣- فَهَل يَنْفَعَـــنْ عُذْرُ المَلـــومِ بِأَنَّهُ
كَذَا طَبْعُـــهُ أَمْ هَل يُقَـــال لِعَـــثْرَةِ؟

٨٤- أَمْ الذَّمُّ وَالتَّعْذِيبُ أَوْكَدُ للذي
طَبِيعَـــتُهُ فِعْـــل الشُّرُورِ الشَّنِيـــعَةِ؟

هل ينفع الظالم أن يبرر ظلمه بأن الظلم طبع فيه، فيجب إقالة عثرته وأن يعذر في جرمه وخطيئته؟ أم أن ذنبه الذي اعتاده، وأصبح من طبعه يحتم علينا ذمه، وتعذيره، وتعذيبه، حتى يرجع عن أفعاله الشنيعة الشريرة؟ فهذا هو منطق الظالمين المعاندين. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ

﴿ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣﴾ المائدة: ٣٣.

٨٥- فَإِنْ كُنْتَ تَرْجُو أَنْ تُجَابَ بِمَا عَسَى
يُنْجِيـــكَ مِنْ نَارِ الإِلهِ العَظِيمَةِ

٨٦- فَدُونَكَ رَبُّ الخَلقِ، فَاقْصِدْهُ ضَارِعًا
مُرِيدًا لأَنْ يَهْدِيَكَ نَحْوَ الحَقِيقَةِ

٨٧- وَذَلل قِيَادَ النَّفْسِ للحَقِّ، وَاسْمَعَنْ
وَلا تُعْرِضَنْ عَنْ فِكْرَةٍ مُسْتَقِيمَةِ

٨٨- وَمَا بَانَ مِنْ حَـــقٍّ فَـــلا تَتْرُكَـــنَّهُ
وَلا تَعْصِ مَنْ يَدْعُو لأَقْوَمِ شِرْعَةِ

٨٩- وَدَعْ دِينَ ذَا العَـــادَاتِ لا تَتْبَعَـــنَّهُ
وَعُج عَنْ سَبِيـــلِ الأُمَّـــةِ الغَضَبِيَّةِ

٩٠- وَمَنْ ضَل عَنْ حَـــقٍّ فَلا تَقْفُـــوَنَّهُ
وَزِنْ مَا عَلَيْـــهِ النَّـــاسُ بِالمَعْـــدلية

قال ابن تيمية رحمه الله في جوابه عن سؤال الذمي: إن كنت ترجو أن يستجيب الله ﷻ لك وينجيك من ناره العظيمة، فاقصد الله رب الخلائق أجمعين بالتضرع إليه، وبإرادة صادقة لأن يهديك إلى الحق بإذنه ويبصرك بمنهجه ووحيه، واجعل نفسك ذليلة لربك مستجيبة له يقودها لك إلى طريق النجاة في الدنيا والآخرة، ولا تعرض عن خواطر الخير والأفكار المستقيمة الداعية إلى العمل بشرع الله ﷻ والإيمان بقضائه وقدره، وإذا بان لك الحق فاتبعه ولا تتركه، ومن دعاك إلى الإسلام

الذي هو أقوم شريعة، أو دعاك إلى توحيد الله في العبادات والاعتقادات وتوحيد الأسماء والصفات فلا تعص الداعي من أجل دين العادات والموروثات الباطلة، فتمسك بالحنيفية السمحة، وعج وابتعد عن الأمة الغضبية اليهودية، التي غضب الله ﷻ على أبنائها وجعل منهم الخنازير وعبد الطاغوت، فإنهم ضلوا عن الحق، ومن ضل عن الحق لا تخطو ولا تَـقْفُ خلفه، واجعل ميزان العدل والحق الذي ورد به النقل هو الحاكم على أقوال الناس وأفعالهم.

٩١- هُنَـــالكَ تَبْدُو طَالعَاتٌ مِنْ الهُدَى
تُبَشِّـــرُ مَنْ قَـــدْ جَـــاءَ بِالحَنِيفِـــيِّةِ

٩٢- بِمِـــلةِ إبْرَاهِـــيمَ ذَاكَ إمَـــامُـــنَا
وَدِيـــنِ رَسُـــولِ اللهِ خَـــيْرِ الـــبَرِيَّةِ

٩٣- فَلا يَقْبَلِ الرَّحْمَنُ دِينًا سِوَى الذي
بِهِ جَاءَتْ الرسل الكِرَامُ السَّجِـــيَّةِ

وإذا التزمت أيها الذمي بالنصيحة التي تقدمت فسوف تجد طالعات الهدى ونور الحق يقذفه الله ﷻ في قلبك، وتشعر بالسرور في توحيدك لربك، وتجد البشرى عند نجاتك من النار وفوزك، لأنك تلقي الله بدين الحنيفية السمحة، دين إبراهيم عليه السلام إمام الحنفاء، ودين محمد رسول الله ﷺ وخاتم الأنبياء، ذلك الدين الذي لا يقبل الله دينا سواه، وهو دين الفطرة والسجية النقية التي دعا إليه جميع الرسل الكرام عليهم أفضل الصلاة والسلام.

٩٤- وَقَدْ جَاءَ هَذَا الحَاشِرُ الخَاتَمُ الذي
حَوَى كُل خَيْرٍ فِي عُمُومِ الرِّسَالة

٩٥- وَأَخْبَــرَ عَنْ رَبِّ العِبَــادِ بِأَنَّ مَنْ
غَدَا عَنْهُ فِي الأُخْرَى بِأَقْبَحِ خَيْبَةِ

والنبي محمد ﷺ الذي تحشر الخلائق على قدمه من خلفه تبعا له، وهو خاتم الأنبياء لا نبي بعده، قد جاء في رسالته بكل أنواع الخيرات والطاعات، وحذر من كل أنواع الشرور والمعاصي، وأخبر عن ربه أن من لم يدخل في دينه، أو اتبع دين غيره فسينال الخيبة والخسران في الآخرة كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ آل عمران:٨٥. وروى مسلم من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أن رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: (وَالذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ، يَهُودِيٌّ وَلا نَصْرَانِيٌّ، ثمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالذِي أُرْسِلتُ بِهِ إِلا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ)[1].

٩٦- فَهــذي دِلالاتُ العِبَــادِ لحَائِرٍ
وَأَمَّا هُــدَاهُ فَهُوَ فِعْــلُ الرُّبُوبِيّــَةِ

هذه دلالات العباد لحائر ردا على قول الذمي: فقد حرت دلوني بأوضح حجة. ويشير ابن تيمية إلى أن ما سبق ذكره من الدعوة إلى اتباع الرسول ﷺ هي هداية الدلالة والإرشاد، وهي حق العباد على

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملة ١/١٣٤(١٥٣).

ربهم، وهي التي أوجبها الله ﷻ على نفسه تفضلا منه وتكرما ألا يعذب أحدا إلا بعد بلوغ الرسالة وبيان الهداية من الضلالة، فلو كنت حائرا تائها لا ترى شيئا في الشرك والظلام، فهذا نور الإسلام وهو خير منهج ونظام، جاء في خير الهدي وخير الكلام كلام الله ﷻ.

وقوله: وَأَمَّا هُدَاهُ فَهُوَ فِعْل الرُّبُوبِيَّةِ، فيشير إلى أن الهداية الكونية أمر آخر يختلف عن الهداية الشرعية، فالله ﷻ يختص برحمته وهدايته الكونية من يشاء، فالهداية في القرآن نوعان: هداية كونية وهداية بيان، فإن تعلقت بالمشيئة فهي كونية حتمية، وتسمى هداية التوفيق الربانية، وإن تعلقت بالمحبة فهي هداية شرعية تكليفية دينية، وتسمى هداية البيان والدلالة والإرشاد. وهي التي جاءت بها الرسل من آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ، وهي بيان الصراط المستقيم الذي يؤدي اتباعه إلى الجنة وتؤدي مخالفته إلى النار.

٩٧- وَفَقْدُ الهُدَى عِنْدَ الوَرَى لا يُفِيدُ مَنْ
غَدَا عَنْهُ بَل يَجْرِي بِلا وَجْه حُجَّةِ

ويعني بَفَقْدُ الهُدَى عِنْدَ الوَرَى، أن الله ﷻ لو لم يهد العباد كونا فيما قدره في اللوح المحفوظ فليس بحجة على عصيانه لأننا لا نعرف شيئا عن اللوح، ومن هم فيه أهل الهداية ومن هم أهل الضلالة؟ فهو سبحانه قضى كونا بالهداية كما قضى كونا بالضلال، فريق في الجنة وفريق في السعير، ولكن لا يمكن لأحد أن يزعم أن الله ﷻ قضى في اللوح المحفوظ بهدايته أو قضى بضلاله، لأن القدر المكتوب في اللوح المحفوظ سر الله ﷻ في خلقه لم يطلع عليه ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا.

ومن ثم فإن الاحتجاج بالقدر وعدم حصول الهداية الكونية لا يفيد من غدا عن الهداية الشرعية، أي ابتعد عن شرع الله ﷻ وعن هدايته التكليفية الدينية، فليس لأحد حجة عند الله، وأمامنا شرع الله وما أحبه لنا وارتضاه، فالقدر سر الله في خلقه، ولابد أن يحاسب الإنسان على فعله، فلا يفيدك قولك وأنت في المعصية: إن الله لو شاء لي الهداية سيهديني، فهذا الشخص معاند كذاب، يكذب على ربه، وسيحاسب على فعله وذنبه، لأن الهداية الشرعية ظاهرة، فقد هداه الله ﷻ شرعا، أما الهداية الكونية فلا يعلمها إلا رب العزة والجلال.

٩٨- وَحُجَّةُ مُحْتَجٍّ بِتَقْدِيرِ رَبِّهِ
تَزِيدُ عَذَابًا كَاحْتِجَاجِ مَرِيضَةِ

قول ابن تيمية: وَحُجَّةُ مُحْتَجٍّ بِتَقْدِيرِ رَبِّهِ، أي أنه يفعل المعصية ويقول: هذا قضاء الله وقدره، فهذا يزيد من عذابه، كَاحْتِجَاجِ المريض بأن المرض أصابه بقدر الله ووقع عليه الداء والبلاء، ولن يبحث عن أسباب الدواء والشفاء، لأن الله إن شاء شفاه كما جرى به التقدير في سابق القضاء، فهذا كلامه باطل ومسلكه مسلك جاهل، وسوف يزداد مرضه، ويشتد ألمه، وهو معذب خاسر.

٩٩- وَأَمَّا رِضَانَا بِالقَضَاءِ فَإِنَّمَا
أُمِرْنَا بِأَنْ نَرْضَى بِمِثْلِ المُصِيبَةِ

١٠٠- كَسقَمٍ وَفَقْرٍ ثُمَّ ذُل وَغُرْبَةٍ
وَمَا كَانَ مِنْ مُؤْذٍ بِدُونِ جَرِيمَةِ

يقصد أن المصيبة يجوز لك أن تحتج بالقضاء والقدر عليها، كمن كسرت يده أو مات ولده، فهذا قضاء وقدر، فالقدر يحتج به عند المصائب لا عند المعائب. وكذلك الفقر والمرض والذل والغربة والأشياء المؤذية التي تقع بتقدير الله ﷻ دون سبب منا، وبدون جريمة أو معصية، فيعلم أنها من قضاء وقدر فنرضى به.

أما المعصية فهي وإن كانت بقدر الله إلا أنه لا يجوز للعاصي أن يحتج فيها بالقدر، وأنه مسير مجبور على العصيان فهذا فعل الزنادقة، وصاحب هذا الاعتقاد الفاسد لا يكون إلا ظالما متناقضا، إذا آذاه غيره أو ظلمه طلب معاقبته والمبالغة في الانتقام منه، ولم يعذره بالقدر وأنه مسير مجبور، وإذا كان هو الظالم لغيره احتج هو لنفسه بالقدر وادعى أنه مسير مجبور، فلا يحتج أحد بالقدر على معصيته إلا لاتباع الهوى، وحجته باطلة داحضة فاسدة.

١٠١- فَأَمَّا الأَفَاعِيلُ التِي كُرِهَتْ لنَا
فَلا تُرْتَضَى مَسْخُوطَةً لَمشِيئَةِ

١٠٢- وَقَدْ قَال قَوْمٌ مِنْ أُولِي العِلمِ لا رِضًا
بِفِعْلِ المَعَاصِي وَالذُّنُوبِ الكَبِيرَةِ

١٠٣- وَقَال فَرِيقٌ نَرْتَضِي بِقَضَائه
وَلا نَرْتَضِي المَقْضِيَّ أَقْبَحَ خَصْلَةِ

١٠٤- وَقَال فَرِيقٌ نَرْتَضِي بِإِضَافَةِ
إِلَيْهِ وَمَا فِينَا فَنُلقِي بِسَخْطَةِ

١٠٥- كَمَا أَنَّهَـــا للرَّبِّ خَلْـــقٌ وَأَنَّـــهَا
لَمخْلوقِه لِيْسَتْ كَفِعْــلِ الغَرِيـــزَةِ

١٠٦- فَنَرْضَى مِنْ الوَجْهِ الذي هُوَ خَلْقُهُ
وَنَسْخَطُ مِنْ وَجْه اكْتِسَابِ الخَطِيئَةِ

والمعنى أن أفعال الإنسان التي كُرِهت لنا شرعا، كالمعاصي والذنوب والكفر بالله والشرك وما شابه ذلك، فَلا تُرْتَضَى، أي لا أحد من المسلمين يرضى بها ويقول هذا قضاء وقدر، بل هي مسخوطة لله وإن كانت بمشيئة، أي أننا نرفضها ونسخط عليها ونغضب من فاعلها ولا نرضاها، وإن كانت واقعة بمشيئة الله ﷻ وتقديره، فالجماع قد يكون موافقا للشرع فنسميه زواجا ونكاحا حلالا ونحبه ونرضى به لأنفسنا ولا نسخطه، وإن كان مخالفا للشرع نسميه زنا ونجاسة وفحشاء، ونسخطه ولا نحبه ولا نرضى به لأنفسنا، ولا يجوز الاحتجاج بالقضاء والقدر على مثل هذه الفحشاء .

وقول ابن تيمية: وقد قال قوم مِنْ أُولي العِلم أي قال علماء المسلمين لا نرضي بِفِعْل المَعَاصِي وَالذنوبِ الكَبِيرَةِ، أي لا يوجد أحد يرضى بفعل المعصية ويحتج بقدر الله ﷻ، وهم يفرقون بين الفعل والمفعول، فمن جانب فعل الله ﷻ فنحن نرضى بما في اللوح المحفوظ، وإن كنا لا نعلم عنه شيئا، أما الذي وقع منا فحيث ما يكون قبيحا فلا نرضاه.

وهنا مسألة الحسن والقبح، فمن الذي يحدد الحسن والقبح؟ الذي يحدده هو الشرع وما جاء في النقل، لأن بعض المخالفين يقولون بأن

الذي يحدد الحسن والقبح هو الرأي والعقل، فأراد ابن تيمية أن يبين أن الحسن والقبح شرعيان لا عقليان، وحتى لو كانا عقليين فإن العقلاء يلومون العصاة على جرائمهم وسوء أفعالهم.

ويقصد بقوله: وَقَال فَرِيقٌ نَرْتَضِي بِإِضَافَةِ إليْهِ، أي تضاف إلى الله خلق العلة والمعلول أو خلق الأسباب ونتائجها، ولكن اكتساب العلة التي تؤدى إلى أن يخلق الله ﷻ معلولها هو دور العبد وكسبه، ولا نرضاه إن كان فاسدا مخالفا للشرع بل نسخطه كما قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ الروم:٤١ . وهذا الأقوال ليست آراء مختلفة في فهم العلاقة بين فعل الله وفعل العبد، ولكنها تعبير عن العلاقة بين قدرة الله وحكمته في ضرورة الإيمان بهما معا، ولكن عبر عنها ابن تيمية بما تيسر من الضرورة في الأبيات الشعرية. وقول ابن تيمية: كَمَا أَنَّهَا للرَّبِّ خَلقٌ. إلى قوله: وَنَسْخَطُ مِنْ وَجْهِ اكْتِسَابِ الخَطِيئَة، يعني أن الله خلق الدنيا بأسباب تؤدي إلى نتائج، وعلل تؤدي إلى معلولات، السبب والنتيجة مخلوقان بمراتب القدر، سواء ارتبط المعلول بعلته أو انفصل عن علته، أو ارتبط السبب بنتيجته أو انفصل عن نتيجته، فالعلل والأسباب سواء ترابطت أو انفصلت فلا يؤثر ذلك في تعلقها بالقضاء والقدر، ولكن العلل والأسباب في ترابطها أو انفصالها تظهر كمال حكمة الله ﷻ، فلا يخلق النتيجة إلا إذا خلق السبب أولا، ولا يخلق المعلول إلا إذا خلق علته أولا، ولا يخلق النبتة إلا إذا خلق البذرة أو الحبة، ولا يخلق الثمرة إلا إذا خلق النبتة، ولا يخلق الابن إلا إذا أوجد الأب والأم.

ومن هنا ظهرت الأسباب للعقلاء كابتلاء يصح من خلاله العمل بأحكام البديهيات، فأهل اليقين ينظرون إلى الأسباب ويعلمون أن الله ﷻ خلقها بقضائه وقدره، ويعلمون أيضا أن الله أمرهم أن يأخذوا بها حيث أحكم لهم تدبيرها وجريانها، وذلك أننا في دار ابتلاء وامتحان، والأخذ بالأسباب حتم على بني الإنسان، فهم مستخلفون في ملكه، مخولون في أرضه، فطالبنا بالعمل والإنفاق، ليصل كل منا إلى ما قدره الله من الأرزاق. فالأمر في الأخذ بالأسباب مرتبط بالحساب والمسئولية في كل قول وفعل، ولا يجوز الاحتجاج بالغريزة والطبع في استمرار الشخص على الظلم دون ردع. فَنَرْضَى مِنْ الوَجْهِ الذِي هُوَ خَلَقُهُ لأن الله ﷻ نسب الفعل لنفسه ورده لقضائه وقدره إظهارا لقدرته عند الدعوة لتوحيده في ربوبيته، وَنَسْخَطُ مِنْ وَجْهِ اكْتِسَابِ الخَطِيئَةِ لأن الدنيا أسباب حق وصدق وهي دار ابتلاء وامتحان، ولا بد أن يجتازها الإنسان، وهو في هذه الدار حر بالخيار بين نجدين يوصلان إلى جنة أو نار، كما أن رب العزة والجلال نسب الفعل إلى أهلها إظهار لحكمته عند دعوتهم لتوحيده بالعبودية، فلا بد من الالتزام بأمر الله الشرعي وأحكام العبودية، وإلا يصبح الإنسان مستوجبا للعقوبة بعدل الله وتعذيبه في النار الأبدية ولذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

١٠٧- وَمَعْصِــيَةُ العَبْدِ المُكَلفِ تَرْكُهُ
لِمَــا أَمــرَ المَــوْلَى وَإِنْ بِمَشِــيئَةِ

١٠٨- فَإِنَّ إِلــهَ الخَــلقِ حَقٌّ مَقَــالُهُ
بِأَنَّ العِبَــادَ فِي جَحِــيمٍ وَجَــنَّةِ

ويعني أن العصيان سببه مخالفة الأمر الشرعي، وليس مخالفة الأمر الكوني لأن أحدا لا يستطيع ذلك أصلا، فمشيئة الله وتدبير الكوني واقع لا محالة بخلق الله للمؤمنين والكافرين، كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ التكوير:٢٧/٢٩. وكما أن الإنسان إذا رغب أن يشرب فلابد من أن يأخذ بالأسباب التي توصله إلى الشرب، كذلك إذا أراد أن يدخل الجنة، فلابد من أن يأخذ بالأسباب التي توصله إلى دخول الجنة، وكذلك الحال فيمن سيصل إلى النار، والكل واقع بمشيئة رب العزة والجلال، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ الليل:٤/١٠.

١٠٩- كَمَا أَنَّهُمْ فِي هَذِهِ الدَّارِ هَكَذَا
بَل البُهْمُ فِي الآلامِ أَيْضـًا وَنِعْمَةِ

أي أن الناس محاسبون على أفعالهم الآخرة كما أنهم محاسبون عليها في الدنيا، بل البهائم التي لا تستطيع الكلام مع الإنسان، تدفع عن نفسها الضرر وتبحث عن قوتها عند الحرمان، وعندما تصاب بالتعب نتيجة العمل يحضر لها صاحبها طعامها وشرابها، وكل وسائل الراحة والأمان، وعندما تنفر البهيمة ولا يستطيع السيطرة عليها يقوم بضربها ويحاول أن يعاقبها، فمبدأ الثواب والعقاب موجود في الدنيا والآخرة لدى الإنسان والحيوان.

١١٠- وَحِكْمَتُهُ العُلْيَا اقْتَضَتْ مَا اقْتَضَتْ

يقصد أن حكمة الله ﷻ التي جعلت هذه الفروق بين الناس في الإيمان وغيره، ما هي إلا لابتلاء العباد وإظهار الحكمة، لكي تكون النتيجة في هذا الابتلاء إما نجاح أو فشل، فالله ﷻ بعلمه وفضله ورحمته أعطى إنسانا المال فأصبح غنيا، ومنع بعلمه وقدرته المال من إنسان آخر فأصبح فقيرا، فهل أراد الله ﷻ أن يكون بعض الناس فقيرا وبعضهم غنيا فقط؟ أو هل أراد أن يجعل الناس مختلفين في الأرزاق على اختلاف أنواعها، كالمال والصحة والذكاء، والولد والجمال والنساء، وما أشبه ذلك من ألوان النعيم أو الشقاء لمجرد إظهار قدرته فقط؟ كلا، بل أراد الاختبار والابتلاء كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾ الفجر:١٥/١٦. والجواب عن هذا الفهم الخاطئ الذي يظن صاحبه أن سعة الرزق إكرام من الله ورضوان، وأن ضيق الرزق إهانة من الله وحرمان، الجواب هو كما قال الله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ الفجر:١٥/٢٠. وذلك الفهم الخاطئ ناشئ عن قلة العلم وسوء الفهم لحقيقة الحياة، فالإهانة تظهر للغني في ماله إذا لم يكرم اليتيم ويطعمه، ولا يعطي المسكين ويحرمه، ويكنز المال ويحبه ويعظمه، ولم يعلم أنه فتنة فيقاومه كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ التغابن:١٥. وإذا ضيق الله الرزق على إنسان فليس لأنه عبد مهان، فالفقير لا يهان إلا باعتراضه

على قدره، وخجله من فقره، وتبريه من وإخوانه وأهله لكونهم معدمين فقراء، فيحقد على الأغنياء، ويعترض على مر القضاء، وهذا حسد أو داء ما له دواء إلا الرضا بالقضاء، وإدراكِ حقيقة الابتلاء.

١١١- يَسُوقُ أُولِي التَّعْذِيبِ بِالسَّبَبِ الذي
يُقَــدِّرُهُ نَحْــوَ العَــذَابِ بِعِــزَّةِ

١١٢- وَيَهْدِي أُولِي التَّنْعِيمِ نَحْوَ نَعِيمِهِــمْ
بِأَعْمَالِ صِدْقٍ فِي رَجَاءٍ وَخَشْــيَةِ

١١٣- وَأَمْــرُ إِلَــهِ الخَلْــقِ بَين مَــا بِــهِ
يَسُوقُ أُولِي التَّنْعِــيمِ نَحْوَ السَّعَادَةِ

١١٤- فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ أَثْرَتْ
أَوَامِــرُهُ فِيــهِ بِتَيْسِــيرِ صَنْــعَةِ

١١٥- وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ لَمْ يَنَل
بِأَمْــرٍ وَلا نَهْــيٍ بِتَقْــدِيرِ شِقْوَةِ

١١٦- وَلا مَخْرَجٌ لِلعَبْدِ عَمَّا بِهِ قُضِي
وَلَكِــنَّهُ مُخْــتَارُ حُسْنٍ وَسَــوْأَةِ

يَسُوقُ أُولِي التَّعِذِيب إلى جهنم بسبب أفعالهم السوء، وهي أسباب خلقها الله ﷻ أخذوا بها لمخالفة شرعه ومعاندة رسله فأوقع عليهم العقاب بعدله وحكمته وقدرته وعزته، كما هَدى أُولِي التَّنْعِيمِ نَحْوَ نَعِيمِهِمْ أي بتوفيقه وقدرته وهدايته الكونية، فييسر لهم بِأَعْمَالِ الصِدْقٍ والطاعة فِي محبة ورَجَاءٍ وَخَشْيَةِ، فيتبعون أَمْرُ اللهِ التشريعي الذي بين

به الحق والباطل، ويلتزمون هدايته الدينية التكليفية، ويسارعون في محبته وطاعته وتوحيده بالعبودية، قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ طه: ١٢٣/١٢٤.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾ الزمر: ٧١/٧٤.

وهكذا يَسُوقُ أُولي التَّنْعِيمِ نَحْوَ السَّعَادَةِ في الدنيا والآخرة، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ أَثرتْ فيه أَوَامِرُهُ الشرعية، واستجاب لها بِتَيْسِيرِ الله ﷻ للأسباب التي صنَعْها، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ عاند ربه، ولم يستجب لأنبيائه ورسله، ولَمْ يَنَل شرف الامتثال لأَمْرِ رب العزة والجلال، بسب إبائه ورفضه، ولن يخالف ما قدره الله في ملكه من خلقه لأهل الجنة والنار، ولا مخرج للإنسان من القدر المكتوب في اللوح، وإن كان مختار حسن وسوءة كما ذكر ابن تيمية.

روى البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (كُلُّ

أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إلا مَنْ أَبَي، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَنْ يأبى؟ قَالَ: مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَي) [(١)].

١١٧- فَلَيْسَ بِمَجْبُـــورِ عَـــدِيمِ الإِرَادَةِ

وَلَكِـــنَّهُ شَـــاءَ بِخَلْـــقِ الإِرَادَةِ

١١٨- وَمِنْ أَعْجَبِ الأَشْيَاءِ خَلقُ مَشِيئَةٍ

بِهَا صَارَ مُخْتَارَ الهُدَى بِالضَّلالَةِ

يعني أن العبد ليس بمجبور ولا عديم الإرادة، ولكن الله ﷻ خلق له إرادة شاء بها أن يختار بين طريقين فهداه النجدين، فالإنسان حر ومختار في فعل الطاعة وأعمال الخير أو العصيان والشرور، وليس بمجبور كما يقول: إني مسير فلا تؤاخذوني.

ثم قال ابن تيمية: إن من أعجب الأشياء أن الله ﷻ يخلق المشيئة في الإنسان بين طريقين بهذا الشكل البديع الذي يحقق كمال الحكمة والقدرة معا، ويضع في قلبه إرادة ومشيئة بحيث يكون الشخص له حرية محدودة مقيدة بين الخير والشر فقط، وليست مشيئة مطلقة يفعل بها ما يشاء مطلقا، بل هو مخير بين نجدين، وأن يصير في الآخرة من أحد الفريقين، فريق في الجنة وفريق في السعير، وهذا مقتضى منة القدير وحكمة التدبير.

١١٩- فَقَوْلُكَ هَل اخْتَارُ تَرْكًا لِحِكْمَةِ؟

كَقَوْلِكَ هَل اخْتَـــارُ تَرْكَ المَشِيئَةِ؟

---

(١) البخاري في الاعتصام، باب الاقتداء بسنن رسول الله ٦/ ٢٦٥٥ (٦٨٥١).

وهو قول الذمي في سؤاله: هل لي اختيار أن أخالف حكمه؟ فابن تيمية يقول له: فَقَوْلك: هَل اخْتَارُ؟ نعم لك اختيار بمقتضى الحكمة ووجود والشرائع والأحكام، فلو قلت: ليس لي اختيار، فكأنك تنفى الواقع ودلالة الفطرة والعقل في وجود الشرائع المظهرة للحكمة، وهذا مثل قوله: هل أنا ليَ اختيار أن ألا تكون لدي مشيئة أصلا أو لا أكون إنسانا؟ وهذه زندقة لا تغني شيئا، فأي إنسان مكلف له مشيئة واختيار.

والله ﷻ له المشيئة المطلقة، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وله القدرة المطلقة ينفذ بها ما قضاه وقدره، لكن جميع أفعاله لا تخرج عن حكمته، فهو سبحانه متصف بالقدرة والحكمة، ومن أسمائه القدير الحكيم، فبالقدرة خلق الأشياء وأوجدها، وهداها وسيرها، وهذا توحيد الربوبية، وبالحكمة رتب الأسباب ونتائجها، وابتلانا واستخلفنا، وخولنا وكلفنا لنأخذ بها تحقيقا لتوحيد العبودية. ولا بد لمن وحد الله ﷻ حقا أن يتقلب في إيمانه بالله وتوحيده بين مقتضى حكمته وقدرته، وعدله ومشيئته، فلا يسقط الشرائع والأحكام، ويتجاهل تمييز الحلال من الحرام، لاحتجاجه بمشيئة الله وقدرته، وأن الخلائق مسيرون على جبر إرادته، وأنه لا مناص من الدخول في ظل ربوبيته، فيعطل اسم الله الحكيم، وما تضمنه الاسم من وصف الحكمة .

١٢٠- وَأَخْتَارُ أَنْ لا اخْتَارُ فِعْلَ ضَلالةٍ
وَلوْ نِلت هَذَا التَّرْكَ فُزْتُ بِتَوْبَةِ

١٢١- وَذا مُمْكِنٌ لِكنَّهُ مُتَوَقِّفٌ
عَلى مَا يَشَاءُ اللهُ مِنْ ذِي المَشِيئَةِ

١٢٢- فَدُونَك فَافْهَمْ مَا بِهِ قَدْ أُجَبْتَ مِنْ
مَعَانٍ إِذَا انْحَلتْ بِفَهْمِ غَرِيــزَة

١٢٣- أَشَارَتْ إِلَى أَصْلٍ يُشِيرُ إِلَى الْهُدَى
وَلله رَبُّ الْخَلْقِ أَكْمَلُ مِدْحَــةٍ

وقول الذمي: وَأَخْتَارُ أَنْ لا اخْتَارُ فِعْل ضَلالةٍ، أي لو أردت أن تختار إسقاط الإرادة بادعاء أنك مجبر على العصيان ولا إرادة لك، فهذا هو الضلال والعناد بعينه، ولو تركت هذا الادعاء الباطل تائبا إلى الله ﷻ مقرا بحكمته وقدرته معا فزت بتوبة الله عليك .

وهذا مُمْكِنٌ ولكنه يتطلب استعانة بالله قبل التوبة وبعدها، لأن التوفيق بيده وحده يمنحه من يشاء من عباده، إذا شاءوا اتباع وحيه وسنة نبيه ﷺ، فالعبد ذو المشيئة لا يشاء شيئا إلا إذا شاء الله، فلله القدرة المطلقة وله الحكمة الكاملة والحجة البالغة.

فهذه إجابة سؤالك يا ذمي في هذه المنظومة التي حملت من المعاني ما لو أدركتها انحلت العقد الشيطانية، والشبهات الإبليسية التي ربط بها الشيطان على قلبك، وجعلك تخالف الفطرة والواقع والعقل والغريزة وجميع الشرائع التي نزلت على جميع الأنبياء والرسل حين زعمت أنك مجبور على معصيتك، ولا تريد من أحد مؤاخذتك على العصيان، فلا بد من تحقيق أصل الهدى وهو العمل بشرع الله ﷻ والإيمان بقضائه وقدره، وهذه نعمة من الله ﷻ يمن بها على من شاء من عباده، كما قال تعالى عن أوليائه وأحبائه حين أنعم عليهم بدخول الجنة: ﴿وَنَزَعْنَامَا

﴿فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ۖ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ۖ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ۖ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ الأعراف:٤٣.

١٢٤- وَصَلى إلهُ الخَلقِ جَل جَـــلالهُ
عَلى المُصْطَفَى المُخْتَـــارِ خيْرِ البَرِيَّةِ

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ۚ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ الأحزاب:٥٦.

وروى مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ، وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ) [١].

انتهى شرح المنظومة التائية والحمد لله رب العالمين.

---

(١) مسلم في الفضائل، باب تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق ٤/١٧٨٢(٢٢٧٨).

المطلب الثامن عشر

الفرار من القدر إلى القدر أفرارا من قدر الله يا عمر؟

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فإن القضاء والقدر أمر حتمي، وتدبير كوني، ومشيئة الله فيه واقعة لا محالة، سواء أخذ المرء بالأسباب، أو ترك الأخذ بها، فالمقضي واقع إتمام للقدرة التي دل عليها اسم الله القدير، والأخذ بالأسباب إنما هو لإظهار الحكمة التي دل عليها اسم الله الحكيم، فيصح بذلك في توجيه الأمر في الخطاب من خلال الأخذ بالأسباب، وإيضاح الأحكام من واجب واستحباب، وحرام ومكروه ومتروك لذوي الألباب.

وعلى الأخذ بالأسباب يترتب الثواب والعقاب، ويتم العرض والحساب ويظهر الفضل والعدل في وقوع النعيم والعذاب، فالأسباب قدرها الله ﷻ بحيث يتوالى بعضها في ترتيب خلقها، وبحيث لا تأتي النتائج إلا بعد وجود أسبابها، كعلل توجب معلولاتها بخلق الله ﷻ وقدرته، وتقديره ومشيئته، وهذا اعتقاد السلف الصالح في علاقة القدر بالأسباب، يأخذون بها طاعة لمن خلقها ورتبها ودبر أمرها، ويؤمنون بما دون في أم الكتاب.

وفي هذه المطلب بإذن الله ﷻ نتحدث عن الفرار من القدر إلى القدر، وما قاله أبو عبيدة لعمر ﷺ: أفرارا من قدر الله ياعمر؟

• كيف فهم الصحابة العلاقة بين القدر والأخذ بالأسباب؟

روى البخاري من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أَن عمر بن الخطاب ﷺ خرج إِلى الشام [١]، حتى إِذا كان بسرغ [٢] لقيه أُمراءُ الأَجناد أَبو عبيدة بن الجراح وأَصحابه [٣]، فأَخبروه أَن الوباءَ قد وقع بأَرض الشام [٤].

قال ابن عباس: فقال عمر: ادع لي المهاجرين الأَولين [٥] فدعاهم؛ فاستشارهم؛ وأَخبرهم أَن الوباءَ قد وقع بالشام؛ فاختلفوا، فقال بعضهم: قد خرجت لأَمر ولا نرى أَن ترجع عنه. وقال بعضهم: معك بقية الناس وأَصحاب رسول الله ﷺ ولا نرى أَن تقدمهم على هذا الوباءِ. فقال: ارتفعوا عني. ثم قال: ادعوا لي الأَنصار، فدعوتهم، فاستشارهم، فسلكوا سبيل المهاجرين، واختلفوا كاختلافهم. فقال ارتفعوا عني. ثم قال: ادع لي من كان ها هنا من مشيخة قريش من

(١) خرج عمر ﷺ سنة سبع عشرة ليتفقد فيها أحوال الرعية وأمرائهم وكان ذلك بعد ذهابه لبيت المقدس في السنة التي قبلها.

(٢) قرية في طريق الشام مما يلي الحجاز.

(٣) هم خالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة وعمرو بن العاص رضي الله عنهم أجمعين.

(٤) الوباء هو المسمى طاعون عمواس وفيها بؤرة انتشار المرض.

(٥) وهم الذين صلوا إلى القبلتين.

مهاجرة الفتح[١]. فدعوتهم، فلم يختلف منهم عليه رجلان، فقالوا: نرى أَن ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباءِ. فنادى عمر في الناس إِني مصبح على ظهر فأَصبحوا عليه. قال أَبو عبيدة بن الجراح: أَفرارا من قدر الله؟ فقال عمر: لو غيرك قالها يا أَبا عبيدة [٢]. نعم. نفر من قدر الله إِلى قدر الله. أَرأَيت لو كان لك إِبل هبطت واديا له عدوتان [٣]، إِحداهما خصبة، والأُخرى جدبة، أَليس إِن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله؟ وإِن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟

قال ابن عباس: فجاءَ عبد الرحمن بن عوف وكان متغيبا في بعض حاجته فقال: إِن عندي في هذا علما. سمعت رسول الله ﷺ يقول: إِذا سمعتم به بأَرض فلا تقدموا عليه، وإِذا وقع بأَرض وأَنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه. قال: فحمد الله عمرُ ثم انصرف [٤].

قال عماد الدين الطبري: (ولا نعلم خلافا أن الكفار أو قطاع الطرق، إذا قصدوا بلدة، وكان لا طاقة لأهلها بهم، فلهم أن يتنحوا من بين أيديهم فرارا، وإن كانت الآجال المقدرة لا تزيد ولا تنقص) [٥].

---

(١) وهم الذين هاجروا إلى المدينة عام الفتح.

(٢) المعنى لو غيرك قالها لم أتعجب منه، ولكنني أتعجب منك مع علمك وفضلك، كيف تقول هذا؟ أو المعنى: لو أن غيرك ممن لا فهم له، إذا قال ذلك يعذر.

(٣) العدوة هو المكان المرتفع من الوادي وهو شاطئه.

(٤) رواه البخاري في الطب، باب ما يذكر في الطاعون ٥/٢١٦٣ (٥٣٩٧) ومسلم في كتاب السلام، باب الطاعون والطيرة والكهانة ٤/١٧٤٠ (٢٢١٩).

(٥) أحكام القرآن لعماد الدين بن محمد الطبري ١/١٦٢، وانظر تفسير القرطبي ٣/٢٣٣ نشر دار عالم الكتب، الرياض.

ولا ريب أن المقادير سابقة بوقوع القدرة على التقدير، وقد جرى القلم بما هو كائن إلى الأبد. فلا محيص للإنسان عما قدره الله ﷻ كونا من أمور الابتلاء، لكنه سبحانه أمرنا شرعا بالحذر من أسباب البلاء، وباستفراغ الوسع في طلب الدواء عند وقوع الداء حتى يتم الشفاء من الشافي سبحانه وتعالى. ومعنى قوله ﷺ: إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه. يعني إذا كان الوباء بأرض فلا يقدم عليه أحد أخذا بالحزم والحذر والتحرز من مواضع الضرر، ودفعا للأوهام المشوشة لنفس الإنسان، فإن صيانة النفس عن المكروه واجبة، وكذلك الخوف من سوء الاعتقاد بأن يقول القائل: لولا دخولي في هذا المكان لما نزل بي مكروه [(١)].

أما النهي عن الفرار منه لأن الكائن بالموضع الذي فيه الوباء، لعله قد أخذ بحظ منه لاشتراك أهل ذلك الموضع في سبب ذلك المرض العام، فلا فائدة لفراره، بل يضيف إلى ما أصابه من مبادئ الوباء مشقات السفر، فتتضاعف الآلام ويكثر الضرر، فيهلكون بكل طريق ويطرحون في كل فجوة ومضيق.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: (الطاعون فتنة على المقيم والفار، فأما الفار فيقول: فبفراري نجوت، وأما المقيم فيقول أقمت فمت) [(٢)].

---

(١) انظر تفسير القرطبي ٣/٢٣٤.

(٢) انظر شرح صحيح البخاري لابن بطال ٩/٤٢٦ نشر مكتبة الرشد الرياض، وشرح النووي على صحيح مسلم ١٤/٢٠٧ نشر دار إحياء التراث بيروت، والتمهيد لابن عبد البر ٨/٣٧٢، وتفسير القرطبي ٣/٢٣٤.

وعند البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها سألت رسول الله ﷺ عن الطاعون، فأَخبرها نبي الله ﷺ أَنه كان عذابا يبعثه الله ﷻ على من يشاءُ، فجعله الله رحمة للمؤْمنين فليس من عبد يقع الطاعون فيمكث في بلده صابرا، يعلم أَنه لن يصيبه إِلا ما كتب الله له إِلا كان له مثل أَجر الشهيد(١).

وهكذا الإسلام جاء بحسن الاعتقاد في الله والإيمان بقضائه وقدره، وجاء أيضا بمقتضى العقل والحكمة والأخذ بالأسباب، فلابد للمسلم أن يرضى بهذا المقضي، ولا يجزع، ولا يعترض على قدر الله وقضائه، وإن كره، أو تألم، أو أبغض المقدر، أو طلب تغييره إلى ما هو أحسن، مع علمه بأنه قد يكون ما أصابه من ذلك خير مما هو يحب أن يصيبه، مما ظاهره الخير، فهو غير مأمور بمدافعة القضاء الكوني.

قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾ البقرة:٢١٦.

قال ابن القيم رحمه الله: (ومن لم يستبصر من هذه المسألة، ويعطها حقها، لزمه التعطيل للقدر أو الشرع شاء أو أبى، فما للعبد ينازع أقدار الرب بأقداره في حظوظه وأسباب معاشه ومصالحه الدنيوية، ولا ينازع أقداره في حق مولاه، وأوامره ودينه، وهل هذا إلاَّ خروج عن العبودية ونقص في العلم بالله وصفاته وأحكامه) (٢).

---

(١) رواه البخاري في الطب، باب أجر الصابر في الطاعون ٥/٢١٦٥ (٥٤٠٢).

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص١٢٤ نشر دار ابن القيم الدمام.

• لا عدوى ولا طيرة وفر من المجذوم فرارك من الأسد.

روى البخاري عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (لا عدوى ولا طيرة، ولا هامة ولاَ صفر، وفر من المجذوم كما تفر من الأسد) [1].

والنبي ﷺ أراد بقوله لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر، نفي ما كان يعتقده أهل الجاهلية من الاعتقادات الباطلة التي تؤثر في القلب، وتضعف حسن الظن بالله، بل قد تزيله. وقد يكون معها نسبة الله ﷻ إلى النقص، إما بنفي القدرة، وإما بالشرك، فقد يجعل شريكا آخر معه في العبادة أو في التأثير، ومن هنا قال رسول الله ﷺ: لا عدوى، يعني لا عدوى مؤثرة بطبعها؛ لأن أهل الجاهلية، كانوا يعتقدون أن العدوى تؤثر بنفسها تأثيرا لا مرد له، وتأثيرا لا صارف له.

وقوله ﷺ: لا عدوى، لا ينفي أصل وجود العدوى، وهي انتقال المرض من المريض إلى الصحيح بسبب المخالطة بينهما، فإن الانتقال بسبب المخالطة حاصل ملاحظ مشهود، لكنه ﷺ بقوله: لا عدوى، لا ينفي أصل وجودها، فالمرض لا ينتقل من المريض إلى الصحيح عند مخالطة الصحيح للمريض بنفسه، وإنما انتقاله وإصابة الصحيح بالمرض عند المخالطة، إنما هو بقضاء الله وقدره. وقد يكون الانتقال وقد لا يكون، فليس كل مرض معد يجب أن ينتقل من المريض إلى الصحيح، بل إذا أذن الله ﷻ بذلك انتقل، وإذا لم يأذن لم ينتقل، فهو واقع بقضاء الله وقدره، فالعدوى أو انتقال المرض، من المريض للصحيح سبب من الأسباب التي يحصل بها قضاء الله وقدره، لكنها ليست لازما حتميا

---

(١) رواه البخاري في كتاب الطب، باب الجذام ٥/٢١٥٨ (٥٣٨٠).

كما كان يعتقده أهل الجاهلية، ولهذا ثبت عن النبي ﷺ أنه قال في الأخذ بالأسباب: (لا يورد ممرض على مصح، ولا يورد ممرض على مصح) [(١)]. وقد روي مسلم من حديث ابن شهاب أن أَبا سلمة بن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه حدثه أَن رسول الله ﷺ قال: "لاَ عدوى؟ ثم حدث أَنه قال: لاَ يورد ممرض على مصح. قال أَبو سلمة: كان أَبو هريرة رضي الله عنه يحدثهما كلتيهما عن رسول الله ﷺ، ثم صمت أَبو هريرة رضي الله عنه بعد ذلك عن قوله: لاَ عدوى، وأَقام على أَن لاَ يورد ممرض على مصح. قال أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، فقال الحارث بن أَبي ذباب وهو ابن عم أَبي هريرة رضي الله عنه: قد كنت أَسمعك، يا أَبا هريرة تحدثنا مع هذا الحديث حديثاً آخر. قد سكت عنه. كنت تقول: قال رسول الله ﷺ: لاَ عدوى، فأَبى، أَبو هريرة أَن يعرف ذلك، وقال: لاَ يورد ممرض على مصح فما رآه الحارث في ذلك حتى غضب أَبو هريرة رضي الله عنه فرطن بالحبشية. فقال للحارث: أَتدري ماذا قلت؟ قال: لاَ. قال أَبو هريرة: قلت: أَبيت. قال أَبو سلمة: ولعمري لقد كان أَبو هريرة رضي الله عنه يحدثنا أَن رسول الله ﷺ قال: لاَ عدوى، فلاَ أَدري أَنسي أَبو هريرة، أَو نسخ أَحد القولين الآخر؟ [(٢)].

ومعنى لاَ يورد ممرض على مصح أن الإبل المريضة لا تورد على الإبل الصحيحة، لأن الخلطة سبب لانتقال المرض من الإبل المريضة إلى الصحيحة، وهذا فيه إثبات لوجود العدوى، ولكنه إثبات لسبب،

---

(١) رواه مسلم في السلام، باب لا عدوى ولا طيرة ١٧٤٣/٤ (٢٢٢١).

(٢) المصدر السابق.

والسبب يتقى لأنه قد يحصل منه المكروه، كما أنه إذا باشر المرء أسباب الهلاك حصل له الهلاك بقدر الله، كما أنه إذا أكل حصل له الشبع، وإذا شرب حصل له الري، فذلك كله لأنها أسباب.

وقول النبي ﷺ: "وفر من المجذوم فرارك من الأسد". لأن المخالطة سبب لانتقال المرض من المجذوم إلى الصحيح، وأكل ﷺ مرة مع المجذوم وأدخل يده معه في الطعام، ليبين أن العدوى لا تنتقل بنفسها، وأن المرء أيضا يجب عليه ألا يباشر أسباب الهلاك، ويجب عليه أيضا أن يتوكل على الله ﷻ حق التوكل، وأن يعلم أن ما قدر الله ﷻ لا بد وأنه كائن لا محالة، فانتقال المرض ليس بأمر حتمي وإنما هو سبب، والذين يمضي العلل بمعلولاتها والمسببات بأسبابها هو الله ﷻ الذي بيده ملكوت كل شيء. ثم قال ﷺ بعد قوله: "لا عدوى"، قال: "ولا طيرة" لأن الطيرة التشاؤم. قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَـٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾ النمل:٤٧. والطيرة أمر كان يعتقده أهل الجاهلية، بل ربما لم تسلم منه نفس.

وروى الترمذي وصححه الألباني عن ابن مسعود ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: (الطيرة من الشرك، وما منا إلاّ، ولكن الله يذهبه بالتوكل) [1].

وقوله ﷺ: "ما منا إلا" يعني ما منا إلا تخالط الطيرة قلبه، ولهذا نجد أن أكثر الناس ربما وقع في أنفسهم بعض ظن السوء وبعض التشاؤم،

---

(١) رواه الترمذي في كتاب السير، باب ما جاء في الطيرة ٤/١٦٠ (١٦١٤)، وأحمد في المسند، مسند عبد الله بن مسعود ١/٤٣٨ (٤١٧١)، وصححه الشيخ الألباني، انظر صحيح ابن ماجة (٣٥٣٨).

إما بريح مقبلة وإما بسواها. وإذا أراد بعضهم السفر ورأى شيئا يكرهه ظن أنه سيصيبه هلاك لأنه أصابه نوع تطير، والمؤمن يجب عليه أن يتوكل على الله ﷻ حق التوكل كما قال ﷺ: "ولكن الله يذهبه بالتوكل"، فالطيرة باطلة، ولا أثر للأسباب إلا بقضاء وقدر(١).

ثم قال ﷺ: "ولا هامة" وذلك لأن أهل الجاهلية كانوا يعتقدون أن الذي قتل يظل طائر على قبره يصيح بالأخذ بثأره، وبعضهم يعتقد أن الهامة طائر كالبومة تدخل فيه روح الميت فتنتقل بعد ذلك إلى حي آخر، فمنع النبي ﷺ ذلك، لمنافاته توحيد الله بأفعاله، وهي اعتقادات جاهلية لا أصل لها (٢).

ثم قال ﷺ: "ولا صفر" أكثر أهل العلم على أن معنى قوله ﷺ: "ولا صفر" يعني لا تشاءموا بشهر صفر، وهو الشهر المعروف بعد شهر الله المحرم، فقد كانوا في الجاهلية يتشاءمون بصفر، ويعتقدون أنه شهر فيه حلول المكاره والمصائب، فلا يتزوج من أراد الزواج في شهر صفر لاعتقاده أنه لا يوفق، ومن أراد تجارة فإنه لا يمضي صفقته في شهر صفر لاعتقاده أنه لا يربح، ومن أراد التحرك والمضي في شئونه البعيدة عن بلده، فإنه لا يذهب في ذلك الشهر لاعتقاده أنه شهر تحصل فيه المكاره والموبقات، ولهذا أبطل ﷺ هذا الاعتقاد الزائف فشهر صفر شهر من أشهر الله، وزمان من أزمنة الله، لا يحصل الأمر فيه إلا بقضاء الله وقدره، ولم يختص الله هذا الشهر بوقوع مكاره ولا

---

(١) شرح صحيح الباخاري لابن بطال ٩/٤١٧ بتصرف.
(٢) المصدر السابق ٩/٤١٧.

بوقوع مصائب، بل حصلت في هذا الشهر أمور تاريخية عظمى وانتصارات عظيمة للمسلمين[١].

وفي حديث "لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر" زيادات أخرى كقوله: "ولا نوء ولا غول"[٢]. فالحاصل من الروايات ستة أشياء، وهي العدوى والطيرة والهامة والصفر والغول والنوء، والأربعة الأول قد أفرد البخاري لكل واحد منها ترجمة مستقلة.

وأما الغول فقال الجمهور: كانت العرب تزعم أن الغيلان في الفلوات تتراءى للناس وتتغول لهم تغولا أي تتلون تلونا فتضلهم عن الطريق فتهلكهم، فأبطل ﷺ ذلك، وأما النوء فقد كانوا يقولون: مطرنا بنوء كذا، فأبطل ﷺ ذلك بأن المطر إنما يقع بإذن الله لا بفعل الكواكب، وإن كانت العادة جرت بوقوع المطر في ذلك الوقت، لكن بإرادة الله تعالى وتقديره، لا صنع للكواكب في ذلك[٣].

قال ابن قتيبة : (قالوا حديثان متناقضان رويتم عن النبي ﷺ أنه قال: لا عدوى ولا طيرة، وقيل له إن النقبة تقع بمشفر البعير، فيجرب لذلك الإبل، قال فما أعدى الأول ثم رويتم لا يورد ذو عاهة على مصح وفر من المجذوم فرارك من الأسد، وأتاه رجل مجذوم ليبايعه على الإسلام، فأرسل إليه البيعة وأمره بالانصراف ولم يأذن له، وقال: الشؤم في المرأة

---

(١) المصدر السابق ٤١٨/٩ بتصرف.

(٢) انظر صحيح مسلم، كتاب السلام، باب لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر ولا نوء ولا غول ولا يورد ممرض على مصح ١٧٤٤/٤ (٢٢٢٢).

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري ١٥٩/١٠.

والدار والدابة، قالوا: وهذا كله مختلف لا يشبه بعضه بعضا) [1].

وهم يشيرون إلى حديث البخاري عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (لا عدوى ولا صفر ولا هامة، فقال أعرابي: يا رسول الله، فما بال الإبل تكون في الرمل كأنها الظباء فيخالطها البعير الأجرب فيجربها؟ فقال رسول الله ﷺ فمن أعدى الأول؟)[2]. وحديث مسلم بسنده عن عمرو بن الشريد عن أَبيه، قال: (كان في وفد ثقيف رجل مجذوم. فأَرسل إِليه رسول الله ﷺ: إِنا قد بايعناك فارجع) [3].

وقد ذكر أبو محمد ابن قتيبة أنه ليس في هذا اختلاف، ولكل معنى منها وقت وموضع، فإذا وضع موضعه زال الاختلاف، فعدوى الجذام، فإن المجذوم يشتد رائحته حتى يسقم من أطال مجالسته ومحادثته، وكذلك المرأة تكون تحت المجذوم، فتضاجعه في شعار واحد فيوصل إليها الأذى، وربما جذمت، والأطباء تأمر أن لا يجالس المسلول، ولا المجذوم) [4].

وكذلك النقبة أو القرحة تكون بالبعير وهو جرب رطب، فإذا خالط الإبل أو حاكها وأوى في مباركها وصل إليها بالماء الذي يسيل منه

---

(١) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص١٠٢ نشر دار الجيل بيروت، تحقيق محمد زهري النجار، وانظر زاد المعاد لابن القيم ٤/١٥٠.

(٢) رواه البخاري في الطب، باب لا هامة ٥/٢١٧٧ (٥٤٣٧)، ومسلم في السلام، باب لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر ٤/١٧٤٢ (٢٢٢٠).

(٣) رواه مسلم في السلام، باب اجتناب المجذوم ونحوه ٤/١٧٥٢ (٢٢٣١).

(٤) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص١٠٣ بتصرف.

وبالنطف نحو ما به، فهذا هو المعنى الذي قال فيه النبي ﷺ: لا يورد ذو عاهة على مصح[١].

وقد ورد عند البخاري من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: (لا عَدوَى وَلا طِيرة، إِنما الشُّؤْم في ثلاث في الفرسِ وَالمرأَة وَالدار) [٢].

والشؤم بهذه الثلاثة إنما يلحق من تشاءم بها، فيكون شؤمها عليه ومن توكل على الله ولم يتشاءم، ولم يتطير لم تكن مشئومة عليه، وقد يجعل الله سبحانه تطير العبد وتشاؤمه سببا لحلول المكروه، وإخبار النبي ﷺ بالشؤم في هذه الثلاثة ليس فيه إثبات الطيرة التي نفاها الله، وإنما غايته أن الله سبحانه قد يخلق أعيانا منها مشئومة على من قاربها وسكنها، وأعيانا مباركة لا يلحق من قاربها منها شؤم ولا شر، فشؤم المرأة إذا كانت غير ولود، وشؤم الدار جار السوء، فإن المرء يتأذى به، وشؤم الفرس إذا لم يغز عليه في سبيل الله[٣].

وهذا كما يعطي الله سبحانه الوالدين ولدا مباركا، يريان الخير على وجهه، ويعطي غيرهما ولدا مشئوما يريان الشر على وجهه، وكذلك

---

(١) المصدر السابق ص١٠٣ بتصرف.

(٢) رواه البخاري في كتاب الطب، باب لا عدوى ٥/٢١٧٧ (٥٤٣٨).

(٣) قال معمر بن راشد: وسمعت من تفسير هذا الحديث يقول شؤم المرأة إذا كانت غير ولود، وشؤم الفرس إذا لم يغز عليه وشؤم الدار جار السوء، انظر السنن الكبرى للبيهقي، باب العيافة والطيرة والطرق ٨/١٤٠، ومصنف عبد الرزاق ١٠/٤١١ (١٩٥٢٧)، وفتح الباري لابن حجر ٦/٦٢، والتمهيد لابن عبد البر ٩/٢٧٩.

ما يعطاه العبد من ولاية أو غيرها، فكذلك الدار والمرأة والفرس.

والله سبحانه خالق الخير والشر والسعد والنحس، فيخلق بعض هذه الأعيان سعودا مباركة، ويقضي بسعادة من قاربها وحصول اليمن والبركة له، ويخلق بعضها نحسا ينتحس بها من قاربها، وكل ذلك بقضائه وقدره، كما خلق سائر الأسباب، وربطها بمسبباتها المتضادة والمختلفة، كما خلق المسك وغيره من الأرواح الطيبة، وتلذذ بها من قاربها من الناس، وخلق ضدها وجعلها سببا لألم من قاربها من الناس، والفرق بين هذين النوعين مدرك بالحس؛ فكذلك في الديار والنساء والخيل فهذا لون، والطيرة والشركية لون، ولهذا يشرع لمن استفاد زوجة أو أمة أو دابة أن يسأل الله من خيرها وخير ما جبلت عليه، ويستعيذ من شرها، وشر ما جبلت عليه[1].

روى مسلم عَن عَائِشَة زَوْجِ النبِي ﷺ أَنها قالت: كَان النبِي ﷺ إِذا عَصَفت الريحُ قال: (اللهم إِني أَسأَلكَ خيرها، وَخَير ما فيها، وَخَير ما أُرسِلت بِه، وَأَعُوذ بِكَ من شَرها، وَشَر ما فيها وَشَر ما أُرسِلت بِه، قالت: وَإِذا تخَيلت السَّماءُ تغير لوْنه، وَخرَجَ وَدخَل، وَأَقبَل وَأَدبَر، فإِذا مطَرت سُرِي عَنه، فعَرفت ذلكَ في وَجْهه، قالت عَائِشَة فسَأَلته فقال: لعَله يا عَائِشَة كَما قال قوْم عَاد: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ الأحقاف:٢٤)[2].

---

(١) انظر مفتاح دار السعادة لابن القيم ٢/٢٥٧.

(٢) رواه مسلم في كتاب الاستسقاء، باب التعوذ عند رؤية الريح والغيم والفرح بالمطر ٢/٦١٦ (٨٩٩).

وروى أبو داود عَن عَمرو بْن شُعَيبٍ عَن أَبِيه عَن جَدِه أن النبِي ﷺ قال: (إذا تزَوَّجَ أَحَدكُم امرأَة أَوْ اشْتَرى خَادما فليقل: اللهم إِني أَسْأَلكَ خَيرها، وَخَير ما جَبَلتها عَليه، وَأَعُوذ بِكَ من شَرِها، وَمن شَر ما جَبَلتها عَليه، وَإِذا اشْتَرى بَعِيرا فليأْخُذ بِذروَة سَنَامه وَليقل مثل ذلكَ. قال أَبُو داوُد: زَاد أَبُو سَعِيد: ثم ليأْخُذ بِناصِيتها، وَليدعُ بِالبَركَة فِي المرأَة وَالخَادم) [١].

وقد جعل الله ﷻ في غرائز الناس استثقال ما نالهم الشر فيه، وإن كان لا سبب له في ذلك، وحب من جرى على يديه الخير لهم وإن لم يردهم به، ولأن مقامهم فيها قد يقودهم إلى الطيرة، فيوقعهم ذلك في الشرك والشر الذي يلحق المتطير بسبب طيرته، وهذا بمنزلة الخارج من بلد الطاعون غير فار منه، ولو منع الناس الرحلة من الدار التي تتوالى عليهم فيها المصائب والمحن وتعذر الأرزاق مع سلامة التوحيد في الرحلة للزم كل من ضاق عليه رزق في بلد، أو قلت فائدة صناعته أو تجارته فيها أن لا ينتقل عنها إلى غيرها [٢].

---

(١) رواه أبو داود في كتاب النكاح، باب في جامع النكاح ٢/٢٤٨ (٢١٦٠)، والنسائي في السنن الكبرى، كتاب عمل اليوم والليلة، باب ما يقول إذا أفاد امرأة ٦/٧٤ (١٠٠٩٣)، وابن ماجه في التجارات، باب شراء الرقيق ٢/٧٥٧ (٢٢٥٢)، وحسنه الألباني في آداب الزفاف ص٢٠، وانظر مشكاة المصابيح (٢٤٤٦).

(٢) انظر مفتاح دار السعادة لابن القيم ٢/٢٥٨، وتيسير العزيز الحميد لسليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، باب ما جاء في التطير ص ٣٧٨ نشر مكتبة الرياض الحديثة الرياض.

• مذاهب الناس في إثبات الأخذ بالأسباب وإبطالها.

مذاهب الناس في إبطال الأسباب أو إثباتها على ثلاثة مذاهب، طرفان ووسط، المذهب الأول تأسس على رد النصوص الصحِيحَة الصريحَة الكثيرة الدالة على ثبوت الأَسباب شرعا وقدرا، ونظر هؤلاء إلى نصوص القرآن والسنة بعين عوراء فلم يأخذوا بالنصوص الدالة على ثبوت الأسباب المظهرة لآثار حكمة الله عز وجل وما دل عليه اسمه الحكيم كما ورد في النصوص التالية:

١- قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) ﴾ آل عمران: ١٠٦.

٢- قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٥٠) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٥١) ﴾ الأنفال: ٥٠/ ٥١.

٣- قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣) ﴾ الأنعام: ٩٣.

٤- قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (٨) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٩) ﴾ محمد: ٨/ ٩.

٥- قوله تعالى: ﴿ ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٣٥) ﴾ الجاثية: ٣٥.

٦– قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤﴾ التوبة:١٤.

والنصوص المثبتة للسببية في الكتاب والسنة أكثر من أن تحصى، تجاهلها هؤلاء، وتجاهلوا إثبات مقتضى حكمة الله في خلق الأشياء وترتيب الأسباب على معاني الابتلاء والحكم العليا التي خلق الله ﷻ الإنسان من أجلها.

المذهب الثاني: رد النصوص الصحِيحَة الصريحَة الكثيرة الدالة على أَن الله ﷻ خالق السبب والنتيجة والعلة ومعلولها، إن شاء سلب النتيجة عن سببها وخلقها بلا سبب، وإن شاء خلق العلة وسلب عنها معلولها فتخلفت النتيجة عن سببها، وإن شاء أن يخلق النتيجة بأسبابها، فنظر هؤلاء إلى نصوص القرآن والسنة بعين عوراء فلم يأخذوا بالنصوص الدالة على ثبوت المشيئة والقدرة التي دل عليها اسمه القدير، كما ورد في النصوص التالية:

١– قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ٣﴾ فاطر:٣.

٢– قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ ٦٣ ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ٦٤ لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ ٦٥﴾ الواقعة:٦٣/٦٦.

٣– قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ٧١ ءَأَنتُمۡ أَنشَأۡتُمۡ شَجَرَتَهَآ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنشِـُٔونَ ٧٢ نَحۡنُ جَعَلۡنَٰهَا تَذۡكِرَةٗ وَمَتَٰعٗا لِّلۡمُقۡوِينَ ٧٣﴾ الواقعة: ٧١/٧٣.

٤– قوله تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ٢٤ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ٢٥ ثُمَّ شَقَقۡنَا

ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ عبس:٢٤/٣٢ .

٥-روى البخاري ومسلم من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ أنه قال: (أَتيت النبي ﷺ في رهطٍ من الأَشْعَريين نسْتحْمله، فقال: وَالله لا أَحْملكُم، وَما عِندي ما أَحْملكُم عَليه، قال: فلبِثنا ما شَاءَ الله ثم أُتي بِإبِل، فأَمر لنا بثلاث ذوْد غُر الذرى، فلما انطَلقنا قلنا: أَوْ قال بَعْضُنا لبَعْضٍ: لا يبَاركُ الله لنا أَتينا رسُول الله ﷺ نستْحْمله فحلَف أَن لا يحْملناً، ثم حَملنا، فأَتوْه فأَخْبَروه فقال: ما أَنا حَملتكُم، ولَكِن الله حَملكُم، وإِني وَالله إن شَاءَ الله لا أَحْلف عَلى يمين، ثم أَرى خَيرا منها، إِلا كَفرت عَن يميني وأَتيت الذي هوَ خَير) (١).

٦-روى مسلم من حديث صهيب أن النبي ﷺ قال: (وكَان الغُلام يبْرئُ الأَكْمه وَالأَبْرصَ وَيداوي الناسَ من سَائِر الأَدواءِ، فسَمعَ جَليسٌ للملكِ كَان قد عَمي، فأَتاه بِهدايا كَثيرة فقال: ما هاهنا لكَ أَجْمعُ إِن أَنت شَفَيتني، فقال: إِني لا أَشْفي أَحَدا، إِنما يشْفي الله، فإِن أَنت آمنت بِالله، دعَوْت الله فشَفَاكَ، فآمن بِالله فشَفَاه الله، فأَتَى الملكَ فجلَسَ إِليه كَما كَان يجْلسُ، فقال له الملكُ: من رد عَليك بَصَركَ؟ قال؟ ربِّي، قال: وَلكَ ربٌّ غَيري؟ قال: ربِّي وَربُّكَ الله، فأَخَذه فلم يزَل يعَذبُه حَتى دل عَلى الغُلام، فجِيءَ بِالغُلام، فقال له الملكُ: أَي بُني قد بَلغَ من سِحْركَ

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأيمان والنذور ٦/٢٤٤٤ (٦٢٤٩)، ومسلم في كتاب الأيمان، باب ندب من حلف يمينا فرأى غيرها خيرا منها أن يأتى الذى هو خير ويكفر عن يمينه ٣/١٢٦٨ (١٦٤٩).

ما تبْرئُ الأَكْمه وَالأَبْرصَ وَتفعَل وَتفعَل، فقال: إِني لا أَشْفي أَحَدا، إِنما يشْفي الله) [1].

٧-روى مسلم من حديث جابر بن عبد الله ﷺ أن رجُلا أَتى رسُول ﷺ فقال: (إِن لي جَارية هي خَادمنا وَسَانِيَتُنا، وَأَنا أَطُوف عَليها، وَأَنا أَكْره أَن تحْمل فقال: اعْزِل عَنها إِن شِئْت، فإِنه سَيأْتيها ما قدر لها، فلبث الرجُل ثم أَتاه فقال: إِن الجَارية قد حَبِلت، فقال: قد أَخْبَرتكَ أَنه سَيأْتيها ما قدر لها) [2].

٨-وفي الصحيحين من حديث معَاوية ﷺ أن النبي ﷺ قال: (من يرد الله بِه خَيرا يفقهه في الدين، وَإِنما أَنَا قاسِم وَيعْطِي الله، وَلن يزَال أَمر هذه الأُمة مسْتقيما حَتى تقوم السَّاعَة، أَوْ حَتى يأْتي أَمر الله) [3].

٩-روى البخاري ومسلم من حديث أَنس ﷺ أَن النبِي ﷺ نهى عَن بَيعِ ثمر التمر حَتى يزْهوَ، فقلنا لأَنسٍ: ما زَهوُها؟ قال: تحْمر وَتصْفر أَرأَيت إِن منعَ الله الثمرة، بِم تسْتحِل مَال أَخِيكَ؟) [4].

---

(١) رواه مسلم في كتاب الزهد والرقائق، باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام ٤/٢٢٩٩ (٣٠٠٥).

(٢) رواه مسلم في كتاب النكاح، باب حكم العزل ٢/١٠٦٤ (١٤٣٩)، ومعنى سانيتنا أي: هى التى تسقينا فشبهها بالناقة التى يستقون عليها وتسمى السانية.

(٣) رواه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي ﷺ: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق" ٦/٢٦٦٧ (٦٨٨٢)، ومسلم في كتاب الزكاة، باب النهى عن المسألة ٢/٧١٩ (١٠٣٧) .

(٤) رواه البخاري في كتاب البيوع، باب بيع المخاضرة ٢/٧٦٨ (٢٠٩٤)، ومسلم في كتاب المساقاة، باب وضع الجوائح ٣/١١٩٠ (١٥٥٥).

ولم يقل النبي ﷺ: منعها البرد والآفة التي تصيب الثمار ونحو ذلك، مما يدل على أن الله ﷻ هو مالك السبب وخالقه يتصرف فيه بأن يسلبه سببيته إن شاءَ، ويبقيه عليه إن شاءَ، كما سلب النار قوة الإحْراق عن الخليل إبراهيم عليه السلام، فقال تعالى: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ الأنبياء: ٦٨/٧٠.

المذهب الثاني: وهو مذهب ما جاءَت به الرسل ودل عليه الحِس والعقل والفطرة وهو إثباتها أَسبابا وجوازا، بل وقوع سلب سببيتها عنها إذا شاءَ الله ﷻ ودفعها بأُمور أُخرى نظيرها أَو أَقوى منها، مع بقاءِ مقتضى السببية فيها، كما تصرف كثير من أَسباب الشر بالتوكل والدعاءِ والصدقة والذكر والاستغفار والعتق والصلة، وتصرف كثير من أَسباب الخير بعد انعقادها بضد ذلك، فلله كم من خير انعقد سببه، ثم صرف عن العبد بأَسباب أَحْدثها منعت حُصوله، وهو يشاهد السبب حَتى كأَنه أُخذ باليد؟ وكم من شر انعقد سببه، ثم صرف عن العبد بأَسباب أَحْدثها منعت حُصوله؟ ومن لا فقه له في هذه المسأَلة فلا انتفاع له بنفسه ولا بعلمه(١).

• رأي ابن تيمية في الجمع بين القدر والأخذ بالأسباب.

وقد ذكر ابن تيمية هذه الحقيقية الإيمانية في النظر إلى توحيد الربوبية من جانب، والعمل بتوحيد العبودية من جانب أخر، فبين في جانب

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم ٢/٢٩٩.

الربوبية ضرورة الإيمان بعلم الله تعالى السابق، وأنه محيط بالأشياء على ما هي عليه، ولا محو فيه ولا تغيير، ولا زيادة ولا نقص، فإنه سبحانه يعلم ما كان وما يكون، وما لا يكون لو كان كيف كان يكون، كما ورد في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (كَتَبَ اللهُ مقادير الخَلائِق قبل أَن يخْلق السماوَات وَالأَرضَ بِخَمسين أَلف سنة قال: وَعرشُه على الماءِ) [١].

وفي حديث الإمام أحمد والترمذي :(قدر الله المقادير قبْل أَن يخْلق السماوَات وَالأَرضَ بِخَمسين أَلف سنة) [٢]. وفي حديث أحمد ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعا: (كُل شَيءٍ بِقدر حتى العجْزِ وَالكَيس) [٣].

وفي القرآن العزيز: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٢٢﴾ الحديد:٢٢.

---

(١) مسلم في القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام ٤/٢٠٤٤ (٢٦٥٣).

(٢) رواه الترمذي في كتاب القدر ٤/٤٥٨ (٢١٥٦)، وأحمد في المسند ٢/١٦٩ (٦٥٧٩)، قال شعيب الأرنؤوط : إسناده صحيح على شرط مسلم، رجاله عدا ابن لهيعة ثقات رجال الشيخين، وصححه الألباني، انظر صحيح الجامع (٤٣٨٠).

(٣) رواه مسلم في كتاب القدر، باب كل شيء بقدر ٤/٢٠٤٥ (٢٦٥٥)، وأحمد في المسند ٢/١١٠ (٥٨٩٣)، والعجز هنا هو عدم القدرة، وقيل هو ترك ما يجب فعله، والتسويف به وتأخيره عن وقته، ويحتمل العجز عن الطاعات، ويحتمل عموم العجز في أمور الدنيا والآخرة، والكيس ضد العجز، وهو النشاط والذكاء والحذق بالأمور، والقصد من الحديث أن العاجز قد قدر عجزه والكيس قد قدر كيسه انظر شرح النووي على صحيح مسلم ١٦/٢٠٥ بتصرف.

وفيه أيضا: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٥١﴾ التوبة:٥١ .

والآيات والأحاديث في مثل هذا كثيرة، والمقصود هنا أن من شهد هذا المشهد فشهوده حق، لكن وراء هذا المشهد مشهد آخر، وهو أن يشهد المقادير مقدرة بأسبابها؛ لا أنه يشهدها مجردة عن الأسباب؛ فإنه إن شهد ذلك كان شهوده ناقصا أعمى، وينشأ له الغلط من أن الأعمال لا تنفع، وأن الأسباب لا تفيد.

وهو قول مبني على أصل فاسد، ولا ريب أن هذا الأصل الفاسد الذي وقع فيه بعض المتصوفة ومن التحق بهم هو مخالف للكتاب والسنة وأئمة الدين، ومخالف صريح المعقول، ومخالف للحس والمشاهدة؛ فإن الله تعالى أجرى العادة في هذا العالم على أسباب ومسببات، تناط بتلك الأسباب، وينسب وقوعها إليها، وإن كان الكل في الحقيقة بقضائه وقدره باعتبار حقيقة الخلق أو حقيقة الإيجاد.

وقد سئل النبي ﷺ عن إسقاط الأسباب عند النظر إلى القضاء والقدر السابق، فرد النبي ﷺ على ذلك بضرورة العمل والأخذ بالأسباب، كما في الصحيحين عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: (كُنا في جَنازَة فيها رسول الله ﷺ بِبَقيع الغَرقد، فجَاءَ رسول الله ﷺ فجَلس وَمعه مِخْصرة فجَعل ينكُت بِالمخْصرة في الأَرضِ ثم رفع رأْسه فقال: ما منكُم من أَحَد ما من نفس منفوسة، إِلا كَتبَ الله مكَانها من النار أَوْ من الجَنَة، إِلا قد كُتبَت شَقية أَوْ سعيدة، قال فقال رجُل من القوْم: يا نبِي الله، أَفلا نَمكُث على كِتابِنا وَندع العمل؟ فمن كَان من أَهل السعادة ليكُونن إِلى

السعادة، ومن كان من أهل الشِّقوة ليكونن إلى الشِّقوة؟ قال: اعملوا فكل ميسر، أما أهل السعادة فييسرون للسعادة، وأما أهل الشِّقوة فييسرون للشِّقوة ثم قال نبي الله:

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ الليل:٥/١٠)[1].

ولما رجع عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن دخول دمشق من أجل الطاعون قال له أبو عبيدة رضي الله عنه كما في الصحيحين وهو إذ ذاك أمير الشام: أفرارا من قدر الله؟ فقال عمر رضي الله عنه: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله. فهذا كلام رسول الله وكلام صاحبه رضي الله عنه صريح أن السبب والمسبب بقدر الله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ التوبة:١٠٥.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ المؤمنون:٥١ .

• رأي ابن حزم في الجمع بين القدر والأخذ بالأسباب.

موقف ابن حزم رحمه الله كما لخصه لنا مرعي بن يوسف الكرمي

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجنائز، باب موعظة المحدث عند القبر وقعود أصحابه حوله ١/٤٥٨ (١٢٩٦)، ومسلم في كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي فى بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله ٤/٢٠٣٩ (٢٦٤٧)، وأبو داود واللفظ له في كتاب السنة، باب في القدر ٤/٢٢٢ (٤٦٩٤) .

بأن النبي ﷺ صح عنه تصحيح الطب والأمر بالعلاج وأنه ﷺ قال: تداووا، فإن الله تعالى لم يخلق داء إلا خلق له دواء إلا السأم، والسأم الموت. فاعترض قوم فقالوا: قد سبق علم الله ﷻ بنهاية أجل المرء، ومدة صحته، ومدة سقمه، فأي معنى للعلاج؟ قال فقلنا لهم: نسألكم هذا السؤال نفسه في جميع ما يتصرف فيه الناس من الأكل والشرب واللباس لطرد البرد والحر والسعي في المعاش بالحرث والغرس والقيام على الماشية والتحرف بالتجارة والصناعة، ونقول لهم: قد سبق علم الله تعالى بنهاية أجل المرء، ومدة صحته، ومدة سقمه، فأي معنى لكل ما ذكرنا، فلا جواب لهم إلا أن يقولوا: إن علم الله تعالى قد سبق أيضا بما يكون من كل ذلك، وبأنها أسباب إلى بلوغ نهاية العمر المقدرة، فنقول لهم: وهكذا الطب، قد سبق في علم الله تعالى أن هذا العليل يتداوى وأن تداويه سبب إلى بلوغ نهاية أجله، فالعلل مقدرة، والزِّمانة مقدرة، والموت مقدر، والعلاج مقدر، ولا مرد لحكم الله، ونفاذ علمه في كل شيء من ذلك) [١].

- **رأي ابن القيم في الجمع بين القدر والأخذ بالأسباب.**

وقال ابن القيم بعد تقريره نفع الدعاء والأمر به ودفعه للبلاء: (وقد اعترض قوم بأن المدعو به إن كان قد قدر لم يكن بد من وقوعه، دعا به العبد أو لم يدع، لأن كل مقدر كائن كما دلت عليه الآيات الصريحة والأحاديث الصحيحة، وإن لم يكن قدر لم يقع، سأله العبد أو لم يسأله، فظنت طائفة صحة هذا الكلام، فتركت الدعاء وقالوا: لا فائدة فيه.

(١) انظر رفع الشبهة والغرر لمرعي بن يوسف الكرمي ص٢٤.

قال: وهؤلاء مع فرط جهلهم وضلالتهم متناقضون، فإن مذهبهم يوجب تعطيل جميع الأسباب، فيقال لأحدهم: إن كان الشبع والري قد قدرا لك، فلابد من وقوعهما، أكلت أو لم تأكل، شربت أو لم تشرب، فلا حاجة للأكل والشرب، وإن كان الولد قد قدر لك فلا بد منه، وطئت الزوجة والأمة أو لم تطأ، وإن لم يقدر لم يكن، فلا حاجة للتزويج والتسري، فهل يقول هذا عاقل أو آدمي، بل الحيوان مفطور على مباشرة الأسباب التي بها قوامه ونفعه، واجتناب التي بها ضرره، فالحيوان أعقل وأفهم من هؤلاء الذين هم كالأنعام بل هم أضل سبيلا، قال: وعلى هذا فالدعاء من أقوى الأسباب، فإذا قدر وقوع المدعو به بالدعاء، لم يصح أن يقال: لا فائدة في الدعاء، كما لا يقال: لا فائدة في الأكل والشرب وجميع الحركات والأعمال) [1].

وقد ذكر ابن القيم أن الناس قد اختلفوا في الدعاء المستعقب بقضاء الحاجات، فزعم قوم من المبطلين متفلسفة ومتصوفة أنه لا فائدة فيه أصلا؛ فإن المشيئة الإلهية والأسباب العلوية، إما أن تكون قد اقتضت وجود المطلوب، وحينئذ فلا حاجة إلى الدعاء، أو لا تكون اقتضته حينئذ فلا ينفع الدعاء. وقال قوم ممن يتكلم في العلم: بل الدعاء علامة ودلالة على حصول المطلوب، وجعلوا ارتباطه بالمطلوب ارتباط الدليل بالمدلول، لا ارتباط السبب بالمسبب.

ثم ذكر أن الصواب ما عليه الجمهور في أن الدعاء سبب لحصول الخير المطلوب كسائر الأسباب المقدرة والمشروعة، وإذا أراد الله بعبد

---

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لابن القيم ص٨.

خير ألهمه دعاءه والاستعانة به، وجعل استعانته ودعاءه سببا للخير الذي قضاه له، كما أن الله تعالى إذا أراد أن يشبع عبد أو يرويه، ألهمه أن يأكل ويشرب، وإذا أراد أن يتوب على عبد ألهمه أن يتوب، فيتوب عليه، وإذا أراد أن يرحمه أو يدخله الجنة يسره لعمل أهل الجنة.

والمشيئة الإلهية اقتضت وجود هذه الخيرات بأسبابها المقدرة لها، كما اقتضت دخول الجنة بالإيمان، ودخول النار بالكفر، وحصول الولد بالوطء، والعلم بالتعلم، لكن ليس كل ما يظنه الإنسان سببا يكون سببا.

والمقصود هنا إنما هو بيان أن الطاعات سبب للثواب، والمعاصي سبب للعقاب، خلافا للمتصوفة الإباحية، كما أنه سبحانه جعل إرسال الرسل سببا لهداية المؤمنين، وإقامة حجة الله على الكافرين، ولولا إرسال الرسل ما حصلت هداية المؤمن، ولا قامت حجة الله على كافر .

والحاصل أن الأسباب وتأثيرها بمشيئة الله مما لا ينكر، وإن كان الله تعالى هو خالق السبب والمسبب، لاسيما وقد دل العقل والنقل والفطر وتجارب الأمم على اختلاف أجناسها ومللها ونحلها على أن التقرب إلى رب الأرباب، وطلب مرضاته والإحسان إلى خلقه من أعظم الأسباب الجالبة لكل خير، وأضدادها من أكبر الأسباب الجالبة لكل شر، فما استجلبت نعم الله واستدفعت نقمة بمثل طاعته، والتقرب إليه، والإحسان إلى خلقه.

وقد رتب الله سبحانه حصول الخير والشر في الدنيا والآخرة في كتابه العزيز على الأعمال ترتيب الجزاء على الشرط، والعلة على

المعلول، والمسبب على السبب، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩﴾ الأنفال: ٢٩.

وقال سبحانه: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ٣١﴾ النساء: ٣١.

وقال ﷻ: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ١٢٣﴾ النساء: ١٢٣.

وبالجملة فالقرآن من أوله إلى آخره صريح في ترتيب الجزاء بالخير والشر، والأحكام الشرعية مترتبة على الأسباب والأعمال، ومن فقه في هذه المسألة وتأملها حق التأمل انتفع بها غاية النفع، ولم يتكل على القدر جهلا منه وعجزا، أو تفريطا وإضاعة، فيكون توكله عجزا، وعجزه توكلا، بل الفقيه هو الذي يرد القدر بالقدر، ويجلب القدر بالقدر، ويعارض القدر بالقدر، بل لا يمكن للإنسان أن يعيش إلا بذلك، فإن الجوع والعطش والبرد وأنواع المخاوف والمحاذير هي من القدر، والخلق كلهم ساعون في دفع هذا القدر بالقدر، وهكذا من وفقه الله تعالى وألهمه رشده فإنه يدفع قدر العقوبة الأخروية بقدر التوبة والإيمان والأعمال الصالحة، فإن وزان القدر المخوف في الآخرة وزان القدر المخوف في الدنيا، فرب الدارين واحد، وحكمته واحدة، لا يناقض بعضها بعضا، ولا يبطل بعضها بعضا.

وهذه المسألة من أشرف المسائل لمن عرف قدرها، ورعاها حق

رعايتها، فثبت بما تقرر أن الله تعالى جعل للسعادة والشقاوة أسباب، وأنه سبحانه هو الذي يسبب الأسباب، وهو خالق كل شئ، كما اقتضت ذلك حكمته ومشيئته، وأن الأسباب لا بد منها في وجود المسببات، بمعنى أن الله تعالى لا يحدث المسببات ويشاؤها إلا بوجود الأسباب، لكن الالتفات إلى الأسباب قد يؤدي إلى شرك الربوبية، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في توحيد العبودية.

والمؤمن المتوكل يباشر الأسباب كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ٧١ ﴾ النساء: ٧١ .

وقال سبحانه: ﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٩٥ ﴾ البقرة: ١٩٥ .

ولا يلتفت المؤمن إلى الأسباب بمعنى أن لا يطمئن إليها، ولا يثق بها ولا يرجوها ولا يخافها؛ فإنه ليس في الوجود سبب يستقل بحكم، بل كل سبب مفتقر إلى أمور أخر تضم إليه، كالإخلاص والقبول مثلا، وله موضع وعوائق تمنع موجبة، وما ثم سبب مستقل بنفسه إلا مشيئة الله وحده، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وما سبق به علمه وحكمه فهو حق واقع. وقد علم وحكم أن الشيء الفلاني يقع بالسبب الفلاني، فمن شهد وقوع الولد وحصوله المقدر بسببه الذي هو الوطء فشهوده كامل، ومن شهد حصول ولد له بلا وطء فشهوده ناقص أعمى[1].

---

(١) انظربتصرف السابق ص٢٩، وانظر رفع الشبهة والغرر ص٣٠.

قال الإمام النووي رحمه الله: (إن الله تعالى قدر مقادير الخلق وما يكون من الأشياء قبل أن يكون في الأزل، وعلم سبحانه أنها ستقع في أوقات معلومة عنده، وعلى صفات مخصوصة، فهي تقع على حسب ما قدرها) [1].

- **حكم الرجل المبتلى الذي سكن في دار بين قوم أصحاء.**

وسئل ابن تيمية عن رجل مبتلى سكن في دار بين قوم أصحاء فقال بعضهم: لا يمكننا مجاورتك، ولا ينبغي أن تجاور الأصحاء، فهل يجوز إخراجه؟ فأجاب: نعم، لهم أن يمنعوه من السكن بين الأصحاء، فإن النبي ﷺ قال: لا يورد ممرض على مصح، فنهى صاحب الإبل المريضة أن يوردها على صاحب الإبل الصحاح، مع قوله: لا عدوى ولا طيرة، وكذلك روى أنه لما قدم مجذوم ليبايعه أرسل إليه بالبيعة، ولم يأذن له في دخول المدينة[2].

كما أن الأمر بالفرار من المجذوم كالفرار من الأسد ليس للوجوب، بل للشفقة، لأنه ﷺ كان ينهى أمته عن كل ما فيه ضرر بأي وجه كان، ويدلهم على كل ما فيه خير، أما الطاعون ينزل ببلد فيخرج منه خوف العدوى. وقد قال ﷺ: إذا وقع ببلد وأنتم به فلا تخرجوا منه، وإذا كان ببلد فلا تدخلوه، يريد بقوله: لا تخرجوا من البلد إذا كان فيه، كأنكم تظنون أن الفرار من قدر الله ينجيكم من الله، ويريد بقوله: وإذا كان ببلد فلا تدخلوه، أن مقامكم في الموضع

---

(١) شرح النووي على مسلم ١/١٥٤.
(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٢٤/٢٨٤بتصرف.

الذي لا طاعون فيه اسكن لقلوبكم وأطيب لعيشكم، ومن ذلك المرأة تعرف بالشؤم أو الدار، فينال الرجل مكروه أو جائحة فيقول: أعدتني بشؤمها [(١)].

وروى البخاري عن ابن عمر ﵁ قال: (ذكروا الشؤم عند النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: إن كان الشؤم في شيء ففي الدار والمرأة والفرس) [(٢)].

وعند أحمد وصححه ابن حبان والحاكم: (من سعادة ابن آدم ثلاثة: المرأة الصالحة، والمسكن الصالح، والمركب الصالح، ومن شقاوة ابن آدم ثلاثة: المرأة السوء، والمسكن السوء، والمركب السوء) [(٣)]. وفي رواية لابن حبان (المركب الهني، والمسكن الواسع) [(٤)].

- **الإيمان بالقدر وأثره في عدم الاستسقاء بالأنواء.**

روى البخاري عن زيد بن خالد الجهني أَنه قال : (صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إِثر سماءٍ كانت من الليلة، فلما انصرف أَقبل على الناس فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أَعلم قال: أَصبح من عبادي مؤْمن بي وكافر، فأَما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤْمن بي وكافر بالكوكب، وأَما من

---

(١) انظر بتصرف زاد المعاد لابن القيم ٤/١٥١.

(٢) رواه البخاري في النكاح، باب ما يتقى من شؤم المرأة ٥/١٩٥٩ (٤٨٠٦).

(٣) رواه أحمد في المسند ١/١٦٨ (١٤٤٥)، والحاكم في المستدرك، كتاب قسم الفئ ٢/١٥٧ (٢٦٤٠). وقال الشيخ الألباني: صحيح لغيره، انظر صحيح الترغيب والترهيب (١٩١٤) .

(٤) صحيح ابن حبان، كتاب النكاح ٩/٣٤٠ (٤٠٣٢).

قال: بنوءِ كذا وكذا، فذلك كافر بي ومؤْمن بالكوكب)[١].

وفي صحيح مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما: (قال مطر الناس على عهد النبي ﷺ فقال النبي ﷺ أَصبح من الناس شاكر، ومنهم كافر، قالوا: هذه رحمة الله. وقال بعضهم: لقد صدق نوءُ كذا وكذا، قال فنزلت هذه الآية: ﴿ ۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ٧٩ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٠ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ٨١ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ٨٢﴾ الواقعة:٧٥/٨٢)[٢].

قال ابن الجارود: (قوله ﷺ: أَصبح من عبادي مؤْمن بي وكافر بي. أَخبر أَن من عباده مؤْمنا به، وهو من أَضاف المطر إِلى فضل الله ورحمته، وأَن المنفرد بالقدرة على ذلك هو الله تعالى، دون سبب ولا تأْثير لكوكب ولا لغيره، فهذا المؤْمن بالله تعالى كافر بالكوكب، بمعنى أَنه يكذب قدرته على شيءٍ من ذلك، ويجحد أَن يكون له فيه تأْثير، وأَن من عباده من أَصبح كافرا به، وهو من قال: مطرنا بنوءِ كذا وكذا فأَضاف المطر إِلى النوءِ، وجعل له في ذلك تأْثيرا وللكوكب فعلا)[٣].

---

(١) البخاري في الاستسقاء، باب قوله تعالى: وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ١/٣٥١ (٩٩١)، ومسلم في الإيمان، باب بيان كفر من قال مطرنا بالنوء ١/٨٣ (٧١) .

(٢) رواه مسلم في الإيمان، باب بيان كفر من قال مطرنا بالنوء ١/٨٤ (٧٣).

(٣) المنتقى من السنن المسندة، لعبد الله بن علي بن الجارود أبو محمد النيسابوري، شرح حديث (٤٠٥)، تحقيق عبد الله عمر البارودي، طبعة مؤسسة الكتاب الثقافية الطبعة الأولى بيروت ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨ .

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ يوسف:١٠٦. فلا بد من الإقرار بأن الله ﷻ هو الذي قدر ودبر، وأن الأسباب التي يقلبها ربنا، مثلها كمثل الآلة بيد الصانع، ألا ترى أنه لا يقال: السيف ضرب العنق، ولا السوط ضرب العبد، وإنما يقال: السياف ضرب العنق، وفلان ضرب فلانا بالسوط، وإن كانت هذه الأشياء أسبابا مباشرة للأفعال إلا أنها آلة بيد صانعها، وكذلك الخليقة يباشرون الأسباب في ظاهر النظر عند البشر، والله من ورائهم محيط متوحد في الربوبية، هو القادر الفاعل بلطائف القدرة وخفايا المشيئة.

وإنما ذكر الله تعالى الأسباب لأن الشرائع تتعلق بها والأحكام عائدة عليها بالثواب والعقاب، فالعبد لا بد أن يعتقد أنه لا خالق إلا الله ولا مدبر للكون سواه، وأن الرب الذي يرزق ويشفي ويحي ويميت بأسباب قادر على أن يرزق ويشفي ويحي ويميت من غير أسباب، فالأخذ بالأسباب ركن من أركان التوكل على الله، فلا يضر التصرف في أسباب العيش والتكسب في أسباب الرزق، والأخذ بأسباب الشفاء، والنجاة من الهلاك لمن صح توكله، ولا يقدح في مقامه ولا ينقص ذلك من حاله.

وعند الترمذي وحسنه الألباني عن أنس بن مالك ﷺ أن رجلا قال للنبي ﷺ: (أُرسل ناقتي وأَتوكل؟ قال: اعقلها وتوكل)[1].

---

(١) رواه الترمذي في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع ٦٦٨/٤ (٢٥١٧)، وحسنه الألباني في تخريج أحاديث مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام ٢٣/١ (٢٢) نشر المكتب الإسلامي، بيروت.

الموحد يعلم أن الله تعالى قد جعل في الأسباب منافع خلقه، ومفاتح رزقه وخزائن حكمته، وعلم أنه مقتد في ذلك بنبيه متبع لسنته.

قال ابن تيمية: (بين ﷺ أن الأسباب المخلوقة والمشروعة هي من القدر فقيل له: أرأيت رقى نسترقي بها، وتقى نتقي بها، وأدوية نتداوى بها، هل ترد من قدر الله شيئا؟ فقال: هي من قدر الله. فالالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد. ومحو الأسباب أن تكون أسبابا نقض في العقل، والأعراض عن الأسباب المأمور بها قدح في الشرع . فعلى العبد أن يكون قلبه متعمدا على الله لا على سبب من الأسباب، والله ييسر له من الأسباب ما يصلحه في الدنيا والآخرة، فإن كانت الأسباب مقدورة له وهو مأمور بها فعلها مع التوكل على الله، كما يؤدى الفرائض، وكما يجاهد العدو ويحمل السلاح ويلبس جُنة الحرب، ولا يكتفي في دفع العدو على مجرد توكله بدون أن يفعل ما أمر به من الجهاد، ومن ترك الأسباب المأمور بها فهو عاجز مفرط مذموم)[1].

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٥٢٨/٨ .

المطلب التاسع عشر

النازعان والحكمة من خلق الاختيار في الإنسان

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فقد تحدثنا في المطلب السابق عن فهم الصحابة ﭫ للعلاقة بين القدر وحتميته والأخذ بالأسباب وترتيب النتائج عليها، وكذلك تناول الحديث كيفية الجمع بين حديث لا عدوى ولا طيرة وفر من المجذوم فرارك من الأسد، ومذاهب الناس في إثبات الأخذ بالأسباب وإبطالها. كما تحدثنا عن رأي ابن تيمية في الجمع بين القدر والأخذ بالأسباب، وكذلك رأي ابن حزم وابن القيم .

ثم تناول الحديث حكم الرجل المبتلى الذي سكن في دار بين قوم أصحاء، وهل لهم أن يخرجوه منها؟ ثم بينا قضية الإيمان بالقدر وأثرها في عدم الاستسقاء بالأنواء.

وفي هذا المطلب بإذن الله ﻷ نتحدث عن أحد مقومات الاختيار في الإنسان التي تحقق حكمة الله في خلقه، وهما النازعان النفسيان المتقابلان والمتضادان .

- **خلق الاختيار في الإنسان من مظاهر الحكمة الإلهية.**

كما تناولنا الحديث في المطالب السابقة توحيد الربوبية ومقتضى الإيمان بالله الغني الحميد الموصوف بالغنى الذاتي، والمحمود من كل الخلائق على نعمة الإمداد لفقرهم الذاتي، وكما تناولنا الحديث أيضا القضاء والقدر ومقتضى الإيمان بالله القادر القدير في تقديره وإظهار ما قدره بمشيئته وقدرته، فإننا نتناول في المطالب التالية الحديث عن الحكمة والتدبير، ومقتضى الإيمان بالله الحكيم الخبير، فجميع الخلائق يتقلبون بين مقتضى أسمائه وصفاته، بين مقتضى اسمه القدير ومقتضى اسمه الحكيم، فبالقدرة خلق وشاء وكتب وقدر، وبالحكمة شرع وحكم وأثاب وعاقب، فبدت مظاهر الإلزام بتوحيد الربوبية من جهة، وتوحيد العبودية من جهة أخرى.

وفي هذا المطلب نتناول الحديث عن خلق الاختيار في الإنسان ومقومات الحرية والمسئولية، وكيف أنها من مظاهر الحكمة الإلهية، وأدلة اختياره للكفر والإيمان، ردا على الجبرية الذين يقولون بأن الإنسان مسير مجبور، وليس له اختيار مقبول أو جزاء معقول.

وذلك أيضا لنرى الكمال في تركيب الإنسان، وكيف ابتلاه بين الكفر والإيمان، وأنه يقلب فؤاده بين إصبعين من أصابع الرحمن، كل ذلك مع كمال العدل، والإنعام والفضل، فالعباد يتقلبون بين عدله وحكمته، وقدرته ومشيئته، وحجته البالغة في فعله بخلقه، وسوف نتناول الحديث عن النازعين، والخواطر النفسية التي تنبعث من الطرفين، والإنسان له الخيار بحرية تامة في اتباع هذين الجانبين، إرادته وكسبه بين

نجدين اثنين، نجد الخير والطاعة والإيمان، ونجد الشر والكفر والعصيان.

• المقصود بالقلب في المعاني اللغوية.

قال ابن منظور: (القلب تحويل الشيء عن وجهه. قَلَبَه يقلبه قلبا، وقد انقلب. وقَلب الشيء حوله ظهرا لبطن. وتقلب الشيء ظهرا لبطن، كالحية تتقلب على الرمضاء. وقلبت الشيء فانقلب أي انكب، وقلبته بيدي تقليبا، وكلام مقلوب، وقد قلبته فانقلب، وقلبته فتقلب. والقلب أيضا صرفك إنسانا عن وجهه الذي يريده. وقلب الأمور بحثها، ونظر في عواقبها) [١]. وخلاصة المعاني اللغوية تتمثل في عدة أمور:

١- القلب يأتي بمعنى المضغة المودعة في جوف الصدر، نحو الجانب الأيسر، كما ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ الحج:٤٦.

٢- ويأتي القلب بمعني التقليب، فقلب الشيء هو صرفه من وجه إلى آخر وقلب الإنسان سمي بذلك لكثرة تقلبه، وعند أحمد من حديث أبي موسى الأشعري ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: (إنمَا سمِّي القَلبُ مِن تقَلبِهِ، إنمَا مَثل القَلبِ كَمَثل رِيشَة مُعَلقَة فِي أَصْل شَجرَة، يقلبُهَا الرَّيح ظَهْرًا لبَطْن) [٢].

(١) لسان العرب لابن منظور الأفريقي (١/٦٨٥).

(٢) رواه أحمد ٤/٤٠٨ (١٩٦٧٧)، والبيهقي في شعب الإيمان، باب في الخوف من الله تعالى ١/٤٧٣ (٧٥٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٣٦٥).

٣- وكذلك يأتي القلب بمعني اللب والخلاصة، فقلب كل شيء لبه وخلاصته، وقلب الإنسان هو خلاصة ما فيه.

٤- ويأتي القلب بمعني البحث والنظر في عواقب الأمور تقول: أقلب الموضوعات وأبحثها وأنظر في عواقبها وهذه أيضا صفة قلب الإنسان. روى الترمذي وصححه الألباني من حديث أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يكثر أن يقول: (اللهُمَّ ثبِّت قَلبِي عَلى دينكَ، فَقَال رَجل: يا رَسول اللهِ، تَخَافُ عَلينا وقَد آمَنا بِكَ وصَدقْناكَ بِمَا جئْت بِهِ؟ فَقَال: إِن القُلوبَ بَين إِصْبَعَين مِن أَصَابِعِ الرَّحمَن ﷻ يقلبُهَا، وأَشَارَ الأَعْمَشُ بِإِصْبَعَيهِ) [(١)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (لفظ القلب قد يراد به المضغة الصنوبرية الشكل التى في الجانب الأيسر من البدن التى جوفها علقة سوداء كما في الصحيحين عن النبي ﷺ "ان في الجسد مضغة[(٢)]، وقد يراد بالقلب باطن الإنسان مطلقا؛ فإن قلب الشيء باطنه كقلب الحنطة واللوزة والجوزة ونحو ذلك، ومنه سمى القليب قليبا لأنه أخرج قلبه وهو باطنه) [(٣)].

---

(١) رواه الترمذي في كتاب القدر، باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن ٤/٤٤٨ (٢١٤٠)، وأحمد في المسند ٣/١١٢ (١٢١٢٨)، وابن ماجه في كتاب الدعاء، باب دعاء رسول الله ﷺ ٢/١٢٦٠ (٣٨٣٤)، وصححه الشيخ الألباني، انظر صحيح ابن ماجه (٣٨٣٤).

(٢) رواه البخاري في الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه ١/٢٨ (٥٢)، ومسلم في كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات ٣/١٢١٩ (١٥٩٩).

(٣) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ٩/٣٠٣.

• ما المقصود بالقلب الذي ورد في القرآن والسنة؟

هل هو القلب الدموي الذي نراه أم أنه قلب غيبي آخر في مكان آخر لا نعلمه؟ قال السامرائي: (ما دلالة كلمة قلب في القرآن الكريم؟ القلب عند بعض المفسرين هو العقل، وقسم قال ليس العقل بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ الحج:٤٦. وقد استعمل الله تعالى كلمتي العقل والحجر في القرآن الكريم، لكن ليس المقصود بالقلب المضغة الموجودة في الصدر، إنما المقصود أمر آخر، أمر روحي، بدليل أن القلب هو أمر روحاني غيبي، والعقل يأخذ حكما ولا يعمل به، فإيمان العقل بارد أحيانا، أما القلب فهو الذي يحمل الإنسان على العمل بما يؤمن به، والقلب من هذه الناحية أهمّ)[1].

وكلامه فيه نظر لأن القلب الذي ورد ذكره في القرآن والسنة هو هذه المضغة الكائنة في الصدر نحو الجانب الأيسر، والنصوص تذكر هذه المضغة بذاتها، وأدلة ذلك من القرآن والسنة كثيرة منها:

١- قول الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ الحج:٤٦.

٢- قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ ١٨﴾ غافر:١٨.

٣- قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ

---

(١) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل للدكتور فاضل صالح السامرائي ص٣٧١.

﴿لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٢٢﴾ الزمر: ٢٢.

٤- قوله تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦۚ﴾ الأحزاب: ٤.

٥- قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنُّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرٗا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦﴾ النحل: ١٠٦.

٦- قوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ١٠﴾ الأحزاب: ١٠.

أما الأدلة من السنة على أن القلب هو هذه المضغة الكائنة في الصدر فهي كثيرة وصريحة في دلالتها على ذلك منها:

١- ما ورد عند البخاري من حديث النعمان بن بشير ﵁ أن رسول اللهِ ﷺ قال: (أَلا وإن فِي الجسد مُضْغَة، إذا صَلَحت صَلَح الجسد كُلهُ، وإِذا فَسدت فَسد الجسد كُلهُ، أَلا وهِي القَلْبُ) [(١)].

٢- وعند البخاري أيضا من حديث أَنس بن مالك عن مالك بن صعصعة رضي الله عنهما أَن نبي اللهِ ﷺ حدثهُمْ عن ليلة أُسري بِهِ، فجاء في حديثه ﷺ: (بينمَا أَنا فِي الحطِيم، وربَّمَا قَال: فِي الحجر مُضْطَجعا، إِذ أَتاني آت فقَد قَال وسمِعتهُ يقُول: فَشَقَّ مَا بَين هَذهِ إِلى هَذهِ، فَقُلت للجارود وهْو إِلى جنبِي: مَا يعنى بِهِ؟ قَال: مِن ثغْرة نَحرِه إِلى شِعرتهِ، وسمِعتهُ يقُول: مِن قَصِّهِ إِلى شِعرتهِ، فَاستخْرج قَلبِى، ثمَّ

---

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه ١/٢٨ (٥٢)، ومسلم في كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات ٣/١٢١٩ (١٥٩٩).

أُتيت بِطَست مِن ذهَبٍ مَمْلوءَة إيمَانا، فَغُسل قلبِى ثمَّ حشِيَ، ثمَّ أُوتيت بِدابَّة دون البَغْل وفَوقَ الحمَار أَبْيض)[(١)].

٣- وفي صحيح مسلم عن أَنس بْن مَالكٍ ﵁ أَن رسول اللهِ ﷺ أَتاهُ جبْريل ﵇ وهُو يلعبُ مَع الغِلمَان، فَأَخذَهُ فَصرَعهُ، فَشَقَّ عن قَلبِهِ، فَاستخرْج القَلبَ، فَاستخرْج مِنهُ علقة فقَال: هَذا حظُّ الشَّيطَان مِنك، ثمَّ غَسلهُ فِي طَست مِن ذهَبٍ بِماءِ زمْزم، ثمَّ لأَمهُ، ثمَّ أَعادهُ فِي مَكَانهِ، وجاءَ الغِلمَان يسعون إلى أُمِّهِ يعني ظِئْرهُ، فَقَالوا: إن مُحمَّدا قَد قُتل، فَاستقْبَلوهُ وهُو مُنتقِع اللون، قَال أنس: وقَد كُنت أَرئِي أَثر ذلكَ المِخْيطِ فِي صَدره ِ[(٢)].

٤- وعند مسلم من حديث أُسامَة بْن زيد ﵁ قَال: (بَعثنا رسول اللهِ ﷺ فِي سرية، فَأَدركْت رجلا فَقَال: لا إِلهَ إلا اللهُ، فَطَعنتهُ، فَوقَع فِي نفْسي مِن ذلك، فَذكَرتهُ للنبِي ﷺ، فَقَال رسول اللهِ ﷺ: أَقَال لا إلهَ إلا اللهُ وقَتلتهُ ؟ قَال قُلت: يا رسول اللهِ إنمَا قَالهَا خَوفًا مِن السلاح، قَال: أَفَلا شَقَقْت عن قَلبِهِ حتى تعلمَ أَقَالهَا أَمْ لا ؟ فَمَا زال يكَررهَا علي حتى تمَنيت أَني أَسلمْت يومَئِذ)[(٣)].

---

(١) رواه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب المعراج ١٤١٠/٣ (٣٦٧٤) .

(٢) رواه مسلم في الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ١٤٧/١(١٦٢)، والمخيط الإبرة، والظئر المرضعة غير ولدها، والعلقة الدم الغليظ المنعقد، ومعنى لأمه أيضم بعضه إلى بعض، المنتقع هو المتغير اللون.

(٣) رواه البخاري في كتاب الديات، باب قول الله تعالى: ومن أحياها ٢٥١٩/٦ (٦٤٧٨)، ومسلم واللفظ له في كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال: لا إله إلا الله ٩٦/١ (٩٦).

• وصف القلب بجانبه المحسوس الكائن في صدر الإنسان.

ورد في تشريح القلب أنه مخلوق من لحم قوي منتسج فيه أصناف من الليف قوية شديدة الاختلاف، الطويل الجذاب، والعريض الدفّاع والمورب الماسك، ليكن له أصناف من الحركات، ودرج الشكل إلى الصنوبرية ليحسن هندام السفل والفوق، والقلب يغتذي مع قواه الطبيعية فيجذب الدم إلى داخل كما يجذب الهواء. وقد وضع القلب في الوسط من الصدر لأنه أعدل موضع وأميل يسيرا إلى اليسار ليبعد عن الكبد، فيكون للكبد مكان واسع [(١)].

يتألف القلب في جانبه المرئي من أربع غرف، الأذينة اليسرى والبُطَين الأيسر، والأذينة اليمنى، والبُطين الأيمن. والغرف اليسرى، تحوي الدم الأحمر القاني، واليمنى تحوي الدم الأسود القاتم.

والقلب يتركب كذلك من عدة طبقات، غشاء خارجي يغلف القلب ويسمى بالتأمور، وطبقة عضلية، وغشاء باطني هو الشغاف الذي يغطي القلب من الباطن، وحجاب يفصل القلب الأيسر ذو الدم الأحمر القاني عن القلب الأيمن، ذو الدم الأسود القاتم يسمى بالصمام.

وكذلك يحتوي القلب على أوعية تصب في الأذينة اليسرى، وهي الأوردة الرئوية التي تحمل الدم الأحمر القاني المملوء بالأكسجين والمواد الغذائية، وأوعية أخرى تصب في الأذينة اليمنى وهي الوريد الأجوف العلوي والسفْلي، ويحملان الدم الأسود الممتلئ بثاني أوكسيد الكربون.

---

(١) القانون في الطب لابن سينا ٢/٣٧٠ بتصرف.

وفي القلب أوعية أخرى في البطين الأيسر، وهو شريان الأبهر الذي يحمل الدم الأحمر القاني إلى كل جزء من الجسم، حتى القلب نفسه يأخذ منه، والشريان الرئوي الذي ينشأ من البطين الأيمن ليذهب بالدم الأسود إلى الرئة فيصفى ويحمّل بالأكسجين.

وكذلك يتألف القلب من مركز تنبيه ومولد ذاتي يسمى بالعقدة الجيبية، وهي موضوعة في جدار الأذينة، وتسمى عند علماء التشريح بصانع الخطى، تصل بواسطة حبل عصبي إلى العقدة الأذينية البطينية، ومنها حزمة عصبية تتفرع إلى الغصن الأيسر والغصن الأيمن، وهما يتفرعان إلى الأغصان التي تنتشر في عضلات البطينين.

وزن القلب لدى الشخص البالغ لا يزيد عن ثلث كيلو جرام وحجمه في حجم قبضة اليد، عدد نبضات القلب في العام الواحد يزيد عن أربعين مليون نبضة، حتى الآن لا يعرف السر في العمل الميكانيكي للقلب غير أنها إرادة الله من فوق عرشه.

والقلب يضخ خمسة لترات من الدم في الساعة الواحدة، أو سبعة آلاف ومئتي لتر من الدم إلى سائر البدن يوميا، ويبدأ عمله من بداية الأسبوع الرابع للجنين ويستمر دون توقف حتى الموت.

ومن الأمور التي استجدت حول القلب أن الأطباء استطاعوا إيقاف القلب تماما عن العمل لإصلاح ثقب في جداره في السادس من مايو سنة ١٩٥٣م بأمريكا، وتم تشغيل الجسم بآلة صناعية تحل محل القلب لمدة وصلت إلى خمس ساعات.

وفي جنوب إفريقيا قام أحد الأطباء سنة ١٩٦٧م بزراعة قلب امرأة سوداء توفيت في حادث لرجل أبيض، وكثرت هذه العمليات لدرجة أن أحد الدول العربية وهي السعودية قامت بأكثر من ثمانين عملية حتى شهر يونية ١٩٩٩م. وفي إحدى هذه العمليات تم زراعة قلب رجل فلبيني مسيحي توفي بموت دماغي لرجل سعودي مسلم، ولم يتغير السعودي المسلم في عقيدته وتعرف إلى أهله وبنيه وزوجته[١].

وهنا يرد استشكال حول تعريف القلب وهو: إذا كان القلب هو المضغة التي في الصدر فكيف أمكن استبداله دون تغير في شخصية الإنسان؟ وجواب الإشكال أنه لما كان الإنسان الواحد مكونا من جانبين أحدهما مادي محسوس والآخر روحي غيبي، ويسمى الإنسان إنسانا بجانبيه المادي والروحي معا، فإن القلب كذلك مكون من جانبين أحدهما مادي محسوس مرئي، والآخر روحي غيبي غير مرئي، ويسمى القلب قلبا بجانبيه المادي والروحي معا، وهو الموجود في الصدر والمشار إليه في الأدلة القرآنية والأحاديث النبوية.

الجانب المحسوس جانب جبري مرئي لنا يمثل آلة منتظمة لضخ الدم في سائر الجسم ويمكن استبداله بقلب صناعي أو بقلب إنسان آخر، أما الجانب الغيبي من القلب فهو جانب غيبي إرادي اختياري يمثل هوية الإنسان، ويتبع الروح في خصائصها وسريانها وتوفيها عند النوم أو انفصالها عند الموت، فلا يمكن استبداله أو ذهابه إلا بذهاب الروح.

---

(١) خلاصة تلك المعلومات رجعنا فيها إلى مواقعها المنشرة على الإنترنت.

• التشابه بين أركان الجانب الغيبي والمحسوس من القلب.

وإذا نظرنا نظرة كلية لمجمل ما ورد في الأدلة القرآنية، وما ثبت في السنة النبوية يظهر وجه الشبه الكبير بين الجانبين، الجانب المادي من القلب والجانب الغيبي؛ فالجانب المحسوس من القلب عبارة عن عضو عضلي مرن، ينقسم إلى منطقتين، منطقة علوية، وتحتوى على أذين أيمن وأذين أيسر، ومنطقة سفلية، وتحتوى على بطين أيمن، وكذلك بطين أيسر، وبين المنطقة العلوية والسفلية كما هو معلوم صمامان يمثلان عامل الأمان في عدم ارتجاع الدم إلى المنطقة العليا عند ضخ الدم إلى بدن الإنسان. هذا وصف أركان الجانب المحسوس من القلب وفق التشريح الطبي كما تقدم.

أما الجانب الغيبى من القلب فهو تابع للروح، وهو أساس كل فعل إرادي يتم في جسم الإنسان، وينقسم الجانب الغيبى إلى منطقتين كما هو الحال في الجانب المادي. المنطقة الأولى هى مركز الخواطر وحديث النفس، وتحتوى كما بينت الأدلة النقلية القرآنية والنبوية على ركنين اثنين النازعين والهاتفين.

أما المنطقة الثانية فهي منطقة الكسب وأعمال القلوب، وتحتوى على ركنين اثنين أيضا، تتردد الأعمال فيها بين اختيارت الخير واختيارت الشر، فهما نجدان اثنان مطروحان أمام أعمال القلوب في منطقة الكسب، وكما وجد عامل أمان في الجانب المحسوس يتمثل في الصمامين، كذلك يوجد بين المنطقتين صمام أمان للمساعدة على حسن الاختيار، وهو العقل الكائن بالقلب والمتعلق بذاكرة الإنسان.

وما يهمنا الآن دراسة الجانب الغيبى من القلب دراسة تفصيلية في كل ركن من هذه الأركان، وبيان حكمة الله ﷻ في خلق الإنسان لتحقيق معاني الابتلاء والامتحان، وكيف يتحقق في هذا العالم آثار الإيمان باسم الله الحكيم أو عدم الإيمان، وما يترتب على ذلك من معاني التوحيد في الربوبية والعبودية وسائر أركان الإيمان، فالقلب في جانبه الغيبي كما تقدم يحتوى على منطقتين اثنتين: أولهما منطقة حديث النفس، والأخرى منقطة العمل والكسب.

- **منطقة حديث النفس مصدر الخواطر والأفكار في القلب.**

ولنبدأ أولا بمنطقة حديث النفس، هذه المنطقة هى مصدر الخواطر والأفكار، ومحل الإلهام في الإنسان، وهذه المنطقة لا حساب على ما يدور فيها من الخواطر أيا كان. وذلك لما رواه البخاري ومسلم من حديث أبى هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (إِن اللهَ تجاوز لأِمَّتي مَا حدثت بِهِ أَنفُسهَا مَا لَمْ يتكلَمُوا أَو يعمَلوا بِهِ) [(١)]. وقال قَتادة: إذا طلق في نفسهِ فليس بشيءٍ[(٢)].

ولقوله تعالى ناسخا المساءلة عن حديث النفس: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡ ﴾ البقرة:٢٨٦.

---

(١) رواه البخاري في كتاب الطلاق، باب الطلاق في الإغلاق والكره والسكران والمجنون ٥/٢٠٢٠ (٤٩٦٨)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب إذا لم تستقر ١/١١٦ (١٢٧).

(٢) السابق ٥/٢٠٢٠ (٤٩٦٨).

وعند مسلم من حديث أَبِي هُريرة ﷺ أنه قَال: لَمَّا نزلت على رسول اللهِ ﷺ: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٢٨٤﴾ البقرة:٢٨٤. قال أبو هُريرة ﷺ فاشْتد ذلكَ على أَصْحابِ رسول اللهِ ﷺ، فَأَتوا رسول اللهِ ﷺ ثمَّ بَركُوا على الركَبِ فَقَالوا: أَي رسول اللهِ كُلفْنا مِن الأَعمَال مَا نطِيقُ، الصَّلاة والصِّيامَ والجهَاد والصَّدقَة وقَد أُنزلت عليكَ هَذهِ الآية ولا نطِيقُهَا. قَال رسول اللهِ ﷺ: أَتريدون أَن تقُولوا كَمَا قَال أَهْل الكِتابَين مِن قَبْلكُمْ سمِعنا وعصَينا، بَل قُولوا سمِعنا وأَطعنا غُفْرانك ربَّنا وإِليكَ المَصِير. قَالوا: سمِعنا وأَطَعنا غُفْرانكَ ربَّنا وإِليكَ المَصِير، فَلَمَّا اقْترأَهَا القَومُ ذلت بِهَا أَلسنتهُمْ فَأَنزل اللهُ فِي إِثرِهَا: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ٢٨٥﴾ البقرة:٢٨٥. فَلَمَّا فَعلوا ذلكَ نسخَهَا اللهُ تعالى فَأَنزل اللهُ ﷻ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ﴾ البقرة:٢٨٦ قَال: نعمْ ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ البقرة:٢٨٦ قَال: نعمْ ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ﴾ البقرة:٢٨٦ قَال: نعمْ ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ٢٨٦﴾ البقرة:٢٨٦ قَال: نعمْ [1].

---

(١) مسلم في الإيمان، باب قوله تعالى: وإن تبدوا ما فى أنفسكم ١/١١٥ (١٢٥).

• الدليل على أن منطقة حديث النفس في القلب؟

والسؤال الذي يطرح نفسه، كيف علمنا أن الخواطر تدب في القلب؟ وما الدليل على أن منطقة حديث النفس في القلب؟ وما الدليل على أن الخواطر الكائنة فيها تدب في قلب كل إنسان؟

والجواب أن العلم بذلك مصدره الخالق الذي أخبرنا عن خلقه لقلب الإنسان، وأخبرنا عن تكوين النفس في القرآن، فقال سبحانه: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨﴾ الشمس:٧/٨. وقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ۝١٦﴾ ق:١٦.

ولا يوجد مصدر للعلم بالغيب إلا ما ورد من الخبر الصادق عن الله ورسوله ﷺ، فنصدق الخبر تصديقا جازما على وجه اليقين، ونؤمن به كحقائق بينها الخالق رب العالمين.

وأما الدليل على أن الخواطر تدب في القلب وأن منطقة حديث النفس كائنة في قلب كل إنسان، فقد ورد في الحديث القدسي الذي رواه البخاري من حديث أبى هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال عن الله تعالى: (أَعددت لعبَادي الصَّالحين مَا لا عين رأَت، ولا أُذن سمِعت، ولا خَطَر على قَلبِ بَشَر)[1].

وروي البخاري أيضا من حديث أبى هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:

---

(١) البخاري في بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة ١١٨٥/٣ (٣٠٧٢)، ومسلم في أول كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢١٧٤/٤ (٢٨٢٤).

(إذا نودي بالصلاة أدبَر الشيطان ولهُ ضُراط، فإذا قُضي أقبَل، فإذا ثوبَ بها أدبَر، فإذا قُضي أقبل حتى يخطِر بين الإنسان وقلبهِ، فيقول: اذكُر كذا وكذا، حتى لا يدري أثلاثاً صلى أم أربَعاً؟ فإذا لم يدر ثلاثاً صلى أو أربعاً، سجد سجدتي السهْو) [١].

ونلاحظ أن النبي ﷺ ذكر توارد الخواطر وأنها تمر في القلب، ثم عبر مرة أخرى بالأخص وهو توارد الخواطر على منطقة حديث النفس في القلب، لأن هذه الرواية وردت بلفظ آخر عند البخاري بينت أن منطقة حديث النفس في القلب، فقال النبي ﷺ: (إذا نودي للصَّلاة أدبر الشيطان وله ضُراطٌ حتى لا يسمع التأْذين، فإذا قُضِي النداءُ أقبل حتى إذا ثوبَ بالصلاة أدبر، حتى إذا قُضِي التثويبِ أَقبل حتى يخْطُر بين المرءِ ونفسهِ يقول: اذكُر كذا، اذكر كذا لما لم يكن يذكر، حتى يظل الرجل لا يدري كم صلى) [٢].

والأحاديث واضحة الدلالة في كون الخواطر ترد على القلب في كل أفراد النوع الإنساني، وأن القلب هو محل توارد الخواطر التي تتراءى لكل إنسان. وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يذكرون في كلامهم ما يقع من حديث النفس، ويريدون به ما وقع في القلب الذي تتردد عليه الخواطر، وهذا كثير جدا فيما صح عنهم.

---

(١) رواه البخاري في بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده ٣/١١٩٦ (٣١١١)، ومسلم في الصلاة، باب فضل الأذان وهرب الشيطان عند سماعه ١/٢٩١ (٣٨٩).
(٢) رواه البخاري في الأذان، باب فضل التأذين ١/٢٢٠ (٥٨٣)، ومسلم في كتاب الصلاة، باب فضل الأذان وهرب الشيطان عند سماعه ١/٢٩١ (٣٨٩).

روى البخاري من حديث جابر بن عبد الله ﷺ أنه قَال: (بَعثني رسول اللهِ ﷺ فِي حاجة لهُ، فَانطَلقْت ثمَّ رجعت وقَد قَضيَتهَا، فَأَتيت النبِي ﷺ فَسلمْت عليهِ فَلمْ يرد علي، فَوقَع فِي قَلبِي مَا اللهُ أَعلمُ بِهِ، فَقُلت فِي نفسي: لعل رسول اللهِ ﷺ وجد علي أَني أَبْطَأْت عليهِ، ثمَّ سلمْت عليهِ، فَلمْ يرد علي، فَوقَع فِي قَلبِي أَشَد مِن المَرة الأُولى، ثمَّ سلمْت عليهِ فَرد علي، فَقَال: إِنما مَنعني أَن أَرد عليكَ أَني كُنت أُصَلي، وكَان على راحلتهِ مُتوجهًا إِلى غير القِبْلة)[1].

وقد بوب الإمام مسلم في صحيحه، بَاب تجاوز اللهِ عن حديث النفْس والخَواطِر بِالقَلبِ إِذا لمْ تستقِر، ثم استدل بحديث أبي هريرة ﷺ أن رسول اللهِ ﷺ قال: (إِن اللهَ تجاوز لأُمَّتي ما حدثت بِهِ أَنفُسهَا، ما لم يتكَلمُوا أو يعْمَلوا بِهِ)[2].

وعند مسلم من حديث جابِرٍ بن عبد الله ﷺ أَن رَسول اللهِ ﷺ رَأَى امْرَأَة، فَأَتى امْرَأَتهُ زينبَ وَهِيَ تمعَس مَنيئَة لهَا، فَقَضَى حاجتهُ ثمَّ خرَج إِلى أَصْحابِهِ فَقَال: إِن المَرْأَة تقبِل فِي صُورَة شَيْطَان، وَتدبِرُ فِي صُورَة شَيْطَان، فَإِذا أَبْصرَ أَحدكُمْ امْرَأَة فَليَأْت أَهْلهُ، فَإِن ذلك يَرُد ما

(١) رواه البخاري في كتاب أبواب العمل في الصلاة، باب لا يرد السلام في الصلاة ٤٠٧/١ (١١٥٩)، ومسلم في المساجد، باب تحريم الكلام فى الصلاة ونسخ ما كان من إباحته ٣٨٤/١ (٥٤٠).

(٢) رواه البخاري في كتاب الطلاق، باب الطلاق في الإغلاق والكره والسكران والمجنون ٢٠٢٠/٥ (٤٩٦٨)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب إذا لم تستقر ١١٦/١ (١٢٧).

فِي نفْسهِ[1].

وورد في حديث أبي كَبْشَة الأنمارِيَّ ﷺ أنه قال: (كَان رَسول اللهِ ﷺ جالسا فِي أَصْحابِهِ، فَدخَل، ثمَّ خرَج، وقَد اغْتسل، فَقُلنا: يَا رَسول اللهِ، قَد كَان شَيْءٌ ؟ قال: أَجل، مَرَّت بِي فُلاَنَة، فَوقَعَ فِي قَلبِي شَهْوَة النساءِ، فَأَتيْت بَعْضَ أَزوَاجي فَأَصَبْتها، فكَذلك فَافعَلوا، فَإِنهُ مِن أَمَاثل أَعْمَالكُمْ إِتيَان الحلاَل) [2].

وفي لفظ آخر عن أَبِي كَبْشَة ﷺ أنه قال: (بَيْنمَا رَسول اللهِ ﷺ جالس إِذ مَرَّت بِهِ امْرَأَة فقَامَ إلى أَهْلهِ، فَخرَج إِليْنا رَسول اللهِ ﷺ يَقْطُرُ، فَقُلنا: يَا رَسول اللهِ كَأَنهُ قَد كَان شَيْءٌ، فَقَال:نعَمْ مَرَّت بِي فُلانة فَوقَعَ فِي نفْسي شَهْوَة النساءِ، فَقُمْت إِلَى بَعْضِ أَهْلي، وَكَذلك فَافْعَلوا، فَإِنهُ مِن أَمَاثل أَعْمَالكُمْ إِتيَان الحلاَل) [3].

وعند البخاري من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول اللهِ ﷺ قال: (إِن مِن الشَّجرِ شَجرَة لا يسقُطُ ورَقُها، وإِنهَا مَثل الْمُسلم فَحدثوني مَا هِيَ؟ فَوقعَ الناس فِي شَجرِ البَوادي قَال عَبْد اللهِ ووقَعَ فِي نفْسي أَنهَا النخْلة فَاستحيَيت، ثمَّ قَالوا: حدثنا مَا هِيَ يا رَسول

---

(١) رواه مسلم في النكاح، باب ندب من رأى امرأة فوقعت فى نفسه إلى أن يأتى امرأته ٢/١٠٢١ (١٤٠٣) ومعنى تمْعَس مَنيئَة لها أي تقوم بدباغة بعض الجلود.

(٢) رواه أحمد في المسند ٤/٢٣١ (١٨٠٧٥)، وقال شعيب الأرنؤوط: صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن.

(٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير، مسند من يعرف بالكنى من أصحاب رسول الله ﷺ، أبو كبشة الأنماري ٢٢/٣٣٨ (٨٤٨)، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٢/٢٠.

اللهِ؟ قَال: هِي النخْلة)[1].

وفي لفظ آخر عن ابن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (مَثل المُؤْمِن مَثل شَجرَة لا تطْرَح ورَقها، قَال: فوَقعَ الناس فِي شَجرِ البَدوِ ووَقعَ فِي قَلبِي أنهَا النخْلة، فَاستحيَيْت أَن أَتكَلمَ، فقَال رَسول اللهِ ﷺ: هِيَ النخْلة قَال: فَذكَرْت ذلك لعُمرَ فقَال: يَا بُنيَّ مَا منَعك أَن تتكلمَ، فوَاللهِ لأَن تكُون قُلت ذلكَ أَحبُّ إِليَّ مِن أَن يَكُون لي كَذا وَكَذا)[2].

وعند البخاري من حديث أَبِي سعِيد الخُدرِي ﷺ قَال: خطَبَ النبِي ﷺ فقَال: إِن اللهَ خيرَ عَبْدا بَين الدنيا وبَين مَا عِنده، فَاختْارَ مَا عِند اللهِ، فَبكَى أَبو بَكْرٍ الصِّديقُ ﷺ فقُلت فِي نفْسي مَا يبْكِي هَذا الشَّيخَ، إِن يكُن اللهُ خيرَ عَبْدا بين الدنيا وبَين مَا عِندهُ، فَاختْارَ مَا عِند اللهِ، فَكَان رَسول اللهِ ﷺ هُو العَبْد، وكَان أَبُو بَكرٍ أَعْلمَنا)[3].

وعند البخاري من حديث زيد بن أرقم ﷺ أنه قال: (خرَجنا معَ النبِي ﷺ فِي سفَرٍ أَصابَ الناس فِيهِ شِدة، فَقَال عَبْد اللهِ بْن أُبَي: لأَصْحابِهِ لا تنفِقُوا عَلى مَن عِند رَسول اللهِ حتى ينفَضُّوا مِن حولهِ، وقَال: لئِن رَجعْنا إِلى المَدينة ليخرِجن الأَعَز مِنهَا الأَذل، فَأَتيت النبِي ﷺ

---

(١) رواه البخاري في كتاب العلم، باب قول المحدث حدثنا أو أخبرنا وأنبأنا ٣٤/١ (٦١)، ومسلم في صفة القيامة، باب مثل المؤمن مثل النخلة ٢١٦٤/٤ (٢٨١١).

(٢) رواه أحمد في المسند ١٢٣/٢ (٦٠٥٢)، وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح.

(٣) رواه البخاري في كتاب أبواب المساجد، باب الخوخة والممر في المسجد ١٧٧/١ (٤٥٤)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبى بكر الصديق ١٨٥٤/٤ (٢٣٨٢).

فَأخبَرْتهُ، فَأَرْسل إلى عَبْد اللهِ بْن أُبَي، فَسأَلهُ فَاجتهَد يمينهُ مَا فعَل، قَالوا: كَذبَ زيدُ رَسولَ اللهِ ﷺ، فَوقَعَ فِي نفْسي مِمَّا قَالوا شِدة حتى أَنزل اللهُ ﷻ تصْديقِي فِي ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾ المنافقون:١. فَدعَاهُمْ النبِي ﷺ ليستغْفِرَ لهُمْ، فَلووا رُءُوسهُمْ) [١].

وعند مسلم من حديث أُبَي بْن كَعْبٍ ﷺ أنه قَال: (كُنت فِي المَسجد، فَدخَل رَجل يصَلي، فَقرَأَ قِراءَة أَنكرْتها عَليهِ، ثمَّ دخَل آخَرُ فَقَرَأَ قِراءَة سوى قَراءَة صَاحبِهِ، فَلمَّا قَضينا الصَّلاة دخَلنا جمِيعًا عَلى رَسول اللهِ ﷺ، فَقُلت: إن هَذا قرَأَ قِراءَة أَنكرْتها عَليهِ، ودخَل آخَرُ فَقرَأَ سوى قِراءَة صَاحبِهِ، فَأَمَرَهُمَا رَسول اللهِ ﷺ فَقرَأَ، فَحسن النبِي ﷺ شَأْنهُمَا، فَسقَطَ فِي نفْسي مِن التكْذيبِ، ولا إِذ كُنت فِي الجاهِلية، فَلمَّا رَأَى رَسول اللهِ ﷺ مَا قَد غَشِيني، ضَرَبَ فِي صَدرِي، فَفِضْت عَرَقًا وكَأَنمَا أَنظُرُ إلى اللهِ ﷻ فَرقًا، فَقَال لي: يا أُبَي أُرْسل إِلي أَن اقْرَأْ القُرْآن عَلى حرْفٍ، فَرَددت إِليهِ أَن هَوِن عَلى أُمَّتي، فَرَد إِلي الثانية اقْرَأْهُ عَلى حرْفَين، فَرَددت إِليهِ أَن هَوِن عَلى أُمَّتي، فَرَد إِلي الثالثة اقْرَأْهُ عَلى سبْعَة أَحرُفٍ، فَلكَ بِكُل رَدة رَددتكَهَا مَسأَلة تسأَلنيهَا، فَقُلت: اللهُمَّ اغْفِرْ لأُمَّتي، اللهُمَّ اغْفِرْ لأُمَّتي، وأَخرَّْت الثالثة ليوم يرْغَبُ إِلي الخَلقُ كُلهُمْ حتى إِبْرَاهِيمُ ﷺ) [٢].

(١) رواه البخاري في التفسير سورة المنافقون، ٤/١٨٦٠ (٤٦٢٠)، ومسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ٤/٢١٤٠ (٢٧٧٢).

(٢) رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب بيان أن القرآن على سبعة أحرف وبيان معناه ١/٥٦١ (٨٢٠). والفرق هو الخوف والفزع.

وروى أبو داود وصححه الألباني من حديث ابْن الديلمِي قَال: (أَتيت أُبَي بْن كَعْبٍ فَقُلت لهُ: وقَعَ فِي نفْسي شَيءٌ مِن القَدر، فَحدثني بِشَيءٍ لعَل اللهَ أَن يذهِبَهُ مِن قَلبِي، قَال: لو أَن اللهَ عَذبَ أَهْلَ سمَاواتهِ وأَهْل أَرْضِهِ عَذبَهُمْ وهُو غيرُ ظَالمٍ لهُمْ، ولو رَحمَهُمْ كَانت رَحمَتهُ خيرًا لهُمْ مِن أَعْمَالهِمْ) [١].

وفي حديث وابصة الأسدي ﷺ الذي رواه أحمد والدارمي وهو حديث حسن قال: (أتيت رسول الله ﷺ وأنا أريد أن لا أدع شيئاً من البر والإثم إلاّ سألته عنه وحوله عصابة من المسلمين يستفتونه، فجعلت أتخطاهم، قالوا: إليك يا وابصَة عن رسول الله ﷺ، قلت: دعوني فأدنو منه فإنه أحبّ الناس إلي أن أدنو منه، قال: دعوا وابصة، أدن يا وابصة، مرتين أو ثلاثا، قال: فدنوْت مِنه حتى قَعدت بين يديه، فقال: يا وابصة أخبرك أو تسألني ؟ قلت: لا، بل أخبرني ؟ فقال: جئت تسألني عن البر والإثم ؟ فقال: نعم، فجمع أنامله فجعل ينكت بهن في صدري ويقول: يا وابصة استْفت قلبك واستْفت نفسَك ثلاث مرات، البر ما اطمأنت إليه النفس، والإثم ما حاك في النفس، وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك) [٢].

---

(١) رواه أبو داود في كتاب السنة، باب فى القدر ٤/٢٢٥ (٤٦٩٩)، وأحمد في المسند ٥/١٨٢ (٢١٦٢٩)، وصححه الألباني، وانظر صحيح سنن أبي داود (٤٦٩٩)، ومشكاة المصابيح (١١٥).

(٢) رواه أحمد في المسند ٤/٢٢٨ (١٨٠٣٥)، والدارمي في السنن، كتاب البيوع، باب دع ما يريبك إلى ما لا يريبك ٢/٣٢٠ (٢٥٣٣)، وقال الألباني: حسن لغيره، انظر صحيح الترغيب والترهيب (١٧٣٤).

• الركن الأول في منطقة حديث النفس النازعان.

دلت نصوص الوحي أن الله ﷻ ابتلى العباد بإيجاد الخواطر في القلب، وأن مصدر تلك الخواطر يتكون من ركنين اثنين، هما النازعان والهاتفان، والأول منهما يتكون من باعثين اثنين يسهمان في تشكيل مجموع الخواطر والأفكار، والهاتفان يهتفان بالخواطر في لمتين اثنتين بنوعين من الدواعي، أحدهما يدعو ويحض على فعل الخير، والأخر يدعو ويحض على فعل الشر.

وسوف نفصل القول إن شاء الله حول الركن الأول لمصدر الخواطر في قلب الإنسان، فالركن الأول في منطقة حديث النفس النازعان، وهما غريزتان متقابلتان، ونازعان متضادان، ليس لأحدهما غلبة على الآخر من حيث صلاحية العمل في بعث الخواطر في قلب الإنسان.

وجميع من تكلم في دراسة الخواطر النفسية تناول هذين النازعين في تعريفات اصطلاحية متنوعة ومتعدده، كلها تعبر عن أوصاف هذين النازعين، فإما تجد التسمية بنازع الخير مقابل نازع الشر، أو تجد التسمية بنازع التقوي مقابل نازع الفجور، أو تجد التسمية بنازع الإيمان مقابل نازع العصيان، أو تجد التسمية بخاطر الإلهام مقابل خاطر الهواجس، أو تجد التسمية بخاطر العلم واليقين مقابل خاطر الهوي والاشتهاء، أو تجد التسمية بخاطر الحق مقابل خاطر النفس، أو تجد التسمية بخاطر الآخرة والزهد في الدنيا مقابل خاطر الطمع في الدنيا وإسقاط الآخرة، أو تجد التسمية بالخاطر المحمود مقابل الخاطر المذموم.

وأيا كان المصطلحات التي أطلقت على النازعين، فإنها جميعا تشير

إلى وجود غريزتين متقابلتين، ونازعين نفسيين متضادين، مغروزين في قلب كل إنسان على وجه الابتلاء وتحقيق الحكمة في خلق الاختيار للإنسان، هاتان الغريزتان تنبعث منهما الخواطر في الجنان، وقلوب العباد فيهما بين أصبعين من أصابع الرحمن، الأول: ويسمى نازع الخير وفطرة الإنسان، ومبعث التقوى والإيمان، والثاني: ويسمى نازع الشر والهوى، ومبعث الفجور والعصيان في الإنسان.

والدليل على النازعين ما ورد في وصف النفس في القرآن في قول الله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ الشمس:٧/١٠.

قال ابن الجوزي: (الإلهام إيقاع الشيء في النفس، قال سعيد بن جبير: ألزمها فجورها وتقواها. وقال ابن زيد: جعل ذلك فيها بتوفيقه إياها للتقوى، وخذلانه إياها للفجور) [١].

قال برهان الدين البقاعي: (الخواطر الواردة على الإنسان قد تكون وسوسة، وقد تكون إلهاما، والإلهام تارة يكون من الله بلا واسطة، وتارة يكون بواسطة الملك، ويكون كل منها في القلب، والوسوسة تارة من الشيطان، وأخرى من النفس، وكلاهما يكون في الصدر) [٢].

وقال ابن القيم: (هيأ الله الإنسان لقبول الكمال بما أعطاه من الأهلية والاستعداد ثم ذكر هذه الآية ثم قال: أخبر الله عن قبول النفس للفجور

---

(١) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي، ٩/١٤٠.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ٨/٦١٦.

والتقوى، وأن ذلك نالها منه امتحانا واختبارا، ثم خص بالفلاح من زكاها، فنماها وعلاها، ورفعها بآدابه التي أدب بها رسله، وأنبياءه وأولياءه، وهي التقوى، ثم حكم بالشقاء على من دساها، فأخفاها وحقرها وصغرها وقمعها بالفجور[١].

ويذكر أبو القاسم القشيري أن الخواطر خطاب يرد على الضمائر، وهو قد يكون بإلقاء ملك، وقد يكون بإلقاء شيطان، ويكون أحاديث النفس، ويكون من قبل الحق سبحانه. فإذا كان من الملك فهو الإلهام، وإذا كان من قبل النفس، قيل له: الهواجس، وإذا كان من قبل الشيطان فهو: الوسواس، وإذا كان من قبل الله سبحانه وإلقائه في القلب فهو خاطر حق، وجملة ذلك من قبيل الكلام النفسي، فإذا كان من قبل الملك، فإنه يعلم صدقهُ بموافقة العلم والشريعة، وإذا كان من قبل الشيطان فأكثره يدعو إلى المعاصي، وإذا كان من قبل النفس فأكثره يدعو إلى اتباع شهوة، أو استشعار كبر، أو ما هو من خصائص النفس وأوصافها. والنفس إذا طالبتك بشيء ألحت، فلا تزال تعاودك، ولو بعد حين حتى تصل إلى مرادها ويحصل مقصودها، اللهم إلا أن يدوم صدق مجاهدتها، ثم إنها تعاودك وتعاودك.

وأما الشيطان إذا دعاك إلى زلة فخالفته بترك ذلك، يوسوس بزلة أخرى، لأن جميع المخالفات له سواء، وإنما يريد أن يكون داعياً أبداً إلى زلة ما، ولا غرض له في تخصيص واحد دون واحد.

وكما أن تلك الأحاديث والخواطر ترد في اليقظة فكذلك ترد على

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم ٢/٣٨١.

القلب في حال النوم، فمرة تكون من قبل الشيطان، ومرّة من هواجس النفس، ومرة بخواطر الملك، ومرة تكون تعريفا من الله ﷻ بخلق تلك الأحوال في قلبه ابتداء[1].

قال ابن كثير: (اتخذ إلهه هواه أي إنما يأتمر بهواه فمهما رآه حسنا فعله، ومهما رآه قبيحا تركه) [2]. ولما كان الإله هو المألوه المعبود الذى يطاع في أمره عن رغبة ومحبة، فإن نازع النفس والهوى يأمر الإنسان من خلال الخواطر والأفكار التي يبثها في القلب، فإن أطاعه الإنسان في معصية الله وسارع في مرضاة نفسه وهواه، فقد عبده واتخذه إلها.

قال ابن القيم: (فاذا أراد حفظ نعمته على عبده ألهمه رعايتها بطاعته فيها، وإذا أراد زوالها عنه خذله حتى عصاه بها، ومن العجب علم العبد بذلك مشاهدة في نفسه وغيره، وسماعا لما غاب عنه من أخبار من أزيلت نعم الله عنهم بمعاصيه، وهو مقيم على معصية الله كأنه مستثني من هذه الجملة، أو مخصوص من هذا العموم) [3].

قال ابن تيمية: (إذا أحب عبدا ألهمه التوبة والاستغفار فلم يصر على الذنوب ومن ظن أن الذنوب لا تضر من أصر عليها فهو ضال مخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف والأئمة بل من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) [4].

---

(١) الرسالة القشيرية لعبد الكريم بن هوازن القشيري ص٤١٥ بتصرف.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/١٥١.

(٣) الجواب الكافي لابن القيم ص ص ٧٣.

(٤) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص١٠٢.

وقال أيضا: (فإذا أراد الله بعبد خيرا ألهمه دعاءه والاستعانة به، وجعل استعانته ودعاءه سببا للخير الذي قضاه له، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إني لا أحمل هم الإجابة، وإنما أحمل هم الدعاء، فإذا ألهمت الدعاء، فإن الإجابة معه) [(١)].

وقال تعالى: ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ النمل: ١٩.

ومعنى أوزعني ألهمني، يقال: أوزعته بالشيء أغريته به، فأوزع به فهو موزع به أي مغرى به، واستوزعت الله شكره، فأوزعني أي استلهمته فألهمني، فقوله: أوزعني، أي حرضني على أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي [(٢)]. قال الجوهري: استوزعت الله فأوزعني أي أستلهمته فألهمني[(٣)].

وذكر أبو حامد الغزالي أن الخواطر هي ما يحصل في القلب من الأفكار والأذكار، إما على سبيل التجدد، وإما على سبيل التذكر؛ فإنها تسمى خواطر من حيث إنها تخطر بعد أن كان القلب غافلا عنها، والخواطر هي المحركات للإرادات؛ فإن النية والعزم والإرادة إنما تكون بعد خطور المنوى بالبال لا محالة، فمبدأ الأفعال الخواطر، ثم الخاطر

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم لابن تيمية ٣٥٨/١.

(٢) انظر لسان العرب لابن منظور الأفريقي ٣٩٠/٨، وتفسير ابن زمنين ٢٩٧/٣ نشر دار الفاروق الحديثة مصر، وتفسير مقاتل بن سليمان ٤٧٢/٢.

(٣) انظر تفسير الطبري ١٤٣/١٩، وفتح القدير للشوكاني ١٨/٥.

يحرك الرغبة، والرغبة تحرك العزم، والعزم يحرك النية، والنية تحرك الأعضاء، والخواطر المحركة للرغبة تنقسم إلى ما يدعو إلى الشر أو إلى ما يضر في العاقبة، وإلى ما يدعو إلى الخير وإلى ما ينفع في الدار الآخرة، فهما خاطران مختلفان، فافتقرا إلى اسمين مختلفين، فالخاطر المحمود يسمى إلهاما، والخاطر المذموم الداعي إلى الشر يسمى وسواسا، ومعلوم أن هذه الخواطر حادثة، وكل حادث فلا بد له من محدث [1].

وأغلب المفسرين على أن الله ابتلى الإنسان بإيجاد نازعين في النفس أحدهما للفجور والآخر للتقوى. والنازعان كائنان في القلب في منطقة حديث النفس، نازع الخير يلهمه الله ﷻ خواطر الخير التي تدعوه إلى الآخرة وتحضه على تقوى الله، ونازع الشر يلهمه الهوى خواطر الشر ويحضه على الرغبة في المشتهيات حتى يعبد من دون الله، والنازعان يسهمان في تشكيل الخواطر خيرها وشرها بهذه المنطقة.

نازع الشر هو مصدر خواطر الشهوات في الإنسان وغايته وبغيته متاع الحياة الدنيا، فالهوى يدفع النفس ونازع الشر فيها إلى التعلق بالحياة الدنيا ومشتهياتها حتى يعبد الإنسان هواه، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ الجاثية:٢٣. وقال: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ القصص:٥٠.

---

(١) إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي ٣/٢٦ بتصرف.

- **هوى القلب يتعلق بأنواع المشتهيات وعلل الاشتهاء.**

والسؤال الذي يطرح نفسه لتمييز الخواطر النابعة من نازع الهوى ومعرفة تعلقاتها، ما الدليل على أن هوى القلب يتعلق بالدنيا ومشتهياتها؟ وكيف إذا ورد الخاطر حول مشتهياتها علمنا أن باعثه الهوى أو نازع الشر في الإنسان؟

والجواب هو ما ورد في قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤﴾ آل عمران:١٤.

بينت هذه الآية أن الدنيا حصرت في سبعة أصناف جامعة لأصول المشتهيات، وقد ذكرها الحق تبارك وتعالى متسلسلة في القوة من أعلى المشتهيات وهي النساء إلى أدناها وهي شهوة الحرث، ولذلك قرنت الدنيا بأعلى المشتهيات فيها وهي النساء، كما ورد عند البخاري من حديث أبي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ أن النبي ﷺ قال: (إن الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فيها فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلون، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النسَاءَ، فإن أَوَّلَ فِتْنَةِ بنى إِسْرَائِيل كانت في النسَاءِ)[1].

وهذه الأصناف السبعة هى أصول الشهوات وإليها ترد جميع ما يشتهي في الدنيا. قال أبو السعود: (الشهوة نزوع النفس إلى ما

(١) رواه مسلم في كتاب الرقاق، باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء وبيان الفتنة بالنساء ٤/٢٠٩٨ (٢٧٤٢).

تريده، والمراد هاهنا المشتهَيات، عبّر عنها بالشهوات مبالغة في كونها مشتهاة مرغوبا فيها، كأنها نفس الشهوات، أو إيذانا بانهماكِهم في حبها بحيث أحبوا شهواتها) [١].

وذكر أبو السعود أن الذي زين حب الشهوات بأصنافها السبع المذكورة في الآية هو الباري سبحانه وتعالى، إذ هو الخالقُ لجميع الأفعال والدواعي، والحكمة في ذلك ابتلاؤهم، واحتج بقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾ الكهف:٧. فإنها ذريعة لنيل سعادة الدارين عند كون تعاطيها على نهج الشريعة الشريفة، ووسيلة إلى بقاء النوع [٢].

وقال ابن كثير: (يخبر تعالى عما زين للناس في هذه الحياة الدنيا من أنواع الملاذ من النساء والبنين، فبدأ بالنساء لأن الفتنة بهن أشد، كما ثبت في الصحيح أنه عليه السلام قال: مَا تركْت بَعدي فِتنة أَضر على الرجال مِن النساء [٣]. فأما إذا كان القصد بهن الإعفاف وكثرة الأولاد، فهذا مطلوب مرغوب فيه مندوب إليه، كما وردت الأحاديث بالترغيب في التزويج والاستكثار منه.. وقوله عليه السلام: الدنيا مَتاع، وخير مَتاعها المرأة الصَّالحة، إن نظَر إليها سرته، وإن أَمرَها أَطَاعته، وإن

---

(١) تفسير أبي السعود ١٤/٢.

(٢) المصدر السابق ١٤/٢ بتصرف.

(٣) رواه البخاري في كتاب النكاح، باب ما يتقى من شؤم المرأة ١٩٥٩/٥ (٤٨٠٨)، ومسلم في كتاب الرقاق، باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء وبيان الفتنة بالنساء ٢٠٩٨/٤ (٢٧٤١).

غَابَ عنها حفِظَتْه في نفْسهَا ومَالهِ[1]).

وقال ابن عادل: (والعامة على بناء زين للمفعول، والفاعل المحذوف هو الله تعالى؛ لما ركب في طباع البشر من حب هذه الأشياء، وقيل: هو الشيطان، فالأول قول أهل السنة؛ قالوا: لو كان المزين هو الشيطان فمن ذا الذي زين الكفر والبدعة للشيطان؟ فإن كان ذلك شيطانا آخر لزم التسلسل، وإن وقع ذلك من نفس ذلك الشيطان في الإنسان، فليكن في الإنسان كذلك، وإن كان من الله وهو الحق فليكن في حقِّ الإنسان أيضا كذلك، ويؤيده قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ ﴾ القصص:٦٣. يعني إن اعتقد أحد أنا أغويناهم، فمَن الذي أغوانا؟ وهذا ظاهر جدا) [2].

وقال البيضاوي: (الشهوات أي المشتهيات سماها شهوات مبالغة وإيماء على أنهم انهمكوا في محبتها حتى أحبوا شهوتها.. والمزين هو الله تعالى لأنه الخالق للأفعال والدواعي، ولعله زينه إبتلاء، أو لأنه يكون وسيلة إلى السعادة الأخروية، إذا كان على وجه يرتضيه الله تعالى، أو لأنه من أسباب التعيش وبقاء النوع) [3].

ثم بين الله ﷻ علل الاشتهاء بتفصيل جامع، حين تكون خواطر

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٣٥٢، والحديث رواه مسلم في الرضاع، باب خير متاع الدنيا المرأة الصالحة ٢/١٠٩٠ (١٤٦٧)، وأما الزيادة في الحديث فقد وردت عند ابن ماجه من حديث أبي أمامة في النكاح، باب أفضل النساء ١/٥٩٦ (١٨٥٧).

(٢) تفسير اللباب لابن عادل ٥/٧٠.

(٣) تفسير البيضاوي ٢/١٤.

القلب في الإنسان متعلقة بالدنيا دون الآخرة، وناشئة من هوى النفس ونازع الشر للراغبين في الدنيا منذ بدايتهم وسنين الأشد في قوتهم، فحصرها الحق سبحانه في خمسة علل تستوفي كل أسباب الاشتهاء، فقال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ الحديد: ٢٠.

قال ابن الجوزي: (والمشار إليه بهذا حال الكافر في دنياه، لأن حياته تنقضي على لهو ولعب وتزين الدنيا، ويفاخر قرناءه وجيرانه، ويكاثرهم بالأموال والأولاد، فيجمع من غير حله، ويتطاول على أولياء الله بماله، وخدمه، وولده، فيفنى عمره في هذه الأشياء، ولا يلتفت إلى العمل للآخرة) [(١)].

ويذكر فخر الدين الرازي أن المقصود من الآية أن من صرف هذه الحياة الدنيا لا إلى طاعة الله، بل إلى طاعة الشيطان ومتابعة الهوى، فذاك هو المذموم، ثم إنه تعالى وصفها بأمور خمسة:

أولها: أنها لعِبٌ، وهو فعل الصبيان الذين يتعبون أنفسهم جداً، ثم إن تلك المتاعب تنقضي من غير فائدة.

وثانيها: أنها لهُوَ، وهو فعل الشبان، والغالب أن بعد انقضائه لا يبقى إلا الحسرة، وذلك لأن العاقل بعد انقضائه يرى المال ذاهباً

(١) زاد المسير لابن الجوزي ٨/١٧١.

والعمر ذاهبا، واللذة منقضية، والنفس ازدادت شوقا وتعطشا إليه مع فقدانها، فتكون المضار مجتمعة متوالية.

وثالثها: أنها زِينةُ وهذا دأب النساء لأن المطلوب من الزينة تحسين القبيح، وعمارة البناء المشرف على أن يصير خراباً، والاجتهاد في تكميل الناقص، ومن المعلوم أن العرضي لا يقاوم الذاتي، فإذا كانت الدنيا منقضية لذاتها، فاسدة لذاتها، فكيف يتمكن العاقل من إزالة هذه المفاسد عنها.

ورابعها: تفاخر بينكم بالصفات الفانية الزائلة، وهو إما التفاخر بالنسب، أو التفاخر بالقدرة والقوة والعساكر وكلها ذاهبة.

وخامسها: تكاثر فِي الأموال والأولاد، فيجمع المال في سخط الله، ويتباهى به على أولياء الله، ويصرفه في مساخط الله، فهو ظلمات بعضها فوق بعض، وأنه لا وجه بتبعية أصحاب الدنيا يخرج عن هذه الأقسام، وبين أن حال الدنيا إذا لم يخل من هذه الوجوه فيجب أن يعدل عنها إلى ما يؤدي إلى عمارة الآخرة [1].

ثم رد الله ﷻ علل الاشتهاء عند العصاة إلى علتين جامعتين إليهما ترد علل الراغبين في الدنيا عند انقضاء العمر، وبلوغ الأمر إلى وقت انحناء الظهر والرحيل عن الحياة ، وفوات الزينة والتفاخر وانتهاء أسباب التكاثر، فتكون الخواطر في القلب ليس لها من علل الاشتهاء في الدنيا إلا اللعب واللهو، فقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟

---

(١) تفسير الرازي ٢٩ / ٢٠٣ بتصرف.

يُؤۡتِكُمۡ أُجُورَكُمۡ وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ ﴿٣٦﴾ محمد:٣٦ .

قال فخر الدين الرازي: (اللعب ما تشتغل به ولا يكون فيه ضرورة في الحال ولا منفعة في المآل، ثم إن استعمله الإنسان ولم يشتغله عن غيره، ولم يثنه عن أشغاله المهمة فهو لعب، وإن شغله ودهشه عن مهماته فهو لهو، ولهذا يقال ملاهي لآلات الملاهي لأنها مشغلة عن الغير، ويقال لما دونه لعب كاللعب بالشطرنج والحمام)[١].

وقال السعدي: (يخبر تعالى عن حقيقة الدنيا وما هي عليه، ويبين غايتها وغاية أهلها، بأنها لعب ولهو، تلعب بها الأبدان، وتلهو بها القلوب، وهذا مصداقه ما هو موجود وواقع من أبناء الدنيا، فإنك تجدهم قد قطعوا أوقات أعمارهم بلهو القلوب، والغفلة عن ذكر الله وعما أمامهم من الوعد والوعيد، وتراهم قد اتخذوا دينهم لعبا ولهوا، بخلاف أهل اليقظة وعمال الآخرة، فإن قلوبهم معمورة بذكر الله، ومعرفته ومحبته، وقد أشغلوا أوقاتهم بالأعمال التي تقربهم إلى الله من النفع القاصر والمتعدي)[٢].

ثم يذكر السعدي أن هذا تزهيد من الله لعباده في الحياة الدنيا بإخبارهم عن حقيقة أمرها، بأنها لعب ولهو، لعب في الأبدان ولهو في القلوب، فلا يزال العبد لاهيا في ماله، وأولاده، وزينته، ولذاته من النساء، والمآكل والمشارب، والمساكن والمجالس، والمناظر والرياسات، لاعبا في كل عمل لا فائدة فيه، بل هو دائر بين البطالة والغفلة

---

(١) تفسير الرازي ٦٤/٢٨.

(٢) تفسير السعدي ص٨٤١ .

والمعاصي، حتى تستكمل دنياه، ويحضره أجله، فإذا هذه الأمور قد ولت وفارقت، ولم يحصل العبد منها على طائل، بل قد تبين له خسرانه وحرمانه، وحضر عذابه، فهذا موجب للعاقل الزهد فيها، وعدم الرغبة فيها، والاهتمام بشأنها [(١)].

قال تعالى: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ الأنعام:٧٠.

وبعد أن بين الله ﷻ أن متاع الحياة الدنيا ومشتهياتها محصور في سبعة أصول جامعة وهي النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، وأن كلا من هذه الأصول يشتهى لخمسة علل مفصلة عند بداية الإنسان التمييز بين الدنيا والآخرة وهي اللعب واللهو والزينة والتفاخر والتكاثر، أو لعلتين جامعتين عند النهاية والمشيب وهي اللعب واللهو، جعل الله الدنيا مردها إلى الهوى وما يبعث به نازع الشر من سوء الخواطر في النفس والتعلق بالفاني من مشتهيات الدنيا، وإيثاره على الجنة والنعيم المقيم في دار البقاء في الآخرة، فقال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ النازعات:٣٧/٤١.

---

(١) تفسير السعدي ص٧٩٠ بتصرف.

قال أبو طالب المكي: (ليس يمكن لعبد أن يعرف الزهد حتى يعرف الدنيا أيّ شيء هي، فقد قال الناس في الزهد أشياء كثيرة، ونحن غير محتاجين إلى ذكر أقوالهم بما بيّن الله تعالى وأغنى بكتابه الذي جعل فيه الشفاء والغنى.. فقد ذكر الله جل اسمه في كتابه أن الدنيا سبعة أشياء، وهو قوله تعالى:﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ﴾ آل عمران:١٤. ثم قال تعالى في آخرها: ﴿ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ آل عمران:١٤.

ووصف حبّ الشهوات بالتزيّن ثم نسق الأوصاف السبعة على الحب لها، ثم أشار لها، بقوله تعالى: ذلك .. فحصل من تدبر الخطاب أن هذه السبعة جملة الدنيا، وأن هذه الدنيا هذه الأوصاف السبعة، وما تفرع من الشهوات ردّ إلى أصل من هذه الجمل، فمن أحبّ جميعها فقد أحبّ جملة الدنيا نهاية الحبّ، ومن أحبّ أصلا منها أو فرعا من أصل فقد أحبّ بعض الدنيا، فعلمنا بنص الكلام أن الشهوة دنيا، وفهمنا من دليله أن الحاجات ليست بدنيا لأنه تقع ضرورات، فإذا لم تكن الحاجة دنيا دل أنه لا تسمّى شهوة، وإن كانت قد تشتهى لأن الشهوة دنيا، ولتفرقة الأسماء لإيقاع الأحكام عليها) [(١)].

ويتابع أبو طالب قائلا: (ثم سمعناه تعالى قد ردّ هذه السبعة

---

(١) قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد، لمحمد بن علي بن عطية الحارثي المشهور بأبي طالب المكي ٤٠٩/١، تحقيق د.عاصم إبراهيم الكيالي، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م.

الأوصاف في مكان آخر إلى خمسة معان فقال جل من قائل: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ﴾ الحديد: ٢٠. فهذه الخمسة هي وصف من أحبّ تلك السبعة، ثم اختصر الخمسة في معنيين منها هما جامعان للسبعة فقال: إنما الحياة الدنيا لعب ولهو، ثم ردّ الإثنين إلى وصف واحد وعبّر عنه بمعنيين، فصارت الدنيا ترجع إلى شيئين جامعين مختصرين، يصلح أن يكون كل واحد منهما هو الدنيا، فالوصف الواحد الذي ردّ الاثنين إليه اللذان هما اللعب واللهو هو الهوى، اندرجت السبعة فيه. فقال عز وجل: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ٤١﴾ النازعات: ٤٠/٤١ . فصارت الدنيا طاعة النفس للهوى بدليل قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ٣٧ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ٣٨ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ٣٩﴾ النازعات:٣٧/٣٩، فلما كانت الجنة ضد الجحيم كان الهوى هو الدنيا، لأن النهي عنه ضدّ الإيثار له، فمن نهى نفسه عن الهوى، فإنه لم يؤثر الدنيا، وإذا لم يؤثر الدنيا فهذا هو الزهد، كانت له الجنة التي هي ضد الجحيم، التي هي لم ينه نفسه عن الهوى بإيثاره الدنيا، فصارت الدنيا هي طاعة الهوى وإيثاره في كل شيء، فينبغي أن يكون الزهد مخالفة الهوى من كل شيء)[1].

• كيف يمكن التعرف على خواطر الخير والشر والتمييز بينهما؟

أنواع المشتهيات التي جمع الله فيها متاع الدنيا هي التي وردت في قوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ

(١) قوت القلوب ١/٤١٠.

﴿مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ١٤﴾ آل عمران: ١٤.

ولما كانت الدنيا ضرورة ووسيلة إلى الآخرة فإن كل خاطر تعلق بأنواع المشتهيات وجعلها المؤمن وسيلة إلى الآخرة والعمل في أسباب الطاعة المؤدية إليها، فهو من نازع الخير وتوفيق الحق إلى التقوى وزيادة الإيمان، وكل خاطر تعلق بأنواع المشتهيات وجعلها الإنسان وسيلة إلى حب الدنيا والتعلق بها، فهو من نازع الشر في الإنسان وأساس الفجور والعصيان.

وجميع خواطر الخير يلقيها الحق في قلب العبد، ويقلبها له بحيث تحضه وتدعوه إلى أسباب الخير وتوحيد العبادة لله، فإن استجاب لها وانقادت منطقة الكسب فقد زكاها ووفقه الله إلى الطاعة والتقوى والإيمان، وقد ورد في صحيح البخاري عَن عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهَا قَالتْ: (كُنتُ أَغَارُ عَلى اللاتِي وَهَبْن أَنفُسَهُن لِرَسُول اللهِ ﷺ وَأَقُول أَتَهَبُ المَرْأَةُ نفسَهَا فَلمَّا أَنزَل اللهُ تَعَالى: ﴿۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ﴾ الأحزاب: ٥١. قُلتُ مَا أُرَى رَبَّك إِلا يُسَارِعُ فِي هَوَاكَ) [(١)].

وفي صحيح مسلم من حديث أَبِي ذرٍّ رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، قَالوا: يَا رَسُول اللهِ أَيَأتِي أَحَدُنا شَهْوَتَهُ وَيَكُون لهُ

---

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير، سورة الأحزاب، باب قوله: ترجئ من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء ٤/١٧٩٧ (٤٥١٠)، ومسلم في كتاب الرضاع، باب جواز هبتها نوبتها لضرتها ٢/١٠٨٥ (١٤٦٤).

فِيهَا أَجْرٌ، قَالَ: أَرَأَيْتُمْ لوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ، أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ، فَكَذَلكَ إِذا وَضَعَهَا فِي الحَلال، كَانَ لهُ أَجْرًا)[١] .

قال ابن القيم: (الهوى ميل الطبع إلى ما يلائمه وهذا الميل خلق في الإنسان لضرورة بقائه، فإنه لولا ميله إلى المطعم والمشرب والمنكح ما أكل ولا شرب ولا نكح، فالهوى مستحث لها لما يريده كما أن الغضب دافع عنه ما يؤذيه، فلا ينبغي ذم الهوى مطلقا ولا مدحه مطلقا. كما أن الغضب لا يذم مطلقا ولا يحمد مطلقا. وإنما يذم المفرط من النوعين، وهو ما زاد على جلب المنافع ودفع المضار. ولما كان الغالب من مطيع هواه وشهوته وغضبه أنه لا يقف فيه على حد المنتفع به أطلق ذم الهوى والشهوة والغضب لعموم غلبة الضرر؛ لأنه يندر من يقصد العدل في ذلك ويقف عنده كما أنه يندر في الأمزجة المزاج المعتدل من كل وجه، بل لا بد من غلبة أحد الأخلاط والكيفيات عليه. فحرص الناصح على تعديل قوى الشهوة والغضب من كل وجه. وهذا أمر يتعذر وجوده إلا في حق أفراد من العالم، فلذلك لم يذكر الله تعالى الهوى في كتابه إلا ذمه، وكذلك في السنة لم يجئ إلا مذموما إلا ما جاء منه مقيدا، كقوله: لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به. وقد قيل: الهوى كمين لا يؤمن. قال الشعبي: وسمي هوى لأنه يهوي بصاحبه. ومطلقه يدعو إلى اللذة الحاضرة من غير فكر في العاقبة، ويحث على نيل الشهوات عاجلا.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف ٢/٦٩٧ (١٠٠٦).

وإن كانت سببا لأعظم الآلام عاجلا وآجلا. فللدنيا عاقبة قبل عاقبة الآخرة، والهوى يعمي صاحبه من ملاحظتها، والمروءة والدين والعقل ينهى عن لذة تعقب ألما، وشهوة تورث ندما. فكل منها يقول للنفس إذا أرادت ذلك لا تفعلي. والطاعة لمن غلب. ألا ترى أن الطفل يؤثر ما يهوى وإن أداه إلى التلف لضعف ناهي العقل عنده. ومن لا دين له يؤثر ما يهواه. وإن أداه إلى هلاكه في الآخرة لضعف ناهي الدين) [1].

وقال أيضا: (ولما امتحن المكلف بالهوى من بين سائر البهائم، وكان كل وقت تحدث عليه حوادث جعل فيه حاكمان حاكم العقل وحاكم الدين وأمر أن يرفع حوادث الهوى دائما إلى هذين الحاكمين وأن ينقاد لحكمهما، وينبغي أن يتمرن على دفع الهوى المأمون العواقب ليتمرن بذلك على ترك ما تؤذي عواقبه. وليعلم اللبيب أن مدمني الشهوات يصيرون إلى حالة لا يلتذون بها، وهم مع ذلك لا يستطيعون تركها؛ لأنها قد صارت عندهم بمنزلة العيش الذي لا بد لهم منه. ولهذا ترى مدمن الخمر والجماع لا يلتذ به عشر معشار التذاذ من يفعله نادرا في الأحيان، غير أن العادة مقتضية ذلك فيلقي نفسه في المهالك لنيل ما تطالبه به العادة) [2].

قال تعالى: ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣﴾ يوسف:٥٣.

قال ابن تيمية: (فصاحب الهوى يأمره هواه ويدعوه فيتبعه كما تتبع

---

(١) روضة المحبين لابن القيم ص٤٦٩.

(٢) المصدر السابق ص٤٧٠.

حركات الجوارح إرادة القلب، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ المائدة:٧٧. وقال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ القصص:٥٠. وهذا يعم الهوى فى الدين كالنصارى وأهل البدع فى المقال والقدر كما كان السلف يسمونهم أهل الأهواء من الرافضة والخوارج، وهذا الهوى موجود في كثير من الفقراء والفقهاء إلا من عصمه الله)[1].

• مذاهب الناس في الشهوات والاشتهاء.

أولا: مذهب المغالين في الشهوات والقائلين، نشتهي ألا تنتهي. وهم عبيد الدنيا والهوى الذين يتمرغون في زهواتها، ويتمتعون في لذاتها ويتقلبون في شهواتها، ويتلوثون بتبعاتها، يبنون بالغفلة في أماكنها ويحصنون بالجهل في مساكنها، قال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ البقرة:٩٦.

وهم الذين أخلدوا إلى الأرض كما قال الله في شأنهم: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ الأعراف:١٧٦.

وهؤلا رتبتهم كرتبة الأنعام أو أضل وهم الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٨/٣٣٢.

ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ﴿١٢﴾ ﴾ محمد:١٢. وقال سبحانه: ﴿ أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾ الفرقان:٤٤.

وهؤلاء تنجست فطرتهم حتى أصبحت النجاسة عندهم أصلا والطهارة شذوذا، كما قال تعالى في شأن قوم لوط: ﴿ وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ النمل:٥٤/٥٦.

وفي سنن ابن ماجة وصححه الألباني عن أَبِي هُرَيرة ﷺ عن النبِي ﷺ فِي الذي يعمَل عمَل قَومِ لوطٍ قَال: (ارجمُوا الأَعلى والأَسفَلَ ارجُموهُمَا جمِيعا) [(١)]. وعند البخاري عن أَبِى هُريرة ﷺ عن النبىِّ ﷺ قَال: (تعس عبْد الدينار وعبْد الدرهَم وعبْد الخَمِيصَة، إن أُعطِيَ رضِيَ، وإِن لَمْ يعط سخِطَ، تعس وانتكَس، وإِذا شِيكَ فَلاَ انتقَش) [(٢)].

وقال الله تعالى: ﴿ أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا

(١) رواه ابن ماجه في الحدود، باب من عمل عمل قوم لوط ٢/٨٥٦ (٢٥٦٢)، وحسنه الألباني، وانظر إرواء الغليل ٦/١٧.

(٢) البخاري في الجهاد والسير، باب الحراسة في الغزو ٣/١٠٥٧ (٢٧٣٠) وتعس شقي وهلك، والقطيفة ما يلبس فوق الشعار والشعار ما لامس الجسد من الثياب، والخميصة كساء أسود مربع له خطوط، وانتكس انقلب على رأسه وهو دعاء عليه بالخيبة والخسران، وشيك أصابته شوكة، وانتقش أخرجها بالمنقاش.

﴿٤٣﴾ ﴾ الفرقان:٤٣. وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ الجاثية:٢٣.

ثانيا: مذهب المغالين في محو الشهوات والقائلين: نشتهي ألا نشتهي. كما قال أبو على الدقاق: قيل لبعضهم: ألا تشتهى؟ فقال: أشتهى ألا أشتهى؟ وهو كما ما قال بعضهم: أنا ردم. بمعنى مردوم، أى لا مساغ فيه[1]. وقال أبو بكر الشبلى: (لو خطر ببالى أن الجحيم بنيرانها وسعيرها تحرق منى شعره لكنت مشركا) [2]. (إن لله عبادا لو بزقوا على جهنم لأطفئوها) [3]. وسئل الجنيد عمن لم يبق عليه من الدنيا إلا مقدار مص نواة، فقال: المكاتب عبد ما بقي عليه درهم[4].

وهؤلاء مخالفون للفطرة مخالفون للسنة لأن الشهوة ابتلاء وضرورة لا يمكن تحقيق الحكم العليا في توحيد العبودية إلا من خلال الأخذ بالأسباب الشرعية التي أمر الله بها، وهذه سنة النبي محمد ﷺ، من رغب عنها فليس من أتباعه، كما ورد عند البخاري عن أنس بْن مَالكٍ رضي الله عنه يقُول: (جاءَ ثلاثة رهْطٍ إلى بُيوت أَزواج النبِي ﷺ يسأَلون عن عبَادة النبِي ﷺ، فَلمَّا أُخبِروا كَأَنهُمْ تقالوهَا، فَقَالوا: وأَين نحن مِن النبِي ﷺ قَد غُفِر لهُ مَا تقَدمَ مِن ذنبِهِ ومَا تأَخَّر، قَال أَحدهُمْ: أَمَّا أَنا فَإِني أُصَلي الليل

---

(١) الرسالة القشيرية ١/ ٢١٠.
(٢) اللمع في التصوف للسراج الطوسي ص٤٩١.
(٣) المصدر السابق ص٤٩٠.
(٤) الرسالة القشيرية ٢/٤٦١.

أبَدا، وقَال آخَر: أنا أَصُومُ الدهْر ولا أُفْطِر، وقَال آخَر: أنا أَعتزل النساءَ فَلا أتزوج أَبَدا، فَجاءَ رسول اللهِ ﷺ إليهمْ فقَال: أَنتمْ الذين قُلتمْ كَذا وكَذا، أَمَا واللهِ إني لأَخْشَاكُمْ للهِ وأَتقَاكُمْ له، لكِني أَصُومُ وأُفْطِر، وأُصَلي وأَرقُد، وأَتزوج النساءَ، فَمَن رغِبَ عن سنتي فَليس مِني)(١).

وعند أحمد وهو صحيح لغيره عن أَنس بْن مَالكٍ رضي الله عنه قَال: (كَان رسول اللهِ ﷺ يأْمُر بِالبَاءَة، وينهَى عن التبَتل نهْيا شَدِيدا، ويقُول: تزوجوا الودود الولود، إِني مُكَاثِر الأَنبِياءَ يومَ القِيامَة) (٢).

ثالثا: مذهب السلف والاعتدال القائلين: نشتهي ولكن نحتمي. فهم لا ينكرون وجود الشهوة والرغبات في أنفسهم، ولكن المسلم يعلم أنها ابتلاء لا بد أن يخضع فيه لشرع الله. وعند مسلم من حديث أبي ذر رضي الله عنه أن رسول اللهِ ﷺ قال: (وفِي بُضْع أَحدكُمْ صَدَقَة) (٣).

وعند مسلم من حديث حذيفَة رضي الله عنه أنه سمِع رسول اللهِ ﷺ يقُول: (تعرضُ الفِتن على القُلوبِ كَالحصِير عودا عودا، فَأَي قَلبٍ أُشْرِبَهَا نكِت فِيهِ نكْتة سوداءُ، وأَي قَلبٍ أَنكَرهَا نكِت فِيهِ نكْتة بَيضَاءُ حتى تصِير على قَلبَين، على أَبْيضَ مِثل الصَّفَا فَلا تضُرهُ فِتنة مَا دامَت

(١) رواه البخاري في كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح ٥/١٩٤٩ (٤٧٧٦)، ومسلم في كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة واشتغال من عجز المؤن بالصوم ٢/١٠٢٠ (١٤٠١).

(٢) رواه أحمد في المسند ٣/١٥٨ (١٢٦٣٤)، وقال شعيب الأرنؤوط: صحيح لغيره وهذا إسناد قوي.

(٣) رواه مسلم في الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة ٢/٦٩٧ (١٠٠٦).

السمَاوات والأَرضُ، والآخَرَ أَسود مُربَادا كَالكُوز مُجخيًا، لا يعرفُ مَعروفًا ولا ينكِر مُنكَرا إِلا مَا أُشْرِبَ مِن هَوَاهُ)[١].

• كيف يتخلص من وقع في الهوى وأدمن الاستجابة لهواه ؟

من وقع في الهوى يمكنه التخلص بعون الله وتوفيقه له بأمور أهمها:

١- كثرة الاستغفار كما روى مسلم عن الأغر المزني ﵁ عن النبي ﷺ قال: (إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مئة مرة)[٢].

والغين شَيء يعتري القَلب مِمَّا يقَع مِن حديث النفْس أو هَفَوات الطِّبَاع البَشَرية التي لا يسلم مِنهَا أَحد. وعند البخاري عن أَبِي بَكْر الصِّديق ﵁ أَنهُ قَال للنبِي ﷺ: علمْني دعاءً أَدعو بِهِ فِي صَلاتي، قَال: (قُل اللهُمَّ إِني ظَلَمْت نفْسي ظُلمًا كَثيرا، ولا يغْفِر الذنوبَ إِلا أَنت فَاغْفِر لي مَغْفِرة مِن عندكَ وارحمْني إِنكَ أَنتَ الغَفُور الرحيمُ)[٣].

٢- يتخلص من وقع في الهوى، وأدمن الاستجابة لهواه بعزيمة حر يغار لنفسه وعليها، إبقاؤه على منزلته عند الله تعالى وفي قلوب عباده وهو خير وأنفع له من لذة موافقة الهوى، وإيثاره لذة العفة وعزتها وحلاوتها على لذة المعصية. وكذلك فرحه بغلبة عدوه وقهره له، ورده خاسئا بغيظه وغمه وهمه، حيث لم ينل منه أمنيته، والله تعالى يحب من

---

(١) مسلم في الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبا ١/١٢٨ (١٤٤).

(٢) رواه مسلم في كتاب الذكر ، باب استحباب الاستغفار ٤/٢٠٧٥ (٢٧٠٢).

(٣) رواه البخاري في كتاب صفة الصلاة، باب الدعاء قبل السلام ١/٢٨٦ (٧٩٩)، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب استحباب خفض الصوت بالذكر ٤/٢٠٧٨ (٢٧٠٥).

عبده أن يراغم عدوه ويغيظه كما قال: ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾ التوبة:١٢٠. وقال: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ الفتح:٢٩. وقال تعالى: ﴿۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ النساء:١٠٠. أي مكانا يراغم فيه أعداء الله، وعلامة المحبة الصادقة مغايظة أعداء المحبوب ومراغمتهم.

٣- التفكر في أنه لم يخلق للهوى، وإنما هُيء لأمر عظيم لا يناله إلا بمعصيته للهوى، وأن لا يختار لنفسه أن يكون الحيوان البهيم أحسن حالا منه، فإن الحيوان يميز بطبعه بين مواقع ما يضره وما ينفعه، فيؤثر النافع على الضار، والإنسان أعطي العقل لهذا المعنى، فإذا لم يميز به بين ما يضره وما ينفعه أو عرف ذلك وآثر ما يضره كان حال الحيوان البهيم أحسن منه[1].

٤- أن ينظر بقلبه في عواقب الهوى فيتأمل كما أفاتت معصيته من فضيلة، وكم أوقعت في رذيلة، وكم أكلة منعت أكلات، وكم من لذة فوتت لذات، وكم من شهوة كسرت جاها ونكست رأسا وقبحت ذكرا وأورثت ذما وأعقبت ذلا وألزمت عارا لا يغسله الماء، غير أن عين صاحب الهوى عمياء.

٥- أن يذكر أن الله سبحانه شبه أتباع الهوى بأخس الحيوانات صورة ومعنى، فشبههم بالكلاب كقوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ

(١) روضة المحبين لابن القيم ص٤٧٢ بتصرف.

شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ الأعراف:١٧٥/١٧٦.

٦- أن يتذكر أن الهوى يتعلق بمحيط جهنم، فمن وقع فيه، وقع فيها كما في الصحيحين عن أَبِي هُريرة ﷺ أَن رسول اللهِ ﷺ قَال: (حجبَت النار بِالشَّهَوات وحجبَت الجنة بِالمَكَارِهِ)[١].

٧- أن يتذكر أن التوحيد واتباع الهوى متضادان، فإن الهوى صنم، ولكل عبد صنم في قلبه بحسب هواه، وإنما بعث الله ﷻ رسله بكسر الأصنام وعبادته وحده لا شريك له، وليس مراد الله سبحانه كسر الأصنام المجسدة فقط، وترك الأصنام التي في القلب بل المراد كسرها من القلب أولا، وتأمل قول الخليل لقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون، كيف تجده مطابقا للتمائيل التي يهواها القلب ويعكف عليها، ويعبدها من دون الله قال تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾ الفرقان:٤٣/٤٤[٢].

٨- أن يعلم أن مخالفة الهوى مطردة للداء عن القلب والبدن، ومتابعته مجلبة لداء القلب والبدن، فأمراض القلب كلها من متابعة الهوى، ولو فتشت على أمراض البدن لرأيت غالبها من إيثار الهوى

---

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب حجبت النار بالشهوات ٢٣٧٩/٥ (٦١٢٢)، ومسلم في أول كتاب صفة الجنة ونعيمها وأهلها ٢١٧٤/٤ (٢٨٢٢).

(٢) روضة المحبين لابن القيم ص٤٨٢ بتصرف.

على ما ينبغي تركه.

٩- أن يتذكر أن أصل العداوة والشر والحسد الواقع بين الناس من اتباع الهوى، فمن خالف هواه أراح قلبه وبدنه وجوارحه، فاستراح وأراح.

١٠- أن يتذكر أن أعدى عدو للمرء شيطانه وهواه، وأصدق صديق له عقله وتقواه، والملك الناصح له، فإذا اتبع هواه أعطي يده لعدوه، واستأسر له، وأشمته به، وساء صديقه ووليه، وهذا هو بعينه هو جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء.

وفي صحيح مسلم من حديث زيد بن أرقم ﷺ أنه قال: (لا أَقُول لكُمْ إلا كَمَا كَان رَسُول اللهِ ﷺ يقُول: كَان يقُول: اللهُمَّ إني أَعُوذ بِكَ مِن العَجزِ وَالكَسَل، وَالجُبْن وَالبُخل وَالهرَمِ، وَعَذابِ القَبْرِ، اللهُمَّ آتِ نفْسِي تَقْوَاهَا، وزَكهَا أَنت خَيْرُ مَن زَكَّاها، أَنتَ وَليُّهَا وَمَوْلاها، اللهُمَّ إني أَعُوذ بِكَ مِن عِلمٍ لا يَنفَعُ، وَمِن قَلبٍ لا يَخْشَعُ، وَمِن نفْسٍ لا تَشْبَعُ، وَمِن دَعْوَةٍ لا يُسْتَجَابُ لها) (١).

---

(١) مسلم في الذكر، باب التعوذ من شر ما عمل ٤/٢٠٨٨ (٢٧٢٢).

المطلب العشرون

الهاتفان والحكمة من خلق الاختيار في الإنسان

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فقد تحدثنا عن الجانب الغيبي من القلب، وأنه تابع للروح كأساس لكل فعل إرادي يتم في جسم الإنسان، وعلمنا أن القلب في جانبه الغيبي ينقسم إلى منطقتين كما هو الحال في الجانب المادي، وأن المنطقة الأولى هي مركز الخواطر وحديث النفس في الإنسان، وتحتوي كما بينت الأدلة النقلية على ركنين اثنين، أحدهما النازعان، والآخر الهاتفان، وتلك الأركان جعلها الله ﷻ من مقومات الاختيار والحرية وكمال التركيب في النفس البشرية، وعلمنا أيضا أن الله ﷻ جعل للخواطر في القلب ركنين نفسيين ونازعين ذاتيين متقابلين ومتضادين، أحدهما يدعو إلى التقوى والإيمان، والآخر يدعو إلى الفجور والعصيان، والإنسان له الخيار بحرية تامة في اتباع أحد الأمرين.

وفي هذا المطلب بإذن الله نتحدث عن المقوم الثاني من مقومات الاختيار والحرية، وهو الركن الثاني لنشأة الخواطر في منطقة حديث النفس، ويتمثل في الهاتفين، هذان الهاتفان القرينان، متقابلان أيضا

ومتضادان، ليس لأحدهما جبر أو غلبة على إرادة الإنسان، الأول منهما يسمى الملك أو هاتف الخير، أو داعي التقوى والإيمان. والثاني يسمى العدو، أو هاتف الشر أو وسواس الشيطان.

وهذان الهاتفان عاملان خارجيان وقرينان ملازمان للإنسان، يسهمان في تشكيل الخواطر خيرها وشرها بمنطقة حديث النفس في الإنسان، ويتفاعلان بما يلقيان مع الخواطر التي يصدرها النازعان النفسيان المتقابلان والمتضادان.

• العلة في الإذن للشيطان بأن يوسوس بالعصيان للإنسان.

جعل الله ﷻ ابتلاء الإنسان بالشيطان من كمال حجته وبيان حكمته لإظهار آثار عدله في أعدائه، وفضله في أوليائه، فالشيطان لما أبى أن يكون مع الساجدين، وأن يدخل في جملة المقرين بالخلافة العظمى التي كرم الله ﷻ بها الإنسان، تملكه العلو والاستكبار، وأظهر الاعتراض والاستنكار، وشكك في حكمة رب العزة والجلال، حسدا وحقدا على آدم وذريته، كيف فضلهم الله بمنزلة أعلى من مكانته؟

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ البقرة:٣٤ .

وقال سبحانه: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ ص:٧٩/٨٥ .

قال القرطبي: (هذا السؤال من إبليس لم يكن عن ثقته منه بمنزلته عند الله تعالى، وأنه أهل أن يجاب له دعاء، ولكن سأل تأخير عذابه زيادة في بلائه، كفعل الآيس من السلامة [1].. لما طرده بسبب آدم حلف بعزة الله أنه يضل بني آدم بتزيين الشهوات، وإدخال الشبه عليهم، فمعنى لأغوينهم لأستدعينهم إلى المعاصي، وقد علم أنه لا يصل إلا إلى الوسوسة، ولا يفسد إلا من كان لا يصلح لو لم يوسوس له) [2].

وقال تعالى: ﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ الأعراف:١٨.

ولما لعنه الله ﷻ وطرده من رحمته، وأيقن اللعين بهلاكه وشقْوَته، وأنه لا محالة ممنوع من جنته، أراد أن يحقر من شأن الإنسان حقدا وانتقاما، وأن يشكك في حكمة الرحمن عنادا منه وإلزاما، أن الإنسان الذي استخلفه الله في الأرض لا يستحق هذه المنزلة، وأن إبليس والملائكة كانوا هم الأنسب لتلك المسألة، فطلب البقاء والإحياء إلى يوم القيامة، يوسوس للإنسان بالظلم والطغيان، ويدعوه إلى الكفر والفسوق والعصيان، ليثبت صدق كلامِه وتشكيكه في حكمة رب العزة والجلال ويبين حقارة الإنسان وعدم ملائمته لدوره في خلافة الأرض.

قال الله تعالى: ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾ الإسراء:٦٢.

---

(١) تفسير القرطبي ١٠/٢٧.

(٢) المصدر السابق ١٥/٢٢٩.

وقد كان من عدل الله في إبليس أنه أنظره وأمهله، وجعله ابتلاء للإنسان الذي استخلفه وخوله، لأنه لو منع الشيطان من هذه المسألة، لصحت دعوته بأن الإنسان لا يستحق هذه المنزلة، وأصبح للشيطان حجة على العقول المستبصرة، فاقتضت حكمة الله أن يبتلي الشيطان بهذه المسألة، وأن يرفع من شأن الإنسان لو تخطى هذه المشكلة، ليعطيه مزيدا من التكريم على تكريمه السابق حيث استخلفه في الأرض وخوله فيها، ومن رضي منهم بالشيطان بديلا عن الرحمن فبئس للظالمين بدلا.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ﴾ الكهف: ٥٠ .

وقد جعل الله كيد الشيطان الأكبر محصورا في الوسواس للإنسان، وليس له سلطان أو جبر على إرادته. قال ابن القيم: (وخلق إبليس مزينا وليس إليه من الضلالة شيء، فمقدور الشيطان أن يدعو العبد إلى فعل الأسباب التي إذا فعلها ختم الله على قلبه وسمعه وطبع عليه، كما يدعوه إلى الأسباب التي إذا فعلها عاقبه الله بالنار، فعقابه بالنار كعقابه بالختم والطبع، وأسباب العقاب فعله، وتزيينها وتحسينها فعل الشيطان، والجميع مخلوق لله) [١].

وقد أقر الشيطان أن سلطانه على من اتبعه، وليس على أولياء الله

---

(١) شفاء العليل لابن القيم ص٨٨.

وعباده المخلصين، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ الحجر: ٣٩/٤٣.

• وكل الله بالإنسان ملكا قرينا في مقابل الشيطان.

إذا كان الله ﷻ قد أوجد في كل إنسان منا نازعين نفسيين متقابلين ومتضادين، أحدهما يدعو إلى الطاعة وفعل الخير، وآخر يدعوه إلى المعصية وفعل الشر، والإنسان حر بينهما في الاختيار، كما قال رب العزة والجلال: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ الشمس:٧/١٠. فكل إنسان غُرز في قلبه موضع للخير، وهو نازع الخير وباعث التقوى، يدعوه وَيحثُهُ ويحضه على فعل الخيرات والابتعاد عن المهلكات، ومغروز في قلبه أيضا موضع للهوى، وهو نازع الشر وباعث الفجور يدعوه وَيحثُهُ ويحضه على فعل الشهوات والتعلق بأنواع المشتهيات.

إذا كان الله ﷻ قد أوجد الإنسان كذلك، فإذا سمح للشيطان أيضا أن يوسوس للإنسان، فإن الشيطان سيقوي نازع الهوى والشر في الإنسان، وكلاهما سيتفقان في دعوته إلى الكفر والعصيان، وعندها ستكون دواعي الشر في الإنسان أقوى من نازع الخير فيه، وسيجد العاصي تبريرا لعدم مسئوليته عن فعله وأنه لا يستحق عليه العذاب، لأن نازع الخير فيه كان وحيدا، وكانت دواعي الشر في الإنسان ركنان،

أحدهما نازع الشر والآخر الشيطان، فهي بذلك أقوى في الإنسان من باعث التقوى والإيمان وداعي الخير في الإنسان.

ومن هنا ظهرت في الإنسان حكمة الله، وبلغ كمال العدل في الأشياء منتهاه، فجعل الله ﷻ تركيب الإنسان على مستوى الكمال، ظاهرا وباطنا على معنى الاعتدال، فقال رب العزة والجلال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ الانفطار:٦/٨ .

كان من عدل الله وحكمته أنه كلف بكل إنسان ملكا قرينا، وأمره أن يلازمه ملازمة الشيطان للإنسان، لا يفارقه إلا إذا فارق دار الامتحان، وأمره أيضا أن يدعوه إلى الخير ويحضه عليه، كما أن الشيطان يدعوه إلى الشر ويحضه عليه، فيعتدل بذلك مقدار الدواعي في الإنسان، وتستوي الكفتان في الميزان، ولا يكون لأحد من أهل الجبر والخسران حجة على الله يوم القيامة في تبريره العصيان.

ومن ثم فإن الله ﷻ كما هدى الإنسان النجدين، وركب فيه نازعين نفسيين متقابلين ومتضادين، وكّل أيضا بالإنسان قرينين هاتفين، مرغبين بلمتين، ليس لأحدهما سلطان أو جبر على إرادة الإنسان، فبات مقدرا لكل منا بحكمة الله وعدل الميزان، قرينان داعيان، هاتفان مرغبان، إما في الخير وإما في الشر، ولم يستثن الله أحدا من ذلك حتى سيد ولد آدم ﷺ.

- **الدليل النقلي الصحيح على وجود الهاتفين .**

روى الإمام مسلم من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ أن رسُول الله ﷺ قال: (مَا مِنكُمْ مِن أَحد إلا وَقَد وُكِّل بهِ قَرينهُ مِن الجن وَقَرينهُ مِن المَلائِكَة، قَالوا: وَإِياكَ يا رسُول الله، قَال: وَإِيايَ وَلكِن الله أَعانني عليهِ فَلا يأْمُرني إِلا بِحق) [(١)].

وروى الترمذي أيضا وحسنه من حديث عبد الله بن مسعود ﷺأن رسُول الله ﷺ قال: (إن للشَّيطَان لَمَّة بِابْن آدمَ، وَللمَلكِ لَمَّة، فَأَمَّا لَمَّة الشَّيطَان فَإيعاد بِالشَّر وَتكْذيبٌ بِالحق، وَأَمَّا لَمَّة المَلكِ فَإيعاد بِالخَير وَتصْديقٌ بِالحقِّ، فَمَن وَجَد ذلكَ فَليعلمْ أَنهُ مِن الله فَليحمَد الله، وَمَن وَجَد الأخرى فَليتعوَّذ بِالله مِن الشَّيطَان الرجِيمِ، ثمَّ قَرأَ: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾ البقرة:٢٦٨) [(٢)].

ذكر عبد الرؤوف المناوي أن لمة الشيطان بابن آدم من الإلمام وهو القرب، وللملك لمة، المراد بها فيهما ما يقع في القلب بواسطة الشيطان أو الملك، فأما لمة الشيطان فإيعاذ بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك

---

(١) رواه مسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس وأن مع كل إنسان قرينا ٤/٢١٦٧ (٢٨١٤) وأحمد في المسند واللفظ له ١/٣٨٥ (٣٦٤٨).

(٢) رواه الترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب سورة البقرة ٥/٢١٩ (٢٩٨٨)، والنسائي في كتاب التفسير، سورة البقرة ٦/٣٠٥ (١١٠٥١)، وضعفه الشيخ الألباني، وانظر المشكاة (٧٤)، وضعيف الجامع الصغير (١٩٦٣).

فإيعاذ بالخير وتصديق بالحق، فإن الملك والشيطان يتعاقبان على القلب تعاقب الليل والنهار، فمن الناس من يكون ليله أطول من نهاره، وآخر بضده، ومنهم من يكون زمنه نهارا كله وآخر بضده، فمن وجد ذلك أي إلمام الملك فليعلم أنه من الله، يعني ما يحبه ويرضاه فليحمد الله على ذلك، ومن وجد الأخرى أي لمة الشيطان فليتعوذ بالله من الشيطان.. والخواطر بمنزلة البذر، فمنها ما هو بذر السعادة، ومنها ما هو بذر الشقاوة، وسبب اشتباه الخواطر أربعة أشياء لا خامس لها، ضعف اليقين أو قلة العلم بمعرفة صفات النفس وأخلاقها، أو متابعة الهوى بخرم قواعد التقوى، أو محبة الدنيا ومالها وجاهها، وطلب المنزلة والرفعة عند الناس، فمن عصم من هذه الأربعة فرق بين لمة الملك ولمة الشيطان، ومن ابتلي بها لم يفرق [١].

وقال الإمام مسلم: باب تحريشِ الشَّيطَان وَبَعثهِ سَراياهُ لِفتنة الناسِ وَأَن مَع كُل إِنسَان قَرينا. ثم روى بسنده من حديث عن عائِشَة رضي الله عنها أَن رسُول اللهِ ﷺ خَرجَ مِن عندهَا ليلا: قَالت عائشة فغِرت عليهِ، فَجاءَ فَرأي مَا أَصنع، فَقَال: مَا لكِ يا عائِشَة أَغِرت؟ فقُلت: وَمَا لي لا يغَار مِثلي على مِثلكَ، فَقال رسُول اللهِ ﷺ: أَقَد جَاءكِ شَيطَانكِ؟ قَالت: يا رسُول اللهِ، أَوْ مَعي شَيطَان؟ قَال: نعمْ، قُلت: وَمَع كُل إِنسَان؟ قَال نعمْ قُلت وَمَعك يا رسُول اللهِ قَال: نعمْ. وَلَكِن ربِّي أَعانني عليهِ حتى أَسْلمَ) [٢].

---

(١) فيض القدير للمناوي ٢/٤٩٩، نشر المكتبة التجارية الكبرى مصر.

(٢) مسلم في صفة القيامة ، باب تحريش الشيطان ٤/٢١٦٨ (٢٨١٥).

وروى النسائي وصححه الألباني من حديث عائِشَة رضي الله عنها أنها قالت: (التمَسْت رسُول اللهِ ﷺ فَأَدخَلت يدي فِي شَعرهِ، فَقَال: قَد جَاءَكِ شَيطَانكِ؟ فَقُلت: أَمَا لكَ شَيطَان، فَقَال: بَلى، ولَكِن اللهَ أَعانني عليهِ فَأَسْلمَ)[1].

ويذكر ابن القيم أن خطاب الملك يلقى في قلب العبد، يخاطب به الملك روحه كما في الحديث المشهور إن للملك لمة بقلب ابن آدم، وللشيطان لمة، فلمة الملك إيعاذ بالخير وتصديق بالوعد، ولمة الشيطان إيعاذ بالشر وتكذيب بالوعد، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٢٦٨﴾ البقرة:٢٦٨. وقال تعالى: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ١٢﴾ الأنفال:١٢. قيل في تفسيرها: قووا قلوبهم وبشروهم بالنصر، وقيل: احضروا معهم القتال[2].

قال ابن القيم: (والقولان حق، فإنهم حضروا معهم القتال وثبتوا قلوبهم. ومن هذا الخطاب واعظ الله ﷻ في قلوب عباده المؤمنين كما في جامع الترمذي ومسند أحمد من حديث النواس بن سمعان.. الحديث. فهذا الواعظ في قلوب المؤمنين هو الإلهام الإلهي بواسطة الملائكة)[3].

---

(١) رواه النسائي في كتاب عشرة النساء، باب الغيرة ٥/٢٨٧ (٨٩٠٨).
(٢) مدارج السالكين لابن القيم ١/٤٦ بتصرف.
(٣) المصدر السابق١/٤٦ بتصرف.

وحديث النوَّاسِ بْن سَمْعان الأنصَاري رضي الله عنه الذي أشار إليه ابن القيم جاء فيه أن رسُول اللهِ ﷺ قال: (ضَربَ اللهُ مَثلا صِراطا مُسْتقِيمًا، وَعلى جَنبَتي الصِّراطِ سُوران، فِيهمَا أَبْوَابٌ مُفَتحة، وَعلى الأَبْوَابِ سُتور مُرخَاة، وَعلى بَابِ الصِّراطِ داع يقُول: أَيها النَاسُ ادخُلوا الصِّراطَ جَمِيعا وَلا تتفرَجُوا، وَداع يدعو مِن جَوْفِ الصِّراطِ، فَإذا أَراد يفْتح شَيئًا مِن تلكَ الأَبْوَابِ قَال: وَيحك لا تفْتحهُ، فَإنكَ إن تَفْتحهُ تلجْهُ، وَالصِّراطُ الإِسْلامُ، وَالسُّوران حدود اللهِ تعالى، وَالأَبْوَابُ المُفَتحة مَحارمُ اللهِ تعالى، وَذلكَ الداعي على رأْسِ الصِّراطِ كِتابُ اللهِ عز وجل، وَالداعي فَوْقَ الصِّراطِ وَاعظُ اللهِ فِي قَلبِ كُل مُسْلمٍ)[1].

• المقصود بالقرينين الذين ورد ذكرهما في سورة ق.

قال تعالى: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ۝١٩ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ۝٢٠ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ۝٢١ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ۝٢٢﴾ ق:١٩/٢٢.

كل قرين يتكلم يوم القيامة بما دار بينه وبين الإنسان، وقد ذكر الله شأن القرينين في القرآن، فقال تعالى عن الملك الذي اقترن بأحد الكفار:

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ۝٢٣ أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٖ ۝٢٤ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٖ مُّرِيبٍ ۝٢٥ ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلۡقِيَاهُ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ۝٢٦﴾ ق:٢٣/٢٦.

هذا الملك القرين الذي رافق الكافر طول الحياة، طالما حثه على الخير ودعاه، فتمنع وآثر الإعراض عن توحيد الله، وعبد الشيطان

---

(١) رواه أحمد في المسند ١٨٢/٤ (١٧٦٧١) وصححه شعيب.

واتبع هواه، فالقرين يطالب السائق والشهيد، أن يضعوه في العذاب الشديد. قال ابن كثير: (إن الكافر إذا قام من قبره أخذ بيده شيطانه، فيلزمه ولا يفارقه حتى يُرمى بهما إلى النار، ومعنى السائق والشهيد، أي ملك يسوقه إلى المحشر، وآخر يشهد عليه بأعماله، وهذا عام في الأبرار والفجار، وكل بحسبه، والقرين هو الذي وكل به) [1].

وأما عن موقف الشيطان الذي اقترن بالإنسان للوسواس بالعصيان فيقول متملصا من أفعال الكافر العنيد: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾﴾ ق:٢٧. فينفي الشيطان عن نفسه المشاركة في الطغيان، وينسب الضلالة والعصيان إلى الإنسان، ويقول محقرا لحزبه في النيران: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ إبراهيم:٢٢.

قال القرطبي: (قال قرينه ربنا ما أطغيته، يعني الشيطان الذي قيض لهذا الكافر العنيد، تبرأ منه وكذبه، ولكن كان في ضلال بعيد عن الحق وكان طاغيا باختياره، يقول الشيطان إنما دعوته فاستجاب لي، ويقول القرطبي: قرينه هنا هو شيطانه بغير خلاف) [2].

قال الله للشيطان وللكفار من بني الإنسان: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ

---

(١) النهاية في الملاحم والفتن لابن كثير ص١٧٤، نشر دار الكتب العلمية، وانظر إحياء علوم الدين للغزالي ٢٩٢/١، وقوت القلوب لأبي طالب المكي ١٠٠/١.

(٢) تفسير القرطبي ١٧/١٧.

﴿إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ ٢٨ مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّـٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٢٩ يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ ٣٠﴾ ق:٢٨/٣٠.

ويذكر ابن القيم أن الله ﷻ أخبرنا أن غطاء الغفلة والذهول يكشف عن الإنسان ذلك اليوم كما يكشف غطاء النوم عن القلب فيستيقظ، وعن العين فتنفتح، فنسبة كشف هذا الغطاء عن العبد عند المعاينة كنسبة كشف غطاء النوم عنه عند الانتباه.

ثم أخبر سبحانه أن قرينه وهو الذي قرن به في الدنيا من الملائكة، يكتب عمله وقوله: يقول لما يحضره هذا الذي كنت وكلتني به في الدنيا قد أحضرته وأتيتك به، هذا قول مجاهد، وقال ابن قتيبة: المعنى هذا ما كتبته عليه وأحصيته من قوله وعمله حاضر عندي. والتحقيق أن الآية تتضمن الأمرين، أي هذا الشخص الذي وكلت به، وهذا عمله الذي أحصيته عليه، فحينئذ يقال: ألقيا في جهنم. وهذا إما أن يكون خطابا للسائق والشهيد، أو خطابا للملك الموكل بعذابه [1].. ثم ذكر صفات هذا الملقى، فذكر له ست صفات:

أحدها: أنه كافر لنعم الله وحقوقه، كافر بدينه وتوحيده وأسمائه وصفاته، كافر برسله وملائكته، كافر بكتبه ولقائه.

الثانية: أنه معاند للحق بدفعه جحدا وعنادا.

الثالثة: أنه مناع للخير، وهذا يعم منعه للخير الذي هو إحسان إلى نفسه من الطاعات والقرب إلى الله، والخير الذي هو إحسان إلى الناس،

---

(١) الفوائد لابن القيم ص١٠.

فليس فيه خير لنفسه ولا لبنى جنسه كما هو حال أكثر الخلق.

الرابعة: أنه مع منعه للخير معتد على الناس، ظلوم غشوم معتد عليهم بيده ولسانه.

الخامسة: أنه مريب أي صاحب ريب وشك، ومع هذا فهو آت لكل ريبة، يقال: فلان مريب إذا كان صاحب ريبة.

السادسة: أنه مع ذلك مشرك بالله، قد اتخذ مع الله إلها آخر يعبده ويحبه، ويغضب له، ويرضى له، ويحلف باسمه، وينذر له، ويوالي فيه، ويعادي فيه. فيختصم هو وقرينه من الشياطين ويحيل الأمر عليه وأنه هو الذي أطغاه وأضله فيقول قرينه: لم يكن لي قوة أن أضله وأطغيه، ولكن كان في ضلال بعيد اختاره لنفسه وآثره على الحق، كما قال إبليس لأهل النار: وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي وعلى هذا فالقرين هنا هو شيطانه، يختصمان عند الله [(١)].

• تكفل الله بإيقاف الشيطان وإخناسه عند الاستعاذة.

من أعظم ما جعله الله ﷻ للإنسان حماية من كيد الشيطان أن الله تكفل بإيقاف الشيطان وإخناسه عند استعاذة الإنسان من وسواسه، فمن استعاذ بالله من الشيطان أعاذه، فقال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ الأعراف: ٢٠٠/٢٠١.

---

(١) المصدر السابق ص١١.

وكان يمكن أن يقال: إذا نزغك الشيطان فقاومه بما استطعت من أسلحتك الفكرية ودلالاتك العقلية، لكن فضل الله على الإنسان كان عظيما، فقال تبارك وتعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾ الناس: ١/٦.

قال ابن القيم في شرحه لسورة الناس: (ذكر الله يقمع الشيطان ويؤلمه ويؤذيه كالسياط والمقامع التي تؤذي من يضرب بها، ولهذا يكون شيطان المؤمن هزيلا ضئيلا مضنى مما يعذبه ويقمعه به من ذكر الله وطاعته.. وتأمل كيف جاء بناء الوسواس مكررا لتكريره الوسوسة الواحدة مرارا حتى يعزم عليها العبد، وجاء بناء الخناس على وزن الفعال الذي يتكرر منه نوع الفعل؛ لأنه كلما ذكر الله انخنس، ثم إذا غفل العبد عاوده بالوسوسة، فجاء بناء اللفظين مطابقا لمعنييهما) [1].

ثم قال: (وقوله الذي يوسوس في صدور الناس صفة ثالثة للشيطان فذكر وسوسته أولا، ثم ذكر محلها ثانيا، وأنها في صدور الناس، وقد جعل الله للشيطان دخولا في جوف العبد، ونفوذا إلى قلبه وصدره، فهو يجري منه مجرى الدم، وقد وكل بالعبد فلا يفارقه إلى الممات) [2].

ويستدل ابن القيم على وسواس الشيطان، وأنه يكون بالقلب بما رواه البخاري ومسلم عن صَفِية بِنت حيي رضي الله عنها أنها قالت: (كَان رسُول اللهِ ﷺ مُعتكِفا، فَأَتيتهُ أَزُورهُ ليلا، فَحدثتهُ ثمَّ قُمْت

(١) بدائع الفوائد لابن القيم ٢/٤٨٠.
(٢) المصدر السابق ٢/٤٨٠.

فَانقلَبْت فَقَامَ مَعي ليقْلبَني، وكَان مَسْكَنهَا فِي دار أُسَامَة بْن زَيد، فَمر رجُلان مِن الأَنصَار فلمَّا رأَيا النبِي ﷺ أَسرْعا، فقَال النبِي ﷺ: على رسْلكُمَا، إنهَا صَفِية بِنت حيي، فقَالا: سُبْحان اللّهِ يا رسُول اللّهِ، قَال: إن الشَّيطَان يجْري مِن الإنسَان مَجْرى الدمِ، وَإني خَشِيت أَن يقْذفَ فِي قُلوبِكُمَا سُوءًا، أَوْ قَال شَيئًا)[^1].

واستدل بما روى البخاري أيضا من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (إذا نودي للصَّلاة أدبر الشيطان وله ضُراطٌ حتى لا يسمع التأْذين، فإذا قُضِي النداءُ أقبل، حتى إذا ثوِّبَ بالصلاة أدبر، حتى إذا قُضِي التثويبِ أَقبل، حتى يخْطُر بين المرءِ ونفسهِ، يقول: اذكُر كذا، اذكر كذا لما لم يكن يذكر، حتى يظل الرجل لا يدري كم صلى)[^2].

واستدل أيضا بما ورد في الصحيح عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: (يأتي الشَّيطَان أَحدكُمْ فيقُول: مَن خَلقَ كَذا؟ مَن خَلقَ كَذا؟ حتى يقُول: مَن خَلقَ ربَّكَ؟ فَإذا بَلغَهُ فَليسْتعذ بِاللّهِ وَلينتهِ)[^3].

وكذلك استدل بما صح عن ابْن عبَّاسٍ ﷺ قَال جَاءَ رجُل إِلى النبِي

---

[^1]: (١) رواه البخاري في بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده ١١٩٥/٣ (٣١٠٧)، ومسلم في كتاب السلام، باب بيان أنه يستحب لمن رئي خاليا بامرأة وكانت زوجة أو محرما له أن يقول هذه فلانة، ليدفع ظن السوء به ١٧١٢/٤ (٢١٧٥).
[^2]: (٢) رواه البخاري في كتاب الأذان، باب فضل التأذين ٢٢٠/١ (٥٨٣)، ومسلم في كتاب المساجد، باب السهو في الصلاة والسجود له ٣٩٨/١ (٣٨٩).
[^3]: (٣) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده ١١٩٤/٣ (٣١٠٢)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها ١٢٠/١ (١٣٤).

ﷺ فقَال: (يا رسُول اللهِ إِني أُحدث نفسِي بِالشَّيءِ لأَن أَخِر مِن السَّماءِ أَحبُّ إلى مِن أَن أَتكلَمَ بِهِ، قَال فقَال النبي ﷺ: اللهُ أَكبَر، اللهُ أَكبَر، اللهُ أَكبَر، الحمْد للهِ الذي رد كَيدهُ إِلى الوَسْوَسَة) [1].

ثم يقول ابن القيم: (القلب يكون فارغا من الشر والمعصية، فيوسوس إليه الشيطان ويخطر الذنب بباله، فيصوره لنفسه ويمنيه ويشهيه فيصير شهوة، ويزينها له ويحسنها ويخيلها له في خيال تميل نفسه إليه فيصير إرادة، ثم لا يزال يمثل ويخيل ويمني ويشهي وينسى علمه بضررها ويطوي عنه سوء عاقبتها، فيحول بينه وبين مطالعته، فلا يرى إلا صورة المعصية والتذاذه بها فقط، وينسى ما وراء ذلك، فتصبر الإرادة عزيمة جازمة، فيشتد الحرص عليها من القلب، فيبعث الجنود في الطلب، فيبعث الشيطان معهم مدادا لهم وعونا، فإن فتروا حركهم، وإن ونوا أزعجهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ مريم:٨٣. أي تزعجهم إلى المعاصي إزعاجا كلما فتروا أو ونوا أزعجتهم الشياطين وأزتهم وأثارتهم، فلا تزال بالعبد تقوده إلى الذنب، وتنظم شمل الاجتماع بألطف حيلة وأتم مكيدة) [2].

• التمييز بين الخواطر الصادرة عن الملك والشيطان.

يعد أبو طالب المكي وكذلك العلامة ابن القيم من أبرز المحققين في دراسة خواطر القلب، وما يدور في منطقة حديث النفس، وكيفية

---

(١) رواه أحمد ١/٢٣٥ (٢٠٩٧)، وقال شعيب: إسناده على شرط الشيخين.

(٢) بدائع الفوائد لابن القيم ٢/٤٨١.

التمييز بين خواطر الخير والشر، ونحاول في هذا المقام أن نستخلص أبرز النقاط التي ذكروها في التمييز بين الخواطر الصادرة عن إلهام الملك وإلقاء الشيطان، وعلاقة ذلك بما يصدر عن النازعين النفسيين في الإنسان، فمما ذكره أبو طالب المكي حول هذه المعان:

١– اعلم أن الخاطر المنبعث من نازع اليقين أو الملك هو من توفيق الله وفتحه على عبده، وخاطر هو النفس والشيطان العدو من خذلان الله لمن شاء بعدله، والقلب كالمرآة التي تقدح فيه هذه الخواطر عن مصادرها، فإذا كانت هذه الخواطر عن وسائل التوفيق والهداية كانت تقوى وهدى ورشداً، وكانت من خزائن الخير ومفتاح الرحمة وقدحت في قلب العبد نورا وطيبا، وإن كانت الخواطر عن وسائل الغواية وهم الشيطان العدوّ وهوى النفس كانت فجوراً وضلالاً وهي وكانت من خزائن الشر وقدحت في القلوب ظلمة ونتناً. وكل هذا ابتلاء من خالق النفس ومسويها وجبار القلوب ومقلبها حكمة منه وعدلا لمن شاء، ومنة وفضلاً لمن أحب، كما قال: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ الأنعام:١١٥. أي بالهداية صدقا لأوليائه ما وعدهم من ثوابه، وبالإضلال عدلا على أعدائه ما أعد لهم من عقابه.

والرب سبحانه قادر على كل شيء، بيده ملكوت كل شيء حكيم في كل شيء، والعبد ضعيف عاجز جاهل لا يقدر على شيء، قد ابتلي بالأسباب، وجعل مكانا للأحكام بالعقاب والثواب، فالأسباب وسائط البلاء، والعبد موضع الابتلاء[1].

---

(١) قوت القلوب لأبي طالب المكي ٢١٢/١ بتصرف.

٢- الملك مجبول على الهداية مطبوع على حب الطاعة كما أن العدو مجبول على الغواية، مطبوع على حب المعصية، فيلقي الملك الإلهام وهو خطوره على القلب بقدح خواطره يأمر بتقييد ذلك، ويحسنه له ويحثه عليه، وهذا هو إلهام التقوى والرشد، وينظر الملك إلى نازع الخير واليقين كما ينظر العدو إلى هوى النفس، فيشهد اليقين للملك بذلك، فيطمئن العقل ويسكن إلى شهادة اليقين، ويصير العقل بإذن الله تعالى مع الملك بتأييد الله تعالى[1].

٣- وقد تختلف اللمتان من الملك والعدوّ ويتفاوت الإلهام والوسوسة في المعاني من الخير والشر، فربما تقدمت لمة العدوّ بالأمر بالشر وتقدح بعدها لمة الملك نصرة للعبد وتثبيتا على الخير، وعناية من الرب تعالى فينهي عن ذلك، فعلى العبد أن يعصي الخاطر الأوّل ويطيع الخاطر الثاني، وقد يتقدم إلهام الملك بالأمر بالخير ثم يقدح بعده خاطر العدوّ بالنهي عنه والتثبيط والإملاء فيه بالتأخير محنة من الله تعالى للعبد لينظر كيف يعمل، وحسداً من العدوّ، فعليه أن يطيع الخاطر الأوّل ويعصي الخاطر الثاني .

٤- قد تدق الخواطر من إلهام الملك بالخير، ومن وسوسة العدوّ بالشر، وقد يتفاوت ذلك من ضعف خاطر الخير لقوّة الرغبة في الدنيا، ومن قوّة خاطر الشر لقوّة الشهوة والهوى، وفي المزيد والنقص منهما والتقديم والتأخير بهما لتفاوت الأحكام من قبل تقليب القدرة بالمشيئة.

٥- وقد تترادف خواطر الشر من النفس والهوى، فلا يتعاقبها

---

(١) المصدر السابق ١/٢١٥ بتصرف.

خاطر خير من الملك، وهذا علامة البعد ونهاية قسوة القلب، وقد تتابع خواطر الخير والبر من نازع الخير والملك، ويعافى العبد من خاطري هوى النفس وهذا علامة القرب وهو حال المقربين.

٦- وقد ترد خواطر العدوّ ووساوسه بالخير والبر ابتلاء من الله تعالى لعبده، وحيلة من العدوّ ومكرا من النفس، يريد العدوّ بذلك الشر، أو يخرجه آخر إلى إثم أو خير ليقطعه بذلك عن واجب، أو يشغله به عن الأفضل في الحال فيكون ظاهره برا وباطنه إثما، ويكون أوّله خيرا وآخره إثما .

٧- وأما خاطر الملك فلا يرد إلا بخبر صريح وبر محض على كل حال إذا ورد، لأن الخداع والحيلة ليس من وصف الملائكة، ولكن قد تنقطع خواطر الملك من القلب إذا اشتدت قسوته ودامت معصيته من المتعبدين، فيخلي بين القلب وبين نوازع العدوّ اللعين، ويتخلى العدوّ بهوى النفس فيستحوذ ويقترن بالعبد، نعوذ بالله من إبعاده وعدم خيره وإرشاده[1] .

٨- إذا قوي هوى النفس بتزيين العدوّ، فملك العبد تملكا كان مملوكها وأسيرا له، فاستهواه الشيطان حينئذ بالغواية والإضلال، واستحوذ عليه بمعاني المشاركة في الأولاد والأموال، فشغله بذلك عن الله تعالى وأنساه ذكر الله ﷻ، وهذا هو الاقتران الذي ذمه الله تعالى في قوله: ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا ٣٨﴾ النساء:٣٨. وهو فوق

---

(١) المصدر السابق ١/٢١٦ بتصرف.

النزغ والهمز والخاطر بعد الهمة، وهو خطور العدوّ على القلب بالوسوسة يزين الهمة، ويملي للعبد ويرجيه ويفسح له في أمله، ويمنيه بالتوبة حتى تهون عليه المعصية، ويعده بعدها بالمغفرة حتى يجرئه على الخطيئة، وهذا هو الوعد بالغرور وبعده الهلاك والثبور، كما قال عن الشيطان: يعدهم أي التوبة ويمنيهم المغفرة وما يعدهم الشيطان إلا غرورا، وهذا كله تصديق ظن العدوّ بالعبد، واتباع العبد له بالهوى فصار العدوّ سببا لقوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ ﴾ سبأ: ٢٠/٢١ (١).

٩- ترتيب الخواطر التي تدب في القلب، أول ذلك الهمة وهو ما يبدو من وسوسة النفس بالشيء يجده العبد بالحس كالبرقة، فإن صرفها بالذكر محيت، وإن تركها بالغفلة كانت خطرة، وهو خطور الشيطان بالتزيين، وإن نفى الخاطر بالاستعاذة ذهب، وإن ولي عنه قوي فصار وسوسة، وهذه من محادثة النفس للعدوّ وإصغاؤها إليه، وإن نفى العبد هذه الوسوسة بذكر الله فاستغفر واستعاذ خنس العدو وصغت النفس، وهذه الثلاث معفوة عن العبد فيها برحمة الله تعالى غير مؤاخذ بها؛ لأنها ما زالت في منطقة حديث النفس. فإن أمرج العبد النفس في محادثة العدوّ، وطاولت النفس العود بالإصغاء والمحادثة قويت الوسوسة وانتقلت إلى منطقة الكسب فصارت نية، فإن أبدل العبد هذه النية بنية

---

(١) المصدر السابق ١/٢٢٠ بتصرف.

خير فاستغفر منها وتاب، تاب الله عليه.

١٠- ما كان من لائح يلوح في القلب من معصية ثم يتقلب فلا يلبث، فهذا نزغ من قبيل العدوّ، وما كان في القلب من هوى ثابت أو حال مزعج دائم لابث، فهو من قبل النفس الأمارة بطبعها، أو مطالبة منها بسوء عادتها، وما ورد على العبد من همه بخطيئة، ووجد العبد فيها كراهتها، فالورود من قبل العدوّ، والكراهة من قبل الإيمان، وما وجده العبد من هوى أو معصية ثم ورد عليه المنع من ذلك، فالوجد من النفس والوارد بالمنع من الملك [١].

وفي بيان الفرق بين إلهام الملك ووسواس الشيطان ذكر العلامة ابن القيم عدة أمور يمكن تلخيصها فيما يلي:

١- منها أن ما كان لله موافقا لمرضاته وما جاء به رسوله ﷺ فهو من الملك، وما كان لغيره غير موافق لمرضاته فهو من إلقاء الشيطان .

٢- ومنها أن ما أثمر إقبالا على الله وإنابة إليه وذكرا له وهمة صاعدة إليه فهو من إلقاء الملك، وما أثمر ضد ذلك فهو من إلقاء الشيطان .

٣- ومنها أن ما أورث أنسا ونورا في القلب وانشراحا في الصدر فهو من الملك، وما أورث ضد ذلك فهو من الشيطان.

٤- ومنها أن ما أورث سكينة وطمأنينة فهو من الملك، وما أورث قلقا وانزعاجا واضطرابا فهو من الشيطان، فالإلهام الملكي يكثر

(١) المصدر السابق ٢٢١/١ بتصرف.

في القلوب الطاهرة النقية التي قد استنارت بنور الله فللملك بها اتصال وبينه وبينها مناسبة، فإنه طيب طاهر لا يجاور إلا قلبا يناسبه، فتكون لمة الملك بهذا القلب أكثر من لمة الشيطان. وأما القلب المظلم الذي قد اسود بدخان الشهوات والشبهات فإلقاء الشيطان ولمة به أكثر من لمة الملك[1].

- **خواطر الشيطان مصدر النسيان في الإنسان.**

النسيان في الإنسان كما ورد في القرآن له حالتان، الحالة الأولى: أن يكون نسينا عن خطأ غير مقصود، والحالة الثانية: إما أن يكون نسينا عن إرادة وعزم متعمد، فنسيان الخطأ لا يحاسب عليه الإنسان، لأن مصدره الشيطان وخواطره التي يلقيها في منطقة حديث النفس، ونسيان العمد يحاسب عليه لأن مصدره الإرادة والقصد والعزم على ترك الامتثال وهذا كله في منطقة الكسب.

ونسيان الخطأ هو المقصود بما ورد عند ابن ماجه من حديث أبِي ذر الغِفَارِيِّ ﷺ أن رَسُولَ اللهِ ﷺ: (إِنَّ اللهَ تَجاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ، وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ) [2]. وكذلك هو المقصود في قوله تعالى عن موسى عليه السلام وفتاه: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾﴾ الكهف:٦٣.

وكذلك النسيان الذي ورد في قوله تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿وَقَالَ

(١) الروح ص ٢٥٦ بتصرف .

(٢) رواه ابن ماجه في كتاب الطلاق، باب طلاق المكره والناسي ٦٥٩/١ (٢٠٤٣)، وصححه الألباني، انظر مشكاة المصابيح (٦٢٨٤)، والإرواء (٨٢).

لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ يوسف:٤٢ . وهو أيضا المقصود بقوله تعالى لسيد الأنبياء ﷺ: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ الأنعام:٦٨.

وحقيقة نسيان الخطأ أن الشيطان يشغل القلب بحديثه وخواطره حتى ينسيه ما يريد فعله، ولهذا يضاف النسيان إلى الشيطان إضافة السببية، فيوسوس إلى العبد بما يشغله عن الشيء حتى يذهب عنه ما يريده ويزيل ذكره عن قلبه. فالصلاة مثلا من أعظم الطاعات، وواجب على العبد أن ينشغل بعقله وفكره وقلبه لاستجماع الخشية والتدبر في عظمة ربه، وإحساسه بنعمة الإيمان في محبته وقربه، وينعم بما يتلوه من آيات وما يذكره من أدعية وتسبيحات في تلك الصلاة، فيأتي إليه الشيطان بكل ما استطاع من خطرات، وأمور مغيبات لم يذكرها في غير وقت الصلاة فيذكره بها، فينشغل العقل بتلك الأمور الجانبية والخواطر الفرعية الملقاه من قبل الشيطان حتى لا يدري كم ركعة ركعها أو كم سجدة سجدها [١].

روى البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (إِذا نُودِيَ للصَّلاةِ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ وَلَهُ ضُرَاطٌ، حَتَّى لا يَسْمَعَ التَّأْذِينَ، فَإِذا قَضَى النِّدَاءَ أَقْبَلَ حَتَّى إِذا ثُوِّبَ بِالصَّلاةِ أَدْبَرَ حَتَّى إِذا قَضَى التَّثْوِيبَ

---

(١) انظر في بيان حقيقة النسيان في قلب الإنسان تفسير الرازي ١١٧/١٨، وتفسير اللباب لابن عادل ٢٧٥/٩.

أَقْبَل حتَّى يَخْطِرَ بَيْنَ المَرْءِ ونَفْسِهِ، يَقُول: اذكُرْ كَذا اذكُرْ كَذا لِمَا لمْ يَكُنْ، يَذكُرُ حتَّى يَظَل الرَّجُل لا يَدْرِي كَمْ صَلى) [(١)].

ونسيان الخطأ نسيان عام يقع في جميع البشر حتى الرسل والأنبياء، ويتطلب الذكر والاستعاذة، بخلاف نسيان العمد، فإنه خاص بتعمد المعصية ويتطلب التوبة والاستغاثة .

روى البخاري من حديث ابن مسعود ﷺ قال: (صَلى النَّبِيُّ ﷺ، زَادَ أَوْ نَقَصَ، فَلمَّا سَلمَ قِيل لهُ يَا رَسُول اللهِ أَحَدَثَ فِي الصَّلاةِ شَيْءٌ قَال وَمَا ذاكَ قَالوا صَليْتَ كَذا وَكَذا فَثنَى رِجْليْهِ وَاسْتَقْبَل القِبْلةَ وَسَجَدَ سَجْدَتَيْنِ ثُمَّ سَلمَ فَلمَّا أَقْبَل عَليْنَا بِوَجْهِهِ قَال إِنَّهُ لوْ حَدَثَ فِي الصَّلاةِ شَيْءٌ لنَبَّأْتُكُمْ بِهِ وَلكِنْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلكُمْ أَنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ فَإِذا نَسِيتُ فَذكِّرُونِي وَإِذا شَكَّ أَحَدُكُمْ فِي صَلاتِهِ فَليَتَحَرَّ الصَّوَابَ فَليُتِمَّ عَليْهِ ثُمَّ ليُسَلمْ ثُمَّ يَسْجُدُ سَجْدَتَيْنِ) [(٢)] .

أما النسيان الذي ورد في شأن آدم عليه السلام فهو نسيان تعمد وإن كان مبدؤه وسواس من الشيطان، اكتسبه آدم عليه السلام بأكله من الشجرة وتطلب كما هو معلوم الاستغفار والتوبة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ طه:١١٥. وقال سبحانه: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ البقرة:٣٧ .

---

(١) رواه البخاري في الأذان، باب فضل التأذين ١/٢٢٠ (٥٨٣)، ومسلم في كتاب المساجد، باب السهو في الصلاة والسجود له ١/٣٩٨ (٣٨٩).

(٢) البخاري في أبواب القبلة، باب التوجه نحو القبلة حيث كان ١/١٥٦ (٣٩٢)، ومسلم في المساجد، باب السهو في الصلاة والسجود له ١/٤٠٠ (٥٧٢).

ومن نسيان العمد الذي ينبع من منطقة الكسب والمساءلة قوله تعالى عن حزب الشيطان: ﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ المجادلة:١٩. فلما باداءهم الشيطان بخواطر الكفر والعصيان أنساهم سبيل الحق والإيمان وهو النفع الحقيقي الذي يعود على الإنسان، فتناسوا الطاعة ووقعوا في الظلم والطغيان وأصبح الشيطان موجها لهم يأتمرون بأمره حتى استحوذ على كل إنسان في حزبه، وقال الله تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ الأنعام:٤٣/٤٤. وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾ الحشر:١٩.

قال ابن تيمية: (والوسواس من جنس الحديث والكلام، ولهذا قال المفسرون فى قوله: ما توسوس به نفسه، قالوا: ما تحدث به نفسه، وقد قال ﷺ: إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به [(١)]، وهو نوعان: خبر وإنشاء. فالخبر إما عن ماض، وإما عن مستقبل، فالماضي يذكره به، والمستقبل يحدثه بأن يفعل هو أمورا، أو أن أمورا ستكون بقدر الله، أو فعل غيره فهذه الأماني والمواعيد الكاذبة، والإنشاء أمر ونهي وإباحة، والشيطان تارة يحدث وسواس الشر، وتارة

(١) رواه البخاري في كتاب الطلاق، باب الطلاق في الإغلاق والكره والسكران والمجنون ٥/٢٠٢٠ (٤٩٦٨)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب إذا لم تستقر ١/١١٦ (١٢٧).

ينشئ الخير، وكان ذلك بما يشغله به من حديث النفس، قال تعالى في النسيان: وأما ينسينك الشيطان. وقال فتى موسى: فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان. وقال تعالى: فأنساه الشيطان ذكر ربه. وثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: "إذا أذن المؤذن أدبر الشيطان وله ضراط حتى لا يسمع التأذين، فإذا قضي التأذين أقبل، فإذا ثوب بالصلاة أدبر، فإذا قضي التثويب أقبل حتى يخطر بين المرء ونفسه، فيقول: اذكر كذا اذكر كذا لما لم يذكر، حتى يظل الرجل لم يدر كم صلى. فالشيطان ذكره بأمور ماضية حدث بها نفسه مما كانت فى نفسه من أفعاله ومن غير أفعاله، فبتلك الأمور نسي المصلي كم صلى ولم يدر كم صلى، فإن النسيان أزال ما في النفس من الذكر، وشغلها بأمر آخر حتى نسي الأول) [١].

وقال ابن تيمية أيضا: (الخطأ من الشيطان والنفس، لأن الله لا يقول - يعني الباطل - ولا يأمر به، ولأنه إنما ينكته في قلب الإنسان الشيطان، ونفسه تقبله من الشيطان، فإنه يزين لها الشيء فتطيعه فيه، وليس كل ما كان من الشيطان يعاقب عليه العبد، ولكن يفوته به نوع من الحسنات كالنسيان فإنه من الشيطان، والاحتلام من الشيطان، والنعاس عند الذكر والصلاة من الشيطان، والصعق عند الذكر من الشيطان، ولا إثم على العبد فيما غلب عليه إذا لم يكن ذلك بقصد منه أو بذنب) [٢].

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٧/٥٢٠.

(٢) السابق ١٥/١٠٠.

- حال القلب في منطقة الكسب مع الملك والشيطان.

ذكر ابن القيم رحمه الله أنك إذا تأملت حال القلب مع الملك والشيطان رأيت أعجب العجائب، فهذا يلم به مرة، وهذا يلم به مرة، فإذا ألم به الملك حدث بسبب لمته الانفساح والانشراح، والنور والرحمة والإخلاص، والإنابة ومحبة الله، وإيثاره على ما سواه، وقِصر الأمل والتجافي عن دار البلاء والامتحان والغرور، فلو دامت له تلك الحالة لكان في أهنأ عيش وألذه وأطيبه، ولكن تأتيه لمة الشيطان، فتحدث له من الضيق والظلمة والهم والغم والخوف والسخط على المقدور والشك في الحق والحرص على الدنيا وعاجلها والغفلة عن الله ما هو من أعظم عذاب القلب، ثم للناس في هذه المحنة مراتب لا يحصيها إلا الله، فمنهم من تكون لمة الملك أغلب من لمة الشيطان وأقوى، فإذا ألم به الشيطان وجد من الألم والضيق وسوء الحال بحسب ما عنده من حياة القلب، فيبادر إلى طرد تلك اللمة ولا يدعها تستحكم، فيصعب تداركها، فهو دائما في حرب بين اللمتين والعاقبة للتقوى .

ومنهم من تكون لمة الشيطان أغلب عليه وأقوى فلا تزال تغلب لمة الملك حتى تستحكم ويصير الحكم لها فيموت القلب، ولا يحس ما ناله الشيطان به مع أنه في غاية العذاب والضيق ولكن سكر الشهوة والغفلة حجب عنه الإحساس بذلك الألم، فإذا كشف الحجاب أمكنه تداركه بالدواء وحسمه، وإن عاد الغطاء عاد الأمر كما كان حتى ينكشف عنه وقت المفارقة للدنيا فتظهر حينئذ تلك الآلام والهموم والغموم والأحزان وهي لم تتجدد له، وإنما كانت كامنة تواريها الشواغل، فلما زالت

الشواغل ظهر ما كان كامنا وتجدد له أضعافه.

والشيطان يلم بالقلب بسبب ما كان من جواذب تجذبه، وهي نوعان: صفات، وإرادات. فإذا كانت الجواذب صفات قوي سلطانه هناك واستفحل أمره، ووجد موطئا ومقارا، فتأتي الأذكار والدعوات والتعوذات كحديث النفس، لا تدفع سلطان الشيطان لأن مركبه صفة لازمة من صفات السوء في الإنسان، فإذا قلع العبد تلك الصفات، وعمل على التطهر منها، والاغتسال بقي للشيطان بالقلب خطرات ووساوس ولمات من غير استقرار، وذلك يضعفه ويقوي لمة الملك فتأتي الأذكار والدعوات والتعوذات فتدفعه بأسهل شيء .

وإذا أردت لذلك مثالا مطابقا، فمثال الشيطان مثل كلب جائع شديد الجوع، وبينك وبينه لحم أو خبز، وهو يتأملك ويراك لا تقاومه فيقترب من اللحم والخبز أكثر وأكثر، فأنت تزجره وتصيح عليه،وهو يأبى إلا أن يحوم حولك ويغير على ما بين يديك، فالأذكار بمنزلة الصياح عليه والزجر له، ولكن معلومه ومراده عندك، وقد تركته يقترب منك ولم تفعل له إلا الصياح ولم تحرز مراده وتزيل اللحم من أمامه وتبعده، فإذا لم يكن بين يديك شيء يصلح له، وقد تأملك فرآك أقوى منه، فإنك تزجره وتصيح عليه فيذهب، وكذلك القلب الخالي عن قوة الشيطان ينزجر بمجرد الذكر.

وأما القلب الذي فيه تلك الصفات التي هي مركب الشيطان وموطنه فيقع الذكر في حواشيه وجوانبه، ولا يقوى على إخراج العدو منه، ومصداق ذلك تجده في الصلاة، فتأمل في الحال وانظر، هل تخرج

الصلاة بأذكارها وقراءتها وطرد الشيطان من قلبك وتفرغه كله لله تعالى بكليته، وتقيمه بين يدي ربه مقبلا بكليته عليه، يصلي لله تعالى كأنه يراه، قد اجتمع همه كله على الله؟ وصار ذكره ومراقبته ومحبته والأنس به في محل الخواطر والوساوس أم لا؟ (١) .

- **النازعان والهاتفان من كمال حكمة الله في خلق الإنسان.**

لقد تجلت حكمة الله في وجود إرادة الإنسان بين قرينين اثنين هما الملك والشيطان، الملك القرين يهتف بأمر الله للإنسان، ويدعو بإذنه إلى الخير والإيمان كلما هتف له الشيطان بالكفر والفسوق والعصيان. فظهر بهذا سر العداء بين الإنسان والشيطان، وظهر فيه حقد الشيطان على الإنسان، لأن الله ﷻ استخلفه في الأرض بالحق والميزان، وظهر عدل الله في الشيطان وفضله سبحانه وتعالى على الإنسان، حيث لم يجعل للشيطان سلطانا على الإنسان إلا أن يدعوه إلى العصيان بالوسوسة فقط.

والإنسان حر في الاستجابة لندائه أو الاستجابة للملك في دعائه، فقد وكل الله ﷻ الملك ليلازم الإنسان، ويدعوه إلى الخير في مقابل دعوة الشيطان، كما أن الله ﷻ يذكر الإنسان على لسان أنبيائه ورسله بمكر الشيطان، وتلبيسه وتدليسه على الإنسان، فأي كمال في تفسير وجود الخير والشر والعداوة بين الإنسان والشيطان أفضل من هذا البيان الذي كشفته آيات القرآن ؟ !!

---

(١) انظر بتصرف التبيان في أقسام القرآن لابن القيم ص٢٦٢ نشر دار الفكر.

ومعني ذلك أن الإرادة الإنسانية بين نازعين وهاتفين، هاتف يوافق نازع التقوى في القلب وهو الملك، وآخر يوافق نازع الهوى وهو الشيطان، وليس لأحدهما إلزام ولا إجبار للإرادة على اختيار هذا الجانب دون ذلك، فليس أحدهما مرجحا لفعل دون فعل، وإنما هما هاتفان وداعيان فقط، كما أن لمة الملك التي نصت عليها الأحاديث ليست إلا إيعاذا بالخير دون الإجبار عليه، ونحن لا ندرك كيفية حدوث الإيعاذ بالخير الذي يهتف به الملك، أو كيفية الوسوسة التي تتم من الشيطان، ولكننا نشعر به في قرارة أنفسنا، فالملك والشيطان وحقيقة الروح من الأمور التي حجب الله ﷻ كيفيتها عن الإنسان في الدنيا ولكنها حقائق موجودة .

وقال ابن القيم: (وأول ما يطرق القلب الخطرة، فإن دفعها استراح مما بعدها، وإن لم يدفعها قويت فصارت وسوسة، فكان دفعها أصعب، فإن بادر ودفعها وإلا قويت وصارت شهوة، فإن عالجها وإلا صارت إرادة، فإن عالجها وإلا صارت عزيمة، ومتى وصلت إلى هذه الحال لم يمكن دفعها، واقترن بها الفعل ولا بد، وحينئذ ينتقل العلاج إلى أقوى الأدوية وهو الاستفراغ التام بالتوبة النصوح. ولا ريب أن دفع مبادئ هذا الداء من أوله أيسر وأهون من استفراغه بعد حصوله إن ساعد القدر وأعان التوفيق، وإن الدفع أولى به، وإن تألمت النفس بمفارقة المحبوب، فليوازن بين فوات هذا المحبوب الأخس المنقطع النكد المشوب بالآلام والهموم وبين فوات المحبوب الأعظم الدائم الذي لا نسبة لهذا المحبوب إليه ألبتة، لا في قدره ولا في بقائه، وليوازن بين ألم فوته وبين ألم

فوت المحبوب الأخس، وليوازن بين لذة الإنابة والإقبال على الله تعالى والتنعم بحبه وذكره وطاعته، ولذة الإقبال على الرذائل والإتيان بالقبائح، وليوازن بين لذة الظفر بالذنب ولذة الظفر بالعدو، وبين لذة الذنب ولذة العفة، ولذة الذنب ولذة القوة وقهر العدو، وبين لذة الذنب ولذة إرغام عدوه ورده خاسئا ذليلا، وبين لذة الذنب ولذة الطاعة التي تحول بينه وبين مراده، وبين فوت مراده وفوت ثناء الله تعالى وملائكته عليه، وفوت حسن جزائه وجزيل ثوابه، وبين فرحة إدراكه وفرحة تركه لله تعالى عاجلا، وفرحة ما يثنيه عليه في دنياه وآخرته)[(١)].

وقال ابن تيمية: (والله خلق العبد يقصد الخير فيرجوه بعمله، فإذا كذب بالحق فلم يصدق به ولم يرد الخير فيقصده ويعمل له كان خاسرا بترك تصديق الحق وطلب الخير، فكيف إذا كذب بالحق وكره إرادة الخير، فكيف إذا صدق بالباطل وأراد الشر، فذكر عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن لقلب ابن آدم لمة من الملك ولمة من الشيطان، فلمة الملك تصديق بالحق، وهو ما كان من غير جنس الاعتقاد الفاسد، ولمة الشيطان هو تكذيب بالحق وإيعاذ بالشر، وهو ما كان من جنس إرادة الشر وظن وجوده، إما مع رجائه إن كان مع هوى نفس، وإما مع خوفه إن كان غير محبوب لها، وكل من الرجاء والخوف مستلزم للآخر، فمبدأ العلم الحق والإرادة الصالحة من لمة الملك، ومبدأ الاعتقاد الباطل والإرادة الفاسدة من لمة الشيطان.

قال الله تعالى: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ

---

(١) المصدر السابق ص ٢٦٧.

﴿يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾ البقرة:٢٦٨ .

والشيطان وسواس خناس، إذا ذكر العبد ربه خنس، فإذا غفل عن ذكره وسوس، فلهذا كان ترك ذكر الله سببا ومبدأ لنزول الاعتقاد الباطل والإرادة الفاسدة في القلب، ومن ذِكْرِ الله تعالى تلاوة كتابه وفهمه، ومذاكرة العلم)[١].

• حال القلب مع الملك والشيطان كما يصوره الغزالي.

يذكر أبو حامد الغزالي أن أنوار القلب وظلمته سببان مختلفان، فسبب الخاطر الداعي إلى الخير يسمى ملكا، وسبب الخاطر الداعي إلى الشر يسمى شيطانا، واللطف الذي يتهيأ به القلب لقبول إلهام الخير يسمى توفيقا، والذي به يتهيأ لقبول وسواس الشيطان يسمى إغواء وخذلانا، فإن المعاني المختلفة تفتقر إلى أسامي مختلفة، والملك عبارة عن خلق خلقه الله تعالى، شأنه إفاضة الخير وإفادة العلم، وكشف الحق والوعد بالخير والأمر بالمعروف وقد خلقه الله وسخره لذلك.

والشيطان عبارة عن خلق شأنه ضد ذلك، وهو الوعد بالشر والأمر بالفحشاء، والتخويف عند الهم بالخير بالفقر، فالوسوسة في مقابلة الإلهام، والشيطان في مقابلة الملك، والتوفيق في مقابلة الخذلان، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ الذاريات:٤٩. فإن الموجودات كلها متقابلة مزدوجة إلا الله تعالى، فإنه وتر لا مقابل له، بل هو الواحد الحق الخالق للأزواج كلها، فالقلب متجاذب بين

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٤/٣٤.

الشيطان والملك[1].

ثم أشار أبو حامد رحمه الله إلى حديث ابن مسعود ﷺ الذي فيه أن القلب فيه لمتان لمة من الملك إيعاذ بالخير وتصديق بالحق، وأنه لتجاذب القلب بين هذين المسلطين، وذكر قول رسول الله ﷺ: قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن [2] .

والقلب بأصل الفطرة صالح لقبول آثار الملك، ولقبول آثار الشيطان صلاحا متساويا، ليس يترجح أحدهما على الآخر، وإنما يترجح أحد الجانبين باتباع الهوى والإكباب على الشهوات، أو الإعراض عنها ومخالفتها، فإن اتبع الإنسان مقتضى الغضب والشهوة ظهر تسلط الشيطان بواسطة الهوى، وصار القلب عش الشيطان ومعدنه، لأن الهوى هو مرعى الشيطان ومرتعه.

وإن جاهد الشهوات ولم يسلطها على نفسه، وتشبه بأخلاق الملائكة عليهم السلام، صار قلبه مستقر الملائكة، ولما كان لا يخلو قلب عن شهوة وغضب وحرص وطمع وطول أمل إلى غير ذلك من صفات البشرية المتشعبة عن الهوى، لا جرم لم يخل قلب عن أن يكون للشيطان فيه جولان بالوسوسة، ولذلك قال ﷺ: "ما منكم من أحد إلا وله شيطان، قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: وأنا، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمر إلا بخير" [3].

---

(١) إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي ٢٧/٣ بتصرف.

(٢) مسلم في القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب ٢٠٤٥/٤ (٢٦٥٤).

(٣) الحديث تقدم تخرجه بألفاظه الصحيحة.

وإنما كان هذا لأن الشيطان لا يتصرف إلا بواسطة الشهوة، فمن أعانه الله على شهوته حتى صارت لا تنبسط إلا حيث ينبغي، وإلى الحد الذي ينبغي، فشهوته لا تدعو إلى الشر.. ومهما غلب على القلب ذكر الدنيا بمقتضيات الهوى، وجد الشيطان مجالا فوسوس، ومهما انصرف القلب إلى ذكر الله تعالى، ارتحل الشيطان وضاق مجاله، وأقبل الملك وألهم، والتطارد بين جندي الملائكة والشياطين في معركة القلب دائم إلى أن ينفتح القلب لأحدهما فيستوطن ويستمكن، ويكون اجتياز الثاني اختلاسا [1].

ولا يمحو وسوسة الشيطان من القلب إلا تجاهل ما وسوس به إلى أمر آخر، لأنه إذا خطر في القلب ذكر شيء انعدم منه ما كان فيه من قبل، ولكن كل شيء سوى الله تعالى وسوى ما يتعلق بالله يجوز أيضا أن يكون مجالا للشيطان، وذكر الله فقط هو الذي يؤمن جانبه، ويعلم أنه ليس للشيطان فيه مجال، ولا يعالج الشيء إلا بضده، وضد جميع وساوس الشيطان ذكر الله بالاستعاذة، والتبري عن الحول والقوة، وهو معنى قولك: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وذلك لا يقدر عليه إلا المتقون، الغالب عليهم ذكر الله تعالى، وإنما الشيطان يطوف عليهم في أوقات الفلتات على سبيل الخلسة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١﴾ الأعراف:٢٠١.

---

(١) إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي ٣/٢٨ بتصرف.

المطلب الواحد والعشرون

فضل الله على الإنسان في حمايته
من كيد الشيطان

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فقد تحدثنا في المطلب السابق عن العلة في الإذن للشيطان بأن يوسوس بالعصيان للإنسان، وبينا أن الله ﷻ وكل بالإنسان ملكا قرينا يهتف له بالخير والإيمان في مقابل وسوسة الشيطان بالكفر والفسوق والعصيان، وعلمنا الدليل النقلي الصحيح على وجود الهاتفين، والمقصود بالقرينين الذين ورد ذكرهما في سورة ق، وكيف أن الله ﷻ تكفل بإيقاف الشيطان وإخناسه عند استعاذة الإنسان من وسواسه؟ ثم تحدثنا عن التمييز بين الخواطر الصادرة عن الملك والشيطان، وكيف أن خواطر الشيطان مصدر النسيان في الإنسان؟ وعلمنا حال القلب في منطقة الكسب مع الملك والشيطان، وأن النازعين والهاتفين من كمال حكمة الله في خلق الإنسان، وكيف صور أبو حامد الغزالي ابتلاءات القلب مع مقارنة الملك والشيطان؟ وحاله مع هوى النفس في مقابل نازع اليقين والإيمان.

وفي هذه المحاضرة نتحدث بإذن الله ﷻ عن وسائل حماية الإنسان من

كيد الشيطان، وبيان فضل الله ﷻ على الإنسان، وعدله فيمن اتبع الشيطان وصار من حزبه.

- **الحكمة من وجود الشيطان وجنوده كمصدر للشر.**

على الرغم من كون الشيطان مصدرا من مصادر الإغواء بالشر للإنسان، بناء على طلبه هو من ربه أن ينظره إلى يوم أن تنتهي دار الابتلاء والامتحان، إلا أن الشيطان لا يسأم أن يوسوس للإنسان بالطعن في الحكمة الإلهية من وجوده كمصدر للشر في هذا العالم، ولا يسأم أتباعه من الملحدين أن يتساءلوا مشككين ومنكرين: أي حكمة في خلق إبليس وجنوده؟

وقد بين العلامة ابن القيم رحمه الله أن وجود إبليس وجنوده فيه من الحكم العليا ما لا يحيط بتفصيله إلا الله ﷻ[1]. وسوف نستخلص بعض هذه الوجوه التي أشار إليها ليعلم المؤمن فضل الله ﷻ عليه، ونعمته على عباده، وكمال حجته وحكمته فيهم، وأبرز هذه الوجوه يتمثل في الأمور التالية:

١- أن يكمل لأنبيائه وأوليائه مراتب العبودية بمجاهدة عدو الله وحزبه، ومخالفته ومراغمته في الله ﷻ، وإغاظته وإغاظة أوليائه، والاستعاذة به منه، والإلجاء إليه أن يعيذهم من شره وكيده، فيترتب لهم على ذلك من المصالح الدنيوية والأخروية، ما لم يحصل بدونه، ومعلوم أن الموقوف على الشيء لا يحصل بدونه .

(١) شفاء العليل لابن القيم ص٢٣٦ بتصرف.

٢- ومنها أن خوف المؤمنين من ذنبهم يكون أقوى وأتم بعد ما شاهدوا من حال إبليس ما شاهدوه، وسقوطه من المرتبة الملكية إلى المنزلة الإبليسية، ولا ريب أن الملائكة لما شاهدوا ذلك حصلت لهم عبودية أخرى لله، وخضوع آخر، وخوف آخر، كما هو المشاهد من حال عبيد الملك، إذا رأوه قد أهان أحدهم الإهانة التي بلغت منه كل مبلغ، وهم يشاهدونه، فلا ريب أن خوفهم وحذرهم يكون أشد.

٣- ومنها أنه سبحانه جعله عبرة لمن خالف أمره وتكبر عن طاعته، وأصر على معصيته كما جعل ذنب آدم عليه السلام أبي البشر عبرة لمن ارتكب نهيه، أو عصى أمره، ثم تاب وندم ورجع إلى ربه، فابتلى أبوي الجن والإنس بالذنب، وجعل هذا الأب عبرة لمن أصر وأقام على ذنبه، وهذا الأب عبرة لمن تاب ورجع إلى ربه، فلله كم في ضمن ذلك من الحكم الباهرة والآيات الظاهرة؟

٤- ومنها أنه محك امتحن الله عز وجل به خلقه ليتبين به خبيثهم من طيبهم، فإنه سبحانه خلق النوع الإنساني من الأرض وفيها السهل والحزن والطيب والخبيث، فلا بد أن يظهر فيهم ما كان في مادتهم، كما ورد في الحديث الذي رواه الترمذي عَن أَبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إِن الله تعَالى خَلَق آدم من قبضَةٍ قبضَها من جميعِ الأَرضِ، فَجاءَ بنو آدم عَلَى قدر الأَرضِ، فَجاءَ منهم الأَحمر والأَبيضُ والأَسود، وبين ذلكَ والسهل والحزْن والخَبيث والطَّيب)[1]. فما كان في المادة

---

(١) أبو داود في السنة، باب في القدر ٤/٢٢٢ (٤٦٩٣)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (١٠٠)، والسلسلة الصحيحة (١٦٣٠).

الأصلية، فهو كائن في المخلوق منها، فاقتضت الحكمة الإلهية إخراجه وظهوره، فلا بد إذا من سبب يظهر ذلك. وكان إبليس محكا يميز به الطيب من الخبيث، كما جعل أنبيائه ورسله عليهم السلام محكًّا لذلك التمييز. قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ آل عمران:١٧٩. فأرسله إلى المكلفين وفيهم الطيب والخبيث، فانضاف الطيب إلى الطيب، والخبيث إلى الخبيث، واقتضت حكمته البالغة أن خلطهم في دار الامتحان، فإذا صاروا إلى دار القرار يميز بينهم، وجعل لهؤلاء دارا على حدة، ولهؤلاء دارا على حدة، حكمة بالغة، وقدرة قاهرة.

٥- ومنها أن يظهر كمال قدرته في خلق مثل جبريل والملائكة وإبليس والشياطين، وذلك من أعظم آيات قدرته ومشيئته وسلطانه، فإنه خالق الأضداد كالسماء والأرض، والضياء والظلام، والجنة والنار، والماء والنار، والحر والبرد، والطيب والخبيث.

٦- ومنها أن خلق أحد الضدين من كمال حسن ضده، فإن الضد إنما يظهر حسنه بضده، فلولا القبيح لم تعرف فضيلة الجميل، ولولا الفقر لم يعرف قدر الغنى.

٧- ومنها أنه سبحانه يحب أن يشكر بحقيقة الشكر وأنواعه، ولا ريب أن أولياءه نالوا بوجود عدو الله إبليس وجنوده، وامتحانهم به من أنواع شكره ما لم يكن ليحصل لهم بدونه، فكم بين شكر آدم عليه السلام وهو في الجنة قبل أن يخرج منها، وبين شكره بعد أن ابتلي بعده، ثم اجتباه ربه وتاب عليه وقبله.

٨- ومنها أن المحبة والإنابة والتوكل والصبر والرضاء ونحوها أحب العبودية إلى الله سبحانه، وهذه العبودية إنما تتحقق بالجهاد وبذل النفس لله ﷻ، وتقديم محبته على كل ما سواه، فالجهاد ذروة سنام العبودية، وأحبها إلى الرب سبحانه، فكان في خلق إبليس وحزبه قيام سوق هذه العبودية وتوابعها التي لا يحصى حكمها وفوائدها وما فيها من المصالح إلا الله ﷻ.

٩- ومنها أن في خلق من يضاد رسله، ويكذبهم ويعاديهم من تمام ظهور آياته، وعجائب قدرته، ولطائف صنعه ما وجوده أحب إليه وأنفع لأوليائه من عدمه، كما في ظهور آية الطوفان، والعصا، واليد، وفلق البحر، وإلقاء الخليل في النار، وأضعاف أضعاف ذلك من آياته وبراهين قدرته وعلمه وحكمته، فلم يكن بد من وجود الأسباب التي يترتب عليها ذلك .

١٠- ومنها أن المادة النارية فيها الإحراق والعلو والفساد، وفيها الإشراق والإضاءة والنور، فأخرج منها سبحانه هذا وهذا، كما أن المادة الترابية الأرضية فيها الطيب والخبيث، والسهل والحزن، والأحمر والأسود والأبيض، فأخرج منها ذلك كله حكمة باهرة وقدرة قاهرة وآية دالة على أنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

١١- ومنها أن الله ﷻ من أسمائه المظهرة لأوصاف العلم والقدرة وما يتعلق بها اسمه العليم القادر المقتدر القدير الملك الغني السميع البصير القاهر القهار المولى النصِير الصمد المهيمن العَزِيزُ الجبار الكَبير المتعَال القوي المتين، وكذلك من أسمائه المظهرة لأوصاف

الحكمة وما يتعلق بها اسمه العليم الخبير الحكيم الكريم المنان الشَّاكِر الحسيب الأَكْرم الديان المعْطي الوكيل الولي الحميد الغَفُور الودود الحفيظُ المجيد القريب اللطيف المقيت الرفيق المجيب الطَّيب الرقيب الجواد المحسن الوهاب الحكَم الحق المبين وغيرها كثير، وهذه الأسماء تستدعي وجود متعلقات يظهر فيها أحكامها، ولا بد من ظهور متعلقات هذه وهذه.

١٢- ومنها أنه سبحانه الملك التام الملك، ومن تمام ملكه عموم تصرفه وتنوعه بالثواب والعقاب، والإكرام والإهانة، والعدل والفضل والإعزاز والإذلال، فلا بد من وجود من يتعلق به أحد النوعين، كما أوجد من يتعلق به النوع الآخر.

١٣- ومنها أن من أسمائه الحكيم، والحكمة من صفاته سبحانه وحكمته تستلزم وضع كل شيء موضعه الذي لا يليق به سواه، فاقتضت خلق المتضادات، وتخصيص كل واحد منها لا يليق به غيره من الإحكام والصفات والخصائص، وهل تتم الحكمة إلا بذلك؟ فوجود هذا النوع من تمام الحكمة، كما أنه من كمال القدرة.

١٤- ومنها أن حمده سبحانه تام كامل من جميع الوجوه، فهو محمود على منعه وخفضه وانتقامه وتعذيبه لبعض خلقه بعدله، كما هو محمود على عطائه ورفعه وإكرامه وتنعيمه لبعض خلقه بفضله، فلله الحمد التام الكامل على هذا وهذا، وهو يحمد نفسه على ذلك كله، ويحمده عليه ملائكته ورسله وأوليائه، ويحمده عليه أهل الموقف جميعهم، وما كان من لوازم كمال حمده وتمامه فله في خلقه وإيجاده

الحكمة التامة، كما له عليه الحمد التام، فلا يجوز تعطيل حمده، كما لا يجوز تعطيل حكمته.

١٥- ومنها أنه سبحانه يحب أن يظهر لعباده حلمه وصبره، وأناته وسعة رحمته ووجوده، فاقتضى ذلك خلق من يشرك به ويضاده في حكمه، ويجتهد في مخالفته، ويسعى في مساخطه، بل يتشبه به سبحانه، والله ﷻ مع ذلك يسوق إليه أنواع الطيبات، ويرزقه ويعافيه، ويمكن له من أسباب ما يتلذ به من أصناف النعم، ويجيب دعاءه، ويكشف عنه السوء، ويعامله من بره وإحسانه بضد ما يعامله هو به من كفره وشركه وإساءته، فكم لله ﷻ في ذلك من حكمة وحمد يتحبب به إلى أوليائه، ويتعرف بأنواع كمالاته، كما في صحيح مسلم عَن أَبي موسى ﷺ قال رسول الله ﷺ: (لا أَحد أَصْبر عَلى أَذى يسمعُه من الله ﷻ، إنه يشْركُ به ويجعَل له الولد ثم هو يعَافِيهم ويرزُقهم)[١].

وفي صحيح البخاري عَن أَبي هريرةَ ﷺ عَن النبي ﷺ عن الله ﷻ قال: (كَذبني ابن آدم ولم يكُن له ذلكَ، وشَتمني ولم يكُن له ذلكَ، فَأَما تكْذيبه إِياي فَقوله: لن يعِيدني كَما بدأَني، وليس أَول الخَلق بأَهون عَلي من إِعَادته. وأَما شَتمه إِياي فَقوله: اتخَذ الله ولدا. وأَنا الأَحد الصَّمد، لم أَلد ولم أُولد، ولم يكُن لي كُفُئًا أَحد)[٢].

---

(١) رواه البخاري في الأدب، باب الصبر على الأذى ٥/٢٢٦٢ (٥٧٤٨)، ومسلم في صفة القيامة، باب لا أحد أصبر على أذى من الله ﷻ ٤/٢١٦٠ (٢٨٠٤).

(٢) البخاري في التفسير، باب تفسير قوله قل هو الله أحد ٤/١٩٠٣ (٤٦٩٠).

وهو سبحانه مع هذا الشتم له والتكذيب يرزق الشاتم المكذب، ويعافيه ويدفع عنه، ويدعوه إلى جنته، ويقبل توبته إذا تاب إليه، ويبدله بسيآته حسنات، ويلطف به في جميع أحواله، ويؤهله لإرسال رسله، ويأمرهم بأن يلينوا له القول، وأن يرفقوا به.

وفي صحيح مسلم عَن أَبي هريرةَ ﷺ قال رسول الله ﷺ: (والذي نفْسي بيده، لو لم تذنبوا لذهب الله بكُم، ولجاءَ بقوم يذنبون فَيستغْفِرون الله فَيغْفِر لهم)[1]. فهو سبحانه لكمال محبته لأسمائه وصفاته اقتضى حمده وحكمته أن يخلق خلقا يظهر فيهم أحكامها وآثارها، فلمحبته للعفو خلق من يحسن العفو عنه، ولمحبته للمغفرة خلق من يغفر له، ويحلم عنه، ويصبر عليه ولا يعاجله، بل يكون يحب أمانه وإمهاله، ولمحبته لعدله وحكمته خلق من يظهر فيهم عدله وحكمته، ولمحبته للجود والإحسان والبر خلق من يعامله بالإساءة والعصيان، وهو سبحانه يعامله بالمغفرة والإحسان، فلولا خلق من يجري على أيديهم أنواع المعاصي والمخالفات لفاتت هذه الحكم والمصالح، وأضعافها وأضعاف أضعافها، فتبارك الله رب العالمين، وأحكم الحاكمين، ذو الحكمة البالغة والنعم السابغة، الذي وصلت حكمته إلى حيث وصلت قدرته، وله في كل شيء حكمة باهرة، كما أن له فيه قدرة قاهرة، وهدايات مبهرة.

وعقول البشر أعجز وأضعف وأقصر من أن تحيط بكمال حكمته في شيء من خلقه، فكم حصل بسبب الشيطان، هذا المخلوق البغيض للرب، المسخوط له، كم حصل من محبوب له تبارك وتعالى. والحكيم

---

(١) مسلم في التوبة، باب سقوط الذنوب بالاستغفار توبة ٤/٢١٠٦ (٢٧٤٩).

البالغ الحكمة هو الذي يحصل أحب الأمرين إليه باحتمال المكروه الذي يبغضه ويسخطه إذا كان طريقا إلى حصول ذلك المحبوب، ووجود الملزوم بدون لازمه محال، فإن يكن قد حصل بعدو الله إبليس من السرور والمعاصي ما حصل، فكم حصل بسبب وجوده ووجود جنوده من طاعة هي أحب إلى الله ﷻ وأرضى له، من جهاد في سبيله، ومخالفة هوى النفس وشهوتها طاعة لله ﷻ، ويحتمل المؤمن المشاق والمكاره في محبته ومرضاته، وأحب شيء للحبيب أن يرى محبه يتحمل لأجله من الأذى ما يصدق محبته، فان أغضب الشيطان ربه فقد أرضاه في المقابل أنبياؤه ورسله وأولياؤه، وذلك الرضاء أعظم من ذلك الغضب، وإن أسخطه ما يجري على يد الشيطان من المعاصي والمخالفات، فإنه سبحانه أشد فرحا بتوبة عبده من الفاقد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه إذا وجدها في المفاوز المهلكات، كما ورد فيما رواه مسلم عَن أَبي هريرةَ رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: (لله أَشَد فَرحا بتوبةِ أَحدكُم من أَحدكُم بضَالته إِذا وجدها)[1].

وإن كان الله ﷻ قد أغضبه ما جرى على أنبيائه ورسله من هذا العدو إبليس، فقد سره وأرضاه ما جرى على أيديهم من حربة ومعصيته ومراغمته وكبته وغيظه، وهذا الرضاء أعظم عنده سبحانه، وأبر لديه من فوات ذلك المكروه المستلزم لفوات هذا المرضي المحبوب، وأن أسخطه أكل آدم عليه السلام من الشجرة، فقد أرضاه توبته وإنابته وخضوعه وتذلله بين يديه وانكساره له، وإن أغضبه إخراج

---

(١) مسلم في التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها ٤/٢١٠٢ (٢٦٧٥).

أعدائه لرسوله ﷺ من حرمه وبلدته ذلك لخروج، فقد أرضاه أعظم الرضاء دخوله إليها ذلك الدخول.

والرب تعالى له الحمد كله بجميع وجوهه، واعتباراته وتصاريفه، فما خلق شيئا، ولا حكم بشيء إلا وله فيه الحمد، فوصل حمده إلى حيث وصل خلقه وأمره، حمدا حقيقيا يتضمن محبته، والرضا به، وعنه والثناء عليه، والإقرار بحكمته البالغة في كل ما خلقه ﷻ وأمر به، فكما أنه لا يكون إلا حميدا، فلا يكون إلا حكيما، فحمده وحكمته كعلمه وقدرته، وحياته من لوازم ذاته، ولا يجوز تعطيل شيء من صفاته وأسمائه عن مقتضياتها وآثارها، فإن ذلك يستلزم النقص الذي يناقض كماله وكبريائه وعظمته [(١)].

- **الاختيار بين الملك المعبود بحق والطاغوت المعبود بظلم.**

لقد أدرك العدو إبليس أن إيمان الإنسان باستواء الله ﷻ على عرشه، فيه إقرار بتوحيد الله في ربوبيته وأسمائه وصفاته، وفيه أيضا دلالة على الإقرار بأن الله ﷻ هو الملك العظيم الذي له الخلق والأمر المطلق في مملكته سواء، كان أمرا كونيا، أو كان أمرا شرعيا، ولما كانت غاية إبليس عند نزوله إلى الأرض هي إغواء بني آدم في أن يشركوا بالله ﷻ في أسمائه وصفاته وربوبيته وعبوديته، وأن يكفروا بأوامره وقضائه وقدره، وأن يطيعوا أمر الشيطان في معصيته، فإنه لما نزل إلى الأرض نصب لنفسه عرشا على الماء، ليتشبه باستواء الله ﷻ على عرشه في

(١) شفاء العليل لابن القيم ص٢٣٦ إلى ص٢٤٠ بتصرف.

السماء، ويصبح الشيطان هو الطاغوت المعظم والملك الأعظم لأتباعه وحزبه، فيوجه سراياه منقادين لأمره ووعده، ويتابعهم ويسألهم عن عملهم كل يوم بنفسه. فالشيطان رأس الطواغيت شبه نفسه في استوائه على عرشه باستواء الله على عرشه، وكل طاغوت من الناس في الأرض من ملوك ظلمة، أو أمراء كفرة، هم من جنود إبليس وحزبه، يتشبهون به في قوله وفعله، وظلمه وبغيه ومحاربته لأولياء الله ﷻ في أرضه، وحبهم للبقاء على عروشهم، فتجدهم يرغبون أن يعمروا في الأرض بطغيانهم وظلمهم أبد الآبدين، وأن يمكثوا إلى يوم يبعثون كما تمنى الشيطان وطلب ذلك من رب العالمين، فقال: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝٧٩﴾ ص:٧٩.

وتجدهم يبالغون في الحفاظ على عروشهم، ويجعلون قصورهم في الأماكن المرتفعة على الماء، وما ذلك إلا ليوقعهم الشيطان في التشبيه والاستكبار وعبودية الأهواء، والشرك بالملك الذي انفرد بالاستواء على العرش في السماء، وليفتخر كل منهم بأنه صاحب العرش والسلطنة، والقوة والهيمنة الملك المعظم في بلده، فهذا فرعون طاغوت من جنود الشيطان وحزبه، نادى في قومه فقال: ﴿يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٥١﴾ الزخرف:٥١.

روى مسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (إن إبليس يضَعُ عَرشَه عَلى الماءِ، ثم يبعَث سراياه، فَأَدناهم منه منزِلةً أَعْظَمهم فِتنةً، يجيءُ أَحدهم فيَقول: فَعَلت كَذا وكَذا، فيَقول: ما

صَنعْت شَيْئًا قال: ثم يجيءُ أَحدهم فيَقول: ما تركْته حتى فَرقت بينه وبين امرأته، قال: فَيدنيه منه ويقول: نعْم أَنت)[(١)].

وفي قصة ابن صياد وكان كاهنا في المدينة يأتيه الشياطين، روى مسلم من حديث أَبي سعيد الخدري ﷺ قال: (لقيه رسول الله ﷺ وأَبو بكْر وعمر فِي بعضِ طرق المدينةِ، فَقال له رسول الله ﷺ: أَتشهد أَني رسول الله؟ فَقال هو: أَتشهد أَني رسول الله؟ فَقال رسول الله ﷺ: آمنت بالله وملائِكَته وكُتبه، ما ترى؟ قال: أَرى عرشا على الماءِ؟ فَقال رسول الله ﷺ: ترى عرش إِبليس على البحر، وما ترى؟ قال: أَرى صادقين وكَاذبا، أَو كَاذبين وصادقا، فَقال رسول الله ﷺ: لُبِسَ عليه، دَعُوه)[(٢)].

والنصوص ظاهرة في أن الشيطان يضع عرشه على الماء، وأن أتباعه وحزبه من الطواغيت أمثاله يتشبهون بفعله وقوله، وهذا من تمردهم وطغيانهم، واغترارا بالشيطان الذي اغتر بنفسه أن له عرشا على هيئة عرش الرحمن، وكثيرا ما يغتر بعض السالكين الجاهلين فيظهر لهم الشيطان على أنه هو الله فيفتنه عن دينه، ويبيح له ما حرم الله ﷻ، كما وقع لبعض الصوفية، وكما وقع في قصة ابن صياد التي تقدم ذكرها. ثم يبعث الشيطان سراياه، ويرسل السرية وهي قطعة من الجيش أو طائفة من الجيش يبلغ أقصاها أربعمائة، توجه نحو العدو لتنال منه، وسموا بذلك لأنهم يكونون خلاصة العسكر وخيارهم، ولأنهم يبعثون سرا

---

(١) مسلم في صفة القيامة، باب تحريش الشيطان ٤/٢١٦٧ (٢٨١٣).

(٢) مسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر ابن صياد ٤/٢٢٤١ (٢٩٢٥).

لفتنة الناس، وإضلالهم وتزيين المعاصي إليهم حتى يقعوا فيها، فأدناهم وأحبهم وأقربهم من إبليس منزلة أعظمهم فتنة، وأكبرهم إضلالا وأشدهم إيقاعا للبلاء على بني آدم.

وواجب على كل مسلم عاقل أن يتنبه إلى هذا الطاغوت الأكبر وفتنه، فيستعيذ بالله ﷻ منها، ويراقب قلبه وخواطره، ويزنها بميزان الشريعة، وتوحيد الطاعة لله ﷻ وحده، فإن إبليس وضع عرشه على الماء لما علم أن عرش الرحمن على الماء، فلبس على ابن صياد، ولبس على غيره من الزهاد والعباد، ولبس عن السحرة والكهنة فآمنوا بالجبت والطاغوت وهو الشيطان، وهذا غاية نظر الشيطان وخواطره المنصوبة على قلب الإنسان، أن يقع في الشرك والظلم والطغيان، فيخيل للإنسان ما يشاء من شبهاته وتلبيسه، ليثبت الكافر منهم على كفره، ويرجع المؤمن عن إيمانه.

وكل من ابتلاه الله ﷻ بالملك، لابد له أن يوحد ملك الملوك في استوائه على عرشه، فيثبت ما أثبته الله ﷻ لنفسه، وذلك هو مقتضى توحيد الربوبية والأسماء والصفات، ثم ينفذ أمر الله التكليفي الشرعي في مملكته، ويحكم بالعدل في رعيته، وذلك مقتضى توحيد العبودية والحاكمية. ومقتضى توحيد الربوبية والأسماء والصفات، فالدنيا ملكها محدود زائل، والله ﷻ هو الذي يهب الملك على سبيل الأمانة والاستخلاف، فهو الذي يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، فإن أعرضوا عن ربهم وأصبحوا من حزب الشيطان فعرشهم لا محالة سيزول وعلو الله ﷻ باق لا يزول.

قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ التوبة:١٢٩. وصف الله عرشه بالعظمة في مقابل تولي الخلق وكفرهم، لأن عرشه لا يماثله شيء من عروش الطواغيت في الدنيا. لقد أصبح بنو آدم مخيرين بين طاعة الملك الإله بحق المعبود بحق، والطاغوت الشيطان المعبود بظلم، مخيرين في الطاعة بين الملك العلي العظيم الرحمن الذي استوى على عرشه في السماء، وطاعة الطاغوت الأعظم والشيطان الأكبر الذي وضع لنفسه عرشا على الماء. قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ البقرة:٢٥٦/٢٥٧.

والطاغوت في هذه الآية هو الشيطان الذي يعبد من دون الله ﷻ. وهذا تفسير أغلب الصحابة رضي الله عنهم كعمر بن الخطاب، وابن عباس، وسعيد بن جبير، والحسن، وغيرهم كثير. وكذلك كان هذا تفسير علماء السلف الصالح كالشعبي، وعكرمة، والضحاك، وعطاء، والسدي وغيرهم كثير وكثير[1].

ويصدق على معنى الطاغوت أيضا كل من استعان به الشيطان من الوسائل التي تحقق مراده، وتؤدي إلى الوقوع في الشرك بالله

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٥١٣/١، وتفسير ابن أبي حاتم ٤٩٥/٢، ومعاني القرآن للنحاس ٢٦٨/١، نشر جامعة أم القرى مكة المكرمة.

كالأصنام والأوثان والأضرحة وأولياء الشيطان، أو الوسائل التي تؤدي إلى الكفر كالجبت والسحر والكهانة والعرافة والتمائم والتولة والطرْق العيافة، وغير ذلك ممن يتخذهم الشيطان حزبا له، ينفذون مراده في حربه المستمرة ضد أولياء الله.

قال تعالى عن اليهود الذين أعانوا المشركين والمنافقين وكفار قريش على حزب الله ﷻ وحزب رسوله ﷺ، وكان يدعون الكافرين إلى اتباع الطاغوت وحزب الشيطان: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾ النساء:٥١. وقد بين الله ﷻ أن أولياء الطاغوت هم أولياء الشيطان، فقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ النساء:٧٦. روى أحمد وحسنه الألباني عن أَبي سعيد الخُدري ﵁ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إِن إبليس قال لربه: بعزَّتك وجلالكَ لا أَبرح أُغْوي بني آدم ما دامت الأَرواح فِيهم، فَقال الله: فَبعزَّتي وجلالي لا أَبرح أَغْفِر لهم ما استغْفَروني)[1].

وقال الإمام مسلم: باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفِتنةِ الناس، وأَن مع كُل إِنسان قرينا، ثم روى من حديث جابر ﵁ قال سمعت النبي ﷺ يقول: (إِن الشيطان قد أَيس أَن يعبده المصلون فِي جزِيرةِ

(١) رواه أحمد في المسند ٢٩/٣، وأخرجه الطبراني في المعجم الأوسط ٣٣٣/٨ (٨٧٨٨) وحسنه شعيب الأرنؤوط.

العرب ولكن في التحريش بينهم)[١].

وقد أرسل الله في كل أمة رسولا يذكرها بتلك الحقيقة، وهي توحيد العبادة لله ﷻ ونبذ الشرك واجتناب الطاغوت وعبودية الشيطان فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦)﴾ النحل:٣٦.

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧)﴾ الزمر:١٧.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا (٥٠)﴾ الكهف:٥٠.

• **أنواع شر الشيطان ستة أجناس لا يزال موسوسا حتى يناالها.**

الشيطان لا يزال ينظم أموره وأمور أتباعه بدقة شديدة، ويضع الخطط والمكائد العديدة، بصبر طويل حتى يصل إلى مآربه في إضلال بني آدم، ويحاول ابن القيم أن يحصر شر الشيطان ومكائده للإنسان في ستة أجناس، لا يزال موسوسا بها حتى ينالها، فبين رحمه الله أنواعها على النحو التالي:

١- الشر الأول: شر الكفر والشرك ومعاداة الله ورسوله ﷺ، فإذا

---

(١) مسلم في صفة القيامة ، باب تحريش الشيطان ٤/٢١٦٦ (٢٨١٢).

ظفر بذلك من ابن آدم برد أنينه، واستراح من تعبه معه، وهو أول ما يريد من العبد، فلا يزال به حتى يناله منه، فإذا نال ذلك صيره من جنده وعسكره، واستنابه على أمثاله، فصار من دعاة إبليس ونوابه، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ ﴾ مريم:٤٤/٤١. وقال عن الهدهد: ﴿ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ النمل:٢٤/٢٢.

وقال تعالى: ﴿ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ يس:٦٢/٥٩.

وقال تعالى: ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ الحشر:١٧/١٦.

٢- المرتبة الثانية من الشر إذا يئس منه ولم يتمكن من استدراجه للكفر والشرك ومعاداة الله ورسوله ﷺ نقله إلى البدعة، وهي أحب إليه من الفسوق والمعاصي، لأن ضررها في نفس الدين، وهو ضرر متعد، وهي مخالفة لدعوة الرسل، ودعوة إلى خلاف ما جاءوا به، وهي باب الكفر والشرك، فإذا نال منه البدعة، وجعله من أهلها، بقي أيضا نائبه وداعيا من دعاته.

قال ابن تيمية: (وكثير من الناس يغلط في هذا الموضع فيظن في

شخص أنه ولي لله، ويظن أن ولي الله يقبل منه كل ما يقوله، ويسلم إليه كل ما يقوله، ويسلم إليه كل ما يفعله وإن خالف الكتاب والسنة، فيوافق ذلك الشخص له، ويخالف ما بعث الله به رسوله ﷺ الذي فرض الله على جميع الخلق تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر، وجعله الفارق بين أوليائه وأعدائه، وبين أهل الجنة وأهل النار، وبين السعداء والأشقياء، فمن اتبعه كان من أولياء الله المتقين، وجنده المفلحين، وعباده الصالحين، ومن لم يتبعه كان من أعداء الله الخاسرين المجرمين، فتجره مخالفة الرسول وموافقة ذلك الشخص أولا إلى البدعة والضلال، وآخر إلى الكفر والنفاق، ويكون له نصيب من قول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ الفرقان:٢٧/٢٨. وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ (الأحزاب:٦٦/٦٨)[(١)].

٣- المرتبة الثالثة من الشر وهي الكبائر على اختلاف أنواعها، فهو أشد حرصا على أن يوقعه فيها، ولاسيما إن كان عالما متبوعا، فهو حريص على ذلك لينفر الناس عنه، ثم يشيع من ذنوبه ومعاصيه في الناس، ويستنيب منهم من يشيعها ويذيعها، تدينا وتقربا بزعمه إلى الله عز وجل، وهو نائب إبليس ولا يشعر، فإن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم، هذا إذا أحبوا إشاعتها وإذاعتها، فكيف إذا

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ضمن مجموع الفتاوى ١١/٢١٠.

تولوا هم إشاعتها وإذاعتها، لا نصيحة منهم، ولكن طاعة لإبليس ونيابة عنه، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ٣٢﴾ النجم:٣٢ .

٤- المرتبة الرابعة إن عجز الشيطان عن هذه المرتبة، نقله إلى المرتبة الرابعة وهي الصغائر التي إذا اجتمعت فربما أهلكت صاحبها، كما قال النبي ﷺ: (إِيَاكُم ومحقرات الذنوب، كَقوم نزَلوا فِي بطْن واد، فَجاءَ ذا بعُود، وجاءَ ذا بعُود حتى أَنضَجوا خُبزَتهم، وإِن محقرات الذنوب متى يؤْخَذ بها صَاحبها تهلكْه)(١). ولا يزال يسهل عليه أمر الصغائر حتى يستهين بها، فيكون صاحب الكبيرة الخائف منها أحسن حالا منه.

٥- المرتبة الخامسة فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة، نقله إلى المرتبة الخامسة، وهي إشغاله بالمباحات التي لا ثواب فيها ولا عقاب، بل عاقبتها فوت الثواب الذي ضاع عليه باشتغاله بها.

٦- المرتبة السادسة فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة، وكان حافظا لوقته شحيحا به، يعلم مقدار أنفاسه وانقطاعها وما يقابلها من النعيم والعذاب، نقله إلى المرتبة السادسة، وهو أن يشغله بالعمل المفضول عما هو أفضل منه ليزيح عنه الفضيلة، ويفوته ثواب العمل الفاضل، فيأمره بفعل الخير المفضول، ويحضه عليه ويحسنه له، إذا تضمن ترك ما هو

---

(١) رواه أحمد في المسند ٣٣١/٥ (٢٢٨٦٠)، والطبراني في المعجم الكبير ١٦٥/٦ (٥٨٧٢)، وصححه الشيخ الألباني، وانظر السلسلة الصحيحة (٣٨٩)، وصحيح الترغيب والترهيب (٢٤٧١).

أفضل وأعلى منه، وقل من يتنبه لهذا من الناس، فإنه إذا رأى فيه داعيا قويا، ومحركا إلى نوع من الطاعة، لا يشك أنه طاعة وقربة، فإنه لا يكاد يقول: إن هذا الداعي من الشيطان، فإن الشيطان لا يأمر بخير، ويرى أن هذا خير، فيقول هذا الداعي من الله ﷻ، وهو معذور ولم يصل علمه إلى أن الشيطان يأمر بسبعين بابا من أبواب الخير، إما ليتوصل بها إلى باب واحد من الشر، وإما ليفوت بها خيرا أعظم من تلك السبعين بابا وأجل وأفضل، وهذا لا يتوصل إلى معرفته إلا بنور من الله يقذفه في قلب العبد، يكون سببه تجريد متابعة الرسول ﷺ، وشدة عنايته بمراتب الأعمال عند الله ﷻ، وأحبها إليه، وأرضاها له، وأنفعها للعبد، وأعمها نصيحة لله تعالى ولرسوله ﷺ ولكتابه، ولعباده المؤمنين خاصتهم وعامتهم، ولا يعرف هذا إلا من كان من ورثة الرسول ﷺ، ونوابه في الأمة وخلفائه في الأرض، وأكثر الخلق محجوبون عن ذلك، فلا يخطر بقلوبهم، والله ﷻ يمن بفضله على من يشاء من عباده.

وإن أعجزه العبد من هذه المراتب الست، وأعيا عليه سلط عليه حزبه من الإنس والجن بأنواع الأذى والتكفير والتضليل والتبديع والتحذير منه، وقصد إهماله وإطفائه ليشوش عليه قلبه، ويشغل بحربه فكره، وليمنع الناس من الانتفاع به، فيبقى سعيه في تسليط المبطلين من شياطين الإنس والجن عليه، ولا يفتر ولا يني، فحينئذ يلبس المؤمن لامة الحرب، ولا يضعها عنه إلى الموت، ومتى وضعها أسر أو أصيب، فلا يزال في جهاد حتى يلقى الله ﷻ[(١)].

---

(١) بدائع الفوائد لابن القيم ٢/٤٨٣: ٤٨٥ بتصرف.

- **فضل الله على الإنسان في حمايته من كيد الشيطان.**

ليس كل ما جعله الله للإنسان ليحميه من كيد الشيطان أنه كلف ملكا قرينا يهتف له بالإيمان، في مقابل هتاف الشيطان بالعصيان، ولكن الله ﷻ حفظ الإنسان وعدل له الميزان، وأمنه في مقابل حقد الشيطان، بأمور أخرى جاء نصها في القرآن، وكذلك وردت في سنة رسول الله ﷺ:

١- منها أن الله فتح باب التوبة للإنسان مهما بلغ به كيد الشيطان ما لم تغرغر النفس، أو تطلع الشمس من مغربها، فروى مسلم عَن أَبي هريرةَ ؓ قال رسول الله ﷺ: (من تاب قبل أَن تطْلعَ الشَّمس من مغْربها تاب الله عَليه) [(١)]. وعنده عَن أَبي موسى ؓ عَن النبي ﷺ قال: (إِن الله ﷻ يبسطُ يده بالليل ليتوب مسيءُ النهار، ويبسطُ يده بالنهار ليتوب مسيءُ الليل، حتى تطْلعَ الشَّمس من مغْربها) [(٢)].

وروى الترمذي وحسنه الألباني عَن ابن عُمر ؓ عَن النبي ﷺ قال: (إِن الله يقبل توبةَ العَبد ما لم يغَرغِر) [(٣)].

ولو اتبع الإنسان الشيطان وتمادى فى الجرم والعصيان، فقتل مائة نفس، وأراد التوبة تاب الله عليه، فروى البخاري عَن أَبي سعِيد الخُدري

---

(١) مسلم في الذكر، باب استحباب الاستغفار ٢٠٧٦/٤ (٢٧٠٣) .

(٢) مسلم في التوبة، باب قبول التوبة ٢١١٣/٤ (٢٧٥٩) .

(٣) رواه الترمذي في الدعوات، باب في فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله لعباده ٥٤٧/٥ (٣٥٣٧)، وأحمد في المسند ١٣٢/٢ (٦١٦٠)، وحسنه الألباني، انظر صحيح الترغيب والترهيب (٣١٤٣)، وصحيح الجامع (١٩٠٣).

ﷺ عَن النبي ﷺ قال: (كَان فِي بني إسرائِيل رجل قتل تسعَة وتسعِين إنسانا، ثم خَرج يسأَل، فَأَتى راهبا فَسأَله فقال له: هل من توبةٍ؟ قال لا ،فقتله فَجعَل يسأَل فَقال له رجل: ائْت قرية كَذا وكَذا ،فَأَدركَه الموت، فَناءَ بصَدره نحوها، فَاختْصَمت فِيه ملائِكَةُ الرحمةِ وملائِكَةُ العَذاب، فَأَوحى الله إِلى هذه أَن تقربي، وأَوحى الله إِلى هذه أَن تباعَدي، وقال: قيسوا ما بينهما، فَوجد إِلى هذه أَقرب بشِبر فَغُفِر له) [(١)].

ولو تكرر العصيان وتكررت التوبة تاب الله ﷻ عليه، فعند البخاري ومسلم عن أبي هريرة ﷺ أنه سمع النبي ﷺ قال: (إِن عَبدا أَصَاب ذنبا، وربما قال أَذنب ذنبا، فَقال: رب أَذنبت، وربما قال: أَصَبت فَاغفِر لي، فَقال ربه: أَعَلم عَبدي أَن له ربا يغْفِر الذنب ويأْخُذ به، غفَرت لعَبدي، ثم مكَث ما شاءَ الله، ثم أَصَاب ذنبا، أَو أَذنب ذنبا، فَقال: رب أَذنبت، أَو أَصَبت آخرَ فَاغفِره، فَقال: أَعَلم عَبدي أَن له ربا يغْفِر الذنب ويأْخُذ به، غفَرت لعَبدي، ثم مكَث ما شاءَ الله، ثم أَذنب ذنبا، وربما قال: أَصَاب ذنبا، قال: رب أَصَبت، أَو قال: أَذنبت آخرَ، فَاغفِره لي، فَقال: أَعَلم عَبدي أَن له ربا يغْفِر الذنب ويأْخُذ به، غفَرت لعَبدي ثلاثا، فَليعْمل ما شَاءَ) [(٢)].

٢- أن الله سيبدل للتائبين عدد ما فات من السيئات بنفس أعداها

---

(١) البخاري في الأنبياء، باب أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم ٣/١٢٨٠ (٣٢٨٣)، ومسلم في التوبة، باب قبول توبة القاتل ٤/٢١١٨ (٢٧٦٦).

(٢) رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: يريدون أن يبدلوا كلام الله ٦/٢٧٢٥ (٧٠٦٨)، ومسلم في كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة ٤/٢١١٢ (٢٧٥٨).

حسنات، قال تعالى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٧٠ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ۝٧١ ﴾ الفرقان:٦٨/٧١.

وروى مسلم من حديث ابن عَباس ﷺ أَن ناسا من أَهل الشِّركِ قتلوا فأَكْثروا، وزَنوا فأَكثروا، ثم أَتوا محمدا ﷺ فقالوا: إِن الذي تقول وتدعُو لحسن، ولو تخْبرنا أَن لما عَملنا كَفَّارةً، فنزَل: والذين لا يدعُون معَ الله إلها آخَرَ ولا يقتلون النفْس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزْنون ومن يفْعَل ذلكَ يلق أَثاما. ونزَل: يا عِبادي الذين أَسرفُوا عَلى أَنفسهم لا تقنطُوا من رحمةِ الله(١).

وفي رواية النسائي وهي صحيحة عَن ابن عَباس ﷺ أَن قوما كَانوا قتلوا فأَكثروا، وزَنوا فأَكْثروا، وانتهكُوا، فَأَتوا النبي ﷺ قالوا: يا محمد إِن الذي تقول وتدعُو إِليه لحسن، لو تخْبرنا أَن لما عَملنا كَفَّارةً، فأَنزَل الله عَزَّ وجل والذين لا يدعُون معَ الله إلها آخَرَ إلى فَأُولئِكَ يبدل الله سيئَاتهم حسنات، قال: يبدل الله شِركهم إِيمانا، وزِناهم إِحصَانا، ونزَلَت قل يا عِبادي الذين أَسرفُوا عَلى أَنفسهم الآيةَ (٢).

٣- أنه تعالى سيعامل المؤمنين بفضله والكافرين بعدله، والعدل أن يستوى العمل مع الجزاء، والفضل أن يزد على العمل، فعند البخاري عَن أَبي هريرةَ ﷺ قال رسول الله ﷺ: (إِذا أَحسن أَحدكُم إِسلامه، فكُل

(١) مسلم في الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما قبله ١/١١٣ (١٢٢) .
(٢) رواه النسائي في تحريم الدم، باب تعظيم الدم ٢/٢٨٧ (٣٤٦٦).

حسنةٍ يعْملها تكْتب له بعَشْر أَمثالها إِلى سبعِ مائةِ ضِعْفٍ، وكُل سيئةٍ يعْملها تكْتب له بمثلها)(١).

وعنه أيضا أَن رسول الله ﷺ قال: (الصِّيام جنةٌ، فَلا يرفُث ولا يجهل، وإِن امرؤٌ قاتله أَو شَاتمه، فَليقل: إِني صَائِم مرتين، والذي نفْسي بيده لَخُلوفُ فَم الصَّائِم أَطْيب عِند الله تعَالى من ريح المسكِ، يترك طَعَامه وشَرابه وشَهوته من أَجلي، الصِّيام لي وأَنا أَجزِي به، والحسنةُ بعَشْر أَمثالها)(٢). وروى البخاري أيضا عن عَائِشَةَ رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: (سددوا وقاربوا وأَبشِروا، فَإِنه لا يدخِل أَحدا الجنةَ عَمله، قالوا: ولا أَنت يا رسول الله؟ قال: ولا أَنا، إِلا أَن يتغَمدني الله بمغْفِرةٍ ورحمةٍ)(٣).

٤– أن الله سيفرح بتوبة الإنسان فرحا شديدا ترغيبا له في التوبة، فإن المذنب مخطئ في جناب الله ﷻ، وعظم الذنب يقاس بعظمة من أخطأ فى حقه، فلو قبل الله ﷻ توبة المذنب، مجرد القبول فقط، لكان كرم الله ﷻ عليه بالغا، فما بالنا وهو يقبل توبة المذنب بعفو جديد وفرح شديد، كما روى مسلم من حديث أَبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (لله

---

(١) رواه البخاري في الإيمان، باب حسن إسلام المرء ١/٢٤ (٤٢)، ومسلم في الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة كتبت ١/١١٧ (١٢٩).

(٢) رواه البخاري في كتاب الصوم، باب فضل الصوم ٢/٦٧٠ (١٧٩٥)، ومسلم في كتاب الصيام، باب فضل الصيام ٢/٨٠٧ (١١٥١).

(٣) رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل ٥/٢٣٧٣ (٦١٠٢)، ومسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى ٤/٢١٧١ (٢٨١٨).

أَشَد فَرِحا بتوبةِ أَحدكُم من أَحدكُم بضَالته إِذا وجدها)[١].

وعند مسلم من حديث أَبي هريرةَ ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (إِذا قرأَ ابن آدم السجدةَ فَسجد، اعتْزَلَ الشَّيطَان يبكِي يقول: يا ويله.. وفِي روايةِ: يا ويلي، أُمر ابن آدم بالسجود فَسجد فَله الجنةُ، وأُمرت بالسجود فأَبيت فلي النار)[٢].

٥- أن الله تكفل بإيقاف الشيطان من الوسواس عند الاستعاذة والذكر، وهذه أقوى أسلحة الإنسان التي تخنس الشيطان، فقال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٣٦﴾ فصلت:٣٦. وقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ۝٢٠١﴾ الأعراف:٢٠١.

وقال أيضا: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾ الناس:١/٦.

٦- أن الله وعد الإنسان ألا يعذبه إلا إذا بعث له رسولا يذكره بالشيطان وعداوته للإنسان: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ۝٩ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠﴾ الملك:٨/١٠.

---

(١) رواه مسلم في التوبة، باب فى الحض على التوبة ٤/٢١٠٢ (٢٦٧٥).

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة ١/٨٧ (٨١).

وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾ ﴾ طه:١٣٤/١٣٥ .

وقال: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾ النساء:١٦٥ .

ولو فرض أن إنسانا انقطعت به أسباب العلم بالشيطان وحقيقته، ولم يعلم بشريعة الله في أرضه وأمانته، ولم يسمع عن الإسلام ورسالته، فإنه معذور عند الله بجهالته لاجتماع الأدلة على ذلك.

- **أثر المعصية والطاعة على خواطر الملك والشيطان.**

ذكر ابن القيم رحمه الله أن عقوبات الذنوب تباعد عن العبد وليه، وأنصح الخلق له، وأنفعهم له، ومَن سعادته في قربه منه، وهو الملك الموكل به. وتدنى منه عدوه، وأغش الخلق له، وأعظمهم ضررا له، وهو الشيطان، فان العبد إذا عصى الله ﷻ تباعد منه الملك بقدر تلك المعصية، حتى إنه يتباعد منه بالكذبة الواحدة مسافة بعيدة [(١)].

وقال بعض السلف: إذا أصبح ابن آدم ابتدره الملك والشيطان، فان ذكر الله ﷻ وكبره، وحمده وهلله، طرد الملك الشيطان وتولاه، وإن افتتح بغير ذلك، ذهب الملك عنه وتولاه الشيطان، ولا يزال الملك يقرب من العبد حتى يصير الحكم والطاعة والغلبة له، فتتولاه الملائكة في حياته وعند موته وعند مبعثه.

---

(١) الجواب الكافي لابن القيم ص٧٤ بتصرف.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾﴾ فصلت: ٣٠/٣١.

وإذا تولاه الملك تولاه أنصح الخلق له، وأنفعهم وأبرهم له، فثبّته وعلمه وقوى جنانه وأيده. قال تعالى: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾ الأنفال: ١٢ .

ويقول الملك عند الموت: لا تخف ولا تحزن، وأبشر بالذي يسرك، ويثبته بالقول الثابت، وهو أحوج ما يكون إليه في الحياة الدنيا وعند الموت، وفي القبر عند المسألة، فليس أحد أنفع للعبد من صحبة الملك له، وهو وليه في يقظته ومنامه، وحياته وعند موته، وفي قبره، ومؤنسه في وحشته، وصاحبه في خلوته، ومحدثه في سره، ويحارب عنه عدوه، ويدافع عنه، ويعينه عليه، ويعده بالخير ويبشره به، ويحثه على التصديق بالوعد والحق. وإذا اشتد قرب الملك من العبد تكلم على لسانه، وألقى على لسانه القول السديد. وإذا بعد منه وقرب الشيطان من العبد، تكلم على لسانه بقول الزور والفحش، حتى يرى الرجل يتكلم على لسان الملك، والرجل يتكلم على لسان الشيطان.

وفي المسند عَن وهب السوائِي قال: خَطَبنا عَلي رضي الله عنه فَقَال: (من خير هذه الأُمةِ بعْد نبيها، فَقلت: أَنت يا أَمير المؤْمنين، قال: لا، خَير هذه الأُمةِ بعْد نبيها أَبو بكْر، ثم عُمر رضي الله عنه، وما نبعِد أَن السكِينةَ تنطِق عَلى

لسان عُمر ﷺ)[1].

وكان أحدهم يسمع الكلمة الصالحة من الرجل الصالح فيقول: ما ألقاها على لسانك إلا الملك، ويسمع ضدها فيقول: ما ألقاها على لسانك إلا الشيطان. فالملك يلقى في القلب الحق، ويلقيه على اللسان، والشيطان يلقي الباطل في القلب، ويجريه على اللسان، فمن عقوبة المعاصي أنها تبعد من العبد وليه، الذي سعادته في قربه ومجاورته وموالاته، وتدني منه عدوه الذي شقاءه وهلاكه وفساده في قربه وموالاته، حتى أن الملك لينافح عن العبد، ويرد عنه إذا سفه عليه السفيه وسبه. روى أبو داود من حديث المسيب ﷺ أنه قال: (بينما رسول الله ﷺ جالس ومعَه أَصْحابه، وقعَ رجل بأَبي بكْر فآذاه، فَصَمت عَنه أَبو بكْر، ثم آذاه الثانيةَ، فَصَمت عَنه أَبو بكْر، ثم آذاه الثالثةَ، فَانتصَر منه أَبو بكْر، فقَام رسول الله حين انتصَر أَبو بكْر. فَقال أَبو بكْر: أَوَجدت عَلَي يا رسول الله؟ فَقال رسول الله ﷺ: نزَل ملكٌ من السماءِ يكَذبه بما قال لكَ، فَلما انتصَرت وقعَ الشَّيطَان، فَلم أَكُن لأَجلس إِذ وقعَ الشَّيطَان)[2].

وإذا دعا العبد المسلم في ظهر الغيب لأخيه، أمن الملك على دعائه فإذا أذنب العبد الموحد المتبع سبيل رسوله ﷺ، استغفر له حملة العرش ومن حوله. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ

(١) رواه أحمد في المسند ١/١٠٦ (٨٣٤)، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده قوي.

(٢) رواه أبو داود في كتاب الأدب، باب فى الانتصار ٤/٢٧٤ (٤٨٩٦) وحسنه الألباني، وانظر السلسلة الصحيحة (٢٣٧٦).

﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾﴾ غافر:٧.

وأعلم أن ورود الخاطر لا يضر، وإنما يضر استدعاؤه ومحادثته، فالخاطر كالمار على الطريق، فإن لم تستدعه وتتركه مر وانصرف عنك، وإن استدعيته سحرك بحديثه وخِدَعِهِ وغروره، وهو أخف شيء على النفس الفارغة بالباطلة، وأثقل شيء على القلب والنفس الشريفة المطمئنة. وقد ركب الله سبحانه في الإنسان نفسين نفسا أمارة، ونفسا مطمئنة وهما متعاديتان، فكلما خف على هذه، ثقل على تلك، وكلما التذت به هذه تألمت به الأخرى، فليس على النفس الأمارة أشق من العمل لله ﷻ، وإيثار رضاه على هواها، وليس لها أنفع منه، وكذا ليس على النفس المطمئنة أشق من العمل لغير الله ﷻ، وإجابة داعي الهوى، وليس عليها شيء أضر منه.

والملك مع هذه عن يمين القلب، والشيطان مع تلك عن ميسرة القلب، والحروب مستمرة، لا تضع أوزارها إلا أن تستوفي أجلها من الدنيا، والباطل كله يتحيز مع الشيطان والإمارة، والحق كله يتحيز مع الملك والمطمئنة، والحرب دول وسجال، والنصر مع الصبر، ومن صبر وصابر ورابط واتقى الله ﷻ، فله العافية في الدنيا والآخرة.

وقد حكم الله تعالى حكما لا يبدل أبدا أن العاقبة للتقوى، والعاقبة للمتقين، فالقلب لوح فارغ، والخواطر نقوش تنقش فيه، فكيف يليق بالعاقل أن يكون نقوش لوحه ما بين كذب وغرور، وخداع وأماني باطلة، وسراب لا حقيقة له، فأي حكمة وعلم وهدى ينتقش مع

هذه النقوش، وإذا أراد أن ينتقش ذلك في لوح قلبه كان بمنزلة كتابة العلم النافع في محل مشغول بكتابة مالا منفعة فيه، فإن لم يفرغ القلب من الخواطر الردية، لم يستقر فيه الخواطر النافعة، فإنها لا تستقر إلا في محل فارغ.

- **بيان مداخل الشيطان إلى القلب والحذر منها**.

جعل الشيطان لأتباعه سبلا كثيرة يدخلون منها إلى قلبه، وهي طرق كثيرة محددة، متنوعة وغامضة، قد تصل إلى أن يخدع بها العلماء والعباد، المالكين لشهواتهم، الكافين عن المعاصي الظاهرة، فيأتيهم في أمر هين وربما يظن صاحبه أنه خير، فيحسن ذلك في قلبه بخفي الهوى فيقدم عليه كالراغب في الخير، فيخرج الأمر بعد ذلك عن اختياره، ويجره البعض إلى البعض بحيث لا يجد محيصا حتى يقع في الحرام، والسبب الأساسي أن القلب وقع في شباك الشيطان وطرقه وحيله وخداعه. روى البخاري من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (الحَلال بيِّنٌ، وَالحَرَامُ بيِّنٌ، وَبيْنَهُمَا مُشبهَاتٌ لا يَعْلمُهَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاس فَمَنْ اتَّقى المُشبَهَاتِ استَبرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وقعَ فِي الشُّبهَاتِ، كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ، أَلا وَإِنَّ لِكُل مَلكٍ حِمىً، أَلا إِنَّ حِمَى اللهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ، أَلا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً، إذا صَلحَتْ صَلحَ الجَسَدُ كُلهُ، وَإِذا فَسَدَتْ فَسدَ الجَسدُ كُلهُ، أَلا وَهِيَ القَلب) (١).

---

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه ١/ ٢٨ (٥٢)، ومسلم في كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات ٣/ ١٢١٩ (١٥٩٩).

روى الإمام أحمد من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ أنه قال: (خَطَّ لنَا رَسُول اللهِ ﷺ يَوْماً خَطًّا ثمَّ قَال: هَذا سَبِيل اللهِ. ثمَّ خَطَّ خُطُوطاً عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالهِ ثمَّ قَال : هَذهِ سُبُل، عَلى كُل سَبِيل مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِليْه. ثمَّ تَلاَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٥٣﴾ الأنعام:١٥٣) [١].

لقد بين النبي ﷺ أن طرق الشيطان كثيرة وأن مثال القلب كحصن له سور وأبواب، والشيطان عدو يريد أن يدخل الحصن، فيملكه ويستولى عليه، ولا يقدر على حفظ الحصن من العدو إلا بحراسة أبواب الحصن ومداخله، فحماية القلب عن وسواس الشيطان واجبة حتى لا يقع في الحرام، ولا يتوصل إلى دفع الشيطان إلا بمعرفة مداخله، فصارت معرفة مداخله واجبة، ومداخل الشيطان وأبوابه كثيرة، لكن أكبر هذه الأبواب وأعظمها، والتي لا تضيق على جنود الشيطان ولو كثر عددهم يتمثل فيما يلي:

١- الغضب، فإن الغضب هو غول العقل، وإذا ضعف العقل هجم جند الشيطان، وإذا اشتد غضب الإنسان لعب الشيطان به كما يلعب الصبيان بالكرة. ولذلك وصف المسيطر على غضبه بالشدة والصلابة روى البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الذي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ) [٢].

---

(١) رواه أحمد ٤٣٥/١ (٤١٤٢) وحسنه الألباني، انظر المشكاة (١٦٦).

(٢) البخاري في الأدب، باب الحذر من الغضب ٢٢٦٧/٥ (٥٧٦٣)، ومسلم في البر، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب ٢٠١٤/٤ (٢٦٠٩) .

وروى البخاري عن أبي هريرة ﷺ أن رجلا قال للنَّبِيِّ ﷺ: (أَوْصِنِي قَال: لا تَغْضَبْ، فَرَدَّدَ مِرَارًا، قَال: لا تَغْضَبْ) [١].

٢- ومن أبوابه العظيمة الطمع في الناس، لأنه إذا غلب الطمع على القلب لم يزل الشيطان يحبب إليه التصنع والتزين، لمن طمع فيه بأنواع الرياء والتلبيس، حتى المطموع فيه كأنه معبوده فلا يزال يتفكر في حيلة التودد والتحبب إليه، ويدخل كل مدخل للوصول إلى ذلك، وأقل أحواله الثناء عليه بما ليس فيه، والمداهنة له بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ العاديات:٨ .

روى البخاري من حديث ابن عباس ﷺ أن رسول الله قال ﷺ: (لوْ كَانَ لابْنِ آدَمَ وَادِيَان مِنْ ذهَبٍ لأَحَبَّ أَنْ يَكُونَ لهُ ثالث، وَلا يَمْلأُ فَاهُ إِلا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلى مَنْ تَابَ) [٢].

وفي المسند من حديث ابن عباس ﷺ أنه قال: (جَاءَ رَجُل إِلى عُمَرَ يَسْأَلُهُ، فَجَعَل عُمَرُ يَنْظُرُ إِلى رَأْسِهِ مَرَّةً، وَإِلى رِجْليْهِ أُخْرَى، هَل يَرَى عَليْهِ مِنَ البُؤْسِ شَيْئًا، ثمَّ قَال لهُ عُمَرُ: كَمْ مَالُكَ ؟ قَال: أَرْبَعُونَ مِنَ الإِبِل، قَال ابْنُ عَبَّاسٍ: فَقُلتُ: صَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، لوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَان مِنْ ذهَبٍ لَابْتَغَى الثالث، وَلاَ يَمْلأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلاَّ التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلى مَنْ تَابَ) [٣].

---

(١) البخاري في كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب ٥/٢٢٦٧ (٥٧٦٥).

(٢) البخاري في الرقاق، باب ما يتقى من فتنة المال ٥/٢٣٦٤ (٦٠٧٢).

(٣) رواه أحمد في المسند ٥/١١٧ (٢١١٤٩)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم، وانظر السلسلة الصحيحة (٢٩٠٩) .

٣- ومن أبوابه العظيمة العجلة وترك التثبت في الأمور. روى الترمذي وحسنه الألباني عن سهل بن سعد الساعدي عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: (الأَنَاةُ مِنْ اللهِ، وَالعَجَلَةُ مِنْ الشَّيْطَانِ)(١). وقال ﷻ: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ الأنبياء:٣٧. وقال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ۝١١﴾ الإسراء:١١. وقال لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ۝١١٤﴾ طه:١١٤. والعجلة باب الشيطان لأن الأعمال ينبغي أن تكون بعد التبصرة والمعرفة، وهذا يحتاج إلى تأمل وتمهل والعجلة تمنع من ذلك، وعند الاستعجال يروج الشيطان شره على الإنسان من حيث لا يدري.

٤- ومن أبوابه العظيمة الدراهم والدنانير وسائر أصناف الأموال من العروض والدواب والعقار، فإن كل ما يزيد على قدر القوت والحاجة الضرورية، فإن لم يستعن بالله في تدبير أمره لنفع المسلمين فهو وبال عليه، لأن الشيطان يعلم أنه الدراهم والدنانير من مشتهيات الدنيا فيدخل من خلالها فيزين له الرغبة في الزيادة والحرص وطول الأمل حتى لا يجد وقتا إلا لعدها ومتابعة صرفها طول، وربما لا يجد لحظة لذكر الله الواجب فضلا عن الذكر المستحب فلا يدعه الشيطان إلا وقد عبده للدرهم والدينار وصيره عبدا لهواه.

روى البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ، وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ،

---

(١) رواه الترمذي في كتاب البر والصلة، باب ما جاء في التأني والعجلة ٣٦٧/٤ (٢٠١٢)، وحسنه الألباني، وانظر السلسلة الصحيحة (١٧٩٥).

وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ)[1].

٥- ومن أبوابه العظيمة البخل وخوف الفقر، فإن ذلك هو الذي يمنع الإنفاق والتصدق ويدعو إلى الادخار والكنز والعذاب الأليم، وهو الموعود للمكاثرين كما نطق به القرآن العزيز.

قال تعالى: ﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ التوبة:٧٥/٧٧ .

٦- ومن أبوابه العظيمة التعصب للآراء والمذاهب والأهواء دون الرجوع للحق الواضح الصريح، والدليل النقلي الصحيح، فذلك مما أهلك بني علماء إسرائيل، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ آل عمران:٧٨ .

وقال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾ البقرة:١٠٩ .

يأتي الشيطان يخيل إلى من له منصب أو اشتهار أن يلوي لسانه في الكلام، أو يكتم ما صح عن النبي عليه الصلاة والسلام، أو يمنع

---

(١) البخاري في الجهاد والسير، باب الحراسة في الغزو ٣/١٠٥٧ (٢٧٣٠).

الآخرين من تبليغ الحق حتى لا تهتز مكانته، أو تقل شهرته، أو يرى فلانا أفضل منه بعد أن ظن أنه ذو الشهرة والمكانة والمرجع الأعلى في هداية الخلق، فيتولد في قلبه الحقد، والمكر بإخوانه وتصبح مسئولية الدعوة باعثها الهوى وشبهات الشيطان، فينافق من أجل مكانته، ويغير فتواه التي قال فيها الحق عند بدايته، ويداهن شيئا فشيئا حتى ينكشف أمره، ويصبح هذا أمثاله فتنة للناس، لأن الشيطان جعله يوحي للناس أنه المقياس والمرجع في قبول الحق، ولم يعود الناس على أنه بشر، كلامه قد يرد ولا بد من تصديق كلام الحق وكلام سيد الخلق ﷺ .

وترى هؤلاء المفتونين بالأهواء والآراء قد سول لهم الشيطان حق الاستمتاع بالمباح من زينة الله ﷻ، فسكنوا القصور وركبوا السيارات المصفحات، وأكثروا الزواج بالأبكار الحسناوات، حتى يصبح الواحد منهم مزواجا، يغير الرابعة ليكمل العدة، ثم يخيل إليه الشيطان أن ينفعل في محاضراته، ويبكي ليؤثر في الناس فتستجيب لكلماته، فيزهدوا في الحياة خوفا من الله ومحبة في رسول الله ﷺ، ويرى العامة أن جميع أنواع الزهد قد اجتمعت في قلبه دون سواه. وكل ذلك من مداخل الشيطان ليجعله وسيلة للصد عن سبيل الله، فإذا رآه الناس راكبا سيارة مصفحة باهظة الثمن ثمنها بالملايين، ورأوا قصره العالي في أرقي الأماكن والبساتين، صدوا عن سبيل الله، وفقدوا المصداقية في كلام الدعاة، وضربوا به المثل إذا سمعوا عن الدعوة إلى الزهد في الحياة.

٧- ومن عظيم حيل الشيطان أن يشغل الإنسان عن نفسه بالاختلافات الواقعة بين الناس في المذاهب والخصومات لاسيما إن

تصدر للعلم فتكلم قبل أن يتعلم، وقد ابتلينا في عصرنا بطائفة انتشرت بسبب انتشار وسائل الإعلام ووصولها إلى كل مكان، تجد الواحد منهم يصبح عالما لمجرد أن صوته في قراءة القرآن جميل، أو أنه بكى في حديثه فأعجب الجماهير، أو رضي المسئول عنه فثبت له لقاء عبر الأثير، ثم يأتي الشيطان إلى هؤلاء المشاهير ويزين لأحدهم أنه قد أصبح النجم الكبير، فلو سئل على الهواء لابد من أن يجيب ولو جهل الدليل أو تأول التنزيل، ثم يعادي من خالفه ويبعده، ويوالي من وافقه على باطله ويقربه، ويسعد الشيطان بمثل هؤلاء أن يكونوا مصدرا للفتوى والحديث والتفسير، حتى يصدق فيهم ما رواه ابن ماجه وصححه الألباني من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال (سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ سَنَوَاتٌ خَدَّاعَاتُ، يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ، وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الأَمِينُ، وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ، قِيلَ: وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ؟ قَالَ: الرَّجُلُ التَّافِهُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ) (١).

• قاعدة نافعة في اعتصام الإنسان من كيد الشيطان.

بين القرآن الكريم أوجه الاحتراز من الشيطان، وما يعتصم به العبد ويستدفع به شره، ويمكن بيان هذه الأحراز كما لخصناها من كلام العلامة ابن القيم رحمه الله فيما يلي(٢):

الحرز الأول: الاستعاذة بالله من الشيطان كما قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا

(١) رواه ابن ماجه في الفتن، باب الصبر على البلاء ٢/١٣٣٩ (٤٠٣٦)، وأحمد في المسند ٢/٢٩١ (٧٨٩٩)، وحسنه الألباني، وانظر السلسلة الصحيحة (١٨٨٧).

(٢) انظر بدائع الفوائد لابن القيم ٢/٤٩٠ إلى ٢/٤٩٤ بتصرف.

يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ الأعراف: ٢٠٠ .

وفي صحيح البخاري عن سليمان بن صُرد ﵁ قال: (كُنت جالسا معَ النبي ﷺ ورجلان يستبان، فَأَحدهما احمر وجهه وانتفَخَت أَوداجه، فَقال النبي ﷺ: إني لأعْلم كَلمة لو قالها ذهب عَنه ما يجد، لو قال: أَعُوذ بالله من الشَّيطَان ذهب عَنه ما يجد، فقالوا له: إِن النبي ﷺ قال: تعوذ بالله من الشَّيطَان، فَقال: وهل بي جنون) [(١)].

وعند البخاري من حديث ابن عَباس ﵁ أنه قال: (كَان رسول الله ﷺ يعوذ الحسن والحسين يقول: أُعِيذكُما بكَلمات الله التامةِ من كُل شَيطَان وهامةٍ، ومن كُل عَين لامةٍ، ويقول: هكَذا كَان إِبراهيم يعَوذ إِسحق وإِسماعِيل عَليهم السلام) [(٢)].

الحرز الثاني: قراءة المعوذتين فإن لهما تأثيرا عجيبا في الاستعاذة بالله تعالى من شره، ودفعه والتحصن منه، فعند أحمد من حديث ابن عابس الجهني ﵁ أن رسول الله ﷺ قال له: (يا بن عابس، ألا أخبرك بأفضل ما تعوذ المتعوذون، قال قلت: بلى، فقال رسول الله ﷺ: قل أعوذ برب الفلق. وقل أعوذ برب الناس. هاتين السورتين) [(٣)].

---

(١) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده ٣/١١٩٥ (٣١٠٨)، ومسلم في كتاب البر والصلة والأدب، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب وبأى شيء يذهب الغضب ٤/٢٠١٥ (٢٦١٠). والأوداج العروق المحيطة بالعنق التى تقطع حالة الذبح واحدها الودج.

البخاري في الأنبياء، باب يزفون النسلان في المشي ٣/١٢٣٣ (٣١٩١).

(٢) رواه أحمد في المسند ٤/١٤٤ (١٧٣٣٦)، وصحح إسناده شعيب.

روى ابن ماجة وصححه الألباني من حديث أَبي سعِيد الخدري ﷺ قال: (كَان رسول الله ﷺ يتعَوذ من عَين الجان، وعَين الإِنس، فلما نزلَت المعَوذتان أَخذ بهما، وتركَ ما سوى ذلكَ)[١].

الحرز الثالث: قراءة آية الكرسي فقد روى البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أنه قال: (وكَّلني رسول الله ﷺ بحفْظِ زَكَاةِ رمضَان، فَأَتاني آت فَجعَل يحثو من الطَّعَام، فَأَخذته وقلت: والله لأَرفعَنكَ إلى رسول الله ﷺ . قال: إِني محتاج وعَلى عِيال ولى حاجةٌ شَديدةٌ. قال: فَخَليت عَنه، فَأَصْبحت، فَقَال النبي ﷺ: يا أَبا هريرةَ، ما فعَل أَسيركَ البارحةَ؟ قلت: يا رسول الله شَكَا حاجةً شَديدةً وعِيالا، فَرحمته فَخَليت سبيله. قال: أَما إِنه قد كَذبكَ وسيعُود. فَعَرفْت أَنه سيعُود لقول رسول الله ﷺ إِنه سيعُود، فَرصَدته، فَجاءَ يحثو من الطَّعَام، فَأَخَذته فَقلت: لأَرفعَنكَ إلى رسول الله ﷺ. قال: دعْني فَإني محتاج، وعَلى عِيال لا أَعُود. فَرحمته فَخَليت سبيله، فَأَصْبحت، فَقال لي رسول الله ﷺ: يا أَبا هريرةَ ما فعَل أَسيركَ؟ قلت: يا رسول الله شَكَا حاجةً شَديدةً وعِيالا، فَرحمته فَخَليت سبيله. قال: أَما إِنه قد كَذبكَ وسيعُود، فَرصَدته الثالثة، فَجاءَ يحثو من الطَّعَام، فَأَخَذته فَقلت: لأَرفعَنكَ إلى رسول الله، وهذا آخِر ثلاث مرات أَنكَ تزْعُم لا تعُود ثم تعُود. قال: دعْني أُعَلمك كَلمات ينفَعُكَ الله بها. قلت: ما هو؟ قال: إِذا أَويت إلى فِراشِكَ فَاقرأْ آية الكرسي: الله لا إِله إِلا هو الحي القيوم.. حتى تخْتم الآيةَ، فَإِنكَ لن يزَال عَليك من الله

---

(١) النسائي في الاستعاذة، باب الاستعاذة من عين الجان ٤/٤٥٨ (٧٩٣٠)، وصححه الألباني، انظر مشكاة المصابيح (٤٥٦٣).

حافِظٌ، ولا يقربنكَ شَيطَان حتى تصبْح، فَخَليت سبيله، فَأَصبْحت فَقال لي رسول الله ﷺ: ما فَعَل أَسيركَ البارحةَ؟ قلت: يا رسول الله، زَعَم أنه يعَلمني كَلمات ينفعُني الله بها، فَخَلَيت سبيله. قال: ما هي؟ قلت: قال لي: إذا أَويت إلى فِراشِكَ فَاقرأْ آيةَ الكرسي من أَولها حتى تخْتم الآيةَ، وقال لي: لن يزَال عَليكَ من الله حافِظٌ، ولا يقربكَ شَيطَان حتى تصبْح، وكَانوا أَحرصَ شَيءٍ على الخَير. فَقال النبي ﷺ: أَما إِنه قد صَدقكَ وهو كَذوب، تعْلم من تخَاطِب منذ ثلاث ليال يا أَبا هريرةَ؟ قال: لا، قال: ذاكَ شَيطَان)[١].

الحرز الرابع: قراءة سورة البقرة ففي الصحيح من حديث أبي هريرة ؓ أَن رسول الله ﷺ قال: (لا تجعَلوا بيوتكُم مقابر إِن الشَّيطَان ينفِر من البيت الذي تقرأُ فِيه سورةُ البقرةِ)[٢]. وفي رواية صحيحة عند أحمد (فَإِن الشَّيطَان يفِر من البيت الذي يقرأُ فِيه سورةُ البقرةِ)[٣].

الحرز الخامس: قراءة خاتمة سورة البقرة فقد ثبت في الصحيح من حديث أبي مسعود الأنصاري ؓ أن رسول الله ﷺ قال: (من قرأَ بالآيتين من آخرِ سورةِ البقرةِ في ليلةٍ كَفَتَاه)[٤]. وعند الترمذي

---

(١) رواه البخاري في كتاب الوكالة، باب إذا وكل رجلا فترك الوكيل شيئا فأجازه الموكل فهو جائز ٢/٨١٢ (٢١٨٧).

(٢) رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب صلاة النافلة فى بيته وجوازها فى المسجد ١/٥٣٩ (٧٨٠).

(٣) رواه أحمد في المسند ٢/٢٨٤ (٧٨٠٨)، وصحح إسناده شعيب.

(٤) البخاري في فضائل القرآن، باب فضل سورة البقرة ٤/١٩١٤ (٤٧٢٢).

وصححه الألباني عن النعمان ﷺ أن النبي ﷺ قال : (إِنَ اللهَ كَتَبَ كِتابا قبل أَن يَخْلق السموات والأَرضَ بأَلفَي عَام، أَنزَل منه آيتين خَتم بهما سورةَ البقرةِ، ولا يقرءان فِي دار ثلاث ليال فَيقربها شَيطَان) [١].

الحرز السادس: قول لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، فعند البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (من قال لا إِله إِلا الله وحده لا شَرِيكَ له، له الملكُ وله الحمد وهو على كُل شَيءٍ قَدير، فِي يوم مائَةَ مرةٍ كَانت له عَدل عَشْر رقاب، وكُتبت له مائَةُ حسنةٍ، ومحيت عَنه مائَةُ سيئَةٍ وكَانت له حرزًا من الشَّيطَان يومه ذلكَ حتى يمسي، ولم يأْت أَحد بأَفْضَل مما جاءَ به إِلا أَحد عَمل أَكْثر من ذلكَ) [٢].

الحرز السابع: كثرة ذكر الله ﷻ، وهو من أنفع الحروز من الشيطان، روى الترمذي وصححه الألباني من حديث الحارث الأَشْعَري ﷺ أَن النبي ﷺ قال: (إِن الله أَمر يحيى بن زَكَريا بخَمس كَلمات، أَن يعْمل بها ويأْمر بني إِسرائِيل أَن يعْملوا بها، وإِنه كَاد أَن يبطِئَ بها، فَقال عِيسى: إِن الله أَمركَ بخَمس كَلمات لتعْمل بها، وتأْمر بني إِسرائِيل أَن يعْملوا بها، فَإِما أَن تأْمرهم، وإِما أَن آمرهم، فَقال يحيى أَخْشَى إِن سبقتني بها أَن يخْسفَ بي أَو أُعَذب، فَجمعَ الناس فِي بيت المقدس، فَامتلأَ المسجد

---

(١) رواه الترمذي في كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في آخر سورة البقرة، ٥/١٥٩ (٢٨٨٢)، وصححه الألباني، انظر صحيح الجامع (١٧٩٩).

(٢) البخاري في الدعوات، باب فضل التهليل ٥/٢٣٥١ (٦٠٤٠)، ومسلم في الذكر، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء ٤/٢٠٧١ (٢٦٩١) .

وتعَدوا عَلى الشُّرفِ، فَقال: إن الله أَمرني بخَمس كَلمات، أَن أَعْمل بهن، وآمركُم أَن تعْملوا بهن، أَولهن أَن تعبْدوا الله ولا تشرْكُوا به شَيئًا، وإِن مثل من أَشْركَ بالله، كَمثل رجل اشْترى عَبدا من خَالص ماله بذهب أَو ورق، فَقال: هذه داري، وهذا عَملي، فَاعْمل وأَد إِلي، فَكَان يعْمل ويؤَدي إِلى غَير سيده، فَأَيكُم يرضَى أَن يكُون عَبده كَذلكَ، وإِن الله أَمركُم بالصَّلاةِ، فَإِذا صَليتم فَلا تلتفِتوا، فَإِن الله ينصِب وجهه لوجه عَبده فِي صَلاته ما لم يلتفِت، وآمركُم بالصِّيام، فَإِن مثل ذلكَ كَمثل رجل فِي عِصَابةٍ معَه صُرةٌ فِيها مسكٌ، فَكُلهم يعْجب أَو يعْجبه ريحها، وإِن ريح الصَّائِم أَطْيب عِند الله من ريح المسكِ، وآمركُم بالصَّدقةِ فَإِن مثل ذلكَ كَمثل رجل أَسره العَدو، فَأَوثقوا يده إِلى عُنقه، وقدموه ليضْربوا عُنقه، فَقال: أَنا أَفْديه منكُم بالقليل والكَثير، فَفَدى نفْسه منهم، وآمركُم أَن تذكُروا الله، فَإِن مثل ذلكَ كَمثل رجل خَرج العَدو فِي أَثره سراعًا، حتى إِذا أَتى عَلى حصْن حصِين فَأَحرزَ نفْسه منهم، كَذلكَ العَبد، لا يحرزُ نفْسه من الشَّيطَان إِلا بذكْر الله. قال النبي ﷺ: وأَنا آمركُم بخَمس، الله أَمرني بهن، السمعُ والطَّاعَةُ والجهاد والهجرةُ والجماعَةُ، فَإِنه من فَارق الجماعَةَ قيد شِبر، فَقد خَلعَ ربقةَ الإِسلام من عُنقه إِلا أَن يرجعَ، ومن ادعَى دعْوى الجاهليةِ، فَإِنه من جثا جهنم، فَقال رجل: يا رسول الله وإِن صَلى وصَام؟ قال: وإِن صَلى وصَام، فَادعُوا بدعْوى الله الذي سماكُم المسلمين المؤْمنين عِباد الله)[1].

---

(١) رواه الترمذي في الأمثال، باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة ١٤٨/٥ (٢٨٦٣)، وصححه الألباني، انظر صحيح الترغيب والترهيب (٥٥٢).

قال ابن القيم: (فقد أخبر النبي ﷺ في هذا الحديث أن العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله، وهذا بعينه هو الذي دلت عليه سورة قل أعوذ برب الناس، فإنه وصف الشيطان فيها بأنه الخناس، والخناس الذي إذا ذكر العبد الله انخنس وتجمع وانقبض، وإذا غفل عن ذكر الله تعالى التقم القلب، وألقى إليه الوساوس التي هي مبادئ الشر كله، فما أحرز العبد نفسه من الشيطان بمثل ذكر الله عز وجل)[1].

(١) بدائع الفوائد لابن القيم ٢/٤٩٤.

المطلب الثاني والعشرون

العقل والحكمة في خلق مقومات الاختيار في الإنسان

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فقد تحدثنا في المطلب السابق عن الحكمة من وجود الشيطان وجنوده كمصدر للشر في هذا العلم، وبينا أن في ذلك من الحكم ما لا يحصيه إلا الله ﷻ من ظهور أنواع العدل والفضل.

وعلمنا أن الشيطان بعد أن نزل من السماء نصب لنفسه عرشا على الماء، ليتشبه باستواء الله على عرشه في السماء، وأصبح الإنسان في محل اختيار الاختيار بين الملك المعبود بحق، والطاغوت المعبود بظلم، ثم بينا أن أنواع الشر التي يدعو إليها الشيطان ستة أجناس لا يزال موسوسا حتى يناها.

وعلمنا ما مَنّ الله به على الإنسان في حمايته من كيد الشيطان، ثم تحدثنا عن أثر المعصية والطاعة على خواطر الملك والشيطان، وتفاعلهما مع حال القلب في الإنسان، وبينا مداخل الشيطان إلى القلب وكيفية الحذر منها، ثم تناولنا قاعدة نافعة في اعتصام كل إنسان من كيد الشيطان.

وفي هذه المطلب نتحدث بإذن الله ﷻ عن العقل كمقوم من مقومات الاختيار في الإنسان، وكيف أن وجود العقل من دلائل الحكمة التي دل عليها اسم الله الحكيم .

• المقصود بالعقل في اللغة وما ورد في القرآن والسنة.

العقل في اللغة هو الحِجر والنهى وهو ضد الحمق والجهل، عقل يعقل عقلا فهو عاقل، والجمع عقول. والمعقول هو ما تعقله في فؤادك، وعقل بطن المريض بعدما استطلق أي استمسك، وعقل المعتوه والصبي ونحوه إذا أدرك وزكا، وعقلت البعير عقلا شددت يده بالعقال أي الرباط، والعاقل هو الجامع لأمره ورأيه، مأخوذ من عقلت البعير إذا جمعت قوائمه، والعاقل الذي يحبس نفسه ويردها عن هواها، أخذا من قولهم قد اعتقل لسانه إذا حبس ومنع الكلام. وسمي العقل عقلا لأنه يعقل صاحبه عن التورط في المهالك أي يحبسه، أو هو التمييز الذي به يميز الإنسان، وعقل الشيء يعقله عقلا فهمه، والعقل مشتق من العقال، وهو الرباط الذي يعقل الدابة ويمنعها من الحركة [(١)].

أما العقل في القرآن فقد ورد بمعنى الغريزة التي يفهم بها الإنسان ويميز ما ينفعه ويعود عليه بالخير، كقوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ الحج:٤٦ .

---

(١) لسان العرب لابن منظور الأفريقي ١١/٤٥٨، وكتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي ١/١٥٩.

وقد سمى القرآن الكريم العقل حجْرا ونهى؛ لأنه يحجر صاحبه عن القبيح، وسمي عقلا لأنه يعقل عما لا يَحْسُن، أو يمنع عن الوقوع فيما لا ينبغي ، وسمي العقل النُّهى لأنه ينهى عما لا يحل [١].

وقال تعالى: ﴿ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴾ الفجر:٥.

وقال سبحانه: ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴾ طه:١٢٨.

والعرب كانت تقول عن الرجل: إنه لذو حجر، إذا كان قاهرا لنفسه ضابطا لها، كأنه أخذ من قولهم: حجرت على الرجل، وعلى هذا سمي العقل حجرا؛ لأنه يمنع من القبيح، من الحجر، وهو المنع من الشيء بالتضييق فيه [٢]. قال ابن جرير: (يقال للرجل إذا كان مالكا نفسه قاهرا لها ضابطا: إنه لذو حجر) [٣]. فمن بلغ أن يحجره عقله عن المآثم، ويحمله على المكارم، فهو ذو حجر.

وقد بين القرآن الكريم أن العقل الفطري هو العقل الذي يميز الأمر البديهي على مقتضى مدارك اليقين المعروفة، من أحكام الأوليات، وأحكام النظر في المحسوسات والتجريبيات والمتواترات، مما تقدم ذكره في دورة أصول العقيدة [٤].

---

(١) زاد المسير لابن الجوزي ١٠٩/٩ بتصرف.

(٢) تفسير الرازي ١٥٠/٣١ بتصرف.

(٣) تفسير الطبري ١٧٣/٣٠.

(٤) انظر كتاب أصول العقيدة ٤٦/١.

ولذلك لما قالت اليهود والنصارى لنبينا محمد ﷺ ومن معه من المسلمين: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ﴾البقرة:١٣٥. فأجابهم الحق تبارك وتعالى بأن سائر الأنبياء كانوا مسلمين حنفاء، فقال: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ البقرة:١٣٥. فكذبت اليهود والنصارى مقتضى العقل والفطرة بالتعصب الأعمى وقالوا مكابرين: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾البقرة:١٤٠. فأجابهم الحق ﷻ: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ آل عمران:٦٧ .

ثم بين الحق سبحانه وتعالى أن اليهود والنصارى يخالفون حكم العقل ومقتضاه لدى جميع العقلاء بلا استثناء فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾﴾ آل عمران:٦٥ .

ومثل ذلك أيضا دعوة العقلاء إلى الاعتبار بالمحسوسات عند النظر إلى ما فعل بالأمم السابقة التي أخبر الله ﷻ عنها أنها كذبت وعتت عن أمر ربها، فأهلكت أو خسف بها، وأقام الله ﷻ البرهان على ما حدث لها لسائر العقلاء، ليدلل على صدق ما أخبرت به الرسل والأنبياء عليهم السلام. فقال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ الصافات:١٣٣/١٣٨ .

ومثله أيضا قوله تعالى: ﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ

﴿نَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٤٤﴾ البقرة:٤٤ .

وقوله تعالى: ﴿قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرًا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٦﴾ يونس:١٦.

وأما العقل في السنة فقد ورد أيضا بمعنى الغريزة التي بها يعقل، فعند البخاري من حديث ابْنِ عُمَرَ ﷺ أنه قال: (سَمِعْتُ عُمَرَ ﷺ عَلى مِنبَرِ النَّبِيِّ ﷺ يَقُول: أَمَّا بَعْدُ أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ نَزَل تَحْرِيمُ الخَمْر، وَهْيَ مِنْ خَمْسَةٍ: مِنْ العِنَبِ وَالتَّمرِ وَالعَسَل وَالحِنطَةِ وَالشَّعِيرِ، وَالخَمْرُ مَا خَامَرَ العَقْل) [1].

وصح من حديث علي بن أبي طالب ﷺ أن النبي ﷺ قال: (رُفِعَ القَلمُ عَنْ ثلاثةٍ: عَنْ النَّائِمِ حَتَّى يَستَيْقِظَ، وَعَنْ الصَّبِيِّ حَتَّى يَحْتَلمَ، وَعَنْ المَجْنُونِ حَتَّى يَعْقِلَ) [2].

وورد العقل بمعنى قوة التمييز التي تقوم بالعقل كما ورد عند البخاري من حديث أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ أنه قال: (خَرَجَ رَسُول اللهِ ﷺ فِي أَضْحَى أَوْ فِطْرٍ إلى المُصَلى، فَمَرَّ عَلى النِّسَاءِ فَقَال: يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ، فَإِنِّي أُرِيتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْل النَّار، فَقُلنَ: وَبِمَ يَا رَسُول اللهِ؟ قَال: تُكْثِرْنَ اللعْنَ، وَتَكْفُرْنَ العَشِيرَ، مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْل وَدِينٍ أَذْهَبَ

(١) رواه البخاري في التفسير، باب تفسير سورة المائدة ١٦٨٨/٤ (٤٣٤٣)، ومسلم في التفسير، باب في نزول تحريم الخمر ٢٣٢٢/٤ (٣٠٣٢).

(٢) أبو داود في الحدود، باب في المجنون يسرق أو يصيب حدا ١٤١/٤ (٤٤٠٣)، وابن ماجه في الطلاق، باب طلاق المعتوه والصغير والنائم ٦٥٨/١ (٢٠٤١)، وأحمد في المسند ١٠٠/٦ (٢٤٧٣٨)، وصححه الألباني انظر إرواء الغليل (٢٩٧) .

للبِّ الرَّجُل الحَازِم مِنْ إحْدَاكُنَّ، قُلنَ: وَمَا نُقْصَانُ دِينِنَا وَعَقْلنَا يَا رَسُول اللهِ؟ قَال: أَليْس شَهَادَةُ المَرْأَةِ مِثل نِصْفِ شَهَادَةِ الرَّجُل؟ قُلنَ: بَلى. قَال: فَذلكِ مِنْ نُقْصَان عَقْلها. أَليْسَ إذا حَاضَتْ لمْ تُصَل وَلمْ تَصُمْ؟ قُلنَ: بَلى. قَال: فَذلكِ مِنْ نُقْصَان دِينِهَا)[1].

وورد العقل في السنة على معنى اصطلاحي موضوع للدية التي تدفع للمقتول، وَإِنَّمَا سُمِّيَتْ بِالديةِ لأَنَّهُمْ كَانُوا يُعْطُونَ فِيهَا الإِبِل، وَيَرْبِطُونَهَا بِفِنَاءِ دَار المَقْتُول بِالعِقَال وَهُوَ الحَبْل، كما ورد عند البخاري من حديث أَبِي جُحَيْفَةَ ﷺ أنه قال: (قُلتُ لعَليٍّ بْن أَبِي طَالبٍ ﷺ: هَل عِنْدَكُمْ كِتَابٌ؟ قَال: لا، إلا كِتَابُ اللهِ، أَوْ فَهْمٌ أُعْطِيَهُ رَجُل مُسْلمٌ، أَوْ مَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ. قَال قُلتُ: فَمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ؟ قَال: العَقْل وَفَكَاكُ الأَسِيرِ وَلا يُقْتَل مُسْلمٌ بِكَافِرٍ)[2].

- العقل في المعنى الاصطلاحي العقدي.

العقل في المعنى الاصطلاحي العقدي غريزة وضعها الله ﷻ في قلوب الممتحنين من عباده لا نعرف كيفيتها، ولكن نتعرف على وجودها من قول اللسان وأفعال الإنسان، فيقال: هذا عاقل إذا فعل أفعال العقلاء، وهذا مجنون إذا لم يتصف بها.

والدليل على أن العقل موجود في القلب قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن

---

(١) رواه البخاري في كتاب الحيض، باب ترك الحائض الصوم ١/١١٦ (٢٩٨)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات ١/٨٦ (٧٩).

(٢) رواه البخاري في كتاب العلم، باب كتابة العلم ١/٥٣ (١١١).

﴿تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ الحج: ٤٦.

قال القرطبي: (أضاف العقل إلى القلب لأنه محله، كما أن السمع محله الأذن، وقد قيل: إن العقل محله الدماغ، وروي ذلك عن أبي حنيفة، وما أراها عنه صحيحة) (١). قال الثعالبي: (هذه الآية تقتضي أن العقل في القلب، وذلك هو الحق، ولا ينكر أن للدماغ اتصالا بالقلب يوجب فساد العقل متى اختل الدماغ) (٢).

ورد عند البخاري من حديث النعمان بن بشير ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: (أَلا وإِن فِي الجسد مُضْغَة، إذا صَلَحت صَلَح الجسد كُلهُ، وإذا فَسدت فَسد الجسد كُلهُ، أَلا وهِي القَلبُ) (٣). والشاهد من الحديث أن النبي ﷺ جعل صلاح الجسد وفساده تابعا للقلب، مع أن الدماغ من جملة الجسد فيكون صلاحه وفساده تابعا للقلب، فعلم أنه ليس محلا للعقل(٤).

وذكر بدر الدين العيني أن النبي ﷺ أطلق على القلب مضغة لتصغير القلب بالنسبة إلى باقي الجسد، مع أن صلاح الجسد وفساده تابعان له، أو لما كان هو سلطان البدن لما صلح، صلح الأعضاء الأخرى التي هي كالرعية، وهو بحسب الطب أول نقطة تكون من النطفة، ومنه تظهر

---

(١) تفسير القرطبي ١٢/٧٧.

(٢) تفسير الثعالبي ٣/٨٣.

(٣) رواه البخاري في الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه ١/٢٨ (٥٢)، ومسلم في كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات ٣/١٢١٩ (١٥٩٩).

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم ١١/٢٩ بتصرف.

القوى، ومنه تنبعث الأرواح، ومنه ينشأ الإدراك ويبتدئ التعقل، فلهذه المعاني خص القلب بذلك، وفي هذا حجة على أن العقل في القلب لا في الرأس [1].

وقال القاضي أبو يعلى: (محل العقل القلب، ذكره أبو الحسن التميمي في كتاب العقل، فقال: الذي نقول به أن العقل في القلب يعلو نوره إلى الدماغ فيفيض منه إلى الحواس ما جرى في العقل) [2].

وقال ابن تيمية: (العقل المشروط في التكليف لا بد أن يكون علوما يميز بها الإنسان بين ما ينفعه وما يضره؛ فالمجنون الذي لا يميز بين الدراهم والفلوس ولا بين أيام الأسبوع ولا يفقه ما يقال له من الكلام ليس بعاقل، أما من فهم الكلام وميز بين ما ينفعه وما يضره فهو عاقل، ثم من الناس من يقول: العقل هو علوم ضرورية، ومنهم من يقول العقل هو العمل بموجب تلك العلوم، والصحيح أن اسم العقل يتناول هذا وهذا، وقد يراد بالعقل نفس الغريزة التي في الإنسان التي بها يعلم ويميز ويقصد المنافع دون المضار، كما قال أحمد بن حنبل والحارث المحاسبي وغيرهما أن العقل غريزة، وهذه الغريزة ثابتة عند جمهور العقلاء كما أن في العين قوة بها يبصر، وفي اللسان قوة بها يذوق، وفي الجلد قوة بها يلمس عند جمهور العقلاء) [3].

---

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري لبدر الدين العيني ١/٣٠٢ بتصرف.

(٢) انظر المسودة في أصول الفقه ص٥٠٠، نشر مكتبة المدني القاهرة، وانظر حاشية شرح الكوكب المنير لابن النجار ١/٨٤، نشر مكتبة العبيكان.

(٣) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٩/٢٨٧.

والعقل في القلب كالحجاب الفاصل بين منطقة حديث النفس ومنطقة الكسب، وهو يقوم بتحصيل المعلومات وجمعها من حواس الإنسان، ثم يحللها ويصنف الحدث المرافق لها ويضيف أحكامه إليها، ثم يخزنها في ذاكرة الإنسان الذي بدوره يقوم باستدعائها حسبما يشاء، والإرادة في القلب محل الكسب في الإنسان، وهي مسئولة عن شحن العقل بالمعلومات، أو تركه خاليا جاهلا فارغا.

- **أثبت العلم الحديث أن العقل كائن في القلب.**

ساد عند كثير من علماء الطب فهما مفاده أن القلب عبارة عن مضخة ميكانيكية للدم، وأن مصدر العاطفة والمشاعر هو العقل، والمراد به المخ وليس القلب. فكل الأفكار والتصرفات والسلوك مصدرها المخ الكائن بالرأس، وحمل بعض المفسرين دلالة القلب الواردة في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية تأويلا منهم على أن المراد هو العقل.

وقد جاءت معطيات العلم الحديث أخيرا لتؤكد أن العقل في القلب وأن القلب هو المهيمن المتحكم في المشاعر والسلوك، ففي آخر الأبحاث العلمية حول الخلايا العصبية وعلم الأعصاب، ظهرت تفسيرات علمية محضة عن محفزات السلوك الإنساني وبواعثه كمسألة إخلاصه وولائه، والثقة والالتزام، والتغير السلوكي أكثر من أي وقت مضى في تاريخ البشرية، وكل هذه التفسيرات تعود لتصب في بوتقة الدليل النصي الظاهر من الوحي في نصوص القرآن والسنة.

كانوا يقولون في القديم إن إشارات حواسنا الخمس تنتقل عبر الجهاز العصبي بدائرة كهربائية مباشرة إلى المخ، فنفكر فيها ثم نستجيب

بسلوك معين، وقد ثبت الآن خطأ هذه الفرضية، فالآن يقولون إننا عندما نقابل شخصا لأول مرة، أو نواجه تحديا، أو مشكلة، أو عندما تلوح لنا فرصة، فإن الموقف سواء كان تجربة، أو خبرة لا تذهب مباشرة إلى المخ لكي نفكر فيها، بل تأتي من الحواس المادية وتذهب في البدء إلى الشبكة العصبية في القلب وليس المخ، فالمكان الذي تذهب إليه كل مؤثرات المواقف الابتلائية هو القلب لا المخ. وكان علماء علم القلب العصبي قد اكتشفوا في تسعينات القرن الماضي عقلا في القلب يتكون من أربعمائة ألف خلية عصبية من مختلف الأنواع، إضافة إلى شبكة معقدة من المرسلات العصبية، لها طريق ذو اتجاهين يوصلها بالمخ.

وهناك اكتشاف آخر أدهش الكثيرين وهو أن دقات القلب ليست نبضات ميكانيكية لمضخة، بل لديها لغة ذكية بالغة الذكاء، تؤثر على كيفية فهمنا، وتفاعلنا مع العالم الخارجي. إن الدراسات الحديثة في علم الأعصاب توضح أن كل خفقة للقلب يتدفق منها شلال عصبي يرمز له بهرمون التوازن، ويطلق من خلايا عصبية من القلب، لترسل فورا إلى المخ عبر العصب الشوكي .

ويعتبر هذا الهرمون من خلال الدراسات الحديثة الباعث الأساسي للسلوك الداخلي لجميع أعمال القلوب كالإخلاص والنية والمحبة والولاء والقبول والبغض والكره والحسد والحقد وغير ذلك. ومع كل نبضة للقلب هنالك شكل آخر من أشكال الاتصال الفوري مع كل الجسم، وهي عبارة عن موجة تنتقل عبر الشرايين بسرعة تفوق بمرات كثيرة سرعة تدفق الدم، ينشأ عنها نوع من لغة الاتصال بين القلب والمخ؛ لأن

عينات موجة الضغط الدموي عينات قلبية إيقاعية معقدة، وبهذه الطريقة تؤثر على مجمل الجسم وكذلك المخ.

وقد ظهرت دراسات حديثة تبين أن الحقل الكهرومغناطيسي للقلب يعد تقريبا الأقوى بين الحقول الكهرومغناطيسية التي ينتجها الجسم، وفي الواقع إنه يفوق الحقل الكهرومغناطيسي للمخ بخمسة آلاف مرة، وطبقا لأبحاث نُشرت في مجلة طب القلب الأمريكية، فإن التغيرات الكهربائية في الإحساس التي يرسلها القلب البشري يمكن أن تُحس ويمكن أن تقاس الآن على بعد خمسة أقدام على الأقل.

والحقل الكهرومغناطيسي للقلب ليس محصورا على الجسم في التأثير ولكن أيضا لديه إشعاع خارجي، وفي الأبحاث الحديثة يمكن قياس هذا الإشعاع من على بعد مترين أو ثلاثة أمتار بواسطة جهاز حساس يسمى الماغني توميتر. وهذا أيضا ما أكدته دراسات أجراها مجموعة من العلماء في بعض جامعات الولايات المتحدة، والتي قدمت دلائل على اتصال الطاقة بين الحقلين الكهرومغناطيسيين للقلب والمخ، ولذلك ليس غريبا أننا نستند في صدق علاقاتنا على شعورنا الفطري نحو الآخرين أكثر من اعتمادنا على الأفكار التي يتلفظون بها أو الكلمات التي يعتقدونها.

وهذا ما يجعلنا نشعر أن شخصا ما يبطن مشاعر الحب أو الكراهية بمجرد لقائه، وهذا ما يطلق عليه العامة عدم صفاء القلب تجاه الآخر، أو رفضهم لقبول شخص بأنه لم يدخل القلب [١].

---

(١) مجلة اليمامة، عدد ١٦٠٧ بتصرف .

- العقل والقلب من مظاهر الحكمة وكمال النعمة.

من نعم الله التي لا تحصى، وعطاياه التي لا تجازى، أنه خلق العقل في قلب الإنسان صماما للأمان لينظم أمره، ويميز به بين ما ينفعه وما يضره، فتقام من خلاله الحجة على الإنسان عند مساءلته على ما استأمنه واسترعاه، ولن يحاسب الله ﷻ من فقد نعمة العقل على ما قدمته يداه، فقد أجمعوا أن المجنون غير مكلف بشرع الله ﷻ.

ومن حكمة الله تعالى أنه جعل للقلب أو على الأخص منطقة الإرادة والكسب سلطانا على العقل، لأن العقل خادم ناصح لصاحبه، وميزان يوازن به بين مقدار الخير ومقدار الشر، وما هو الخير الأعلى وما الشر الأدنى؟ وكذلك الخير الأدنى والشر الأعلى؟ وكل ذلك وفق ما يمتلأ به أو ما تدخله إليه إرادة الإنسان من نظم التوجيه والبيان، وقوانين الهداية التي وردت في القرآن أو كانت من وضع الإنسان، ومن ثم يحاسب الإنسان على اختياره وقوله وفعله، ويحاسب أيضا لو كان متسببا في جهله، وعدم علمه، وينتفي في المقابل كل معاني الظلم عن خالقه، وتكون لله الحجة البالغة على خلقه والحكمة الباهرة في كل فعل من أفعاله. كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾﴾ القمر:٤/٥. وقال: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ الأنعام:١٤٩.

وقال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾ آل عمران:١٨٢. وقال: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا

رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٤٦﴾ فصلت:٤٦.

ومن ثم فإن العقل نعمة جعلها الله ﷻ في قلب الإنسان ليحسن النظر فيحرص على ما نفعه ويصل بها إلى محض الإِيمان، وينفي بها خواطر الشك ووساوس الشيطان، وما يبث في القلب من أمور الكفر والعصيان، فالعاقل من استضاء بنور الوحي فخرج من ظلمات الحيرة والشك إلى نور التوحيد واليقين.

والعقلاء عن الله هم من استفادوا بنعمة العقل في معرفة ربهم ومعبودهم فوحدوه في ربوبيته وأسمائه وصفاته وجلاله الأزلي، واستدلوا بغناه الذاتي على فقرهم الذاتي وفقر جميع الخلائق إليه، وأنه لا تكلان لهم إلا عليه، فلا يرجعون بحولهم وقوتهم إلا إليه، فلا حول لهم ولا وقوة إلا بالله، فكان توحيدهم لربهم باعثا لنور اليقين في قلوبهم، وبنور اليقين وصلوا في إيمانهم إلى الفهم السديد الذي يجمعون فيه بين الإيمان بقدرة الله وحكمته، فأمنوا بقدرته واستقاموا على شريعته، فهم حكماء عقلاء صدقوا مع أنفسهم، وصدقوا مع ربهم، وصدقوا مع نبيهم، فأنعم بهم من أتقياء حنفاء، أورثهم الله البصيرة في قلوبهم، فوضحت الحكمة في صدورهم، وجرت ينابيعها على أَلسنتهم.

قال تعالى: ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٦٩﴾ البقرة:٢٦٩.

وقال: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي

ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ آل عمران:١٦٤.

وقال الله سبحانه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ الأحزاب:٧٠/٧١.

قال الحارث المحاسبي: (جميع الممتحنين المأمورين من العقلاء البالغين كلهم، لهم عقول يميزون بها أمور الدنيا كلها، الجليل والدقيق، وأكثرهم للآخرة لا يعقلون. ألم تسمعه ﷻ يقول: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ الأعراف:١٩٨. وقال جل ثناؤه: ﴿لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ ﴿١٧٩﴾ الأعراف:١٧٩. وهم بالدنيا أهل بصر وسمع وعقل؟ ولم يعن أنهم صم خرس مجانين، وإنما عذبهم لأنهم يعقلون. لو تدبروا ما يرون ويسمعون من الدلائل عليه، من آيات الكتاب، وآثار الصنعة، واتصال التدبير الذي يدل عليه، لعلموا أنه واحد لا شريك له. حكى تعالى قول أهل النار فقال: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ الملك:١٠.

وقد كانت لهم عقول وأسماع لزمتهم بها الحجة لله ﷻ، وإنما عني ﷻ أنها لم تعقل عن الله فهما لما قال من عظيم قدر عذابه، فندمت ونادت بالويل والندم، لا أنها لم تكن تسمع ولا تعقل، ولا كانوا بمجانين، ولكن يعقلون أمر الدنيا، ولا يعقلون عن الله ما أخبر عنه، ووعد وتوعد)[1].

---

(١) ماهية العقل للمحاسبي ص ٢١٨، نشر دار الفكر، بيروت.

- **ما يدركه الإنسان بالعقل أمران أساسيان وهبي وكسبي.**

للجانب العقلي في الإنسان انعكاس على خواطره وأقواله وأفعاله واعتقاداته وتوجهاته، وسلوكه وتصرفاته. ومعلوم أن مكانة الإنسان تزداد كلما علت قدراته العلمية وإمكانياته المعرفية، بل إن الثقافات العلمية للأفراد والجماعات البشرية مرهونة بسلامة العقل وما يعود به من نفع على الإنسانية.

وكلما فكر الإنسان بقدراته العقلية أبدع في ظهور التقنيات والمخترعات التي تجعله أقوى من غيره في الأسباب المادية، غير أن العقل يزداد حسنا وجمالا لو تأمل في معرفة صانعه الذي أبدعه وأعطاه القدرة على الإبداع والاختراع، كيف خلقه؟ وأين وضعه؟ وكيف جعله عاقلا مميزا؟ ولا يزال العاقل متسائلا حتى يصل إلى ما بينه الخالق من تكريمه للإنسان حين قبل الأمانة، فاستخلفه في أرضه، واستأمنه في ملكه في دار الابتلاء والامتحان، وهذه معرفة لا يمكن أن يصل إليها العقل بمفرده، لأن ما يدركه الإنسان بعقله كما ورد في القرآن أمران اثنان:

الأمر الأول: الذي يدركه الإنسان بالعقل هو الأمر الوهبي، وهو معرفة الأسماء وحدودِ الأشياء والعلمُ بخصائصها، والإنسان يكتسب هذا العلم وهبا تلقائيا في حياته إلى يوم وفاته.

لكن الله ﷻ من عدله وحكمته وفضله ورحمته أنه لا يكلف إنسانا في طفولته، كما قال رسول الله ﷺ:

(رُفِعَ القَلَمُ عَنْ ثلاثة: عَنِ النَّائِمِ حتى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنِ الصَّبِيِّ حتى

يَشِبَّ، وَعَنِ المَعْتُوهِ حتى يَعْقِلَ)[١]. وفي رواية: (رُفِعَ القَلَمُ عَنْ الغُلامِ حتى يَحْتَلِمَ)[٢].

ويكتسب بنو آدم معرفة الأسماء ويتعلمون حدود الأشياء من العالم المحسوس بعد ولادتهم، حيث يتعلمون ذلك شيئا فشيئا. قال ﷻ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢﴾ الإنسان:٢.

وقال: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٨﴾ النحل:٧٨.

والناس يتعلمون الأسماء ويعرفون الأشياء شيئا فشيئا، فربما يتعلم الطفل الصغير في ساعة واحدة أو بضعِ ساعات كلمة واحدة أو بضع كلمات، كل يوم يزداد علمه، وتقوى معرفته للأسماء، وتمييزه الأشياء، فيقال له : هذه هرة، وهذه جرة، وهذه بقرة، وهذه شجرة إلى غير ذلك من الأسماء، ويُبيّن له أن لماذا فعلنا هذا ؟ وهذا يصلح لهذا، وهذا لا يصلح لذاك، حتى يصل عند البلوغ إلى حصيلة علمية تكفي لتكليفه بالأحكام الشرعية، وإدراك الغاية من هذه الحياة، وكيف يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئا؟

ومن بديع الصنعة وعجيب القدرة أن العلم بحدود الأشياء

---

(١) الحديث بهذا اللفظ رواه الترمذي في كتاب الحدود، باب ما جاء فيمن لا يجب عليه الحد ٣٢/٤ (١٤٢٣)، والحديث صححه الألباني، انظر إرواء الغليل (٢٩٧)، ومشكاة المصابيح (٣٢٨٧).

(٢) رواه البيهقي في السنن الكبرى في كتاب الحجر، باب البلوغ بالاحتلام ٥٧/٦ (١١٠٩٠)، وابن حبان في صحيحه ٣٥٥/١ (١٤٢).

وخصائصها الذي يحصله الإنسان في عدة سنوات علمه الله لآدم عليه السلام في لحظات، فتعلم الأسماء وخصائص الأشياء مرة واحدة، ونزلت المعلومات بقدرة الله تعالى في قلبه دفعة واحدة، فقال سبحانه: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ البقرة: ٣١/٣٣.

وكذلك فعل الله بعيسي عليه السلام بعد نزوله من بطن أمه، وادعاء قومه أنه ولد من الزنا، فقد تجمعت الكلمات بقدرة الله في لحظات، وأدركها عيسي عليه السلام بعقله، واستوعبها بقلبه حتى اجتمع البيان لديه، ونزلت حكمة الله عليه، فلما أشارت أمه إليه: ﴿قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ مريم: ٢٩/٣٤.

ومن حكمته سبحانه أنه جعل العلم بين الناس درجات، وجعل طلبه نوعا من أنواع الابتلاءات، ليجتهد الناس في جمعه وتحصيله، ويتعرفوا على الشيء بدليله، ويدركوا منزلة العلماء وورثة الأنبياء، وأهمية الوحي الذي نزل من السماء، ولذلك كان أهل العلم أكثر الناس خشية لله كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ فاطر: ٢٨.

وآيات القرآن أثبتت للإنسان جهازا للإدراك شاملا متكاملا أساسه في القلب، وأول مهامه إدراك الأشياء، ومعرفة الأسماء، وتمييز خصائصها والتعرف على أوصافها. وقد أمر الله عباده باستخدام هذا الجهاز الإدراكي في النظر إلى الإبداع الكوني، والتأمل في خلق السماوات والتفكر في سائر المخلوقات فقال ﷻ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١)﴾ آل عمران: ١٩٠/١٩١.

وقال أيضا: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١)﴾ الغاشية: ١٧/٢١ .

- القرآن يدعو العقلاء إلى توحيد الربوبية بطريقين .

تعرف الإنسان بالعقل على وجود ربه وخالقه، من خلال الأسباب والنظر في نتائجها، وترابط المعلولات مع عللها، القرآن يدعو العقلاء إلى توحيد الربوبية بطريقين:

الطريق الأول: هو نظر العقل في آياته الكونية والمخلوقات المرئية بما في ذلك النفس البشرية، فهي في حقيقتها صفحات كونية وأدلة عقلية في كتاب الله الكوني، ودور الإنسان هو التفكر والاعتبار والنظر في العلل والآثار، فالبعرة كما ذكر الأعرابي تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، سماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج ألا تدل على اللطيف

الخبير؟ فدور العقل هنا البحث في المخلوقات وما فيها من حكم وآيات، فإن المفعولات دالة على الأفعال، والأفعال دالة على الصفات، فالمفعول يدل على الفاعل، والمخلوق يدل على الخالق، وذلك يدل باللزوم على وجود الله وقدرته وعلمه ومشيئته.

الطريق الثاني: أما الطريق الثاني لمعرفة ربوبية الله لخلقه وانفراده بتدبير ملكه، فهو التفكر في آياته المسموعة وكلماته المقروءة التي وردت في كتاب الله كما قال ﷻ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ محمد:٢٤. وقال سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ ص:٢٩. والله ﷻ جعل الآيات الكونية المرئية في الآفاق وفي النفس البشرية جعلها دليلا على صدق الآيات القرآنية والنبوية فقال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾ فصلت:٥٣/٥٤.

الأمر الثاني: إذا كان الأمر الأول الذي يدركه الإنسان بالعقل هو معرفة الأسماء، وحدودِ الأشياء، والعلم بخصائصها، وهذا أمر وهبي يكتسبه الإنسان تلقائيا في حياته إلى يوم وفاته، فإن الأمر الثاني الذي يجب على العقل إدراكه هو العلم بما جاءت به الرسالة السماوية من أحكام شرعية وهداية دينية، فالله ﷻ بعد أن علم آدم عليه السلام الأسماء وتحقق فيه الأمر الأول، كلفه بمنهج شرعي يلتزمه فيما استخلفه واسترعاه واستأمنه، وابتلاه بأن يفعل أمورا محددة، ولا يفعل أمورا أخرى، فقال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ

شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ البقرة:٣٥.

وكذلك بعد أن أنزله ﷺ من الجنة كلفه أيضا بمنهج تكليفي وشرع الزامي فقال تعالى له ولحواء زوجته وسائر ذريته: ﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾ طه:١٢٣/١٢٧.

وهكذا لا يكلف الله ﷻ عبيده أمرا، ولا يكتب عليهم وزرا، إلا إذا بلغ العبد سن الاحتلام، واستوعب المعنى الذي ورد في الكلام، وأدرك شيئا من رسالة الإسلام، فقد ثبت مرفوعا أنه قد رُفِعَ القَلَمُ عَنْ الغُلامِ حتى يَحْتَلِمَ، وعن النَّائِمِ حتى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنِ المَعْتُوهِ حتى يَعْقِلَ.

وقال تعالى: ﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ﴿١٥﴾﴾ الإسراء:١٥.

- **الإيمان بالكتب من أركان الإيمان التي تحقق الحكمة الإلهية.**

واعلم أن الرسالات السماوية إنما أنزلها الله ﷻ تحقيقا لحكمته في قيام حجته على سائر العقلاء، لعلمه سبحانه أن العاقل لا يمكن أن يحيا بغير طريق للهداية يميز فيه بعقله بين ما ينفعه وما يضره، لأن العقول تختلف في نظرتها إلى الأشياء حسنا وقبحا، فما يراه عاقل خيرا، يراه غيره شرا، ولذلك تتعارض الآراء والمذاقات، وتشتعل الخلافات، فلو كان الحكم

بالحسن والقبح على الأشياء مرده إلى النظر والعقل فقط لبطلت الحكمة الإلهية، ولما قامت الحجة على البشرية، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝١٥﴾ الإسراء: ١٥.

وقال: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝١٦٥﴾ النساء:١٦٥ .

ولما كان العقل جهازا للإدراك في الإنسان يصحح وجود مقومات الاختيار فيه، شأنه شأن استفادة الإنسان من أجهزة الكمبيوتر، تكون المنفعة منها أعظم إن كانت البرامج المستعملة أفضل، فإن عِظَمُ المنفعة من العقل البشري مرتبط أيضا باستخدام الإنسان لأفضل القوانين والتشريعات والنظم الدقيقة التي تضمن له سبل السعادة في الحياة.

ولا يمكن للعقلاء أن يضعوا نظاما يكفل سعادة البشرية على وجهها الأمثل، ويتصف بالدقة والشمولية أكمل من منهج الله ﷻ الذي صنع الإنسان وعلمه البيان، فلو وضع الله ﷻ للإنسان منهجا ونظاما ودستورا وأحكاما، كان الكمال كله فيه، وكان صلاح العقل في اتباعه؛ لأن علم البشر لا يقارن بعلم الله، والحكم بغير شرعه ونظامه لا يرقى أبدا إلى الحكم بما أنزل الله ﷻ، ولذلك جعل الله سبحانه الإيمان بالكتب والرسل ركنين أساسيين من أركان الإيمان اللازمة لكل مسلم، بل لا يصح الدين إلا بها لأنهما من كمال الحكمة في تحقيق مقومات الاختيار، ولأن كمال الحجة وهداية الخلائق لا تكون إلا بذلك .

والمراد بالإيمان بالكتب الإيمان بكلام الله الذيَ أوحاه إلى رسله

عليهم السلام، سواء ما أنزله مكتوبا بيد الله ﷻ كالتوراة، أو أنزله عن طريق طرق الوحي المختلفة كالإنجيل والقرآن.

قال تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾ البقرة:١٣٦ .

والشاهد أن كل مسلم ينبغي أن يؤمن بما أنزل الله على أمة محمد ﷺ من القرآن والسنة، وما أنزل على أعيان الرسل المذكورين، وما أنزل على بقية الأنبياء في الجملة، وأنهم لا يفرقون بين الرسل في الإيمان ببعضهم دون بعض.

كما أن الإيمان بالكتب والتصديق بها جميعها إقرار بقيام الحجة على السابقين وكمال الحكمة في أفعال رب العالمين، فيجب اعتقاد أنها كلها من الله تعالى أنزلها على رسله بالحق والهدى والنور، وأن من كذب بها فهو خارج من الدين جاحد كفور.

بل إن نعمة إنزال الكتب هداية لسائر العقلاء تستوجب شكر الله تعالى على لطفه بخلقه وعنايته بهم حيث أنزل إليهم الكتب المتضمنة إرشادهم لما فيه خيرهم وصلاحهم في الدنيا والآخرة، وفي ذلك ظهور حكمة الله تعالى حيث شرع في هذه الكتب لكل أمة ما يناسبها.

ومن ثم فإنه لا بد من التصديق الجازم بأنها كلها منزلة من الله ﷻ، وأنها كلام الله تعالى لا كلام غيره، وأن الله تكلم بها حقيقة كما شاء، وعلى الوجه الذي شاء سبحانه. ولا بد من الإيمان بأنها دعت كلها

إلى الفضيلة وعبادة الله وحده لا شريك له، وأن كتب الله يصدق بعضها بعضا، فلا تناقض بينها ولا تعارض. وهذا من أعظم خصائص الكتب التي نزلت على الأنبياء والرسل، وما يميزها عن كتب العباد وقوانينهم، تماما كالفرق بين كلام الله وكلام المخلوق، فإن كلام المخلوقين عرضة للتعارض والزلل، والنقص والخلل والتعارض.

قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ النساء:٨٢ .

والإيمان بالكتب التي قامت بها الحجة وتحققت بها الحكمة يقتضي الإيمان بما سمى الله ﷻ من كتبه على وجه الخصوص، والتصديق بها، وبإخبار الله ورسوله ﷺ عنها، فالتوراة ذكرها الله ﷻ على أنها أعظم كتب بني إسرائيل فيها تفصيل شريعتهم وأحكامهم التي أنزلها الله ﷻ على موسى عليه السلام، وقد كان على العمل بها أنبياء بني إسرائيل الذين جاءوا من بعد موسى عليه السلام. كما أن الله ﷻ أخبرنا أن الإنجيل هو كتاب الله الذي أنزله على عيسى ابن مريم عليه السلام مصدقا للتوراة، وموافقا لها، وأن الله تعالى أخبر في التوراة والإنجيل نصا على البشارة بنبينا محمد ﷺ، وأن التوراة والإنجيل قد لحقهما من التحريف والتبديل ما لا يصلح بهما قيام الحجة وكمال الحكمة، وأن الله ﷻ نسخهما بالقرآن، وما نزل على محمد ﷺ في دين الإسلام، وأخبرنا الله تعالى عن صحف إبراهيم خليل الله عليه السلام وكتاب داود عليه السلام وهو الزبور، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ الأعلى:١٨/١٩.

ومن مقتضى الإيمان بالكتب الذي يقوم به الحجة وتظهر به كمال

الحكمة في هداية العقلاء، وتحملهم المسئولية عن أفعالهم، الإيمان بالقرآن العظيم، وهو كتاب الله ﷻ الذي أنزله على محمد ﷺ مصدقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه، وهو آخر كتب الله ﷻ نزولا وأشرفها وأكملها، وهو الناسخ لما قبله من الكتب، ودعوته عامة لجميع الثقلين من الإنس والجن، ويجب الاعتقاد الجازم بنسخ جميع الكتب والصحف التي أنزلها الله ﷻ على رسله بالقرآن الكريم، وأنه لا يسع أحدًا من الإنس أو الجن، لا من أصحاب الكتب السابقة، ولا من غيرهم بعد نزول القرآن أن يعبدوا الله ﷻ بغير ما جاء فيه، أو يتحاكموا إلى غيره، فلا يجوز لأهل الكتاب ولا لغيرهم أن يعبدوا الله ﷻ بعد نزول القرآن بغيره، فلا دين إلا ما جاء به، ولا عبادة إلا ما شرع الله ﷻ فيه، ولا حلال إلا ما أحل فيه، ولا حرام إلا ما حرم فيه، ولا بد من الاعتقاد بأن القرآن هو الكتاب الوحيد من بين الكتب الإلهية الذي تكفل الله ﷻ بحفظ لفظه ومعناه من أن يتطرق إليه التحريف اللفظي أو المعنوي، وأن القرآن هو حجة الله البالغة الباقية التي أيد بها نبيه ﷺ وأتباعه إلى قيام الساعة، وأن الله ﷻ بين في القرآن كل شيء مما يحتاج له الناس في أمر دينهم ومعادهم، ودنياهم ومعاشهم، وأن القرآن تضمن خلاصة تعاليم الكتب السابقة، وأصول شرائع الرسل، وأن القرآن مشتمل على أخبار الرسل والأمم الماضية، وقد فصل ذلك بشكل لم يسبق إليه كتاب قبله، وأن القرآن هو آخر كتب الله نزولا وخاتمها والشاهد عليها [١].

---

(١) انظر بتصرف خلاصة ما جاء في الفصل الثاني من كتاب أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة لنخبة من العلماء، نشر وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد المملكة العربية لسعودية سنة ١٤٢١هـ.

• الإيمان بالرسل ودور العقل في تمييز النفع والضرر.

كما أن الإيمان بالكتب التي نزلت على الأنبياء والرسل ركن من أركان الإيمان، فإن الإيمان بالرسل التي بعثت بتلك الكتب ركن آخر من أركان الإيمان، فلا بد من الإيمان بهم جميعا، لأنهم يمثلون القدوة العليا والنموذج الأعلى لسائر العقلاء، وقد جاءوا بالمنهج الأسمى قولا وعملا واعتقادا لمن أراد الخير الأعلى في الدنيا والآخرة.

ومن المعلوم لدى سائر العقلاء أن العاقل هو من يحرص على جلب المنفعة وتحصيلها، وحب الخيرات وتفضيلها، ولا نجد عاقلا يفضل الخير الأدنى على الخير الأعلى، وأن العاقل أيضا هو الحريص على دفع المضرة وإبعادها، كما أنه يتحمل مشقة أدنى ليحصِّل منفعة أعلى، ويضحي بالقليل ليحصِّل الكثير، ويحرص على الباقي ويزهد في الفاني، فالمريض مثلا يتحمل مرارة الدواء طلبا للشفاء .

تلك أوصاف العقلاء النابعة من الفطرة السليمة، ومن هنا كانت دعوة الرسل والأنبياء دعوة عظيمة لأنها بنيت على إيثار ما عند الله ﷻ بطلب الجنة والبعد عن النار، فهذا هو الكمال الذي تقام به الحجة وتتحقق به الحكمة، فليس بعد نعيم الجنة من خير، وليس بعد عذاب النار من شر، وهذا كما هو مدون في القرآن مدون أيضا في كتب الأنبياء السابقين.

قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ الأعلى:١٦/١٩ .

وقد روى مسلم من حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﵁ أن رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: (يُؤْتَي بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً ثمَّ يُقَال: يَا ابْنَ آدَمَ هَل رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَل مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُول: لا وَاللهِ يَا رَبِّ وَيُؤْتَي بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيُصْبَغُ صبْغَة فِي الجَنَّةِ، فَيُقَال لهُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَل رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَل مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قط؟ فَيَقُول: لا وَاللهِ يَا رَبِّ، مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ وَلا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ) [١].

والقرآن يخبرنا أن المعرض عن ربه يعترف بذنبه، ويقر على نفسه بأن الله ﷻ منحه غريزة العقل لكنه لم ينتفع بها، وأنه لم يكن عاقلا حين فضل الدنيا على الآخرة. قال تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ الملك:٦/١١.

ولما كانت الحكمة لدى العقلاء اختيار الأفضل والأكمل للإنسان، وكان العقل قاصرا عن معرفة ذلك بمفرده، كان لا بد من قيادة حكيمة تأخذ بأيدي الناس إلى تحقيق الخير لهم، تلك القيادة جعلها الله ﷻ في أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام. ومن ثم تحتم على كل عاقل أن يؤمن بالرسل جميعا، ولا يفرق بين أحد منهم بحيث يؤمن

---

(١) رواه مسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب صبغ أنعم أهل الدنيا فى النار وصبغ أشدهم بؤسا في الجنة ٤/٢١٦٢ (٢٨٠٧).

ببعض ويكفر بعض، فالإيمان بالرسل من أعظم دعائم هذا الدين، ومن أكبر خصال الإيمان، ومن كذب بالرسل أو بأحد منهم فإنه باء بالخسران، لأنه كفران برحمة الله تعالى وعنايته بخلقه ونفي حكمته في إقامة الحجة بهم على عباده وأنه سبحانه أرسل إليهم أولئك الرسل الكرام للهداية والإرشاد، فبدلا من شكر الله ﷻ على هذه النعمة الكبرى، وبدلا من محبة الرسل وتوقيرهم والثناء عليهم بما يليق بهم لأنهم دعاة الخير ومنار الهداية، يجحدهم الملحدون ويسخر منهم العلمانيون والحداثيون.

والإيمان بالرسل يقتضي اعتقاد ما أخبر الله ﷻ به عنهم في كتابه وأخبر به ﷺ في سنته إجمالا وتفصيلا، فالإيمان المجمل هو التصديق الجازم بأن الله ﷻ بعث في كل أمة رسولا يقيم الحجة على العقلاء منهم، ويدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والكفر بما يعبد من دون الله ﷻ، ويقتضي الإيمان المجمل بالرسل الإيمان بأنهم صادقون هداة مهتدون كرام بررة راشدون، حنفاء أتقياء أمناء، وبأنهم كلهم كانوا على الحق المبين، وتمسكوا بحبل الله المتين، جاءوا بالبينات من ربهم إلى أقوامهم، وأن أصل دعوتهم واحدة، وهي الدعوة إلى توحيد الله ﷻ، وأما شرائعهم فمختلفة، وأنهم قد بلغوا جميع ما أرسلوا به البلاغ المبين، فقامت بذلك الحجة على الخلق. ويجب الإيمان بأن الرسل بشر مخلوقون، ليس لهم من خصائص الربوبية شيء، وإنما هم عباد أكرمهم الله ﷻ بالرسالة وقيادة البشرية إلى الفضيلة.

ومما يجب اعتقاده أيضا في حق الرسل أنهم منصورون مؤيدون من

الله ﷻ، وأن العاقبة لهم ولأتباعهم، كما يجب اعتقاد تفاضلهم على ما أخبر ﷻ، فيجب الإيمان بكل هذا، وبكل ما جاء في الكتاب والسنة عن الرسل على وجه العموم إيمانا مجملا.

وأما الإيمان المفصل فيكون بالإيمان بمن سمى الله ﷻ في كتابه والنبي ﷺ في سنته إيمانا مفصلا على نحو ما جاءت به النصوص من ذكر أسمائهم وأخبارهم وفضائلهم وخصائصهم.

والمذكورون في القرآن من الأنبياء والرسل خمسة وعشرون، فيجب الإيمان بهؤلاء الأنبياء والمرسلين إيمانا مفصلا، والإقرار لكل واحد منهم بالنبوة أو الرسالة على ما أخبر الله ورسوله ﷺ عنهم، كما يجب اعتقاد صحة ما جاءت به النصوص من ذكر فضائلهم وخصائصهم وأخبارهم، كاتخاذ الله ﷻ إبراهيم ومحمدا ﷺ خليلين للرحمن، وكتكليم الله ﷻ لموسى عليه السلام، وكذلك تسخير الجبال والطير لداود عليه السلام يسبحن بتسبيحه، وتسخير الرياح لسليمان عليه السلام تسير بأمره، وتسخير الجن له يعملون بين يديه ما يشاء، وتعليم سليمان عليه السلام منطق الطير.

كما يجب الإيمان على وجه التفصيل بما قص الله ﷻ في كتابه من أخبار الرسل مع أقوامهم، وما جرى بينهم من الخصومة، ونصر الله ﷻ لرسله وأتباعهم إلى آخر ما جاء في كتاب الله ﷻ من أخبار الأنبياء والرسل، وكذلك ما جاء في السنة، يجب الإيمان به إيمانا مفصلا بحسب ما جاءت به نصوص الوحي الذي نزل على محمد ﷺ.

كما يجب على الأمة تجاه الرسل حقوق عظيمة بحسب ما أنزلهم الله ﷻ من المنازل الرفيعة في الدين، وما رفعهم الله ﷻ إليه من الدرجات

السامية الجليلة عنده، وما شرفهم به من المهمات النبيلة، وما اصطفاهم به من تبليغ وحيه وشرعه لعامة خلقه [١].

ومن هذه الحقوق تصديقهم جميعا فيما جاءوا به، وأنهم مرسلون من ربهم، مبلغون عن الله ﷻ ما أمرهم، وعدم التفريق بينهم في ذلك . ومما يجب اعتقاده أنه لا يجوز لأحد من الثقلين متابعة أحد من الرسل السابقين بعد مبعث محمد ﷺ المبعوث للناس كافة، إذ أن شريعته جاءت ناسخة لجميع شرائع الأنبياء من قبله، فلا دين إلا ما بعثه الله ﷻ به، ولا متابعة إلا لهذا النبي الكريم الذي هو أفضلهم جميعا. روى مسلم من حديث أبي هريرة ﵁ أن النبي ﷺ قال: (أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ، وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ) [٢].

ويجب الإيمان بأن الله ﷻ خص نبينا محمدا ﷺ بكثير من الخصائص والمناقب التي فضله بها على غيره من المرسلين، وميزه بها عن سائر العالمين، كعموم رسالته لكافة الثقلين من الجن والإنس، فلا يسع أحدًا منهم إلا اتباعه والإيمان برسالته، وأنه خاتم الأنبياء والمرسلين كما دلت على ذلك نصوص القرآن والسنة، ولهذه النصوص أجمعت الأمة سلفا وخلفا على تكفير من ادعى النبوة بعده ﷺ، ووجوب قتل مدعيها إن أصر على ذلك [٣].

ومن حقوق النبي ﷺ محبة أصحابه، وأهل بيته وأزواجه، وموالاتهم

---

(١) انظر بتصرف الفصل الثالث من المصدر السابق.

(٢) مسلم في الفضائل، باب تفضيل نبينا على جميع الخلائق ١٧٨٢/٤ (٢٢٧٨).

(٣) المصدر السابق.

جميعا، والحذر من تنقصهم أو سبهم أو الطعن فيهم بشيء، فإن الله ﷻ قد أوجب على هذه الأمة موالاة أصحاب نبيه، وندب من جاء بعدهم إلى الاستغفار لهم، وسؤال الله ﷻ أن لا يجعل في قلوبهم غلا لهم، كما يجب الإيمان باستقرار التشريع الإسلامي، وكمال الدين لدى الأمة والحذر من البدعة وتفضيل استحسان العقل على اتباع الشرع .

إن من حكمة الله في قيام الحجة على العقول إرسال الرسل لتعريف الناس بمعبودهم الحق، ولدعوتهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وإقامة الدين، والنهي عن التفرق فيه، وإرسالهم يبشرون وينذرون في عواقب أفعالهم في الدنيا والآخرة [(١)].

• الدعوة إلى وحدة الأديان لا يحقق حكمة ولا يقيم حجة.

إذا كانت رسالة الإسلام تمثل المنهج الرباني الأسمى الذي يحقق المصلحة العليا لكل العقلاء، فإنه لا يصح خلط هذا المنهج بالمناهج التي حرفت وبدلت وغيرت، وإن نسبت إلى السابقين من الرسل والأنبياء، فالتوراة التي بأيدي اليهود حرفت وبدلت وفقدت الألواح التي كتبها الله ﷻ بيده ونزلت على موسى عليه السلام، وكذلك الأناجيل التي بأيدي النصارى اليوم انقطع سندها إلى عيسى عليه السلام بفجوة زمنية لا يمكن الاطمئنان فيها إلى أنها رسالة سماوية أو القطع بذلك.

كما أن الإيمان بالله ﷻ الذي هو المطلوب من جميع الثقلين، لا يتم تحقيقه إلا بالاعتقاد الجازم بأن الله تعالى رب كل شيء ومليكه، وأنه

---

(١) المصدر السابق.

متصف بصفات الكمال والجلال، وأنه سبحانه هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له، والقيام بذلك قولا وعملا، ولا يتحقق ذلك إلا باتباع خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ.

وليس كما يظن العلمانيون المتجاهلون للأحكام الشرعية أن الإيمان بالله ﷻ يتحقق بمجرد الإيمان بالربوبية دون الإيمان بأسمائه وصفاته وتوحيده في عبادته ودون المتابعة لرسوله محمد ﷺ، مما جعلهم ينادون بالاتحاد بين الإسلام الحق القائم على التوحيد الكامل، وبين كل دين محرف مبدل فيه من نواقض هذا الإيمان ما تقشعر منه الأبدان، فمقتضى الإيمان بالكتب المنزلة الإيمان بأن القرآن الكريم هو آخر كتب الله ﷻ نزولا وآخرها عهدا برب العالمين، نزل به الروح الأمين من عند رب العالمين على نبيه ورسوله الأمين محمد ﷺ، وأنه ناسخ لكل كتاب أنزل كالزبور والتوراة والإنجيل وغيرها ومهيمن عليه، حتى ولو كان كل ما فيها صحيحا، فلم يبق كتاب منزل يُتَعَبَّدُ الله به ويُتَّبَعُ سوى القرآن العظيم، ومن يكفر به فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ.

والعجب أنه بالرغم من كون اليهود والنصارى لا يؤمنون بمحمد ﷺ، ولا يؤمنون بالقرآن ولا بنسخه لما قبله، وينسبون ما في أيديهم من بقايا التوراة والإنجيل مع ما أضيف إليهما من التحريف والتبديل والتغيير إلى الله تعالى، بل فيهما من الافتراء نسبة أشياء من القبائح إلى عدد من الأنبياء حاشاهم عن فرى الأفاكين، على الرغم من ذلك فإننا نجد من بعض المنتسبين إلى الإسلام كالعلمانيين والحداثيين من لا يستحي أن يدعو إلى طبع هذه الأسفار والإصحاحات المحرفة مع كتاب الله ﷻ

المعصوم القرآن الكريم.

وينبغي على كل مسلم في مقتضى إيمانه بالكتب والرسل اعتقاد كفر من لم يدخل في الإسلام من اليهود والنصارى وغيرهم وتسميته كافرا وأنه عدو لنا وأنه من أهل النار، ولا يجوز لأحد من أهل الأرض اليوم أن يبقى على أي من الشريعتين اليهودية والنصرانية، فضلا عن الدخول في إحداهما، ولا يجوز لمتبع أي دين غير الإسلام وصفُهُ بأنه مسلم، أو أنه على ملة إبراهيم، لأن ما كان في اليهودية والنصرانية من شرع صحيح فهو منسوخ بشريعة الإسلام، فلا يقبل الله ﷻ من عبد أن يتعبده بشرع منسوخ، فبطلت بهذه نظرية الخلط بين دين الإسلام الحق وبين غيره من الشرائع الدائرة بين التحريف والنسخ، وأنه لم يبق إلا الإسلام وحده، والقرآن وحده، وأن محمدا ﷺ لا نبي بعده، وأن شريعته ناسخة لما قبله ولا يجوز اتباع أحد سواه. وأنه لا يجوز لمسلم طباعة التوراة والإنجيل وتوزيعهما ونشرهما، وأن نظرية طبعهما مع القرآن الكريم في غلاف واحد من الضلال البعيد والكفر العظيم.

كما أنه لا تجوز الاستجابة لدعوتهم في بناء مسجد وكنيسة ومعبد في مجمع واحد بحجة تقارب الأديان، لما فيها من الإقرار والاعتراف بدين للعبادة سوى الإسلام، وإخفاء ظهوره على الدين كله، وأن الإسلام غير ناسخ لما قبله، وهذه المردودات السالبة فيها من الكفر والضلال ما لا يخفى، فعلى المسلمين بعامة ومن بسط الله يده عليهم بخاصة الحذر الشديد من مقاصد الكفرة من اليهود والنصارى في إضلال المسلمين والكيد لهم، فإن بيوت الله في أرضه المساجد وحدها،

وهذه المساجد من شعائر الإسلام، فواجب تعظيمها ورعاية حرمتها وعمارتها، ومن تعظيمها ورعايتها عدم الرضا بحلول كنائس الكفرة ومعابدهم في حرمها وجوارها وعدم إقرار إنشائها في بلاد الإسلام، ورفض مساجد الضّرار المضرة بالإسلام والمسلمين في بلاد الكافرين.

وانظر كيف تشابهت أعمال المنافقين ومقاصدهم في القديم مع ما يفعلونه في هذا العصر الحديث؛ إذ بنى المنافقون قديما مسجدا ضرارا بالمؤمنين، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٠٧﴾ التوبة:١٠٧/١٠٩.

أما عملهم حديثا فهو أشد ضرارا بالإيمان والمؤمنين والإسلام والمسلمين، كالفرق الباطنية التي أسست من قِبَل الاستعمار الروسي والإنجليزي واليهودية العالمية والمنسوبة إلى الإسلام ظلما لهدمه والعدوان عليه، كالبابية المنسوبة إلى الميرزا علي محمد الشيرازي الملقب باب المهدي والهالك بعد منتصف القرن الثالث عشر الهجري، وكذلك البهائية نسبة إلى البهاء حسين بن الميرزا والهالك في مطلع القرن الرابع عشر الهجري. والقاديانية نسبة إلى مرزا غلام أحمد القادياني الهالك في نهاية الربع الأول من القرن الرابع عشر الهجري.

وهذه الفرق محكوم بكفرها بإجماع المسلمين، وقد صدرت بكفرها قرارات شرعية دَولية، لأنها جميعها تدعو إلى هذه النظرية نظرية الخلط بين الأديان وعدم نسخ شريعة الإسلام لما قبلها.

والخلاصة أن الرسالات السماوية أنزلها الله ﷻ تحقيقا لحكمته في قيام حجته على سائر العقلاء، وطرحا لأفضل اختيار عقلي بتوجيه رباني لا يكون الحكم بالحسن والقبح على الأشياء مرده إلى العقل فقط، بل يطرح أمام العقل بمقتضى الحكمة الإلهية أفضل المناهج التي تقيم الحجة على البشرية، وهذا يتمثل في رسالة الإسلام دون غيره.

- **إرادة الله الشرعية هي أحكام العبودية التي تقام بها هي الحجة.**

لقد جاءت رسالة الإسلام بأحكام شرعية تكليفية تسمى أحكام العبودية، يجب على كل مسلم شهد ألا إله إلا الله أن يسأل عنها، وأن ينفذ ما علم منها، وهي خمسة أحكام، الواجبات ويقابلها المحرمات، ثم بعد ذلك المستحبات أو المندوبات ويقابلها المكروهات، ثم ما خيرنا الله ﷻ فيه من أنواع المباحات .

وطلب العلم بأحكام العبودية أو إرادة الله الشرعية التكليفية من وظائف الإرادة وأجهزة الإدراك البشرية، فجهاز الإدراك في الإنسان يمد القلب بالعلم، وما ورد من أدلة الحكم، والقلب هو محل العقل والإرادة في الإنسان، والمؤمن إرادته مطابقة لما ورد في القرآن والسنة، ومن ثم يتحرك في طاعة الله ورسوله ﷺ.

وكلما ازداد المسلم علما بالله ﷻ كلما علت خشيته، وازدادت محبته، وظهرت سكينته، وبانت حكمته، وتواضع لله ﷻ، فالعلماء ورثة الأنبياء، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ٢٨﴾ فاطر:٢٨.

وصح عن النبي ﷺ: (مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَإِنَّمَا العِلْمُ بِالتعَلمِ) [١].

ويذكر ابن القيم ن استكمال القوة العلمية إنما يكون بمعرفة فاطره وبارئه ومعرفة أسمائه وصفاته، ومعرفة الطريق التي توصل إليه، ومعرفة آفاتها، ومعرفة نفسه ومعرفة عيوبها، فبهذه المعارف الخمسة يحصل كمال قوته العلمية، وأعلم الناس أعرفهم بها، وأفقههم فيها [٢].

وذكر أيضا أن حياة القلب وصحته لا تحصل إلا بأن يكون مدركا للحق، مريدا له مؤثرا له على غيره، وذلك لأن القلب فيه قوتان: قوة العلم والتمييز، وكمالها باستعمالها في إدراك الحق ومعرفته والتمييز بينه وبين الباطل. وقوة الإرادة والحب وكمالها باستعمالها في طلب الحق ومحبته وإيثاره على الباطل. وصلاح القلب إنما هو باستعمال هاتين القوتين فيما ينفعه ويعود عليه بصلاحه وسعادته، فمن لم يعرف الحق فهو ضال، ومن عرفه وآثر غيره عليه فهو مغضوب عليه، ومن عرفه واتبعه فهو منعم عليه. وقد أمرنا سبحانه وتعالى أن نسأله في صلاتنا أن يهدينا صراط الذين أنعم الله عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين، ولهذا كان النصارى أخص بالضلال لأنهم أمة جهل، واليهود أخص بالغضب لأنهم أمة عناد، وهذه الأمة هم المنعم عليهم. وينبغي أن تعلم

---

(١) رواه الطبراني ٤٣١/١ (٧٥٨)، والشطر الأول من الحديث رواه البخاري في كتاب العلم، باب من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ٣٩/١ (٧١)، وانظر فتح الباري لابن حجر ٢١/١.

(٢) الفوائد لابن القيم ص١٩ بتصرف.

أن هاتين القوتين لا تتعطلان في القلب، بل إن استعمل قوته العلمية في معرفة الحق وإدراكه، وإلا استعملها في معرفة ما يليق به ويناسبه من الباطل، وإن استعمل قوته الإرادية العملية في العمل به وإلا استعملها في ضده [١].

• العقل مراقب للخواطر يتابعها ويمحص ما فيها

إن الله تعالى أيد الإنسان بملك كريم يقابل عدوه الشيطان، فإذا أمره الشيطان بأمر، أمره الملك بأمر ربه، وبين له ما في طاعة العدو من الهلاك، فهذا يلم به مرة، وهذا مرة، والمنصور من نصره الله ﷻ، والمحفوظ من حفظه الله تعالى، وجعل له مقابل نفسه الأمارة نفسا مطمئنة، إذا أمرته النفس الأمارة بالسوء نهته عنه النفس المطمئنة، وإذا نهته الأمارة عن الخير أمرته به النفس المطمئنة، فهو يطيع هذه مرة، وهذه مرة. وجعل الله ﷻ له مقابل الهوى الحامل له على طاعة الشيطان والنفس الأمارة، نورا وبصيرة وعقلا، يرده عن الذهاب مع الهوى، فكلما أراد أن يذهب مع الهوى، ناداه العقل والبصيرة والنور: الحذر الحذر، فإن المهالك والمتالف بين يديك، وأنت صيد الحرامية، وقطاع الطريق إن سرت خلف هذا الدليل، فهو يطيع الناصح مرة فيبين له رشده ونصحه، ويمشي خلف دليل الهوى مرة، فيقطع عليه الطريق، ويؤخذ ماله، ويسلب ثيابه[٢].

ويذكر أبو طالب المكي أنواع الخواطر وأن أولها خاطر النفس

---

(١) إغاثة اللهفان لابن القيم ٢٤/١ بتصرف.

(٢) الوابل الصيب من الكلم الطيب لابن القيم ٢٨/١ بتصرف.

وخاطر العدوّ وهما مذمومان محكوم لهما بالسوء، لا يردان إلا بالهوى وضد العلم. ثم خاطر الروح وخاطر الملك وهذان محمودان لا يردان إلا بحق، وبما دل عليه العلم. ثم خاطر العقل، وهو متوسط بين هذه الأربعة يصلح للمذمومين فيكون حجة على العبد لمكان تمييز العقل وتقسيم المعقول، لأن العبد يدخل في هواه بشهوة جعلت له، واختيار لا يعسر عليه، من حيث لا يعقل ولا إجبار، ويصلح أيضا للمحمودين فيكون شاهدا للملك ومؤيدا لخاطر الروح، ويثاب العبد في حسن النية وصدق المقصد.

وإنما كان خاطر العقل تارة مع النفس والعدوّ وتارة مع الروح والملك حكمة من الله تعالى لصنعته، وإتقانا لصنعه، ليدخل العبد في الخير والشر بوجود معقول، وصحة شهود وتمييز، فيكون عاقبة ذلك من الجزاء والعقاب عائدا له وعليه، إذ قد جعل سبحانه هذا الجسم مكانا لجريان أحكامه، ومحلا لنفاذ مشيئته في مباني حكمته.

كذلك جعل العقل مطية للخير والشر يجري معهما في خزانة الجسم، إذ كان مكانا للتكليف، وموضعا للتصريف، وسببا للتعريف العائد من معاني ذلك على صورة العبد من لذة النعيم أو عذاب أليم. فلم يكن العقل غائبا، فيكون العبد عن العقل ذاهبا، ولم تكن الشهوة عازبة فتكون النفس مفقودة، إذ في ذلك تضعيف لحجة الله تعالى عليه، ووهن لبرهانه، لأن العقل شاهد الحجة، والشهوة في النفس مكان البلوى، والنية في القلب طريق الحجة، وذلك أصل سبب عود جزاء الأمر والنهي، فالعقل مطبوع على التمييز، مجبول على التحسين والتقبيح،

والنفس مجبولة على الشهوة، مطبوعة على الأمر بالهوى، وهذا نصيبيهما من عطائه، وهدايته لهما إلى رشاده وإغوائه، وكل هذا إلهام وإلقاء من خالق النفس ومسويها، وجبار القلوب ومقلبها، حكمة منه وعدلا لمن شاء، ومنةً وفضلا لمن أحب، كما قال: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ الأنعام:١١٥. أي بالهداية صدقا لأوليائه ما وعدهم من ثوابه، وبالإضلال عدلا على أعدائه ما أعد لهم من عقابه [١].

وخلاصة الأمر أن العقل غريزة وضعها الله في قلوب الممتحنين من عباده إظهارا لحكمته، وهو يمثل صمام الأمان في منطقة حديث النفس أو اختيارات الإنسان، فهو يقوم بجمع المعلومات الواردة من الخواطر في الداخل، أو حواس الإنسان في الخارج، ثم يقوم بتحليلها وتمييزها، ثم تخزينها في الذاكرة لاستدعائها وفق إرادة الإنسان، والوظيفة الأساسية التي يقوم بها العقل تمييز الخير من الشر حسب منهج تكليفي محدد، إما من وضع البشر وقوانينهم المظلمة، أو من وضع خالقهم وقوانينه المحكمة، والمسئولية واقعة على عاتق الإنسان .

ومن ثم فإنه بعد هذا البيان ووجود منطقة حديث النفس في الإنسان، فيها نازعان وهاتفان، وعقل مميز يتابع الخواطر في الجنان، فكيف تقول الجبرية بأن الإنسان مجبر على العصيان، ولا حرية له في اختيار الكفر أو الإيمان.

(١) قوت القلوب لأبي طالب المكي ٢٠١/١ إلى ٢٠٢/١ بتصرف.

المطلب الثالث والعشرون

منطقة الكسب والحكمة في خلق مقومات الاختيار في الإنسان

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فقد تحدثنا في المطلب السابق عن العقل كمقوم من مقومات الاختيار في الإنسان، وبينا المقصود به في اللغة واستعمالاته في القرآن والسنة، والمقصود به في المعنى الاصطلاحي العقدي، وعلمنا أن العلم التجريبي الحديث أثبت أن العقل كائن في القلب.

وبينا أيضا أن العقل والقلب من مظاهر الحكمة في خلق الإنسان وكمال النعمة، وأن ما يدركه الإنسان بالعقل أمران أساسيان، أحدهما وهبي والآخر كسبي، كما علمنا أن الأمر المكتسب هو معرفة الحدود الشرعية والأوامر التكليفية، وأن ذلك لا يكون إلا بوحي من الله، ومن ثم تناول الحديث في هذا المطلب قضية الإيمان بالكتب والرسل وأنها من أركان الإيمان التي تحقق الحكمة الإلهية والتي تسهم في فاعلية دور العقل في تمييز النفع والضرر.

وعلمنا أن الدعوة إلى وحدة الأديان في هذا العصر لا تحقق حكمة ولا تقيم حجة، ولا بد من الالتزام بأحكام الإسلام فقط، وهي إرادة

الله الشرعية أو أحكام العبودية التي تقام بها هي الحجة عند الله ﷻ إلى يوم القيامة.

وفي هذه المطلب نتحدث بإذن الله ﷻ عن منطقة الكسب كمقوم من مقومات الاختيار في الإنسان، وكيف أن وجود المشيئة والإرادة في قلبه من دلائل الحكمة التي دل عليها اسم الله الحكيم.

- **من مقومات الاختيار في الإنسان منطقة الكسب.**

علمنا أن منطقة حديث النفس كائنة في قلب الإنسان، وأن الله ﷻ جعل للخواطر في القلب ركنين نفسيين، ونازعين ذاتيين، متقابلين ومتضادين، أحدهما يدعوا إلى التقوى والإيمان، والآخر يدعو إلى الفجور والعصيان.

وجعل الله ﷻ أيضا ركنين خارجيين، من خلال وجود هاتفين قرينين، متقابلين ومتضادين، ليس لأحدهما جبر، أو غلبة على إرادة الإنسان، الأول ويسمى الملك أو هاتف الخير وداعي الإيمان، والثاني يسمى هاتف الشر أو الشيطان، والهاتفان والنازعان يسهمان في تشكيل الخواطر خيرها وشرها.

كما أنه من كمال عدل الله ﷻ أنه أوجد في منطقة حديث النفس عقلا يمثل صماما للأمان، يضبط الأفكار والخواطر في قلب الإنسان، ويميز به بين ما ينفع وما يضر، ويقيس من خلاله معاني الخير والشر.

ومن أدلة الاختيار ومقوماته في الإنسان منطقة الكسب التي تحوي مشيئاته واختياراته وجميع أعمال القلوب، وهي مصدر أصيل للنيات

والإرادات، والباعث السببي للحركات والسكنات في الإنسان، وعليها تقع المساءلة عن إرادته للكفر أو الإيمان، وكل ما يكتسبه الإنسان في الدنيا والآخرة.

والأدلة على كسب الإنسان كثيرة في القرآن والسنة، فمن الأدلة القرآنية على أن الإنسان يحاسب على كسبه وسعيه في الدنيا، ما ورد في قوله تعالى: ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون (٤١)﴾ الروم:٤١.

وقوله سبحانه: ﴿وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون (١٧)﴾ فصلت:١٧.

وقوله تعالى: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير (٣٠)﴾ الشورى:٣٠.

وقوله تعالى: ﴿وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين (٨٢) فأخذتهم الصيحة مصبحين (٨٣) فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون (٨٤)﴾ الحجر:٨٢/٨٤.

وقوله: ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون (٩٦)﴾ الأعراف:٩٦.

وكل الدلائل النقلية والعقلية والفطرية تشهد بأن المسئولية تقع على عاتق الإنسان في الدنيا بسبب كسبه وسعيه، واختياره وفعله، وأنه لا يصح من جهة النقل والعقل الاحتجاج بالجبر على نفي الاختيار والكسب، بل إن الفطرة شاهدة على أن الإنسان حريص كل الحرص

على دفع الأذى والمضرة التي تقع من كسب الآخرين عليه وسعيهم، وحريص أيضا على إلقاء المسئولية على عواتقهم بأدنى فعل، وأن عاقلا لا يحتج بالجبر عندما يُسرق ماله، أو تُؤخذ أرضه، أو يُعتدي عليه، أو يُنتهك عرضه.

وأما الأدلة على أن الإنسان يحاسب على كسبه وسعيه في الآخرة فلا تكاد تحصى، منها قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ آل عمران:٢٥.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾﴾ آل عمران:١٦١.

وقوله سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ البقرة:٢٨١.

قال ابن القيم: (الأحكَام فِي الدنيا والآخِرَة مرَتبة على ما كَسَبَه القَلب، وعقَد عليه، وأَرَاده من معنى كَلامه)[1].

وقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾ غافر:١٧.

وقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾ المدثر:٣٨/٤٢.

وهذا الكسب الذي يوجد في القلب بما يحويه من مشيئات وإرادات

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم ٤/٣٢٢.

وقصود واختيارات من أعجب الدلالات على كمال حكمة الله ﷻ وقدرته وقيام حجته على عباده، أو كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية في قصيدته التائية:

فَليسَ بِمَجْبُورٍ عديمِ الإِرادَةِ : وَلَكِنَّهُ شَاءَ بِخَلقِ الإِرادَةِ

وَمِن أَعجَبِ الأَشْياءِ خَلقُ مَشِيئَةٍ : بِهَا صَارَ مُخْتَارَ الهُدَى بِالضَّلالَةِ[١]

وهو يعني أن العبد ليس بمجبور ولا عديم الإرادة أبدا، ولكن الله ﷻ خلق له اختيارا وإرادة في قلبه، صارت بها جميع أفعاله من سعيه وكسبه، وشاء بها أن يختار بين طريقين، وأن يسلك أحد النجدين، طريق الخير، أو طريق الشر، فالإنسان حر مختار بين حسن وسوءة، وليس بمجبور كما يدعي من يزعم أنه مسير مسلوب الإرادة.

ثم يبين رحمه الله أنه من أعجب الأشياء التي تدل على كمال الحكمة الإلهية أن الله ﷻ خلق المشيئة في الإنسان بهذه الهيئة، وهذا الوضع الذي نراه على غاية الإبداع والكمال، ليختار بين طريقين، ويكون الشخص له حرية محدودة باختيار أحد الضدين من الأفعال، خيرا كان أو شرا، وأن الإنسان سواء اختار هذا أو ذاك، فالخالق لأفعاله هو الله ولا خالق في الكون سواه، والإنسان يتحقق فيه عدل الله ﷻ إن عصى ربه، ولا يلوم يوم القيامة إلا نفسه.

---

(١) مجموع الفتاوى ٨/٢٥٤.

- **الأدلة من القرآن على أن منطقة الكسب محلها القلب.**

والقلب كما أنه يتضمن منطقة حديث النفس، ويحتوى أيضا على غريزة العقل كوسيلة للمعرفة والتميز، فإنه يحتوى على منطقة الكسب التي تمثل منبع الاختيارات والإرادات والقصود والنيات وجميع أعمال القلوب التي يحاسب عليها الإنسان. والدليل على أن منطقة الكسب في القلب قوله تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾ البقرة:٢٢٥. والشاهد هنا أن الله ﷻ نسب الكسب إلى القلب في صريح النص. قال ابن عبد الهادي: (جعل سبب المؤاخذة كسب القلب، وكسبه هو إرادته وقصده، وما جرى على لسانه الكلام من غير قصد واختيار، بل لشدة غضب أو سكر أو غير ذلك، لم يكن من كسب قلبه) [١].

وذكر ابن جرير الطبري أن الله ﷻ أوعد عباده أن يؤاخذهم بما كسبت قلوبهم من الأيْمان، فالذي تكسبه قلوبهم من الأيمان هو ما قصدته وعزمت عليه على علم ومعرفة منها بما تقصده وتريده [٢].

قال البغوي: (قد أثبت الله تعالى للقلب كسبا فقال: بما كسبت قلوبكم) [٣]. وقال في معنى كسبت قلوبكم: (أي عزمتم وقصدتم إلى اليمين، وكسب القلب العقد والنية) [٤].

---

(١) تنقيح التحقيق في أحاديث التعليق لابن عبد الهادي ٥٢٢/٣.

(٢) تفسير الطبري٤١٦/٢ بتصرف.

(٣) تفسير البغوي المسمى بمعالم التنزيل ٢٧٢/١.

(٤) المصدر السابق ٢٠١/١.

ويفرق ابن مفلحٍ المقدسي بين الكسب في القلب الذي يؤاخذ عليه وحديث النفس الذي لا يؤاخذ عليه فيقول: (وللقَلب أَفْعال سِوى حَديث النفسِ بالفِعل لقَوله تعالى: ولكِن يؤَاخِذكم بما كَسَبت قُلوبكُم. قال: وقَد يؤَاخَذ الإِنسَان بشيءٍ من أَفْعال القَلب نحْو إرَادة العزْم والرِّضَا بالفِعل، والسُّخْط به، والاخْتيارِ له، والنية عليه، ومثل الحَسَد، والطمع، وتعليقِ القَلب بما دون الله ﷻ والنفَاق والرِّياءِ والإعجاب، وأَما ما لا يؤَاخَذ به فَهو كَالخَواطِرِ الوارِدة عليه مما لا يدخُل تحْت قُدرَته) [١].

ويذكر إسماعيل حقي أن العبد مؤاخذ بعزمه على المعصية كما ذكر الله ﷻ أنه يؤاخذ العباد بما كسبت القلوب، أي بما كسبت مما يدخل تحت الاختيار من خبائث أعمال القلب من حب الدنيا، ومن الرياء والعجب والحسد والكبر والنفاق مثلا، وأما ما لا يدخل تحت الاختيار، فلا يؤاخذ به، ألا ترى إلى قوله ﷺ: (إنَّ اللهَ تَجاوَزَ لأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنفُسَهَا، مَا لَمْ يَتَكَلَّمُوا أَوْ يَعْمَلوا بِهِ) [٢].

ثم ذكر أن الذي يقع في النفس من قصد المعصية على خمس مراتب، الهاجس وهو ما يلقى فيها، ثم جريانه فيها وهو الخاطر، ثم حديث النفس وهو ما يقع فيها من التردد، هل يفعل أو لا؟ ثم الهم، وهو ترجيح قصد العمل، ثم العزم وهو قوة ذلك القصد والجزم به؛ فالهاجس لا يؤاخذ به إجماعا لأنه ليس من فعله، وإنما هو شئ أورد عليه ولا

(١) الآداب الشرعية والمنح المرعية لابن مفلح المقدسي ١/١٣٠.
(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب إذا لم تستقر ١/١١٦ (١٢٧).

قدرة له على رده، والخاطر الذي بعده كان قادرا على دفعه بصرف الهاجس أول وروده، ولكن هو وما بعده من حديث النفس مرفوعان بالحديث الصحيح، وإذا ارتفع حديث النفس، ارتفع ما قبله بالأولى[1].

ومن ثم فإن كسب الإنسان عائد إلى كسب القلب، لأن القلب هو المخاطب في الحقيقة، فهو موضع التمييز والاختيار، وأما سائر الأعضاء فمسخرة له، ويدل على ذلك الكتاب والسنة والمعقول، فمن الكتاب قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾ البقرة:٩٧. وقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ الشعراء:١٩٣/١٩٤. كما أن استحقاق الجزاء ليس إلا على ما في القلب من كسب، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ البقرة:٢٢٥.

وقوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ النحل:١٠٦.

قال ابن عباس رضي الله عنه: (أخبر الله سبحانه أن من كفر بعد إيمانه فعليه غضب من الله، وله عذاب عظيم، فأما من أكره فتكلم بلسانه وخالفه قلبه بالإيمان لينجو بذلك من عدوه فلا حرج عليه. إن الله سبحانه إنما يأخذ العباد بما عقدت عليه قلوبهم)[2].

---

(١) تفسير إسماعيل حقي ٧/ ٢١٤ بتصرف.

(٢) سنن البيهقي ٨/٢٠٩ (١٦٦٧٦)، الدر المنثور للسيوطي ٥/١٧١.

وقال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ الأنفال:٢٤. والشاهد أن الله ﷻ يحول بين تنفيذ البدن لما يريده القلب من النية والإرادة والكسب، فيريد الشيء ولا يقع كما يريد، ويحاسبه الله ﷻ على كسبه ونيته، فتتحقق في الإنسان مقتضى قدرة الله وحكمته معا، فالاستجابة أصلها بالقلب، فلا تنفع الاستجابة بالبدن دون القلب.

قال ابن القيم: (المشهور في الآية أنه يحول بين المؤمن وبين الكفر، وبين الكافر وبين الإيمان، ويحول بين أهل طاعته وبين معصيته، وبين أهل معصيته وبين طاعته، وهذا قول ابن عباس وجمهور المفسرين) [(١)].

وقد وصف الله ﷻ القلب بأنه يمرض ويقسو بالنفاق، وأنه يصح بالصدق والإخلاص والتوحيد، ويزداد القلب بذلك إيمانا، فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ التوبة:١٢٤/١٢٥.

وقال تعالى: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ البقرة:١٠. وقال: ﴿ لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ

---

(١) الفوائد لابن القيم ص٩٠.

﴿ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ الحج:٥٣/٥٤.

قال الإمام البخاري: (باب قول النبي ﷺ: أنا أعلمكم بالله، وأن المعرفة فعل القلب، لقوله تعالى: ولكِن يؤَاخِذُكُم بما كَسَبَت قُلوبكُم)[١]. قال ابن رجب: (مراده بهذا التبويب أن المعرفة بالقلب التي هي أصل الإيمان فعل للعبد وكسب له، واستدل بقوله تعالى: بما كَسَبَت قُلوبكُم. فجعل للقلوب كسبا كما جعل للجوارح الظاهرة كسبا. والمعرفة مركبة من تصور وتصديق، فهي تتضمن علما وعملا، وهو تصديق القلب، فإن التصور قد يشترك فيه المؤمن والكافر، والتصديق يختص به المؤمن، فهو عمل قلبه وكسبه) [٢].

• أدلة السنة على أن منطقة الكسب والأعمال محلها القلب.

بينت السنة النبوية أن منطقة الكسب كائنة في القلب، وأنها محل الإرادات والنيات، والقصود والاختيارات وسائر أعمال القلب، والأدلة على ذلك كثيرة منها:

١- روى البخاري من حديث النعمان بن بشير ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (أَلا وإِنَّ فِي الجسَد مُضْغَة، إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجسَد كُله، وإِذا فَسَدتْ فَسَدَ الجسَد كُله، أَلا وهيَ القَلب) [٣]. والنص ظاهر في كون القلب هو محل التصرف والكسب في الإنسان، وصلاح البدن أو فساده متوقف على صلاحه أو فساده من حيث القوة والضعف في

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الإيمان ١/١٥.
(٢) فتح الباري لابن رجب الحنبلي ١/٨٠، نشر دار ابن الجوزي، السعودية.
(٣) رواه البخاري في الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه ١/٢٨ (٥٢).

علاقة مطردة من القلب إلى البدن.

٢- وعند البخاري من حديث أَبي سعيد ﷺ أن النبي ﷺ قال: (يدخُل أَهل الجنة الجنة، وأَهل النارِ النارَ، ثم يقُول الله تعالى: أَخْرِجوا من النارِ من كَان فِي قَلبه مثقال حَبة من خَرْدل من إِيمان فَيخرَجُون منها قَد اسْودوا)[1]. والشاهد أن الإيمان وأعمال الخير وكسب العبد الذي أخرجه من النار وأدخله الجنة قام بالقلب. ومثله ما ورد عند البخاري من حديث أَنس ﷺ أن النبي ﷺ قال: (يخرُج من النارِ من قال لا إِله إِلا الله وفِي قَلبه وزْن شعيرَة من خيَر، ويخرُج من النارِ من قال لا إِله إِلا الله وفِي قَلبه وزْن برَة من خَير، ويخرُج من النارِ من قال لا إِله إِلا الله وفِي قَلبه وزْن ذرَّة من خَيرٍ)[2].

٣- وروى البخاري عن أَبي هرَيرَة ﷺ أَنه قال: (قِيل: يا رَسُول الله من أَسْعد الناسِ بشفَاعتك يوم القِيامة؟ قال: رَسُول الله ﷺ لقَد ظَننت يا أَبا هرَيرَة أَن لا يسْأَلني عن هذا الحَديث أَحَد أَول منكَ لما رَأَيت من حِرْصِك على الحَديث؟ أَسْعد الناسِ بشفَاعتي يوم القِيامة من قال لا إِله إِلا الله خَالصًا من قَلبه أَو نفْسِه)[3].

٤- وعند البخاري من حديث أَنس بن مالكٍ ﷺ أَن النبي ﷺ ومعاذ

---

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب تفاضل أهل الإيمان في الأعمال ١/١٦ (٢٢)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب إثبات الشفاعة ١/١٧٢ (١٨٤).

رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب زيادة الإيمان ونقصانه ١/٢٤ (٤٤)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها ١/١٨٢ (١٩٣).

(٢) رواه البخاري في كتاب العلم، باب الحرص على الحديث ١/٤٩ (٩٩).

ﷺ رَديفُه على الرَّحْل قال: (يا معاذ بن جبل، قال: لبيكَ يا رَسُول الله وسَعديكَ. قال: يا معاذ. قال: لبيكَ يا رَسُول الله وسَعديكَ ثلاثا. قال: ما من أَحَد يشهد أَن لا إِله إِلا الله، وأَن محمدا رَسُول الله صِدقا من قَلبه إِلا حَرَّمه الله على النارِ. قال: يا رَسُول الله أَفَلا أُخبِرُ به الناسَ فَيستبشرُوا. قال: إِذا يتكِلوا. وأَخبَرَ بها معاذ عند موته تأَثما) [1].

٥- وعند البخاري من حديث أَبي هرَيرَة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (سَبعة يظِلهم الله فِي ظِله يوم لا ظِل إِلا ظِله، الإِمام العادل، وشاب نشأ فِي عبادة رَبه، ورَجل قَلبه معلقٌ فِي المسَاجد. الحديث) [2].

٦- وفي صحيح مسلم من حديث أَبي هرَيرَة ﷺ أن رَسُول الله ﷺ قال له: (اذهب بنعلي هاتين، فَمن لقِيت من ورَاءِ هذا الحَائِط يشهد أَن لا إِله إِلا الله مستَيقِنا بها قَلبه فَبشره بالجنة، فكَان أَول من لقِيت عمرُ، فَقال: ما هاتان النعلان يا أَبا هريرَة، فَقُلت: هاتان نعلا رَسُول الله ﷺ، بعثني بهما من لقِيت يشهد أَن لا إِله إِلا الله مستَيقِنا بها قَلبه بشرْته بالجنة) [3].

---

(١) رواه البخاري في كتاب العلم، باب من خص بالعلم قوما دون قوم كراهية أن لا يفهموا ٥٩/١ (١٢٨)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب من لقى الله بالإيمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة وحرم على النار ٦١/١ (٣٢).

(٢) رواه البخاري في كتاب الجماعة والإمامة، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد ٢٣٤/١ (٦٢٩)، ومسلم في كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة ٧١٥/٢ (١٠٣١).

(٣) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعا ٥٩/١ (٣١) .

٧- وعند مسلم من حديث ابن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال: (لا يدخُل الجنة من كَان فِي قَلبه مثقال ذرَّة من كِبرٍ، قال رَجل: إِن الرَّجل يحِب أَن يكُون ثوبه حَسَنا ونعله حَسَنة، قال: إِنَ الله جميل يحِب الجمال الكِبرُ بطرُ الحَقِّ، وغَمط الناسِ) [١].

٨- وعند مسلم من حديث جابر ﷺ أنه سمع النبي ﷺ يقول: (إِذا أَحَدكُم أَعجبته المرْأَة فوقَعت فِي قَلبه، فَليعمد إِلى امرأَته فَليواقِعها، فَإِن ذلكَ يرُد ما فِي نفْسِه) [٢].

٩- وعند الترمذي وصححه الألباني عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: (صَعد رَسُول الله ﷺ المنبرَ، فَنادى بصَوت رَفِيع، فَقال: يا معشرَ من أَسْلم بلسَانه ولم يفْضِ الإِيمان إِلى قَلبه، لا تؤْذوا المسْلمين، ولا تعيرُوهم، ولا تتبعوا عوراَتهم، فَإِنه من تتبع عورَة أَخِيه المسْلم تتبع الله عورَته، ومن تتبع الله عورَته يفْضَحْه ولو فِي جوفِ رَحْلِه) [٣].

١٠- وعند الترمذي وصححه الشيخ الألباني من حديث أَنسِ بن مالكٍ ﷺ أن رَسُول الله ﷺ قال: (من كَانت الآخِرَة همه جعل الله غِناه فِي قَلبه، وجمع له شمله، وأَتته الدنيا وهي رَاغِمة، ومن كَانت

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه ١/٩٣ (٩١)، والبطر التكبر على الحق فلا يقبله، والغمط الاحتقار والاستهانة.

(٢) رواه مسلم في كتاب النكاح، باب ندب من رأى امرأة فوقعت في نفسه إلى أن يأتي امرأته أو جاريته فيواقعها ٢/١٠٢١ (١٤٠٣).

(٣) رواه الترمذي في كتاب البر والصلة، باب ما جاء في تعظيم المؤمن ٤/٣٧٨ (٢٠٣٢)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٣٣٩).

الدنيا همه جعل الله فَقْرَه بين عينيه، وفَرَّقَ عليه شمله، ولم يأْته من الدنيا إِلا ما قُدرَ له)[(١)].

١١- وروى الترمذي وحسنه الشيخ الألباني من حديث أَبي هريَرَة ﵁ أن النبي ﷺ قال: (إِن العبد إِذا أَخْطأَ خَطيئَةَ نكِتت فِي قَلبه نكْتة سَوداءُ، فَإِذا هو نزَع واسْتغْفَرَ وتاب سُقِل قَلبه، وإِن عاد زِيد فِيها حَتى تعلو قَلبه، وهو الرَّان الذي ذكَرَ الله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ (المطففين:١٤)[(٢)].

١٢- وفي صحيح البخاري من حديث أَبي هريَرَة ﵁ أن رَسُول الله ﷺ قال: (لا يزَال قَلب الكَبيرِ شابا فِي اثنتين، فِي حُب الدنيا، وطول الأَمل)[(٣)].

• تحرك الجوارح يكون تبعا للاختيار القائم بالقلب.

يشبه ابن القيم شأن القلب بشأن الملك العظيم، الجالس على سرير مملكته، يأمر وينهى، ويولى ويعزل، وقد حف به الأمراء والوزراء والجند، كلهم في خدمته، إن استقام استقاموا، وإن زاغ زاغوا، وإن

---

(١) رواه الترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع ٤/٦٤٢ (٢٤٦٥)، وحسنه الألباني انظر السلسلة الصحيحة (٩٤٩)، وصحيح الترغيب والترهيب (٣١٦٩).

(٢) رواه الترمذي في تفسير القرآن، باب ومن سورة ويل للمطففين ٥/٤٣٤ (٣٣٣٤)، والنسائي في عمل اليوم والليلة، باب ما يفعل من بلي بذنب ٦/١١٠ (١٠٢٥١)، وحسنه الألباني انظر صحيح الترغيب والترهيب (١٦٢٠) .

(٣) رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب من بلغ ستين سنة ٥/٢٣٦٠ (٦٠٥٧)، ومسلم في كتاب الزكاة، باب كراهة الحرص على الدنيا ٢/٧٢٤ (١٠٤٦).

فسد فسدوا، فعليه المعول. والقلب محل نظر الرب تعالى، ومحل معرفته، ومحبته وخشيته، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والرضا به وعنه، والعبودية عليه أولا وعلى رعيته وجنده تبعا، فأشرف ما في الإنسان قلبه، فهو العالم بالله ﷻ الساعي إليه، المحب له، وهو محل الإيمان والعرفان، وهو المخاطب المبعوث إليه الرسل، المخصوص بأشرف العطايا من الإيمان والعقل.

وإنما الجوارح أتباع للقلب يستخدمها استخدام الملوك للعبيد، والراعي للرعية، والذي يسري إلى الجوارح من الطاعات والمعاصي إنما هي آثاره، فإن أظلم أظلمت الجوارح، وإن استنار استنارت، ومع هذا فهو بين إصبعين من أصابع الرحمن ﷻ، فسبحان مقلب القلوب ومودعها ما يشاء من أسرار الغيوب، الذي يحول بين المرء وقلبه، ويعلم ما ينطوي عليه من طاعته ودينه، مصرف القلوب كيف أراد، وحيث أراد. أوحى إلى قلوب الأولياء أن أقبلي إلي، فبادرت وقامت بين يدي رب العالمين، وكره ﷻ انبعاث آخرين فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين[١].

وكانت أكثر يمين رسول الله ﷺ: لا ومقلب القلوب[٢]. وكان من دعائه: اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على طاعتك[٣]. قال بعض

---

(١) التبيان في أقسام القرآن لابن القيم ص٢٦٢ بتصرف.

(٢) رواه البخاري في القدر، باب يحول بين المرء وقلبه ٦/٢٤٤٠ (٦٢٤٣).

(٣) رواه أحمد في المسند ٤/١٨٢ (١٧٦٦٧) بلفظ: يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك، وقال شعيب الأرنئوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

السلف: القلب أشد تقلبا من القدر إذا استجمعت غليانها. وقال الآخر: القلب أشد تقلبا من الريشة بأرض فلاة في يوم ريح عاصف[1].

• **الإرادة أساس الاختيار وسيدة الأعمال في القلب.**

إن البدن وما يتبعه يتحرك تبعا للاختيار القائم بالقلب صلاحا أو فسادا، خيرا أو شرا، فمن أسس الاختيار في القلب وجود إرادة مختارة وأصيلة في منطقة الكسب، ولها دورها الفعال في تحديد مصير الإنسان وتوقيع الجزاء علي أفعاله في الداخل والخارج.

وقد ورد إثباتها في القرآن والسنة كحقيقة لا ينازع فيها إلا من فسدت فطرتهم من الجبرية، فمن القرآن قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ آل عمران:١٤٥.

وقوله تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ آل عمران:١٥٢. وقال: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ الإسراء:١٨/٢٠.

تلك النصوص وأمثالها في القرآن كثير، وكلها تثبت وتقرر بما لا يدع مجالا للشك عدة حقائق هامة في شأن الذات الإنسانية وتكوينها:

---

(١) التبيان في أقسام القرآن ص٢٦٢ بتصرف.

أولا: تثبت وجود إرادة ذاتية في القلب، كمصدر لأفعال الإنسان، وأساس أصيل للنيات والرغبات والقصود والاختيارات الإنسانية الداخلية والخارجية، وذلك واضح من قوله: ومن كان يرد العاجلة. ومن أراد الآخرة. ومن يرد ثواب الدنيا . ومن يرد ثواب الآخرة.

ثانيا: أثبتت هذه الآيات أن القلب له إرادة مختارة، وليست مجبرة أو مسيرة، فأسلوب الآيات العام يثبت الاختيار ويؤكده، حيث تصور الآيات عملية طرح الدنيا والآخرة أمام قلب العبد ليختار بينهما، ثم يتحرك الجسد تبعا لاختيار القلب.

ثالثا: تثبت هذه الآيات أيضا وجود الضدين اللازمين للاختيار أمام إرادة القلب، حيث تثبت الدنيا في مقابل الآخرة، ومن ثم فكل ما يعرض أمام إرادة القلب للاختيار لا بد أن يكون كما دلت الآيات شيئين أو فعليين أو سلوكيين، ودائما ضدين، وهذان الضدان أحدهما ينتسب للدنيا ويؤدي إليها، والآخر ينتسب للآخرة ويؤدي إليها، أو أن أحد هذين السلوكين يدل اختيار العبد له علي نية عنده، أو رغبة، أو حرص، أو إيثار، أو تفضيل للدنيا والآخر يدل علي نية عنده، أو رغبة أو إيثار، أو تفضيل للآخرة.

رابعا: تدل الآيات أيضا على حقيقة هامة وأساسية، وهي أن الاختيار القلبي والإنساني ليس اختيارا مطلقا، بل هو اختيار محدود بين ضدين من الأفعال في كل لحظة معينة. كما قال تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦۚ ﴾ الأحزاب:٤ (١).

(١) القضاء والقدر في الإسلام للدكتور فاروق الدسوقي ٣٨٦/١ بتصرف.

وقد أثبتت السنة إرادة العبد واختياره لأحد النجدين المطروحين أمامه سواء في الداخل أو الخارج. روى البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: (يَقُولُ اللهُ: إِذا أَرَادَ عَبْدِي أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً فَلا تَكْتُبُوهَا عَلَيْهِ حَتَّى يَعْمَلَهَا فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا بِمِثْلِهَا وَإِنْ تَرَكَهَا مِنْ أَجْلِي فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً وَإِذا أَرَادَ أَنْ يَعْمَلَ حَسَنَةً فَلَمْ يَعْمَلْهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ) (١).

والشاهد أن الإنسان قامت به مقومات الاختيار والحرية التي تحقق حكمة الله ﷻ وعدله عند مساءلته عن اختياره وفعله، وأن تلك المهمة العملية والقوة الإرادية تنتج عن منطقة الكسب وأعمال القلوب، فيختار بها بين الحسنة والسيئة والحلال والحرام.

• الفرق بين إرادة العبد ومشيئته وسائر أعمال القلوب.

لا نكاد نجد من تكلم عن الفرق بين إرادة الإنسان ومشيئته إلا النذر اليسير، مما ذكره أبو الهلال العسكري في الفروق أن الإرادة تكون لما يتراخى وقته وما لا يتراخى، والمشيئة لما لم يتراخ وقته.

وذكر من الفروق أيضا أن الإرادة هي العزم على الفعل أو الترك بعد تصور الغاية المترتبة عليه من خير أو نفع أو لذة ونحو ذلك، وهي أخص من المشيئة؛ لأن المشيئة ابتداء العزم على الفعل، فإنك ربما شئت

---

(١) رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: يريدون أن يبدلوا كلام الله ٢٧٢٤/٦ (٧٠٦٢)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة كتبت وإذا هم بسيئة لم تكتب ١١٧/١ (١٢٨).

شيئا ولا تريده لمانع عقلي أو شرعي، وأما الإرادة فمتى حصلت صدر الفعل لا محالة ـ وهو يعني بلا شك إذا شاء الله ذلك ـ وقد يطلق كل منهما على الآخر توسعا [1].

ولنحاول أن نتلمس الفرق بين مشيئة العبد وإرادته من خلال ما ورد في النصوص القرآنية والنبوية، فقد روى البخاري من حديث عائِشة رَضِي الله عنها أنها سألت النبي ﷺ قالت: (هل أَتى عليكَ يوم كَان أَشد من يوم أُحُد؟ قال: لقَد لقِيت من قَومكِ ما لقِيت، وكَان أَشد ما لقِيت منهم يوم العقَبة، إذ عرَضْت نفْسِي على ابن عبد ياليل بن عبد كُلال، فَلم يجبني إِلى ما أَرَدت، فَانطلقْت وأَنا مهموم على وجهي، فَلم أَستْفِقْ إلا وأَنا بقَرْن الثعالب، فرَفَعت رَأْسِي فَإذا أَنا بسَحَابة قَد أَظلَتني، فَنظَرْت فَإذا فِيها جبريل، فَناداني فَقال: إِن الله قَد سَمع قَول قَومكَ لكَ وما رَدوا عليكَ، وقَد بعث إِليكَ ملكَ الجبال لتأْمرَه بما شئْت فِيهم، فَناداني ملكُ الجبال، فَسَلم علي ثم قال: يا محمد. فَقال ذلكَ فِيما شئْت، إِن شئْت أَن أُطبقَ عليهم الأَخْشبين، فَقال النبي ﷺ: بل أَرْجو أَن يخْرِج الله من أَصْلابهم من يعبد الله وحْده لا يشرِكُ به شيئًا) [2].

والشاهد أن المشيئة تدفع البدن إلى الفعل من غير إبطاء كما ذكر أو

---

(١) الفروق اللغوية لأبي الهلال العسكري ٣٥/١ (١٣٧).

(٢) البخاري في بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه ١١٨٠/٣ (٣٠٥٩)، ومسلم في الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين ١٤٢٠/٣ (١٧٩٥)، وقرن الثعالب اسم موضع بقرب مكة، الأخشبان جبلان بمكة هما جبل أبي قبيس ومقابله قعيقعان سميا بذلك لصلابتهما وغلظ حجارتهما.

الهلال العسكري، فلو تحققت أسباب القدرة تم التنفيذ مباشرة، فلو شاء النبي ﷺ أن يطبق عليهم الأخشبين لنفذ له جبريل عليه السلام مباشرة، ولذلك قال له: فمرني بما شئت، ولم يقل: بما أردت، لأن الإرادة في الغالب عزم بعد تصور الغاية وأبعاد الحكمة. ولذلك فإن النبي ﷺ ذكر المشيئة عند انعدم الحياء في الإنسان، لأنها تعبير عن اختيار لا يراعي فيه حقوق الآخرين في القول والفعل، أو الحركات والسكنات. روى البخاري من حديث عقبة بن عمرو رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (إِن مما أَدرَكَ الناسُ من كَلام النبوة، إِذا لم تستْحْي فَافْعل ما شئْت)[1].

والذي ظهر لي من مجموع النصوص القرآنية والنبوية في الفرق بين مشيئة العبد وإرادته، أن مشيئة العبد علة مباشرة لحركة الاستطاعة الذاتية وتحقيق القدرة البشرية متى أمده الله عز وجل بها، سواء كانت في الطاعة أو المعصية كما قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ﴾ الكهف:٢٩. وقال سبحانه: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ الزمر:١٤/١٥. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾ فصلت:٤٠.

وكل ذلك على طريق التهديد والوعيد، فإن شئتم فآمنوا، وإن شئتم فاكفروا، فإن كفرتم فقد أعد لكم ربكم نارا أحاط بكم

---

(١) البخاري في الأنبياء، باب أم حسبت أن أصحاب الكهف ١٢٨٤/٣ (٣٢٩٦).

سرادقها، وإن آمنتم فلكم ما وصف الله ﷻ لأهل طاعته، وفي ذلك دلالة بينة على أن للعبد في إيمانه وكفره مشيئة واختيارا، فهما فعلان يتحققان بخلق الله ﷻ وما قضاه في مراتب القدر، ومشيئة العبد يتحمل فيها الوزر أو الأجر.

وقال في المشيئة حال الطاعة وموافقة الشرع: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ البقرة:٢٢٣. وقال تعالى: ﴿۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ﴾ الأحزاب:٥١، وقال: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ سبأ:١٣.

وتحقيق مشيئة العبد متوقف على ما يخلقه الله ﷻ له بمشيئته سبحانه كما قال: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾ الإنسان:٢٩/٣٠.

وروى البخاري من حديث عطاءُ بن أَبي رَباحٍ أنه قال: (قال لي ابن عباس: أَلا أُرِيكَ امرأَة من أَهل الجنة؟ قُلت: بلى، قال: هذه المرْأَة السَّوداءُ، أَتت النبي ﷺ فقالت: إِني أُصرَع، وإِني أَتكَشفُ، فَادع الله لي، قال: إِن شئْت صبرْت ولكِ الجنة، وإِن شئْت دعوت الله أَن يعافِيكِ، فَقالت: أَصبرُ، فقالت: إِني أَتكَشفُ، فَادع الله لي أَن لا أَتكَشفَ، فَدعا لها) [(١)].

---

(١) البخاري في المرضى، باب فضل من يصرع من الريح ٥/٢١٤٠ (٥٣٢٨)، ومسلم في البر ، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض ٤/١٩٩٤ (٢٥٧٦).

أما إرادة العبد فهي على نوعين: إرادة متعلقة بالنفس، وإرادة متعلقة بإرادة الغير، فالإرادة المتعلقة بالنفس بمعنى المشيئة على ما تقدم في معناها، والإرادة المتعلقة بالغير تكون بمعنى المحبة أو الإرادة من المخلوق، وفيها ابتلاء بإرادة المخلوق من جهة ما أعطاهم الله من أسباب، وهذه تختلف عن المشيئة أو الإرادة المتعلقة بالنفس لأن المشيئة تعلقها لا يكون إلا بالاستطاعة الذاتية، وهذه تتوقف على مشيئة الله ﷻ وحده دون غيره.

ولذلك لا يحسن من العبد أن يقول: أشاء كذا، ويحسن منه أن يقول أريد كذا. لأن مشيئة العبد تتلوها القدرة، وهو عاجز إلا أن يوفقه الله ﷻ إلى ما شاء، ويعطيه من فضله، قال تعالى:

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ الإسراء:١٨/٢٠.

وروى أبو داود وصححه الألباني من حديث حذيفة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (لا تَقُولوا: مَا شَاءَ اللَّهُ، وَشَاءَ فُلانٌ، وَلَكِنْ قُولوا: مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ شَاءَ فُلانٌ)(١).

ولما خلق الله ﷻ آدم على صورته في القدر المشترك ليوحد الله ﷻ

---

(١) رواه أبو داود في كتاب الأدب، باب لا يقال خبثت نفسي ٤/٢٩٥ (٤٩٨٠)، وأحمد في المسند ٥/٣٩٨ (٢٣٤٢٩)، وصححه الألباني، انظر السلسلة الصحيحة (١٣٧) ومشكاة المصابيح (٤٧٧٨).

في القدر الفارق كما بينا في شرح حديث الصورة، وكانت مشيئة الله ﷻ لا تكون إلا كونية فقط، وإرادته تكون كونية وشرعية، وكذلك الفرق بين إرادته ﷻ ومحبته، وكون محبته لا تكون إلا شرعية. فلو نظرنا أيضا إلى مشيئة العبد وإرادته ومحبته وراعينا القدر المشترك عند التجرد، والقدر الفارق عند الإضافة والتقييد والتخصيص، لعلمنا نعمة الله ﷻ على عباده في ظهور آثار الجمع بين قدرته وحكمته وأنه خلقهم لتوحيده في عبوديته، وكيف أن العبد لا بد أن يرجع بمشيئته وإرادته ومحبته وحوله وقوته إلى مشيئة الله ﷻ وإرادته ومحبته وحوله وقوته.

- **المشيئة تختلف عن الإرادة والمحبة في النفاق وشهادة الزور.**

وأبرز ما تتجلى فيه الفروق بين مشيئة العبد وإرادته أفعال النفاق والكذب وقول الزور، فالمنافقون يقومون للصلاة بمشيئتهم، فما تحركوا إلا بحركة إرادية تعبر عن مشيئتهم في الإتيان إلى المسجد للصلاة، فلم يسحبوا إلى المسجد سحبا كسحب الميت إلى القبر، بل جاءوا بمحض مشيئتهم، أما ما في قلوبهم من إرادة فهم لا يريدون الصلاة ولا يحبونها بل صلوا بغير نية، فقد تختلف المشيئة عن الإرادة إن كانت الإرادة بمعنى المحبة، ولذلك وصفت أفعالهم بالخداع والنفاق والرياء وعدم الصدق، كما قال تعالى في وصفهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾ البقرة:٨/١٠. وقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ

﴿فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ البقرة: ٢٠٤/٢٠٥.

روى البخاري في صحيحه من حديث أَبي هريرَة ﷺ أن رَسُول اللهِ ﷺ قال: (آية المنافِقِ ثلاث: إِذا حَدث كَذب، وإِذا اؤْتمن خَان، وإِذا وعد أَخْلفَ) (١). وروى البخاري من حديث أَبي بكرة ﷺ أن رَسُول اللهِ ﷺ قال: (أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟ قُلنَا: بَلى يَا رَسُول اللهِ. قَال: الإِشْرَاك بِاللهِ، وَعُقُوقُ الوَالدَيْنِ، وَكَانَ مُتَّكِئًا فَجَلسَ، فَقَال: أَلا وَقَوْل الزُّور وَشَهَادَةُ الزُّورِ، أَلا وَقَوْل الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ، فَمَا زَال يَقُولهَا حَتَّى قُلتُ: لا يَسْكُتُ) (٢).

- **المراد لنفسه والمراد لغيره والمستعان لنفسه والمستعان لغيره.**

ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن كل إنسان همام حارث حساس متحرك بالإدارة، بل كل حي فهو كذلك له علم وعمل بإرادته، والإرادة هي المشيئة والاختيار، ولا بد في العمل الإرادي الاختياري من مراد، وهو المطلوب، ولا يحصل المراد إلا بأسباب ووسائل تحصله، فإن حصل بفعل العبد فلا بد من قدرة وقوة، وإن كان من خارج فلا بد من فاعل غيره، وإن كان منه ومن الخارج، فلا بد من الأسباب كالآلات ونحو ذلك، فلابد لكل حي من إرادة، ولا بد لكل مريد من عون يحصّل به مراده، فصار العبد مجبولا على أن يقصد شيئا ويريده

---

(١) رواه البخاري في كتاب الشهادات، باب من أمر بإنجاز الوعد ٩٥٢/٢ (٢٥٣٦)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق ٧٨/١ (٥٩).

(٢) رواه البخاري في كتاب الأدب، باب عقوق الوالدين من الكبائر ٢٢٢٩/٥ (٥٦٣١)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها ٩١/١ (٨٧).

ويستعين بشيء ويعتمد عليه في تحصيل مراده [١].

هذا أمر حتم لازم ضروري في حق كل إنسان، يجد ذلك في نفسه، لكن المراد والمستعان على قسمين: فالمراد منه ما يراد لغيره، ومنه ما يراد لنفسه، والمستعان منه ما هو المستعان لنفسه، ومنه ما هو تبع للمستعان وآلة له، فمن المراد ما يكون هو الغاية المطلوب، فهو الذي يذل له الطالب ويحبه، وهو الإله المقصود، ومنه ما يراد لغيره، وهو بحيث يكون المراد هو ذلك الغير، فهذا مراد بالعرَض. ومن المستعان ما يكون هو الغاية التي يعتمد عليه العبد في تنفيذ مشيئته، ويتوكل عليه ويعتضد به، ليس عنده فوقه غاية في الاستعانة، ومنه ما يكون تبعا لغيره بمنزلة الأعضاء مع القلب، والمال مع المالك، والآلات مع الصانع، فإذا تدبر الإنسان حال نفسه، وحال جميع الناس وجدهم لا ينفكون عن هذين الأمرين، لابد للنفس من شيء تطمئن إليه، وتنتهي إليه محبتها وهو إلهها، ولا بد لها من شيء تثق به وتعتمد عليه في نيل مطلوبها هو مستعانها، سواء كان ذلك هو الله أو غيره، كمن عبد غير الله مطلقا، وسأل غير الله مطلقا، مثل عباد الشمس والقمر وغير ذلك، الذين يطلبون منهم الحاجات، ويفزعون إليهم في النوائب [٢].

وقد يكون خاصا في المسلمين مثل من غلب عليه حب المال، أو حب شخص، أو حب الرياسة، حتى صار عبد ذلك، كما قال النبي ﷺ: (تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ، وَعَبْدُ الخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ١/٣٤ بتصرف.
(٢) المصدر السابق ١/٣٥ بتصرف.

رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذا شِيكَ فَلا انْتَقَشَ)[1].

وكذلك من غلب عليه الثقة بجاهه وماله بحيث يكون عنده مخدومه من الرؤساء ونحوهم، أو خادمه من الأعوان والأجناد ونحوهم، أو أصدقائه، أو أمواله هي التي تجلب المنفعة الفلانية، وتدفع المضرة الفلانية فهو معتمد عليها، ومستعين بها، والمستعان هو مدعو ومسئول[2].

وما أكثر ما تستلزم العبادة الاستعانة، فمن اعتمد عليه القلب في رزقه ونصره ونفعه وضره خضع له وذل، وانقاد وأحبه من هذه الجهة، وإن لم يحبه لذاته، لكن قد يغلب عليه الحال حتى يحبه لذاته، وينسى مقصوده منه، كما يصيب ذلك كثيرا ممن يحب المال، أو يحب من يحصل له به العز والسلطان، وأما من أحبه القلب وأراده وقصده، فقد لا يستعينه ويعتمد عليه إلا إذا استشعر قدرته على تحصيل مطلوبه، كاستشعار المحب قدرة المحبوب على وصله[3].

- **الأعمال في كل موقف ابتلائي متراصة في القلب بين طريقين.**

وأعمال القلوب متراصة في القلب بين طريقين أو نجدين، وبين طرفين جانبين، إن مالت إن جانب تركت الآخر، لا يمكن أن تميل إلى الجانبين في لحظة واحدة. قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ البلد: ١٠.

والنجد لغة هو المرتفع من الأرض، والمعنى بينا سبيل الخير والشر،

---

(١) البخاري في الجهاد والسير، باب الحراسة في الغزو ٣/١٠٥٧ (٢٧٣٠).
(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية ١/٣٥بتصرف.
(٣) السابق ١/٣٥بتصرف.

والحق والباطل، والهدى والضلالة، والشقاوة والسعادة. قال الراغب الأصفهاني: (فذلك مثل لطريقي الحق والباطل في الاعتقاد، والصدق والكذب في المقال، والجميل والقبيح في الفعال)[١].

ورأس أعمال القلوب النية وهي تشمل المشيئة والإرادة والمحبة ثم يتبع ذلك الإخلاص والخوف والرجاء والصبر والرضا، والكره والبغض وما يترتب على ذلك من المعاني كالقصد والعزم والاعتقاد واليقين، وأعمال توصف بحسبها كالحسد والحقد، والرياء والعجب والنفاق.

ولما كانت الحياة عبارة عن مجموعة من المواقف الابتلائية التي يمر بها الإنسان كما قال الله ﷻ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ الملك:٢. وقال سبحانه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ الإنسان:٢/٣.

لما كانت الحياة التي يمر بها الإنسان عبارة عن مجموعة من المواقف الابتلائية، فإن أعمال القلوب تميل في كل موقف ابتلائي، وفي كل لحظة منه، إما إلى جانب الخير، أو تميل إلى جانب الشر، كل عمل يميل بنسبة مختلفة تمثل كسب كل إنسان فيه، فقد تكون إرادة الخير في الموقف الابتلائي الأول المحدد بالزمان والمكان في أحد الأيام إرادة كاملة تنعدم معها في المقابل في ذات الموقف الابتلائي إرادة الشر، ولو كانت نسبة إرادة الخير منقوصة، فستكون نسبة إرادة الشر في القلب في المقابل

---

(١) المفردات في غريب القرآن ص٤٨٢.

وفي ذات الموقف الابتلائي على قدر ما نقص من نسبة إرادة الخير، ولو كانت نسبة إرادة الخير نصف مقدارها، لكانت إرادة الشر مكملة للنصف الآخر، فإذا انتقل إلى الخير بعزم مشيئته وقوة إرادته إلى منتهاها برء من الشر، وخلا قلبه منه خلوا كاملا، وهكذا إذا انقل إلى الإيمان برئ من الكفر، فالنجدان يتجاذبان أعمال القلوب في اختيارات متصلة بحكمة مقلب القلوب وعلام الغيوب، كما قال سبحانه: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦﴾ البقرة:٢٥٦.

وقال سبحانه: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ٣٢﴾ يونس:٣٢.

وفي نفس الموقف الابتلائي الأول، قد تختلف درجة الحب عن درجة المشيئة والإرادة، فقد تكون إرادة الشئ نسبتها كبيرة في جانب تصل إلى منتهى عزمها وقوتها، ومحبته لما أرد معدومة، أو ضعيفة، أو تقل عن مراده أو تزيد، فيكره الشيء، ولكنه يفعله بإرادته ومشيئته، كالمريض في تناول الدواء، وحرصه على الأخذ بأسباب الشفاء، يريدها وقد لا يحبها، وكموقف الناس من القتال كما قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾ البقرة:٢١٦.

ومن أبرز الأمثلة على اختلاف أعمال القلوب بين النجدين قلب المنافق الذي يصلي بمشيئته، وهو لا يريد الصلاة ولا يحبها، ولا يحب

أهلها ولا من سعى لإقامتها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾ النساء:١٤٢/١٤٣. وقال سبحانه: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾ التوبة:٥٤.

أما المؤمن الذي أراد الله ﷻ بكليته فإن أعمال القلوب جميعها تصطف على العمل بشريعته، وتوحيده في عبوديته، فصدق في ظاهره وباطنه، وقدم كل حياته ابتغاء مرضاته، قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾ الأحزاب:٢٣/٢٤. وقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾ البقرة:٢٠٧.

ومن ثم فإن الإرادة في القلب لها في كل موقف ابتلائي،صغيرا كان أو كبيرا، لها درجة في الخير ودرجة أخرى في الشر، ومجموع الدرجتين يمثل جملة مراد الإنسان، فلو فرضنا مثلا أن كل عمل من أعمال القلوب مائة جزء، فإنه إن مال إلى جانب الخير بجزء من المائة كان الباقي لجانب الشر، وهكذا يقال أيضا في المحبة: إن كان حب الشرع وأحكامه في كل موقف حصّل عشرة من المائة، كان باقي الحب في جانب الشر، وكذلك يقال في صدق نيته وإخلاصه وعزيمته، وخوفه ورجائه، وصبره وخشيته، وكرهه وبغضه وحسده وغبطته، كل واحد

من هذه الأعمال تحسب درجته في الخير، وما يقابله من الشر في كل موقف ابتلائي تعلق به حكم شرعي.

والملائكة تكتب تلك المواقف محددة بالزمان والمكان وما يدور في كل موقف على حدة من حديث النفس وما فيه من أركان، وجميع الاختيارات التي تحدث في قلب الإنسان، كل موقف ينفصل عن الآخر ولو استغرق لحظة، أو ساعة، أو مدة كبيرة من الزمان، مع تفصيل مقدار العلم والإرادة والاستطاعة بكل دقة في حساب العمل كما ورد في القرآن. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٤٠﴾ النساء: ٤٠. وقال: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ٦١﴾ يونس: ٦١. وقال: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ٨﴾ الزلزلة: ٧/٨.

وكل يوم تصعد الملائكة بأعمال العباد إلى ربهم فيسألهم عن أفعال عباده وكسبهم، وهو سبحانه أعلم بهم. روي البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: (يتعاقبون فِيكم ملائِكَة بالليل وملاَئِكة بالنهارِ، ويجتمعون في صلاة الفَجرِ وصلاة العصر، ثم يعرُج الذين باتوا فِيكم، فيسْأَلهم وهو أَعلم بهم: كيفَ تركتم عبادي؟ فيقولون: تركْناهم وهم يصلَون، وأَتيناهم وهم يصلَون) [1].

(١) البخاري في مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر ١/٢٠٣ (٥٣٠)، ومسلم في المساجد، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما ١/٤٣٩ (٦٣٢).

وتتوالى أيام العبد والملائكة تدون ما يمر به من قضايا ابتلائية متتالية، إلى أن تجتمع الأعمال في صحيفة العبد يوم القيامة بدقة متناهية، وتسلسل دقيق يقاس فيه كل عمل من أعمال القلوب والأبدان، ومقدار درجته في الخير والإيمان أو الشر والطغيان، وفي نظام تدوين تعجز عن تصوره الأذهان، يتصاغر بجانبيه الشريط الوراثي الكائن في الحامض النووي لكل خلية في الإنسان. قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ الكهف:٤٩. وقال سبحانه: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ الأنبياء:٤٧.

- أعمال القول في منطقة الكسب تخضع للأحكام التكليفية.

وأعمال القول في منطقة الكسب على كثرتها إلا أنها تخضع للأحكام التكليفية الشرعية على اختلاف أنواعها، فأحكام التكليف الخمسة، الواجب، والمستحب، والمباح، والمكروه، والمحرم، هذه الأحكام تتعلق بأعمال القلوب جميعا، فالواجب على القلب المتفق على وجوبه كما ذكر ابن القيم، الإخلاص والمحبة والخوف والرجاء والتوكل والتصديق الجازم والصبر والنية في العبادة والإنابة والصدق، اتفقت الأمة علي وجوب هذا الأعمال على القلب، وكل واحد من هذه الواجبات القلبية له درجتان: واجب مستحق، وهو مرتبة أصحاب

اليمين، وكمال مستحب، وهو مرتبه المقربين [1].

وأما وجوب القلب المختلف فيه كالرضا، فمن أوجبه قال: التسخط حرام، ولا خلاص عنه إلا بالرضا، وما لا خلاص عن الحرام إلا به فهو واجب. ومن استحبه قال: لم يرد الأمر به في القرآن ولا في السنة بخلاف الصبر، فإن الله ﷻ أمر به في مواضع كثيرة من كتابه فقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥)﴾ البقرة:١٥٥. وكذلك التوكل أمر به فقال: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (٨٤)﴾ يونس:٨٤.

وأمر بالإنابة فقال: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (٥٤)﴾ الزمر:٥٤. وأمر بالإخلاص فقال: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (٥)﴾ البينة:٥. وأمر بالخوف منه سبحانه فقال: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٥)﴾ آل عمران:١٧٥.

وأمر بالصدق فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩)﴾ التوبة:١١٩. وكذلك أمر بالمحبة وهي أعظم الواجبات القلبية فرضية، فالمحبة هي قلب العبادة المأمور بها، بل هي مخها وروحها، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ البقرة:١٦٥. وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ المائدة:٥٤.

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم ١/١١٠ بتصرف.

وأما الرضا فإنما جاء في القرآن مدح أهله، والثناء عليهم، لا الأمر به فقال: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ٣٠﴾ الفجر:٢٧/٣٠. وقال تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ٨﴾ البينة:٨.

وأما قول من أوجبه وقال: لا خلاص عن السخط إلا به، فليس بلازم، فإن مراتب الناس في المقدر ثلاثة: الرضا وهو أعلاها. والسخط وهو أسفلها. والصبر عليه بدون الرضا وهو أوسطها، فالأول للمقربين السابقين، والثانية للظالمين، والثالثة للمقتصد. وكثير من الناس يصبر على المقدور فلا يسخط، وهو غير راض به، فالرضا أمر آخر، وهذا الخلاف بينهم إنما هو في الرضا بالقضاء الكوني، أما الرضا به ربا وإلها، والرضا بالإسلام دينا، وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا، فهذا متفق علي فريضيته، بل لا يصير العبد مسلما إلا بهذا الرضا [1].

ومن الواجبات القلبية المختلف فيها أيضا الخشوع في الصلاة، وفيه قولان للفقهاء، وعلى القولين حدث اختلافهم في وجوب الإعادة على من غلب عليه الوسواس في صلاته، فأوجبها ابن حامد من أصحاب أحمد، وأبو حامد الغزالي في إحيائه، ولم يوجبها أكثر الفقهاء، واحتجوا بأن النبي ﷺ أمر من سها في صلاته بسجدتي السهو، ولم يأمره بالإعادة مع قوله: (حَتَّى إذا قُضِيَ التَّثويبُ أَقْبَل حَتَّى يَخْطُرَ بَيْنَ المَرْءِ وَنَفْسِهِ، يَقُول لهُ: اذكُرْ كَذا، وَاذكُرْ كَذا، لَمَا لَمْ يَكُنْ يَذكُرُ مِنْ قَبْل، حَتَّى يَظل

(١) المصدر السابق ١١٢/١ بتصرف.

الرَّجُل مَا يَدْرِي كَمْ صَلى؟)[1].

ولكن لا نزاع أن هذه الصلاة لا يثاب على شيء منها إلا بقدر حضور قلبه وخضوعه، كما روى أبو داود من حديث عمار ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّ الرَّجُل لَيَنْصَرِفُ وَمَا كُتِبَ لهُ إِلا عُشْرُ صَلاتِهِ، تُسْعُهَا ثمُنُهَا سُبُعُهَا سُدْسُهَا خُمْسُهَا رُبْعُهَا ثلثها نِصْفُهَا)[2]. فليست صلاته صحيحة باعتبار ترتب كمال مقصودها عليها، وإن سميت صحيحه باعتبار أنا لا نأمره بالإعادة. ولا ينبغي أن يعلق العبد لفظ الصحة عليها، فيقال: صلاة صحيحة مع أنه لا يثاب عليها فاعلها.

والقصد أن هذه الأعمال واجبها ومستحبها هي عبودية القلب، فمن عطلها فقد عطل عبودية الملك وإن قام بعبودية رعيته من الجوارح، والمقصود أن يكون ملك الأعضاء وهو القلب قائما بعبوديته لله سبحانه هو ورعيته [3].

أما المحرمات التي على القلب فهي الكبر والحسد والرياء والغفلة والعجب والنفاق، وهذه المحرمات نوعان: إما كفر، كالشك والنفاق والشرك وتوابعها. وإما معصية، وهي أيضا نوعان: كبائر، وصغائر، فالكبائر كالرياء، والعجب، والكبر، والفخر، والخيلاء، والقنوط من

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأذان، باب فضل التأذين ١/٢٢٠ (٥٨٣)، ومسلم في كتاب المساجد، باب السهو في الصلاة والسجود له ١/٣٩٨ (٣٨٩).

(٢) أبو داود في كتاب الصلاة، باب ما جاء في نقصان الصلاة ١/٢١١ (٧٩٦)، وأحمد في المسند ٤/٣٢١ (١٨٩١٤)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٦٢٦).

(٣) مدارج السالكين لابن القيم ١/١١٣ بتصرف.

رحمة الله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله، والفرح والسرور بأذى المسلمين، والشماتة بمصيبتهم، ومحبة أن تشيع الفاحشة فيهم، وحسدهم على ما آتاهم الله من فضله، وتمنى زوال ذلك عنهم، وتوابع هذه الأمور التي هي أشد تحريما من الزنا وشرب الخمر وغيرهما من الكبائر الظاهرة، ولا صلاح للقلب ولا للجسد إلا باجتنابها والتوبة منها وإلا فهو قلب فاسد، وإذا فسد القلب فسد البدن[١].

وهذه الآفات إنما تنشأ من الجهل بعبودية القلب، وترك القيام بها، فوظيفة إياك نعبد على القلب قبل الجوارح، فإذا جهلها وترك القيام بها، امتلأ بأضدادها ولا بد، وبحسب قيامه بها يتخلص من أضدادها. وهذه الأمور ونحوها، قد تكون صغائر في حقه، وقد تكون كبائر بحسب قوتها وغلظها وخفتها ودقتها [٢].

ومن الصغائر أيضا شهوة المحرمات وتمنيها، وتفاوت درجات الشهوة في الكبر والصغر بحسب تفاوت درجات المشتهى، فشهوة الكفر والشرك كفر، وشهوة البدعة فسق، وشهوة الكبائر معصية، فإن تركها لله ﷻ مع قدرته عليها أثيب، وإن تركها عجزا بعد بذله مقدوره في تحصيلها استحق عقوبة الفاعل، لتنزيله منزلته في أحكام الثواب والعقاب، وإن لم ينزل منزلته في أحكام الشرع، ولهذا قال النبي ﷺ فيما رواه عنه أبو بكرة ؓ: (إِذا التَقَى المُسْلمَان بِسَيْفَيْهِمَا، فَالقَاتِلِ وَالمَقْتُول فِي النَّارِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ هَذا القَاتِلِ، فَمَا بَالَ المَقْتُولِ؟ قَال: إِنَّهُ

---

(١) السابق ١/١١٣ بتصرف.

(٢) السابق ١/١١٤ بتصرف.

كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ) [١]. فنزله النبي ﷺ منزلة القاتل لحرصه على قتل صاحبه في الإثم دون الحكم، وله نظائر كثيرة في الثواب والعقاب، وقد علم بهذا مستحب القلب ومباحه[٢].

• النية هي أساس العمل فالحساب عند الله على النية.

النية هي المعبرة عن مشيئة العبد وإرادته واختياره، وهي أساس العمل فالحساب على النية، وما يتبعها من جنودها في القلب واللسان والجوارح، كما ورد ذلك عند البخاري من حديث عمر بن الخَطاب ﷺ أنه قال: سَمعت رَسول الله ﷺ يقول: (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكُلِ امرِئ ما نوى: فَمن كانت هجرَته إِلَى دنيا يصِيبها، أَو إِلَى امرَأَة ينكِحُها، فَهجرَته إِلى ما هاجرَ إِليه) [٣].

وروي البخاري من حديث أنسِ بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ رجع من غزوة تبوكَ فدنا من المدينة فقال: (إن بالمدينة أقواماً ما سرتم مسِيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم، قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟ قال: وهم بالمدينة، حَبسَهم العذر) [٤].

---

(١) البخاري في الديات، باب ومن أحياها ٦/٢٥٢٠ (٦٤٨١)، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما ٤/٢٢١٤ (٢٨٨٨).

(٢) مدارج السالكين لابن القيم ١/١١٤ بتصرف.

(٣) رواه البخاري في بدء الوحي، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ١/٣ (١)، ومسلم في الإمارة، باب قوله ﷺ إنما الأعمال بالنية" ٣/١٥١٥ (١٩٠٧).

(٤) البخاري في المغازي، باب نزول النبي ﷺ الحجر ٤/١٦١٠ (٤١٦١)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب ثواب من حبسه عن الغزو مرض ٣/١٥١٨ (١٩١١).

إن الله ﷻ لا يحاسبنا على فعله بنا فيما ابتلانا وخولنا، ولكن يحاسبنا عن فعلنا تجاه شرعه وفعله، فالقدرة بيده وهو الذي أقدرنا، فلو أعجزنا عجزنا وأعذرنا. قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾ التوبة: ٩١/٩٣.

وقال: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾ الطلاق: ٧.

• وصف ابن القيم للعلاقة بين منطقة الكسب وحديث النفس.

بين ابن القيم أن الله ﷻ خلق الإنسان فيه إرادة صالحة للضدين، فاختار أحدهما على الآخر، ووقوع أحد الضدين باختياره وإيثاره له لا يخرجه عن كونه مخلوقا لله سبحانه، واقعا بقضائه وقدره، وأنه لو شاء لصرف داعية العبد وإرادته عنه إلى ضده [(١)].

لقد أعطى الله العبد بعدله وحكمته قدرة وإرادة يتمكن بها من جلب ما ينفعه ودفع ما يضره، فأعانه بأسباب ظاهرة وباطنة، ومن جملة تلك الأسباب القدرة والإرادة، وعرفه طريق الخير والشر، ونهج له الطريق، وأعانه بإرسال رسله، وإنزال كتبه، وقرن به ملائكته، وأزال

---

(١) شفاء العليل لابن القيم ص١٧٧ بتصرف.

عنه كل علة يحتج بها عليه، ثم فطرهم سبحانه على إرادة ما ينفعهم وكراهة ما يؤذيهم ويضرهم كما فطر على ذلك الحيوان البهيم[1].

ثم كان كثير مما ينفعهم لا علم لهم به على التفصيل، والذي يعلمونه من المنافع أمر مشترك بينهم وبين الحيوانات، وثم أمور عظيمة هي أنفع شيء لهم، لا صلاح لهم، ولا فلاح، ولا سعادة إلا بمعرفتها وطلبها وفعلها، ولا سبيل لهم إلى ذلك إلا بوحي منه وتعريف خاص، فأرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، فعرفهم ما هو الأنفع لهم مما فيه سعادتهم وفلاحهم، فصادفتهم الرسل مشتغلين بأضدادها، قد ألفوها وساكنوها، وجرت عليها عوائدهم حين ألفتها الطباع، فأخبرتهم الرسل أنها أضر شيء عليهم، وأنها من أعظم أسباب ألمهم، وفوات أمانيهم وسرورهم، فنهضت الإرادة طالبة للسعادة والفلاح، إذ الدعوة إلى ذلك محركة للقلوب والأسماع والأبصار إلى الاستجابة، فقام داعي الطبع والألف والعادة في وجه ذلك الداعي معارضا له، يعد النفس ويمنيها، ويرغبها ويزين لها ما ألفته واعتادته لكونه ملائما له، وهو نقد عاجل، وراحة مؤثرة، ولذة مطلوبة، ولهو ولعب، وزينة وتفاخر وتكاثر[2].

وداعي الفلاح يدعو إلى أمر آجل في دار غير هذه الدار، لا ينال إلا بمفارقة ملاذها وطيباتها ومسراتها، وتجرع مرارتها، والتعرض لآفاتها، وإيثار الغير على محبوباتها ومشتهياتها، فقامت الإرادة بين الداعيين

---

(١) السابق ص١٧٧ بتصرف.

(٢) السابق ص١٧٧ بتصرف.

تصغي إلى هذا مرة وإلى هذا مرة، فههنا معركة الحرب، ومحل المحنة، فقتيل وأسير، وفائز بالظفر والغنيمة.

وإذا شاء الله سبحانه وتعالى رحمة عبد جذب قوى إرادته وعزيمته إلى ما ينفعه ويحييه الحياة الطيبة، فأوحى إلى ملائكته أن ثبتوا عبدي واصرفوا همته وإرادته إلى مرضاتي وطاعتي، كما قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ الأنفال:١٢ .

وقال رسول الله ﷺ: (إن للشَّيطَان لَمَّة بِابْن آدمَ، وَللمَلك لمَّة، فَأَمَّا لَمَّة الشَّيطَان فَإيعاد بِالشَّر وَتكْذيبٌ بِالحق، وَأَمَّا لَمَّة المَلكِ فَإيعاد بِالخير وَتصْديقٌ بِالحقِّ .. الحديث) [١].

وإذا أراد خذلان عبد أمسك عنه تأييده وتثبيته، وخلى بينه وبين نفسه، ولم يكن بذلك ضالا له، لأنه قد أعطاه قدرة وإرادة، وعرفه الخير والشر، وحذره طريق الهلاك، وعرفه بها، وحضه على سلوك طريق النجاة وعرفه بها، ثم تركه وما اختار لنفسه، وولاه ما تولى، فإذا وجد شرا فلا يلومن إلا نفسه [٢].

واعلم أن كل إرادة من العبد لا تفتقر إلى مشيئة خاصة من الله ﷻ توجب حدوثها، بل يكفي في ذلك المشيئة العامة لجعله مريدا، فإن الإرادة هي حركة النفس، والله سبحانه شاء أن تكون متحركة، وأما أن

---

(١) رواه الترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب سورة البقرة ٥/٢١٩ (٢٩٨٨).

(٢) شفاء العليل لابن القيم ص١٧٨ بتصرف.

تكون كل حركة تستدعي مشيئة مفردة فلا، وهذا كما أنه سبحانه شاء أن يكون الحي متنفسا، ولا يفتقر كل نفس من أنفاسه إلى مشيئة خاصة، وكذلك شاء أن يكون هذا الماء بجملته جاريا، ولا تفتقر كل قطرة منه إلى مشيئة خاصة يجري بها الماء، وكذلك مشيئته لحركات الأفلاك، وهبوب الرياح، ونزول الغيث، وكذلك خطرات القلوب ووساوس النفس، وكذلك مشيئته أن يكون العبد متكلما لا يستلزم أن يكون كل حرف بمشيئته غير مشيئة الحرف الآخر(١).

وإذا تبين ذلك فهو سبحانه شاء أن يكون عبده شائيا مريدا، وتلك الإرادة والمشيئة صالحة للضدين، فإذا شاء أن يهدي عبدا صرف داعيه ومشيئته وإرادته إلى معاشه ومعاده، وإذا شاء أن يضله تركه ونفسه وتخلى عنه والنفس متحركة بطبعها، لا بد لها من مراد محبوب هو مألوهها ومعبودها، فإن لم يكن الله ﷻ وحده هو معبودها ومرادها، وإلا كان غيره لها معبودا ومرادا ولا بد، فإن حركتها ومحبتها من لوازم ذاتها، فإن لم تحب ربها وفاطرها وتعبده أحبت غيره وعبدته، وإن لم تتعلق إرادتها بما ينفعها في معادها تعلقت بما يضرها فيه ولا بد، فلا تعطيل في طبيعتها وهكذا خلقت (٢).

وإن قلت: فأين مشيئة الله ﷻ لهداها وضلالها؟ قلت: إذا شاء إضلالها تركها ودواعيها، وخلى بينها وبين ما تختاره، وإذا شاء هداها جذب دواعيها وإرادتها إليه وصرف عنها موانع القبول، فيمدها على القدر

---

(١) السابق ص١٧٨ بتصرف.

(٢) السابق ص١٧٨ بتصرف.

المشترك بينها وبين سائر النفوس بإمداد وجودي، ويصرف عنها الموانع التي خلى بينها وبين غيرها فيها، وهذا بمشيئته وقدرته، فلم يخرج شيء من الموجودات عن مشيئته وقدرته وتكوينه البتة، لكن يكون ما يشاء بأسباب وحكم، ولو أن الجبرية أثبتت الأسباب والحكم لانحلت عنها عقد هذه المسألة، ولو أن القدرية سحبت بساط المشيئة والقدر والخلق على جميع الكائنات مع إثبات الحكم والغايات المحمودة في أفعال الرب سبحانه لانحلت عنها عقدها [(١)].

إن محبة الله توجب المجاهدة في سبيله قطعا، فإن من أحب الله ﷻ، وأحبه الله ﷻ، أحب ما يحبه الله ﷻ، وأبغض ما يبغضه الله ﷻ، ووالى من يواليه الله ﷻ، وعادى من يعاديه الله ﷻ، لا تكون محبة قط إلا وفيها ذلك بحسب قوتها وضعفها؛ فإن المحبة توجب الدنو من المحبوب والبعد عن مكروهاته، ومتى كان مع المحبة نبذ ما يبغضه المحبوب فإنها تكون محبة تامة [(٢)].

وأما موادة عدو الله فإنها تنافي المحبة قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ المجادلة:٢٢. وقد أخبر النبي ﷺ أن المؤمن الصادق في إيمانه لا بد أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وهذا أمر يجده الإنسان من نفسه ويحسه، أنه إذا أحب الشيء لم يحب ضده بل يبغضه، فلا يتصور اجتماع إرادتين تامتين للضدين،

---

(١) السابق ص١٧٨ بتصرف.

(٢) قاعدة في المحبة لابن تيمية ص ٨٩ بتصرف.

لكن قد يكون في القلب نوع محبة وإرادة لشيء، ونوع محبة وإرادة لضده، فهذا كثير بل هو غالب علي بني آدم، لكن لا يكون واحد منهما تاما، فإن المحبة والإرادة التامة توجب وجود المحبوب المراد مع القدرة، فإذا كانت القدرة حاصلة، ولم يوجد المحبوب المراد لم يكن الحب والإرادة تامة، وكذلك البغض التام يمنع وجود البغيض مع القدرة، فمتى وجد مع إمكان الامتناع، لم يكن البغض تاما.

ومن هنا يعرف قول النبي ﷺ: (لا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلا يَشْرَبُ الخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلا يَنْتَهِبُ نُهْبَةً يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ) [1]. فالحديث على بابه، فلو كان بغضه لما أبغضه الله من هذه الأفعال تاما لما فعلها، فإذا فعلها فإما أن يكون تصديقه بأن الله يبغضها فيه ضعف، أو نفس بغضه لما يبغضه الله فيه ضعف، وكلاهما يمنع تمام الإيمان الواجب، فمحبة الله ورسوله علي درجتين، واجبة وهي درجة المقتصدين، ومستحبة وهي درجة السابقين[2].

---

(١) البخاري في المظالم، باب النهبى بغير إذن صاحبه ٢/٨٧٥ (٢٣٤٣)، ومسلم في الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي ١/٧٦ (٥٧).

(٢) قاعدة في المحبة لابن تيمية ص ٩١ بتصرف.

المطلب الرابع والعشرون

تقليب القلوب وتصريفها وتثبتها بين معاني القدرة والحكمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فقد تحدثنا في المطلب السابق عن أحد مقومات الاختيار في الإنسان وهو خلق الله ﷻ لمنطقة الكسب في قلبه، وهي محل النيات والقصود والرغبات وسائر الاختيارات وأعمال القلوب، وقد بينا الأدلة من القرآن والسنة على وجود الكسب للإنسان وأنه كائن في القلب، وأن تحرك الجوارح يكون تبعا للاختيار القائم بالقلب، كما بينا أن الإرادة هي أساس الاختيار وسيدة الأعمال في القلب، وتلمسنا الفرق بين إرادة العبد ومشيئته، وأن المشيئة تختلف عن الإرادة والمحبة في النفاق وشهادة الزور، وعلمنا حقيقة المراد لنفسه والمراد لغيره، والمستعان لنفسه والمستعان لغيره، وأن الأعمال في كل موقف ابتلائي متراصة في القلب كل عمل على حده بين طريقين.

وعلمنا أن أعمال القلوب في منطقة الكسب تخضع جميعها للأحكام الشرعية التكليفية، كما بينا أن الله ﷻ يحاسب العباد على ما في قلوبهم من النية وما تشمله من المشيئة والإرادة القلبية، ثم تناولنا وصف ابن

القيم للعلاقة بين منطقة الكسب وحديث النفس، وكيف أنها من مظاهر قدرة الله ﷻ وحكمته.

وفي هذه المطلب نتحدث بإذن الله ﷻ عن تقليب القلوب وتصريفها وتثبتها بين معاني القدرة والحكمة من خلال ما علمنا من مجموع الأركان في منطقة حديث النفس ومنطقة الكسب وما بينهما من غريزة العقل ودوره في الإنسان.

- **نتائج العلاقة بين منطقة حديث النفس ومنطقة الكسب.**

مما سبق في دراسة الجانب الغيبي من القلب تعرفنا على منطقة حديث النفس وغريزة العقل ومنطقة الكسب، ثم علاقة ذلك بالاستطاعة والوسع، وعلمنا أن منطقة حديث النفس فيها نازعان نفسيان وهاتفان داعيان وبينهما عقل الإنسان، ومنطقة الكسب فيها النية والإرادة وبقية أعمال القلوب، والاستطاعة في البدن هي القدرة التي ينفذ من خلالها الإنسان ما يريده خيرا كان أو شرا، إيمانا كان أو كفرا، وعند المقارنة بين منطقة حديث النفس ومنطقة الكسب وعلاقتهما بالعقل، وبينا أثرهما في ذات الإنسان ظاهرا وباطنا، ينتج عن ذلك عدة أمور تبين لنا ما يدور في الجانب الغيبي من القلب:

الأمر الأول: منطقة حديث النفس لا يحاسب الإنسان على ما يحدث فيها أيا كان، فهذه المنطقة هي مصدر الخواطر والأفكار، ومحل الإلهام في الإنسان، وقد ورد في الصحيحين من حديث أبى هريرة ﵁ أن النبي ﷺ قال: (إِن اللهَ تجاوز لِأُمَّتي مَا حدثت بِهِ أَنفسهَا، مَا لمْ يتكلَمُوا أَو

يعمَلوا بِهِ)[1].

وقال تعالى ناسخا المساءلة عن حديث النفس: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ البقرة:٢٨٦.

أما منطقة الكسب وأعمال القلوب فهي مصدر النيات والإرادات والحركات والسكنات في الإنسان، وعليها تقع المساءلة ويدور الحساب على الأقوال والأفعال، وكل ما يكتسبه الإنسان من الأعمال.

روى البخاري من حديث عمر بن الخَطاب ﷺ أنه قال: سَمعت رَسول الله ﷺ يقول: (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكُل امرِىء ما نوى: فمن كانت هجرَته إلى دنيا يصِيبها، أَو إلى امرأَة ينكِحُها، فهجرَته إلى ما هاجرَ إليه)[2]. وقال تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ٢٢٥﴾ البقرة:٢٢٥. وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسِۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ٣٨﴾ المدثر:٣٨. فالإنسان محاسب على ما يحدث في منطقة الكسب وأعمال القلوب.

الأمر الثاني: مما يتعلق بمنطقة حديث النفس ومنطقة الكسب أن منطقة الكسب تتحكم في منطقة حديث النفس تحكما كاملا، وتتحكم أيضا في بدن الإنسان وجوارحه، فالإرادة سيدة أعمال القلوب، وهي

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب إذا لم تستقر ١/١١٦ (١٢٧).

(٢) رواه البخاري في بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي ١/٣ (١)، ومسلم في الإمارة، باب قوله ﷺ إنما الأعمال بالنية٣/١٥١٥ (١٩٠٧).

كالملك على عرشه، يوجه جنوده في أرجاء مملكته، فهي المهيمنة على ذاته وبدنه ظاهرا وباطنا.

وقد تستجيب الإرادة للخواطر التي تدب في منطقة حديث النفس، فتستجيب لنازع الخير حتى يصل المسلم إلى أكمل ما يمكن في درجة الخير، وقد تستجيب لنازع الشر حتى يعبد هواه من دون الله ﷻ ويختم على قلبه وسائر الأعضاء في بدنه كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ الجاثية:٢٣.

وقد توقف الإرادة نازع الشر بالاستغفار، وقد تستجيب للملك وإلى الحق بتوفيق الله ﷻ، وقد تستجيب للشيطان حتى تجعل الشيطان طاغوتا معبودا ووليا لها من دون الله ﷻ، قال تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ الأعراف:٣٠.

وقد توقف الإرادة هتاف الشيطان بالاستعاذة كما قال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ الأعراف:٢٠٠. وقال: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ النحل:٩٨.

وقال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ المؤمنون:٩٧/٩٨.

وقد تأخذ الإرادة بمقتضي العقل في اتباع النقل، ويصبح المسلم على بصيرة من أمره وتوحيده لربه، والبصيرة منتهى العقل والحكمة في

التمييز بين ما يضر وينفع.

قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ يوسف:١٠٨. وقال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ العنكبوت:٤٣.

والإرادة قد تهمل نور العقل في العمل بالنقل، ولا تلتفت إلى نصحه وتوجيهه حتى تتجاهله بالكلية وكأنه معدوم، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ الملك:١٠.

وقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ البقرة: ١٧١ .

الأمر الثالث: مما يتعلق بمنطقة حديث النفس ومنطقة الكسب، أن منطقة حديث النفس يخرج منها نسيان الخطأ، ومنطقة الكسب وأعمال القلوب يخرج منها نسيان العمد، فنسيان الخطأ كقوله تعالى عن موسى عليه السلام وفتاه: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾﴾ الكهف:٦٣. وقوله عن يوسف عليه السلام: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾ يوسف:٤٢ .

ونسيان الخطأ هو المقصود بقوله ﷺ: (إِن اللهَ تَجاوزَ عن أُمَّتِي الخَطَأَ والنسْيان ومَا استُكْرِهُوا عليهِ)(١).

---

(١) رواه ابن ماجه في الطلاق، باب طلاق المكره والناسي ١/٦٥٩ (٢٠٤٣)، وصححه الألباني، انظر مشكاة المصابيح (٦٢٨٤)، وإرواء الغليل (٨٢).

وقد يكون نسيان الخطأ من الملك، فيلقي بإيحاء يكون لمصلحة العبد في حصوله على خير أعلى مما هو فيه وبتوفيق من الله ﷻ وحكمته كما في قوله تعالى: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾ البقرة:١٠٦. وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ الأنفال:٢٤ .

أما نسيان العمد فمثاله النسيان الذي ورد في شأن آدم عليه السلام، وهو وإن كان مبدؤه وسواس من الشيطان إلا أنه اكتسبه بأكله من الشجرة وتطلب كما هو معلوم الاستغفار والتوبة. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾ طه:١١٥. وقال سبحانه: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ البقرة:٣٧ .

ومن نسيان العمد الذي ينبع من منطقة الكسب والمساءلة قوله تعالى عن حزب الشيطان: ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ المجادلة:١٩. وقال: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ الحشر:١٩.

الأمر الرابع: مما يتعلق بمنطقة حديث النفس ومنطقة الكسب أن منطقة حديث النفس تتطلب استغفارا عاما، فخاطر الشر أو نازع الهوى إذا ورد فإنه يتطلب استغفارا عاما وقائيا لإيقاف تأثير هذا الخاطر، أما لو انتقل الذنب في منطقة الكسب وعزمت عليه الإرادة أو قع فعلا فإنه يتطلب استغفارا خاصا. ومثال الاستغفار العام ما

رواه مسلم من حديث ثوبان ﷺ، أن رَسُول اللهِ ﷺ كَان إذا انصَرَف من صلاته استَغْفرَ ثلاثاً، وقَال: (اللهُمَّ أَنتَ السَّلاَمُ ومِنكَ السَّلاَمُ، تَبارَكْتَ ذا الجَلاَل والإِكْرَامِ) [1]. وروى البخاري من حديث أبي هريرةَ ﷺ أن رسول اللهِ ﷺ قال: (واللهِ إني لأستغفرُ اللهَ وأتوبُ إليه في اليوم أكثرَ من سبعين مرَّة) [2].

أما الاستغفار الخاص فهو كقوله تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾﴾ نوح:١٠. وقوله تعالى عن هود عليه السلام: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ هود:٥٢. وقوله تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾ يوسف:٢٩ .

وورد في صحيح مسلم من حديث بريدة بن الحصيب ﷺ أنه قَال: (جَاءَ مَاعزُ بْن مَالكٍ إلى النبي فقَال: يا رَسُول اللهِ طَهِّرْني، فقَال: ويحك ارْجِع فاستَغْفر اللهَ وتُبْ إليهِ، قَال: فرَجَع غيرَ بَعيدٍ، ثمَّ جَاءَ فقَال: يا رَسُول اللهِ طَهِّرْني، فقَال رَسُول اللهِ: ويحك ارْجِع فاستَغْفرِ اللهَ وتُبْ إليهِ قَال: فرَجَع غيرَ بَعيدٍ، ثمَّ جَاءَ فقَال: يا رَسُول اللهِ طَهِّرْني، فقَال النبي مِثل ذلك، حتَّى إذا كَانتِ الرَّابِعة قَال لهُ رَسُول اللهِ: فيمَ أُطَهِّرُكَ؟ فقَال: مِن الزِّنا، فسَأَل رَسُول اللهِ: أَبِهِ جُنون؟ فأُخبِرَ أَنهُ ليس بِمَجْنون، فقَال:

---

(١) مسلم في المساجد، باب استحباب الذكر بعد الصلاة ١/٤١٤ (٥٩١).

(٢) البخاري في الدعوات، باب استغفار النبي ٥/٢٣٢٤ (٥٩٤٨).

أَشَرِبَ خَمْرًا؟ فقَامَ رَجُل فاسْتَنكَهَهُ فلمْ يَجِدْ مِنهُ رِيحَ خَمْرٍ، قَال: فقَال رَسُول اللهِ: أَزَنيتَ؟ فقَال: نعمْ، فأَمَرَ بِهِ فرُجِمَ، فكَان الناسُ فيهِ فرْقَتَين: قَائِل يقُول: لقَدْ هَلك، لقَدْ أَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ، وقَائِل يقُول: مَا تَوبَةٌ أَفضَل مِن تَوبَةِ مَاعِزٍ أَنهُ جَاءَ إِلى النبِي فوضَع يدَهُ في يدِهِ، ثمَّ قَال اقْتُلني بِالحِجَارَةِ، قَال: فلبِثوا بِذلك يومَين أَو ثلاثَةً، ثمَّ جَاءَ رَسُول اللهِ وهُمْ جُلوسٌ فسلَمَ ثمَّ جَلس، فقَال: اسْتَغْفِرُوا لمَاعِزِ بْن مَالكٍ، فقَالوا: غَفرَ اللهُ لمَاعِزِ بْن مَالكٍ، قَال: فقَال رَسُول اللهِ: لقَدْ تَابَ تَوبَةً لو قُسِمَتْ بَين أُمَّةٍ لوسِعتْهُمْ. قال بريدة: ثمَّ جَاءَتْهُ امْرَأَةٌ مِن غَامِدٍ مِن الأَزْدِ، فقَالتْ: يا رَسُول اللهِ طَهِّرْني، فقَال: ويحَكِ ارْجِعي فاسْتَغْفِري اللهَ وتُوبِي إِليهِ، فقَالتْ: أَرَاكَ تُرِيدُ أَن تُرَدِّدَني كَمَا رَدَّدْتَ مَاعِزَ بْن مَالكٍ)[١].

• أصول الضلال مرجعها إلى بابين الشهوات والشبهات.

لما كانت جميع الدواعي في منطقة حديث النفس مردها إلى وجود النازعين والهاتفين، فإن أصول الضلال مرجعها إلى بابين أساسيين الشهوات والشبهات، وباب الشبهات أعظم البابين:

الباب الأول باب الشبهات: وهو مدخل خواطر الشيطان وحزبه من بني الإنسان والشيطان، ويتسع هذا الباب فيما بين مصراعيه بسبب ضعف البصيرة وقلة العلم، ولاسيما إذا اقترن بذلك فساد القصد وحصول الهوى، فهنالك الفتنة العظمى والمصيبة الكبرى، فقل ما شئت في ضلال سيء القصد، الحاكم عليه الهوى لا

---

(١) مسلم في الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنا ٣/١٣٢١ (١٦٩٥).

الهدى، مع ضعف بصيرته، وقلة علمه بما بعث الله به رسوله ﷺ، فهو من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾ النجم: ٢٣.

وقال تعالى: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ ص: ٢٦.

وهذه الفتنة مآلها إلى الكفر والنفاق، وهي فتنة المنافقين، وفتنة أهل البدع على حسب مراتب بدعهم، فجميعهم إنما ابتدعوا من باب الشبهات التي اشتبه عليهم فيها الحق بالباطل، والهدى بالضلال، ولا ينجى من هذه الفتنة إلا تجريد اتباع الرسول ﷺ، وتحكيمه في دق الدين وجله، ظاهره وباطنه، عقائده وأعماله، حقائقه وشرائعه، فيتلقى عنه حقائق الإيمان وشرائع الإسلام، وما يثبته لله من الصفات والأفعال والأسماء، وما ينفيه عنه، كما يتلقى عنه وجوب الصلوات، وأوقاتها، وأعدادها، ومقادير الزكاة، ومستحقيها، ووجوب الوضوء، والغسل من الجنابة، وصوم رمضان، فلا يجعله رسولا في شيء دون شيء من أمور الدين، بل هو رسول في كل شيء تحتاج إليه الأمة في العلم والعمل، لا يتلقى إلا عنه، ولا يؤخذ إلا منه، فالهدى كله دائر على أقواله وأفعاله، وكل ما خرج عنها فهو ضلال، فإذا عقد قلبه على ذلك، وعرض ما سواه ووزنه بما جاء به الرسولﷺ، فإن وافقه قبله، لا لكون ذلك القائل قاله، بل لموافقته للرسالة، وإن خالفه رده ولو قاله من قاله، فهذا الذي ينجيه من فتنة الشبهات، وإن فاته ذلك أصابه من فتنتها بحسب ما فاته

منه، وهذه الفتنة تنشأ تارة من فهم فاسد، وتارة من نقل كاذب، وتارة من حق ثابت خفي على الرجل فلم يظفر به، وتارة من غرض فاسد وهوى متبع، فهي من عمى في البصيرة وفساد في الإرادة [1].

الباب الثاني باب الشهوات: وهو مدخل كل خاطر تعلق بأنواع المشتهيات في الدنيا، وأدى إلى معصية الله، وقد جمع الله سبحانه وتعالى بين ذكر هذه البابين باب الشهوات والشبهات في قوله تعالى: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ التوبة: ٦٩.

ومعنى استمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم، أي تمتعوا بنصيبهم من الدنيا وشهواتها، والخلاق هو النصيب المقدر. ومعنى وخضتم كالذي خاضوا، أي الخوض بالباطل وهو الشبهات، فأشار سبحانه في هذه الآية إلى ما يحصل به فساد القلوب والأديان من الاستمتاع بالخلاق، والخوض بالباطل، لأن فساد الدعين إما أن يكون باعتقاد الباطل والتكلم به، أو بالعمل بخلاف العلم الصحيح، فالأول هو داعي البدع وما والاها، والثاني فسق الأعمال، فالأول فساد من جهة الشبهات، والثاني من جهة الشهوات.

وفتنة الشبهات تدفع باليقين، وفتنة الشهوات تدفع بالصبر، ولذلك

---

(١) إعاثة اللهفان لابن القيم ٢/١٦٥ بتصرف.

جعل سبحانه إمامة الدين منوطة بهذين الأمرين فقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤)﴾ السجدة:٢٤. فدل على أنه بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين[1].

وجمع الله ﷻ بينهما أيضا في قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾ العصر:٣. فتواصوا بالحق الذي يدفع الشبهات وبالصبر الذي يكف عن الشهوات. وإذا سلم العبد من فتنة الشبهات والشهوات حصل له أعظم غايتين مطلوبتين بهما سعادته وفلاحه وكماله وهما الهدى والرحمة، قال تعالى عن أوليائه: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (٨)﴾ آل عمران:٨ [2].

- **حقيقة النفس المطمئنة والنفس اللوامة والنفس الأمارة.**

إذا نظرنا إلى القلب وما فيه من منطقة حديث النفس ومنطقة الكسب وما بينهما من العقل، وجدنا تفسير علميا مبنيا على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وقسمة عقلية منطقية دقيقة في تنوع العباد، وتقليب قلوبهم وظهور قدرة الله وحكمته فيهم، فباعتبار النظر إلى الأركان في منطقة حديث النفس، وما يتم فيها من خواطر وابتلاءات فإن الأنفس تتنوع بالضرورة العقلية إلى ثلاثة أنواع: نفس مطمئنة، ونفس أمارة بالسوء، ونفس لوامة.

وكذلك باعتبار النظر إلى الأركان في منطقة الكسب وما يتم فيها

---

(١) المصدر السابق ٢/١٦٧ بتصرف.
(٢) السابق ٢/١٦٨ بتصرف.

من اختيارات وابتلاءات، فإن القلوب تتنوع بالضرورة العقلية إلى ثلاثة أنواع: قلب سليم، وقلب ميت قاس، وقلب مريض.

ولنبدأ بالتعريف على أنواع الأنفس ذكرها الله ﷻ ووصف حالها مع أركان الخواطر في منطقة حديث النفس، والتعامل مع مقتضى أحكام العقل وسلطان الأعمال في منطقة الكسب. لقد استعاذ النبي ﷺ من النفس وشرورها فروى أبو داود وصححه الألباني من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال : (علمنَا رَسُول اللهِ ﷺ خُطْبَةَ الحَاجَةِ أَن الحَمْدُ للهِ نستْعينهُ ونستَغْفِرُهُ، ونعوذ بِهِ مِن شُرُورِ أَنفسِنا، مَن يهْدِ اللهُ فلا مُضِل لهُ، ومَن يضْلل فلا هَادِيَ لهُ، وأَشْهَدُ أَن لا إِلهَ إِلا اللهُ، وأَشْهَدُ أَن مُحَمَّدًا عبْدُهُ ورَسُولهُ)[1].

إن النفس قاطعة بين القلب وبين الوصول إلى مرضاة الرب، ولا يصل العبد إلى مرضاة الرب إلا بعد إماتتها وتركها بمخالفتها وأن يظفر بنفسه ويجعلها في طاعة ربه، فإن الناس على قسمين: قسم ظفرت به نفسه فملكته وأهلكته، وصار طوعا لها، تحت أوامرها. وقسم ظفروا بنفوسهم فقهروها فصارت طوعا لهم منقادة لأوامرهم.

والنفس تدعو بخواطرها إلى الطغيان، وإيثار الحياة الدنيا، والرب يدعو عبده إلى خوفه، ونهي النفس عن الهوى، وكسب القلب بين الداعيين، يميل إلى هذا الداعي مرة، وإلى هذا مرة، وهذا موضع المحنة والابتلاء، وقد وصف سبحانه النفس في القرآن بثلاث صفات: المطمئنة

(١) رواه أبو داود في كتاب النكاح، باب في خطبة النكاح ٢/٢٣٨ (٢١١٨) وصححه الألباني، وانظر خطبة الحاجة ١/٢٨، نشر المكتب الإسلامي بيروت.

والأمارة بالسوء واللوامة، وهي نفس واحدة باعتبار ذاتها، وثلاث باعتبار صفاتها، فإذا اعتبرت بنفسها فهي واحدة وإن اعتبرت مع كل صفة دون الأخرى فهي متعددة.

أولا النفس المطمئنة: إذا سكنت النفس إلى الله ﷻ، واطمأنت بذكره، وأنابت إليه، واشتاقت إلى لقائه، وأنست بقربه فهي مطمئنة راضية مرضية. وحقيقة الطمأنينة السكون والاستقرار، فهي التي قد سكنت إلى ربها وسكنت إلى تنفيذ أمره وذكره وطاعته ، ولم تسكن إلى سواه، فقد اطمأنت بذكره ومحبته وعبوديته، واطمأنت إلى تصديق خبره، واطمأنت إلى لقائه ووعده، واطمأنت إلى التصديق بحقائق أسمائه وصفاته، واطمأنت إلى الرضا به ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد ﷺ رسولا، واطمأنت إلى قضائه وقدره، واطمأنت إلى أن الله وحده ربها وإلهها ومعبودها ومليكها ومالك أمرها كله، وأن مرجعها إليه، وأنها لا غنى لها عنه طرفة عين فتوكلت عليه.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ٣٠﴾ الفجر:٢٧/٣٠.

ثانيا النفس الأمارة بالسوء: وإذا كانت النفس ضد المطمئنة فهي أمارة بالسوء، لأن الخواطر الملقاة من نازع الشر في منطقة حديث النفس تدعو صاحبها إلى أنوع المشتهيات التي لو اتبعها القلب وقع في الغي وانقاد قلبه إلى الباطل وكل قبيح ومكروه، وهي دائمة الدعوة لا تسأم من الأمر بتلبية الرغبة والحض على ملذات الشهوة الحيوانية في البدن، وقد أخبر سبحانه أنها أمارة بالسوء، ولم يقل آمرة لكثرة ذلك

منها، وأنه عادتها ودأبها، ولذلك فإن أصحاب النفس الأمارة قوم لا يقومون إلا في أهواء نفوسهم، فلا يرضون إلا بتحقيق ما يشتهون ، ولا يغضبون إلا عند ما يحرمون مما يشتهون، فإذا أعطي أحدهم ما يشتهيه من الشهوات زال غضبه، وحصل رضاه، والنفس الأمارة فيها داعي الظلم لغيرها بالعلو عليه والحسد له والتعدي عليه في حقه، وداعي الظلم لنفسها بتناول الشهوات القبيحة كالزنا وأكل الخبائث، فهي قد تظلم من لا يظلمها، وتؤثر هذه الشهوات وإن لم تفعلها، فإذا رأت نظراءها قد ظلموا وتناولوا هذه الشهوات، صار داعي هذه الشهوات أو الظلم فيها أعظم بكثير، ولا تسلم النفس الأمارة إلا بطلب المغفرة وكثرة الاستغفار من الذنوب والاستعانة بعلام الغيوب على هدايتها.

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣ ﴾ يوسف:٥٣.

ثالثا النفس اللوامة: والمراد بها النفس الواقعة بين الأمارة والمطمئنة فلها وجهان، تترد بينهما في الاستجابة للنازعين، فتارة تستجيب لداعي الهوى والعصيان، ثم تلوم نفسها وتستجيب لنازع التقوى والإيمان فلا تزال تتردد بين المعصية واللائمة والطاعة، تلوم نفسها على ترك المتابعة والإقدام على المخالفة، وتلوم نفسها أيضا على ما فات عنها في الأيام الماضية من الأعمال والطاعات والمراتعة في مراتع الشهوات، ثم ترى وجها لها يقرب من وضعية النفس المطمئنة وهو وجه الإيمان، فإذا نظرت بهذا الوجه إلى المطمئنة وتنورت بنورانيتها واصطبغت بصبغتها تلوم أيضا نفسها على التقصيرات الواقعة منها، والمحذورات الكائنة

عليها، فهي لا تزال لائمة لها، قائمة على سوق لومها إلى أن تتحقق بنعمة الاطمئنان، وهى المصدقة بوقوع الحساب على ما بدر منها يوم القيامة، فلا تفتأ تلوم نفسها أبدا في التقصير والتقاعد عن الخيرات، وإن أحسنت لا مت نفسها على عدم حرصها على الزيادة في أعمال البر والقربات، فكيف بها إن أخطأت وفرطت وبدرت منها بادرة كانت فيها من الغافلات [١].

- **حقيقة القلب السليم والقلب المريض والميت القاسي.**

لما كانت منطقة الكسب في القلب هي المسيطرة على الخواطر في حديث النفس والجوارح في سائر أعضاء البدن، كان القلب لهذه الأركان والأعضاء كالملك المتصرف في الجنود الذي تصدر كلها عن أمره، ويستعملها فيما شاء، فكلها تحت سلطانه وقهره وتكتسب منه الاستقامة والزيغ، وتتبعه فيما يعقده من العزم أو يحله، فالجسد فيه مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، فالقلب فيه مشيئة العبد ونيته وإرادته وسائر أعمال القلوب، والأعضاء منفذة لما يأمرها به، قابلة لما يأتيها من هديته، ولا يستقيم لها شيء من أعمالها حتى تصدر عن قصده ونيته، وهو المسئول عنها كلها، لأن كل راع مسئول عن رعيته [٢].

ولما علم عدو الله إبليس أن مدار المسئولية على القلب، والاعتماد عليه أجلب عليه بالوساوس، وأقبل بوجوه الشهوات إليه، وزين له من الأحوال والأعمال ما يصده به عن الطريق، وأمده من أسباب الغي بما

---

(١) روح البيان في تفسير القرآن لإسماعيل حقي تفسير سورة القيامة الآية ٢.

(٢) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان لابن القيم ١/٥ بتصرف.

يقطعه عن أسباب التوفيق، ونصب له من المصايد والحبائل ما إن سلم من الوقوع فيها لم يسلم من أن يحصل له بها التعويق، فلا نجاة من مصايده ومكايده إلا بدوام الاستعانة والاستعاذة بالله تعالى والتعرض لأسباب مرضاته والتجاء القلب إليه وإقباله عليه في حركاته وسكناته، ولما كان القلب موصوفا بالحياة وضدها انقسم بحسب ذلك إلى هذه الأحوال الثلاثة:

١- القلب السليم: هو القلب الصحيح الذي لا ينجو يوم القيامة إلا من أتى الله به كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ الشعراء:٨٨/٨٩ .

والقلب السليم هو السالم الذي قد صارت السلامة صفة ثابتة له فهو ضد المريض والسقيم والعليل، وقد اختلفت عبارات الناس في معنى القلب السليم، والأمر الجامع لذلك أنه الذي قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه، ومن كل شبهة تعارض خبره، فسلم من عبودية ما سواه، وسلم من تحكيم غير رسوله، فسلم في محبة الله مع تحكيمه لرسوله في خوفه ورجائه والتوكل عليه والإنابة إليه والذل له، وإيثار مرضاته في كل حال، والتباعد من سخطه بكل طريق، وهذا هو حقيقة العبودية التي لا تصلح إلا لله وحده، فالقلب السليم هو الذي سلم من أن يكون لغير الله فيه شرك بوجه ما، بل قد خلصت عبوديته لله تعالى إرادة ومحبة وتوكلا وإنابة وإخباتا وخشية ورجاء، وخلص عمله لله فإن أحب أحب في الله، وإن أبغض أبغض في الله، وإن أعطى أعطى لله، وإن منع منع لله، ولا يكفيه هذا حتى يسلم من الانقياد والتحكيم لكل من

سوى رسوله، فيعقد قلبه معه عقدا محكما على الائتمام والاقتداء به وحده دون كل أحد في الأقوال والأعمال، من أقوال القلب وهي العقائد، وأقوال اللسان، وهي الخبر عما في القلب، وأعمال القلب وهي الإرادة والمحبة والكراهة وتوابعها، وأعمال الجوارح فيكون الحاكم عليه في ذلك كله دقه وجله هو ما جاء به الرسول ﷺ[1].

٢- القلب الميت: وهو ضد هذا وهو القلب الذي لا حياة به، فهو لا يعرف ربه، ولا يعبده بأمره وما يحبه ويرضاه، بل هو واقف مع شهواته ولذاته ولو كان فيها سخط ربه وغضبه، فهو لا يبالي إذا فاز بشهوته وحظه سواء رضي ربه أم سخط، فهو متعبد لغير الله حبا وخوفا ورجاء ورضا وسخطا وتعظيما وذلا، إن أحب أحب لهواه، وإن أبغض أبغض لهواه، وإن أعطى أعطى لهواه، وإن منع منع لهواه فهواه أفضل عنده وأحب إليه من رضا مولاه، فالهوى إمامه، والشهوة قائده والجهل سائقه، والغفلة مركبه، فهو بالفكر في تحصيل أغراضه الدنيوية مغمور، وبسكرة الهوى وحب العاجلة مخمور، يناديه داعي الخير في قلبه ومن كتاب ربه وسنة نبيه أن أقبل إلى الله وإلى الدار الآخرة، فلا يستجيب للناصحين ويتبع كل موسوس حزب الشياطين، تعلق بالدنيا فهي مبتغاه، تسخطه وترضيه، والهوى يصمه عما سوى الباطل ويعميه، فمخالطة صاحب هذا القلب سقم ومعاشرته سم ومجالسته هلاك[2].

٣- القلب المريض: وهو قلب له حياة وبه علة، فله مادتان تمده

---

(١) السابق ١/٨ بتصرف.

(٢) السابق ١/٩ بتصرف.

هذه مرة وهذه أخرى، وهو لما غلب عليه منهما، ففيه من محبة الله تعالى والإيمان به والإخلاص له والتوكل عليه ما هو مادة حياته، وفيه من محبة الشهوات وإيثارها، والحرص على تحصيلها، والحسد، والكبر، والعجب، وحب العلو والفساد في الأرض ما هو مادة هلاكه وعطبه، وهو ممتحن بين داعيين، داع يدعوه إلى الله ورسوله والدار الآخرة، وداع يدعوه إلى العاجلة، وهو إنما يجيب أقربهما منه بابا، وأدناهما إليه جوارا، فالقلب الأول حي مخبت لين واع، والثاني يابس ميت، والثالث مريض، فإما إلى السلامة أدنى، وإما إلى العطب أدنى[1].

وقد جمع الله بين هذه القلوب الثلاثة في قوله ﷻ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٢ لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ٥٣ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٤﴾ الحج:٥٢/٥٤.

فجعل الله سبحانه وتعالى القلوب في هذه الآيات ثلاثة، قلبين مفتونين، وقلبا ناجيا، فالمفتونان هما القلب الذي فيه مرض والقلب القاسي، والناجي هو القلب المؤمن المخبت إلى ربه، وهو المطمئن إليه الخاضع له، المستسلم المنقاد.

وذلك أن القلب وغيره من الأعضاء، يراد منه أن يكون صحيحا

---

(١) السابق ١/١٠ بتصرف.

سليما لا آفة به، يتأتى منه ما هيئ له وخلق لأجله، وخروجه عن الاستقامة إما ليبسه وقساوته، وعدم التأتي لما يراد منه، كاليد المشلولة واللسان الأخرس والعين التي لا تبصر شيئا، وإما بمرض وآفة فيه تمنعه من كمال هذه الأفعال ووقوعها على السداد، فلذلك انقسمت القلوب إلى هذه الأقسام الثلاثة، فالقلب الصحيح السليم ليس بينه وبين قبول الحق ومحبته وإيثاره سوى إدراكه، فهو صحيح الإدراك للحق تام الانقياد والقبول له، والقلب الميت القاسي لا يقبله، ولا ينقاد له، والقلب المريض إن غلب عليه مرضه التحق بالميت القاسي، وإن غلبت عليه صحته التحق بالسليم، فما يلقيه الشيطان في الأسماع من الألفاظ، وفي القلوب من الشبه والشكوك فتنة لهذين القلبين، وقوة للقلب الحي السليم؛ لأنه يرد ذلك ويكرهه ويبغضه، ويعلم أن الحق في خلافه، فيخبت للحق ويطمئن وينقاد، ويعلم بطلان ما ألقاه الشيطان، فيزداد إيمانا بالحق ومحبة له، وكفرا بالباطل وكراهة له، فلا يزال القلب المفتون في مرية من إلقاء الشيطان، وأما القلب الصحيح السليم فلا يضره ما يلقيه الشيطان أبدا [(١)].

ولما كان مرض البدن خلاف صحته وصلاحه، وهو خروجه عن اعتداله الطبيعي لفساد يعرض له يفسد به إدراكه وحركته الطبيعية، فإما أن يذهب إدراكه بالكلية كالعمى والصمم والشلل، وإما أن ينقص إداركه لضعف في آلات الإدراك مع استقامة إدراكه، وإما أن يدرك الأشياء على خلاف ما هي عليه، كما يدرك الحلو مرا

---

(٢) السابق ١/ ١٠ بتصرف.

والخبيث طيبا والطيب خبيثا، وإذا عرف هذا فالقلب محتاج إلى ما يحفظ عليه قوته، وهو الإيمان وأوراد الطاعات، وإلى حمايته من المؤذي الضار، وذلك باجتناب الآثام والمعاصي وأنواع المخالفات، وإلى استفراغه من كل مادة فاسدة تعرض له، وذلك بالتوبة النصوح واستغفار غافر الذنب وقابل التوب [١].

• حقيقة الفتن التي تعرض على القلوب عودا عوداً.

روى مسلم من حديث حذيفة بن اليمان ﵁ أنه قال: (كُنا عندَ عمرَ، فقَال: أَيكُمْ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ يذكُرُ الفتَنَ؟ فقَال قَومٌ: نَحْن سَمِعناهُ، فقَال: لعلكُمْ تَعنون فتنَةَ الرَّجُل فِي أَهْلِهِ وجَارِهِ؟ [٢].

قَالوا: أَجَل، قَال: تِلكَ تُكفرُهَا الصَّلاَةُ والصِّيامُ والصَّدَقَةُ، ولكِن أَيكُمْ سَمِعَ النبِي يذكُرُ الفتَنَ التِي تَمُوجُ مَوجَ البَحْرِ؟ [٣].

قَال حُذيفةُ: فأَسْكَتَ القَومُ، فقُلتُ: أَنا، قَال: أَنتَ، للهِ أَبُوكَ! قَال حُذيفةُ: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ يقُول: تُعرَضُ الفتَنُ على القُلوبِ كَالحَصِيرِ عودا عودا [٤]، فأَي قَلبٍ أُشْرِبَهَا نكِتَ فيهِ نكْتَةٌ سَودَاءُ [٥]، وأَي قَلبٍ أَنكرَهَا نكِتَ فيهِ نكْتَةٌ بَيضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ على قَلبَين، على أَبْيضَ مِثل

---

(١) السابق ١/١٦، ١/١٧ بتصرف.

(٢) أصل الفتنة في كلام العرب الابتلاء والامتحان والاختبار.

(٣) تضطرب ويدفع بعضها بعضا، وشبهها بموج البحر لخطورتها وكثرة شيوعها.

(٤) معنى عودا عودا أي تعاد وتكرر شيئا بعد شيء.

(٥) معنى أشربها دخلت فيه دخولا تاما، وألزمها وحلت منه محل الشراب يعنى أرادها وأحبها.

الصَّفا، فلاَ تَضرُّهُ فتنةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاواتُ والأَرْضُ [١]، والآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادا، كَالكُوزِ مُجَخِّيا[٢]، لاَ يعرِف مَعرُوفا ولاَ ينكِرُ مُنكرا إِلاَّ مَا أُشْرِبَ مِن هَوَاهُ) [٣].

شبه النبي ﷺ عرض الفتن على القلوب شيئا فشيئا كعرض عيدان الحصير وهي الخواطر من دواعي هوى النفس وخواطر الشيطان وشبهاته، تعرض بالدعوة إلى أنواع الفتن شيئا فشيئا، وقسم القلوب عند عرضها عليها إلى قسمين، قلب استجاب لها، فإذا عرضت عليه فتنة أشربها، كما يشرب السفنج الماء، فتنكت فيه نكتة سوداء، فلا يزال يشرب كل فتنة تعرض عليه حتى يسود وينتكس، وهو معنى قوله كالكوز مجخيا، أي مكبوبا منكوسا، فإذا اسود وانتكس عرض له من هاتين الآفتين مرضان خطران متراميان به إلى الهلاك:

أحدهما: اشتباه المعروف عليه بالمنكر بتلبيس دواعي الشيطان وحزبه، فلا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا، وربما استحكم عليه هذا المرض حتى يعتقد المعروف منكرا، والمنكر معروفا، والسنة بدعة والبدعة سنة، والحق باطلا والباطل حقا .

---

(١) وذلك لشدته على عقد الإيمان وسلامته من الخلل، وأن الفتن لم تلصق به ولم تؤثر فيه كالصفا وهو الحجر الأملس الذي لا يعلق به شيء.

(٢) مجخيا يعني مائلا منكوسا، شبه القلب الذي لا يعي خيرا بالكوز المنحرف الذي لا يثبت الماء فيه، ومعني ذلك أن الرجل إذا تبع هواه وارتكب المعاصي دخل قلبه بكل معصية يتعاطاها ظلمة، وإذا صار كذلك زال عنه نور الإسلام.

(٣) رواه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا ١/١٢٩ (١٤٤).

والثاني: تحكيمه هواه بتلبيس دواعي الهوى وتقديمها على ما جاء به الرسول ﷺ، وانقياده الشديد للهوى وإتباعه له أعماه عن الحق حتى أظلمت عيناه فلم ير إلا سوادا في القلب بانعدام البصيرة وسوادا في الحياة بانعدام بصره في اتباع حزب الله.

وأما حال القلب الثاني عند عرض الفتن عليه فهو قلب أبيض، قد أشرق فيه نور الإيمان، وأزهرت فيه مصباحه، فإذا عرضت عليه الفتنة أنكرها وردها، فازداد نوره وإشراقه وقوته [1].

والفتن التي تعرض على القلوب هي أسباب مرضها، وهي فتن الشهوات وفتن الشبهات، فتن الغي والضلال، فتن المعاصي والبدع، فتن الظلم والجهل، فالأولى توجب فساد القصد والإرادة والثانية توجب فساد العلم والاعتقاد.

وقد قسم حذيفة بن اليمان رضي الله عنه القلوب إلى أربعة أنواع كما صح عنه موقوفا أنه قال:

(الْقُلُوبُ أَرْبَعَة، قلْبٌ أجْرَدُ فيهِ مثلُ السِّرَاجِ يزْهِرُ، وقلَبٌ أَغْلَف مرْبُوطٌ عَلَى غِلَافِهِ، وقلْبٌ منكُوسٌ، وقلَبٌ مصفحٌ، فأَما الْقلْبُ الأَجْرَدُ فقلْبُ الْمؤْمن سِرَاجُهُ فيهِ نورُهُ، وأَما الْقلْبُ الأَغْلَف فقلْبُ الْكَافِرِ، وأَما الْقلْبُ المنكُوسُ فقلْبُ الْمنافق عَرَف ثم أَنكَرَ، وأَما الْقلْبُ المصْفحُ فقلْبٌ فيهِ إِيمان ونفاق، فمَثلُ الإِيمان فيهِ كَمثلِ الْبَقْلَةِ يمدُّهَا الْماءُ الطَّيبُ، ومثلُ النفاق فيهِ كَمَثلِ الْقرْحَةِ يمدُّهَا الْقيحُ

(١) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ١/١٢ بتصرف.

والدَّم، فأَيُ الْمدَّتَين غَلَبَتْ عَلَى الأُخْرَى غَلَبَتْ عَلَيهِ)[(١)].

والقلب الأجرد هو المتجرد مما سوى الله ورسوله، فقد تجرد وسلم مما سوى الحق، وفيه سراج يزهر وهو مصباح الإيمان، فأشار بتجرده إلى سلامته من شبهات الباطل التي يلقيها الشيطان، وشهوات الغي التي تتقلب في نفس الإنسان، وبحصول السراج فيه أشار إلى إشراقه واستنارته بنور العلم والإيمان.

وأما القلب الأغلف فهو قلب الكافر لأن الكفر داخل في غلافه وغشائه، فلا يصل إليه نور العلم والإيمان، كما قال تعالى عن اليهود: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ البقرة:٨٨. وهو جمع أغلف، وهو الداخل في غلافه وغشائه، وهذه الغشاوة هي الأكنة التي ضربها الله على قلوبهم عقوبة لصاحب هذا القلب على رد الحق، والتكبر عن قبوله، فهي أكنة على القلوب، ووقر في الأسماع، وعمى في الأبصار، وهي الحجاب المستور عن العيون، في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾ الإسراء:٤٥/٤٦.

إذا ذكر لهذه القلوب تجريد التوحيد لله وتجريد المتابعة لرسول الله ﷺ ولى أصحابها على أدبارهم نفورا.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ٧/٤٨١ (٣٧٣٩٥)، وابن المبارك في الزهد ١/٥٠٤ (١٤٣٩) موقوفاً على حذيفة، وروى مرفوعا ولا يصح، وانظر مسند أحمد بن حنبل ٣/١٧، وكتاب الإيمان لابن تيمية ص ١٠٦، تحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، طبعة المكتب الإسلامي، بيروت ١٤١٣هـ.

وأما القلب المنكوس فهو المكبوب إلى قلب المنافق كما قال تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾﴾ النساء:٨٨. أي نكسهم وردهم في الباطل الذي كانوا فيه بسبب كسبهم وأعمالهم الباطلة، وهذا شر القلوب وأخبثها فإنه يعتقد الباطل حقا ويوالي أصحابه، والحق باطلا ويعادى أهله.

وأما القلب الذي له مادتان تحضانه إلى منطقة الكسب في القلب فهو الذي لم يتمكن فيه الإيمان، ولم يزهر فيه سراجه، حيث لم يتجرد للحق المحض الذي بعث الله به رسوله، بل فيه مادة منه، ومادة من خلافه، فتارة يكون للكفر أقرب منه للإيمان، وتارة يكون للإيمان أقرب منه للكفر، والحكم للغالب وإليه يرجع [1].

• سبق الكتاب وتقليب القلوب بين عدل الله وفضله.

روي البخاري من حديث عبد اللهِ بن مسعودٍ ﵁ أن رسول اللهِ ﷺ وهو الصادق المصْدُوقُ قال: (إِن أحدَكم يجمَع خَلقُهُ في بطن أُمِّهِ أربعين يوماً، ثم يكون علقَةً مثلهُ، ثم يكون مُضْغَةً مثلهُ، ثم يبعث إليه الملكُ، فيؤذن بأَرْبَع كلماتٍ، فيكتُبُ رزقَه، وأَجله، وعمله، وشقي أم سعيدٌ، ثم ينفخُ فيه الرُّوحَ، فإِن أَحَدكُم ليعمَل بعمل أهل الجنةِ حتى لا يكون بينها وبينه إلا ذراع، فيسْبِق عليه الكتابُ، فيعمل بعمل أهل النار فيدخُل النار، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون

(١) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ١/١٣ بتصرف.

بينها وبينهُ إلا ذراع، فيسبقُ عليه الكتابُ، فيعمل عمل أهل الجنةِ فيدخُلها) [(١)].

تقدم أن منطقة حديث النفس لا حساب عليها، وأنها مفتاح الابتلاء ومحل البلاء، فتارة تتوالى الخواطر من النازعين، وتارة تتوارد من الهاتفين، فربما تختلف اللمتان من الملك والشيطان العدو، ويتفاوت الإلهام والوسوسة في طرح معاني الخير والشر، فلربما تقدمت لمة الشيطان بالأمر بالشر، وتقدح بعدها لمة الملك نصرة للعبد وتثبيتا على الخير، وعناية من الرب تعالى، فينتهي عن ذلك، وعلاقة ذلك بالإرادة أنه يجب على العبد أن يعصى خاطر الشر، ويستغفر الله ويتعوذ به من الشيطان، ويطيع الخاطر الثاني ويحمد الله.

ولربما تقدم إلهام الملك بالأمر بالخير، ثم يقدح بعده خاطر الشيطان بالنهى عنه، والتثبيط فيه، وتأخير الاستجابة، محنة من الله تعالى للعبد، لينظر كيف يعمل، وحسدا وحقدا من الشيطان، فعليه أن يطيع خاطر الحق ويعصى خاطر الشيطان، ثم تدق الخواطر من إلهام الملك بالخير ومن وسوسة الشيطان بالشر، وقد يتفاوت ذلك من ضعف خاطر الخير لقوة الرغبة في الدنيا، ومن قوة خاطر الشر لقوة الشهوة والهوى، وتزداد الخواطر وتنقص حسب تقليب الله ومشيئته، وتوفيقه لعبده وهدايته، وتثبيته وعصمته، ليرجع الأمر إلى نفاذ قضاء الله وقدره وتحقيقه لحكمته وعدله وابتلائه العبد في قلبه وبدنه. وكل هذا إلقاء من خالق النفس

---

(١) رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ٦/٢٧١٣ (٧٠١٦).

ومسويها، ومقلب القلوب ومحييها، حكمة منه وعدلا لمن شاء، ومنة منه وفضلا لمن شاء، كما قال سبحانه: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ الأنعام:١١٥. أي بالهداية صدقا لأوليائه ما وعدهم من ثوابه، وبالإضلال عدلا على أعدائه ما أعد لهم من عقابه، فإذا أراد الله إظهار شيء من خزائن الغيب وظهور آثار قدرته وحكمته في عبده حرك بلطيف القدرة نازع الشر والاشتهاء في قلبه، فتحركت النفس بإذنه ابتلاء وامتحانا لعبده، فقدح من حركتها ظلمة تنكت في القلب همة سوء، فينظر الشيطان إلى القلب فيقوى نازع الشر، والعبد في غفلة، كان يجب أن يستغفر الله، ويستعيذ به من الشيطان ولكنه ما فعل، وتحرك بإرادته مستجيبا لحلاوة لشهوته فيقع في العصيان ويحاسب على ذنبه بعدل الله الذي لا يظلم أحدا من خلقه.

فإذا أراد الله تعالى بفضله سلامة عبده هذا الذي أشرف على الهلاك والبعد، بتسلط الشيطان عليه وتسويل النفس الأمارة له، ليطهِّر قلبه عند البلاء حرك له نازع الخير، وأمر الملك فحثه وحضه بخواطر كثير توقظه من غفلته، فيستغفر العبد بعزمه وإرادته، ويكثر من الاستغفار ويستعيذ ويكثر من الاستعاذة، فيهدى الله النفس بنور إيمانها بالله، وصدق الالتجاء إلي الله، عائدا لائذا مخلصا مفوضا أمر إليه فوقاه الله مكر الشيطان، وجعل له مخرجا ونجاه، فينخمد نازع الشر وينمحق الهم من القلب ويخنس الشيطان ولا يبقى لخاطره من سلطان، فيصفوا القلب بقوة العزيز القهار، وتقليب الملك الجبار، فيخاف العبد مقام ربه، ويفزع من خطيئته وذنبه، ويهرب منها ويستغفر الله ويتوب.

وهذا كله تحقيق لحكمة الله في تقليب القلوب، وإنفاذ لمشيئة علام الغيوب في ابتلاء عبيده حتى يتحقق المكتوب، وهذا معنى كون الرجل يعمل بعمل أهل الجنة حتّى ما يكون بينه وبين الجنةِ إِلا ذراع، فيسبقُ عليه كتابةُ في اللوح المحفوظ أن الله ﷻ سيبتليه فيفشل ويضل، حيث يبتليه الحق في منطقة حديث النفس فلا يستجيب العبد ويضل في منطقة الكسب، يستجيب لهواه ويسارع في إرضاء الشيطان، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وكذلك الرجل يعمل بعمل أهل النار حتّى ما يكون بينه وبين النار إِلا ذراع، فيسبقُ عليه كتابةُ في اللوح المحفوظ أن الله سيبتليه فينجح ويستجيب إلى هداية الله، يبتليه الله في منطقة حديث النفس بنازع التقوى ولمة الملك فيستجيب باختياره الكائن في منطقة الكسب لنازع الخير وهاتف الخير، ويسارع في إرضاء الحق، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها، هكذا يتحقق عدل الله وفضله في تقليب القلوب لعباده ولا يظلم الله أحدا من خلقه فيما وقع من قضائه وقدره.

وصلاح القلب سبب لصلاح الإنسان والدنيا بأسرها، ولا يكون ذلك إلا بمعرفة الحق وتمييزه من الباطل، ثم اتباع الحق وإيثاره على الباطل، ومن ثم قد تتحرك الإرادة في الإنسان تبعا لما علمه من الحق، وقد يحركها في الباطل بالرغم من علمه به، فإذا وافق عمل القلب عمل الجوارح وكانا منضبطين علي الإرادة الشرعية كان ذلك كمال التوحيد في العبودية وتوفيق الله للعبد بإرادته الكونية.

- **الختم والطبع على القلوب وعدم التعارض مع الحكمة.**

إذا أراد الله بعبد خيرا أكمل عقله، وأتم بصيرته، ثم صرف عنه

العوائق والدوافع، وأزاح عنه الموانع، ووفق له قرناء الخير، وسهل له سبله، وقطع عنه الملهيات وأسباب الغفلات، وقيض له ما يقربه إلى القربات، فيوافيها ثم يعتادها ويتمرن عليها.

وإذا أراد الله بعبده شرا قدر له ما يبعده عن الخير ويقصيه، وهيأ له أسباب تماديه في الغي، وحبب إليه التشوف إلى الشهوات، وعرضه للآفات والابتلاءات، وكلما غلبت عليه دواعي النفس خنست دواعي الخير، ثم يستمر على الشرور على مر الدهور، ويأتي مهاويها ويتعاون عليه الوسواس ونزعات الشيطان، ونزعات النفس الإمارة بالسوء، فتطبع الغفلة على قلبه غشاوة بقضاء الله وقدره، فذلك هو الطبع والختم والأكنة [1]، يكون القلب فارغا من الشر والمعصية، فيوسوس الشيطان إليه، ويخطر الذنب بباله، فيصوره لنفسه، ويمنيه ويشهيه، فيصير شهوة، ويزينها له ويحسنها ويخيلها له في خيال تميل نفسه إليه، حتى تستجيب الإرادة، ثم لا يزال يمثل ويخيل ويمني ويشهي وينسى علمه بضررها، ويطوي عنه سوء عاقبتها، فيحول بينه وبين مطالعته، فلا يرى إلا صورة المعصية والتذاذه بها فقط، وينسى ما وراء ذلك فتصير الإرادة عزيمة جازمة، فيشتد الحرص عليها من القلب، فيبعث جنوده من أعضاء البدن وما تبعه في طلب الأمر المشتهى، فيبعث الشيطان معهم مدادا لهم وعونا، فإن فتروا حركهم، وإن ونوا أزعجهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (٨٣)﴾ مريم:٨٣.

---

(١) شفاء العليل لابن القيم ص١٢٤، بتصرف.

أي تزعجهم إلى المعاصي إزعاجا كلما فتروا أو ونوا أزعجتهم الشياطين وأزتهم وأثارتهم، فلا تزال بالعبد تقوده إلى الذنب وتنظم شمل الاجتماع بألطف حيلة، وأتم مكيدة، قد رضي الشيطان لنفسه بالقيادة لفجرة بني آدم [١]. فقعد لهم بكل طرق الخير، فما من طريق من طرق الخير إلا والشيطان مرصد عليه، يمنعه بجهده أن يسلكه، فإن خالفه وسلكه ثبطه فيه، وعوقه وشوش عليه بالمعارضات.

وقد أقسم الشيطان بالله ليقعدن لبني آدم صراطه المستقيم، وأقسم ليأتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم حتى يعبد من دون الله، فهو ساع بأقصى جهده على إطفاء نور الله وإبطال دعوته وإقامة دعوة الكفر والشرك ومحو التوحيد وأعلامه من الأرض [٢].

ومن ثم فإن اتباع الإنسان للشيطان إذا انضم إلى مسارعة الإنسان في الاستجابة لكل ما يهواه، سقط قلبه في ظلمات لا يعلمها إلا الله، وعندها يصبح القلب بكل ما فيه مختوما لكل أنواع الباطل والضلال ومن ثم يتم الختم أيضا على الإسماع وتقع الغشاوة على الإبصار، لأن القلوب أقفلت، وجعلت عليها الأكنة والرين والطبع والختم والإغفال عن ذكر الرب حتى زاغ القلب، وتداخل الصدر، وأصبح ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء. قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا

---

(١) بدائع الفوائد لابن القيم ٢/٤٨١ بتصرف.
(٢) المصدر السابق ٢/٤٨٢ : ٤٨٣ بتصرف.

يُؤۡمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ الأنعام: ١٢٥. وقال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ الحج: ٤٦.

وخلاصة الأمر أن الختم والطبع على القلوب لا يتعارض مع حكمة الله وعدله في محاسبتها، لا يعني ذلك إجبارها، أو ظلم الله لها إن عذبها، فمعلوم أن كل ما يقلبه الله في منطقة حديث النفس لا حساب عليه ولا عقاب، وأن ما قلبه الله للعباد إنما هو ابتلاء بالخواطر وهي أسباب كسائر الأسباب، أما ما كان في منطقة الكسب من اختيارات العبد فعليه الثواب والعقاب، وهو الذي اختار طريق الباطل والضلال وتمسك به حتى أعلن لنفسه أن عودته للرشد والصواب أمر محال ودرب من الخيال، فطبع الله على قلبه وختم عليه.

وكثيرا ما نرى من الناس في عصرنا من الحداثيين والعلمانيين والاشتراكيين، الذين يتصدرون وسائل الإعلام منذ سنين، نرى من آثر طريقة الغربيين من اليهود والنصارى في منهجهم ومعيشتهم وكلامهم ومصطلحاتهم وحركاتهم وسكناتهم وسائر سلوكياتهم ومحبتهم لإشاعة الفحشاء في مجتمعاتهم، حتى لو دخلوا جحر ضب لخراءة لدخلوا خلفهم بقلوبهم وأسماعهم وأبصارهم، ثم تراهم يحتقرون من بصرهم بغيهم وحذرهم من اتباع أهوائهم وشياطينهم، فتجدهم يعلنون للناس أن هذا منهجهم، ولا يتصورون لحظة أن يكونوا على سمت السلف ونهجهم، بل يرونهم قوما من عصر الظلمة والتخلف والرجعية، حتى طبعت قلوبهم على محاربة الطريقة السلفية، فطبع الله على قلوبهم إذ صارت العبودية لأهوائهم. قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ

عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ الجاثية:٢٣. وقال: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾ الصف:٥ .

• من أسماء الله المقيدة مقلب القلوب ومصرفها ومثبتها.

ورد أسماء الله ﷻ المقيدة اسم مقلب القلوب كما روى البخاري من حديث عبد الله بن عمر ﵄ أنه قال: (كَانتْ يمِين النبِي ﷺ لا ومُقَلبِ القُلوبِ) (١).

ومن أسماء الله ﷻ المقيدة اسم مصرف القلوب، والدليل ما رواه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو ﵄ أنه سمع النبي ﷺ يقول: (إِن قُلوبَ بَني آدَمَ كُلهَا بَين إِصبَعين مِن أَصَابِعِ الرَّحْمَن كَقَلبٍ واحِدٍ يصرِّفهُ حَيث يشاءُ، ثمَّ قَال رَسُول اللهِ ﷺ: اللهُمَّ مُصَرِّف القُلوبِ صَرِّف قُلوبَنا على طَاعتِكَ اللهُمَّ مُصَرِّف القُلوبِ صَرِّف قُلوبَنا على طَاعتِكَ) (٢).

ومن أسماء الله ﷻ المقيدة اسم مثبت القلوب، والدليل ما رواه ابن ماجه وصححه الشيخ الألباني أن النواس بن سمعان ﵁ سمع النبي ﷺ يقول: (مَا مِن قَلبٍ إلا بَين إِصبَعين مِن أَصَابِعِ الرَّحْمَن، إِن شَاءَ أَقَامَهُ، وإِن شَاءَ أَزَاغَهُ، وكَان رَسُول اللهِ ﷺ يقُول: يا مُثَبِّتَ القُلوبِ

---

(١) البخاري في الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي ٦/٢٤٤٥ (٦٢٥٣).
(٢) رواه مسلم في القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب ٤/ ٢٠٤٥ (٢٦٥٤).

ثبِّتْ قُلوبَنا على دِينك قَالَ والمِيزَان بِيدِ الرَّحْمَن يرْفع أَقْوامًا ويخْفضُ آخَرِين إِلى يومِ القِيامَةِ) [١].

وروى الترمذي وصححه الشيخ الألباني من حديث أَنسٍ بن مالك ﷺ أنه قال: (كان رَسول الله ﷺ يكْثرُ أن يقول: يا مُقلبَ القُلوبِ ثبِّتْ قَلبِي على دِينك، فقُلتُ: يا نبي الله آمنا بِك، وبِمَا جِئْتَ بِهِ، فهَل تَخاف علينا؟ قَال: نعم، إِن القُلوبَ بَين أَصْبُعين مِن أَصَابِع الله، يقلبُهَا كَيف شاءَ) [٢].

وروى الترمذي وصححه الشيخ الألباني من حديث شَهْر بن حوشَبٍ، قال قُلتُ لامِّ سَلمَةَ: (يا أُمَّ المُؤْمِنين ما كان أَكْثرُ دُعاءِ رَسُول الله إذا كان عندَكِ؟ قالتْ: كان أَكْثرُ دُعائِهِ يا مُقلبَ القلوبِ ثبِّتْ قَلبِي على دِينكَ، قالتْ فقُلتُ يا رَسُول الله ما أَكْثر دُعاكَ يا مُقلبَ القُلوب ثبِّتْ قَلبِي على دِينكَ؟ قال: يا أُمَّ سَلمَةَ إنهُ ليسَ آدَمِي إلاَّ وقلبُهُ بَين أَصْبعين مِن أصابع الله فمَن شاءَ أَقَامَ ومَن أشاءَ أزَاغ) [٣].

---

(١) رواه ابن ماجه في باب فيما أنكرت الجهمية ١/٧٢ (١٩٩)، وصححه الشيخ الألباني، انظر ظلال الجنة في تخريج السنة لابن أبي عاصم (٢١٩) .

(٢) رواه الترمذي في كتاب القدر، باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن ٤/٤٤٨ (٢١٤٠)، وأحمد في المسند ٣/١١٢ (١٢١٢٨)، وصححه الألباني، انظر مشكاة المصابيح (١٠٢)، وظلال الجنة (٢٢٥).

(٣) رواه الترمذي في كتاب الدعوات ٥/٥٣٨ (٣٥٢٢)، وأحمد في المسند ٦/٣١٥ (٢٦٧٢١)، وابن أبي شيبة في المصنف ١٠/٢٠٩ (٢٩٨٠٧)، وصححه الألباني، انظر ظلال الجنة في تخريج السنة لابن أبي عاصم (٢٢٣).

إن من أعجب الآيات في خلق الله للإنسان سرعة تقلب القلب وانقسام القلوب في التغير والثبات، فوجود القلب من دلائل الاختيار والحرية في الإنسان، فالقلب فيه منطقتان منطقة حديث النفس جعلها الله ﷻ محلا للخواطر وهي تحتوى علي ركنين نفسيين ونازعين ذاتيين متقابلين ومتضادين، أحدهما يدعوا إلى التقوى والإيمان والآخر يدعو إلى الفجور والعصيان.

وجعل الله ﷻ أيضا ركنين خارجيين من خلال هاتفين قرينين، متقابلين ومتضادين، ليس لأحدهما جبر أو غلبة على إرادة الإنسان، الأول هو الملك والآخر الشيطان، والهاتفان والنازعان يسهمان في تشكيل الخواطر في قلب الإنسان خيرها وشرها، وبين النازعين والهاتفين أوجد الله ﷻ عقلا يمثل صمام الأمان، يضبط الأفكار والخواطر في قلب الإنسان، ويميز بين ما ينفع وما يضر، ويقيس من خلاله معاني الخير والشر، ومن أدلة الاختيار في الإنسان أيضا وجود منطقة الكسب والإرادة تصطف فيها أعمال القلوب، وهذه المنطقة هي مصدر النيات والإرادات والحركات والسكنات في الإنسان وعليها تقع المساءلة ويدور الحساب على الأقوال والأفعال وكل ما يكتسبه الإنسان. فالقلب، تكتنفه الصفات التي ذكرت وتنصب إليه الآثار والأحوال من الأبواب التي وصفت، فهو هدف يصاب على الدوام من كل جانب فإذا أصابه شيء يتأثر به أصابه من جانب آخر ما يضاده فتتغير صفته، فإن نزل به الشيطان فدعاه إلى اتباع الهوى ومعصية الله ﷻ، نزل به الملك وصرفه عنه، فتارة يكون متنازعا بين دواعي الخير، وتارة بين دواعي الشر،

وتارة بين النازعين فقط، وتارة بين الملك والشيطان فقط، لا يكون قط مهملا، وإليه الإشارة باسم مقلب القلوب، وما دل عليه من الوصف المقيد بالقلب، كما في قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ الأنعام: ١١٠ .

وقد أشار رسول الله ﷺ إلى عجيب الصنعة وكمال الحكمة في عجائب القلب وتقلبه، كان يحلف به فيقول كما تقدم أعلاه: لا ومقلب القلوب. وأخرى يدعو فيقول: يا مصرف القلوب. وثالثة يدعو: يا مثبت القلوب ثبت قلبي على دينك. وبين ﷺ أن ما من قلب إلا بين أصبعين من أصابع الرحمن، إن شاء أن يقيمه أقامه بفضله ورحمته، وإن شاء أن يزيغه أزاغه بعدله وحكمته، فله سبحانه الحجة البالغة في دعوة الخلق إلى توحيده في عبادته وإفراده بربوبيته، فشتان بين قلب عامر بالتقوى وقلب عامر بضدها.

ولو نظرت إلى القلب الذي شاء الله ﷻ أن يقيمه بفضله ورحمته وجدته قلبا عامرا باليقين والتقوى، قلبا زكيا طاهرا بطاعة ربه، طاهرا من خبائث الهواجس التي يلقيها الشيطان وخطرات الهوى ونازع الشر في الإنسان، قد من عليه الرحمن برحمته فانقدحت فيه خواطر الخير من خزائن الغيب، ونازع التقوى، ودواعي الحكمة، فينصرف العقل إلى التفكر فيما خطر له ليعرف دقائق الخير فيه، ويطلع على أسرار فوائده، فينكشف له بنور البصيرة وجهه، فيحكم بأنه لا بد من فعله فيستحثه العقل عليه، ويدعوه إلى العمل به، وينظر الملك إلى القلب فيجده طيبا في جوهره طاهرا بتقواه، مستنيرا بضياء العقل معمورا بأنوار المعرفة،

فيراه صالحا لأن يكون مستودعا للخير، فعند ذلك يمده بجنود لا ترى ويهديه إلى خيرات أخرى، حتى ينجر الخير إلى الخير، وكذلك على الدوام ولا يتناهى إمداده بالترغيب بالخير، وتيسير الأمر عليه وإليه، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ الليل: ٤/ ١٠ .

وفي منطقة الكسب تشرق إرادة الاتباع للإرادة الشرعية بنور العلم الذي حواه العقل واكتسبه من هداية النقل، فتتكاتف أعمال القلب وتختار طريق القرب وتسعى إلى بها في اختيار كل ما أحب، ولا يروج عليها شيء من مكايد الشيطان، بل يقف الشيطان ويوحي زخرف القول غرورا، فلا تلتفت إليه بل تستعيذ بالله منه، وتسأل الله ﷻ أن يصرف عنه دواعي الشر بكل أنواعها وأن يثبتها على دينها، لأنه سبحانه مقلب القلوب ومصرفها ومثبتها.

وهذا هو القلب العامر بالتقوى الذي من الله ﷻ عليه فأقبل القلب إليه، وسكن بحبه واطمئن بذكر الله وقربه. قلّب الله ﷻ له الدواعي بفضله ورحمته في منطقة حديث النفس، وهي منطقة لا يؤاخذ عليها الشخص، فاستجابت منطقة الكسب واختار القلب بتوفيق الرب أن يكون عبدا لله، وحده لا عبدا لشيطانه وهواها، وهذا فضل الله ﷻ على عبده في أقامة قلبه على دينه [1].

ولو نظرت إلى القلب الذي شاء الله ﷻ أن يزيغه بعدله وحكمته وجدت قلبا مخذولا، مشحونا بنوازع الهوى، مدنسا بالمشتهى في معصية

---

(١) انظر للمقارنة إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي ٣/ ٤٥.

الله، قد فتح لخواطر الشيطان أبوابا غير مسدودة، وأغلق لدعوة الخير وهاتف الحق أبوابا موصدة، انقدح فيه خاطر من هوى النفس، فينظر القلب إلى حاكم العقل ليستفتيه ويستكشف وجه الصواب فيه، فيجد العقل قد ألف بطول المعصية خدمة الهوى وأنس به، واستمر على استنباط الحيل له، وعلى مساعدة الهوى والشهوات بأدق الشبهات، فينشرح الصدر بموافقة أحكام العقل لهوى النفس، وتنبسط فيه ظلماته الرجس، فيقوى سلطان الشيطان لاتساع مكانه بسبب انتشار الهوى، فيقبل عليه بالتزيين والغرور والأماني، ويوحي بذلك زخرفا من القول غرورا، فيضعف سلطان الإيمان بالوعد والوعيد، ويخبو نور اليقين لخوف الآخرة حتى تنطفئ أنواره، وهكذا تفعل غلبة الشهوة بالقلب إذا لم يستغفر الله ﷻ حتى لا يبقى للقلب إمكان التوقف والاستبصار، ولو بصره واعظ الحق، وأسمعه الملك ما هو الحق، عمى القلب عن الفهم، وصم عن السمع، وهاجت الشهوة فيه، وسطا الشيطان وتحركت الجوارح على وفق الهوى، فظهرت المعصية على بدنه بعد أن استوطنت نية إلوهية الهوى في قلبه [1].

وفي المقابل منع الله ﷻ عن هذا القلب المخذول بعدله وحكمته دواعي الخير في منطقة حديث النفس، وهي منطقة لا يؤاخذ عليها الشخص، لما استجابت منطقة الكسب واختار القلب بخذلان الرب أن يكون عبدا لشيطانه وهواه، أو الطاغوت الذي عبده من دون الله، وهذا عدل الله ﷻ في عبده أزاغ قلبه عن دينه وما ظلمه.

---

(١) انظر للمقارنة السابق ٣/٤٦.

ورب قلب ثالث يتقلب بين العدل والفضل، قلب تبدو في منطقة حديث النفس التي لا يحاسب عليها الشخص خواطر الهوى فتدعوه إلى الشر، فيلحقه خاطر الإيمان ونازع الخير، فيدعوه إلى الخير، فتنبعث الإرادة من منطقة الكسب بشهوتها إلى نصرة خاطر الشر، فتقوى الشهوة وتحسن التمتع والتنعم، فينبعث العقل إلى خاطر الخير، ويدفع في وجه الشهوة، ويقبِّح فعلها، ويبين ألمها في عاقبتها، وينسبها إلى الجهل، ويشبهها بالبهيمة والسبع في تهجمها على الشر، وقلة اكتراثها بالعواقب فتميل النفس إلى نصح العقل، فيحمل الشيطان بخواطر شبهاته حملة على العقل، فيقوي داعي الهوى ويبعث بشهواته، فتميل النفس إلى الشيطان وتنقلب إليه، فيحمل الملك بهتاف الحق حملة على خواطر الشيطان ويدعو إلى النصح والحذر من أتباع لذة في الحال تؤدي إلى عاقبة السوء في المآل، أفتقنع بلذة يسيرة، وتترك لذة الجنة ونعيمها أبد الآبدين، أم تستثقل ألم الصبر عن شهوتك، ولا تستثقل ألم المعذبين في النار خالدين فيها أبدا؟ فعند ذلك تمتثل الإرادة إلى قول الملك، فلا يزال يتردد بين الجندين متجاذبا بين الحزبين إلى أن يغلب على القلب ما اختاره صاحبه من أنواع الكسب، فإن لم يستغفر العبد ربه ويتعوذ بالله ﷻ من الشيطان ونزغه، ويطلب من مقلب القلوب أن يقيمه على الحق، ومن مصرف القلوب أن يصرف عن قلبه الكفر والشرك، ومن مثبت القلوب أن يثبته على الدين الحق، تركه الله ﷻ بعدله لنفسه وللشيطان وحزبه [1].

وهكذا القلوب تتقلب بين إصبعين من أصابع الرحمن بين معاني

---

(١) انظر للمقارنة السابق ٣/٤٧.

القدرة والحكمة ومعاني الفضل والعدل، وكل ذلك ليقع قدر الله ﻷ الذي سبق به القضاء، ويتم بعلمه وقدرته ما يشاء، كما قال: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾ الأحزاب:٣٨. فمن خلق للجنة يسرت له أسباب الطاعات، ومن خلق للنار يسرت له أسباب المعاصي، وكل ذلك بقضاء من الله وقدر. قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ الأنعام:١٢٥ .

وقال: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ آل عمران:١٦٠ .

قال الطحاوي: (ذلك بأنه على كل شيء قدير وكل شيء إليه فقير وكل أمر عليه يسير لا يحتاج إلى شيء، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، خلق الخلق بعمله وقدر لهم أقدارا وضرب لهم آجالا ولم يخف عليه شيء قبل أن يخلقهم وعلم ما هم عاملون قبل أن يخلقهم وأمرهم بطاعته ونهاهم عن معصيته وكل شيء يجري بتقديره ومشيئته، ومشيئته تنفذ، لا مشيئة للعباد إلا ما شاء لهم، فما شاء لهم كان، وما لم يشأ لم يكن، يهدي من يشاء ويعصم ويعافي فضلا، ويضل من يشاء ويخذل ويبتلي عدلا، وكلهم يتقلبون في مشيئته بين فضله وعدله)[١].

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص١٤٢.

المطلب الخامس والعشرون

الاستطاعة والقدرة وحكمة الله في خلق الاختيار في الإنسان

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فقد تحدثنا في المطلب السابق عن النتائج المترتبة على العلاقة بين حديث النفس ومنطقة الكسب، وبينا أن أصول الضلال مرجعها إلى بابين اثنين الشهوات والشبهات ارتباطا بالسيئ من النازعين والهاتفين، ثم تعرفنا على حقيقة النفس المطمئنة، والنفس اللوامة، والنفس الأمارة بالسوء، وكذلك تعرفنا على حقيقة القلب السليم الذي قاوم الشهوات والشبهات، والقلب المريض والميت القاسي.

وبينا أيضا حقيقة الفتن التي تعرض على القلوب كالحصير عودا عودا، وكيف أن سبق الكتاب وتقليب القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن لا ينافي عدل الله ﷻ في الإنسان، وكذلك علمنا أن الختم على القلوب والطبع عليها لا يعارض مسئوليتها عن أفعالها، ولا ينافي حكمة الله ﷻ في خلقة، أو حجته على عباده، ثم تناولنا الحديث عن أسماء الله التوقيفية المقيدة وهي مقلب القلوب ومصرفها ومثبتها.

وفي هذه المطلب نتحدث بإذن الله ﷻ عن الاستطاعة والقدرة البشرية وحكمة الله في خلق الاختيار في الإنسانية.

• معنى الاستطاعة في اللغة والاصطلاح.

الاسْتِطاعةُ في اللغَة الطَّاقةُ إِلاَّ أَنّ الاستطاعة خاصّة بالإنسان، والإِطاقة عامة، تقول: الناقة مطيقة لِحِمْل هذه الأشياء، ولا تقل: الناقة مستطيعة، فهذا الفرق بينهما، والاستطاعةُ القدرة على الشيء، وقيل: هي استفعال من الطاعة، والأصل الاستِطْواعُ، فلمّا أُسْقِطَتْ الواوُ، جُعِلت الهاءُ بدلاً عنها[(١)].

والاستطاعة مصدر استطاع يستطيع استطاعة، والمصدر هو فعل الفاعل وصفته، كالضرب الذي هو فعل الضارب، والحمرة التي هي صفة الأحمر وما أشبه ذلك، والصفة قائمة بالموصوف، والفعل قائم بالفاعل، فإذا كانت الاستطاعة في اللغة التي نتكلم بها إنما هي صفة قائمة بالمستطيع، فبالضرورة نعلم أن ما يفهم من معنى الصفة غير ما يفهم من معنى الموصوف.

وعلى ذلك فإن الاستطاعة في الاصطلاح صفة قائمة بالمستطيع، إن لم يتصف بها اتصف بضدها وهو العجز، وأصبح العجز صفة للعاجز، فربما نجد المرء مستطيعا ثم نراه غير مستطيع، إما لأن أعضاءه قد خدرت، أو كتفت، أو حدث له إغماء، وهو كامل الأعضاء لم ينتقص منه شيء، فصح بالضرورة أن معدوم الاستطاعة غير مستطيع، وإن كانت أعضاؤه كاملة، وهذا أمر يعرف بالمشاهدة والحس، وبهذا أيقنا أن الاستطاعة وصف قد يقبل الشدة والضعف، ويقبل المفاضلة، فنقول

---

(١) انظر لسان العرب لابن منظور ٨/٢٤٠، وتاج العروس للزبيدي ٢١/٤٦٣، والنهاية في غريب الأثر لابن الأثير ٣/١٤٢ نشر المكتبة العلمية بيروت.

استطاعة هذا أشد وأقوى من استطاعة ذاك[1].

• الأدلة النقلية على إثبات الاستطاعة البشرية.

١- قال تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ ﴾ الكهف:٦٥/٦٩.

والشاهد أن الله عز وجل جعل استطاعة للإنسان تمكن بها من أن يكون فاعلا متحركا في الأرض آخذا بالأسباب .

٢- قال تعالى عن ذي القرنين والتمكين له: ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ ﴾ الكهف:٩٥/٩٧.

٣- قال تعالى: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ التغابن:١٦ .

٤- قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ آل عمران:٩٧. والمقصود بالاستطاعة في الآية سلامة الأعضاء الجسدية اللازمة لأداء النسك، ووجود الأدوات الخارجية التي تمكن الإنسان من السفر إلي مكة وتكفيه فترة النسك

---

(١) الفصل في الملل والنحل لابن حزم ١٧/٣ بتصرف.

وتلك الأدوات هي الراحلة والزاد، فمن توفرت له الاستطاعة فقد وجب عليه الحج وإلا ارتكب محرما بتركه ركنا من أركان الإسلام.

٥- وقال تعالى: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ هود:٨٨.

٦- وقال تعالى عن إعداد القوة لإرهاب الأعداء بأقصى استطاعة منحها للإنسان: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾ الأنفال:٦٠.

فالله ﷻ كلف العباد بما في وسعهم وعلى قدر استطاعتهم، وفي حالة عجز العبد أو ضعفه، فإن الله يحاسبه على نيته وإرادته، وهذا منتهى الكمال في إثبات عدل الله ﷻ إذ جعل الإنسان مسئولا عن اختياره موقوفا على حاله في الإيمان أو الكفر.

٧- وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ﴾ النساء:٢٥.

٨- وروى البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُحِبُّ التَّيَمُّنَ مَا اسْتَطَاعَ فِي شَأْنِهِ كُلِه، فِي طُهُورِهِ وَتَرَجُّلِهِ وَتَنَعُّلِهِ) [١].

---

(٢) رواه البخاري في أبواب المساجد، باب التيمن في دخول المسجد وغيره ١/١٦٥ (٤١٦)، ومسلم في كتاب الطهارة، باب التيمن في الطهور وغيره ١/٢٢٦ (٢٦٨). والترجل هو تسريح الشعر وتنظيفه وتحسينه.

٩- وروى البخاري من حديث عبد الله ﷺ أنه قال: (كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فقَال: مَنْ اسْتَطَاعَ البَاءَةَ فَليَتَزوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ للبَصَرِ، وَأَحْصَنُ للفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَليْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ) (١).

١٠- وروى البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (التَّثَاؤُبُ مِنْ الشَّيْطَانِ، فَإِذَا تَثَاءَبَ أَحَدُكُمْ فَليَرُدَّهُ مَا اسْتَطَاعَ، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا قَالَ: هَا، ضَحِكَ الشَّيْطَانُ) (٢).

والأدلة النقلية على إثبات الاستطاعة البشرية أكثر من أن تحصى، وأن الله جعلها سببا للتكليف والمسئولية قبل الفعل، وجعلها مع الفعل توفيقا بفضله لمن شاء من عباده، أو خذلانا بعدله لمن حاد عن هديه ومراده، فالله هو الخالق المعطى الجواد المنان، وهو أيضا الخالق القادر الديان، الذي يعطى من يشاء ما يشاء، ويمنع من يشاء على سبيل الابتلاء، فالأفعال مخلوقة لله ﷻ يخلقها بتمامها، والكسب لفعل العبد في الطاعة ليبقى منعما بثوابها أو في المعصية ليبقى معذبا من جرائها.

ومن ثم فإن دور الإنسان واستطاعة البشرية تجاه الفعل المخلوق لله اكتسابه فقط، أي الأخذ بالأسباب التي خلقها الله ﷻ ليصل بها إلى مراده، وأما الحكم بالحسن والقبح على فعل الإنسان فهو مبنى على

---

(١) رواه البخاري في كتاب الصوم، باب الصوم لمن خاف على نفسه العزوبة ٢/٦٧٣ (١٨٠٦)، ومسلم في كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة ٢/١٠١٩ (١٤٠٠).

(٢) البخاري في بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده ٣/١١٩٧ (٣١١٥)، ومسلم في الزهد والرقائق، باب تشميت العاطس وكراهة التثاؤب ٤/٢٢٩٣ (٢٩٩٤).

نتيجة اختياره، وليس نتيجة لخلق الله ﷻ لفعله، فإن وافق الإنسان الشرع كان الفعل خيرا، وإن خالفه كان شرا، فالعلة في كون الفعل خيرا أو شرا هو الاختيار الإنساني .

- **القدرة والاستطاعة من مقومات الحرية تحقيقا للابتلاء.**

لقد علمنا أنه من حكمة الله ﷻ خلق الاختيار الحر في الإنسان، وأن مقومات هذا الاختيار مبنية على وجود النازعين والهاتفين والعقل ومنطقة الكسب وسائر أعمال القلوب، فهذه المقومات تتبع الجانب الغيبي من الإنسان، وتعد أساسا متينا في إثبات حرية العبد ووقوعه تحت المساءلة وتوقيع الجزاء في الدنيا والآخرة.

وهناك مقوم آخر من مقومات الحرية، وهو مقوم مرئي في البدن والأعضاء الخارجية، ويتمثل في إثبات الاستطاعة البشرية، وقدرة الإنسان على تحقيق الإرادة وسائر الاختيارات الذاتية، فالله ﷻ استخلف العباد في الأرض، وخولهم فيها، واسترعاهم، واستأمنهم ليبتليهم، فالاستطاعة التي منحها الله ﷻ للبشر نفهم حقيقتها من خلال إدراك الغاية من خلقهم، والعلة من وجودهم في هذه الأرض بالكيفية التي تحقق معاني الابتلاء.

إن الله لما استخلف الإنسان في الأرض وخوله فيها، جعل طبيعة الكائنات، وماهية المخلوقات المستخلف عليها، تسمح بقبول فعل الإنسان وتأثيره فيها، كما أن الله ﷻ أقام النواميس الكونية والقوانين الطبيعية بحيث تمكن الإنسان من التملك والسيطرة والقوة والهيمنة ما دام يأخذ في الدنيا بأسبابها، فالله سبحانه وتعالى أعطى العبد من فضله

ومكنه من نعمه، فأصبح قادرا مستطيعا فاعلا، وأمره سبحانه عند القدرة بالتواضع واللين، وأن يرد الفضل في قوله وفعله إلى رب العالمين، وأن يعرف قدره في بداية حياته، وما سيؤول إليه في عاقبته، فإذا تذكر العبد وتفكر في نفسه، وأدرك حقيقة الأشياء من حوله، علم أن حوله وقوته من عطاء ربه، وأن استطاعته إنما هي منحة من الله ﷻ له، فعند ذلك زال عنه العجب الكبر، ولزمه الخضوع والذل، وتواضع للمولى ﷻ، وشكر من أنعم عليه بغير حساب، وانكسرت نفسه خوفا من العقاب وطمعا في الثواب.

وإذا امتنع العبد عن توحيد العبادة لله ﷻ مع ما حباه من القدرة، منعه الله ﷻ منها في الآخرة، قال تعالى عن الكافرين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾﴾ الفرقان:٦٠.

فلما امتنعوا عن السجود مع الاستطاعة في الدنيا سلبها الله ﷻ منهم في الآخرة، فقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ القلم:٤٢/٤٣ .

وجميع أهل الحق والإيمان يثبتون استطاعة ذاتية للإنسان على تحقيق ما يختار، وقدرته عليه تنفيذ هذا الاختيار بمشيئة الله ﷻ، فهم علموا وأيقنوا أن الله ﷻ استخلفهم واستأمنهم في أرضه، وخولهم في القيام عليها للعمل بأوامره وشرعه، واسترعاهم في هذه الدنيا ليبتليهم.

قال أبو سعيد الخراز: (اعلم أن الأنبياء عليهم السلام والعلماء والصالحين من بعدهم ﭫ أمناء الله تعالى في أرضه على سره، وعلى أمره ونهيه وعلمه، وموضع وديعته، والنصحاء له في خلقه وبريته، وهم

الذين عقلوا عن الله تعالى أمره ونهيه، وفهموا لماذا خلقهم؟ وما أراد منهم، وإلى ما ندبهم)[1].

ثم بين أبو سعيد رحمه الله أنهم أصغوا إلى الله ﷻ بآذان الفهم الواعية، وقلوبهم الطاهرة، ولم يتخلفوا عما ندبهم إليه، فسمعوا الله ﷻ يقول: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾ الحديد:٧ .

وسمعوه سبحانه يبين أن العلة في استخلافهم وخلق استطاعتهم هي الابتلاء والاختبار فقال رب العزة والجلال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾ الأنعام:١٦٥. وقال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ يونس:١٤. ومن ثم فإن الحقيقة التي أيقن بها المؤمنون، وجعلوها نصب أعينهم وفي كل أفعالهم أنهم وأنفسهم لله تعالى، وكذلك ما خولهم وملكهم فإنما هو له، غير أنهم في دار اختبار وبلوى، وخلقوا للاختبار والبلوى في هذه الدار[2].

والمؤمنون يفهمون الاستطاعة من خلال فهمهم للغاية من خلقهم ووجودهم في هذه الأرض بالكيفية التي تحقق معنى الابتلاء، فإذا تذكر العبد وتفكر في نفسه، وفي الأشياء من حوله، وعلم أن حوله وقوته بقوة

(١) الطريق إلى الله كتاب الصدق لأبى سعيد أحمد بن عيسى الخراز، ص٣٢، تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود طبعة دار الكتب الحديثة، القاهرة سنة ١٩٧٥م.

(٢) السابق ص٣٢ بتصرف.

الله ﷻ وحوله، وأن استطاعته نعمة مما منحه الله ﷻ وأعطاه، فشكره على هذه النعمة العليا، تلك النعمة التي كرم الله بها بني أدم .

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ الإسراء: ٧٠.

ويذكر الحارث المحاسبي أن العبد ينبغي أن يعلم أنه لم يخلق عبثا ولم يترك سدى، وإنما خلق ووضع في هذه الدار للبلوى والاختبار ليطيع الله ﷻ أو يعصى فينتقل من هذه الدار إلى عذاب الأبد أو نعيم الأبد، وأن الله ﷻ لما منحه استطاعة وقدرة كان ذلك من باب النعمة التي يراها الشاكرون، فالعبد أحياه بعد ما كان ميتا، وأسمعه بعد ما كان أصما، وبصره بعد ما كان أعمى لا بصر له، وقواه بعد أن كان ضعيفا، وعلمه بعد أن كان جاهلا، وأغناه بعد أن كان فقيرا، وأشبعه بعد أن كان جائعا، وكساه بعد أن كان عاريا، وهداه بعد أن كان ضالا، فكيف يتأتى لعبد بعد ذلك أن يضيف العمل إلى النفس على سبيل الكبر ونسيان الفضل [1] .

• الاستطاعة والقدرة قد تكون وبالا على صاحبها.

ولما كانت الاستطاعة والقدرة التي منحها الله ﷻ للعبد محلا للابتلاء، شأنها شأن الخواطر وسائر الأشياء التي ابتلاه بها في القلب، فإنها تكون وبالا عليه إن تعاظم بها على الخلق، أو تعالى عن

(١) الرعاية لحقوق الله للحارث بن أسد المحاسبي ص٣٢، ٤٨ بتصرف، تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود، طبعة دار المعارف، القاهرة سنة ١٩٩٠م.

الخضوع للحق، أو أمره البعض بخير أو نهاه عن شر، فأبى واستكبر وطغى وبغى عليهم.

وقد ذكر الله ﷻ عن قوم شعيب عليه السلام أنهم ظنوا أن الاستطاعة أو القدرة طالما منحت لهم فلهم أن يفعلوا بها ما شاءوا، دون النظر إلى العلة من وجودهم ووجودها، وأن مشيئتهم متوقفة على توفيق الله ﷻ ومشيئته في وقوعها، فإن شاء أمضى لمن شاء من عباده ما شاء من مشيئته، وإن شاء منع من شاء ما شاء من وقوع مشيئته: ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ ﴾ هود:٨٧. فأجابهم شعيب عليه السلام أن هذا الرزق إنما منحه الله ﷻ للإنسان كي يطاع، وليس لمجرد الاشتهاء واللذة والاستمتاع، فوجب عليه أن يصلح في الأرض ما استطاع، فقال تعالى: ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾ هود:٨٨.

وقال الله تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ التغابن:١٦ .

وروي مسلم من حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه، أَنَّ رَجُلا أَكَل عِنْدَ رَسُول اللهِ بِشِمَالِهِ، فَقَال: كُل بِيَمِينِك قَال: لاَ أَسْتَطِيعُ، قَال: لاَ اسْتَطَعْتَ، مَا مَنَعَهُ إِلاَّ الكِبْرُ، قَال: فَمَا رَفَعَهَا إِلَى فِيهِ [1].

---

(١) مسلم في الأشربة، باب آداب الطعام والشراب ١٥٩٩/٣ (٢٠٢١).

وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن الحب يحرك إرادة القلب، فكلما قويت المحبة في القلب طلب القلب فعل المحبوبات، فإذا كانت المحبة محبة تامة استلزمت إرادة جازمة في حصول المحبوبات، فإذا كان العبد مستطيعا قادرا عليها حصّلها، وإن كان عاجزا عنها ففعل ما يقدر عليه من ذلك وبما استطاع كان له كأجر الفاعل، كما قال النبي ﷺ:

(مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ) (١).

وروى البخاري من حديث أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ رَجَعَ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ، فَدَنَا مِنْ المَدِينَةِ فَقَالَ: إِنَّ بِالمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا، وَلا قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلا كَانُوا مَعَكُمْ، قَالوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَهُمْ بِالمَدِينَةِ؟ قَالَ: وَهُمْ بِالمَدِينَةِ، حَبَسَهُمْ العُذْرُ (٢).

والجهاد هو بذل الوسع، وهو القدرة في حصول محبوب الحق، ودفع ما يكرهه، فإذا ترك العبد ما يقدر عليه من الجهاد كان دليلا على ضعف محبة الله ورسوله في قلبه، ومعلوم أن المحبوبات لا تنال غالبا إلا باحتمال المكروهات، سواء كانت محبة صالحة أو فاسدة، فالمحبون للمال والرئاسة لا ينالون مطالبهم إلا بضرر يلحقهم في الدنيا مع ما يصيبهم

---

(١) مسلم في الزكاة، باب الحث على الصدقة ٢/٧٠٥ (١٠١٧).

(٢) البخاري في المغازي، باب نزول النبي ﷺ الحجر ٤/١٦١٠ (٤١٦١)، ومسلم في الإمارة، باب ثواب من حبسه عن الغزو مرض أو عذر٣/١٥١٨ (١٩١١).

من الضرر في الدنيا والآخرة [(١)].

وكلما ازداد القلب حبا لله ﷻ ازداد له عبودية، وكلما ازداد له عبودية ازداد له حبا وحرية عما سواه، والقلب فقير بالذات إلى الله ﷻ من وجهين: من جهة العبادة وهي غايته، ومن جهة الاستعانة والتوكل وهي استطاعته وفاعليته، فالقلب لا يصلح ولا يفلح ولا يلتذ ولا يسر ولا يطيب ولا يسكن ولا يطمئن إلا بعبادة ربه وحبه، إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه، يحتاج إليه في إغنائه وسده، وهذا لا يحصل له إلا بتوفيق الله وعونه، لأن استطاعته وقدرته إنما هي منحة من الله ﷻ، فهو دائما مفتقر إلى فهم حقيقة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾الفاتحة:٥.

ولو وجد العبد الاستطاعة والقدرة، وأعين على حصول ما يحبه ويريده ويطلبه، وما يشتهيه ويرغبه، ولم يجعل عبادته لله، ولا جعل الله ﷻ وحده غايته ومقصوده ونهاية مبتغاه، لم يكن قد حقق حقيقة لا إله إلا الله، ولا حقق التوحيد والعبودية والمحبة، وكان فيه من النقص والعيب والألم والعذاب والحسرة بحسب ذلك.

وفي المقابل لو جعل الإنسان عبادته لله وجعل الله ﷻ وحده نهاية مقصوده ومبتغاه، ولم يكن مستعينا بقدرة الله ﷻ في وقوع استطاعته وأفعاله، ولم يكن متوكلا عليه مفتقرا إليه في كل أقواله وأعماله، لم يحصل التوحيد والعبودية والمحبة، فإنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فهو مفتقر إلى الله ﷻ من حيث هو المطلوب المحبوب المراد المعبود، وأيضا من حيث هو المسئول المستعان وعليه وحده التكلان،

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٩٢/١٠ بتصرف.

فهو الإله الذي لا إله سواه، وهو الرب الذي لا خالق ولا مدبر للعالمين سواه، ولا تتم عبوديته لله ﷻ إلا بهذين [١].

قال الحارث المحاسبي: (معرفتك بأنك عملت العمل بالاستطاعة معرفة قائمة في الطبع بالاضطرار، لا تقدر أن تجحد أنك عملته، ولا تحتاج إلى ذلك، ولا مخاطبة نفسك به، ولكنك مع ذلك تتناسى، فلا تنظر فيه إلى منة الله ﷻ إذ وهبك القدرة على العمل والطاعة، فلو كان الله ﷻ لم يمن عليك بشيء من ذلك، أكنت تقوى عليه، أو ترى لنفسك من القدرة في القوة والاستطاعة على إنفاذه؟) [٢].

وفي إثبات الاستطاعة مخلوقة لله ﷻ، والعود بالفضل فيها إلى الله لا إلى شئ سواه، ما قاله الله ﷻ في كتابه يوم حنين لأصحاب محمد ﷺ وهم خير عصبة على وجه الأرض:

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ التوبة:٢٥.

وذلك أن قائلا منهم قال: لن نغلب اليوم من قلة [٣]. فلما أعجبوا بكثرتهم، واتكلوا على قوتهم، ونسوا الله ﷻ في ذلك، رفع الله في ذلك الوقت النصر عنهم، ليعلمهم أن كثرتهم لا تغنى عنهم شيئا، وأن الله ﷻ هو الذي ينصرهم وهو الغالب لهم على عدوهم ، ثم تداركهم الله

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٠/١٩٥ بتصرف .

(٢) الرعاية لحقوق الله للحارث بن أسد المحاسبي ص٢٧١ .

(٣) انظر فتح الباري لابن حجر ٨/ ٢٧ .

لله ﷻ عليهم بالنصر إكراما لنبيه ﷺ ولهم ونصرا لدينه [1].

- **سلامة الجوارح وعدم الموانع هي الاستطاعة قبل الفعل.**

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ آل عمران:٩٧.

وصح عن كثير من السلف الصالح كابن عباس وابن عمر وغيرهما ﵃ أن الاستطاعة المعنية في الآية الزاد والراحلة [2].

ولا خلاف بين أحد له فهم باللغة أنهم أرادا بذلك القوة على إيجاد الزاد والراحلة، وبرهان ذلك أن الرواحل في هذا العالم كثيرة، وليس مجرد وجودها يستوجب أداء الحج، وإنما يتوجب الحج إذا استطاع تملك راحلة منها مع اللوازم الأخرى، فصح ضرورة أنهم أرادوا بالزاد والراحلة القوة على إحضار زاد وراحلة، والقوة على ذلك استطاعة، وهي وصف المستطيع [3].

وقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ الأنفال:٦٠.

وهذا نص في أن الاستطاعة هي القوة على الأخذ بالأسباب، وهي صفة قائمة بالمستطيع، وإذا كان الفعل لا يقع بالضرورة فعلا اختياريا

---

(١) الرعاية لحقوق الله ص٢٧٢ بتصرف.

(٢) انظر مشكاة المصابيح (٢٥٢٧)، وصحيح الترغيب والترهيب (١١٣١)، وتفسير أبي السعود ٢/٦٢، وأضواء البيان للشنقيطي ٤/٣١٠.

(٣) الفصل في الملل والنحل لابن حزم ٣/١٨ بتصرف.

إلا إذا كانت جوارح الفاعل التي يكون بها ذلك الفعل صحيحه، فإن الاستطاعة هي سلامة الجوارح، ويضاف إليها انعدام الموانع التي تمنع إرادة الإنسان، لعِلمنا أن من كانت جوارحه سليمة لا يفعل وهو مختار لفعله إلا كان الفعل نابعا من إرادته، فعلمنا أن الإرادة أيضا محركة للاستطاعة، ولا يعني ذلك أن الإرادة استطاعة، لأن كل عاجز عن الحركة وهو يريدها فهو غير مستطيع [1].

ومن ثم علمنا أن القوة التي تأتي من عند الله تعالى حال الفعل هي الاستطاعة، لأنه تعالى هو الذي يؤتي القوى ويخلقها، ولا يمكن ذلك لأحد دون الله ﷻ، فصح بالضرورة أن الاستطاعة صحة الجوارح مع انعدام موانع الإرادة، وهذا يكون قبل الفعل، وقوة أخرى تأتي من عند الله ﷻ حال الفعل، وباجتماعهما معا يكون الفعل [2].

وقد أجمعت الأمة كلها على سؤال الله تعالى التوفيق والاستعاذة به من الخذلان، فالقوة التي ترد من الله تعالى على العبد فيفعل بها الخير تسمى بالإجماع توفيقا، وعصمه وتأييدا، والقوة التي ترد من الله تعالى فيفعل العبد بها الشر تسمى بالإجماع خذلانا، والقوة التي ترد من الله تعالى على العبد فيفعل بها ما ليس طاعة ولا معصية تسمى عونا أو قوة أو حولا، وتبين من صحة هذا المعتقد، صحة قول المسلمين جميعا: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم [3].

---

(١) السابق ٣/١٨ بتصرف.

(٢) السابق ٣/١٩ بتصرف.

(٣) السابق ٣/١٩ بتصرف.

وقال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ التوبة:٤٢. كذب الله المنافقين في إنكارهم استطاعة الخروج قبل الخروج، ولو كانوا صادقين لانعدم صحة الجوارح والأعضاء لديهم، وكان لهم بالفعل مانع من الخروج، ولكنهم كانوا أصحاء الأبدان موصوفون بالاستطاعة وسلامة الأعضاء، ومثل هؤلاء قد يكون منهم الفعل وقد لا يكون، فهذه هي الاستطاعة الموجودة قبل الفعل.

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ آل عمران:٩٧. والشاهد أنه لو لم تكن هنا استطاعة قبل فعل المرء الحج، لما لزم الحج إلا من حج فقط، ولما كان أحد عاصيا بترك الحج، لأنه إن لم يكن مستطيعا للحج حتى يحج فلا حج عليه، ولا هو مخاطب بالحج.

وقال تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ﴾ المجادلة:٤. والشاهد أنه لو لم يكن على من ظاهر وأراد أن يرجع عن الظهار استطاعة على الصيام قبل أن يصوم لما كان مخاطبا بوجوب الصوم عليه إذا لم يجد الرقبة أصلا، ولكان حكمه مع عدم الرقبة وجوب الإطعام فقط وهذا باطل.

وروى البخاري من حديث عِمْرَان بْن حُصَيْن ﷺ أنه قال: (كَانَتْ بِي بَوَاسِيرُ، فَسَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ الصَّلَاةِ؟ فَقَالَ: صَلِّ قَائِمًا، فَإِنْ لَمْ

تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ)(١). والشاهد أنه لو لم يكن الناس مستطيعين للقيام قبل القيام لما كان أحد مأمور بالصلاة قبل أن يصليها كذلك، ولكان معذورا إن صلى قاعدا وعلى جنب بكل وجه، لأنه إذا صلى كذلك لم يكن مستطيعا للقيام وهذا باطل.

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ القلم:٤٢/٤٣. والشاهد أن الله تعالى نص على أنه في عدم السلامة بطلان الاستطاعة وأن وجود السلامة بخلاف ذلك، فصح أن سلامة الجوارح استطاعة ،وإذا صح هذا فبيقين ندري أن سلامة الجوارح يكون بها الفعل وضده، والعمل وتركه والطاعة والمعصية، لأن كل هذا يكون بصحة الجوارح. وهذه الاستطاعة من سلامة الجوارح وارتفاع الموانع موجودة قبل الفعل.

- **الاستطاعة التي يخلقها الله مع الفعل تكون توفيقا أو خذلانا .**

ويمكن القول إن استطاعة الإنسان قسمان: أحدهما استطاعة قبل الفعل وهو سلامة الجوارح وارتفاع الموانع. والثاني استطاعة مع الفعل وهو خلق الله للفعل في فاعله، ولولاهما لم يقع الفعل. وكما أثبتت الأدلة النقلية استطاعة بشرية للإنسان بتكريم الله له وتفضيله على ما دونه من المخلوقات التي سخرها الله ﷻ له واستخلفه عليها، فإنهم أيضا أثبتوا استطاعة ذاتية للإنسان، تتمثل في قدرته على إتمام الفعل

---

(١) رواه البخاري في كتاب أبواب تقصير الصلاة، باب إذا لم يطق قاعدا صلى على جنب ٣٧٦/١ (١٠٦٦).

المراد له في ظاهر البدن. وهذه الاستطاعة يخلقها الله ﷻ لهم مع أفعالهم عند إرادتهم، فالجوارح الظاهرة هي أدوات الاستطاعة التي تحول الفعل الداخلي الكائن في منطقة الكسب إلى فعل خارجي ظاهري ملموس يحاسب عليه الإنسان، ويكتسب به الحسنات والسيئات في سائر الأركان. فلا يتنفس الإنسان نفسا، ولا يتحرك حركة إلا بقوة يحدثها الله تعالى فيه، واستطاعة يخلقها الله ﷻ له مع أفعاله، لا يتقدمها ولا يتأخر عنها ولا يوجد الفعل إلا بها .

وفهم الاستطاعة على هذا النحو يبطل وصف الإنسان بأن له قوة مستقلة عن قوة الله يفعل بها ما يشاء، مما يوحى بإمكانية حدوث فعل خارج عن قضاء الله وقدره، ولذلك فالاستطاعة ليست محدثة للفعل، ولا خالقة له، لأن الخالق هو الله وحده، وإن كانت الاستطاعة مكتسبة للإنسان. ومن ثم فإن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى لا لهم، والاكتساب للعباد والمسئولية واقعة على كسبهم.

ولمزيد البيان فإن الله تعالى هو المعطي الذي يعطي من يشاء ما يشاء، ويمنع من يشاء ما يشاء، وكل ما يصدر عن العبد من طاعة أو معصية، فالله ﷻ يخلقها بتمامها، فليست للعبد قدرة على خلق شيء، وإنما هي قدرة واستطاعة للأخذ بالأسباب للوصول إلى الشيء، فالأفعال لله والكسب للعبد، وبهذا الفهم يمتنع أن يكون الإنسان خالقا لفعله كما زعمت المعتزلة.

ومسألة خلق الفعل وخلق أوصاف الإنسان من تدبير الله الكوني، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

ولنضرب مثالا يوضح الأمر، فالذبح مثلا أفعاله واحدة، خلقها الله ﷻ وحده، خلق السكين والذبيحة، لكن الذبح يكون قربة لله ﷻ وإيمانا وتوحيدا إذا وافقت نية العبد وإرادته شرع الله، ويكون الذبح لعنة وكفرا وشركا إذا خالفت نية العبد واختياراته شرع الله ﷻ، فالفعل في الحالتين خلقه الله، ونية العبد في الأخذ بالأسباب تكسبه معني الخير والشر.

وكذلك مثلا المعاشرة التي تكون بين الرجل والمرأة، أفعال المعاشرة واحدة تتم بقدر الله ﷻ وخلقه لعباده، هو الذي أقدرهم على الفعل ومنحهم سلامة آلاته، وركب في كل منهما نزعاته وشهواته ابتلاء وامتحانا له في حياته، لكن نقول عن المعاشرة زواجا وابتهاجا ونكاحا حلالا، إذا كانت بإذن أولياء المرأة وعلى كتاب الله وسنة رسوله، ونقول عن المعاشرة زنا وفاحشة واغتصابا وخيانة إذا كانت مخالفة لشرع الله، فالفعل في الحالتين واحد وهو من خلق الله، والنية هي التي تكسب الفعل معنى الخير والشر بالموافقة أو المخالفة للشرع.

وقد روي البخاري في صحيحه من حديث عمر بن الخطاب ﵁ أن النبي ﷺ قال: (إِنَّما الأعْمَال بالنِّيات، وإِنَّمَا لكُل امْرِىءٍ ما نَوَى: فَمَنْ كانتْ هِجْرَتُه إِلَى دُنْيَا يُصِيبُها، أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُها، فَهِجْرَتُه إِلَى ما هاجَرَ إِلَيه) (١).

---

(١) رواه البخاري في بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي ١/٣ (١)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ إنما الأعمال بالنية ٣/١٥١٥ (١٩٠٧).

وقال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ الروم:٤١.

إن الاستطاعة التي خلقها الله للإنسان صالحة لضدين من الأفعال، وهي مسخرة له لتكون بين الخير والإيمان، وبين الشر والكفران، ومسئولية الإنسان تكمن في امتثاله الطاعة في الوقت الذي كان فيه مستطيعا أن يكتسب المعصية، والعكس كذلك، فالاستطاعة قبل الفعل آلات وأسباب مخلوقة، مجردة عن الخير والشر قبل أن تتلبسها إرادة العبد ويأخذ بها، والعباد مريدون مختارون لكسبهم، ميسرون لقدرهم، وليسوا بمحمولين عليه، ولا مجبرين ولا مستكرهين فيه.

ومن هنا فإن الله تعالى لم يجبر عبدا على الاختيار ولو كان اختياره طاعة، كما أنه لم يجبر عبدا على الاختيار ولو كان اختياره معصية، فهو سبحانه وتعالى يمد المؤمن بعد اختياره للإيمان والطاعة بالقوة والقدرة والاستطاعة، ويمد الكافر بعد اختياره للعصيان بالقوة والقدرة والاستطاعة، يمد الإنسان بما يشاء من عطائه ومدده ونعمائه خلقا وتوفيقا إن كانت أفعاله صالحة، وإضلالا وخذلانا إن كانت أفعاله طالحة كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْآخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ آل عمران:١٤٥ .

وقال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ

﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ٢٠ ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ
دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا ٢١﴾ الإسراء:١٨/٢١ .

لقد سخر الله المخلوقات وفق ثوابت وسنن، ونواميس كونية، وقوانين تنظم السببية والعلية، بحيث تترابط فيها الأسباب لتسمح بقبول فعل الإنسان وتأثيره فيها تحقيقا لعلة الابتلاء، تلك العلل والمعلولات يحكمها الله سبحانه وتعالى ويدبر أمرها لانفراده بالخلق والتدبير، فالسبب أو العلة نحو البذرة، خلقها الله ﷻ وجعلها سببا في النبتة، والنبتة سبب في الثمرة، البذرة والنبتة والثمرة علل ومعلولات من خلق الله وتقديره، وإليه الحكم في حتمية الترابط بينها، فالعلة كالبذرة لا تملك حتمية إصدار نتيجتها أو معلولها وهي النبتة، إذ ليس لها فعل مستقل، وإنما يخلق الله نتيجتها أو معلولها للعبد ابتلاء له، أيشكر ربه وخالقه ويرد الفضل إليه، أم يتعالى ويكفر بربه ولا يتوكل عليه، فشتان بين من ظلم وتعالى بالأرض والمال، وبين من تواضع وقال: الله ربي ولا أشرك بربي أحدا.

قال تعالى في شأن صاحب الجنتين: ﴿۞ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا
لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ٣٢ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ
أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ٣٣ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ
يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ٣٤ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ
أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا
مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ٣٦﴾ الكهف:٣٢/٣٦.

وصفه الله بالظلم لنفسه، والكفر بربه، والشرك لكونه نسب إلى نفسه

ما ليس من حقه، فحقه الأخذ بالأسباب والعلل التي يخلقها الله ﷻ، ليخلق الله له نتائج تلك الأسباب والعلل، وتصبح له قدرة واستطاعة يستخدمها في الطاعة، أما أن ينسب لنفسه ما ادعته المعتزلة من خلق العبد لفعله وإيجاده لقدرته بحوله هو واستطاعته فقد سماه الله ﷻ شركا وكفرا وظلما فقال سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾ الكهف:٣٢/٤٤.

إن الله هو الذي خلق الأسباب والأفعال، وهو الذي يهيئ الأسباب ويمنح العبد استطاعته من خلالها، يعطى من يشاء ما يشاء، ويمنع من يشاء ما يشاء، وكما أن أهل الحق أثبتوا حقيقة الأسباب وأنها تؤدى فعلها في الكون بقدرة الله، وبسبب ما أودع فيها من قوى وتأثير لا ينبع من ذاتها، بل بإرادة الله فيها، فإنهم أيضا قالوا: لا يعنى وجود الأسباب وترابطها وتسلسلها واضطرادها باستمرار أن شيئا يحدث بعيدا عن قدرة الله ﷻ، أو أن فعلا يخرج عن فعل الله ﷻ وخلقه للأشياء.

- حتمية ترابط العلل والمعلولات وخرق العادات.

والله تعالى قد يخرق العادات ويجعل لبعض خلقه ما يشاء من

المعجزات والكرامات، أو غير ذلك من خوارق العادات، فمن الممكن أن معلولات تقع بغير علة، كما حدث لمريم ابنة عمران لما وجدت الطعام معلولا دون علة ظاهرة، أو ثمرة بلا نبتة، أو فاكهة بلا شجرة، وقد ردت مريم ذلك لمطلق القدرة، ولمشيئة الله وخلقه في أن يرزق من يشاء بأسباب أو بغير أسباب، قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧)﴾ آل عمران:٣٧ .

وكذلك ما كان من شأن عيسى عليه السلام حيث شاء الله عز وجل أن يخالف بميلاده السنة الجارية، فالذي خلق الإنسان من أب وأم بمشيئته وقدرته، خلق عيسى عليه السلام من غير أب بمشيئته وقدرته، فالخالق في الأمرين واحد، فلما بشر جبريل عليه السلام أمه أنها ستحمل به من غير أب: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٧)﴾ آل عمران:٤٧. بين لها جبريل عليه السلام أن الله عز وجل لا يحتاج إلى إيجاد العلة لإيجاد المعلول، وإنما إذا أراد شيئا بمشيئته أنشأه وأبدعه بقدرته، يقول للشيء كن فيكون: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٣٥) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٣٦)﴾ مريم:٣٤/٣٦.

ويمكن أيضا أن تحدث علل وتتخلف معلولاتها، وأسباب دون حدوث نتائجها، فمن ذلك على سبيل المثال لا الحصر ما حدث لإبراهيم عليه السلام حين وضعوه في النار، إذ يقول تعالى في شأنه: ﴿قَالُوا

حَرِّقُوهُ وَانصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ الأنبياء:٦٨/٧٠.

إن النار حسب السنة الطبيعية في اطراد الأسباب والعلل والمعلولات علة للإحراق، غير أن الله قد شاء أن يتخلف المعلول عن العلة وتصبح بردا وسلاما على إبراهيم عليه السلام.

• عقيدة السلف في الاستطاعة تفتح باب الاستعانة.

إن من أثر هذا الفهم الإسلامي المبني على الدليل القرآني والنبوي أنه يفتح بابا واسعا عند أهل اليقين في الاستعانة بالله عز وجل على قضاء حوائجهم، وتوفيقهم إلى عبادته سبحانه وتعالى، فالأمر الأساسي الذي يوجهنا إليه المنهج القرآني النبوي في قضية القضاء والقدر وعلاقته باستطاعة الإنسان، هو التزامه بربه في شرعه وقدره، وإلزام العبد أن يلوذ به، ولا يستبد بقدرته أو يتمرد على الحق بالاعتماد على طاقته.

روى البخاري من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (سيدُ الاستغفارِ أن يقول: اللهمَّ أنتَ ربِّي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدُك، وأنا على عهدِكَ ووَعدِكَ ما استطعتُ، أعوذُ بك من شر مَا صنعتُ، أبُوءُ لك بنعمتكَ عليَّ، وأبُوءُ لك بذنبي، فاغفِرْ لي، فإنه لا يَغفرُ الذنوبَ إلا أنت، من قالها من النهارِ مُوقِنا بها فماتَ من يومهِ قبل أن يمسي فهو من أهل الجَنة، ومن قالها من الليل وهو موقِنٌ بها فماتَ قبل أن يصبحَ فهو من أهل الجنة)[1].

---

(١) رواه البخاري في كتاب الدعوات، باب أفضل الاستغفار ٥/٢٣٢٣ (٥٩٤٧).

• **الاستطاعة تقوم على ركيزتين مبنيتين على تحقيق الغاية.**

ويمكن القول من خلال ما سبق أن الاستطاعة البشرية تقوم على ركيزتين أساسيتين مبنيتين على تحقيق الغاية من خلق الإنسان، واستخلافه في الأرض وتخويله فيها ليحقق عبادة الله ﷻ:

الركيزة الأولى: ركيزة خارج النفس البشرية، وتكمن في تكييف الكائنات وتسخير المخلوقات بالصورة التي تمكن الإنسان في الأرض عند سلامة الآلات، كيَّفها ربها وفق سنن معلومات، وأجراها على علل ومعلولات، تسير بأسباب محكمات، وتسمح بقبول فعل الإنسان وتأثيره فيها، وتعطيه معاني القدرة والاستطاعة، ما دام يأخذ بهذه الأسباب، وسوف تبقي على هذا الحال إلى يوم القيامة كدار استخلاف وابتلاء للإنسان، فالله ﷻ أقام النواميس الكونية والقوانين الطبيعية المستمرة في ثبات من خلال عملية الترابط بين الأسباب والمسببات، واطراد العلل والمعلولات بحيث تسمح بقبول فعل الإنسان وتأثيره فيها، وكلما تمكن الإنسان من الأسباب التي خلقها الله ﷻ أظهر له النتائج والمعلولات فضلا ونعمة من الله عليه إذ سخر له الكائنات.

أما الركيزة الثانية لاستطاعة الإنسان فهي ركيزة داخلية تكمن في ذات النفس البشرية، وهي الاستطاعة الذاتية للإنسان على الفعل، تكون مع الفعل وتتخللها النية والإرادة. ولمزيد من البيان لا بد من التعرف على فعل الإنسان وحقيقة، فالإنسان في ابتلاء مستمر بين الحركات والسكنات، الحركة تتبعها سكنة، والسكنة تتبعها حركة، فإن سكن إلى تدبير الله ﷻ كانت العصمة والتوفيق من الرحمن، وإن لم يسكن إلى

تدبير الله كان الإضلال والخذلان، فما يحدث في منطقة حديث النفس، وأيضا في منطقة الكسب، كل ما يحدث من خواطر واختيارات تتم في داخل الإنسان، تتحدد بناء على مجموعها الأفعال الظاهرة في الجوارح والأركان، سواء أكان الفعل خيرا أو شرا، إيمانا أو كفرا، كل ذلك حسب النية الداخلية المحركة للأفعال.

وقد ذكر ابن تيمية رحمه الله أن الاستطاعة التي توجب تكليف الإنسان بالأمر والنهي على درجاته الشرعية، تكون قبل الفعل ولا يجب أن تقارنه كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ آل عمران:٩٧. وقول النبي ﷺ لعمران بن حصين رضي الله عنه: (صَلِّ قَائِمًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ) . ومعلوم أن الحج والصلاة يجبان على المستطيع، سواء فعل أو لم يفعل، فعلم أن هذه الاستطاعة قبل الفعل، ولا يجب أن تكون مع الفعل.

ثم ذكر أن الاستطاعة التي يجب معها وجود الفعل وتحقيقه فهي مقارنة له وتكون معه كقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ٢٠﴾ هود:٢٠ . وقوله: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ١٠٠ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُواْ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ١٠١﴾ الكهف:١٠٠/١٠١. على قول من يفسر الاستطاعة بهذه، وأما على تفسير السلف والجمهور فالمراد بعدم الاستطاعة مشقة ذلك عليهم، وصعوبته على نفوسهم، فنفوسهم لا تستطيع إرادته، وإن كانوا قادرين على فعله لو أرادوه، وهذه حال من صده هواه أو رأيه

الفاسد عن استماع كتب الله المنزلة واتباعها، وقد أخبر أنه لا يستطيع ذلك، وهذه الاستطاعة هي المقارنة للفعل الموجبة له، وأما الأولى فلولا وجودها لم يثبت التكليف كقوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ التغابن:١٦. وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾ الأعراف:٤٢. وأمثال ذلك من النصوص، فهؤلاء المفرطون والمعتدون في أصول الدين إذا لم يستطيعوا سمع ما أنزل إلى الرسول فهم من هذا القسم [١].

وقال ابن حزم: (إن الاستطاعة التي أثبتها الله تعالى قبل الفعل هي غير الاستطاعة التي نفاها مع الفعل، ولا يجوز غير ذلك البتة، فإذا كان ذلك كذلك، فالاستطاعة كما قلنا شيئان، أحدهما قبل الفعل، وهو سلامة الجوارح وارتفاع الموانع، والثاني لا يكون إلا مع الفعل، وهو القوة الواردة من الله تعالى بالعون والخذلان، وهو خلق الله تعالى للفعل فيمن ظهر منه، وسمي من أجل ذلك فاعلا لما ظهر منه، إذ لا سبيل إلى وجود معنى غير هذا البتة، فهذا هو حقيقة الكلام في الاستطاعة بما جاءت به نصوص القرآن والسنن والإجماع وضرورة الحس وبديهة العقل. فإذا نفينا وجود الاستطاعة قبل الفعل فإنما نعني بذلك الاستطاعة التي بها يقع الفعل ويوجد واجبا ولا بد، وهي خلق الله تعالى للفعل في فاعله، وإذا أثبتنا الاستطاعة قبل الفعل فإنما نعني بها صحة الجوارح وارتفاع الموانع التي يكون المرء مخاطبا مكلفا مأمورا منهيا) [٢].

---

(١) انظر بتصرف مجموع الفتاوى ٨/٣٧٢، ٣٧٣، ودرء التعارض ١/٦١.

(٢) الفصل في الملل والنحل لابن حزم ٣/٢٠ بتصرف.

• **حقيقة الفعل البشري وعلاقته بالاستطاعة.**

ولمزيد من الإيضاح في الكشف عن حقيقة الفعل البشري وعلاقته بالاستطاعة أننا لو شبهنا موقف الإرادة من العلل والأسباب التي يأخذ بها الإنسان في فعله بالخيط الذي يربط الحب أو الخرز، فإن إرادة العبد تشبه الخيط الذي ينتظم عليه الحب أو الخرز ليكون شكلا حسنا أو شكلا قبيحا. وهذا التشبيه بالغ الدقة؛ لأنه مما لا شك فيه أن أي فعل ظاهر يقوم به الإنسان يتم كما هو معلوم بالضرورة بأعضائه الجسدية، أو بالأدوات الخارجية التي يستعين بها على إتمامه، كما أنه من المعلوم أيضا أن أي فعل يحدث عبارة عن عدة أفعال صغيرة ينتهي كل منها في حقيقته إلى حركات وسكنات، سواء كانت حركات نفسية أو جسدية أو طبيعية، تلك الحركات والسكنات تتشكل بالضرورة في شكل معين، وبتوقيت معين يفرضهما نوع الفعل المكتسب والغاية من هذا الفعل، كما أن الفرق بين فعل وآخر هو اختلاف تلك الحركات والسكنات كما وكيفا، زمانا ومكانا.

ومثال ذلك أننا لو فرضنا والدا يؤدب ولده ضربا، وآخر يحتضن ولده شفقة وحنانا، فإن كلا الفعلين يستخدم فيهما الوالد والولد، وكل منهما يستخدم حركة الأعضاء في البدن مع إرادته الداخلية وبقية أعماله القلبية، ومن ثم فمجموع الحركات والسكنات ليس في الحقيقة سوى علة لوجود الفعل المراد ونتائجه، وفي نفس الوقت فإن كل حركة سابقة تصبح علة أو سببا للحركة التالية المعلولة الناتجة، التي ما تلبث أن تصبح هي الأخرى علة لمعلولها الذي يليها، وهكذا حتى تأتي الحركة الأخيرة التي هي معلول وليست علة.

وعلى ذلك فالفعل البشرى يبدأ بنية وإرادة وينتهي بعد توالي الحركة والسكون بتحقيق المراد، فالفعل البشرى علته الأولى البادئة أو علة بدايته داخلية في ذات الإنسان ومتمثلة في إرادة الفعل، ونهاية الفعل أو معلوله الأخير أيضا داخلي في ذات الإنسان، ومتمثل في تحقيق المراد وإشباع الإرادة، فهو إما ينتهي محققا لذة وسرورا ومتعة، أو محققا ألما وضررا وبؤسا. ومساحة ما بين العلة الأولى والمعلول الأخير من العلل والمعلولات الخارجية في الفعل البشرى هي من خلق الله ﷻ وتوفيقه وإمداده وتيسيره وهذه المساحة هي حبات العقد أو الخرز في المثل الذي ذكرناه.

أما قيام العلة الأولى وامتدادها إلى تحصيل المعلول الأخير فهو الخيط الذي ينظم الحب والخرز في العقد، وهذا يطابق المعنى المشار إليه في قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ الليل:٤/١٠. وقوله: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ الصافات:٩٦.

ويمكن تعريف الفعل البشرى الاختياري بأنه مجموعة من العلل والمعلولات تبدأ بعلة أولى وهي الإرادة وتنتهي بالمعلول الأخير وهي تحقيق المراد. فالفعل المختار نابع من ذات الإنسان وهو المسئول عنه تصديقا لقوله ﷺ: (إنّما الأعْمَال بالنِّيات، وإنَّمَا لكُل امْرِىءٍ ما نَوَى: فَمَنْ كانتْ هِجرَتُه إِلى دُنْيَا يُصِيبُها، أَوْ إِلى امْرَأَةٍ يَنْكِحُها، فَهِجْرَتُه إِلى ما هاجَرَ إِليه).

ومن هنا فلا عجب في تشبيه الإرادة البشرية بالخيط الرفيع الذي

ينظم الخرز أو حبات العقد، فالاستطاعة أو العلل والمعلولات تتلبس بها الإرادة، وتصاحب الفعل مصاحبة الخيط لحبات العقد، فكما أن فصوص العقد موجودة أصلا، ودور الخيط هو تجميع الفصوص بالكم والكيف والشكل الذي يُنتج في النهاية شكلا مرغوبا أو مكروها، كذلك دور الإرادة مع الاستطاعة البشرية في إتمام الفعل، فدورها هو تجميع العلل والمعلولات وترتيبها بنسب معينة كما وكيفا، بحيث يؤدى هذا التجميع المنتظم حسب تلك النسب إلى أفعال مرغوبة ومرادة للفاعل أو مكروهة [١].

وأهل اليقين يرون في قلادة التوحيد التي يجب أن يتحلى بها المسلم أن خيطها هو الالتزام بشرع الله واختيارهم له، وحباتها أو خرزها هو فعل الله بهم سواء بترابط العلل بمعلولاتها أو بانفكاكها عن معلولاتها، وذلك يكون عندهم بالرضا والتسليم المطلق لله ﷻ في كل شيء شرعه لهم تحقيقا لمعنى توحيد العبودية، وفي كل فعل قدره عليهم تحقيقا لمعنى توحيد الربوبية.

- **الاستطاعة وأثرها في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.**

علمنا أن الاستطاعة التي يوجد بها الفعل من نحو التوفيق الذي لا يوصف المخلوق به تكون مع الفعل، وأما الاستطاعة من جهة الصحة والوسع والتمكين وسلامة الآلات فهي قبل الفعل ومتقدمة عليه وبها يتعلق خطاب التكليف. وهذه الاستطاعة هي مناط الأمر والنهي

---

(١) انظر بتصرف قوت القلوب ١١/٢.

والثواب والعقاب وعليها يتكلم الفقهاء وهي الغالبة في عرف الناس[(١)].

وقد ارتبط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمقدار الاستطاعة التي منحها الله ﷻ للإنسان، فإن استطاع المسلم تغيير المنكر باليد كان ذلك هو الواجب في حقه، فإن كان عاجزا عن التغيير باليد، وكان بمقدوره النهي باللسان كان ذلك هو الواجب عليه، وإن كان عاجزا عن التغيير باللسان وجب عليه الإنكار بالقلب وكراهية المنكر، وهذا في مقدور كل إنسان ولا يسعه تركه. والأصل في ذلك ما رواه مسلم من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ قال: (مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ)[(٢)].

وروى مسلم من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إلا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ، وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ، يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لا يُؤْمَرُونَ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ الإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ)[(٣)].

وقد دلت هذه النصوص على أن تغيير المنكر والأمر بالمعروف له ثلاث مراتب ارتبطت بفهم الاستطاعة التي يمنحها الله ﷻ للمسلم:

---

(١) انظر شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص٤٨٩.

(٢) مسلم في الإيمان، باب بيان كون النهى عن المنكر من الإيمان ١/٦٩ (٤٩).

(٣) رواه مسلم في الموضع السابق ١/٦٩ (٥٠).

المرتبة الأولى: من مراتب إنكار المنكر الإنكار باليد وهي أقوى مراتب الإنكار وأعلاها، وذلك كإراقة الخمر، وكسر الأصنام المعبودة من دون الله، ومنع من أراد الشر بالناس وظلمهم من تنفيذ مراده، وكإلزام الناس بالصلاة وبحكم الله الواجب اتباعه ونحو ذلك. وذلك لمن كان له ولاية على مرتكب المنكر كالسلطان أو من ينيبه عنه كوالي الحسبة وموظفيه، كل بحسب اختصاصه، وكذا المسلم مع أهله وولده، يُلزمهم بأمر الله، ويمنعهم مما حرم الله باليد إذا لم ينفع فيهم الكلام، يقوم بهذا حسب الوسع والطاقة. وقد كسر إبراهيم عليه السلام الأصنام بيده فقال: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ الأنبياء:٥٧/ ٥٨. وأحرق موسى عليه السلام عجل السامري: ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾﴾ طه:٩٧ .

وروى البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا مُقْسِطًا، فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الْخِنْزِيرَ، وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ، وَيَفِيضَ الْمَالُ حَتَّى لا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ) (١).

ولكن تغيير المنكر باليد لا يصلح لكل أحد أو في كل منكر، لأن ذلك يجر من المفاسد والأضرار الشيء الكثير، وإنما يكون ذلك لولي الأمر أو من ينيبه، مثل رجال الهيئات والحسبة، الذين نصبهم ولي الأمر

---

(١) البخاري في البيوع، باب قتل الخنزير ٢/ ٧٧٤ (٢١٠٩)، ومسلم في الإيمان، باب نزول عيسى ابن مريم حاكما بشريعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ١/ ١٣٥ (١٥٥).

للقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكالرجل في بيته يغير المنكر على أولاده، وعلى زوجته وعلى خدمه، فهؤلاء يغيرون بأيديهم بالطريقة الحكيمة المشروعة. قال ابن تيمية رحمه الله: (وليس لأحد أن يزيل المنكر بما هو أنكر منه، مثل أن يقوم واحد من الناس يريد أن يقطع يد السارق ويجلد الشارب، ويقيم الحدود، لأنه لو فعل ذلك لأفضى إلى الهرج والفساد، لأن كل واحد يضرب غيره ويدعي أنه استحق ذلك، فهذا ينبغي أن يقتصر فيه على ولي الأمر) [١].

المرتبة الثانية: الإنكار باللسان، وذلك حينما لا يستطيع من رأى المنكر تغييره بيده لعدم سلطته على مرتكبه، أو لما يترتب عليه من المفسدة المساوية أو الراجحة، فإنه ينتقل إلى التغيير باللسان، وذلك بتعريف الناس بالحكم الشرعي بأن هذا محرم ومنهي عنه، فقد يرتكب المنكر لجهله به، فيمكن تغيير المنكر عن طريق الوعظ، والنصح، والإرشاد والترغيب والترهيب، والتقريع والتعنيف ونحو ذلك من البيان، وهذه المرتبة يلتقي فيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالدعوة إلى الله، فكلاهما بيان للحق وترغيب فيه، وتنبيه على الباطل وتحذير منه، وتخويف وترهيب عنه بما يناسب حال المخاطب ويقتضيه المقام.

المرتبة الثالثة: الإنكار بالقلب، فإذا عجز المؤمن عن الإنكار باليد واللسان انتهى إلى الإنكار بالقلب فيكره المنكر بقلبه، ويبغضه ويبغض أهله، يعلم الله ذلك منه إذا عجز عن تغييره بيده ولسانه، وهذا الواجب لا يسقط عن المؤمن بوجه من الوجوه، إذ لا عذر يمنعه ولا شيء يحول

---

(١) مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية ١/٥٨٠، نشر دار ابن القيم الدمام.

بينه وبينه، وليس هناك شيء من التغيير ما هو أقل منه، كما جاء في حديث أبي سعيد رضي الله عنه المتقدم: وذلك أضعف الإيمان. يعني أقل ما يمكن به تغيير المنكر. وكذلك الحديث الآخر عن ابن مسعود رضي الله عنه: وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل. أي لم يبق بعد هذا من الإنكار ما يدخل في الإيمان حتى يفعله المؤمن ويثاب عليه، بل الإنكار بالقلب آخر حدود الإيمان.

وإذا لم يستطع الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر تغيير المنكر بيده، ولا بلسانه، فإنه يجب عليه حينئذ إنكاره بقلبه كما سبق بيانه وعليه أن يهجر المنكر وأهله، فإن عجزه عن الإنكار ليس عذراً يبيح له مشاهدة ذلك المنكر أو مجالسة أهله.

قال تعالى: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ﴾ النساء: ١٤٠ .

المطلب السادس والعشرون

الحكمة الإلهية ومحاسبة الإنسان على الاختيارات الذاتية

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فقد تحدثنا في المطلب السابق عن معنى الاستطاعة في اللغة والاصطلاح، وذكرنا الأدلة النقلية على إثبات الاستطاعة البشرية، وبينا أن القدرة والاستطاعة من مقومات الحرية تحقيقا للابتلاء، وأنها قد تكون وبالا على صاحبها، كما علمنا أن سلامة الجوارح وعدم الموانع هي الاستطاعة التي تكون قبل الفعل، والاستطاعة التي يخلقها الله مع الفعل تكون توفيقا أو خذلانا.

وبينا أن الاستطاعة تفهم من خلال حتمية ترابط العلل والمعلولات وخرق العادات، وأن عقيدة السلف في الاستطاعة تفتح باب الاستعانة بالله، كما علمنا أن الاستطاعة تقوم على ركيزتين مبنيتين على تحقيق الغاية من خلق الإنسان، وتعرفنا على ماهية الفعل البشري وحقيقته وعلاقته بالاستطاعة، ثم تحدثنا عن الاستطاعة وأثرها في فهم قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولما كانت مقومات الاختيار في الإنسان تدل على كمال الحكمة في

تهيئة الإنسان بالصورة التي يكون مسئولا فيها عن أفعاله في دار الابتلاء، فإن هذا المطلب نتناول فيه بإذن الله الحديث عن كمال الحكمة الإلهية في محاسبة الإنسان وتوقيع المسؤولية عن أفعاله التي قدمها في دار الابتلاء، ولذلك جعل الله ﷻ من أركان الإيمان في الإسلام الإيمان باليوم الآخر كدار للجزاء.

- **الإيمان باليوم الآخر هو الركن الخامس من أركان الإيمان.**

حقيقة الإيمان باليوم الآخر تقتضي التصديق الجازم الذي يبلغ حد اليقين بأنه آت لا محالة، والعمل والاستعداد لمقتضى ذلك، ويدخل في الإيمان باليوم الآخر الإيمان بأشراط الساعة وأماراتها التي تكون قبلها، وكذلك اليقين بسكرات الموت وشدتها، وما بعد ذلك من فتنة القبر وعذابه ونعيمه، وبالنفخ في الصور، وخروج الناس من القبور، والبعث والنشور، وما في أرض المحشر من أهوال، ونشر الصحف وكتب الأعمال، وحوض سيد المرسلين، ووضع الموازين، والشفاعة العظمى والشفاعة للموحدين، والإيمان بالجنة ونعيمها، والنار وعذابها، وأن أعلى نعيم في الجنة نعيم الرؤية، والنظر إلى رب العالمين.

ولقد وردت الأدلة النقلية في القرآن الكريم وصحيح السنة النبوية لتبين المواقع التفصيلية التي يمر بها الإنسان عند الحساب، ووقوع المسئولية على أفعاله الاختيارية، فالإيمان باليوم الآخر كالإيمان بسائر الأمور الغيبية وبقية أركان الإيمان، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ﴾ البقرة:٢٣٢.

وقد سمي يوم القيامة في القرآن بالعديد من أسماء التي تدل على ما

يقع فيه من معاني الجزاء، فهو يوم الواقعة والطامة، والقارعة والصاخَّة والغاشية الحاقة، وهو يوم الجمع، ويوم الدين، ويوم الحساب، ويوم يقوم الناس لرب العالمين، ويوم الخلود أبد الآبدين، قال تعالى: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾﴾ ق:٣٤. ويوم الخروج، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾﴾ ق:٤٢. وهو يوم الحسرة، ويوم التناد وغير ذلك من الأسماء الدالة على أوصاف ذلك اليوم العظيم.

وأما الحكمة العليا في الاهتمام البالغ بهذا الركن، ومحاسبة الإنسان في دار الجزاء على ما قدمه في دار الابتلاء، فهي إظهار عدل الله وحكمته، ومعاني أسمائه وصفاته المتعلقة بقدرته وعزته، كما أن الإيمان باليوم الآخر له أثره الشديد في توجيه الإنسان وانضباطه وإحساسه بمسئوليته، والتزامه بتوحيد الله في عبوديته والعمل بمنهجه وشريعته.

ولذلك يشير القرآن إلى هذه الحكمة في الربط بين الإيمان باليوم الآخر والعمل الصالح كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ التوبة:١٨. وقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾ الأنعام:٩٢.

ولعل من الحكمة في الاهتمام البالغ بالتحذير مما سيحدث في مواقف القيامة كثرة نسيان البشر لها، وغفلتهم عنها، بسبب تثاقلهم إلى الأرض وحبهم للبقاء فيها، فيكون الإيمان بها، وبما فيها من عذاب ونعيم

مخففا من الغلو في حب الدنيا والتعلق بها.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ٣٨ ﴾ التوبة:٣٨.

روى البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ كَان يوْما بارزًا للناس إذ أَتَاهُ رجُل يمشِي فقَال: يا رسول اللهِ ما الإيمان؟ قَال: الإِيمان أَن تُؤْمن باللهِ وَملائِكتِهِ وَكُتُبِهِ وَرسلهِ وَلقَائِهِ وَتُؤْمن بالبعْث الآخِرِ، قَال: يا رسول اللهِ ما الإِسلام؟ قَال: الإِسلام أَن تَعبُدَ اللهَ وَلا تُشْرِكَ بهِ شَيئًا، وَتُقِيم الصَّلاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ المفْروضَةَ، وَتَصُوم رمضَان، قَال: يا رسول اللهِ ما الإِحْسان؟ قَال: الإِحْسان أَن تَعبُدَ اللهَ كَأَنك تَراهُ، فَإِن لم تَكُن تَراهُ فَإِنهُ يراك، قَال: يا رسول اللهِ متَى الساعَةُ؟ قَال: ما المسئُول عَنها بأَعْلم من السائِل، وَلكِن سأُحدِّثك عَن أَشْراطِهَا، إذا وَلدَتْ المرأَةُ ربتَها فَذاكَ من أَشْراطِهَا، وَإِذا كَان الحُفَاةُ العُراةُ رءُوس الناس، فَذاكَ من أَشْراطِهَا)[1].

وعند مسلم من حديث عمر بن الخطاب ﷺ مرفوعا: (قالَ فَأَخْبرني عَن الإِيمان؟ قَال: أَن تُؤْمن باللهِ وَملائِكتِهِ وَكُتُبِهِ وَرسلهِ وَاليوْم الآخِرِ وَتُؤْمن بالقَدَر خَيرِهِ وَشَرِهِ، قَال: صَدَقْتَ)[2]. وروى مسلم من حديث

---

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة ١/٢٧ (٥٠)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ١/٣٩ (٩).

(٢) رواه مسلم في الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ١/٣٧ (٨) .

عُبادَة بن الصَّامتِ ﷺ أن رسول اللهِ ﷺ قال: (من قَال: أَشْهَدُ أَن لا إِلَهَ إلا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لهُ، وأَن محمدًا عَبدُهُ وَرسولهُ، وأَن عِيسى عَبدُ اللهِ وَابن أَمتِهِ، وَكَلمتُهُ أَلقَاهَا إِلى مريم وَروحٌ منهُ، وأَن الجَنة حَقٌّ وأَن النار حَقٌّ، أَدْخَلهُ اللهُ من أَي أَبوَاب الجَنَةِ الثمانيةِ شَاءَ) [١].

وأهل السنة يؤمنون بأن الله ﷻ يبعث جميع الخلائق في يوم موعود، ثم يحاسب العباد على أعمالهم من خير أو شر كسبوه، فالمؤمنون يساقون إلى الجنان، والكفار يقادون إلى النيران، وأن الجنة هي دار النعيم الذي أعده الله لأوليائه، فيها من أصناف النعيم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فيها مائة درجة، لكل درجة سكانها، وهم على قدر إيمانهم بالله ﷻ وطاعتهم له، وأدنى أهل الجنة منزلة من يعطى من النعيم مثل مُلك مَلِكٍ من ملوك الدنيا وعشرة أضعافه. وأن النار هي العذاب الذي أعده الله ﷻ لمن كفر به.

روى مسلم من حديث أبي هُريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (ناركُم هَذهِ التِي يوقِدُ ابنِ آدَم جُزْءٌ من سبعِين جُزْءًا من حَر جَهَنم، قَالوا: وَاللهِ إن كَانتْ لكَافِيةً يا رسول اللهِ، قَال: فَإِنهَا فُضِّلتْ عَليهَا بِتِسعَةٍ وَستِّين جُزْءًا، كُلهَا مثل حَرهَا) [٢].

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأنبياء، باب قوله يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ٣/١٢٦٧ (٣٢٥٢)، ومسلم واللفظ له في كتاب الإيمان، باب من لقي الله بالإيمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة وحرم على النار ١/٥٧ (٢٨).

(٢) رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في شدة حر نار جهنم وبعد قعرها وما تأخذ من المعذبين ٤/٢١٨٤ (٢٨٤٣).

وقال تعالى في وصف النار ووقودها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ التحريم:٦. وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ٣٦﴾ فاطر:٣٦.

- **جعل الله ملائكة للرحمة وملائكة للعذاب وملائكة للكتاب.**

ومن لوازم الإيمان أن يؤمن المسلم بالملائكة وأن الله ﷻ جعل منهم ملائكة للرحمة، وملائكة للعذاب، وملائكة موكلة بتدوين الأعمال في الكتاب، ففي صحيح مسلم من حديث أَبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ قال: (كَان فِيمن كَان قَبلكُم رجُل قَتل تِسعَةً وَتِسعِين نفْسا، فَسأَل عَن أَعلم أَهل الأَرضِ؟ فَدُل عَلى راهِب، فَأَتَاهُ فَقَال: إِنهُ قَتل تِسعَةً وَتِسعِين نفْسا، فَهَل لهُ من تَوْبةٍ؟ فَقَال: لا، فَقتَلهُ، فكَمل بهِ مائَةً، ثم سأَل عَن أَعلم أَهْل الأَرضِ؟ فَدُل عَلى رجُل عَالم، فَقَال: إِنهُ قَتل مائَةَ نفْس، فَهَل لهُ من تَوْبةٍ؟ فَقَال: نعَم، وَمن يحُول بينهُ وَبين التَّوْبةِ، انطَلقْ إِلى أَرضِ كَذا وَكذا، فَإِن بهَا أُناسا يعْبدُون اللهَ فَاعبُدْ اللهَ معَهُم، وَلا تَرجِعْ إِلى أَرضِكَ؛ فَإِنها أَرضُ سوْءٍ، فَانطَلَقَ حَتَّى إِذا نصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الموْتُ، فَاخْتَصَمتْ فِيهِ ملائِكَةُ الرحْمةِ، وَملائِكَةُ العَذاب، فَقَالتْ ملائِكَةُ الرحْمةِ: جاءَ تَائِبا مقبِلا بقَلبهِ إِلى اللهِ، وَقَالتْ: ملائِكَةُ العَذاب إِنهُ لم يعْمل خَيرا قَطُّ، فَأَتَاهُم ملكٌ فِي صُورةِ آدَمي، فَجعَلوهُ بينهُم، فَقَال: قِيسوا ما بين الأَرضَين، فَإِلى أَيتِهما كَان أَدْنى فَهُوَ لهُ، فقَاسوهُ

فوَجدُوهُ أَدْنى إِلى الأَرضِ التِي أَرادَ، فقَبضَتْهُ ملائِكَةُ الرحْمةِ) [1].

وقد وكل الله ﷻ بكل إنسان ملكين، أحدهما يكتب الحسنات، والآخر يكتب السيئات لا يفوتهما شيء، قال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ق:١٨. وقال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾الانفطار:١٠-١٢. وقال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾الزخرف:٨٠ .

وعند البخاري من حديث أبي هُريرة ﷺ أَن رسول اللهِ ﷺ قَال: (يتَعاقَبون فِيكُم ملائِكةٌ بالليل وَملائِكَةٌ بالنهَار، وَيجْتَمعُون فِي صلَاةِ الفَجْرِ وَصلَاةِ العَصْر، ثم يعْرجُ الذين باتُوا فِيكم، فَيسأَلُهم وَهُوَ أَعْلم بهِم، كَيفَ تَركْتُم عِبادِي؟ فَيقُولون: تَركْناهُم وَهُم يصَلون، وَأَتيناهُم وَهُم يصَلون) [2].

وتدون هذه الأعمال في كتاب دقيق يعطى للإنسان يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾الكهف:٤٩.

يقرأ كل إنسان كتابه يوم القيامة لا ينكر منه شيئا، ومن أنكر شيئا

---

(١) البخاري في الأنبياء، باب أم حسبت أن أصحاب الكهف ٣/١٢٨٠ (٣٢٨٣)، ومسلم في التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله ٤/٢١١٨ (٢٧٦٦).

(٢) البخاري في مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر ١/٢٠٣ (٥٣٠)، ومسلم في المساجد، باب فضل صلاتي الصبح والعصر ١/٤٣٩ (٦٣٢).

من أعماله أنطق الله ﷻ سمعه وبصره ويديه ورجليه وجلده بجميع عمله، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ فصلت: ٢١/٢٢.

وكل ذلك دليل آخر من أدلة الاختيار في الإنسان، وهو الحساب المترتب على موقف الإنسان من الابتلاءات المتعددة التي ساقها الله ﷻ إليه في جملة حياته، أو موقفه من الأوامر الشرعية التكليفية التي تسمى بأحكام العبودية، والتي شرعها له لتوجيه الأمانة التي حملها، واختار هو أن يكون مسئولا عن أدائها لربه. قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ الأحزاب: ٧٢.

- **الأمانة العظمى تتطلب الحساب والمساءلة القصوى.**

وهذه الأمانة التي حمّله الله ﷻ إياها بناء على إرادته كما دلت الآية نتج عنها بالضرورة وجود المساءلة والحساب، فالمحافظ على الأمانة لا يستوي ومن ضيعها، فجعل الله الجنة جزاء لمن حفظها وأداها كما ينبغي، وجعل النار عقابا عادلا لمن ضيعها وخانها.

قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ الحشر: ٢٠. والمنحرف عن الهدي الإلهي هو المضيع للأمانة، المستوجب للعقاب، الذي يشعر بالحزن والندامة والذلة يوم

الحساب والعذاب وأن أفعاله كانت إجراما، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ السجدة:١٢.

والمعنى في قولهم وطلبهم أرجعنا، أي أرجعنا بنفس الوضع الأول لأداء الأمانة كما ينبغي في الدنيا دار الابتلاء، حتى لا نقف هذا الموقف في دار الجزاء. وقال تعالى أيضا في وصفهم: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ الأنعام:٢٧. فحالهم يوم الختام حال مشين إذا ما قورن بحال المؤمنين الذين أدوا حق الله عليهم.

- **دقة الحساب ودلالتها على كمال الاختيار والمسئولية.**

والمتأمل في دقة الحساب عند الله ﷻ وما أخبرنا به في كتابه عن نظام المساءلة لعبادة عن الأمانة التي حملوها في أعناقهم، وتوقيع الجزاء على أعمالهم، يوقن بأن العبد فيه كل ما يلزم من مقومات الاختيار والحرية، ويدرك المعنى الشمولي لتوحيد العبودية، إذ يتناول الحساب كل لحظة من وقت الإنسان في حياته الدنيوية، وكل حركة أو سكنة في فعله مهما كانت ظاهرة أو خفية.

والله تبارك وتعالى يحصي أعمال العباد ثم يحاسبهم عليها، وإن كان مقدار العمل ذرة أو أصغر منها فلا يخفى على الله سبحانه مثقال ذرة في الأرض من أعمال العباد، ولا أصغر منها ولا أكبر.

والذرة سواء كان مقدارها وزن نملة، أو ما يري في شعاع الشمس من هباء أو بالمعنى الحديث للذرة، فإن نصوص القرآن تعتبرها وحدة

لقياس الأوزان فيما يخص عمل الإنسان. وكذلك ما يمكن أن يوضع على تلك الذرة من جزاء قدره الله سبحانه وتعالى هو الحسنة أو السيئة، ويمكن اعتبار مصطلح الحسنة وحدة الدرجات المكافئة لوحدة الأعمال من الخير، ومصطلح السيئة هو الوحدة المكافئة لوحدة الأعمال من الشر. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٤٠﴾ ﴾ النساء:٤٠. والمعنى الظاهر في النص أنه إن كان وزن ذرة من العمل في طاعة الله ﷻ وموافق لمراده الشرعي، وكان الجزاء المقابل مقداره حسنة ضاعفها الله لصاحبها، وبمفهوم المخالفة إن كانت سيئة كتبها له سيئة واحدة.

ومن السهل على العقل أن يفهم أن الذرة من الممكن أن تمثل وحدة قياس الوزن بالنسبة لعمل الإنسان، كما أخبرنا الله تبارك وتعالى في سورة الزلزلة: ﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ الزلزلة:٧/٨ . ويمكن أيضا أن تقسم تلك الذرة أو الوحدة القياسية للعمل إلى أجزاء أدق، كما أخبرنا الله بذلك، قال تعالى: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾ يونس:٦١ .

كما يمكن أن نفهم أن مصطلح الحسنة يدل على الوحدة المعيارية لتقدير الجزاء المكافئ للأعمال الموزونة بالذرة إن كانت موافقة لأمر الله ﷻ كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا

﴿ وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ النساء: ٤٠. وفي المقابل فإنه من الممكن أن نفهم أن مصطلح السيئة يدل على الوحدة المعيارية لتقدير الجزاء المكافئ للأعمال الموزونة بالذرة إن كانت مخالفة لأمر الله، وكل من الحسنة والسيئة قابل من حيث العدد للزيادة والنقصان تبعا للزيادة أو النقصان في مقدار الإيمان.

• الذرة وحدة وزن الأعمال وتختلف عن وزن الأجر.

وتلك الألفاظ والمصطلحات القرآنية والنبوية نحو الذرة، الحسنة، السيئة، الدرجة، لها مدلولها الحقيقي الذي يؤول إليه، والذي يتطابق مع ما أراده الله ﷻ بها من أمور حقيقية محسوسة مدركة لمن يراها حال الحساب، وسوف نفهم بها ما لنا وما علينا عند وضع الكتاب، هذا مع الإقرار التام والاعتراف بكمال الحكمة والعدل لمن عذبهم، والإقرار التام والاعتراف بكمال النعمة والفضل لمن أدخلهم الجنة. قال الله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ الأنبياء:٤٧.

وقال سبحانه: ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ الأعراف:٨/٩.

تلك الأمور المتعلق بمصطلحات الحساب والمسئولية، يجب علينا أن نؤمن بها، وبما دلت عليه من حقائق غيبية، يعلمها الله وحده وإن كنا لا نعلم الكيفية، وننبه إلى أن كثيرا من الناس ينظرون إلى تلك الأمور

على أنها أشياء معنوية، لا تدل على أحداث حقيقة سوف تكون بوعد الله كائنة مرئية، ولا يلتفتون إلى ما تضمنته من حقائق مؤلمة لا يسلم منها أحد من هذه البشرية إلا من رحم الله ﷻ.

وقد كان الكيلو جرام المعياري المتعارف عليه الآن كوحدة للكتل ومقياس للمبيعات، كان مجهولا من قبل عند سائر الناس في تعاملهم بالموزونات، ولفظه كان لا يدل حقيقة معينة، أو مدلول معين بين العرب أو غيرهم من الحضارات حتى أصبح محدودا ومعلوما ومصطلحا مضبوطا كسائر المصطلحات، فالنظام الفرنسي للموازين والمقاييس اعتبر الكيلوجرام وحدة لمقياس الكتل، واصطلح علماؤهم على مفهوم محدود لمقدار الكيلوجرام المعياري، وهو كتلة جسم اسطواني الشكل من معدني البلاتين والإريديوم ومحفوظ في متحف المكتب الدولي للموازين والمقاييس بمدينة سيفر بفرنسا، وهو يعادل كتلة لتر واحد من الماء المقطر محفوظ عند درجة حرارة أربع درجات مئوية، كما تعارفوا أيضا على مضاعفات الكيلوجرام، فالطن يعادل ألفا من الكيلوجرامات، والمليجرام يعادل جزءا من ألف جزء من الجرامات.

ومن ثم فإن هذه الأوزان الربانية والمقاييس التي وردت بها النصوص الشرعية لأعمال الخير وأعمال الشر لها مدلولاتها الحقيقية، سيأتي أوانها في الوقت المناسب بعد حدوث التغيرات الكونية التي تبدل فيها الأرض غير الأرض والسماوات ويقوم الناس لرب العالمين.

قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ الأحزاب:٦٣ .

وقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾﴾الشورى:١٧ .

والشاهد أن الله تبارك وتعالى حدد العمل للإنسان بوزن الذرة وحاسبة عليها، فإن كان العمل المقدر بالذرة خيرا أي موافقا لإرادة الله الشرعية فإن الدرجة المقررة هي الحسنة وأضعافها، وإن كان العكس فإن الدرجة المقررة هي السيئة.

- **نظام الملائكة في تسجيل العمل ووضع المقابل من الأجر.**

وضع الله نظاما دقيقا لملائكته في تدوين الأجر الموضوع على العمل، فهي تسجل ما يدور في منطقة حديث النفس دون وضع ثواب أو عقاب لما ورد في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (إن اللهَ تَجَاوَزَ لأُمتِي عَما وَسوَستْ، أَوْ حَدَّثَتْ بهِ أَنفُسهَا، ما لم تَعْمل بهِ أَوْ تَكلَم) (١).

ومن خلال أدلة المنقول والأصول القرآنية والنبوية نجد أن الملائكة تسجل في الكتاب ما يدور في منطقة الكسب من أعمال مع وضع الثواب والعقاب على النحو التالي:

١- أي إرادة في منطقة الكسب اختار بها العبد طريق الخير وموافقة إرادة الشرع، يقابلها حسنة واحدة وإن لم يفعلها في

(١) رواه البخاري في كتاب الأيمان والنذور، باب إذا حنث ناسيا في الأيمان ٦/٢٤٥٤ (٦٢٨٧)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب إذا لم تستقر ١/١١٦ (١٢٧).

ظاهر البدن.

٢- أي إرادة في منطقة الكسب من القلب اختار بها العبد طريق الخير وموافقة إرادة الشرع، يقابلها عشر حسنات إن فعلها العبد في ظاهر البدن، ثم تدخل في نظام المضاعفة.

٣- أي إرادة في منطقة الكسب من القلب اختار بها العبد طريق الشر ومخالفة إرادة الشرع، يقابلها سيئة واحدة إن فعلها في البدن، أو مات على نية الفعل.

٤- أي إرادة في منطقة الكسب من القلب اختار بها العبد طريق الشر ومخالفة إرادة الشرع، لا تحسب سيئة إن تراجع عنها.

٥- أي إرادة في منطقة الكسب من القلب اختار بها العبد طريق الشر ومخالفة إرادة الشرع تحسب حسنة إن تراجع عنها طاعة لله عز وجل وخوفا منه.

٦- أي عمل من بقية أعمال القلوب في منطقة الكسب يحسب درجته من حيث القوة والعزم، إن كان خيرا أو شرا، ويوضع عليه الأجر ونظام المضاعفة الذي حدده الله للملائكة.

والدليل النقلي على ذلك قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ الأنعام:١٦٠. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ النساء:٤٠.

وروى البخاري من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن

رسول الله ﷺ قال له: (يا عَبْدَ اللهِ، أَلَم أُخبَرْ أنكَ تصُوم النهَارَ وتقُوم الليل؟ فقُلت: بَلى يا رَسُول اللهِ، قال: فَلا تفعَل، صُم وأَفْطِرْ، وقُم ونم، فَإن لجَسَدِكَ عَليك حَقًّا، وإن لعَينك عَليكَ حَقًا، وإن لزَوجِك عَليكَ حَقًّا، وإن لزَورك عَليكَ حَقًا، وإن بِحَسْبِكَ أَن تصُومَ كُل شهْرٍ ثلاثةَ أَيام، فَإن لكَ بِكُل حَسَنَةٍ عَشرَ أَمثالهَا، فَإن ذلكَ صِيام الدَّهْرِ كُلِه، فَشدَّدْت، فَشُدِّدَ عَلي، قُلت: يا رَسُول اللهِ، إني أَجِدُ قُوةً، قَال: فَصُم صِيام نبِي اللهِ دَاودَ عليه السلام، ولا تزِدْ عَليهِ، قُلت: وما كَان صِيام نبِي اللهِ دَاودَ عليه السلام؟ قَال نصْفَ الدَّهْرِ، فَكَان عَبْدُ اللهِ يقُول بَعْدَ ما كَبِرَ: يا ليتني قَبِلت رُخْصَةَ النبِي ﷺ)(١).

وروى البخاري من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه ليلة أسري برسول الله ﷺ أنه قال: (يا رَبِّ، إن أُمتي ضُعَفَاءُ أَجْسَادُهُم وقُلوبُهُم وأَسْماعُهُم وأَبْصَارُهُم وأَبْدَانهم، فَخَفِّفْ عنا، فقَال الجَبَّارُ: يا محمدُ، قَال: لبَّيك وسَعْدَيكَ، قَال: إنهُ لا يبَدَّل القَول لدَي كَما فَرَضتْهُ عَليك فِي أُم الكِتابِ، قَال: فَكُل حَسَنَةٍ بِعَشرِ أَمثالهَا، فهِي خَمسُون فِي أُم الكِتابِ، وهِي خَمسٌ عَليكَ)(٢).

وروى مسلم في صحيحه من حديث أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (يقُول اللهُ عز وجل: من جَاءَ بِالحَسَنَةِ، فَلهُ عَشرُ أَمثالهَا وأَزِيدُ، ومن جَاءَ

(١) البخاري في الصوم، باب حق الجسم في الصوم ٦٩٧/٢ (١٨٧٤)، ومسلم في الصيام، باب النهى عن صوم الدهر ٨١٧/٢ (١١٥٩) .

(٢) البخاري في التوحيد، باب قوله وكلم الله موسى تكليما ٢٧٣٠/٦ (٧٠٧٩)، ومسلم في الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات ١٤٥/١ (١٦٢).

بِالسَّيِّئَةِ، فَجَزَاؤُهُ سَيئَةٌ مثلهَا، أَو أَغْفِرُ، ومن تقرَّبَ مني شبْرًا، تقرَّبْت منهُ ذرَاعًا، ومن تقرَّبَ مني ذرَاعًا، تقرَّبْت منهُ بَاعًا، ومن أَتاني يمشي، أَتيتهُ هَرْوَلةً، ومن لقِيني بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطِيئَةً لا يشرِكُ بِي شيئًا، لقِيتهُ بِمثلهَا مغْفِرَةً)[1].

وروى البخاري عَن أَبي هُريرة ﷺ أَن رسول اللهِ ﷺ قال: (يقُول اللهُ: إِذا أَرادَ عَبدِي أَن يعْمل سيئَةً فَلا تَكْتُبوهَا عَليهِ حَتَّى يعْملهَا، فَإِن عَملهَا فَاكْتُبوهَا بمثلهَا، وَإِن تَركَهَا من أَجْلي، فَاكْتُبوهَا لهُ حَسنةً، وَإِذا أَرادَ أَن يعْمل حَسنةً فَلَم يعْملهَا فَاكْتُبوهَا لهُ حَسنةً، فَإِن عَملهَا فَاكْتُبوهَا لهُ بعَشْر أَمثالهَا إِلَى سبعِمائَةِ ضِعْفٍ)[2].

وعند البخاري من حديث ابن عَباس رضِي اللهُ عَنهُما أن النبي ﷺ قال: (إِن اللهَ كَتَبَ الحَسناتِ وَالسيئَاتِ ثم بين ذلكَ، فَمن هَم بحَسنةٍ فَلم يعْملهَا كَتبهَا اللهُ لهُ عِندَهُ حَسنةً كَاملةً، فَإِن هُوَ هَم بهَا فَعملهَا، كَتَبهَا اللهُ لهُ عِندَهُ عَشْر حَسناتٍ إِلَى سبعِمائَةِ ضِعْفٍ، إِلَى أَضْعَافٍ كَثيرةٍ، وَمن هَم بسيئَةٍ فَلم يعْملهَا، كَتَبهَا اللهُ لهُ عِندَهُ حَسنةً كَاملةً، فَإِن هُوَ هَم بهَا فَعَملهَا، كَتَبهَا اللهُ لهُ سيئَةً وَاحِدَةً)[3].

والهم الوارد في الحديث بمعنى الإرادة كما هو واضح من الرواية

---

(١) مسلم في الذكر، باب فضل الذكر ٢٠٦٨/٤ (٢٦٨٧).

(٢) رواه البخاري في التوحيد، باب قوله: يريدون أن يبدلوا كلام الله ٢٧٢٤/٦ (٧٠٦٢)، ومسلم في الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة ١١٧/١ (١٢٨).

(٣) البخاري في الرقاق، باب من هم بحسنة أو بسيئة ٢٣٨٠/٥ (٦١٢٦)، ومسلم في الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة ١١٨/١ (١٣١).

الأخرى، وليس كما يظن البعض أن الهم بمعنى الخواطر التي تدب في منطقة حديث النفس، فهذا لا حساب عليه أصلا، وإنما الحساب يبدأ عندما ينتقل الهم إلى منطقة الكسب ويصبح إرادة فتنبه.

وروى مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول اللهِ ﷺ قال: (قَال اللّٰه ﷻ: إذا تَحدَّث عَبْدِي بِأَنْ يَعْمَل حَسَنَة، فَأَنَا أَكْتُبُهَا لَه حَسَنَةً مَا لَمْ يَعْمَل، فَإذا عَمِلهَا فَأَنَا أَكْتُبُهَا بِعَشْرِ أَمْثَالهَا، وَإِذا تَحَدَّث بِأَنْ يَعْمَل سَيِّئَةً فَأَنَا أَغْفِرُهَا لَه مَا لَمْ يَعْمَلهَا، فَإذا عَمِلهَا فَأَنَا أَكْتُبُهَا لَه بِمِثْلهَا. وقَال رَسُول اللهِ ﷺ: قَالتْ المَلائِكَةُ: رَبِّ ذاك عَبْدُك يُرِيدُ أَنْ يَعْمَل سَيِّئَةً، وَهُوَ أَبْصَرُ بِهِ، فَقَال: ارْقُبُوهُ فَإِنْ عَمِلهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ بِمِثْلهَا، وَإِنْ تَرَكَهَا فَاكْتُبُوهَا لَه حَسَنَةً، إِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَّاي. وقَال رَسُول اللّٰهِ ﷺ إذا أَحْسَنَ أَحَدُكُمْ إِسْلامَهُ، فَكُل حَسَنَةٍ يَعْمَلهَا تُكْتَبُ بِعَشْرِ أَمْثَالهَا إِلى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ، وَكُل سَيِّئَةٍ يَعْمَلهَا تُكْتَبُ بِمِثْلهَا حَتَّى يَلقَى اللّٰه)[1].

وقد توهم لفظة الحديث: إذا تحدث عبدي. بأن حديث النفس يؤاخذ عليه الإنسان والأمر ليس كذلك، وإنما المراد تحدث بما نوى عليه وأراده وعزم على فعله، سواء كلم نفسه أو غيره، فهذا حديث للنفس بعد عقد القلب الذي تم في منطقة الكسب، وعزم النية والإرادة على الفعل فتنبه.

- **الملائكة تسجل فعل الإنسان محددا بالزمان والمكان .**

دلت الأصول القرآنية والنبوية على أن الملائكة تسجل فعل الإنسان

---

(١) مسلم في الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة ١/١١٧ (١٢٩) .

محددا بالزمان والمكان، ثم تضع الجزاء على هذا الفعل، وقد أخبرنا الله ﷻ أن الملائكة الموكلين بكتابة أعمال العباد والملازمين لهم، يعلمون فعل الإنسان الباطن والظاهر، ويسجلونه بدقة، ثم يضعون الحسنات المكافئة للأفعال التي أمر الله ﷻ بها وأرادها من العباد، وكذلك يضعون السيئات المكافئة للأفعال التي نهي الله ﷻ عن فعلها وفق نظام محدد لهم من قبل من خلقهم وعلمهم ذلك. قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾ الانفطار: ١٠/١٢. والفعل فعلان، فعل القلب، وفعل الجوارح في البدن.

وقال أيضا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ۝١٦ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾ ق: ١٦/١٨. والقول قولان، قول القلب وقول اللسان، غير أن قول القلب يدون ولا يحاسب عليه الإنسان، لأنه يدور في منطقة حديث النفس. وروى مسلم من حديث أنس بن مالك ﵁ أنه قال: (كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَضَحِكَ، فَقَالَ: هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟ قَالَ قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ، يَقُولُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنْ الظُّلْمِ؟ قَالَ يَقُولُ: بَلَى، قَالَ فَيَقُولُ: فَإِنِّي لا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إلا شَاهِدًا مِنِّي، قَالَ فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا، قَالَ: فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، فَيُقَالُ لأَرْكَانِهِ: انْطِقِي، قَالَ: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ، قَالَ: ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلامِ، قَالَ فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا، فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ[١]).

---

(١) رواه مسلم في كتاب الزهد والرقائق ٤/٢٢٨٠ (٢٩٦٩).

وإذا كانت أعمال العبادة مرتبطة بكل جزء من وقت الإنسان مهما كان دقيقا، فإن العمل في هذا الجزء من الوقت مقدر عند الملائكة بأقل من الذرة، وعليه جزاء بالحسنات والسيئات، فجزء الوقت الذي يمكن أن يجازي عليه الإنسان بالخير والشر، الفعل فيه مقسم إلى حركات وسكنات يتكون من مجموعها فعل الإنسان، وكل حركة أو سكنة عليها ثواب أو عقاب، سواء كانت حركة في داخله بفعل الإرادة وغيرها من أعمال القلوب، أو حركة ظاهرة في البدن من الخارج.

• **مثال لدقة الملائكة في تدوينهم لحساب زمن الفعل.**

ولنضرب مثلا يوضح الفكرة ويقربها للذهن، ففي الحديث الذي رواه الترمذي وصححه الشيخ الألباني عن عبد الله بن مسعُودٍ ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (من قَرأَ حَرفًا من كِتَاب الله فَلهُ بهِ حَسَنةٌ، وَالحَسنةُ بعَشْر أَمثالهَا، لاَ أَقُول آلم حَرفٌ، وَلَكِن أَلفٌ حَرف، ولام حَرفٌ، وَميم حَرفٌ) [١].

والشاهد من هذا الحديث أن جزء الوقت الذي يستغرقه القارئ في إخراج حرف الألف، أو اللام، أو الميم يقدر عمليا بأقل من الثانية إذا رتل القرآن ترتيلا عاديا، ولو فرضنا أن الحرف يخرج في مقدار ثانية واحدة، فإن الدرجة المقدرة كجزاء للفعل في تلك الثانية، والتي أخبرنا بها رسول الله ﷺ في الحديث، وكما هو مقرر في نظام العمل الموضوع

---

(١) رواه الترمذي في كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء فيمن قرأ حرفا من القرآن ما له من الأجر ٥/١٧٥ (٢٩١٠)، وصححه الألباني، انظر السلسلة الصحيحة (٣٣٢٧)، ومشكاة المصابيح (٢١٣٧)، وصحيح الترغيب والترهيب (١٤١٦).

للكرام الكاتبين، الدرجة المقدرة مقدارها عشر حسنات، فإذا قسمت العشر حسنات على جزء الوقت اللازم لإخراج حرف واحد من تلك الحروف، فإن نصيب كل حسنة من الوقت مقداره عشر الثانية، ويمكن أن تكون عشر الثانية عليها أكثر من حسنة إذا كان جزاء العمل مضاعفا فإن الله ﷻ أخبرنا عن الحسنة أنها قابلة للنماء والزيادة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ النساء: ٤٠. وقال سبحانه: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ البقرة: ٢٦١.

وما يوضع من الأجر على الأعمال الصالحة ينميه الله ﷻ لأصحابه كما ينمي الزرع لمن بذره في الأرض الطيبة. وكذلك فإن عشر الثانية من الوقت، قد يقع فيه عمل آخر له أجر كبير، وأكبر مما هو محدد في حديث ابن مسعود رضي الله عنه السابق، كالأجر المحدد جزاءا لقراءة سورة الإخلاص. روى البخاري من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لأصحابِهِ: (أَيعجِزُ أحدُكم أن يقرأَ ثلث القرآن في ليلة؟ فشقَّ ذلك عليهم وقالوا: أَينا يطيقُ ذلك يا رسول الله؟ فقال: اللهُ الواحِدُ الصَّمدُ ثلث القرآن) [1].

وعند البخاري أيضا من حديث أبي سعيد الخُدري رضي الله عنه أن رجلاً

---

(١) رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب فضل: قل هو الله أحد ٤/١٩١٦ (٤٧٢٧)، ومسلم عن أبي الدرداء في كتاب صلاة المسافرين، باب فضل قراءة: قل هو الله أحد ١/٥٥٦ (٨١١).

سمع رجُلاً يقرأ : قُل هو الله أحدٌ، يردِّدُها، فلما أصبح جاءَ إلى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له، وكأن الرجُل يتقالها، فقال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيدِهِ إنها لتعدِل ثلث القرآن [(١)].

والزمن الذي يستغرقه قارئ سورة الإخلاص ترتيلا عاديا يساوي تقريبا عشر ثوان، والأجر الموضوع للقارئ على قراءته للسورة يعدل أجر قراءة ثلث القرآن، فلو قسمنا ذلك الأجر على زمن القراءة، لكان نصيب الثانية الواحدة من الحسنات ما لا يحصيه إلا الله ﷻ لتعذر العد والإحصاء في القدرة البشرية، وهذا يعني أن كل حركة في الفم أو سكنة تمت في مخارج الحروف لإتمام سورة الإخلاص عليها ثواب مقدر ومحسوب، والعكس صحيح بالنسبة للحركات والسكنات التي تحدث في مخارج الحروف لإتمام الكلمة الخبيثة، ولنا أن نتصور مدي السرعة التي يتم بها الحساب ووضع الجزاء على جزيئات العمل في دقة لا مثيل لها إذا كان رب العزة هو أسرع الحاسبين وخالق الكرام الكاتبين.

قال الله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾﴾ إبراهيم:٤٩/ ٥١ .

وإذا كانت الأمثلة السابقة التي ذكرت إنما تخص شخصا واحدا فقط نطق بحرف، أو بلفظ واحد، أو مجموعة من الألفاظ في وقت قصير جدا، فكانت طريقة العد والإحصاء وحساب العمل، ثم وضع الجزء

---

(١) رواه البخاري في الموضع السابق ٤/ ١٩١٥ (٤٧٢٦).

بهذه الوضع الذي أخبرنا الله ﷻ، فكيف يتم الحساب على بقية عمر الشخص الواحد؟ أو كيف يتم الحساب لكل من خلقهم الله ﷻ وأوجدهم على هذه الأرض؟ ليس لنا إلا الإقرار بالعجز التام والتنبه إلى هذه الحقيقة التي لا مفر منها، وهي حتمية الحساب والجزاء على كل ما تم في دار الابتلاء، تحقيقا لحكمة الله في خلقه لسائر الأشياء.

قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ الكهف:٤٩.

وعقل المخلوق الذي صنع أحدث الأنظمة في العد والإحصاء باختراعه جهاز الكمبيوتر، والآلات الحاسبة، يجزم بأن ما وصل إليه الإنسان من نظم وأجهزة للعمليات الحسابية، والتي هي أرقي ما وصلت إليه البشرية، لا تمثل شيئا على الإطلاق إذا ما قورنت بنظم العد والإحصاء عند الملائكة ﷻ، فشتان بين صناعة الحق وصناعة الخلق.

قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ الإخلاص:١/٤.

• **الدليل على أن ملائكة الأعمال تسجل مكان الأفعال.**

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾ يس:١٢. قال ابن جرير الطبري: آثار خطاهم بأرجلهم، وذكر أن هذه الآية نزلت في قوم أرادوا أن يقربوا من مسجد رسول الله ﷺ، ليقرب عليهم(١). وقال قتادة: لو كان مُغْفِلا شيئًا من

---

(١) تفسير الطبري ١٥٤/٢٢.

شأنك يا ابن آدم، لأغفل ما تعفي الرياح من هذه الآثار[١].

وعند مسلم من حديث جابر ﵁ أنه قال: (خلَتْ البقَاعُ حوْلَ المسجِدِ، فَأرادَ بنو سلمةَ أن ينتقِلوا إلى قُرب المسجِدِ، فَبلغَ ذلك رسول اللهِ ﷺ فقَال لهُم: إنهُ بلغني أنكم تُريدُون أن تَنتقِلوا قُرب المسجِدِ، قَالوا: نعَم يا رسول اللهِ قَدْ أَردْنا ذلكَ، فقَال: يا بني سلمةَ، دِياركُم تُكتَب آثاركُم، دِياركُم تُكتَب آثاركُم)[٢].

وقال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ① وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ② وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ③ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ④ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ⑤ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَٰلَهُمْ ⑥ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ⑦ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ⑧﴾ الزلزلة: ١/٨ .

قال السعدي : (أي تشهد على العاملين بما عملوا على ظهرها من خير وشر، فإن الأرض من جملة الشهود الذين يشهدون على العباد بأعمالهم)[٣].

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هُريرة ﵁ أَن رسول اللهِ ﷺ قال: (تَقِيءُ الأَرضُ أَفْلاذ كَبدِهَا أَمثال الاسطُوَان من الذهَب وَالفِضَّةِ، فَيجِيءُ القَاتِل فيقُول: فِي هَذا قَتَلتُ، وَيجِيءُ القَاطِعُ فيقُول: فِي هَذا قَطَعْتُ رحِمِي، وَيجِيءُ السارِقُ فيقُول: فِي هَذا قُطِعَتْ يدِي، ثم يدَعُونهُ

(١) انظر تفسير ابن أبي حاتم ٣١٩٠/١٠ (١٨٠٤١)، وتفسير الطبري ١٥٥/٢٢، والدر المنثور للسيوطي ٤٧/٧.

(٢) مسلم في المساجد، باب فضل كثرة الخطى إلى المساجد ٤٦٢/١ (٦٦٥) .

(٣) تفسير السعدي ص٩٣٢.

فَلا يأْخُذون منهُ شَيْئًا)[1].

• ملائكة الأعمال تسجل العلم والإرادة والاستطاعة.

علمنا أن الملائكة تدون زمان الفعل بأدق ما يمكن مما يتعذر علينا تصوره في فعل الإنسان، وكذلك تسجل في بيانات الفعل وحسابه حدود المكان، وهذان ركنان أساسيان في حساب أي عمل من أعمال الإنسان، أما بقية الأركان التي تراعى عند حساب الأعمال فمقدار العلم والإرادة والاستطاعة، فهذه خمسة أركان أساسية لضبط العمل والمؤاخذة والمسئولية، وهي تحديد فعل الإنسان بالزمان والمكان والعلم والإرادة والاستطاعة.

وأما الدليل على مراعاة العلم عند كتابة الأجر بالحسنات أو السيئات الموضوع على الفعل المحسوب مثقاله بالذرات، فهو ما ورد في القرآن أن الله ﷻ لا يعذب الإنسان إلا بعد نزول الحجة والبيان كما قال تعالى: ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾ الإسراء:١٥. وقال: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ ﴾ طه:١٣٣/١٣٤ .

وأما إذا انقطعت الأسباب إلى معرفة الحق وتمييزه بعد البحث

---

(١) مسلم في الزكاة، باب الترغيب في الصدقة ٢/٧٠١ (١٠١٣).

والطلب والسؤال عن الوحي ودليله، فهو معذور بجهله، ولا يؤاخذ على فعله لاجتماع الأدلة على ذلك.

وإذا أخبرنا الله عن إنسان ما أنه في النار، فيجب أن ندرك يقينا أن الحجة بلغته، وأن رسالة العلم وصلته، وإن جهلنا طريقة وصولها لأن ذلك لازم العدل الإلهي. روى مسلم من حديث أنس رضي الله عنه أَنَّ رَجُلا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَيْنَ أَبِي؟ قَالَ: فِي النَّارِ، فَلَمَّا قَفَّى دَعَاهُ، فَقَالَ: إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ[1]. وروى مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: (زَارَ النَّبِيُّ ﷺ قَبْرَ أُمِّهِ فَبَكَى، وَأَبْكَى مَنْ حَوْلَهُ، فَقَالَ: اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لَهَا فَلَمْ يُؤْذَنْ لِي، وَاسْتَأْذَنْتُهُ فِي أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأُذِنَ لِي، فَزُورُوا الْقُبُورَ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الْمَوْتَ)[2].

والله عز وجل قال عن جميع من يلقى في النار: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٦) إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (٧) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩) وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ (١١)﴾ الملك:٦/١١ .

وأما الدليل على مراعاة الإرادة عند كتابة الأجر على الفعل ما ورد عند البخاري من حديث عمر بن الخَطاب رضي الله عنه أنه قال: سَمعت

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان أن من مات على الكفر فهو في النار ولا تناله شفاعة ولا تنفعه قرابة المقربين ١/١٩١ (٢٠٣)، ومعنى قفى ذهب موليا.

(٢) رواه مسلم في كتاب الجنائز، باب استئذان النبي ﷺ ربه عز وجل في زيارة قبر أمه ٢/٦٧١ (٩٧٦) .

رَسول الله ﷺ يقول: (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكُل امرىء ما نوى: فَمن كانت هجرَته إلى دنيا يصيبها، أَو إلى امرأَة ينكِحُها، فَهجرَته إلى ما هاجرَ إليه) (١). وقد رفع الله المؤاخذة على وقوع الفعل على غير ما يريد الإنسان وسماه خطأ، كما ورد عند ابن ماجه من حديث أَبِي ذر الْغِفَارِيِّ رضي الله عنه أن رَسُول اللهِ ﷺ: (إِنَّ اللهَ تَجاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الْخطَأَ وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتكْرِهُوا عَلَيْهِ) (٢). ومعلوم أن ذلك أمر عام يقع في جميع البشر وإرادتهم، وهذا بخلاف إرادة الفعل إذا وقع عمدا من العبد طاعة كان أو معصية .

وأما الدليل على مراعاة القدرة والاستطاعة عند كتابة الأجر على الفعل فقوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ التوبة: ٩١/٩٣.

وروي البخاري من حديث أنسِ بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ رجع من غزوة تبوك فدنا من المدينة فقال: (إن بالمدينة أقواماً ما سرتم

---

(١) البخاري في بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي ١/٣ (١)، ومسلم في الإمارة، باب قوله ﷺ إنما الأعمال بالنية ٣/١٥١٥ (١٩٠٧).

(٢) رواه ابن ماجه في الطلاق، باب طلاق المكره والناسي ١/٦٥٩ (٢٠٤٣)، وصححه الألباني، انظر مشكاة المصابيح (٦٢٨٤)، والإرواء (٨٢).

مسِيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم، قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟ قال: وهم بالمدينة، حَبسَهم العذر)[1].

وقال تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧﴾ الطلاق:٧.

وقد أثبت القرآن الجزاء على عمل الجوارح المبنى على عمل القلب ونيته وإرادة، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٦٠﴾ الأنعام: ٦٠. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٩٦﴾ الأعراف:٩٦ .

• المؤمن يحاسبه الله بالفضل والكافر يحاسب بالعدل.

روى البخاري عَن عَائِشَةَ رضي الله عنها أن النبي ﷺ قَال: (سدِّدُوا وَقَاربوا وَأَبشِروا، فَإِنهُ لا يُدْخِل أَحَدًا الجَنةَ عَملُه، قَالوا: وَلا أَنتَ يا رسول اللهِ، قَال: وَلا أَنا إِلا أَن يتَغَمدَني اللهُ بمغْفِرةٍ وَرحْمةٍ)[2].

وروى البخاري من حديث صَفوان بن مُحْرز المازني ﷺ قال: (بينما أنا أمشي مع ابن عمر رضي اللهُ عنهما آخِذ بيدِهِ إِذ عَرَضَ رجُل فقال:

---

(١) البخاري في المغازي، باب نزول النبي ﷺ الحجر ٤/١٦١٠ (٤١٦١)، ومسلم في الإمارة، باب ثواب من حبسه عن الغزو مرض أو عذر آخر ٣/١٥١٨ (١٩١١).

(٢) البخاري في الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل ٥/٢٣٧٣ (٦١٠٢)، ومسلم في صفة القيامة ، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله ٤/٢١٧١ (٢٨١٨) .

كيف سمعتَ رسول الله ﷺ في النجوى؟ فقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: إن اللهَ يدْني المؤمن فيضَعُ عليهِ كنفَهُ ويستره فيقول: أتعرفُ ذنب كذا، أتعرفُ ذنب كذا؟ فيقول: نعم أي رب، حتَّى إذا قَرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه هَلَكَ قال: سترتُها عليكَ في الدُّنيا، وأنا أغفِرها لكَ اليوم، فيعطى كتاب حسناتِهِ، وأما الكافر والمنافقون فيقول الأشهادُ: هؤلاءِ الذين كذبوا على ربهم، ألا لعنةُ اللهِ على الظالمين) (١).

وورد في الحديث الذي رواه مسلم عَن أَبي هُريرةَ رضي الله عنه أن رسول اللهِ ﷺ قال: (كُل عَمل ابن آدَم يضَاعَفُ، الحَسنةُ عَشْر أَمثالهَا إِلى سبعمائَة ضِعْفٍ، قَال اللهُ عز وجل: إلا الصَّوْم، فَإنهُ لي، وَأَنا أَجْزي بهِ، يدَعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامهُ من أَجْلي، للصَّائِم فَرحتَان، فَرحَةٌ عِندَ فِطْرِهِ، وَفَرحَةٌ عِندَ لقَاءِ ربهِ، وَلخُلوفُ فِيهِ أَطْيب عِندَ اللهِ من ريح المسكِ) (٢).

وميزان العدل أن يستوي العمل مع الأجر، وميزان الفضل أن يزيد الأجر على العمل، وعلى هذين المعنيين قامت السماوات والأرض وحاسب الله العباد يوم العرض، فقال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾ يونس:٥٨. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢٣٧﴾ البقرة:٢٣٧ . وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِي ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ

---

(١) البخاري في المظالم، باب قوله:ألا لعنة الله على الظالمين ٢/٨٦٢ (٢٣٠٩)، ومسلم في التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله ٤/٢١٢٠ (٢٧٦٨).
(٢) البخاري في الصوم، باب هل يقول إني صائم إذا شتم ٢/٦٧٣ (١٨٠٥)، ومسلم في الصيام، باب فضل الصيام ٢/٨٠٧ (١١٥١).

لقد بعث الله الرسل مبشرين ومنذرين، وأمروا بتوحيد الله وطاعته، فكل من خالفهم قامت عليه حجته وعذبهم الله ﷻ بعدله، وكل من وافقهم أكرمهم الله بفضله، وليس للإنسان إلا ما سعى من طريق العدل، أما من باب الفضل فالله ﷻ يمن على من شاء من عباده.

- **أبو حامد الغزالي وبيان طريقة الملائكة في محاسبة القلب.**

بين أبو حامد الغزالي ما يؤاخذ به العبد من وساوس القلوب، وهّمِها وخواطرها وقصودها، وما يعفى عنه، ولا يؤاخذ به، فذكر أنها مسألة عظيمة اختلف فيها الناس، وأن الحق فيها لا يمكن الوصول إليه ما لم تقع الإحاطة والعلم بتفصيل أعمال القلوب، من مبدأ ظهورها إلى أن يظهر العمل على الجوارح، ثم بين أن أحوال للقلب أربع:

الأول: ما يرد على القلب كالخاطر، كما لو خطر له مثلا صورة امرأة، وأنها وراء ظهره في الطريق لو التفت إليها لرآها.

والثاني: هيجان الرغبة إلى النظر، وهو حركة الشهوة في الطبع، وهذا يتولد من الخاطر الأول، ونسميه ميل الطبع، ويسمى الأول حديث النفس.

والثالث: حكم القلب بأن هذا ينبغي أن يفعل، أي ينبغي أن ينظر إليها، فإن الطبع إذا مال لم تنبعث الهمة والنية ما لم تندفع الصوارف، فإنه قد يمنعه حياء أو خوف من الالتفات، وعدم هذه الصوارف ربما يكون بتأمل، وهو على كل حال حكم من جهة العقل، ويسمى هذا

اعتقادا، وهو يتبع الخاطر والميل.

الرابع: تصميم العزم على الالتفات، وجزم النية فيه، وهذا نسميه هما بالفعل ونية وقصدا، وهذا الهم قد يكون له مبدأ ضعيف، ولكن إذا أصغى القلب إلى الخاطر الأول حتى طالت مجاذبته للنفس، تأكد هذا الهم وصار إرادة مجزومة، فإذا انجزمت الإرادة، فربما يندم بعد الجزم فيترك العمل، وربما يغفل بعارض فلا يعمل به ولا يلتفت إليه، وربما يعوقه عائق فيتعذر عليه العمل، فههنا أربعه أحوال للقلب قبل العمل بالجارحة، الخاطر وهو حديث النفس، ثم الميل، ثم الاعتقاد، ثم الهم[1].

أما الخاطر فلا يؤاخذ به لأنه لا يدخل تحت الاختيار، وكذلك الميل وهيجان الشهوة، لأنهما لا يدخلان أيضا تحت الاختيار، وهما المرادان بقوله ﷺ: عفى عن أمتي ما حدثت به نفوسها. فحديث النفس عبارة عن الخواطر التي تهجس في النفس، ولا يتبعها عزم على الفعل، فأما الهم والعزم فلا يسمى حديث النفس.

وأما الثالث وهو الاعتقاد وحكم القلب بأنه ينبغي أن يفعل، فهذا تردد بين أن يكون اضطرارا أو اختيارا، والأحوال تختلف فيه، فالاختياري منه يؤاخذ به، والاضطراري لا يؤاخذ به.

وأما الرابع وهو الهم بالفعل، فإنه مؤاخذ به إلا أنه إن لم يفعل وتركه خوفا من الله تعالى وندما على همه كتبت له حسنة، لأن همه سيئة وامتناعه ومجاهدته نفسه حسنة، وإن عاق الفعل عائق بقدر الله أو تركه بعذر لا خوفا من الله تعالى كتبت عليه سيئة، فإن همه فعل

---

(١) انظر بتصرف إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي ٣/٤١.

من القلب اختياري [1].

ويذكر الغزالي أن الدليل على هذا التفصيل هو قول رسول الله ﷺ: (قالت الملائكة: رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر به، فقال: ارقبوه، فإن عملها فاكتبوها له بمثلها، وإن تركها فاكتبوها له حسنة، إنما تركها من جراي) [2].

ثم يقول: (ونحن نعلم أن من عزم ليلا على أن يصبح ليقتل مسلما، أو يزني بامرأة، فمات تلك الليلة مات مصرا، ويحشر على نيته، وقد هم بسيئة ولم يعملها، والدليل القاطع فيه ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: (إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار، فقيل: يا رسول الله هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: لأنه أراد قتل صاحبه) [3]. وهذا نص في أنه صار بمجرد الإرادة من أهل النار، مع أنه قتل مظلوما، فكيف يظن أن الله لا يؤاخذ بالنية والهم، بل كل هم دخل تحت اختيار العبد، فهو مؤاخذ به إلا أن يكفره بحسنة. ونقض العزم بالندم حسنة، فلذلك كتبت له حسنة، فأما فوت المراد بعائق فليس بحسنه. وأما الخواطر وحديث النفس وهيجان الرغبة فكل ذلك لا يدخل تحت الاختيار، فالمؤاخذة به تكليف ما لا يطاق .. فظهر به أن كل ما لا يدخل تحت الوسع من أعمال القلب هو الذي لا يؤاخذ به، فهذا هو كشف الغطاء

(١) إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي ٣/٤٢.

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة كتبت وإذا هم بسيئة لم تكتب ١/١١٧ (١٢٩)، والإمام أحمد في المسند ٢/ ٣١٧ (٨٢٠٣) .

(٣) البخاري في الديات، باب قوله: ومن أحياها ٦/٢٥٢٠ (٦٤٨١)، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما ٤/٢٢١٤ (٢٨٨٨) .

عن هذا الالتباس. وكل من يظن أن كل ما يجري على القلب يسمى حديث النفس، ولم يفرق بين هذه الأقسام الثلاثة، فلا بد وأن يغلط، وكيف لا يؤاخذ بأعمال القلب من الكبر والعجب والرياء والنفاق والحسد وجملة الخبائث من أعمال القلب؟ بل السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا، أي ما يدخل تحت الاختيار فلو وقع البصر بغير اختيار على غير ذي محرم لم يؤاخذ به، فإن أتبعها نظرة ثانية كان مؤاخذا به لأنه مختار، فكذا خواطر القلب تجري هذا المجرى، بل القلب أولى بمؤاخذته لأنه الأصل)[1].

• جواب ابن تيمية عن الإرادة بلا عمل هل يحصل بها عقاب؟

ذكر ابن تيمية أن الناس تنازعوا في الإرادة بلا عمل، هل يحصل بها عقاب، وكثر النزاع في ذلك فمن قال: لا يعاقب احتج بقول النبي الذي في الصحيحين: إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها، ما لم تتكلم به أو تعمل به، وبما في الصحيحين من حديث أبى هريرة وابن عباس رضي الله عنه أن النبي قال: إذا هم العبد بسيئة لم تكتب عليه فإن عملها كتبت عليه سيئة واحدة، وإذا هم بحسنة كتبت له حسنة كاملة، فان عملها كتبت له عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف، وفى رواية فإن تركها فاكتبوها له حسنة فإنما تركها من جرائي.

ومن قال: يعاقب، احتج بما في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار، قيل: يا رسول الله هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: إنه أراد قتل صاحبه، وبالحديث الذي

---

(١) إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي ٣/٤٣.

رواه الترمذي وصححه عن أبي كبشة الأنماري عن النبي ﷺ في الرجلين الذين أوتى أحدهما علما ومالا فهو ينفقه في طاعة الله، ورجل أوتى علما ولم يؤت مالا فقال: لو أن لي مثل ما لفلان، لعملت فيه مثل ما يعمل فلان، قال: فهما في الأجر سواء، ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته علما، فهو ينفقه في معصية الله، ورجل لم يؤته الله علما ولا مالا فقال: لو أن لي مثل ما لفلان لعملت فيه مثل ما يعمل فلان، قال: فهما في الوزر سواء [١].

والفصل في ذلك أن يقال: فرق بين الهم والإرادة، فالهم قد لا يقترن به شيء من الأعمال الظاهرة، فهذا لا عقوبة فيه بحال، بل إن تركه لله كما ترك يوسف همه، أثيب على ذلك كما أثيب يوسف، ولهذا قال أحمد: الهم همان، هم خطرات وهم إصرار [٢].

ولهذا كان الذي دل عليه القرآن أن يوسف لم يكن له في هذه القضية ذنب أصلا، بل صرف الله ﷻ عنه السوء والفحشاء لأنه من عباده المخلصين مع ما حصل من المراودة والكذب، والاستعانة عليه بالنسوة وحبسه، وغير ذلك من الأسباب التي لا يكاد بشر يصبر معها عن الفاحشة، ولكن يوسف اتقى الله وصبر، فأثابه الله ﷻ برحمته في الدنيا ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون.

---

(١) رواه الترمذي في الزهد، باب ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر ٤/٥٦٢ (٢٣٢٥)، وابن ماجه في الزهد، باب النية ٢/١٤١٣ (٤٢٢٨)، وأحمد في المسند ٤/٢٣٠ (١٨٠٥٣)، وصححه الألباني، انظر صحيح الترغيب والترهيب (١٦).

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٧/٥٢٦ بتصرف.

وأما الإرادة الجازمة فلابد أن يقترن بها مع القدرة فعل المقدور، ولو بنظرة، أو حركة رأس، أو لفظة، أو خطوة، أو تحريك بدن، وبهذا يظهر معنى قوله: إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار، فإن المقتول أراد قتل صاحبه، فعمل ما يقدر عليه من القتال، وعجز عن حصول المراد. وكذلك الذي قال: لو أن لي مثل ما لفلان، لعملت فيه مثل ما يعمل فلان، فإنه أراد فعل ما يقدر عليه وهو الكلام، ولم يقدر على ذلك، ولهذا كان من دعا إلى ضلالة كان عليه مثل أوزار من اتبعه من غير أن ينقص من أوزارهم شيئا، لأنه أراد ضلالهم ففعل ما يقدر عليه من دعائهم، إذ لا يقدر إلا على ذلك [١].

وإذا تبين هذا في الإرادة والعمل، فالتصديق الذي في القلب وعلمه يقتضي عمل القلب، كما يقتضي الحس الحركة الإرادية، لأن النفس فيها قوتان، قوة الشعور بالملائم والمنافي والإحساس بذلك والعمل والتصديق به، وقوة الحب للملائم والبغض للمنافي، والحركة عن الحس بالخوف والرجاء، والموالاة والمعاداة. وإدراك الملائم يوجب اللذة والفرح والسرور، وإدراك المنافي يوجب الألم والغم، وقد قال النبي: كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء [٢].

• الإيمان بالساعة وأشراطها من الإيمان باليوم الآخر.

مما يجب على المسلم الإيمان به أن يؤمن بأن الساعة آتية لا ريب

---

(١) السابق ٥٢٧/٧ بتصرف.

(٢) السابق ٥٢٨/٧ بتصرف وجميع الأحاديث التي ذكرها تقدم تخريجها .

فيها، وأن موعدها لا يعلمه إلا الله، أخفاه عن الناس كلهم.

قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ الأعراف: ١٨٧.

وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أحاديث كثيرة في بيان علامات الساعة وأشراطها وأماراتها. فقد صح عنه عليه الصلاة والسلام أنه ذكر للساعة علامات صغرى معظمها يدور حول فساد الناس، وظهور الفتن بينهم، وانحرافهم عن صراط الله المستقيم.

ومن العلامات الصغرى ما جاء في صحيح مسلم من حديث عمر رضي الله عنه أن جبريل سأل الرسول ﷺ عن الساعة، فقال: (قَال فَأَخْبرني عَن الساعَةِ قَال ما المسؤول عَنهَا بأَعْلم من السائِل، قَال: فَأَخْبرني عَن أَمارتِهَا؟ قَال: أَن تَلدَ الأَمةُ ربتهَا، وَأَن تَرى الحُفَاةَ العُراةَ العَالةَ رعَاءَ الشَّاءِ يتَطَاولَون فِي البنيان) [(١)].

ومن علامات الساعة الصغرى ما ورد في صحيح البخاري عن أبي هُريرةَ رضي الله عنه أنه قال: (بينما النبي ﷺ فِي مجْلس يحَدِّث القَوْم جاءَهُ أَعْرابي فقَال: متَى الساعَةُ؟ فمضَى رسول اللّهِ ﷺ يحَدِّث، فقَال بعْضُ القَوْم: سمعَ ما قَال فكَرِهَ ما قَال، وقَال بعْضُهُم: بل لم يسمعْ، حَتَّى إذا قَضَى حَدِيثَهُ قَال: أَين أُراهُ السائِل عَن الساعَةِ؟ قَال: هَا أَنا يا رسول اللّهِ، قَال: فَإِذا ضُيعَتْ الأَمانَة فَانتَظِر الساعَةَ، قَال: كَيفَ إِضَاعَتُهَا؟ قَال: إِذا وُسدَ

---

(١) مسلم في الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ١/٣٦ (٨) .

الأمر إِلى غير أَهْلهِ فَانتَظِر الساعَةَ)[١].

وفي صحيح البخاري عن عَوْفَ بن مالكٍ ﷺ أنه قال : (أَتيتُ النبي ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبوكَ وَهُوَ فِي قُبةٍ من أَدَم، فَقَال: اعْدُدْ ستًّا بين يدَي الساعَةِ: موْتِي، ثم فَتْحُ بيتِ المقْدِس، ثم موْتَان يأْخُذ فِيكُم كَقُعَاصِ الغَنم، ثم استِفَاضَةُ المال حَتَّى يعْطَى الرجُل مائَةَ دِينار فَيظَل ساخِطًا، ثم فِتْنةٌ لا يبقَى بيتٌ من العَرب إلا دَخلَتْهُ، ثم هُدْنَةٌ تَكُون بينكُم وَبين بني الأَصفَر فيغْدِرون، فيأْتُونكُم تَحْتَ ثمانين غَايَةً، تَحْتَ كُل غَايةٍ اثنا عَشَرَ أَلفًا)[٢].

وعند البخاري أيضا من حديث أبي هُريرةَ ﷺ أن رسول اللهِ ﷺ قال: (يوشِكُ الفُراتُ أَن يحْسر عَن كَنزٍ من ذهَب، فَمن حَضَرَهُ فَلا يأْخُذ منهُ شَيْئًا)[٣].

وأما العلامات الكبرى فهي الأمارات القريبة الكبيرة التي تعقبها الساعة، وهي تتتابع كنظام خرزات انقطع سلكها، فقد جاء في الأخبار

---

(١) رواه البخاري في كتاب العلم، باب من سئل علما وهو مشتغل في حديثه فأتم الحديث ثم أجاب السائل ١/٣٣ (٥٩) .

(٢) رواه البخاري في كتاب أبواب الجزية والموادعة، باب ما يحذر من الغدر ٣/١١٥٩ (٣٠٠٥) والقبة كل بناء مدور، والأدم جلد مدبوغ، وقعاص الغنم داء يصيب الغنم فيسيل من أنوفها شيء فتموت فجأة، وبنو الأصفر هم الروم، والغاية الراية سميت بذلك لأنها غاية المتبع، إذا وقفت وقف، وإذا مشت مشى .

(٣) البخاري في الفتن، باب خروج النار ٦/٢٦٠٥ (٦٧٠٢)، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب ٤/٢٢١٩ (٢٨٩٤)، يحسر ينكشف بعد أن يذهب ماؤه .

الصحيحة ذكر عشر منها، روى مسلم من حديث حذيفة بن اليمان ﷺ أنه قَال: (اطَّلَعَ النبي ﷺ علينا وَنحن نتذاكر، فَقَال: ما تَذاكَرون؟ قَالوا: نذكُر الساعَةَ، قَال: إنهَا لن تَقُوم حَتَّى تَرَوْن قَبلهَا عَشْر آياتٍ، فَذكَر الدُّخَان، وَالدَّجَّال، وَالدَّابة، وَطُلوعَ الشَّمس من مغْربهَا، وَنزُول عِيسى ابن مريم ﷺ، وَيأَجُوجَ وَمأْجُوجَ، وَثلاثَة خُسوفٍ: خَسفٌ بالمشْرق، وَخَسفٌ بالمغْرب، وَخَسفٌ بجَزِيرةِ العَرب. وَآخِرِ ذلكَ نار تَخرُجُ من اليمن تَطْرُدُ الناس إلِى محْشَرهِم)[1].

• حتمية الإيمان بالبعث والعرض والحساب.

إن الإيمان بالبعث مما دل عليه الكتاب والسنة ويؤيده مقتضى العقل والفطرة، فنؤمن يقينا بأن الله ﷻ يبعث من في القبور، وتعاد الأرواح إلى الأجساد، ويقوم الناس لرب العالمين. قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ۝١٦﴾ المؤمنون:١٥/١٦.

وفي صحيح البخاري عن سهْل بن سعْدٍ ﷺ أنه قال: (سمعْتُ النبي ﷺ يقُول: يحْشَر الناس يوْم القِيامةِ عَلى أَرض بيضَاءَ عَفْراءَ كَقُرصَةِ نقِي، قَال سهْل أَوْ غيرهُ: ليس فِيهَا معْلم لأَحَدٍ)[2].

وفي صحيح البخاري عَن أَبي هُريرةَ ﷺ أن النبي ﷺ قال: (يحْشَر

(١) مسلم في الفتن ، باب في الآيات التي تكون قبل الساعة ٤/٢٢٢٥ (٢٩٠١) .

(٢) رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب يقبض الله الأرض يوم القيامة ٥/٢٣٩٠ (٦١٥٦)، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار، باب في البعث والنشور وصفة الأرض يوم القيامة ٤/٢١٥٠ (٢٧٩٠) ومعنى كقرصة نقي، كرغيف مصنوع من دقيق خالص من الغش والنخالة .

الناس عَلى ثلاث طَرائِقَ: راغِبين راهِبين، وَاثنان عَلى بعير، وثلاثةٌ عَلى بعِير، وأَربعَةٌ عَلى بعِير، وعَشَرةٌ عَلى بعِير، ويحْشُر بقِيتَهُم النار، تَقِيل معَهُم حَيث قَالوا، وتَبيتُ معَهُم حَيث باتُوا، وتُصبْحُ معَهُم حَيث أَصْبحُوا، وتُمسي معَهُم حَيث أمسوْا)[1].

وفي صحيح البخاري عَن ابن عَباس رضِيَ اللهُ عَنهُما أن النبي ﷺ قَال: إنكُم محْشُورون حُفَاةً عُراةً غُرلا ثم قَرأَ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ الأنبياء: ١٠٤. وأَوَّل من يكسى يوْم القِيامةِ إبراهِيم، وَإن أُناسا من أَصْحَابي يؤْخَذ بهم ذاتَ الشِّمال، فَأَقُول: أَصْحَابي، أَصْحَابي، فيقُول: إنهُم لم يزَالوا مرتَدِّين عَلى أَعْقَابهم منذ فَارقْتَهُم، فَأَقُول كَما قَال العَبدُ الصَّالِحُ: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ المائدة: ١١٧/١١٨[2].

وفي صحيح البخاري عَن أَنس بن مالكٍ رضي الله عنه أَن رجُلا قَال: يا نبي اللهِ، كَيفَ يحْشَر الكَافِر عَلى وَجْهِهِ؟ قَال: أَليس الذي أَمشَاهُ عَلى الرجْلين فِي الدُّنيا قَادِرا عَلى أَن يمشِيهُ عَلى وَجْهِهِ يوْم القِيامةِ؟ قَال قَتادَةُ: بلى وَعِزَّةِ ربنا[3].

---

(١) البخاري في الرقاق، باب كيف الحشر ٥/٢٣٩٠ (٦١٥٧)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة ٤/٢١٩٥ (٢٨٦١).

(٢) رواه البخاري في كتاب الأنبياء، باب واتخذ الله إبراهيم خليلا ٣/١٢٢٢ (٣١٧١)، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب فناء الدنيا، وبيان الحشر يوم القيامة ٤/٢١٩٤ (٢٨٦٠)، والغرل جمع أغرل وهو الذي لم يختتن.

(٣) البخاري في التفسير، باب تفسير سورة الفرقان ٤/١٧٨٤ (٤٤٨٢).

وقد أجمع المسلمون على ثبوت البعث وهو مقتضى الحكمة؛ حيث تقتضي أن يجعل الله تعالى لهذه الخليقة معادا يجزيهم فيه على كل ما كلفهم به على ألسنة رسله، قال الله تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾ المؤمنون:١١٥.

وقد أنكر الكافرون البعث بعد الموت زاعمين أن ذلك غير ممكن، وهذا الزعم باطل، قال الله تعالى: ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ ﴾ التغابن:٧. وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ ﴾ سبأ:٣.

وينبغي أيضا الإيمان بالعرض، حيث يعْرض الناس على ربهم كما قال تعالى: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ ﴾ الحاقة:١٥/١٨.

وينبغي أيضا الإيمان بالحساب وأن الله ﷻ يحاسب الخلائق، ويخلو بعبده المؤمن فيقرره بذنوبه كما وصف ذلك في الكتاب والسنة، وأما الكفار فلا يحاسبون محاسبة من توزن حسناته وسيئاته، فإنه لا حسنات لهم، ولكن تعد أعمالهم فتحصى فيوقفون عليها ويقررون بها.

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ ﴾ الانشقاق:٦/١٥.

وروى البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: (ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هَلك. فقلت يا رسول الله، أليس قد قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾ فقال رسول الله ﷺ: إنما ذلك العرض، وليس أحد يناقَش الحساب يوم القيامة إلا عُذب)(١).

وينبغي أيضا الإيمان بأن كل إنسان سيعطى كتاب أعماله، وإذا اطلع المؤمن على ما تحويه صحيفته من التوحيد وصالح الأعمال سر واستبشر وأعلن هذا السرور.

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ۝١٩ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ۝٢٠ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢١ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝٢٢ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝٢٣ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ۝٢٤﴾ الحاقة: ١٩/٢٤.

وأما الكافر والمنافق وأهل الضلال؛ فإنهم يؤتون كتبهم بشمالهم ومن وراء ظهورهم، وعند ذلك يدعو الكافر بالويل والثبور، وعظائم الأمور، كما قال سبحانه: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ۝٢٥ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۝٢٦ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ۝٢٧ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ۝٢٩ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١﴾ الحاقة: ٢٥/٣١.

• الإيمان بالميزان والصراط وفتنة القبر وعذابه.

وينبغي الإيمان بالميزان، قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا

---

(١) البخاري في الرقاق، باب من نوقش الحساب عذب ٥/٢٣٩٥ (٦١٧٢)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب إثبات الحساب ٤/٢٢٠٤ (٢٨٧٦).

نُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ الأنبياء:٤٧.

وقد دلت السنة النبوية على أن ميزان الأعمال له كفتان حسيتان مشاهدتان، وأن وزن الأعمال يكون بعد انقضاء الحساب، فإن المحاسبة لتقرير الأعمال، والوزن لإظهار مقاديرها ليكون الجزاء بحسبها.

ومن أركان الإيمان باليوم الآخر الإيمان بالصراط، وهو الجسر المنصوب على ظهر جهنم طريقا إلى الجنة، حيث يمر جميع الناس على هذا الصراط حسب أعمالهم، فمنهم من يمر كلمح البصر، ومنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كالفرس الجواد، ومنهم من يمر كركاب الإبل، ومنهم من يعدو عدوا، ومنهم من يمشي مشيا، ومنهم من يزحف زحفا، ومنهم من يخطف خطفا ويلقى في جهنم، فإن الجسر عليه كلاليب تخطف الناس بأعمالهم، فمن تجاوز الصراط دخل الجنة.

ويجب أن يعلم أن من استقام على صراط الله الذي هو دينه الحق في الدنيا استقام على هذا الصراط في الآخرة، ومن حاد عن الصراط المستقيم في الدنيا، فلن يصمد على صراط الآخرة، وعند الصراط في الآخرة يعزل المنافقون عن المؤمنين، ويتخلفون عنهم، ويسبقهم المؤمنون، ويحال بينهم بسور يمنعهم من الوصول إليهم.

قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَـٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ

﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾﴾ الحديد:١٣/١٤.

ومن أركان الإيمان باليوم الآخر الإيمان بالجنة التي أعدها الله للمؤمنين وأنها تحت العرش في عليين، والنار التي أعدها الله للكافرين، فالجنة والنار كلاهما حق لا ريب فيهما، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ البقرة:٢٥.

ولقد جاء وصف الجنة والنار، ووصف النعيم والعذاب في مواضع كثيرة من القرآن، وكلما ذكرت الجنة ذكرت النار والعكس، وتارة يرغّب الله في الجنة ويدعو إليها، ويرهِّب من النار ويحذر منها، وتارة يخبر عما أعدَّ في الجنة من النعيم لأوليائه، ويخبر عما أرصد في النار من العذاب الأليم لأعدائه. وينبغي أن نعتقد يقينا أن الجنة والنار مخلوقتان وموجودتان الآن، وقد تقدم الحديث عن بقائهما مفصلا. وأن أهل السنة والجماعة اتفقوا على أن الجنة والنار مخلوقتان موجدتان الآن، وأنهم لا تفنيان أبدا ولا تبيدان، وقد دلت النصوص القرآنية والأحاديث النبوية على ذلك.

وينبغي أيضا الإيمان بفتنة القبر، وهو سؤال الميت بعد دفنه عن ربه وعن دينه وعن نبيه؟ فيثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت، فيقول المؤمن: ربي الله، وديني الإسلام، ونبي محمد ﷺ، ويضل الله الظالمين، فيقول الكافر: هَاه هَاه لا أدري، ويقول المنافق أو المرتاب: لا أدري

سمعت الناس يقولون شيئا فقلته.

وينبغي الإيمان بعذاب القبر ونعيمه، فأما عذاب القبر فيكون للظالمين من المنافقين والكافرين، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ الأنعام: ٩٣.

وقال في آل فرعون: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ غافر: ٤٥/٤٦.

وفي صحيح مسلم من حديث زيد بن ثابت ﷺ أن النبي ﷺ قال: (فلولا أن لا تدافنوا لدعوتُ الله أن يسْمعكم مِن عَذابِ القبر الذي أسمعه منه، ثم أقبل بوجهه فقال: تعوذوا بالله مِن عَذابِ النار، قالوا: نعوذ باللهِ مِن عَذابِ، فقال: تعوذوا بالله مِن عَذابِ القبر، قالوا: نعوذ بالله مِن عَذابِ القبر) (١).

وأما نعيم القبر فللمؤمنين الصادقين، قال الله ﷻ: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ الواقعة: ٨٣/٨٩ .

وصح فيما رواه أحمد عن البراء بن عازب ﷺ أن النبي ﷺ قال في

---

(١) مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه ٤/٢١٩٩ (٢٨٦٧) .

المؤمن إذا أجاب الملكين في قبره: (ينادي منادٍ من السماء أن صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له بابا إلى الجنة، قال: فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له في قبره مد بصره)[(١)].

ولقد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ في ثبوت عذاب القبر ونعيمه، لمن كان لذلك أهلا، وسؤال الملكين، فيجب اعتقاد ثبوت ذلك والإيمان به، ولا نتكلم في كيفيته، لأنه خارج عن حدود الإدراك ولا عهد للعقل به في هذه الدار، كما أن أحوال القبر من أمور الغيب التي لا يدركها الحس، ولو كانت تدرك بالحس لفاتت فائدة الإيمان بالغيب، وزالت حكمة التكليف، ولما تَدافن الناس، ولما كانت هذه الحكمة منتفية في حق البهائم التي سمعته وأدركته.

---

(١) أحمد في المسند ٤/٢٨٧ (١٨٥٥٧)، وأبو داود في السنة، باب في المسألة في القبر وعذاب القبر ٤/٢٣٩ (٤٧٥٣)، وصححه الألباني، انظر مشكاة المصابيح (١٦٣٠)، وأحكام الجنائز ص١٥٧.

المطلب السابع والعشرون

الوصف الذي يتميز به الإنسان في الأرض
وبيان معاني الحكمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فقد تحدثنا في المطلب السابق عن الإيمان باليوم الآخر وأنه هو الركن الخامس من أركان الإيمان، وبينا أن الله ﷻ جعل ملائكة للرحمة وملائكة للعذاب وملائكة للكتاب تحاسب الإنسان عن الأمانة العظمى التي تطلبت المساءلة القصوى، وبينا دقة الحساب عند الملائكة ودلالتها على كمال الاختيار والمسئولية.

كما علمنا أن الذرة وردت في القرآن كوحدة وزن الأعمال، وأنها تختلف عن وزن الأجر، وبينا نظام الملائكة في تسجيل العمل، ووضع المقابل من الأجر، وأنها تسجل فعل الإنسان محددا بالزمان والمكان، وضربنا مثالا لدقة الملائكة في تدوينهم لحساب زمان الفعل، وكذلك ذكرنا الدليل على أن ملائكة الأعمال تسجل مكان الأفعال وتسجل أيضا مقدار العلم والإرادة والاستطاعة.

وعلمنا أن المؤمن يحاسبه الله بالفضل، والكافر يحاسبه بالعدل، ثم عرضنا ما ذكره أبو حامد الغزالي في بيان طريقة الملائكة في محاسبة القلب، وجواب ابن تيمية عن الإرادة بلا عمل، هل يحصل بها عقاب؟

كما تحدثنا عن أبرز أمور الإيمان بالساعة وأشراطها، وحتمية الإيمان بالبعث والعرض والحساب، والميزان والصراط وفتنة القبر وعذابه.

وفي هذا المطلب بإذن الله نتناول الحديث عن الحكم العليا والأبعاد الاعتقادية الكبرى في وجود الإنسان، وتمييزه عن الكائنات من حوله، وعلاقة ذلك بالعالم الذي نراه مهيئا لهذا التميز والتكريم.

- **هل تميز الإنسان عن الكائنات بأنه حيوان ناطق؟**

اختلف الناس في الوصف الذي يميز الإنسان عن غيره من الكائنات، وقالوا في ذلك أقوالا عديدة، فمن قائل إنه تميز عن غيره بأنه حيوان ناطق، يتكلم بأجود الكلمات والعبارات ولا نسمع ذلك من بقية الكائنات، ومن قائل تميز الإنسان عن غيره بأنه عاقل حكيم يحرص على نفعه، ويدفع الضرر عن نفسه، ومن قائل إنه تميز عن غيره بصفة الاجتماعية، فيمكنه أن يقيم الأمم والحضارات، ويضع المجالس والوزارات، وله دستور ومؤسسات، وله اتفاق صامت أو ناطق، يضبط الحريات وينظم العلاقات، أما بقية المخلوقات فهمجية عشوائية لا تتصف بالاجتماعية، وقيل أيضا بل تميز الإنسان عن غيره بالحرية والعبودية.

إن التعايش بين مختلف الكائنات يقضي بأنها متوافقة متفاهمة، وهذا يدل على أنها متخاطبة متكلمة على طريقة ما، أو كيفية ما، يعلمها خالقها ومن دبر أمرها، غير أننا لا نفهم مفردات الكلام بينهم؛ فهم بالنسبة إلينا كالأعاجم من البشر الذين نسمع كلامهم، ولا

نستوعب مرادهم.

ويستطيع المتخصصون في العلوم المختلفة كعلم الحيوان والنباتات أو علم الطبيعة والجمادات أن يؤكدوا صدق هذه الحقائق، فانظر مثلا إلى تجمعات الطير والنحل أو الحيتان والنمل تجدها متفاهمة فيما بينها؛ وإن كنا لا ندري طبيعة هذا التفاهم أو كيفيته.

وإذا طالعنا القرآن الذي يمثل عمدة الوحي في الإسلام وجدنا أنه ينفي انفراد الإنسان بصفة الكلام، ويعتبر المخلوقات بوجه عام لها تفاهم وانسجام، شأنهم في ذلك شأن البشر وما تنوعوا فيه من اللغات والأجناس والصور، فكما أن الإنسان يفهم لغة الآخر الذي يتكلم بنفس اللسان كذا حال اللغة التي تتحدث بها تلك المخلوقات، وما نراه بينها من رموز وإشارات؛ فالقرآن يؤكد أن لها قولا، ورموزا وشفرة، وكلاما فيه عبرة، ولهم قانون ونظام ومنهج وأحكام، يتكاتفون في إظهاره، ويتعاملون بينهم من خلاله، والله ﷻ يسمع قولهم وكلامهم، ويعلم تسبيحهم ونظامهم.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١)﴾ النور: ٤١.

وقال أيضا: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤)﴾ الإسراء: ٤٤.

وقال الله ﷻ في إثبات منطق الجبال وتسبيحها بالغدو والآصال:
﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩)﴾ الأنبياء: ٧٩.

وقال سبحانه: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾ ص:١٨، كانت الجبال تسبح مع داود عليه السلام حيث ناداها ربها وهو عليم بحالها ونطقها وكلامها فكلفها وأمرها، وناداها فقال لها: ﴿يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾﴾ سبأ:١٠. فتسبيح الجبال إذا حقيقية بنص القرآن، كما ورد في غير موضع أنها ذاكرات خاشعات موحدات عابدات على كيفية لا نعلمها. وقد كان رسول الله ﷺ يقرأ القرآن، وكان الجن يستمعون له بإمعان دون أن يشعر بوجودهم فتكلمت شجرة مجاورة لهم وأخبرت رسول الله ﷺ عن سماعهم.

روى مسلم من حديث عبد الرحمن بن عبد الله رضي الله عنه أنه قال: (سَأَلْتُ مَسْرُوقًا: مَنْ آذَنَ النَّبِيَّ ﷺ بِالجِنِّ لَيْلَةَ استمَعُوا القُرْآنَ؟ فَقَال: حَدَّثَنِي أَبُوكَ، يَعْنِي ابْنَ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّهُ آذَنَتْهُ بِهِمْ شَجَرَةٌ)[١].

قال النووي: (هذا دليل على أن الله تعالى يجعل فيما يشاء من الجماد تمييزا، ونظيره قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ البقرة:٧٤ ، وقوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ الإسراء:٤٤. وقوله ﷺ: إني لأعرف حجرا بمكة كان يسلم علي، وحديث الشجرتين اللتين أتتاه ﷺ.. وحديث حنين الجذع وتسبيح الطعام وفرار حجر موسي بثوبه، ورجعان حراء

---

(١) البخاري في فضائل الصحابة، باب ذكر الجن ١٤٠١/٣ (٣٦٤٦)، ومسلم في الصلاة، باب الجهر بالقراءة في الصبح ٣٣٣/١ (٤٥٠).

وأحد، والله أعلم) [1].

وقد ورد النص بأن الله ﷻ لما استخلف سليمان عليه السلام وأعطاه من النعم والملك ما لا ينبغي لأحد من بعده، علمه منطق الطيور بأنواعها، وسمع النملة تقدم النصح لأخواتها، وكلم الهدهد عن بلقيس وشأنها لما جاءه من سبأ بخبرها، وكان له مع هذه الكائنات وغيرها شأن عجيب.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ النمل:١٥/١٦.

وما كان لسليمان عليه السلام أن يكلم هذه المخلوقات دون العلم بلغتها ومنطقها ولذلك قدم القرآن ذكر تعليمه منطق الطير كإشعار للمستمع قبل الإخبار عن حديثه مع النمل قال ﷻ: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ النمل:١٧/١٩.

قال ابن القيم: (أخبر الله سبحانه عن النمل أنه ركب فيه مثل هذا الشعور والنطق ولاسيما هذه النملة التي جمعت في هذا الخطاب بين النداء والتعيين، والتنبيه والتخصيص والأمر وإضافة المساكن إلى أربابها، والتجائهم إلى مساكنهم؛ فلا يدخلون على غيرهم من الحيوانات

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ١٧١/٤.

مساكنهم والتعذير والاعتذار بأوجز خطاب وأعذب لفظ ولذلك حمل سليمان عليه السلام التعجب من قولها على التبسم، وأحرى بهذه النملة وأخواتها من النمل أن يكونوا أعرف بالله من الجهمية)[1].

وقال أيضا: (تكلمت النملة بعشرة أنواع من الخطاب في هذه النصيحة، النداء والتنبيه والتسمية والأمر والنص والتحذير والتخصيص والتفهيم والتعميم والاعتذار)[2].

وقد كان في منطق الهدهد الذي كلم سليمان عليه السلام ما يدل على فصاحة القول من خلال دقة كلماته وظهور الحكمة في عباراته وحسن التعبير عن مراداته قال تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾ النمل: ٢٠/٢٦.

قال ابن القيم في هذا المعنى أيضا: (إن بني آدم يتخاطبون ويكلم بعضهم بعضا مخاطبة ومكاتبة، وقد أنطق الله سبحانه بعض الجمادات

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم ص٢١٠/٢١١.
(٢) مفتاح دار السعادة لابن القيم ١/٢٤٣.

وبعض أنواع الحيوانات بمثل نطق بني آدم فلم يسترب سامع ذلك النطق في حصول العلم واليقين به، بل كان ذلك عنده من أعظم العلوم الضرورية، فلما قالت النملة لأمة النمل: يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون، لم يشك النمل ولا سليمان في مرادها وفهموه يقينا، ولما علم سليمان مرادها يقينا تبسم ضاحكا منه، وخاطب الهدهد وخاطبه الهدهد فحصل للهدهد العلم اليقيني بمراد سليمان من كلامه وحصل لسليمان ذلك من كلام الهدهد، وذهب الهدهد بكتاب سليمان لما حصل له اليقين من كلامه، وأرسل سليمان الهدهد والكتاب وفعل ما حكي الله لما حصل له اليقين بمراد الهدهد من كلامه، وأنطق سبحانه الجبال بالتسبيح مع داود، وعلم سليمان منطق الطير، وسمع الصحابة تسبيح الطعام مع رسول الله ﷺ وسمع رسوله تسليم الحجر عليه، أفيقول مؤمن أو عاقل: إن اليقين لم يكن يحصل للسامع بشيء من مدلول هذا الكلام؟»[(١)].

وقد كلم سليمان عليه السلام الهدهد كما يكلم صاحب العقل الرزين، ولم يتعجل في حكمه حتى يتحقق من صدقه فقال: ﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَـٰبِى هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ النمل:٢٧/٣١.

ومن ثم فإن الكائنات تتكلم بنص القرآن، ولو أدركنا منطقها كما

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة لابن القيم ٢/٧٧٧.

أدركه سليمان لعلمنا أنها لا تقل عن الإنسان شيئا في إمكانية النطق والبيان ولكن بالكيفية التي تناسبها وعلى الوضع الذي أراده خالقها.

• **العموم والخصوص في نطق الكائنات أو عدم نطقها.**

لكن السؤال الذي يطرح نفسه بالضرورة لدى البعض: كيف تتكلم الحجارة أو المعادن وهي صماء بكماء لا نسمع لها قولا ولا كلاما، وقد ذكر الله ﷻ في شأن إبراهيم عليه السلام لما قال له قومه بعد أن حطم الأصنام: ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ الأنبياء:٦٢/٦٥.

وقال تعالى منكرا على بني إسرائيل أنهم عبدوا العجل من دونه: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ الأعراف:١٤٨؟

قضية نطق الخلائق قضية نسبية من جهة العموم والخصوص فهي عامة من وجه وخاصة من وجه آخر، فنطقها بالنسبة لفعل خالقها وعلمه بها وسماعه لها عام في جميع الكائنات وعلى اختلاف الكيفية والهيئات كما قال سبحانه: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ فصلت:٢١.

أما من جهة سماع الكائنات بعضها لبعض فهذا متعلق بحكمة الله ﷻ وابتلائه في خلقه، ومقدار ما يعطي لبعضهم من العلم، فقد يعلم

سليمان عليه السلام لغة الإنسان أو الحيوان ولا يعلم غيره، فالأمر هنا أمر نسبي على اعتبار السماع والتواصل والفهم، أو الاستجابة للغة ما أو دعوة ما، كقول العربي عن الأعجمي: هذا لا يتكلم، أي لا يتكلم العربية، وكوصف الله عز وجل للمنافقين والكافرين بالصمم والبكم في قوله تعالى: ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ البقرة:١٨، مع كونهم يتكلمون اللغة العربية بطلاقة، أو كقوله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ الأنفال:٢٢.

وقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ ﴾ الأنعام:٣٩.

وعلى الرغم من كون الحجارة، أو المعادن التي تشكلت منها الأصنام خلقها الله بكيفية مخصوصة لا تسمح بمخاطبة الإنسان ولا تتأثر بندائه أو تستجيب لدعائه، على الرغم من ذلك فإن الله عز وجل جعلها في بعض المواطن عونا لأوليائه وحربا على أعدائه، فقد تتكلم بما يفهمه الإنسان من منطق وبيان، إما في نهاية الزمان عند محاربة اليهود أو عند الحساب في اليوم الموعود. روى البخاري من حديث أبي صعصعة الأنصاري رضي الله عنه أن أبا سعيد رضي الله عنه قال له: (إِنِّي أَرَاكَ تُحِبُّ الغَنَمَ وَالبَادِيَةَ، فَإذا كُنْتَ فِي غَنَمِك أَوْ بَادِيَتِك فَأَذنْتَ بِالصَّلاةِ فَارْفَعْ صَوْتَك بِالنِّدَاءِ، فَإِنَّهُ لا يَسْمَعُ مَدَي صَوْتِ الْمُؤَذن جِنٌّ وَلا إِنْسٌ وَلا شَيْءٌ إِلا شَهِدَ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، قَال أَبُو سَعِيدٍ: سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ) [١] .

---

(١) البخاري في الأذان، باب رفع الصوت بالنداء ١/٢٢١ (٥٨٤).

والشاهد من الحديث أن المخلوقات تسمع صوت المؤذن وتشهد له بذلك يوم القيامة، وقد ورد الحديث بلفظ: (لا يَسْمَعُهُ جِنٌّ، وَلا إِنْسٌ، وَلا شَجَرٌ، وَلا حَجَرٌ إِلا شَهِدَ لَهُ) (١).

وعند البخاري من حديث ابن عمر رضي الله عنه أنه قال: (سَمِعْتُ رَسُول اللهِ ﷺ يَقُول: تُقَاتِلكُمْ اليَهُودُ فَتُسَلطُونَ عَليْهِمْ ثُمَّ يَقُول الحَجَرُ: يَا مُسْلمُ هَذا يَهُودِيٌّ وَرَائِي فَاقْتُلهُ) (٢). قال ابن حجر العسقلاني: (وفي الحديث ظهور الآيات، وقرب قيام الساعة من كلام الجماد من شجر وحجر، وظاهره أن ذلك ينطق حقيقة) (٣). وقال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾﴾ الزلزلة: ١/٥.

قال الواحدي: (يومئذ تحدث أخبارها، أي تخبر بما عمل عليها من خير وشر بأن ربك أوحى لها أي أمرها بالكلام وأذن لها فيه) (٤).

ويذكر المتخصصون في دراسة العناصر والمركبات أن المادة مكونة من مجموعة جزيئات وكل جزيء مكون من مجموعة من الذرات،

---

(١) ابن ماجة في الأذان، باب فضل الأذان وثواب المؤذنين ١/٢٣٩ (٧٢٣)، وصححه الشيخ الألباني، انظر صحيح ابن ماجة ١/١٢٢ (٥٩١).

(٢) البخاري في المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام ٣/١٣١٦ (٣٣٩٨)، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء ٤/٢٢٣٩ (٢٩٢١).

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ٦/٦١٠.

(٤) الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لأبي الحسن الواحدي ٢/١٢٢٣، نشر دار القلم، والدار الشامية دمشق، بيروت ١٤١٥هـ.

وكل ذرة لها نظام في تركيبها، وجميع الذرات لها قانون في مداراتها، ينظمه تكافؤ كل ذرة في علاقتها بأختها، سواء كانت الذرةُ سالبةً أو موجبةً فالمادة في عناصرها عبارة عن أخوات من الذرات متفاهمات متخاطبات ولولا أنها متكاتفات متماسكات وفق رموز وشفرات ما ظهرت لنا المواد في صورتها التي نراها، فجزيء الماء يظهر من التوافق والاتحاد بين ذرتين من الهيدروجين مع ذرة من الأكسجين، ولولا إدراك العلماء لحقيقة الطاقة الهائلة المدفونة في باطن النواة المتعادلة، وخصوصا الذرات المشعات التي تقبل التمزق والشتات، لولا أنهم علموا لهجة خطابها، والقوانين التي تعمل من خلالها لما عكفوا على البحث لتحويلها إلى ما نراه من القنابل الذرية والرؤوس النووية التي لا تبقي ولا تذر.

ومن ثم فإن الحجارة والمعادن أو غيرها من الكائنات قد لا تكون ناطقة باعتبار لغة الخطاب مع الإنسان لكنها عند المتخصصين من العلماء ذرات فعالة متماسكة، وإلكْتْرُونَات متحركة، وبُرُوتُونَات موجبة، ونِيُوتْرُونَات متعادلة ساكنة، والذرات لها دستور ونظام، ومنهج وأحكام، تعمل بها من غير خلل، وتلتزم بينها من غير ملل، إلا إذا شاء الله ﷻ لها أن تتحول إلى صورة من صور الطاقة؛ فالحقيقة المؤكدة التي يصدقها العقل والنقل، أن الكل متكلم ناطق بكيفية تليق به، سواء تحركت شفتاه، أو كان بغير فاه، وسواء أدركنا قوله أم جهلناه، أو اعتبره البعض متكلما، أو لم يعتبره، فالله ﷻ الذي خلق جميع الكائنات يعلم منطقهم ونظامهم، ويسمع تسبيحهم وكلامهم، ويرى صلاتهم

وسجودهم كما قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ النور: ٤١.

ولا شك أن الذي خلق الإنسان أو الحيوان، أو غير ذلك من المخلوقات قادر على تهيئة الكائنات على أي وضع شاء، إن شاء ختم على فم الإنسان فما استطاع الكلام، وإن شاء أنطق الحيوان بالحكمة وروعة البيان، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ يس: ٦٥ [(١)].

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ: (صلى صَلاةَ الصُّبْحِ ثمَّ أَقْبَل على النَّاسِ فَقَال: بَيْنَا رَجُل يَسُوقُ بَقَرَةً إذ رَكِبهَا فضَرَبَها فقَالتْ: إنَّا لَمْ نُخْلَقْ لهَذا إنَّمَا خُلقْنَا للحَرْث، فقال النَّاسُ: سُبْحَانَ اللهِ بَقَرَةٌ تتكلمُ؟ فقَال: فَإنِّي أُومِنُ بِهَذا أَنَا وَأَبُو بكْرٍ وَعُمَرُ وَمَا هُمَا ثَمَّ، ثم قال ﷺ: وَبَيْنمَا رَجُل فِي غَنَمِهِ إذ عَدَا الذئْبُ، فَذهَبَ مِنْهَا بِشَاةٍ فَطلَبَ حَتَّى كَأَنَّهُ اسْتَنْقَذهَا مِنْهُ، فَقَال لهُ الذئْبُ: هَذا اسْتَنْقَذتَها مِنِّي، فَمَنْ لَهَا يَوْمَ السَّبُعِ يَوْمَ لا رَاعِيَ لَها غَيْرِي؟ فقال النَّاسُ: سُبْحَانَ اللهِ ذئْبٌ يَتَكَلمُ؟ قَال: فَإنِّي أُومِنُ بِهَذا أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَمَا هُمَا ثَمَّ) [(٢)].

وروى أبو داود وصححه الألباني من حديث عبد الله بن جعفر ﷺ

---

(١) انظر في معنى تسبيح المخلوقات: تفسير ابن كثير ١/١١٤، ٣/٤٣، وتفسير ابن جرير الطبري ١٥/٩٣، التوحيد لأبى منصور الماتريدي ص٥٨.

(٢) البخاري في الأنبياء، باب أم حسبت أن أصحاب الكهف ٣/١٢٨٠ (٣٢٨٤)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق ٤/١٨٥٧ (٢٣٨٨).

أنه قال: (دَخَلَ ﷺ حائِطًا [١] لرَجُل مِنَ الأنْصَار فَإذا جَمَل، فَلمَّا رَأَي النَّبِيَّ ﷺ حَنَّ وَذرفَتْ عَيْنَاهُ [٢] فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ فَمَسَحَ ذِفْرَاهُ [٣]، فَسكَتَ، فَقَال: مَنْ رَبُّ هَذا الجَمَل؟ [٤] لَمَنْ هَذا الجَمَل؟ فَجَاءَ فتي مِنَ الأنْصَار فَقَال: لي يَا رَسُول اللهِ ! فقَال: أَفَلا تَتَّقِي اللهَ فِي هَذِهِ البَهِيمَةِ التِي مَلَكَكَ اللهُ إِيَّاهَا؛ فَإِنَّهُ شَكَا إلى أَنَّك تُجِيعُهُ وَتُدئِبُهُ) [٥].

وإذا كان الحيوان أو غيره لا يتكلم بقولنا ولا ينطق بكلامنا فنحن أيضا نعجز عن الكلام مع تلك المخلوقات، والعلماء الدارسون لسلوك الحيوان يعلمون أن لغته أشد تعقيدا من لغة الإنسان، وتتطلب منا لو أردنا التعرف على شفرة خطابها وفك رموزها وألغازها إلى دراسة علمية شاقة ومعمقة، فمن بداهة العقل إذا ألا نقبل القول بأن الإنسان تميز بأنه حيوان ناطق؟

• هل تميز الإنسان عن غيره بالعقل والحكمة؟

تقدم الحديث عن تعريف العقل بما يغني عن إعادته والغاية الرئيسية من وجود العقل معرفة الإنسان ما ينفعه أو يضره، وكيف يحصِّل الخير الأعلى والأفضل دائما؟ ومما لا شك فيه أننا نرى جميع الكائنات في

---

(١) الحائط هو البستان، أو الأرض المحاطة بسور.
(٢) بكي وشكا له ظلم صاحبه لأنه يتركه بلا طعام ويمنعه حقه في الراحة أو المنام.
(٣) الذفر أصل الأذن وطرفها.
(٤) يعني مالكه والقائم على أمره.
(٥) أبو داود في الجهاد، باب ما يؤمر به من القيام على الدواب والبهائم ٢٣/٣ (٢٥٤٩)، وأحمد في المسند ٢٠٥/١ (١٧٥٤) وصححه الألباني، وانظر صحيح أبي داود ٤٨٤/٢ (٢٢٢٢)، وصحيح الترغيب والترهيب (٢٢٦٩).

حياتها حريصة كل الحرص على نفعها ودفع الشر عن نفسها، ومن ثم فإنها تطبق منهج الله أكثر من غيرها إلى حد يسمح بإطلاق لفظ التسخير على سلوكياتها فهي أعقل عند المقارنة من الإنسان.

والنملة مثلا على دقة حجمها ووزنها ترى في مسلكها عظمة عقلها وحسن إدراكها، فلو وضعتها في إناء فيه قطرات من ماء ثم نظرت إلى حركتها وتأملت طريقتها في الخلاص من الهلاك لرأيت في فعلها العجب، كيف ولماذا تتمكن النملة في حساباتها من الابتعاد عن الماء؟ وكيف علمت أن الماء يغرقها ويهلكها؟

قال ابن القيم: (تأمل هذه النملة الضعيفة وما أعطيته من الفطنة والحيلة، في جمع القوت وادخاره وحفظه ودفع الآفة عنه فإنك ترى في ذلك عبرا وآيات، فتري جماعة النمل إذا أرادت إحراز القوت خرجت من أسرابها طالبة له، فإذا ظفرت به أخذت طريقا من أسرابها إليه وشرعت في نقله، فتراها رفقتين، رفقة حاملة تحمله إلى بيوتها سربا ذاهبا، ورفقة خارجة من بيوتها إليه لا تخالط تلك في طريقها، بل هما كالخيطين بمنزلة جماعة الناس الذاهبين في طريق والجماعة الراجعين من جانبهم، فإذا ثقل عليها حمل الشيء من تلك اجتمعت عليه جماعة من النمل وتساعدت على حملة بمنزلة الخشبة والحجر الذي تتساعد الفئة من الناس عليه، فإذا كان الذي ظفر بالطعام منهن واحدة ساعدها رفقتها عليه إلى بيتها وخلوا بينها وبينه، وإن كان الذي صادفه جماعة تساعدن عليه ثم تقاسمنه على باب البيت) [١].

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم ١/٢٤٢.

ومن عجيب ما ورد في عقل النمل وفطنته أنها إذا نقلت الحب إلى مساكنها كسرته لئلا ينبت فإن كان مما ينبت الفلقتان منه كسرته أربعا، فإذا أصابه ندا وبلل وخافت عليه الفساد أخرجته للشمس ثم ترده إلى بيوتها، ولهذا ترى في بعض الأحيان حبا كثيرا على أبواب مساكنها مكسرا ثم تعود عن قريب فلا ترى منه واحدة (١).

ومن ثم فليس الإنسان وحده المتميز بالعقل والفهم، بل يمكن القول إنه أقل من غيره عقلا وأردأ في حساباته العقلية، ويمكن بالتجربة لحيوان صغير أن يخدع الرجل الكبير، وروي من هذا القبيل الكثير والكثير في عالم الحيوان.

ذكر ابن القيم أن بعض العارفين شاهد منهن يوما عجبا، قال: رأيت نملة جاءت إلى شق جرادة فزاولته فلم تطق حمله من الأرض، فذهبت غير بعيد ثم جاءت معها بجماعة من النمل قال: فرفعت ذلك الشق من الأرض، فلما وصلت النملة برفقتها إلى مكانه دارت حوله ودرن معها فلم يجدن شيئا فرجعن، فوضعته، ثم جاءت فصادفته، فزاولته فلم تطق رفعه فذهبت غير بعيد ثم جاءت بهن، فرفعته، فدرن حول مكانه، فلم يجدن شيئا، فذهبن فوضعته فعادت فجاءت بهن، فرفعته فدرن حول المكان، فلما لم يجدن شيئا تحلقن حلقة وجعلن تلك النملة في وسطها، ثم تحاملن عليها فقطعنها عضوا عضوا حتى ماتت وأنا انظر (٢).

---

(١) السابق ٢٤٣/١ بتصرف.

(٢) السابق ٢٤٣/١ بتصرف.

وذكر أيضا في ذكاء الثعلب أن رجلا كان معه دجاجتان فاختبأ الثعلب له، وخطف إحداهما وفر، ثم أعمل فكره في أخذ الأخرى، فظهر لصاحبها من بعيد وفي فمه شيء شبيه بالدجاجة، وأطمع الرجل في استعادة الدجاجة بأن ترك ما في فمه وفر؛ فظن الرجل أنها الدجاجة، فأسرع نحوها وترك الأخرى، وخالفه الثعلب في خفية فأخذها وذهب [١].

إن من أعجب ما تنتبه له الأذهان التفكر في كيفية تقدير الطيور لعوامل الاتزان عند الطيران، أليست لديها تكنولوجيا أرقى وأعلى من عقول البشر؟ أتراها درست في معاهد الطيران؟ أم أنها تجهل قوانين الحركة التي عرف بها نيوتن؟

قال ابن القيم: (وكثير من العقلاء يتعلم من الحيوانات البهم أمورا تنفعه في معاشه وأخلاقه وصناعته وحربه وحزمه وصبره، وهداية الحيوان فوق هداية أكثر الناس) [٢].

• الكائنات ترفض الشرك وتأباه وأكثر العقلاء يشركون بالله.

ولا يمكن لمن يعلم أسس الحساب من العقلاء أن يرى ذاتين منفصلتين، أو ثلاث ذوات متباينة ذاتا واحدة؛ فكيف بمن يشرك بالله ويجعل الإله اثنين أو ثلاثة؟ إن صاحب العقل السليم لا يقبل الشرك ولا يرضاه؛ فمن المحال عند العقلاء أن يكون الخالق إلهين اثنين متعادلين في

---

(١) شفاء العليل لابن القيم ١/٧٤ نشر دار الفكر بيروت.

(٢) السابق ١/٧٤.

وصف القدرة؛ فإذا أراد أحدهما شيئا ولم يرده الآخر فلا بد عند التنازع من غالب وخاسر وسيعود الأمر إلى قوي قادر والآخر مربوب مقهور عاجز قال تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ المؤمنون:٩١. وقال: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ الأنبياء:٢٢ (١).

وقد ذكر الله ﷻ رأي من خالف الإنسان وأنكر عليه اتخاذ الولد للرحمن، وبين أن هذه المخلوقات يرفضن ذلك بشدة، فقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ ﴾ مريم:٨٨/٩٢.

وكلام السلف يدل على أن الخلائق لها إدراك وتسبيح بكيفية تناسبها، روى ابن جرير عن ابن عباس ﵄ قال: (إن الشرك فزعت منه السماوات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين وكادت أن تزول منه لعظمة الله، وكما لا ينفع مع الشرك إحسان المشرك كذلك نرجو أن يغفر الله ذنوب الموحدين) (٢).

ويروى عنه أيضا أنه قال: (اقشعرت الجبال وما فيها من الأشجار والبحار وما فيها من الحيتان، وفزعت السماوات والأرض والجبال

---

(١) انظر شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص٨٥.

(٢) تفسير الطبري ١٦/١٣٠، والدر المنثور للسيوطي ٥/٥٤٣.

وجميع المخلوقات إلا الثقلين وكادت أن تزول) [1].

ومما روي عن ابن مسعود ﷺ أنه قال: (إن الجبل يقول للجبل: يا فلان هل مر بك اليوم ذاكر لله ﷻ، فإن قال: نعم سر به، ثم قرأ: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ﴿٨٨﴾ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ﴿٩١﴾﴾ مريم:٨٨/٩١، قال: أفتراهن يسمعن الزور، ولا يسمعن الخير) [2].

وروي عن أنس بن مالك ﷺ قال: (ما من صباح ولا رواح إلا تنادي بقاع الأرض بعضها بعضا: يا جاره، هل مر بك اليوم عبد فصلى لله أو ذكر الله عليك؟ فمن قائلة: لا ومن قائلة: نعم، فإذا قالت: نعم، رأت لها بذلك فضلا عليها) [3].

ومن ثم نصل إلى أن الإنسان لم يتميز عمن حوله بالعقل والحكمة إذ يشتركون معه في ذلك على الأقل، وإن كانت الحقائق تؤكد أن كثيرا من الكائنات أفضل منطقا وعقلا وأحكم قولاً وفعلا في قياس النفع والضرر.

- **هل تميز الإنسان عن غيره من الكائنات بالاجتماعية؟**

الاجتماعية صفة الإنسان عند علماء الاجتماع؛ فيمكنه على رأيهم أن يقيم الأمم والحضارات ويضع المجالس والوزارات، وله دستور

---

(١) تفسير القرطبي ١٥٨/١١ نشر دار الشعب القاهرة.

(٢) الزهد لابن المبارك ص١١٣، تفسير القرطبي ٢٦٧/١٠، فتح القدير للشوكاني ٣٥٣/٣، شعب الإيمان للبيهقي ٤٠١/١، جواهر الحسان ٢١/٣.

(٣) تفسير الثعالبي ٢١/٣، تفسير القرطبي ٢٦٧/١٠.

ومؤسسات، وبقية المخلوقات همجية عشوائية لا تتصف بالاجتماعية ! ورأيهم هذا فيه نظر لأن الواقع يشهد بخلافه، فأبحاث علم الحيوان تؤكد أنها أممية حضارية، فالنحل مثلا يقيم دولة متكاملة في كل خلية، وله دستور ثابت ونظام محكم، لا يحتال عليه أحد بالتزوير والتبديل كما هو شأن الإنسان الذي يبحث عن ثغرة في القوانين ليجد مخرجا لأطماعه وطغيانه وجرمه وعصيانه والقانون عاجز عن ضبطه وردعه ووقفه ومنعه، هذا شأن البشر مع بعضهم ولا نجده في أغلب الكائنات الأخرى قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ النحل:٦٨/٦٩.

وقد ذكر ابن القيم من عجائب القدرة أن الله ﷻ جعل بعض الدواب كسوبا محتالا، وبعضها متوكلا غير محتال، وبعض الحشرات يدخر لنفسه قوت سنته، وبعضها يتكل على الثقة بأن له في كل يوم قدر كفايته رزقا مضمونا وأمر مقطوعا، وبعضها يدخر وبعضها لا تكسب له وبعض الذكورة يعول ولده، وبعضها لا يعرف ولده البتة، وبعض الإناث تكفل ولدها لا تفارقه، وبعضها تضع ولدها وتكفل ولد غيرها، وبعضها لا تعرف ولدها إذا استغني عنها، وبعضها لا تزال تعرفه وتعطف عليه.

وجعل الله يتم بعض الحيوانات من قبل أمهاتها، وبعضها يتمها من قل آبائها، وبعضها لا يلتمس الولد، وبعضها يستفرغ الهم في

طلبه، وبعضها يعرف الإحسان ويشكر، وبعضها ليس ذلك عنده شيئا، وبعضها يؤثر غيره على نفسه، وبعضها إذا ظفر بما يكفي أمة من جنسه، لم يدع أحدا يدنو منه، وبعضها يحب الجماع ويكثر منه وبعضها لا يفعله في السنة مرة، وبعضها يقتصر على أنثاه، وبعضها يفعل بأي أنثي ولو كانت أمه أو أخته، وبعضها لا تمكن غير زوجها من نفسها، وبعضها لا ترد يد لامس، وبعضها يألف بني آدم ويأنس بهم وبعضها يستوحش منهم وينفر غاية النفار وبعضها لا يأكل إلا الطيب وبعضها لا يأكل إلا الخبائث، وبعضها يجمع بين الأمرين، وبعضها لا يؤذي إلا من بالغ في أذاها، وبعضها يؤذي من لا يؤذيها، وبعضها حقود لا ينسي الإساءة، وبعضها لا يذكرها البتة.

وبعضها لا يغضب، وبعضها يشتد غضبه فلا يزال يُسْترضي حتى يرضي، وبعضها عنده علم ومعرفة بأمور دقيقة لا يهتدي إليها أكثر الناس وبعضها لا معرفة له بشيء من ذلك البتة، وبعضها يستقبح القبيح وينفر منه، وبعضها الحَسَنُ والقبيح سواء عنده، وبعضها يقبل التعليم بسرعة وبعضها لا يقبله إلا بصعوبة وبعضها لا يقبل ذلك بحال، وهذا كله من أدلة الدلائل على الخالق لها سبحانه وعلي إتقان صنعه وعجيب تدبيره ولطيف حكمته، فإن فيما أودعه في هذه المخلوقات من غرائب المعارف وغوامض الحيل، وحسن التدبير والتأني لما تريده ما يستنطق الأفواه بالتسبيح، ويملأ القلوب من معرفته ومعرفة حكمته وقدرته، وما يعلم به كل عاقل أنه لم يخلق الخلق عبثا ولم يتركه سدي، وإن له سبحانه في كل مخلوق حكمة

باهرة وآية ظاهرة وبرهانا قاطعا يدل على أنه رب كل شيء ومليكه، وأنه المنفرد بكل كمال دون خلقه وأنه على كل شيء قدير وبكل شيء عليم [1].

• **الكائنات في اجتماعيتها تفوق البشرية في اجتماعيتها.**

إن المخلوقات لهن قانون حازم ينفذن أمره بشكل صارم، ولا مكان للمخالف منهن بل ربما مصيره عندهن الموت، نرى ذلك باديا واضحا وظاهرا جليا في مجتمعات النمل والحيتان والطير والحيوان، وفي كثير من الأحيان يتشابه سلوكهن مع الإنسان، ودليل ذلك في القرآن ظاهر بيّن، قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ۝٣٨﴾ الأنعام:٣٨.

ملك النحل لا يكثر الخروج من الخلية إلا نادرا، فإذا اشتهى التنزه خرج ومعه أمراء النحل والخدم، فيطوف في المروج والرياض والبساتين ساعة من النهار ثم يعود إلى مكانه ومن عجيب أمره أنه ربما لحقه أذي من النحل أو من صاحب الخلية أو من خدمه فيغضب ويخرج من الخلية ويتباعد عنها، ويتبعه جميع النحل يسترضيه وتبقي الخلية خالية، فإذا رأى صاحبها ذلك وخاف أن الملك يأخذ النحل ويذهب بها إلى مكان آخر، احتال لاسترجاعه وطلب رضاه، فيتعرف موضعه الذي صار إليه النحل، ويعرفه باجتماع النحل إليه فإنها لا تفارقه وتجتمع عليه حتى تصير عليه عنقودا، وهو إذا خرج غاضبا وقف على مكان مرتفع من

---

(١) شفاء العليل لابن قيم الجوزية ص٧٧، ص٧٨ بتصرف.

الشجرة، وطافت به النحل وانضمت إليه حتى يصير كالكرة، فيأخذ صاحب النحل رمحا أو عودا طويلا ويربط على رأسه حزمة من النبات الطيب الرائحة العطر النظيف، ويدنيه إلى محل الملك إلى أن يرضي، فإذا رضي وزال غضبه، نزل الملك على النبات الطيب الرائحة وتبعه خدمه وسائر النحل، فيحمله صاحبه إلى الخلية فينزل ويدخلها هو وجنوده[١].

روى البخاري من حديث عمرو بن ميمون الأودي [٢] أنه قال: (رَأَيْتُ فِي الجَاهِلِيَّةِ قِرْدَةً اجْتَمَعَ عَليْهَا قِرَدَةٌ قَدْ زَنَتْ فَرَجَمُوهَا فَرَجَمْتُهَا مَعَهُمْ) [٣]، فالقرود وإن كانوا غير مكلفين بشرعنا إلا أنهم يستقبحون الزنا مثلنا. وقد ذكر ابن حجر تفصيل القصة في الفتح من طريق عيسى بن حطان قال: (دخلت مسجد الكوفة فإذا عمرو بن ميمون الأودي جالس وعنده ناس، فقال له رجل: حدثنا بأعجب شيء رأيته في الجاهلية؟ قال: كنت في حرث لأهل اليمن فرأيت قرودا كثيرة قد اجتمعن، وفي رواية أخرى قال: (رأيت الرجم في غير بني آدم، إن أهلي أرسلوني في نخل لهم أحفظها من القرود، فبينا أنا يوما في البستان إذ جاء

---

(١) السابق ص٦٧ بتصرف.

(٢) عمرو بن ميمون الأودي كوفي تابعي ثقة مخضرم أدرك الجاهلية وأسلم في حياة النبي ﷺ لكنه لم يره، كان أصحاب النبي ﷺ يرضون به، سمع معاذ بن جبل باليمن وبالشام وعبد الله ابن مسعود وعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنهم مات سنة أربع وسبعين أو خمس وسبعين، انظر ترجمته في التاريخ الكبير للبخاري ٣٦٧/٦ (٢٦٥٩)، ورجال صحيح مسلم لأبي بكر الأصبهاني (١٢٠٢) ٧٩/٢، وتهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني رقم ٩٦/٨ (١٨١).

(٣) البخاري في فضائل الصحابة، باب أيام الجاهلية ١٣٩٧/٣ (٣٦٣٦).

القرود فصعدت نخلة، قال: فرأيت قردا وقردة اضطجعا، ثم أدخلت القردة يدها تحت عنق القرد واعتنقتها ثم ناما، فجاء قرد فغمزها من تحت رأسها فاستلت يدها من تحت رأس القرد، ثم انطلقت معه غير بعيد، فنكحها وأنا أنظر، ثم رجعت إلى مضجعها فذهبت تدخل يدها تحت عنق القرد كما كانت، فانتبه القرد فقام إليها فشم دبرها، وفي رواية: فصاح صيحة، فاجتمعت القردة، فجعل يسير إليها، فتفرقت القردة، فلم ألبث أن جيء بذلك القرد بعينه أعرفه، وفي رواية: فقام واحد منهم كهيئة الخطيب، فوجهوا في طلب القرد، فجاءوا به بعينه وأنا أعرفه فانطلقوا بها وبالقرد إلى موضع كثير الرمل، فحفروا لهما حفيرة، فجعلهوهما فيها، ثم رجموهما حتى قتلوهما، والله لقد رأيت الرجم قبل أن يبعث الله محمدا ﷺ)[(١)].

• هل تميز الإنسان عن غيره من الكائنات بالعبودية؟

علمنا أن الإنسان لا يتميز عن غيره من المخلوقات بالنطق والكلام فجميع الكائنات تتكلم بهيئات وكيفيات تخصها، ولا يتميز أيضا بالعقل والحكمة لأن المخلوقات حريصة على تحصيل الخيرات والبعد عن المهلكات، كما أنها تعيش في مجموعات متوافقات متفاهمات، وهذا يعني أنه لا ينفرد بصفة الاجتماعية، والسؤال الآن: هل تميز الإنسان بالعبودية؟

---

(١) فتح الباري لابن حجر العسقلاني ١٦٠/٧ طبعة دار المعرفة بيروت، وتهذيب الكمال لأبي الحجاج المزي، تحقيق بشار عواد معروف رقم (٤٤٥٨) ٢٦٥/٢٢ طبعة مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠٠هـ.

قبل إقامة البرهان على أن الإنسان لم يتميز عن غيره بالعبودية لا بد من معرفة معنى العبادة؛ فالعبادة هي الخضوع التام المقترن بالإرادة وتعظيم المحبوب؛ فإن كان الخضوع والطاعة بغير إرادة فلا تسمي عبادة. قال ابن القيم: (والعبادة تجمع أصلين: غاية الحب بغاية الذل والخضوع، والعرب تقول: طريق معبد أي مذلل، والتعبد التذلل والخضوع فمن أحببته ولم تكن خاضعا له لم تكن عابدا له، ومن خضعت له بلا محبة لم تكن عابدا له حتى تكون محبا خاضعا) [(١)].

ولا شك أننا نرى في سائر المخلوقات كمال الخضوع والانضباط كما نرى دقتها في تنفيذ التوجيهات التي حددها الله لها، ولا يمكن أن تكون المخلوقات على هذه الكفاءة في حياتها بغير محبتها وإرادتها؛ فإنها تقوم بواجبها بصورة تفوق إخلاص الإنسان، ومعلوم أن المكره على الشيء لا يفعله بإتقان، وليس معنى تسخير الكائنات للإنسان الجبر المطلق في حقها كما يتصور البعض، وإنما حالها حال من توافقت إرادته الشخصية مع الإرادة الكونية من جهة التقدير الإلهي ثم مع الإرادة الدينية التكليفية المبنية على المحبة والخضوع من جهة أخرى كمن ورد وصفهم في الحديث القدسي الذي رواه البخاري من حديث أبي هريرة ﵁ مرفوعا إلى النبي ﷺ: (وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الذي يَسْمَعُ بِهِ) [(٢)].

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم ١/٧٤، وانظر أيضا الجواب الكافي ١/٩٤، وانظر مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٠/١٥٧.

(٢) البخاري في الرقاق، باب التواضع ٥/٢٣٨٤ (٦١٣٧).

ودليلنا على ذلك نصوص كثيرة ظاهرة في وصفها بالسجود للمعبود، واستئذان بعضها فيه كل يوم، فإذا كان السجود في شأن الإنسان يجعل العابد في أعلى درجات المحبين المقربين كما ثبت في صحيح مسلم من حديث أَبِي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (أَقْرَبُ مَا يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ) [١]. فإن السجود أيضا كائن في بقية المخلوقات؛ إذ نصت الآيات على هذا اللفظ الذي يدل على كمال طاعتها، وامتثالها لتوجيه خالقها، وانضباطها في تنفيذ منهجها، وإن كنا لا نعلم كيفية أدائها لذلك.

روى البخاري من حديث أبي ذر ﷺ أنه قال: (دَخَلتُ المَسْجِدَ وَرَسُول اللّهِ ﷺ جَالسٌ، فَلمَّا غَرَبَتِ الشَّمْسُ قَال: يَا أَبَا ذرٍّ هَل تَدْرِى أَيْنَ تَذهَبُ هَذِهِ؟ قَال: قُلتُ اللّهُ وَرَسُولهُ أَعْلمُ، قَال: فَإِنَّهَا تَذهَبُ تَسْتَأْذِنُ فِي السُّجُودِ فَيُؤْذنُ لها، وَكَأَنَّهَا قَدْ قِيل لهَا ارْجِعِي مِنْ حَيْث جِئْتِ، فَتَطْلعُ مِنْ مَغْرِبِهَا) [٢].

وقد كلف الله النحل بمنهج محدد يسلكه في أسباب عيشه وحياته ليحقق علة غائية يستفيد منها الإنسان فقال: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾ النحل:٦٨.

• **الكائنات في سجودها أكمل من بني آدم في سجودهم.**

إن المقارنة بين الإنسان وغيره من المخلوقات في السجود وأداء

---

(١) مسلم في الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود ١/٣٥٠ (٤٨٢).

(٢) البخاري في التوحيد، باب وكان عرشه على الماء ٦/٢٧٠٠(٦٩٨٨).

الطاعة، تُظهر تفوقها عليه في تلك الصفات، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۩ (١٨)﴾ الحج: ١٨.

ومن الملاحظ أن الله ذكر سجودهن جميعا بالعموم فكلهن ساجدات بلا استثناء، ولا تتخلف واحدة منهن عن السجود، ولما ذكر سجود الإنسان عبر النص القرآن بالخصوص فالبعض يسجد والبعض لا يسجد مطلقا. قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ (٦٠) تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا (٦١)﴾ الفرقان: ٦٠/٦١.

قال الإمام الشوكاني في سجود المخلوقات وتسبيحها لله ﷻ: (التسبيح على حقيقته والعموم على ظاهره، والمراد أن كل المخلوقات تسبح لله سبحانه، هذا التسبيح الذي معناه التنزيه، وإن كان البشر لا يسمعون ذلك ولا يفهمونه، ويؤيد هذا قوله سبحانه: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤)﴾ الإسراء: ٤٤، فإنه لو كان المراد تسبيح الدلالة لكان أمرا مفهوما لكل أحد.. ومدافعه عموم هذه الآية بمجرد الاستبعادات ليس دأب من يؤمن بالله سبحانه ويؤمن بما جاء من عنده) [١].

وقال ابن تيمية: (وأما تفسير سجودها وتسبيحها بنفوذ مشيئة الرب

---

(١) فتح القدير للشوكاني ٣/٢٣٠، ٣/٢٣١.

وقدرته فيهما ودلالتها على الصانع فقط فالاقتصار على هذا باطل، فإن هذا وصف لازم دائم لها، لا يكون في وقت دون وقت، وهو مثل كونها مخلوقة محتاجة فقيرة إلى الله تعالى) [(١)].

وقد أخبرنا الله عن الهدهد بصغر حجمه أنه أنكر على قوم سبأ في عصر سليمان عليه السلام أنهم أشركوا بالله واتبعوا الشيطان، ولو أراد الإنسان أن يعبر عن العصيان الذي وقع فيه هؤلاء الناس ما استطاع أن يبدي نفس الإحساس الذي أبداه هذا الهدهد الموحد. قال تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾ النمل: ٢٢/٢٦.

وعند البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: (سمِعْتُ رَسُول الله ﷺ يقول: قَرَصَتْ نَمْلَةٌ نَبِيًّا مِنَ الأنْبِياءِ، فَأَمرَ بِقَرْيَةِ النَّمل فَأُحْرِقَتْ، فَأَوْحى الله إِلَيْهِ أَنْ قَرَصَتْكَ نَمْلَةٌ أَحْرَقْتَ أُمَّةً مِنَ الأُمَمِ تُسبِّحُ) [(٢)].

---

(١) قنوت الأشياء كلها لله تعالى رسالة ضمن جامع الرسائل ص٤٣ نشر الإدارة العامة للطبع والترجمة الرياض، وانظر معاني القرآن الكريم للنحاس ٤/١٥٩، والدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي ٥/٢٨٩، وتفسير القرآن للصنعاني ٢/٣٧٩ نشر مكتبة الرشد الرياض، وزاد المسير لابن الجوزي ٥/٣٨.

(٢) البخاري في الجهاد، باب إذا حرق المشرك المسلم ٣/١٠٩٩ (٢٨٥٦)، ومسلم في السلام، باب النهي عن قتل النمل ٤/١٧٥٩ (٢٢٤١)، وانظر فتح الباري ٦/٣٥٩.

وعنده أيضا من حديث ابن مسعود ﷺ قال: (كُنَّا نَعُدُّ الآيَاتِ بَرَكَةً وَأَنْتُمْ تَعُدُّونَهَا تَخْوِيفا، كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي سَفَرٍ فَقَلَ المَاءُ فَقَالَ: اطْلُبُوا فَضْلَةً مِنْ مَاءٍ فَجَاءُوا بِإِنَاءٍ فِيهِ مَاءٌ قَلِيل، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِي الإِنَاءِ ثُمَّ قَال: حَيَّ على الطَّهُورِ المُبَارَكِ وَالبَرَكَةُ مِنَ اللهِ، فَلَقَدْ رَأَيْتُ المَاءَ يَنْبُعُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَقَدْ كُنَّا نَسْمَعُ تَسْبِيحَ الطَّعَامِ وَهُوَ يُؤْكَل)[1].

صحيح أنه ورد في القرآن أن الله ﷻ خلق الإنسان للعبادة فقال ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ الذاريات:٥٦، لكنها ليست وصفه الذي يميزه عن غيره؛ لأن الخضوع والمحبة والتعظيم عام في جميع الخلائق، هذا فضلا عن التصريح في شأنها بالتسبيح كما جاء في قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ۝٤٤﴾ الإسراء:٤٤. وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ۝٤١﴾ النور:٤١، ووردت في ذلك آيات أخرى كثيرة.

- **هل تميز الإنسان عن غيره من الكائنات بالحرية والمسئولية؟**

لم يبق إلا القول بأن الإنسان تميز عن غيره بالحرية والمسئولية وهذا الوصف ليس للكائنات الأخرى على الأرض؟! وهذا أيضا فيه نظر لأن أكثر الكائنات تتصف به، فمن جهة الحرية ما الذي يمنع الطير والحيوان أن يبحث عن طعامه وشرابه حيث شاء كالإنسان سواء بسواء، بل

---

(١) البخاري في المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام ٣/١٣١٢ (٣٣٨٦).

الإنسان في أغلب الأحيان يحد من حريتها ويمنعها طلاقة حركتها ويسلبها حقها الذي منحه الله إياها، روى مسلم من حديث جابر بن عبد الله ﵁ أن رسول الله ﷺ: (عُرِضَتْ عَليَّ النَّارُ فَرَأَيْتُ فِيهَا امْرَأَةً مِنْ بني إِسْرَائِيل تُعَذبُ فِي هِرَّةٍ لهَا؛ رَبَطَتْهَا فَلمْ تُطْعِمْهَا، وَلَمْ تَدعْهَا تَأْكُل مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ)[١].

وقد أوحى الله ﷻ إلى النحل أن تبحث عن رزقها حيث تشاء وتأكل من الثمرات ما تشاء فقال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ النحل:٦٨/٦٩.

أما من جهة المسئولية فقد ثبت أن الخلق يقتص بعضهم من بعض تحقيقا للعدل وأن الله يأخذ للمظلوم الحق ممن ظلمه، ففي صحيح مسلم من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ أَنَّ رَسُول اللهِ ﷺ قَال: (لتُؤَدُّنَّ الحُقُوق إلى أَهْلهَا يَوْمَ القِيَامَةِ حتى يُقادَ للشَّاةِ الجَلحَاءِ مِنَ الشَّاةِ القَرْنَاءِ)[٢].

وفي رواية أحمد: (يَقْتَصُّ الخَلقُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ حتى الجَمَّاءُ مِنَ القَرْنَاءِ وَحتَّى الذرَّةُ مِنَ الذرَّةِ)[٣].

---

(١) مسلم في الكسوف، باب ما عرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار ٦٢٢/٢(٩٠٤)، والخشاش هوام الأرض وحشراتها.

(٢) مسلم في البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم ١٩٩٧/٤ (٢٥٨٢) والقود القصاص، والجلحاء أو الجماء التي لا قرون لها عكس القرناء.

(٣) أحمد في المسند ٣٦٣/٢ (٨٧٤١)، وانظر السلسلة الصحيحة (١٥٨٨).

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ٤٠﴾ النبأ:٤٠. قال ابن كثير: (قيل إنما يود ذلك حين يحكم الله بين الحيوانات التي كانت في الدنيا فيفصل بينها بحكمه العدل الذي لا يجور حتى إنه ليقتص للشاة الجماء من القرناء فإذا فرغ من الحكم بينها قال لها كوني ترابا فتصير ترابا، فعند ذلك يقول الكافر يا ليتني كنت ترابا أي كنت حيوانا فأرجع إلى التراب) [(١)].

كما أخبرنا الله عن الجن والشياطين كمخلوقات غيبية حية تعيش مع الإنسان وتشاركه وصف الحرية والمسئولية، تراه ولا يراها، قال تعالى في وصف حالهم: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧﴾ الأعراف:٢٧.

وهم أيضا مكلفون بشرعنا ولهم مقومات التكليف التي وهبها الله لنا، وقال تعالى في إثبات الحرية لهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدٗا ١١﴾ الجن:١١. وقال أيضا في محاسبتهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ وَمِنَّا ٱلۡقَٰسِطُونَۖ فَمَنۡ أَسۡلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوۡاْ رَشَدٗا ١٤ وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا ١٥﴾ الجن:١٤/١٥.

وورد في الصحيحين من حديث عبد الله بن عباس ﷺ أنه قال: (انْطَلَقَ النَّبِيُّ ﷺ فِي طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ عَامِدِينَ إلى سُوقِ عُكَاظٍ وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمُ الشُّهُبُ، فَرَجَعَتِ

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/٤٦٧، وانظر زاد المسير لابن الجوزي ٣٦/٣.

الشَّيَاطِينُ إلى قَوْمِهِمْ، فَقَالوا: مَا لَكُمْ فَقَالوا: حِيل بَيْننا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، وأُرْسِلت عَلَيْنَا الشُّهُبُ قَالوا: مَا حَال بَيْنَكُمْ وبين خَبَرِ السَّمَاءِ إلا شَيْءٌ حَدَث فَاضْرِبُوا مَشَارِقَ الأَرْضِ ومَغَارِبَهَا، فَانْظُرُوا مَا هَذا الَذي حَال بَيْنَكُمْ وبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ؟ فَانْصَرَفَ أُولئِكَ الذينَ تَوَجَّهُوا نَحْوَ تِهَامَةَ إلى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ بِنَخْلَةَ عَامِدِينَ إلى سُوق عُكَاظٍ وَهُوَ يُصلي بِأَصْحَابِهِ صَلاةَ الفَجْرِ، فَلَمَّا سَمِعُوا القُرْآنَ اسْتَمَعُوا لَهُ فَقَالوا: هَذا وَاللهِ الذي حَال بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ فَهُنَالكَ حِينَ رَجَعُوا إلى قَوْمِهِمْ، وَقَالوا: يَا قَوْمَنَا إنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهدِي إلى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا، فَأَنْزَلَ اللهُ على نَبِيِّهِ ﷺ: قُل أُوحِيَ إلَى أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ منَ الجِنِّ.. الآيات)[1].

وقد جعل الله ﷻ الجن والإنس في الخطاب والحساب والتكليف سواء، وجعلهم بين دار ابتلاء وأخرى جزاء فقال: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ١٣٠﴾ الأنعام: ١٣٠. وعند مسلم عن أَبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (إنَّ بِالْمَدِينَةِ نَفَرًا مِنَ الجِنِّ قَدْ أَسْلَمُوا، فَمَنْ رَأَي شَيْئًا مِنْ هَذهِ العَوَامِرِ فَليُؤْذِنْهُ ثَلاثا؛ فَإِنْ بَدَا لَهُ بَعْدُ فَليَقْتُلهُ؛ فَإِنَّهُ شَيْطَانٌ)[2].

وتلك النصوص وغيرها تدل على أن الإنسان لا يتميز عن غيره

---

(١) البخاري في صفة الصلاة، باب الجهر بالقراءة صلاة الفجر ٢٦٧/١ (٧٣٩)، ومسلم في الصلاة، باب الجهر بالقراءة في الصبح ٣٣١/١ (٤٤٩).

(٢) مسلم في السلام، باب قتل الحيات وغيرها ١٧٥٧/٤ (٢٢٣٦).

بالحرية والمساءلة عن أفعاله [١].

• حقيقة الوصف الذي يميز الإنسان عن غيره من الكائنات.

صرح القرآن الكريم بأن الوصف الذي يتميز به الإنسان عمن حوله من الكائنات هو استخلافه في أرض كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ البقرة:٣٠.

وقد بينت النصوص بجلاء ووضوح أن الله ﷻ استخلف الإنسان في الأرض وخوله فيها وابتلاه بها واستأمنه عليها لوقت محدود وإلى يوم موعود لا يعلمه إلا هو. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ الأنعام:٩٤.

وقال: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾ الحديد:٧ . وقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾ الإنسان:٢ . وفي صحيح مسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (إِنَّ الدُّنْيا حُلوَةٌ خَضِرَةٌ وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلونَ) [٢].

---

(١) انظر في التعرف على ما قدمه المفكرون من أوصاف يتميز الإنسان ونقد ذلك لمخالفته صريح القرآن، القضاء والقدر في الإسلام، تأليف دكتور فاروق الدسوقي ١/١٠٩:١١١، ط دار الدعوة الإسكندرية سنة١٩٨٢م.

(٢) مسلم في الذكر والتوبة والاستغفار، باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء ٤/٢٠٩٨ (٢٧٤٢).

المطلب الثامن والعشرون

الأمانة العظمى
وخلافة الإنسان في الأرض

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فقد تحدثنا في المطلب السابق عن آراء المفكرين حول الوصف الذي يتميز به الإنسان عمن حوله من الكائنات، وعلمنا أنه لم يتميز عنها بالنطق والكلام، وأن مسألة الكلام في الكائنات ونطقها أو عدم نطقها مسألة نسبية من جهة العموم والخصوص.

وعلمنا أيضا أن الإنسان لم يتميز عن غيره بالعقل والحكمة، فالكائنات لديها إدراك ووعي تميز به بين ما ينفعها وما يضرها، وهي أيضا ترفض الشرك وتأباه في حين أن أكثر العقلاء يشركون بالله، كما أن الإنسان لم يتميز عن غيره من الكائنات بصفة الاجتماعية، وأن الكائنات في اجتماعيتها تفوق البشرية في اجتماعيتها.

وكذلك لم يتميز عن غيره من الكائنات بالعبودية، وأن الكائنات في سجودها أكمل من بني آدم في سجودهم، ولم يتميز الإنسان عن غيره من الكائنات بالحرية والمسئولية، وعلمنا بصورة إجمالية حقيقة الوصف الذي يميز الإنسان عن غيره من الكائنات، وأن ذلك الوصف هو ما

وردت به النصوص القرآنية والنبوية.

وفي هذا المطلب بإذن الله نتناول الحديث عن الأمانة العظمى وخلافة الإنسان في الأرض كحكمة عليا لتفسير العلاقة بين الله والإنسان من جهة، وتفسير وجود العالم على هذا النحو البديع في تركيبه وعلاقته بخالقه من جهة أخرى.

- **المقصود بخلافة الإنسان للأرض لغة واصطلاحا.**

الخلافة في اللغة تعنى النيابة عن الغير، ولا بد فيها من استخلاف المستخلِف بكسر اللام للمستخلَف بفتحها، وإذنه له بها، ولا تصح في اللغة بغير هذا البتة [(١)].

قال الراغب الأصفهاني: (الخلافة النيابة عن الغير، إما لغيبة المنوب عنه، وإما لموته، وإما لعجزه، وإما لتشريف المستخلف، وعلى هذا الوجه الأخير استخلف الله أولياءه في الأرض) [(٢)].

وقال ابن حزم: (ومعنى الخليفة في اللغة هو الذي يستخلفه، لا الذي يَخْلُفه دون أن يستخلفَه هو، لا يجوز غير هذا البتة في اللغة بلا خلاف، تقول: استخْلَفَ فلانٌ فلانا يستخلفُه فهو خليفَتُه ومستخلفُه، فإن قام مكانه دون أن يستخْلفُه هو، لم يُقَل إلا خلف فلان فلانا يخلفه فهو خالف) [(٣)].

---

(١) الفصل في الملل والنحل لابن حزم ٤/٨٨ بتصرف.

(٢) المفردات في غريب القرآن ص١٥٦، وانظر أيضا التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي ١/٣٢٢، نشر دار الفكر المعاصر، بيروت.

(٣) الفصل في الملل والنحل ٤/٨٨، ومنهاج السنة النبوية لابن تيمية ١/٤٩٤.

وقال الفخر الرازي: (إنما سماه الله خليفة لأنه يخلف الله في الحكم بين المكلفين من خلقه، وهو المروي عن ابن مسعود وابن عباس والسدي، وهذا الرأي متأكد بقوله: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ﴾ ص:٢٦. أما الذين قالوا المراد ولد آدم فقالوا: إنما سماهم خليفة لأنهم يخلف بعضهم بعضا، وهو قول الحسن، ويؤكده قوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ ﴾ الأنعام:١٦٥. والخليفة اسم يصلح للواحد والجمع، كما يصلح للذكر والأنثى)[1].

• هل يصح القول بأن الإنسان خليفة عن الله في أرضه ؟

لكن هل يصح القول بأن الإنسان خليفة عن الله ﷻ في أرضه، سواء كان مؤمنا أو كافرا؟ والجواب أنه لا يصح ذلك إلا على التقييد؛ لأن الاستخلاف عند التجرد عن الإضافة من المعاني المنقسمة؛ فقد يكون كمالا في حال ونقصا في حال، وموقف المسلم هنا ألا يثبت الوصف لله ﷻ إثباتا مطلقا، ولا ينفيه عنه نفيا مطلقا، إذ لا بد من البيان والتفصيل، والتقيد بما ورد في التنزيل.

وشأن استخلاف الله ﷻ للإنسان في الأرض شأن صفات الأفعال المقيدة كوصف الله ﷻ بالمكر والخداع والنسيان، والاستهزاء والكيد والسخرية والخذلان؛ فالمكر عند التجرد عن الإضافة يكون كمالا في موضع ونقصا في آخر؛ فلا يصح إطلاقه في حق الله ﷻ دون تخصيص كقول القائل: المكر صفة الله ﷻ فهذا باطل؛ لأن الإطلاق فيه

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ١٥٢/٢.

احتمال اتصافه بالنقص أو الكمال. لكن يصح قول القائل: مَكْرُ الله ﷻ يكون مقيدا بالابتلاء أو المعاقبة والجزاء، فهو مكر لا يحتمل إلا الكمال، ومن ثم وصف الله ﷻ نفسه به فقال: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ الأنفال: ٣٠. وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾ يونس: ٢١.

وهكذا القول في سائر أفعال الله ﷻ التي تدخل تحت تلك النوعية من الأوصاف، وذلك أيضا ما يقال في معنى الاستخلاف، لا يقال فيه: إن الإنسان خليفة لله ﷻ على الإطلاق، ولكن يقال: هو خليفة لله على معنى الابتلاء، والتقييد بهذا المعنى فيه الكمال والجمال، ويشهد لحكمة الله ﷻ بالعظمة والجلال كما سيأتي بيانه.

ومعلوم أن الله ﷻ لا يتصف إلا بالكمال المطلق الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه، كالحياة والعلم والقدرة، والسمع والبصر والرحمة، والعزة والحكمة والعظمة، وغير ذلك من أوصاف الكمال. أما ضد ذلك من أوصاف النقص، كالموت والعجز والظلم، والغفلة والسنة والنوم، فقد تنزه ربنا ﷻ عن ذلك وسبحه الموحدون، وقال المؤمنون في وصفه كما قال المرسلون:

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ الصافات: ١٨٠/ ١٨٢.

أما عند انقسام المعنى وتطرق الاحتمال، فلا بد من البيان والتفصيل والتقيد بما ورد في التنزيل .

• **استخلاف الإنسان في القرآن له عند التحقيق معنيان.**

ومن ثم فإن استخلاف الإنسان بالمعنى الذي ورد في القرآن له، عند التحقيق معنيان:

المعنى الأول: استخلاف عن نقص الأوصاف بحكم طبيعة الإنسان، ويكون عند عجز المستخلف عن القيام بملكه، أو تدبير أمره، إما لغيابه أو قلة علمه، وإما لمرضه أو موته، كاستخلاف القائد نائبا على جنده أو قومه، كما ورد ذلك في قوله ﷻ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ١٤٢﴾ الأعراف:١٤٢.

وكما ورد عند البخاري من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه قال: (خَرَجَ رَسُول اللهِ ﷺ إلى تَبُوكَ وَاسْتَخْلفَ عليًّا، فَقَال: أَتخَلفنِي فِي الصِّبْيَان وَالنِّسَاءِ؟ قَال: أَلا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلا أَنَّهُ ليْسَ نَبِيٌّ بَعْدِي؟)[1].

ومن ذلك أيضا استخلاف ولي الأمر نائبا عنه قبل موته، كما ورد عند البخاري من حديث ابن عمر رضي الله عنه أنه قال: (حَضَرْتُ أَبِي حِينَ أُصِيبَ فَأَثنَوْا عَليْهِ وَقَالوا: جَزَاكَ اللهُ خَيْرًا، فَقَال: رَاغِبٌ وَرَاهِبٌ، قَالوا: اسْتَخْلفْ، فَقَال: أَتَحَمَّل أَمْرَكُمْ حَيّا وَمَيِّتًا لوَدِدْتُ أَنَّ حَظِّي مِنْهَا الكَفَافُ لا عَليَّ وَلا لي، فَإِنْ أَسْتخلف فَقَدِ اسْتَخْلفَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي وَإِنْ أَتْرُكْكُمْ فَقَدْ تَرَكَكُمْ مَنْ هوَ خَيْرٌ مِنِّي، رَسُول اللهِ ﷺ، قَال عَبْدُ

---

(١) البخاري في المغازي، باب غزوة تبوك ٤/١٦٠٢ (٤١٥٤)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل على بن أبى طالب رضي الله عنه ٤/١٨٧٠ (٢٤٠٤).

اللهِ: فَعرَفْتُ أَنَّهُ حِينَ ذَكَرَ رَسُول اللهِ ﷺ غَيْرُ مُسْتَخْلفٍ)[١].

المعنى الثاني: استخلاف عن كمال الأوصاف، وذلك إذا كان لتشريف الإنسان وإكرامه، أو اختباره وامتحانه، وليس لعجز المستخلف عن القيام بشؤونه، كالطبيب الصغير في سنة الامتياز عندما يفحص مريضا تحت إشراف الأستاذ، يراه ويراقبه اختبارا له وامتحانا، فإن اجتاز الاختبار فقد فاز ونال شرف المهنة بحصوله على شهادة عظيمة، وإن لم يقم بالواجب على الوجه المطلوب استحق العقوبة والرسوب حتى يتمكن من النجاح عند الإعادة، وإن تكرر منه الفشل والنسيان استحق المنع والحرمان من أي شرف أو فضل.

ولله المثل الأعلى ـ ويجوز في حق الله قياس الأولى ـ يصح القول: إن الإنسان خليفة عن الله ﷻ في الأرض على وجه الابتلاء والامتحان، لأن هذا الوجه كله كمال لا عجز فيه ولا نقصان.

ومن ثم فإن الله ﷻ لما قال لملائكته مبتليا لهم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ البقرة:٣٠. فإن خلافة الإنسان في الأرض تحقق فيها معنيان جامعان: الأول أن يخلف بعضهم بعضا على وجه النقص والقصور في حياة الإنسان. والثاني أنه خليفة لله في الأرض على وجه الابتلاء والامتحان. وبهذا يزول الإشكال ويتآلف الرأيان، رأي من يرى أن الإنسان خليفة ينوب عن الله ﷻ في تنفيذ الأحكام والعمل بشريعة الإسلام، وهذا قول ابن مسعود رضي الله عنه وبعض المفسرين، ورأي من يرى أن الخلافة هي خلافة قرن لقرن، يخلف بعضهم بعضا، وهذا قول ابن

(١) البخاري في الأحكام، باب الاستخلاف ٦/٢٦٣٨ (٦٧٩٢).

عباس ﷺ وطائفة أخرى من المفسرين.

وعليه فإن قول الله تعالى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ﴾ الحديد:٧، يعني مستخلفين عمن سبق على وجه النقص وتعاقب الأجيال، ومستخلفين في أرض الله ﷻ على وجه الكمال.

قال ابن الجوزي: (وفي معنى خلافة آدم قولان: أحدهما: أنه خليفة عن الله تعالى في إقامة شرعه، ودلائل توحيده، والحكم في خلقه، وهذا قول ابن مسعود ومجاهد، والثاني: أنه خلف من سلف في الأرض قبله، وهذا قول ابن عباس والحسن) [١].

وهكذا ابتلى الله ﷻ سائر الناس في الحياة، واستخلف الإنسان واسترعاه فقال سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥۖ﴾ فاطر:٣٩. وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾ الأنعام:١٦٥. كل هذه الآيات وغيرها تدل على المعنيين معا: أن الإنسان خليفة لمن سبق من الذرية عن نقص في الأوصاف البشرية، وخليفة لله على وجه الكمال، استخلفه رب العزة والجلال لإظهار المعاني الشرعية، غير أنه لا حول له ولا قوة في معاني الربوبية، فالله ﷻ من فوق العرش معه يتابعه، ويراه ويسمعه، وهذا مقتضى الاستخلاف المبني على معاني الابتلاء والاختبار، والأمانة والانتظار، إما إلى جنة وإما إلى نار، كما قال رب العزة والجلال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ

---

(١) زاد المسير لابن الجوزي ١/٦٠، وانظر المزيد عن هذين الرأيين في تفسير ابن جرير ١/١٩٩، فتح القدير للشوكاني ١/٦٢، وتفسير الثعالبي ١/٤٣ .

تَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ الإنسان:٢. وقال: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾ الملك:٢.

• الخلافة عن الله ليست عن غيبة المستخلف أو عجزه.

وينبغي التنبه إلى أن الخلافة عن الله على وجه الابتلاء، والمقصودة في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، ليست عن غيبة المستخلف كما يتوهم من لم يفهم النصوص على الوجه الصحيح، فإن الاستخلاف بين الناس وإن اقتضى الغياب في العادة إلا أنه في استخلاف آدم وذريته، وكما سيأتي بيانه عند تفصيل نشأة الكون كان السبب المباشر في وجود عالم الغيب والشهادة؛ فالله غيب بالنسبة للإنسان؛ لأنه ﷻ جعل مداركه محدودة على وجه الابتلاء، فهما غيب وشهادة ليس بالنسبة لعلم الله ﷻ بخلقه، ولكن بالنسبة لعلم الإنسان بمخلوقات ربه، حيث قال سبحانه عن شمولية علمه لكل صغيرة وكبيرة في خلقه: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ ﴾ الرعد:٩. وقال في المقابل عن حدود علم المستخلف: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ الإسراء:٨٥.

ومن ثم فإن علم الإنسان في الدنيا مهما بلغ محدود، وحواسه لها حدود وقيود، وسوف يحاسب عليها في يوم موعود، وعلى ذلك ترتبت أمور التكليف وأحكام الشرائع والعبودية؛ فكان النطق بشهادة الحق أمرا وتكليفا، وترك الزور وقول الصدق مدحا وتشريفا، كما قال سيد الخلق ﷺ تحذيرا لأمته وتخويفا: (أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟ ثلاَثا، قَالوا: بَلَى يَا رَسُول اللهِ، قَال: الإِشْرَاكُ بِاللهِ وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ، وَجَلسَ وَكَانَ مُتَّكِئًا فَقَال: أَلاَ وَقَوْلُ الزُّورِ قال أبو بكرة راوي الحديث: فَمَا زَال

يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلنَا لَيْتَهُ سَكَتَ) [١] .

ويمكن القول بعبارة أخرى: إن استخلاف الإنسان مقيد بالخضوع للتكليف وإظهار العبودية، والعمل في أرض الله بالشريعة الإسلامية، ومراعاة الأمانة وتحمل المسئولية كما صح الخبر عن خير البرية ﷺ أنه قال: (كُلكُمْ رَاعٍ وَكُلكُمْ مَسْئُول عَنْ رَعِيَّتِهِ، الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُول عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُل رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُول عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالخَادِمُ رَاعٍ فِي مَال سَيِّدِهِ وَمَسْئُول عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَكُلكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُول عَنْ رَعِيَّتِهِ) [٢] .

وليس استخلاف الإنسان في الأرض نيابة عن الله ﷻ في معنى من معاني الربوبية، أو تخويلا لغيره في إرادته الكونية، سبحانه وتعالى أن يتخذ شريكا له في ملكه، أو يتخذ وليا من الذل وينعزل عن خلقه، قال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾ ﴾ الإسراء:١١١. وقال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾ فاطر:٤١. والذين نفوا أن يكون الإنسان خليفة عن الله ﷻ في أرضه كشيخ الإسلام ابن تيمية ومن قال بقوله إنما أرادوا هذا المعنى؛ لأن إطلاق لفظ الخليفة دون تقييد يشمله .

---

(١) أخرجه البخاري عن أبي بكرة في الشهادات، باب ما قيل في شهادة الزور ٢/٩٣٩ (٢٥١١)، ومسلم في الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها ١/٩١ (٨٧).

(٢) البخاري في الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن من حديث عبد الله بن عمر ١/٣٠٤ (٨٥٣) .

• **معنى الخلافة عن الله تعالى بين ابن تيمية وابن عربي .**

وهنا مسألة تتعلق بموقف ابن تيمية من القول بأن الإنسان خليفة عن الله في الأرض، تتطلب النظر والتفصيل ،وبيان الحق مقرونا بالنص والدليل، فعلى الرغم من أن تفسير السلف لقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ البقرة:٣٠. يدور على رأين متآلفين غير متضادين أحدهما لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه حيث قال في معنى الآية: إني جاعل في الأرض خليفة مني يخلفني في الحكم بين خلقي، وذلك الخليفة هو آدم عليه السلام ومن قام مقامه في طاعة الله، والحكم بالعدل بين خلقه. والثاني لابن عباس رضي الله عنهما، حيث قال: إن الإنسان خليفة لمن سبق، من قولك: خلف فلان فلانا في هذا لأمر، إذا قام مقامه فيه بعده، إلا أن أغلب المفسرين مالوا إلى الرأي الثاني خشية وصف الله عز وجل بالنقص من خلال اقتضاء الاستخلاف للغياب، فما غاب الله حتى يستخلف غيره [(١)] .

وقد سبق أن الاستخلاف لا يقتضي غياب الحق عن متابعة الخلق، ولكن اقتضى وجود عالم الغيب والشهادة بالنسبة للإنسان؛ لأن الله لا يخفى عليه شيء في عالم الغيب، أو في عالم الشهادة، فكلاهما بالنسبة لله سيان، لكنهما متغايران في الأحكام بالنسبة للإنسان، فما يراه ويدركه بحواسه يدخل تحت عالم الشهادة، وما لا يراه بمدركاته يدخل تحت عالم الغيب. والله عز وجل غيب بالنسبة للإنسان لأنه لا يراه في الدنيا، وإن كان ممكنا أن يراه في الآخرة، فهو لا يراه في الدنيا امتحانه وابتلاء، ويراه في

---

(١) انظر في ذلك: تفسير الطبري١/١٩٩، وفتح الباري ٦/٣٦٤، وفتح القدير ١/٦٢، تفسير ابن كثير ١/٧٠ .

الآخرة إكراما وجزاء.

كما أن الاستخلاف ليس في شيء من معاني الربوبية، فالإنسان مسير في هذا الجانب. والله تعالى لا شريك له في ملكه، ولم يتخذ وليا من الذل في تدبير خلقه، بأي وجه من الوجوه، وإنما القصد من قضية الاستخلاف تحقيق معاني العبودية، ومدى خضوع الإنسان للإرادة الشرعية، والإنسان في هذا الجانب مخير بحرية، وسوف تقع على عاتقه يوم القيامة المسؤولية، وبهذا يزول التعارض ويرفع الأشكال .

لكن ما يثير العجب هو موقف ابن تيمية، فقد أجريت مسحا شاملا لجميع مؤلفاته التي ظهرت حتى الآن لأبحث عن موقفه من الرأيين، فوجدت أنه يمنع القول بأن الإنسان خليفة لله في الأرض، وإنما هو خليفة لمن سبق فقط، ولم يبين موقفه من كون الإنسان خليفة الله على وجه الابتلاء والتقييد حيث قال رحمه الله: (والمراد بالخليفة أنه خلف من كان قبله من الخلق، والخلف فيه مناسبة، كما كان أبو بكر الصديق خليفة رسول الله ﷺ؛ لأنه خلفه على أمته بعد موته، وكما كان النبي ﷺ إذا سافر لحج أو عمرة أو غزوة يستخلف على المدينة من يكون خليفة له مدة معينة، فيستخلف تارة ابن أم مكتوم، وتارة غيره، واستخلف علي بن أبي طالب في غزوة تبوك.. ومنه قوله تعالى:﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾الأنعام:١٦٥) [١] .

وقد ظهر لي أن ابن تيمية في خضم حملته على محي الدين بن عربي

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٣٥/٤٥ .

وأتباعه القائلين بوحدة الوجود، وأن الإنسان خليفة لله بمعنى ظهور الذات الإلهية متجلية في صورة الخليفة الذي هو الإنسان، ومتعينة فيه كظهور الصورة في المرآة، بالغ في نفي كون الإنسان خليفة لله في الأرض، وخشية الوقوع في ضلالات ابن عربي وأتباعه، حتى ظن كثيرون أن هذا النفي ينسحب على كون الإنسان خليفة لله ﷻ على معنى الابتلاء والكمال.

ولذلك نص ابن تيمية على أن النفي يتناول بعض القائلين الغالطين كابن عربي وأتباعه فقال: (وقد ظن بعض القائلين الغالطين كابن عربي أن الخليفة هو الخليفة عن الله، مثل نائب الله، وزعموا أن هذا بمعنى أن يكون الإنسان مستخلفا، وربما فسروا تعليم آدم الأسماء كلها التي جمع معانيها الإنسان، ويفسرون خلق آدم على صورته بهذا المعنى أيضا، وقد أخذوا من الفلاسفة قولهم الإنسان هو العالم الصغير، وهذا قريب، وضموا إليه أن الله هو العالم الكبير، بناء على أصلهم الكفري في وحدة الوجود، وأن الله هو عين وجود المخلوقات، فالإنسان من بين المظاهر هو الخليفة الجامع للأسماء والصفات، ويتفرع على هذا ما يصيرون إليه من دعوى الربوبية والإلوهية المخرجة لهم إلى الفرعونية والقرمطية والباطنية) (١).

• ابن تيمية ينفي الخلافة عن الله على معنى النقص .

ومن ثم فإن الذي نفاه ابن تيمية أن يكون الإنسان خليفة عن الله ﷻ في معاني الربوبية، أما الخلافة عن الله على سبيل الابتلاء لإقامة

---

(٢) السابق ٣٥/٤٤ .

الشرائع والأحكام، وتمييز الحلال من الحرام، وتوحيد العبودية لله في الخضوع والإسلام، فلا يمكن لأحد أيا كان أن ينفيها، لأن نفيها هدم لصريح النصوص الواردة في القرآن والسنة، وعلى ذلك يجب التنبه إلى ما يقصده ابن تيمية رحمه الله عند عرضه لتلك القضية.

قال ابن تيمية: (والله لا يجوز له خليفة، ولهذا لما قالوا لأبي بكر: يا خليفة الله، قال: لست خليفة الله، ولكن خليفة رسول الله، حسبي ذلك، بل هو سبحانه يكون خليفة لغيره، قال النبي ﷺ: اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل، اللهم اصحبنا في سفرنا واخلفنا في أهلنا، وذلك لأن الله حي شهيد مهيمن قيوم رقيب حفيظ غني عن العالمين، ليس له شريك ولا ظهير ولا يشفع أحد عنده إلا بإذنه. والخليفة إنما يكون عند عدم المستخلف بموت أو غيبة، ويكون لحاجة المستخلف إلى الاستخلاف، وسمي خليفة لأنه خلف عن الغزو وهو قائم خلفه، وكل هذه المعاني منتفية في حق الله تعالى، وهو منزه عنها فإنه حي قيوم شهيد لا يموت ولا يغيب، وهو غني يرزق ولا يرزق، يرزق عباده وينصرهم ويهديهم ويعافيهم بما خلقه من الأسباب التي هي من خلقه، والتي هي مفتقرة إليه كافتقار المسببات إلى أسبابها، فالله هو الغنى الحميد، له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما، يسأله من في السماوات والأرض، كل يوم هو في شأن، وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله، ولا يجوز أن يكون أحد خلفا منه، ولا يقوم مقامه، لأنه لا سمي ولا كفء له، فمن جعل له خليفة فهو مشرك به) [1].

---

(١) السابق ٣٥/٤٥ .

قلت: فتأمل قوله: فمن جعل له خليفة فهو مشرك به، وهو يعلم أن أغلب المفسرين نقلوا عن السلف الرأيين كما تقدم، ونسبوا إلى عبد الله بن مسعود بأوجه صحيحة قوله في معنى إني جاعل في الأرض خليفة: أي خليفة مني يخلفني في الحكم بين خلقي، فهل يعقل أن شيخ الإسلام يحكم على ابن مسعود ﷺ بالشرك لأنه جعل الإنسان خليفة عن الله على وجه الابتلاء، وإقامة الشرائع في أرضه؟ لا يعقل ذلك أبدا، وإنما الذي يعقل أن الوجه الذي نفاه ابن تيمية رحمه الله غير الوجه الذي عناه عبد الله بن مسعود ﷺ .

لكن الذي يثير الدهشة والعجب أن ابن تيمية معهود عنه التحري والتدقيق، وسعة الأفق، وقول الحق حتى ولو كان على لسان الخصم، وكان ينبغي أن تكون مثل هذه المسألة واضحة في كلامه إلي حد كبير، وأغلب الظن عندي أنه ربما آثر عدم الخوض في التفصيل حتى لا يأخذ عليه غلاة الصوفية حجة بسوء فهمهم على موافقته لآرائهم في وحدة الوجود أو غيرها، وهذا معهود حتى عصرنا، فكثير من الناس استخدم ما ذكره ابن تيمية عن أوائل الصوفية وتسميته لهم بالمشايخ، استخدم ذلك في أن ينسب ابن تيمية إلى التصوف ويجعله صوفيا، وأنه يؤيدهم ويمدحهم في كثير من مؤلفاته.

وهناك وجه آخر معقول، وهو أنه ربما بينها في آخر حياته ولكنها لم تصل إلينا، غير أن ابن تيمية لو كان حيا بيننا وقيل له: الخلافة عن الله لم تقتض غياب الحق عن الخلق، ولكن اقتضت وجود عالم الغيب والشهادة، وأن يكون الله ﷻ غيبا بالنسبة للإنسان، وأن الإنسان

مستخلف في الأرض على وجه الابتلاء وإظهار العبودية، لا على معنى المشاركة لله ﷻ في معنى من معاني الربوبية، أو في شيء من أوصافه الذاتية والفعلية، وأن الإنسان خليفة لله ﷻ على وجه الكمال لا على وجه النقص، إذا قيل له ذلك لا نظن أنه سينكره .

وإذا كان غلاة الصوفية كما ذكر ابن تيمية على ضلال مبين كابن عربي وتلاميذ مدرسته إلا أن الله ﷻ أوجب علينا تحري الصواب واتباع الكتاب والسنة، وقول الحق حتى لو كان على لسان المخالف، وهذا منهج الوسطية المعروف عن السلف الصالح. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ المائدة:٨ .

ومعنى الخليفة في اصطلاح أوائل الصوفية والمعتدلين منهم يتوافق مع النصوص القرآنية والنبوية، وقد يكون معناه عند الغلاة منهم معنى فاسدا كما أشار إلى ذلك ابن تيمية، فالأوائل منهم يعنون بالخليفة آدم وذريته حيث استخلفهم الله في الأرض، وابتلاهم فيها، واستأمنهم على ملكه، كما ذكر أبو سعيد الخراز (ت:٢٧٩هـ) في شأن الأنبياء عليهم السلام والعلماء والصالحين من بعدهم ﷺ، كيف ملكوا الدنيا وكانوا أزهد الناس فيها؟ فبين أنهم كانوا أمناء الله تعالى في أرضه، على سره، وعلى أمره ونهيه وعلمه، وموضع وديعته، والنصحاء له في خلقه وبريته وهم الذين عقلوا عن الله تعالى أمره ونهيه، وفهموا لماذا خلقهم؟ وما أراد منهم؟ وإلى ما ندبهم؟ فسمعوا الله ﷻ يقول: ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ

﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ الحديد:٧. ثم قال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ۝١٤﴾ يونس:١٤. فأيقن القوم أنهم وأنفسهم لله تعالى، وكذلك ما خولهم وملكهم فإنما هو له، غير أنهم في دار اختبار وبلوى، وخلقوا للاختبار والبلوى في هذه الدار، فمن ملك شيئا من الدنيا فهو معتقد أن الشيء لله تعالى لا له، إلا من طريق حق ما خوله الله تعالى واستخلفه، وهو مبتلى به حتى يقوم بالحق فيه، فكانوا خزانا لله جل ذكره، خارجين من ملكهم في ملكهم، ناعمين بذكر الله وعبادته، غير ساكنين إلى ما ملكوا، لا يستوحشون من فقده إن فقدوه، ولا يفرحون به إن وجدوه [1].

ولا شك أن مثل هذا المعنى سليم، ولا غبار عليه، لمطابقته ما جاء في الأصول القرآنية والنبوية، فإن قبلناه، قبلناه لكوننا مأمورين باتباع كلام الله ورسوله ﷺ، وليس لكون قائله أبو سعيد الخراز الصوفي، فالحق لا يعرف بالرجال، وإنما يعرف بالحجة الواضحة من كلام رب العزة والجلال، وما صح من سنة رسول الله ﷺ.

ويذكر أبو القاسم القشيري أيضا (ت:٤٦٥هـ) أن ابتداء ظهور السر في آدم وذريته حين قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ البقرة:٣٠. فلما ركب صورته لم يكونوا رأوا مثلها في بديع الصنعة وعجيب الحكمة، فعندها ترجمت الظنون وتقسمت القلوب وتجنت الأقاويل، وإنما قال للملائكة ذلك تشريفا وتخصيصا لآدم بالخلافة [2].

---

(١) كتاب الصدق لأبي سعيد الخراز ص٣٢:٣٩ .

(٢) تفسير القشيري المسمى لطائف الإشارات ١/٣٣ نشر دار الكتب العلمية .

• ابن عربي يجعل معاني الخلافة شاهدا لوحدة الوجود .

أما محي الدين بن عربي (ت:٦٣٨هـ) فقد ذكر للخلافة معنى قريبا من الصواب ومعان أخرى هي أقرب إلى الكفر والضلال، فمن المعاني الموافقة للصواب قوله: (إن الخلافة مدرجة في جميع النوع الإنساني كما نبه عليه سبحانه وتعالى في قوله: ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ الحديد:٧، فهذا النوع الإنساني مستخلف من قبل الحق بقدر وسعه، فأدناهم المستخلف على نفسه، وأكملهم المستخلف على العالم بأسره) [١]. وقال أيضا: (وكما أن الخليفة قد استخلف من استخلفه في ماله وجميع أحواله لما اتخذه وكيلا، فاستخلاف العبد ربه لما اتخذه وكيلا خلافة مطلقة، واستخلاف الرب عبده خلافة مقيدة بحسب ما تعطيه ذاته ونشأته) [٢] .

أما المعاني المفارقة للشرع عند ابن عربي والتي هي من قبيل الزندقة، فهي ما حذر منه شيخ الإسلام ابن تيمية، وفندها، وحمل عليها حملة لا هوادة فيها، مثل ما ذكره أن الإنسان هو الله، وهو الخليفة على اعتبار الوحدة وتعين الخالق في صورة المخلوق، فالعبد يستخلف ربه في دعائه، لا على معنى الاستعانة والتوكل، والله يستخلف العبد لا على معنى الابتلاء والتكليف، ولكن على اعتبار الظهور والتعينات، فالإنسان كالمرآة التي تنعكس فيها صورة الخالق، فيرى الخالق نفسه بذاته وصفاته في صورة البشر كما هي ذواتهم وصفاتهم.

---

(١) بلغة الخواص لابن عربي ق٢٣ .

(٢) انظر الفتوحات المكية لابن عربي ٣/٢٩٩ .

قال ابن عربي في بيان زندقته: (يقول رسول الله ﷺ في دعائه ربه في سفره: أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل. فما جعله خليفة في أهله إلا عند فقدهم إياه، فينوب الله عن كل شيء، أي يقوم فيه مقام ذلك الشيء بهويته) [1] .

والقصد أن المعنى المعتبر للخلافة التي جعلها الله ﷻ لآدم ﵇ وذريته، تدور حول رأيين يمثلان خلاصة ما ورد من أقوال المفسرين وعلماء السلف الصالح: الأول أنه خليفة لله ﷻ في الأرض على وجه الابتلاء، والثاني أنه خليفة لمن سبق من الجن، أو خليفة يخلف بعضهم بعضا. ومع كون الرأي الأول نسب لابن مسعود ؓ ومجاهد وبعض السلف إلا أن أغلب المفسرين يميلون إلى الرأي الثاني رغبة في تنزيه الله ﷻ عن معاني النقص، وقد بينا أنه لا خلاف مطلقا بين الرأيين، وأن ما ورد في القرآن يدل بوضوح على أن المعنيين لازمان لاستخلاف الإنسان في الأرض وابتلائه في هذا الملك.

غير أن ما يعنينا الآن أنه ليس هناك أي اعتراض على أن اللوازم الضرورية لمعنى الاستخلاف ثلاثة أمور: وهي وجود مستخلِف ومستخلَف ومستخلَف عليه، فالمستخلِف هو الله ﷻ، إما على المعنى الأول الذي ذكره ابن مسعود ؓ في قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ البقرة:٣٠. أي خليفة مني يخلفني في الحكم بين خلقي، أو كما قال ابن عباس ؓ خليفة لمن سبق من الجن يخلف بعضهم بعضا .

كما أن الإنسان هو المستخلَف في ملك الله حقيقة، لأنه طالما أنه

---

(١) السابق ١٣٦/٣، ١٣٧/١ .

مستخلف، فالملك الذي يحيا فيه ليس له بل لغيره، فإن كان الملك لله ﷻ والإنسان مستخلف فيه بأمر الله وشرعه، فسيؤول المعنى بالضرورة إلى رأي ابن مسعود ﷺ، وإن كان الإنسان خليفة لمن سبق، فالملك أيضا ليس ملك من سبق، إلا على سبيل الاستخلاف في الأرض وحمل الأمانة، لا على سبيل التملك والأصالة، وسيلزم بالضرورة لا محالة أن يكون الإنسان الأول خلفا لمن سبق من الجن، وسيقال عندها والجن كانوا خلفا لمن؟ فليس عند ذلك إلا القول بأن الجن كانوا فيما سبق خلفاء لقوم آخرين الله أعلم بهم، ويلزم من هذا التسلسل وهو باطل لا دليل عليه، أو يلزم القول بأن الجن خلفاء لله ﷻ في الأرض على سبيل الابتلاء، والإنس يخلفونهم من بعدهم.

وهذا يوقعنا فيما احترز منه أصحاب الرأي الثاني الراغبين في تنزيه الله ﷻ عن معاني النقص، فما غاب الله حتى يستخلف الجن في أرضه وينيبهم عنه في ملكه، قياسا على ما ذكروه في خلافة الإنسان، كما أن الجن مازالوا في الأرض يشتركون مع الإنس في سائر الأحكام، ويتحملون عند الحساب المسئولية نفسها، وإن جاز بالضرورة أن يكون الجن خلفاء لله ﷻ في الأرض ألا يجوز ذلك في حق الإنس؟

يضاف إلى ذلك أن الله ﷻ فضل آدم عليه السلام وبنيه، وكرمهم على كثير من خلقه، وميزهم في ملكه، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلٗا ٧٠ ﴾ الإسراء: ٧٠ .

بل وصل أمر التفضيل إلى أن الله ﷻ أمر الملائكة بالسجود لآدم

عليه السلام، وكلفهم بتدبير أمره وأمر الكون من حوله فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾﴾ الحجر:٢٨/٣١.

ولما كان الإنسان مستخلَفا، والله عز وجل مستخلف، فإن الأرض التي هو فيها بالضرورة مستخلف عليها، وهي محل الاستخلاف وموضع الابتلاء، وماهية الأمانة التي سيسأل عنها، وقد هيأها الله عز وجل لأداء هذه المهمة التي شرف بها الإنسان، كما أن العالم مهيأ أيضا لتبقى الأرض على هذا الحال إلى وقت وعلوم كما سيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله .

والنتيجة الملزمة التي نقررها الآن أنه لا اعتراض على أن الإنسان متميز بأنه مستخلف في الأرض من قبل الحق سبحانه وتعالى، وأنه عز وجل خوله فيها، وابتلاه بها بنص القرآن كما قال تعالى: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ الحديد:٧. وقال الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ الأنعام:٩٤.

• لماذا استخلف الله الإنسان في الأرض؟

والسؤال الذي يطرح نفسه على الأذهان، لماذا استخلف الله الإنسان في الأرض على وجه الخصوص ولم يستخلف غيره؟ أو لماذا اختار الإنسان بالذات ليخوله في الأرض ويكرمه بهذه المنزلة الرفيعة؟ فهل الإنسان في ذلك التميز مجبور مقهور؟ أم أنه مخير مسئول وله في تميزه دور معقول؟ لأنه ربما يحتج إنسان على ربه، أو يحاول التملص

والتخلص من ذنبه، بأنه لم يكن يرغب في الأساس أن يكون مستخلفا في الأرض كسائر الناس؟

ونحن إذا حاولنا التفكير بمفردنا في هذه المسألة، والبحث عن إجابة لهذه المشكلة المعضلة، فلن نصل إلى إجابة مقنعة، لأن الإجابة عن هذا السؤال لا يستطيعها البشر، فهي أعلى من حدود العقل وإدراكه، ولا مناص من الرجوع إلى خالق الإنسان ليبين لنا الحكمة في خلقه والسر في استخلافه في أرضه، ولعلمه سبحانه بضعفنا وقلة علمنا وقصر عقولنا بينا لنا الحكمة في ذلك، وهي بالفعل حكمة بالغة، فقد أبان لنا في سورة الأحزاب أنه أجرى ابتلاء خاصا بين الإنسان وبقية المخلوقات التي سخرها له بعد ذلك، واستخلفه في الأرض بينها، وبين أن الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي قبل الأمانة حين عرضت على الكائنات، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ورفضنها.

قال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ الأحزاب:٧٢.

لكن ما حقيقة الأمانة التي عرضت على الكائنات؟ ولماذا عرضت؟ ومتى تم عرضها؟ صح عن ابن عباس رضي الله عنه في تفسيره لآية الأمانة أنه قال: (يعني بالأمانة الطاعة، عرضها عليهم قبل أن يعرضها على آدم، فلم يطقنها، فقال لآدم: إني قد عرضت الأمانة على السماوات والأرض والجبال فلم يطقنها، فهل أنت آخذ بما فيها، قال يا رب: وما فيها؟ قال: إن أحسنت جزيت، وإن أسأت عوقبت،

فأخذها آدم فتحملها) [1] .

وهذا العرض الذي ورد في آية الأمانة عرض تخييري، يحمل اختبارا لهذه المخلوقات من حيث المبدأ، وتخيرها في الموافقة على قبول الأمانة، واستمرار الابتلاء والمسؤولية والحساب، ثم تحمل الثواب والعقاب، حيث سيكلف من يقبلها بمراعاتها على طريقة ما يشرعها لهم.

قال ابن الجوزي: (قول الأكثرين في المراد بعرض الأمانة على السماوات والأرض، أن الله تعالى ركب العقل في هذه الأعيان، وأفهمهن خطابه، وأنطقهن بالجواب حين عرضها عليهن، ولم يرد بقوله: "أبين" المخالفة، ولكن أبين للخشية والمخافة، لأن العرض كان تخييرا لا إلزاما، وأشفقن بمعنى خفن منها ألا يؤدينها، فيلحقن العقاب) [2] .

ومما روي عن السلف في ذلك أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه عرض العمل في الإمارة على محمد بن كعب فأبى، فقال له عمر: أتعصي؟ فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرني عن الله تعالى حين عرض الأمانة على السماوات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها، هل كان ذلك منها معصية؟ قال: لا، فتركه) [3] .

قال الواحدي: (الأمانة الفرائض التي افترض الله سبحانه على العباد، وشرط عليهم أن من أداها جوزي بالإحسان، ومن خان فيها

---

(١) الحاكم في المستدرك، وقال: صحيح علي شرط الشيخين ولم يخرجاه ٤٥٨/٢ (٣٥٨٠)، وانظر تفسير ابن كثير ٥٢٣/٣.

(٢) زاد المسير لابن الجوزي ٤٢٨/٦.

(٣) الدر المنثور، لعبد الرحمن جلال الدين السيوطي ٦٧٠/٦ .

عوقب، عرضها على السماوات والأرض والجبال، أفهمهن الله سبحانه خطابه، وأنطقهن فأبين أن يحملنها مخافة وخشية، لا معصية ومخالفة، وهو قوله وأشفقن منها، أي خشين منها، وحملها الإنسان) [1] .

وقال ابن جرير الطبري: (وأولى الأقوال في ذلك بالصواب ما قاله الذين قالوا إنه عنى بالأمانة في هذا الموضع جميع معاني الأمانات في الدين، وأمانات الناس، وذلك أن الله لم يخص بقوله عرضنا الأمانة بعض معاني الأمانات) [2]. وقال ابن كثير: (وكل هذه الأقوال لا تنافي بينها بل هي متفقة وراجعة إلى أنها التكليف وقبول الأوامر والنواهي بشرطها، وهو أنه إن قام بذلك أثيب وإن تركها عوقب، فقبلها الإنسان على ضعفه وجهله وظلمه إلا من وفق الله، وبالله المستعان) [3] .

ويضاف إلى كل ما تقدم أن العقلاء عن الله ﷻ يفهمون من آية الأمانة أن المخلوقات التي خيرت في حمل الأمانة أو رفضها، وهي السماوات والأرض والجبال والإنسان كانت على درجة واحدة في إمكانية القبول أو الرفض، فلهن إرادة حرة، ولولا أن لهن اختيارا حرا ما عرض عليهن قبول الأمانة أو رفضها، ولما عبر عن رأيهن بقوله عنهن: ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ الأحزاب:٧٢. فالإباء والرفض والإشفاق يقابل القبول والرغبة والموافقة، وهذا دليل على أن الله ﷻ خيرهن دون جبر منه عليهن في قولهن أو فعلهن .

---

(١) الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للواحدي ٨٧٥/٢.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن لابن جرير الطبري ٥٤/٢٢:٥٧.

(٣) تفسير ابن كثير ٥٢٣/٣ نشر دار الفكر بيروت.

كما أن تلك المخلوقات التي عرضت عليها الأمانة لهن عقل وعلم، ويتصفن بإدراك وفهم، لأنه لا معنى لتخييرهن في أمر لا يعرفن عنه شيئا؛ فهذا نوع من العبث لا يقبله العاقل على نفسه فضلا عن ربه، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ الأنبياء:١٦/١٧.

وقد دلت آية الأمانة أيضا على أن الإنسان له وجود غيبي سابق عند بداية النشأة والتكوين، وهذا الفهم تؤيده آيات كثيرة وأحاديث صحيحة سيأتي بيانها وجميعها يدل على خلق الله لجميع الذرية وإيجاد أفراد النوعية الإنسانية لفترة وقتية معينة أشهدهم فيها على أنفسهم وعلى قبولهم بما يتوجب على أبيهم من الحقوق والواجبات وإظهار الحكمة في تدبير أمر المخلوقات .

• لماذا عرضت الأمانة على المخلوقات؟

والسؤال الذي يطرح نفسه على الأذهان، لماذا عرضت الأمانة على المخلوقات؟ وماذا حدث لمن رفضها؟ يمكن القول إن الأمانة عرضت ليتحقق عدل الله ﷻ في الكون، وينتفي الظلم ويستقر الأمن، فمع كون الله ﷻ متصفا بالمشيئة المطلقة والقدرة التامة إلا أنه موصوف أيضا بالعدل والحكمة، فمن عدله أنه لا يظلم أحدا من خلقه، فيلزمه بالجبر المطلق، أو القهر على فعل مع انتفاء الحكمة الإلهية فيه، وإلا صار ذلك عبثا وظلما، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ الكهف:٤٩.

ومعلوم أن نفي الظلم يدل على كمال العدل، ولكمال عدله ﷻ قامت السماء والأرض بأمره على الحق والميزان، كما نص على ذلك

القرآن في سورة الرحمن فقال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ٧﴾ الرحمن:٧. وكذلك قال سبحانه في سورة الدخان: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ٣٨ مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٩﴾ الدخان:٣٨/٣٩.

ولكون الباطل ضد الحق قال المؤمنون لما نظروا إلى تركيب الخلق: ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك. ولذلك كانت الدعوة إلى النظر في المخلوقات وشأنها، كيف خلقها الله ﷻ ودبر أمرها؟ وكيف تتجلى حكمة الله من خلالها؟ فكلها شواهد لكمال عدله ونعمته وفضله، وكلها آيات وأسباب يعتبر بها أولو الألباب، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١﴾ آل عمران:١٩٠/١٩١.

وقال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٥٣﴾ فصلت:٥٣.

ومن لوازم التخيير وكمال العدل، أنه كان من الممكن افتراضا من جهة العقل، أن جميع من ورد ذكره في آية الأحزاب رفض الأمانة أو قبولها، وأيضا وكان من الممكن عقلا رفض الإنسان لحملها، أو استجابة السماوات لها، وكذا القول في حال الأرض والجبال.

وللعاقل أن يسأل على سبيل إظهار حكمة الله ﷻ في خلقه، وطلاقة العدل في ملكه، وبيان قدرته على ما يشاء: ماذا لو فرضنا أن

الكل رفض الأمانة؟ أو اختارتها السماوات أو الأرض أو الجبال؟

وجواب ذلك أن الله ﷻ هو أعلم بما سيكون، لكننا نؤمن أن العالم في تركيبه سيكون على وضع يحقق حكمة الله ﷻ في سائر المخلوقات، وتتجلى في خلقه آثار الأسماء والصفات، فمن يملك من الله شيئا إن أهلك العالم بأسره، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾﴾ إبراهيم: ١٩.

قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ المائدة: ١٧.

- **التخيير في التسخير لتحقيق الرضا والمحبة في أركان العالم.**

وإذا كان الحق تبارك وتعالى يفعل ما يشاء في ملكه، والخلق قائم على تدبيره وأمره، وكل شيء مفتقر إلى قضائه وقدره؛ فإنه سبحانه وتعالى إن شاء استخلف الإنسان في الأرض بغير إرادته، وإن شاء أجبر السماء على حمل أمانته، وإن شاء أكره الأرض والجبال بقدرته، إلا أن عدله من لوازم حكمته، وتخيير المخلوقات في حمل الأمانة من كمال حجته، واستقرار العالم وأمنه من بديع صنعته، ومن ثم خير الله المخلوقات في حمل الأمانة أو رفضها، وكانت نتيجة التخيير قسمان، قسم رفض الأمانة، وقسم يتمثل في موافقة الإنسان .

وبعد أن خير الله تعالى السماوات والأرض والجبال في قبول الأمانة أو رفضها، وبعد ممارسة حقهن في الاختيار ورفضهن لها، كان من

كمال عدل الله ﷻ أنه خيرهن مرة أخرى، لكن التخيير هذه المرة لإظهار الرضا منهن في الطاعة لأمره، والاستجابة لحكمه، إذا كلفهن بعمل ما أو سخرهن لوظيفة ما حتى وإن كانت لصالح الإنسان الذي قبل الأمانة، فاخترن جميعا الطاعة والخضوع لله ﷻ، يكلفهن بما شاء وسوف يلتزمن بأحكام القضاء تمام الالتزام.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ١١﴾ فصلت:١١.

وخلاصة ما ذكره المفسرون في التخيير للإتيان طوعا أو كرها أن الله ﷻ ركب فيهن العقل والفهم حين عرض الأمانة عليهن حتى عقلن الخطاب، ثم خيرهن فقال لهن: استجيبا لأمري، وانفعلا لفعلي، طائعتين أو مكرهتين، فقال للسموات: أطلعي شمسي وقمري والنجوم، وقال: للأرض: شققي أنهارك، وأخرجي ثمارك، قالتا: أتينا طائعين، نستجيب لك مطيعين بما فينا مما تريد خلقه من الملائكة والجن والإنس جميعا مطيعين لك [1].

وبهذا التخيير الثاني قامت المخلوقات في السماوات والأرض على محبة الله، والرضا بأمره في العمل على استقرار الكون وأمنه، وبقائه على الدوام ثابتا في دقة وأمان، كي تتكامل معاني الأمانة التي حملها الإنسان، ومعلوم أن تحقيق الأمن الكوني المبني على الرضا، أبلغ من غيره المبني على العدل فقط.

---

(١) تفسير الطبري ٩٨/٢٤، وتفسير ابن كثير ٩٤/٤، وتفسير البغوي ١٠٩/٤.

• كيف كانت بداية الكون في المرحلة الأولى؟

بداية الخلق قبل وجود السماوات والأرض لم يذكر فيها الحق سبحانه سوى العرش والماء واللوح والقلم، كما جاء في قوله تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾ هود:٧ .

وعند البخاري من حديث عمران بن حصين ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ على المَاءِ، ثم خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأرْض، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُل شَيْءٍ) [١] .

ومن باب الفضول ربما يسأل سائل ويقول: وماذا قبل العرش والماء؟ والجواب أن الله قد شاء أن يوقف علمنا بالمخلوقات عند العرش والماء، فقال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ البقرة:٢٥٥. فالله أعلم، هل توجد مخلوقات قبل العرش والماء أم لا؟ لكن وجودها أمر ممكن لتعلقه بمشيئة الله وقدرته. والله ﷻ أخبرنا أنه يخلق ما يشاء، ويفعل ما يشاء فقال: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٦﴾ البروج:١٦. وهو سبحانه متصف بصفات الأفعال، ومن لوازم الكمال أنه فعال لما يريد على الدوام أزلا وأبدا، سواء كان ذلك قبل وجود العرش والماء أو بعد وجودهما، لكن الله أوقف علمنا عند هذا الحد، كما أن جهلنا بذلك لا يؤثر فيما يخصنا من لوازم تحقيق الحكمة في خلق الكون والإنسان .

---

(١) البخاري في التوحيد، باب وكان عرشه على الماء، ٢٦٩٩/٦ (٦٩٨٢) .

قال سليمان التيمي: (لو سئلت أين الله؟ لقلت: في السماء، فإن قال: فأين كان عرشه قبل السماء؟ لقلت: على الماء، فإن قال: فأين كان عرشه قبل الماء؟ لقلت: لا أعلم) [1].

وقد بينت نصوص القرآن وصحيح السنة أن الله ﷻ خلق الأرض والسماء بعد العرش والماء وأنه خلقهما على مرحلتين كما قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠)﴾ الأنبياء:٣٠ . هاتان المرحلتان تحققان حكمة الله في ابتلاء الإنسان وقيام الخلائق على الحق والميزان، المرحلة الأولى كانت في وضع الرتق والدخان، والمرحلة الثانية بعد خلق آدم وكما نراه الآن.

وكل ذلك تم في عدة حقب زمنية سماها الله أياما، والله أعلم بمقدارها، وقد تكون مدة طويلة جدا تساوي اللحظات فيها سنين لا تحصى في حساباتنا، فمقاييسنا تعجز بجملتها عن تصور مقياس زمني، أو عامل حركي لضبط تقديرات الزمان فيها.

وهذا ما أشار إليه شيخ الإسلام ابن تيميه حيث قال: (فالذي جاء به القرآن والتوراة، واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها مع أئمة أهل الكتاب، أن هذا العالم خلقه الله وأحدثه من مادة كانت مخلوقة قبله، كما أخبر في القرآن أنه استوى إلى السماء وهي دخان، أي بخار فقال لها وللأرض: ائتيا طوعا أو كرها.. إلى أن قال.. وخلق ذلك في مدة غير مقدرة بحركة الشمس والقمر، كما أخبر أنه خلق السماوات والأرض، وما بينهما في ستة أيام، والشمس والقمر هما من السماوات

(١) خلق أفعال العباد للبخاري ص٣٧، نشر دار المعارف السعودية، الرياض.

والأرض وحركتهما بعد خلقهما، والزمان المقدر بحركتهما وهو الليل والنهار التابعان لحركتهما إنما حدث بعد خلقهما، وقد أخبر الله أنه خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام.. ويواصل قائلا. فتلك الأيام مدة وزمان مقدر بحركة أخرى غير حركة الشمس والقمر) [(١)].

وهذا فهم دقيق يعبر عن معايشة عصرية للاكتشافات العلمية الحديثة سبق إليها شيخ الإسلام ابن تيمية حيث فسر الأيام الستة بأنها حقب زمنية الله أعلم بمقدارها، حتى لو أطلق على كل حقبة فيها اسم يوم من أيام الأسبوع في اصطلاحاتنا .

ويمكن القول إن مجموع النصوص القرآنية والنبوية يدل على أن الأيام الستة المذكورة في القرآن يراد بها المرحلة الأولى من خلق الكون، وهي المرحلة التي بدأت بخلق الأرض وما عليها، ثم السماوات في وضعها الأول، وضع الرتق والدخان، ثم كان استواء الله على العرش بعد ذلك كما قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾ الفرقان:٥٩ .

وفي المرحلة الأولى أيضا خلقت الملائكة والجن، وقد استمرت تلك المرحلة ست حقب زمنية أو ستة أيام سميت بالأيام الاصطلاحية في عرفنا من السبت إلى الخميس كما صح الحديث عند مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه كما سيأتي مفصلا. وهذا الحديث ظن البعض شذوذه لكنه حديث صحيح كما جزم بذلك العلامة الألباني بعد تحقيقه وفق قواعد

---

(١) درء التعارض بين العقل والنقل لابن تيمية ١/١٢٣.

المحدثين، كما أن مجموع الأدلة يتوافق معه ولا يعارضه .

أما المرحلة الثانية فتلك التي تمت بعد أن خلق الله ﷻ آدم عليه السلام في آخر حقبة زمنية سميت يوم الجمعة، ثم عرض عليه الأمانة فقبلها في حين رفضتها السماوات والأرض والجبال، ثم خير الله ﷻ من رفضها في قضية التسخير لمن قبلها، فقالتا: أتينا طائعين، فهيأها الله ﷻ برغبتها، وسخرها عن محبتها، وأعد الكون على إثر موافقتها لاستخلاف الإنسان وابتلائه وتخويله فيها.

وقد بدأت هذه المرحلة الثانية بتهيئة السماوات، وترتيب الكواكب على مساراتها في السماء الدنيا، وظهور المجموعة الشمسية التي تحدد فيها الزمان باثني عشر شهرا قمريا، ثم دحيت الأرض بعد ذلك، وثبتت الجبال في الأرض بطبقاتها، لتسكن وتستقر في وضع يناسب وجود الإنسان، ويحقق له معاني الاستخلاف والابتلاء، وتخويله بحرية في اختيار الإسلام، أو المنهج الشرعي كنظام يسلكه في أدائه للأمانة العظمى التي حملها .

وأغلب المفسرين يتفقون إجمالا في ترتيب الأحداث المتعلقة بنشأة الكون أنها تمت على مرحلتين: الأولى بدأت بخلق الأرض ثم السماء، والثانية بدأت بتهيئة السماء ثم دحو الأرض من أجل الإنسان.

وقد ذكر ابن كثير أن الله ﷻ أيبس من الماء الذي كان عرشه عليه أرضا، فثار منه دخان، فارتفع وسما، فجعله سماء؛ فصار خلق الأرض قبل خلق السماء، ثم قصد إلى السماء فسواهن سبع سماوات، ثم دحا الأرض بعد ذلك، وكانت عند خلقها غير مدحوة، ثم قال رحمه الله

معقبا على هذا المعنى: (وهذا ما لا أعلم فيه نزاعا بين العلماء إلا ما نقله ابن جرير عن قتادة، أنه زعم أن السماء خلقت قبل الأرض، وقد توقف في ذلك القرطبي لقوله: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾﴾ النازعات:٢٧/٣٠. قالوا: فذكر خلق السماء قبل الأرض، وفي صحيح البخاري أن ابن عباس رضي الله عنه سئل عن هذا بعينه؟ فأجاب بأن الأرض خلقت قبل السماء، وأن الأرض إنما دحيت بعد خلق السماء[1].

وكذلك أجاب غير واحد من العلماء قديما وحديثا.. وحاصل ذلك أن الدحي مفسر بقول الله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ النازعات:٣٠/٣٣. ففسر الدحي بإخراج ما كان مودعا فيها بالقوة إلى الفعل، فأخرجت ما كان مودعا فيها من المياه، فنبتت النباتات على اختلاف أصنافها، وصفاتها، وألوانها، وأشكالها، وكذلك جرت هذه الأفلاك، فدارت بما فيها من الكواكب الثوابت والسيارة[2].

- **تهيئة الكون في المرحلة الثانية كانت لأجل الإنسان.**

ولنعرض الآن تفصيل الأدلة القرآنية والنبوية التي دلت على أن الكون مر في نشأته بمرحلتين، بدأت الأولى منهما بخلق الأرض ثم السماء، والمرحلة الثانية بدأت بتهيئة السماء ثم دحو الأرض وتثبيت الجبال، وسوف نلاحظ أن أغلب النصوص القرآنية والنبوية التي فيها

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٦٩، وتفسير الطبري ١/١٩٥.

(٢) انظر صحيح البخاري، التفسير، باب تفسير سورة السجدة ٤/١٨١٤.

البدء بخلق الأرض ثم السماء تتعلق بالمرحلة الأولى، وتلك التي فيها البدء بتهيئة السماء ثم الأرض تتعلق في أغلبها بالمرحلة الثانية.

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾ فصلت:٩/١٢.

مجموع الأيام التي وردت في الآيات ثمانية أيام، وأغلب المفسرين على أن الأربعة المذكورة تتضمن اليومين السابقين ليصبح المجموع ستة أيام، وهذا التفسير الذي ذكروه لم يرد فيه نص صحيح مرفوع يؤيده، وإنما قالوا ذلك خشية التعارض مع النص القرآني الذي يفيد بأن الله ﷻ خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، فهو اجتهاد منهم لدفع التعارض بين النصوص.

وإن قيل بأن الأيام الثمانية متداخلة بحيث تصبح ستة فقط، فذلك أيضا يبدوا متعارضا مع الحديث النبوي الذي رواه مسلم في صحيحه، والذي ذكر فيه النبي ﷺ سبعة أيام وليست ستة؛ فمن حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: (أَخَذَ رَسُول اللهِ ﷺ بِيَدِي فَقَال: خَلَقَ اللهُ ﷻ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ وَخَلَقَ فِيهَا الجِبَال يَوْمَ الأَحَدِ، وَخَلَقَ الشَّجَرَ يَوْمَ الاثْنَيْنِ، وَخَلَقَ المَكْرُوهَ يَوْمَ الثلاثاءِ، وَخَلَقَ النُّورَ يَوْمَ الأَرْبِعَاءِ، وَبَث فِيهَا الدَّوَابَّ يَوْمَ الخَمِيسِ، وَخَلَقَ آدَمَ عَلَيْهِ السلام بَعْدَ العَصْرِ مِنْ

يَوْمِ الجُمُعَةِ، فِي آخرِ الخَلقِ، فِي آخرِ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الجُمُعَةِ، فِيمَا بَيْنَ العَصْرِ إلى الليْل)[1].

وهذا الحديث ظاهر في أن آدم عليه السلام خلق يوم الجمعة بعد أن تمت الأيام الستة، وقد حاول كثيرون تضعيفه، أو تأويله على معنى ملائم بصعوبة بالغة، وكنت نظنه ضعيفا، ولكن تبين بعد البحث والتحقيق أنه ثابت صحيح كما ذكر الشيخ الألباني وغيره.

وعلى فرض ضعفه كما زعم كثيرون، فإن التعارض قائم كما يظنون، فقد صرحت نصوص نبوية أخرى ثابتة صحيحة، وكثيرة بحيث لا تدع مجالا للشك أن آدم عليه السلام خلق يوم الجمعة، مما يعني أنه خلق في اليوم السابع على اعتبار بقية الأيام السابقة وعددها ستة، كما ورد عند مسلم وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الجُمُعَةِ، فِيهِ خُلقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُدْخِلِ الجَنَّةَ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا، وَلاَ تَقُومُ السَّاعَةُ إِلاَّ فِي يَوْمِ الجُمُعَةِ)[2].

لقد طرحت هذه المشكلة نفسها عبر قرون طويلة بين السلف والخلف، فمن فسر الأيام الثمانية في سورة فصلت على أنها ستة متداخلة واجه إشكالية العدد في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند مسلم

---

(١) مسلم في صفة القيامة والجنة والنار، باب ابتداء الخلق وخلق آدم عليه السلام ٤/٢١٤٩ (٢٧٨٩) ويمكن مراجعة معنى الحديث ودفع التعارض الذي يدعيه البعض بينه وبين القرآن من وجهة نظر الشيخ الألباني، والرد على من طعن في الإسناد في صحيح الجامع (٣٢٣٥)، ومشكاة المصابيح (٥٧٣٥)، ومختصر العلو للذهبي (٧١)، والسلسلة الصحيحة (١٨٣٣).

(٢) مسلم في الجمعة، باب فضل يوم الجمعة ٢/٥٨٥ (٨٥٤).

والأحاديث التي تقتضي تكوين الخلائق في سبعة أيام، أو خلق آدم عليه السلام يوم الجمعة، ثم تضعيف مثل هذه الأحاديث التي وردت في الصحاح ليس أمرا هينا.

ومن قال في المقابل بأن الأيام أكثر من ستة، ويمكن أن تزيد إلى سبعة أو ثمانية عملا بالأحاديث الصحيحة، أو ما ورد في سورة فصلت عند النظر لمجموع الأيام بدا أمره متعارضا مع النص القرآني الذي يفيد بأن الله خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، كما أن الله عز وجل أنكر على اليهود ادعاءهم بأنه خلقهما وما بينهما في ستة أيام ثم استراح في اليوم السابع فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ ق:٣٨ (1) .

والسبب في تصور البعض وجود التعارض بين النصوص القرآنية والنبوية هو تحديد الأيام الستة بمقدار يماثل سائر الأيام في حساباتنا، بمعنى اعتبارهم مقدار تلك الأيام ١٤٤ساعة، أو ما يعادل ٨٦٤٠ دقيقة، أو ٥١٨٤٠٠ ثانية، وهذا غير صحيح لأن الأيام المقصودة ليست كذلك، وإنما هي ألفاظ اصطلاحية وضعت للدلالة على حقب زمنية الله أعلم بمقدارها، وقد ذكرت أياما لتقرب حقيقة الأحداث وضخامتها للأذهان، فالأمر فيها أكبر من استيعاب العقل في وضعه الحالي لماهية الزمان، وقت النشأة أو أرجاء المكان.

بل يمكن القول إن تفسير المعنى المقصود بيوم السبت هو يوم القطع على معناه اللغوي، أو قطعة الزمان، أو حقبة منه، فالقصد إذا من ذكر

---

(١) انظر تفسير القرطبي ١٩٥/٧، فتح القدير ٧٢٤/٤، وتفسير البغوي ٣٦٤/١ .

الأيام أن يسهل على العقل فهم حقيقة البداية والنشأة، وكيف تحققت فيها معاني القدرة والحكمة؟ من خلال بعض الألفاظ المعبرة عنها، والتي تؤدي إلى فهم المعنى دون إدراك الكيفية أو الماهية، لأن عقل الإنسان خلق بمحدوديته لا يستوعب مثل هذه الأحداث الضخمة التي تمت عند النشأة والتكوين.

والإنسان بطبعه لا يسأم من السؤال عن تفسير مقنع لبداية الكون وترتيب المقادير، كيف كانت؟ وكيف تكون النهاية؟ وما حال الإنسان عند المآل والمصير؟ فالأيام الستة التي ذكرها الله ﷻ في نشأة الكون إنما هي أحقاب زمنية يصعب حسابها على مقاييسنا التمثيلية والشمولية كما ذكر ذلك ابن تيمية فقال: (فتلك الأيام مدة وزمان مقدر بحركة أخرى غير حركة الشمس والقمر) [١] .

وقد قدرت الدراسات العلمية البحتة أن عمر الكون على أقل تقدير عشرون مليار سنة بحساباتنا، ولا غرابة في ذلك لاختلاف المقاييس بين دوران الأرض حول الشمس والزمان الناتج عنه من جهة، ودوران الشمس حول مركز مجرتنا والزمان الناتج عنه من جهة أخرى، إذ يقدر العلماء المتخصصون في الكونيات أن السنة الكونية اللازمة لدورة الشمس حول مركز المجرة تعادل ٢٥٠ مليون سنة في حساب دورة الأرض حول الشمس[٢].

ولا شك أن العدد سيتضاعف ملايين المرات عند تصور الزمان

---

(١) درء التعارض بين العقل والنقل ١/١٢٣.

(٢) مولد الكون ص١٠٧ .

الناشئ عن دوران المجرة الواحدة حول مركزها بالنسبة لدورة الشمس حول مركز المجرة.

ومن هنا نعلم أن مجموع المجرات عند نشأتها وتكوينها، ثم انفصالها عن بعضها البعض ودورانها حول مركزها، ذلك المركز الذي لا يعلمه إلا الله، قد لا يستوعب العقل البشري حقيقة ما جرى في المدة الزمنية أو الماهية المكانية إلا بوصفها وذكرها أياما معدودة اصطلاحية، تطلق على عدة حقب مقصودة زمنية، ذكرها رب العزة والجلال في ستة أيام أو سماها النبي ﷺ بما يسمى به أيام الأسبوع، فلا نبالغ إذا إن قلنا إن اللحظة عند النشأة في الأيام الستة القرآنية تعادل ما يصعب تصوره من السنوات في حساباتنا الأرضية، هذا مع جهلنا بحقيقة الكيفية التي تحسب بها تلك الأيام .

وبعد أن تبين مما سبق أن الكون مر بمرحلتين منفصلتين يفصل بينهما خلق آدم عليه السلام، فإن النصوص التي وردت في الكتاب والسنة، وتناولت الحديث عن نشأة الكون، جميعها نصوص متوافقة وغير متعارضة، بل لا تحتاج في ضوء ما سنذكر إلى تأويل متعسف بغير دليل، أو رغبة في تضعيف حديث على حساب غيره مما ثبت في التنزيل.

ومن ثم فإننا لو نظرنا بنظرة جديدة شاملة للأدلة دون تحميل النصوص ما لا تحتمل لوجدنا أن الأيام الستة هي المدة الزمنية أو الحقب الزمنية التي استوعبت المرحلة الأولى من نشأة الكون، أو بتعبير آخر يمكن القول، والله ﷻ أعلم بالنشأة، أن الأيام الستة المذكورة في القرآن هي مدة المرحلة الأولى قبل وجود آدم عليه السلام .

وبخصوص ترتيب الأحداث في هذه المرحلة كما دلت عليها محصلة

النصوص فيمكن القول: إن الله ﷻ بدأها بخلق مادة الأرض التي ظهرت على إثرها السماء كطبقات متعددة من الدخان، أو بخار الماء أو نتيجة التفاعلات والاندماجات المكونة للعناصر إن جاز التعبير؛ لأن تكوين المواد وعناصر الأرض يتطلب حرارة عليا يصعب تصورها كما ذكر ذلك علماء الفيزياء، فتكوين ذرة الهليوم يتطلب مثلا الملايين من درجات الحرارة، وكذلك تزامن مع تكوين الأرض خلق مادة الجبال وعناصرها المنصهرة كما هو شأن الحمم البركانية في ظهورها ثم تحولها مع الوقت إلى طبقات صخرية، أو كتل صلبة متماسكة، وقد استغرق ذلك زمانا طويلا تعجز المقاييس البشرية عن حسابه، لأنه لم يكن هناك شمس أو قمر .

وقد عبر النص القرآني عن هذه الحقبة بيومين أو السبت والأحد على تسمية النص النبوي، والسبت كما ذكر المفسرون معناه القطع، أو حقبة الزمن المقتطعة، أو اقتطاع الكون من الماء، كما ذكر غير واحد من علماء السلف، والأحد أول بداية الفصل بين الكائنات [(١)] .

وقد جعل الله تعالى مادة الجبال بعد خلقها رواسي من فوق الأرض، وإن لم تكن وقتها ثابتة أو مستقرة، وتزامن مع ذلك خلق أصول الأشجار وعناصرها، واختلاف مادتها في مدة طويلة من حساباتنا، أو حقبة زمنية أخرى عبر عنها النص النبوي بيوم الاثنين، ثم خلق المكروه من أصناف الخلائق وأعلاه النار في حقبة زمنية أخرى تسمى يوم الثلاثاء، ثم خلق النور ومصادره من الأقمار والمجرات

---

(١) لسان العرب لابن منظور ٢/٣٦، وتاج العروس للمرتضى الزبيدي ٤/٥٣٤، وغريب الحديث للخطابي ٢/٥٢٤.

والنجوم وغيرها يوم الأربعاء وتعادل حقبة زمنية أخرى، وخلق الله ﷻ الدواب في تسلسل وجودها وأنواعها عبر مدة طويلة بحساباتنا، أو حقبة زمنية أخرى عبر عنها النص النبوي بيوم الخميس. والمقصود بخلق الدواب خلق كل ما يدب على الأرض على اختلاف الأنواع، سواء كانت دواب منقرضة كالديناصورات والدواب العملاقة، أو غيرها من الدواب المستمرة حتى وقتنا، والكائنات الدقيقة من المخلوقات.

وقد خلقت أيضا الملائكة والجن في المرحلة الأولى، فالملائكة خلقوا من نور، والجن أبناء الجان خلقوا من النار، وكانت مادتهما قد خلقت من قبل، كما ورد ذلك في صحيح مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: (خُلِقَتْ المَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لكُمْ) [1].

وقال تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾﴾ الحجر:٢٧/٢٨.

والشاهد ظاهر في كون الملائكة أسبق من الإنسان في الوجود، وآدم عليه السلام خلق في حقبة زمنية سميت يوم الجمعة. كما أن الله لم يبين لنا في شأن الجن والملائكة تفصيل بداية خلقهم، أو كيف تحققت حكمته في تدبير أمورهم؟ غير أن ما ثبت عن الجن أنهم خلقوا للعبادة من خلال معنى الابتلاء، والملائكة خلقوا أيضا للعبادة وكانت في السماء.

وقد أخبرنا الله ﷻ أنه جعل إبليس بين الملائكة من حيث الرفعة

---

(١) مسلم في الزهد والرقائق، باب في أحاديث متفرقة ٤/٢٢٩٤ (٢٩٩٦).

والمكانة، غير أنه مخلوق من المادة التي خلق منها الجن، وجمهور العلماء على أن الجان أو إبليس هو أبو الجن، كما أن الله ﷻ لم يبين لنا تفاصيل الأحداث التي تم على إثرها وجوده بين الملائكة، فوجب أن نقف على ما أخبر، ولا نخوض في ذلك بالظن .

وبعد انتهاء المرحة الأولى من الكون في ستة أيام، أو ست حقب زمنية الله أعلم ﷻ بمقدارها، استوى الرحمن على عرشه، وهو ما عبر عنه اليهود في التوراة المحرفة بأنه استراح في اليوم السابع، وهذا من الأدلة القاطعة على تحريف التوراة، لأن الأمر ليس كذلك، ولا يمكن أن تكون في الألواح التي كتبها الله بيده كذلك، فالقرآن كشف بحمد الله خطأ الأحبار وتحريفهم للكلم عن مواضعه.

وقد خلق آدم عليه السلام كأول إنسان، خلقه من تراب اختلط بالماء فصار طينا، ثم صلصالا، وبعد ذلك حمأ مسنونا، ثم سواه الله على هيئة قويمة وصورة سليمة، ثم نفخ فيه من روحه وصار إنسانا بعد أن لم يكن شيئا مذكورا. وبعد وجود آدم عليه السلام ظهرت حكمة الله ﷻ في ابتلائه بجميع المخلوقات من حوله فكانت المخلوقات منه على نوعين:

النوع الأول: ابتلى فيه الإنسان مع السماوات والأرض والجبال في قضية عرض الأمانة، وقد تقدم ذكرها وما ترتب عليها.

النوع الثاني: ابتلاه مع من سبقه في الوجود ممن لم تعرض عليهم الأمانة وهم الملائكة والجن، وكان ذلك إظهارا للعدل الإلهي في سائر الخلق، وقيام السماوات والأرض على الحق والميزان .

المطلب التاسع والعشرون

العدل الإلهي وابتلاء الإنسان بالملائكة والشيطان

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فقد تحدثنا في المطلب السابق عن المقصود بخلافة الإنسان للأرض لغة واصطلاحا، وهل يصح القول بأن الإنسان خليفة عن الله ﷻ في أرضه؟ وبينا أن استخلاف الإنسان في القرآن له عند التحقيق معنيان، وأن الخلافة عن الله ﷻ ليست عن غيبة المستخلف أو عجزه.

كما بينا معنى الخلافة عن الله ﷻ بين ابن تيمية وابن عربي، وأن ابن تيمية ينفي الخلافة عن الله على معنى النقص، وابن عربي جعل معاني الخلافة شاهدا لوحدة الوجود، ثم علمنا لماذا استخلف الله ﷻ الإنسان في الأرض؟ ولماذا عرضت الأمانة على المخلوقات؟ وأن التخيير في التسخير كان لتحقيق الرضا والمحبة في أرجاء العالم، وتناولنا الحديث بداية الكون في المرحلة الأولى، وأن تهيئة الكون في المرحلة الثانية كانت لأجل الإنسان.

وفي هذا المطلب بإذن الله نتناول الحديث عن العدل الإلهي في ابتلاء الإنسان بالملائكة والشيطان، وتكليف الملائكة بتدبير أمور الإنسان، وابتلاء الإنسان بوسواس الشيطان.

• كيف كانت المرحلة الثانية من نشأة الكون؟

يمكن القول إن الكون في مرحلته الثانية أعد خصيصا من أجل الإنسان، فقد حدثت وتمت بعد وجوده وقبل ظهور الزمان المعلوم والمعتمد على دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس، حيث ترتب تكوينها على قضية الأمانة وقبول الإنسان لها، ورفض السماوات والأرض والجبال لحملها، وقد علمنا أن الله ﷻ خير من رفضها في التسخير لمن قبلها، فقالوا جميعا: أتينا طائعين، فلما قالت السماء والأرض: أتينا طائعين، فصل الله ﷻ السماء عن الأرض من وضع الرتق والدخان في حقبتين زمنيتين كما قال: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ١٢﴾ فصلت:١٢.

بناها سبعا طباقا، رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها فجعل فيها الشمس والقمر تحديدا لنوعية الزمن الجديد الذي سيتعاقب على الإنسان والذي عبر عنه القرآن حين بدأت المرحلة الثانية بخلق السماوات ثم الأرض بقوله: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣٦﴾ التوبة:٣٦.

ثم ثني بالأرض فبسطها ودحاها ومدها، وأخرج ما كان مودعا فيها من أقوات وخيرات كما قال: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ٣٠ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ٣١ وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ٣٢﴾ النازعات:٣٠/٣٢. وكل ذلك لتستقر

الأرض للإنسان، متاعا له على وجه الابتلاء والامتحان، ومهما كان الاجتهاد في الجمع بين النصوص إلا أنه من المؤكد أن الكون أعد بعناية خاصة من أجل الإنسان؛ فهو الوحيد المستفيد من الأرض وما عليها بنص القرآن، وكل ما فيها خلق لأجله هو، ومن أجل استخلافه الذي كرمه الله به وميزه عن غيره .

ولما ذكر الله موقف الكائنات التي رفضت الأمانة وتسويتها من أجل الإنسان وتسخيرها له ابتداءً من النشأة في المرحلة الأولى حتى انتهاء المرحلة الثانية فقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ البقرة:٢٩.

قال بعدها مباشرة: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ البقرة:٣٠.

ويظهر من هاتين الآيتين ابتلاء الإنسان بمن قبل الأمانة من جهة، ثم ابتلاؤه بمن لم تعرض عليه الأمانة من جهة أخرى، وهم الملائكة ومعهم إبليس، فالأرض وما عليها من جبال والسماء قبل تهيئتها سبعا على هذا الحال شاركت الإنسان في قضية الابتلاء بقبول الأمانة أو رفضها حين عرضها الله عليهم، أما الملائكة والجان فقد سبقت وجود الإنسان وابتلاها الله ﷻ في بيان موقفهم من قضية استخلافه في الأرض وما سيترتب عليها لاحقا، ولذلك فإن خطاب الله لملائكته إني جاعل في الأرض خليفة إخبار لهم عن واقع سيحدث من جهة، وابتلاءً للمخاطبين به من جهة أخرى .

والعلة في ابتلاء هذه المخلوقات جميعها تحقيق معاني العدل والحكمة بحيث يقوم الخلق على الحق والميزان كما قال تعالى في سورة الدخان: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ الدخان:٣٨/٣٩. وقال في سورة الرحمن: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾﴾ الرحمن:٧ .

والله ﷻ جعل تحقيق الأمانة التي حملها آدم عليه السلام وكرم النوع الإنساني بسببها متمثلة في قضية استخلافه في الأرض، حيث منحه مقومات الخلافة من العلم والحرية والاستطاعة وخوله في ملكه وكلفه بأمره ليمتثل لشرعه في كل ما منحه وأعطاه، هل سيكون أمينا راعيا وفق أحكام الله؟ أم سيكفر به ويتعالى عليه ولا يرد الأمر إلى صاحبه؟

وهذه المعاني العظيمة التي ورد بها القرآن توضح الرؤية الصحيحة للعلاقة بين الله ﷻ والإنسان والعالم، تلك العلاقة التي حارت فيها الفلاسفة وعجزت العقول بمفردها عن تقديم حل مقنع لها؛ فالابتلاء يقتضي وجود مبتلِي ومبتلَى ومبتلى به، والأمانة تقتضي وجود أمين وأمانه ومالك لها، والاستخلاف يقتضي وجود مستخلف ومستخلف ومستخلف عليه، فحقيقة الابتلاء وارتباطها بمعنى الأمانة والاستخلاف حقيقة ظاهرة في نصوص القرآن والسنة تفسر بسهولة ويسر ما يعجز عنه العلم الحديث بمعطياته المتعددة .

ولو طالعنا نصوص القرآن والسنة لوجدنا أن الله ﷻ يذكرنا بهذا التكريم الذي ناله بنو آدم، وما ترتب عليه من تسخير المخلوقات لهم ومحاسبتهم في الآخرة على هذه النعم السابغة والحجج الدامغة، قال

تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ﴿٧٠﴾ ﴾ الإسراء: ٧٠ .

وعند مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ أنه قال: (قَالوا: يَا رَسُول اللهِ هَل نَرى رَبَّنَا يومَ القِيَامَةِ؟ قَال: هَل تُضَارُّون في رُؤْيَةِ الشَّمْسِ في الظَّهيرَةِ لَيْسَتْ فِي سَحَابَةٍ؟ قَالوا: لاَ، قَال: فَهَل تُضارُّون في رُؤْيَةِ القَمَرِ لَيلَةَ البَدْرِ لَيسَ في سَحَابَةٍ؟ قَالوا: لاَ، قَال: فَوَالذي نفسي بِيَدِهِ لاَ تُضَارُّونَ في رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ إلاَّ كَمَا تُضارُّون في رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا، فَيَلقَى العَبْدَ فَيَقُول: أي فُل، أَلَمْ أُكرِمْكَ وَأُسَوِّدْكَ وَأُزَوِّجْكَ وَأُسَخِّرْ لكَ الخَيْلَ وَالإِبِل وَأَذرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ؟ فَيَقُول: بَلى، فَيَقُول: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلاَقِيَّ؟ فَيَقُول: لاَ، فَيَقُول: فَإني أَنْسَاكَ كَمَا نسيتني)[1] .

وهذه النعم التي لا تحصى ولا تعد توجب علينا شكر الله بغير حد، ولازم الشكر كمال الطاعة والخضوع لله ﷻ وتوحيد العبودية له بلا شريك. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ الأعراف: ١٠ .

وقال سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ﴿٣٤﴾ ﴾ إبراهيم: ٣٢/٣٤ .

---

(١) رواه مسلم في كتاب الزهد والرقائق ٤/٢٢٧٩ (٢٩٦٨) .

وقال تعالى عن تسخير الأرض ومن عليها وتهيئة السماء بشموسها وأقمارها ونجومها: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩﴾ النحل:٥/٩.

ولما كانت الأنعام مسخرة للإنسان على وجه الابتلاء تكريما له إذ قبل الأمانة ورفضها من رفضها من الخلائق شرع لنا ربنا أن نتذكر خالقها ومالكها، وأن نذكره بالعلو والتنزيه عند الاستواء على ظهورها فقال: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ۝١٢ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝١٣﴾ الزخرف:١٢/١٣ .

وفي غير موضع من القرآن يذكر الله ﷻ الإنسان بالعلة من وجود المخلوقات على هذا الحال، وأن ينظر في نعمه التي توجب النظر والتفكر والشكر والتذكر والرجوع إلى الله بدوام الافتقار كما قال رب العزة والجلال: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٨﴾ النحل:١٠/١٨. ويلاحظ في منهج الآيات المماثلة أن الله ﷻ يعدد نعمه وفضله على الإنسان بتهيئة الأسباب له ثم يذكر بعدها إلزامه بالتكليف والحساب؛ لأن هذه المخلوقات سخرها له وطوعها كأمانة بين يديه استخلفه عليها وسوف يسأل عنها بالضرورة، والقرآن والسنة فيهما من هذا القبيل الكثير والكثير؛ فكل تلك المخلوقات مسخرات

بأمر الله ﷻ قائمات على خدمة الإنسان، باقيات بمشيئة الله ﷻ لأداء دورها في تحقيق معنى الأمانة والاستخلاف. فإذا انتهت دار الامتحان والابتلاء، هيأ الله ﷻ دارا أخرى للحساب والجزاء تحقق كمال الحكمة وتظهر مقتضى العدل الإلهي، وعندها تبدأ مرحلة الحياة الدنيا في الاضمحلال والزوال حيث تنفطر السماء وتكون الشمس قد تكورت، والنجوم انتثرت وتبعثرت، وسيرت الجبال، وعطلت العشار، وسجرت البحار، وزلزلت الأرض زلزالها، وأخرجت بعد تبديلها وتغيرها أثقالها، فالسماوات التي رفعها الله ﷻ وفصلها عن الأرض من أجل الإنسان سوف تتغير بعد انتهاء دورها في انقلاب كوني شامل يغير معالم الحياة الدنيا، ويبدلها إلى أرض جديدة بيضاء عفراء كقرصة النقي ليس فيها علم لأحد تتناسب مع دار الجزاء وأمور الآخرة.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ الأنبياء:١٠٤. وقال ﷻ: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ الفرقان:٢٥/٢٦.

وقال سبحانه أيضا: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾ النمل:٨٦/٩٠.

كما أن الله ﷻ أخفى وقت قيام الساعة لتظهر حكمته في ابتلاء الإنسان ويرى سعيه في العبادة والإيمان. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ۝١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ۝١٦﴾ طه:١٥/١٦.

وبذلك يحرص الإنسان دائما على طلب النجاة في الدنيا والآخرة، ويعلم أن سعادته في الدنيا مرهونة بالاستجابة لتدبير الله الشرعي والاستعانة بتدبيره الكوني، فيرجع على الدوام إليه ويتوكل عليه، ويخافه ويرجوه، ويحبه ويدعوه طالما أن أزمة الأمور بيديه ومرجعها إليه، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن. قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝١٩ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٠﴾ العنكبوت:١٩/٢٠.

وهكذا يرى الموحدون الكون في كمال الانضباط، كل يسير خاضعا لأمر الله ﷻ لا الشمس تتأخر لحظة ولا القمر يتخلف عن موعده ليلة، وكل في فلك يسبحون، قال تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٤٠﴾ يس:٤٠ .

- وجود العالم بهذا الكمال ليس مجرد انفجار عشوائي .

ومن ثم فإن الكون لم يكن على هذا الحال وبهذا الإبداع والكمال لمجرد انفجار عشوائي مفاجئ كما تقول نظرية الانفجار، بل بنى أركانه الملك الجبار الكبير المتعال، وأمسكه بقدرته من التخبط

والزوال كما بين ذلك في غير موضع من كتابه فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤١﴾ ﴾ فاطر:٤١. وقال أيضا: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٦٥﴾ ﴾ الحج:٦٥ .

وهذا الكون كما حدد الله ﷻ غايته في ثبات وأمان تتوالى أيامه على مر الزمان منذ أن رفع الله السماء وفتقها وبسط الأرض ومدها، ليحقق للإنسان حقيقة الابتلاء والامتحان كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ التوبة:٣٦ .

ولم يكن الإنسان يوما خلية أولية، ثم تطورت فأصبحت قردة برمائية، ثم تطورت فكونت السلالة البشرية إلى غير ذلك من فكر دارون ودعاوى الماركسية، ولم يكن آدم عليه السلام نسلا من سلالة بشرية همجية جعلها الله تعالى كما زعم البعض تجارب إلهية، ثم طورها فسواها وعدلها بمواصفات مثالية، بل خلقه الله ﷻ كما جاء في نص الكتاب والسنة من تراب اختلط بالماء فصار طينا ثم صلصالا ثم حمأ مسنونا. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾ آل عمران:٥٩ .

وعند أبي داود وصححه الألباني من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الأَرْضِ، جَاءَ مِنْهُمُ الأَحْمَرُ وَالأَبْيَضُ وَالأَسْوَدُ، وَبَيْنَ ذلك وَالسَّهْلُ وَالحَزْنُ وَالخَبِيث وَالطَّيِّبُ) [١].

ومن ثم يمكن لكل عاقل أن يدرك سر خلق العالم على هذا الوضع الذي نراه، وهل سيبقى على ذلك أبد الآبدين أم ليوم معلوم وأجل محتوم قدره الله ﷻ؟ وهل هذا العالم الذي نعيش فيه على الأرض يحقق بالفعل تميزا مخصوصا للإنسان؟ وكثير من الأسئلة التي تتردد على الأذهان سوف يجد لها الدليل والبرهان بإذن الله تعالى.

وقد أثبتت معطيات العلم الحديث أن الأرض مع كونها كوكبا صغيرا في مجموعة نجمية يطلق عليها المجموعة الشمسية، وهي كما تقول الدراسات الحديثة مجموعة صغيرة في مجرة متوسطة بين مائة ألف مليون من مختلف المجرات إلا أنهم اكتشفوا أن هذا الكون باتساعه المستمر إنما جعل لثبات الأرض واستقرارها الزمني فترة مخصوصة تمثل زمن الحياة الدنيا، هذا من خلال الدقة المتناهية في مدار الأرض حول الشمس، ومدار الشمس حول مركز المجرة، ومركز المجرة يدور في فلك لا يعلم مساره إلا الله ﷻ، بل يمكن القول: إن هذا الكون هو أساس الاستقرار

---

(١) رواه الترمذي في تفسير القرآن، باب ومن سورة البقرة ٥/٢٠٤ (٢٩٥٥)، وأحمد في المسند ٤/٤٠٠ (١٩٥٩٧)، وأبو داود في كتاب السنة، باب في القدر ٤/٢٢٢ (٤٦٩٣)، وصححه الشيخ الألباني، انظر السلسلة الصحيحة (١٦٣٠)، ومشكاة المصابيح (١٠٠).

لجميع الكائنات التي على الأرض، والتي هيئت بالطبع من أجل استخلاف الإنسان .

ذكر العالم الفيزيائي النووي أُميد شمشك أن الفضاء والزمان مفهومان يشكلان توازنا متكاملا في الكون لا يمكن فصل إحداهما عن الآخر، فتقليص إحداهما يؤدي إلى تقليص الآخر وبنفس النسبة، فلو كان الكون عبارة عن مجرة درب التبانة فقط لتقلص بقاء الكون إلى شهرين فقط، وفي هذه الفترة القصيرة من الزمن لا يمكن وجود الإنسان وبقية الكائنات على الأرض بهذا الحال، فالكون ومن ضمنه مجموعتنا الشمسية وجدت بعناية خاصة لتهيئة كرتنا الأرضية وجعلها صالحة لظهور مختلف أنواع الأحياء، وأخيرا لكي تكون صالحة لسكن الضيف العزيز المدعو بالإنسان [(١)] .

وقد رد في صحيح السنة أن الله ﷻ خلق الملائكة من نور، وأن الجن خلقوا من نار وأن آدم عليه السلام خلق بعدهم، فعند مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: (خُلقَتْ المَلائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلقَ الجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لكُمْ) [(٢)].

كما أن الله خلق الإنسان الأول من قبضة منتقاة قبضها من جميع تراب الأرض، ثم اختلط التراب بالماء فصار طينا، ثم جفف الطين فصار صلصالا، ثم حمأ مسنونا بعد ذلك، والدليل على أن الإنسان الأول خلق من قبضة منتقاة قبضها من جميع تراب الأرض ما ورد في

---

(١) الانفجار الكبير ص١١٠ .

(٢) رواه مسلم في الزهد والرقائق، باب في أحاديث متفرقة ٤/٢٢٩٤ (٢٩٩٦).

حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه الذي تقدم. وكذلك قوله تعالى عن خلق الإنسان من تراب: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ الروم:٢٠.

وقال تعالى عن خلق الإنسان من ماء: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾ الفرقان:٥٤. أما خلقه من طين فقد ورد في قوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾﴾ السجدة:٧. وأما خلقه من صلصال فقد ورد في قوله: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾﴾ الرحمن:١٤. وأما عن كونه خلق من حمأ مسنون فقد ورد في قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾﴾ الحجر:٢٨. ثم سواه الله على هيئة معتدلة قويمة كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ الانفطار:٦/٨ ، والجمع بين هذه النصوص يقتضي ما ذكرنا.

ولما خلق الله الإنسان أبقاه حينا من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ولا تعرف الكائنات له قدرا أو شرفا، كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾ الإنسان:١. قال القرطبي: (أي قد أتى على الإنسان حين لم يكن له قدر عند الخليقة، ثم لما عرف الله الملائكة أنه جعل آدم خليفة وحمله الأمانة التي عجزت عنها السماوات والأرض والجبال ظهر فضله على الكل فصار مذكورا) [١] .

---

(١) تفسير القرطبي ١٩/١١٩.

وقد ورد في القرآن ما يدل على أن وجود الملائكة والجن أسبق من وجود الإنسان الأول، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾﴾ الحجر:٢٦/٢٨ . فقوله: والجان خلقناه من قبل أي من قبل وجود الإنسان الأول، والجان هو إبليس أبو الجن على رأي الجمهور.

قال الشوكاني: (الجان أبو الجن عند جمهور المفسرين، وقال عطاء والحسن وقتادة ومقاتل: هو إبليس وسمي جانا لتواريه عن الأعين يقال: جن الشيء إذا ستره فالجان يستر نفسه عن أعين بني آدم، ومعنى من قبل من قبل خلق آدم) [(١)]. وقال ابن جرير: (عني بالجان هاهنا إبليس أبا الجن يقول تعالى ذكره وإبليس خلقناه من قبل الإنسان من السموم.. خلق قبل آدم) [(٢)].

وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ الحجر:٢٨/٢٩.
يدل بوضوح على وجود الملائكة قبل الإنسان، وكذلك ما رواه البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ، طُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا، فَلَمَّا خَلَقَهُ قَالَ: اذهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أُولَئِكَ النَّفَرِ مِنَ المَلَائِكَةِ جُلُوسٌ، فَاسْتَمِعْ مَا يُحَيُّونَكَ، فَإِنَّهَا تَحِيَّتُكَ

(١) فتح القدير للشوكاني ٣/١٣٠.
(٢) تفسير الطبري ١٤/٣٠، وانظر أيضا الدر المنثور للسيوطي ٥/٧٨، وتفسير أبي السعود ٨/١٧٩، وتفسير الثعالبي ٤/٢٤٢.

وَتَحِيَّةُ ذرِّيَّتِك، فَقَال: السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ، فَقَالوا: السَّلاَمُ عَلَيْك وَرَحْمَةُ اللهِ، فَزَادُوهُ وَرَحْمَةُ اللهِ، فَكُل مَنْ يَدْخُل الجَنَّةَ عَلى صُورَةِ آدَمَ، فَلمْ يَزَل الخَلقُ يَنْقُصُ بَعْدُ حَتَّى الآنَ) [(١)] .

وقد روى ابن جرير بسند موقوف على أنس بن مالك ﷺ أنه قال: (إن الله خلق الملائكة يوم الأربعاء وخلق الجن يوم الخميس وخلق آدم يوم الجمعة) [(٢)]. وفي هذه الرواية نظر وإن كانت موافقة لما سبق من حيث الجملة.

وينبغي التنبه إلى أن الأحداث المتعلقة بالإنسان وابتلاء الملائكة والجان ببيان موقفهم منه لا بد أن تؤخذ من نصوص القرآن والسنة مجتمعة، لأن كل نص يصف الحدث من زاوية معينة، أما كامل الحدث فيؤخذ من مجموع النصوص، فمثلا آيات سورة الحجر السابقة هي من قبيل الوصف المجمل المفصل في مواضع أخرى، فإن الله ﷻ بين في سورة البقرة أنه أخبر الملائكة عن خلافة الإنسان في الأرض وأنهم عقبوا بكونه سيفسد فيها ويسفك الدماء، ثم علم آدم الأسماء، وعجزت الملائكة عن الإخبار بها، ثم أمرهم بعد ذلك بالسجود.

وقد نبه أبو السعود على هذا الأمر حيث قال: (فالذي يقتضيه

---

(١) أخرجه البخاري في الاستئذان، باب بدء السلام ٢٢٩٩/٥ (٥٨٧٣)، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير ٢١٨٣/٤ (٢٨٤١).

(٢) انظر تفسير ابن جرير الطبري ١٩٩/١، وتفسير ابن أبي حاتم ٧٧/١، والدر المنثور للسيوطي ١١٢/١ .

التحقيق ويستدعيه النظر الأنيق بعد التصفح في مستودعات الكتاب المكنون والتفحص عما فيه من السر المخزون أن سجودهم له عليه السلام إنما ترتب على الأمر التنجيزي المتفرع على ظهور فضله عليه السلام المبني على المجاورة المسبوقة بالإخبار بخلافته، المنتظم جميع ذلك في سلك ما نيط به الأمر التعليقي من التسوية ونفخ الروح، إذ ليس من قضيته وجوب السجود عقيب نفخ الروح فيه، فإن الفاء الجزائية ليست بنص في وجوب وقوع مضمون الجزاء عقيب وجود الشرط من غير تراخ) [١].

كما أن مقتضى العقيدة الصحيحة في الغيبيات أن يقف المسلم عند النصوص، فما ورد آمن به، وقال به، وما لم يرد رد علمه إلى الله عز وجل، ولم يبين الله في كتابه أو في سنة رسوله ﷺ متى كان خلق الملائكة أو الجن على وجه التحديد؟ غير أنهم كانوا أسبق من الإنسان في الوجود. ولا نعلم أيضا كيف تحققت حكمة الله في ابتلاء الجان وذريته عند نشأتهم؟ أو كيف صار إبليس في منزلة الملائكة؟ وكيف أصبح بينهم بحيث إن الخطاب إليهم يشمله ولا يستثني منه؟ فلم يثبت ذلك في نص مرفوع إلى النبي ﷺ، وقد علمنا مما سبق أن الله عز وجل لما خلق آدم عليه السلام ابتلى به جميع الكائنات الموجودة وقتها، فكان موقف المخلوقات منه على نوعين:

الأول: نوع شارك الإنسان في قبول الأمانة أو رفضها حيث ابتلاهم الله جميعهم بها، فرفضتها السماوات والأرض والجبال وقبلها الإنسان، ثم خير الله من رفضها في الإتيان طوعا أو كرها لمن قبلها،

---

(١) تفسير أبي السعود ١/ ٨٨.

فانقادت لأمره عن طاعة ومحبة وتسليم، فسخرها بعدله وقدرته، وهيأها بأمره وحكمته، لتمكين الإنسان فيها من وضع معين يسمح له بأداء الأمانة وتحقيق الابتلاء، ثم رفعه الله وكرمه واستخلفه واستأمنه، فأصبح الإنسان شيئا مذكورا مميزا عن غيره بعد أن كان مجهولا، وبهذا جعل الله من رفض الأمانة مسخرا لمن قبلها .

الثاني: موقف بقية المخلوقات التي وجدت قبل الإنسان، ونالت أعلى درجات القرب والإيمان، ولم تشاركه مع المخلوقات في قضية حمل الأمانة، وهؤلاء هم الملائكة ومعهم الجني إبليس الذي يمثل جنسه من الجن .

- **العلة في إعلام الله تعالى للملائكة بخلافة الإنسان .**

الحكمة أو العلة في إعلام الله ﷻ للملائكة وإبليس باستخلاف الإنسان في أرضه كما ذكر البيضاوي أن ذلك كان امتحانا لهم، وإظهارا لفضله [(١)] .

وذلك ليرى موقفهم ممن استخلفه في أرضه دونهم، بعد أن كرمه وهيأ الكون من أجله بعدله، وشق له من اسمه ووصفه فكانت الأسماء عند تجردها تمثل قدرا مشتركا بين الله وعبده، وإن كانت عند إضافتها تمثل قدرا فارقا في توحيد الله ﷻ الذي ليس كمثله شيء، وبناء على موقف الملائكة وإبليس، أو بتعبير آخر بناء على رد فعلهم تجاه حكمة ربهم سوف يتحقق فيهم العدل والإنصاف كما تحقق للإنسان في قضية الاستخلاف، فإعلام الله ﷻ لهم باستخلاف الإنسان إنما هو اختبار

---

(١) تفسير البيضاوي ١/٢٩٢ بتصرف.

وامتحان يترتب عليه تقرير المصير، وبيان حكمة الله ﷻ في سائر ما يخصهم من أنواع التدبير .

ولما قال الله للملائكة:﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ البقرة:٣٠. كان رد فعلهم أن قالوا لربهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ البقرة:٣٠. والرد المتوقع من الملائكة ومعهم إبليس أن يكون بخلاف ما صدر منهم، كأن يقولوا مثلا: أنت ربنا والكل عبيدك افعل بنا أو بغيرنا ما تشاء إنك أنت العليم الحكيم. أما قولهم : ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ تعميم لم يستثنوا فيه أحدا حتى الرسل والأنبياء أو خاصة العباد من الأولياء، وإن قيل إنهم استعملوا القياس بين من سبق من الجن وما يكون عليه الناس فالإفساد في الأرض وسفك الدماء وجب أن يحمل على الظن أو الاحتمال لا على القطع بوقوع السوء من الأفعال، وقد رد الله ﷻ عليهم ذلك بقوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٠﴾ البقرة:٣٠.

قال ابن القيم: (لما اعترضت الملائكة على خلق الإنسان، وقالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء، أجابهم سبحانه بأن في خلقه من الحكم والمصالح ما لا تعلمه الملائكة، والخالق سبحانه يعلمه، وإذا كانت الملائكة لا تعلم ما في خلق هذا الإنسان الذي يفسد في الأرض ويسفك الدماء من الحكم والمصالح، فغيرهم أولى أن لا يحيط به علما، فخلق هذا الإنسان من تمام الحكمة والرحمة والمصلحة) [١] .

---

(١) شفاء العليل لابن القيم ص٢٤٩.

وقد أثبت الله لهم أن الإنسان بأوصافه التي جعلت للابتلاء مناسب لاستخلافه لاسيما لو علمه الأسماء: ﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ البقرة:٣٣ .

روي عن ابن عباس ﷺ أنه قال: (إياكم والرأي فإن الله تعالى رد الرأي على الملائكة وذلك أن الله قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ البقرة:٣٠) [(١)] .

كما أن قول الملائكة: ﴿وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ البقرة:٣٠. فيه ذكر لأنفسهم بالفضل وكمال العبادة، والله ﷻ أجل من أن يخفى عليه شيء من أفعال عباده. وقولهم أيضا فيه إشارة بالرغبة في تولي الخلافة بدلا من الإنسان، وتقليل من شأنه بإمكانية الإفساد والعصيان، ومعلوم أن الراسخين من العابدين إذا بلغ خضوعهم أعلاه كشأن النبي ﷺ عندما تورمت قدماه لا يذكرون عبادتهم لله بمدح وافتخار؛ بل يذكرونها على وجه التقصير والافتقار والذل والانكسار.روى البخاري من حديث المغيرة بن شعبة ﷺ أنه قال: (قَامَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَمَاهُ، فَقِيلَ لهُ: غَفَرَ اللهُ لكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذنْبِك وَمَا تَأَخَّرَ، قَال: أَفَلا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا) [(٢)] .

---

(١) تفسير السيوطي ١/١١٣.

(٢) البخاري في التفسير، باب تفسير سورة الفتح ٤/١٨٣٠ (٤٥٥٦)، ومسلم في صفة القيامة، باب إكثار الأعمال والاجتهاد فى العبادة ٤/٢١٧١ (٢٨١٩).

والقصد أن رد الملائكة ومعهم إبليس لم يكن على النحو المطلوب، وليس ذلك شأن المحب في سلوكه مع المحبوب، فسبحانه وتعالى علام الغيوب ومقلب القلوب، يتدارك بفضله من شاء من خلقه، ويذل من شاء بعدله في ملكه، وحكمته في خلقه تفوق التصور والحدود ولهذا ابتلاهم الله ﷻ جميعا بالسجود ليختبرهم ويرى مدى صدقهم في قولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ البقرة:٣٠ .

• كيف علمت الملائكة أن الخليفة سيفسد في الأرض؟

من الصعب الجزم بإجابة معينة لهذا السؤال لأنه لم يرد نص صريح يبين كيف علمت الملائكة أن الإنسان سيفسد في الأرض أو يسفك الدماء؟ فالسؤال موجه أيضا للملائكة أنفسهم كتعقيب على ردهم. وهناك أقوال أخرى للمفسرين كقول بعضهم: علمت الملائكة ذلك من الجن لأنهم أسبق من الإنس فأفسدوا في الأرض وسفكوا الدماء، لكن ذلك يفتقر إلى دليل صحيح مرفوع [(١)]. وقيل: علموا ذلك لأن الله هو الذي أخبرهم مسبقا بأنه سيخلق الإنسان ليفسد في الأرض ويسفك الدماء؟ فهناك إضمار في الكلام إظهاره أنه قال لهم: إني جاعل في الأرض خليفة، قالوا: ربنا ما يكون ذاك الخليفة؟ قال: يكون له ذرية يفسدون في الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضا، فقالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء [(٢)] .

---

(١) تفسير الطبري ١/٢٣٢.

(٢) تفسير ابن كثير ١/٧١.

وهذا بعيد جدا لأنه لو كان اعتماد القائلين ذلك على ظاهر الآية فقط، فإن ذلك من قبيل التأويل بغير دليل ولا يدل عليه ظاهر النص ولا لوازمه، فلا يقبل مثل هذا الكلام إلا بدليل صحيح مرفوع.

ولهذا عقب ابن جرير على هذا الرأي بقوله: (وهذا إذا تدبره ذو الفهم علم أن أوله يفسد آخره، وأن آخره يبطل معنى أوله، وذلك أن الله جل ثناؤه إن كان أخبر الملائكة أن ذرية الخليفة الذي يجعله في الأرض تفسد فيها وتسفك الدماء فقالت الملائكة لربها: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟ فلا وجه لتوبيخها على أن أخبرت عمن أخبرها الله عنه أنه يفسد في الأرض ويسفك الدماء بمثل الذي أخبرها عنهم ربها) [١].

وقد قال بعضهم أيضا إن الملائكة الذين قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء خلقوا من نار السموم، وكانوا من قبيلة إبليس خاصة دون الملائكة الذين في السماوات أو الذين خلقوا من نور، فلما علمت الملائكة الذين خلقوا من نور مؤاخذة الله على الذين خلقوا من نار السموم فيما تكلموا به من علم الغيب الذي لا يعلمه غيره والذي ليس لهم به علم، قالوا سبحانك تنزيها لله من أن يكون أحد يعلم الغيب غيره، تبنا إليك لا علم لنا إلا ما علمتنا كما علمت آدم، فقال: يا آدم أنبئهم بأسمائهم، فلما أنبأهم بأسمائهم قال: ألم أقل لكم أيها الملائكة خاصة إني أعلم غيب السماوات والأرض ولا يعلمه غيري، وأعلم ما تبدون أو ما تظهرون، وما كنتم تكتمون يعني ما كتم إبليس في نفسه

---

(١) تفسير الطبري ١/٢٠٤.

من الكبر والاغترار [١] .

لكن هذا الرأي يحتاج إلى دليل واضح من السنة تطمئن إليه النفس، ولم أجد فيما وقع تحت يدي نصا صحيحا مرفوعا في الموضوع، وكل ما ورد فيه مقال، مثل ما رواه ابن أبي الدنيا في كتاب التوبة عن أنس ﷺ قال رسول الله ﷺ: (إن أول من لبى الملائكة قال الله: إني جاعل في الأرض خليفة، قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء قال: فزادوه فأعرض عنهم، فطافوا بالعرش ست سنين يقولون: لبيك لبيك اعتذارا إليك، لبيك لبيك نستغفرك ونتوب إليك) [٢] .

وهناك قول آخر وهو الأقرب عندي إلى الصواب لأنه مبني على معنى الخلافة، ولا يحتاج إلا إلى المقارنة والنظر في النصوص، فالملائكة علمت ذلك من معنى الاستخلاف نفسه لأن المستخلف في الشيء أمين عليه فيمكن أن يؤديه إلى صاحبه ويمكن أن يستحوذ عليه ويستأثر به لنفسه ظلما وكفرا بالحقوق، فالعاقل يعلم أن الاستخلاف يلزم منه أن يكون المستخلف لديه إمكانية الوفاء وأداء الأمانة إلى صحبها أو الغدر والقتل وسفك الدماء؛ فالملائكة علمت أن الإنسان يمكن أن يفعل ذلك لو استخلفه الله في الأرض، وهي عن نفسها ترى التعظيم المطلق لله ﷻ وهي أقدر على عدم العصيان.

---

(١) السابق ١/٢٠٢.

(٢) تفسير الدر المنثور للسيوطي ١/١١٣ وانظر تفصيل هذه الأقوال في فتح القدير للشوكاني ١/٦٣، تفسير ابن جرير الطبري ١/٢٠١، زاد المسير لابن الجوزي ١/٥٩، تفسير الواحدي ١/٩٨، تفسير القرطبي ١/٢٧٤، تفسير القرآن لعبد الرزاق بن همام الصنعاني ١/٤٢، وتفسير ابن كثير ١/٧١ .

من أجل ذلك قالت: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ البقرة:٣٠. وكأنها تقول إن أردت أن تستخلف فاستخلف من لا يعصيك.

• هل الملائكة كانت مستفسرة أم مستنكرة؟

سياق النص يقتضي الاستنكار وشأن الملائكة يقتضي الاستفسار كما ذكر الله ﷻ وصفهم في القرآن فقال:

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ الأنبياء:٢٦/٢٧. وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ التحريم:٦.

والجواب أنه لا شك أن الملائكة الذين خاطبهم الله ﷻ بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ البقرة:٣٠. هم الذين خاطبهم بقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ البقرة:٣٤. وذلك لأن الله ﷻ جمع الخطابين في موضع واحد فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾﴾ الحجر:٢٨/٣١. فإبليس لا شك أنه كان بين القائلين: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ البقرة:٣٠.

ومن ثم فإن قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ

﴿نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ البقرة:٣٠. قول مشترك لم يصدر من الملائكة فقط الذين خلقوا من النور ولكن صدر أيضا من إبليس الذي خلق من النار وله حكم الملائكة في مشاركة الخطاب والجواب.

قال ابن كثير: (لما أمر الملائكة بالسجود لآدم دخل إبليس في خطابهم لأنه، وإن لم يكن من عنصرهم إلا أنه كان قد تشبه بهم وتوسم بأفعالهم، فلهذا دخل في الخطاب لهم وذم في مخالفة الأمر) [١] .

ومن ثم فإن الاستنكار كان من إبليس لأن امتناعه عن السجود كشف عن سريرته، وظهر حقده على آدم وذريته، وقد بين الله ﷻ غروره واستكباره، وتشكيكه أيضا في حكمة الله تعالى؛ حيث رأى نفسه أنه والملائكة أفضل لهذه المنزلة الرفيعة التي وصل إليها الإنسان.

أما الملائكة الذين خلقوا من نور فموقفهم كما ذكر ابن كثير: (إنما سؤالهم سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك، يقولون: يا ربنا ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء؟ فإن كان المراد عبادتك فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك ولا يصدر منا شيء من ذلك وهلا وقع الاقتصار علينا؟) [٢] .

لكنهم بقولهم هذا كانوا يرغبون أن يكون الخليفة في الأرض على صفة الطاعة المطلقة لا يعصي الله أبدا، ولما كانت هذه صفتهم فهم أولى بهذا الوصف من الإنسان، ولذا قالوا ما معناه: لو أردت أن تستخلف استخلف من لا يعصيك، يعنون أنفسهم .

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٧٨.

(٢) السابق ١/٧٠ .

ومهما كان المعنى فإن الملائكة كانوا يرون الاقتصار عليهم في مسألة الاستخلاف خشية أن يعصي الإنسان ربه ويسفك الدماء، والله ﷻ أجل من أن يعصي، وكان إبليس يرى أنه والملائكة أولى بهذه المنزلة الرفيعة التي تميز بها الإنسان عمن حوله من الكائنات، فكان جواب الله لهم جميعا أنه قال: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٠﴾ البقرة:٣٠. فالله حكيم في فعله والإنسان الذي خلقه الله ليستخلفه في الأرض سوف يعطيه إمكانية العلم بجميع الأشياء التي يتمكن بها من التمييز بين ما ينفعه وما يضره، ويزداد بزيادة العلم معرفة وخشية وقربة من ربه، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ٢٨﴾ فاطر:٢٨ .

ومن ثم علّم الله آدم عليه السلام أسماء الأشياء من حوله، وعرفه كيف يزداد بمعرفة خصائصها قربة من ربه، ومن ثم يزداد بذلك خشية لله ﷻ وتعظيما فقال ﷻ: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣١﴾ البقرة:٣١. أي صادقين في أنه لا يعرف إلا القتل وسفك الدماء.

قال ابن جرير الطبري في معنى الآية: (أنبئوني بأسماء من عرضته عليكم أيتها الملائكة القائلون: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء من غيرنا أم منا فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك، إن كنتم صادقين في قيلكم أني إن جعلت خليفتي في الأرض من غيركم عصاني وذريته وأفسدوا وسفكوا الدماء، وإن جعلتكم فيها أطعتموني واتبعتم أمري

بالتعظيم والتقديس)[1].

ثم يبين ابن جرير أن الله قال لهم، فإنكم إن كنتم لا تعلمون أسماء هؤلاء الذين عرضتهم عليكم من خلقي وهم مخلوقون موجودون ترونهم وتعاينونهم وعلمه غيركم بتعليمي إياه فأنتم بما هو غير موجود من الأمور الكائنة التي لم توجد بعد وبما هو مستتر عن أعينكم من الأمور الموجودة أحرى أن تكونوا غير عالمين؛ فلا تسألوني ما ليس لكم به علم فإني أعلم بما يصلحكم ويصلح خلقي. وقوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٠﴾ البقرة:٣٠. يعني بذلك ـ والكلام ما يزال لابن جرير ـ إني أعلم أن بعضكم فاتح المعاصي وخاتمها وهو إبليس منكرا بذلك تعالى ذكره قولهم، ثم عرفهم موضع هفوتهم في قيلهم ما قالوا من ذلك بتعريفهم قصور علمهم عما هم له شاهدون عيانا؛ فكيف بما لم يروه، ولم يخبروا عنه بعرضه ما عرض عليهم من خلقه الموجودين يومئذ؟ وقيله لهم أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين أنكم إن استخلفتكم في أرضي سبحتموني وقدستموني، وإن استخلفت فيها غيركم عصاني ذريته وأفسدوا وسفكوا الدماء فلما اتضح لهم موضع خطأ قيلهم وبدت لهم هفوة زلتهم أنابوا إلى الله بالتوبة، فقالوا: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٣٢﴾ البقرة:٣٢[2].

• لماذا أمر الله الملائكة بالسجود لآدم؟

قد يسأل سائل عن العلة في أمر الله ﷻ للملائكة بالسجود لآدم عليه السلام،

---

(١) تفسير الطبري ١/٢١٨.

(٢) السابق ١/٢١٩ بتصرف.

ولِمَ لَمْ يكن الأمر بالسجود له سبحانه بدلا من آدم؟

من المعلوم أن السجود لغير الله شرك أكبر وظلم عظيم كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ لقمان:١٣. والشرك في الأصل مبني على معنى التشبيه، فتشبيه المخلوق بالخالق شرك في العبادة، وتشبيه الخالق بالمخلوق شرك في أسماء الله وصفاته، والتشبه بالخالق شرك في الربوبية، وقد يكون كل نوع من هذه الثلاثة شركا أكبر أو أصغر على ضوابط معلومة في الكتاب والسنة. والسجود لغير الله من النوع الأول وهو شرك أكبر لا يغفر إلا بالتوبة، أما إن كان السجود لغير الله بأمر الله عز وجل فهو من أعظم علامات المحبين الصادقين، بل هو برهان الموحدين؛ لأن أحكام المحبة تقتضي تنفيذ أمر المحبوب دون استفسار أو سؤال، والتنفيذ يعطي العبودية معنى الكمال، لما فيه من إذلال النفس لأمر معبودها وخالقها، ولذلك كانت الأحكام التعبدية من علامات الصدق في أداء العبودية، فتقبيل الحجر بأمر الله أو الطواف سبعا ببيت الله أو صلاة الظهر والعصر والعشاء أربعا بالتحديد على سنة رسول الله ﷺ من علامات الموحدين الصادقين في دعوى العبودية، وإن كانوا يجهلون العلة في ذلك. روى البخاري من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أَنَّهُ جَاءَ إِلَى الحَجَرِ الأَسْوَدِ فَقبَّلَهُ، فقَال: (إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ لا تَضُرُّ وَلا تَنْفَعُ، وَلوْلا أَنِّي رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يُقبِّلُكَ مَا قَبَّلْتُكَ) [1] .

---

(١) رواه البخاري في الحج، باب ما ذكر في الحجر الأسود ٢/٥٧٩ (١٥٢٠)، ومسلم في الحج، باب استحباب تقبيل الحجر الأسود ٢/٩٢٥ (١٢٧٠).

ولذلك اقتضت حكمة الله ﷻ أن تكون أحكام التكليف على نوعين: نوع فيه علة الأمر معلومة وعليها يدور الحكم حيث دار، كعلة تحريم الخمر عند وجود الإسكار، ونوع تعبدي لا علة له إلا إثبات الطاعة لله ﷻ وخضوع النفس بالذل والانكسار، وشعورها بالحب عند إذلالها بالعبودية لسيدها ومالكها، ومن ثم فإن أمر الله ﷻ للملائكة وإبليس على وجه الخصوص بالسجود لأدم عليه السلام له عدة أسباب أظهرت الحكمة الإلهية في أفعال الله تعالى، وقد تجلى أبرزها فيما يلي:

أولا: أن يعلم الإنسان مكانته عند الله ﷻ وعظم المهمة التي كلفه بها والتي من أجلها أسجد له ملائكته؛ فيدفعه ذلك إلى الطاعة والإيمان والتفكر بإمعان أبعد هذا الفضل والتكريم يتجرأ عاقل على الكفر والعصيان؟ .

ثانيا: أن أمر الله ﷻ بالسجود لآدم ابتلاء للملائكة واختبار لهم في إظهار مدى صدقهم لما قالوا لربهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ البقرة:٣٠. فكانت حقيقة الابتلاء في قول الله ﷻ لهم: اسْجُدُوا لِآدَمَ، وهو أمر تكليفي وحكم تعبدي اختياري حتى لو كان بالسجود للإنسان، شأنه في ذلك شأن التخيير في الطاعة أو العصيان، فمن سجد منهم فقد صدق في قوله وكشف عن مراده، ومن امتنع كان ادعاؤه للتسبيح والتقديس كذبا وزورا وعلوا واستكبارا وانطبق عليه ما ورد في قول الله تعالى: ﴿۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّيٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩﴾ الأنبياء:٢٩.

ثالثا: أن سجود الملائكة لآدم عليه السلام إقرار منهم بمنزلة الإنسان وتعظيم

لدوره في حمل الأمانة وابتلائه بين الكفر والإيمان، وأنه خليفة الله ﷻ في أرضه على وجه الابتلاء، وأنه الوحيد الذي ميزه وكرمه وفضله على كثير من المخلوقات، فهو القائم على أرض الله ﷻ بأمره وشرعه، وهو المستفيد منها إلى قيام الساعة بمشيئته وإذنه، فمن سجد لآدم عليه السلام أقر بذلك، ومن امتنع منهم كان معترضا على فعل الله ﷻ مشككا في عدله وحكمه .

رابعا: أن أمر الله ﷻ لملائكته بالسجود لآدم عليه السلام لا يدل فقط على مطالبتهم بالإقرار وتعظيم الإنسان الذي كرمه الله، ولكن سجودهم سيتبعه تكليف جديد يقومون من خلاله بالقيام على تدبير الكون وضبط أموره وتدبير شئونه اللازمة لتحقيق استخلاف الإنسان في الأرض، والقيام أيضا على أمور الكائنات من حوله لكي تظل مسخرة منفعلة له إلى يوم القيامة، ثم يتولون تدبير أموره أيضا في دار الجزاء سواء بتعذيبه إن كفر أو إكرامه إن شكر، وأنهم إذا سجدوا لن يعصوا لله أمرا في تدبير الكون وشئونه، ويفعلون ذلك خاضعين غير مستكبرين، فأبدوا بذلك الاستعداد التام لأمر الله في تدبير شئون الحياة .

- **الملائكة أسباب غيبية لتدبير أمور العالم والبشرية.**

والله تعالى له مطلق التدبير في ملكه، وهو سبحانه قادر على ألا يجعل الملائكة أسبابا غيبية لتدبير خلقه، وأن يتركهم على وضعهم الأول قبل نزول الإنسان على أرضه، فمشيئة الله في خلقه مشيئة مطلقة يقول للشيء كن فيكون، وهو قادر على أن يسير الأشياء بالأسباب المعهودة

المشهودة في ترابط العلل والمعلولات، أو يسيرها بدون أسباب كالمعجزات وخوارق العادات، لكنه جعل الملائكة أسبابا غيبية لتدبير معيشة الإنسان كالأسباب المشهودة التي يحكمها الزمان أو المكان، وكلاهما عند الله ﷻ في حكم الابتلاء سيان .

وتلك حكمة الله في أن يبتلي الملائكة بالإنسان من جهة، ويبتليه بهم كتشريف لهم في ثاني ركن من أركان الإيمان من جهة أخرى، فانظر كيف أرسل الله ﷻ جبريل عليه السلام في صورة أعرابي يجلس بين الصحابة ﭫ ليعلمهم دينهم فيسأل النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان، وانظر كيف قال للرسول ﷺ: فأخبرني عن الإيمان؟ فقال رسول الله ﷺ : (الإِيمَانِ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ قَالَ صَدَقْتَ) [(1)]. فعلموا أن الإيمان بالملائكة هو الركن الثاني من أركان الإيمان، ومن الإيمان بهم أن يؤمنوا بدورهم وشرفهم وفضلهم ومكانتهم عند الله ﷻ .

فلما سجدوا لآدم وأقروا بمكانة الإنسان قسمهم الله ونوعهم، وكلفهم ووجههم، كل في عمل بالغ التخصص، فهم بأمر الله ﷻ قائمون على شئون الإنسان، يدبرون أمره على نحو ما جاء في القرآن، قال تعالى في وصفهم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦ ﴾ التحريم:٦ ، وقال عن خوفهم من ربهم: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله ١/٣٦ (٨) .

﴿فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾ النحل: ٥٠ .

والله تعالى اقتضت حكمته أن يجعل فريقا من الملائكة مكلفا بتبليغ كلامه ووحيه إلى الأنبياء والمرسلين، وجعل على رأسهم الروح الأمين جبريل عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ الشعراء: ١٩٢/١٩٥. وبهذا الوحي يذكر الله عز وجل الإنسان بفطرته، ويشرع لكل مستخلف منهجه في رعيته.

كما جعل الله عز وجل فريقا منهم للعد والإحصاء سماهم حفاظا كراما كاتبين فقال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾﴾ الانفطار: ١٠/١١. جعلهم على عمل الإنسان قائمين، يرقبون ويسجلون، ويدونون ويمحصون ويدققون، لا يغادرون صغيرة أو كبيرة من سعيه وكسبه، قال تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ ق: ١٧/١٨. وهم يحاسبون الإنسان يوم القيامة على ما استرعاه الله من الأمانة، وعندها يشعر المؤمن يوم القيامة بالعزة والكرامة ويتقلب الكافر وقتها في الحسرة والندامة، حتى إذا جاء كافر يوم القيامة تعجب من دقة حسابهم ومدى قدرتهم على تسجيل الأعمال كما قال رب العزة والجلال: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ الكهف: ٤٩ .

إن القلب ليخشع عندما يرى طلاقة العدل والكمال والحكمة

والعظمة والجلال في أن يكلف الله ﷻ الملائكة بالسجود لآدم ﵇ تعظيما له، ويكلفهم في المقابل بالإشراف على محاسبته تعظيما لهم، بل كلفهم بالقيام على قبض الأرواح وانتزاعها، واستدعاء الإنسان من عالم الشهادة إلى عالم الغيب، وجعل على رأسهم مَلَكَ الموت.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾ الأنعام: ٦١.

وجعل منهم خزنة الجنان قائمين على أمور المؤمنين، وجعل منهم أيضا الموكلين بالنيران، ملائكة غلاظ شداد على رأسهم خازنها مالك كما بين الله ﷻ ذلك فقال: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾ الزخرف: ٧٧/٧٨. وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ التحريم: ٦.

وقد جعل الله ﷻ منهم أيضا أهل الإغاثة والنصر للقتال مع المؤمنين، وجعل منهم الموكل بالمطر، والموكل بالجبال، والموكل بحضور مجالس الذكر، والموكل بالنطفة في الرحم حتى حملة العرش ومن يطوف حوله منهم لهم صلة وثيقة بالإنسان؛ فهم بالإضافة إلى تسبيحهم وعبادتهم لله ﷻ يدعون للتائبين والمؤمنين الصالحين. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ

﴿وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٨﴾ غافر:٧/٨ .

ومن حكمة الله في أمر التدبير أنه كلف كل يوم ملكين ينزلان من السماء يدعوان للإنسان أو عليه، يدعو أحدهما لكل منفق والآخر يدعو على كل ممسك. وعند البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ العِبَادُ فِيهِ إِلا مَلَكَان يَنْزِلان فَيَقُول أَحَدُهُمَا: اللهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خلفًا، وَيَقُول الآخَرُ: اللهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلفًا) [١] .

وتفصيل ما ذكر في القرآن والسنة عن الملائكة يضيق المقام عن ذكره، والقصد أن الملائكة جميعا سجدوا لآدم عليه السلام كما ورد النص بذلك: ﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ٣٠﴾ الحجر:٣٠ . وكلهم قائمون على أمور الإنسان يدبرون العالم من أجله تنفيذا لمراد الله وأمره، يقومون بواجبهم، مقرين بخالقهم، مسلمين لحكمته عز وجل فيما يدبرون: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ التحريم:٦. ونظرا لعظمة دورهم وعدل الله عز وجل في ابتلائهم أقسم سبحانه بهم تشريفا لهم وتكريما فقال: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ٤ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ٥﴾ النازعات:١/٥ .

قال ابن القيم: (كل حركة في السموات والأرض من حركات الأفلاك والنجوم والشمس والقمر والرياح والسحاب والنبات والحيوان

---

(١) البخاري في الزكاة، باب قول الله تعالى: فأما من أعطى واتقى ٢/٥٢٢ (١٣٧٤)، ومسلم في الزكاة، باب في المنفق والممسك ٢/٧٠٠ (١٠١٠) .

فهي ناشئة عن الملائكة الموكلين بالسموات والأرض) [1].

وهكذا بدت حكمة الله ﷻ في الأشياء من خلال معاني الابتلاء، فهذه الملائكة تقوم على تدبير شئون الإنسان بعدل منه سبحانه عندما ابتلاهم بالسجود لآدم ؏. كذلك استخلف الإنسان في الأرض وكرمه، وسخر له من سخره بحكمته سبحانه وتعالى عندما ابتلاهم بعرض الأمانة فرفضتها السماوات والأرض والجبال وحملها الإنسان، والله ﷻ يذكرنا بالملائكة وخشيتهم من إفساد الإنسان في الأرض، أو القتل وسفك الدماء أنه لو شاء استخلفهم في الأرض بدلا منا لو أننا عصيناه. كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾﴾ الزخرف:٦٠. قال ابن جرير: (ولو نشاء معشر بني آدم أهلكناكم فأفنينا جميعكم، وجعلنا بدلا منكم في الأرض ملائكة يخلفونكم فيها يعبدونني) [2].

- **العدل الإلهي وابتلاء الإنسان بوسواس الشيطان**.

لما كان أمر الله ﷻ للملائكة بالسجود لآدم لا يدل فقط على

---

(١) إغاثة اللهفان لابن القيم ٢/١٢٥.

(٢) تفسير الطبري جامع البيان ٢٥/٨٩، وللتعرف على عقيدة أهل السنة في الإيمان بالملائكة انظر شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص٣٣٥، وانظر أيضا معارج القبول للشيخ حافظ ابن أحمد حكمي ٢/٦٥٦، وانظر إغاثة اللهفان لابن القيم ٢/١٢٥، والتبيان في أقسام القرآن لابن القيم ١/٨٣، وروضة المحبين ونزهة المشتاقين لابن القيم ص٥٦، والجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لابن القيم ١/١٤٢.

إقرارهم بخلافة الإنسان في الأرض، بل سوف ينفذون الأمر إذا كلفهم بتدبير شئونه وكذلك العالم من حوله؛ فإن إبليس أبى أن يكون مع الساجدين، واستكبر أن يدخل في جملة المقرين بهذه المنزلة العظمى التي كرم الله ﷻ بها الإنسان، فتملكه العلو والاستكبار، وأظهر الاعتراض والاستنكار حسدا وحقدا على آدم وذريته، كيف فضلهم الله بمنزلة أعلى من مكانته؟ فلما لعنه الله وطرده من رحمته، وأيقن إبليس بهلاكه وشقوته، وأنه لا محالة ممنوع من جنته أراد أن يحقر من شأن الإنسان، وأن يشكك في حكمة الله وأمره، واستواء عدله في خلقه، وكأنه يقول لربه: إن الذي استخلفته في الأرض ووضعته في هذه المنزلة مخلوق طيني أقل من ذلك، وكنت أنا والملائكة أولى بذلك، فدعني أحيا إلى يوم القيامة أوسوس له فقط بالظلم والطغيان، ومكني من دعوته إلى الكفر والفسوق والعصيان، وسوف ترى صدق كلامي وحقارة الإنسان، ويحكي القرآن ما ذكره الشيطان:

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ الحجر:٣٦ . وكذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾ الإسراء:٦٢ .

والله ﷻ له مطلق المشيئة في ردعه ومنعه من ذلك، لكن مقتضى عدله أنه أمهله وجعله ابتلاء لمن استخلفه وفضله وخوله، لأنه لو منع إبليس من هذه المسألة لصحت دعواه بوجه مقبول، ولكانت له على سائر العقول حجة وسلطان، وقد أقام الله ﷻ السماوات والأرض على الحق والميزان، فقال سبحانه تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن

نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ الجاثية:٢١/٢٢.

وقد ظهر كمال العدل الإلهي عندما أذن الله للشيطان بالبقاء في دار الابتلاء يوسوس للإنسان بالعصيان من غير إلزام ولا سلطان [١]. وتوعد أتباعه من بني الإنسان بالعذاب والخسران، فقال الله ﷻ مبتليا للشيطان بالإنسان: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾ الحجر:٣٧/٣٨ . فازداد الشيطان حقدا على حقده السابق، وأكد أنه لن يسأم من إغوائه ودعوته دائما إلى الشرك بالخالق: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ الحجر:٣٩/٤٤ .

ولما نزل الخبيث إبليس وضع لنفسه عرشا على الماء ليتشبه في استواءه باستواء الله على عرشه في السماء، وجعل نفسه إلها لأتباعه من العصاة، وحبب إلى نفسه من جنسه أسوأ الدعاة، وجلس على عرشه ليبعث في الأرض سراياه، كما ورود عند مسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى المَاءِ، ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ، فَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً، يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ:

(١) انظر في بيان نفي سلطان الشيطان عن الإنسان إغاثة اللهفان ١/١٠١.

فَعلتُ كذا وَكذا، فيَقول: مَا صَنَعْتَ شيْئًا قال: ثمَّ يَجِيءُ أَحدُهُمْ فيَقُول: مَا تَرَكْتُهُ حتَّى فرَّقْتُ بيْنَهُ وبَيْنَ امْرَأتِهِ، قال: فيُدْنِيهِ مِنْهُ ويَقُول: نِعْمَ أَنْتَ[1].

• حقيقة القرينين الذين يهتفان للإنسان بلمتين.

ذكرنا في المطلب الخاص بالهاتفين أن الله ﷻ لما لعن إبليس وطرده من رحمته، وأيقن الملعون بهلاكه وشقوته، وأنه لا محالة ممنوع من جنته، أراد أن يحقر من شأن الإنسان حقدا وانتقاما، وأن يشكك في حكمة الرحمن عنادا وإلزاما، وادعى أن الله استخلف الإنسان وهو لا يستحق هذه المنزلة، وأنه مع الملائكة أنسب منه لهذه المسألة، فطلب الحياة والبقاء إلى يوم القيامة يوسوس للإنسان بالظلم والطغيان، ويدعوه إلى الكفر والفسوق والعصيان ليثبت صدق كلامه وحقارة الإنسان، فكان من عدل الله كما تقدم أنه أمهله .

ومن عدل الله وحكمة التدبير أنه لما أوجد في كل إنسان منا نازعين نفسيين متقابلين ومتضادين، وباعثين على سلوك أحد النجدين، نازع يدعوه إلى الطاعة وفعل الخير، وآخر يدعوه إلى المعصية وفعل الشر، والإنسان حر بينهما في الاختيار كما قال رب العزة والجلال: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ البلد:١٠. وقال أيضا: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ الشمس:٧/١٠.

فإذا سمح الله للشيطان أيضا أن يوسوس للإنسان بالعصيان واتفق الشيطان مع نازع الشر في الإنسان، كلاهما يدعوان إلى الكفر

(١)مسلم في صفة القيامة، باب تحريش الشيطان ٤/٢١٦٧ (٢٨١٣) .

والعصيان ألا تكون دواعي الشر في الإنسان أقوى من دواعي الخير فيه؟ أليس للعاصي أن يحتج على الله ﷻ يوم القيامة بأن نازع الخير فيه كان وحيدا، وأن غلبة دواعي الشر كانت ظلما شديدا، ومن ثم اختل بذلك الميزان وأصبح لها ركنان، أحدهما نازع الشر والآخر الشيطان، فهي بذلك أقوى في الإنسان من دواعي الخير والإيمان، ومن ثم يطالب ربه بإسقاط العذاب عنه؟

ومن هنا ظهرت حكمة الله ﷻ في كل إنسان وبلغت حجته إلى ما تحار فيه الأذهان فمن عدله أنه جعل الإنسان على مستوى الكمال ظاهرا وباطنا في قمة الاعتدال فقال رب العزة والجلال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ الانفطار:٦/٨ .

كلف الله بكل إنسان ملكا قرينا، وأمره أن يلازم الإنسان كملازمة القرين من أبناء الشيطان لا يفارقه إلا إذا فارق دار الامتحان، وأمره أيضا أن يدعوه إلى الخير ويحضه عليه كما أن الشيطان يدعوه إلى الشر ويحضه عليه، فيستوي بذلك مقدار الدواعي في الإنسان، ولا يكون لأحد من أهل العصيان حجة على الله يوم القيامة، فالله ﷻ كما هداه النجدين وركب فيه نازعين نفسيين متقابلين ومتضادين ليس لأحدهما غلبة على الآخر، وكّل بالإنسان أيضا قرينين هاتفين مرغبين بلمتين ليس لأحدهما سلطان على إرادة الإنسان، فبات مقدرا لكل منا بحكمة الله وعدل الميزان قرينان داعيان هاتفان مرغبان إما في الخير وإما في الشر.

ولم يستثن الله تعالى أحدا من ذلك حتى سيد ولد آدم ﷺ، وقد

تقدم الحديث عن الأدلة على وجود القرينين اللذين يهتفان بلمتين بما يغني عن إعادته، وكذلك بينا أن الله ﷻ حفظ الإنسان وأمنه من كيد الشيطان بأمور أخرى كثيرة .

وكل هذا الفضل الذي منحه الله للإنسان ليحميه من كيد الشيطان يضاف إلى الملك القرين الذي يدعوه بإذن الله إلى الخير والإيمان، فأي كمال أفضل من هذا البيان الذي ورد في القرآن والسنة؟

المطلب الثلاثون

الابتلاء وتحقيق معاني الحكمة الإلهية

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فقد تحدثنا في المطلب السابق عن كيفية نشأة الكون في مرحلته الثانية، وعلمنا أن وجود العالم بهذا الكمال الذي نراه لم يكن لمجرد انفجار عشوائي كما يزعم أصحاب نظرية الانفجار الكبير، وإنما نشأ عن حكمة عليا، فهيأه الله لاستخلاف الإنسان فيه، وابتلائه وبقائه إلى يوم موعود وهو يوم القيامة.

ثم تلمسنا العلة في إعلام الله للملائكة بخلافة الإنسان، وأن ذلك كان للابتلاء والامتحان، وبينا ما حدث منهم كما ورد في القرآن، وكيف علمت الملائكة أن الخليفة سيفسد في الأرض ويسفك الدماء؟ وهل كانت الملائكة في ردها على ربها مستفسرة أم مستنكرة؟ ولماذا أمر الله الملائكة بالسجود لآدم؟ وكيف نشأ عن ذلك تكليف الملائكة كأسباب غيبية بتدبير أمور العالم والبشرية في الدنيا والآخرة، وكما بينا مظاهر العدل الإلهي في ابتلاء الإنسان بوسواس الشيطان، وحقيقة القرينين الملازمين للإنسان الذين يهتفان بلمتين.

وفي هذا المطلب بإذن الله نتناول الحديث عن حقيقة الابتلاء وتحقيق معاني الحكمة العامة في أرجاء الكون.

- **الميثاق وتعهد الذرية بما التزم به أبو الإنسانية.**

وردت آية الميثاق وهي من النصوص الخبرية الدالة على وقوع أحداث غيبية تحقق كمال الحكمة الإلهية، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾ الأعراف:١٧٢/١٧٤.

وقد سبق أن تحدثنا بالتفصيل في أنواع التقدير عن التقدير الميثاقي ونجمل القول هنا لأهميته في استيفاء المعاني المتعلقة ببيان حكمة الله في خلق النوع الإنساني، فقد علمنا أنه بعد أن تمت معاني الحكمة في قيام السماوات والأرض وتهيئتها مسخرات بالحق لاستخلاف الإنسان في الأرض، وإعداد العالم وفق نظام بديع يعطي للإنسان معنى التميز والتكريم بسبب حمل الأمانة وتحقق حكمة الابتلاء، فإن الله ﷻ أخذ العهد والميثاق على ذرية آدم عليه السلام قبل نزولهم إلى الأرض، لإقامة الحجة عليهم، وإقرارهم بما قبله أبوهم في قضية قبول والأمانة والاستخلاف ووجوده في دار التكليف والابتلاء ثم محاسبته في دار الجزاء.

وذلك لأنه ربما يحتج فرد من الناس بأنه لم يكن يرغب في الأساس أن يكون مستخلفا في الأرض على وجه الأمانة والابتلاء، أو أن يكون

محاسبا مسئولا مخيرا في الحياة بين نجدين مطروحين أمام إرادته، نجد يسمى طريق الخير ويؤدي إلى النعيم المقيم في دار الجزاء، ونجد يسمى طريق الشر ويؤدي إلى العذاب والشقاء.

وربما يحتج أحد الذرية بأن موافقة آدم عليه السلام على قبول الأمانة وتحمل المسئولية ثم استخلافه في الأرض بكثرة المواقف الابتلائية لا يلزمه ولا يعنيه، لأنه أصلا لم يشارك في ذلك، ومن ثم كانت حكمة الله تعالى تقتضي استخراجهم جميعا بقدرته، وإيقافهم بين يديه وتقريرهم بحجته. والله سبحانه وتعالى قادر على جبرهم وإلزامهم بالتكليف قهرا، غير أن الله عز وجل له الحجة البالغة، والسطوة الدامغة، أشهدهم على أنفسهم بكمال حكمته وقيام حجته، فقالوا جميعا: شهدنا على أنفسنا أنك ربنا وإلهنا، لا رب لنا غيرك، ولا معبود لنا بحق سواك.

وقد ذكرهم الله عز وجل ألا يغفلوا عن عهدهم، لاسيما إن جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم، يذكرونهم بالله عز وجل وما قطعوه على أنفسهم في ميثاقهم وعهدهم، وقد علم الله في هذا التقدير الميثاقي من سيصدق في عهده، ومن هو كاذب في وعده، وانفرد سبحانه وتعالى بعلم أهل الجنة منهم وأهل النار.

وقد كان العهد والميثاق الذي قطعوه على أنفسهم لتعريف الحقوق بين الخالق والمخلوق، وبيان دورهم ووظيفتهم التي من أجلها كرمهم الله عز وجل، ورفع درجتهم، وميزهم عن غيرهم، وأنهم مستخلفون في أرضه، أمناء في ملكه، ليبلوهم أيهم أحسن عملا، فعرفهم جميعا حق الله عز وجل عليهم وحقهم عليه؛ فحق الله عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به

شيئا، وحقهم عليه ألا يعذبهم إذا فعلوا ذلك [١].

ويمكن القول إن العلة الأساسية في التحذير من الشرك يوم أخذ الميثاق والعهد على الذرية هو بيان دور الإنسان في الأرض، وأن استخلافه في ملك الله مقصور على تنفيذ أوامره الشرعية فيما خوله الله واسترعاه، ولا يعني استخلافه استحقاقه هو أو غيره لشيء من معاني الربوبية التي انفرد بها، فهذا حق لا مساس به على الإطلاق، والمساس به شرك بالله لا يغفر إلا بالتوبة، فأراد الله ﷻ أن يبين لهم أن استخلافهم في الأرض لتوحيد العبودية، وليس للشرك به في الربوبية.

ومن ثم فإن الله تعالى لن يقبل منهم أن يتخذوا شريكا له في ملكه، أو منازعا له في تدبير شئون خلقه، ولن يقبل منهم عملا فيه نصيب لغيره، ومن ثم فإن الشرك لكونه ظلما عظيما أخذ الله العهد والميثاق على الإنسانية قبل نزولهم إلى الأرض، فإن ادعى أحد بعد تذكير الله له بذلك عن طريق أنبيائه ورسله أن الله ﷻ له شريك في الملك، أو له معين في تدبيره السماوات والأرض، فقد وقع في الظلم العظيم، وعطل دور الإنسان، ولم يوفق في الابتلاء والامتحان وقد فشل في أداء الأمانة حتى لو كان فعله ما كان، ولن يفلح وقتها احتجاج بالنسيان، أو ادعاء التبعية للآباء في سالف الزمان، فوجب عليه أن يراعى في قوله وعمله الخوف من الله ﷻ وحده لأنه صاحب الأمانة وخالقها، وولي النعمة ومالكها، وما سواه من العباد مملوك لله ولا يملك شيئا، بل هو مجرد أمين مستخلف في الحياة.

---

(١) انظر حقيقة التقدير الميثاقي في المطلب الثاني عشر من الكتاب ١/٤٦٨.

وهذا الميثاق هو أساس فطرة التوحيد في كل إنسان؛ فالفطرة التي فطر الله الخلائق عليها، اقتضت أن تلجأ النفوس إلى قوة عليا عند ضعفها، وتطلب غنيا أعلى عند فقرها، وتوابا رحيما عند ذنبها، وسميعا قريبا بصيرا مجيبا عند سؤالها، وكل ذلك يدعو النفس إلى التوحيد والإسلام، والعودة إلى بالضرورة إلى الملك القدوس السلام. ومثل هذا الإحساس الفطري كامن في النفس وإن لم يعلنه الشخص، فإن خلا القلب من موانع الطبع المألوفة والتأثر بالاعتقادات الشركية المعروفة، فإن قلبه يتوجه تلقائيا إلى ربه بالعبودية.

ولما حدثت أمور وقت أخذ الميثاق على الذرية تتعلق بمراتب القدر وأنواع التقدير، وما رتبه الله ﷻ في خلقه من أمور الصنعة ولوازم التدبير، فإن الله ﷻ أنسانا جميع التفاصيل المتعلقة بالتقدير الميثاقي لتصح حكمته في تكليف عباده، فلو أبقى في ذاكرة الإنسان أحداث الميثاق بالتفصيل لبطلت حكمته في خلقه، وتعطل سر قضائه وقدره؛ فالقدر سر الله في خلقه، لا يَطّلِع عليه ملك مقرب، ولا نبي مرسل. فلو أن إنسانا علم ما حدث في التقدير الميثاقي عند أخذ العهد على الذرية، وبقيت أحداثه في ذاكرته حاضرة غير منسية، لتعطلت معاني الحكمة الإلهية في خلق الإنسان، كيف يكلفنا الله بالشرائع والأحكام، ويأمرنا بالخضوع والإسلام، وكل منا يعلم تفصيل المصير إن كان وقت الميثاق مع الفريق الذي في الجنة أو مع الفريق الذي في السعير؟

ومن هنا ظهرت حكمة الله تعالى في إخفاء تفاصيل الأحداث التي وقعت يوم أخذ الميثاق، فالعلة في عدم تذكر الميثاق إخفاء المقدر لتظهر

معاني الحكمة الإلهية التي دل عليها اسمه الحكيم. كما أن العلة من إخبار الرسل عن وقوع الميثاق مع عدم تذكرنا له هي أيضا إظهار الحكمة في نشأة الكون وبدايته، وانسجام الفطرة مع الشريعة، وتعريف الحقوق بإقامة الحجة على العباد.

ونظرا لأن الله ﷻ أنسانا الميثاق ببالغ كرمه وحكمته، فإنه لن يعذب أحدا إلا بعد وصول رسالته، وتذكيرهم بأحكامه وشريعته، وتفصيل ما يتعلق بالأوامر تجاه أمانته؛ فلا يكفي أخذ الميثاق لإقامة الحجة على العباد، ولو تذكرناه بمفردنا دون وحي سماوي لكان كافيا، لكن الله ﷻ أنسانا إياه، وهذا يدل على إبطال قول من قال بقيام الحجة لمجرد وجود العقل دون ورود النقل والسمع كالقدرية، أو قيام الحجة لمحض المشيئة كما زعمت الجبرية، فاقتضى عدل الله تعالى ألا يعذب أحدا إلا بعد بلوغ الرسالة، وإعراضه عن الهداية إلى الضلالة، لئلا يكون له حجة على الله في نفي العدالة، ومعلوم من صحيح السنة أنه لا أحد أحب إليه العذر من الله ﷻ.

• الإنسان من جنة الابتلاء إلى دار الجزاء.

بدأت قصة الخليقة بإسكان آدم عليه السلام وحواء جنة الابتلاء، تحقيقا لمعاني الأمانة والاستخلاف، فشرع الله ﷻ لهما أمرا تكليفيا ابتلائيا واحدا، وهو تحريم الأكل من شجرة معينة دون بقية الأشجار لحكمة يعلمها رب العزة والجلال. قال الله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ البقرة:٣٥. فهذا أمر تكليفي وحكم تعبدي كسائر أحكام الابتلاء

الموجه إلى ذرية آدم وحواء.

والزمن الذي بقي فيه آدم عليه السلام في الجنة لا يقاس بحساباتنا الأرضية، وإنما يقاس على المقادير الزمنية الغيبية أو الأيام الستة التي بنى الله عز وجل فيها الكون في مرحلته الأولى، فقد ثبت النص عن النبي ﷺ أن آدم دخل الجنة يوم الجمعة، وأخرج منها أيضا في يوم الجمعة. فقد ورد عند مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (خَيرُ يومٍ طَلعَتْ عَليهِ الشَّمْسُ يومُ الجُمُعَة فِيهِ خُلقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الجَنَّة، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا) (١).

ولا يلزم أن يكون الدخول والخروج في يوم واحد، وإنما أيام جمعة متعددة، ولا يلزم أيضا أن يكون زمن يوم الجمعة مقدرا بأربعة وعشرين ساعة كما هو المقياس عندنا، ولذلك فإن القاعدة التي يمكن تقريرها أن كل ما تعلق بخلق آدم وحواء من أحداث غيبية، فلا يجوز فيها استخدام الأقيسة التمثيلية ولا الشمولية، فأسماء الأيام وقت النشأة وتقدير مدتها من السبت إلى الجمعة، لا تقاس بقياس تمثيلي أو شمولي لأنها تخضع لمقاييس عالم الغيب، وكل ما تعلق بآدم وحواء من أحداث مشهودة مرئية في عالم الشهادة، فالزمان والمكان يخضعان للأقيسة التمثيلية والشمولية، فتنبه إلى ذلك يوفقك الله بإذنه إلى الجمع بين العقل الصريح والنقل الصحيح.

وقد ورد عند النسائي وصححه الشيخ الألباني من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (خَيرُ يومٍ طَلعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ يومُ

---

(١) رواه مسلم في كتاب الجمعة، باب فضل يوم الجمعة ٢/٥٨٥ (٨٥٤).

الجُمُعَة، فِيهِ خُلقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُهْبِطَ، وَفِيهِ تِيبَ عَليهِ، وَفِيهِ قُبِضَ، وَفِيهِ تَقُومُ السَّاعَة، مَا عَلى الأَرْضِ مِنْ دَابَّة إلاَّ وَهِيَ تُصْبِحُ يومَ الجُمُعَة مُصِيخَة، حَتَّى تَطْلعَ الشَّمْسُ شَفَقًا مِنَ السَّاعَة إلاَّ ابْنَ آدَمَ، وَفِيهِ سَاعَة لاَ يصَادِفُهَا مُؤْمِنٌ وَهُوَ فِي الصَّلاَة، يسْأَل اللهَ فِيهَا شَيئًا إلاَّ أَعْطَاهُ إياه) (١).

وعلى فرض أنه أدخل وأخرج في يوم واحد، فقد علمنا أن مدة الزمان الغيبية ربما تساوي حقبا زمنية مرت على الأرض في مجموعتنا الشمسية التي أعدت من أجل الإنسان. والله ﷻ أعلم ماذا كان حال الأرض ومن عليها من الدواب وقت سكن الأبوين في الجنة، لكن الأمر يقتضي أنها كانت تستعد بما فيها في تهيؤها للكمال اللازم لنزول الإنسان فيها بعد أن قبل الأمانة وأصبح خليفة لله على وجه الابتلاء، وكانت الأرض تدحى والجبال تثبت في الأرض، والله أعلم بما كان من شأن الداوب المنقرضة وغير المنقرضة وشأن الأشجار والأنهار، وقد أثبت العلم الحديث أن عنصر الحديد عنصر وافد على الأرض نزل من أعلى كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ الحديد: ٢٥.

والعلة من سكنى آدم عليه السلام وحواء في الجنة تماثل العلة من وجود الإنسان في الدنيا وهي علة الابتلاء، أما الجنة فهي في أصلها خلقت لتكون دار النعيم والجزاء في الآخرة ، وشتان بين العلتين وتحقيق الحكمة

---

(١) رواه النسائي في السنن الكبرى، كتاب الجمعة، باب ذكر الساعة التي يستجاب فيها الدعاء يوم الجمعة ١/٥٤٠ (١٧٥٤). وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٣٣٤). ومعنى مُصيخة أي مستمعة منصتة، انظر لسان العرب ٣/٣٥.

في الوضعين. ولا ندري كيف تم وسواس الشيطان للإنسان في جنة الابتلاء، ونحن نؤمن به لورود الخبر، وحكمه في ذلك حكم كيفية الوسواس التي تحدث منه لسائر البشر، فالإنسان ابتلاه الله ﷻ بالشيطان، فوسوس لآدم وزوجته بالعصيان فأكلا من الشجرة، وانكشفت العورة، وتطلبت الفطرة فرجا ومخرجا، فخرجا من جنة الابتلاء إلى أرض الابتلاء، وعلمهما الله ﷻ ما يدعوان به من مقتضى الأسماء، فتابا وأنابا، وسيعودا بالطاعة وأداء الأمانة إلى نعيم الجنة ودار الجزاء. قال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾ البقرة:٣٦/٣٩.

• وجه الحكمة في إخراج آدم من الجنة ونزوله إلى الأرض.

قد يسأل سائل عن الحكمة والمصلحة في إخراج آدم عليه السلام من الجنة إلى دار الابتلاء والامتحان، والجواب بيانه فيما ذكره العلامة ابن القيم رحمه الله في النقاط التالية [١] :

١- كم لله سبحانه وتعالى في ذلك من حكمة، وكم فيه من نعمة ومصلحة، تعجز العقول عن معرفتها على التفصيل، فهو سبحانه إنما خلقه ليستعمره وذريته في الأرض، ويجعلهم خلفاء فيها، يخلف بعضهم

(١) انظر شفاء العليل لابن القيم ص٢٤١ وما بعدها بتصرف.

بعضا، فخلقهم سبحانه ليأمرهم وينهاهم ويبتليهم.

٢- ولما كانت الجنة في أصل نشأتها دارا للجزاء، وليست دار للتكليف والابتلاء، فإن ابتلاء أدم وحواء بالأمر والنهي كان استثناء، فاقتضت حكم الله ﷻ إنزال الأبوين إلى الدار التي خلقوا منها، ليتزودوا منها إلى الدار التي خلقوا لها، فإذا وفوا تعب دار التكليف ونصبها، عرفوا قدر تلك الدار وشرفها وفضلها، ولو نشئوا في تلك الدار لما عرفوا قدر نعمته عليهم بها، فأسكنهم دار الامتحان، وعرضهم فيها لأمره ونهيه، لينالوا بالطاعة أفضل ثوابه وكرامته. وكان من الممكن أن يحصل لهم النعيم المقيم هناك لكن الحاصل عقيب الابتلاء والامتحان، ومعانات الموت وما بعده، وأهوال القيامة، والعبور على الصراط نوع آخر من النعيم لا يدْرك قدره، وهو أكمل من نعيم من خلق في الجنة من الولدان والحور العين بما لا شبه بينهما بوجه من الوجوه.

٣- ومن الحكم في ذلك أنه سبحانه أراد آن يتخذ من ذرية آدم رسلا وأنبياء وشهداء يحبهم ويحبونه، وينزل عليهم كتبه ويعهد إليهم عهده ويستعبدهم له في السراء والضراء، ويؤثرون ما يحبه ويرضاه على شهواتهم، وما يحبونه ويهوونه، فاقتضت حكمته أن أنزلهم إلى دار ابتلاهم فيها بما ابتلاهم، ليكلموا بذلك الابتلاء مراتب عبوديته، ويعبدونه بما تكرهه نفوسهم، وذلك محض العبودية، وإلا فمن يعبد الله ﷻ إلا بما يحبه ويهواه، فهو في الحقيقة إنما يعبد نفسه.

٤- أنه سبحانه يحب من أوليائه أن يولوا فيه، ويعادوا فيه، ويبذلوا

نفوسهم فيما يحبه ويرضاه، وهذا كله لا يحصل في دار النعيم المطلق.

٥- ومن الحكمة في إخراجه من الجنة اقتضاء أسماء الله الحسنى لمسمياتها ومتعلقاتها كالغفور الرحيم التواب العفو المحسن المعطي الرفيق القريب المجيب الرقيب القاهر الوارث الديان، ولا بد من ظهور أثر هذه الأسماء، ووجود ما يتعلق به فاقتضت حكمته أن إنزال الأبوين من الجنة ليظهر مقتضى أسمائه وصفاته فيهما وفي ذريتهما، فلو تربت الذرية في الجنة، لفاتت آثار هذه الأسماء وتعلقاتها، والكمال الإلهي يأبى ذلك، فإنه الملك الحق المبين، والملك هو الذي يأمر وينهى ويكرم ويهين، ويثيب ويعاقب ويعطي ويمنع، ويعز ويذل، فأنزل الأبوين والذرية إلى دار تجري عليهم هذه الأحكام.

٦- وأيضا فإنهم أنزلوا إلى دار يكون إيمانهم تاما، فإن الإيمان قول وعمل وجهاد، وصبر واحتمال، وهذا كله إنما يكون في دار الامتحان، لا في جنة النعيم، فنعيم الجنة متعلق بهم وهو حظهم، فأين يقاس إلى الإيمان وأعماله، والصلوات، وقراءة القرآن، والجهاد في سبيل الله ﷻ، وبذل النفوس في مرضاته، وإيثاره على هواها وشهواتها، وهذا الإيمان متعلق به سبحانه وهو حقه عليهم.

٧- وأيضا فإنه سبحانه سبق حكمه وحكمته بأن يجعل في الأرض خليفة، وأعلم بذلك ملائكته، فهو سبحانه قد أراد بكون هذا الخليفة وذريته في الأرض قبل خلقه، لما له في ذلك من الحكم والغايات الحميدة، فلم يكن بد من إخراجه من الجنة إلى دار قدر سكناهم فيها قبل أن يخلقه، وكان ذلك التقدير بأسباب وحكم، فمن أسبابه النهي

عن تلك الشجرة، وتخليته بينه وبين عدوه حتى وسوس إليه بالأكل، وتخليته بينه وبين نفسه حتى وقع في المعصية، وكانت تلك الأسباب موصلة إلى غايات محمودة مطلوبة، يترتب عليها خروجه من الجنة، ثم يترتب على خروجه أسباب أخر جعلت غايات لحكم، ومن تلك الغايات عوده إليها على أكمل الوجوه، فذلك التقدير، وتلك الأسباب وغاياتها صادرة عن محض الحكمة البالغة، التي يحمده عليها أهل السماوات والأرض والدنيا والآخرة، فما قدر القدير الحكيم ذلك باطلا، ولا دبره عبثا، ولا أخلاه من حكمته البالغة.

٨- وأيضا فإنه سبحانه قال للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ البقرة: ٣٠. ثم أظهر سبحانه من علمه وحكمته الذي خفي على الملائكة من أمر هذا الخليفة ما لم يكونوا يعرفونه بأن جعل من نسله من أوليائه وأحبائه ورسله وأنبيائه من يتقرب إليه بأنواع التقرب، ويبذل نفسه في محبته ومرضاته، يسبح بحمده أناء الليل وأطراف النهار، ويذكره قائما وقاعدا وعلى جنبه، ويعبده ويذكره ويشكره في السراء والضراء، والعافية والبلاء، والشدة والرخاء، فلا يثنيه عن ذكره وشكره وعبادته شدة ولا بلاء، ولا فقر ولا مرض، ويعبده مع معارضة الشهوة، وغلبات الهوى، وتعاضد الطباع لأحكامها، ومعاداة بني جنسه وغيرهم له، فلا يصده ذلك عن عبادته وشكره وذكره والتقرب إليه، فإن كانت عبادتكم لي بلا معارض ولا ممانع، فعبادة هؤلاء لي مع هذه المعارضات والموانع والشواغل.

٩- وأيضا فإنه سبحانه أراد أن يظهر لهم ما خفي عليهم من شأن من كانوا يعظمونه ويجلونه، ولا يعرفون ما في نفسه من الكبر والحسد والشر، فذلك الخير، وهذا الشر كامن في نفوس لا يعلمونها، فلا بد من إخراجه وإبرازه لكي يعلم حكمة أحكم الحاكمين في مقابلة كل منهما بما يليق به.

١٠- وأيضا فإنه سبحانه لما خلق خلقه أطوارا وأصنافا، وسبق في حكمه وحكمته تفضيل آدم وبنيه على كثير ممن خلق تفضيلا جعل عبوديتهم الاختيارية أكمل من عبودية غيرهم، ولهذا أرسل الله ﷻ جبريل إلى سيد هذا النوع الإنساني يخيره بين أن يكون عبدا رسولا، أو ملكا نبيا فاختار بتوفيق ربه له أن يكون عبدا رسولا. فلما كانت العبودية أشرف أحوال بني آدم وأحبها إلى الله ﷻ، وكان لها لوازم وأسباب مشروطة لا يحصل إلا بها، كان من أعظم الحكمة أن أخرجوا إلى دار تجري عليهم فيها أحكام العبودية، وأسبابها وشروطها وموجباتها، فكان إخراجهم من الجنة إتماما لنعمته عليهم مع ما في ذلك من محبوبات الرب تعالى، فإنه يحب إجابة الدعوات، وتفريج الكربات، وإغاثة اللهفات، ومغفرة الزلات، وتكفير السيآت، ودفع البليات، وإعزاز من يستحق العز، وإذلال من يستحق الذل، ونصر المظلوم، وجبر الكسير، ورفع بعض خلقة على بعض، وجعلهم درجات ليعرف قدر فضله وتخصيصه، فاقتضى ملكه التام وحمده الكامل أن يخرجهم إلى دار يحصل فيها محبوباته سبحانه، وإيجاد لوازم الحكمة من الحكمة، كما أن إيجاد لوازم العدل من العدل.

• الابتلاء وتحقيق معاني الحكمة الإلهية.

الابتلاء إنما جعل ليحقق معاني الحكمة الإلهية، ويبين حقيقة العدل في استخلاف الله للإنسانية. والابتلاء له في الحقيقة شقان: الأول فعل الله ﷻ بخلقه وتقديره وقدره المحتوم على الإنسان، والثاني موقفنا من فعله سواء بالطاعة والإيمان، أو الكفر والعصيان، فمن أجل الابتلاء أخفى الله موعد الموت والانتقال إلى دار الجزاء، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴿١٥﴾ ﴾ طه:١٥.

وقال تعالى: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ الأعراف:١٨٧. وقال تعالى: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾ ﴾ النازعات:٤٢/٤٦.

ومن أجل الابتلاء جعل الله سائر الناس متفاوتين في الآجال والملك والمال، وسائر الأرزاق والأخلاق. قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ الأنعام:٥٣. وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ ﴾ الأنعام:١٦٥.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ﴿٢٠﴾ ﴾ الفرقان:٢٠ .

قال ابن القيم: (وجعلنا بعضكم لبعض فتنة، هذا عام في جميع

الخلق امتحن بعضهم ببعض، فامتحن الرسل بالمرسل إليهم، ودعوتهم إلى الحق والصبر على أذاهم، وتحمل المشاق في تبليغهم رسالات ربهم، وامتحن المرسل إليهم بالرسل، وهل يطيعونهم وينصرونهم ويصدقونهم، أم يكفرون بهم ويردون عليهم ويقاتلونهم؟ وامتحن العلماء بالجهال هل يعلمونهم وينصحونهم ويصبرون على تعليمهم ونصحهم وإرشادهم ولوازم ذلك؟ وامتحن الجهال بالعلماء هل يطيعونهم ويهتدون بهم؟ وامتحن الملوك بالرعية، والرعية بالملوك، وامتحن الأغنياء بالفقراء، والفقراء بالأغنياء، وامتحن الضعفاء بالأقوياء، والأقوياء بالضعفاء، والسادة بالأتباع، والأتباع بالسادة، وامتحن المالك بمملوكه، ومملوكه به، وامتحن الرجل بامرأته وامرأته به، وامتحن الرجال بالنساء والنساء بالرجال، والمؤمنين بالكفار والكفار بالمؤمنين، وامتحن الآمرين بالمعروف بمن يأمرونهم وامتحن المأمورين بهم، ولذلك كان فقراء المؤمنين وضعفاؤهم من أتباع الرسل فتنة لأغنيائهم ورؤسائهم، امتنعوا من الإيمان بعد معرفتهم بصدق الرسل) [1].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ الزمر: ٤٩.

قال ابن القيم رحمه الله: (العبد في هذه الدار مفتون بشهواته ونفسه الأمارة، وشيطانه المغوي المزين، وقرنائه وما يراه ويشاهد مما يعجز صبره عنه، ويتفق مع ذلك ضعف الإيمان واليقين، وضعف القلب

---

(١) انظر إغاثة اللهفان لابن القيم ٢/١٦١.

ومرارة الصبر، وذوق حلاوة العاجل، وميل النفس إلى زهرة الحياة الدنيا، وكون العوض مؤجلا في دار أخرى غير هذه الدار التي خلق فيها، وفيها نشأ، فهو مكلف بأن يترك شهوته الحاضرة المشاهدة لغيب طلب منه الإيمان به)[1].

ومن أجل الابتلاء حجب الله عنا عالم الغيب، فلا نرى الله ﷻ ولا نرى ملائكته، ولا نرى الجنة أو النار، ولا نسمع صراخ المعذبين في القبور، فالإنسان يسمع ويرى ولكن في حدود معينة، فإن تجاوزها أصبح قوله رجما بالغيب، وقولا على الله بلا علم وقد حرمه الله ﷻ. قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ الإسراء:٣٦. وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾الأعراف: ٣٣.

وكذلك القول فيما لا نراه من الملائكة والجن أو الجنة والنار؛ فإن الله حجب عنا ذلك تحقيقا لمعنى الابتلاء، فكيف سنكلف بالإيمان بهذه الأشياء ،ونحن نراها بمداركنا، فلا معنى عند ذلك لوجود الرسل والشرائع، ولا معنى أن يكون المؤمنون بالغيب هم المفلحون. ومن ثم فإن الابتلاء يفسر لنا قصور أجهزة المكلفين، وتمام الحكمة في خلق المستخلفين؛ فالإنسان وإن كان مخلوقا عارفا مدركا إلا أن مدركاتِه قاصرة على العالم المحسوس فقط، فليس من المعقول أن يكون على

---

(١) السابق ٢/١٦٤.

الأرض ابتلاء والإنسان المبتلى يمكن أن يرى النار وعذابها، أو يسمع شهيقها وزفيرها، فإن هذا يناقض الحكمة والكمال، وليس ذلك وصف رب العزة والجلال.

ومن ثم فإن الله ﷻ حجب الذرية تحت غطاء كوني شامل يحجب عالم الشهادة عن عالم الغيب، ويمنع عن الإنسانية معرفة الأمور الغيبية التي تقع على الأرض كصراخ المعذبين في قبورهم، وكرؤية الملائكة المدبرين لأمورهم، وكرؤية الجن الملتفين من حولهم، أو الشياطين المتهيئين لإضلالهم؛ لأنهم لو رأوا ذلك بأعينهم لذهبت العلة في امتحانهم، وضاع معنى استئمانهم واستخلافهم. ولن يكون هناك فضل لاجتهادهم، أو المسارعة إلى الإيمان بربهم، إذ الكل في كشف الغطاء والحجاب سواء، ولذلك فإن هذا الغطاء يرفع عن الإنسان بمجرد الانتهاء من فترة الابتلاء، قال تعالى عن الكافر إذا حان اللقاء: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ١٩ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ٢٠ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ٢١ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ٢٢﴾ ق:١٩/٢٢ .

وربما يسأل سائل عن السبيل لتحقيق السعادة، ونحن نرى الناس مختلفين في أقدارهم آجالا وأرزاقا، وألوانا وأخلاقا، منهم الغني والفقير، والأعمى والبصير، والجاهل والخبير منهم الظالم والمظلوم، والحاكم والمحكوم، والمالك والمعدوم، لم لا يصبحون سواسية في المسكن والملبس والمطعم، لا فوارق بينهم كما نادت بذلك الشيوعية، أو بعض الآراء الفكرية التي تنادي بمدينة فاضلة تتساوى فيها أفراد النوعية البشرية

فيصبحون شركاء لا أجراء؟ وجواب ذلك أن الله ﷻ قد شاء أن يخلق الإنسان للامتحان والابتلاء، ولا بد لكي يقوم الابتلاء على قاعدة أو أساس أن تحدث الفوارق بين الناس ليبلوَ الله بعضهم ببعض.

كما قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ المائدة:٤٨.

ومن ثم فإن الله ﷻ ابتلى الرسل بأممهم، وابتلى الأمم برسلهم، وابتلى الحكام بشعوبهم، وابتلى المحكومين بحكامهم، وهكذا في المجتمع الواحد تتنوع المستويات، وتتعدد أنواع الابتلاءات، تحقيقا للحكمة التي أراد الله ﷻ أن يخلقهم من أجلها، ولن ينجح أي فكر يحاول العبث بها، لأن الله نظم الكون على إثرها، وبنى على ذلك تفاوت الدرجات. وتنوع القدرات. ولذلك رأينا الشيوعية والرأسمالية توالت عليها النكبات، وأصبحت المركسية عبرة لسائر المجتمعات والحضارات، فقد فشلت في قيادة البشرية، أو تقديم النفع للإنسانية لأنها خالفت فطرة الله في جميع الحالات، وحاربت أوامر الله ﷻ في بناء المجتمعات، فتعاملت الرأسمالية بالربا المحرم في كل الرسالات، وانهار اقتصاد العالم في لحظات وأقروا أنه لا صلاح لهم إلا باتباع ما جاء في الإسلام من تشريعات .

ومعلوم أن أحكام العبودية أو أوامر الله التكليفية الشرعية توجه الإنسان إلى الأفضل دائما، وتقلل من الفوارق بين الناس ما دام الإنسان

ملتزما بتنفيذ مراد الله ﷻ في أمانته، محافظا بين الخلق على مكانته، موفقا فيما يمتحنه من أنواع الابتلاء، سعيدا بما سيناله في الآخرة عند اللقاء، ومن أجل ذلك ابتلى الله الإنسانية جمعاء في أن يراعي كل إنسان مكانة أخيه الإنسان، ليحيى حياة كريمة تشعره بالأمن والأمان، وتتناسب مع كونه خليفة الله على وجه الكمال.

وهذا منطق الإسلام في الدعوة إلى حقوق الإنسان، فلن تتحقق حقوق الإنسان على وجه الكمال إلا بتطبيق منهج الله تطبيقا شاملا، وقيام كل راع بما عليه قياما كاملا، وأن يكون فعالا مؤثرا في الحياة لا خاملا متواكلا، بل متوكلا على الله ﷻ آخذا بالأسباب.

ولما جعل الله الناس مختلفين في الأرزاق على اختلاف أنواعها، كالمال والصحة والذكاء، والولد والجمال والنساء، وما أشبه ذلك من ألوان النعيم أو الشقاء، بين أن ذلك للاختبار والابتلاء فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾ الفجر:١٥/١٦. والجواب عن هذا الفهم الخاطئ الذي يظن صاحبه أن سعة الرزق إكرام من الله ورضوان، وأن ضيق الرزق إهانة من الله وحرمان، الجواب هو كما قال الله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ الفجر:١٥/٢٠.

وذلك الفهم الخاطئ ناشئ عن قلة العلم وسوء الفهم لحقيقة الحياة، فالإهانة تظهر للغني في ماله إذا لم يكرم اليتيم ويطعمه، ولا يعطي المسكين ويحرمه، ويكنز المال ويحبه ويعظمه، ولم يعلم أنه فتنة فيقاومه

كما قال خالق المال ومقسمه: ﴿ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿١٥﴾ ﴾ التغابن:١٥.

وإذا ضيق الله الرزق على إنسان فليس لأنه عبد مهان، فالفقير لا يهان إلا باعتراضه على قدره، وخجله من فقره، وتبريه من إخوانه وأهله، لكونهم معدمين فقراء، فيحقد على الأغنياء، ويعترض على مر القضاء، وهذا حسد أو داء ما له دواء إلا الرضا بالقضاء، وإدراكِ حقيقة الابتلاء، فوجب على المبتلين أن يتمنوا السعادة للآخرين، وأن يسألوا رب العالمين أن يمنحهم من فضله وعطائه، ومدده ونعمائه، فالابتلاء إذا حقيقة عظمى تحقق معاني الحكمة الإلهية، والنجاح فيه أساس السعادة لجميع المجتمعات البشرية.

• حكمة الابتلاء والجزاء كما يراها العلامة ابن القيم.

إن الله سبحانه أبرز خلقه من العدم إلى الوجود ليجري عليه أحكام أسمائه وصفاته، فيظهر كماله المقدس، وإن كان لم يزل كاملا، فمن كماله ظهور آثار كماله في خلقه وأمره، وقضائه وقدره، ووعده ووعيده، ومنعه وإعطائه، وإكرامه وإهانته، وعدله وفضله، وعفوه وإنعامه، وسعة حلمه وشدة بطشه[1].

وقد اقتضى كماله المقدس سبحانه أنه كل يوم هو في شأن، فمن جملة شؤونه، أن يغفر ذنبا، ويفرج كربا، ويشفي مريضا، ويفك عانيا، وينصر مظلوما، ويغيث ملهوفا، ويجبر كسيرا، ويغني فقيرا، ويجيب

---

(١) انظر شفاء العليل ص ٢٤٣ وما بعدها بتصرف.

دعوة، ويقيل عثرة، ويعز ذليلا، ويذل متكبرا، ويقصم جبارا، ويميت ويحيي، ويضحك ويبكي، ويخفض ويرفع، ويعطي ويمنع، ويرسل رسله من الملائكة ومن البشر في تنفيذ أوامره، وسوق مقاديره التي قدرها إلى مواقيتها التي وقتها لها، وهذا كله لم يكن ليحصل في ذات البقاء، وإنما اقتضت حكمته البالغة حصوله في دار الامتحان والابتلاء.

وكمال ملك الله التام اقتضى كمال تصرفه فيه بأنواع التصرف، ولهذا جعل الله سبحانه الدور ثلاثة: دارا أخلصها للنعيم واللذة والبهجة والسرور، ودارا أخلصها للألم والنصب وأنواع البلاء والشرور، ودارا خلط خيرها بشرها، ومزج نعيمها بشقائها، ومزج لذتها بألمها، يلتقيان ويطالبان، وجعل عمارة الدارين من هذه الدار، وأجرى أحكامه على خلقه في الدور الثلاثة بمقتضى ربوبيته، وإلهيته وعزته، وحكمته وعدله ورحمته، فلو أسكنهم كلهم دار البقاء من حين أوجدهم لتعطلت أحكام هذه الصفات، ولم يترتب عليها آثارها.

إن يوم المعاد الأكبر يوم مظهر الأسماء والصفات وأحكامها ولهذا يقول سبحانه: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ غافر:١٦. وقال: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ الفرقان:٢٦. وقال: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ الانفطار:١٩.

إن الله سبحانه لَيتعرف إلى عباده ذلك اليوم بأسماء وصفات لم يعرفوها في هذه الدار، فهو يوم ظهور المملكة العظمى والأسماء الحسنى والصفات العلى، فتأمل ما أخبر به الله ورسوله من شأن ذلك

اليوم وأحكامه، وظهور عزته تعالى وعظمته وعدله وفضله ورحمته، وآثار صفاته المقدسة التي لو خلقوا لدار البقاء لتعطلت، وكماله سبحانه ينفي ذلك، وهذا دليل مستقل لمن عرف الله ﷻ وأسمائه وصفاته على وقوع المعاد، وصدق الرسل فيما أخبروا به عن الله عنه، فيطابق دليل العقل على دليل النقل في إثبات وقوع القيامة.

كما أن الله سبحانه يحب أن يعبد بأنواع العبادات كلها، ولا يليق ذلك إلا بعظمته وجلاله، ولا يحسن ولا ينبغي إلا له وحده، ومن المعلوم أن أنواع التعبد الحاصلة في دار الامتحان والابتلاء لا تكون في دار الجزاء، فليست الجنة دار ابتلاء، وإنما هي دار ثواب وجزاء، اقتضت حكمة الله فيها أن يجزي الذين أساءوا بما عملوا، وأن يجزي الذين أحسنوا بالحسنى، فلم يكن بد من دار تقع فيها معاني الابتلاء والامتحان، من وجود الإساءة والإحسان، ويجري على أهلها أحكام الأسماء والصفات، ثم يعقبها دار يجازي فيها المحسن والمسيء، ويجري على أهلها فيها أحكام الأسماء والصفات، فتعطيل أسمائه وصفاته ممتنع ومستحيل، وهو تعطيل لربوبيته وإلهيته وملكه وعزه وحكمته، فمن فتح له باب من الفقه في أحكام الأسماء والصفات، وعلم اختصاصها لآثارها ومتعلقاتها، واستحالة تعطيلها، علم أن الأمر كما أخبرت به الرسل، وأنه سبحانه منزه عن سائر العيوب والنقائص، وهذا باب عزيز من أبواب الإيمان، فيفتحه الله على من يشاء من عباده، ويحرمه من يشاء.

وكم لله سبحانه من حكمة وحمد، وأمر ونهي، وقضاء وقدر في

جعل بعض عباده فتنة لبعض كما قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ الأنعام:٥٣. وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ الفرقان:٢٠.

فهو سبحانه جعل أوليائه فتنة لأعدائه، وأعداءه فتنته لأوليائه، والملوك فتنة للرعية، والرعية فتنة لهم، والرجال فتنة للنساء، وهن فتنة لهم، والأغنياء فتنة للفقراء، والفقراء فتنة لهم، وابتلى كل أحد بضد جعله متقابلا في حياته، فما استقرت أقدام الأبوين على الأرض إلا وضدهما مقابلهما، واستمر الأمر في الذرية كذلك إلى أن يطوي الله الدنيا ومن عليها.

وكم له سبحانه في مثل هذا الابتلاء والامتحان من حكمة بالغة، ونعمة سابغة، وحكم نافذ، وأمر ونهي، وتصريف دال على ربوبيته وإلهيته، وملكه وحمده، وكذلك ابتلاء عباده بالخير والشر في هذه الدار هو من كمال حكمته، ومقتضى حمده التام.

ولولا هذا الابتلاء والامتحان لما ظهر فضل الصبر والرضا، والتوكل والجهاد والعفة، والشجاعة والحلم،، والعفو والصفح، والله سبحانه يحب أن يكرم أوليائه بهذه الكمالات، ويحب ظهورها عليهم، ليثني بها عليهم هو وملائكته، وينالوا باتصافهم بها غاية الكرامة، واللذة والسرور، وإن كانت مرة المبادئ فلا أحلى من عواقبها، ووجود الملزوم بدون لازمه ممتنع.

وقد أجرى الله سبحانه حكمته بأن كمال الغايات تابعة لقوة

أسبابها وكمالها، ونقصانها لنقصانها، فمن كمّل أسباب النعيم واللذة كمُلت له غاياتها، ومن حُرمها حُرمها، ومن نقصها نقص له من غاياتها، وعلى هذا قام الجزاء بالقسط، والثواب والعقاب، وكفى بهذا العالم شاهدا لذلك، فرب الدنيا والآخرة واحد، وحكمته مطردة فيهما، وله الحمد في الأولى والآخرة، وله الحكم وإليه ترجعون.

كما أن أفضل العطاء على الإطلاق عطاء الإيمان وجزاؤه، وهو لا يتحقق إلا بالاختبار والامتحان، قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ۝٣ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٤ مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥ وَمَن جَـٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَـٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٦﴾ العنكبوت: ٢/ ١٠.

ذكر سبحانه في سورة العنكبوت أنه لا بد أن يمتحن خلقه ويفتنهم، ليتبين الصادق من الكاذب، والمؤمن من الكافر، ومن يشكره ويعبده ممن يكفره ويعرض عنه ويعبد غيره، وذكر أحوال الممتحنين في العاجل والآجل، وذكر أئمة الممتحنين في الدنيا، وهم الرسل وأتباعهم، وعاقبة أمرهم، وما صاروا إليه، وافتتح بالإنكار على من يحسب أنه يتخلص من الامتحان والفتنة في هذه الدار إذا دعي الإيمان، وأن حكمته سبحانه وشأنه في خلقه يأبى ذلك.

وأخبر عن سر هذه الفتنة والمحنة وهو تبيين الصادق من الكاذب، والمؤمن من الكافر، وهو سبحانه كان يعلم ذلك قبل وقوعه، ولكن اقتضى عدله وحمده أنه لا يجزي العباد بمجرد علمه فيهم، بل بمعلومه

إذا وجد وتحقق، والفتنة هي التي أظهرته وأخرجته إلى الوجود، فحينئذ حسن وقوع الجزاء عليه.

ثم أنكر سبحانه على من لم يلتزم الإيمان به، ولم يتابع رسله خوف الفتنة والمحنة التي يمتحن بها رسله واتباعهم، حيث يظن أنه بإعراضه عن الإيمان وتصديق رسله يتخلص من الفتنة والمحنة، فإن بين يديه من الفتنة والمحنة والعذاب ما هو أعظم وأشق مما فر عنه، فإن المكلفين بعد إرسال الرسل إليهم بين أمرين: إما أن يقول أحدهم آمنت، وإما أن لا يقول، بل يستمر على السيئات، فمن قال: آمنا، امتحنه الرب تعالى وابتلاه، لتتحقق بالإيمان حجة إيمانه، وثباته عليه، وأنه ليس بإيمان عافية ورخاء فقط، بل إيمان ثابت في حالتي النعماء والبلاء، ومن لم يؤمن فلا يحسب أنه يعجز ربه تعالى ويفوته، بل هو في قبضته، وناصيته بيده، فله من البلاء أعظم مما ابتلى به من قال آمنت، فمن آمن به وبرسله فلا بد أن يبتلي من أعداء رسله بما يؤلمه ويشق عليه، ومن لم يؤمن به وبرسله فلا بد أن يعاقبه، فيحصل له من الألم والمشقة أضعاف ألم المؤمنين، فلا بد من حصول الألم لكل نفس مؤمنة أو كافرة، لكن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا أشد، ثم ينقطع ويعقبه أعظم اللذة، والكافر يحصل له اللذة والسرور ابتداء، ثم ينقطع ويعقبه أعظم الألم والمشقة.

وهكذا حال الذين يتبعون الشهوات فيلتذون بها ابتداء ثم تعقبها الآلام بحسب ما نالوه منها، والذين يصبرون عنها ينالون بفقدها ابتداء، ثم يعقب ذلك الألم من اللذة والسرور بحسب ما صبروا عنه

وتركوه منها، فالألم واللذة أمر ضروري لكل إنسان، لكن الفرق بين العاجل المنقطع اليسير، والآجل الدائم العظيم بون شاسع.

ولهذا كان خاصة العقلاء النظر في العواقب والغايات، فمن ظن أنه يتخلص من الألم بحيث لا يصيبه البتة، فظنه أكذب الحديث، فإن الإنسان خلق عرضة للذة والألم، والسرور والحزن، والفرح والغم، وذلك من جهتين:

١- من جهة تركيبه وطبيعته وهيئته، فإنه مركب من أخلاط متفاوتة متضادة، يمتنع أو يعز اعتدالها من كل وجه، بل لا بد أن يبغي بعضها على بعض، فيخرج عن حد الاعتدال فيحصل الألم.

٢- ومن جهة بني جنسه فإنه مدني بالطبع، لا يمكنه أن يعيش وحده، بل لا يعيش إلا معهم، وله ولهم لذاذات، ومطالب متضادة ومتعارضة، لا يمكن الجمع بينها، بل إذا حصل منها شيء، فات منها أشياء، فهو يريد منهم أن يوافقوه على مطالبه وإرادته، وهم يريدون منه ذلك، فإن وافقهم حصل له من الألم والمشقة بحسب ما فاته من إرادته، وإن لم يوافقهم آذوه وعذبوه وسعوا في تعطيل مراداته، كما لم يوافقهم على مراداتهم، فيحصل له من الألم والتعذيب بحسب ذلك.

ومن فإن الإنسان في ألم ومشقة وعناء سواء وافق بني جنسه أو خالفهم، ولاسيما إذا كانت موافقتهم على أمور يعلم أنها عقائد باطلة، وإرادات فاسدة، وأعمال تضره في عواقبها، ففي موافقتهم أعظم الألم، وفي مخالفتهم حصول الألم، فالعقل والدين والمروءة والعلم تأمره باحتمال أخف الألمين تخلصا من أشدهما، وبإيثار المنقطع منهما

لينجو من الدائم المستمر، فمن كان ظهيرا معاونا للمجرمين من الظلمة على ظلمهم، ومن أهل الأهواء والبدع على أهوائهم وبدعهم، ومن أهل الفجور والشهوات على فجورهم وشهواتهم، ليتخلص بمظاهرتهم من ألم أذاهم، أصابه من ألم الموافقة لهم عاجلا وآجلا أضعاف أضعاف ما فر منه.

ومضمون سورة العنكبوت هو سر الخلق والأمر، فإنها سورة الابتلاء والامتحان، وبيان حال أهل البلوى في الدنيا والآخرة، ومن تأمل فاتحتها ووسطها وخاتمها وجد في ضمنها أن أول الأمر ابتلاء وامتحان ووسطه صبر وتوكل وآخره هداية ونصر.

وهو سبحانه أخبر أنه خلق السموات والأرض العالم العلوي والسفلي ليبلونا أينا أحسن عملا، وأخبر أنه زين الأرض بما عليها من حيوان ونبات ومعادن وغيرها لهذا الابتلاء، وأنه خلق الموت والحياة لهذا الابتلاء، فكان هذا الابتلاء غاية الخلق والأمر، فلم يكن من بد من دار يقع فيها هذا الابتلاء، وهي دار التكليف.

ولما سبق في حكمته أن الجنة دار نعيم لا دار ابتلاء وامتحان، جعل قبلها دار الابتلاء جسرا يعبر عليه إليها، ومزرعة يبذر فيها، وميناء يزود منها، وهذا هو الحق الذي خلق الخلق به ولأجله، وهو أن يعبد وحده بما أمر به على ألسنة رسله، فأمر ونهى على ألسنتهم، ووعدنا بالثواب والعقاب، ولم يخلق خلقه سدى، لا يأمرهم ولا ينهاهم، ولا يتركهم هملا لا يثيبهم، بل خلقوا للأمر والنهي، والثواب والعقاب، ولا يليق بحكمته وقدرته وعدله وفضله غير ذلك.

قال تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَاۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ الأنعام:١٤٨/١٤٩.

• الإنسان لم يوصف بالظلم والجهالة لأنه حمل الأمانة.

لقد ميز الله الإنسان عن غيره من الكائنات بخلافة الأرض على وجه الابتلاء، وكرمه وفضله لأنه حمل الأمانة التي رفضتها السماوات والأرض والجبال، لكن السؤال الذي يطرح نفسه بالضرورة: كيف وصف الله ﷻ الإنسان بالظلم والجهالة في آية الأمانة في حين أنه مارس حقه في الاختيار كما فعلت السماوات والأرض والجبال، فالله تبارك وتعالى قال: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ الأحزاب:٧٢.

فلماذا وصفه بالظلم والجهالة مع كونه الوحيد الذي انفرد بحمل الأمانة وكرمه الله من أجلها، وسخر له الكائنات بسببها؟ وجواب ذلك أن الله ﷻ وصفه بالظلم والجهالة على اعتبارين مقبولين:

الاعتبار الأول: أن هذا الوصف إنما هو باعتبار الأغلب أو التعميم المخصوص، فالظلم والجهالة وصف أغلب البشر، ولا يدخل في ذلك الرسل والأنبياء، أو الصالحون من الأولياء، فالنسبة عند المقارنة بين الموحدين العابدين والمشركين الكافرين نسبة ضئيلة جدا. دل على ذلك ما رواه البخاري من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ

قال: (يقُول اللهُ تَعَالَى: يا آدم، فَيقُول: لبَّيكَ وَسَعْدَيكَ وَالخَيرُ فِي يديكَ، فَيَقُول: أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ، قَالَ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟، قَالَ: مِنْ كُلِ أَلفٍ تِسْعَمِائَةً وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ) [١].

إذا كانت النسبة بين من حقق الغاية من خلقه، وبين من لم يؤد أمانة ربه واحد إلى تسعمائة وتسعة تسعين، فإن وصف الإنسان على الأغلب وعلى هذا الاعتبار ظلوم جهول.

الاعتبار الثاني: أن وصف الإنسان بالظلم والجهالة هو باعتبار النهاية والنتيجة، لا باعتبار البداية عند عرض الأمانة، فلو كان ظلوما جهولا عند البداية لما كرمه الله ﷻ بهذه المنزلة، ولا حقد عليه إبليس في هذه المسألة، ولا ظهرت الحكمة في سجود الملائكة، ولكنه كان ظلوما جهولا باعتبار النتيجة ومحصلة أفعال الإنسان، فالأمر كما ذكر الله في القرآن: ﴿أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾ الأعراف:١٧٢/١٧٤.

وقال تعالى: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ يس: ٣٠/٣٢.

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج ١٢٢١/٣ (٣١٧٠)، وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب قوله النبي ﷺ: يقول الله لآدم أخرج بعث النار ٢٠١/١ (٢٢٢).

• الحكمة في خلود أهل الجنة والنار أبد الآبدين.

ذكر ابن القيم حكمة وجود أهل الخلدين أبد الآبدين في جوابه عمن قال: أي خير ينشأ من العذاب الشديد الدائم الذي لا ينقطع، ولا يفتر عن أهله، بل أهله فيه أبد الآباد، كلما نضجت جلودهم بدلوا جلودا غيرها ليذوقوا العذاب، لا يقضي عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم طرفة عين؟

قيل هذا سؤال يقلقل الجبال فضلا عن قلوب الرجال، وعن هذا السؤال أنكر من أنكر حكمة العزيز الحكيم رب العزة والجلال، ورد الأمر إلى مشيئة محضة لا سبب لها ولا غاية، وجوز على الله أن يعذب أهل طاعته وأوليائه، وينزلهم إلى أسفل الجحيم وينعم أعدائه المشركين به، ويرفعهم إلى أعلى جنات النعيم، وأن يدخل النار من شاء بغير سبب ولا عمل أصلا، وأن يفاوت بين أهلها مع مساويهم في الأعمال، ويسوي بينهم في العذاب مع تفاوتهم في الأعمال، وأن يعذب الرجل بذنب غيره، وأن يبطل حسناته كلها فلا يثيبه بها، أو يثيت بها غيره، وكل ذلك جائز عليه عند الجبرية أهل الضلال، الذي قالوا: ولا مخلص عن هذا السؤال إلا بهذا الأصل الجبري، وربما تمسكوا بظاهر من القول، لم يضعوه على مواضعه، ولم يجمعوا بينه وبين أدلة العدل والحكمة، وتعليق الأمور بأسبابها، وترتيبها آثارها، والموازنة والمقابلة بينها، وأخطئوا في فهم القرآن كما أخطئوا في وصف الله بما لا يليق به، والتجويز عليه ما لا يجوز.

وفي المقابل للجبرية أثبتت القدرية الأسباب والحكمة، ولكن وقعوا

في نظيره أو ما هو شر منه، حيث أوجبوا على الله سبحانه تخليد من أفنى عمره في طاعته، ثم ارتكب كبيرة واحدة ومات مصرا عليها في النار مع أعدائه الكفار أبد الآباد، ولم يرقبوا له طاعة، ولم يرعوا له إسلاما، وهم في هذا المذهب شر من إخوانهم الجبرية، فإن الجبرية لم يوجبوا على الله ذلك الحكم، وإنما جوزوه عليه، وجوزوا أن لا يفعله، وهؤلاء القدرية أوجبوا عليه تخليد أهل الكبائر مع الكفار.

وقد دل القرآن والسنة والفطرة وأدلة العقول على بطلان مذهب الجبرية والقدرية، وأنه سبحانه خلق السموات والأرض وما بينهما بالحق، ولم يخلق شيئا عبثا ولا سدى ولا باطلا، وإنما أوجد العالم العلوي والسفلي، ومن فيهما بالحق الذي هو وصفه واسمه، وقوله وفعله، وهو سبحانه الحق المبين، فلا يصدر عنه إلا حق، ولا يقول إلا حقا، ولا يفعل إلا حقا، ولا يأمر إلا بالحق، ولا يجازي إلا بحق، فالباطل لا يضاف إليه، بل الباطل ما لم يضف إليه، كالحكم الباطل والدين الباطل، الذي لم يأذن فيه، ولم يشرعه على ألسنة رسله، والمعبود الباطل الذي لا يستحق العبادة، وليس أهلا لها، فعبادته باطلة، ودعوته باطلة، والقول الباطل هو الكذب والزور، والمحال من القول الذي لا يتعلق بحق موجود، بل متعلقه باطل لا حقيقة له، وهو سبحانه إنما خلق الخلق لعبادته ومعرفته، وأصل عبادته محبته على آلآئه ونعمه، وعلى كماله وجلاله، وذلك أمر فطري ابتدأ الله عليه خلقه، وهي فطرته التي فطر الناس عليها ،كما فطرهم على الإقرار به.

وهذه الفطرة أمر خلقي، خلقوا عليه، ولا تبديل لخلقه، فمضى

الناس على هذه الفطرة قرونا عديدة، ثم عرض لها ابتلاءا بعض ما يدعو إلى فسادها وخروجها عن الصحة والاستقامة، بمنزلة ما يعرض للبدن الصحيح، والطبيعة الصحيحة، مما يوجب خروجهما عن الصحة إلى الانحراف، فأرسل رسله ترد الناس إلى فطرتهم الأولى التي فطروا عليها، فأنقسم الناس معهم ثلاثة أقسام:

١- منهم من استجاب لهم كل الاستجابة وانقاد إليهم كل الانقياد، فرجعت فطرته إلى ما كانت عليه، مع ما حصل لها من الكمال والتمام في قوتي العلم النافع، والعمل الصالح، فازدادت فطرتهم كمالا إلى كمالها، فهؤلاء لا يحتاجون في المعاد إلى تهذيب وتأديب، ونار تذيب فضلاتهم الخبيثة، وتطهرهم من الأدران والأوساخ، فإن انقيادهم للرسل أزال عنهم ذلك كله، فاستوجبوا الخلود في الجنة.

٢- قسم استجابوا لهم من وجه دون وجه فبقيت عليهم بقية من الأدران والأوساخ التي تنافي الحق الذي خلقوا له، فهيأ لهم العليم الحكيم من الأدوية والابتلاء والامتحان بحسب ما لديهم من أنواع الداء الذي قام بهم، فإن وفت بالخلاص منها في هذه الدار وإلا ففي البرزخ، فإن وفي بالخلاص وإلا ففي موقف القيامة وأهوالها ما يخلصهم من تلك البقية، فإن وفي بها وإلا فلا بد من المداواة بالدواء الأعظم، وآخر الطب الكي، فيدخلون النار كير التمحيص والتخليص، حتى إذا هذبوا، أخرجوا من مصحة المرضى إلى دار أهل العافية، كما دلت على ذلك السنة المتواترة عن النبي ﷺ وصرح به.

روى البخاري من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ

قال: (يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ النَّارِ، فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ مَظَالِمُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا، أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَأَحَدُهُمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا)[(١)].

وكذلك قوله تعالى: ﴿طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ الزمر:٧٣. فلم يأذن لهم في دخولها إلا بعد طيبهم، فإنها دار الطيبين، فليس فيها شيء من الخبث أصلا، ولهذا يلبث هؤلاء في النار على قدر حاجتهم إلى التطهر وزوال الخبث.

٣- القسم الثالث قوم لم يستجيبوا للرسل، ولا انقادوا لهم، بل استمروا على الخروج عن الفطرة، ولم يرجعوا إليها، واستحكم فسادها فيهم أتم استحكام، لا يرجى لهم صلاح، فهؤلاء لا يفي مجيء الدنيا ومصائب الموت وما بعده وأهوال القيامة بزوال أوساخهم وأدرانهم، ولا يليق بحكمة العليم الحكيم أن يجاور بهم الطيبين في دارهم، ولم يخلقوا للفناء، فهؤلاء أهل دار الابتلاء والامتحان، باقون في الآخرة ببقاء ما معهم من درن الكفر والشرك، والنار إنما أوقدت عليهم بأعمالهم الخبيثة، فعذابهم بنفس أعمالهم، السيئ منها يصور من العذاب ما يناسبها ويشاكلها، فالعذاب باق عليهم ما بقيت حقائق تلك الأعمال، وما تولد منهما، ما دامت موجبات العذاب باقية فالعذاب باق[(٢)].

---

(١) رواه البخاري في الرقاق، باب القصاص يوم القيامة ٥/٢٣٩٤ (٦١٧٠).

(٢) انظر شفاء العليل لابن القيم ص ٢٥٢ وما بعدها بتصرف.

- **الرد على من نفى أن الإنسان خليفة الله في الأرض.**

اعترض البعض أن يقال للإنسان: يا خليفة الله في الأرض، فما غاب الله حتى يستخلف، واحتج بما روي عن عبد الله بن أبي مليكة أنه قال: (قِيل لأَبي بكْرٍ ﷺ: يَا خَليفَةَ الله فَقَال أَنَا خَليفَةُ رَسُول الله ﷺ وَأَنَا رَاضٍ به، وَأَنَا رَاضٍ به وَأَنَا رَاضٍ) [1]. وفي رواية أخري عنه قال: (قِيل لأَبي بكْرٍ ﷺ: يَا خَليفَةَ الله، فَقال بل خَليفَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ وَأَنَا أَرْضَي به) [2].

والجواب وإن كان واضحا مما تقدم بيانه إلا أننا نفصله هنا بمزيد من الأدلة لأهمية القضية عند كثير من أهل السنة من المعاصرين، فالاستخلاف كما سبق على نوعين:

١- استخلاف عن عجز وافتقار، وهو الاستخلاف الذي في يكون عن غياب المستخلفِ، وعجزه عن القيام بأمره، كالذي يوكل نائبا عن في كتابة الدين لكون عاجزاً لا يقدر، إما لسفه فيه أو ضعف كقول سبحان وتعالى: ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ البقرة:٢٨٢ فناب عنه وليه في كتابة الدين لعجزة وانتفاء قدرته، وهذا استخلاف عن افتقار.

٢- استخلاف عن كمال وقدرة، وذلك إذا كان الاستخلاف

---

(١) رواه أحمد في المسند ١/١٠ (٥٩) وقال شعيب الأرنئوط: إسناده ضعيف لانقطاعه، فإن ابن أبي مليكة لم يدرك أبا بكر.

(٢) رواه أحمد في المسند ١/١١ (٦٤) وضعفه شعيب الأرنئوط.

لتشريف المستخلف وإكرامه، أو اختباره وامتحانه، فهو استخلاف عن كمال وقدرة، ليس لعجز المستخلف عن القيام بأمره، فالله استخلف الإنسان في الأرض وهو سبحانه من فوق العرش معه في كل صغيرة وكبيرة، يراه ويتابع وقادر علي هداية الناس أجميعن، وأن يجعلهم متوافقين غير مختلفين، علي قلب رجل واحد، ولكنه بين أن ذلك الاستخلاف يقتضي التنوع والاختلاف، للابتلاء والاختيار والنظر والاعتبار، فينال المحسن الحسني ويعذب المسيء بالنار، فقال سبحان وتعالى في شأن معيته، وهو مستو على العرش في فوقيته: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾﴾ آل عمران:٥/٦.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ الأنعام:٦٠. فانتفى أن يكون استخلاف الله للإنسان عن غياب المستخلف، أو وصفه بنقصان.

وقد بين الله سبحانه أنه قادر على أن يكون الناس أمة واحدة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ولكن جعل لهم الحرية في الاتباع والاستطاعة والقدرة على الامتناع، فلا إكراه في الدين، وسوف يحاسبهم أجمعين كما قال رب العلمين: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ هود:١١٨/١١٩. فما خلقهم الله إلا ليعبدونه باستخلافهم في ملكه، وابتلائهم بأمره وشرعه، ثم يحاسبهم

بعدله وفضله.

ولما قِيل لأبي بكرٍ ﷺ: يَا خَلِيفَةَ اللهِ، فَقَال: بل خَلِيفَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ، فإن ثبتت هذه الرواية، فإنما قال ذلك، إما نفيا للاستخلاف عن غياب وعجز، والذي هو عين النقص، ليثبت لله ﷻ كل معاني الكمال، أو أراد من قوله التواضع في المنزلة، والافتقار إلى الله ﷻ في الخلافة المعضلة، وأن يتابع النبي ﷺ متابعة كاملة، لذلك قال منبها على هذه المسألة: وَأَنَا رَاضٍ به، وَأَنَا رَاضٍ به، وَأَنَا رَاضٍ به.

وهكذا طبيعة العاقل الأمين في علاقته بربه أن يسعي فهيا إلى دوام الصلة، ويرجع دائما إلى الذي خوله، ويعتمد عليه في كل مسألة، فيطلب منه الهداية والعون والاستبصار، ويرجع إلى خالقه بالعجز والافتقار، ألا تري دعاء النبي ﷺ في جميع الأسفار، فيما رواه البخاري عن عبدِ الله بنَ عُمَرَ ﷺ أنه قال: (كَانَ رَسُول الله ﷺ إذا اسْتَوَي عَلَى بعِيرِ خَارِجًا إلِي سَفرٍ كَبرَ ثلاثا ثمَّ قَال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ الزخرف:١٣/١٤ اللهمَّ إِنَّا نَسْأَلكَ فِي سَفرِنَا هذا البرَّ وَالتَّقوَي، وَمِنَ العَمَل مَا تَرْضَي، اللهمَّ هوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هذا، وَاطو عَنَّا بعْدَه، اللهمَّ أَنْتَ الصَّاحِب فِي السَّفَر، وَالخَلِيفَةُ فِي الأَهل، اللهمَّ إِنِّي أَعوذ بك مِنْ وَعْثاءِ السَّفَرِ، وَكَآبةِ المَنْظَر، وَسُوءِ المُنْقَلب فِي المَال وَالأهل، وَإِذا رَجعَ قَالهنَّ وَزَادَ فِيهنَّ: آيبونَ تَائِبونَ عَابدُونَ، لِرَبنَا حَامِدُونَ)[1].

---

(١) مسلم في كتاب الحج، باب ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره ٢/٩٧٨ (١٣٤٢). ومعنى الوعثاء الشدة والمشقة.

وكذلك استخلف النبي ﷺ ربه على أمته عند ظهور الدجال، على اعتبار أنه يرد الأمر إلى من استخلفه في الأرض افتقارا وإظهارا لعجزه، وإقرارا أنه لا نجاة لأمته إلا إذا استعانوا بربهم على الدجال، فقد روى مسلم من حديث النَّوَّاسِ بن سَمْعَان رضي الله عنه أنه قَال: (ذَكَرَ رَسُول الله ﷺ الدجال ذاتَ غداةٍ فَخَفَّضَ فِيه وَرَفَّعَ حتى ظَنَنَّاه فِي طَائِفَةِ النَّخْل، فَلمَّا رُحْنَا إِليْه عَرَفَ ذلكَ فِينَا، فَقَال: مَا شَأْنُكُمْ؟ قُلنَا: يَا رَسُول الله ذَكَرْتَ الدجال غَدَاةً، فَخَفَّضْتَ فِيه وَرَفَّعْتَ حتى ظَنَنَّاه فِي طَائِفَةِ النَّخْل، فَقَال: غَيْرُ بنَي حَارثة أَخْوَفُنِي عَليْكُمْ، إِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا فِيكُمْ فَأَنَا حَجِيجُه دُونَكُمْ، وَإِنْ يَخْرُجْ وَلسْتُ فِيكُمْ فَامْرُؤٌ حَجِيجُ نَفْسِه، وَالله خَلِيفَتِي عَلَى كُل مُسْلمٍ)[1].

وإذا كان أبو بكر رضي الله عنه قد تواضع لله عز وجل، ورد على من قال له: يَا خَلِيفَةَ الله، فَقَال: بل خَلِيفَةُ رسول الله ﷺ، وَأَنَا أَرْضَي به، فإنه رضي الله عنه لن ينفي أن إمام المسلمين يوصف بأنه خليفة الله في الأرض على وجه الابتلاء، وأن الله استخلفه وخوله واسترعاه، ووكله واستأمنه وابتلاه، وسوف يحاسب ويسأل، لعلم أبي بكر رضي الله عنه أن الأدلة وردت بذلك في كتاب الله وسنته كذلك.

قال تعالى عن نبيه داود عليه السلام واستخلافه في الأرض: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ ص: ٢٦

---

(١) رواه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفته وما معه ٤/٢٢٥٠ (٢٩٣٧).

وروى البخاري عَنْ أَبي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ أن النَّبيِّ ﷺ قَال: (مَا بعَث الله مِنْ نَبي، وَلا اسْتَخلف مِنْ خَليفَةٍ إلا كَانَتْ له بطَانَتَان، بطَانَةٌ تَأْمُرُه بالمَعْرُوفِ وَتَحُضّه عَليه، وَبطَانَةٌ تَأْمُرُه بالشَّرِّ وَتَحُضُّه عَليْه، فَالمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَ الله تَعَالى) (١).

وعند أحمد وهو صحيح الإسناد أن رسول الله ﷺ قال لحذيفة بن اليمان ﷺ: (ثُمَّ تَكُونُ دُعَاةُ الضَّلالِة، فَإِنْ رَأَيْتَ يَوْمَئِذ خَلِيفَةَ الله فِي الأَرْضِ، فَالزَمْه وَإِنْ نَهك جِسْمَكَ، وَأَخَذ مَالكَ، فَإِنْ لَمْ تَرَه فَاهرَب فِي الأَرْضِ وَلوْ أَنْ تَمُوتَ وَأَنْتَ عَاضٌّ بِجِذل شَجَرَةٍ) (٢).

وكل هذا استخلاف من الله ﷻ للإنسان، سواء كان على المعنى الخاص الذي يراد به خليفة المسلمين، أو المعنى العام الذي يتناول جميع المكلفين، وعند مسلم من حديث أَبي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ أن النَّبي ﷺ قَال: (إِنَّ الدُّنْيَا حُلوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ الله مُسْتَخْلفُكُمْ فِيها فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْملونَ؟ فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ) (٣).

وفي معني الاستخلاف أيضا التخويل والاسترعاء على وجه الاختبار والابتلاء، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ

---

(١) البخاري في الأحكام، باب بطانة الإمام ٢٦٣٢/٦ (٦٧٧٣).

(٢) رواه أحمد في المسند برقم ٤٠٣/٥ (٢٣٤٧٣)، وأبو داود في كتاب الفتن والملاحم، باب ذكر الفتن ودلائلها ٩٥/٤ (٤٢٤٤)، وحسنه الشيخ الألباني، انظر السلسلة الصحيحة (١٧٩١).، ومعنى نهك جسمك أي أجهده، ومعنى جذل شجرة أي أصلها.

(٣) رواه مسلم في كتاب الرقاق، باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء وبيان الفتنة بالنساء ٢٠٩٨/٤ (٢٧٤٢).

﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ الأنعام: ٩٤.

وعند مسلم من حديث ابن عُمر ﷺ أَنَّ رَسُول اللهِ ﷺ قال: (كُلكُمْ رَاعٍ، وَكُلكُمْ مَسْئُول عَنْ رَعِيَّته، الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُول عَنْ رَعِيَّتِه، وَالرَّجُل رَاعٍ فِي أَهله، وَهوَ مَسْئُول عَنْ رَعِيَّته، وَالمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بيْتِ زَوْجِها، وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِها، وَالخَادِمُ رَاعٍ فِي مَال سيِّدِه، وَمَسْئُول عَنْ رَعِيَّته، وَكُلكُمْ رَاعٍ، وَمَسْئُول عَنْ رَعِيَّته)(١).

ومن ثم لا بد للمسلم للعاقل أن يراعي الترابط بين هذه المفاهيم القرآنية التي تفسر حقيقة البشرية في جلاء، وهي الأمانة والخلافة والابتلاء، فكل واحد منها يفسر العلاقة بين الله والإنسان والعالم، تلك العلاقة التي حيرت الفلاسفة وتاهوا فيها، وكذلك حيرت أشياعهم من المعاصرين شرقيين أو غربيين، فالله ﷻ أخبرنا عن هذه الثلاثة، الأمانة والخلافة والابتلاء، كأمور مترابطة، وردت في كتاب الله ﷻ واضحة جلية، ما تركت شاردة ولا خفية من أمور الدنيا والآخرة إلا ولها صلة بها من وجه ما.

هذه الأمور الثلاثة كل واحدة منها موضوع متكامل، وهي في المجموع أيضا موضوع متكامل، يكشف لنا مجموعها عن حقيقة التوحيد والعبادة، وكيف وضعت للإنسان في الأرض السيادة؟ وكيف

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن ٣٠٤/١ (٨٥٣)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرعية ١٤٥٩/٣ (١٨٢٩).

نفسر من خلالا معنى الشهادة؟ إن العلاقة بين الله والإنسان والعالم تفسرها هذه المفاهيم القرآنية الثلاثة في يسر ووضوح، فالله ﷻ مالك الأمانة، وصاحبها على الحقيقة وهو المستخلِفٌ المبتلي، والإنسان أمين عليها حقيقة مستخلَفٌ مبتلَى فيها، والعالم هو موضوع الأمانة وفيه الأرض مستخلَفٌ عليها مبتلى بها، إذ أن العالم مهيأ بمحوريه عالم الغيب وعالم الشهادة لتحقيق ذلك.

وكل أنواع الأدلة والبراهين تدل علي ذلك، سواء كانت نقلية أو عقلية أو فطرية، وكلها تكشف عن مقامات اليقين عند المسلمين والمؤمنين والمحسنين، كل على قدر منزلته، وإدراكه لمعنى كونهم مستأمنين مستخلفين مبتلين. إن هذه المفاهيم القرآنية تعد قضية تتوقف عليا حقيقة البشرية، قضية تتوقف عليها علاقة الإنسانية بربها وخالقها، قضية تتوقف عليها علاقة الإنسانية بالعالم الذي نعيش فيه، ونعرف من خلالها مدى قدرة الإنسان وتأثيره فيه، في علاقة فطرية حية تبين لنا حدود الحرية البشرية في كل زمان ومكان، فإننا نري الإنسان في هذا الزمان يتحدي ربه وخالقه بما أعطاه من علوم مادية عصرية ينازع بها رب البرية، فنراه يهدد البشرية بأسلحته الذرية في وحشية وهمجية، وكأنه إله للكون، قد علت قدرته قدرة الله.

ومن المؤسف أننا نرى من ينجذب إليهم بالتبعية، ويصف الموحدين بالعصبية، ويتهم الإسلام بالتخلف والرجعية، بحجة الدعوة إلى الحرية والتقدم والمدنية، إن قضية الإنسان وعلاقته بخالقه قضية علمية منطقية، والتبعية فيها للحق وحده بلا عصبية، بل هي دعوة لذوي الحجا وأولي الألباب، لو أرادوا المناقشة في هذا الباب، فلا مناص من العودة إلى هذه

المفاهيم القرآنية الثلاثة التي ورد بها الوحي في النقل الصحيح، ويؤيدها صاحب العقل الصريح، إذا نظر إليها بقلب سليم صحيح، يطلب به الحق ولا شيء غير الحق.

لقد اعتمد كثيرون في نشأة الخلق على نظرية الانفجار العظيم وظنوا أنها أم الحقائق التي توصل إليه العلم، والحقيقة المرة أنها تعبير علمي قاصر لما بينه القرآن من مرور الكون في نشأته بمرحلتين، مرحلة الرتق والدخان، ومرحلة الفتق وتهيئة الكون للإنسان. وها نحن قد علمنا أن الإنسان لم يتميز عن غيره بالنطق أو العقل أو الاجتماعية والحرية، وإنما تميز باستخلافه في الأرض، فهو خليفة عن الله ﷻ على وجه الابتلاء والكمال، لأنه الوحيد الذي قبل الأمانة حين رفضتها الكائنات، وأنه سبحانه بعدله سخر من رفضها لمن قبلها واستخلفه في الأرض بينها، وذلك بعد تخييرها في التسخير والإتيان طوعا أو كرها لأمر الله، تحقيقا للرضا بحكمته في تدبير أمور خلقه، وعلمنا أن استخلاف الإنسان في الأرض يدل على معنيين أساسيين، الأول أنه خليفة عمن سبق من الذرية عن نقص في الأوصاف البشرية يخلف بعضهم بعضا في تعاقب الأجيال، والثاني أنه خليفة لله في الأرض على وجه الابتلاء والكمال.

كما أن الاستخلاف نتج عنه وجود عالمين على سبيل ابتلاء الإنسان، عالم الغيب وعالم الشهادة، وهما في العلم عند الله سيان، لكنهما مختلفان بالنسبة للإنسان، وكذلك ظهر على إثر استخلاف الإنسان في الأرض نوعان من توحيد الله ﷻ، توحيد العبودية وتوحيد الربوبية، فتوحيد العبودية أن يكون المستخلَف مقيدا بالخضوع للتكليف

وإظهار العبودية، والعمل في أرض الله بالإرادة الشرعية، وليس استخلاف الإنسان في الأرض نيابة عن الله في معنى من معاني الربوبية، أو تخويلا لغيره في إرادته الكونية.

وعلمنا أيضا أن الكون مر في نشأته بمرحلتين، المرحلة الأولى بقيت مدة من الزمان تتضاءل بجوارها حسابات الإنسان وهي الأيام الستة المذكورة في القرآن، فربما توازي اللحظات فيها سنوات وسنوات في حساباتنا، وهذا لا يجعلنا في غرابة من طول الزمان الذي يذكره العلماء الآن في تقدير عمر الكون بأكثر من عشرة آلاف مليون سنة.

أما المرحلة الثانية فقد أعدت من أجل الإنسان حيث ابتلاه ربه بمن حوله من المخلوقات، فكان ابتلاؤه بالكائنات على نوعين، نوع شارك معه في قضية الأمانة وهى السماوات والأرض والجبال، والنوع الثاني من سبقه في الوجود ولم تعرض عليه الأمانة وهم الملائكة وإبليس، ابتلاه بهم من خلال امتحانهم في موقفهم من خلافته، ثم جعل الملائكة بعد سجودها مدبرات للكون من أجله بعدله، وأذن للشيطان بالانتظار والوسواس كابتلاء للإنسان. ويمكن القول في نهاية الأمر إن التفسير القرآني النبوي لنشأة الكون وعلاقته بوجود الإنسان يعد تفسيرا فريدا من نوعه يتوافق مع العقل والفطرة ومعطيات العلم الحديث، ويجعل القلب السليم يخشع تجاه قدرة الله وحكمته وإبداعه وعظمته.